

حزب الأئمة في غاية الأرباب

تأليف العالم الأديب

الشيخ تقي الدين أبي بكر علي
المعروف بابن حجة الجموي
رحمه الله

شرح

عصام سعيد

الجزء الأول

منشورات

دار وكتبة الهدى

بيروت - لبنان

حقوق هذه الطبعة محفوظة

للمنشر
الطبعة الأولى

١٩٨٧

بيروت - بئر العبد - شارع مركز بناية برج الضاحية

ملك دار الهلال تلفون ٨٣٦٩٨١ - ٤٦٣٥٥٧

ص.ب. ١٥/٥٠٠٣ بوقياً مكنتلال



خزائن الآداب

تمهيد وتقديم

بسم الله الرحمن الرحيم، رب اليراع والرقيم، والحمد لله رب العالمين الذي لا تنفك نستهدي به ونستعين، حمداً يبلغ غاية رضاه، ويعجز الكل عن إدراك كنهه ومداه. والصلاة والسلام على هادي الأدياء ومعلم الفصحاء والبلغاء، محمد ﷺ رسول الله وخاتم الأنبياء، وعلى آله المطهرين النجباء، كلما سال مداد على طرس، وأشرقت على بني الغبراء شمس، وبعد.

إعلم، هداك الله، أن أهم العلوم على مدار الزمان، باعتراف علماء أهل الملل والأديان، هو ذلك العلم الذي يسعى إلى اكتشاف هذا الكون وفهمه وتفسيره، ومن ثم تسخيرها في سبيل سعادة الإنسانية وخيرها، والسير بها في مدارج الكمال. وأن كل ما عدا ذلك وانحرف عن هذا الهدف من العلوم، إنما هو سفسطة ومضيعة للوقت، ومجلبة للزهو والعجب، بل هو حجر عثرة في طريق تقدم بني البشر وسعادتهم ورفيهم.

ورأس العلوم ما يوصل إلى معرفة خالق هذا الكون، عن طريق تعلم القرآن وفهمه، لأنه كتاب الله المعجز الذي يدل على مبدعه، ويوقف المرء على نواحيه وأوامره، إذ هو الخبير بما يصلح مخلوقاته ويسعدهم في رحلتهم الدنيوية، وينجيهم من العذابات الأخروية.

واعلم أن هذا العلم هو علم البلاغة التي تبدأ بمعرفة الفصاحة، أو معرفة اللغة والتبحر فيها، إذ هي لغة القرآن ووعاء الفكر، ومن ثم معرفة الأساليب التي يعبر بها أصحاب هذه اللغة عن أفكارهم وما تنطوي عليه صدورهم.

والفصاحة والبلاغة، في نظرنا وفي نظر الكثيرين، هي أولى العلوم بالتعلم، وأحقها

بالتحفظ، إذ لا يجوز الإخلال بها ما دام الهدف الذي تسعى إليه هو غاية الغايات، فليس بعد معرفة الله سبحانه وتعالى حكمة.

كما أن للفصاحة والبلاغة فضائل أخرى مشهورة، ومناقب لا تخفى معروفة، ومنها كما يذكر أبو هلال العسكري^(١): «أن من لا يتقنها لا يمكنه التفريق بين جيد الكلام ورديثه، أو بين حسن اللفظ وقبيحه، ولا بين نادر الشعر وبارده، فيظهر بذلك جهله ونقصه.

«إذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشئ رسالة - وقد فاته هذا العلم - مزج الصفو بالكدر، وخلط الغرر بالعرر^(٢)، واستعمل الوحشي العكر، فجعل نفسه مهزأة للجاهل.

«وإذا أراد أيضاً تصنيف كلام مشور، أو تأليف شعر منظوم، وتخطى هذا العلم، ساء اختياره له، وقبحت آثاره فيه، فأخذ الرديء المرذول، وترك الجيد المقبول... وقد قيل: اختيار الرجل وافد عقله»^(٣).

تطور علم البديع حتى عصر ابن حجة:

كان علم البديع في بداياته، سليقة لدى الكتاب والأدباء العرب، ولم يكونوا يعرفونه بهذا الإسم، وإنما كانوا يطبقونه في ما ينشئونه أيام جاهليتهم. أيام كانوا يجتمعون في الأسواق والأندية الأدبية، أمثال المربرد وعكاظ وغيرهما، يتناشدون الأشعار أمام زهير والنابعة الذيباني ليحكمما على جودتها أو رداءتها، حسب رؤيتهما لها بمنظار هذا العلم، وإن لم يكونا قد عرفاه بعد، كعلم مستقل له حدوده ومصطلحاته الخاصة به.

وظل علم البديع، كغيره من العلوم، يتطور ويتوضح، حتى صار علماً قائماً بذاته، يعرف اليوم بعلم البلاغة التي تشمل ما نعرفه اليوم من علم المعاني وعلمي البديع والبيان.

ولا يفوتنا أن نذكر أن علوم البلاغة هذه، مرت قبل أن تتوضح حدودها وتقر مصطلحاتها، بمرحلة كانت فيها تعرف بما سمي «علم البديع»، الذي هو أحدها، وأن أصولها تضرب - كما قلنا - إلى العصر الجاهلي، وأن أول من حاول وضع مصطلحات

(١) أبو هلال العسكري، من كتاب الصناعتين، نقلاً عن الدكتور عبد العزيز عتيق: علم البديع، ط ١

بيروت، دار النهضة ١٩٧٤ م.

(٢) الغرر: أول الكلام وأحسنه. والعرر: سقط الكلام ورديثه.

(٣) وافد عقله: دليل على عقله.

بديعية هو الشاعر العباسي مسلم بن الوليد، المعروف بصريع الغواني، الذي «وضع مصطلحات لبعض الصور البيانية والمحسنات اللفظية والمعنوية، من مثل الجنس والطباق».

ونذكر أن أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ توسع قليلاً في ذكر البديع، دون أن يضع، في كتابه «البيان والتبيين» تعريفات أو مصطلحات، بل بقي البديع عنده يعني الصور والمحسنات اللفظية والمعنوية معاً.

وتبدأ علوم البلاغة بالاستقلال، بعضها عن البعض الآخر، أيام الخليفة ابن المعتز الذي أُلّف «كتاب البديع» فكان، بحق، مؤسساً لما يعرف اليوم بهذا الإسم.

وجاء بعده قدامة بن جعفر، في كتابه «نقد الشعر» ليزيد علم البديع توضيحاً، وليضيف إلى مصطلحاته وفنونه جديداً، فيلتقي مع ابن المعتز في خمسة محسنات بديعية، كان هذا الأخير قد عرفها، مع اختلاف في التسمية، ويزيد قدامة إليها تسعة محسنات جديدة لم يذكرها ابن المعتز.

وبعد قدامة، نلتقي بأبي هلال العسكري، في كتابه «الصناعتين» (الشعر والنثر) الذي عقد فيه باباً خاصاً «لشرح البديع والإبانة عن وجوهه وحصر أبوابه وفنونه».

وإذا كان ابن المعتز قد توصل إلى معرفة ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع، زاد عليها قدامة تسعة أنواع، فإن أبا هلال العسكري قد بلغ بها واحداً وأربعين نوعاً، أي بزيادة أربعة عشر نوعاً على ما كان عرف قبله.

وفي القرن الخامس الهجري، تزداد علوم البلاغة استقلالاً وتحديداً، إذ يبدو، من خلال بعض المؤلفات في هذا القرن، أنه بدأ يستقر في الأذهان أن البيان شيء، والبديع شيء آخر.

فقد أورد ابن رشيق القيرواني، في كتابه الشهير «العمدة» أبواباً خاصة لمباحث علم البيان، وأخرى تهتم بدراسة علم البديع. وقد ذكر فيه تسعة وعشرين نوعاً من أنواع البديع، منها تسعة أبواب لم يسبقه إليها غيره ممن تقدموه في هذا المضمار. وبذلك يصبح عدد الأنواع البديعية المعروفة إلى أيامه، خمسين نوعاً.

ويعتبر عبد القاهر الجرجاني، في هذا القرن (الخامس الهجري) واضع علم المعاني، في كتابه «دلائل الإعجاز». كما أنه يعد منظر علم البيان، في كتابه «أسرار البلاغة» دون أن يحاول وضع نظرية لعلم البديع؛ وإن كان قد تكلم عن أنواع منه، بقدر اتصالها بعلم البيان فقط.

أما في القرن السادس الهجري، فنلتقي بالزمخشري والوطواط وبأسامة بن منقذ.
فقد أكمل الزمخشري، في تفسيره «الكشاف» ما بدأه الجرجاني، بإضافات جديدة
بثها في ثنايا كتابه.

أما الوطواط فقد حاول تطبيق قواعد البلاغة العربية على الأدب الفارسي، في حين
ألّف ابن منقذ كتاب «البدیع في نقد الشعر».

ويحمل الراية، بعد هؤلاء، نفر من علماء القرن السابع الهجري الأفاضل، منهم:
الرازي والسكاكي وضياء الدين ابن الأثير والنيفاشي المغربي وزكي الدين بن أبي الأصبع
المصري وعلي بن عثمان الأربلي وبدر الدين بن مالك.

وقد أولى هؤلاء علم البديع عناية خاصة، في ما ألفوه من كتب وتصانيف.

وإذا ما انتقلنا إلى القرنين الثامن والتاسع الهجريين، نجد أنهما قد امتازا بإيلاء
العلماء والشعراء والأدباء علم البديع عناية ما بعدها عناية، إن لم نقل إنهم تفرغوا له،
وجفت قرائحهم إلا منه.

وتميز بعض الشعراء والأدباء، في هذين القرنين، بنظم «البديعيات» التي تعتبر،
بحق، دراسات في هذا المجال تكاد لا تعدوه. ومن هؤلاء: يحيى بن حمزة العلوي،
صاحب كتاب «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز»، والتنوخي، محمد
ابن عمرو، صاحب كتاب «الأقصى القريب في علم البيان»، وابن قيم الجوزية صاحب
كتاب «الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلوم البيان»، وصفي الدين الحلبي الشاعر
المشهور، صاحب البديعية الشهيرة التي تبلغ مائة وخمسة وأربعين بيتاً من الشعر، قالها
الحلبي في مدح النبي محمد ﷺ ومطلعها:

إن جئت سلماً فسل عن جيرة العلم وأقر السلام على عربٍ بذى سلم
ثم ابن جابر الأندلسي الضرير، صاحب البديعية المسماة «الحلة السيرا في مدح
خير الورى»، وهي في مائة وسبعة وعشرين بيتاً بدأها بقوله:

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم وانثر له المدح وانشر طيب الكلم
وقد سرد فيها ابن جابر المحسنات البديعية حسب ما أورده الخطيب القزويني.

ونلتقي قبل أن نصل إلى القرن التاسع الهجري، بعز الدين، علي بن الحسين
الموصللي، صاحب البديعية التي عارض فيها بديعية الصفي الحلبي، وزاد عليه فيها، بأن
ذكر في كل بيت منها لفظة تدل على اسم النوع البديعي الذي استخدمه فيه.

وقد نظم الموصلي بديعته في مدح النبي محمد ﷺ في مائة وأربعين بيتاً استهلها بقوله:

براعة تستهل الدمع في العلم عبارة عن نداء المفرد العلم
وإذا ما وصلنا إلى القرن التاسع الهجري، يطالعنا أديبنا البارع ابن حجة، صاحب
هذا الكتاب الذي بين أيدينا، والذي نظم بديعية في مدح الرسول الكريم، وعدّ فيها من
أنواع البديع مائة واثنين وأربعين نوعاً، استهلها ببراعة الاستهلال قائلاً:

لي في ابتداء مدحك يا عرّب ذي سلم براعة تستهل الدمع في العلم

التعريف بخزانة الأدب وعملنا فيه:

«خزانة الأدب» في الأصل، وكما يذكر صاحبه في مقدمته له، هو شرح لبديعته
الأنفة الذكر، والتي أنشأها كما يذكر هو «برسم من محمد بن البارزي الجهني الشافعي»
صاحب ديوان الإنشاء بالممالك الإسلامية، وقد حذا فيها حذو «طرز البردة» بعد أن وقف
محمد بن البارزي على بديعية الشيخ عز الدين الموصلي التي التزم فيها تسمية النوع
البديعي، وورى فيها من جنس الغزل، ليميز بذلك على الشيخ صفي الدين الحلبي،
الذي لم يلتزم ذلك في بديعته.

وقد سمى ابن حجة بديعته تلك «تقديم أبي بكر» وحاول فيها أن ينسج على منوال
عز الدين الموصلي، في تضمين الأبيات ألفاظاً يشير بها إلى الأنواع البديعية التي بلغ بها
مائة واثنين وأربعين نوعاً، دون تمييز بين البديع وغيره من علوم البلاغة، محاولاً أيضاً أن
يجاري صفي الدين الحلبي في رقة الشعر وجمال النظم والسلاسة.

ثم إنه، أعني ابن حجة، وضع هذا الشرح المطول لبديعته، وأسماه «خزانة الأدب
وغاية الأرب» فكان أكثر أهمية وفائدة من البديعية ذاتها، إذ جاء كما يدل عليه اسمه،
خزانة للأدب مليئة بدرر علومه وجواهر معارفه، وغاية ما يحتاجه المتأدب.

و«خزانة الأدب» أشبه بالموسوعات الأدبية التي تجمع فنون الأدب المختلفة: من
اللغة والبلاغة والنقد والتاريخ والتراجم، ومنثور الكلام ومنظومه، حتى المواليا^(١)
والأزجال، لكثرة ما يورده صاحبه فيه من الشواهد والأمثلة والاستطرادات، وأحياناً النكت

(١) المواليا: نوع من النظم العامي من البحر البسيط إشتهر في العصر العباسي.

والمساجلات الأدبية. ولا نبالغ إذا قلنا إنه مرجع أدبي خاص، للعصرين: المملوكي والأيوبي، بل هو مرجع أدبي عام.

لذلك رأينا أن نولي ما يستحقه من الاهتمام، تسهياً للاستفادة منه، فقمنا بشرحه والتعليق عليه، وتخريج الآيات القرآنية الواردة فيه، وتحريره بضبطه، وتعيين بداية الفقرات ووضع النقاط والفواصل، وترجمنا لصاحبه ومن ثم أشرفنا على طباعته، وقمنا بتصحيحه، حتى خرج بهذه الحلة، والله ولي التوفيق.

ملاحظات حول الكتاب:

من شروط البديعيات التي كان متعارفاً عليها، أن يلتزم ناظموها بأن يكون كل بيت منها شاهداً على نوعه بمجرد، ليس له تعلق بما قبله ولا بما بعده. ومن هذه الزاوية وبناءً لهذا الشرط، ولغيره من الشروط البديعية والبيانية، يقارن ابن حجة بين بديعته وبديعية صفى الدين الحلبي، وبديعية عز الدين الموصلي، وبديعية العميان فيقول: «أما براعة بديعيتي... فإني جمعت فيها بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء، بالشرط المقرر لكل منهما، وأبرزت تسمية نوعها البديعي في أحسن قوالب التورية، وشنفت^(١) بأقراط غزلها الأسماع، مع حشمة الألفاظ وعدوبتها، وعدم تجافي جنوبها عن مضاجع الرقة. وبديعية صفى الدين الحلبي، غزلها لا يُنكر، غير أنه لم يلتزم فيها بتسمية النوع البديعي... ولو التزمه لتجافت عليه تلك الرقة. وأما الشيخ عز الدين الموصلي، فإنه لما التزم ذلك نحت من الجبال بيوتاً».

وإذا نحن نظرنا إلى الكتاب من هذه الزاوية، فإننا نلاحظ فعلاً، شدة مراعاة ابن حجة لهذا الشرط، وعدّه عدم الأخذ به عيباً وقع فيه البعض ممن نظموا البديعيات غيره.

وأول ما يمكن أن نلاحظه على ابن حجة في «خزانة الأدب» أنه لم يتورّع عن ذكر الأشعار التي فيها الكثير من الفحش، الذي يجدر بأرباب الأدب أن يربأوا بأنفسهم عن ذكره أو التلفظ به. خاصة وأنه كان باستطاعة ابن حجة الابتعاد عن مثل هذا الشعر الفاحش، لأنه إنما أورده في مجال التمثيل على الأنواع البديعية. وكان يمكن أن يوجد له عذر في إيراد، لولا أن بعض أمثله، وهو قصيدة لابن الفارض، بلغ أربعة وستين بيتاً، مما لا يعقل معه أن يسمى مثلاً؛ أما وقد ظهر تعمدته في إيراد فاحش الشعر، فلا عذر له عندنا.

(١) شَفَّ: حلّى وزَيَّن.

ومما يلفت النظر في «الخرزاة» أيضاً ما نراه من الإطالة في الشرح. والتي قد تصل إلى حد الملل أحياناً، وإن كان ابن حجة أيضاً يتحاشى الوقوع فيها فيقول: «ولولا الإطالة لأفعمت الأذواق من هذا السكر النباتي». وإن كان يبرر تطويله بمثل قوله: «فإن الشرح قد طال، ولم أطله إلا ليزداد الطالب إيضاحاً، ويداوي علل فهمه بحكم المتقدمين، ويتنزه في رياض الأدب على النبات الغض من نظم المتأخرين».

فإذا عرفنا أن الكتاب يحتوي مائة واثنين وأربعين نوعاً من أنواع البديع، وأن شرحه لنوع واحد، هو التورية، استغرق أكثر من ربع الكتاب، عرفنا مدى ما وصلت إليه الإطالة والاستطراد عند ابن حجة في «خزائنه».

بعد الإطالة والاستطراد، يطالعنا ابن حجة في كتابه بال تكرار، فنراه يكرر البيت أو الأبيات أكثر من مرة، ربما حسب ما يقتضيه الاستشهاد على النوع البديعي بأبيات يمكن الاستشهاد بها على أنواع أخرى. وأكثر ما يبرز هذا التكرار في إيراده لما أخذه جمال الدين بن نباتة عن علاء الدين الوداعي.

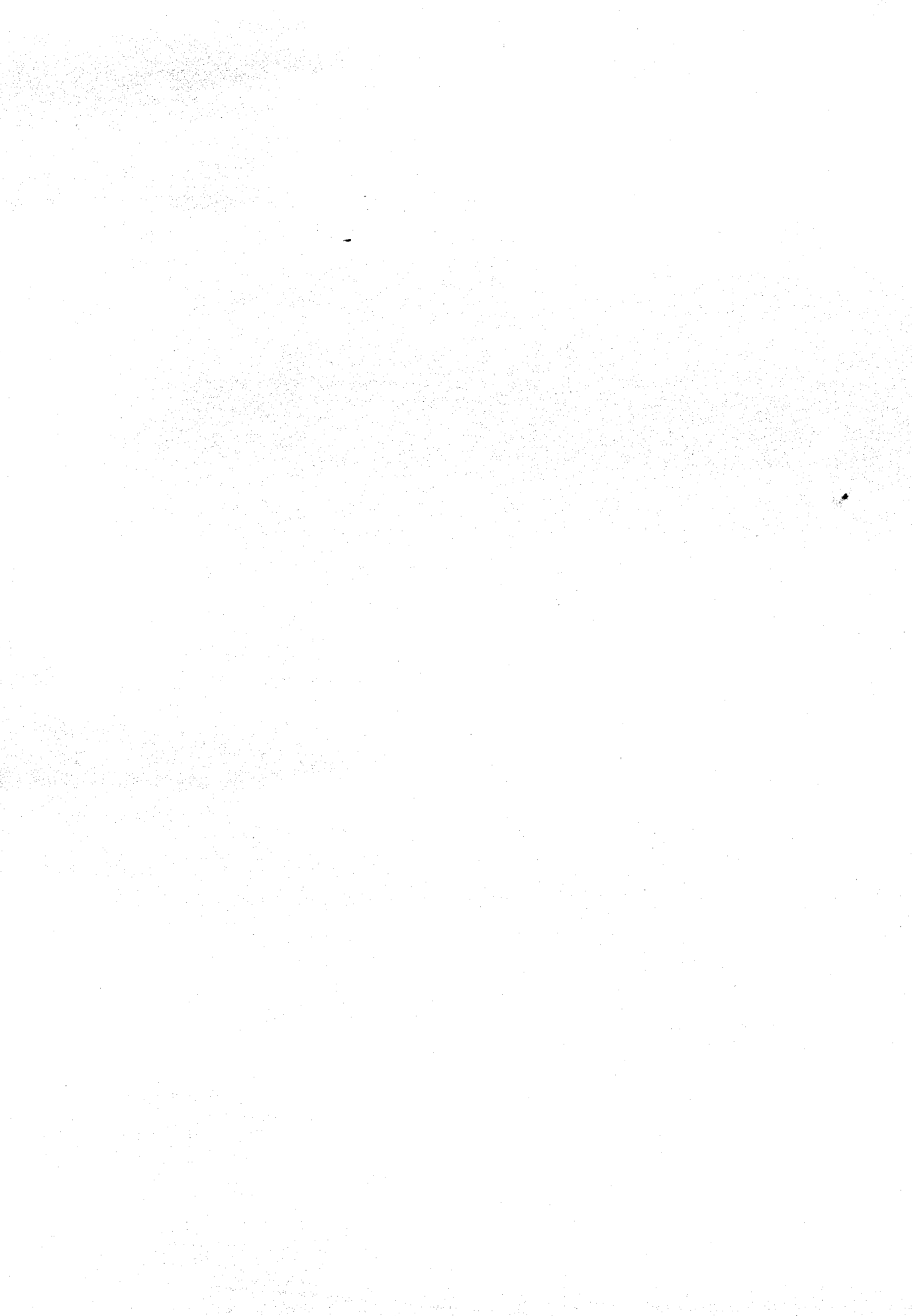
ورغم أن ابن حجة يبدو من خلال «خزانة الأدب» واسع الاطلاع، مع ما تقتضيه هذه الصفة من صقل ملكة النقد الأدبي عنده، فإنه يبدو ناقداً تعوزه الدقة ووضوح المقياس النقدي.

فقد نراه، في أحيان كثيرة، يطلق أحكاماً تنهسها الدقة والضوابية، أو دون تحليل في كثير من الأحيان، وإن كانت له في أحيان أخرى، أحكام نقدية معللة لا تجانب الصواب؛ فإن له أيضاً أحكاماً خاطئة، وأخرى يتابع فيها غيره، دون روية أو أعمال فكر.

فهو في معرض تعليقه على استهلال محيي الدين بن عبد الظاهر، كاتب الملك الظاهر إلى الأمير سنقر الفارقاني، يقول: «الله أكبر! إن من البلاغة لسحراً، والله ما أظن هذا الاتفاق الغريب اتفق لناثر». دون أن يذكر ابن حجة سبب إعجابه وهيامه بهذا الاستهلال.

وكذلك نراه يفعل عندما يستحسن قول آخر. إذ يقول: «سبحان المانح! هذا الأديب الذي لم ينسج الأوائل على منواله. ولا تتعلق الأفاضل من المتأخرين بغبار أذياله».

أو نراه يقول: «سبحان المانح! والله من لا يتعلم الأدب من هنا فهو من المحجوبين عن إدراكه». لماذا؟ وما هو المقياس؟ فإن ابن حجة لا يفصح عن شيء من ذلك.



التعريف بالكاتب^(١)

حياته وعمله:

هو الشيخ تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله الحموي الأزرازي، المعروف بابن حجة، وضبطه بكسر المهملة. وقد غلط الدكتور عبد العزيز عتيق، حين ضبطه بفتحها^(٢). ولد في حماه سنة سبع وستين وسبعماية للهجرة، وقيل: سنة سبع وسبعين وسبعماية للهجرة^(٣). والمرجح لدينا أن تكون ولادته سنة ثمانية وستين وسبعماية، لقوله، عام ثمانية عشر وثمانماية للهجرة:

إن جاء نظمي قاصراً عن وصفه عذراً فهذي نشطة الخمسين
كان من أعلام القرن التاسع الهجري، وذكر أنه كان رئيس الأدباء وإمام أهل الأدب في عصره. فقد سئل الحافظ ابن حجر: من شاعر العصر؟ فقال: الشيخ تقي الدين ابن حجة. وهو زجال، وشاعر جيد الإنشاء، طويل النفس في النظم والشر، حسن الأخلاق والمروءة، فيه شيء من الزهو والإعجاب.

عاني، في صباه، عمل الحرير وعقد الأزرار صناعة له، فنسب إليها.

تتلمذ في صباه، على العلامة الشيخ شمس الدين الهيتي الحسيني النجوي، وعلى قاضي القضاة في حماة، تقي الدين بن الحسيني الحنفي، كما تتلمذ على قاضي القضاة، علاء الدين بن القضاة.

عاش في العصر المملوكي، وعاصر الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي،

(١) أنظر ترجمته في: كشف الظنون لملا جلبي، والضوء اللامع للسخاوي، وشذرات الذهب لابن عماد

الحنبلي، وإعجام الأعلام لمحمود مصطفى، والأعلام للزركلي، وفي النجوم الزاهرة.

(٢) د عبد العزيز عتيق، علم البيان، بيروت، دار النهضة، ط ١٩٧٤، ص ٥٦.

(٣) شذرات الذهب، ولم يذكر هذا التاريخ غيره ممن أرخ للمؤلف.

واتصل بخدمة المحمودي، أمير دمشق، ثم قدم بصحبته هاربا من طرابلس الشام، إلى القاهرة، بعد أن عضته حرب الثغور بأنيابها، ووصل إليها سنة اثنتين وثمانماية للهجرة، وبقي فيها حتى توفي الملك المؤيد، حيث تسلط عليه، بعده، جماعة من شعراء عصره، لأنه كان ظنينا بنفسه وبشعره، مزريا بغيره من الشعراء، فراحوا يقذعون في هجائه، حتى أن أحدهم قال فيه:

زاد ابن حجة بالإسهال من فمه وصار يسبح منشورا ومنظوما
وظن أن قد تنبا في ترسله لو صح ذلك قطعاً كان معصوما

وما زالوا به يضايقونه، حتى خرج من مصر، عائداً إلى مسقط رأسه حماة، حيث مات فيها سنة سبع وثلاثين وثمانماية للهجرة، ودفن في تربة باب الجسر.

مؤلفاته:

لابن حجة مجموعة لا بأس بها من المؤلفات، إن دلت على شيء فإنما تدل على سعة اطلاعه وغزارة إنتاجه، وعلى طول باعه في النظم والتأليف.

وقد عدّ له صاحب الأعلام الكثير من المؤلفات، منها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط، نذكر منها:

– خزانة الأدب وغاية الأرب، وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وهو عبارة عن شرح المؤلف للبديعية التي كان أنشأها في مدح الرسول الكريم، معارضاً فيها كلاً من الشيخ صفي الدين الحلبي والشيخ عز الدين الموصلي، ملتزماً فيها بذكر النوع البديعي، وقد طبع طبعة أولى وهذه هي طبعته الثانية.

– ثمرات الأوراق، وهو عبارة عن مجموعة محاضرات، (مطبوع).

– كشف اللثام عن التورية والاستخدام.

– حديقة زهير (مطبوع).

– قهوة الإنشاء، في مجلدين ضخمين (مخطوط).

– بروق الغيث أو شرح لامية العجم.

– بلوغ المرام من سيرة ابن هشام (مخطوط).

– بلوغ المراد من الحيوان والنبات والجماد.

– الثمرات الشهية من الفواكه الحموية، وهو من النظم (مخطوط).

– تأهيل الغريب (مطبوع).

– أمان الخائفين من أمة سيد المرسلين.

– كما وله ديوان شعر بديع.

مقدمة الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله البديع الرفيع، الذي أحسن ابتداء خلقنا بصنعته، وأولانا جميل الصنيع فاستهلت الأصوات ببراعة توحيده وهو البصير السميع، أدب نبينا محمداً ﷺ فأحسن تأديبه حتى أرشدنا، جزاه الله عنا خيراً إلى سلوك الأدب وأوضح لنا بديعه وغريبه. نحمده حمداً يحسن به التخلص من غزل الشهوة إلى حسن الختام، ونشكره شكر من شعر ببديع صفاته فأحسن النظم، وأعوذ بالله من قوم لا يشعرون بهذا النظام، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة شاعر بأنه الواحد، وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله، المبعوث من بيت عربي، فصاحته على الأعراب والإعراب أعظم شاهد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، الذين هم نظام هذا البيت الشريف ودوائر بحره وأنواع بديعه وديباج صدره، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد: فهذه البديعية التي نسجتها بمدحه ﷺ، على منوال طرز البردة، [و] كان مولانا المقر الأشرف العالي المولوي القاضوي المخدومي الناصري، سيدي محمد بن البارزي الجهني الشافعي، صاحب ديوان الإنشاء، الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة، جمل الله الوجود بوجوده، هو الذي ثقف لي هذه الصعدة وحلب لي ضرعها الحافل، لحصول هذه الزبدة. وما ذاك إلا أنه وقف بدمشق المحروسة على قصيدة بديعية للشيخ عز الدين الموصلبي رحمه الله تعالى، التزم فيها بتسمية النوع البديعي، وورى بها من جنس الغزل، ليميز بذلك على الشيخ صفي الدين الحلبي تغمده الله تعالى برحمته، لأنه ما التزم في بديعيته بحمل هذا العبء الثقيل غير أن الشيخ عز الدين ما أعرب عن بناء بيوت أذن الله أن ترفع، ولا طالت يده لإبهام العقادة إلى شيء من إشارات ابن أبي

الأصعب، وربما رضي، في الغالب، بتسمية النوع ولم يعرب عن المسمى، ونثر شمل الألفاظ والمعاني، لشدة ما عقده نظاماً.

فيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

فاستخار الله مولانا الناصري، المشار إليه، ورسم لي بنظم قصيدة أطرز حلتها بيديع هذا الالتزام، وأجاري الحلبي برقة السحر الحلال، الذي ينفث في عقد الأقلام، فصرت أشيد البيت فيرسم لي بهدمه.

وخراب البيوت، في هذا البناء صعب على الناس، ويقول: بيت الصفي أصفى مورداً، وأنور اقتباساً. فأسن كل ما حده الفكر؛ وأراجعه ببيت له على المناظرة طاقة، فيحكم لي بالسبق وينقلني إلى غيره، وقد صار لي فكرة إلى الغايات سبابة. فجاءت بديعية هدمت بها ما نخته الموصلي، في بيوته من الجبال، وجاريت الصفي^(١) مقيداً بتسمية النوع، وهو من ذلك محلول العقال، وسميتها: تقديم أبي بكر، عالماً أنه لا يسمع من الحلبي والموصلي في هذا التقديم مقال.

وكان المشار إليه، عظم الله شأنه، هو الذي مشى أمامي وأشار إلى هذا السلوك وأرشد، فاقتديت برأيه، وهل يقتدي أبو بكر بغير محمد؟



(١) يقصد صفي الدين الحلبي.

في حسن الابتداء وبراعة الاستهلال

حسن الابتداء عند المتقدمين :

لي في ابتداء مدحك يا عرب ذي سلم براعة تستهل الدمع في العلم اعلم أنه اتفق علماء البديع، على أن براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلة^(١) المعاني واضحة في استهلالها، وأن لا يتجافى بجنوب الألفاظ عن مضاجع الرقة، وأن يكون التشبيب بنسيبها مرقصاً عند السماع، وطرق السهولة متكفلة لها بالسلامة من تجشم الحزن^(٢) ومطلعها، مع اجتناب الحشو، ليس له تعلق بما بعده. وشرطوا أن يجتهد الناظم في تناسب قسميه، بحيث لا يكون شطره الأول أجنياً من شطره الثاني.

وقد سمي ابن المعتز براعة الاستهلال، حسن الابتداء، وفي هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع، وإن أخل الناظم بهذه الشروط لم يأت بشيء من حسن الابتداء، وأورد في هذا الباب قول النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب^(٣)

قال زكي الدين بن أبي الأصبع: لعمرى لقد أحسن ابن المعتز الاختيار، فإني أظنه نظر بين هذا الابتداء وبين ابتداء امرئ القيس، حيث قال:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(٤)

(١) أهلة المعاني: بداياتها.

(٢) الحزن: من الأرض الوعر، ومن الكلام الغريب المعقد.

(٣) ناصب: متعب.

(٤) سقط اللوى الدخول وحومل: أسماء أماكن في الصحراء.

فرأى ابتداء امرئ القيس، على تقدّمه وكثرة معانيه، متفاوت القسمين جداً لأن صدر البيت جمع بين عذوبة اللفظ وسهولة السبك وكثرة المعاني، وليس في الشطر الثاني شيء من ذلك. وعلى هذا التقدير مطلع النابغة أفضل، من جهة ملائمة ألفاظه وتناسب قسميه، وإن كان مطلع امرئ القيس أكثر معاني، وما عظم ابتداء امرئ القيس في النفوس، إلا الاقتصار على سماع صدر البيت؛ فإنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في شطر بيت، وإذا تأمل الناقد البيت بكماله، ظهر له تفاوت القسمين. وقال، أعني ابن أبي الأصبع: إذا وصلت إلى قول البحترى، من هذا الباب، وصلت إلى غاية لا تدرك، وهو قوله:

بوذي لو يهوى العذول ويعشقُ
ليعلم أسباب الهوى كيف تعلق
انتهى كلام زكي الدين بن أبي الأصبع.

ولقد أحسن أبو الطيب المتنبي حيث قال:

أتراها لكثرة العشاق
تحسب الدمع خلقة في المآقي
ومثله قوله، (أي قول حبيب):

حشاشة نفس ودّعت يوم ودعوا
فلم أدِرِ أي الظاعنين أشيع^(١)
وما أطف قول أبي تمام في هذا الباب:

لا أنت أنت ولا الديار ديار
خف الهوى وتقضت الأوطار^(٢)
ومثله قول أبي العلاء المعري:

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر
لعل بالجزع أعوانا على السهر
وقد خلب القلوب ابن المعتز في تناسب القسمين بقوله:

أخذت من شبابي الأيام
وتولى الصبا عليه السلام

(١) حشاشة النفس: بقيتها - الظاعنين الراحلين.

(٢) الأوطار: مفردها وطر وهي الحاجة.

وما أحلى ما ناسب ابن هانيء، قسمي مطلعته بالاستعارات الفائقة، حيث قال:

بسم الصباح لأعين الندماء وانشق جيب غلالة الظلماء^(١)

وقال الشريف أبو جعفر البياضي، يشير إلى الرفق بالإبل عند السرى^(٢)، وتلطف ما شاء في تناسب القسمين، حيث قال:

رفقاً بهن فما خلقن حديداً أو ما تراها أعظماً وجلودا

وهذه القصيدة، طريقها الغريب، لم يسلكها غيره، فإنه نسجها جميعها على هذا المنوال ومنها:

يفلين ناصية الفلا بمناسم وسم الوجا بدمائهن البيدا^(٣)
فكأنهن نثرن درأً بالخطا ونظمن منه بسيرهن عقودا

ومما يعذب في الذوق من هذا الباب قول ابن قاضي ميلة:

يزيد الهوى دمعي وقلبي المعنفُ ويحيي جفوني الوجدُ وهو المكلف

وقد نبه مشايخ البديع على يقظة الناظم في حسن الابتداء، فإنه أول شيء يقرع الأسماع ويتعين على ناظمه النظر في أحوال المخاطبين والممدوحين، وتفقد ما يكرهون سماعه ويتطيرون منه، ليتجنب ذكره، ويختار لأوقات المدح ما يناسبها. وخطاب الملوك في حسن الابتداء هو العمدة في حسن الأدب، فقد حكى أن أبا النجم الشاعر، دخل على هشام بن عبد الملك في مجلسه، فأنشده من نظمه:

صفراء قد كادت ولما تفعل كأنها في الأفق عين الأحول^(٤)

وهشام بن عبد الملك أحول، فأخرجه وأمر بحبسه.

وكذلك اتفق لجرير مع أبيه عبد الملك، فإنه دخل عليه وقد مدحه بقصيدة حائية أولها: «أتصحو أم فؤادك غير صاح». فقال له عبد الملك: بل فؤادك يا ابن الفاعلة.

(١) الجيب: من الثوب مكان إدخال الرأس منه - الغلالة: الثوب والستر.

(٢) السرى: السير ليلاً.

(٣) يفلين: يثلمن - الناصية: غرة الشيء وأوله وناصية الأرض وجهها - الفلا: الفلاة: وهي الأرض الواسعة - المناسم: مفردتها منسم وهو للإبل بمثابة القدم للإنسان - وسم: علم - الوجا: نوع من السير الذي يشقق المناسم.

(٤) هذا البيت في مدح هشام بن عبد الملك الأحول وهو في صفة الشمس قبيل الغروب.

ومن هذه الجهة بعينها عابوا على أبي الطيب المتنبي خطابه لممدوحه، في مطلع قصيدة حيث قال:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنيا أن يكنّ أمانياً

ومن مستقبحات الابتداء، قول البحري وقد أنشد يوسف بن محمد قصيدته التي أولها: «لك الويل من ليل تقاصر آخره» فقال: بل لك الويل والخزي، وأما قصة إسحق ابن إبراهيم الموصلي، في هذا الباب، فإني أنفعل وأخجل عند سماعها، وما ذاك إلا أنه دخل على المعتصم وقد فرغ من بناء قصره بالميدان، فشرع في إنشاء قصيدة نزل بمطلعها إلى الحضيض، وكان هو وحكاية الحال في طرفي نقيض، وهو:

يا دار غيرك البلا ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتصم من قبح هذا المطلع، وأمر بهدم القصر على الفور، فنعوذ بالله من آفة الغفلة، هذا مع يقظة إسحق وسير الركبان بحسن محاضرتة ومنادمته للخلفاء، ولكنه قد يخبو الزناد وقد يكبو الجواد، مع أنه قيل: إن أحسن ابتداء ابتدأ به مولد، قول إسحق الموصلي حيث قال:

هل إلى أن تنام عيني سبيل إن عهدي بالنوم عهد طويل

فانظر إلى هذا الأديب الحاذق المتيقظ، كيف استطردت به خيول السهو إلى أن خاطب المعتصم، في قصر رياحين تشييده غضة^(١) بخطاب الأطلال البالية، وانظر إلى حشمة أبي نواس كيف خاطب الدمن بخطاب تود القصور العالية أن تتحلى بعاره، مع بلوغه في تناسب القسمين الطرف الأقصى، حيث قال:

لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم^(٢)

وقصة ذي الرمة مع عبد الملك تقارب قصة إسحق مع المعتصم، فإنه دخل عليه يوماً فأمره بإنشاد شيء من شعره فأنشد قوله: «ما بال عينك منها الماء ينسكب». وكان بعين عبد الملك رمش فهي تدمع أبداً، فتوهم أنه خاطبه وعرض به، فقال له: ما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة. فمقتته وأمر بإخراجه.

(١) حديث البناء.

(٢) دمن: جمع مفردة دمنه، وهي أثار الناس وما سودوا - رسوم: جمع مفردة رسم وهو الأثر - أقوت: خربت.

حسن الابتداء عند المحدثين :

انتهى ما أوردته في حسن الابتداء للعرب والمولدين وفحول الشعراء، ونهت على حسنه وقبحه، ولكن جذبتني يا أبا العرب نسبة المتأخرين إلى أن أثبت، في هذا المحل، تشبيها ونسبها وأظهر، في شرح هذه البديعية الأهله، بديعها وغريبها ليعلم من تنزه في هذه الحدائق الزاهرة، ان ما ربيع الآخر من ربيع الأول بعيد، وأن لكل زمان بديعاً تمتع بلذة الجديد، وهنا بحث لطيف وهو أن الاستشهاد بكلام المولدين وغيرهم من المتأخرين ليس فيه نقص، لأن البديع أحد علوم الأدب الستة، وذلك أنك إذا نظرت في الكلام العربي، إما أن تبحث عن المعنى الذي وضع له اللفظ، وهو علم اللغة، وإما أن تبحث عن ذات اللفظ بحسب ما يعتريه، وهو علم التصريف، وإما أن تبحث عن المعنى الذي يفهم من الكلام المركب بحسب اختلاف أواخر الكلم، وهو علم العربية، وإما أن تبحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحسب الوضع اللغوي، وهو علم المعاني، وإما أن تبحث عن طرق دلالة الكلام إيضاحاً وخفاء بحسب الدلالة العقلية، وهو علم البيان، وإما أن تبحث عن وجوه تحسين الكلام، وهو علم البديع. فالعلوم الثلاثة الأول، يستشهد عليها بكلام العرب، نظماً ونثراً، لأن المعبر فيها ضبط ألفاظهم والعلوم الثلاثة الأخيرة يستشهد عليها بكلام العرب وغيرهم، لأنها راجعة إلى المعاني، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم، إذا كان الرجوع إلى العقل.

وقال أبو الفتح عثمان بن جني: المولدون يستشهد بهم في المعاني، كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ. قال ابن رشيق في العمدة: الذي ذكره أبو الفتح صحيح بين لأن المعاني اتسعت باتساع الناس في الدنيا وانتشار العرب بالإسلام في أقطار الأرض، فإنهم حضروا الحواضر، وتفننوا في المطاعم والملابس، وعرفوا بالعيان ما دلتهم عليه بدهاء عقولهم، من فضل التشبيه ونحوه، ومن هنا يحكى عن ابن الرومي أن لائماً لأمه وقال له: لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز، وأنت أشعر منه؟ فقال له: أنشدني شيئاً من قوله أعجز عن مثله، فأنشده في صفة الهلال:

فانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له ابن الرومي: زدني، فأنشده:

كأن أذريونها والشمس فيه كاليه^(١)
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

(١) الأذريون: نبات زهره أصفر أو أحمر ذهبي في وسطه حمل أسود - كاليه: مصفرة.

فقال: واغوثاه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ذاك إنما يصف ماعون^(١) بيته لأنه ابن الخلفاء، وأنا مشغول بالتصرف في الشعر وطلب الرزق به، أمدح هذا مرة وأهجو هذا كرة وأعاتب هذا تارة وأستعطف هذا طوراً. انتهى كلام ابن رشيق.

ورأيت الشيخ شمس الدين بن الصائغ، رحمه الله تعالى، قد استشهد في شرح البردة، الذي سماه بالرقم، بغالب أهل عصره، في ما عرض له من أنواع البديع، حتى أورد لهم شيئاً من محاسن الزجل.

رجع إلى ما كنا فيه، من حسن الابتداء وتناسب القسمين، وإيراد ما وعدنا به من كلام المتأخرين. قال قاضي هذه الصناعة وفاضلها والمتأخر الذي لم يتقدم عليه بغير الزمان أوائلها:

زار الصباح فكيف حالك يا دجى قم فاستدّم بفرعه أو فالنجنا

أنظر إلى حسن هذا الابتداء، كيف جمع، مع اجتناب الحشو، بين رقة النسيب وطرب التشبيب وتناسب القسمين وغرابة المعنى. ومثله قوله يخاطب العاذل:

أخرج حديثك من سمعي فما دخلا لا ترم بالقول سهماً ربما قتلا
وما ألطف ما قال بعده:

وما يخف على قلبي حديثك لي لا والذي خلق الإنسان والجبلا
ومثله قوله:

سمعتك والقلب لم يسمع فكم ذا تقول وكم لا أعني
وما ألطف ما قال بعده:

يقول وما عنده أنني بغير فؤاد ولا أضلع
أما مع هذا الفتى قلبه فقلت نعم يا فتى ما معي

وأما مطلع قصيدة ابن النبيه، فإن الأذواق السليمة تنتبه به إلى فتح هذا الباب،

وهو:

يا ساكني السفح كم عين بكم سفحت نزحتم فهي بعد الباب ما نزحت

(١) ماعون: إسم جامع لمنافع البيت مما جرت العادة بإعارته.

والقصيدة كلها تحف وطرف، وعارضها ابن نباتة، فما حلا معها مكرر نباته، وأجرى الصفي معها يتابع فكره، فما صفا له معها مورد، وجارها الصفي فتصفت (١) سوابق قوافيه عن لحاقها، ومنها:

وروضة وجنات الورد قد خجلت فيها ضحى وعيون النرجس انفتحت (٢)
تشاجر الطير في أفنانها سحراً ومالت القضب للتعنيق فاصطلحت (٣)
والقطر قدرش نوب الدوح حين رأى مجامر الزهر في أذياه نفحت (٤)
ومما يحسن نظامه في هذا السلك قوله:

رنا وانثنى كالسيف والصعدة السمرا فما أكثر القتلى وما أرخص الأسرى (٥)
ومما اختاره الشيخ جمال الدين بن نباتة، رحمه الله، من ديوان أبي الفتوح نصر الله ابن قلاقس، وهو حسن في هذا الباب، قوله:

كم مقلّة للشقيق الغض رمداً إنسانها سابح في بحر أنداء (٦)
وقوله: قفا واسألاً مني زفيراً وأدمعاً أكانا لهم إلا مصيفاً ومربعاً

وهو من الغايات التي اختارها الشيخ جمال الدين بن نباتة، من شعر ابن قلاقس، فإنه قال: طالعت ديوان الأديب البار، أبي الفتوح نصر الله بن قلاقس، فطالعت الفن الغريب وفتح عليّ بتأمل ألفاظه فتلوت: نصر من الله وفتح قريب. بيد أنني وجدت له حسنات تبهر العقول فضلاً وسيئات يكاد يذكرها ابن قلاقس يقلى (٧). انتهى كلام الشيخ جمال الدين بن نباتة.

ومما وقع في تناسب القسمين إلى الغاية، قول الشيخ ظهير الدين بن البارزي رحمه الله، وهو:

-
- (١) تصفدت: كُبلت بالأصفاً والقيود.
(٢) وجنات: جمع مفردة وجنة وهي كرسي الخد.
(٣) أفنان: جمع مفردة فن وهو الغصن - سحراً: أي وقت السحر قبيل الفجر.
(٤) مجامر: جمع مفردة مجمرة وهي وعاء يوضع فيه البخور.
(٥) رنا: نظر - انثنى: عاد ورجع - الصعدة: القناة المستوية التي لا تحتاج إلى تثقيف.
(٦) الشقيق: الأزهار المعروفة بشقائق النعمان، لونها أحمر قانٍ. والغض: الطري - رمداً: أصابها الرمذ وهو مرض يصيب العيون. إنسانها: إنسان العين: البؤبؤ.
(٧) يقلى: يُبغض ويُهجر.

يذكرني وجدي الحمام إذا غنى لأنا كلانا في الهوى يعشق الغصنا (١)
ذكر الصلاح الكتبي، في كتابه فوات الوفيات، أن الشيخ أثير الدين أبا حيان قال:
رأيت الشيخ المذكور صوفياً بحماسة المحروسة، وأنشدني لنفسه هذه القصيدة وعدة مقاطيع
منها:

أراك فاستحي فاطرقُ هية وأخفي الذي بي من هواك وأكتمُ
وهيات أن يخفي وأنت جعلتني جميعي لساناً في الهوى يتكلمُ
وتوفي بعد الثمانين والستمائة، وأما مطلع الشيخ شمس الدين بن العفيف في هذا
الباب، فظرافته لا تنكر، لأنه كان ينعت بالشاب الظريف، قال في شطره الأول:
* أعز الله أنصار العيون *

وفي الثاني:

«وخلد ملك هاتيك الجفون»

وما أظرف ما قال بعده:

وضاعف بالفتور لها اقتداراً وجدد نعمة الحسن المصون
وما أحسن ابتداءات الشيخ عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماة، فجميعها
نسجت على هذا المنوال، منها قوله:

حروف غرامي كلها حرف إغراء على أن سقمي بعض أفعال أسماء
وقوله: ويلاه من نومي المشرد أواه من شملي المبدد
وقوله: أهلاً بطيفكم وسهلاً لو كنت للإغفاء أهلاً

وما أحلى ما قال بعده:

لكنه وافى وقد حلف السهاد عليّ أن لا
وقد توارد هو وابن عنين في هذا المعنى، وكل كساه ديباجة تأخذ بمجامع القلوب،
ومطلع ابن عنين قوله:

ماذا على طيف الأعبة لو سرى وعليهم لو سامحوني بالكرى (٢)

(١) وجدي: شدة شوقي.

(٢) الكرى: الإغفاء دون النوم.

وقول مهيار الديلمي، في هذا الباب، مشهور والذي أقوله: إن الشيخ جمال الدين ابن نباتة نبات هذا البستان، وقلادة هذا العقيان، ومن مطالعه التي هي أبهج من مطالع الشمس قوله في هذا الباب:

في الريق سكرٌ وفي الأصداغ تجعيدُ
وقوله: بدا ورنت لواحظه دلالا
وقوله: سلبت عقلي بأحداق وأقداح
وما أطف ما قال بعده:

هذا المدام وهاتيك العناقيد
فما أبهى الغزالة والغزالا
يا ساجي الطرف بل ياساقي الراح^(١)

سكران من مقلة الساقى وقهوته
وقوله: إنسان عيني بتعجيل السهاد بلي
وقوله: قام يرنو بمقلة كحلاء
وقوله: نفس عن الحب ما حادت وما غفلت

وقد تقدم شروط، لا بد من اجتنابها في حسن الابتداء، منها الحشو، ولكن وقاك الله حشو اللوزينج^(٢).

وقوله: لأم العذار أطالت فيك تسهيدي كأنها لغرامي لام توكيد

ولولا الإطالة لأفعمت الأذواق من هذا السكر النباني.

ورأيت للشيخ صفي الدين الحلبي في «الأرتقيات» قصيدة قافية مطلعها في هذا الباب غاية، وهو قوله:

قفي ودعينا قبل وشك التفرق فما أنا من يحيا إلى حين نلتقي
وأنشدني من لفظه، الشيخ عز الدين الموصلي قصيدة نونية، نظمها بحماسة،
ومطلعها في حسن الابتداء حسن:

سمعنا حمام الدوح في روضة غنا فأذكرنا ربع الحبايب والمغنى
ولقد سهوت عن مطلع الشيخ علاء الدين علي بن المظفر الكندي، الشهير
بالوداعي، فإنه ليس له في تناسب القسمين قسيم وهو:

بدر إذا ما بدا محياه أقول ربي وربك الله

(١) أحداق: مفردة حدقة وهو السواد المستدير في العين - ساجي: فاتر وساكن، والطرف: العين.

(٢) اللوزينج: من الحلوى، شبيه القطايف يؤدم بدهن اللوز.

وعارضه الشيخ جمال الدين ابن نباته، في هذه القصيدة بعينها، وترقى إلى مطلع
بدره وزاحمه في حسنه فمطلع الشيخ جمال الدين:

له إذا غازلتك عيناه سهام لحظ أجارك الله

ومن مطالعي، التي حصل لي فيها الفتوح في هذا الباب، قولي:

طلعتم بدوراً في أعز المطالع
فبشرني قلبي بسعد طوالي (١)
وقولي: إغراء لحظك ما لي منه تحذير
ولا لتعريف وجدي فيك تنكير
وقولي: في عروض الجفا بحور دموعي
ما أفادت قلبي سوى التقطيع
وقولي: لله قوم لنظم الوصل قد نثروا
شعرت في حبهم يا ليتهم شعروا
وقولي: جردت سيف اللحظ عند تهددي
يا قاتلي فسلبتي بمنجرد (٢)
وقولي: هواي بسفح القاسمية والجسر
إذا هبَّ ذاك الريح فهو الهوى العذري

وكانني بمنتقد تألم قلبه على المتقدمين، بكثرة النقد، ومالت نفسه إليّ مع
المتأخرين ليستوفي الشروط الأدبية في مباشرة هذا العقد. وقولي:

قد مال غصن النقا عن صبه هيفاً
يا ليته بنسيم العتب لو عطفاً (٣)

فأقول وبالله المستعان إن جماعة من المخاديم بدمشق رسموا أن أعارض شيئاً من
نظم الشيخ جمال الدين بن نباته وتخيروا لي خمس قصائد منها قصيدته الكافية التي
مطلعها:

تصرمت الأيام دون وصالك
فمن شافعي في الحب يا ابنة مالك (٤)

فلما انتهيت إلى معارضتها وجدت، بين الشطر الثاني من المطلع وبين الشطر
الأول، مباينة، كما تقدم في مطلع امرئ القيس من الكلام على أن في شطره الأول ما
ليس في الثاني.

وقد اتفق علماء البديع على أن عدم تناسب القسمين نقص في حسن الابتداء، وقد
تقدم قول زكي الدين بن أبي الأصبع: إن مطلع النابغة أفضل من مطلع امرئ القيس،
لتناسب القسمين، وإن كان مطلع امرئ القيس أكثر معاني. انتهى ولو قال الشيخ جمال
الدين في مطلعته:

(١) طوالي: مفردا طالع وهو الحظ.

(٢) جرد السيف: أعده للمعركة - المنجرد: الذي تعرى من ثوبه.

(٣) هيفاً: طويلاً واستقامة. النقا: الكتيب من الرمل.

(٤) تصرمت: انقضت - الوصال: اللقاء.

تمذهبت في هجري بطول مطالك فممن شافعي في الحب يا ابنة مالك^(١)
لجمع بين تناسب القسمين .

ومطلعي الذي عارضت به الشيخ جمال الدين :

رضيع الهوى يشكو فظام وصالك فداوي بني الحب يا ابنة مالك
وكذلك من مطلع الشيخ صفي الدين الحلبي، في قصيدته الجيمية التي هي من
جملة القصائد الأرتقيات التي امتدح بها الملك المنصور صاحب ماردین :

جاءت لتنظر ما أبقت من المهج فعطرت سائر الأرجاء بالأرج^(٢)

فالشطر الثاني ليس من جنس الشطر الأول، فإن الشطر الأول في الطريق الغرامية
ليس له مثيل ومن أنكر هذا النقد، ينتظر في مطلع الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض
قدس الله سره، فإنه في هذا الباب طرفه، وهو:

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا القليل بلا إثم ولا حرج
وهنا نكتة لطيفة تؤيد هذا النقد.

اتفق أن الشيخ نور الدين علي بن سعيد الأندلسي الأديب المشهور الذي من نظمه
قوله :

وا طول شوقي إلى ثغور ملأى من الشهد الرحيق
عنها أخذت الذي تراه يعذب من شعري الرقيق

لما ورد إلى هذه البلاد، اجتمع بالصاحب بهاء الدين زهير، وتطفل على موائد
طريقته الغرامية، وسأله الإرشاد إلى سلوكها، فقال له: طالع ديوان الحاجري والتلعفري
وأكثر المطالعة فيهما وراجعي بعد ذلك، فغاب عنه مدة وأكثر من مطالعة الديوانين، إلى
أن جفظ غالبهما، ثم اجتمع به بعد ذلك وتذاكرا في الغراميات فأنشده الصاحب، بهاء
الدين زهير، في غضون المحاضرة: «يا بان وادي الأجرع»، وقال: أشتهي أن يكمل لي
هذا المطلع فافتكر قليلاً وقال: «سقيت غيث الأدمع»، فقال: والله حسن لكن الأقرب إلى
الطريق الغرامي أن تقول: «هل ملت من طرب معي»، وما أطف مطلع الحاجري في
هذا الطريق:

(١) مطالك: إخلالك الوعد.

(٢) الأرج: الزرائحة الطيبة.

لك أن تشوّقني إلى الأوطان وعليّ أن أبكي بدمع قان
والآراء على هذا النوع، تستحسن هنا مطلع ناصر الدين بن النقيب، فإنه أعدل
شاهد مقبول، والتشبيب بنفسه الطيب يغني، في هذه الحضرة، عن الموصول، وهو:
قلدت يوم البين جيد موّدعي درراً نظمت عقودها من أدمعي
وبالنسبة إلى حسن الابتداءات، مطلع الشيخ برهان الدين القيراطي مع حسنه
وبهجته، فيه نقص وهو:

قسماً بروضة خدّها ونباتها وبأسها المخضل في جنباتها^(١)
فإنه لم يأت بجواب القسم، ولا ما يحسن السكوت على مطلعته، ولا تتم الفائدة
إلا به. ومشايع البديع قرروا أن لا يكون المطلع متعلقاً بما بعده، في حسن الابتداء.
وقد آن أن أحبس عنان القلم، فإن الشرح قد طال، ولم أطله إلا ليزداد الطالب
إيضاحاً ويداوي علل فهمه بحكم المتقدمين، ويتنزه في رياض الأدب على النبات الغض
من نظم المتأخرين.

براعة الاستهلال في النظم

انتهى ما أوردته في حسن الابتداء وقد فرع المتأخرون منه براعة الاستهلال، في
النظم والنثر، وفيها زيادة على حسن الابتداء، فإنهم شرطوا في براعة الاستهلال، أن
يكون مطلع القصيدة دالاً على ما بنيت عليه، مشعراً بغرض الناظم، من غير تصريح بل
بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم، ويستدل بها على قصده، من عتب أو
عذر أو تنصل أو تهنئة أو مدح أو هجو، وكذلك في النثر، فإذا جمع الناظم بين حسن
الابتداء وبراعة الاستهلال كان من فرسان هذا الميدان، وإن لم يحصل له براعة
الاستهلال فليجتهد في سلوك ما يقوله في حسن الابتداء.

وما سمي هذا النوع براعة الاستهلال إلا لأن المتكلم يفهم غرضه من كلامه، عند
ابتداء رفع صوته به، ورفع الصوت في اللغة هو الاستهلال، يقال استهل المولود صارخاً،
إذا رفع صوته عند الولادة. وأهل الحجيج، إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية، وسمي الهلال
هلالاً، لأن الناس يرفعون أصواتهم عند رؤيته. ومما وقع من براعات الاستهلال التي

(١) الأس: شجر دائم الخضرة، بيضي الورق أبيض الزهر عطريه - المخضل: الندي.

تشعر بغرض الناظم وقصده في قصيده، براعة قصيدة الفقيه نجم الدين عمارة اليمني حيث قال:

إذا لم يسالمك الزمان فحارب وباعد إذا لم تتفع بالأقارب
فإشارات العتب والشكوى لا تخفى على أهل الذوق في هذه البراعة، ويفهم منها أن بقية القصيدة تعرب عن ذلك، فإن زكي الدين بن أبي الإصبع قال: براعة الاستهلال هي ابتداء المتكلم بمعنى ما يريد تكميله، وهذه القصيدة، في حكمها وتحشمها وتسيير أمثالها، نهاية، والموجب لنظمها على هذا النمط، أنه كان بينه وبين الكامل بن شارر صحبة أكيدة، قبل وزارة أبيه، فلما وزر استحال عليه فكتب إليه هذه القصيدة التي من جملتها:

ولا تحتقر كيداً صغيراً فربما ومنها: إذا كان رأس المال عمرك فاحترز
فبين اختلاف الليل والصبح معرك ومنها: وما راغني غدر الشباب لأنني
ومنها: إذا كان هذا الدر معدنه فمي رأيت رجالاً حالهم في مآدب
تأخرت لما قدمتمكم علاكم ترى أين كانوا في مواطني التي
ليالي أتلو ذكركم في مجالس ومن أطف البراعات وأحشمها، براعة مهيار الديلمي، فإنه بلغه أنه وشي به إلى

مددوحوه فتتصل من ذلك، بأطف عذر وأبرزه في معرض التغزل والنسيب، فقال:

أما وهواها حلفة وتنصلا وقد نقل الواشي إليك فامحلا^(٥)
وما أحلى ما قال بعده:

سعى جهده لكن تجاوز حدّه وكثر فارتابت ولو شاء قللا

(١) الراحة: باطن الكف أو جمعه. الواهب: المعطي الهبات.

(٢) مآدب: في فرح - نوادب: أي في حزن.

(٣) خاطب: طالب القرب.

(٤) الوري: الناس. وغمز الحواجب: تحريكها.

(٥) التتصل: التخلص والإنكار. الواشي: ناقل الأخبار - أمحلا: أي لم ينقل الحقيقة، كذب.

وأذكرني مهيار، بحسن براعته، ما كتبت به إلى سيدنا ومولانا قاضي القضاة، صدر الدين ملك المتأدبين، أبي الحسن علي بن الأدمي الحنفي، الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية والممالك الإسلامية، جمل الله الوجود بوجوده، من حماة المحروسة إلى أبوابه العالية بدمشق المحروسة، ورياحين الشبية غضة، وكانت مطالعاتي قد تأخرت عن أبوابه العالية لعارض حجب الفكر عن هذا الفن، وهي رسالة مشتملة على نظم ونثر، فصدرت الجواب بقصيدة ترفل في حلل النسيب، على طريق مهيار، وكلها براعة استهلال أولها:

وصلت ولكن بعد طول تشوّقي ودنت وقد رقت لقلبي الشيق
وما أحلى ما قلت بعده:

فتملت من طرب برجع حديثها فكأنما قد نادمت بمعتق^(١)
وجميعها على هذا الطريق البديعي ومثله.

إن المقر المخدومي الأميني الحمصي، لما انتقل من توقيع حمص المحروسة إلى صحابة ديوان الإنشاء بدمشق، قصد نقلتي من حماة المحروسة إلى أبوابه العالية، وحب حماه يفتتر العزم عن ذلك، وهذا يفهم من قولي في بعض قصائدي فيها:

يلذ عناق الفقر لي بفنائها وفي غيرها لم أرض بالملك والرهط^(٢)
ولكنه قطع أسئلته العالية، بعد أن كانت كؤوس الإنشاء دائرة بيننا، فكتبت إليه بقصيدة تشعر بعتب لطيف، وبلابل الغزل تغرد في أفنانها، على طريقة مهيار الديلمي وطريق مولانا قاضي القضاة صدر الدين عظم الله تعالى شأنه، وبراعة استهلالها:

من بأسياف هجرهم كلمونا ما عليهم لو أنهم كلمونا^(٣)
ولم أعرب في نحو هذه القصيدة عن غير هذه الإشارات اللطيفة.

ومنها: غلقوا باب وصلهم فتح اللـ لهم بالهناء فتحاً مبيناً
وصلوا هجرنا وعيش هواهم لم نحل عنهم ولو قطعونا^(٤)
ملكوا رقنا فصرنا عبيداً ليتهم بعد رقنا كاتبونا^(٥)

(١) معتق: من الخمرة أجودها.

(٢) الرهط: الجماعة. والحاشية.

(٣) كلمونا: الأولى من الكلم وهو الجرح. والثانية من الكلام.

(٤) نحل: من حال عن الشيء إذا حاد عنه.

(٥) المكاتبه: ما يتم بين العبد وسيده من اتفاق على عتقه مقابل مبلغ معين المال.

ولم أزل أغازل عيون هذه المعاني إلى المخلص فقلت:

حبكم فرضنا وسيف جفاكم قد غدا في بعادنا مسنونا
والحشا لم يخن عهد وفاكم فاسألوا من غدا عليها أمينا

ومما يشعر بالتهنئة والنصر على الأعداء، براعة العلامة لسان الدين بن الخطيب وهي:

الحق يعلو والأباطل تسفل والحق عن أحكامه لا يُسأل

فإنه قال: نظمت للسلطان أسعده الله، وأنا بمدينة سلا، لما انفصل طالباً حقه بالأندلس، قصيدة كان صنع الله مطابقاً لاستهلالها، ووجهت بها إلى رندة قبل الفتح، ثم لما قدمت أنشدتها بين يديه بعد الفتح وفاء بنذري، وسميتها الفتح الغريب في الفتح القريب، منها:

فإذا استحالت حالة وتبدلت	فإنه عز وجل لا يتبدل
واليسر بعد العسر موعود به	والصبر بالفرج القريب موكل
والمستعد بما يؤمل ظافر	وكفأك شاهد قيدوا وتوكلوا ^(١)
ومنها: محمد والحمد منك سجية	بحليها بين الوري يتجمل ^(٢)
أما سعودك فهو دون منازع	عقد بأحكام القضاء يسجل ^(٣)
ولك السجايا الغر والشيم التي	بغريبها يتمثل المتمثل ^(٤)
ولك الوقار إذا نزلت على الربا	وهفت من الروع الهضاب المثل
ومنها: عوذ كمالك ما استطعت فإنه	قد تنقص الأشياء مما تكمل ^(٥)
تاب الزمان إليك مما قد جنى	والله يأمر بالمتاب ويقبل
إن كان ماض من زمانك قد مضى	بإساءة قد سرك المستقبل
هذا بذاك فشفع الثاني الذي	أرضاك فيما قد جناه الأول
والله قد ولاك أمر عباده	لما ارتضاك ولاية لا تعزل

(١) يؤمل: ينتظر حصول الأمر- ظافر: من ظفر بالشيء إذا ناله. شاهد قيدوا وتوكلوا: يقصد النبي محمد ﷺ لقوله: «اعقل وتوكل».

(٢) سجية: عادة.

(٣) السعود: الحظ. مفردها سعد.

(٤) الشيم: مفردها شيمة، وهي الخصلة الحميدة.

(٥) عوذ: حماه بالتعاون وهي الطلاسم أو بالمعوذتين من القرآن الكريم.

وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل
متن العباب فأني صبر يجمل^(١)
والريح تبتلع الزفير وترسل
تختال في برد الشباب وترفل^(٢)
من يعلم الأثنى وماذا تحمل^(٣)
سد الشنية عارض متهلل
يرمي الجياد به أغر محجل
وإذا تغنى للصهيل. فبلبل^(٤)
أذن ممشقة وطرف أكحل^(٥)
حتى يكاد به يقوم الصيقل^(٦)
تبغي النجاة فأوثقتها الأرجل
ه مورد والشط منه مهذل
مره العيون فبالعجاجة يكحل^(٧)
مما يعمل من الدماء وينهل^(٨)
رمد ولا يخفى عليه مقتل^(٩)
وثباته مثل به يتمثل^(١٠)
والسمر تنقط والصوارم تشكل^(١١)
وعوامل الأسل المثقف تعمل^(١٢)

وإذا تغمدك الإله بنصره
ومنها: وطمعت عن أوطان ملكك راكباً
والبحر قد خفقت عليك ضلوعه
ولك الجواري المنشآت قد اغتدت
خرقاء يحملها ومن حملت به
صبحهم غرر الجياد كأنما
من كل منجرد أغر محجل
زجل الجناح إذا أجد لغاية
جيد كما التفت الظليم وفوقه
ومنها: وخليج هند راق حسن صفائه
غرقت بصفحته النمال وأوشكت
فالصرح منه ممرّد والصفح مند
ويكل أزرق إن شكت ألاحظه
متأود أعطافه في نشوة
عجباً له إن النجيع بطرفه
لله موقفك الذي وثباته
والخيل خط والمجال صحيفة
والبيض قد كسرت حروف جفونها

- (١) العباب: عباب البحر أمواجه. ومعظم مياهه.
- (٢) الجواري المنشآت: السفن العظيمة.
- (٣) الخرقاء: الريح الشديدة الهبوب.
- (٤) زجل الجناح: أي لجناحه صوت - أجد: قصد.
- (٥) الظليم: ذكر النعام.
- (٦) الصيقل: الصقال الذي يجلو السيوف.
- (٧) مره العيون: أبيض العيون - العجاجة: الغبار الكثيف.
- (٨) متأود: معوج - أعطافه: جنباته - يعل وينهل: العلل الشربة الأولى والنهل الشربة الثانية.
- (٩) النجيع: دم الجوف.
- (١٠) وثباته: الأولى من الوثب وهو القفز، والثانية من الثبات.
- (١١) الخيل خط: أي صف - والمجال صحيفة: أي سهل واسع - السمر: القنا - الصوارم السيوف - تشكل: تشتبك.
- (١٢) البيض: ما يلبس على الرأس من عدة الحرب - الأسل: الرماح.

وهي طويلة وجميعها فرائد، ولم أكثر منها إلا لعلمي أن نظم الوزير لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى، غريب في هذه البلاد.

ومن البراعات التي يفهم من إشاراتها أنها تهنته بمولود، قول أبي بكر بن الخازن رحمه الله تعالى:

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا وكوكب المجد في أفق العلا صعدا
ومما يشعر بقريته الذوق، أن الناظم يريد الرثاء، قول التهامي:
حكم المنية في البرية جاري ما هذه الدنيا بدار قرار
وهذه القصيدة يرثي بها ولده، وهي نسيج وحدها وواسطة عقدها.

ومنها ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار^(١)
جبلت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقداء والأقذار^(٢)
وإذا رجوت المستحيل فإنما تبني الرجاء على شفير هار^(٣)
فالعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سار

وما أعلم أن أحداً استهل للمراثي بأحسن من هذه البراعات، ومنها يشير إلى ولده وهو من المعاني المستغربة:

جاورت أعدائي وجاور ربه شتان بين جواره وجواري

وأما قصيدة الشيخ جمال الدين بن نباتة، رحمه الله تعالى، في تهنته السلطان الملك الأفضل بسلطنة حماة، وتعزيتة بوفاة والده الملك المؤيد، سقى الله ثراه، فإنها من عجائب الدهر فإنه جمع فيها بين نقيضي^(٤) المدح والرثاء في كل بيت، وبراعتها:

هنا محاذك العزاء المقدمًا فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام في ثغور مدامع شبيهان لا يمتاز ذو سبق منهما
يرد مجاري الدمع والبشر واضح كوابل غيث في ضحى الشمس قد همى^(٥)

(١) جذوة نار: قيس من نار.

(٢) الأقداء: جمع مفردة قذى وهو الضيم، ومن الناس: السفلة.

(٣) شفير هار: الحرف الموشك على السقوط.

(٤) نقيضي: هكذا وردت في الأصل، والأصح: نقيضين (الشارح).

(٥) الوابل: الغزير من المطر - همى: هطل.

سبحان المانع والله من لا يتعلم الأدب من هنا فهو من المحجوبين عن إدراكه.
وكتب إليه الشيخ صلاح الدين الصفدي قصيدة ضمن فيها أعجاز معلقة امرئ القيس، وصرح في براعتها بغليظ العتب، ولم يأت في البراعة بإشارة لطيفة يفهم منها القصد، بل صرح وقال:

أفي كل يوم منك عتب يسوءني كجلمود صخر حطه السيل من عل
فأجابه الشيخ جمال الدين بقصيدة ضمن فيها الأعجاز المذكورة، وبراعة استهلالها:
فطمت ولائي ثم أقبلت عاتباً فاطم مهلاً بعض هذا التدلل^(١)
والإشارة بقوله: فاطم مهلاً بعض هذا التدلل، لا يخفى على جذاق الأدب ما مراده منها، وفي هذا القدر كفاية، وما أحلى ما قال بعده، وهو مما قصده في تلك الإشارة:

فدونك عتب اللفظ ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل^(٢)
وهنا بحث وهو إني وقفت على بديعية الشيخ شمس الدين، أبي عبد الله محمد بن جابر الأندلسي، الشهيرة «بديعية العميان» فوجدته قد صرح في براعتها بمدح النبي ﷺ، وهي:

بطيبة إنزل ويمم سيد الأمم وانثر له المدح وانشر طيب الكلم^(٣)
فهذه البراعة ليس فيها إشارة تشعر بغرض الناظم وقصده، بل أطلق التصريح ونثر المدح ونشر طيب الكلم، فإن قال قائل: إنها براعة استهلال، قلت: إن البديعية لا بد لها من براعة وحسن مخلص وحسن ختام، فإذا كان مطلع القصيدة مبنياً على تصريح المدح، لم يبق لحسن التخلص محل ولا موضع ونظم هذه القصيدة سافل، بالنسبة إلى طريق الجماعة، غير أن الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين أبا جعفر الأندلسي، شرحها شرحاً مفيداً.

وهنا فائدة وهو أن الغزل، الذي يصدر به المديح النبوي، يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ويتضائل ويتشعب، مطرباً بذكر سلع ورامة وسفح العقيق والعذيب

(١) فطمت: قطعت - فاطم: ترخيم: فاطمة.

(٢) نصته: أظهرته وأبرزته - معطل: خال من الحلوى.

(٣) يمم: توجه صوب - سيد الأمم: النبي محمد ﷺ - الكلم: من الكلام أظليه وأبلغه.

والغوير ولعلع وأكتاف حاجر^(١) ويطرح ذكر محاسن المرد^(٢) والتغزل في ثقل الردف^(٣) ودقة الخصر وبياض الساق وحمرة الخد وخضرة العذار^(٤) وما أشبه ذلك، وقل من يسلك هذا الطريق من أهل الأدب وبراعة الشيخ صفي الدين الحلبي، في هذا الباب، من أحسن البراعات وأحشمها، وهي:

إن جئت سلماً فسل عن جيرة العلم وأقر السلام على عرب بذي سلم
فقد شبب بذكر سلع، والسؤال عن جيرة العلم، والسلام على عرب بذي سلم.
ولا يشكل^(٥) على من عنده أدنى ذوق أن هذه البراعة صدرت لمديح نبوي، ومطلع
البردة^(٦) أيضاً في هذا الباب، من أحسن البراعات أيضاً وهو:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من ققلة بدم
فمزج دمعه بدمه، عند تذكر جيران بذي سلم، من أطف الإشارات إلى أن القصيدة
نبوية، وما أحلى ما قال بعده:

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من أضم^(٧)
وحشمة الشيخ جمال الدين بن نباتة في براعة قصيدته الرائية النبوية، يتعلم الأديب
منها سلوك الأدب وهي:

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ولمعة برق بالفضا تسعر^(٨)
وما أحشم قوله بعده:

وذكر جبين المالكية أن بدا هلال الدجى والشيء بالشيء يذكر
سقى الله أكتاف الفضا سائل الحيا وإن كنت أسقى أدمعاً تتحدر^(٩)

(١) أسماء أماكن.

(٢) المرد: جمع مفردة أمرد وهو الفتى لم تنبت له لحية.

(٣) الردف: المؤخرة.

(٤) العذار: ما سال من الشعر على جانبي الوجه.

(٥) يشكل: يلتبس ويختلط.

(٦) البردة: قصيدة مشهورة في مدح النبي. ومعنى البردة الكساء المخطط.

(٧) تلقاء: ناحية - كاظمة إسم مكان - أومض: لمع - أضم: إسم جبل.

(٨) تسعر: تلتهب وتزداد لمعاً.

(٩) الفضا والحيا: ترخيم الفضا والحياة.

وأما قصيدتي النبوية، الموسومة بأمان الخائف، فإنها عزيز^(١) هذا البارق وحلبة
مجرى هذه السوابق، لأنني لم أخرج في تغزلها عن التباري والتشبيب بذكر المنازل
المعهودة، وبراعتها:

شدت بكم العشاق لما ترنموا فغنوا وقد طاب المقام وزمزم^(٢)
وقلت بعده:

وضاع شذاكم بين سلع وحاجر فكان دليل الظاعنين إليكم^(٣)
وحزتم بواد الجزع فاخضر والتوى على خده بالنبت صدغ منم^(٤)
ولما روى أخبار نشر ثغوركم أراك الحمى جاء الهوى يتنم^(٥)
وما أليقه أن يكون صدرًا للمدائح النبوية، ومنها:

فيا عرب الوادي المنيع حجاباه وأعني به قلبي الذي فيه خيموا
رفعتم قباباً نصب عيني ونحوها تجر ذبول الشوق والقلب يجزم
ويا من أماتونا اشتياقاً وصيروا مدامعنا غسلًا لنا وتيمموا
منعتم تحيات السلام لموتنا غراماً وقد متنا فصلوا وسلموا
يقولون لي في الحيّ أين قبابهم ومن هم من السادات قلت هم هم
عريب لهم طرفي خباء مطنب بدمعي وقلبي نارهم حين تضرم^(٦)

ومن اللفظ الإشارات إلى أن هذا التغزل صدر قصيدة نبوية قولي منها:

أوري بذكر البان والزند والنقا وسفح اللوى والجزع والقصد أنتم^(٧)
ولم أزل في براعة الاستهلال، استهل أهلة هذه المعاني، إلى أن وصلت إلى
حسن التخلص فقلت:

(١) عزيز: بعيد، أي أبعدما يمكن أن يتوصل إليه في هذا الفن.
(٢) المقام: قبر النبي محمد ﷺ وزمزم: بئر ماء أخرجها الله لهاجر زوجة إبراهيم الخليل في وادي مكة.

(٣) ضاع: انتشر من ضاع يضوع- والشذا: الرائحة العطرة.

(٤) صدغ منم: أو منمنم، مجعد الشعر.

(٥) الأراك: شجر واحدته أراكة وهي نبتة شجيرة كثيرة الفروع، خوّارة العود، متقابلة الأوراق:

(٦) مطنب: ذو طنب وهي الجبال التي تشد بها أعمدة الخيام.

(٧) أوري: من التورية وهي ذكر مسمى وقصد غيره.

تقنعت في حبي لهم فتعصبوا عليَّ وهُم سادات من قد تثلثوا
لهم حسب عاني ببطحاء مكة لأن رسول الله في الأصل منهم^(١)

ومن الأغزال التي لا تليق أن يكون غزلها لمديح قصيد نبوي، قصيد السري الرفاء، فإنه مدح بها الفاطميين وجدهم ﷺ، وجرح القلوب بندبة الحسين عليه السلام، فإنه قال منها:

مهلاً فما نقلوا آثار والده وإنما نقضوا في قتله الدينا
وهذه القصيدة مشتملة على مدح النبي ﷺ وآل بيته، وندبة الحسين بن علي عليهما السلام، فما ينبغي أن تكون براعتها:

نطوي الليالي علماً ان ستطوينا فشعشعها بماء المزن واسقينا^(٢)

ما أحق هذه البراعة ليعدها من المديح بقول القائل:

تمنيتهم بالرقمتين ودارهم بوادي الغضي يا بعد ما أتمناه
وما كفاه حتى قال بعد ذلك:

وتوجي بكؤوس الراح راحتنا فإنا خلقت للراح أيدينا^(٣)
قامت تهز قواماً ناعماً سرقت شمائل البان من أعطافه اللينا
تدير خمراً تلقاها المزاج لها ألقيت فوق جنى الورد نسرينا^(٤)
فلست أدري أتسقيننا وقد نفحت روائح المسك منها أم تحيينا
وقد ملكنا زمان العيش صافية لو فاتنا الملك راحت عنه تسلينا

أقول: غفر الله له هذا الغزل، فيه إساءة أدب على ممدحيه، فإنه شبب بوصف القيان^(٥) وبذكر الخمر، وبينه وبين المديح مباينة عظيمة.

ربح إلي البراعات البارة التي تشعر أنها صدر المديح النبوي، بالإشارات اللطيفة، منها براعة الشيخ برهان الدين القيراطي وهي قوله:

ذكر الملتقى على الصفراء فبكاه بدمعة حمراء

(١) حسب عاني: حسب ظاهر ومعروف.

(٢) شعشعها: من شعشع الخمرة بالماء إذا مزجها به ليزيد لونها صفاءً. والمزن: مفردها، مزنة وهي الغيمة الممطرة.

(٣) الراح: من أسماء الخدرة.

(٤) النسرين: نوع من الأزهار يعرف بزهرة الرب.

(٥) القيان: جمع مفرده قينة وهي المغنية.

وأما براعة بديعيتي فإنها، ببركة ممدوحها ﷺ، نور هذه المطالع وقبله هذا الكلام الجامع؛ فإني جمعت فيها بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء، بالشرط المقرر لكل منهما، وأبرزت تسمية نوعها البديعي في أحسن قوالب التورية، وشنفت^(١) بأقراط غزلها الأسماع، مع حشمة الألفاظ وعذوبتها وعدم تجافي جنوبها عن مضاجع الرقة وبديعية صفي الدين غزلها لا ينكر، غير أنه لم يلتزم فيها تسمية النوع البديعي موري به من جنس الغزل، ولو التزمت لتجافت عليه تلك الرقة. وأما الشيخ عز الدين الموصللي، فإنه لما التزم ذلك نحت من الجبال بيوتاً، وقد أشرت إلى ذلك في الخطبة بقولي: وهي البديعية التي هدمت بها ما نحتت الموصللي في بيوته من الجبال، وجاريت الصفي مقيداً بتسمية النوع وهو من ذلك محلول العقال، وسميتها تقديم أبي بكر عالماً أنه لا يسمع من الحللي والموصللي في هذا التقديم مقال.

ومن أحسن إشارات براعتي التي تشعر أنها صدر مديح نبوي تشبيهي، بعرب ذي سلم، وخطابي لهم بأن لي في مدائحهم براعة تستهل الدمع، وكأنني وعدتهم بشيء لا بد من القيام به، وهذا حسبما أراده ابن أبي الاصبع بقوله: براعة الاستهلال هي ابتداء الناظم بمعنى ما يريد تكميله.

براعة الاستهلال في النثر

انتهى ما أوردته هنا من البراعات البارة نظماً، وأما براعات النثر فإنها مثلها، إن لم تكن براعة الخطبة أو الرسالة أو صدر الكتاب المصنف دالة على غرض المنشئ، وإلا فليست براعة استهلال.

وقد رأيت غالب البديعيين قد اكتفوا عند استشهادهم على براعة الاستهلال في النثر، بقول صاحب عمرو بن مسعدة، كاتب المأمون، فإنه امتحن أن يكتب للخليفة يخبره أن بقرة ولدت عجلاً وجهه كوجه الإنسان، فكتب: الحمد لله الذي خلق الأنام في بطون الأنعام. ورأيت الشيخ صفي الدين الحللي، في شرح بديعيته، قد ألقى عند الاستشهاد بها عصا التسيار، واحتجبت عنه في هذا الأفق الشمس والأقمار، أين هو من علو مقام القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، وقد كتب عن السلطان الملك الظاهر، إلى الأمير سنقر الفارقاني، جواباً عن مطالعته بفتح سوس من بلاد السودان، واستهل بقوله: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾^(٢) الله

(١) شنفت: أمتعت.

(٢) الإسراء، ١٧ / ١٢.

أكبر، إن من البلاغة لسحراً، والله ما أظن هذا الاتفاق الغريب اتفق لناثر، وإلهلال كاتب المأمون في هذا الاستهلال بزاهر، وهذا المثال الشريف ليس له مثال، منه صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي تشني على عزائمه التي دلت على كل أمر رشيد، وأتت على كل جبار عنيد، وحكمت بعدل السيف في كل عبد سوء ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾^(١).

وبراعة الشيخ جمال الدين بن عبد الرزاق الأصفهاني، في رسالة القوس تجاري براعة القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في هذه الحلبة، وتساويها في علو هذه الرتبة، فإنه أتى فيها بالعجائب، وأصاب غرض البلاغة بسهم صائب، واستهلها بعد البسمة بقوله تعالى: ﴿ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً * إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سيباً * فاتبع سيباً﴾^(٢) منها: شيطان تطلع شمس النصره من بين قرنيه، مارد لا يصلح إلا بتعريك أذنيه، صورة مركبة ليس لها من تركيب النظم إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا^(٣) أو ما اختلط بعظم.

وأما براعة الشيخ جمال الدين بن نباتة، في خطبة كتابه المسمى «بخبز الشعير» فإنها خاص الخاص ولا بد من مقدمة تكون هي النتيجة الموجبة لتسمية هذا الكتاب بخبز الشعير، فإنه مأكول مذموم، وما ذاك إلا إنه كان يخترع المعنى الذي لم يسبق إليه، ويسكنه بيتاً من أبياته العامرة بالمحاسن، فيأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي بلفظه، ولا يغير فيه غير البحر، وربما عام به في بحر طويل يفتقر إلى كثرة الحشو واستعمال ما لا يلائم، فلم يسع الشيخ جمال الدين إلا أنه جمعه، من نظمه ونظم الشيخ صلاح الدين، واستهل خطبته بقوله تعالى: ﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً﴾^(٤) ورتب كتابه المذكور على قوله: (قلت أنا) فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال. فمن ذلك قول الشيخ جمال الدين: قلت:

ومولع بفخاخ يمدّها وشباك
قالت لي العين ماذا يصيد قلت كراكي^(٥)

(١) فضلت، ٤٦/٤١.

(٢) الكهف، ٨٣-٨٥ / ١٨.

(٣) الحوايا: الأمعاء وهي جمع مفردة حاوية وحواياء.

(٤) نوح، ٧١ / ٢٨.

(٥) الكراكي: جمع مفردة كركي وهو طائر كبير، أغبر اللون، طويل العنق والرجلين، أبتز الذنب.

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

أغار على سرح الكرى عندما رمى الكراكي غزالاً للبدور يحاكي^(١)
فقلت أرجعي يا عين عن ورد حسنه ألم تنظريه كيف صاد كراكي
ومن ذلك، قال الشيخ جمال الدين قلت:

أسعد بها يا قمري برزة
صرعت طيراً وسكنت الحشا
سعيدة الطالع والغارب
فما تعديت عن الواجب

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال من البحر [نفسه]:

قلت له والطيور من فوقه
سكنت في قلبي فحركته
يصرعه بالبندق الصائب^(٢)
فقال لم أخرج عن الواجب
قال الشيخ جمال الدين: قلت:

وبمهجتي رشاً يمس قوامه
شغف العذار بخده ورآه قد
فكأنه نشوان من شفثيه^(٣)
نعست لواحظه فذب عليه
فأخذه الصلاح وقال:

وأهيف كالغصن الرطيب إذا انثنى
له عارض لما رأى الطرف ناعساً
تميل حمامات الأراك إليه
أتى خده سراً فذب عليه
وأحسن ما وقع في هذا الباب للشيخ جمال الدين أنه قال:

بروحي عاطر الأنفاس ألقى
له خالان في دينار خد
ملي الحسن خالي الوجنتين^(٤)
تباع له القلوب بحبتين
فأخذه الصلاح وقال:

بروحي خده المحمر أضحت
كان الحسن يعشقه قديماً
عليه شامة شرط المحبة
فنقطه بدينار وحبه

(١) يحاكي: يشبه.

(٢) البندق: كرة في حجم البندقة برمي بها في القتال.

(٣) رشاً: غزال - يمس: يتمايل في مشيته - القوام: القد والقامة. نشوان: سكران.

(٤) ألقى: في شفثيه سُمره.

فلما وقف الشيخ جمال الدين على هذين البيتين قال: لا إله إلا الله، الشيخ صلاح الدين سرق كما يقال من الحبطين حبة.

قال الشيخ جمال الدين: قلت:

يا غادراً بي ولم أغدر بصحبته
قد كنت من قلبك القاسي أخال جفا

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

ما زلت أشكو حين وفر لي الضنا
حتى توفّر من شكاية لسوعي

قال الشيخ جمال الدين: قلت:

يا عاذلي شمس النهار جميلة
فانظر إلى حسنيهما متاملاً

وجمال قاتلتي الذ وأزين^(١)
وادفع ملامك بالتّي هي أحسن

فأخذه صلاح الدين مع البحر، بل أخذ الكل مع القافية وقال:

بأبي فتاة من كمال صفاتها
كم قد دفعت عواذلي عن وجهها

وجمال بهجتها تحار الأعين
لما تسدت بالتّي هي أحسن

ومن ذلك: قال الشيخ جمال الدين وأجاد إلى الغاية:

فديتك أيها الرامي بقوس
لقوسك نحو حاجبك انجذاب

ولحظ يا ضنى قلبي عليه
وشبه الشيء منجذب إليه

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

تشرط من أحب فذبت وجداً
عقيق دمي جرى فأصاب خدي

فقال وقد رأى جزعي عليه^(٢)
وشبه الشيء منجذب إليه

وما أظن الشيخ صلاح الدين، غفر الله له، لما سمع ما قاله الشيخ جمال الدين ونظم بعده هذين البيتين، كان في حيز الاعتدال، وأين انجذاب القوس إلى الحاجب من

(١) عاذلي: لاثمي.

(٢) تشرط: وضع الشروط.

انجذاب الدم إلى الخد، وليته في براعة استهلاله بقول الله تعالى: ﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً﴾^(١) قال بعدها: اللهم ومن دخل بيتي كافراً بفوائدي المنعمة وبيت شعري، سارقاً من ألفاظه ومعانيه المحكمة، فأخجله في سره وعلايته، وعاقبه على قوله ونيته.

ومنها بلغني أن بعض أدباء عصرنا، ممن منحته ودي، وأنفقت على ذهنه الطالب ما عندي، وأقمته، وهو لا يدري الوزن، مقام من زكاه نقدي، وأودعته ذخائر فكري فأنفقها، وأعرته أوراق العتيقة فلا والله ما ردّها ولا أعتقها، بل إنه غير الشاء بالهجاء والولاء بالجفاء، ونسبني إلى سرقة بيوت الأشعار مع الغناء عنها والغنى، فتغاضيت وقلت هماز مشاء، بنيم^(٢)، وغصة صديق أتجرعها ولو كانت من حميم، وأخليت من حديثه باب فمي ومجلس صدري، وصرفت ذكره عن فكري.

ولكن، وقفت له على تصانيف وضعها في علم الأدب، والعلم عند الله تعالى، ووشحها بشعره وشعري المغصوب المنهوب، يقول: يا صاحبي ألا لا. وما يتوضح من جيد تلك الأشعار لمعة إلا ومن لفظي مشكاتها^(٣) ولا تتضوع زهرة إلا ومني في الحقيقة نباتها، فضحكت والله من ذهنه الذاهل وذكرت على زعمه قول القائل:

وفتي يقول الشعر إلا أنه فيما علمنا يسرق المسروقاً

وعجبت له كيف رضي لنفسه هذا الأمر منكراً، وكيف حلا لذوقه اللطيف هذا الحرام مكرراً، وقد أوردت الآن، في هذا الكتاب، قدراً كافياً ووزناً من الشعر وافياً، وسميته، خبز الشعير المأكول المذموم، وعرضته على معدلة مولانا، ليعلم أينما مع خليله مظلوم.

ولولا الإطالة لأوردت جميع أبيات الشيخ جمال الدين التي دخلها الشيخ صلاح الدين، بغير طريق، ليرتدع القاصر عن التناول إلى معاني الغير.

ومن البراعات التي يستهل بها في هذا الأفق الذي مرآة سمائه صقيلة، براعة المقر المخدم القضاي الفخري عبد الرحمن بن مكانس، مالك أزمة البلاغة، وملك المتأخرين، نظماً ونثراً، في رسالة كتبها إلى المقر المرحومي القضاي الزيني أبي بكر

(١) نوح، ٧١ / ٢٨.

(٢) الهماز: الموسوس - مشاء: الذي يمشي في الفتنة بين الناس - نميم: المنام الذي ينقل الكلام بين الناس.

(٣) المشكاة: ما يحمل عليه أو يوضع فيه القنديل.

ابن العجمي، عين كتاب الإنشاء الشريف بالأبواب الشريفة، وبقية الفضلاء الذين فضلوا بالطريق الفاضلية، بسبب عبد الله القيرواني الضرير. فإني نقلت من خط المشار إليه ما صورته: ورد علينا شخص من القيروان ضرير، يتعاطى نظم الشعر المقفى الموزون الخالي من المعاني، فتردد إليّ في مجالس متفرقة، ثم بلغني بعد ذلك أنه وشى إليّ صاحبي الشيخ زين الدين بن العجمي، بأني اهتضمت من جانبه وانتقصته وغضضت منه، بالنسبة إلى الأدب وأنه يستعين بكلام الغير كثيراً، فتأذى بسبب ذلك وتأذيت من كذب الناقل، فكتبت إليه رقعة براءة استهلالتها ﴿ليس على الأعمى حرج﴾^(١).

أقول: إنه يستغنى بهذه البراعة عن الرسالة.

منها: وبلغ المملوك أنه رماه بعض الأصحاب برمية مثل هذه فاصمى^(٢) وتردد إليه مرة أخرى فعبس وتولى أن جاءه الأعمى. ولقد خسرت صفقته، إذ المملوك ما برح مخلصاً لمولانا في ولائه، ومبايعاً له على سلطنة البلاغة وأجل من تشرف بحمل لوائه. ومولانا بحمد الله أولى من استفتى قلبه، واستدل على صفاء صدق محبته، بشواهد المحبة، والمسؤول من صدقاته أمران: أحدهما الجواب، فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة، والآخر ردّ كل فاسق عن هذا الباب العالي، فإن أبا بكر أولى من يصلب في الردّة. انتهى كلام القاضي فخر الدين.

ولقد كشف الشيخ جمال الدين بن نباتة عن هذا الوجه القناع، وأظهر من بهجته، في رسالة السيف والقلم، ما ليس لمطالع الدور عليه اطلاع، فإن الرسالة مبنية على المفارقة بينهما، ولما انتصب القلم لمفارقة السيف كانت براعته ﴿ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾^(٣) واستهل بعدها بقوله: الحمد لله الذي علم بالقلم وشرفه بالقسم. وبراعة استهلال السيف قوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾^(٤) واستهل بعده بقوله: الحمد لله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف، وشرع حدها في ذوي العصيان فأغصتهم بماء الحتوف^(٥)، وما أظن أن أحداً من المتقدمين نسج على هذا المنوال، ولا نفت في عقد أقلامهم مثل هذا السحر الحلال.

(١) النور، ٢٤ / ٦١.

(٢) أصمى: لم يسمع له.

(٣) القلم، ٦٨ / ١ و ٢.

(٤) الحديد، ٥٧ / ٢٠.

(٥) الحتوف: المنايا مفرد ما حتف.

وممن طلع من العصريين في هذا الأفق الساطع فأبدر ورقي ببلاغته أعواد هذا المنبر، القاضي ناصر الدين بن البارزي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، فإنه اتفق له بحماسة محنة، كان لطف الله تعالى متكفلاً له بالسلامة منها، ولم يضرم نارها إلا من غذي بلبان نعمته، قديماً وحديثاً، فالحمد لله الذي أسعف الإسلام والمسلمين بنجاته، وأمتع العلم الشريف والرياسة بطول حياته، ولما هاجر من حماة المحروسة إلى دمشق المحروسة، كان إذ ذاك مولانا السلطان الملك المؤيد كافلها، ففوض إليه خطابة الجامع الأموي، فلم يبق أحد من أعيان دمشق حتى حضر في تلك الجمعة، لأجل سماع الخطبة، فكانت براعة خطبته: الحمد لله الذي أيده محمداً بهجرته، ونقله من أحب البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعته، فعلت (١) بالجامع الأموي أصوات ترنم حركت أعواد المنبر طرباً، وكاد النسر أن يصفق لها بجناحيه عجباً.

وما أظف براعة الشيخ العلامة نور الدين أبي الثناء محمود الشافعي، الناظر في الحكم العزيز بحماسة المحروسة، والشهير بخطيب الدهشة بحماسة المحروسة، في كتاب أدعيته المسمى «بدواء المصاب في الدعاء المجاب»، وهي: الحمد لله سامع الدعاء، ودافع البلاء. وفيها البناء والتأسيس، فإنه أشار بسامع الدعاء إلى الدعاء المجاب، وبدافع البلاء إلى دواء المصاب.

وأما براعة خطيب الخطباء أبي يحيى عبد الرحيم بن نباتة الفارقي، فإنها شغلت أفكاره مدة ولم يسعني غير السكوت والإحجام عنها، فإنه استهلها في خطبة وفاة النبي ﷺ بقوله: الحمد لله المنتقم ممن خالفه، المهلك من آسفه. ولقد اعتذر عنها جماعة من أكابر العلماء.

وأورد الشيخ سري الدين بن هانيء، في شرحه الذي كتبه على ديوان الخطب، على هذه البراعة عذراً لأبي البقاء، أرجو أن تهب عليه نسمات القبول.

وما أحشم ما استهل الشيخ جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، في خطبة وفاة النبي ﷺ بقوله: الحمد لله الذي استأثر بالبقاء، وحق له أن يستأثر وحكم بالفناء على سكان هذا الفناء (٢)، فأذعنوا لحكمه القاهر.

وأما خطبة الشيخ صفي الدين، في صدر شرح بديعته، فإن استهلها نير، ولكن فيه نظر وبعض مباينة عما نحن فيه، فإنه قال: الحمد لله الذي حلل لنا سحر البيان.

(١) في الأصل فعلا والأصح ما أثبتناه (الشارح).

(٢) الفناء: الأولى بفتح الفاء: الموت، والثانية بكسرهما: المكان الواسع (الدنيا).

وكتابه مبني على البديع. ولهذا استهلته خطبة شرح بديعيتي بقولي: الحمد لله البديع الرفيع. ولما جمعت ديواني استهلته خطبتي بقولي: الحمد لله الذي لا يحصر مجموع فضله ديوان.

وكان قد رسم لي أن أنشئ صداقاً للملك الناصر، وأنا إذ ذاك بدمشق، وقد حل ركابه الشريف بها على بنت المرحوم الشريف السيفي كشيغا الظاهر الحموي، فاستهلته بقولي: الحمد لله الذي أيد السنة الشريفة بقوة وناصر. وتمثلت، بعد هذا التاريخ بالمواقف الشريفة الإمامية الخليفة المستعينية العباسية، زاد الله شرفها تعظيماً، فبرزت لي أوامرها المطاعة، أن أنشئ عهداً بكفالة السلطنة، بالبلاد الهندية للسلطان العادل مظفر شاه شمس الدنيا والدين صاحب دهلي^(١) والفتوحات الهندية، فاستهلته براعته بقولي: الحمد لله الذي وثق عهد النجاح للمستعين به. وقلت بعد الاستهلال: وثبت أوتاده ليفوز من تمسك، من غير فاصلة، بسببه، وزين السماء الدنيا بمصاييح وحفظاً، فافرغ على أطراف الأرض حلال الخلافة الشريفة، وعلم أن في خلفها الزاهر زهرة الحياة الدنيا، فقال عز من قائل ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾^(٢) واختارها من بيت براعة استهلاله من أول بيت وضع للناس، وسبقت إرادته وله الحمد أن تكون هذه النهاية الشريفة، من سقاية بني العباس، وذلك في العشر الأواخر من رمضان، سنة ثلاث عشرة وثمانمائة.

ومما أنشأته في الديار المصرية وقد استقرت منشاء ديوان الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، تقليد مولانا المقر الأشرف القاضي الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي، عظم الله شأنه، بصحابة ديوان الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، بتاريخ سؤال سنة خمس عشرة وثمانمائة، واستهلته بقولي: الحمد لله الذي أودع محمداً سره. وقلت بعد الاستهلال: وجعله ناصر دينه، فحل به عقد الشرك، وشد أزره، وأرسله لينشئ مصالح الأمة، فهذبنا بترسلاته، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، وبين ديوان الإنشاء الشريف، بصاحب من بيت ظهر التمييز بكتابه، وأيد الإسلام والمسلمين بملك مؤيد تمسك بمحمد وصحابته. وأنشأت بعد هذا التاريخ، توقيحاً لرئيس الطب بالديار المصرية، فكانت براعته: الحمد لله الحكيم اللطيف.

وبراعة الشيخ صلاح الدين الصفدي، في شرح لامية العجم، في غاية الحسن،

(١) نظنها: دلهي، وقد أصابها التحريف (الشارح).

(٢) البقرة، ٢ / ٣٠.

فإنه استهلها بقوله: الحمد لله الذي شرح صدر من تأدب. والكتاب مبني على شيء من علم الأدب.

وأما البراعات التي يحلو تقبيلها بوجنات الطروس، فمنها براعة الشيخ جمال الدين ابن نباتة، من رسالة كتبها إلى القاضي علاء الدين الحسني، واستهلها بقوله: يقبل الأرض العلية على السحاب نسباً. وقال بعد الاستهلال: الموفية على حصباء الأنجم حسباً. هذا الأدب إن أطنبت في وصفه فهو فوق الوصف.

وكتب إليه الشيخ برهان الدين القيراطي، من القاهرة المحروسة إلى دمشق المحروسة، رسالة بليغة واستهلها بقوله: يقبل الأرض التي سقت السماء نباتها. وقال بعد البراعة: وحرس الله ذاتها وعمر معاني الحسن أبياتها.

ومن أظرف ما وقع من البراعات المتوشحة برداء التبكيت، براعة القاضي فخر الدين عبد الوهاب، كاتب الدرج، فإنه كان له صديق منهم يعبه، فكتب إليه رسالة يداعبه فيها، واستهلها بقوله: يقبل اليد الشهابية، كثر الله عبيدها. وقال بعد البراعة: وضاعف خدمها وأضعف حسودها. وقد خطر لي أن أوزدها بكمالها لوجازتها^(١) وغرابة أسلوبها، فإنه قال بعد يقبل الأرض الخ: وينهي بعد ولاء يمتد ودعاء يستد^(٢) وثناء كأنه عنبر أو كافور راوند^(٣)، إن مولانا توجه، والأعضاء خلفه سائره، وكل عين لغيبته ساهره، ولا يخفى عليه شوق العليل إلى الشفاء، والظمان إلى صيبّ البماء، والغريب إلى بلده، والمحصور إلى سعة مسلكه ومقعده، فمولانا يطوي هذه الشقة، ويقصر هذه المدة، ويدع أحد غلمانه يسد مسده^(٤)، فالمملوك قلق لسماع أخبار التشويش في البلاد، وتطرق أهل الجرائم والفساد، فمولانا يرسم لغلمانه أن يشمروا في خدمته ذبيلاً، ويسهروا عليه بالنوبة^(٥) لمن يطرق ليلاً، والله المسؤول أن تكون هذه السفارة معجلة، ويخص فيها بالبرك مخرجه ومدخله، ويبلغه من فضله مزيداً، ويجعل يومه عليه مباركاً وليله عليه سعيداً.

وكتب المقر المخدومي فضل الله بن مكانس، مجد الأدب الذي ظهر من بيته

(١) لوجازتها: من الإيجاز وهو الاستغناء من الكلام بما قل ودل.

(٢) يستد: يستجاب.

(٣) الراوند: نبات عشبي يطلق البطن.

(٤) يسد مسده: يقوم مكانه.

(٥) النوبة: الدور.

فجره، ورضيع لبانه الذي ما سقانا منه ذرة إلا قلنا لله دره، إلى والده المقر المرحومي الفخري، من القاهرة إلى حلب، وهو صحبة الركاب الشريف الظاهري يشكو إليه رمداً حصل له بعده، وكان مبدأ الرسالة قوله:

ما الطرف بعدكم بالنوم مكحول هذا وكم بيننا من ربعكم ميل^(١)
وقال بعد الاستهلال: لا استهلت لمولانا دموع، ولا جفا جفنه مدى الليالي هجوع^(٢).

منها: يطالع العلوم الكريمة بما قاساه طرف المملوك من الرمد، وما حصل عليه من الكمد^(٣):

إن عيني مذ غاب شخصك عنها يأمر السهد في كراها وينهى
بدموع كأنهن الغوادي لا تسلم ما جرى على الخد منها^(٤)

فلو رآه وقد أخذت عيناه من العناصر الثلاثة بنصيب، وعضها الهواء عن التراب بمضاعفة الماء واللهيب، لرأى من نارها ما يفحم القلوب، ومن دمعها ما هو البلاء المصبوب، واستمر انهمالها حتى أنشدها المتوجع: قارنها الدمع فبش القرين. وطالت مدة رمده، حتى لقد أتى على الإنسان حين وتزايد خوف المملوك على مقلتيه، وشحه بكريمته، ففصد في الذراعين، وكاد أن يصير، لولا أن من الله تعالى عليه، أثراً بعد عين.

وكتب إلى المقر المخدومي المشار إليه، سيدنا الإمام العلامة الذي صلت جماعة أهل العصر خلف إمامته، وملك قياد البلاغة ببراغته وعبارته، بدر الدين، رحلة الطالبين، أبو عبد الله محمد بن الدماميني المخزومي المالكي، جواباً عن حل لغز في ورد أرسله إليه، فاستهله بقوله: يقبل الأرض وينهي ورود الجواب الذي شفى الصدور وورده؛ وقال بعد الاستهلال: واللغز الذي نسي بوروده منه، بان الحمى وزورده منه، فاستحلى المملوك منه بالتحريف ورده، وود لو اقتطف من أغصان حروفه ورده، فردّه ذل التقصير عارياً عن ملابس عزه، وأنشد قول ابن قلاقس وهو يقلب بنار عجزه:

إذا منعتك أشجار المعالي جناها الغض فاقع بالشميم^(٥)

(١) الربع: الديار وسكانها - والميل: مقياس للطول يقدر بـ ١٦٠٩ أمتار.

(٢) هجوع: نوم.

(٣) الكمد: الحزن والغم.

(٤) الغوادي: السحاب الممطر غدوة.

(٥) الشميم: شم الرائحة.

فظهر من طريق سعده نصره، وعلم أن هذا الورد لا يحسن من غير تلك الحضرة، وأن هذه الفاكهة لا تخرجها إلا أغصان أقلام لها بيدي الراحة المخدومية بهجة ونضرة.

ومنه: وتمشى نظر المملوك من هذا اللغز في بساتين الوزير على الحديقة، فرأى كل وردة وأخت الوجنات الحمر فتحير أوردة هي أم شقيقة، وعلمت أن الفكر القاصر لا يجاري من بديهته من بحار الفضل رويه، وأن الخاطر الذي هو على ضعف من رعايا الأدب لا يقوى على سلطان هذا اللغز لأن شوكته قوية.

منه: وتمتعت من ورده الوارد بالمشوم، ثم تذكرت البعد عن جناب المخدوم، فاستقطر البين ماء الورد من حدقي^(١).

وكتبت إليه من القاهرة المحروسة، في منتصف ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانمائة، عند دخولي إليها في البحر هارباً من طرابلس الشام، وقد عضت عليّ أنياب الحرب، بثغرها، رسالة مشتملة على حكاية الحال ورّيت في براعتها بمصنفين له: أحدهما الفواكه البدرية الذي جمعه من ثمار أدبه، والثاني نزول الغيث الذي نكت فيه على الغيث الذي انسجم^(٢) في شرح لامية العجم، للشيخ صلاح الدين الصفدي، واستهليتها بقولي: يقبل الأرض التي سقى دوحها بنزول الغيث، وأثمر بالفواكه البدرية. وقلت بعد الاستهلال: وطلع بدر كمالها من الغرب، فسلمنا لمعجزاته المحمدية، وجرى لسان البلاغة في ثغرها فسما على العقد بنظمه المستجاد، وأنشد، لا فض الله فاه، وقد ابتسم عن محاسنه التي لم يخلق مثلها في البلاد:

لقد حسنت بك الأيام حتى كأنك في فم الدنيا ابتسام

فأكرم به من مورد فضل ما برح منهله العذب كثير الزحام، ومدينة علم تشرفت بالجناب المحمدي فعلى ساكنها السلام، ومجلس حكم ما ثبت لمدعي الباطل به حجة، وعرفات أدب إن وقفت بها وقفة صرت على الحقيقة ابن حجة، وأفق معان بالغ في سمو بدر فلم يقنع بما دون النجوم، وميدان عربية يجول فيه فرسان العربية من بني مخزوم، ومنها: أورى بدخوله إلى دمشق ومطارحته للجماعة، وتالله ما لفرسان الشقر أو البلق^(٣) في هذا الميدان مجال، وإذا عرفوا ما حصل للفارس المخزومي عندهم من الفتح، كفى الله المؤمنين القتال، وينهي بعد أدعية ما برح المملوك منتصباً لرفعها، وتعريداً ثنية ما

(١) حدقي: عيني مفرداً حدقة وهي السواد المستدير وسط العين.

(٢) انسجم الغيث: انسكب وانهمر.

(٣) البلق: مفرداً أبلق وهو من الجياد الأسود الذي يتخلله بياض.

لسجع المطوق^(١) في الأوراق النباتية مثل سجعها، وأشواقاً برحت بالمملوك ولكن تمسك في مصر بالآثار:

وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

وهذه الرسالة لكونها نظمت في طويل البحر ومدیده، يفتقر إلى سرد غالبها لتعلقها بحكاية الحال وينهي وصول المملوك إلى مصر مخيماً بكنائنها، وهو بسهم البين مصاب مذعور لما عاينه من المصارع عند مقاتل الفرسان في منازل الأحباب، مكلماً^(٢) من ثغر طرابلس الشام باللسنة الرماح، محمولاً على جناح غراب، وقد حكم عليه البين أن لا يبرح سفره على جناح:

وكان في البين ما كفاني فكيف بالسبين والغراب^(٣)

منها: يا مولانا، وأبتك ما لاقيت من أهول البحر، وأحدث عنه ولا حرج، فكم وقع المملوك من أعاريضه في زحاف تقطع منه القلب لما دخل إلى دوائر تلك اللجج، وشاهدت منه سلطاناً جائراً يأخذ كل سفينة غصباً، ونظرت إلى الجواري الحسان وقد رمت أزر قلوبها^(٤) وهي بين يديه لقله رجالها تسبي، فتحقت أن رأي من جاء يسعى في الفلك غير صائب، واستصوبت هنا رأي من جاء يمشي وهو راكب، وزاد الظماً بالمملوك وقد اتخذ في البحر سبيله، وكم قلت، من شدة الظماً، يا ترى قبل الحفرة أطوي من البحر هذه الشقة الطويلة:

وهل أبكر بحر النيل منشرحاً وأشرب الحلو من أكواب ملاح

بحر تلاطمت علينا أمواجه حتى متنا من الخوف، وحملنا على نعش الغراب، وقامت واوات دوائره مقام مع، فنصبنا للغرق لما استوت المياه والأخشاب، وقارن العبد فيه سواد استرقت موالها وهي جارية، وغشيه منها في اليم ما غشيهم فهل أتاك حديث الغاشية، واقعها الريح فحملت بنا، ودخلها الماء فجاءها المخاض، وانشق قلبها لفقد رجالها، وجرى ما جرى على ذلك القلب ففاض، وتوشحت بالسواد في هذا المأتم، وسارت على البحر وهي مثل وكم، سمع فيها للمغاربة على ذلك التوشيح زجل برج

(١) المطوق: مفردا المطوقة وهي الحمامة.

(٢) مكلماً: مجرحاً.

(٣) البين: الاغتراب والسفر.

(٤) قلوبها: أشرعتها.

مائي، ولكن تعرب في رفعها وخفضها عن النسر والحوت، وتشامخ كالجبال وهي خشب مسندة، من تبطنها عد من المصبرين في التابوت، تأتي بالطباق ولكن بالمقلوب، لأن بياضها سواد، وتمشي مع الماء، وتطير مع الهواء، وصلاحتها عين الفساد، إن نقر الموج على دفوفها لعبت أنامل قلوبها بالعود، وترقصنا على آلتها الحدباء، فتقوم قيامتنا من هذا الرقص الخارج ونحن قعود، وتشامم^(١) وهي كما قيل أنف في السماء وإست^(٢) في الماء، وكم تطيل الشكوى إلى قامة صاريها^(٣) عند الميل، وهي الصعدة الصماء، فيها الهدى وليس لها عقل ولا دين، وتتصابي إذا هبت الصبا، وهي ابنة مائة وثمانين، وتوقف أحوال القوم وهي تجري بهم في موج كالجبال، وتدعي براءة الذمة وكم أغرقت لهم من أموال، هذا وكم ضعف نحيل خصرها عن تناقل أرداف الأمواج، وكم وجلت القلوب لما صار لأهداب مجاذيفها على مقلة البحر اختلاج^(٤)، وكم أسبلت على وجنة البحر طرة قلعتها، فبالغ الريح في تشويشها، وكم مرّ على قريتها العامرة فتركها وهي خاوية على عروشها^(٥)، تتعاضم فتهازل إلى أن ترى ضلوعها من السقم تعدّ، ولقد رأيتها بعد ذلك التعاضم وقد تبت وهي حمالة الحطب في جيدها جبل من مسد^(٦).

وأما البراعة التي لخطبة كتابي المسمى «بمجرى السوابق في وصف الخيول المسومة» فإنها أحرزت قصبات السبق، وهي: الحمد لله الذي يقف عند سابق فضله كل جواد، ويقصر في حلبة هذا الكرم الذي ليس له غاية في بديع الاستطراد، فمن ألهمه الحزم وأرشده إلى حد المعرفة، حاز قصبات السبق ولا نقول كاد، نحمده على أن جعل لنا الخير معقوداً بنواصي الخيل، ونشكره شكراً نعلو به على أشهب الصبح ونمتطي أدهم^(٧) الليل، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نرجو أن نكون منها في ميادين الرحمة من السابقين، ونشهد أن سيدنا مجمداً عبده ورسوله قائد الفر المحجلين.

وقد آن أن نقطع طول هذا البحث برسالة السكين، فإن استهلالها يسن ما كل^(٨).

(١) تشامم: تشامخ وتعلو.

(٢) الإست: ما يلامس الأرض من المؤخرة عند الجلوس.

(٣) صارية: تجمع على صواري وهي أشرعة السفينة.

(٤) اختلاج: تحرك.

(٥) خاوية على عروشها: خربة.

(٦) مسد: نار.

(٧) أدهم الليل: ظلامه الشديد.

(٨) كل: فسد.

من الذوق، ويبرزه من قراب الشك إلى القطع باليقين، وما ذاك إلا أنه لما انفرد كجمال الدين عبد الرزاق الأصفهاني برسالة القوس، واستوفى جميع المحاسن، وجاء الشيخ جمال الدين بن نباتة برسالة السيف والقلم، وأظهر فيها معجزات الأدب، أردت أن أعزهما من اختراع رسالة السكين بثالث، واستهليتها بقولي: يقبل الأرض التي قامت حدود مكارمها، وقطعت عنا مكروه الفاقة بمسنون عزائمها. منها: وينهى وصول السكين التي قطع المملوك بها أوصال الجفا، وأضافها إلى الأدوية، فحصل بها البرء والشفاء، وتالله ما غابت إلا وبلغ الأقلام من تقشيرها إلى الحفى^(١). منها: ما شاهدها موسى إلا سجد في محراب النصاب، وذل بعدما خضعت له الرؤوس والرقاب، كم أيقظت طرف القلم بعد ما خط، وعلى الحقيقة ما رؤي مثلها قط، وكم وجد الصاحب بها في المضايق نفعاً، وحكم بحسن صحبتها قطعاً، من أجل أنها تدخل في مضايق ليس للسيف قط فيها مدخل، وكلما تفعله توجزه والرمح في تعقيده مطول، تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس، وبقامتها الحد حافظت الأقلام على مواظبة الخمس، وكم لها من عجائب تركت السيف في بحر غمده كالغريق، ولو سمع بها من قبل ضربه ما حمل التطريق.

انتهى ما أوردته من براءة الاستهلال نثراً ونظماً ومن لم ير بهجة ما أبرزته للمتأخرين فهو في هذه أعمى.



(١) الحفى: التعرية.

الجناس

ذكر الجناس المركب والمطلق:

بالله سر بي فسربي طلقوا وطني وركبوا في ضلوعي مطلق السقم

أما الجناس، فإنه غير مذهبي ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب، وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ، فإن كلاً منهما يؤدي إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان لبلاغة في مضممار المعاني المبتكرة، كقول القائل، وأستحيي أن أقول إنه أبو الطيب:

فقلقت بالهمّ الذي قلقل الحشا قُلاقل عيش كلهن قلاقل^(١)

ولقد تصفحت ديوانه فلم أجد لوافد هذا النوع نزولاً، إلا ما قل في أبياته وهو نادر جداً، ولا العرب من قبله خيمت بأبياتها عليه، غير أن هذا البيت حكمت على أبي الطيب به المقادير، ومثله قول القائل:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

فقرب وقبر، لأجل الجناس المقلوب هو الذي قلب عليه القلوب، اللهم إلا أن يقع الجناس في حشوبيت من البحور التي تحمل ثقله من غير اعتناء بأمره، كقول القائل:

لله لبنى كلما لبنا على تعنيقها ونهودها تتقاعد^(٢)
وبنار أسما وهي أسمى رتبة لقد احترقت وريقها يتبارد

(١) قلاقل: بضم القاف الأولى: العيش السريع التقلقل. والقلاقل بفتحها: الفتن.

(٢) لبنا: من لاب، يلوب، لا يستطيع القعود عن الأمر، أو الصبر عليه.

ففي طلعة شمس التورية هنا ما يغني عن النظر إلى زحل الجناس ولقد أحسن من قال:

أنظر إلى صور الألفاظ واحدة وإنما بالمعاني تعشق الصور
والجناس من صور الألفاظ، وممن وافق على ذلك علامة عصره الشهاب محمود،
وقال: إنما يحسن الجناس إذا قل، وأنى في الكلام عفواً، من غير كد ولا استكراه ولا
بعد ولا ميل إلى جانب الركة^(١)، ولا يكون كقول الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاورٌ مثلٌ شلولٌ شلشلٌ شولٌ^(٢)
ولا كقول مسلم بن الوليد:

شلت وشلت ثم شل شليلها فإني شليل شليلها مشلولاً^(٣)

ولا بأس به في مطالع القصائد، إن تعذر على الناظم أن يركبه تورية، فإنه نوع متوسط، بالنسبة إلى ما فوّه من أنواع البديع، كما قرره مشايخه، كالنورية والاستخدام والاستعارة والتشبيه، وما قارب ذلك من أنواع البديع. وحكي عن ابن جني: أن الأصمعي كان يدفع قول العامة إذا قالوا هذا يجانس هذا إذا كان من شكله، ويقول ليس بعربي خالص. وقال ابن رشيق صاحب العمدة: هو من أنواع الفراغ. وقلة الفائدة، ومما لا يشك في تكلفه. وقد كثر منه هؤلاء الساقية المتعقبون في نظمهم ونثرهم حتى برد ورك (انتهى كلامه). ولم يحتاج إليه، بكثرة استعماله، إلا من قصرت همته عن اختراع المعاني التي هي كالنجوم الزاهرة في أفق الألفاظ، وإذا خلت بيوت الألفاظ من سكان المعاني تنزلت منزلة الأطلال البالية، وما أحلى قول الفاضل هنا:

إنما الدار قبل بالسكان ثم بعد السكان بالجيران
فإذا ما الأرواح شردها الحد ف فمأذا يراد بالأبدان

وكان الشيخ صلاح الدين الصفدي يستسمن ورمه ويظنه شحماً، فيشبع أفكاره منه ويملاً بطون دفاتره، ويأتي فيه بتراكيب تخف عندها جلاميد الصخور، كقوله غفر الله له:

(١) الركة: الركافة: وهي ضعف البناء اللغوي.

(٢) شاورٌ: الذي يشوي اللحم. مثلٌ شلولٌ شلشلٌ شولٌ: كلها ألفاظ ذات معنى واحد وهو الخفيف السريع في عمله.

(٣) شلت: الأولى بمعنى نسجت. والثانية بمعنى: رميت ولم تستعمل، شلٌ: أرسل. شليلها: الذي نسجها: شليل شليلها: بمعنى أنني مغرمٌ بالذي نسجها، مشلولاً: لا حركة له.

ونم في أمان بالحبيب ولا تخف
وقوله: وكم ساق في الظلماء والليل شاهد
وقوله: وإني إذا كان الفراق معاندي
وقوله في الراح:
وكم ألبست نفسي الفتى بعد نورها
وقوله: إذا جرح العشاق قالوا أقتت في
وقوله: وكم شمت لما قست مقدار ودكم
وقوله: ولا تفتحن باب الهدايا وعدّها
وقوله: ثنت نحوه الأغصان قامة لينها
وقوله: ومر على غيري سقام وصحة
لقائط واش في لقاء طواشي^(١)
رواحل واط في رواح لواط^(٢)
مطالع ناء في مطال عناء^(٣)
مدارع قار في مدار عقار^(٤)
مدار جراح في مدارج راح
بوارق ياس في بوار قياس
مطار فراش لا مطارف راش^(٥)
طواعن شاط في طواع نشاط^(٦)
ولم يبرقان مثل ذي يرقان^(٧)

ورأيت بخط الشيخ بدر الدين البشتكي، تحت هذا البيت والذي قبله وهو الضعيف باليرقان، وأن من ذلك مبلغه من النظم لجدير أن يقعد مع صغار المتأدبين (انتهى) ومنه قوله:

فجار وأجرى حين جاورت واجترى
وقوله: زاروا وزانوا وزادوا
فما فاته مما يروم جناس^(٨)
هذا الجناس المليح

وفي ذلك من الركة ما لا يخفى على أهل الذوق السليم، ولولا الخشية من سأم الأسماع لأوردت له كثيراً من هذا النمط، وما أظرف ما وقع له مع الشيخ جمال الدين ابن نباتة، وذلك أنه لما وقف على كتابه المسمى «بجنان الجناس» وقد اشتمل على كثير من هذا النوع، قرأه: جنان الخناس، وجرى بينهما بسبب ذلك ما يطول شرحه، وهذا

(١) لقائط: ما يلتقطه الواشي من أقوال لينقلها ويشي بصاحبها - طواشي: الخصي.

(٢) رواحل: مفردها: راحلة وهي الدابة، واط: السوقه من الناس.

(٣) ناء: بعيد - مطال: إخلاف الوعد والمماطلة في تنفيذه.

(٤) مدارع: مفردها مذرّعه: ثوب من صوف، والقار: المقيم.

(٥) مطارف: مفردها مطرف وهو الثوب الفضفاض - راش: مولود وهو من رشأت الظبية إذا ولدت.

(٦) طواعن: جمع مفردة طاعن وهو ما يطعن به - شاط: مخطيء في رمية.

(٧) سقام: مرض، لم يبرقان: أي لم يضعف الدم - ذي يرقان: المريض بالكبد.

(٨) جار وأجرى: ظلم وجعل غيره يظلم - اجترى: اجترأ - يروم: يبغى.

مما يؤيد قولي أنه غير مذهبي ومذهب من نسجت على منواله، ويعجبني هنا قول الشيخ
زين الدين عمر بن الوردي رحمه الله تعالى:

إذا أحببت نظم الشعر فاختر لنظمك كل سهل ذي امتناع
ولا تقصد مجانسة ومكن قوافيه وكله إلى الطباع

وكان الأسعد بن ممتى أيضاً، ممن لم يجعل الجنس له مذهباً في نظمه، وما
أحلى ما قال:

طبع المجنس فيه نوع قيادة أو ما ترى تأليفه للأحرف

ومن غريب ما يحكى: أن الشيخ صلاح الدين الصفدي، مع تهافته على الجنس
والتزامه بما صنفه في جنسه وأنواعه، زاحم ابن ممتى في لفظ بيته ومعناه فقال:

ألا إن من عانى القريض بطبعه يقود فارسله لمن صد واحتشم
ألم تره إن قال شعراً مجانساً يؤلف ما بين الحروف إذا نظم

فانظر كيف أخذ المعنى وغالب الألفاظ، ولم يتمكن من نظم ذلك إلا في بيتين،
أتى فيهما بكثرة الحشو مع قلة الأدب على أهله، فإن الأسعد أثبت القيادة لطبع
المجنس، والشيخ صلاح الدين أثبت الحكم المذكور لمن يعاني نظم الشعر، وقد طال
الشرح وتعين الكلام على الجنس، لأن الشروع فيه يلزم لأجل المعارضة لمن تقدمني من
ناظمي البديعيات.

أما هذا النوع فإنه ما سمي جناساً إلا لمجيء حروف ألفاظه من جنس واحد، ومادة
واحدة، ولا يشترط فيه تماثل جميع الحروف، بل يكفي في التماثل ما تعرف به
المجانسة. وأما اشتقاق الجنس فمنهم من يقول: التجنيس، هو تفعيل من الجنس،
ومنهم من يقول: المجانسة، المفاعلة من الجنس أيضاً، إلا أن إحدى الكلمتين، إذا
تشابهت بالأخرى، وقعت^(١) بينهما مفاعلة الجنسية. والجناس مصدر جانس، ومنهم من
يقول: النجانس، التفاعل من الجنس أيضاً لأنه مصدر تجانس الشيطان، إذا دخلا في
جنس واحد، ولما انقسم أقساماً كثيرة وتنوع أنواعاً عديدة، تنزل منزلة الجنس الذي
يصدق على كل واحد من أنواعه، فهو حينئذ جنس، وأنواعه: التام والمحرف والمصحف
والملفق وهلم جراً. كما أن البديع جنس وأنواعه: الجنس واللف والنشر والاستعارة
والتورية والاستخدام وغير ذلك من أنواع البديع، وأما حدود أنواع الجنس، فقد اختلفت

(١) في الأصل وقع وما اثبتناه أصح (الشارح).

فيها عبارات البديعيين، ولكن تأتي بحد كل واحد من الأنواع في موضعه ونذكر ما وقع الاتفاق عليه.

وقد صدرت بديعيتي هذه بالجناس المركب والمطلق، حسب ما رتبته الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته، ولكن فاته شنب التسمية وإبرازها في شعار التورية، من جنس التغزل، فحد المركب أن يكون أحد الركنين كلمة مفردة، والأخرى مركبة من كلمتين، وهو على ضربين: فالأول ما تشابه لفظاً وخطأً، كقول الشاعر:

عضنا الدهر بنا به ليت ما حل بنا به

ومثله قول القائل:

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعاني أمت بما أودعاني (١)
وحفظت من شيخي العلامة الشيخ شمس الدين الهيتي الحسيني النجوي، وأنا في مبادي العمر والاشتغال من الجناس المركب المتشابه قول القائل من دوبيت (٢):

في مصر من القضاة قاض وله في أكل مواريث اليتامى وله (٣)
إن رمت عدالة فقل مجتهداً من عدله دراهاماً عدله
وكان يقول لا أعرف لهما ناظماً. وما ألفت قول القائل:

ياسيدا حاز رقى بما حبانى وأولى
أحسنت برا فقل لي أحسنت في الشكر أولاً

وقال العلامة شهاب الدين محمود: أنشدني الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الوهاب لنفسه، من المتشابه لفظاً وخطأً:

حار في سقمي من بعدهم كل من في الحي داوى أورقا (٤)
بعدهم لا طل وادي المنحنى وكذا بان الحمى لا أورقا (٥)

(١) ناظراه: الأولى بمعنى، ناقشاه والثانية بمعنى عيناه - دعاني: أتركاني.

(٢) دوبيت: دو فارسية بمعنى اثنين فيكون: بيتين.

(٣) وله: عشق شديد.

(٤) رقا: استعمل الرقى في التداوي.

(٥) طل: ندي - البان: نوع من الشجر يضرب المثل بأغصانه في الليونة والملاسة.

وأورد الشيخ صلاح الدين الصفدي، لنفسه، في كتابه المسمى «بجنان الجناس» من هذا النوع، قوله:

يا من إذا ما أتاه أهل المونة أولم^(١)
أنا محبك حقاً إن كنت في القوم أولم^(٢)

وهذا النوع لم يذكره الشيخ صفي الدين في بديعته.

انتهى الكلام على المتشابه من المركب لفظاً وخطأ والثاني ما هو متشابه لفظاً لا خطأ، ويسمى المفروق: وهو الذي نظمه صفي الدين في بديعته، كقول الشاعر:

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تكن بالغت في تهذيبها
وإذا عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وساوساً تهذي بها
ومثله قول القائل:

يا من تدل بمقلة وأنامل من عندم^(٣)
كفي جعلت لك الفدا أسياف لحظك عن دمي

ومثله قول ابن أسد الفارقي:

غدونا بآمال ورحنا بخيبة أمات لنا أفهامنا والقرائحا
فلا تلق منا غادياً نحو حاجة لتسأله عن حاجة والتق رائحا

ويحسن هنا قول أبي الفتح البستي فيه:

وإن أقر على رق أنامله أقر بالرق كتاب الأنام له^(٤)

وما أطف قول العلامة شهاب الدين محمود من هذا النوع:

ولم أر مثل نشر الروض لما تلاقينا ببنت العامري
جرى دمعي وأومض برق فيها فقال الروض في ذا العام ربي^(٥)

(١) أولم: أقام وليمة.

(٢) أولم: أي أو لم تكن.

(٣) عندم: نبات يصنع به يقال له: دم الأخوين.

(٤) الرق: العبودية.

(٥) فيها: فمها - ربي: ارتوائي.

ومن لطائف الشيخ جمال الدين بن نباتة:

قمرأ نراه أم مليحاً أمرداً ولحاظه بين الجوانح أم ردى^(١)

ومثله قول شمس الدين محمد بن العفيف:

أسرع وسر طالب المعالي بكل واد وكل مهمه^(٢)
وإن لحا عاذل جهول فقل له يا عذول مه مه

ومثله قوله: إن الذي منزله من سحب دمعي أمرعا^(٣)
لم أدر من بعدي هل ضيع عهدي أم رعى

ومثله قولي للقاضي بهاء الدين السبكي، رحمه الله تعالى:

كن كيف شئت عن الهوى لا أنتهي حتى تعود لي الحياة وأنت هي
وأنشدني قاضي القضاة، تقي الدين بن الحسيني الحنفي، بحماسة في مبادئ العمر
وقد ذكرت بين يديه الجنس المركب:

قلت للعاذل الملح على الدمع وإجرائه على الخد نيلاً
سل سبيلاً إلى النجاة ودع دمع عيوني تجري لهم سلسيلاً
ومن أنواع الجنس المركب نوع يسمى المرفق: وهو أن يكون أحد الركبين جزءاً
مستقلاً والآخر مجزأً من كلمة أخرى، كقول الحريري:

والمكر مهما استطعت لا تأته لتقتني السؤدد والمكرمه
ولا تله عن تذكار ذنبك وابكه بدمع يحاكي المزن حال مصابه
ومثل لعينيك الحمام ووقعه وروعة ملقباه ومطعم صابه^(٤)

وهذا النوع لا يخلو من تعسف وعقادة^(٥) في التركيب.

انتهى الكلام على الجنس المركب وأقسامه، غير أن هنا بحثاً لطيفاً وهو أنه قد

(١) الردى: الموت.

(٢) المهمة: المفازة الواسعة.

(٣) أمرعا: أخصب.

(٤) الحمام: الموت - الصاب: المر المذاق.

(٥) عقادة: تعقيد.

تقرر: إن ركني الجناس يتفان في اللفظ ويختلفان في المعنى، لأنه نوع لفظي لا معنوي، وهو نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع، والتورية من أعز أنواعه وأعلاها رتبة، فإذا جعلت الجناس تورية، انحصر المعنيان في ركن واحد وخلصت من عقادة الجناس، وحركت الأذواق وأبهجت خاطر السامع، بما أتخفته من بديع تركيبها وتأهيله بغريبها، وأنا أذكر المثالين هنا ليتضح في الأذهان الصحيحة، أن النهار لم يحتج إلى إقامة دليل. قال صاحب الجناس المركب:

أعن العقيق سألت برقاً أومضاً أقام حادٍ بالركائب أو مضى^(١)
قال صاحب التورية:

وإذا تبسم ضاحكاً لم ألتفت إن عاد برقاً في الدياجي أو مضى
وهنا يحسن أن يتمثل بقول القائل:
ومن يقل للمسك أين الشذا كذبه في الحال من شما
ومثله قول الشاعر:

نديمي لا تسقني سوى الصرف فهو الهني
ودع كأسها أطلساً ولا تسقني مع دني^(٢)

ومن التورية المركبة ما أنشدني، من لفظه، علامة عصرنا القاضي بدر الدين ابن الدماميني، بما كتب به إلى مولانا الحافظ الشيخ شهاب الدين ملك المتأدبين، وعمدة المحققين، أبي العباس أحمد بن حجر الشافعي:

حمى ابن عليّ حوزة المجد والعللا ومن رام أشتات المعالي وحازها
وكم مشكلات في البيان بفهمه تبينها من غير عجب ومازها^(٣)
فأجابه شيخنا المشار إليه:

بروحي بدرأ في النداء ما أطاع من نهاه وقد حاز المعالي فزانها
يسائل أن ينهى عن الجود نفسه وها هو قد بر العفاة ومانها^(٤)

(١) العقيق: وإد بظاهر المدينة المنورة.

(٢) أطلسا: في لونه طُلْسَة وهي الغُبْرَة إلى السواد. أو شفافاً.

(٣) ومازها: ميزها، ولفظها يوهم أنه: ما افتخر.

(٤) التورية في قوله: ومانها: فاقها، ولفظها يوهم أنه ما طلب ترك الأمر.

وما أحلى ما قال متغزلاً:

سألت من لحظه وحاجبه كالسهم والقوس موعداً حسناً
ففوق السهم من لواحظه وإنقوس الحاجبان وقت رنا^(١)

ومن نثر الشيخ بدر الدين المشار إليه في التورية المركبة، يشير إلى تقريظ^(٢) كتبه لبعض أهل الأدب، على مصنف سافل، لم تمكن تسميته، والتزم في التقريظ نوع الإيهام من الأول إلى الآخر، وكتب الشيخ بدر الدين على ذلك المصنف قوله: ولقد كنت أرتجي باباً أدخل منه إلى التقريظ، ففتح لي المقر التقوي باباً مرتجياً، ونهج الطريق إلى المدح، فاقتفيت آثاره واهتديت حين رأيت منهجاً. ومثله قوله في التقريظ الذي كتبه على بديعيتي هذه: كتبت وأسياف الخطوب ليس لها إلا الجوائح أعماد، والزمن قد كادني بسهام أوتاره المصيبة ورماني بعد أن كاد. ومثله ما أنشدني من لفظه لنفسه الكريمة أحد أعيان العصر، القاضي مجد الدين بن مكانس، حيث قال:

أقول لحبي قم ومس يا معذبي كميصة خود حرك السكر راسها^(٣)
ولا تسه عن شيء إذا ما حكيتها فقام كغصن البان ليناً وما سها^(٤)

وأحجية الشيخ شهاب الدين ابن حجر، في هذا الباب، من طرف الأدب، فإنها تورية خفية مركبة في الأصل:

يا فاضلاً هوفي الأحا جي ليس يخلو من ولع^(٥)
ما مثل قولك للذي يشكو الحبيب أسكت رجع

فصه، مرادف أسكت، وباء مرادف رجع، فحصلت التورية في صهباء، وصه باء، ومن النظم في هذا النوع الغريب قول المعمار:

وخادم يعلو على عشاقه برتبة من الجمال نالها
واسمه وهو العجيب محسن وكم دموع في الهوى أسا لها

(١) التورية في قوله: وقت رنا: عندما نظرت، ومعناها يومم الإقتران والالتصاق.

(٢) تقريظ: مديح.

(٣) مس: أمر من ماس: تمايل - خود: حسناء.

(٤) حكيتها: شابهتها.

(٥) الأحاجي: الألفاظ.

ومثله قول الشيخ شمس الدين المزين في غلام مليح وله لألاء مليح:
 ومليح لآلاه يحكيه حسناً
 قلت قصدي من الأنام مليح
 ومن نظمي الغريب في هذا النوع:
 تصديتم لقتل ضعيف جسم
 وعد ضلوعه بالسقم لما
 لغير الوجد فيكم ما تصدى
 تعديتم عليه وما تعدى
 وقلت فيه:

بعد هند وبعد سلمى تعط
 وفؤادي يقول لا تطلب الري
 شت إلى رشف كل العس المي^(١)
 من الريق بعد هند وسلمى
 وقلت من قصيدة مطولة:

حين قابلت خده بدموعي
 وانظر اليوم خده مع دموعي
 أثرت خلت ثوب خز منمم^(٢)
 واحك ما شئت عن عقيق وعن دم^(٣)
 والبيت الأول من المعاني المخترعة التي لم يسبق إليها.

انتهى ما أوردته من الكلام على الجناس المركب، واستجلاء عرائس التورية، وأما
 الجناس المطلق فإن للناس، في الفرق بينه وبين المشتق معارك، وسماه السكاكي وغيره
 المتشابه والمتقارب، لشدة مشابهته وقربه من المشتق، وكل منهما يختلف في الحروف
 والحركات ولكن الفرق بينهما دقيق، قل من أتى بصحته ظاهراً، فإن المشتق غلط فيه
 جماعة من المؤلفين وعدوه تجنيساً، وليس الأمر كذلك، فإن معنى المشتق يرجع إلى
 أصل واحد. والمراد من الجناس اختلاف المعنى في ركنيه، والمطلق كل ركن منه يباين
 الآخر في المعنى، وأنا أذكر لكل واحد منهما شاهداً يزول به الالتباس، فالمشتق كقوله
 تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما
 عبدتم﴾^(١٤) وقيل إن ما مصدرية أي: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي، فعلى كل
 تقدير، الجميع راجع إلى العبادة، والمعنى في الاشتقاق راجع إلى أصل واحد، ومنه قوله

(١) العس: القدح الكبير - المي: بارد.

(٢) منمم: مزخرف، مزركش.

(٣) عقيق: نوع من الأحجار الكريمة لونه أحمر يميل إلى السواد.

(٤) الكافرون، ١٠٩ / ١ و ٢.

تعالى: ﴿ومن شرّ حاسد إذا حسد﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿إذا وقعت الواقعة﴾^(٢) وقوله
تعالى: ﴿أزفت الأزفة﴾^(٣) ومن النظم قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
وما أطف قول كشاجم، في خادم أسود مشهور بالظلم:

يا مشبهاً في فعله لونه لم تحظ ما أوجبت القسمه
فعلك من لونك مستخرج والظلم مشتق من الظلمه

فإن النبي ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة»، ومن السحر الحلال قول بعض
المتأخرين في هذا الباب:

عابت طيف الذي أهوى وقلت له كيف اهتديت وجنح الليل مسدول^(٤)
فقال آنت ناراً من جوانحكم يضيء منها لدى السارين قنديل
فقلت نار الجوى معنى وليس لها نور يضيء وهذا القول مقبول^(٥)
فقال نسبتنا في الحال واحدة أنا الخيال ونار الشوق تخييل

وقد نبه على الاشتقاق في قوله نسبتنا في الحال واحدة.

ورأيت الشيخ شمس الدين بن الصائغ، في شرحه على البردة، لما انتهى إلى قول
المصنف:

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى ان اشتكت قدماه الضر من ورم

قال: ظلمت وظلام جناس اشتقاق، وهو كقوله تعالى: ﴿وأسلمت مع سليمان﴾^(٦)
قلت: أما ظلمت وظلام فاشتقاق بلا خلاف، وأسلمت مع سليمان جناس مطلق لأنه لم
يرجع في المعنى إلى أصل واحد، وهو أعظم شواهد البديعيين على الجناس المطلق.
انتهى الكلام على المشتق وأما الجناس المطلق، فلشدة تشابهه بالمشتق، يومهم

(١) الفلق، ١١٣ / ٥.

(٢) الواقعة، ٥٦ / ٠١.

(٣) النجم، ٥٣ / ٥٧.

(٤) مسدول: مرخى.

(٥) الجوى: شدة الشوق.

(٦) النمل، ٢٧ / ٠٤٤.

أحد ركنيه أن أصلهما واحد وليس كذلك، كقوله تعالى: ﴿وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ (١) وكقوله تعالى: ﴿ليريه كيف يواري سوءة أخيه﴾ (٢). ومنه ما كتب به إلى المأمون في حق عامل له وهو: فلان ما ترك فضة إلا فضها، ولا ذهباً إلا أذهبه، ولا مالاً إلا مال عليه، ولا فرساً إلا افترسه، ولا داراً إلا أدارها ملكاً، ولا غلة إلا غلها، ولا ضيعة إلا ضيعها، ولا عقاراً إلا عقره، ولا حالاً إلا أحاله، ولا جليلاً إلا أجلاه، ولا دقيقاً إلا دقه. فهذه الأركان هنا شواهد على الجنس المطلق، ليس فيها ركنان يرجعان إلى أصل واحد كالمشتق، بل جميع ما ذكرنا أسماء أجناس، وهي محمولة على دم الاشتقاق، ومثل ذلك من النظم قول الشاعر:

عرب تراهم أعجمين عن القرى متنزلين على الضيوف النزول (٣)
فأقمت بين الأزد غير مزود ورحلت عن خولان غير مخول (٤)
ومثله قول الآخر:

بجانب الكرخ من بغداد عن لنا ظبي ينقره عن وصلنا نفر (٥)
ضفירתاه على قتلي تظافرتا يا من رأى شاعراً أودى به الشعر (٦)

وما أحلى قول القائل: سلم على الربيع من سلمى بذى سلم

فالثلاثة عنان (٧) جنسها، مطلق في المطلق، وقال الآخر وأجاد:

إذا أعطشتك أكف اللثام كفتك القناعة شعباً ورياً
فكن رجلاً رجله في الشرى وهامة همته في الشرياً

وما أحلى قول أبي فراس في هذا النوع:

فما السلاف ازدهتني بل سوائفه ولا الشمول دهنتي بل شمائله (٨)

(١) يونس، ١٠ / ١٠٧.

(٢) المائدة، ٥ / ٣١.

(٣) القرى: بكسر القاف: إطعام الضيف.

(٤) الأزد وخولان: قبيلتان من قبائل العرب.

(٥) عن: ظهر من بعيد.

(٦) ضفירתاه: جديلتا شعره - تظافرتا: تعاونتا - أودى به: ذهب به وأماته.

(٧) عنان جنسها: أرفع أنواعها.

(٨) السلاف: الخمرة - ازدهتني: جعلتني أتبه زهواً - سوائفه: جمع مفردة سالفة وهي =

ومثله قول الصحاب بهاء الدين زهير:

يا من لعبت به شمول ما أطف هذه الشمائل
وللبحتري:

وإذا ما رياح جودك هبت صار قول العذول فيها هباء^(١)
ويحسن هنا قول الشاب الظريف محمد بن العفيف:

أراك فيمتلي قلبي سروراً وأخشى أن تشط بك الديار^(٢)
فجرٌ واهجرٌ وصد ولا تصلني رضيت بأن تجور وأنت جار^(٣)

وما أحسن ما قال الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماة،
رحمه الله تعالى بمنه وكرمه:

تولى شبابي فولى الغرام ولازم شيبى لزوم الغريم
ولو لم يصدني بازئُهُ لما صارمتني مهاة الصريم^(٤)

انتهى الكلام على المطلق وعلى الفرق بينه وبين المشتق منه نظماً ونثراً، وقد رسم
لي أن أثبت في بديعيتي هذه أبيات من تقدمني في النظم، كالشيخ صفي الدين الحلبي
والشيخ عز الدين الموصللي، وما ورد في بديعية العميان من القدر الذي استعملوه،
ليشاهد المتأمل في هذا الميدان مجرى السوابق، فإن الشيخ صفي الدين جمع بين
الجناس المركب والمطلق، في بيت واحد وهو المطلق فقال:

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم وأقر السلام على عرب بذى سلم
والعميان لم يأتوا في البيت إلا بنوع واحد، فقالوا في المركب:

دع عنك سلمى وسل ما بالعقيق جرى وأمّ سلعاً وسل عن أهله القدم^(٥)

= الأحدوث - الشمول: الريح الشمالية، والجارية التفت بثيابها حتى بانت تقاسيم جسمها - شمائل:
خصال ومزايا.

(١) هباء: لا أثر له ولا معنى.

(٢) تشط: تبعد.

(٣) فجر: من الجور وهو الظلم - وصد: أي قابلني بالصدود وعدم النظر إلي - لا تصلني: لا تمنحني
الوصال.

(٤) صارمتني: قاطعتني، الصريم: إسم موضع.

(٥) أمّ: أقصد - القدم: القدماء.

وقالوا في الجنس المطلق:

جار الزمان فكفوا جوره وكفوا وهل أضام لدى عرب على أضم^(١)

فالمطلق في أضام وأضم، وأما جار وجور فمشتق، ولكن لم يخف ما في البيتين من الثقل، مع خفة الالتزام، وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

فحيي سلمى وسل ما ركبت بشداً قد أطلقته أمام الحي عن أمم^(٢)

فالشيخ أتى بالنوعين في بيت واحد، وورى بالاسمين من جنس الغزل، ومع ذلك تلطف وتضائل عليهم واحتشم، وبيتي، تقدّم ذكره، ولكن دعت الضرورة إلى ذكره هنا حسب المرسوم وهو:

بالله سر بي فسريي طلقوا وطني وركبوا في ضلوعي مطلق السقم

وفي تسمية النوع، هنا ما يغني عن التنبيه عليهما. وقد تقدم الشرح على كل واحد منهما، والشيخ صفي الدين والعميان لم يثقل التقييد بتسمية النوع لهم كاهلاً مع أن يكون مورى به من جنس الغزل، وشتان بين عالم الإطلاق والتقييد بضيق هذا الخناق، لأن الرقيق لم يقيم له سوق، بل يصدّق إذا ما ادعى عتقه، والله المسؤول أن يقيم لنا سوق القبول، في متاجر الرقة، فإن الشيخ صفي الدين قال في خطبته، مع إطلاق قياده، فانظر أيها العالم الأديب إلى غزارة الجمع، وهي ضمن الرياقة^(٣) في السمع، ثم قال بعد ذلك:

ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

ذكر الجنس الملقق:

ورمت تلفيق صبري كي أرى قدمي يسعى معي فسعى لكن أراق دمي

حد الملقق أن يكون كل من الركنين مركباً من كلمتين، وهذا هو الفرق بينه وبين المركب وقل من أفرده عنه، وغالب المؤلفين ما فرقوا بينهما، بل عدوا كل واحد منهما مركباً إلا الحاتمي وابن رشيق وأمثالهما، ولعمري لو سماوا الملقق مركباً والمركب ملفقاً،

(١) كفوا: من وكف الدمع إذا غزر - أضام: أضر - أضم: إسم جبل.

(٢) عن أمم: عن كنب، عن قرب.

(٣) الرياقة: ما يروق السمع.

لكان أقرب إلى المطابقة في التسمية، لأن الملقق مركب في الركنين، والمركب ركن واحد كلمة مفردة، والثاني مركب من كلمتين، وهذا هو التلقيق، وما ألم بالملقق أحد من أصحاب البديعيات غير الشيخ صفي الدين الحلبي، وما ذاك إلا أنه قال، في خطبة بديعته، أنها نتيجة سبعين كتاباً في هذا الفن، وهذا دليل على إنه لما عارضه الشيخ عز الدين، والتزم تسمية الأنواع التي ذكرها الشيخ صفي الدين، لم يجد بدأً من نظمه لأجل المعارضة، ولكن نحت فيه بيتاً من الجبال، وسيأتي. وأما العميان فإنهم عدوه في بديعيتهم من المركب، فاختصرته هنا، وكذلك بقية أبياتهم في أنواع الجناس تعين اختصارها، فإنهم لم يأتوا في البيت إلا بالنوع الواحد.

ومن الملقق في النظم قول الشاعر:

وكم لجباه الراغبين إليه من مجال سجود في مجالس جود
وما ألطف ما قال القاضي أبو علي عبد الباقي بن أبي حصين في هذا النوع، وقد ولي القضاء بالمعرة وهو ابن خمس وعشرين سنة، وأقام في الحكم خمس سنين وهو:

وليت الحكم خمساً وهي خمس لعمري والصبا في العنفوان
فلم تضع الأعادي قدر شاني ولا قالوا فلان قد رشاني

وما أحلى قول الشيخ شرف الدين بن عنين في هذا الباب:

خبروها بأنه ما تصدى لسلو عنها ولو مات صدا(١)
ويعجبني قوله بعد المطلع:

وسلوها في زورة من خيال إن تكن لم تجد من الهجر بدا(٢)
وبيت الحلبي في الملقق:

فقد ضمنت وجود الدمع من عدم لهم ولم أستطع مع ذاك منع دمي

ولم يمكن الشيخ صفي الدين أن يحصر مع الملقق غيره من أنواع الجناس في بيت واحد، لما تقدم من صعوبة مسلكه، وهو عزيز الوقوع، ولكن له رونق وموقع في الذوق لطلاوة(٣) تركيبه، وغرابة أسلوبه، وبيت الشيخ صفي الدين في غاية الرقة والانسجام،

(١) سلو: نسيان.

(٢) زورة: أي زيارة.

(٣) الطلاوة: الحسن والرواق.

غير أن التحريف حكم عليه فصار مشوشاً، والمشوش كل جنس تجاذبه طرفان من الصنعة، فلا يمكن إطلاق أحدهما على الآخر، وبيت صفي الدين تجاذبه المحرف والملفق إنتهى .

وبيت الشيخ عز الدين :

ملفق ظاهر سرى وشان دمي لما جرى من عيوني إذ وشى ندمي^(١)

هذا البيت فيه الجناس الملق على الصنعة، وتسميته على الشروط المذكورة، ولكن عجزت لعقادة تركيبه، عن الطيران بأجنحة الفهم لا أحوم له على معنى، ونظرت بعد ذلك في شرحه فوجدته قد قال: إن لفظة ملفق صفة للجار والمجرور في قوله فحبي سلمى وسل ما ركبت بشذا، يعني إن الشذا الذي أطلقتها سلمى أمام الحي كان ملفقاً، وبيتي المسؤول له من الله السلامة:

ورمت تلفيق صبري كي أرى قديمي يسعى معي فسعى لكن أراق دمي

والكلام في رقة قولي: ورمت تلفيق صبري الخ البيت، إنما وقع من أصحاب الغراميات، لا من أصحاب البديعيات، وقد تقدّم قولي: إن الفرقة الناجية من التعسف والتكلف، في النظم، لم ترض بالجناس إذا أمكنت التورية، وقال المقر المرحومي الفخري، في التورية التي سماها جناساً ملفقاً:

إن الهوائين يا معشوق قد عبثا بالروح والجسم في سري وفي علني
فالروح تفديك بالممدود قد تلفت والجسم حوشيت بالمقصور فيك فني^(٢)

وأشدني، من لفظه لنفسه، علامة عصره الشيخ بدر الدين الدماميني:

تدري لماذا أتاك قلبي في عسكر الوجد وهو ذائب
أذنب ثم اختشى فوافي من ذلك الذنب فيك تائب

وأشدني، من لفظه لنفسه الكريمة، أحد أعيان العصر ابن مكناس:

كمال أوصافي يا منيتي في الحب أن أصبحت مثل الخلال
وملت من سكر الهوى نشوة فارحم معني مغرمأ فيك مال^(٣)

(١) سرى: سار متخفياً - شان: عاب - وشى: دل.

(٢) الممدود: الجسم - تلفت: خربت - المقصور: أو المقصورة وهي مكان الإقامة أو الصلاة والتورية في

قوله: فيك فني التي يوهم لفظها بقوله في كفني.

(٣) معني: أسير الحب. أو الذي يعاني من الحب.

ومن نظمي في هذا النوع الغريب:
رأت حياة شبابي قد قضت أجلاً
قالت سرقت نحول الخصر قلت لها
انتهى والله عز وجل أعلم.

والسقم قد زاد لما قل مصطبري
ما يحمل الشيخ هذا وهو في كبري^(١)

الجناس المذيل واللاحق:

وذيل الهم همل الدمع لي فجرى
كلاحق الغيث حيث الأرض في ضرم^(٢)
المذيل اختلف جماعة المؤلفين في اسمه، ولم يتقرر له أحسن من هذه التسمية،
فإن فيها مطابقة للمسمى، وما ذاك إلا أن المذيل: هو ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفاً
في آخره فصار له كالذيل، وهو الفرق بينه وبين المطرف، ويأتي الكلام على المطرف في
موضعه، فالمذيل كقول كعب بن زهير:

ولقد علمت وأنت خير عليمة
وما أطف من قال:
وسألتها بإشارة عن حالها
فتفتست صعداً وقالت ما الهوى
ومنه قول أبي تمام:

أن لا يقربني الهوى لهوان^(٣)
وعلياً فيها للوشاة عيون
إلا الهوان فزال عنه النون

يمدون من أيد عواص عواصم
وقال آخر:

تصول بأسياف قواض قواضب^(٤)

عذيري من دهر موارٍ موارٍ
له حسنات كلهن ذنوب^(٥)

(١) نحول الخصر: ضموره ودقته.

(٢) همل الدمع: دائم الدمع - ضرم: أي اضطرام اشتعال ولهيب.

(٣) الهوان: الذل.

(٤) عواص: مخفية، عواصم: بيض، وهي صفة الأيدي، تصول: تحارب - قواض: تقوض العدو - قواضب: قاطعة.

والمعنى: تمد أيدٍ بيضاء من التستر تحارب بأسياف تقوض الأعداء وتقطعهم.

(٥) عذيري: أي من عذيري، والعذير كثر المخلص - موارٍ: مدبر - موارٍ: يأتي بعكس ما يشتهي الإنسان.

ومن الثر فلان حام حامل لأعباء الأمور، كاف كافل لمصالح الجمهور. ومثله فلان
سال عن إخوانه سالم من زمانه، ومن غراميات البها زهير في الجناس المذيل قوله من
قصيدة:

أشكو وأشكر فعله فاعجب لشاك منه شاكر
طرفي وطرف النجم فيك كلاهما ساهٍ وساهر
ولم يخرج عما نحن فيه قوله منها:

يا ليل بدرك حاضر يا ليل بدري كان حاضر
حتى يبان لناظري من منهما زاهٍ وزاهر
وما أحلى ما ختم القصيدة بقوله:

بدري أرق محاسناً والفرق مثل الصبح ظاهر
وقد تأتي الزيادة في آخر المذيل بحرفين، كقول حسان بن ثابت:

وكنا متى يغزو النبي قبيلة نصل بجانبه بالقنا والقنابا^(١)
ومنه قول النابغة:

لها نار جنّ بعد أنس تحولوا وزال بهم صرف النوى والنواب^(٢)
ومنه في رثاء قوله:

فيا لك من حزم وعزم طواهما جديد الردى تحت الصفا والصفائح^(٣)
وأرق ما سمعته في هذا الباب قول القائل:

إن البكاء هو الشفا ء من الجوى بين الجوانح

انتهى الكلام على الجناس المذيل وأما اللاحق، فقل من فرق بينه وبين
المضارع، والمراد بالمضارع هنا المشابه، والفرق بينهما دقيق، فإن اللاحق هنا ما أبدل
من أحد ركنيه حرف من غير مخرجه، ومتى كان الحرف المبدل من مخرج المبدل منه

(١) القناب: المخالب.

(٢) صرف النوى: تصريف النوى وتشتيته والنوى البعد - النواب المصائب مفردا نائبة وهي ما ينوب
الإنسان.

(٣) الردى: الموت - الصفا: الحجارة العريضة، والصفائح: الحجارة العريضة الملساء.

سمي مضارعاً، وإن كان قريباً منه كان مضارعاً أيضاً، وأنا أذكر شاهد كل منهما، فإن الفرق بينهما يدق عن كثير من الأفهام، ولم يساعده على ظلمة شكه غير ضياء الحسن.

والمضارع هو المتشابه في المخرج، كقوله تعالى، وهو إلى الغاية التي لا تدرك ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾^(١) ومنه قوله ﷺ: «الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة». ومثله قول بعضهم: البرايا أهداف البلايا.

ومن النظم قول الشريف الرضي رحمه الله:

لا يذكر الرمل إلا حنّ مغترب له إلى الرمل أوطار وأوطان^(٢)

فاللام والراء والنون من مخرج واحد، عند قطرب والجرمي وابن دريد والفاء. قال بعض أهل الأدب في كتاب: رايش سهامه بالعقوق، ولوى ماله عن الحقوق. فالعين والحاء من مخرج واحد. ويعجبني قول الشيخ جمال الدين بن نباتة في هذا الباب:

رق النسيم كرقتي من بعدكم فكأننا في حيكم نتغايير
ووعدت بالسفلوان واش عابكم فكأننا في كذبنا نتخايير^(٣)

فالعين والحاء من مخرج واحد.

انتهى الكلام على المضارع ومقاربه في مخارج حروفه على الابدال، واللاحق قد تقدم أنه ما أبدل من أحد ركنيه حرف من غير مخرجه، كقوله تعالى: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر﴾^(٤). وكتب بعضهم في جواب رسالة: وصل كتابك فتناولته باليمين، ووضعته مكان العقد الثمين. ومن النظم، قول البحري، وأجاد إلى الغاية:

عجب الناس لاعتزالي وفي الأطراف تلقى منازل الأشراف
وقعودي عن التقلب والأرض لمثلي رحيبة الأكناف^(٥)
ليس عن ثروة بلغت مداها غير أنني امرؤ كفاني كفاي^(٦)

(١) الأنعام، ٦ / ٢٦.

(٢) أوطار: مفرداها وطر وهي الحاجة.

(٣) تتخايير: يخير بعضنا الآخر.

(٤) الضحى، ٩٣ / ١٠.

(٥) اكناف: نواحي، مفرداها كنف.

(٦) كفاي: ما يقيم أودي وأحافظ به على حياتي.

فكفاني وكفاني هو اللاحق الذي لا يلحق. وهنا نكتة لطيفة تؤيد قول البحري في بيته الأول وهو:

عجب الناس لاعتزالي وفي الأطراف تلتفى منازل الأشراف

قيل لبعضهم: في أي موضع في القرآن الأطراف منازل الأشراف؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾^(١) فهذا أشرفهم، وكان ﷺ ينزل من أقصى المدينة والأطراف والأشراف مما نحن فيه. وما أحلى قول أبي هلال العسكري في اللاحق:

أراعي تحت حاشية الدياجي شقائق وجنة سقيت مداما^(٢)
وإن ذكرت لواظ مقلتيه حسبت قلوبنا مطرت سهامها
وإن مالت بعطفه شمول سقانا من شمائله سقاما^(٣)

انتهى الكلام على الجناس اللاحق، والفرق بينه وبين المضارع، ومن الناس من يسمي كل ما اختلف بحرف، تجنيس التصريف، سواء كان من المخرج أو من غيره، ولكن رأيت استجلاء الفرق أنور، ولا يشترط أن يكون الإبدال في الأول ولا في الوسط ولا في الآخر، فإن جل القصد الإبدال كيفما اتفق، وبيت الشيخ صفي الدين يشتمل على المذيل واللاحق وهو:

أبيت والدمع هام هامل سرب والجسم في أضم لحم على وضم^(٤)
وبيت الشيخ عز الدين الموصللي:
يذيل الدمع جار جارح بأذى كلاحق ماحق الآثار في الأكم^(٥)

قال شيخنا الشيخ شمس الدين الهيتي، وقد تقدمت ترجمته لما أنشدته هذا البيت والذي قبله، بعد حفظي لهما من المصنف بحماسة: لو عزا أحد هذين البيتين إلى الجان ما شككت في قوله. وبيت بديعيتي:

(١) يس، ٣٦ / ٢٠.

(٢) مداماً: خمراً أديمت في دنانها وعتقت وهي أجود الخمرة.

(٣) عطفه: جانبه - شمول: رياح شمالية.

(٤) هام: منصب انصباباً - هامل: منسكب بغزارة وديفومة. سرب: يتبع بعضه بعضاً - الأضم: الأذى - وضم: كل ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير أو مائدة الطعام.

(٥) الأكم: جمع مفردة أكمة وهي التلة الملتفة الأشجار.

وذيل الهم همل الدمع لي فجرى كلاحق الغيث حيث الأرض في صرم
فالمذيل في هم وهمل واللاحق في غيث وحيث.

الجناس التام والمطرف:

يا سعد ما تم لي سعد يطرفني بقربهم وقليل الحظ لم يلم^(١)

أما الجناس التام: فهو ما تماثل ركناه واتفقا لفظاً واختلفا معنى، من غير تفاوت في تصحيح تركيبهما، واختلاف حركتهما، سواء كانا من اسمين، أو من فعلين، أو من اسم وفعل، فإنهم قالوا: إذا انتظم ركناه، من نوع واحد، كاسمين أو فعلين، سمي مماثلاً، وإن انتظما من نوعين، كاسم وفعل، سمي مستوفى، وجل القصد تماثل الركنين في اللفظ والخط والحركة واختلافهما في المعنى، سواء كانا من اسمين أو من غير ذلك، فإن المراد أن يكون الجناس تاماً، على الصفة المذكورة، من حيث هو أكمل الأنواع إبداعاً وأسماءها رتبة وأولها في الترتيب، فمنه قول الإمام أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه: صولة الباطل ساعة، وصولة الحق إلى الساعة. وقيل: ما وقع في القرآن العظيم غير هذين الركنين، وهو قوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾^(٢). ولكن استخرج ابن حجر من القرآن جناساً آخر تاماً عظيماً، وهو قوله تعالى: ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ * يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعلبة لأولي الأبصار^(٣). ومن الشعر قول بعضهم وأجاد:

وسميته يحيى ليحيى فلم يكن إلى ردّ أمر الله فيه سبيل

ومن ملح هذا النوع قول ابن الرومي:

للسود في السود آثار تركزن بها وقعا من البيض يثني أعين البيض^(٤)

ومنه قول أبي الفتح البستي:

سما وحمى بني سام وحام فليس كمثل سام وحام

(١) يا سعد: ترخيم يا سعدى، وسعد الثانية: الحظ الجيد - يطرفني: يمتعني.

(٢) الروم، ٣٣ / ٥٥.

(٣) النور، ٢٤ / ٤٣ و ٤٤.

(٤) السود الأولى: الفرسان السود - والسود الثانية: لمعنى الليالي السود - الوقع: الضرب - البيض: ما يلبسه الفارس اتقاءً للسيوف - يثني: يرد - البيض: النساء البيض.

أما أبو الفتح، فإنه ثابر على استعمال الجنس كثيراً، ولكن ما أعلم أنه نظم أحسن من هذا البيت، وقد تجمل به نوع الجنس وكاد أن يكون تورية. وما أحسن قول المعري فيه وأحشمه:

لم نلق غيرك إنساناً يلاذ به فلا برحت لعين الدهر إنساناً^(١)
ومطلع الشيخ صفي الدين، في قصيدته البائية التي عارض بها المتنبي، وامتدح بها السلطان الملك الناصر، سقى الله عهده، حسن في هذا الباب وهو:

أسبلن من فوق النهود ذوائباً فتركن حبات القلوب ذوائباً^(٢)
ومن محاسنها:

عابته فتضرجت وجناته وازور الحاظاً وقطب حاجباً^(٣)
فأذابني الخدّ الكليم وطرفه ذو النون إذ ذهب الغداة مغاضباً^(٤)

ومطلع قصيدة ابن نباتة التي امتدح بها الملك الأفضل، صاحب حماة، غاية في هذا النوع، وقد عارض أبا الطيب المتنبي، ولكن أتى فيها بما لو سمعه أبو العلاء لرجع عن ديوان أحمد، وأقر بمعجزات محمد. فمطلع المتنبي:

أرق على أرق ومثلي يأرق وجوى يزيد وعبرة تترق^(٥)
ومطلع ابن نباتة:

ما بت فيك بدمع عيني أشرق^(٦) إلا وأنت من الغزاة أشرق^(٦)
ولأجل إطنابي في هذه القصيدة تعين إيراد شيء من محاسنها هنا. فمنها:

أنفقت عيني في البكاء وجبذا عين على مرأى جمالك تنفق
وتكاثرت في الجفن أنجم أدمعي فكأن غرب الجفن مني مشرق

(١) يلاذ به: يحتفى به - إنسان العين: يؤبؤها.

(٢) أسبلن: أرخين - النهود: جمع مفردة نهد وهو الثدي - الذوائب: خصل الشعر.

(٣) تضرجت: أحمرت من جراء تدفق الدم إليها من الخجل - والوجنات مفردها وجنة: وهي كرسي الخد ويقصد بها معظمه - أزور الحاظاً: أدار نظره عني.

الكليم: الجريح - ذو النون: هو الذي ورد ذكره في القرآن في قوله تعالى: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً...﴾ الأنبياء ٢١ / ٨٧.

(٥) الأرق: عدم استطاعة النوم - عبرة: دمعة.

(٦) أشرق: أغص: الغزاة: من أسماء الشمس - أشرق: أكثر إشراقاً

أني لجورك في الهوى أتشوق
والدمع راحة من يحب ويعشق
يفني عليك حياته لموفق
وسهام سحر من جفونك ترشق
فاعجب له من سائل يتصدق
في غيظ عذالي عليك فلا سقوا^(١)
بالحلي يزهر والغلائل يورق
خطابه حب القلوب معلق
حظى عليه وهو رزق ضيق
ولبست ثوب الراح وهو معتق
للشرب ما بين الندامى زورق
فهو السنان أو العدو الأزرق
لكننا لا عن رضا نتفرق
لا يستقر وطالب لا يرفق^(٢)
نحوي السقاة وأن فودي أبلق^(٣)
أرق على أرق ومثلي يأرق

وأخافني فيك العذول وما درى
قسماً بمن جعل الأسى بك لذة
إن العذول هو الغبي وإن من
لي من نصيب هواك سهم وافر
يمتار من دمعي عليك ذوا البكا
ولقد سقيت بكأس فيك مدامة
وضممت من عطفك غصن ملاحه
وقرأت من خديك بعد تأمل
ورزقت من جفنيك ما حسد الورى
ونعمت باللذات وهي جديدة
في ليل أفراح كأن هلاله
حتى استطال الفجر يطعن في الدجى
يا حبذا ليل نبيع به الكرى
حيث الشباب إلى المسرة راکض
ما سرنى أن الكميت يحثها
زار الضنا ونأى الحبيب وعادني

والعذر عن طول ما أوردته واضح لغرابة أسلوبها غزلاً ومدحاً. منها في المدح:

أصل الفخار وكل ذكر ملحق
والنجم بعض جدودهم فليرتقوا^(٤)
فلأنه بأبي الفتوح مطوق
فلأنهم ببقاء أفضلهم بقوا
فالقلب قبل الطرف فيها مطرق

قوم لذكراهم على صحف العلا
الملك بعض ديارهم فلينزلا
إن يسجع الدين الحنيف بمدحهم
أو يبق ماضيهم على سنن الوفا
ملأت مواهبه القلوب مهابة

(١) لاسقوا: دعاء عليهم بمعنى لا سقاهم الله، إذ يقال في معرض الدعاء لهم سقاهم الله أو سقى الله قبره إلخ...

(٢) لا يرفق: لا تأخذه بنفسه شفقة أو رحمه.

(٣) الكميت: الخمرة التي لونها أحمر يشوبه السواد - والفود: جانب الرأس مما يلي الأذن - أبلق: خالط سواده بياض أي شاب.

(٤) هذا البيت كناية عن فضلهم وعلو حسبهم.

وكأنما أقلامه بسوادها
لا عيب فيه سوى العزائم قصرت
منها:

يا أيها الملك المكمل فضله
وبقيت للمداح تجلب عيسهم
أذكرتنا زمن المؤيد لا عدت
حتى تجر به ذيون حديقة

منها:

وبديعة كالروض إلا أنها
نظمتها عقداً بدون مثاله
لا فضل لي فيها وبحرك قاذف
من عش بيتك قد درجت فطار لي
ولكم علقت من القريض صناعة
لكم الولا مني لأن نداكم

ومن مطالعي في الجناس التام قولي:

يا طيب الأخبار يا ربح الصبا
يا من إليه كل قلب قد صبا

وهذه القصيدة كتبت بها من القاهرة المحروسة سنة اثنتين وثمانمائة إلى القاضي تاج الدين بن البارزي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف، تشوقاً إليه وإلى حماة المحروسة، وقلت بعد المطلع أخاطب النسيم بما هو أرق منه:

يا صادق الأنفاس يا أهل الذكا
يا طاهر الأذيال كم لك من نبا^(٦)

(١) البين: الفراق - تنعق: تصوت والنعيق: صوت الغراب.

(٢) عيس: جمع مفردة أعيس وهو من الجمال التي يخالط بياضه شقرة.

(٣) المشوى: القبر - باكية الغمامة: من الغيوم الممطرة - تشقق: ترتفع.

(٤) أكمامها: مفردا كَم وهو برعم الثمرة - تفتق: تفتتق تفتتح.

(٥) نداكم: عطائكم - يعتق: يحل عقده ويحرره.

(٦) الذكا: طيب الرائحة - نبا: نبا، خير.

يا من نراه عبارة عن حاجر
يا نسمة الخير الذي من طيبه
بالله إن رنحت ذيلك بالحمي
وهززت فيه كل عود أراكمة
ولثمت من ثغر الأفاحي مبسماً
ودخلت كل خباء زهر قد غدا
وطرقت حي العامرية ظامئاً
وحملت من نشر الخزامى نقحة
عج بالعذيب فإن محجر عينه
واصحب عبير المسك منه فإنه
وإذا تنسنت الشذا وتعطرت
عرج على وادي حماة بسحرة
واحمل لنا في طي بردك نشره
واسرع إليّ وداو في مصر به
لله ذاك السفح والوادي الذي
وانعم بمصر نسبة لكن أرى
أرض رضعت بها ثدي شبيتي
يا ساكني مغنى حماة وحقكم
ومهالك الحرمان تمنع عبدكم
وإذا اشتهيت السير نحو دياركم
وقد التفت إليك يا دهري يظو
قررت لي طول الشتات وظيفة
وأسرتني لكن بحق محمد

يا روح نجد مرحباً بك مرحباً
نتشقى الأخبار عن تلك الربا
ووردت شعباً من دموعي معشياً^(١)
أضحى بهاتيك الثغور مطيباً
أبدى بدرّ الطل ثغراً أشنباً^(٢)
بدموع أجفان الغمام مطيباً
فنعمت في الوادي برياً زينياً^(٣)
مشمولة بالطيب من ذاك الخبا^(٤)
أضحى لما حملته مترقباً
لشوارد الغزلان أضحى مشرباً
منك الذبول وطبت يا ريح الصبا
متيمماً منه صعيداً طيباً
فبغير ذاك الطيب لن تطيباً
قلباً على نار البعاد مقلباً
ما زال روض الأنس فيه مخصباً^(٥)
وادي حماة ولطفه لي أنسباً
ومزجت لذاتي بكاسات الصبا
من بعدكم ما ذقت عيشاً طيباً
من أن ينال من التلاقي مطلباً
قرأ النوى لي في الأواخر من سبا
ل تعتبي وبحق لي أن أعتباً
وجعلت دمعي في الخدود مرتباً^(٦)
يا دهر كن في مخلصي متسبياً

(١) رنحت: حرّكت - شعباً: حياً.

(٢) أشنباً: رقيق الأسنان أبيضها.

(٣) طرقت: من طرق المكان إذا مر به

(٤) النقحة: السحابة الصيفية البيضاء.

(٥) مخصباً: كثير الخصوبة.

(٦) الشتات: الفراق والابتعاد عن الأهل والأقارب.

لم ألق غيرهما لقلبي مطلباً
خفضي غدا عن رفع قدري معرباً
من فوق هام الفرقدين وطنباً^(١)
م برقمها الزاهي طرازاً مذهباً
عين الكمال وحققها أن تنسباً
لخطابة فابن الخطيب هنا هباً^(٢)
وأراه للعلم الشريف مبوباً
تلقاه باباً للنجاح مجرباً
قد جمل الدنيا وزان المنصبا
أغنت نهار الخطب عن بيض الظبا^(٣)
قد كحلت بسواد أحداق الظبا^(٤)
أبدت لنا سحراً حلالاً طيباً^(٥)
فغدا بها بين الأنام مشيباً^(٦)
لم نلق إلا مرقصاً أو مطرباً

فمحمد ومدينة قد حلها
مولي إذا قصد الزمان بلحنه
ذو رتبة نصب السعود بيوتها
وفضائل أمست على حلل العلو
وكتابة منسوبة لكن إلى
وإذا تسنم ذروة من منبر
من بيت فضل قد علت طبقاته
وإذا وقفت لحاجة في بابه
يا كاتب الأسرار يا من فضله
أقلامك السمر الرشاق إذا اثنت
سود العيون كأنما ألحاظها
لكن إلى وجه الطروس إذا رنت
وسرى نسيم الذوق في قصباتها
فلاجل ذا إن رجعت أقوالها

رجع إلى ما كنا فيه من الجنس التام، ومن نظمي فيه أيضاً مع زيادة التورية:

طلبت تقبيل من أحب وقد
فرق لي قلبه وقال إذا
أنكرت في الخد نقطة حسنه
لثمت خدي لا تنكر الحسنه

انتهى الكلام على الجنس التام، وقد تقدم قولي إن جميع من نهلت من شرابهم
الصافي لم يرضوا بالجناس التام، إذا أمكن استدراك التورية من ركنيه، لعلمهم بعلو
رتبتها عنه والتفات الأذواق الصحيحة السليمة إلي حسين موقعها، وإذا راجعت النظر في
كلامهم وجدت غالب ما نظموه من التورية جناساً تاماً، فمن ذلك قول الشيخ صدر الدين
ابن الوكيل من دو بيت:

-
- (١) السعود: الحظ والبخت - الفرقدين: نجمان في السماء ثابتان قرب القطب الشمالي يهتدى بهما.
(٢) ابن الخطيب: هو الوزير لسان الدين الأديب والشاعر والخطيب المعروف - هباً: انحط قدره.
(٣) الرشاق: مفردا رشيق وهو السريع الخفيف - الخطب: المصيبة - بيض الظبا السيف والظبا: حد
السيف وشفرته.
(٤) الظبا: الظباء مفردا ظبي وهو الغزال الأعفر.
(٥) الطروس: مفردا الطرس وهو الكتاب الذي محي ثم كتب.
(٦) قصباتها: قصبات الأقلام ما يكتب به منها وهي رؤوسها.

كم قال معاطفي حكتها الأسل والبيض سرقن ماحوته المقل^(١)
والآن أوامري عليهم حكمت البيض تحدد والقنا تعقل^(٢)

ففي تحدد وتعقل جناسان تامان، إذا أبطلت الاشتراك وأبرزت كلاً من الركنين في موضعه، على طريق من له رغبة في الجنس، ومثله قول محيي الدين بن عبد الظاهر في كوز^(٣):

وذي أذن بلا سمع له قلب بلا قلب
إذا استولى على حب فقل ما شئت في الصب

ومثله قول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي:

تعشقت له لدن القوام مهفهفاً شهى اللمي أحوى المرأشف أشنبا^(٤)
وقالوا بدا حب الشباب بوجهه فيا حسنه وجهاً إليّ محبباً

ومثله قول الشيخ شرف الدين الأنصاري شيخ شيوخ حماة:

لنا من ربة الخالين جاره تواصل تارة وتصدّ تاره^(٥)
تعاملني بما يحلو وتلوي ولكن ليس في جوفي مراره

ومثله قول الشيخ ظهير الدين البارزي، سقى الله ثراه:

يا لحيّة الحب التي طال لها تلفتي
هل أنت مسك الترك أو هل أنت مسك نبتي

ومثله قول الشيخ علاء الدين الوداعي:

أثخنت عينها الجراح ولا إثم عليها لأنها نعساء^(٦)
زاد في عشقها جنوني فقالوا ما بهذا فقلت بي سوداء^(٧)

(١) الأسل: نبات كثير الأغصان شائكها تصنع منه الحصر والحبال.

(٢) تُحد: تعاقب بإنزال الحد بها والحد مفرد حدود وهي في الفقه والشرع: حد الزنى حد شرب الخمر، حد السرقة... إلخ ومعناه قصاص معين ينزل بالشخص مقابل عمله الشائن.

(٣) الكوز: الإبريق الصغير.

(٤) لدن: لِين ورشيق - مهفهفاً: ضامر البطن دقيق الخصر: اللمي السمرة - أحوى المرأشف: لون شفتيه فيه كمة وهي الاحمرار المشوب بالسواد والأشنب: رقيق الأسنان أبيضها.

(٥) الخالين: مفردها الخال وهو شامة سوداء تظهر عادة في الخد.

(٦) أثخنت: كثرت فيها وأثقلتها - نعساء: ناعسة.

(٧) سوداء: سوداوية المزاج.

ومثله قول لسان الدين بن الخطيب:

جلس المولى لتسليم السورى
فلإذا ما سألوا عن يومنا
ولفصل البرد في الجو احتكام
قلت هذا اليوم برد وسلام

ومثله قول الشيخ سراج الدين الوراق، فيمن بخل بالراح، والتورية ثلاثية وهو:

لا تطمعن براحة من معشر
قطعت عن المعروف أيديهم وقد
سادوا بغير مآثر السادات
سرقوا العلا فخلت من الراحات

ومثله قول نصير الدين الحمامي:

لي منزل معروفه
أقبل ذا العذر به
ينهل غيثاً كالسحب
وأقبل الجار الجنب^(١)

ومثله قول شهاب الدين الحاجبي:

له عين لها غزل وغزو
وحاكت في فعائلها المواضي
مكحلة ولي عين تباكت
فيا لك مقلة غزلت وحاكت

ومثله قول ابن الوردي:

قالت إذا كنت ترجو
صف ورد خدي وإلا
وصلي وتخشي نفوري
أجور ساديت جوري

ومثله قول ابن الصائغ:

هجرت فأحشائي لذاك توقدت
هذا وتحرمني الثقيل الهوى
جمراً وليست في المحبة فاتره
من ذا الذي يرضى بنار الهاجره^(٢)

ومثله قول ابن نباتة في الملك المؤيد صاحب حماة:

لنا ملك قد قاسمتنا هباته
يذكرنا أخبار معن بجوده
فثر العطا منه ونظم الشنا منا^(٣)
وننشي له لفظاً فينشي لنا معني^(٤)

(١) الجار الجنب: الجار بالجنب.

(٢) في الشطر الأول خلل في الوزن ونظنه: هذا وتحرمني الثقيل من الهوى.

(٣) هباته: مفرد ما هبة وهي الأعطية - العطا: العطاء - والثنا: الثناء.

(٤) معن: هو معن بن زائدة من أجواد الجاهلية وفرسانها.

ومثله قوله، وهو أعدل شاهد في هذا الباب:

دمعي عليك مجانس قلبي فانظر على الحالين في الصب

فذكر التجانس هنا أحد لازمي التورية، والدمع هو اللازم الآخر، وقد نبهنا الشيخ جمال الدين على أنه لم يرض بالجناس، ويؤيد ذلك قوله على الحالين، ومنه قول القيراطي:

في مجلس ما فيه ما نكره
أيضاً فقال الكل في الحضرة^(١)

أباح لي نرجس ألحاظه
فقلت ورد الخد جد لي به

ومثله قول بدر الدين بن الصاحب:

فها أنا في قيد الغرام أسير
ولا بالهوى قبل العذار شعور^(٢)

فتنت بنبت من عوارض خده
وما كان لي بالعشق قط تعلق

ومثله قول صلاح الدين الصفدي:

ليزورني فيه الخيال الزائل
أجري وقل للدمع قف يا سائل

إن لم تصدّقي تصدّقي بالكرى
وانظر إلى فقري لوصلك واغتنم

ومثله قول ابن أبي حجلة:

وحظيت بعد الهجر بالإيناس
واجعل حديثك كله في الكاس

يا صاح قد حضر الشراب ومنيتي
وكسا العذار الخد حسناً فاسقني

وما أظرف قول يحيى الخباز الحموي:

عند ذوي المعقول والفهم
وما كفى حتى أبي أمي

أصبحت في العالم أعجوبة
جدي حموي فاسمعوا واعجبوا

ومثله قول المعمار:

أفور كالتنور من ناريه^(٣)
أحمل بالجوود على جاريه

قد بت من كربتي لفقد النسا
وقد طغى الماء فمن لي بأن

(١) الحضرة: الحضور والمكانة.

(٢) العذار: الشعر على جانب الخد.

(٣) التنور: الفرن يخبز فيه.

ومثله قول الشيخ شرف الدين حسن المشهور بالزغاري :

قيل لي إذا رأيت أقمار تم
أي وجه أضناك قلت دعوني
عن بدور السماء للطرف تلهي^(١)
فسقامي قد صح من كل وجه

ومثله قول عز الدين الموصلبي :

حديث عذار الحب باد وساقه
درى أننا نصغي إلى الحسن دائماً
له أوجه تبدي لقلبي اشتياقه
فأبدي لنا ذاك الحديث وساقه

ومثله قول ابن مكناس :

يقول معذبي إذ همت فيه
أتعرف خده للعشق أهلاً
بخد خلت فيه الشعر نملا^(٢)
فقلت له نعم أهلاً وسهلاً

وأشدني، من لفظه لنفسه، بقية السلف ومن كان للفروع النباتية نعم الخلف،
الشيخ زين الدين أبو بكر بن العجمي، عين كتاب الإنشاء الشريف بالديار المصرية، وقد
تمثلت بين يديه بالقاهرة المحروسة، سنة إحدى وثمانمائة، وطالبت به بشيء من لفظه في
المواليا، فإنه كان إمام فنونه المتشعبة فقال :

للحب قالوا معنك الذي أذبلتو
فقال أقسم لو أن البوس سبلتو
جدلو بقبلة فقلبو فيك خبلتو^(٣)
ومات للشرق مادرتو وقبلتو^(٤)

-ومنه قول ابن خطيب داريا :

تقول وقد أتتني ذات يوم
يسرك أن أروح إليه أجري
مخبرة عن الظبي الجموح^(٥)
فقلت لها خذي مالي وروحي

ومنه قول بدر الدين الدماميني :

قم بنا نركب طرف السلهو سبقاً للمدام
واثن يا صاح عناني
لكميت ولجام^(٦)

(١) أقمار تم : بدور كاملة تامة لأربع عشرة ليلة .

(٢) خلت : ظننت .

(٣) جدلو : جُدله - خبلتو : خبلته : جرحته .

(٤) البوس : التقييل .

(٥) الجموح : الشارد .

(٦) الكميت : الخمرة .

ومثله قول ابن حجر:

سألوا عن عاشق في قمر باد سناه
أسقمته مقلته قلت لا بل شفته

ومثله قولي:

عائته ودموعي غير جارية لأن دمعي من طول البكا نشفا
فقال لم أر وكف الدمع قلت له حسيك الله يا بدر الدجي وكفى (١)

ولم أستطرد إلى هذا إلا لتأييد قولي: إن جميع من نسجت على منوالهم لم يرضوا بالجناس، التام إذا أمكنت التورية التامة، وصبح الفرق بينهما بحمد الله ظاهر، وبدر مثاله في ليالي السطور سافر.

انتهى ما أوردته من محاسن التورية التامة، ووجوب تقديمها على الجناس التام إذا كان عند الناظم بقظة، وكان ممن يميل إلى هذا المذهب. وأما الجناس المطرف، فهو ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفاً في طرفه الأول، وهذا هو الفرق بينه وبين المذيل، فإن الزيادة في المذيل تكون في آخره، وأما المطرف فتكون زيادته في أوله لتصبح له كالطرف، ويسمى: الناقص والمردف، وفي تسميته اختلاف كثير، ولكن مطابقة المطرف في التسمية طرفه، كقوله تعالى: **والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ الساق** (٢) والزيادة تارة تكون في أول للركن الثاني كما تقدم، وتارة في أول الركن الأول، كقول أبي الفتح البستي:

أبا العباس لا تحسب بناي أوشيء من جلي الأشعار عاوي
فلي طبع كسلسال معيش زلال من ذرى الإحجار جاري (٣)
إذ ما كبت الأدوار زناداً فلي زناد على الأدوار واري (٤)

ومثله:

وكم سلبت منه إلي عوارف ثنائي على تلك العوارف وارف (٥)
وكم غرر من بره ولطائف فشكري على تلك اللطائف طائف

(١) قولي: من لا فعل قلته يريد: من لا فعله.

(٢) قوله: الساق بالساق.

(٣) قوله: كسلسال معيش.

(٤) قوله: واري.

(٥) قوله: عوارف.

(١) وكف الدمع: انهماله وانصبابه.

(٢) القيامة، ٧٥ / ٢٩.

(٣) السلسال: الماء العذب الصافي - معين: جارٍ - زلال: شديد الصفاء.

(٤) في البيت كسر ونظنه: إذا ما أكبت الأدوار: أي إذا جعلته يكيو بمعنى يخبو وينظف! - وارف: منسما.

(٥) عوارف: مفردا عارفة وهي الصنعة واليد - وارف: واسع الظل.

ومثله قول القائل:

قام يسعى ما بين شرب أعزه من بني الترك أغيد فيه عزه
وقصيدة هذا المطلع رأيتها في بعض التذاكر، بخط الشهاب محمود، ولم أعرف
لها ناظماً وأعجبني فيها أبيات منها:

يقظ ما يشير طرف إليه بمرام إلا ويعرف رمزه
كلما تفعل الصوارم تغني عنه ألاحظه المراض بغمزه
ومن نظم ابن نباتة الذي جعله نفثاً:

عطفت كأمثال القسي حواجبا فرمت غداة البين قلباً واجبا (١)

ومثله قولي:

والله ما هب النسيم بحاجر إلا ترقرق مدمعي بمحاجري
انتهى الكلام على الجناس التام والمطرف، وهما في بيت البديعية ظاهران، وبيت
صفي الدين الحلبي قوله:

من شأنه حمل أعباء الهوى كمدا إذا هم شأنه بالدمع لم يلم
وبيت عز الدين الموصلبي:

مذ نم للعين أنس حين طرفها مرأى الحبيب يبذل العين لم يلم
وبيتي:

يسعد ما تم لي سعد يطرفني بقربهم وقليل الحظ لم يلم
وللمتأمل أن يستحلي ويستجلي ما يظهر في مرآة ذوقه، ولا يميل عن جادة
الإنصاف.

الجناس المصحف والمحرف (٢):

شعبا هل نهن يفي وبقي إن صحفوا عذلي روعه ووحرفوا وأتوا بالكلم في الكلم

(١) القسي: جمع مفرد - قوس.

(٢) من التصحيف وهو زيادة نقاط أو حذف نقاط من الكلمة أثناء الكتابة مثل يسقين ويشفين والتصحيف هو زيادة حرف أو إنقاصه أو تغيير موضعه.

يفي ويقي فيهما جناس التصحيف، ومنهم من يسميه جناس الخط، وهو ما تماثل
ركناه خطأ واختلفا لفظاً، والمقدم في هذا قوله تعالى: ﴿والذي هو يطعمني ويسقين وإذا
مرضت فهو يشفين﴾^(١) ومنه قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: قصر
ثوبك فإنه أنقى وأتقى وأبقى. وقول النبي ﷺ حين سمع رجلاً ينشد على سبيل الافتخار،
وقيل: : سأله عن نسبه فقال:

إني امرؤ حميريّ حين تنسبني لا من ربيعة آبائي ولا مضر

فقال له النبي ﷺ: ذلك والله الأم لجدك وأقل لحدك ومنه قول عمر بن الخطاب
رضي الله عنه: لو كنت تاجراً ما اخترت غير العطر، إن فاتني ربحه لم تفتني ريحة ومنه
قول القاضي الفاضل، في بعض رسالاته: فأنتم يا بني أيوب أيديكم آفة أنفس الأموال،
كما أن سيوفكم آفة أنفس الأبطال، فلو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أداهم وقلدتهم بيض
أيامه صوارم، ووهبتهم شموسه وأقماره دنانير ودراهم، وأوقاتكم أعراس ومآثم إلا على
الأموال فهي مآثم، والجود خاتم في أيديكم، ونفس حاتم^(٢) نقش في ذلك الخاتم. وقال
أهل الأدب خلف الوعد خلق الوعد^(٣) والأربعة أركان بغير حشو، وهو غاية في هذا الباب
ومن النظم قول الشاعر:

فإن حلوا فليس لهم مقر وإن رحلوا فليس لهم مفر

ومثله قول أبي فراس:

من بحر جودك أغترف ويفضل علمك أعترف

ولم أذكر هنا من جناس التصحيف إلا النوع السالم من اختلاف الحركة بالتحريف،
فإنه إذا اجتمع فيه النوعان صار مشوشاً، كقول الحريري: «زينت زينب بقدي يقد». فهذا
فيه التحريف والتصحيف. وقد تقدم أن الركنين، إذا تجاذبهما نوعان من التجنيس ولم
يخلصا لواحد، كان الجناس مشوشاً، ومثله قول أبي تمام: «في حده الحد بين الجد
واللعب».

ومن المصحف السالم، ما كتبت به إلى المقر المخدومي، فخر الدين بن مكائس،
في رسالتي التي ذكرت فيها حريق دمشق وهو: وأضحت أوقات الربوة، بعد ذلك العيش

(١) الشعراء، ٧٩ / ٢٦.

(٢) حاتم الطائي ويضرب به المثل في الكرم العربي القديم.

(٣) أي عدم الوفاء بالوعد اللئيم الخسيس من الناس.

الخضل واليسر، عسيره، ولقد كان أهلها في ظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة، فعبس بعد ذلك ثغر روضها الباسم، وضاع من غير تورية عطره الناسم.

ومن غراميات البهاء زهير ولطائفه في الجناس المصحف قوله:

وليس مشياً ما ترون بعارضي فلا تمنعوني أن أهيم وأطرباً (١)
وما هو إلا نور ثغر لثمته تعلق في أطراف شعري فألهبها
وأعجبني التجنيس بيني وبينه فلما تبدى أشنبا رحت أشيباً (٢)

وما أظرف قول شمس الدين بن العفيف، وقد كنى بأحد الركنين عن الآخر، وهو:

يا ذا الذي صدّ عن محب فيه أذاب الغرام قلبه
مالك في الهجر من دليل لكن هذي علوّ قلبه

— ولم يطالب فيه بالتشويش لظرافته ولطائفه.

انتهى الكلام على الجناس المصحف. وأما قولي وحرفوا وأتوا بالكلم في الكلم، فهذا جناس التحريف، وهو ما اتفق ركناه في عدد الحروف وترتيبها واختلافها في الحركات، سواء كانا من اسمين أو فعلين أو من اسم وفعل أو من غير ذلك، فإن القصد اختلاف الحركات كما تقرر، والمقدّم فيه، وهو الغاية التي لا تدرك، قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ (٣). ولا يقال: إن اللفظين متحدان في المعنى، لأنهما من الإنذار، فلا يكون بينهما تجنيس، فاختلاف المعنى ظاهر، إذ المراد بالأول الفاعلون وهم الرسل، وبالثاني المفعولون وهم الذين وقع عليهم الإنذار، وقول النبي ﷺ: اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي. ومثله قولهم: جبة البرد جنة البرد، ومثله قولهم: رطب الرطب ضرب من الضرب، ومنه قول القاضي الفاضل لا زالت الملوك ببابه وقوفاً، والأقدار له سيوفاً، والخلق له في دار الدنيا ضيوفاً، ودين دين الحق إذا جردوا لتقاضيه سيوفاً سيوفى.

ومن النظم قول أبي تمام:

هن الحمام فإن كسرت عيافة من حائهن فإنهن جمام (٤)

(١) عارضي: جانب وجهي، وهما عارضان.

(٢) أشنبا: أبيض الأسنان رقيقها.

(٣) الصافات، ٣٧ / ٧٣

(٤) عيافة: ظناً وحداً، والعيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها - الجمام: الموت.

وما أحلى قول أبي العلاء المعري:

غيري زكاة من جمال فإن تكن
ومثله قول ابن الفارض رحمه الله تعالى:

هلا نهاك نهاك عن لوم امرئ

لم يلف غير منعم بشقاء^(١)

ومثله قول الشيخ عبد العزيز شيخ شيوخ حماة:

لعيني كل يوم فيه عبرة

تصيرني لأهل العشق عبره^(٢)

وغاص، هو والقاضي الفاضل، في هذا البحر وأظهرا من هذا الروي جواهر
العقود، فمن قصيد شيخ الشيوخ بحماة:

إذا غفل الوشاة بعثت دمعي
علامة شقوتي في الحب إني
سألزم باب خمار الشايبا

فيغدو مرسلًا من غير فتره^(٣)
ثقلت عليك لا من طول عشره
ليطلق لي ولو في العمر سكره

وظريف هنا قول الشاب الظريف، شمس الدين محمد بن العفيف، من قصيدة:
لا أجازي حبيب قلبي بظلمه
جوره مثل عدله عند من يهـواه مثلي وظلمه مثل ظلمه

وما أظرف قول الصاحب بهاء الدين زهير من غرامياته في هذا النوع:

زها ورد خديك لكنه
وقد زعموا أنه مضعف

بغير النواظر لم يقطف
وما علموا أنه مضعفي

وأورد الشيخ كمال الدين الدميري، في كتابه المسمى «بحياة الحيوان» عندما انتهى
إلى ذكر المها^(٤)، أبياناً تعجبني في هذا الباب أولها تام وآخرها مطرف، وباقي الأبيات
تحريفها، تمتزج بالأذواق حلاوته المعتدلة والأبيات لجميل بثينة:

خليلي إن قالت بثينة ما له

أتانا بلا وعد فقولا لها لها^(٥)

(١) نهاك: عقلت - يلف: يوجد.

(٢) عبرة: بفتح العين، دعة وبكسرهما: عظة وما يعتبر به.

(٣) فترة: فتور وانقطاع.

(٤) المها: الغزال.

(٥) لها: نسي وسلا.

المعري رحمه الله تعالى في كتابه المسمى «بحياة الحيوان»

المعري رحمه الله تعالى في كتابه المسمى «بحياة الحيوان»

المعري رحمه الله تعالى في كتابه المسمى «بحياة الحيوان»

المعري رحمه الله تعالى في كتابه المسمى «بحياة الحيوان»

المعري رحمه الله تعالى في كتابه المسمى «بحياة الحيوان»

أني وهو مشغول لعظم الذي به
 بثينة تزري بالغزالة في الضحى
 لها مقلة كحلاء نجلاء خلقة
 دهنتي بودّ قاتل وهو متلفي
 ومن بات طول الليل يرعى السهاها^(١)
 إذا برزت لم تبق يوماً بها بها^(٢)
 كأن أباهما الطيبي أو أمها مها
 وكم قتلت بالودّ من ودّها دها^(٣)

ويعجبني قول من قال: إن الصديق الصدوق أول العقد وواسطة العقد. ومثله
 قولهم: البدعة شرك الشرك. وما أحلى قول ابن نباتة:

قوامك تحت شعرك يا أمامه غدا لك حاملاً. علم الإمامه

ولي مع زيادة التورية:

ولما أراني الشعر وهو مذيّل وجانب ذاك الصدغ وهو مطرف
 بدا بخمار من خمار بريقه فقلت لهم هذا الجنس المحرف

انتهى الكلام على الجنس المصحف والمحرف و[منه] بيت الشيخ صفي الدين
 الحلبي:

من لي بكل غرير من ظبائهم غزير حسن يداوي الكلم بالكلم^(٤)
 وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي الحنبلي:

هل من تقي نقي حين صحف لي محرف القول زان الحكم بالحكم
 أما التصحيف والتحريف في هذا البيت فظاهران، وأما المعنى فالسريرة عند الله.
 وبيتي:

هل من يقي ويفي إن صحفوا عدلي وحرفوا وأتوا بالكلم في الكلم

الجناس اللفظي والمقلوب:

قد فاض دمي وفاظ القلب إذ سمعا لفظي عدول ملا الأسماع بالألم

(١) السها: كوكب صغير خفي الضوء، وهو في بنات نعش الكبرى أو الصغرى. وسها: غفل.

(٢) تزري: تعيب - الغزالة: الشمس - بها: بهاء أي رونقاً وجمالاً.

(٣) ٢٢ / ٥٧ - مقلوباً (١)

(٣) الود: الحب الشديد - دها: وهو حسن الحيلة والمكر.

(٤) الغرير: الطائش الذي لا يقدر عواقب الأمور، والمغرور: الكلم: الأولى بمعنى الجرح والثانية

بمعنى الكلام.

أما اللفظي فهو النوع الذي إذا تماثل ركناه وتجانسا خطأ خالف أحدهما الآخر،
 بإبدال حرف منه فيه مناسبة لفظية، كما يكتب بالضاد والطاء، وشاهده قولي في البيت
 فاض وفاض فإن الأول من فيض الماء والثاني من التلف، وجاء في هذا النوع من القرآن
 العظيم ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾^(١) فالأول من النضارة، والثاني من النظر،
 وألحقوا به ما يكتب بالهاء والتاء، كقولهم: جبلت القلوب على معاداة المعادات، وقيل
 هو حديث أو بالنون والتنوين، كقول الأرجاني:

وبيض الهند من وجدي هواز بإحدى البيض من عليا هوازن^(٢)

أو بالألف والنون، كقول الشاعر ابن العفيف:

أحسن خلق الله وجهاً وفماً إن لم يكن أحق بالحسن فمن

ولم ينظم هذا النوع غير الصفي وهو قليل جداً، وأصعب مسالكة تركيبه بالضاد
 والطاء، لأجل إبدال الحرف الذي فيه المناسبة اللفظية، وقد تقدم قول الشيخ شمس
 الدين بن الصائغ أنه أورد، في شرحه الذي سماه رقم البردة، شيئاً من محاسن الزجل
 على هذا النوع البديعي الذي أطلق عنان القلم في الكلام عليه.

والزجل فن يتمكن الناظم فيه من المعاني لجولانه في ميادين الأغصان
 والخرجات^(٣)، وهو لا يحسن رسمه في الكتابة إلا من عرف اصطلاحه. وكان الشيخ
 علاء الدين بن مقاتل، إذا ذكر الزجل، كان ابن بجدته وأبا عذرتة، وممن سلمت إليه
 مقاليد هذا الفن. وأورد الشيخ صلاح الدين الصفدي له نبذة من غرر أزراله، في تذكروته
 وتاريخه، تغني عن الإكثار في ترجمته، وله في الجنس اللفظي زجل جانسه بالطاء
 والضاد لم يسبق إليه ومطلعه قوله:

إن مع معشوقي جفون ولحاظ لو رأهم عابد لهام وحاض
 ومع أنوار من سحر عينيه إذا حفظوه باب أنساه صلا تودا
 إن ماعو عيون فواتر حور في بحور ولدانها بواتر جفون
 كيف لا يفتن عشاقو ذاك الفتور وعلى خده شامه بنقطة فنون
 من نظرهم نظره بقي مسحور وكيف أنوما ينسحر من عيون

(١) القيامة، ٧٥ / ٢٣.

(٢) هواز: هز السيف انقض. فهو هاز وهم هواز.

(٣) الخرجات: جمع مفردة خرجة وهي في الشعر اللازمة، التي تتكرر في نهاية كل مقطع.

يعتقدتهم رقود وهم إيقاظ
يقضي فيمن بسر وباح وهذى
حضرني لما أن يغيب عني
حتى نوا يصير قريب مني
ايش تضيق الدنيا على ذهني
وأنسى ما قد حفظتو من الألفاظ
ولا أطلب يومي شراب وغدا
يا نسيم السحر على حبي
لله وأوصيه بالعاشق المسيبي
وإن تيسر لك أن ترى قلبي
أنو نخيل من بعدك الي أن فاظ
وعلى حذو الدارجين قد حذا
أذكراني في عتبو وخذّ البهار
وبقي هو يحمرونا بصفار
فلا تعجب من خد وكيف يحمار
ماء الحيا في وجناتو لما انغاظ
وما ينكر حالي وحالو فذا

وجفون كل جفن بسيف أي قاض^(١)
حكمه ممن أضل ناس وهدى
في غيابو ياما بتحفظ فصول
ولو أنو يكون في ميدان يجول
ولا يدري ايش كان يريد لو يقول
ويضيق بي رجب المكان الفاض^(٢)
فأبقى سكران طول ليلتي وغدا
بث مني طيب السلام كلو
وبقلبي ذاك الذي استلوا^(٣)
وأن يسل عن جسمي الضعيف قلو
واغتسل مما من عيونو فاض
وفي نايو حادي المنايا حدا
عصتو حتى وقف على ما حرا
ونوادره مني ومنو ترا
فوق ورد الخدود وتحتو جرا
ونشف ماء لوني الي أن غاض^(٤)
سرفيه ممن أنا لو فدا

ونظمت في هذا النوع الغريب، تورية فجاءت في غاية الحسن ولم أسبق إليها إلا
من الشاب الظريف، محمد بن العفيف، كقوله:

عبتم من المحبوب حمرة شعره
لا تنكروا ما احمر منه فإنه
خاطرت في عشقي له يا مهجتي
فالطرف شاهد منه ناضر قده
وقولي:

وأظنكم بدليله لم تشعروا
بدماء أرباب الغرام مضفر^(٥)
لا تشغلي قلبي الحزين وخاطري
فغدا يهيم بكل غصن ناضر

(١) قاض السيف: صوت.

(٢) الفاض: الواسع.

(٣) استلوا: سحبه من مكانه.

(٤) انغاظ: أغيظ أي أغضب - غاض الماء غار ولم يعد يرى.

(٥) مضفر: جعل شعره صفائر مفردا ضفيرة وهي الجديلة.

وقولي: مرج حماة بنوا غيره زاد على المقياس في روضته
 واغتاظ نمروذ دمشق له فقلت لا أفكر في غيضته
 وقولي: حضبت عزمي إليك شوقاً فلم أطق مكثه بأرض^(١)
 وحيث لم أحظ بالتلاقي فغاييتي أن ألوم حضبي^(٢)

انتهى الكلام على الجناس اللفظي، وأما الجناس المقلوب، وسماه قوم جناس العكس، وهو الذي يشتمل كل واحد من ركنيه على حروف الآخر من غير زيادة ولا نقص، ويخالف أحدهما الآخر في الترتيب، كقوله تعالى حكاية عن هرون: ﴿خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَقْتُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٣) ومنه قول النبي ﷺ: يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرأ وارقا. وما ألفت ما أشار صاحب بن عباد إلى الجناس المقلوب، بقوله لأبي العباس بن الحرث في يوم قيظ، وقد طلب مروحة الخيش: ما يقول الشيخ في قلبه، يعني الخيش، ومروحة الخيش أحدثها بنو العباس، وذكرها الحريري في المقامات، وقال اسمعوا وقيتم الطيش، وأنشد لغزاً في مروحة الخيش:

وجارية في سيرها مشمعة ولكن على أثر المسير قفولها^(٤)
 لها سائق من جنسها يستحشها على أنه في الاحتثات رسيلها
 ترى في أوان القيظ تنظف بالندی ويبدو إذا ولي المصيف فحولها^(٥)

وكان السبب في حدوث هذه المروحة إن هرون الرشيد دخل يوماً على أخته عليّة بنت المهدي، في يوم قيظ، فألفاها وقد صبغت ثيابها من زعفران وصندل^(٦) ونشرتها على الجبال لتجف، فجلس هرون قريباً من الثياب المنشورة، فصارت الريح تمر على الثياب فتحمل منها ريحاً بليلة عطرة، فوجد لذلك راحة من الحر واستطابه، وأمر أن يصنع له مثل ذلك، وقال ابن الشريشي، في شرح المقامات: وهذه المروحة شبه الشراع للسفينة، تعلق بالسقف ويشد بها جبل وتبل بالماء وترش بالماورد، فإذا أراد الرجل في القائلة^(٧)

^(٥) يفضله وإنما سبب

ريح الجبل من زعفران يخالطها

(١) حضبت أضرم وهدج وحض

(٢) طه، ٩٤ / ٢٠

(٣) مريم، ٢٠ / ٩٤

(٤) مشمعة: مشرفة - قفولها: رجوعها.

(٥) القبط: الحر الشديد وأيام الصيف.

(٦) الصندل: شجر طيب الرائحة.

(٧) القائلة: وقت القيلولة.

تأنيده: سفيسا رجلة (١)

وسالها: رخلها (٢)

قالته: به فبعبس - هلنسا: هلنسا (٣)

رجوعها: ما رجع إليها - سفقاً: رجا لها: ألقها (٤)

قيظ: حرارة شديدة - يخالطها: يخالطها (٥)

أن ينام جذبها بحبلها فتذهب بطول البيت وتجيء، فيهب على النائم منها نسيم باردا
رطب. اهـ.

رجع إلى الجناس المقلوب، فمنه قول بعضهم:

حكاني بهار الروض حين ألفته وكل مشوق للبهار مصاحب (١)
فقلت له ما بال لونك شاحباً فقال لأنني حين أقلب راهب

وما أحلى قول ابن العفيف مع زيادة التورية:

أسكرني باللفظ والمقلة الكحلء والوجه والكاس ساق يربني قلبه فسوة
وكحل ساق قلبه قاس وساق يربني قلبه فسوة

وبدع هنا قول الشيخ جمال الدين بن نباتة، في الأمير شجاع الدين بهرام:

قبل كل القلوب من رهب الحرب تضطرب
قلت هذا تخرص قلب بهرام ما رهب (٢)

ويستد عبد الله بن وواحة غاية في هذا النوع، وقيل [هو] أمدح بيت قالته العرب:

فإنه من جملة مديح النبي ﷺ وهو قوله: تحمله الناقة الأدماء معتجراً

وما أحلى قول القائل:

وألفتهم يستعرضون حوائجاً وبالبرد كالبرد جلي نوره الظلماً (٣)

ومثله: إن بين الضلوع مني ناراً

فبحقي عليك يا من سقاني وأرقيقاً سقتني دأم حريقاً

ومن الغايات في هذا الباب قول القائل:

لبق أقبل فيه هيف كل ما أملك إن عني هبه

(١) البهار: الخطاب ويدعى عصفور الجنة.

(٢) تخرص: ظن.

(٣) معتجراً: متعمماً.

(٤) جوائحاً نوادياً.

فهذا البيت كل كلمة منه، بانضمامها إلى أختها، تجانسها في القلب، وأعلى منه رتبة قول سيف الدين ابن المشد:

ليل أضاء هلاله أنى يضيء بكوكب

وهذا البيت كل كلمة منه تقرأ، مستوية ومقلوبة، وهو مما لا يستحيل بالانعكاس، كقول الحريري: ساكب كاس، وهذا النوع يأتي الكلام عليه في موضعه لأن المراد هنا جناس القلب، وللشيخ علاء الدين بن مقاتل الحموي أيضاً زجل في هذا النوع، سارت به الركبان أنشده المصنف في حماة، بحضرة الملك المؤيد، والشيخ صفي الدين، والشيخ جمال الدين بن نباتة، فوقع في المجلس شيء إذا استوعبت الزجل كتابة علمته:

قلبي بحب تياه ليس يعشق إلا إياه فاز من وقف وحياه يرصد على محياه
بدر السما لو يطبع من رام وصالو يعطب^(١)
صغير بحير في أمر غزال قهر بسمرو ليث الهوى ونمرو فاعجب لصغر عمرو
ريم ابن عشر وأربع أردى الأسود وأرعب
اذكر نهار تبعتمو وروحي كنت بعتمو وخيب ما فيه طمعتو فقال وقد سمعتو
ارجع ولا لي تتبع أخشى عليك لا تتعب
كم قدامو وخلفو مشيت مطيع لحلفو ورمت لثم كفو قال دع منك وكفو
فإن لثم أصعب من الثريا أصعب
ما زلت لو نداري حتى حصل في داري ناديت ودمعي جاري ايش كان يصيب يا جاري
لو كنت من فيك أشبع قال ايش يكن لك أشعب
من حاز حسن خدو لحظو لقتلي حدو وورد خد وندو^(٢) ما في الرياض شيء
روض الحيا مبرقع عليه ساج معقرب
من في الجمال فريدو للصب من وريدو يذبح ولو يزيدو وكم ذا شيخ مريدو
خلاه دموعو يبلع وهو بعقلو يلعب
كم خصم في المقاتل صابو ابن مقاتل وكم ذا في المحافل قد أنشالو جحافل
من كل بيت مربع ملحون بألف معرب

والشيء اللطيف الذي وقع في المجلس المشار إليه، ووعدت بذكره: ذكروا أن الشيخ علاء الدين بن مقاتل، لما وصل إلى قوله ملحون بألف معرب، صار الشيخ جمال

(١) يعطب: يصاب بالمعطب وهو الهلاك.

(٢) ندو: نده: والند هو المشابه المماثل.

الدين بن نباتة ينظر إلى الشيخ علاء الدين بن مقاتل، ويشير إلى الشيخ صفي الدين الحلبي، ويقول: ملحون بألف معرب. والملك المؤيد يتبسم لذلك. اهـ.

وإذا نظر المتأمل إلى بعض هذه الأحرف في رسم كتابة الزجل لا يتتقد، فإن شرط رسمه أن يوضع كذا لأجل تحرير وزنه.

انتهى الكلام على الجناس اللفظي والمقلوب، وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي فيهما:

بكل قد نضير لا نظير له لا ينقضي أمني منه ولا أمني^(١)
وبيت الشيخ عز الدين:

لفظي حض على حظ يمانعه مقلوب معنى ملا الأحشاء من ألم
وبيتي:

قد فاض دمي وفاظ القلب إذ سمعا لفظي عدول ملا الأسماع بالألم
انتهى والله أعلم.

ذكر الجناس المعنوي:

أبا معاذ أخوا الخنساء كنت لهم يا معنوي فهدوني بجورهم^(٢)

أما الجناس المعنوي فإنه ضربان: تجنيس إضمار، وتجنيس إشارة. ومنهم من سمي تجنيس الإشارة، تجنيس الكناية، وكل منهما مطابق التسمية. ولم ينظم الشيخ صفي الدين الحلبي، في بديعته، غير نوع الإضمار، وهو أصعب مسلكاً من جناس الإشارة، ولا بد أن أنواع هذا الشرح بمحاسن النوعين: فإن المعنوي طرفة من طرف الأدب عزيز الوجود جداً، ولم يذكره الشيخ جلال الدين القزويني، في التلخيص، ولا في الإيضاح، ولا ذكره ابن رشيق في العمدة، ولا زكي الدين بن أبي الأصبع في التحرير، ولا ابن منقذ في كتابه، والعميان ذكروه في شرح بديعيتهم، ولكن ما تيسر لهم نظمه، وذكر الشهاب محمود، في كتابه المسمى بحسن التوسل في صناعة التوسل، منه نوع

(١) نضير: ذورونق وبهجة - نظير: شبيه.

(٢) أبو معاذ: هو جبل والد معاذ بن جبل الصحابي الجليل - أخو الخنساء: هو صخر بن

عمرو الشريد. ويقصد: جبل صخر كنت لهم...

الإشارة لا نوع الإضمار، ولكن ما نظمه، ولم يذكر نوع الإضمار في بديعته غير الشيخ صفي الدين الحلبي، وقد تقدّم القول أنه قال عن بديعته: إنها نتيجة سبعين كتاباً في هذا الفن. وكان شيخنا قاضي القضاة، علاء الدين بن القضاة رحمه الله يقول: وهو إمام هذا العلم: ما أعلم لبيت أبي بكر بن عبدون، في إضمار الركنين ثانياً، غير بيت الشيخ صفي الدين الحلبي، ولو لم يفتح ابن عبدون هذا الباب في بيته، ما حصل للشيخ صفي الدين دخول إلى نظم هذا النوع. انتهى.

والكلام على البيتين يأتي بعد تعريف النوع، فالمعنوي المضمّر: هو أن يضمّر الناظم ركني التجنيس، ويأتي في الظاهر بما يرادف المضمّر للدلالة عليه، فإن تعذر المرادف أتى بلفظ فيه كناية لطيفة تدل على المضمّر بالمعنى، كقول أبي بكر بن عبدون المشار إليه، وقد اصطبح بخمرة ترك بعضها إلى الليل فصارت خلا:

ألا في سبيل اللهو كأس مدامة أتنا بطعم عهده غير ثابت^(١)
حكّت بنت بسطام بن قيس صبيحة وأمت كجسم الشنفرى بعد ثابت

فبنت بسطام بن قيس كان اسمها الصهباء، والشنفرى قال:

اسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمي من بعد حالي لخل
والخل هو الرقيق المهزول، فظهر من كناية اللفظ الظاهر جناسان مضمّران في صهباء وصهباء، وخل وخل، وهما في صدر البيت وعجزه، ومن هنا أخذ الشيخ صفي الدين الحلبي وقال:

وكل لحظ أتى باسم ابن ذي يزن في فتكه بالمعنى أو أبي هرم^(٢)

فابن ذي يزن اسمه سيف، وأبو هرم اسمه سنان، فظهر له جناسان مضمّران من كنايات الألفاظ الظاهرة، فظهر قول شيخنا، قاضي القضاة علاء الدين: إن هذا الباب ما فتحه، للشيخ صفي الدين، غير ابن عبدون، وكنت أودّ أن يكون شيخنا رحمه الله حياً ويراني قد عززتهما بثالث وهو:

أبا معاذ أخا الخنساء كنت لهم يا معنوي فهذوني بجورهم

أبو معاذ اسمه جبل، وأخو الخنساء اسمه صخر، فظهر له من كنايات الألفاظ

(١) عهده: وعده والمعنى لا يثبت على طعم معهود، معروف.

(٢) فتكه بالمعنى: شدة ضرره بالمغرم.

الظاهرة أيضاً جناسان مضميران في صدر البيت، وهما جبل وجبل، وصخر وصخر، وبالنسبة إلى الجبل في الركن الواحد يحسن قولي: فهَدُونِي بجورهم، وقد أظهرت محاسن هذا الجناس المضمّر، وكشفت عن جماله الباهر سطور الأشكال، ليتمتع به صاحب الذوق السليم، فإن فحول المتأخرين وقفوا عن المجازاة في حليته، ولم يتعلق أحد منهم إلا بأذيال الضرب الثاني، وهو جناس الإشارة، ويأتي الكلام عليه.

ومن غريب ما يحكى: أن الشيخ صلاح الدين الصفدي قال في شرح لامية العجم، وفي كتابه المسمى بجنان الجناس، لما اعترضه الجناس المعنوي، قال: هذا النوع عندي باطل، ولم يتيسر له منه نظم بيت واحد، مع كثرة تهافته على الجناس وأنواعه. والذي يظهر لي أنه عجز عن نظمه، فإنه قال في غضون ذلك: وقد استخرجت من شعر أبي الطيب المتنبي، من الجناس المعنوي، قوله:

حاولن تقريري وخفن مراقبا فوضعن أيديهن فوق تراثبا^(١)
وهذا دليل على أنه لم يفهمه.

انتهى الكلام على الجناس المعنوي الذي يضمّر فيه الركنان وما أخرجت بيت الشيخ عز الدين الموصلي، ونثرت نظم الترتيب الذي تقدم إلا لتنجيه عن نظم الجناس المعنوي المضمّر الركنين، وميله إلى جناس الإشارة، لسهولة مأخذه، فلم يبق لبيته طاقة على المناظرة، لتحوّله عن النوع الذي عارض فيه الشيخ صفي الدين، والظاهر أنه قنع بقول القائل:

إذا منعتك أشجار المعالي جناها الغض فاقنع بالشميم^(٢)

والضرب الثاني من المعنوي، وهو جناس الإشارة والكناية هو غير الأول، وسبب ورود هذا النوع في النظم أن الشاعر يقصد المجانسة في بيته، بين الركنين من الجناس، فلا يوافق الوزن على إبرازهما فيضمّر الواحد، ويعدل بقوته إلى مرادف فيه كناية تدل على الركن المضمّر، فإن لم يتفق له مرادف الركن المضمّر يأتي بلفظة فيها كناية لطيفة تدل عليه، وهذا لا يتفق في الكلام المنشور، والذي يدل عليه المرادف قول امرأة من عقيل، وقد أراد قومها الرحيل عن بني ثهلان وتوجه منهم جماعة يحضرون الإبل، وهو:

فما مكثنا دام الجمال عليكما بثهلان إلا أن تشد الأباعر^(٣)

(١) تراثبا: جمع مفردة تريبة وهي موضع القلادة أي عظام الصدر.

(٢) جناها: ما يجنى منها من الثمار - الشميم: شم الروائح.

(٣) الأباعر: جمع مفردتها بعير وهو الجمال.

وأرادت أن تجانس، بين الجمال والجمال، فلم يساعدها الوزن ولا القافية، فعدلت إلى مرادفة الجمال بالأباعر، والذي يدل على مضمرة اللفظة الظاهرة بالكناية اللطيفة، قول دعبل في امرأته سلمى:

إنني أحبك حباً لو تضمنه سلمى سميك ذاك الشاهق الراسي^(١)

فالكناية اللطيفة في سميك، لأنها أشعرت أن الركن المضمّر في سلمى يظهر منه جناس الإشارة، بين الركن الظاهر والمضمّر، في سلمى وسلمى الذي هو الجبل، ومثله قول الآخر:

وتحت البراقع مقلوبها تدب على ورد تلك الخدود^(٢)

فكنى عن العقارب بمقلوب البراقع، ولا شك أن بين اللفظ المصرّح به والمكنى عنه تجانساً، ومثله قول الآخر، يهجو مغنياً ثقيلاً:

قال غنيت ثقيلاً قلت قد غنيت نفسك

ومن الكنايات بالمرادف، قول شرف الدين بن الحلوي، وهو غاية في هذا النوع:

وبدت نظائر ثغره في قرطه فتشابهها متخالفين فأشكلا^(٣)

ورأيت تحت البدر سالفة الطلا ورأيت فوق الدر مسكرة الطلا^(٤)

أراد أن يجانس بين سالفة الطلا وسلافة الطلا، فلم يساعده الوزن، فعدّل بقوته إلى المسكرة، وهي مرادفة السلافة، وقد تقدم أن الشيخ عز الدين الموصلي لم ينظم من المعنوي إلا هذا الضرب، وهو الذي أوجب تأخير بيته عن المناظرة، وقد تقرر أن الشاعر يريد في هذا النوع إظهار الركنين، فلا يساعده الوزن، فيعدل بحسن تصرفه إلى مرادفه، وأراد الشيخ عز الدين أن يمشي على هذا الطريق فحصل له في الطريق عقلة، فإنه قال:

وكافر يضمّر الإحسان في عدل كظلمة الليل عن ذا المعنوي عمي

فالليل يسمى كافراً وهو الذي يستر الأشياء، وكافر هنا بمعنى ساتر، وهذا هو الركن الذي أضمره عز الدين ورادفه بالظلمة، وكنى بها عنه، فظهر منها جناس الإشارة بين كافر

(١) سلمى: جبل سلمى.

(٢) مقلوبها: أي مقلوب البراقع وهو العقارب.

(٣) القرط: ما تعلقه الفتاة في شحمة الأذن من در أو ذهب أو غيره - أشكلا: التباساً.

(٤) سالفة الطلا: جانب العنق - مسكرة الطلا: الخمرة.

وكافر، غير أن الوزن ما عصى على عز الدين حتى عدل إلى المرادف، فلو أراد أن يبرز
الركنين لكان الوزن داخلاً تحت طاعته إذا قال:

وكافر يضمّر الإحسان في عدل ككافر الليل عن ذا المعنوي عمي

ولما وقف مولانا الشيخ شهاب الدين بن حجر على هذا النوع قال: هذا عزيز
الوجود، وأنشدني، بعد أيام، مولانا السلطان الملك المؤيد هذين البيتين وهما في نوع
المضمّر المقدم، ذكره غاية، وهما:

جمع الصفات الصالحات مليكنا فعدا بنصر الحق منه مؤيدا
كأبي الأمين برأيه وكجده أنى توجه وابن يحيى في الندى^(١)

ومن نظمي، في نوع الإشارة الغريبة، قولي، من جملة قصيد في سكر حماة:

وجناس ذاك السكر يحلو للورى تحريفه ويروق في تشرين

ففي صريح الجناس وتورية التحريف كنايةتان لطيفتان، يظهر منهما جناس الإشارة
محرّفاً بين السكر والسكر، والمراد بقولي يروق في تشرين: أن عاصي حماة يروق في
هذا الفصل، إلى أن يرى قراره من أعالي شطوطه، وهذه القصيدة كتبت بها من القاهرة
المحرّوسة، في عام ثمانى عشرة وثمانمائة، إلى مولانا المقر الأشرف القاضي الناصري
محمد بن البارزي، كاتب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، وقد حل ركابه
الكريم بحماة المحرّوسة، وقالت شطوطها أهلاً بعيش أخضر يتجدد، وروى عاصيها بعد
نار شوقه الكامل عن المبرد، وعادت إلى عصر الشبيبة وقد شاهدت الملك المؤيد ومطلع
القصيدة:

خلي التعلل في حمى يبرين فهوى حماة هو الذي يبريني^(٢)
وأطع ولا تذكر مع العاصي حمى ما في وراء النهر ما يرضيني^(٣)
أنا سائل والنهر فيها لذلي ومع افتقاري نظرة تغنيني
والنبت يضبطها بشكل معرب لما يزيد الطير في التلحين
والغصن يحكي النون في ميلانه وبخيله في الماء كالتنوين
والله ما أنا آيس من قربها بالله صدقني وخذ بيمينني^(٤)

(١) الندى: العطاء والكرم.

(٢) يبرين: إسم بلدة - ويريني: يضعفني.

(٣) العاصي: نهر العاصي الذي ينبع من لبنان ويصب في سوريا.

(٤) آيس: يائس.

فالطرف قد أبقى بقايا أدمع
فاحذر ملامي عند فيض مدامعي
قالوا تسلى عن ثمار شطوطها
يا لائمين على شريعتها لكم
فلنا على الأعراف من ريحانها
وبشط شرعاً يا لنا كم شرعت
لكن إذا اشتبكت رأيت الظل قد
وخيال ضوء الشمس في تدويره
وعيونها كم قال هدب نباتها
تلك المعالم والمعاهد بغيتي
كم قال دمع الصب ليتهم علمي
يا نازلين حمى حماة نعمتم
قد كنت أنساها برؤيتكم وقد
غبتم وهذا محضري لي شاهد
وحللتهم دار السعادة بالحمى
ذنبي عظيم لانقطاعي عنكم
وتكوّنت نار اشتياقي في الحشا
وعجزت ضعفاً عن وفا دين اللقا
فعسى يزول ظلام بعدي عنكم
ولرقة فيكم أظن بأنكم
هذي غراميات صب ماله
لكن إذا ذكروا بديع مدائح
ما القصد فخري إنما أنا عبده
الغصن نسقيه وغصن يراعه

وهناك أجريها بارجع أنيني
فالدمع دمعي والعيون عيوني
فأجبت لا والتين والزيتون
في ذاك دينكم ولي أنا ديني
قصص أتت بتناسخ البشنيين^(١)
أعوادها وتثقت باللين
ألقته مضطرباً شبيه طعين
يحكي فم الطعنات في التكوين
ما للبناني مثل شرح عيوني
بحماة لا الحيران من جيرون^(٢)
تلك الرسوم بفضلمهم يجروني
فيها صباحاً نوره يهديني
صرتم بها فالصبر غير معيني
بالعسر من صبري وبالمضمون
فبحقكم بالبعد لا تشقوني
فلأجله في مصر لا تبقوني
لفساد تكويني فدع تكويني
فترفقوا بفؤادي المرهون
وأرى ضياء القرب من شمسين
حينتم طرباً لرجع جنيني
أرب بتورية ولا تضمين^(٣)
في البارزي فكل فوق دوني
فالشك أدفعه بحسن يقيني
يسقي الوري لكن أنا ينشيني^(٤)

(١) البشنيين: نبات مائي ينبت عادة في الأنهار والمناقع، وقد وردت في الأصل البشنيين، والأصح ما أوردنا لأننا لم نعر على لفظة يشنين في ما بين يدينا (الشارح). أعراف: أمواج مفردتها عُرْف وهو أعلا الموج.

(٢) جيرون: إسم بلدة.

(٣) الصب: العاشق المغرم والمولع بالشيء - الأرب: الحاجة.

(٤) اليراع: القلم - ينشيني: يطربني.

ينسي السواجع معرب التلحين (١)
والله أعطاه كمال الدين
فهدي الزمان بطرة وجبين (٢)
قد أحجمت شعراء هذا الحين
عذراً فهدي نشطة الخمسين
كانت مسرات اللقا تصبيني (٣)
عني فهذا من فنون جنوني
في مصر جار عميس والتميني
بسنا نجوت مع ضياء الدين
مقرونة بالنصر والتمكين

فالطرس وهو مطوق يمينه
هو كامل في فضله وعلومه
حسنت لياليه وأيام له
يا صاحب البيت الذي عن وصفه
إن جاء نظمي قاصراً عن وصفه
ونعم كبرت ويان عجزني إنما
وحجبتوني عن حماة وغبتموا
وقعدت عن ديوان شيخ شيوخنا
برهان شوقي قد أقيمت دليله
لا زلتكم بكمالكم في نعمة



(١) الطرس: ما يكتب عليه.
(٢) الطرة: أول الشعر، الفرة.
(٣) تصبيني: تجعلني أتصرف تصرف الصب.

ذكر الاستطراد

واستطردوا خيل صبري عنهم فكبت وقصرت كلياتنا بوصولهم^(١)

الاستطراد في اللغة، مصدر استطرد الفارس من قرنه في الحرب، وذلك أن يفر من بين يديه يوهمه الانهزام، ثم يعطف عليه على غرة منه، وهو ضرب من المكيدة، وفي الاصطلاح، أن تكون في غرض من أغراض الشعر توهم أنك مستمر فيه، ثم تخرج منه إلى غيره، لمناسبة بينهما، ولا بد من التصريح باسم المستطرد به، بشرط أن لا يكون قد تقدم له ذكر، ثم ترجع إلى الأول وتقطع الكلام، فيكون المستطرد به آخر كلامك، وهذا هو الفرق بينه وبين المخلص، فإن الاستطراد يشترط فيه الرجوع إلى الكلام الأول، وقطع الكلام بعد المستطرد به، والأمران معدومان في المخلص، فإنه لا يرجع إلى الأول ولا يقطع الكلام، بل يستمر إلى ما يخلص إليه.

وحد صاحب الإيضاح الاستطراد بحد أتى فيه بالغرض، بعد ما بالغ في الإيجاز فإنه قال: الاستطراد هو الانتقال من معنى إلى معنى متصل به، ثم يقصد بذكر الأول التوصل إلى الثاني، ففي قوله متصل به، جل القصد وعدم الاحتياج إلى الكلام الكثير. وذكر الحاتمي في حلية المحاضرة أنه نقل هذه التسمية عن البحرني. وذكر غيره أن البحرني نقلها عن أبي تمام، وقال ابن المعتز: الاستطراد هو الخروج من معنى إلى معنى، وفسره بأن قال: هو أن يكون المتكلم في معنى فيخرج منه بطريق التشبيه، أو الشرط، أو الأخبار، أو غير ذلك، إلى معنى آخر يتضمن مدحاً أو هجواً، أو وصفاً، وغالب وقوعه في الهجاء، فمنه قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت

(١) كبت: عثرت .

ثمود^(١) فذكر ثمود استطراد. وقيل: إن أول شاهد ورد في هذا النوع، وسار مسير الأمثال، قول السموأل:

وإنا لقوم لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول^(٢)

فانظر إلى خروجه الداخل في الافتخار إلى الهجو، وحسن عوده إلى ما كان عليه من الافتخار، بقوله:

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه:

إن كنت كاذبة الذي حدثني فنجوت منجى الحرث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم فنجا برأس طمره ولجام^(٣)

فانظر كيف خرج من الغزل إلى هجو الحرث بن هشام، والحرث هو أخو أبي جهل، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه، ومات يوم اليرموك بالشام، ومنه قول البحري، من قصيدة في وصف فرس:

كالهيكل المبني إلا أنه في الحسن جاء كصورة في هيكل
ملك العيون فإن بدا أعطيته نظر المحب إلى الحبيب المقبل
ما إن يعاف قذى ولو أوردته يوماً خلأق حمدويه الأحول^(٤)

ومنه قول أحمد بن يحيى البلاذري يرثي أبا تمام:

أمسى حبيب رهن قبر موحش لم يدفع الأقدار عنه بكيد
لم ينجه لما تناهى عمره أدب ولم يسلم بقوّة أيدي^(٥)
قد كنت أرجو أن تنالك رحمة لكن أخاف قرابة ابن حميد

(١) هود، ٩٥ / ١١.

(٢) سبة: عاراً.

(٣) الطمر: هو الفرس الجواد السريع.

(٤) يعاف: يترك الشيء اشمئزاً وقرفاً. والقذى: ما يتكون في العين المريضة من رمصٍ وغمصٍ وغيره.

(٥) الأيد: المساعد القوي.

ما أحسن ما خرج من الرثاء إلى الهجو، في حميد بن قحطبة، والقراة التي بينه (١)
وبين ابن حميد أنهما كانا طائيين، ومنه قول الحسين بن علي القمي:

جاورت أجبلاً كأن صخورها وجنات نجم ذي الحياء البارد
والشوك يفعل في ثيابي مثل ما فعل الهجاء بعرض عبد الواحد

ومنه قول أبي محمد بن مكرم، وهو غاية في هذا الباب:

وليل كوجه البرقعدي ظلمة ويرد أغانيه وطول قرونه (٢)
قطعت فنومي عن جفوني مشرد كعقل سليمان بن فهد ودينه
بذي أولق فيه اعوجاج كأنه أبو جابر في خبطه وجنونه (٣)
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه سنا وجه قرواش ونور جبينه

فانظر إلى قوة الاستطراد من وصف حاله مع الليل، إلى هجاء الثلاثة ومدح قرواش.

ومنه:

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه فليس به باس وإن كان من جرم

أنظر ما أبلغ ما خرج من الوعظ إلى الهجو المؤلم، في قبيلة جرم.

ومثله:

وشادن بالدلال عاتبي واميتي من تدلل العاتب (٤)
فكان ردي عليه من خجل أبرد من شعر خالد الكاتب

ومنه قول ابن المعتز:

ولقد شربت مدامة كرخية مع ماجد طلق اليمين حميد (٥)
عليت بماء بارد فكأنما عليت بهرد قصيدة ابن سعيد

ومثله قول بعضهم، يصف خمراً طبخت حتى راققت وصفت:

لم يبق منها وقود الطابخين لها إلا كما أبقّت الأنواء من داري (٦)

(١) التي بين أبي تمام وابن حميد بن قحطبة.

(٢) البرقعدي: أحد المغنين.

(٣) أولق: جمع مفردا ولق وهو الإسراع في الشيء.

(٤) الشادن: الغزال.

(٥) كرخية: نسبة إلى الكرخ المدينة العراقية المشهورة بخمرتها الجيدة - طلق اليمين: كريم.

(٦) الأنواء: الرياح العاتية.

أنظر ما أحلى استطراده، من وصف الخمر إلى وصف داره بالخراب، بألطف كناية.

والغريب في هذا الباب الاستطراد من الهجو إلى الهجو، وهو كقول جرير يهجو أم الفرزدق:

لها برص بأسفل اسكتيها كعنفة الفرزدق حين شاباً^(١)

ومثله قوله:

وكأنني أقرأ بحرف أبي عمرو على القوم سورة الأنعام
محنة تصفع ابن عمرو بن يحيى في دماغ الأعشى بنعل القطامي

ولقد أردت أن أستطرد هنا، إلى ذكر ما وقع لي وللمتأخرين من الاستطرادات الغريبة، فلم أجد أبداع من بيت البديعية، فاكتفيت عند قضاة الأدب بحسن آدابه، فإنه أعدل شاهد في هذا الباب، وحجبت عنان القلم عن الاستطراد في وصفه، علماً أن في إنصاف علماء الأدب، إذا وقفوا عليه، ما يغني عن ذلك.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته:

كأن آناء ليلي في تطاولها تسويف كاذب آمالي بقربهم^(٢)

الذي يظهر لي أن الشيخ صفي الدين، عبر على الاستطراد، بتقديم أداة التشبيه في أول البيت، وقد تقدم قول صاحب الإيضاح: أن يقصد بذكر الأول التوصل إلى الثاني، وما خرج أحد من الاستطراد، بطريق التشبيه، إلا جعل أداة التشبيه مع المستطرد به، في آخر الكلام، كقول السري الرفاء:

لنا روضة بالدار صيغ لزهراها قلائد من حلي الندى وشنوف^(٣)
يمر بنا فيها إذا ما تبسمت نسيم كعقل الخالدي ضعيف

(١) البرص: بياض يصيب الجلد لعله - الأسكتين: لم أعر على هذه اللفظة فيما بين يدي، والذي أراه أنها: الشفتان لأنها مأخوذة من السكوت والله أعلم. وقد شرحها بعضهم بأنها: شفا الفرج، وهذا بعيد - العنفة: ما ينبت من الشعر تحت الشفة السفلى - فيكون المعنى أن أم الفرزدق بها برص تحت شفيتها شبيه بالشعر الذي ينبت تحت الشفة السفلى للفرزدق أثناء مشييه.

(٢) آناء: أطراف.

(٣) شنوف: ما يتشف به أي يتزين ويتحلى وهي الأقراط.

فأداة التشبيه جاءت هنا في الآخر، مع المستطرد به كما تقرر، ولم يقدم الناظم، في أول البيت، ما يتوصل به إلى آخره. اهـ.

ومثل هذا الإيراد قول ابن جلنك الحلبي، وهو أظرف ما رأيت في هذا الباب، حكى أنه كتب رقعة إلى بعض الحكام، وقيل إلى قاضي القضاة، كمال الدين بن الزملكاني، يسأله فيها شيئاً فوقع له بخبز، وأستحي أن أقول إنه رطلان، فتوجه ابن جلنك يوماً إلى بستان يرتاض فيه، فقيل إنه لقاضي القضاة المشار إليه، فكتب على حائط البستان:

لله بستان حللنا دوحه في جنة قد فتحت أبوابها
والبان تحسبها سنانيراً رأت قاضي القضاة فنفتت أذناها^(١)

فاستطراذه من وصف البستان، وتشبيهه البان التشبيه المخترع، إلى هجو قاضي القضاة، مرقص عند سماعه. وما شك أحد من أهل الأدب أن التشبيه غريب في اختراعه وقيل إن الشيخ بدر الدين بن مالك أملى عليهما كراسة في البديع، وأنا بالأشواق إلى رؤيتها.

ومن استطرادات أبي عبد الله محمد بن حجاج البغدادي، في طريقه التي لم نسج على منوالها غيره، فإن الشيخ جمال الدين بن نباتة قال [فيها] في خطبة كتابه المسمى «بتلطف المزاج في شعر ابن حجاج» فإني رأيت نتائج أفكار الشعراء، ذرية بعضها من بعض، وأم أشعارهم تبعث جميعها في صعيد واحد من الأرض، إلا أشعار الأريب الفريد أبي عبد الله الحسين بن حجاج، فإنها أمة غريبة تبعث وحدها، وذرية عجيبة تبلغ بإتقان اللهو واللعب رشدتها، لم يحط خاطر أحد بمثلها خيراً، ولا استطاع على معارضة شهدتها صبراً، انتهى قول الشيخ جمال الدين.

واستطراذه الموعود بذكره [هو] قوله:

تفديك أمي وأبي وابني وإن كان صبي
يا من إليه حينما وجدته منقلبي^(٢)

(١) سنانير: جمع مفردة سنور، وهو حيوان من الفصيلة السنورية، أكبر من الهر وأصغر من الكلب يُصطاد لفروه.

(٢) منقلبي: رجوعي وعودتي.

عندي عزيز المطلب	يا من مديح غيره
حال رضا أو غضب ^(١)	لحية من يشناك في
بالليل في استي تختي ^(٢)	من عين من يطلبها
ك في استها والريب	وأمه أم الشكو
شارع باب اللعب ^(٣)	ذات حرٍ أوسع من
ذات نبات أشيب	وشعرة غليظة
وبعضها لم يشب	قد شاب منها بعضها
بشدة أو تعب	نتفت منها طاقة
لحية ابن الحلبي	فما شككت أنها

ومنها في الاستطرادات الغريبة، لما بلغه أن المهذب يعشق ابن أخيه، وينكر ذلك ويعقد الأيمان عليه بسببه، قوله:

ع المضرب المطنب ^(٤)	جارية مثل شرا
بالليل فوق مرقب ^(٥)	صعدت من عليها
بحضرة المهذب	حتى رأيت ابن أخي

ومثله قوله من قصيدة:

بندف قطن استك دق إستي	حتى متى أفديك ياستي
وخصيتي تنهز من تحتي	متى أرى سرمك منهدماً
وكان قد نام على بختي	قالت بهذا الأير واستحقرت
قد ضرط البخت فما أنت	قلت نعم هذا على ما به
بطول ساقيك إذا نمت	هذا إذا قام استوى طوله
مثل أبي منصور في الدست	فلو رأيتيه على بيضه
صاحب ديوان أو بلب	خريت بالطول على عارضي

-
- (١) اللحية: شعر الذقن - يشناك: أي ييفضك ومنه قوله تعالى: ﴿ولا يجرمكم شأن قومٍ على ألا تعدلوا﴾ المائة، ٥ / ٠٨ أي بغض قوم وكراميتهم.
- (٢) الإست: موضع خروج الفضلات من جسم الإنسان.
- (٣) الحر: فرج المرأة.
- (٤) المضرب: الخيمة - المطنب: المشدود بالطنب وهي جبال تشد بها الخيم.
- (٥) مرقب: مكان شددت عليه المراقبة.

يا أيها الأستاذ يا من به
خذ بيدي إني في محنة
يمسي كما أملته وقتي
زلقت فيها في خرا تحتي

وأما قول القاضي الفاضل في هذا الباب، على طريقته الفاضلية، فإنه عجيب وهو:
لي عندكم دين ولكن هل له
فكأنني ألف ولام في الهوى
من طالب وفؤادي المرهون
وكان موعدا وصلكم تنوين
ومثله قول مسلم بن الوليد:

سريت بها حتى تجلّت بغيره
كغرة يحيى حين يذكر خالد
وغاية الغايات في هذا الباب، قول عبد المطلب جدّ النبي ﷺ:

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة
لا ينزل المجد إلا في منازلنا
ولو تسلت أسلناها على الأسل^(١)
كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

أنظر إلى هذه البلاغة الهاشمية، كيف جمعت بين حشمة الافتخار وتفخم الحماسة^(٢) وبديع الافتنان وغريب الاستطراد ورقة الانسجام.

انتهى الكلام على بيت الشيخ صفى الدين الحلبي. وبيت العميان، [هو]:

قد أفصح الضب تصديقاً لبعثه
إفصاح قس وسمع القوم لم يهم^(٣)

وهذا البيت على طريق الشيخ صفى الدين الحلبي فإن ناظمه قصد بذكر الأول التوصل إلى الثاني، وبيت الشيخ عز الدين الموصلي [هو]:

يستطرد الشوق خيل الدمع سابقة
فيفضل السحب فضل العرب للعجم

الذي أقوله إن الشيخ عز الدين رحمه الله أحرز قصبات السبق، بما استطرده هنا، على الشيخ صفى الدين وعلى العميان، مع التزامه بتسمية النوع المورى به من أنس الغزل، ومراعاة جانب الرقة ونظم الاستطراد على الشرط المذكور، وبيت بديعيتي [هو]:

واستطردوا خيل شوقي عنهم فكبت
وقصرت كليلينا بوصلهم

وهذا البيت غريب، ولا بد لأهل الأدب من تأهيل غريبه. انتهى.

(١) الأسل: الرماح.

(٢) في الأصل: الحاسة وما أثبتناه أصح.

(٣) بهم: يتوهم.

ذكر الاستعارة

وكان غرس التمني يانعاً فذوى بالاستعارة من نيران هجرهم
الاستعارة عندهم أفضل من المجاز، وهي أخص منه، إذ قصد المبالغة شرط في
الاستعارة دون المجاز، وموقعها في الأذواق السليمة أبلغ، وليس في أنواع البديع أعجب
منها، إذا وقعت في مواقعها، وللناس فيها اختلاف كثير.

وأما أصحاب المعاني والبيان فإنهم أطلقوا فيها أئنة أقلامهم، وجالوا بها في ميادين
البحوث. وليس الغرض هنا إلا نفس الاستطراد إلى ما وقع فيها من المحاسن، نظماً
ونثراً، بعد تقريبها إلى الأذهان بحدود يزول بها الالتباس.

حد الرماني الاستعارة فقال: هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل
اللغة، على سبيل النقل. وذكر الخفاجي كلام الرماني وقال: تفسير هذه الجملة قوله عز
وجل: ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾^(١) استعارة، لأن الاشتعال للنار، ولم يوضع في أصل
اللغة للشيب، فلما نقل إليه بان المعنى، لما اكتسبه من التشبيه، لأن الشيب لما كان
يأخذ من الرأس شيئاً فشيئاً، حتى يحيله إلى غير لونه الأول، كان بمنزلة النار التي نسري
في الخشب، حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة، فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في
الوضع للبيان.

ولا بد أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة، لأجل التشبيه العارض فيها، لأن
الحقيقة لو قامت مقامها، لكانت أولى بها، ولا يخفى على أهل الذوق أن قوله تعالى:

(١) مريم، ١٩ / ٥٤.

«واشتعل الرأس شيباً» أبلغ من كثر شيب الرأس، وهو حقيقة، ولا بد للاستعارة من مستعار منه ومستعار ومستعار له، فالنار مستعار منها، والاشتعال مستعار، والشيب مستعار له. انتهى.

ومنهم من قال: هي ادعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه، وهذا يؤيد قول ابن جني: إن لم تكن الاستعارة للمبالغة، وإلا فهي حقيقة. وكلام ابن جني حسن في موضعه، فإن الشيء إذا أعطي وصف نفسه لم تكن استعارة.

وقال ابن المعتز: هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء عرف بها، كقول النبي ﷺ: ضموا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء، فاستعار ﷺ الفحمة للعشاء، لقصد حسن البيان.

ومنهم من قال: هي استعارة الشيء المحسوس للشيء المعقول. قال فخر الدين الرازي: هي جعلك الشيء للشيء للمبالغة في التشبيه. وقال ابن أبي الأصبع في «تحرير التحبير»: هي نقل اسم الراجح إلى المرجوح، لطلب المبالغة في التشبيه وحسن البيان، فإنك إذا قلت: زيد أسد، فقد نقلت اسم الأسد لزيد، لكن الأسد راجح في الجراءة، وزيد مرجوح، وقد بالغت في تشبيه زيد بالأسد، وأحسن البيان، انتهى.

ولا تحسن الاستعارة إلا إذا كان التشبيه مقررأ، وكلما زاد التشبيه خفاء زادت الاستعارة حسناً، وما أحسن قول ذي الرمة هنا:

أقامت بها حتى ذوى العود في الثرى وكف الثريا في ملاءته الفجر (١)

فاستعار للفجر ملاءة، وأخرج لفظه مخرج التشبيه. وكان أبو عمرو بن العلاء لا يرى أن لأحد مثل هذه الاستعارة، وأحسن الاستعارات ما قرب منها دون ما بعد، وأعظمها، في هذا الباب، قوله تعالى: «والصبح إذا تنفس» فإن ظهور الأنوار من المشرق من أشعة الشمس قليلاً قليلاً، بينه وبين إخراج النفس مشابهة شديدة القرب، ومن هذا النور استضاء الحريري، في مقاماته، بقوله: إلى أن عطس أنف الصباح. وقد تقدم أن بُعد الاستعارة يبعد من القلوب، عند أهل الذوق، كقول أبي نواس مع يقظته:

بح صوت المال مما منك يشكو ويصيح

(١) الثريا: مجموعة من النجوم على صورة الثور، واسم النجم علم لها.

(٢) التكوير، ١٨ / ٨١.

فأي شيء أبعد استعارة من صوت المال، وكيف يصيح ويبح من الشكوى، ومثله قول بشار:

وجدت رقاب الوصل أسياف هجرنا وقدت لرجل البين نعلين من خدي

قال ابن رشيقي في العمدة، ما أقبح رجل البين، وأهجن استعارتها، وكذلك رقاب الوصل. ومثله قول ابن المعتز: وهو من أنقد النقاد: كل يو^(١) يبول زب السحاب. وأين هذا البعد من قرب استعارة ابن نباتة القديم في قوله:

حتى إذا نهر الأباطح والثرى نظرت إليه بأعين النوار^(٢)

فنظر أعين النوار من أشبه الاستعارات وأليقها وأقربها، لأن النوار يشبه العيون إذا كان مقابلاً لمن يمر به، كأنه ناظر إليه، ويعجبني هنا قول القائل، ولم يلحق فيما قاله:

مجرة جدول وسماء آس وأنجم نرجس وشموس ورد^(٣)
ورعد مثالث وسحاب كاس وبرق مدامة وضباب ند^(٤)

ومن الغايات في هذا الباب قول مجير الدين ابن تميم:

ليلة بت أسقى في غياهبها راحاً تسل شبابي من يد الهرم^(٥)
ما زلت أشربها حتى نظرت إلى غزاة الصبح ترعى نرجس الظلم^(٦)

والذي اتفق عليه علماء البديع، أن الاستعارة المرشحة هي المقدمة في هذا الباب، وليس فوق رتبها في البديع رتبة، وأعلاها وأغلاها قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾^(٧) فإن الاستعارة الأولى، وهي لفظ الشراء، رشحت الثانية، وهي لفظ الربح والتجارة، ومن الاستعارات المرشحة قول الإمام

(١) هكذا في الأصل، ونظنها: يوم.

(٢) نهر: جعل فيها أنهاراً - الأباطح: مفردة أبطح وهو السهل من الأرض - النوار: نوع من الأزهار.

(٣) مجرة جدول: جدول كأنه المجرة، والمجرة مجموعة كبيرة من النجوم. وسماء آس: أي سماء كأن نجومها أزهار الآس وهو شجر زهره أبيض.

(٤) رعد مثالث: أي مكرر ثلاث مرّات حتى صار مما يعتاد - ند: أي يترك الندى.

(٥) غياهب: ظلمات مفردها غيب.

(٦) غزاة الصبح: الشمس.

(٧) البقرة، ٢٠ / ١٦.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه تعالى عنه: الدنيا من أمسى فيها على جناح أمن، أصبح فيها على قوادم خوف، فإن الاستعارة الأولى التي هي لفظ الجناح رشحت الثانية وهو لفظ القوادم، مع زيادة المطابقة بين الأمن والخوف، والصبح والمساء، وناهيك بالبلاغة الهاشمية، وباب المدينة^(١)، وما أحلى قول بعض العرب فيها: جعلنا رماحنا أرشية الموت^(٢)، فاستقينا بها أرواح العدا ومثله قول الشاعر:

سلامة بن نجاح يجد حث الراح
إذا تغنى زمرنا عليه بالأقداح

ومثله لابن سكرة، وشتان بين قوله هنا وبين قوله في الكافات:

قيل ما أعددت للبر د فقد جاء بشده
قلت دراعة عري تحتها جبة رعه^(٣)

والذي ينشأ هنا قول القائل:

والشمس لا تشرب خمير الندى في الروض إلا بكؤوس الشقيق
ومثله قول ابن رشيق رحمه الله:

باكر إلى اللذات واركب لها سوابق اللهو ذوات المزاح
من قبل أن ترشف شمس الضحى ريق الغواصي من ثغور الأقاح

وما أطفق قول أبي زكريا المغربي، وقد ترجمه ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب في تاريخه المسمى بالإحاطة في تاريخ غرناطة، وهو:

نام طفل النبات في حجر النعامي لاهتزاز الطل في مهد الخزامي
كحل الفجر لهم جفن الدجي وغدا في وجنة الصبح لثاماً
تحسب البدر محياً ثملاً قد سقته راحة الصبح مداماً

ويعجبني هنا قول ابن قلاقس:

وفي طمي أبرد النسيم خميلة بأعطافها نور المنى يفتح^(٤)

(١) باب المدينة: هنا إشارة إلى قول النبي محمد ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها».

(٢) أرشية: مفردا رشاء وهو الحبل يعلق به الدلو للاستقاء.

(٣) دراعة: أو مدرعة وهي ثوب من صوف - الجبة: العباءة.

(٤) طمي: ما تحمله السيول من الأتربة وغيرها ليستقر في مكان ما.

تضحك في سر المعاطف عارضاً
وتوري به كف الصبا زند بارق
مدامعه في وجنة الروض تسفح
شرارته في فحمة الليل تقدح

وقال أبو الحسن علي بن ظافر العسقلاني، في كتابه المسمى «ببدائع البداية»،
اجتمعت أنا والقاضي الأعز يوماً في روضة، فقلت له أجز: طار نسيم الروض من وكر
الزهر. فقال: وجاء مبلول الجناح بالمطر. وما أبدع قول ابن خفاجة في هذا الباب:

وقد نظرت شمس الأصيل إلى الربا
وصفرة مسواك الأصيل تروقني
بأضعف من طرف المريب وافترا
على لعس من مسقط الشمس أسمرا (١)

وممن تلتطف في استعمال الاستعارة المرشحة إلى الغاية، مجد الدين الأربلي،

بقوله:

أصغي إلى قول العذول بجملتي
لتلقطي زهرات ورد حديثكم
مستفهماً عنكم بغير ملال
من بين شوك ملامة العذال

وممن جراه في هذه الحلبة أبو الوليد بن حيان الشاطبي، بقوله:

فوق خد الورد دمع
برداء الشمس أضحي
من عيون السحب يذرف
بعد ما سال يجفف

وظريف قول مجير الدين بن تميم منها:

كيف السبيل لأن أقبل خد من
وأصابع المشور تومي نحونا
أهوى وقد نامت عيون الحرس
حسداً وتغمزها عيون النرجس (٢)

ومثله قوله:

لما ادعى المشور أن الورد لا
ردت ثغور الأقحوان لو أنها
يؤتى وأن يصلى بنار سعير (٣)
كانت تعض أصابع المشور

ومثله قوله:

كيف السبيل للثم من أحبته
ما بين مشور أقام ونرجس
ترنوا إليّ وثغر هذا يضحك
في روضة للزهر فيها معرك
مع أقحوان فضله لا يدرك
هذا يشير بأصبع وعيون ذا

(١) المسواك: ما يستاك به، وهو عود يتخذ من شجر الأراك - اللعس: سواد مستحسن في باطن الشفة

(٢) المشور: نبات زهره متعدد الألوان وذو رائحة فواحة وأغصان طويلة نوعاً ما.

(٣) يُصلى: يحرق - سعير: من أسماء جهنم.

وما أحلى قول محيي الدين بن قرناص الحموي:

قد أتينا الرياض حين تجلت وتحلت من النداء بجمان
ورأينا خواتم الزهر لما سقطت من أنامل الأغصان
وقال البدر الذهبي وأجاد:

هلم يا صاح إلى روضة يجلو بها العاني صدا همه (١)
نسيمها يعثر في ذيله وزهرها يضحك في كفه (٢)

ومثله قول ابن عمار:

يا ليلة بتنا بها في ظل أكناف النعيم
من فوق أكمام الريا ض وتحت أذيال النسيم
وأما مطلع قصيدة ابن النبيه، في هذا الباب، فإنه أبهى من مطلع الأقمار،
و«ديباجة الاستعارة من حلية تستعار»، وهو:

تبسم ثغر الزهر عن شنب القطر ودب عذار الظل في وجنة النهر (٣)
وهذا المعنى مولد من قول ابن خفاجة الأندلسي:

«وطرة ظل فوق وجه غدِير». ولكن ابتسام ثغر الزهر عن شنب القطر، في قول ابن
النبيه غاية.

وتلطف الشريف العقيلي في هذا الباب بقوله:

وروضة الجام فيها من زهرة الراح ورد
فاشرب على وجه روض له من الماء خد

وما أحلى قول القاضي، السعيد بن سنا الملك هنا:

ولبعدهم طالت ذوائب ليلهم فيها تغطي ضوء وجه نهارهم (٤)

(١) العاني: المتعب والمهموم.

(٢) كم الزهر: زره أو الزهر قبل أن يفتح تجميع على أكمام.

(٣) الشنب: رقة الأسنان وبياضها - العذار: الشعر المتدلي عند جانب الأذن.

(٤) ذوائب: جمع مفردة ذؤابة وهي خصلة الشعر في مقدم الرأس.

وأحلى منه قوله:

سرى طيفه لا بل سرى لي سرابه
أت مع نفس الليل صفحة خده
وقد طار من وكر الظلام غرابه
فقلت حبيب قد أتاني كتابه^(١)

وقال من غيرها:

بشوك القنا يحمون شهد رضابها^(٢)

وما أحلى تكميله بقوله: «ولا بد دون الشهد من إبر النل».

ومثله قوله:

ألقى جائل صيد من ذوائبه
فصاد قلبي بأشراك من الشعر^(٣)
وأحلى منه قوله:

خصر أدير عليه معصم قبله
فكأن تقبيلي له تعنيق
وغاية الغايات قوله:

بعثت لي على فم الطيف قبله
فأتاني بعض المسرة جملة
ومن الاستعارات الحسنة في هذا الباب، قول شمس الدين بن العفيف، في مديح
النبي ﷺ:

حياك يا تربة الهادي الرسول حيا
بمنطق الرعد باد من فم السحب
وظريف هنا قول ابن قلاقس:

هدتنا للسرور نجوم راح
وكف الصبح تلقط ما تبدى
بها قذفت شياطين الهموم
بجيد الليل من درر النجوم

ومن اللطائف، في هذا الباب، قول أبي الحسن العقيلي:

لنا أخ يحسن أن يحسنا
قد عرفت روضة معروفه
رضاه للجانيين عذب الجنى
بأنها تنبت زهر الغنى
تنزهت فيه عيون المنى
إذا تبدى وجه إحسانه

(١) النفس: المداد.

(٢) الرضاب: الريق.

(٣) أشراك: جمع مفردة شرك، وهو ما ينصب للاصطياد من شباك وفخاخ وكمان الخ...

ويعجبني، في الاستعارة المرشحة، قول ابن سعيد الموصلي، من قصيدة يتشوق فيها إلى دمشق المحروسة، فإنه أتى فيها، في بيت واحد، باستعارات كثيرة مع اجتناب الحشو، ومطلع القصيدة قوله:

سقى دمشق وأياماً مضت فيها مواطر السحب ساريها وغاديتها
وبيت الاستعارة بعده:

ولا يزال جنين النبت ترضعه حوامل المزن في أحشا أراضيها^(١)
ومن أغرب الاستعارات وأبدعها وأحشمها، قول ابن زيدون من قصيدته التونية المشهورة:

سران في خاطر الظلماء يكتمننا حتى يكاد لسان الصبح يفشينا^(٢)
وقد عن لي أن أثمر، في حدائق الاستعارة، نبذة من زهر المشور، وأورد منه ما يزهو بوروده على روضات الزهور، كقول القائل: وطفقنا نتعاطى شموساً من أكف بدور، وجسوم نار في غلائل نور، إلى أن ذاب ذهب الأصيل على لجين الماء، وشبت نار الشفق في فحمة الظلماء، ومثله قول علي بن ظافر الحداد، في دوح: انعطفت قدود أشجاره، وابتسمت ثغور أزهاره، وذر كافور مائه على عنبر طينته وامتدت بكاسات الجلنار^(٣) أنامل غصونه. وقال آخر وأجاد: وقد عرق بالندا جبين النسيم، وابتل جناح الهواء، وضربت خيمة الغمام، واغرورقت مقلة السماء، وقام خطيب الرعد فنبض عرق البرق. ولقد حاز القاضي الفاضل قصبات السبق، في هذا الميدان، بقوله: كتبها المملوك وقد عمشت مقلة السراج، وشابت لمة^(٤) الدواة، وخرس لسان القلم، وكل خاطر السكين، وضاق صدر الورق. وما أحلى قول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر: والأغصان قد اخضر نبات عارضها^(٥)، ودنانير الأزهار ودراهمها قد تهيأت لتسليم قابضها. وقال جمال الدين بن نباتة: كتبها المملوك ودمع الغيث قد رقا^(٦) ووجه الأرض رق، راق،

(١) الجنين: المولود في بطن أمه - حوامل: جمع مفردة حامل وهي من النساء الحبلى ومن الغيوم الممطرة - المزن: واحدها مزنة وهي الغيمة - أحشا: ترخيم أحشاء وهي الجوف.

(٢) يفشينا: يكشفنا ويظهرنا.

(٣) الجلنار: زهر الرمان.

(٤) اللمة: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن.

(٥) العارض: جانب الوجه.

(٦) رقا: سكن وجف.

وقدود الأغصان قد راسلت أهواء القلوب بالأوراق، وقيان^(١) حمائمها قد ترنمت وجذبت القلوب بالأطواق، والورد قد احمر خده الوسيم، وفكت أزواره من أجياد القضيب أنامل النسيم، وخرجت أكفه من أكمامه لأخذ البيعة على الأزهار بالتقديم.

ومما كتبت، في البشارة الصادرة عن الملك المؤيد، عند عوده من البلاد الرومية وحلول ركابه الشريف بحلب المحروسة، المتضمنة ما من الله به من الفتح الذي صار له في الروم قصص، سنة عشرين وثمانمائة، فمن ذلك قولي عند حصار قلعة طرسوس وفتحها: ورأوا ألسن السهام في أفواه تلك المرامي، فقالوا رأينا المصائب ناطقة، وما رموا على سماء برج غيوم ستائر إلا لمعت فيها من بوارق نقوطها بارقة، وحكم عليها القضاء بالاعتقال، ولم يأتوا عند ذلك الحكم بدافع، هذا بعدما صفق مقبلهم جماد وجهه فبصقت فيه أفواه المدافع. وقولي في الاستعارة المرشحة أيضاً، عند حصار قلعة دريدة وفتحها: وقرنا صدع سورها باختلاف الآلات، فجاء ما قرناه نقشاً على حجر، وادعت أن صخرها أصم، فأسمعناه من آذان المرامي تنقير المدافع وتحريك الوتر، وقرعنا سنّ جبلها بنابات المدافع^(٢) وكسرنا منه السنية وأمست حلق مراميها كالخواتم في أصابع، سهامنا المستوية. ومثله قولي، عند حصار قلعة كختر وفتحها، على لسان حال القلعة في سموها وإفراط علوها: فأنا الهيكل الذي ذاب قلب الأصيل على تذهيبه، وودّ دينار الشمس أن يكون من تعاويذه، والشجرة التي لولا سمو فرعها تفككت به حبات الثريا وانتظمت في سلك عناقيده، وتشامخ هذا الحصن ورفع أنف جبله وتشامم، فأرمدنا عيون مراميهم بدم القوم، وأميال سهامنا على تكحيلها تتراحم، وغاية الغايات في هذا الباب، قولي عند حصار قلعة كركر: وتنكرت أكراد كركر بسور القلعة فعرفناهم بلامات القسي وألقات السهام، وعطست أنوف مراميها بأصوات مدافعنا وكان بها زكام. ومن حسن ختامها، ولم نخرج عما نحن فيه من بديع الاستعارة وغريبها، قولي: فلا بكر قلعة إلا افتضينا بكارتها^(٣) بالفتح، وابتدلنا من سترها الحجاب، ولا كأس برج أترعوه بالتحصين، إلا توجنا رأسه من حبات مدافعنا بالحجاب. انتهى.

ولم أحبس عنان القلم عن الاستطراد إلى ما وقع لي من محاسن الاستعارة نظماً، إلا للتخفيف عن بيت البديعية، وقلت: تكفيه المزاحمة في مناظرة الشيخ صفي الدين

(١) جمع مفردة قينة وهي المغنية الحسنة.

(٢) المدافع: المذلات.

(٣) البكارة: عُذرة الفتاة.

الخلي، ومبارزة الشيخ عز الدين الموصلبي رحمه الله، وحمل ثقل العميان، فبيت الشيخ صفي الدين رحمه الله في بديعته، وهو الشاهد على نوع الاستعارة:

إن لم أحت مطايا العزم مثقلة من القوافي تؤم المجد عن أمم^(١)
وبيت العميان:

يقول صحبي وسفن العيس خائضة بحر السراب وعين القيظ لم تنم

بيت الشيخ صفي الدين وبيت العميان، لم يحسن السكوت عليهما ولا تتم الفائدة بهما، فإن بيت الشيخ صفي الدين متعلق بما قبله، وبيت العميان متعلق بما بعده، وبيت الشيخ عز الدين صالح للتجريد وهو:

دع المعاصي فثيب الرأس مشتعل بالاستعارة من أزواجها العقم^(٢)

أقول: ولو بلغت ما عسى أن يكون، أن في قوله: من أزواجها العقم، ما يرعب السامع، وبيت بديعتي:

وكان غرس التمني يانعا فذوى بالاستعارة من نيران هجرهم

وقد تقدم أن المقدم، عند علماء البديع، الاستعارة المرشحة، فلفظة غرس رشحت بيانع، وأما قولي: بالاستعارة من نيران هجرهم، بعد ذوى، فما أعده إلا من المنح الإلهامية، فإن اسم النوع الذي هو الاستعارة جمع بين التورية والاستعارة والترشيح، مع عدم الحشو وصحة التركيب والمشي على جادة الرقة والالتزام بتسمية النوع مورى به من جنس الغزل. انتهى.



(١) تؤم: تقصد - عن أمم: عن قرب.

(٢) العقم: عدم الإنجاب.

ذكر الاستخدام

واستخدموا العين مني وهي جارية وقد سمحت بها أيام عسرهم

الاستخدام هو استفعال من الخدمة، وأما في الاصطلاح فقد اختلفت العبارات في ذلك على طريقين: الأولى طريقة صاحب الإيضاح ومن تبعه، ومشى عليها كثير من الناس، وهي أن الاستخدام إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، فتريد بذلك اللفظ أحد المعنيين، ثم تعيد عليه ضميراً تريد به المعنى الآخر، أو تعيد عليه، إن شئت، ضميرين تريد بأحدهما أحد المعنيين وبالأخر المعنى الآخر، وعلى هذه الطريقة مشى أصحاب البديعيات والشيخ صفي الدين الحلبي والعميان والشيخ عز الدين وهلم جراً. الثانية: طريقة الشيخ بدر الدين بن مالك رحمه الله تعالى، في المصباح، وهي أن الاستخدام إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، ثم يأتي بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين، ومن الآخر المعنى الآخر، ثم إن اللفظين قد يكونان متأخرين عن اللفظ المشترك، وقد يكونان متقدمين، وقد يكون اللفظ المشترك متوسطاً بينهما، والطريقتان راجعتان إلى مقصود واحد وهو استعمال المعنيين، وهذا هو الفرق بين التورية والاستخدام، فإن المراد من التورية هو أحد المعنيين، وفي الاستخدام كل من المعنيين مراد.

ونقل الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه المسمى «بفض الختام عن التورية والاستخدام»، ما يؤكد هذا، فإنه قال: المشترك، إذا لزم استعماله في مفهومه معاً، فهو الاستخدام، وإن لزم في أحد مفهوميه في الظاهر، مع لمح الآخر في الباطن، فهو التورية.

ومنهم من قال: الاستخدام عبارة عن أن يأتي المتكلم بلفظة مشتركة بين معنيين اشتراكاً أصلياً، متوسطة بين قرينتين تستخدم كل قرينة منهما معنى من معني تلك اللفظة

المشتركة، وهذا مذهب ابن مالك. وعلى كل تقدير، فالطريقتان راجعتان إلى مقصود واحد، وهو استعمال المعنيين، بضمير وغير ضمير، وأعظم الشواهد على طريقة ابن مالك ومن تبعه قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾^(١) فإن لفظة كتاب يحتمل أن يراد بها الأجل المحتوم والكتاب المكتوب، وقد توسطت بين لفظتي أجل ويمحو فاستخدمت أحد مفهوميها وهو الأمد، بقرينة ذكر الأجل، واستخدمت المفهوم الآخر وهو الكتاب المكتوب، بقرينة يمحو، ومنه قوله^(٢)، من القصيدة النباتية:

حويت ريقاً نباتياً حلا فعدا ينظم الدر عقداً من ثناياك

فإن لفظة نباتي تحتمل الاشتراك بالنسبة إلى السكر وإلى ابن نباتة الشاعر، وقد توسطت بين الريق وحلاوته، وبين الدر والنظم والعقد، فاستخدمت أحد مفهوميها وهو السكر النباتي، بذكر الريق والحلاوة، واستخدمت المفهوم الآخر، وهو قول الشاعر النباتي بذكر النظم والدر والعقد وليس في جانب من المفهومين إشكال. وأما شاهد الضمائر، على طريق صاحب الإيضاح، فجميع كتب المؤلفين لم يستشهدوا فيها على عود الضمير الواحد إلا بقول القائل:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فلفظة السماء يراد بها المطر، وهو أحد المعنيين، والضمير في رعيناه يراد به المعنى الآخر، وهو النبات. وأما شاهد الضميرين، فإنهم لم يخرجوا به عن قول البحري وهو:

فسقى الغضى والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانحي وضلوعي^(٣)

فإن لفظة الغضى محتملة الموضع والشجر، والسقيا صالحة لكل منهما، فلما قال: والساكنيه، استعمل أحد معني اللفظة، وهو الموضع بدلالة القرينة عليه، ولما قال شبوه استعمل المعنى الآخر وهو الشجر بدلالة القرينة عليه. انتهى.

والشيخ صفي الدين رحمه الله لم يستطرد، في شرح بديعته، إلى غاية ذلك ولكن رأيته، في شرحه، قد أورد على بيت البحري نقداً حسناً ليس فيه تحمل^(٤) ولا إشكال،

(١) الرعد، ١٣ / ٣٨ و ٣٩.

(٢) قوله: قول ابن مالك.

(٣) الغضى: شجر من الأثل خشبه ضلب، وجمرة يبقى طويلاً لا ينطفئ وهو علم على نجد لكثرته هناك - شبوه: أشعلوه وأضرموه.

(٤) تحمل: تحامل وهو الجور في الحكم.

فإنه قال: شرط علماء البديع أن يكون اشتراك لفظة الاستخدام اشتراكاً أصلياً والنظر هنا في اشتراك لفظة الغضى، فإنه ليس بأصلي، لأن أحد المعنيين منقول من الآخر، والغضى في الحقيقة الشجر وسموا الوادي غضى، لكثرة نبتة فيه، وقالوا جمر الغضى لقوة ناره، فكل منقول من أصل واحد، ولم يرد في كتب المؤلفين غير هذين البيتين، وقول أبي العلاء:

قصد الدهر من أبي حمزة الأواب مولى حجي وخذن اقتصاد^(١)
وفقيهاً أفكاره شذن للنعمان ما لم يشده شعر زياد^(٢)

فالنعمان يحتمل هنا أبا حنيفة رضي الله عنه، ويحتمل النعمان بن المنذر ملك الحيرة، فإن الزمخشري صنف كتاباً في مناقب أبي حنيفة سماه «شقائق النعمان في حقائق النعمان» وأما أبو العلاء، فإنه أراد بلفظ النعمان أبا حنيفة، وأراد بالضمير المحذوف ابن المنذر ملك الحيرة وزياد هنا هو النابغة، وكان معروفاً بمدح النعمان بن المنذر، وهذا يصح على طريقة ابن مالك، فإن فقيهاً يخدم أبا حنيفة، وشعر زياد يخدم النعمان بن المنذر، ولا يصح على مذهب صاحب الإيضاح فإن ضمير يشده لم يعد على واحد منهما، لأن شرط الضمير في الاستخدام أن يكون عائداً على اللفظة المشتركة، ليستخدم بها معناها الآخر، كما قال البحراني في شبوه، فهذا الضمير عائد على الغضى، وهذا جعل الضمير في يشده غير عائد على اللفظة المشتركة التي هي النعمان، فصار طيب الذكر الذي يشده زياد لا يعلم لمن هو، لأن الضمير لا يعود على النعمان، اللهم إلا أن يكون التقدير، ما لم يشده له، فيعود الضمير على النعمان بهذا التقدير. انتهى.

وما أحلى قول بعض المتأخرين، مع عدم التعسف، والسلامة من النقد، وصحة الاشتراك الأصلي، وهو:

وللغزالة شيء من تلفته ونورها من ضيا خديه مكتسب

وأنا بالأشواق إلى معرفة الناظم، وهذا النوع، أعني الاستخدام، قل من البلغاء من تكلفه وصح معه بشروطه، لصعوبة مسلكه وشدة التباسه بالتورية، وقد تقدم ما أوردنا فيه من النقد على بيتي البحراني وأبي العلاء، وهو أعلى رتبة عند علماء البديع من التورية،

(١) الأواب: الذي يرجع عن ذنبه ويتوب سريعاً - الحجي: الذي يوثق به - خدن: خدين تجمع على

أخذان: وهم الأصحاب.

(٢) شذن: من شاد يشيد: يبنى.

وأحلى موقعاً في الأذواق السليمة، ولكن قل من ظفر منه بسلامة التخلص من علق النقد، وصعد من غور التعسف إلى نجد السهولة، قال الشيخ صلاح الدين الصفدي في كتابه المسمى «بفض الختام عن التورية والاستخدام»: ومن أنواع البديع ما هو نادر الوقوع، ملحق بالمستحيل الممنوع، وهو نوع التورية والاستخدام الذي تقف الأفهام حسرى^(١) دون غايته عند مرامي المرام:

نوع يشق على الغيبي وجوده من أي باب جاء يغدو مقفلاً

لا يقرع هضبته فارع^(٢)، ولا يقرع بابه قارع، إلا من تنحو البلاغة نحوه في الخطاب، ويجري ريحها بأمره رخاء حيث أصاب، على أن المتقدمين ما قصدوه جملة كافية، ولا شعروا به لما شعروا أنه دخل معهم في بيت تحت قفل قافيه، وأما المولدون من الشعراء، كالفرزدق وجريير ومن عاصرهما وخاض معهما لجة بحر البلاغة، فلم يرد أحد منهم ورد هذا الغدير، وأما الذين تفقهوا من بعدهم في الأدب، وتنبهوا لتخلل طرقة بالطلب، فربما قصدوا بعض أنواع البديع، فجادت إذ جاءت، وفاتت مرة أخرى وأخرى فاءت^(٣)، وقد قصد أبو تمام كثيراً من الجناس، وفتح أبوابه، وشرع طرقة للناس.

وأما التورية والاستخدام فما تنبه لمحاسنهما، وتيقظ وتحرى وتحرف وتحفد^(٤) وتحفظ، إلا من تأخر من الشعراء والكتاب، وتضلع من العلوم وتطلع من كل باب، وأظن أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى هو الذي ذلل منهما الصعاب، وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب، حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره وأصحابه الذين نزلوا ربوع مصره، وخفقت رياحهم بالإخلاص في نصره، كالقاضي السعيد هبة الله بن سنا الملك، ومن انخرط معه في هذا السلك، ولم يزل هو ومن عاصره على هذا المنهج، في ذلك الأوان، ومن جاء بعدهم من التابعين بإحسان، إلى أن جاء بعدهم حلبة أخرى، وزمرة تترى^(٥)، فكلهم يرمون في هذا الإحسان عن قوس واحدة، وينفقون من مادة هي في الجود معن بن زائدة، ويصلون المقطوع بالمقطوع فلا تخلو فيه كلمة فائتة من فائتة، وغالب شعرهم على هذا النمط، وأكثره درر أسماع متى تلتق تلتقط، كأبي الحسين

(١) حسرى: أصابها العياء والتعب.

(٢) فارع: مصعد.

(٣) فاءت: رجعت إلى الصواب.

(٤) تحفد: أسرع.

(٥) تترى: تالية.

الجزار والسراج الوراق والنصير الحمامي والحكيم شمس الدين بن دانيال والقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، فهؤلاء هم الفحول الذين جدوا، بعد القاضي الفاضل، إلى هذه الغاية ورفعوا راية هذا النوع، وكان كل منهم عرابة تلك الراية، تسابقوا جياداً، والديار المصرية لهم حلبة، وتلاحقوا أفراداً، وهم في شرف هذا الفن من هذه النسبة.

وجاء من شعراء الشام جماعة، تأخر عصرهم وتأزر نصرهم ولأن في هذا النوع هصرهم وبعد حصرهم، فيما أرادوه، كما زاد حصرهم كل ناظم تود الشعري^(١) لو كانت له شعراً، ويود الصبح لو كان له طرساً والغسق مداداً، والنثرة^(٢) نثراً، منهم شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماة، والأمير مجير الدين بن تميم، وبدر الدين يوسف-بن لؤلؤ الذهبي، ومحيي الدين بن قرناص، وشمس الدين بن محمد العفيف، وسيف الدين بن المشد. ثم إن الشيخ صلاح الدين قال في آخر هذا الفصل: وهؤلاء معهم جماعة يحضرنني ذكرهم عند شعرهم، ويعز علي أن لم أهرم على تكاثرهم لفوات عصرهم، وكأنني بقاتل يقول: لقد أفرطت في التعصب، لأهل مصر والشام على من دونهم من الأنام، وهذا باطن باطل، وعدوان وحمية لأوطانك وما جاورها من البلدان، فالجواب: إن الكلام في التورية والاستخدام لا غير، ومن هنا تنقطع المادة في السير، ومن ادعى أنه يأتي بدليل وبرهان، فالمقياس بيننا والشقراء والميدان.

وقد رجح صاحب يتيمة الدهر شعراء الشام على شعراء العراق، وقال: إنهم حازوا قصبات السبق عليهم في حلبة السباق، فإنهم قوم جبلت طباعهم على اللطافة، وطبعت جبلتهم على الكيس^(٣) والظرافة. انتهى كلام الشيخ صلاح الدين الصفدي.

قلت: واتصل هذا الحديث القديم، بالشيخ جمال الدين بن نباتة، فأينع فرعه النباتي بغصنه ووريقه، واستعبد التورية والاستخدام في سوق رقيه، فمن استخداماته ما أرانا من استخدام البحترى عيب الوليد، وقلنا بعده في استخدام أبي العلاء ليس على الأعمى حرج، فإنه مشى على الحس في ظلمة التعقيد، واستخدام الشيخ جمال الدين الموعود به، قوله من قصيدة رائية امتدح بها النبي ﷺ:

منازله بالقرب تبهي وتبهرُ
فلا عاها عيش بمغناه أخضر^(٤)

إذا لم تفض عيني العقيق فلا رأ
وإن لم تواصل عادت السفح مقلتي

(١) الشعري: كوكب نير يطلع عند شدة الحر.

(٢) النثرة: مجموعة من النجوم في صورة السرطان.

(٣) الكيس: اللباقة في التصرف.

(٤) السفح: انهمار الدمع.

أنظر أيها المتأمل، إلى صحة الاشتراك بين الاستخدامين، وانسجام البيت الأول مع البيت الثاني، وسيلان الرقة لذا القطر النباتي، والتشبيب المرقص بالمنازل الحجازية، والغزل الذي يليق أن تصدر به المدائح النبوية. ولعمري إنه مشى على طريق صاحب الإيضاح فزاده إيضاحاً، ولو دعي إلى عروس الأفراح زاده أفراحاً، وهذه القصيدة، التي ظفرت منها بهذين الاستخدامين، محاسنها غرر في جباه القصائد، ولأنواع البديع بها صلة ومن أبياتها عائد، منها:

وإن كنت أسقى أدمعاً تتحدر
 وخلفه في الرأس يزهو ويزهر^(١)
 ومن ذا الذي يا عز لا يتغير
 فوا أسفي والشيب كالصبح: يسفر^(٢)
 فيعتاد قلبي حسرة حين أحسر^(٣)
 إذا وضع المرء العمامة ينكر

سقى الله أكناف الغضى سائل الحيا
 وعيشاً نضى عنه الزمان بياضه
 تغير ذاك اللون مع من أحبه
 وكان الصبا ليلاً وكنت كحالم
 يعللني تحت العمامة كتمه
 وينكرني ليلي وما خلت أنه

ومنها:

كليل وأما لحظها فمذكر^(٤)
 على أنه بالجفن جمع مكسر
 كما شف من دون الزجاجة مسكر^(٥)
 وفيه ربيع للنزِيل وجعفر^(٦)
 وكم مثلها فارقتها وهي تصفر^(٧)

وغيداء أما جفنها فمؤنث
 يروقك جمع الحسن في لحظاتها
 يشف وراء المشرفية خدها
 خليلي كم روض نزلت فناءه
 وفارقتها والطير صافرة بها

ومنها في وصف الناقة:

يظل بها عزمي على البيد يجسر^(٨)
 وكف الثريا في دجى الليل يشبر^(٩)

ورب طموح العزم أدماء جسرة
 طوت بذراعِي وَخَدَهَا شَقَّةَ الفلا

(١) نض: خلع ونزع.

(٢) يسفر: يبدو ويظهر.

(٣) أحسر: أكشف.

(٤) كليل: مريض، ومرض الجفون من صفات الجمال عند الحسان.

(٥) شف: رق حتى بدت الأشياء من خلاله.

(٦) الجعفر: النهر، وتجمع على جعافر.

(٧) صافرة: مفردة أو أصابها الصُفار وهو الجوع - وتصفر: أي خالية من صَفَرٍ.

(٨) الأدماء: السمراء وهي من صفات الناقة - الجسور: القوية - يجسر: يجرؤ.

(٩) الوخذ: نوع من السير - يشبر: يقيس بشبره والشبر ما بين طرفي الإبهام والخنصر.

ومدّ جناحي ظلها ألف الضحى
 بضم الحصى ترمي الحدأة كأنما
 إذا ما حروف العيس خطت بقفرة
 فلله حرف لا ترام كأنها
 فشدّت كما شد النعام المنفر (١)
 تغار على محبوبها حين يذكر (٢)
 غدت موضع العنوان والعيس أسطر
 لوشك السرى حرف لدى الشد مضمّر

وعارض الشيخ جمال الدين بن نباتة جماعة نسجوا على منواله في عصره، لكن الذوق السليم يشهد أنهم كانوا خلاصة قطره (٣). وهذا الشرح هو جامعهم الكبير، وإذا ذكرت فيه نظائرهم، فاعلم أنه ليس له فيهم نظير.

نرجع إلى الاستخدام وشواهدة وإيراد أبيات البديعيات فيه، فبيت صفي الدين قوله:
 من كل أبلج واري الزندي يوم قرى
 مشمر عنه يوم الحرب مصطلم (٤)
 ربيت العميان:

إن الغضى لست أنسى أهله فهم
 شلوه بين ضلوعي يوم بينهم (٥)
 أقول لو عاش البحتري ما صبر للعميان على هذه السرقة الفاحشة، فإنهم أخذوا لفظه ومعناه، وضميره وما اختشوا من الحرج، ولا سلموا من النقد. وبيت عز الدين:
 والعين قرت بهم لما بها سمحوا
 واستخدموها من الأعدا فلم تنم

قوله: والعين قرت بهم لما بها سمحوا، في غاية الحسن، فإنه أتى بالاستخدام وعود الضمير في شطر البيت، مع "انسجام والرقّة واستخدامه في العين الناظرة وعين المال، وأما قوله في الشطر الثاني: واستخدموها من الأعدا فلم تنم، ما أعلم ما المراد به، فإن الاستخدام في العين، التي هي الجارحة، قد تقدم، والذي يظهر لي أن اضطاراه إلى تسمية النوع الجاه. إلى ذلك، وبيت بديعيتي:

واستخدموا العين مني فهي جارية
 فالتورية في جارية بعدما استخدموها، لم يوجد في سوق الرقيق مثلها، والعود بالضمير مع تمكن القافية وعدم التكلف والحشو، لا يخفى على أهل الذوق السليم، فإن قافية مصطلم، في بيت صفي الدين تمجّه الأذواق. انتهى الكلام على الاستخدام.

(١) مدّ جناحي ظلها ألف الضحى: أي أصابها الحرّ.

(٢) الحدأة: جمع مفردة الحادي وهو الذي يحدو الإبل في سيرها يحثها على الإسراع.

(٣) خلاصة قطره: أي أخذوا منه من خلس وهي أخذ خلسة وخفية.

(٤) الأبلج: الذي بعد ما بين حاجبيه، دلالة على عزمته - واري الزندي: هكذا في الأصل. والذي

نراه واري الزند: معلّم الزند - القرى: الإطعام وقت الحاجة - مصطلم: أي مقطع الأذنين.

(٥) شلوه: أرسلوه، وقد وردت هذه في بيت البحتري السابق: شلوه بمعنى: أشعلوه وأضرموه.

ذكر الهزل الذي يراد به الجد

والبين هازلني بالجد حين رأى دمعي وقال تبرد أنت بالديم
قال صاحب التلخيص: ومنه، يعني فن البديع، الهزل الذي يراد به الجد: كقوله:
إذا ما تميمي أتاك مفاخرأ فقل عدّ عن ذا كيف أكلك للضب (١)
ولم يزد على ذلك شيئاً.

والهزل الذي يراد به الجد هو أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه، فيخرج مر
ذلك المقصد مخرج الهزل والمجون اللائق بالحال، كما فعل أصحاب النوادر، ومثل
أشعب وأبي دلامة وأبي العيلاء ومزيد، ومن سلك مسلكهم، كما حكى عن أشعب أن
حضر وليمة بعض ولاة المدينة، وكان رجلاً بخيلاً، فدعا الناس ثلاثة أيام وهو يجمعهم
على مائدة فيها جدي مشوي، فيحوم الناس حوله ولا يمسه أحد منهم، لعلمهم ببخله،
وأشعب كان يحضر مع الناس ويرى الجدي، فقال في اليوم الثالث: زوجته طالق إن لم
يكن عمر هذا الجدي، بعد أن ذبح وشوي، أطول من عمره قبل ذلك.

ومن شواهد الهزل الذي يراد به الجد ما أنشده ابن المحرز، من قول أبي العتاهية:

أرقيك أرقيك بسم الله أرقيكاً من بخل نفسك على الله يشفيكاً (٢)
ما سلم كفك إلا من يناولها ولا عدوك إلا من يرجيكاً

(١) عدّ: كُفّ - الضب: حيوان شبيه بالحرذون.

(٢) على: هكذا وردت في الأصل ونظنها من تحريف النساخ والأصح: علّ: أي لعلّ.

والفاتح لهذا الباب، امرؤ القيس، وقوله أبلغ ما سمع فيه وألطف، وهو:
 وقد علمت سلمى وإن كان بعلمها بأن الفتى يهذي وليس بفعال^(١)
 قال زكي الدين بن أبي الأصبع: ما رأيت أحسن من قوله، ملتفتاً: وإن كان بعلمها.
 انتهى.

وهذا النوع، أعني الهزل الذي يراد به الجد، ما سبكه في قواله إلا من لطفت
 ذاته، وكان له ملكة في هذا الفن وحسن تصرف.

ومن أظرف ما وقع في هذا الباب، أنه حصل لي، بالديار المصرية، جَرَبٌ^(٢)
 أشرفت منه على التلف، فوصف لي الحكيم بطيخاً، وهو عزيز الوجود في تلك الأيام،
 فبلغني أنه أهدي إلى مولانا، المقر الأشرف القاضي الناصري محمد بن البارزي،
 صاحب دواوين الانشاء الشريف بالممالك الإسلامية، عظم الله تعالى شأنه، بطيخ،
 فكتبت إليه:

مولاي عاقبني الزمان بجربةٍ وقد انقطعت بجسمي المسلوخ^(٣)
 وعميت من حزني على ما تم لي لكن شممت روائح البطيخ
 فالكناية، على طلب البطيخ، سبكت في أحسن قوالب الهزل، مع حسن التضمين،
 ومثله قولِي:

جاء الشتاء فرأسي والجسم صاراً شماته
 بطيلسان ابن حرب وفروة ابن نباته^(٤)

ففي طيلسان ابن حرب وفروة ابن نباتة، مع ما فيهما من الهزل الظاهر، كناية عن
 الفقر الذي تزايد حده، وطيلسان ابن حرب معروف لشهرته، وأما فروة ابن نباتة ففيها
 إشارة إلى قوله:

زرقة جسمي وبياض ثلجها سنجابي الأبلق في فصل الشتاء^(٥)

(١) البعل: الزوج - يهذي: يتكلم دون أن يقصد بكلامه شيئاً.

(٢) الجرب: دواء معروف يصيب الجلد.

(٣) جربة: واحدة الجرب.

(٤) الطيلسان: نوع من اللباس الفارسي المزركش الأخضر وهو لباس العلماء.

(٥) سنجابي: ثوبي ذي اللون السنجابي، والسنجاب: حيوان لونه أزرق تشوبه غُبره، أكبر من الجرذ
 وأصغر من الهر - الأبلق: المختلف الألوان.

ومثله قولي: وصاحب تسميح لي نفسه بغدوة لكن إذا ما انتشا
يضحك سني للغددا عنده لكنني أقلع ضرسي للعشا

فيه على الهزل الذي يراد به الجد، زيادة تُلطف الاستدراك ومراعاة النظير، وكان هذا الصاحب، تغمده الله برحمته ورضوانه، من أعز الأصحاب عليّ، ولكن التصريح باسمه غير ممكن هنا، وبين الهزل الذي يراد به الجد وبين التهكم فرق لطيف، وهو أن التهكم ظاهره جد وباطنه هزل، وهذا النوع بالعكس.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته:

أشبت نفسك من ذمي فهاضك ما تلقى وأكثر موت الناس بالتخم (١)

فقوله: وأكثر موت الناس بالتخم، كناية يهزلون بها على من يفزط في أكل شيء ويخص به نفسه.

وبيت العميان:

قل للصباح إذا ما لاح نورهم إن كان عندك هذا النور فابتسم

لم أر في بيت العميان [هذا] هزلاً يراد به الجد، والله أعلم.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

هزل أريد به جد عتابك لي كما كتمت بياض الشيب بالكتم (٢)

الشيخ عز الدين، غفر الله له، حكى هنا حكاية لم يسعني الكلام عليها، لثلا يطول الشرح.

وبيت بديعيتي:

والبين هازلني بالجد حين رأى دمعي وقال تبرد أنت بالديم

أنظر أيها المتأمل هنا، بنور الله تعالى، فإن الهزل الذي يراد به الجد أنا ملتزم تسميته، وقد استوعب شطر البيت، وانظر كيف أفرغت هذا النوع الغريب في أحسن القوالب وأغرب المعاني، فإن الدمع تزايد انهماله، إلى أن صار كالديم الهائلة، والبين يغبطني بذلك مهزلاً، ويقول لي: تبرد أنت بهذه الديم.

(١) هاضك: أحمقك من هاضاه إذا استحمقه.

(٢) الكَتْم: شجر قريب من الأس له ثمر يشبه الفلفل الأسود، كان يستعمل في الخضاب أي صباغ الشعر.

ذكر المقابلة

قابلتهم بالرضا والسلم منشرحاً ولوا غضاباً فيا حَرَبِي لغيظهم

المقابلة أدخلها جماعة في المطابقة، وهو غير صحيح، فإن المقابلة أعم من المطابقة، وهي التنظير^(١) بين شيئين فأكثر، وبين ما يخالف وما يوافق. فبقولنا: وما يوافق، صارت المقابلة أعم من المطابقة، فإن التنظير بين ما يوافق ليس بمطابقة، وهذا مذهب زكي الدين بن أبي الأصبع، فإنه قال: صحة المقابلات عبارة عن توخي المتكلم بين الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه، على الترتيب، بحيث يقابل الأول بالأول، والثاني بالثاني لا يخرم من ذلك شيئاً، في المخالف والموافق، ومتى أخل بالترتيب كانت المقابلة فاسدة، وقد تكون المقابلة بغير الأضداد، والفرق بين المطابقة والمقابلة من وجهين: أحدهما، أن المطابقة لا تكون إلا بالجمع بين ضدين، والمقابلة تكون غالباً بجمع بين أربعة أضداد: ضدان في صدر الكلام، وضدان في عجزه، وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد: خمسة في الصدر وخمسة في العجز. والثاني أن المطابقة لا تكون إلا بالأضداد، والمقابلة بالأضداد وغير الأضداد، ولكن بالأضداد أعلا رتبة وأعظم موقعاً. ومن معجزات هذا الباب قوله عز وجل: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾^(٢) فانظر إلى مجيء الليل والنهار في صدر الكلام، وهما ضدان، ثم قابلهما، في عجز الكلام، بضدين وهما السكون والحركة، على الترتيب، ثم عبر عن الحركة بلفظ الأرداف، فالتزم الكلام ضرباً من

(١) التنظير: التشبيه.

(٢) القصص، ٢٨ / ٧٣.

المحاسن زائداً على المقابلة، فإنه عدل عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل، لكون الحركة تكون لمصلحة ولمفسدة، وابتغاء الفضل حركة المصلحة دون المفسدة، وهي تشير إلى الإعانة بالقوة، وحسن الاختيار الدال على راحة العقل وسلامة الحس، وإضافة الطرف إلى تلك الحركة المخصوصة واقعة فيه، ليهتدي المتحرك إلى بلوغ المآرب، ويتقي أسباب المهالك. والآية الشريفة سقت للاعتداد بالنعم، فوجب العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ هو ردفه، ل يتم حسن البيان، فتضمنت هذه الكلمات التي هي بعض آية عدة من المنافع والمصالح، التي لو عددت بألفاظها الموضوعية لها لاحتاجت في العبارة عنها إلى ألفاظ كثيرة، فحصل في هذا الكلام، بهذا السبب، عدة ضروب من المحاسن. ألا تراه سبحانه وتعالى كيف جعل العلة في وجود الليل والنهار، حصول منافع الإنسان، حيث قال: لتسكنوا ولتبتغوا، بلام التعليل! فجمعت هذه الكلمات من أنواع البديع: المقابلة، والتعليل، والإشارة، والإرداف، واثتلاف اللفظ مع المعنى، وحسن البيان، وحسن النسق، فلذلك جاء اكلام متلائماً آخذاً بعضه بأعناق بعض، ثم أخبرنا بالخبر الصادق: إن جميع ما عدده من النعم باللفظ الخاص، وما تضمنته العبارة من النعم التي تلزم من لفظ الأرداف، بعض رحمته، حيث قال بحرف التبويض: ومن رحمته. وهذا كله في بعض آية عدتها عشر كلمات، فالحظ هذه البلاغة الباهرة والفصاحة الظاهرة. انتهى.

ومن أمثلة صحة المقابلة في السنة الشريفة، قول النبي ﷺ: ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان الخرق^(١) في شيء إلا شانته. فانظر كيف قابل الرفق بالخرق والزين بالشرين، بأحسن ترتيب وأتم مناسبة. وهذا الباب في مقابلة اثنين باثنين، ومنه قوله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾^(٢) ومنه قول النبي ﷺ: إن الله عباداً جعلهم مفاتيح الخير، مغاليق الشر. ومنه، وهو ظريف في مقابلة اثنين باثنين، أن المنصور قال لمحمد ابن عمران: إنك لبخيل. فقال: يا أمير المؤمنين، لا أحمد في حق ولا أذم في باطل. ومنه في النظم قول النابغة:

فتى كان فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعدايا

وقول الحلبي:

ورنح الرقص منه عطفاً خف به اللطف والدخول
فعطفه داخل خفيف وردفه خارج ثقيل

(١) الخرق: الحمق والتسرّع.

(٢) التوبة، ٩ / ٨٢.

وأخبرني مولانا، قاضي القضاة الشافعي نور الدين، الحاكم بحماية المحروسة، المشهور بخطيب الدهشة: أنه كان بحماية يهودي يطوف بالحناء والصابون على رأسه، ويقول: معي حناء أخضر جديد، وصابون يابس عتيق.

وأما مقابلة ثلاثة بثلاثة فقيل: إن المنصور سأل أبا دلامه، عن أشعر بيت في المقابلة فأنشده:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتماعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

فالشاعر قابل بين أحسن وأقبح، وبين الدين والكفر، والدنيا والإفلاس. قال ابن أبي الأصبع: إنه لم يقل قبله مثله.

ومن مقابلة أربعة بأربعة، قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحَسَنَى * فَسَنِيْرَهُ لِيَسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَبَ بِالْحَسَنَى * فَسَنِيْرَهُ لِيَعْسِرَى﴾ (١) المقابلة بين قوله واستغنى وقوله واتقى، لأن معناه زهد فيما عنده واستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة، وذلك يتضمن عدم التقوى، ومن مقابلة أربعة بأربعة قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، في وصيته عند الموت: هذا ما أوصى به أبو بكر، عند آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها. فقابل أولاً بآخر، والدنيا بالآخرة، وخارجاً بداخل، ومنها بفيها. فانظر إلى ضيق هذا المقام كيف صدر عنه مثل هذا الكلام.

قال علماء البديع: كلما كثر عددها كانت أبلغ. فمن مقابلة خمسة بخمسة قول أمير المؤمنين عليّ، كرم الله وجهه، لعثمان بن عفان رضي الله عنهما: إن الحق ثقيل مري (٢) والباطل خفيف وبّي (٣)، وأنت رجل إذا صدقت سخطت، وإن كذبت رضيت.

وأوردوا لأبي الطيب، في مقابلة خمسة بخمسة:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأثنى وبياض الصبح يغري بي

قال صاحب الإيضاح ضدّ الليل المحض هو النهار لا الصبح، والمقابلة الخامسة، بين بي ولي، فيها نظر، لأن الباء واللام صلتا الفعلين، ورجح بيت أبي دلامه

(١) الليل، ٩٢ / ٥ - ١٠.

(٢) مري: يسهل بلعه.

(٣) وبّي: من الوباء وهو المرض.

المتقدم^(١)، على بيت أبي الطيب، بجودة المقابلة، ولكن القافية مستدعاة، فإن الذي ذكره مختص بالرجل وبغيره، والمعنى قد تم بدون الرجل، قال زكي الدين بن أبي الأصبع: لو كان، لما اضطر إلى القافية، أفاد بها معنى زائداً، بحيث يقول: بالبشر، لكان البيت نادراً. وعلى كل تقدير، بيت أبي دلالة أفضل من بيت المتنبي، لصحة المقابلة، لأنه قابل بالأضداد، والمتنبي بغير الأضداد، والمقابلة بالأضداد أفضل، وهو مذهب السكاكي، فإنه قال: المقابلة أن تجمع بين شيئين متوافقين فأكثر، ثم إذا شرطت هناك شيئاً شرطت هناك^(٢) ضده. انتهى. وبيت المتنبي أفضل، بالكثرة، عند غير السكاكي، وإن المقابلة عنده لا تصح إلا بالأضداد، وأسلم من بيت أبي الطيب، في التركيب، ما أورده صاحب شرف الدين مستوفي أربيل:

على رأس عبد تاج عز يزينه وفي رجل حر قيد ذل يشينه
وبيت صفي الدين الحلبي:

كان الرضا بدنوي من خواطرهم فصار سخطي لبعدي عن جوارهم
فقابل الرضا بالسخط، والدنو بالبعد، ولفظة من يعن، فإذا قلنا: إن من ضدّ عن، سلم له أربعة بأربعة، وخواطرهم بجوارهم، على مذهب من يرى أن المقابلة تجوز بالأضداد وبغيرها، وبيت العميان:

بواطىء فوق خد الصبح مشتهر وطائر تحت ذيل الليل مكتتم
بيت العميان أمكن من بيت صفي الدين في المقابلة، لأنهم قابلوا واطأاً بطائر، لأن الواطىء هو الماشي على الأرض والطار السائر في الهواء، وفوق بتحت، وخذ بذيل، لما بينهما من معنى العلو والسفل، والصبح بالليل، ومشتهر بمكتتم، وانظر لفظة مشتهر مع مكتتم، وهي القافية التي لا يمكن أمكن منها ولفظة، خواطرهم ومقابلتها بجوارهم، في بيت صفي الدين، وما بينهما من المباينة، غير أن ثقل قولهم: بواطىء، يشق حمله على لطيف الذوق وبيت الشيخ عز الدين:

ليل الشباب وحسن الوصل قابله صبح المشيب وقبح الهجر وا ندمي

(١) هو قوله: ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل.
(٢) هناك: هكذا وردت في الأصل والأصح هنا ويقصد: إذا شرط هناك أي في المتوافقين فأكثر، شرطت هنا أي في الأضداد، ضده.

قابل بين ليل وصبح، وشباب ومشيب، وحسن وقبح، والوصل والهجر، وهي مقابلة صحيحة بين الأضداد، وأتى بلفظة قابله اضطراراً لتسمية النوع، وأما قوله: واندمي، فقافية مستدعاة أجنبية من المقابلة، فإنه لم يؤهلها لمقابلة ضد ولا لغيره، بل تركها بمنزلة الأجانب وبيت بديعيتي:

قابلتهم بالرضا والسلم منشرحاً ولوا غضاباً فيا حربي لغيظهم

قد تقرر أن الشيخ عز الدين لم يأت بلفظة قابله، في بيته، إلا اضطراراً لتسمية النوع، فإنه لم يقابلها بشيء، فانظر كيف أتيت بلفظة قابلتهم، في أول البيت، وقابلتها، في الشطر الآخر، بلفظة ولوا، ومقابلة بقية الأضداد من الرضا والغضب والسلم والحرب ظاهرة. وتمكين القافية بغيظهم ومقابلتها بالانشرح أظهر، فإن القافية إذا كانت ممكنة، وهي جارية في عداد^(١) المقابلات، كانت من أعلى رتب هذا النوع، كما تقدم في بيت المتنبي وبيت أبي دلامة. وقافية العميان منتظمة في هذا العقد، بخلاف بيت صفي الدين وبيت عز الدين. انتهى.



(١) في الأصل في عدد وما أثبتناه أصح وأدق تعبيراً.

ذكر الالتفات

وما أروني التفاتاً عند نفرتهم وأنت يا ظبي أدري بالتفاتهم
فسر قدامة الالتفات بأن قال: هو أن يكون المتكلم آخذاً في معنى، فيعترضه إما
شك فيه، أو ظن أن راداً يردده عليه، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيلتفت إليه بعد فراغه منه،
فإما أن يجلي الشك، أو يؤكد، أو يذكر سببه، كقول الرماح بن ميادة:

فلا صرمة يبدو وفي اليأس راحة ولا وصله يصفو لنا فنكارمه (١)
فكان الشاعر توهم أن قائلاً يقول له: وما تصنع بصرمه؟ فقال: لأن في اليأس
راحة.

وأما ابن المعتز فقال: الالتفات انصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة ومثاله
في الكتاب، قوله تعالى، بعد الإخبار بأن الحمد لله رب العالمين: ﴿إياك نعبد وإياك
نستعين﴾ (٢) وكقوله تعالى: ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون
المؤمنين﴾ (٣) وكقوله تعالى: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض
ما لم نمكن لكم﴾ (٤) ومثال ذلك من الشعر قول جرير:

متى كان الخيام بذى طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام

(١) صرمة: هجره.

(٢) الفاتحة، ١ / ٥.

(٣) الأحزاب، ٣٣ / ٥٠.

(٤) الأنعام، ٦ / ٦.

وانصراف المتكلم عن الخطاب إلى الأخبار، وهو عكس الأول، كقوله تعالى ﴿حتى إذا كتتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة﴾^(١) ومثاله أيضاً قول عنترة:

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم
ثم قال يخبر عن هذه المخاطبة:
كيف المزار وقد تربع أهلنا بعنيزتين وأهلها بالغيلم^(٢)

أو انصراف المتكلم عن الأخبار إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿والله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت﴾^(٣) أو انصراف المتكلم عن التكلم إلى الأخبار، وهو كقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ وما ذلك على الله بعزيز^(٤) والقراءة في الكلمات الثلاث بالنون شاذة، نقلها صاحب «البحر الزاخر» وفي هذا الكتاب سبعة آلاف رواية. وقد جمع امرؤ القيس الالتفاتات الثلاث في ثلاثة أبيات متواليات وهي قوله:

تطاول ليلك بالأئمد ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد^(٥)
وذلك من نبأ جاني وخبرته عن أبي الأسود

فخطب في البيت الأول، وانصرف عن الخطاب إلى الإخبار في البيت الثاني، وانصرف عن الإخبار إلى التكلم في البيت الثالث على الترتيب. وما أحلى قول مهيار بن مرزويه، في قصيدته التي سارت بمحاسنها الركبان، وامتدح بها الوزير زعيم الدين في يوم نوروز، سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، والمطلع [هو]:

بكر العارض تحدوه النعامي فسقاك الري يا دار أماما^(٦)

(١) يونس، ١٠ / ٢٢.

(٢) بعنيزتين والغيلم: موضعين يعيدان عن بعضهما كثيراً.

(٣) فاطر، ٩ / ٣٥.

(٤) هذه الآية غير موجودة في القرآن الكريم، لأنها كما ذكر الكاتب من القراءات الشاذة. وهي مثبتة

بالياء في: إبراهيم، ١٤ / ١٩ و ٢٠ وفي: فاطر، ٣٥ / ١٦ و ١٧.

(٥) العائر الأرمد: الذي في عينه عوار ورمد.

(٦) العارض: المطر - النعامي: ريح الجنوب وهي في الجزيرة من أندى الرياح وأرطبها.

فانصرف عن الإخبار إلى المخاطبة في بيت واحد، ومثله في اللطف قول القاضي الأرجاني:

وهل هي إلا مهجة يطلبونها
إذا رمتم قتلي وأنتم أحبتي
ومثله قول أبي الطيب:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت
بما بجفنيك من سحر صلى دنفا
ومثله قول أبي العلاء:

يودّ أن ظلام الليل دام له
لو اختصرتم من الإحسان زرتكم
ومن لطائف الالتفات، بالانصراف من الخطاب إلى الإخبار، قول ابن نبيه:

من سحر عينيك الأمان الأمان
أسمر كالرمح له مقلة
فقوله عن المقلة، بعد تشبيه القوام بالرمح، أنها لو لم تكن كحلاء كانت سنان، بديع وغريب.

ومن أغرب ما وقع لي، في هذا النوع اللطيف، أنني صرحت باسم الالتفات عند وقوعه بقولي، من قصيدة [قلت فيها]:

والله إن لم ألقيهم من بعد ذا
وقد التفت إليك يا دهري بطو
قررت لي طول الشتات وظيفه
فعلني زماني لم أزل متعتبا
ل تعتبي ويحق لي أن أعتبا
وجعلت دمعي في الخدود مرتبا

واتفق لي أيضاً نظير ذلك، في رسالة كتبت بها إلى العلامة بدر الدين ابن قاضي أذرعاع رحمه الله، منها: سكن القلب. وغير بدع إذا كان القلب للبدز منزلاً، ورام هلال الأفق أن يباهي سموه بمطلعه، فقلنا: ما أنت من براعة هذا الاستهلال، ولا تطاول الرامح إلى الطعن في محله الذي يجمل قدراً عن مناظر ومباهي، فقلنا له أقصر مكتفياً وإلا

١) الدنف: المرض الشديد.

٢) الحَصْر: البرودة المؤلمة.

ف عند التناهي ، ولقد شوقتني طباء المعالي ، في هذا المسرح ، إلى الالتفات ، فقلت ملتفتاً
إلى تلك الليالي المقمرة بنوره ، وقطوف الفواكه البدرية دانيات :

أيا بدرأ سما أفق المعالي وأوقع طائراً من كل نسر
ذكرت ليالياً بك قد تقصّت فيا شوقي إلى ليالات بدر

وأما بيت القصيدة ، أعني البديعية ، فإنه البيت الذي حظيت من بابه بالفتح ، وناداه
الغير من وراء حجراته ، وتغايرت طباء الصريم وهو في سرب بديعه على حسن التفاته ،
وودت ربوع البديعيات أن يسكن منها في بيت ، ولكن «راودته التي هو في بيتها عن
نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت»^(١) ولقد أنصف الحريري ، في المقامة الحلوانية عند
إيراد البيت الجامع لمشبهات الشجر بقوله : يا رواة القريض وأساة القول المريض ، إن
خلاصة الجوهر تظهر بالسبك ، ويد الحق تصدع رداء الشك . وها أنا قد عرضت خبيثتي
للاختبار ، وعرضت حقيثتي على الاعتبار ، وقلت وأنا ماش في عرض بيت بديعيتي على
هذا السنن ، وأرجو أن يكون بحسن التفاته في مرآة الذوق ، مثل الغزال نظرة ولفته ،
وسأبرزه بين أقرانه ، وإذا انسدلت غدائر الأشكال ظهر الفرق من نور بيانه ، فبيت الشيخ
صفي الدين :

وعاذل رام بالتعنيف يرشدني عدمت رشذك هل أسمعت ذا صمم

ولم ينظم العميان في بديعيتهم ، هذا النوع وأما بيت عز الدين :

وما التفت لساع حج في شغف ما أنت للركن من وجدي بملتزم^(٢)

وبيت بديعيتي :

وما أروني التفاتاً عند نفرتهم وأنت يا ظبي أدري بالتفاتهم

فهذا البيت فيه التورية بتسمية النوع ، وقد برزت في أحسن قوالها ومراعاة النظر ،
في الملائمة بين الالتفات والظبي ، والنفرة والانسجام الذي أخذ بمجامع القلوب رقة ،
والتمكن الذي ما تمكنت قافية باستقرارها في بيت ، كتمكين قافيته والسهولة التي عدّها
التيفاشي ، في باب الظرافة ، وناهيك بظرافة هذا البيت ، والتوشيح وهو الذي يكون معنى
أول الكلام دالاً على آخره ، ورد العجز على الصدر والالتفات ، الذي هو المقصود دون
غيره من الأنواع ، فقد اشتمل هذا البيت على ثمانية أنواع من البديع ، مع عدم التكلف ،
والله تعالى أعلم .

(١) يوسف ، ١٢ / ٢٣ .

(٢) الساعي : في الحج الذي يهول بين الصفا والمروة - والركن : هو ركن مسجد النبي في الحجاز .

ذكر الافتنان

تغزلي وافتناني في شمائلهم أضحي رثا لاصطباري بعد بعدهم (١)
الافتنان هو أن يفتن الشاعر فيأتي بفنين متضادين من فنون الشعر، في بيت واحد
فأكثر، مثل النسيب والحماسة، والمديح والهجاء، والهناء والعزاء، فأما ما افتن به الشاعر
من النسيب والحماسة، كقول عنترة:

إن تغدقي دوني القناع فيأني طب بأخذ الفارس المستلم (٢)
فأول البيت نسيب، وآخره حماسة، وكقول أبي دلف، ويروي لعبد الله بن ظاهر:
أحبك يا ظلوم وأنت مني مكان الروح من جسد الجبان
ولو أني أقول مكان روحي خشيت عليك بادرة الطعان (٣)

ومما جمع فيه بين التهنئة والتعزية، قوله تعالى: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر
الظالمين فيها جثياً﴾ (٤) ومما جمع فيه بين التعزية والفخر، قوله تعالى: ﴿كل من عليها
فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ (٥) ومن إنشاء العلامة الشهاب محمود ما كتب
به، من رسالة تهنئة وتعزية، لمن رزقه الله تعالى ولداً ذكراً في يوم، وماتت له بنت قوله:

(١) رثا: ترخيم رثاء.

(٢) تغدقي: تسدلي وترخي - طب: عالم - المستلم: الذي لبس لأمة الحرب وهي عدتها.

(٣) الطعان: الضرب بالرماح في الحروب.

(٤) مريم، ٧٢ / ١٩.

(٥) الرحمن، ٢٧ / ٥٥.

ولا عتب على الدهر فيما اقترف إن كان قد ساء فيما مضى فقد أحسن الخلف. واعتذر بما وهب عما سلب، فعفا الله عما سلف. ومما جمع فيه من النظم بين التهئة والتعزية، قول بعض الشعراء ليزيد بن معاوية لما دفن أباه وجلس للتعزية:

إصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة واشكر حباء الذي بالملك أصفاكاً^(١)
لا رزء أصبح في الإسلام نعلمه كما رزئت ولا عقبى كعقباكاً^(٢)

وقال زكي الدين بن أبي الأصبع: أحسن شعر افتن فيه صاحبه، بالجمع بين التعزية والتهئة، قول أبي نواس للعباس بن الفضل بن الربيع، يعزیه بالرشيد ويهنيه بالأمين، حيث قال:

تعزّ أبا العباس عن خير هالك بأكرم حي كان أو هو كائن
حوادث أيام تدور صروفها لهن مساوٍ مرة ومحاسن
وفي الحيّ بالميت الذي غيب الثرى فلا أنت مغبون ولا الموت غابن^(٣)

ولعمري، إن جمال الدين بن نباتة رحمه الله قال، في تعزية الملك المؤيد صاحب حماة وتهئة ولده الأفضل بالسلطنة بعد أبيه، ما هو أحسن من قول أبي نواس الذي استحسنته ابن أبي الأصبع، وقول من تقدمه. وإن تأخر ابن نباتة فقد تقدم بناته، فإنه استطرب في قصيدة مطوّلة بالجمع بين التهئة والتعزية إلى آخرها وأتى بمعان منها سلامة الاختراع، والذي يؤدي إليه اجتهاد ذوقي، إن هذه القصيدة من العجائب في هذا النوع، وأوردت مطلعها في براعة الاستهلال، لكن تعين إيراده هنا لندخل منه إلى بيوت القصيدة المشتملة على هذا النوع، ليتأكد ما أشرت إليه من غرابة أسلوبها، وهو قوله رحمه الله تعالى:

هنا محاذك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام في ثغور مدامع شيهان لا يمتاز ذو السبق منهما
نردّ مجاري الدمع والبشر واضح كوايل غيث في ضحى الشمس قدهمى^(٤)
سقى الغيث عنا تربة الملك الذي عهدنا سجاياه أعزّ وأكرما

(١) حباء: تفضيل في العطاء.

(٢) رزء: مصيبة.

(٣) المغبون: الذي لا يعطى حقه.

(٤) همى: هطل.

تدانت به الدنيا وعز به الحمى
برغمي وهذا للأسرة قد سما
فغصن ذوى منها وآخر قد نما^(١)
وسمنا لأنواع الجميل متمما^(٢)
به ضيغم أنشا به الدهر ضيغما^(٣)
وقد قمت يا أزكى الأنام وأحزما
فقد أطلعت أوصافك الغر أنجما
فقد جددت عليك وقتاً وموسما
وأبقاك بحرأ بالمواهب منعما

ودامت يد النعمى على الملك الذي
مليكان هذا قد هوى لضريحه
وروضة أصل شاذوي تكافأت
فقدنا لأعناق البرية مالكا
كأن ديار الملك غاب إذا انقضى
كأن عماد الدين غير مقوض
فإن يك من أيوب نجم قد انقضى
وإن تك أيام المؤيد قد مضت
هو الغيث ولي بالثناء مشيعاً

وكانت وفاة الملك المؤيد في شهر المحرم، فقال ولم يخرج عما نحن فيه:

بك انبسطت فينا التهاني وأنشأت ربيع الهنا حتى نسينا المحرماً

والجمع بين التهئة والتعزية، في نوع الافتنان، أصعب مسلكاً من الجمع بين
النسيب والحماسة، لشدة التناقض بينهما. ومن أظرف ما رأيت في هذا النوع: أن ابن
حجاج جمع في الافتنان بين التعزية والمدح المؤدي إلى التهكم، بقوله في تعزية بعض
الرؤساء بأبيه، في بيت واحد وهو:

أبوك قد جمل أهل الثرى فجمال الله به المقبره

وأما الغزل المخمس فكثير في نظم الفحول وغيرهم، وما أحلى قول مهيار
الدلمي، في بيت واحد:

وأتعب من حاولت يا قلب وصله حبيب سنان السمهرى رقيه^(٤)

وممن أتحف الأذواق بحلاوة هذا النوع، وجمع فيه بين النسيب والحماسة القاضي
الأرجاني رحمه الله تعالى، في قوله:

نزل الأجة ساحة الأعداء فغدا لقاء منهم بلقاء

(١) شاذوي: نسبة إلى الشذا، وهو الطيب، ذوى: ذبل ويس.

(٢) مالك ومتمم: أبنا نويرة وكانا من سادات العرب ومتمم شاعر.

(٣) الضيغم: الأسد الواسع الشدق.

(٤) السمهرى: رجل تنسب إليه صناعة الرماح.

وما أحلى ما قال بعده:

كم طعنة نجلاء تعرض بالحمى
فتحدثا سرّاً فحول قبابها
من كل باكية دماً من دونها
يا دمية من دون رفع سجوفها
لو ساعد الأحياب قلت تجلداً

ومثله قول أبي الطيب، في بيت، وكل من النصفين كامل في معناه:

عدوية بدوية من دنها سلب النفوس ونار حرب توقد^(٣)

وممن تفنن في هذا النوع وجمع بين رقة النسب وفخامة الحماسة إبراهيم بن محمد الأنصاري الساحلي المنبوز بطويحن، جرى ذكره في التاج بما نصه: جَوَابُ الْأَفَاقِ ومخالف الرفاق، رفع له ببلده راية للأدب لا تحجم، وأصبح نسيج وحده فيما سدى وألحم، فإن نسب صار للنسب شرف ونسب، وإن مدح قدح من أنوار فطنته ما قدح، كم حرك الجامد، ونظم الجمان في سلوك المحامد، فمن قوله في الافتتان الذي جمع فيه بين الحماسة والتشبيب:

خطرت كمياد القنا المتأطر
وأنتك بين تطاعن وتداعب

وما أبدع قوله منها:

وبملعب الصدغين مطرود جنة

وله ولم يخرج عما نحن فيه:

زارت وفي كل مرمى لحظ محترس
وحول كل كناس كف مفترس^(٧)

(١) نجلاء: واسعة.

(٢) سجوف: مفردا سجد وهو الستر.

(٣) عدوية: نسبة إلى قبيلة عدية.

(٤) المياد: المتمايل.

(٥) قسورة: لبوة أنثى الأسد- جؤذر: البقرة الوحشية المطفل وهي مشهورة بنظرتها العظوفة وعينيها

الواسعتين.

(٦) في الأصل: مطرد وجنة: وما أثبتناه أصح ومعناه: الشيطان.

(٧) الكناس: بيت الطيبي.

وما أحلى ما قال بعده:

سيوف أماقها عن آية الحرس

مهما تلا خدها الزاهي الضحى نطقت

ويعجبني قول أبي الفتوح بن قلاص:

وتقلدوا بصوارم الأجفان
هز الكماة عوالي المران^(١)
خلعت ملابسها على الغزلان^(٢)

عقدوا الشعور معاقد التيجان
ومشوا وقد هزوا رماح قدودهم
وتدرعوا زرداً فخلت أراقما

وممن افتنّ في قصيدة كاملة وتفنن، وخلص من تفخيم الحماسة والفخر إلى رقة الغزل وأحسن، القاضي السعيد هبة الله بن سنا الملك رحمه الله، فإنه قسم القصيدة شطرين، وتلاعب في ميدان البلاغة بالفنين، وهذه القصيدة تقف دونها فرسان الحماسة، ويكبو الجواد من فحولها، وينثني من لطائف غزلها من لعبت بلطف شمائله خمر لطف شمولها، وهي:

وغيري يهوى أن يكون مخلدا
ولا أحذر الموت الزؤام إذا عدا^(٣)
لحدثت نفسي أن أمد له يدا
وحلية حلم تترك السيف مبردا
أرى كل عار من حلا سؤدي سدى^(٤)
ولو كان لي نهر المجرّة موردا
رأيت الهدى أن لا أميل إلى الهدى
وبي بل بفضلتي أصبح الدهر أمردا^(٥)
على الكره مني أن أرى لك سيدا
ولي همة لا ترتضي الأفق مقعدا
لخرت جميعاً نحو وجهي سجدا
من الغيظ منه ساكن البحر مزبدا

سواي يخاف الدهر أو يرهب الردى
ولكنني لا أرهب الدهر إن سطا
ولو مد نحوي حادث الدهر طرفه
توقد عزم يترك الماء جمرة
وفرط احتقار للأنام فلإنني
وأظما أن أبدي إلى الماء منة
ولو كان إدراك الهدى بتذلل
وقدماً بغيري أصبح الدهر أشيأ
وإنك عبدي يا زمان وإنني
وما أنا راض أنني واطيء الثرى
ولو علمت زهر النجوم مكاتي
وبذل نوالي زاد حتى لقد غدا

(١) المران: الرماح اللدنة في صلابة، واحدها مرانة.

(٢) الأراقم: مفردها أرقم وهي الحية التي فيها سواد وبياض وهي أخبث الحيات.

(٣) الزؤام: الكريه السريع.

(٤) سدى: لا معنى ولا قيمة له.

(٥) الأمرد: من لا لحية له.

ولي قلم في أنملي إن هزرته
إذا جال فوق الطرس وقع صريره
فما ضرني أن لا أهر المهندا^(١)
فإن صليل المشرفي له صدا

والمخلص من الحماسة والفخر إلى الغزل قوله:

ومن كل شيء قد صحت سوى هوى
إذا وصل من أهواه لم يك مسعدي
بحب حبيبي من يكون مفنداً^(٢)
وقال لقد آنت ناراً بخده
وكم لي إلى دار الحبيب التفاتة
ولم أدم ذاك الخد باللحظ إنما
يراقب طرفي أن يلوح هلالها
عبرت عليها واعتبرت تجلدي
كأن بطرفي ما بقلبي صباة
وكم لجوادي وقفة في عراضها
تعود ذاك الجيد مني أنني
ويا رب ليل بت فيه وبيننا
ولم أجعل الكف الشمال وسادة
وجردته من ثوبه وأعدته
وقربني حتى طربت إلى النوى
شهدت بأن الشهد والمسك ريقه
وأن السلاف البابلية لحظة

أقام عذولي بالملام وأعدا
فليت عذولي كان بالصمت مسعدا
فيا ليتني كنت العذول المفندا^(٢)
فقلت وإني ما وجدت بها هدى
تذكرني عهداً قديماً ومعهدا
عملت خلوقاً حين أبصرت مسجداً
فقد طالما قد قام حين تعبدا
فيا حسرتي لما اعتبرت التجلدا
فلم ير تلك الدار إلا تقيدا
تعود منها جيده ما تعودا^(٣)
أصيره من در عيني مقلدا
عناق أعاد العقد عقداً مبدداً
فبات على كفي اليمين موسدا
شوب عفا في كاسياً متجرداً
وأوردني حتى صديت إلى الصدا^(٤)
وما كنت لو لم أختبره لأشهدا^(٥)
وإلا سلوا إنسانه كيف عربدا

وممن هذا هذا الحذو، ونسج على هذا المنوال، ومشى فيه على طريق ما سلكها
أحد قبله، الصاحب بهاء الدين زهير، فإنه كتب إلى كمال الدين بن العديم أبياتاً معناها،

(١) أنملي: مفردها أنملة وهي طرف الأصبع - المهند: السيف.

(٢) مفنداً: كاذباً.

(٣) عراضها: جمع مفرده عرصة. وعرصة الدار ساحته وفناؤه.

(٤) صديت: عطشت وتشوقت - الصدا والصدى: رجع الصوت.

(٥) الشهد: جنى النحل.

أنه انتخبه لقضاء حاجة له ولم يؤهل غيره لها، وتخلص منها إلى الغزل بما تستجلي منه عرائس البيان، ويظهر به الافتنان، وهي:

دعوتك لما أن بدت لي حاجة
لعلك للفضل الذي أنت ربه
إذا لم يكن إلا تحمل منة
حملت زماناً عنكم كل كلفة
ومن مذهبي المشهور مذ كنت أنني
وقد عشت دهرًا ما شكوت لحادث
وما همت إلا للصبابة والهوى
أروح وأخلاقي تذوب حلاوة
وقلت رئيس مثله قد تفضلا
تغار فلا ترضى بأن تبدلا^(١)
فمنك وأما من سواك فلا ولا^(٢)
وخفت حتى أن لي أن أثقلا
لغير حبيب قط لن أتذلا
بلى كنت أشكو الأغيد المتدلا^(٣)
ولا خفت إلا سطوة الهجر والقتلا^(٤)
وأغدو وأعطافي تسيل تغرلا^(٥)

وقد طال الشرح، ولكن رأيت الافتنان نوعاً غريباً، فطلبت بالكثرة زيادة إيضاحه. ليستضيء المتأمل في ظلمات الأشكال بنور مصباحه.

وبيت الشيخ صفي الدين:

ما كنت قبل ظبا الألاحظ قط أرى
سيفاً أراق دمي إلا على قدم

كان المطلوب من الشيخ صفي الدين، في هذا النوع، غير هذا النظم مع عدم تكلفه بتسمية النوع، وأما العميان فإنهم لم ينظموا هذا أيضاً في بديعيتهم، وبيت الشيخ عز الدين:

كان افتناني بثغر راق مبسمه
صار افتناني بثغر فيه سفك دمي
وبيت بديعيتي:

تغزلي وافتناني في شمائلهم
أضحى رثا لاصطباري بعد بعدهم

والجمع في افتنان هذا البيت، بين النسب الخالص والتعزية، وكل من الشطرين مستقل بمعناه، هو جمع غريب، والكناية عن موت الصبر بأن التغزل أضحى رثاء له من اللطف الكنايات، ويؤيد ذلك قولي: بعد بعدهم.

(١) ربه: صاحبه - تغار: من الغيرة.

(٢) منة: جميل.

(٣) الأغيد: الذي يتمايل في مشيته ويتلوى.

(٤) القلا: الكره والبغض مع الهجر.

(٥) الأعطاف: مفرد ما عطف وهو من كل شيء جانبه - تغرلاً: استرخاءً وليونة.

ذكر ابن أبي الأصبغ، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» نوعاً يسمى التمريج لم ينظمه أصحاب البديعيات، وهو قريب من الافتنان ولكن بينهما فرق دقيق، لأن الافتنان لا يكون إلا بالجمع بين فنين من أغراض المتكلم، كما تقدّم، والتمريج يخالف ذلك وهو الجمع بين الفنون والمعاني، والله تعالى أعلم.



ذكر الاستدراك

قالوا نرى لك لحماً بعد فرقتنا فقلت مستدركاً لكن على وضم^(١)
الاستدراك على قسمين: قسم يتقدم الاستدراك فيه تقرير لها أخبر به المتكلم
وتوكيد، وقسم لا يتقدمه ذلك، فمن أمثلة الأول قول القائل:

وإخوان تخذتهم دروعاً فكانوها ولكن
وخلتهم سهاماً صائبات فكانوها ولكن في
وقالوا قد صفت منا قلوب لقد صدقوا ولكن من ودادي^(٢)

وقال ابن أبي الأصبع: لم أسمع، في هذا الباب، أحسن من قول ابن دويذة
المغربي يخاطب رجلاً أودع بعض القضاة مالا، فادعى القاضي ضياعه، وهو:

إن قال قد ضاعت فيصدق أنها ضاعت ولكن منك يعني لو تعي
أو قال قد وقعت فيصدق أنها وقعت ولكن منه أحسن موقع

وممن تطف في هذا الباب وأجاد للغاية القاضي الأرجاني، بقوله:

غالطنتي إذ كست جسمي ضنا كسوة أعرت من اللحم العظاما
ثم قالت أنت عندي في الهوى مثل عيني صدقت لكن سُقاما^(٣)

(١) لحماً: وصلأ، واللحم المعروف - الوضم: خشبة اللحم التي يقطع عليها اللحم. أي لحماً مقطعاً.

(٢) الوداد: الحب الصادق.

(٣) السقام: المرض والضعف.

ولقد أحسن القائل في شكوى الزمان، بقوله:

ولي فرس من نسل أعوج سابق ولكن على قدر الشعر يحمم^(١)
وأقسم ما قصرت فيما يزيدني علواً ولكن عند من أتقدم
وهذه كلها شواهد القسم الأول من الاستدراك.

وأما شواهد القسم الثاني، وهو الذي لا يتقدم الاستدراك فيه تقرير ولا توكيد، مثل قول زهير:

أخو ثقة لا يهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله^(٢)

ومتى لم يكن في الاستدراك نكتة زائدة عن معنى الاستدراك، لتدخله في أنواع البديع، وإلا فلا يعد بديعاً، ولا يخفى على الذوق السليم ما في بيت زهير من الزيادة على معنى الاستدراك، بقوله: ولكنه قد يهلك المال نائله. فإنه لو اقتصر على صدر البيت دل على أن ماله موفور، وتلك صفة ذم^(٣)، فاستدرك ما يزيل هذا الاحتمال ويخلص الكلام للمدح المحض. وإذا تأمل الذائق بيت الأرجاني، متع ذوقه بحلاوة الأدب من قوله:

ثم قالت أنت عندي في الهوى مثل عيني صدقت لكن سقاما

فالنكتة الزائدة على معنى الاستدراك لا تخفى إلا على من حجب عن ذوق هذا العلم، وهو من شواهد القسم الأول فإنه قرر ما أخبرت به من قولها أنت عندي في الهوى مثل عيني، ثم أكد بقوله: صدقت، ثم نكت بالزيادة على معنى الاستدراك، التنكيت الذي يتطفل النسيم على رفته، ولولاه ما سكن هذا النوع بيتاً بديعياً، ولا تأهل بعد غربته. وأصحاب البديعيات على هذا المنوال نسجوا، وأداروا كؤوس السلافة على أهل الأذواق، ومازجوها بلطف مزاجهم فامتزجوا. والذي أقوله: إن الشيخ صفي الدين حلا في هذا المنهل الصافي مورده، وعلا في هذا السلك البديعي منظمه ومنضده، وبيته:

رجوت أن يرجعوا يوماً وقد رجعوا عند العتاب ولكن عن وفا ذمي

فإنه قرر ما أخبر به قبل الاستدراك، وأكده بقوله: وقد رجعوا، وفي قوله: عند العتاب، تكميل بديعي.

(١) الحمحة: ما يصدر عن الخيل من أصوات وقت المعارك.

(٢) نائله: عطاؤه، وكرمه.

(٣) وتلك صفة ذم: يقصد أنه يحتمل أن تكون صفة ذم لما قد تعني من البخل.

وأما العميان فإنهم ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم، وبيت عز الدين:
فكم حميت بالاستدراك ذا أسف لكن عن المشتهى والبرء من سقمي
وأما هذا البيت، فإنه عامر بقلق البناء مع عقادة التركيب.
وبيت بديعيتي:

قالوا نرى لك لهماً بعد فرقنا فقلت مستدركاً لكن على وضم
وفي إنصاف أهل العلم والذوق السليم ما يغني عن التطويل، في محاسن هذا
البيت.



ذكر الطي والنشر

والطي والنشر والتغيير مع قصر للظهر والعظم والأحوال والهمم

الطي والنشر هو أن تذكر شيئين فصاعداً، إما تفصيلاً فتنص على كل واحد منهما، وإما إجمالاً فتأتي بلفظ واحد يشتمل على متعدد، وتفوض إلى العقل ردّ كل واحد إلى ما يليق به، لا أنك تحتاج أن تنص على ذلك ثم إن المذكور على التفصيل قسمان: قسم يرجع إلى المذكور، بعده على الترتيب من غير الأضداد، لتخرج المقابلة، فيكون الأول للأول، والثاني للثاني، وهذا هو الأكثر في اللف والنشر والأشهر، وقسم على العكس، وهو الذي لا يشترط فيه الترتيب، ثقة بأن السامع يرد كل شيء إلى موضعه، تقدم أو تأخر.

أما المذكور على الإجمال فهو قسم واحد، لا يتبين فيه ترتيب، ولا يمكن عكسه، ومثاله أن يقول: لي منه ثلاثة: بدر وغصن وطي. فحصل من هذا أن اللف والنشر على ثلاثة أقسام، وإذا كان المفصل المرتب في اللف والنشر هو المقدم، نبدأ بشواهد

فمنه بين شيئين قوله تعالى: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾^(١) فالسكون راجع إلى الليل، والابتغاء راجع إلى النهار.

ومنه قول الشاعر:

ألست أنت الذي من ورد نعمته . وورد راحته أجنبي وأغترف

(١) القصص، ٢٨ / ٧٣.

وقد جمع هذا البيت، مع حشمة الألفاظ، بين جناس التحريف والاستعارة واللف والنشر.

وما أظف قول شمس الدين محمد بن دانيال الحكيم:

ما عاينت عيناى فى عطلتى أقل من حظى ومن بختى
قد بعث عبدي وحماري وقد أصبحت لا فوقى ولا تحتي^(١)

ومن غراميات البهاء زهير:

ولى فىك قلب بالغمرام مقيد له خبر يرويه طرفى مطلقا
ومن فرط وجدى فى لمام وثغره أعلل قلبى بالعذيب وبالنقا^(٢)

ومثله قوله:

يا ردفه يا خصره من لى بنجد أو تهامه^(٣)

ومثله قول ابن نباتة:

له قلب ولى دمع عليه فهذا قاسيون وذا يزيد^(٤)

ومثله قوله مع زيادة التورية:

لا تخف عيلة ولا تخش فقرا يا كثير المحاسن المختاله
لك عين وقامة فى البرايا تلك غزالة وذى فتاله^(٥)

ومثله قوله مع زيادة التورية:

سألته عن قومى فانثنى يعجب من إسراف دمعى السخي
وأبصر المسك وبدر الدجى فقال ذا خالى وهذا أخى

ولابن حيوس بين ثلاثة وثلاثة:

ومقرطق يغنى النديم بوجهه عن كاسه الملامى وعن إبريقه^(٦)
فعل المدام ولونها ومذاقها من مقلتيه ووجتية وريقه

(١) لا فوقى ولا تحتي: مثل يضرب فى شدة الفقر.

(٢) العذيب. والنقا: مكانين فى الصحراء، ويقصد أهل العذيب والنقا.

(٣) الردف: المؤخرة والعجز.

(٤) قاسيون: جبل بالقرب من دمشق.

(٥) غزالة: شمس - فتالة: ثمرة العرفط وهو شجر طيب الرائحة.

(٦) المقرطق: لباس القرطق وهو لباس إيراني.

ومثله قول ابن الرومي :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم
منها معالم للهدى ومصباح

في الحادثات إذا دجون نجوم^(١)
تجلو الدجى والأخريات رجوم^(٢)

ومثله قول حميدة الأندلسية وهو:

ولما أبى الواشون إلا فراقنا
غزوناهم من ناظريك وأدمعي

وما لهم عندي وعندك من ثار
وأنفاسنا بالسيف والسيل والنار

قال الشيخ شهاب الدين أبو جعفر الأندلسي، نزيل حلب، وقد أورد هذين البيتين في شرحه على بديعية صاحبه، أبي عبد الله محمد بن جابر الأندلسي: إن حميدة كانت من ذوي الألباب، وفحول أهل الآداب، حتى إن بعض المنتحلين تعلق بهذه الأهداب، وادعى نظم هذين البيتين، لما فيهما من المعاني والألفاظ العذاب، وما غره في ذلك إلا بعد ديارها، وخلو هذه البلاد من أخبارها، وقد تلبس بعضهم بشعارها وادعى هذا من أشعارها، وهو قولها:

وقانا لفحة الرمضاء روض
تظل غصونه تحنو غلينا
وأسقانا على ظمماً زلالاً
تروع حصاه حالية الغواني

وقاه مضاعف الطل العميم^(٣)
حنو الوالدات على الفطيم
ألد من المدامة للنديم
فتلمس جانب العقد النظيم

فهذه الأبيات نسبوها إلى المنازي من شعرائهم، وزكبو التعصب في جادة ادعائهم، وهي أبيات لم يحكها غير لسانها، ولا رقم بردها^(٤) غير حسانها، وقد رأيت بعض المؤرخين من أهل بلادنا أثبتوها لها، قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود، ويتصف بلفظه الموجود. انتهى كلام الشيخ شهاب الدين المذكور.

ومنه، بين ثلاثة وثلاثة، قول الشيخ جمال الدين بن نباته، رحمه الله تعالى وعفا عنه أمين:

عرج على حرم المحبوب منتصباً
لقبلة الحسن واعذرني على سهري

(١) دجى: اشتدت ظلمته.

(٢) رجوم: ما يرى من الشهب التي يقال إن الله يرمج بها الشياطين عند محاولتهم التنصت إلى ما يدور في العرش.

(٣) الرمضاء: شدة الحر.

(٤) رقم بردها: وشى وزخرف ثوبها.

وانظر إلى الخال فوق الخد تحت لى تجد بلاً يراعي الصبح في السحر^(١)
ومنه بين أربعة وأربعة:

ثغر وخذ ونهد واحمرار يد كالطلع والورد والرمان والبلح^(٢)
ومثله قول شمس الدين بن العفيف، رحمه الله تعالى:

رأى جسدي والدمع والقلب والحشا فأضنى وأفنى واستمال وتيما
ومثله قولي من قصيدة:

من محياه والدلال ومسك الخال والثغر يا شيوخ البديع
انظروا في التكميل واللف والنشـر وحسن الختام والترصيع
وللشيخ شهاب الدين، أبي جعفر الشارح، المذكور بين خمسة وخمسة، ولكن لم
يخل من التعسف، وهو:

ملك يجيء بخمسة من خمسة كفى الحسود بها فمات لما به
من وجهه ووقاره وجواره وحسامه بيديه يوم ضرابه^(٣)
قمر على رضوى تسير به الصبا والبرق يلمع من خلال سحابه^(٤)
ولابن جابر ناظم البديعية، بين ستة وستة:

إن شئت ظلياً أو هلالاً أو دجى أو زهر غصن في الكثيب الأملد^(٥)
فللحظها ولوجهها ولشعرها ولخدها والقدر والردف أقصد

صبرنا على الأملد صفة الكثيب، ولكن لم نصبر على دخول القصد، فإنها زيادة
أجنبية. وقد جمع قاضي القضاة نجم الدين عبد الرحيم بن البارزي، بين سبعة وسبعة:

يقطع بالسكين بطيخة ضحى على طبق في مجلس لأصاحبه
كيدر يبرق قُدَّ شمساً أهلة لدى هالة في الأفق بين كواكبه

(١) السحر: أضفناها وقد كانت مطموسة غير معروفة ونظنها هي.

(٢) قوله: والبلح: في بعض النسخ والوهج، والبلح تناسب المعنى والروي أيضاً.

(٣) الحسام: السيف.

(٤) رضوى: جبل في الحجاز - الصبا: ريح الشمال.

(٥) الكثيب الأملد: التل الرملي الناعم الأملس.

قال شهاب الدين المذكور، في شرح بديعية صاحبه ابن جابر: إن اللف والنشر، في هذين البيتين، غير كامل التفصيل. لأنه نص في اللف على ستة، ونص في النشر على سبعة، وكل منهما راجع إلى منصوص عليه في اللف، إلا الأهله فإنه راجع إلى الاضطار، وهي غير مذكورة في اللف. قلت: هذا يفهم من قوله: يقطع. قال الشيخ شهاب الدين: قوله: ضحى، في بيت اللف، مطرح لا نظير له في النشر. قلت: ضحى، ليس لها في الحسن نظير، فإنه جعل البطيخة شمساً، وهي أنور من قول صاحبه في بيته: أملد، وأقصد. فإنه لم ينص عليهما في اللف وهما أجنبيان مما نحن فيه.

ووصلوا في الجمع بين اللف والنشر المفصل المرتب، إلى اثني عشر. لكن تكلفوا وتعسفوا وأتوا به في بيتين، ولم تسفر لهم وجوه المعاني المسفرة عن بهجة. ولا بن بلدتنا الشيخ علاء الدين بن مقاتل، مالك أزمة الزجل، وقد تقدم ذكره في ما أوردته له من أزجاله على الجناس المقلوب واللفظي، الجمع في اللف والنشر، بين ثمانية وثمانية، مع عدم الحشو والفرار من التعسف وصحة الانسجام.

خودود وأصداغ وقد ومقلة وثغر وأرياق ولحن ومعرب^(١)
فورد وسوسان وبان ونرجس وكاس وجريال وجنك ومطرب^(٢)

ومما سمعت، في هذا النوع، وفيه الجمع بين عشرة وعشرة، قول بعضهم:

شعر جنين محيا معطف كفل صدغ فم وجنات ناظر ثغر
ليل صباح هلال بانة ونقا آس أقاح شقيق نرجس در

وجل القصد، هنا أن يكون اللف والنشر في بيت واحد خالياً من الحشو وعقادة التركيب، جامعاً بين سهولة اللفظ والمعاني المخترعة. انتهى الكلام على اللف والنشر المفصل المرتب.

وأما القسم الذي هو العكس، أعني غير المرتب، فكقول الشاعر:

كيف أسلو وأنت حقف وغصن وغزال لحظاً وقدأ وردفا

فعدم الترتيب ظاهر في البيت، وأما القسم المذكور على الإجمال، فهو قسم واحد

(١) اللحن: عدم مراعاة الإعراب في الكلام - والمعرب الفصيح الخالي من اللحن.

(٢) الجريال: شرحه صاحب المعجم الوسيط بالصيغ الأحمر. والذي نعتقه أنه شراب ذو لون أحمر يدل

على ذلك ذكر الشاعر للكأس قرينة - الجُنك؛ الطنبور، آلة من آلات الطرب.

لا يتبين فيه ترتيب ولا عكس، كما تقدم، ومثله قول ابن سكرة في بيت الكافات
الثنائية:

جاء الشتاء وعندي من حوائجه سبغ إذا القطر عن حاجتنا حسبا
كن وكيس وكانون وكاس طلا مع الكباب وكس ناعم وكسا^(١)

وظريف هنا قول من قال:

جاء الصفاغ وعندي من حوائجه سبغ إذا الصفع في ميدانه وقفاً^(٢)
نطع وطرق وزريوك وغاشية وركسوة وجراب ناعم وقفاً^(٣)

ففي قوله، بعد ما ذكره من آلات الصفع: وقفاً. غاية في اللطف وقوة في تمكين
القافية. انتهى الكلام على اللف والنشر المفصل المرتب وعلى غيره.

وأما أصحاب البديعيات فإنهم ما نظموا إلا المفصل المرتب، لأنه المقدم عند
علماء البديع في هذا الباب، ولم يأتوا به إلا في بيت واحد، بحيث يكون مثلاً شاهداً
على هذا النوع، وماشياً على سنن الأبيات المفردة المشتملة على أنواع البديع، وبيت
صفي الدين غاية في هذا الباب، لما اشتمل عليه من السهولة والرقّة وعدم الحشو، وهو
قوله:

وجدني حنيني أنيني فكرتي ولهي منهم إليهم عليهم فيهم بهم
والعميان لم يأتوا بهذا النوع إلا في بيتين، مع عقادة التركيب.

ولقد حبست عنان القلم عن الكلام عليهما، لكونهما من جملة مديح النبي ﷺ،
وهما:

حيث الذي ان بدا في قومه وحبي عفاته ورمى الأعداء بالنقم^(٤)
فالبدر في شبهه والغيث جاد لذي محل وليث الشرى قد جال في الغنم

(١) الكتن: الملقأ - الكيس: المال - الكانون: ما تشعل فيه النار - الكباب: اللحم المفروم
«كفته» - الكس: الكسيس: وهو لحم يجفف ثم يذق كالسويق - وكسا: كساء.

(٢) الصفاغ: القتال.

(٣) النطع: بساط من الجلد كان يوضع عليه المحكوم بالإعدام ويقتل بالسيف - الطرق:
الترس - الزريوك: ما يلبس على الرأس في المعارك - الركوة: إناء صغير من جلد يشرب به الماء
ويستعمله الفارس في المعركة، والصيد في تجواله - الجراب: قراب السيف - القفا: الهرم، دليل
الحنكة.

(٤) حبي: حياء أعطى - عفاته: أصحابه وقاصدوه.

وبيت عز الدين الموصلي :

نشرٌ ويسر وبشر من شذا وندى وأوجه فتعرف طي نشرهم

قوله: فتعرف طي نشرهم، ليس له نص في اللف لأنه نص فيه على ثلاثة، وعجز عن ترتيب اللف والنشر في نص اللف، وعلى كل تقدير، فلا بد له من تسمية النوع فسماه، ولكن أتى به فضلة، ولو التزم الشيخ صفي الدين أن يسمي هذا النوع البديعي في بيته، لتجافت عليه تلك الرقة.

فالطيّ والنشر والتغيير مع قصر للظهر والعظم والأحوال والهمم

فالطي والنشر، في نص اللف، قبالة الظهر والعظم، والتغيير مع القصر قبالة الأحوال والهمم، هذا مع زيادة العدة على الشيخ عز الدين، وعدم التكلف، ولولا الالتزام بتسمية النوع ومراعاة السهولة والانسجام، وصلت إلى أكثر من هذه العدة.



ذكر الطباق

بوحشة بدّلوا أنسي وقد خفضوا قدري وزادوا علواً في طباقهم
المطابقة: يقال لها: التطبيق والطباق، والمطابقة، في اللغة، أن يضع البعير رجله
في موضع يده، فإذا فعل ذلك قيل طابق البعير.

وقال الأصمعي: المطابقة أصلها وضع الرجل موضع اليد، في مشي ذوات الأربع.
وقال الخليل بن أحمد: يقال طابقت بين الشيئين، إذا جمعت بينهما على حد
واحد. انتهى.

وليس بين تسمية اللغة وتسمية الاصطلاح مناسبة، لأن المطابقة في الاصطلاح:
الجمع بين الضدين، في كلام أو بيت شعر، كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، والبياض
والسواد. وليس في الألوان ما تحصل به المطابقة غيرهما، أعني البياض والسواد، فقد
قال الرماني وغيره: البياض والسواد ضدان بخلاف بقية الألوان، لأن كلاً منهما إذا قوي
زاد بعداً من صاحبه. انتهى.

وإذا ألحقوا بقية الألوان بالمطابقة فالتدبيح أحق منها بذلك، فإنهم أوردوا، في
المطابقة من التدبيح، قول ابن حيوس على جهة الكناية:

فأفخر بعم عمّ جود يمينه وأب لأفعال اليدنية أبي^(١)
بياض عرض واحمرار صوارم وسواد نقع واخضرار رحاب^(٢)

(١) أبي: رافض.

(٢) النقع: ما يثار من الغبار وقت احتدام المعارك.

وقد تقرر أن المطابقة: الجمع بين الضدين عند غالب الناس، سواء كانت من سمين أو من فعلين أو غير ذلك.

قال الأخفش، وقد سئل عنها: أجد قوماً يختلفون فيها فطائفة، وهم الأكثر [بيرون]: انها الشيء وضده، وطائفة يزعمون أنها اشتراك المعنيين في لفظ واحد، منهم قدامة بن جعفر الكاتب، وأوردوا في ذلك قول زياد الأعجم:

ونبتهم يستنصرون بكاهل وللؤم فيهم كاهل وسنام

فكاهل الأول اسم رجل، والثاني العضو المعروف، فاللفظ واحد والمعنيان مختلفان، وهذا هو الجنس التام بعينه، وقال الأخفش: من قال إن المطابقة اشتراك المعنيين في لفظ واحد، فقد خالف الخليل والأصمعي، فقيل: أوكانا يعرفان ذلك! فقال: سبحان الله! من أعلم منهما بطييه وخبيثه؟ وما أحسن ما أتى الأخفش في الجواب بالمطابقة.

ومنهم من أدخل المقابلة فيها، وليس بمليح، إذ لم يبق للفرق بينهما محل. فإن السكاكي قال: المقابلة أن تجمع بين شيئين فأكثر وتقابل بالأضداد، ثم إذا شرطت هنا شيئاً شرطت هناك ضده، والمطابقة هي الإتيان بلفظتين، والواحدة ضد الأخرى، وكان المتكلم طابق الضد بال ضد.

ولقد شفى زكي الدين بن أبي الأصبع القلوب، في ما قرره، فإنه قال: المطابقة ضربان: ضرب يأتي بالفاظ الحقيقة، وضرب يأتي بالفاظ المجاز، فما كان بلفظ الحقيقة سمي طباقاً، وما كان بلفظ المجاز سمي تكافؤاً. فمثال التكافؤ، وهو من إنشادات قدامة:

حلو الشمائل وهو مر باسل يحيي الذمار صبيحة الإرهاق^(١)

فقوله: حلو ومر، يجري مجرى الاستعارة، إذ ليس في الإنسان، ولا في شمائله، ما يذاق بحاسة الذوق. ومن أمثلة التكافؤ قول ابن رشيق، وهو حسن:

وقد أطفؤا شمس النهار وأوقدوا نجوم العوالي في سماء عجاج^(٢)

(١) باسل: عابس.

(٢) المعجاج: الغبار الكثيف الناتج عن المعارك - العوالي: الرماح.

تضحك الأرض من بكاء السماء
حيث درنا وفضة في الفضاء

ومثله: إن هذا الربيع شيء عجيب
ذهب حينما ذهبنا ودر

وما أحلى قول القائل، في هذا الباب:

إذا نحن سرنا بين شرق ومغرب
تحرك يقظان التراب ونائمه

فالمطابقة بين اليقظان، والنائم ونسبتهما إلى التراب على سبيل المجاز، وهذا هو التكافؤ عند ابن أبي الأصعب.

وأما المطابقة الحقيقية التي لم تأت بغير ألفاظ الحقيقة، فأعظم المشاهد عليها قوله تعالى: ﴿وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحى﴾^(١) وكقول النبي ﷺ، للأنصار رضي الله تعالى عنهم: إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع؛ فانظر إلى هذه البلاغة النبوية، والمناسبة التامة ضمن المطابقة.

ومن الشواهد الشعرية، قول الحماسي:

لنفسى حياة مثل أن أتقدما
لقد سرنى أنى خطرت ببالك

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد
ولآخر: لئن ساءني أن نلتني بإساءة
ولآخر في وصف فرس، وأجاد:

وأرى الوحش في يميني إذا ما
كان يوماً عنانه بشمالي^(٢)

والمعجز الذي لا تصل إليه قدرة مخلوق، قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾^(٣) فانظر إلى عظم هذه المطابقة وما فيها من الوجازة.

ومن ذلك في الحديث، قول النبي ﷺ: فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة للكبر، ومن الحياة للممات، فوالذي نفسي بيده ما بعد الحياة مستعتب، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار. انتهى ما قررته في المطابقة، لغة واصطلاحاً، وما أوردته من الفرق بينهما وبين التكافؤ على رأي ابن أبي الأصعب.

(١) النجم، ٤٣ / ٥٣.

(٢) العنان: المقود والرسن.

(٣) فاطر، ٣٥ / ١٩ - ٢٢.

ولهم مطابقة السلب بعد الإيجاب، وهي المطابقة التي لم يصرح فيها بإظهار الضدين، كقوله تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾^(١) فالمطابقة حاصلة بين إيجاب العلم ونفيه، لأنهما ضدان ومثله قول البحري:

يقيض لي، من حيث لا أعلم، النوى ويسري إليّ الشوق من حيث أعلم
فالمطابقة باطنة ومعناها ظاهر، فإن قوله لا أعلم، كقوله جاهل، والسابق إلى هذا امرؤ القيس بقوله:

جزعت ولم أجزع من البين مجزعاً وعزيت قلباً بالكواعب مولعا^(٢)
فالمطابقة حاصلة بين إيجاب الجزع ونفيه، ومن المستحسن في ذلك قول بعضهم:

خلقوا وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

ومثله قول بشر بن هرون، وقد ظهر منه الفرح عند الموت، فقليل له: أتفرح بالموت؟ فقال: ليس قدومي على خالق أرجوه، كمقامي عند مخلوق لا أرجوه. فالمطابقة حاصلة بين إيجاب الرجاء ونفيه. انتهى الكلام على مطابقة السلب بعد الإيجاب.

ولهم إيهام المطابقة، كما لهم إيهام التورية، والشاهد على إيهام المطابقة قول الشاعر:

بيدي وشاحاً أبيضاً من سيبه والجو قد لبس الوشاح الأغبراً^(٣)

فإن الأغبر ليس بضد الأبيض، وإنما يوهم بلفظه أنه ضده ومثله قول دعبل:

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي

فالضحك هنا من جهة المعنى ليس بضد البكاء، لأنه كناية عن كثرة الشيب، ولكنه من جهة اللفظ يوهم المطابقة.

ولهم الملحق بالطباق، وهو راجع إلى الضدين كقوله تعالى: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾^(٤) طابق الأشداء بالرحماء، لأن الرحمة فيها معنى اللين، ومثله قوله

(١) الزمر، ٣٩ / ٠٩.

(٢) الكواعب: مفردا كاعب: الفتاة إذا نهد ثدياها.

(٣) سيبه: انصبابه وغزارته وسرعته وعطاءه.

(٤) الفتح، ٤٨ / ٢٩.

تعالى: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً﴾^(١) فالمطابقة بين الغرق ودخول النار، فإن من دخل النار احترق والاحتراق ضد الغرق، ومنه قول الحماسي:

لهم جلّ مالي إن تتابع لي غنى وإن قلّ مالي لا أكلفهم رفاً^(٢)
ففي قوله تتابع لي غنى معنى الكثرة، وأما قول أبي الطيب:

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محب أو إساءة مجرم
فمتفق عليه أنه من الطباقي الفاسد، فإنّ المجرم ليس بضد للمحب بوجه ما، وليس للمحب ضد غير المبغض انتهى.

وذكروا في آخر الباب: طباقي التريد، وهو أن تردّ آخر الكلام المطابق على أوله، فإن لم يكن الكلام مطابقاً فهو من ردّ الاعجاز على الصدور، ومنه قول الأعشى:

لا يرقع الناس ما أوهوا وإن جهدوا طول الحياة ولا يوهون ما رقعوا^(٣)
وجل القصد في هذا الباب المطابقة في الحقيقة، التي قررها ابن أبي الأصبغ، وتقدم ذلك في أول الباب مع الشواهد عليه، ومثله قول بشار:

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ثم نم

ومن لطيف هذا الطباقي ما أورده القاضي جلال الدين القزويني، في إيضاحه على تلخيصه، وهو قول القاضي الأرجاني:

ولقد نزلت من الملوك بماجد فقر الرجال إليه مفتاح الغنى

والذي أقوله إن المطابقة التي يأتي بها الناظم مجردة ليس تحتها كبير أمر، ونهاية ذلك أن يطابق الضد بالضد، وهو شيء سهل، اللهم إلا أن تترشح بنوع من أنواع البديع يُشاركه في البهجة والرونق، كقوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾^(٤) ففي العطف، بقوله تعالى: ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ دلالة على أن من قدر على تلك

(١) نوح، ٧١ / ٢٥.

(٢) الرد: العون والمساعدة.

(٣) يوهون: يضعفون ويبلون. يرقع الأولى: بمعنى يجمع، ورقعوا: بمعنى أسرعوا.

(٤) آل عمران، ٣ / ٢٧.

الأفعال العظيمة قدر على أن يرزق بغير حساب من شاء من عباده، وهذه مبالغة التكميل المشحونة بقدرة الرب سبحانه وتعالى، فانظر إلى عظم كلام الخالق هنا، فقد اجتمع فيه المطابقة الحقيقية والعكس الذي لا يدرك، لوجازته وبلاغته ومبالغة التكميل التي لا تليق بغير قدرته، ومثل ذلك قول امرئ القيس:

مكّر مفرّ مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

فالمطابقة في الإقبال والإدبار، ولكنه لما قال: معاً، زادها تكميلاً في غاية الكمال، فإن المراد بها قرب الحركة في حالتي الإقبال والإدبار وحالتي الكرّ والفرّ، فلو ترك المطابقة مجردة من هذا التكميل ما حصل لها هذه البهجة ولا هذا الموقع، ثم إنه استطرد، بعد تمام المطابقة وكمال التكميل، إلى التشبيه على سبيل الاستطراد البديعي، ولم يكن قد ضرب لأنواع البديع في بيوت العرب وتد، ولا امتد له سبب. وقد اشتمل بيت امرئ القيس على المطابقة والتكميل والاستطراد على طريقة^(١)، فإن ابن المعتز قال: هو أن يكون المتكلم في معنى فيخرج منه، بطريق التشبيه، إلى معنى آخر، وممن كسا المطابقة ديباجة التورية أبو الطيب المتنبي، حيث قال:

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على العلات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسي وأنت يماني

لعمري لقد رفع أبو الطيب قدر المطابقة، وأزال حقارتها، بمجاورة هذا النوع البديعي الذي عظم عند أهل الأدب قدراً، ومثله قول الصاحب بن عباد في رثاء الوزير كثير بن أحمد:

يقولون قد أودى كثير بن أحمد وذلك رزء في الأنام جليل^(٢)
فقلت دعوني والعلان بكه معاً فمثل كثير في الأنام قليل
وأبو تمام كساها ديباجة المجانسة بقوله:

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
وما أحلى قول الأرجاني من قصيدة:

تعلق بين الهجر والوصل مهجتي فلا أربي في الحب أقضي ولا نحبي^(٣)

(١) على طريقة التشبيه.

(٢) أودى: ذهب إلى غير رجعة - رزء: مصيبة - الأنام: الناس - جليل: عظيم.

(٣) أربي: حاجتي - نحبي: قضى نحبه، مات.

فشدّ أزر المطابقة ببديع اللف والنشر، وأهلها بغريب هذا المعنى، بعدما سال رقة،
وعلق بخاطري من هذه القصيدة:

فلا تتعجب أنني عشت بعدهم فإنهم روحي وقد سكنوا قلبي
ومنها:

وحرف تجوب القاع والوهد والربا كحرف مديم الجر والرفع والنصب^(١)
نجائب يقدح الحصى كل ليلة كأنّ بأيديها مصابيح للركب^(٢)

ومن المطابقة باللف والنشر أيضاً، قول شيخ شيوخ حماة المحروسة:

إن قوماً يلحون في حب ليلي لا يكادون يفقهون حديثا
سمعوا وصفها ولاموا عليها أخذوا طيباً وردّوا خبيثا

ومثله قوله، يخاطب العاذل:

أراك بخيلاً بعوني فهبني سكوتك عني إذا لم تعني
ذمت الهوى ورجوت السلو فأبكيك عيني وأضحكت سني

ومثله قوله:

يا وجوهاً زانت سناها فروع حالكات أغتكم عن حلاكم
لي من حسنكم نهار وليل أنعم الله صباحكم ومساكم

ومثله قوله من قصيدة:

توغل حرقتي أجرى دموعي فقل ما شئت في دخل وخرج

ومنه قول أبي حفص المطوعي، في الباب:

أو ما ترى نور الخلاف كأنه لما بدا للعين نور وفاق

فالمطابقة هنا بزيادة التورية مع الاستعارة البديعة، ويعجبني قوله بعد هذا البيت:

كأكف سنور ولكن نشره يسعى بفأر المسك في الأفاق^(٣)

وأما سحر البلاغة هنا فقول القاضي الفاضل:

دام صاحي وداده عمر الدهر ——— جنيئاً لسكري النشوان

(١) الحرف: الناقة الهزيلة - القاع: الوادي - الوهد - السفوح - الربا: التلال.

(٢) نجائب: جمع مفردة نجبية، وهي من النوق الكريمة.

(٣) فأر المسك: أو فارة المسك وعاءه.

أنظر أيها المتأمل ما أبدع ما أبرز المطابقة في حلل هاتين الاستعارتين الغريبتين،
وما ألطف ما أيد معنى المطابقة بقوله بعدها:

وبنات الصدور أوقع فيما زعم المجد من بنات الدنان^(١)
فالفاضل أبرز هذه المطابقة في حلل الاستعارة، ولكن من أين للمستعير صحو
الوداد، ونشوة السكر، سبحان المانح! ما هذه إلا مواهب ربانية.

وأما الذين تقدم القول بالافتداء برأيهم في هذا الفن، فإنهم ما أبرزوها إلا في
أشعار التورية، فمن ذلك قول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، في موصول:

وناطقة بالنفخ عن روح ربها تعبر عما عندنا وتترجم
سكتنا وقالت للقلوب فأطربت فنحن سكوت والهوى يتكلم

فإنه جمع بين التورية والتضمين والمطابقة.

وما أحلى قول الشيخ شرف الدين بن الفارض، في المطابقة بالتورية، في قوله:

أرج النسيم سرى من الزوراء سحراً فأحيا ميت الأحياء

ومثله قول الوداعي في قصيدة وهو في غاية الحسن:

يفتن بالفاتر من طرفه وريقه البارد يا حار^(٢)

وما ألطف قول الشيخ شمس الدين الواسطي في دو بيت:

إن ضر مني بجذوة التذكار حبي وبرى عظمي شكرت الباري^(٣)
فالعاذل في هواي لا عقل له ما أبلد عاذلي وأذكى نارِي

ومثله قول سراج الدين الوراق:

وبي من البدو كحلاء الجفون بدت في قومها كمهاة بين آساد^(٤)
فلو بدت لحسان الحضرمين لها على الرؤوس وقلن الفضل للبادي

(١) بنات الصدور: الأفكار.

(٢) يا حار: ترخيم يا حارث.

(٣) جذوة التذكار: التهابة: والجذوة: الجمرة الملتهبة.

(٤) المهابة: الغزاة.

ومثله قول أبي الحسين الجزار:

ولكن تعلمته من خمولي
فأخرجني الضرب عند الدخول

أمولاي ما من طباعي الخروج
أتيت لبابك أرجو الغنى

ومثله قول الوداعي، في مطلع قصيد:

من باخل بادي النفار كريم^(١)

ما كنت أول مغرم محروم

ومثله قول مجير الدين بن تميم:

وغدوت من ثوب اصطباري عاريا
وجعلته وقفاً عليه جاريا

لما لبست لبعده ثوب الضنا
أجريت واقف مدمعي من بعده

كمال الدين بن النجار وكيل بيت المال

وكتبت، من هذا النوع، إلى القاضي

بدمشق المحروسة:

يغير البحر من بذل النوال
أتيت لحاجة لم تقضها لي
أتاني النقص من جهة الكمال

كمال الدين يا مولاي يا من
أيجمل أن يقول الناس إنني
وأصبح بينهم مثلاً لأنني

ومثله قول الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى:

عجلت باللذات قطع طريقه
فنعمت بين حديثه وعتيقه

إنني إذا آنست همأً طارقاً
ودعوت ألفاظ الحبيب وكأسه

ومثله قوله:

وأشكنو من العسر داء دفيننا
سوى أن مددت إليك اليميننا^(٢)

قصدت معاليك أرجو الندى
فما كان بيني وبين اليسار

ومثله قوله:

أسهم اللحظ ما أسدّ وأرشق
رمانى من سحر عينيه يغلق

حزني من مهفهف القدر أم
كلما قلت يفتح الله بالوصل

(١) النفار: الحران والغضب.

(٢) اليسار: الغنى.

ومثله قوله:

وجنة منه فوقها شامات
حسنات تمحى بها سيئات

إن أساء الحبيب قامت بعذر
يا لها وجنة أقابل منها

ومثله قوله:

يوم طهور البنين طاووسا^(١)
وعاد ذاك الطهور تنجيسا^(٢)

قام غلام الأمير يحسب في
فأنزل الحاضرون من شبق

وما ألطف قوله من هذا النوع:

بطيب لهو ولا والله ثم يطب
فالكاس في راحة والقلب في تعب^(٣)

يا غائبين تعللنا لغيبتكم
ذكرت والكاس في كفي لياليكم

ومثله قوله في براعة قصيد: يوم صحو فاجعله لي يوم سكر.

وما أحلى ما قال بعده في الشطر الثاني: فأدر كآسي رضاب وخمر.

منها، ولم يخرج عما نحن فيه:

إنما خذّه المشعشع جمري

جفن عينيه فاتر مستحي

ومثله قوله من قصيدة:

فيا لله من فرد تشي

فريد وهو فتان الثني

وله في روضة من قصيدة:

فصح وأما ماؤها فتكسرا

مطابقة الأوصاف أما نسيمها

أنظر ما أحسن تصريحه بالنوع هنا، في قوله مطابقة الأوصاف.

ومثله قول الشيخ برهان الدين إبراهيم القيراطي من قصيدة:

فقري فيصبح بالغنى يتطرب

بأبي غني ملاحه أشكوله

ومنها في هذا النوع:

أشهى إلي من العتيق وأطيب

غدا ينادمني وكأس حديثه

(١) الطهور: الختان.

(٢) أنزل: قذف المني - الشبق: هيجان الشهوة وإلحاحها.

(٣) الراحة: باطن الكف والإستراحة.

ومثله قوله :

يا صاح أسبق لي من العذل
قد سار بين السهل والجبل

في جفنه سيف مضاربه
وبخده والردف لي خبر

ومثله قول الشيخ زين الدين بن الوردى :

أم الخلاف أم ورد القطاف
وقد حصل الوفاق على الخلاف

تجادلنا أماء الزهر أركى
وعقبى ذلك الجدل اصطلاحنا

ومثله قول الشيخ بدر الدين بن الصاحب، وهو في غاية الظرف :

وضرّ بي من حيث بي يعتني
قلت له والله عريتني

كم جار صرف الدهر في حكمه
ألبسني من شيبتي حلة

ومنه قول الشيخ صلاح الدين الصفدي، وقد أهدى إلى الشيخ جمال الدين بن نباتة تخفيفه :

وتشكر في جميع المناقب تصريفه^(١)
فلا عجب إن كنت تقبل تخفيفه^(٢)

أيا فاضلاً تدنو الأفاضل نحوه
إذا كنت بالاحسان ثقلت كاهلي

ومنه قول الشيخ صفى الدين الحلبي من قصيدة :

وماؤها مطلق في زي مأسور
والماء يجمع فيها جمع تكثير

والريح تجري رخاء فوق بحرتها
قد جمعت جمع تصحيح جوانبها

ومنه قول المعمار :

بلحظه لشفائي
أشكو إلى الحكماء
فقلت من عظم دائي
فتلك عين الخطاء

أصاب قلبي خطائي
فرحت من فرط وجدي
قالوا أصبت بعين
إن كان هذا صواباً

وحسن هنا قول البدر يوسف بن لؤلؤ الذهبي :

والشمس ترشف ريق أزهار الربا^(٣)
فإذا عدا بين الرياض تشعبا

وحديقة مطلولة باكرتها
يتكسر الماء الزلال على الحصى

(١) تصريفه : تدبيره للأمر.

(٢) التخفيف : قطعة من القماش رقيقة النسيج تلبس على الرأس ونظنها : «الحطة».

(٣) مطلولة : أصابها الطل وهو الندى.

ومنه قول الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفي:

بروحي أفدي خاله فوق خده
تبارك من أخلى من الشعر خده

ومثله قول الشيخ عز الدين الموصللي:

سموا مني مهجتي سعيداً
إذا اجتمعنا يقول ضدي
ولي شقاء به يزيد
هذا شقي وذا سبيد

وظريف قول جمال الدين عبد الله السوسي:

ورب أقطع يشدو
ما أنصفوا أهل ودي
ساروا وما ودعوني^(١)
واصلتهم قاطعوني

وألف منه قول الشيخ جلال الدين ابن خطيب داريا:

يا معشر الأصحاب قد عن لي
لا تحضروا إلا بأخفافكم
رأي يزيل الحمق فاستظرفوه^(٢)
ومن تشاقل منكم خففوه

ومثله قوله:

تصفحت ديوان الصفي فلم أجد
فقلت لقلبي دونك ابن نباتة
لديه من السحر الحلال مُرامي^(٣)
ولا تتبع الحلبي فهو حرامي^(٤)

وظريف هنا قول الشيخ بدر الدين البشتكي، وإن لم يكن فيه تورية، فقد صرح
باسم النوع من جنس الغزل:

وقالوا يا قبيح الوجه تهوى
فقلت وهل أنا إلا أديب
مليحاً دونه السمر الرشاق^(٥)
فكيف يفوتني هذا الطباق

(١) الأقطع: مقطوع اليد.

(٢) عن: ظهر وبان.

(٣) مُرامي: قصدي وضالتي.

(٤) حرامي: لص وسارق.

(٥) الرشاق: من الرشاقة، الممشوق القدر.

ومن المطابقة بالتورية، قول القاضي بدر الدين بن الدماميني رحمه الله:

بدر إذا شمت فوق الخد عارضه يوماً أرى الصبح بالظلماء مختلطاً
وظن أن صواباً هجر عاشقه لما رأى منه شيباً بادياً وخطاً^(١)

ومن العجيب في هذا النوع، قول شيخنا العلامة شهاب الدين بن حجر، فسح الله في أجله:

خليلي ولي العمر منا ولم نتب وننوي فعال الصالحين ولكننا
فحتى متى نبي بيوتاً مشيدة وأعمارنا منا تهد وما تبنا
وما أحلى قوله فيه:

أتى من أحبائي رسول فقال لي ترفق وهُنْ واخضعُ تفز برضانا^(٢)
فكم عاشق قاسى الهوان بحبنا فصار عزيزاً حين ذاق هوانا
ومثله قوله:

نأى رقيبى وحببى دنا وحسنه للطرف قد أدهشنا^(٣)
آنسني المحبوب يوم اللقا لكن رقيبى فيه ما أوحشا
وما أظرف قوله فيه:

أشكو إلى الله ما بي وما حوته ضلوعي
قد طابق السقم جسمي بنزلة وطلوع

أنظر كيف جمع بين قصر الوزن، وعدم الحشو، وصحة التركيب، والمطابقة بالتورية، وتسمية النوع من جنس الغزل، ومثله قوله:

قال حبي أكتم الهوى خوف لاح وواشيه
كيف أسطيع كتمه وسقامي علانيه

وأشدني من لفظه لنفسه، ابن مكناس وقد أوقفته في الشرح على هذا النوع، فقال:

يا سادتي والعشق لم يبق لي فمن بعدكم روحاً ولا حسا
صبحني الهم لهجرانكم والضر لما بتم مسا

(١) وخطا: من وخطه الشيب إذا خالط سواد شعره.

(٢) هُنْ: أمر من هان: ذل.

(٣) نأى: بُعد.

ونسقى به يا أخوا البدر عشقا
غراماً وننعم ذوقاً ونشقا^(١)

وله: لشغرك طعم ونشر يلذ
فدعنا نمت ونعش في الهوى

ومثله قوله:

أهل ظلم متوالي
برخيص وبغال

رَبُّ خُذْ بِالْعَدْلِ قَوْمًا
كَلْفُونِي بِبَيْعِ خَيْلِي

ونقلت من ديوان والده المقر الفخري:

كي تختفي فأبى شذا العطر
فتناظموا في اللف والنشر

زارت معطرة الشذا ملفوفة
يا معشر الأدياء هذا وقتكم

ونقلت أيضاً من ديوانه:

فبت في مسك أنفاس وطيب سمر
هاروت حل عشاء فيهما وسحر^(٢)

لم أنس معشوقة زارت بجنح دجي
حتى الصباح وعيناها تظن بأن

ونقلت منه ما امتدح به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

قد توالوك بالسعادة فازوا
يا إماماً وما سواك مجاز^(٣)

يا ابن غم النبي إن أناساً
أنت للعلم في الحقيقة باب

وقوله:

إن عمها بالحسن قد خصصا
لله ما أغلى وما أرخصا

علقتها معشوقة خالها
يا وصلها الغالي ويا هجرها

وقلت في هذا المعنى من قصيدة:

من أحمر الدمع فوق الخد تشهير^(٤)
لما غدت ولها في القلب تسعير
وقال أغمدت سيف اللحظ عنك فكيف الحال قلت له والله مشهور

وكيف أكنتم حباً في هواه ولي
ونار خديه قلبي أرخصت وغلت

(١) نشقا: شماً.

(٢) هاروت: أحد الملكين اللذين كانا يعلمان السحر ببابل، كما ورد في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ

السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت ومروث﴾ البقرة ٢٢/١٠٢.

(٣) في هذا البيت إشارة إلى قول النبي: «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

(٤) تشهير: فضيحة.

وقلت من قصيدة وصرحت باسم النوع:

طابقت رقة حالي بالجفا عبثاً
فما طباقتك إلا رقة وجفا

وقلت من قصيدة:

شرفونا بمدمع العين عجباً
ليتهم عند موتنا قبلونا^(٢)

وقلت بعده:

حبكم فرضنا وسيف جفاكم
قد غدا في بعادنا مسنونا

حتى تخلصت إلى مدح أمين الدين، من غزل هذه القصيدة، ولم أخرج عما نحن فيه من المطابقة.

ومن غريب ما وقع لي في هذا النوع قولي من قصيدة:

بدر منير قسا برؤيته
لكن يرى عند خده شفقه^(٣)

وقلت من قصيدة:

لي في حماكم أهيف من عامر
سلطان حسن ظاهر لما بدا
وضفرت شعرك إذ ظفرت بمهجتي
وحميت برد الثغر إذ طابقته
وخراب بيت تصبر بالعامري
جال الهوى في باطني بالظاهر (ي)
يفديك محلول العرا من ظافر^(٣)
في ضمن تورية بجفن فاتر

أنظر ما أحلى قولي: في ضمن تورية، والمراد المطابقة بالتورية.

وقلت مطابقتاً، والتورية ثلاثية:

بمر هجرك عجباً قد قضيت لنا
وشاهد الحسن بالإحسان حلاك

وكتبت إلى بعض المخاديم بحماة المحروسة حرسها الله تعالى، أطلب منشوراً
أبيض فماطلني مدة والمنثور الأبيض عزيز بحماة:

زهر الوعود ذوى من طول مطلقكم
والعبد قد جهَّز المنظوم ممتدحاً
لأنه من نداكم غير ممطور^(٤)
فطابقوه إذا وافى بمنثور

(١) شَرِق: غَصَّ.

(٢) شفقة: واحدة الشفق وهو ما يرى من الحمرة فوق الأفق عند مغيب الشمس.

(٣) العرا: مفردها عروه، وهي فتحة الزر.

(٤) المطل: إخلاف الوعد والتسويق.

وقلت:

هويت غصناً لأطيار القلوب على قوامه في رياض الوجد تغريد
قالت لواحظه أنا نسود على بيض الطبا قلت أنتم سود (وا)

وقد طال الشرح، ولكن هذا الطول تشرح له الصدور، وتعلو به همة الطالب، ولم يرض بعدها بالرخيص من هذا الفن، ويتأيد^(١) قولي: إن الذين اقتديت برأيهم ومشيت على سنتهم لم يرضوا بالمطابقة المجردة، ولم ينظموها إلا في سلك التورية، وقد أوردت لهم هنا من ذلك ما شنف الأسماع ورقص عند السماع، والكمال لله فإن الشيخ صفى الدين لم يأت بالمطابقة إلا مجردة وبيته:

قد طال ليلي وأجفاني به قصرت عن الرقاد فلم أصبح ولم أنم
وبيت العميان مثله، لكنه عامر بالركة والعقادة وهو:

واسهر إذا نام ساٍ وامض حيث ونى واسمح إذا شح نفساً وأسِر إن يقم
وبيت عز الدين:

ابكي فيضحك عن در مطابقة حتى تشابه منشور بمنتظم

لعمري إن بيت صفى الدين وبيت العميان، يتنزلان عند هذا البيت العامر بالمحاسن منزلة الأطلال البالية، فإن الشيخ عز الدين جمع فيه بين تسمية النوع من جنس الغزل، وبين غرابة المعنى، وحسن الانسجام ورقة النسيب وبديع اللف والنشر، ولم يأت كل منهما إلا بمجرد المطابقة. وأما قول العميان في آخر بيتهم: وأسِر إن يقم، فهذا اللفظ من بقية ما سقط من حجارة البيت. وبيت بديعتي [هو]:

بوحشة بدّلوا أنسي وقد خفضوا قدرى وزادوا علواً في طباقهم

فالمطابقة والتورية وتسمية النوع البديعي اجتمعت، هنا في قافية هذا البيت الذي علا بطباقه، وتفيأ أهل البديع بظل رواقه.



(١) يتأيد: يتقوى ويتأكد.

ذكر النزاهة

نزّهت لفظي عن فحش وقلت هم عرب وفي حيهيم يا غربة الذمم^(١)

النزاهة ما نظمها أحد في بديعيته إلا صفي الدين الحلبي، وقد تقدّم القول أنه ذكر عن بديعيته، أنها نتيجة سبعين كتاباً في هذا الفن. وهو نوع غريب تجول سوابق الذوق السليم في حلبة ميدانه، وتغرد سواجع الحشمة على بديع أفنانه، لأنه هجو في الأصل، ولكنه عبارة عن «الإتيان بالفاظ فيها معنى الهجو الذي إذا سمعته العذراء في خدرها لا تنفر منه» وهذه عبارة عمرو بن العلاء لما سئل عن أحسن الهجو.

وقد وقع من النزاهة في الكتاب العزيز عجائب، منها قوله تعالى: ﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾ * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون^(٢) فإن ألفاظ الذم المخبر عنها، في كلام الآية، أتت منزّهة عما يقع في غير هذا القسم من الفحش في الهجاء والمرض. هنا عبارة عن إبطان الكفر.

ومن النزاهة البديعية في النظم، قول أبي تمام:

بني فعيلة ما بالي وبالكم وفي البلاد مناديح ومضطرب^(٣)
لحاجة لي فيكم ليس يشبهها إلا لجاجتكم في أنكم عرب^(٤)

(١) نزّه: رفع وربأ به.

(٢) النور، ٢٤ / ٤٨ - ٥٠.

(٣) مناديح: متسع.

(٤) اللجاجة: الإلحاح.

ومن غريب هذا النوع، قول معبد بن الحسين بن جبارة لرجل كان يدعو قوماً إلى سماع قينة له، ثم انكشف له بعد هذا أنهم كانوا ينالون منها القبيح:

ألم أقل لك إن القوم بغيتهم في ربة العود لا في رنة العود
لا تأسفن على الشاة التي عقرت فأنت غادرتها في مسرح السيد^(١)

فانظر إلى مصاحبة هذه المعاني ونزاهة ألفاظها عن الفحش.

ومن ذلك قول جرير:

ففض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً^(٢)

وقالوا أحسن ما وقع في هذا الباب قوله أيضاً:

لو أن تغلب جمعت أنسابها يوم التفاخر لم تزن مثقالاً^(٣)

فانظر إلى هذا الهجوم المنكي^(٤)، كيف بالغ في تنزيه ألفاظه عن الفحش، وفيه معنى الهزل الذي يراد به الجد، وهو غاية في هذا النوع.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي:

حسبي بذكرك لي ذماً ومنقصة فيما نطقت فلا تنقص ولا تدم

وقال إنها بالذال المعجمة، فإن جل قصده الذم هنا، والذي أقوله: إن هذا البيت شמוש إيضاحه آفة في غيوم العقادة، وليته استضاء بما قاله جرير ومشى على سنته.

والعميان لم ينظموا هذا النوع، وبيت الشيخ عز الدين نظمه في بديعته لأجل معارضة الصفي، وقال في بيته يخاطب العاذل:

لقد تفهقت بالتشديق في عدلي كيف النزاهة عن ذا الأشدق الخصم^(٥)

قد تقرر أن النزاهة هجو، ولكن شرطوا أن لا ينظم هجوها إلا بألفاظ لا تنفر منها العذراء في خدرها. والذي أقوله، وأنا أستغفر الله: إن ألفاظ عز الدين في بيته ينفر منها

(١) عقرت: ذبحت - السيد: الذئب.

(٢) نمير وكعب وكراب: من قبائل العرب.

(٣) المثقال: وزن يساوي عرفاً درهماً ونصف درهم.

(٤) المنكي: القاهر.

(٥) تفهق: في الكلام: توسع وتنطع به - التشديق: مد الكلام.

الجان فكيف حال العذراء! وحاصل القضية، أنه نزه أفاظه عن النزاهة، ولم يتفهيق ولم يتشدد غيره، وما أحقه بقول القائل:

وما مثله إلا كفارغ حمص خلي من المعنى ولكن يفرقع
وبيت بديعيتي:

نزهدت لفظي عن فحش وقلت هم عرب وفي حيههم يا غربة الذمم
وحشمة النزاهة لا تخفى على أهل الذوق السليم والعلم، مع ما فيها من عدم
التكليف في الميل عن التعسف. والذي أقوله: إن بيتي في هذا الباب جر أذيال البلاغة
مع جرير وشاركه في العذوبة والتباري، ولكن له نبأ في التسمية صدر عن خير.



ذكر التخيير

تخيروا لي سماع العذل وانتزعوا قلبي وزادوا نحولي مت من سقمي
التخيير هو أن يأتي الشاعر بيت يسوغ فيه أن يقفي بقواف شتى، فيتخير منها قافية
يرجحها على سائرهما. يستدل بتخييرها على حسن اختياره، كقول الشاعر:

إن الغريب الطويل الذيل ممتهن فكيف حال غريب ما له قوت^(١)

فإنه يسوغ أن يقال: ما له مال، ما له سبب، ما له أحد، ما له قوت، فإذا تأملت
ما له قوت، وجدتها أبلغ من الجميع، وأدل على القافية، وأمس بذكر الحاجة، وأبين
للضرورة، وأشجى للقلوب، وأدعى للاستعطاف، فلذلك رجحت على ما ذكرناه.

ومن هذا النوع في الكتاب العزيز، قوله تعالى: ﴿إن في السموات والأرض لايات
للمؤمنين﴾ وفي خلقكم وما بيث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما
أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم
يعقلون^(٢) فالبلاغة تقتضي أن تكون فاصلة الآية الأولى، للمؤمنين، لأنه سبحانه وتعالى
ذكر العالم بجملته، حيث قال: ﴿السموات والأرض﴾ ومعرفة ما في العالم من الآيات
الدالة على أن المخترع قادر عليم حكيم، ولا بد من التصديق أولاً بالصانع، حتى يصح
أن يكون ما في المصنوع من الآيات دليلاً على أنه موصوف بتلك الصفات، والتصديق هو
الإيمان، وكذلك قوله تعالى في الآية الثانية ﴿لقوم يوقنون﴾ فإن خلق الإنسان، وتدبير

(١) طويل الذيل: كناية عن الغني.

(٢) الجائية، ٣/٤٥ - ٥.

خلق الحيوان، والتفكر في ذلك، مما يزيدُه يقيناً في معتقده الأول، وكذلك معرفة جزئيات العالم، من اختلاف الليل والنهار، وإنزال الرزق من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح، يقتضي رجاحة العقل، ليعلم أن من صنع هذه الجزئيات هو الذي صنع العالم الكلي، بعد قيام البرهان على أن للعالم الكلي صانعاً مختاراً، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون فاصلة الآية الثالثة ﴿لقوم يعقلون﴾ وإن احتيج للعقل في الجميع، إلا أن ذكره هنا أمتن بالمعنى من الأول، ويروى أن أعرابياً سمع شخصاً يقرأ ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله﴾ (١) غفور رحيم فقال: ما ينبغي أن يكون الكلام هكذا. فقيل: إن القارئ غلط، والقراءة: ﴿والله عزيز حكيم﴾ (٢) فقال: نعم، هكذا تكون فاصلة هذا الكلام: فإنه لما عز حكم. وإذا تأملت فواصل القرآن وجدتها كلها لم تخرج عن المناسبة، كقوله تعالى: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر﴾ (٣) لا يجوز التبديل بينهما. إذ لا يجوز النهي عن انتهاك اليتيم، لمكان تهذيبه وتأديبه، وإنما ينهى عن قهره وغلبته، كما لا يجوز أن ينهر السائل، إذا حرم، بل يرده رداً جميلاً.

ويعجبني قول ديك الجن:

قولي لطيفك يثني عن مضجعي عند المنام

عند الرقاد، عند الهجوع، عند الهجود، عند الوسن.

فعمى أنام فتتنظفي نار تأجج في العظام

في الفؤاد، في الضلوع، في الكبود، في البدن.

جسد قلبه الأكف على فراش من سقام

من قتاد، من دموع، من وقود، من حزن.

أما أنا فكما علمت فهل لوصلك من دوام

من معاد، من رجوع، من وجود، من ثمن.

فهذه القوافي المثبتة، يقابل كل بيت بما يليق به منها، والأولى أولى وأرجح.

(١) المائدة، ٣٨ / ٥.

(٢) المائدة، ٣٨ / ٥.

(٣) الضحى، ١٠ / ٩٣.

وبيت صفي الدين الحلبي رحمه الله تعالى :

عدمت صحة جسمي إذ وثقت بهم فما حصلت على شيء سوى الندم
فلذكر عدمت، في صدر البيت، يليق أن تكون القافية العدم، ولذكر الصحة يليق
أن تكون القافية السقم، ولذكر الوثوق يليق أن تكون القافية الندم، والبيت في غاية الرقة
والانسجام.

وبيت عز الدين :

تخير قلبي هوى السادات صح به عهدي وإني لحزني ثابت الألم
أما تخيير هذا البيت فإني تركته لأهل الذوق السليم، بل تخير البيت بكماله.
ولم ينظم العميان في بديعيتهم هذا النوع.

وبيتي [هو]:

تخيروا لي سماع العذل وانتزعوا قلبي وزادوا نحولي مت من سقمي
فسماع العذل يليق به السأم، وانتزاع القلب يليق به الألم، وزيادة النحول يليق بها
السقم، وتقديم السقم هنا لقربه من النحول، ولم يدخل إلى هذا البيت، من الأجانب،
قافية.



ذكر الإبهام

وزاد إبهام عذلي وعاذلي ودجا ليلي فهل من بهيم يشتهي ألمي^(١)
الإبهام، بياء موحدة وهو أن يقول المتكلم كلاماً مبهماً يحتمل معنيين متضادين، لا
يتميز أحدهما عن الآخر، ولا يأتي في كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد، بل يقصد
إبهام الأمر فيهما.

والإبهام مختص بالفنون، كالمديح والهجاء وغيرهما، ولكن لا يفهم من ألفاظه
مدح ولا هجاء، بل يكون لفظه صالحاً للأمرين، ومثاله ما يحكى أن بعض الشعراء هنا
الحسن بن سهل باتصال ابنته بالمأمون، مع من هنأه، فأثاب الناس كلهم وحرمه، فكتب
إليه: إن أنت تماديت على حرمانني، عملت فيك بيتاً لا تعلم مدحتك فيه أو هجوتك.
فاستحضره وسأله عن قوله، فاعترف وقال: لا أعطيك أو تفعل. فقال:

بارك الله للحسن ولبوران في الختن^(٢)
يا إمام الهدى ظفر ت ولكن بينت من

فلم يعلم ما أراد بقوله: بينت من، في الرفعة أو في الصغر؟ واستحسن منه الحسن
ذلك وناشده: أسمعت هذا المعنى أم ابتكرته؟ فقال: لا والله بل نقلته من شعر شاعر
مطبوع، كثير العبث بهذا النوع اتفق أنه فصل قباء^(٣) عند خياط أعور اسمه زيد، فقال له

(١) البهيم: الشديد الظلمة.

(٢) الختن: من يكون من قبل المرأة، أثناء زواجها، مثل الأب والأخ - وزوج الإبنة.

(٣) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب: العباءة.

الخياط على طريق العبث به: سأتيك به لا تدري أقباء هو أم دواج^(١). فقال له الشاعر:
إن فعلت ذلك لأعملن فيك بيتاً، لا يعلم أحد ممن سمعه، أدعوت لك أم دعوت عليك
ففعل الخياط، فقال الشاعر:

خاط لي زيد قباءً ليت عينيه سواء

فما علم أحد، أن الصحيحة تساوي السقيمة أو بالعكس، فاستحسن الحسن صدقه
أضعاف استحسانه حذقه. وغالب الناس يسمون الخياط عمراً ويقولون:

خاط لي عمرو قباءً ليت عينيه سواء

ولكن نقل زكي الدين بن أبي الأصبع، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» أن
الخياط كان اسمه زيدا، وأورد البيت مصرعاً مرفوعاً العروض والضرب، ووجه الرفع ظاهر
فيهما.

ولم يتفق للمتأخرين ولا للسلف من قبل، في هذا الابهام، غير البيت المتعلق
بالخياط زيد، والبيت المتعلق بالحسن بن سهل، وقد تقدم ذكرهما، وقد عززتهما بثالث
لما وقفت على تاريخ زين الدين بن قرناص الحلبي ووجدته قريباً من قباء زيد الخياط،
فقلت:

تاريخ زين الدين فيه عجائب وبدائع وغرائب وفنون
فإذا أتاه مناظر في جمعه خبره عني إنه مجنون

وكذلك الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته، وتبعه الشيخ عز الدين الموصلبي،
لأجل المناظرة، ويأتي الكلام على بيتيهما.

وقد كشفت عنه قناع الأشكال، وأبرزت بدوره المتحجبة في أفق الكمال، فإني
كتبت فيه تقریضاً لم أرض بقراءة الذهب أن تكون له رملاً، ولا سبقني إليه أديب، ولا
ولد منه على هذا الطريق شكلاً، وما ذاك إلا أنه ورد إلى الديار المصرية، وأنا منشىء
دواوين الإنشاء المؤيدي خلد الله ملكه، الشيخ شمس الدين محمد بن ناهض الفقاعي،
في شهر شوال سنة ثمانية عشر وثمانمائة، وقد صنف سيرة مشتملة على نظم ونثر
للسلطان الملك المؤيد، ولم يكن للدشار إليه إمام بتعاطي الأدب في مبادي عمره،
فسألني أن أكتب له عليها تقریضاً، قبل تقديمها، فامتنعت من ذلك مدة، فدخل علي بمن

(١) الدواج: المعطف الغليظ.

لا تمكن مخالفته، فحسنت له كتابة شيخنا القاضي بدر الدين بن الدماميني أولاً، فتوجه إليه فالتزم بالإيمان المغلظة، أنه لا يكتب له إلا إذا كتبت له، فلزمتني الكتابة من وجوه، فكتبت له هذا التقرير الذي صلّت البلغاء خلفه، فإنه للمحاسن جامع، وأوضح طريقه، فضاع^(١) نشره^(٢) الذي كان من غير تورية ضائع، وهو:

وقفت على قواعد الأدب من هذه السيرة الناهضية، فوجدت مطرب لحنها قد أعرب عن التنكيت لأهل النكتب الأدبية، ونويت معها سلوك الأدب لاحتشامها بالصفات المؤيدية، فإنها ما قوبلت بأدب إلا تقوت بسلطانها، ولا جارتها سيرة مطولة إلا كانت قاصرة عن الجري في ميدانها، ولا ذكرت التواريخ المقدمة معها إلا تأخرت وكتب خلفها، ولا ناظرها ذو قصص إلا ثقل عليه أمرها ونظر إلى قصصه فاستخفها، ولا بالغ أهل التقارير في تقاريرهم إلا وكانت دونها، واستحق لها هذا الوصف في ذمة أهل الأدب فاستوفت منه ديونها، فلو نظر الصفدي إلى هذا التاريخ، وراجع النظر لسليخ جلده، أو تصفحه الكتبي لعدد على تاريخه وما عده، أو كآثره ابن كثير لرأى نقصه متزايداً عنده، أو عاصره ابن خلكان لقال لم أمارج شراب الفقاعي، بخلي فإن عنده حمضة وبرده، أو لمحاه الذهبي وموه بتاريخه لقبل له هذا ما ينظلي معه، وعلم أن خلاصة الذهب تظهر بالسبك، فهضم من جانبه ووضع، ولو أدركه البديع لرمى بديعه وعلم أنه بدعة، أو لحقه الوهراني لراه في المنان إن حصل له بعد مطالعته هجعة، نسب هذا التأليف إلى الدولة المؤيدية فصار له على كل أهل الأرض صوله، فلو ناظره مؤلف بمجلد لقلنا: هذا جراب الدولة تحمس في شعره، وتغالى فألقى لنا في سوق الكلام رخصه، ولو زايدة أبو تمام لتحقق عجزه وأرانا بنفسه نقصه، نعم هذه الأشعار التي ما زاحمها شاعر بديوانه إلا تلت عليه بعد الزلزلة الواقعة، وتقوم القيامة وهي إلى الحشر مرمية على القارعة، ولقد أقام أوزانها بالقسط، ولكن رجحها على القيراطي بفضله، ونقص عنها الراجح الحلي، لأن فيها زيادة على مثله، فيا له من شعر قصر عن بحره الطويل كل معارض، وكيف لا وناظمه ذو همة عليّة وناهض وابن ناهض، وقد وقف ابن حجة وقوف معترف أن عنده في نظمه وقفه، وسيكتب المقر البدري على اعترافه أنه قاضي الأدب وإمامه الذي صلّت البلغاء خلفه، وفتحت لعلماء الأدب هذا الباب، وأرجو أن يكون فتحاً مبيّناً، فإن رضوني براعة بحسن الختام، وإذا حصل العلل من هذا النهر رويانا، نعم وقفت وغير خاف عن علومهم الكريمة أن شرط الواقف ما يهمل، وامثلت

(١) ضاع: فاح وانتشر.

(٢) نشره: رائحته الطيبة، عطره.

مراسيم المصنف مع سلوك الأدب الذي يذوقه من له فيه أعذب منهل، والله يجمعنا على هذا الشرب لتحلو موارده بالموارده، ولا يحجبنا عن الكلام الذي يحسن السكوت عليه وتتم به الفائدة.

وكتب، بعد ذلك، سيدنا القاضي بدر الدين المشار إليه: وقفت أنا ولا أكاد أثبت نظري لشدة الخجل، وسألت المهلة في وصف هذه الألفاظ، فإذا هي قد جاءت على عجل، فقلت: أما المقام الشريف الممدوح عز نصره، ولا زالت تفخر بدولته القاهرة مصره، فملك مد على الرعية جناح العدل، وحمى بيضة الإسلام، وتواردت على تجريح عاداته وتعديل صفاته السنة السيوف والأقلام، وسار على أقوم طريق، فأذكرنا السيرة العمريه، وطلع في سماء الكواكب كالبدر، فقل ما شئت في الطلعة القمريه، ودعا إلى نسك طاعته فلبته في ذلك الموقف النفوس، ونادى على أعدائه منادي الحنف فأرانا كيف يكون الترخيم بحذف الرؤس، ناهيك بها مناقب سرت القلوب، وسارت ونافت النجوم حواهر الألفاظ في مدحها فغارت، وشملت البرايا باليمن والمنح، وقابلت المسيء بالعمو والصفح، حماها الله تعالى من الغير، وجعل صفاتها الشريفة جمال الكتب والسير.

وأما منشيء السيرة، فماذا أقول وقد رأيت الخطب جليلاً، وماذا أصف وقد حملني العجز عبثاً ثقيلاً، هو كبير أناس، مزمل^(١) من البلاغة بأنواع وأجناس، ياتم به الهداة كأنه علم، وتروم الأدباء المقايسة به فيقاسون ولكن من شدة الألم، له في الأدب صريمه وشهامه، وفراهة تجريه إلى المقامات الرائقة فلا تعتريه سأمه^(٢)، ما هم بتركيب معنى إلا وشرح الصدور بذلك الهم^(٣)، ولا شن فارس فكره غارة إلا وتم منها على بيوت الشعراء ما تم. طالما أظهر برغم أنوف الحسدة في المجالس فضله، وصعبت الآداب على غيره لكنها أصبحت عليه سهله، وعقل غرائب نكته عما سواه فله ما أبدع عقله، كدر عيش الحلبي بما ابتدعه من العجائب، ولا ينكر لمثله تكدير الصفي، واكتفى في ميدان البراعة بجواد فكره الذي جال وهو مكر مفر، وهكذا يكون المكتفي أتى في تاريخه بألفاظ لو رآها ابن الأثير لتأثر، وابن سعيد لتعثر، وابن بسام لأصيب منها بالقارعة فعبس وتولى، أو الحجازي لرمي منها بالداهية التي هدمت ما بناه، وثقلت عليه حملاً، وكتب خطأ لو لمح ابن مقله لأصيب منه بنظره، أو ابن البواب لهتك ستره، وجاء بأدب لو وازن أحد به الراجح الحلبي، لما أقام له وزناً ولا رجحه، ولو تأمل المليحي ملاحه لفظه الذي ما مر

(١) مزمل: ملفت.

(٢) سأمه: ملل.

(٣) الهم: البدء: من هم بالشيء إذا بدأ به.

مثله بالذوق إلا قال لسان التعجب ما أملحه، ولو قيس به ابن الرومي المتعاضم لأنشد الناظم:

ولو أني بليت بهاشمي خوؤلته بنو عبد المدان
لهان علي ما ألقى ولكن تعالوا وانظروا بمن ابتلاني

ولو تشبه به مادح كافور^(١) لعاد من برده بكبد حرا، ولو كلف مجاراته صاحب القطر النباتي لقال ربنا أفرغ علينا صبراً، ولو تعرض ديك الجن لعزائمه في الأدب لما زادته إلا خيالاً^(٢)، ولرأى سطوراً تتوالد منها المعاني العجيبة والليالي كما علمت حبالى، ولو أصبح ابن قادوس فخاراً بمثل أدبه لقلنا له حسبه أن يدور في الدولاب، ولو تسرح الزغاري إلى تصيد معانيه الشاردة لقطعت عليه أذنان الكلاب، ولو تسلق المعمار عليها لعلم أنه ينحت من الجبال بيوتاً، ولو رآه أبو نواس لقال هذا الذي نقل الأدب خبراً وعلم من أين يؤتى، ولو عورض به ابن مماتي لطال على قريحته الميته النحيب، أو ذكر الصابي لقال الذوق السليم ليس لعصرنا من صاب سوى هذا الأديب، ولو أدرك آدابه الحكيم ابن دانيال لعلم أنه ما تخيل نظيرها في الوهم، ولام تصور مثلها في الخيال، وإذا كان الأمر كما قال حسان بن ثابت الأنصاري:

وإنما الشعر عقل المرء يعرضه على البرية إن كَيْساً وإن حمقا

فما أوفر عقل هذا الشاعر وأوفاه، وما أقدره على تخيل المعاني الغريبة وأقواه، وما أحقق من قاسه على قرنائه من هذه الصناعة التي تعاطاها بسواه، كم تصور معنى في الذهن فأبرزه في الخارج أغرب الأشياء أسلوباً، وكم ركب جناساً إذا ذكر البستي عنده قال الأدب دعنا من تركيبه للجناس مقلوباً.

ولقد كنت أرتجي باباً أدخل منه للتقريض، ففتح لي المقر التقوي باباً مرتجياً، ونهج الطريق إلى المدح فافتفت آثاره واهتديت حيث رأيت منهجاً، أبقاه الله لإبهام يوضحه، وفساد عاجز يصلحه، والله تعالى يحفظ على منشاء هذه السيرة قريحته التي هي لعجائب الأدب حائزه، ويجعله ممن يسرح في رياض الصدقات الشريفة بما يسوقه إليه من وفور الجائزه.

(١) مادح كافور: هو المتنبي وقصيدته في مدح كافور الأخشيدي مشهورة مطلعها:
عيد بأية حالٍ عدت يا عيد بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديد
(٢) الخيال: اختلاط العقل.

وألح المصنف بعد ذلك على المقر المجدي فضل الله بن مكانس، فكتب: يا لطيف نظرت هذه السيرة التي يعرض عنها المعارض، وينزو مؤلفها في رياض الأدب على بكر من سوام المعاني وفارض^(١)، فوجدته قد نهض بعبء ثقل من الكلام وقام، وأوقف البلغاء في مقام العجز، ويعذر العاجز، إذ شرفها بذكر مولانا السلطان في هذا المقام، خلد الله ملكه الشريف، وعم بعدله المبسوط مدائن فضل ذات ظل وريف، وجعل أيامه الزاهرة تواريخ السعود، ومغانم الوفود، ومواسم الكرم والجدود، وثبت قواعد سلطانه على التخوم، ورفع جنباه المعظم على الأفلاك حتى تسير لخدمته ممنطقات بمناطق^(٢) النجوم، وأعز دولته عزاً يذل له الدبر والأملس^(٣)، وتلبس أثوابه في الأرض، ويخص محله الرفيع من تلك الأفلاك بالأطلس^(٤)، هنالك ينحني الهلال لتقبيل أقدامه، ويمتد كف الثريا لاستجداء صوب^(٥) غمامه، ويتضاءل كل منهما فيصير هذا نعل فرسه وهذا حلية لجامه، وملكه رقاب العباد، وأمضى أحكام سيوفه في رقاب أهل العناد، حتى يشهد الدين أنه قام بحقوقه نافلة^(٦) وفرضاً، وسعى في مرضي الله فزلزل ديار الكفار سماء وأرضاً، ضاعف الله ثواب عمله المقبول، وأنشد بشكره لسان العالم حتى ينطق ويقول:

السيد المالك الملك المؤيد سيــــــــــــــــف الدين شيخ حوى العليا وأرضها
وشيد الدين والدنيا بيض ظبا إن لم تضاه به في الحرب أمضاها^(٧)

ثم كررت النظر فيها، واستنهضت القلم المكتابة عليها حسب سؤال منشيها، فنكس القلم من الخجل رأسه، وصعد من صريره^(٨) أنفاسه، وقال: لست ممن يجيد في هذا التقريض عباره، ولا ينهض في وصف ما جاء به هذا الرجل من متين كلمه الذي أفحم الفحول فكأنما ألقمهم حجاره، فلقد ترفع قلمه في أرض قرطاسه وسما، وأتى من الرقيق بشيء يحسبه الظمان ما^(٩)، وقذف الرعب في القلوب بذكر الوقائع فورمت خوفاً، وشكت

(١) الفارض: من النوق التي كبرت، ومن الكلام القديمة.

(٢) مناطق: واحدها منطقه: وهي ما يشد حول الخصر من قماش وغيره.

(٣) الدبر والأملس: الوضع الشريف.

(٤) الأطلس: نسيج من الحرير.

(٥) صوب غمامه: مطره.

(٦) النافلة: الصلاة الزائدة على الواجب، تجمع على نوافل.

(٧) الظبا: مفردها ظبة السيف وهي حده.

(٨) صرير القلم: صوته عند الكتابة.

(٩) ما: ترخيم ماء.

مما قذف بها وربما، فلو وازنه القيراطي لثقل في الحقيقة عليه، أو حام على حمى ابن أبي حجلة لفرّ طائراً من بين يديه، أو جلا على ابن نباتة سلاف نظمه، لم يقل إليّ، بكاسك الأشهى إليّ، أو أورى زنده مع الشواء لأحرق قلبه، ولم يستحسن منه شيئاً أو عاصر ابن الساعاتي لم يلتذ بطيب المنام، أو جارى النصير الحمامي لألقى شعره في سرب الحمام، أو تقدم لزمان أبي تمام وناظره، لعلم الناس أنه غير لبيب، وقال له علماء البديع هذا ضدك يا حبيب^(١)، أو ابن حجاج لأظهر فساد عقله السخيف، ورمى بجميع ما قاله في الكنيف^(٢)، فهو أولى منهم بما جره الفضل وجذب، وأحق وإن اشتهرت فضائلهم أن يشتهر بالأدب، فإنه لو كلف الغريب من القول لأتى به على كنهه، أو أقام الاعتذار عن قبيح لقام العذر عما جاء به وذهب على وجهه، ولو تصدى لتهجين^(٣) حسن، لزان بما يملأ الطروس من ذلك وشحن، أو حاجج بالباطل من يعرب عن الحق لنهض بحجته واستمر يلحن، فسبحان من أقدره على ما تقصر عن إدراكه الأفهام، وتعجز عن تصوره عقول الأنام.

ولقد استعفاه القلم عن الكتابة خشية من عرض فضائحه، وسأله طي هذه الصحيفة خوفاً من نشر قيائحه^(٤)، فأبى إلا إظهار المكتوم وفض المخوم، فيا خجلتاه لما كتب، ويا فضيحتاه إذا لام الفاضل على ما جاء به وعتب، ولكنه جرى خلف الجوادين السابقين، واقتدى بإمامتهما التي اعترف الآفاق أنها ملأت الخافقين^(٥) أبقاهما الله مدى الزمان، وأسبغ عليهما غطاء الفضل، وبلغهما غاية الأمانى يوم الخوف والأمان، وأمتع بجناب منشئها الأحباب، وأقرّ به أعين الإخوان، وبسط به أنفاس الأصحاب، وألهمنا أجمعين تجنب ما خفي علينا من عوراتنا، وكشف حجب قلوبنا، بمنه وكرمه.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي :

ليت المنية حالت دون نصحك لي فيستريح كلانا من أذى التهم

هذا البيت ليس له نظير في هذا الباب، فإنه اشتمل على الرقة والسهولة والانسجام وما زاده حسناً إلا تقويته بليت، التي استعان بها الشاعر في إبهام بيته على زيد الخياط،

(١) حبيب: هو إسم أبي تمام.

(٢) الكنيف: لغة في المرحاض: مكان الخلاء.

(٣) تهجين: تقييح.

(٤) قيائحه: جمع مفردة قيح وهو الوسخ الذي يتجمع في الجرح عند التهايه.

(٥) الخافقين: المشرق والمغرب.

فإن الشيخ صفي الدين لما قال لعاذله: ليت المنية حالت دون نصحك لي، حسن إبهامه بقوله: فيستريح كلانا من أذى التهم، وصار الأمر مبهماً بينه وبين العاذل.

وبيت الشيخ عز الدين، في بديعته، يخاطب فيها العاذل:

أبهمت نصحي مشيراً بالأصابع لي ليت الوجود رمى الإبهام بالعدم

وهذا الإبهام هنا يشار إليه بالأصابع، وتعمد عليه الخناصر، فإن الشيخ عز الدين رحمه الله تعالى أجاد فيه إلى الغاية، ولم يتفق له في نظم بديعته بيت نظيره، ولا اتفق لغيره ممن نظم بديعية، فإنه جمع بين السهولة والانسجام والتصوير والتورية البارزة في أحسن القوالب، بتسمية نوع الإبهام الذي هو المقصود، ولعمري إنه بالغ في عطف القلوب بهذا السحر الحلال. ولم ينظم العميان في بديعتهم هذا النوع، وبيت بديعتي:

وزاد إبهام عذلي عاذلي ودجا لي لي فهل من بهيم يشتفي ألمي

فإن الإبهام هنا بين بهيم الليل وبين العاذل، فإن اشتراك البهيم صالح لهما، ولكن لم يحصل التمييز لأحدهما عن الآخر، كما وقع الشرط بين الأمر بينهما مبهماً، ولا يعلم من هو المقصود منهما، وهذا هو الفرق بين الإبهام والتورية، إذ المراد من التورية المعنى البعيد المورى عنه بالقرب.



ذكر إرسال المثل

وكم تمثلت إذ أرحوا شعورهم وقلت بالله خلوا الرقص في الظلم

إرسال المثل نوع لطيف في البديع، ولم ينظمه في بديعته غير الشيخ صفي الدين، وهو عبارة عن أن يأتي الشاعر، في بعض بيت، بما يجري مجرى المثل، من حكمة أو نعت أو غير ذلك مما يحسن التمثل به، كقوله تعالى: ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿إن أحستتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾^(٤).

ومما جاء من ذلك في السنة الشريفة، قوله ﷺ: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. وقوله ﷺ: لا ضرر ولا ضرار. وقوله ﷺ: خير الأمور أوساطها. وقوله ﷺ: المرء مع من أحب. وقوله ﷺ: المستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم. وقوله ﷺ: ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً يوم القيامة. وقوله ﷺ: البلاء موكل بالمنطق.

وقد احتوى كتاب أبي أحمد العسكري على كثير من هذا الباب، ومن أمثله في الشعر قول زهير:

وهل ينبت الخطمي إلا وشيخة وتغرس إلا في منابتها النخل^(٥)

(١) النجم، ٥٣ / ٥٨.

(٢) النمل، ٢٧ / ٨٨.

(٣) البقرة، ٢ / ١٣٨.

(٤) الإسراء، ١٧ / ٧.

(٥) الخطمي: نبات ليفي يتداوى به - والشبيجة: الألياف.

ومثله قول النابغة:

ولست بمستبق أحاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

ومثله قول بشار:

فعرش واحداً أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه (١)

وما أحلى ما قال بعده:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه (٢)

وقول أبي تمام:

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

وكقوله:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

وذكر ابن أبي الأصبغ، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» إنه استخرج أمثال أبي تمام من شعره، فوجدها تسعين نصفاً وثلاثمائة بيت وأربعة وخمسين بيتاً، واستوعب أمثال أبي الطيب المتنبي، فوجدها مائة نصف وثلاثة وسبعين نصفاً وأربعمئة بيت، ولكنه أخرج من أمثال أبي الطيب ما ولده من أمثال أبي تمام، وصدر الجميع بما وقع في الكتاب العزيز من الأمثال، بزيادات على ذلك، وهي أمثال الأشعار السنية والحماسة وأمثال أبي نواس، بعد أن ألحق أمثال القرآن بأمثال دواوين الإسلام السنية، وختم الجميع بأمثال العامة في كتاب الأمثال له.

ومما سار من أمثال الطغرائي، في لامية المعجم، قوله:

حب السلامة يثني عزم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل
لو أن في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل (٣)
أعلل النفس بالأمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
وعادة النصل أن يزهي بجوهره وليس يعمل إلا في يدي بطل
ما كنت أوثر أن يمتد بي زميني حتى أرى دولة الأوغاد والسفل (٤)

(١) مقارف الذنب: مرتكبه.

(٢) القذى: الكدر.

(٣) دارة الحمل: من منازل الشمس.

(٤) الأوغاد: السوقة من الناس، واللثام الأخساء.

من قبله فتمنى فسحة الأجل
لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل
في حادث الدهر ما يغني عن الحيل^(١)
فحاذر الناس واصحبهم على دخل^(٢)
من لا يعول في الدنيا على رجل^(٣)
أنفقت صفوك في أيامك الأول^(٤)
وأنت تكفيك منه مصة الوشل^(٥)
يحتاج فيه إلى الأنصار والخول^(٦)
فهل سمعت بظل غير متقل
اصمت ففي الصمت منجاة من الزل^(٧)

هذا جزاء امرئ أقرانه درجوا
وإن علاني من دوني فلا عجب
فاصبر لها غير محتال ولا ضجر
أعدى عدوك أدنى من وثقت به
وإنما رجل الدنيا وواحدتها
يا وارداً سؤر عيش كله كدر
فيم اقتحامك لبحر البحر تركبه
ملك القناعة لا يخشى عليه ولا
ترجو البقاء بدار لا بقاء لها
ويا أميناً على الأسرار مطلعاً

وممن سار في مجرى هذه القصيدة ووزنها، أبو الطيب المتنبي في قصيدته التي أولها:

دعا فلباه قبل الركب والإبل^(٨)
من اللقاء كمشتاق بلا أمل
أنا الغريق فما خوفي من البلبل
فما حصلت على صاب ولا غسل^(٩)
في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل
وما صباية مشتاق على أمل
والهجر أقتل لي مما أراقبه
قد ذقت شدة أيامي ولذتها
خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به

أنظر إلى محاسن هذين الفحليين إلى الغاية التي تمثلها بها في الشمس وزحل، وتأخر سوابق الأفهام عن معرفة السابق منهما إلى الغاية، ومنها قوله:

وإن وجدت لساناً قائلاً فقل
فربما صحت الأجسام بالعلل

وقد وجدت مكان القول ذا سعة
لعل عتبك محمود عواقبه

(١) حادث: جديد.

(٢) الدخل: الحذر. ومداخلة الشك.

(٣) يعول: يتكل.

(٤) السؤر: البقية الباقية من الشيء.

(٥) الوشل: الماء القليل.

(٦) الخول: الإماء والعبيد.

(٧) الزلل: الخطأ.

(٨) الطلل: الأثر.

(٩) الصاب: شراب مر.

لأن حلمك حلم لا تكلفه
وما ثنالك كلام الناس عن كرم
ليس التكحل في العينين كالكحل (١)
ومن يسد طريق العارض الهطل

وقد عن لي أن أجمع هنا ما حلا بذوقي من أمثال أبي الطيب المتنبى، وإن كان
فيها ما ولده من شعر أبي تمام، كما ذكره ابن أبي الأصعب، فإن القصد أن نصيرها عمدة
لأهل الإنشاء إذا أوردوها في الوقائع التي تليق بها على اختلاف أنواعها، فمن ذلك قوله:

إذا صديق نكرت جانبه
في سعة الخافقين مضطرب
لم تعيني في فراقه الحيل
وفي بلاد من أختها بدل

وقوله من قصيدة:

أشد الغم عندي في سرور
ومن يك ذا فم مر مريض
تيقن عنه صاحبه انتقلا
يجد مرأً به الماء الزلالا (٢)

وقوله من قصيدة:

ذل من يغبط الذليل بعيش
كل حلم أتى بغير اقتدار
من يهن يسهل الهوان عليه
خير أعضائنا الرؤوس ولكن
رب عيش أخف منه الحمام (٣)
حجةً لاجيءٍ إليها اللثام
ما لجرح بميت إسلام
فضلتها بقصدك الأقدام

وقوله: ما كل من طلب المعالي نافذاً
تلف الذي اتخذ الجراءة خلة
فيها ولا كل الرجال فحولاً
وعظ الذي اتخذ القرار خليلاً (٤)

وقوله: ومكايد السفهاء واقعة بهم
وعداوة الشعراء بشس المقتنى

ويعجبني قوله في الهجو، وهو مما نحن فيه:

فلو كنت امرأ تهجى هجونا
ولكن ضاق قطر عن مسير (٥)

(١) الكحل: سواد في محجر العين إذ تبدو وكأنها مكحلة بالكحل.

(٢) الزلالا: الصافي من كل كدر.

(٣) يغبط: يحسد - الحمام: الموت.

(٤) تلف: هلك - خلة: خصلة وهي واحدة الخصال. كما أن خلة واحدة الخلال.

(٥) القطر: البلد.

وقوله: فقر الجهول بلا لب إلى أدب
قد هون الصبر عندي كل نازلة
لا يعجبني مضيماً حسن بزته

وقال من أبيات قوله:

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا
وكنت قبيل الموت أستعظم النوى
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني
وقوله أيضاً:

فقر الحمار بلا رأس إلى رسن
ولين العزم خد المركب الخشن^(١)
وهل تروق دفيناً جودة الكفن^(٢)

فلما دهنتي لم تزديني بها علما
فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى
ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

فمن المطالب والقتيل القاتل
أبدأ كما كانت لهن أوائل
قبل تزودها حبيب راحل
مما يشوب ولا سرور كامل^(٣)
فهي الشهادة لي بأني فاضل^(٤)

وأنا الذي اجتلب المنية طرفه
أنعم ولد فللأمور أواخر
للهو آونة تمر كأنها
جمع الزمان فما لذيد خالص
وإذا أتتك مذمتي من ناقص

وقال من قصيدة، وهي أبلغ ما يكون في المدح:

لا تخرج الأعمار من هالاتها^(٥)

أعيا زوالك عن محل نلته

وقال من قصيدة:

وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر
فمفترق جاران دارهما عمر^(٦)
مخافة فقر فالذي فعل الفقر
فلما التقينا صغر الخبر الخبر
وأهون من مرأى صغير به كبر^(٧)

وأشجع مني كل يوم سلامتي
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها
ومن ينفق الساعات في جمع ماله
وأستكبر الأخبار قبل لقائه
وإني رأيت الضر أحسن منظراً

(١) النازلة: المصيبة تنزل بالإنسان.

(٢) مضيماً: مقيماً على الضيم وهو الغم والحزن.

(٣) جمع: جار وحاد عن جادة الصواب - خالص: لا يشوبه كدر.

(٤) ناقص: إنسان ناقص، وكل إنسان ناقص.

(٥) هالاتها: واحدها هالة، وهي ما يحيط بالقمر كالدائرة من النور.

(٦) ذر: أترك - اللين: الموت والفراق.

(٧) الكبير: الكبرياء والتكبر.

ويعجبني من المديح منها (شعر):

ولكن لشعري فيك من نفسه

وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله

وقال من قصيدة:

يظل بلحظ حسادي مشوبا
أرى لهم معي فيها نصيبا
لو انتسبت لكنت لها نقيبا^(١)

وما ليل بأطول من نهار
ولا موت بأنقص من حياة
عرفت نوائب الحدثان حتى

وما أظرف ما قال منها:

يسمى كل من بلع المشيبا
ورق فنحن نفرع أن يذوبا

وشيخ في الشباب وليس شيخاً
قسا فالأسدُ تفرع من يديه

وقال من قصيدة، وهي التي ذكروا أنه ادعى فيها النبوة:

عدواً له ما من صداقته بدّ^(٢)

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

وقال من قصيدة:

فاليوم كل عزيز بعدكم هانا^(٣)
قلب إذا شئت أن يسلاكم خانا
ولا أعاتبه صفحاً واهوانا
إن النفيس عزيز حيثما كانا^(٤)
ولا أبيت على ما فات جسرانا^(٥)
ولو حملت إليّ الدهر ملأنا

قد كنت أشفق من دمعي على بصري
إذا قدمت على الأهوال شيعني
أبدو فيسجد من بالسوء يذكرنني
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني
لا أشرب إلى ما لم يفت طمعاً
ولا أسر بما غيري الحميد به

وقوله من قصيدة:

ومسعاي منها في شدوق الأرقام^(٦)

فما لي وللدنيا طلابي نجومها

(١) النقيب: السيد.

(٢) نَكَّد: تنغيص العيش.

(٣) أَشْفَقُ: أخاف.

(٤) النفيس: العزيز والغالي والتمين.

(٥) أشرب: أمد عنقي لأتطلع - حسرانا: تحسراً.

(٦) طلابي: أي ما أطلب - شدوق: جمع مفردة شدق وهو الفم أو شطره - الأرقام: من الحيات،

أحيثها: مفردها أرقم.

إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم^(١)
وبالناس روى سيفه غير راحم
ولكنها معدودة في البهايم^(٢)
على تركه في عمري المتقادم

من الحلم أن يستعمل الجهل دونه
ومن عرف الأيام معرفتي بها
ولولا احتقاري الأسد شبهتها بهم
وكاد سروري لا يفي بندامتي

وقال من قصيدة:

لفارقتكم والدهر أخبث صاحب
من البعد ما بيني وبين المصائب^(٣)
وقوع العوالي دونها والقواضب^(٤)
يزول وباقي عيشه مثل ذاهب
وأى مكان لم تطأه ركائبي^(٥)

وأحسب أنني لو هويت فراقكم
فيا ليت ما بيني وبين أحبتي
يهون على مثلي إذا رام حاجة
كثير حياة المرء مثل قليلها
بأي بلاد لم أجر ذوائبي

وتخلص إلى مديح طاهر، ولكنه أتى في تخلصه بالعجائب، فقال:

فأثبت كوري في ظهور المواهب^(٦)

كأن رحيلي كان من كف طاهر

ما يقول: أثبت كوري في ظهور المواهب، إلا المتنبى.

ومن أبياته التي سارت أمثالا قوله:

فلا تقنع بما دون النجوم^(٧)
كطعم الموت في أمر عظيم
ولا مثل الشجاعة في الحلِيم
وآفته من الفهم السقيم^(٨)
على قدر القرائح والفهوم

إذا غامرت في شرف مروم
فطعم الموت في أمر حقير
وكل شجاعة في المرء تغني
وكم من عائب قولاً صحيحاً
ولكن تأخذ الأسماع منه

(١) الحلم: العقل.

(٢) البهايم: والبهائم: الدواب.

(٣) إشارة إلى إنعدام البعد بينه وبين المصائب، فهو يتمنى انعدام هذا البعد بينه وبين الأعبة.

(٤) رام: أراد وقصد - العوالي والقواضب: الرماح والسيوف.

(٥) ذوائبي: مفردا ذؤابة، وهي من الرجل، الجلد المعلقة على آخره. ومن النعل، ما يلامس

الأرض، ومن الشعر: الناصية وهي مقدم شعر الرأس - ركائبي: مفردا ركاب وهو ما يركب.

(٦) الكور: الرجل بأداته.

(٧) مروم: مقصود لعلوه.

(٨) الآفه: المرض.

وقال من قصيدة:

وشيب ناصية الصبي ويهرم^(١)
وأخو الجهالة في الشقاء منعم^(٢)
وارحم شبابك من عدوك تُرحم

والهم يحترم الجسيم مخافة
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
لا تخذعنك من عدوٍ دمعة

وما أعظم ما قال بعده:

حتى يراق على جوانبه الدم
ذا عفة فلعله لا يظلم
عن جهله وخطاب من لا يفهم^(٣)
وأودّ منه لمن يود الأرقم
ومن الصداقة ما يضر ويؤلم
وفعال من تَلِدُ الأعاجمُ أعجم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ومن البلية عدل من لا يرعوي
والذل يظهر في الدليل مودة
ومن العداوة ما ينالك نفعه
أفعالٌ مَنْ تَلِدُ الكرامُ كريمة

وقوله:

لا تستقر على حال من القلق

كريشة بمهب الريح ساقطة

ويعجبني قوله من أبيات، يتمثل بها في كثرة الإحسان المفرط:

ولم تدمم أياديك الجساما
بأرض مسافر كره المقاما
لغير قلى وداعك والسلاما^(٤)
قدر قبح الكريم في الإملاق^(٥)

ولم تملل تفقدك الموالي
ولكن الغيوث إذا توالى
وصار أحب ما يهدى إليه

وقال: والغنى في يد اللثيم قبيح

وقال من قصيدة:

ويستصحب الإنسان من لا يلائمه

وقد يتزيا بالهوى غير أهله

(١) يُهرم: يصيب بالكِبَر.

(٢) وقد وري هذا البيت كما يلي:

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

(٣) ارعوى: عاد إلى رشده وتاب: وارتد عن غوايته.

(٤) القلى: الكره والهجر.

(٥) الإملاق: الفقر الشديد المدقع.

وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه^(١)
ولا علمتني غير ما أنا عالمه
تعبت في مرادها الأجسام

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها
وما استغربت عيني فراقاً رأيته
وقوله: وإذا كانت النفوس كبارا

وقال من قصيدة:

فأهون ما تمر به الوحول
فؤادي في غشاء من نبال^(٢)
تكسرت النصال على النصال
وتأبى الطباع على الناقل
بكييت على حبي الزائل
وهل جلوة الحساء إلا أذى البعل^(٣)
فلا تحسبني قلت ما قلت عن جهل
حياة وإن يشاق فيه إلى النسل
فإنني قد أكلتهم وذاقا
أحمد حاله غير محمود
إذا يسجو فكيف إذا يموج^(٤)
أنف العزيز بقطع العز يجتدع^(٥)
فليس يرفعه شيء ولا يضع^(٦)
وليس كل ذوات المخلب السبع

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا
رماني الدهر بالأرزاء حتى
فصرت إذا أصابتنني سهام

وقوله: يراد من القلب نسيانكم
ولو زلتم ثم لم أبككم

وقوله: هل الولد المحبوب إلا تعلقة
وقد ذقت حلواء البنين على الصبا

وقوله: وما الدهر أهل أن تؤمل عنده
إذا ما الناس جربهم لبيب

وقوله: فما ترجي النفوس من زمن
ووجه البحر يعرف من بعيد

وقوله: ليس الجمال لأنف صح مارنه
من كان فوق محل الشمس موضعه

وقوله: إن السلاح جميع الناس تحمله

وقوله مفتخراً:

لبسنا إلى حاجاتنا الضرب والبطنا
تطاردني عن كونه وأطارد
إذا عظم المطلوب قل المتساعد

وإننا إذا ما الموت صرح في الوغى
أهم بشيء والليالي كأنها

وحيد من الخلان في كل بلدة

(١) بلا: في الأصل وردت: بلا، وما أثبتناه أصح، لأنها مصدر بلي - الشحيح: البخيل.

(٢) الغشاء: الغطاء وهذه أليق بالمعنى لأن الغشاء ينم عن الشفافية وهذه لا تكون في النبال.

(٣) الجلوة: ما يكون ليلة العرس من دوران العروس مادة يديها وعلى العريس أن يضع في كفها مبلغاً

من المال في كل دورة، بينما إحداهن تغني أغنية خاصة - البعل: الزوج.

(٤) يسجو: يسكن ويهدأ.

(٥) المارن: عظم الأنف - جدع الأنف: قطعه.

(٦) يضع: يحط من قدره ومكانته.

على حالة لم يحمل الكف ساعد
مصائب قوم عند قوم فوائد
ولكن طبع النفس للنفس قائد
وإن كثير الحب بالجهل فاسد
ولا كل جفن ضيق بنجيب^(١)
إذا لم يعوذ مجده بعيوب^(٢)
غفلنا فلم نشعر له بذنوب
ورب كثير الدمع غير كئيب
ويجهد أن يأتي لها بضرب^(٣)
على عينه حتى يرى صدقها كذبا
يكن ليله صباحاً ومطعمه غصبا^(٤)
أكان تراثاً ما تناولت أم كسبا
ويعجبي، من هذه القصيدة، قوله في مديح سيف الدولة وقد كسر الدمستق^(٥)

ولكن إذا لم يحمل القلب كفه
بذا قضت الأيام ما بين أهلها
وكل يرى طرق الشجاعة والندى
فإن قليل الحب بالعقل صالح
وما كل وجه أبيض بمبارك
ووقوله:
كان الردى عادٍ على كل ماجد
ولولا أيادي الدهر في الجمع بيننا
فرب كئيب ليس تندى جفونه
وفي تعب من يجحد الشمس ضوءها
ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت
وقوله:
ومن تكن الأسد الضواري جدوده
ولست أبالي بعد إدراكي بالعلا
ويعجبي، من هذه القصيدة، قوله في مديح سيف الدولة وقد كسر الدمستق^(٥)
على مرعش:

وأدبر إذ أقبلت تستبعد القربا
ويقفل من كانت غنيمته رعبا
كما يلتقي الهدب في الرقدة الهدبا
إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا^(٦)
وحب الشجاع الحرب أوردتها الخربا^(٧)

أتى مرعشاً يستقرب البعد مقبلاً
كذا يترك الأعداء من يكره القنا
مضى بعدما التف الرماحان ساعة
ولكنه ولى وللطعن سورة
فحب الجبان النفس أوردتها البقا

وما أحلى ما قال بعده:

إلى أن ترى إحسان هذا لذا ذنبا

ويختلف الرزقان والفعل واحد

(١) نُجُب: نجابة حمُد في نظره، أو في قوله وفعله.

(٢) عَوَذ: حمى.

(٣) ضريب: شبيه.

(٤) الضواري: مفردا ضاري وهو المفترس.

(٥) الدمستق: لقب كان لقائد جيوش الروم - ومرعش: حصن.

(٦) سورة: هيجان وغضب.

(٧) الخربا: الهلاك.

ومن أنصاف مطالعه التي يتمثل بها الناس: * واحرَّ قلباه ممن قلبه شبم^(١) *
ونصفه الثاني لأجل تمام شخص المطلع: * ومن بجسمي وحالي عنده سقم *.
ويعجبني من هذه القصيدة قوله، يخاطب سيف الدولة ويشير إليه أنه سمع فيه كلام
الأعداء، وقد أحضرهم لمواجهته ولم يخرج عن إرسال المثل:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيدها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم^(٢)
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

ومما سار من أمثالها قوله:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث مبتسم^(٣)
يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم
إن كان سرکم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعبتم ذاك معرفة إن المعارف في أهل النهي ذمم^(٤)
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم

ومنها وليس لمثله مثيل:

إذا ترحلت عن قوم وقد قرروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وما أحلى ما قال بعده:

شر البلاد مكان لا صديق به وشر ما يكسب الإنسان ما يصم^(٥)

وقال من أبيات:

وإن كان ذنبي كل ذنب فإنه محا الذنب كل المحو من جاء تائباً

وقال من قصيدة:

وما كمد الحساد شيئاً قصده ولكنه من يزحم البحر يغرق^(٦)
وإطراق طرف العين ليس بنافع إذا كان طرف القلب ليس بمطرق

(١) شبم: باردٌ قليل الحس.

(٢) أعيدها: تعبير يفيد الرقية، وهو بمعنى أحميها بالتعاون.

(٣) روي بالفعل: يبتسم.

(٤) النهي: العقول - الذمم: العهود، كناية عن حفظها وعدم نسيانها.

(٥) يصم: يبقى وصمة وعلامة إلى آخر الدهر.

(٦) الكمد: الغيظ - أو الغم والحزن.

وقوله:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

وقوله:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجوددي

وما أحلى ما قال من غزلها:

أي يوم سررتني بوصول لم ترعني ثلاثة بصدود

منها:

أين فضلي إذا قنعت من الدهر — بعيش معجل التنكيد^(١)
عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود^(٢)

وقال من قصيدة:

وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

وقوله من قصيدة:

تحقر عندي همتي كل مطلب ويقصر في عيني المدى المتطاول

وما أحلى ما قال بعده:

وما زلت طوداً لا تزول مناكبي إلى أن بدت للضميم في زلازل^(٣)

وله من قصيدة:

ليس التعلل بالأمال من أربي ولا أظن بنات الدهر تتركني حتى تسد عليها طرقها هممي ولا الفساعة بالإقلال من شيمي^(٤)

وما أطف ما قال منها:

أرى أناساً ومحصولي على غنم وذكر جودٍ ومحصولي على الكلم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم^(٥)

(١) التنكيد: التكدير والتنغيص.

(٢) البنود: الرايات والأعلام الكبيرة.

(٣) الطود: الشامخ المتعالي - والمناكب: جمع مفردة منكب وهو الموضع.

(٤) الأرب: الحاجة والمطلب - الشيمة: الخصلة والعادة.

(٥) لات مصطبر، ولات مقتحم. أي لات وقت اصطبار ولات مكان الاقتحام ولات بمعنى، عزّ وندر

وقل.

وقال: وكاتم الحب يوم البين منهتك
وقوله: إذا قيل رفقا قال للحلم موضع

وقال من قصيدة:

فموتي في الوغى عيشي لأنني
وقال من أخرى:

وصاحب الدمع لا تخفى سرائره (١)
وحلم الفتا في غير موضعه جهل

رأيت العيش من أرب النفوس

إن ترمني نكبات الدهر عن كذب
وقال: خير الطيور على القصور وشرها
وقال أيضاً: يخفي العداوة وهي غير خفية
وقال أيضاً: وهبني قلت هذا الصبح ليل
وقال أيضاً: وشغل النفس عن طلب المعالي
ومنها: وما ماضي الشباب بمسترد
متى لحظت بياض الشيب عيني
وما العضب الطريف وإن تقوى
فإن الجرح يدمي بعد حين
وكيف بيت مضطجعاً جباناً
وما أحلى قوله من قصيدة:

ترمي امرأ غير رعديد ولا نكس (٢)
يأوي الخراب ويسكن الناووسا (٣)
نظر العدو بما أسر ييوح
أيعمى العالمون عن الضياء
يبيع الشعر في سوق الكساد
ولا يوم يمر بمستعاد
فقد وجدته منها في السواد
بمنتصف من الكرم التلاد (٤)
إذا كان البناء على فساد
فرشت لجنبه شوك القتاد (٥)

أنكر أني عقوبة لهم
أكرم مال ملكته الكرم

إني وإن لمت حاسدي فما
كفاني الذم أنني رجل

وما أحلى ما قال بعده:

ما ليس يجني عليهم العدم
وإن كثر التجمل والكلام
تعالى الجيش وانحط القتام (٦)

يجني الغنى للثام لو عقلوا
وقال أيضاً: خليلك أنت لا من قلت خلي
ولو لم يعمل إلا ذو محل

(١) سرائر: مفردها سريره وهي دخيلة النفس.

(٢) رعديد: الذي يرتجف في المعركة، الجبان - والنكس: الدليل، اي الذي ينكس رأسه ويطأطئه.

(٣) الناووس: مقبرة النصارى، وهي معربة.

(٤) العضب الطريف: السيف القاطع الحديد الصنع - التلاد جمع مفردها تليد وهو القديم الموروث ضد الطريف.

(٥) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر.

(٦) القتام: الغبار المتصاعد أثناء المعركة.

وما أحلى قوله منها:

ومن يعشق يلذ له الغرام

تلذ له المروءة وهي تؤذي

ومما سار من أمثالها:

كأنك في فم الدنيا ابتسام
فما ندري أشيخ أم غلام^(١)

لقد حسنت بك الأيام حتى
تروع ركائنه وتذوب ظرفاً

وقال من قصيدة:

مستمطراً أمطرت عليّ مصائباً
لا تلزمني في الثناء الواجبا^(٢)

أظمتني الدنيا فلما جئتها
خذ من ثنائي عليك ما أسطيعه

وقال من غيرها:

ومن سره في جفنه كيف يكتم^(٣)
وإذا نطقت فإني الجوزاء^(٤)
أن لا تراني مقلة عمياء^(٥)
سال النضار بها وقام الماء

ومن لبه مع غيره كيف حاله
أنا صخرة الوادي إذا ما زوحت
وإذا خفيت على الغبي فعاذر
إن الكريم إذا أقام ببلدة

وقال من قصيدة:

حتى يكون حشاك في أحشائه

لا تعذل المشتاق في أشواقه

وما أحلى ما قال بعده:

مثل القتيل مضرجاً بدمائه^(٦)

إن القتيل مضرجاً بدموعه

وما أحلى ما قال من قصيدة:

فإني على تركها أقدر
وأملكها والقنا أحمر

إذا ما قدرت على نطفة
أصرف نفسي كما أشتهي

(١) ركائنه: شدة ورزانه.

(٢) أسطيعه: لغة في أستطيعه.

(٣) اللب: العقل.

(٤) الجوزاء: أحد الأبراج الفلكية.

(٥) عاذر: لا ألوم ولا أعنف. أجد العذر.

(٦) مضرجاً: ملطخاً.

ويطربني من مديحها قوله منها أيضاً:

وَأَمْنِكَ الْوَدَّ مَا تَحْذِرُ
وَإِنْ كُنْتَ تَبْدِيهَا لَهُ وَتَنْيِلُ^(١)
وَتَسْلَمُ أَعْرَاضَ لَنَا وَعَقُولُ
إِذَا سَلِمْتَ فَكُلِّ النَّاسِ قَدْ سَلِمُوا
تَصِيدُهُ الضَّرْغَامَ فِيمَا تَصِيدَا^(٢)
وَمَنْ لَكَ بِالْحَرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا

كفنتك المروءة ما تتقي
وقال: فلا تطمعن من حاسد في مودة
يهون علينا أن تصاب جسومنا
وقوله: وما أخصك في براء بتهنئة
وقال: ومن يجعل الضرغام للصيد بازه
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم
وما أحلى ما قال بعده:

وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمْرَدَا
مَضْرُوعُ كَوْضَعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
ويعجبني منها في افتخاره:

إِذَا قَلْتَ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مَنشِدَا
وَغْنَى بِهِ مِنْ لَا يَغْنَى مَغْرَدَا

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
فسار به من لا يسير مشمراً
ومن أمثالها:

أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِي وَالْآخِرُ الصَّدَى^(٣)
وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقِيدَا

فدع كل صوت بعد صوتي فإنني
وقيدت نفسي في ذراك محبة
ولقد أجاد في مديحها بقوله:

وَكَنتَ عَلَيَّ بَعْدَ جَعَلْتِكَ مَوْعِدَا

إذا سأل الإنسان أيامه الغنى

ومن الأمثال السائرة مطلع هذه القصيدة: لكل امرئ من دهره ما تعودا.

وقال من قصيدة:

بَغِيضٌ إِلَيَّ الْجَاهِلُ الْمَتَغَافِلُ^(٤)

وما التيه ظني فيهم غير أنني

(١) أنال: بذل وأعطى.

(٢) الضرغام: الأسد الغضنفر- الباز: طائر معروف يستعمل في الصيد: الباشق.

(٣) روي: أنا الصادح المحكي: والصادح هو البليل المغرد- والمحكي: الذي قَلَّدَ وَيُقَلِّدُ. ويشبهه به.

والصدى: رجع الصوت.

(٤) التيه: الضياع.

تصيبهم فيؤلمك المصاب

وقوله: وكيف يتم بأسك في أناس

وما أطف ما قال بعده:

فإن الرفق بالجاني عتاب^(١)
يعاف الورد والموت الشراب^(٢)
ولكن ربما خفي الصواب
وكم بعد يولده اقتراب
وحل بغير جارمه العذاب

ترفق أيها المولى عليهم
وما تركوك معصية ولكن
وما جهلت أيديك البوادي
وكم ذنب يولده دلال
وجرم جره سفهاء قوم

ومن مطالعه التي سارت أمثالاً:

وتأتي على قدر الكرام الكرا.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

ويعجبني من مديحها:

مضى قبل أن تلقي عليه الجوازم
كأنك في جفن الردى وهو نائم^(٤)

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً
وقفت وما في الموت شك لواقف

وقال من قصيدة:

إذا لم يكن فوق الكرام كرائم

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا

وقال من غيرها:

إذا لم يكن في فعله والخلائق^(٥)

وما الحسن في وجه الفتى شرف له

وقال من قصيدة:

ولا في زلة العبدان عار^(٦)

وما في سطوة الأرباب عيب

(١) ترفق: تمهل - الجاني: المذنب.

(٢) يعاف: ينفر من الشيء ويمقته.

(٣) وقد روى: المكارم وهي أصح: فالكرائم: مفردها كريمة، وهي الإبن والمكارم، مفردها مكرمة: وهي العمل الجيد الكريم.

(٤) الردى: الموت.

(٥) الخلائق: جمع خليفه وهي السجية والخلق الحسن.

(٦) السطوة: السيطرة - الأرباب: الملوك والأصحاب - العبدان: جمع عبد.

وقال من قصيدة:

وإذا لم تجد من الناس كفوًّا
وإذا الشيخ قال أف فما مل
ذاتُ خدر أرادت الموت بعلا
آلة العيش صحة وشباب
حياة وإنما الضعف ملا
فإذا وليا عن المرء ولي

وما أحلى ما قال بعده:

أبدأ تسترد ما تهب الدنيا فيا ليت جودها كان بخلا

وقال من قصيد:

رب أمر أتاك لا تحمد الفعا
وإذا ما خلا الجبان بأرض
ل فيه وتحمد الأفعالا
طلب الطعن وحده والنزالا

ومن أنصافها: هكذا هكذا وإلا فلا لا.

وقال من قصيدة مطلعها:

الرأي قبل شجاعة الشجعان
ولربما طعن الفتى أقرانه
هو أول وهي المحل الثاني
لولا العقول لكان أدنى ضيغم
بالرأي قبل تطاعن الأقران^(١)
ولما تفاضلت النفوس ودبرت
أدنى إلى شرف من الإنسان
وإذا الرماح شغلن مهجة ثائر
أيدي الكماة عوالي المران^(٢)
شغلته مهجته عن الإخوان

وقال أيضاً:

وإذا خامر الهوى قلب صب
وكثير من السؤال اشتياق
فعلية لكل عين دليل^(٣)
ما الذي عنده تدار المنايا
وكثير من رده تعليل
كالذي عنده تدار الشمول^(٤)

وقال من قصيدة:

ومن تفكر في الدنيا ومهجته
أقامه الفكر بين العجز والتعب

(١) الأقران: الأصحاب والأنداد.

(٢) الكماة: الفرسان. مفردا كميّ - المران: الرماح اللدنة في صلابة.

(٣) خامر القلب: داخله - الصب: المغرم المراهق.

(٤) الشمول: الخمرة إذا يردت.

ومن مطالعه التي سارت أمثالاً:

وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وقوله منها:

فلا تستعدن الحسام اليمانيا

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة

أكان سخاء ما أتى أم تساخيا

وللنفس أخلاق تدل على الفتى

فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا

إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى

لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

خلقت ألوفاً لو رددت إلى الصبا

ومن قصد البحر استقلّ السواقيا^(١)

ومن أنصافها السائرة:

وقال أيضاً:

أسد القلب آدمي الرواء^(٢)

فارم بي ما أردت مني فإني

ن لساني يرى من الشعراء

وفؤادي من الملوك وإن كا

وقال من قصيدة:

قد يوجد الحلم في الشبان والشيب^(٣)

فما الحدائة عن حلم بمانعة

ويعجبني من مديحها:

قميص يوسف في أجفان يعقوب

كأن كل سؤال في مسامعه

فقد عرته بجيش غير مغلوب^(٤)

إذا اعترته أعاديه بمسألة

وقال أيضاً:

وقصر عما تشتهي النفس وجده

وأتعب خلق الله من زاد همه

ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله

وما أحلى ما قال بعده:

ومركوبه رجلاه والثوب جلده

وفي الناس من يرضى بميسور عيشة

مدى ينتهي بي في مراد أجده

ولكن قلباً بين جنبي ما له

جعلت فيه على ما قبله تيهها^(٥)

وقال: إذا حللت مكاناً بعد صاحبه

(١) استقل: وجدها قليلة. والسواقيا: مفردها ساقية، وهي النهر الصغير.

(٢) أسد القلب: لي قلب أسد- آدمي الرواء: لي جسم إنسان.

(٣) الحدائة: صغر السن.

(٤) اعترته: غشيته.

(٥) التيه: الفخر.

وقوله: وما منزل اللذات عندي بمنزل
منها: إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وعادى محبيه بقول عداته
أصادق نفس المرء من قبل جسمه
وأحلم عن خلي وأعلم أنه
وما كل ناوٍ للجميل بفاعل
لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها
منها: رضيت بما ترضى به لي محبة
وقوله: وإذا الحلم لم يكن في طباع
وإذا كان في الأنابيب خلف
وقوله: وما الخيل إلا كالصديق قليلة
وكل امرئ يولي الجميل محبب
منها وأجاد إلى الغاية:

إذا لم أبجل عنده وأكرم^(١)
وصدق ما يعتاده من توهم
وأصبح في ليل من الشك مظلم
وأعرفها من فعله والتكلم
متى أجزه حلاً من الجهل يندم
ولا كل فعال له بمتمم
سرور محب أو إساءة مجرم
وقدت إليك النفس قود المسلم
لم يحلم تقدم الميلاد^(٢)
وقع الطيش في صدور الصعاد
وإن كثرت في عين من لا يجرب
وكل مكان ينبت العز طيب

واظلم أهل الظلم من بات حاسداً

لمن بات في نعمائه يتقلب

وقال من قصيدة:

لا تلق دهرك إلا غير مكترث
فما يديم سروراً ما سررت به
ما كل ما يتمنى المرء يدركه
رأيتكم لا يصون العرض جاركم
جزاء كل قريب منكم ملل
وتغضبون على من نال رفقكم

ما دام يصحب فيه روحك البدن
ولا يرد عليك الفئات الحزن
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
ولا يدرك على مرعاكم اللبن
وحظ كل محب منكم ضغن^(٣)
حتى يعاقبه التنغيص والمنن^(٤)

وقال من قصيدة:

ومراد النفوس أهون من أن

تتعادى فيه وأن تتعانى

(١) أبجل: أعظم.

(٢) لم يحلم تقدم الميلاد: لا يعقل الكبر في السن.

(٣) الضغن: والضغينة: الحقد والبغضاء.

(٤) الرغد: العون والعطاء - التنغيص: تكدير العيش - المنن: جمع منه: وهي الحديث عن العطاء من قبل المعطي.

غير أن الفتى يلاقي المنايا
ولو أن الحياة تبقى لحيي
وإذا لم يكن من الموت بد

وله من قصيدة:

ولله سر في علاك وإنما
وقال: لولا المشقة ساد الناس كلهم
وقال: ومن يجد الطريق إلى المعالي
وما أحلى ما قال بعده:

ولم أر في عيوب الناس نقصاً
وملني الفراش وكان جنبي

كالحات ولا يلاقي الهوانا^(١)
لعددنا أضلنا الشجاعانا
فمن العجز أن تكون جباناً^(٢)

كلام العدا ضرب من الهديان^(٣)
الجود يفقر والأقدام قتال
فلا يذر المطي بلا سنام^(٤)

كنقص القادرين على التمام
يميل لقاءه في كل عام

ومن اختراعاته المخترعة قوله منها، ويشير إلى حمى أصابته وكانت تغشاه إذا أتى الليل

وزائرتي كأن بها حياة
بذلت لها المطارف والحشايا
يضيق الجلد عن نفسي وعنهما
إذا ما فارقتني غسلتني
كأن الصبح يطردها فتجري
أراقب وقتها من غير شوق
وتصدق وعددها والصدق شر
فإن أمرض فما مرض اصطباري
وإن أسلم فما أبقى ولكن

فليس تزور إلا في الظلام
فعافتها وباتت في عظامي
فتوسعه بأنواع السقام
كأنا عاكفان على حرام^(٥)
مدامعها بأربعة سجام^(٦)
مراقبة المشوق المستهام
إذا ألقاك في الكرب العظام^(٧)
وإن أحمم فما حم اعتزامي
سلمت من الحُمَام إلى الحُمَام^(٨)

(١) كالحات: مظلمات مدلهجات، عابسات - اله وان: الذل.

(٢) روي: أن تموت جباناً. والمثبت أصح.

(٣) الهديان: التكلم بكلام غير معقول لمرض.

(٤) يذر: يترك - المطي: ما يركب - السنام: الحدة التي تعلق ظهر البعير ويقصد: بلا ركوب السنام.

(٥) عكف: ألزم نفسه بالأمر وداوم عليه.

(٦) سجام: شديدة الإنصباب.

(٧) الكرب العظام: الضائقات الكبيرة.

(٨) الحُمَام: الحمى. الحُمَام: الموت.

وقوله:

نديم ولا يفضي إليه شراب
يمرض قلب نفسه فيصاب (١)
وخير جليس في الزمان كتاب (٢)

وللسر مني موضع لا يناله
وما العشق إلا غرة وطماعة
أعز مكان في الدنا ظهر سابح

منها في المديح قوله في كافور:

بأحسن ما يثني عليه يعاب
وكل الذي فوق التراب تراب

تجاوز قدر المدح حتى كأنه
إذا نلت منك الود فالكل هين

وما أحلى ما قال بعده:

له كل يوم بلدة وصحاب

وما كنت لولا أنت إلا مهاجراً

وقوله:

أجاب كل سؤال عن هل بلم (٣)

من اقتضى بسوى الهندي حاجته

منها:

بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم
شكوى الجريح إلى العقبان والرحم (٤)
ولا يفرك منهم ثغر مبتسم

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة
لا تشتكون إلى خلق فتشمتهم
وكن على حذر للناس تستره

منها:

فسرهم وأتيناها على الهرم
فيما النفوس تراه غاية الألم

أتى الزمان بنوه في شيبته
سبحان خالق نفسي لذتها

ومن أمثاله التي سارت في هجو كافور، قوله:

لو أنه في ثياب الخز مولود (٥)
إن العبيد لأنجاس مناكيد (٦)

العبد ليس لحر صالح بأخ
لا تشتتر العبد إلا والعصى معه

(١) غرة: اغترار.

(٢) ظهر سابح: ظهر حصان، وروي: سرج سابح.

(٣) الهندي: السيف.

(٤) العقبان: جمع عقاب وهو طائر من الجوارح - الرحم: جمع رخمة وهو طائر من الجوارح الكبيرة.

(٥) الخز: الحرير الخالص.

(٦) أنجاس: مفردا نجس وهو القذر - مناكيد: مفردا نكد وهو قليل الخير.

يسيء بي فيه كلب وهو محمود
أقومه البيض أم آباؤه السود^(١)

ما كنت أحسبني أبقى إلى زمن
من علم الأسود المخصي مكرمة

ومن أمثاله:

رأى غيره منه ما لا يرى

ومن جهلت نفسه قدره

ومن أنصافه التي سارت أمثالاً: ولا بد دون الشهد من إبر النحل.

وقال من قصيد:

لو كان ينفع خائفاً ان يحذرا
وأراد بي فأردت أن أتخيرا

قد كنت أحذر بينهم من مثل ذا
أعطى الزمان فما قبلت عطاءه

وقال من قصيدة:

وموصوفاهما متباعداً
نعاف ما لا بد من شربه
على زمان هي من كسبه
حسن الذي يسيبه لم يسبه
موتة جالينوس في طبه
كغاية المفرط في حربه
فؤاده يخفق من رعبه

وقد يتقارب السوصفان جدا

وقوله: نحن بنو الموتى فما بالننا
تبخل أيدينا بأرواحنا
لو فكر العاشق في منتهى
يموت راعي الضأن في جهله
وغاية المفرط في سلمه
فلا قضى حاجته طالب

وقال من قصيد:

تبين من بكى ممن تباكى

إذا اشتبكت دموع في حدود

ولقد رأيت، هنا في هذا القدر الذي أوردته من شعر أبي الطيب، من إرسال المثل
ما تطيب به الأذواق، وتجول به فرسان الإنشاء بالحرر من جياذ الأقلام في ميادين
الأوراق، وعلى كل تقدير فما لأبي الطيب في حكمه وأمثاله نظير.

وهنا نكتة لطيفة وهي أن صلاح الدين الصفدي كان مذهبه تقديم أبي الطيب
المتنبي على أبي تمام، وهو مذهب أبي العلاء المعري، فإنه سمى ديوانه بعدما شرحه
معجز أحمد فاتفق أن صلاح الدين اجتمع بابن نباتة، بالديار المصرية، وذاكره في أبي

(١) الأسود المخصي: كافر وكان عبداً مخصياً إذ كان العبيد يخصون لأنهم كانوا يخدمون النساء.

الطيب وأبي تمام فوجده على مذهبه، واجتمعا بعد ذلك بالشيخ أثير الدين أبي حيان، وذاكره في ذلك فقدّم أبا تمام، فلما على ذلك، فقال أنا لا أسمع لوماً في حبيب. انتهى.

ومذهبي في ذلك مذهب الشيخ صلاح الدين ومذهب الشيخ جمال الدين، وإن كان الشيخ أثير الدين ما سمع في حبيبه لوماً، وخالف من لومه فيه، وفند^(١) فمن المستحيل رجوع أبي بكر عن حب أحمد، وقد عن لي أن أورد هنا ما سارت في الخافقين حكمه وأمثاله، وانقاد أهل الذوق السليم لطاعته لما ورد عليهم مثاله، وهو تأليفي الذي وسمته «بتغريد الصادح» وما ذاك إلا أن سيدنا ومولانا قاضي القضاة صدر الدين بن الأدمي، نور الله ضريحه وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه، كان يقول: أود أن أنتزع من الصادح والباغم^(٢) أرجوزة مشتملة على أمثلة مرقصة وحكم بديعة، بشرط أن يكون البيت منسجماً مع الذي قبله والذي بعده، ولم يتيسر لي ذلك لصعوبة المسلك، انتهى.

ولما قدر الله تعالى ما قدره من الاختفاء بدمشق، سنة ثلاث عشرة وثمانمائة عند حلول الملك الناصر بها، وأنا في خدمة المقر الأشرف القاضي محمد بن البارزي الجهني الشافعي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، كان الصادح والباغم بين كتبه فنظر فيه يوماً، وذكر قول قاضي القضاة صدر الدين، ورسم لي بذلك، فانتزعت له هذه الأرجوزة التي سارت غرر أمثالها، ولم يسمح الزمان لمؤلف بمثالها، ومن سافر فيها نظره وكان الذوق السليم رقيقه، علم أنها تضرب بها الأمثال على الحقيقة، وسميتها بتغريد الصادح، وصدرتها من نظمي بأبيات تقوم مقام الديباجة والخطبة هي:

الحمد لله الذي هدّينا	واختارنا للعلم إذ أدبنا
فإن للآداب فضلاً يذكر	فلا تخاطب كل من لا يشعر
يا مدّعي الحكمة في كلامه	ومن يروم السحر في نظامه ^(٣)
خذ حكماً وكلها أمثال	ليس لها في عصرنا مثال
ألفها ابن حجة للنجبا	لأن فيها رأس مال الأدبا ^(٤)
واختارها من مفردات الصادح	فكان ذا من أكبر المصالح
من كل بيت إن تمثلت به	سكنت من سامعه في قلبه

(١) فند: بين الأسباب.

(٢) الباغم: صاحب الصوت الرخيم.

(٣) يروم: يقصد.

(٤) النجبا: ترخيم نجباء مفردتها النجيب وهو الذكي.

وقد تهجمت على الشريف
وجئت من كلامه بنيذة
وترفع الأديب إن تمثلاً
من حكم تتبعها وصايا
من أول وأوسط وآخر
حتى دنا البعيد للقريب
وانسجمت في جمعها أرجوزه
وكل من أنكر ما أحكمت في
فلينظر الأصل ليعرف السبب
أول ما يرغب في استهلاله

وهذا أول الصادح والباغم:

العيش بالرزق وبالتقدير
في الناس من تسعده الأقدار

ومن هنا يأتي هذا التأليف جميعه على
المتأمل:

لكنني خاطبت بالمعروف
تجلب للسامع كل لذة
بها إذا خاطب أرباب العلا
مقبولة من أحسن السجايا
جمعتها جمع أديب شاعر
وانتظم البديع بالغريب
بديعة غريبة وجيزه
ترتيبها يكون غير منصف
ويعترف إن كان من أهل الأدب
من نظمه المحكم في مقاله

وليس بالرأي ولا التدبير
وفعله جميعه إدبار

هذا النمط، وما أردت بهذا التنبيه إلا يقظة

وقال كل فعله للحكمة
إن القضاء بالعباد أملك
نقنط من رحمته إذ نبئلى^(١)
أن نجعل الكفر مكان الشكر
إذ كان ما يجري بأمر الباري
من ساعد الناس بفضل الجاه^(٢)
أغاثه الله إذا أخيفا
كما الجسيم يحمل الجسيما
رحمة ذي البلاء والأسقام^(٣)
العطف في البؤس على العدو

من عرف الله أزال التهمه
من أنكر القضاء فهو مشرك
ونحن لا نشرك بالله ولا
عار علينا وقبيح ذكر
وليس في العالم ظلم جاري
وأسعد العالم عند الله
ومن أغاث البائس الملهوفا
إن العظيم يدفع العظيما
فإن من خلائق الكرام
وإن من شرائط العلو

(١) نبئلى : نصاب بالمصائب امتحاناً وتجريباً.

(٢) الجاه: كثرة المال والغنى.

(٣) الأسقام: الأمراض.

وقد علمت واللبيب يعلم
فالمراء لا يدري متى يمتحن
وإن نجا اليوم فما ينجو غدا
لا تغترر بالحفظ والسلامه
والعمر مثل الكاس والدهر القدر
أنظر أيها المتأمل كيف اتبعت قوله: فإنما الحياة كالمدامه، بقوله: فالعمر مثل الكاس. وإذا نظرت إلى آخر البيت رأيت الاتفاق العجيب، منها:

وكل إنسان فلا بد له
جهد البلاء صحبة الأضداد
أعظم ما يلقي الفتى من جهد
فإنما الرجال بالإخوان
لا يحقر الصحبة إلا جاهل
صحبة يوم نسب قريب
وموجب الصداقة المساعده
لا سيما في النوب الشدائد
فالمراء يحيى أبداً أخاه
وإن من عاشر قومياً يوماً
وإن من حارب من لا يقوى
فحارب الأكفاء والأقران
واقنع إذا حاربت بالسلامه
فالتاجر الكيس في التجاره
يجهد في تحصيل رأس ماله
وإن رأيت النصر قد لاح لك
واسبق إلى الأجود سبق الناقد

من صاحب يحمل ما أثقله
فإنها كي على الفؤاد^(٢)
أن يتلى في جنسه بالضد
واليد بالساعد والبنان
أو مارق عن الرشاد غافل^(٣)
وذمة يحفظها اللبيب
ومقتضى الموادة المعاضده
والمحن العظيمة الأوابد^(٤)
وهو إذا ما عد من أعداه
ينصرهم ولا يخاف لوما
لحربه جر إليه البلوى
فالمراء لا يحارب السلطانا
واحذر فعلاً توجب الندامه
من خاف في متجره الخساره^(٥)
ثم يروم الربح باحتياله
فلا تقصر واحترز أن تهلكا
فسبقك الخصم من المكاييد^(٦)

(١) اللبيب: الذكي الماهر.

(٢) كي: لذع.

(٣) المارق: الخارج - الرشاد: الهدى.

(٤) الأوابد: العظيمة. النوب: المصائب.

(٥) الكيس: اللبق الماهر.

(٦) الناقد: الذي يحسن التمييز بين الجيد والردىء - المكاييد: مفردها مكيدة وهي الحيلة.

وانتهز الفرصة إن الفرصه
كم نظر الغالب ي فترك
ومن أضعاف جنده في السلم
وإن من لا يحفظ القلوبا
والجند لا يرعون من أضعافهم
وأضعف الملوك طراً عقدا
والحزم والتدبير روح العزم
والحزم كل الحزم في المطاولة
وفي الخطوب تظهر الجواهر
لا تياسن من فرج ولطف
فربما جاءك بعد الياس
في لمحة الطرف بكاء وضحك
تنال بالرفق وبالتأني
ما أحسن الثبات والتجلدا
ليس الفتى إلا الذي إن طرقة
إذا الرزايا أقبلت ولم تقف
وكم لقيت لذة في زماني
فالموت لا يكون إلا مرة
إنني من الموت على يقين
صبراً على أهوالها ولا ضجر
لا يجزع الحر من المصائب
فالحر للعبء الثقيل يحمل
لكل شيء مدة وتنقضي
قد صدق القائل ف الكلام
لا خير في جسامة الأجسام
فالخيل للحرب وللجمال

تصير إن لم تنتهزها غصه
عنه التوقي واستهان فهلك^(١)
لم يحفظوه في لقاء الخصم
يخذل حين يشهد الحروباً
كلا ولا يحمون من أضعافهم
من غره السلم فأقصى الجندا
لا خير في عزم بغير حزم
والصبر لا في سرعة المزاوله^(٢)
ما غلب الأيام إلا الصابر
وقوة تظهر بعد ضعف
روح بلا كد ولا التماس^(٣)
وناجذ باد ودمع ينسفك^(٤)
ما لم تنل بالحرص والتعني
و الحيرة والتبدلا
خطب تلقاه بصبر وثقه
فثم أحوال الرجال تختلف
فاصبر الآن لهذي المحن
والموت أحلى من حياة مره
فاجهد الآن لما يقيني^(٥)
وربما فاز الفتى إذا صبر
كلا ولا يخضع للنوائب
والصبر عند النائبات يجمل
ما غلب الأيام من رضي
ليس النهى بعظم العظام
بل هو في العقول والأفهام
والإبل للحمل وللترحال

(١) التوقي: الاحتراس.

(٢) المزاوله: الممارسة.

(٣) الكد: التعب - الالتماس: طلب الشيء ممن هو فوقك رتبة.

(٤) الناجذ: الناب والسن.

(٥) يقيني: من وقى؛ حمى.

لا تحتقر شيئاً صغيراً محتقر
لا تحرج الخصم ففي إحراجه
لا تطلب الفئات باللجاج
فعاجز من ترك الموجودات
وفتش الأمور عن أسرارها
لزمت للجهل قبيح الظاهر
ليس يضر البدر في سنائه
كم حكمة أضحت بها المحافل
ويغفلون عن خفي الحكمه
كم حسن ظاهره قبح
والحق قد تعلمه ثقیل
فالعقل الكامل في الرجال
إن العدو قوله مردود
لا تقبل الدعوى بغير شاهد
أيؤخذ البريء بالسقيم
كذلك من يستنصح الأعداء
إن أكل من ترى أذنانا
فادفع إساءة العدا بالحسنى
وللرجال فاعلمن مكاييد
فالنذب لا يخضع للشدائد
فرقع الخرق بلطف واجتهد
فهكذا الحازم إذ يكيد
وهو بريء منهم في الظاهر

فربما أسالت الدم الإبر
جميع ما تكره من لجاجه^(١)
وكن إذا كويت ذا إنضاج^(٢)
طماعة وطلب المفقودا
كم نكتة جاءتك مع اظهارها
وما نظرت حسن السرائر
إن الضرير قض لا يراه
نافقة وأنت عنهما غافل
ولو رأوها لأزالوا التهمه
وسمج عنوانه مליح^(٣)
يأباه إلا نفر قليل
لا يشني لزخرف المقال
وقلما يصدق الحسود
لا سيما إن كان من معاند
والرجل المحسن باللثيم
يردونه بالغش والفساد^(٤)
من حسب الإساءة الإحسانا^(٥)
ولا تخل يسراك مثل اليمنى
وخدع منكرة شدائد
قط ولا يغتاض بالمكاييد^(٦)
وامكر إذا لم ينفع الصدق وكذ
يبلغ في الأعداء ما يريد
وغيره مختضب الأظافر^(٧)

(١) اللجاجة: التماذي في العناد.

(٢) اللجاج: الإلحاح.

(٣) السمج: القبيح الذي لا يطاق.

(٤) يردونه: يهلكونه من أردى: أهلك.

(٥) أكل: من الكلال وهو الفساد.

(٦) النذب: الذي ينتدب لقضاء الحاجة والنجدة - يغتاض: يغضب ويشور.

(٧) مختضب: مدهون، مصبوغ.

والشهم من يصلح أمر نفسه
 فإن من يقصد قلع ضرسه
 وإن من خص اللثيم بالندا
 وليس في طبع اللثيم شكر
 وإن من ألزمه وكلفه
 كذاك من يصطنع الجهالا
 لو أنكم أفاضل أحرار
 إن الأصول تجذب الفروعاً
 ما طاب فرع أصله خبيث
 قد يدركون رتباً في الدنيا
 لكنهم لا يبلغون في الكرم
 وكل من تمايلت أطرافه
 كان خليقاً بالعلا وبالكرم
 لولا بنو آدم بين العالم
 فواحد يعطيك فضلاً وكرم
 وواحد يعطيك للمصانعة
 لا تشرهنَّ إلى حطام عاجل
 واحذر أخي يا فتى من الشره
 فليس من عقل الفتى أو كرمه
 فالبغى داء ماله دواء
 والبغى فاحذره وخيم المرتع
 والغدر بالعهد قبيح جدّاً

ولو بقتل ولده وعرسه
 لم يعتمد إلا صلاح نفسه
 وجدته كمن يربي أسداً^(١)
 وليس في أصل الدنيء نصر
 ضدّ الذي في طبعه ما أنصفه
 ويؤثر الأردال والأندال^(٢)
 ما ظهرت بينكم الأسرار
 والعرق دساس إذا أطيحاً^(٣)
 ولا زكا من مجده حديث
 ويبلغون وطراً من بغيا
 مبلغ من كاب له فيها قدم
 في طيها وكرمت أسلافه
 وبرعت في أصله حسن الشيم^(٤)
 ما بان للعقول فضل العالم
 فذاك من يكفره فقد ظلم
 أو حاجة له إليك واقعه^(٥)
 كم أكلة أودت بنفس الأكل
 وقس بما رأته ما لم تره^(٦)
 إفساد شخص كامل لقرمه^(٧)
 ليس لملك معه بقاء
 والعجب فاتركه شديد المصرع
 شر الورى من ليس يرعى العهدا

(١) النداء: العطاء والهبة والكرم.

(٢) يصطنع: يستعملهم على أعماله.

(٣) دساس: مؤثر. وهو من قول النبي محمد (ص) في علم الوراثة: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس».

(٤) خليقاً: جديراً.

(٥) المصانعة: التزلف، والمداهنة والمداراة.

(٦) الشره: النهم في الأكل وشدة الجشع والطمع.

(٧) قرمه: شهوته ورغبته.

وربما ضر الحريص حرصه
وساءك المحسن من رجالكا
عساه أن ينجوبه من أسره

عند تمام الأمر يبدو نقصه
وربما ضرك بعض مالكا
فالمرء يفدي نفسه بوفره

تمت، وختمها شيخنا رحمه الله بقوله:

فإنها من السجايا الفاسده
من رجز الشريف وانتخبته
إن الشريف قد أتانا بالعجب
كم قد أتى محمد بمعجزه
وكلنا لبيته عبيد
خاتمة مع الهبات الوافره
على الذي للرسل جاء خاتما

لا تعطين شيئاً بغير فائده
هذا الذي ألفته واخترته
وحرمة الآداب يا أهل الأدب
قلنا جميعاً إذ سمعنا رجزه
من كل بيت شطره قصيد
فرحمة الله له في الآخره
ثم الصلاة والسلام دائما

انتهى ما أوردته من أمثال أبي الطيب المتنبي، وأمثال الصادح والباغم، ولم أقصد
بذلك إلا أخذ ما يحتاج المتأدب إليه، في إرسال المثل على أنواعه، خصوصاً أهل الإنشا
فإنه حلبة جولاتهم، وعمدة فرسانهم، وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته:

رجوتكم نصحاء في الشدائد لي لضعف رشدي واستسمنت ذا ورم

فقوله: استسمنت ذا ورم من الأمثال السائرة، ولم ينظم العميان في بديعيتهم هذ
النوع، وبيت الشيخ عز الدين في بديعته:

أنوار بهجته إرسالها مثلاً يلوح أشهر من نار على علم

فقوله: أشهر من نار على علم، من الأمثال السائرة. وبيتي:

وكم تمثلت إذ أرخوا شعورهم وقلت: بالله خلوا الرقص في الظلم

فالرقص في الظلم من الأمثال السائرة، ولكن قولي لهم بعد إرخاء الشعور: خلوا
الرقص في الظلم، لا يخفى على الحذاق من أهل الأدب.



ذكر التهكم

ذل العذول بهم وجدا فقلت له تهكما أنت ذو عز وذو شمم
التهكم نوع عزيز في أنواع البديع، لعلّ مناره، وصعوبة مسلكه، وكثرة التباسه
بالهجاء في معرض المدح، وبالهزل الذي يراد به الجد، ويأتي الفرق بينهما بعد إيضاح
حد.

والتهكم، في الأصل، التهدم. يقال: تهكمت البئر، إذا تهدمت وتهكم عليه إذا
اشتد غضبه، والمتهكم المحتقر. قال أبو زيد: تهكمت غضبت وتهكمت تحقرت، وعلى
هذا يكون المتهكم لشدة الغضب قد أوعد بالبشارة، أو لشدة الكبر أو لتهاونه بالمخاطب
قد فعل ذلك، فهذا أصله في الاستعمال.

وفي المصطلح هو عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في
مكان الوعيد، والمدح في معرض الاستهزاء، فشاهد البشارة في موضع الإنذار قوله
تعالى: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾^(١) وشاهد المدح في معرض الاستهزاء،
بلفظ المدح، قوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾^(٢) قال الزمخشري: إن في
تأويل قوله تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله تهكماً، فإن
المعقبات هم الحرس من حول السلطان يحفظونه، على زعمه، من أمر الله على سبيل
التهكم، فإنهم لا يحفظونه من أمره في الحقيقة إذا جاء، والله أعلم. ومنه قوله تعالى:
﴿قل بشما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾^(٣) فقوله إيمانكم تهكم.

(١) النساء، ٤ / ١٣٨.

(٢) الدخان، ٤٤ / ٤٩.

(٣) البقرة، ٢ / ٩٣.

ومن التهكم في السنة الشريفة، قوله ﷺ: بشر مال البخيل بحادث أو وارث.
وشاهد المدح في موضع الاستهزاء، من النظم، قول ابن الذروي في ابن أبي
حصينة من أبيات:

لا تظن حذبة الظهر عيباً
وكذاك القسي محدوديات
وإذا ما علا السنام ففيه
واری الانحناء في مخلب الباء
كَوْنُ الله حذبة فيك إن شئت
فأتت ربوة على طود علم
ما رأتها النساء إلا تمت
وما أحلى ما ضمنها بقوله:

وإذا لم يكن من الهجر بد
وقول ابن الرومي:

فيا له من عمل صالح يرفعه الله إلى أسفل

وقيل إن أظرف ما نظم في التهكم قول حماد عجرد:

فيا ابن طرح يا أبا
ومن نشأ والده
يا عربي يا عربي
الحلس ويا ابن القتب^(٤)
بين الريا والكثب
يا عربي يا عربي

وهذا النوع، أعني التهكم، ذكر ابن أبي الأصعب في كتابه «تحرير التحبير» أنه من
مخترعاته، ولم يره في كتب من تقدمه من أئمة البديع، والعميان لم ينظموه في
بديعيتهم.

(١) أنكى: أشد فتكاً وأعمق جرحاً - الظبا: مفردا ظبة وهي حد السيف وشفرته - العوالي: الرماح.
(٢) علا السنام: إرتفع السنام وهو الحذبة الموجودة في ظهر البعير - قروم: مفردا قَرم وهي العظيم
الكبير.

(٣) الريال: الرئبال، الأسد، الذئب.

(٤) الطرح: المولود قبل أوانه - الحلس: الجواهر الثمين الذي يبقى مكنوناً لا يخرج - القتب: الرجل،
أي المولود على رجل البعير.

وقنع الشهاب محمود، في كتابه المسمى «بحسن التوسل»، من أشجار معاليه بالشميم فإنه ذكر بعض شواهد، ولم يأت له بحد تمشي الأفهام فيه على صراط مستقيم، ولكن ابن أبي الأصبع أزال بكاره أشكاله، وكان أبا عذرته وأرضع الأذواق لبان فهمه، وكان فارس حلبته، وقال: الفرق بينه وبين الهزل الذي يراد به الجد: أن التهكم ظاهره جد وباطنه هزل، وهو ضد الأول، لأن الهزل الذي يراد به الجد يكون ظاهره هزلاً وباطنه جداً.

وذكر بعضهم الفرق بين التهكم والهزاء في معرض المدح، فقال: الفرق بينهما التصريح بلفظة في الآخر يخالف معناها معنى الالتزام في الكلام الأول، وهو في هذا دون الأول.

والشيخ صفي الدين نظم التهكم في بديعته، ولكن ما أسكن بيته قرينة صالحة لبيانه، ولا غردت حمائم الإيضاح على أفنانه، وبيته:

محضتني النصح إحساناً عليّ بلا غش وقلدتني الإنعام فاحتكم

ولم يظهر لي من هذا البيت غير صريح المدح والشكر، ولم أجد فيه لفظة تدل على الحقارة والاستهزاء، ولا على البشارة في موضع الإنذار، ولا على الوعد في موضع الوعيد، ولم يشر في بيته إلى نوع من هذه الأنواع، وقد تقدم أن العميان لم ينظموه في بديعته، وبيت الشيخ عز الدين:

لقد تهكمت فيما قد منحك من قولي بأنك ذو عز وذو كرم

فالشيخ عز الدين ذكر في بيته أنه تهكم على العذول، لما خاطبه بلفظ العز والكرم، ولكنه لم يأت بصيغة التهكم وبيتي:

ذل العذول بهم و جداً فقلت له تهكما أنت ذو عز وذو شمم

فخطاب العذول هنا بلفظ العز والشمم بعد وقوف العاذل في موقف الذل هو التهكم

بعينه.



ذكر المراجعة

قال اصطبر قلت صبري ما يراجعي قال احتمل قلت من يقوى لصدهم

المراجعة ليس نحتها كبير أمر، ولو فوض إليّ حكم في البديع ما نظمتها في أسلاك أنواعه، وذكر ابن أبي الأصبع إنها من اختراعاته، وعجبت من مثله كيف قربها إلى الذي استنبطه من الأنواع البديعة الغربية، كالتهمك والافتنان والتدبيج والهجاء في معرض المدح والاشتراك والألغاز والنزاهة، ومنهم من سمى هذا النوع، أعني المراجعة، السؤال والجواب، وهو أن يحكي المتكلم مراجعة في القول، ومحاورة في الحديث بينه وبين غيره، بأوجز عبارة وأرشق سبك، وألطف معنى، وأسهل لفظ، إما في بيت واحد أو في أبيات، كقول عمر بن أبي ربيعة:

بينما ينعتنني أبصرنني مثل قيد الرمح يعدو بي الأغر^(١)
قالت الكبرى: ترى من ذا الفتى قالت الوسطى لها: هذا عمر^(٢)
قالت الصغرى وقد تيمتها: قد عرفناه وهل يخفى القمر^(٣)

(١) ينعتني: يصفني، يعدو: يركض - الأغر: الحصان الأبيض الذي في جبهته غرة وقد روي هذا البيت كما يلي:

بينما يذكرنني أبصرنني دون قيد الميل يعدو بي الأغر
(٢) وهذا البيت روي: قالت الكبرى أتعرفن الفتى . وهذا البيت أنسب للإجابة في البيت الثالث: قد عرفناه
(٣) تيمتها: جعلتها تحبني وتتعلق بي .

قال ابن أبي الأصعب، لما أورد هذه الأبيات، واستشهد بها على هذا النوع، في كتابه المسمى بتحرير التحبير: إن هذا الشاعر عالم بمعرفة وضع الكلام في مواضعه، وما ذاك إلا أن قوافي الأبيات لو أطلقت لكانت مرفوعة، وأما بلاغته في الأبيات فإنه جعل التي عرفته وعرفت به وشبهته تشبيهاً يدل على شغفها به، هي الصغرى، ليظهر بدليل الالتزام أنه فتى السن إذ الفتية من النساء لا تميل إلا إلى الفتى من الرجال غالباً، وختم قوله بما أخرجه مخرج المثل السائر موزوناً، ولا يقال إنما مالت الصغرى إليه دون أختيها لضعف عقلها وقلة تجريبيها، فإني أقول إنه تخلص من هذا المدخل بكونه أخبر أن الكبرى التي هي أعقلهن، ما كانت رآته قبل ذلك، وإنما كانت تهواه على السماع، فلما رآته وعلمت أنه ذلك الموصوف لها، أظهرت من وجدها به على مقدار عقلها، ما أظهرت من سؤالها عنه، ولم تتجاوز ذلك وقنعت بالسؤال عنه، وقد علمته بلذة السؤال ويسماع اسمه، وأظهرت تجاهل العارف الذي موجهه شدة الوله، والعقل يمنعها من التصريح، وأما الوسطى فسارعت إلى تعريفه باسمه العلم فكانت دون الكبرى في الثبات، وأما الصغرى فمزلتها في الثبات دون الأختين، لأنها أظهرت في معرفة وصفه ما دل على شدة شغفها به، فكل ذلك وإن لم يكن كذلك فألفاظ الشاعر تدل عليه. انتهى كلام ابن أبي الأصعب.

ومن جيد أمثلة هذا النوع قول أبي نواس:

قال لي يوماً سليماً	ن وبعض القول أشنع ^(١)
قال صلّني وعلياً	أينا أبقى وأنفع
قلت إنني إن أقل ما	فيكما بالحق تجزع
قال كلا قلت مهلاً	قال قل لي قلت فاسمع
قال صفه قلت يعطي	قال صفني قلت تمتع

ومثله قول البحري:

بت أسقيه صفوة الراح حتى	وضع الرأس مائلاً يتكفا ^(٢)
قلت عبد العزيز تفديك نفسي	قال لبيك قلت لبيك ألفاً
هاكها قال هاتها قلت خذها	قال لا أستطيعها ثم أغفى ^(٣)

(١) أشنع: ثقيل.

(٢) يتكفا: يتمايل.

(٣) هاكها: أنظرها.

وعلماء البديع أجمعوا على استحسان قول وضاح اليمن، من أبيات:

قالت ألا لا تلجن دارنا	إن أبانا رجل غائر ^(١)
قلت فإني طالب غرة	منه وسيفي صارم باتر
قالت فإن البحر ما بيننا	قلت فإني سابح ماهر
قالت فإن القصر عالي البناء	قلت فإني فوقه طائر
قالت أليس الله من فوقنا	قلت بلى وهو لنا غافر
قالت فقد أعيبتنا حيلة	فأت إذا ما هجع السامر ^(٢)
واسقط علينا كسقوط الندى	ليلة لا ناهٍ ولا أمر

وظريف هنا قول بعضهم:

قالت لقد أشمت بي حُسدي	مذ بحت بالسر لهم معلنا
قلت أنا! قالت وإلا فمن	قلت أنا قالت وإلا أنا

وهي أبيات طويلة جميعها على هذا المنوال منسوج، ولكن اكتفيت بالتمثيل منها على هذا القدر.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي:

قالوا اصطبر قلت صبري غير متبع	قالوا اسلهم قلت ودّي غير منصرم ^(٣)
-------------------------------	---

ولم ينظم العميان في بديعيتهم هذا النوع، وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعيته:

راجعت في القول إذ أطلقت سلوتهم	قال اسلهم قلت سمعي عنك في صمم
والمراجعة إن لم تتكرر، لم يبق لها في القلوب حلاوة، ولا يطبق اسمها مسماه، وقد تقدم قول الشاعر وتكراره في قوله:	

قلت أنا قالت وإلا فمن	قلت أنا قالت وإلا أنا
-----------------------	-----------------------

وعز الدين لم يكرر مراجعته، ولم يأت بها إلا في مكان واحد، والذي أقوله إنه ما

(١) ولج: دخل سراً - الغائر: النائم في وسط النهار.

(٢) هجع: رقد ونام.

(٣) اسلهم: أمر من سلا: نسي.

صدّه عن ذلك إلا اشتغاله بتسمية النوع، ولكن ليته لو دخل إلى سوق الرقيق، وبيت
بديعيتي :

قال اصطبر قلت صبري ما يراجعي قال احتمل قلت من يقوى لصدهم
وهذا البيت متعلق ببيت التهكم الذي قبله، وهو البيت المبني على خطاب العاذل
وهو:

ذل العذول بهم وجداً فقلت له تهكماً: أنت ذو عز وذو شمم



ذكر التوشيح

توشيحهم بملا تلك الشعور إذا لفوه طياً يعرفنا بنشرهم
اتفق علماء البديع على أن التوشيح: أن يكون معنى أول الكلام دالاً على لفظ
آخره، ولهذا سموه التوشيح فإنه ينزل فيه المعنى منزلة الوشاح، وينزل أول الكلام وآخره
منزلة محل الوشاح من العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح، وهذا النوع فرعه^(١)
قدامة من ائتلاف القافية، مع ما يدل عليه سائر البيت، وقال فيه: التوشيح هو أن يكون
في أول البيت معنى، إذا فهم فهمت منه قافية البيت، بشرط أن يكون المعنى المقدم
بلفظه، من جنس معنى القافية بلفظه.

وأورد ابن أبي الأصبغ في «تحرير التحبير» من أعظم الشواهد على هذا قوله
تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢) فإن في
معنى اصطفاء المذكورين، منا يعلم منه الفاصلة، لأن المذكورين نوع من جنس
العالمين.

ومن الأمثلة الشعرية، قول الراعي النميري:

فإن وزن الحصى ووزنت قومي وجدت حصى ضريبتهم رزينا^(٣)

فإن السامع إذا فهم أن الشاعر أراد المفاخرة برزاة الحصى، وتحقق أن القافية

(١) فرعه: جعله فرعاً.

(٢) آل عمران، ٣ / ٣٣.

(٣) الضريبة: السجية - رزينا: للمذكر والمؤنث: ثقيلاً.

مجردة مطلقة رويها النون، وحرف إطلاقها الألف، ورأى في صدر البيت ذكر الزنة،
تحقق أن تكون القافية رزيناً ليس إلا.

ومن عجائب أمثلة هذا النوع ما حكى عن عمر بن أبي ربيعة أنه أنشد عبد الله بن
العباس رضي الله عنهما:

تشط^(١) غداً دار جيراننا. فقال له عبد الله: وللدار بعد غد أبعد
فقال عمر: هكذا والله قلت: فقال عبد الله بن العباس: وهكذا يكون.

ويقرب من هذه القصة قصة عدي بن الرقاع، حين أنشد الوليد بن عبد الملك،
بحضرة جرير والفرزدق، قصيدته التي مطلعها: «عرف الديار توهماً فاعتادها» حتى انتهى
إلى قوله: «ترجي أغن كأن، إبرة روقه^(٢)». ثم شغل الوليد عن الاستماع، فقطع عدي
الإشاد، فقال الفرزدق لجرير: ما تراه يقول! فقال جرير: أراه يستلب بها مثلاً. فقال
الفرزدق: إنه سيقول: قلم أصاب من الدواة مداها. فلما عاد الوليد إلى الاستماع، وعاد
عدي إلى الإشاد، قال البيت. فقال الفرزدق: والله لما سمعت صدر بيته رحمته، فلما
أنشد عجزه انقلبت الرحمة حسداً.

قال زكي الدين بن أبي الأصبح: الذي أقوله إن بين ابن العباس وبين الفرزدق،
في استخراجهما العجزين، كما بينهما في مطلق الفضل، وفضل ابن عباس رضي الله
عنهما معلوم، وأنا أذكر الفرق: فإن بيت عدي بن الرقاع من جملة قصيدة تقدم مطلعها
مع معظمها، وعلم أنها دالية مردفة بألف، وهي من وزن قد عرف، ثم تقدم في صدر
البيت ذكر ظبية تسوق خشفاً لها، قد أخذ الشاعر في تشبيه طرف قرنه بالقلم في سواده،
وهذه القرائن لا تخفى على أهل الذوق الصحيح أن فيها ما يدل على عجز البيت، بحيث
يسبق إليه من هو دون الفرزدق من حذاق الشعراء، وبيت عمر بيت مفرد لم تعلم قافيته
من أي ضرب هي من القوافي، ولا رويه من أي الحروف، ولا حركة رويه من أي
الحركات، فاستخراج عجزه ارتجالاً في غاية العسر ونهاية الصعوبة، لولا ما أمد الله تعالى
به هؤلاء الأقوام من المواد التي فضلوا بها عن غيرهم. انتهى كلام ابن أبي الأصبح.

وبين التوشيح والتصدير فرق ظاهر مثل الصباح، ولم يحصل الالتباس إلا لكون كل
منهما يدل صدره على عجزه، والفرق أن دلالة التصدير لفظية، ودلالة التوشيح معنوية،

(١) تشط: تبعد.

(٢) ترجي تسوق - الأغن: الخشف وهو ولد الظبية ذي الصوت الذي فيه غنة - الإبرة: الطرف - روقه: قرنه.

والفرق بين التوشيح والتمكين أيضاً أن التوشيح قد تقدم أنه لا بد أن يتقدم قافيته معنى يدل عليها، والتمكين بخلاف ذلك.

والعميان لم ينظموا أنواع التوشيح في بديعيتهم، وبيت صفي الدين:

هم أرضعوني ثدي الوصل حافلة فكيف يحصل منها -حال منظمي^(١)

فقصيدة صفي الدين قد علم أنها ميمية، وقد مرَّ على السامع منها عدة أبيات، وقد صدر بيت التوشيح بذكر الرضاع والثدي، فما يخفى أن تكون القافية منقطاً إلا على كل أجنبي من هذا العلم. ولقد برز في حسن هذا التركيب باستجلاب الرقة على من تقدمه.

وبيت الشيخ عز الدين:

نومي وعقلي بتوشيح الهوى سلبا فبت صبا بلا حلم ولا حلم

قال في شرحه: الهوى وشحني برداه غطاني، فسلب نومي وعقلي فصرت بلا حلم ولا حلم. وهذه عبارته بنصها.

وبيتي: توشيحهم بملا تلك الشعور إذا لفوه طياً يعرفنا بنشرهم

هذا النوع أعني التوشيح يفتقر الناظم إلى قدح زناد الفكر في سبك معانيه، مع الملكة والبسطة في علم الأدب وحسن التصرف، لا سيما إذا التزم بتسمية النوع، وأبرز التسمية منتظمة في سلك التورية من جنس الغزل، فتسمية النوع هنا قد عرفت والإتيان في هذا البيت بلفظة الملا، هو الذي رشح جانب التوشيح الجائل على العاتق والكشح، وأما توشيح الهوى في بيت الشيخ عز الدين، فلم ينسج على منوال مقبول، لأن استعارة الوشاح للهوى المقصور الذي هو الغرام، لم يفهم منها شيء يقرب من التشبيه، فإن علماء البديع قالوا: الاستعارة هي ذكر الشيء باسم غيره، وإثبات ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه. وعلى هذا التقدير تكون استعارة الملا للشعور، في حالة توشيح الأحباب بها، هي الاستعارة التي يستعار منها المحاسن الأدبية، فإن حسن التشبيه قد غازل بعيون كماله غزلها، والتصريح في البيت، بلفظ اللف والنشر والطي، يعرفه من له أدنى ذوق، مع أنني ما اكتفيت بذلك حتى قلت بعد اللف والطي: تعرفنا، وتعرفنا فيها الاشتراك بين المعرفة والعرف، فإذا تقرر أن القافية ميمية، ما يتصور في ذوق أن تكون القافية غير نشرهم، وقد اجتمع في هذا البيت من أنواع البديع: التورية، وحسن الاستعارة، والترشيع، والمطابقة، والبسط، والانسجام، والتمكين، والسهولة، والتوشيح الذي هو العمدة. والله أعلم بالصواب.

(١) حافلة: ملأى.

ذكر تشابه الأطراف

شابهت أطراف أقوالي فإن أهم أهم إلى كل وإد في صفاتهم^(١)
هذا النوع الذي سموه تشابه الأطراف، هو أيضاً مثل المراجعة التي تقدمت، ليس في كل منهما كبير أمر. وتالله ما خطر لي يوماً، ولا حسن في الفكر أن ألحق طرفاً من تشابه الأطراف بذيل من أبيات شعري، ولكن شروع المعارضة ملتزم، وتشابه الأطراف هو أن يعيد الناظم لفظة القافية في أول البيت الذي يليها، وهذا النوع كان اسمه التسيبغ، بسين مهملة وغين معجمة، وإنما ابن أبي الأصبح قال: هذه التسمية غير لاثقة بهذا المسمى، فسماه تشابه الأطراف، فإن الأبيات فيه تشابه أطرافها. وأحسن ما وقع في هذا النوع، قول أبي نواس:

خزيمة خير بني خازم وخازم خير بني دارم
ودارم خير تميم وما مثل تميم في بني آدم

ولما كان هذا النوع لا يأتي إلا في بيتين، والشيخ عز الدين لما التزم أن يأتي به، لأجل التورية بالتسمية، في بيت واحد، شطر البيت شطرين، وجعل كل شطر بمنزلة بيت كامل، وأعاد لفظ القافية في الشطر الثاني، فجاء به في غاية اللطف. فإن الشيخ صفي الدين أورد قبله بيت الاكتفاء، ويأتي الكلام عليه في موضعه، وإنما المراد هنا معرفة تشابه الأطراف، وهو:

قالوا ألم تدر أن الحب غايته سلب الخواطر والألباب قلت لم
لم أدر قبل هواهم والهوى حرم أن الظباء تحل الصيد في الحرم

(١) أهم: من الهيام وهو الضياع من العشق والجنون.

تشابه الأطراف بين لم ولم، في آخر البيت الأول وأول الثاني.

وبيت الشيخ عز الدين:

أطرافك اشتبهت قولاً متى تلم تلم فتى زائد البلوى فلم يلم

أما قوله أطرافك اشتبهت يضيق الكلام فيه.

وبيت بديعيتي:

شابهت أطراف أقوالي فإن أهم أهم إلى كل واد في صفاتهم

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم، ويا ليتني كنت معهم.



ذكر التغاير

أغاير الناس في حب الرقيب فمذ أراه ابسط آمالي بقربهم

التغاير: سماه قوم التلطف، وهو أن يتلطف الشاعر بتوصله إلى مدح ما كان قد ذمه، هو أو غيره. فأما مدح الإنسان ما ذمه غيره، فإن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أتى فيه بما يمتزج صافي مشربه بالأرواح، وينقلنا ببديع بلاغته من الإبهام إلى الإيضاح. فمن ذلك خطبته التي مدح فيها الدنيا، مغايراً لأمثاله في ذمها، حيث قال:

أيها الذام للدنيا، المغتر بغرورها، بم تدمها، أنت المتجرىء عليها أم هي المتجرئة عليك، متى استهوتك أم متى غرتك، أبمصارع آباتك من البلى، أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى، كم عللت ولديك، وكم مرضت والديك تبغي لهم الشفاء وتستوصف لهم الأطباء، لم ينفع أحدهم إشفاقك، ولم تشف لهم بطبك، ولم تدفع عنهم بقوتك، قد مثلت لك بهم الدنيا نفسك، وخيلت لك بمصرعهم مصرعك، إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباب الله، ومصلى ملائكته، ومهبط وحي الله، ومتجر أوليائه، اكتسبوا منها الرحمة، وربحوا منها الجنة، فمن ذا يذمها وقد أدبت بنيتها ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها، فمثلت لهم ببلائها البلى، وشوقتهم بسرورها إلى السرور، وراحت بعافية، وابتكرت بفضيحة، ترغيباً وترهيباً، فذمها رجال غداة الندامة، وحمدوا آخرون ذكروهم الدنيا فذكروا، وحدثتهم فصدقوا، ووعظتهم فاتعظوا.

ونظم ابن أبي الأصعب معاني هذه الخطبة فقال:

بطريق الإنصاف أثني عليها
حين جدت بالوعظ من مصطفيها
حين أبدت لأهلها ما لديها
للبلبي حين جددت عصريها^(١)
لو نستفيق يوماً إليها
فتزود ما شئت من يومئها
تسل عما تراه من حادثيها
وغرور لمن يميل إليها
عفرت صورة بها خديها^(٢)
منها وأوردوا عينيها
كل لبيب عقباه في حالتها
ني عليها ذو البر من ولديها

من يذم الدنيا بظلم فإني
وعظتنا بكل شيء وأنا
نصحتنا فلم نر النصح نصحاً
أعلمتنا أن المآل يقيناً
كم أرتنا مصارع الأهل والأحباب
يوم بؤس لها ويوم رخاء
وتيقن زوال ذلك وهذا
دار زاد لمن تزود منها
مهبط الوحي والمصلى الذي كم
متجر الأولياء قد ربحوا الجنة
رغبت ثم رهبت ليرى
وإذا أنصفت تعين أن يث

فأما من ذم ما مدحه الناس قاطبة، فابن الرومي، فإنه ذم الورد وهو مشهور،
ووصف البحري يوم الفراق بالقصر، وقد أجمع الناس على طوله، فقال:

يوم الفراق على امرئ بطويل
منه لوهن صباة وغيل^(٣)

ولقد تأملت الفراق فلم أجد
قصرت مسافته على متزود

وهذا النوع، أعني المغايرة، أورده الحريري في المقامة الدينارية، وبالغ في مدح
الدينار وذمه، فقال في مدحه:

جواب آفاق ترامت سفرته^(٤)
قد أودعت سر الغنى أسرته
وحببت إلى الأنام غرته
به يصول من حوته صرته^(٥)

أكرم به أصفر راقص صفرته
مأثورة سمعته وشهرته
وقارنت نجح المساعي خطرته
كأنما من القلوب نقرته

(١) المآل: المصير.

(٢) الصورة: المرّة.

(٣) الوهن: القلة والضعف.

(٤) الجواب: الكثير التجوال والسفر - سفرته: بفتح الراء واحدة السفر.

(٥) نقرته: نقشه.

وإن تفتانت أو توانت عشرته
 وحبذا مغناته ونصرته
 ومترف لولاه دامت حسرته
 وبدر تم أنزلته بدرته
 أسراً نجواه فلانت سرته
 أنقذه حتى صفت مسرته
 لولا التقى لقلت جلت قدرته

وقال في ذمه :

تبأ له من خادع مماذق
 يبدو بوصفين لعين الرامق
 وحببه عند ذوي الحقائق
 لولاه لم تقطع يمين سارق
 ولا اشمأز باخل من طارق
 ولا استعيذ من حسود راشق
 أن ليس يغني عنك في المضائق
 واهأ لمن يقذفه من حالق
 قال له قول المحق الصادق

ومن المغايرة، تفضيل القلم على السيف، إذ المعتاد عكس ذلك، كقول ابن الرومي :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت
 فالموت والموت لا شيء يعادله
 كذا قضى الله في الأقلام إذ برت
 له الرقاب ودانت خوفه الأمم^(١)
 ما زال يتبع ما يجري به القلم
 إن السيوف لها مذ أرهفت خدم^(٧)

(١) البيرة: الصرة فيها الدنانير - مستشيط: غاضب - تتلظى: تشتعل وتلتهب.

(٢) المماذق: الذي لا يخلص الود لأحد.

(٣) الرامق: الناظر إذا أحد النظر.

(٤) الأبق: الهارب.

(٥) الحالق: من الجبال والأمكنة: العالي المنيف.

(٦) دان: خضع وذل.

(٧) أرهف السيوف: أجاد شحذه وسنّه.

وغير المتنبى ذلك وقال :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم

والمغايرة هنا مليحة، لكن المعنى مأخوذ من قول أبي تمام: السيف أصدق إنباء من الكتب، والمعنى في قول أبي تمام أبلغ، فإن ابن أبي الأصبع قال: لم يرض أبو تمام أن يقول السيف أصدق إنباء من القلم، حتى قال من الكتب التي لا تكتب إلا بالأقلام والدواة والقرطاس، والكاتب المطلق اليد واللسان والجنان، فالحظ الفرق بينه وبين كلام المتنبى. انتهى كلام ابن أبي الأصبع.

وقد عن لي هنا أن أرفع للمتأخرين في التقديم رأيه، ليعلم المنكر الفرق بين البداية والنهاية، فإن الشيخ جمال الدين أظهر في المغايرة بين السيف والقلم ما صدق به قول القائل^(١):

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

من ذلك قوله، في رسالة المفاخرة بينهما والمغايرة في مدح كل واحد منهما وذمه: فبرز القلم بإفصاحه ونشط لارتياحه، ورفي من الأنامل على أعواده وقام خطيباً بمحاسنه في حلة مداده، والتفت إلى السيف فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ﴾^(٢) الحمد لله الذي علم بالقلم، وشرفه بالقلم، وخط به ما قدر وقسم، وصلى الله على سيدنا محمد الذي قال جف القلم بما هو كائن، وعلى آله وصحبه ذوي المجد المبين وكل مجد بائن، صلاة واضحة السطور، فائحة من أدراج الصدور، ما نقلت صحف البحار غواديها، وكتبت أقلام النور على مهارق^(٣) الدياجي حكمة باريها، أما بعد.

فإن القلم منار الدين والدنيا، ونظام الشرف والعليا، ومجاديح^(٤) سحب الخير إذا احتاجت الهمم إلى السقيا، ومفتاح باب اليمن المجرب إذا أعيأ، وسفير الملك المحجب وعذيق^(٥) الملك المرجب^(٦)، وزمام أموره السائرة، وقادمة أجنحته الطائرة،

(١) هو بشار بن برد.

(٢) القلم، ٦٨ / أو ٢.

(٣) مهارق: صفحات (فارسية).

(٤) المجاديح الأنواء، مفردها مجدح.

(٥) عذيقها: تصغير عذق للتظرف والعذق هو أفضل من قام بالأمر.

(٦) المرّجب: المهيب المعظم.

ومطلق أرزاق عفاته (١) المتواترة، وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة، به رقم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل، وسنة نبيه ﷺ التي تهذب الخواطر الخواطل (٢)، فبينه وبين من يفاخره الكتاب والسنة، وحسبه ما جرى على يده الكريمة من منه، وفي مرضي الدول عونة للشائدين، ويعين الله في ليالي النفس تقلب وجهه في الساجدين. إن نظمت فرائد العلوم فإنما هو سلكها، وإن علت أسرة الكتب فإنما هو ملكها، وإن رقت برود البيان فإنما هو جلالها، وإن تشعبت فنون الحكم فإنما هو أمانها ومآلها، وإذا انقسمت أمور الممالك فإنما هو عصمتها وثمالها، وإن اجتمعت رعايا الصنائع فإنما هو إمامها المتلفع بسواده، وإن زحرت بحار الأفكار فإنما هو المستخرج دررها من ظلمات مداده، وإن وعد أوفى بجنب النفع، وإن أوعد أخاف كأنما يستمد من النفع (٣).

هذا وهو لسان الملوك المخاطب، ورسيلها لأبكار الفتوح والخاطب، والمنفق في تعمیر دولها ومحصول أنفاسه، والمتحمل أمورها الشاقة على عينه وراسه، والتميقظ لجهاد أعدائها والسيف في جفنه نائم، والمجهز لبأسها وكرمها جيشي الحروب والمكارم، والجارى بما أمر الله من العد والإحسان، والمسود الناصر فكأنما هو لعين الدهر إنسان، طالما ذب عن حرمها فشد الله أزره، ورفع ذكره، وقام في المحامات عن دينها أشعث أغبر، لو أقسم على الله لأبره، وقاتل على البعد والصوارم في القرب، وأوتي من معجزات النبوة نوعاً من النصر بالرعب، وبعث جحافل السطور فالقسي دالات، والرماح الفات، واللامات لامات، والهمزات كواسر الطير التي تتبع الجحافل، والأتربة عجاجها المحمر من دم الكلى والمفاصل، فهو صاحب فضيلتي العلم والعلم، وساحب ذيلي الفخار في الحرب والسلام، لا يعاديه إلا من سفه نفسه، وليس لبسه وطبع على قلبه، وقل الجدال من غربه (٤)، وخرج في وزن المعارضة عن ضربه. وكيف يعادى من إذا كرع في نفسه (٥) قيل ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ (٦)، وإذا ذكر شأنه (٧) السيف قيل ﴿إن

(١) العفات: العطايا.

(٢) الخواطل: الضالة.

(٣) النقع: المستنقع، أو السم الناقع وهو القاتل البالغ. والغبار الكثيف في الجو.

(٤) غرب الشيء: حذّه.

(٥) كرع: مد عنقه وشرب الماء بضمه دون واسطة - النَّقْس: المداد الذي يكتب به وإناءه.

(٦) الكوثر، ١ / ١٠٨ والكوثر: فسره بعضهم بنهر في الجنة، ورأى آخرون أن الكوثر كثرة الذرية وهذا هو الأصح على ما نرى للقرينة الدالة عليه وهو قوله تعالى: ﴿إن شأنك هو الأبر﴾ أي الذي لا عقب له ولا ذرية.

(٧) الشانيء: المبغض، الكاره.

شانتك هو الأبتري^(١) أقول قولي هذا وأستغفر الله من الشرف وخيلائه، والفخار وكبريائه، وأتوكل على الله فيما حكم، وأسأله التدبير فيما جرى به من القلم، ثم أكتفي بما ذكره من أدواته، وجلس على كرسي دواته، متمثلاً بقول القائل:

قلم يفل الجيش وهو عرمم والبیض ما سلت من الأعماد^(٢)
وهبت له الأجام حين نشابها كرم السيول وصوله الأساد^(٣)

ف عند ذلك نهض السيف قائماً عجلًا، وتلمظ^(٤) لسانه للقول مرتجلاً، وقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ... وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٥) الحمد لله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف، وشرع حدها في ذوي العصيان فأغصتهم بماء الحتوف، وشيد مراتب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص^(٦) وعقد مرصوف^(٧)، وأجناهم من ورق حديدتها الأخضر ثمار نعيمها الدانية القطوف، وصلى الله على سيدنا محمد هازم الألف، وعلى آله وصحبه الذين طالما محوا بريق بريق الصوارم سطور الصفوف، صلاة عاطرة في الأنوف، حالية بها الأسماع كالشنوف^(٨)، وسلم.

أما بعد، فإن السيف زند الحق الوري وزنده القوي^(٩) وحده الفارق بين الرشيد والغوي، والنجم الهادي إلى العز وسبيله، والثغر الباسم عن تباشير فلوله، به أظهر الله الإسلام وقد جنح خفاء، وجلى شخص الدين الحنفي وقد جمح جفاء، وأجرى سيوفه بالأباطح، فأما الحق فمكث والباطل فذهب جفاء^(١٠)، وحملته اليد الشريفة النبوية، وخصته على الأقالام بهذه المزية، وأوضحت به للحق منهاجاً، وأطلعته في ليالي النقع والشك سراجاً وهاجاً، وفتحت باب الدين بمصباحه حتى دخل فيه الناس أفواجاً، فهو ذو

(١) الكوثر، ٣ / ١٠٨ والأبتري: هو من لا عقب له ولا ذرية من الذكور.

(٢) عرمم: الجيش الكبير الجرار- البيض: السيوف- سُلت: سحبت وهيئت للقتال. والأعماد: جمع مفردة عمد وهو موضع السيف.

(٣) الأجام: جمع مفردة أجمة وهو التلة إذا كثر فيها الشجر والتف- نشا: ترخيم نشأ- الصولة: السطوة.

(٤) تلمظ: اللسان، خرج من مكانه وتحرك.

(٥) الحديد، ٥٧ / ٢٥.

(٦) مرصوص: متماسك.

(٧) مرصوف: منظم.

(٨) الشنوف: الأقرط أو الحلق الذي تزين به الفتاة.

(٩) الزند: القادح للنار وموصل الذراع بالكف- الوري: الذي خرجت ناره.

(١٠) الجفاء: ما يقذف به السيل من غشاء وزبد، أي لا فائدة فيه.

الرأي الصائب، وشهاب العزم الثاقب، وسماء العز التي زينت من آثاره بزينة الكواكب، والحد الذي كأنه ماء دافق يخرج، عند قطع الأجساد، من بين الصلب والترائب^(١)، لا تجحد آثاره، ولا ينكر قراره، إذا اشتبت في الدجى والنقع ناره، يجمع بين الحالتين البأس والكرم، ويصاغ في طوق الحليتين، فهو إما طوق في نحور الأعداء وإما خلخال في عراقيب^(٢) أهل النقم، ويحسم به أهواء الفتن المضلة، ويحذف بهمهته الجازمة حروف العلة، وإذا انحنى في سماء القتام بالضرب، فقل يسألونك عن الأهلة، فهو القوي الاستطاعة، الطويل المعمر إذا قصف سواه في ساعة، فما أولاه بطول الإحسان، وما أجمل ذكره في أخبار المعمرين ومقاتل الفرسان، كأن الغيث في غمده للطلاب المنتجع، وكأنه زناد يستضاء به، إلا أن دفع الدماء شرره الملتمع، كم قد مد فأدرك الطلاب، ودعا النصر بلسانه المحمر من أثر الدماء فأجاب، وتشعبت الدول لقائم نصره المنتظر، وحازت أنكار الفتوح بحده الذكر، وغدت أيامها به ذات حجول معلومة وغرر^(٣)، وشدت به الظهور، وحمدت علاقته في الأمور، واتخذته الملوك حرزاً لسلطانها، وحصناً على أوطانها وقطانها^(٤)، وجردته على صروف الأتدار في شأنها، وندب فما أعيت عليه المصالح، وياشر اللمم، فهو على الحقيقة بين الهدى والضلال، فرق واضح، وأغاث في كل فصل فهو إما لغمده سعد الأخبية، وإما لحامله سعد السعود وأما لضده سعد الذابح، يجلس على رؤوس الأعداء قهراً، ويشرح أنباء الشجاعة قائلاً للقلم: ﴿ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾^(٥)، وهل يفاخر من وقف الموت على بابه، وعض الحرب الضروس بنابه، وقذفت شياطين القراع بشبهه، ومنح آيات شريفة منها طلوع الشمس من غربه، ومنها أن الله أنشأ برقه، فكان للمارد مصرعاً وللرائد مرتعاً ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمئناً﴾^(٦) كم اتخذ من جسد طرساً، وكتب عليه حرفاً لا ينسى فيه للألباب عبرة، وللأذهان السابحة غمرة بعد غمرة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم من لفظ يجمع، ورأي إلى الخصام يجنح،

(١) الصُّلب: من الرجل مكان في ظهره يحفظ فيه نسله. ويقال هو عظم ذو فقار يمتد من الكاهل إلى

أسفل الظهر- الترائب: عظام الصدر مفردها تربية.

(٢) الخَلْخال: حلية تلبس في الرجل فوق العرقوب- والعرقوب: هو ملتقى عظم الساق والقدم ويبدو

بارزاً في جانبي القدم. تجمع على عراقيب.

(٣) حجول وغرر: علامات وبدايات.

(٤) قطانها: سكانها والمقيمين فيها.

(٥) الكهف، ١٨ / ٨٢.

(٦) الروم، ٣٠ / ٢٤.

ولسان يحوجه اللدد^(١) إلى أن يخرج فيجرح، وأتوكل عليه في صد الباطل وصرفه،
وأسأله الإعانة على كل باحث عن حقه بظلمه ثم اختفى في بعض الخمائل، وتمثل بقول
القاتل:

سل السيف عن أصل الفخار وفرعه فإني رأيت السيف أفصح مقولا

فلما وعى القلم خطبته الطويلة الطائلة^(٢)، ونشطته الجليلة الجائلة، وفهم كتابته
وتلويحه وتعريضه بالذم وتصريحه، وتعديله في الحديث وتجريحه^(٣)، استغاث باللفظ
النصير، واحتد وما أدراك ما حدّة حدّه القصير وقام في دواته وقعد، واضطرب على وجه
القرطاس وارتعد، وعدل إلى السب^(٤) الصراح، ورأى أنه إن سكت تكلم ولكن بأفواه
الجراح، فانحرف إلى السيف وقال: أيها المعتر ببطعه، المعتر بلمعه، الناقض حبل
الإنس بقطعه، الناسخ بهجيره من ظلال العيش فيا السراب الذي ﴿يحسبه الظمان ماء
حتى إذا جاءه لم يجده شيئا﴾^(٥) الحبيس الذي طالما عادت عليه عوائد شره الكمين،
الإبليس الذي لو أمر لي بالسجود لقال: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾^(٦) أتعرض
بسّي، وتعرض لمكايد حربي ألسنت ذا الخدع البالغة، والحرب خدعة، والمنن النافعة،
ولا خير فيمن لا تبغي الأنام نفعه، ألسنت المسود^(٧) الأحق بقول القاتل:

نفس عصام سوّدت عصاما وعلمته الجود والإقداما^(٨)

أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت
للضراب، وأنا للعمارة وأنت للخراب، وأنا المعمر وأنت المدمر، وأنت المقلد وأنا
صاحب التقليد، وأنت العايب وأنا المجود ومن أولى من القلم بالتجويد، فما أقبح
شبهك، وما أشنع يوماً ترى فيه العيون وجهك، أعلى مثلي يشق^(٩) القول، ويرفع

(١) اللدد: الخصام.

(٢) الطائلة: القوية البليغة.

(٣) التعديل والتجريح: التصويب والتخطئة.

(٤) السب الصراح: الشتم الصريح الخالص.

(٥) النور، ٣٩ / ٢٤.

(٦) الأعراف، ٧ / ١٢ وص، ٣٨ / ٧٦.

(٧) المسود: السيّد.

(٨) الجود والإقداما: الكرم والشجاعة. وقد روي: الجد والإقداما. والجود أصح، لتلازم الصفتين،

الكرم والشجاعة.

(٩) يشق: يصعب.

الصوت والصول (١)، وأنا ذو اللفظ المكين، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مَبِينٍ﴾ (٢) فقد تعديت حدك، وطلبت ما لم تبلغ به جهدك، هيهات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت في الغمد طريح، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح، والساھر وقد مهد لك في الغمد مضجع، والجالس عن يمين الملك وأنت عن يساره فأبي الحاليتين أرفع، والساعي في تدبير حال القوم، والمغني لنفهم العمر إذا كان نفحك يوماً أو بعض يوم، فاقطع عنك أسباب المفاخرة، واستر أنيابك عند المكاشره، فما يحسن بالصامت محاوره المفصح، والله يعلم المفسد من المصلح، على أنه لا ينكر لمثلك التصدي، ولا يستغرب منه على مثلي التعدي، ما أنا أول من أطاع الباري وتجرأت عليه، ومددت يد العدوان إليه، أولست الذي قيل فيه:

شيخ يرى الصلوات الخمس نافله ويستحل دم الحجاج في الحرم

قد سلبت الرحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء، وجلبت القوة فكم هيجت سبه حمراء (٣)، وأثرت دهماً، وخمشت الوجوه، وكيف لا وأنت كالظفر كوناً، وقطعت اللذات، ولم لا وأنت كالصبح لوناً، أين بطشك من حلمي، وجهلك من علمي، وجسمك من جسمي:

شتان ما بين جسم صيغ من ذهب وذاك جسمي وجسم صيغ من بهق (٤)

أين عينك الزرقاء من عيني الكحيله، ورؤيتك الشعاء من رؤيتي الجميله، أين لون الشيب من لون الشباب، وأين نذير الأعداء من رسول الأحباب، هذا وكم أكلت الأكباد غيظاً، وحميت الأضغان (٥) قيظاً وشكوت الصداً فسقيت ولكن بشواظ (٦) من نار، وأخنت عليك الأيام حتى انتعل بأبعاضك (٧) الحمار، ولولا تعرضك إليّ لما وقعت في المقته، ولولا إساءتك لما كنت تصقل في كل وقت، فدع عنك هذا الفخر المديد،

(١) الصُول: عصا الملك، وهي الصُولجان.

(٢) الزخرف، ٤٣ / ١٨.

(٣) سبه حمراء: شتماً يوصل إلى الحرب. والدهماء: الحرب.

(٤) البهق: مرض جلدي يترك على الجلد بقعاً بيضاء.

(٥) الأضغان: مفردها ضغينه، وهي الاحقاد.

(٦) شواظ: قطع من الحديد حاميه، شظايا.

(٧) أخنت عليك الأيام: أي جارت عليك وأتعبتك - انتعل: لبس في رجله أبعاضك: جمع مفرده بعض. أقسام منك.

وتأمل وصفي إذا ﴿كشفت عنك الغطاء فبصرك اليوم حديد﴾^(١) وافهم قول ابن الرومي :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شيء يعادله ما زال يتبع ما يجري به القلم
بذا قضى الله في الأقلام إذ برت إن السيوف لها مذ أرهفت خدم

فعند ذلك وثب السيف على قده، وكاد الغضب يخرج منه عن حده، وقال أيها المتطاول على قصره، والماشي على طريق غرره، والمتعرض مني إلى الدمار، والمتحرش بي فهو كما تقول العامة: ذنبه قش ويحترس بالنار، لقد شممت عن ساقك حتى أغرقتك الغمرات، وأتعبت نفسك فيما لا تدرك إلى أن أذهبها التعب حسرات، أولست الذي طالما أعرش السيف للهيبة عطفك، ونكس للخدمة رأسك وطرفك، وأمر بعض رعيته وهو السكين فقطع قفاك وشق أنفك، ورفعك في مهمات خاملة وحطك وجذبك للاستعمال وقطك^(٢)، فليت شعري كيف جسرت، وعبست على مثلي ويسرت^(٣)، وأنت السوقة وأنا الملك، وأنا الصادق وأنت المؤتفك^(٤)، وأنت لصون الحطام وأنا لصون الممالك، وأنت لحفظ المزارع وأنا لحفظ المسالك، وأنت للفلاحة وأنا للفلاح، وأنت حاطب الليل من نفسه^(٥) وأنا ساري الصباح، وأنا الباصر وأنت الأرمدم، وأنا المخدوم الأبيض. وأنت الخادم الأسود، وأقسم بمن صير في قبضتي أنواع اليمن المسخرة، وجعل شخصك وشخصي كقوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾^(٦) إنك عن بلوغ قدري لأذل رتبة، وعن بري كفي لأخيب طلبة، فإني لا أنكر قول بعض أربابك، حيث قالوا:

أف لرزق الكتبه أف له ما أصعبه
يرتشف الرزق به من شق تلك القصبه
يا قلماً يرفع في الطرس لوجهي ذنبه
ما أعرف المسكين إلا كاتباً ذا متربه^(٧)

(١) ق، ٥٠ / ٢٢.

(٢) قطك: بتشديد الطاء: براك.

(٣) المؤتفك: الكاذب.

(٤) بسر: قطب حاجبيه.

(٥) حاطب الليل: مدلهم الليل - والنفس: المداد وأداته.

(٦) الإسراء، ١٧ / ١٢.

(٧) المتربه: الحاجة والفقير.

إن عاينت الديوان وقعت في الحساب والعذاب، أو البلاغة سحرت وبالغت فأنت ساحر كذاب، أو فخرت بتقييد العلوم فما لك منها سوى لمحة الطرف، أو برقم المصاحف فإنك تعبد الله على حرف^(١)، أو جمعت عملاً فإنما جمعك للتكسير، أو رفعت إلى طرفك رجع البصر خاسئاً وهو حسير، وهل أنت في الدول إلا خيال تكتفي الهمم بطيفه، أو أصبع يلحق بها الرزق إذا أكل الضارب بقائم سيفه، وساع على رأسه قل ما أجدى، وسار ربما أعطى قليلاً وأكدى^(٢). ثم وقف وأكدى، أين أنت من حظي الأسنى وكفي الأغنى، وما خصصت به من الجوهر الفرد إذا عجزت أنت عن العرض الأدنى، كم برزت فما أغنيت في مهمه، وكم خرجت من دواتك لتسطير سيئه، فخرجت كما قيل من ظلمة إلى ظلمة، وهب أنك كما قلت مفتوق اللسان، جريء الجنان، مداخل بمخلك بين ذوي الاقتناص، معدود من شياطين الدول وأنت في الطرس والنفس بين بناء وغواص، فلو جريت خلفي إلى أن تحفى، وصحت بصريك إلى أن تخفت وتحفى، فما كنت مني إلا بمنزلة المدرة^(٣) من السماك الرامح، والبعرة على تيار الخضم الطافح، فلا تعد نفسك بمعجزي فإنك ممن يمين^(٤)، ولا تحلف لها أن تبلغ مداي فليس لمخضوب البنان يمين، ومن صلاح نجمك أن تعترف بفضلي الأكبر، وتؤمن بمعجزتي التي بعثت منك إلى الأسود والأحمر لتستوجب حقاً، وتسلم من نار حر تلظى لا يصلها^(٥) إلا الأشقى إن لم يتضح لرأيك إلا الإصرار، وأبت حصائد لسانك إلا أن توقعك في النار، فلا رعى الله عزائمك القاصرة، ولا جمع عقارب ليل نفسك التي إن عادت فإن نعال السيوف لها حاضرة، ثم قطع الكلام وتمثل بقول أبي تمام:

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصفائح في متونهن جلاء الشك والريب

فلما تحقق تحريف القلم حرجه، وفهم مقدار الغيظ الذي أخرجه، وسمع هذه المقالة التي يقطر من جوانبها الدم، ورأى أنه هو البادي بهذه المناقشة والبادي أظلم،

(١) تعبد الله على حرف: سريع الإرتداد ضعيف الإيمان.

(٢) أكدى: عَنفَ وَمَنَّ.

(٣) السماك الرامح: نجم نير في الجهة الشمالية، ويقابله السماك الأعزل في الجنوب. وهو أيضاً نجم قطبي نير - المدرة: الطينة.

(٤) يمين: يكذب - ويمين الثانية: بمعنى القسم.

(٥) يصلها: يحترق بها.

رجع إلى خداعه وتنحى عن طريق قِراعه^(١)، وعلم أن الدهر دهره، والقدر على حكم الوقت قدره، وأنه أحق بقول القائل:

لحنها معرب وأعجب من ذا أن إعراب غيرها ملحون^(٢)

فالتفت إليه وقال: أيها المتلهب في قدحه^(٣)، والخارج عما نسب إليه من صفحه، ما هذه الزيادة في السباب، والتطفيف في كيل الجواب، وأين علم الشيوخ عند جهل الشباب، أما كان الأحسن بك أن تترك هذا الرفث^(٤)، وتعلم^(٥) أخاك على الشعث^(٦) وتحلم كما زعمت أنك السيد، وتزكو على الغيظ كما يزكو على النار الجيد، أما تعلم أنني معينك في تشييد الممالك، ورفيقك فيما تسلكه لنفعتها من المسالك، أما أنا وأنت للملك كاليدين، وفي تشييده كالركنين الأشدين؛ وما أراك عبتني في الأكثر إلا بتحول جسدي الذي ليس خلقه علي، وضعفه الذي ليس أمره إليّ، على أن أشهى الخصور أنحفها^(٧)، وأقوى الجفون أضعفها، وأزكى النسيمات أعلها وأدنفها^(٨)، وهذه سادات العرب تعد ذلك من فضلها الأظهر وحسنها الأشهر، ولو أنك تقول بالفصاحة وتقف في هذه الساحة، لأسمعتك في ذلك من أشعارهم وأتحفتك بما يفخرون به من آثارهم، وكذلك عيبك سواد خلقتي التي:

أكسبها الحب حلية صبغت صبغة حب القلوب والحدق^(٩)

فيا لله ويا للحجر الأسود من هذه الحجّة البائرة، والكرة الخاسره، وعلى هذه النسبة ما عبتني به من فقر الأنبياء وذل الحكماء، على أن إطلاقات معروفية معروفة، وسطوات

(١) قِراعه: قتاله، ومنها مقارعة الأبطال، قتالهم ومنازلتهم.

(٢) اللحن: الخطأ في النحو عند الكلام.

(٣) قدحه: ذمه.

(٤) الرفث: الفحش.

(٥) هكذا وردت ونظنها «وتلم» وهي من بيت للناطقة:

ولست بمستبقيّ أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

(٦) الشعث: التفرق.

(٧) أنحفها: أكثرها نحافة أي أدقها.

(٨) أعلها وأدنفها: أكثرها نعومة ومدعاة للسكون والهدوء والدنف: السكر.

(٩) حب القلوب: سويداؤها - والحدق: جمع مفردة حدقه وهي سواد العين.

أمري في وجوه الأعداء المكسوفة مكشوفة، فاستغفر الله مما فرط في مقالك، والتقويض من عوائد احتمالك، فلا تشمت بنا الأضداد ولا تسلط بفرقتنا المفسدين في الأرض إن الله لا يحب الفساد، واغضض الآن من خيلائك بعض هذا الغضب، ولا تشك أني قسيمك ولو قيل لك يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض، وإن أبيت إلا أن تهدد وتجرد الشعب وتحدد، فاذكر محلنا من اليد الشريفة السلطانية الملكية المؤيدية، أيد الله نعمها وجازى بالإحسان شيمها، وأيقظ في الآجال والأمال سيفها وقلمها، ولا عطل مشاهد المدح من أنسها، ولا أخلى قرائض الباس والكرم من قيام خمسها، فأقسم من بأسه بالليل وما وسق، ومن بشر طلعتة بالقمر إذا اتسق^(١) لو تجاوز الأسد والظباء بتلك اليد لوردا بالأمن في منهل، ورتعا في روض لا يجهل، ولو لجأ إليها النهار لما راعه بمشيئة الله الليل بزجر، أو الليل لما غلب على خيطه الأسود الخيط الأبيض من الفجر، وعلى ذلك فما ينبغي لنا بين تلك الأنامل غير سلوك الأدب، والمعاضدة على محو الأزمات والنوب، والاستقامة على الحق ولا عوج، والحديث من تلك الراحة عن البحر ولا حرج، هذه نصيحتي إليك والدين النصيحة، والله تعالى يطلعك على معاني الرشد الصريحة، ويجعل بينك وبين الغي^(٢) حجاباً مستوراً، وينسيك ما تقدم من القول وكان ذلك في الكتاب مستوراً.

فعند ذلك نكس السيف طرفه، وقبل خديعة القلم قائلاً لأمر ما جدع قصير أنفه، وأمسك عن المشاغبة خيفة الزلل، فإن السيوف معروفة بالخلل، ثم قال: أيها الضعيف الجبار، البازغ في ليل المداد نجماً وكم في النجوم غرّار، لقد تظلمت من أمر أنت البادي بظلمه، وتسوّرت إلى فتح باب أنت السابق إلى فتح ختمه، وقد فهمت الآن ما ذكرت من أمر اليد الشريفة ونعم ما ذكرت، وأحسن بما أشرت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، وقد تغافلت عن قولك الأحسن، ورددتك إلى أمك الدواة كي تقرّ عينها ولا تحزن، وسألت الله تعالى أن يزيد محاسن تلك اليد العالية تماماً على الذي أحسن فإنها اليد التي:

لو أثر التقبيل في يد منعم لمحا براجم كفها التقبيل^(٣)
والراحة التي:

تسعى القلوب لغوثها ولغيثها فيجيبه التأمين والتأميل^(٤)

(١) اتسق: اعتدل وتم.

(٢) الغي: الغواية والإغترار والانحراف.

(٣) البراجم: مفاصل الأصابع واحده: برّجم.

(٤) الغوث: النجدة - الغيث: العطاء - التأمين: الأمان - التأميل: الأمل.

والأنامل التي علمها الله بالسيف والقلم ومكنها من رتبتي العلم والعلم، ودارك بكرمها آمال العفاة بعد أن ولا ولم، ولولا أن هذا المضممار يضيق عن وصفه السابق إلى غاية الخصل، ومجده الذي إذا جر ذيله ودَّ الفضل لو تمسك منه بالفضل، لأطلت الآن في ذكر مجدها الأوضح، وأفصحت في مدحها ولا ينكر لمثلها إن أنطقت الصامت فأفصح، ثم إنك بعدما تقدّم من القول المزيد، والمجادلة التي عز أمرها على الحديد، أقررت أنت أننا للملك كاليدين ولم تقرأ أننا اليمين، وفي آفاهه كالقمرين ولم تذكر أننا الواضحة الجبين، وما يشفي ضناني ويروي صداي إلا أن يحكم بيننا من لا يردّ حكمه، ولا يتهم فهمه، فيظهر أننا المفضول من الفاضل، والمخذول من الخاذل، ويقصر عن القول المناظر ويستريح المناضل، وقد رأيت أن يحكم بيننا المقام الأعظم، الذي أشرت إلى يده الشريفة، وتوسلت بمحاسنها اللطيفة، فإنه مالك زماننا ومنشئ غماننا ومصرف كلامنا وحامل أعبائنا، الذي ما هوى للهوى، وصاحب أمرنا ونهينا، وتالله ما ضل صاحبكم وما غوى، ليفصل الأمر بحكمه، ويقدمنا إلى مجلسه الشريف فيحكم بيننا بعلمه، فقدم خيرة الله على ذلك الاشرط، وقل بعد تقبيلنا الأرض له في ذلك البساط: خصمان بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، فنشط القلم فرحاً، ومشى في أرض الطرس مرحاً، وطرب لهذا الجواب وخر راکعاً وأناب، وقال سمعاً وطاعة، وشكر الله على هذه الساعة: «يا برد ذاك الذي قالت على كبدي».

الآن ظهر ما تبغيان، وقُضي الأمر الذي فيه تستفتيان، وحكم بيننا الرأي المنير، ونبأنا بحقيقة الأمر ولا يثبتك مثل خبير، ثم تفاصلا على ذلك، وتراضيا على ما يحكم به المالك، وكانوا أحق بها وأهلها وانتبه المملوك من سنة فكره، وطالع بما اختلج سواد هذه الليلة في سرّه، والله تعالى يديم أيام مولانا السلطان التي هي نظام المفاخر، ومقام المآثر، وغوث الشاكي وغيث الشاكر، ويمتّع بظلال مقامه الذي لا تكسر الأيام مقدار ما هو جابر، ولا تجبر ما هو كاسر، إن شاء الله تعالى.

تمت رسالة الشيخ جمال الدين التي كشف بها عن قناع المغايرة، وأتى فيها بكل مثال ليس له مثيل، ووسمها بصاحب حماة فأطاعه عاصي الأدب، ووهب الله له على الكبير إسماعيل.

نرجع إلى أبيات البديعيات فبيت الشيخ صفي الدين:

فالله يكلؤ عذالي ويلهمهم عذلي فقد فرجوا كربى بذكرهم^(١)

(١) كلاً: حمى وحرس.

الشيخ صفي الدين غاير الناس في الدعاء لعذاله، وما ذاك إلا أن العذول ما برح
ممتزجاً بذكر الأحباب، فكلما كرروا عذله وذكروا أحبابه فرجوا كربته بذلك الذكر.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين في بديعته:

تغاير الحال حتى للنوى فئة أصبحت منتظراً أيام وصلهم

أما الشرح في نوع المغايرة فقد طال. والكلام في بيت عز الدين يضيق عنه
المجال؛ فإنه نظم المغايرة ولكن غاير بها الأفهام، وما أرانا من عقادة بيته غير الإبهام.

وبيت بديعتي:

أغاير الناس في حب الرقيب فمد أراه أبسط آمالي بقربهم^(١)

الناس قد أجمعوا على ذم الرقيب وغايرتهم في مدحه لمعنى، وما ذاك إلا أنني لما
أراه أتحقق أنه ما تجرد للمراقبة إلا وقد علم بزيارة الحبيب، فانظر إلى حسن المغايرة
وغرابة المعنى وحسن التركيب.



(١) الرقيب: المراقب الواشي.

ذكر التذييل

والله ما طال تذييل اللقاء بهم يا عاذلي وكفى بالله في القسم التذييل، هو أن يذيل الناظم أو النائر كلاماً، بعد تمامه وحسن السكوت عليه، بجملة تحقق ما قبلها من الكلام، وتزيده توكيداً وتجري مجرى المثل، بزيادة التحقيق.

والفرق بينه وبين التكميل، أن التكميل يرد على معنى يحتاج إلى الكمال. والتذييل لم يفد غير تحقيق الكلام الأول وتوكيده. ومن أعظم الشواهد عليه قوله تعالى: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾^(١) فالجملة الأخيرة هي التذييل الذي خرج كلامه مخرج المثل السائر. ومثله قوله تعالى: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾^(٢) فالجملة الأخيرة، هي تذييل خرج في الكلام مخرج الأمثال التي ليس لها مثل، وقوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله﴾^(٣) ففي هذه الآية الشريفة تذييلان: أحدهما قوله تعالى: وعداً عليه حقاً، فإن الكلام كان قد تم قبل ذلك وحسن السكوت عليه، والآخر قوله تعالى: ومن أوفى بعهده من الله، فخرج هذا الكلام مخرج المثل السائر.

ووقع ذلك في السنة الشريفة، وهو قول النبي ﷺ: من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له عشرأ ومن هم بسية فلم يعملها لم تكتب عليه،

(١) الإسراء، ١٧ / ٨١.

(٢) سبأ، ٣٤ / ١٧.

(٣) التوبة، ٩ / ١١١.

وإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة، ولا يهلك على الله إلا هالك. فقوله ﷺ: لا يهلك على الله إلا هالك، هو التذييل الذي تتعلق البلاغة بأذياه، وخرج الكلام فيه مخرج الأمثال، وهذا التذييل انفرد بإخراجه مسلم ومن هذا الباب قول النابغة:

ولست بمستبق أحاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

اتفق أهل البديع على أن قوله: أي الرجال المهذب، من أحسن تذييل وقع في شعر، لأنه خرج مخرج المثل ومثله قول بعض العرب:

ودعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل^(١)

فعجز هذا البيت كله تذييل، وهو في غاية الكمال، ولقد أحسن بعضهم في هذا الباب، حيث قال:

صدقتك الود أبغي الوصال وليس المكاذب كالصادق

فجازيتموني بطول البعاد وكم أحجل الحب من واثق

فكل من عجز البيت تذييل، وخرج الكلام فيهما مخرج المثل، وأحسن منه قول الحطيئة:

نزور فتى يعطي على الحمد ماله ومن يعط أثمان المحامد يحمد

فإن عجز البيت كله تذييل خرج مخرج المثل، وصدر البيت استقل بالمعنى المراد على انفراده، وفيه أيضاً مع اتصاله بالعجز تعطف حسن في قوله: يعطي ويعط، وبالتعطف صار بين العجز والصدر ملاحمة وملاءمة شديدة ورابطة وثيقة، قال ابن أبي الأصعب: عجز هذا البيت، إذا انفرد، استقل مثلاً وتذيلاً، كما أن الصدر إذا انفرد استقل بالمعنى المقصود، من جملة البيت، والغرض المطلوب من التمثيل أيضاً، وقل أن يوجد بيت بين صدره وعجزه مثل هذا التلاحم، على استقلال كل قسم بنفسه وتمام معناه ولفظه، ومن التذييل الحسن قول أبي الشيص:

وأهنتني فأهنت نفسي عامدا ما من يهون عليك ممن يكرم

فعجز البيت كله تذييل، في ضمنه مطابقة، لذكره الهوان والكرامة. ومن بديع التمثيل قول ابن نباتة السعدي:

لم يبق جودك لي شيئاً أومله تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل

(١) نزال: إسم فعل أمر بمعنى إنزل للقتال.

فإنه استوفى ما أراده من المدح في الشطر الأول، ثم احتاج إلى تسميم البيت، وأراد إتمامه بتكرار المعنى المتقدم فيه استحساناً وتوكيداً، فأخرجه مخرج المثل السائر، حيث قال: تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل، ليحصل ما أراده من التوكيد وزيادة المعنى، لأن المدح إذا خرج مخرج المثل كان أسير في الأرض. قال ابن أبي الأصعب هذا البيت إن نظر فيه إلى قول أبي الطيب المتنبي:

تمسي الأمانى صرعى دون مبلغه فما يقول لشيء ليت ذلك لي^(١)

بيت ابن نباتة أفضل من بيت المتنبي، لأنه أحسن الأدب مع ممدوحه، إذ لم يجعله في حيز من يتمنى شيئاً وجعل في قدرته وجوده ما يبلغ مادحة كل أمنية، فلم يبق له أمل، وإن كان في بيت المتنبي زيادة من جهة المبالغة، في قوله: دون مبلغه، واستعارة في اللفظ، بقوله: تمسي الأمانى صرعى، ففي بيت ابن نباتة أن كل ما جعله المتنبي لممدوحه، جعله ابن نباتة لمادحة، مع زيادة المبالغة في المدح، بكونه أخرجه مخرج المثل السائر كما بينا، فهو أشهر وأسير وأبقى. وإذا تأمل الناظر في البيتين وجد معنى بيت المتنبي بكماله في صدر بيت ابن نباتة، لأن حاصل بيت المتنبي أن الممدوح قدر على كل الأمانى، وهذا قد استقل به صدر بيت ابن نباتة، والعجز ملزوم صدره، لأن من نال كل أمل صحب الدنيا بلا أمل، غير أن ابن نباتة لكونه أخرج العجز مخرج المثل، صار كأنه استأنف معنى آخر مستقلاً بجميع معنى بيت المتنبي، مع كونه زاد بأن جعل للمادح ما جعله المتنبي للممدوح، وهذا غاية في حسن الأدب. وقد ترجح بيت ابن نباتة على بيت المتنبي من وجوه. انتهى كلام ابن أبي الأصعب في النقد الحسن الذي قرره على بيت أبي الطيب وبيت ابن نباتة.

وقد يختلط على بعض الناس هذه الأبواب الأربعة، وهي: باب الإيغال، والتذييل، والتمكين، والتكميل. والفرق ظاهر، فإن الإيغال لا يكون إلا في الكلمة التي فيها الروي وما يتعلق به، وهو أيضاً مما يأتي بعد تمام المعنى، كالتكميل والتذييل. وأما التمكين فليس له مدخل في هذه الأبواب، لأنه عبارة عن استقرار القافية في مكانها، لأنها لا تزيد معنى البيت، بل إذا حذفت نقص معنى البيت، لأنها ممكنة في قواعده. وأما التكميل، فإنه وإن أتى بعد تمام المعنى، فهو يفارق الإيغال والتذييل من وجهين: أحدهما، كونه يأتي في الحشور والمقاطع، والإيغال والتذييل لا يكونان إلا في المقاطع دون الحشور،

(١) صرعى: قتلى - دون مبلغه: قبل الوصول إليه، ولا تصل إليه - لأنه لا يتمنى شيئاً فكل شيء عنده محقق له.

والإيغال والتذييل لا يخرجان عن معنى الكلام المتقدم، والتكميل لا بد أن يأتي بمعنى يكمل الغرض على التكملة المتقدمة إما تكميلاً بديعياً أو تكميلاً عروضياً. والتذييل يفارق الإيغال، لكونه يزيد على الكلمة التي تسمى إيغالاً ويستوعب غالباً عجز البيت.

وبيت صفي الدين في التذييل:

لله لذة عيش بالحبيب مضت فلم تدم لي وغير الله لم يدم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت عز الدين الموصلي:

تذييل عيشي ورزقي قسمة حصلت في أول الخلق والأرزاق بالقَسَم^(١)

وبيت بديعيتي:

والله ما طال تذييل اللقاء بهم يا عاذلي وكفى بالله في القَسَم^(٢)

فقولي: وكفى بالله في القسم، هي الجملة التي جاءت بعد تمام الكلام وحسن السكوت عليه، واشتملت على معناه وزادته في القسم تحقيقاً وتوكيداً، وجرت مجرى المثل الذي ما يجارى في شرفه وكماله، وأما لفظة التذييل، التي هي تسمية لهذا النوع المقصود، ففات الشيخ عز الدين فيها لفظة طال، فإنني لو لم أذكر الطول ما ترشحت تورية التذييل، ولا وقع لها في القلوب مواقع، فإن الطول من لوازم الأذيال، وطويل ذيل اللقاء في البيت من أطف الاستعارات، وقولي: يا عاذلي، هو التكميل الذي يأتي في الحشو، وقد تقدم الكلام عليه وتقرر.



(١) القسم: التقسيم من قبل الله سبحانه وتعالى.

(٢) القسم: الحلف.

ذكر التفويف

خَشَنَ أَلْنَ أَحْزَنَ أَفْرَحَ أَمْنَعَ أَعْطَى أُنَلَّ فَوَّفَ أَجْدَ وَشَّ رَقَّقَ شَدَّ حَبَّ لَمْ (١)
التفويف، تأملته فوجدته نوعاً لم يفد غير إرشاد ناظمه إلى طرق العقادة. والشاعر،
إذا كان معنوياً وتجشماً مشاقه، تقصر يده عن التطاول إلى اختراع معنى من المعاني
الغريبة، وتجفوه جسان الألفاظ، ولم يعطف عليه برقة وتأنف (٢) كل قرينة صالحة أن
تسكن له بيتاً، ولكن شروع المعارضة ملزم به، ولم يسعني غير تشريع الطباق في بيته.
وهو في اللغة مشتق من الثوب المفوف الذي فيه خطوط بيض والمراد تلويحه ونقشه،
ومن ظريف قول ابن قاضي ميلة:

بعيشي ألم أخبركما أنه فتى على لفظه برد الكلام المفوف (٣)

والتفويف في الصناعة، عبارة عن إتيان المتكلم بمعان شتى، من المدح والغزل
وغير ذلك من الفنون والأغراض، كل فن في جملة من الكلام منفصلة عن أختها، مع
تساوي الجملة في الوزن. ويكون بالجملة الطويلة أو المتوسطة أو القصيرة، وأحسنها
وأبلغها وأصعبها مسلماً القصار، فمثال ما جاء منه بالجملة الطويلة قول النابغة:

وأعظم أحلاماً وأكبر سيداً وأفضل مشفوعاً وأكرم شافع

(١) البيت كله أفعال أمر للأفعال التالية: خَشَنَ - لَانَ - حَزَنَ - مَنَعَ - أَعْطَى - نَالَ - فَوَّفَ - أَجَادَ - وَشَى -
رَقَّقَ - شَدَّ - أَحَبَّ - لَمْ - وَفَّوْفَ: حَطَّطَ واستعمل التفويف وهو من المحسنات البديعية.

(٢) أنف: ترفع أو رفض ضناً بنفسه.

(٣) ألم: بالمكان وبالشخص، إذا مرَّ به. بُرد: جمع مفرده برده وهي الثوب المخطط والمزخرف.

وبالجملة المتوسطة قول أبي الوليد بن زيدون:

تَهْ أَحْتَمَلُ وَاحْتِكِمُ أَصْبِرُ وَعِزُّ أَهْنُ وَذَلَّ أَحْضَعُ وَقُلُّ أَسْمَعُ وَمُرُّ أَطْعُ^(١)

ومثال ما جاء بالجملة القصيرة، قول أبي الطيب المتنبي:

أَقِلُّ أَنْلُ أَقْطِعُ لِاحْمِلُ عَلٌّ أَسْلُ أَعِدُّ زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفْضِلُ أَدِنُ سَرُّ صِلُ

أقل من الإقالة في العثرة، أنل من الإنالة والأعطاء، أقطع من الاقطاع، احمل من قولهم حملة على فرسه، عل من الاستعلاء والعلو، أسل من السلو، أعد أي أعدني إلى موضعي من الجوائز، زد أي زدني مما كنت أعده منك، هش من الهشاشة وهي التهلل، والبشر من بش البشاشة وهي البشر وطلاقة الوجه، تفضل من الأفضال، ادن أي قربني إليك، وقوله سر من التسري وهو أن يعطيه جارية يتسراها، صل من الصلة، ولم أقصد بحل هذه الألفاظ إلا إيناساً تزول به وحشة العقادة عن المتأمل، فإن هذه الجملة ما استولت عليها عقادة التركيب إلا لكون كل كلمة منها فعل أمر، ولم يأت في الجملة القصيرة على هذه الصفة شيء من فصيح الكلام، وعلى هذا المنوال نسج أصحاب البديعيات وبالله المستعان.

وبيت الشيخ صفي الدين رحمه الله:

أَقْصِرْ أَطْلُ اعْذِلْ اعْذِرْ سَلْ خَلْ أَعْنُ خَنْ هَنْ عَن تَرْفُقْ كَفْ لَجَّ لَمْ^(٢)

وهذا النوع ما نظمه العميان، وبيت الشيخ عز الدين:

فَوْفُ أَرْفُ انْظَمْ أَنْثَرُ خَصَّ عَمَّ أَفْدُ اعْتَبْ أَدْرُ أَبْرُقْ ارْعُدْ اضْحَكْ ابْكْ لَمْ^(٣)

هذا البيت بيت ما نحت من الجبال، ولكن الجبال نحتت منه، وبيت بديعيتي:

خَشَّنَ أَلِنْ أَحْزَنْ أَفْرَحْ أَمْنَعْ أَنْلُ فَوْفُ اجْدُ وِشْ رَقُقْ شَدَّ حَبَّ لَمْ

قد تقدم^(٤) قولي للعاذل:

وَاللَّهِ مَا طَالَ تَذْيِيلُ اللَّقَاءِ بِهِمْ يَا عَاذِلِي وَكَفَى بِاللَّهِ فِي الْقِسْمِ

ولما قررت له ذلك، قلت له في بيت التفويف: إن شئت تخشن في عدلك، وإن

(١) ته: أمر من تاه بتيه: تكبر والبيت كما يلاحظ كله أضداد أو ما شابهها.

(٢) و (٣) البيتين كما هو واضح أفعال أمر وهي منظومه على صفة التفويف.

(٤) تقدم: أي تقدم هذا البيت وسبقه قولي للعاذل.

شئت تلين، وإن شئت تحزن، وإن شئت تفرح، وإن شئت تمنع، وإن شئت تعطي، وإن شئت تفوف العذل وتجيد نقشه وتوشيته، وترقق فيه أو تشد معناه أن الكل بالنسبة إلى صدق المحبة سهل، ولكن النكتة في قولي له، أعني للعادل، حب لم يعني إذا حب لم يعد. ذلك، كأني أقول له:

من لم يبت والحب يقرع قلبه لم يدر كيف تفتت الأكباد
وما أحلى قول الشيخ شرف الدين بن الفارض مخاطباً لعاذله:
دع عنك تعنفي وذق طعم الهوى فإذا عشقت فبعد ذلك عنف



ذكر المواربة

يا عاذلي أنت محبوب لدي فلا توارب العقل مني واستفد حكمي
المواربة، براء مهملة، وباء موحدة، وهي مشتقة من الأرب وهي الحاجة، لكن ذكر
ابن أبي الأصبع: أنها مشتقة من ورب العرق بفتح الواو والراء إذا فسد، فهو ورب بكسر
الراء. كان المتكلم أفسد مفهوم ظاهر الكلام بما أبداه من تأويل باطنه.
وحقيقة المواربة، أن يقول المتكلم قولاً يتضمن ما ينكر عليه فيه بسببه، ويتوجه
عليه المؤاخذة، فإذا حصل الإنكار عليه استحضر، بحذقه، وجهاً من الوجوه التي يمكن
التخلص بها من تلك المؤاخذة، إما بتحريف كلمة أو تصحيفها، أو بزيادة أو نقص، أو
غير ذلك.

فأما شاهد ما وقع من المواربة بالتحريف، فقول عتيان الحروز:

وإن يك منكم كان مروان وابنه وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فمنا حصين والبطين وقعب ومنا أمير المؤمنين شبيب

فلما بلغ الشعر هشاماً وظفر به، قال: أنت القائل: ومنا أمير المؤمنين شبيب؟
فقال: يا أمير المؤمنين ما قلت إلا ومنا أمير المؤمنين شبيب، فتخلص بفتح الراء بعد
ضمها^(١)، وهذا اللفظ مواربة وقعت في هذا الباب، وشاهد الحذف قول، أبي نواس في
خالصة جارية أمير المؤمنين الرشيد، هاجياً لها:

لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع حلي على خالصه^(٢)

(١) غير: حركة أمير من الضمة إلى الفتحة، بأن جعله منادى لحرف نداء مقدر فيكون تقدير الكلام يا
أمير المؤمنين ما قلت إلا: ومنا يا أمير المؤمنين شبيب.
(٢) وروي: كما ضاع درُّ على خالصة.

فلما بلغ الرشيد ذلك أنكر عليه وتهدهه بسببه، فقال لم أقل إلا:

لقد ضاء شعري على بابكم كما ضاء حلِّي على خالصه

فاستحسن الرشيد مواربته، وقال بعض من حضر: هذا بيت قلعت عيناه فأبصر.

وشاهد التصحيف في المواربة يأتي في أبيات البديعيات، ويعجبني قول الشيخ عز الدين الموصللي، في المواربة من غير البديعية، لما بلغه وفاة القاضي فتح الدين بن الشهيد، وكان القاضي فتح الدين يرجح جانب الشيخ شمس الدين المزين على الشيخ عز الدين، لبغض كان في خاطره لا لاستحقاق:

دمشق قالت لنا مقالا معناه في ذا الزمان بين
اندمل الجرح واستراحت ذاتي من الفتح والمزين

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته:

لأنت عندي أحص الناس منزلة إذ كنت أقدرهم عندي على السلم

المواربة في أحص يريد بها أحص بالسين المهملة، وأقدرهم يريد بها أقدرهم بالذال المعجمة، والمواربة في أقدرهم بالتصحيف.

وهذا النوع لم ينظمه العميان في بديعيتهم، وبيت الشيخ عز الدين الموصللي:

لأنت أفتح ذهناً في مواربة وبالتعقل منسوب إلى النعم

مراد الشيخ بأفتح أقبح، وبالتعقل التغفل، وقال في شرحه: إنه أراد بالنعم النعم، وهو اسم جامع للإبل وغيرها وأراد بذلك المواربة بالتحريف أيضاً. سلمنا له ذلك، ولكن لم أر في بيته قبل المواربة معنى يستأنس به الذوق. وبيت بديعيتي أنا مستمر فيه على ما تقدّم من خطاب العاذل:

يا عاذلي أنت محبوب لديّ فلا توارب العقل مني واستفد حكمي

قولي للعاذل أنت محبوب لدي، من له أدنى ذوق يفهم منه أن مرادي المواربة بمجنون، والمراد بلفظة توارب توازن، والمعنى قبل المواربة مستقيم وهو في غاية الكمال وإذا حصلت المواربة صار البيت:

يا عاذلي أنت مجنون لديّ فلا توازن العقل مني واستفد حكمي

وأنقل من صيغة المدح المقبول إلى صيغة الهجو الصريح.

ذكر الكلام الجامع

جمع الكلام إذا لم تغن حكمته وجوده عند أهل الذوق كالعدم
الكلام الجامع، هو أن يأتي الشاعر ببيت مشتمل على حكمة، أو وعظ، أو غير
ذلك من الحقائق التي تجري مجرى الأمثال، ويتمثل الناظم بحكمها أو وعظها أو بحالة
تقتضي إجراء المثل، كقول زهير بن أبي سلمى:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يُستغن عنه ويذمم
وقول أبي نواس:

إذا كان غير الله في عدة الفتى أته الرزايا من وجوه الفوائد^(١)
وقول المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام^(٢)
وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته:

من كان يعلم أن الشهد مطلبه فلا يخاف للدغ النحل من ألم

فإنه حصر فيه الكلام الجامع بشروطه، وأجراه مجرى المثل مع ما أودع فيه من
الحكمة، وزاد على ذلك بما كساه من ديباجة الرقة ولطف السهولة وحسن الانسجام، وأما
العميان فما نظموا هذا النوع في بديعيتهم وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

كلامه جامع وصف الكمال كما يهيج الشوق أنواعاً من الريم^(٣)

(١) أي إذا توكل الإنسان على غير الله، أته المصائب عن طريق ما يستفيد منه.

(٢) المراد: ما تريده وهو الطمّوح.

(٣) الريم: الجراح التي شارفت على البرء.

قد تقرر: إن الكلام الجامع هو أن يأتي الناظم ببيت جملته حكمة، أو موعظة، أو غير ذلك من الحقائق التي تجري مجرى الأمثال، وليس بين الشطر الأول من البيت وبين الشطر الثاني مناسبة ولا إيناس ملاءمة، ولم أر لجريان المثل دخولاً في باب هذا البيت: وبيت بديعيتي:

جمع الكلام إذا لم تغن حكمته وجوده عند أهل الذوق كالعدم
حكمة هذا البيت ما أجريت مثلها على هذا النمط، إلا ليعلم المتيقظ أن فيه إشارة لطيفة إلى بيت عز الدين. فإني قررت أن ليس في كلامه الجامع ما يشعر بحكمة تجري مجرى الأمثال، فوجوده عند أهل الذوق كالعدم، والله الموفق.



ذكر المناقضة

إني أناقضهم إن أزمعوا ونأوا وجرّ نملٌ ثبيراً إثر عيسهم^(١)
المناقضة تعليق الشرط على نقيضين: ممكن ومستحيل، ومراد المتكلم المستحيل دون الممكن، ليؤثر التعليق عدم وقوع المشروط، فكأن المتكلم ناقض نفسه في الظاهر، إذ شرط وقوع أمر بوقوع نقيضين، ومثاله قول النابغة:

وإنك سوف تحكم أو تباهي إذا ما شبت أو شاب الغراب
فإن تعليقه وقوع حكم المخاطب على شبيه ممكن، وعلى شيب الغراب مستحيل، ومراده الثاني لا الأول، لأن مقصوده أن يقول: إنك لا تحكم أبداً.

والفرق بين المناقضة وبين نفي الشيء بإيجابه، أن هذا الباب ليس فيه نفي ولا إيجاب، ونفي الشيء بإيجابه ليس فيه شرط، وبيت الشيخ صفي الدين في المناقضة:

وإنني سوف أسلوهم إذا عدت روعي وأحييت بعد الموت والعدم
فتعليق الشرط بين النقيضين: الممكن والمستحيل ظاهر، والبيت في غاية الحسن. والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت عز الدين:

إني أناقض عهد النازحين إذا ما شاب عزمي وشبت شهوة الهرم
الشيخ عز الدين قرر في بيته وشرحه: إن شيب العزم ممكن، وشباب شهوة الهرم مستحيل. فرأيت تصوير شيب العزم وإمكانه، وسبك استعارته في قالب التشبيه، كما تقرر

(١) أزمع: عزم - النأي: البعد والهجر - ثبير: جبل بالقرب من مكة - العيس: الجمال مفردا أعيس.

في باب الاستعارة فيه أشكال، فإنهم قالوا: الاستعارة هي ادعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه. ولم أر في شيب العزم وجهاً للمبالغة في التشبيه، وعلى كل تقدير فالممكن والمستحيل في بيت عز الدين فيهما نظر.

وبيت بديعيتي:

إني أناقضهم إن أزمعوا ونأوا وجر نمل ثبيراً إثر عيسهم
تعليق الشرط على الممكن والمستحيل في هذا البيت أوضح من الكلام عليه، والله أعلم بالصواب.



ذكر التصدير أو رد العجز على الصدر

ألم أصرح بتصدير المديح لهم ألم أهدد ألم أصبر ألم ألم
هذا النوع الذي هو ردّ الاعجاز على الصدور، سماه المتأخرون التصدير.
والتصدير هو أخف على المستمع وأليق بالمقام، وقد قسمه ابن المعتز على ثلاثة أقسام:
الأول، ما وافق آخر كلمة في البيت آخر كلمة في صدره، أو كانت مجانسة لها، كقول
الشاعر:

يلفى إذا ما كان يوم عرمرم في جيش رأي لا يفل عرمرم^(١)
والثاني؛ ما وافق آخر كلمة في البيت أول كلمة منه، وهو الأحسن، كقول الآخر:
سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعي الندى بسريع^(٢)
ومثله:

تمنت سليمي أن أموت صباية وأهون شيء عندنا ما تمت
ومثله:

سُكران سكر هوى وسكر مدامة أنى يفيق فتىً به سكران
وشاهد الجناس في هذا الباب، للسري الرفاء:

يسار من سجيتها المنايا ويمنى من عطيتها اليسار^(٣)

(١) العرمرم: اليوم: الشديد، الجيش: الكثير.

(٢) لطم: ضرب بجمع كفه - الداعي: الذي يدعو - الندى: العطاء.

(٣) السجية: العادة - يسار: اليد اليسرى. اليسار: الغنى.

والأكثر أن تكون الكلمة التي في العجز عين الكلمة التي في الصدر لفظاً، وإن قبل اللفظ اشتراكاً زاد النوع حسناً. مثاله:

ذوئب سود كالعناقيد أرسلت فممن أجلها منا النفوس ذوئب^(١)

والقسم الثالث، ما وافق آخر كلمة في البيت بعض كلام في أي موضع كان، كقول الشاعر:

سقى الرمل صوب مستهل غمامه وما ذاك إلا حُب من حل بالرمل^(٢)

هكذا عرف ابن المعتز هذا القسم الثالث من التصدير. لكن قال ابن أبي الأصبغ: إن هذا التعريف مدخول، وصدق، فإن ابن المعتز قال في أي موضع كان، والكلمة إذا كانت في العجز لم تسم تصديراً لأن اشتقاق التصدير من صدر البيت، فلا بد من زيادة قيد في التعريف يسلم به من المدخل، بحيث يقول: بعض كلمات البيت في أي موضع كانت من صدره. قال ابن أبي الأصبغ أيضاً: الذي يحسن أن يسمى به القسم الأول تصدير التقفية، والثاني تصدير الطرفين، والثالث تصدير الحشو، وقد وقع من القسم الأول، في الكتاب العزيز، قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾^(٣) ومن القسم الثاني، قوله تعالى: ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾^(٤) ومن القسم الثالث، قوله تعالى: ﴿ولقد استهزئء برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾^(٥)

قال ابن أبي الأصبغ: وفي التصدير قسم رابع ذهب عنه ابن المعتز، وهو أن يأتي، فيما الكلام فيه منفي واعتراض، فيه إضراب عن أوله، كقول الشاعر:

فإن تك لم تبعد على متعهد بلى كل من تحت التراب بعيد^(٦)

وقد جاء قدامة من التصدير بنوع آخر، كما ذكرناه، وسماه التبديل: وهو أن يصير المتكلم الأخير من كلامه أولاً، أو بالعكس، كقولهم: أشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكر.

(١) ذوئب: الأولى بمعنى خصل الشعر مفرداً ذؤابة، والثانية بمعنى الذوبان، ومفرداً، ذائبة.

(٢) الصوب: المطر النافع غير المؤذي - الغمام المستهل: الشديد المطر.

(٣) البقرة، ٢ / ١٦.

(٤) البقرة، ٢ / ١٩٥.

(٥) الأنعام، ٦ / ١٠.

(٦) تعهد: حافظ على والتزم فعله أو رعايته. والمتعهد: الذي يحافظ على العهد.

قال ابن أبي الأصبع لم أقف لهذا النوع على شاهد شعري فقلت:

اصبر على خلق من تصاحبه واصحب صبوراً على أذى خلقك

أصحاب البديعيات نظموا القسم الثاني، الذي قرره ابن المعتز، وهو ما وافق آخر كلمة من البيت أول كلمة فيه، وهو الذي وقع الاتفاق على أنه الأحسن. وبيت الشيخ صفي الدين رحمه الله:

فمي تحدث عن سري فما ظهرت سرائر القلب إلا من حديث فمي

هذا النوع، أعني التصدير، ما برحت السهولة نازلة بأكتاف أذياله، فإنه سهل المأخذ ويتعين على الأديب المعنوي أن لا يتركه ساذجاً من نكتة أدبية يزداد بها بهجة، فإن الشيخ صفي الدين مع عدم تكلفه بتسمية النوع، وسبكه في قالب التورية من جنس الغزل، لم يأت به إلا ساذجاً. وبيت العميان في بديعيتهم:

وحقهم ما نسينا عهد حبههم ولا طلبنا سواهم لا وحقهم^(١)

لعمري إن بيت الشيخ عز الدين، في هذا النوع، أعمر من بيت الصفي ومن بيت العميان، فإنه مع التصريح بتورية التسمية، حلّى نوع التصدير بمكررها في طرفي بيته وهو:

فهم بصدر جمال عجز عاشقه عن وصله ظاهراً عن باحث فهم^(٢)

وبيت بديعيتي:

ألم أصرح بتصدير المديح لهم ألم أهدد ألم أصبر ألم ألم

دياجة التورية في عجز هذا البيت وصدوره لا تخفى على صاحب الذوق السليم، ولو استقل هذا البيت بنظم نوع التصدير مجرداً، لم يكن تحته كبير أمر كبيت الحلبي وبيت العميان.



(١) وحقهم: الواو، واو القسم.

(٢) فهم: الأولى أمر من هام، والثانية من الفهم.

ذكر القول بالموجب أو أسلوب الحكيم

قولي له موجب إذ قال أشفقهم تسل قلت بناري يوم فقدم
القول بالموجب، ويقال له أسلوب الحكيم، وللناس فيه عبارات، مختلفة: منهم من
قال هو أن يخصص الصفة بعد أن كان ظاهرها العموم، أو يقول بالصفة الموجبة للحكم،
ولكن يثبتها لغير من أثبتها المتكلم.

وقال ابن أبي الأصبغ: هو أن يخاطب المتكلم مخاطباً بكلام، فيعمد المخاطب
إلى كلمة مفردة من كلام المتكلم فيبني عليها من لفظه ما يوجب عكس معنى المتكلم،
وذلك عين القول بالموجب، لأن حقيقته رد الخصم كلام خصمه من فحوى لفظه. قال
صاحب التلخيص، في تلخيصه وإيضاحه: القول بالموجب ضربان: أحدهما، أن تقع
صفة من كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم، فثبت في كلامك تلك الصفة لغير
ذلك الشيء، من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم وانتفائه، كقوله تعالى: ﴿يقولون لئن
رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة لرسوله وللمؤمنين﴾^(١) فإنهم كانوا
بالأعز عن فريقهم، وبالأذل عن فريق المؤمنين، وأثبتوا للأعز الإخراج، فأثبت الله
تعالى، في الردّ عليهم، صفة العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، من غير تعرض لثبوت
حكم الإخراج للموصوفين بصفة العزة ولا لنفيه عنهم. انتهى كلام صاحب التلخيص.

ومنه قول القبعثري للحجاج لما توعدده فقال: لأحملنك على الأدهم: والمراد به

(١) المنافقون، ٦٣ / ٨.

القيد فرأى القبعثري أن الأدهم يصلح للقيد والفرس، فحمل كلامه الى الفرس، وقال: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب فصرف الوعيد بالهوان إلى الوعد بالإحسان، وفي هذا ما لا يخفى على المتأدب من حسن التلطف وشدة الباعث على فعل الخير، إذ لا يليق بمن له همة عالية أن يقال له: مثلك من يفعل الخير، فيقول: لا بل أفعل الشر.

والقسم الثاني من كلام صاحب التلخيص: أن القول بالموجب، هو حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده، مما يحتمله بذكر متعلقه، وهذا القسم الذي تداوله الناس^(١)، ونظمه أصحاب البديعيات، كقول ابن حجاج:

قال ثقلت إذ أتيت مرارا قلت ثقلت كاهلي بالأيادي
قال طولت قلت أوليت طولا قال أبرمت قلت جبل ودادي^(٢)

وحذاق البديع أدخلوا هذا الباب من لفظة لكن، فإنهم خصصوا بها نوع الاستدراك، بحيث يفرق بينهما فرق دقيق، وهذا هو الفرق. ومن أحسن ما وقع في هذا النوع قول محاسن الشواء:

ولما أتاني العاذلون عدمتهم وما فيهم إلا للحمى قارض^(٣)
وقد بهتوا لما رأوني شاحبا وقالوا به عين فقلت وعارض^(٤)

وأورد الشهاب محمود، في كتابه المسمى «بحسن التوسل إلى صناعة الترسل» بيت الأرجاني في الاستدراك شاهداً على هذا النوع، وهو:

غالطتني إذ كست جسمي ضني كسوة أعرت من اللحم العظاما
ثم قالت أنت في الهوى مثل عيني صدقت لكن سقاما

قد تقرر أن لفظه لكن خصص بها أهل البديع نوع الاستدراك، لأجل الفرق بينه وبين القول بالموجب، ولم يستشهدوا على نوع الاستدراك بغير بيتي الأرجاني. قال الشهاب محمود في البيتين: إنه أعجبه معناه، ونظم فيه قوله، وهو شاهد على القول بالموجب:

(١) في الأصل وردت تداول بين الناس ولسلامة المعنى أثبتنا تداوله الناس إذ كان يجب أن يقول: تدوول بين الناس فهو مُتداول. أي مفعول وليس فاعلاً. وتداول: جرى استعماله.

(٢) أبرم: قتل وأحكم الربط.

(٣) قارض: من قرض إذا قطع وأكل.

(٤) عارض: مصيبة، وما يعرض للإنسان في حياته.

وأضت دموعي على الخد فيضاً^(١) رأني وقد نال مني النحول
فقلت صدقت وبالخصر أيضاً فقالت بعيني هذا السقام

وبيت الحلبي:

قالوا سلوت لبعء الإلف قلت لهم سلوت عن صحتي والبرء من سقمي^(٢)
فقوله: سلوت عن صحتي هو حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده.

وبيت العميان أوردوه بحرف الاستدراك، وهو:

كانوا غيوثاً ولكن للعفة كما كانوا ليوثاً ولكن في عداتهم^(٣)
رأيت ترك الكلام على هذا البيت أليق بالمقام.

وبيت عز الدين الموصلبي:

قالوا مدام الهوى قول بموجبه تسل قلت شبابي من يد الهرم^(٤)

لما قال الشيخ عز الدين، بعد تسل: شبابي من يد الهرم، علمنا أنها الكلمة التي أشار إليها ابن أبي الأصبع، وقال: إن المخاطب يعكس بها معنى كلام المتكلم وهو عين القول بالموجب. وتسل هنا، أحسن من سلوت في بيت الحلبي، فإن تسل يقبل الاشتراك ومراد المتكلم هنا داء السل، فعاكسه المخاطب بسل الشباب من يد الهرم، ونقله، باشتراك التورية، إلى الوجه الذي أراده، ولم يخرج عن موضوعها في معنى السل الذي لم يخرج عن الوجهين، غير أن قول: الموصلبي مدام الهوى قول بموجبه، لم يخل من شدة العقادة، وبيت بديعتي:

قولي له موجب إذ قال أشفقهم تسل قلت بناري يوم فقدهم

فلفظة تسل هي الكلمة المعتمد عليها في عكس معنى كلام المتكلم من المخاطب، فإن المتكلم أراد السلّ في لفظه تسل، وهي فعل أمر، فعاكسه المخاطب بالاشتراك، ونقلها بالتورية إلى صفة التسلي بالنيران، فإنه لما قال له: تسل، قال: بناري يوم فقدهم. ورقة البيت وانسجامه لا تخفى على أهل الذوق السليم، والله أعلم.

(١) النحول: الضعف والنسقم.

(٢) الإلف: الحبيب الذي يألفه حبيبه.

(٣) العفة: طالبو المعروف - العداة: مفردتها العادي: وهو العدو.

(٤) تسل: تصيب بمرض السل، وتسحب وتخلص. وأمر من سلا أي نسي.

ذكر الهجو في معرض المدح

وكم بمعرض مدح قد هجوتهم وقلت سدتهم بحمل الضيم والتهم^(١)

هذا النوع من مستخرجات ابن أبي الأصبع، وهو أن يقصد المتكلم هجاء إنسان، فيأتي بالفاظ موجّهة ظاهرها المدح وباطنها القدح^(٢)، فيوهم أنه يمدحه ودر يهجوّه، كقول الحماسي:

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إسأ - أهل السوء إحسانا
كان ربك لم يخلق لخشيتيه سواهم من جميع الناس إنسانا^(٣)

فظاهر هذا الكلام المدح بالحلم والعفة والخشية والتقوى، وباطنه المقصود أنهم في غاية اللذل وعدم المنعة، وظريف قول بعضهم في الشريف ابن الشجري:

يا سيدي والذي يعيذك من نظم قريض يصدى به الفكر^(٤)
ما فيك من جدك النبي سوى أنك لا ينبغي لك الشعر

ومن ملح هذا الباب، قول ابن سنا الملك في قواد^(٥):

لي صاحب أفديه من صاحب حلو التاني حسن الاحتيال
لو شاء من رقة ألفاظه ألف ما بين الهدى والضلال^(٦)
يكفيك منه أنه ربما قاد إلى المهجو طيف الخيال

(١) سدتهم: صرتم سادة.

(٢) القدح: الذم والهجاء.

(٣) لخشيتيه: أي لأجل أن ينفذوا خشيتيه أي ليخشوه. والخشية هي الإحساس بمراقبة الله في القول والعمل.

(٤) يصدى: يعطش ويجف، ويصدأ.

(٥) القواد: الذي يصلح بين القاتل وأهل المقتول ويأخذ لهم القود أي البدل.

(٦) ألف: جمع.

قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع: لقد تشبث بأذيال القاضي، السعيد بن سنا الملك، في هذا النوع بقولي، فيمن ادعى الفقه والكرم:

إن فلاناً أكرم الناس لا يمنع ذا الحاجة من فلسه
وهو فقيه ذو اجتهاد وقد نص على التقليد في درسه
فيحسُنُ البحث على وجهه ويوجب الدخل على نفسه^(١)

والفرق بين الهجاء في معرض المدح وبين التهكم، أن التهكم لا تخلو ألفاظه من اللفظ الدال على نوع من أنواع الذم، أو لفظة توهم من فحواها الهجو. وألفاظ المدح في معرض الذم لا يقع فيها شيء من ذلك، ولا تزال تدل على ظاهر المدح، حتى يقرن بها ما يصرفها عنه.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي:

من معشر يرخص الاعراض جوهرهم ويحملون الأذى من كل مهتضم^(٢)
فقوله: ويحملون الأذى من كل مهتضم، ينظر إلى قول الحماسي: «يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة» والمراد بما أبطنه الذل وعدم المنعة.

والعميان لم ينظموا هذا النوع. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

في معرض المدح تهجى من قبيلته أعراضهم بين معمر ومنهدم
الذي أقوله: إن الشيخ عز الدين قفل مصراعي بيته، ومنع الأفهام من الدخول إليه، فإني لم أجد فيه ما يدل على مجرد المدح، ولا اقترن به ما يصرفه إلى صيغة الهجو، بل أقول وأنا أستغفر الله: إن هذا البيت أجساد ألفاظه ما دب فيها من المعاني روح، وليس له بهذا النوع إمام.

وبيت بديعيتي:

وكم بمعرض مدح قد هجوتهم وقلت سدتهم بحمل الضيم والتهم
فحمل الضيم، ينظر إلى قول الحماسي، إذ ظاهره الحلم والحسن وباطنه الذل وعدم المنعة ولكن حمل التهم هو الغاية القصوى في ظاهره وباطنه، والله أعلم.

(١) الدخل: بفتح الراء وسكون الخاء: ما يدخل عليه من مال، ويفتح الخاء، ما يداخل عقل الإنسان من فساد، والإلتباس والشبهة.

(٢) الإعراض: عدم النظر أو الالتفات إلى شيء، والعرض في سبيل البيع - المهتضم: الظالم الذي يهتضم الحقوق.

ذكر الاستثناء

عُفَّت القُدود فلم أَسْتثنَ بعدهم إلا معاطف أغصان بذِي سلم^(١)

الاستثناء، استثناءان: لغوي، وصناعي. فاللغوي: إخراج القليل من الكثير، وقد فرع النحاة من ذلك في كتبهم فروعاً كثيرة. والصناعي: هو الذي يفيد بعد إخراج القليل من الكثير معنى يزيد على معنى الاستثناء، ويكسوه بهجة وطلاوة، ويميزه بما يستحق به الإثبات في أبواب البديع، كقوله تعالى: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ إلا إبليس^(٢)، فإن في هذا الكلام معنى زائداً على مقدار الاستثناء، وذلك لعظم الكبيرة التي أتى بها إبليس، من كونه خرق إجماع الملائكة، وفارق جميع الملائكة الأعلى، بخروجه مما دخلوا فيه من السجود لأدم، وذلك مثل قولك: أمر الملك بكذا وكذا فأطاع أمره جميع الناس، من أمير ووزير، إلا فلاناً، فإن الإخبار عن معصية هذا العاصي بهذه الصيغة مما يعظم أمر معصيته، ويفخم مقدار كبريائه، بخلاف قولك: أمر الملك بكذا فعصاه فلان. ومثاله قوله تعالى، إخباراً عن نوح عليه السلام: ﴿قلبت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾^(٣) فإن في الإخبار عن هذه المدة، بهذه الصيغة تهويلاً على السامع، لتمهيد عذر نوح عليه السلام في الدعاء على قومه، وإن في حكمة الإخبار عن المدة بهذه الصيغة العظيمة تعظيمها، لكون أول ما يباشر السمع ذكر الألف، والإيجاز في اختصار هذا اللفظ، بهذه البلاغة العظيمة، ظاهر فإن لفظ القرآن أخصر وأوجز من قولنا: تسعمائة سنة وخمسين عاماً ولفظ القرآن بتقييد حصر العدد المذكور، ولا يحتمل الزيادة

(١) عفت: كرهت وتركت.

(٢) ص، ٣٨ / ٧٣ و ٧٤.

(٣) العنكبوت، ٢٩ / ١٤.

عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد * وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾ (١) فالله تعالى لما علم أن وصف الشقاء يعم المؤمن العاصي والكافر، استثنى من خلودهم في النار بلفظ مطمع، حيث أثبت الاستثناء المطلق وأكده بقوله: إن ربك فعال لما يريد، أي أنه لا اعتراض عليه في إخراج أهل الشقاء من النار. ولما علم أن أهل السعادة لا خروج لهم من الجنة، استثنى من خلودهم ما ينفي الاستثناء، حيث قال: عطاء غير مجذوذ، أي مقطوع، وهذه المعاني في هذه الآيات الشريفة زائدة على الاستثناء اللغوي.

ومن أمثال الاستثناء اللغوي في الشعر قول النميري:

فلو كنت بالعنقاء أو بأطومها لخلتك إلا أن تصد تراني (٢)

هذا الاستثناء في غاية الحسن، فإنه تضمن المبالغة في زيادة مدح الممدوح، وذلك أن هذا الشاعر يقول: إني لو كنت في حيز العدم، لأن العرب تضرب المثل بالعنقاء لكل شيء متعذر الوجود لخلتك متمكناً من رؤيتي، ليس لك مانع يمنعك عني، فالزيادة هنا في غاية اللطف وهي قوله، إلا أن تصد، فأتت في القدرة عليّ غير ممنوع، وهذا غاية المبالغة في المدح.

ومن الاستثناء نوع سماه ابن أبي الأصبح: استثناء الحصر، وهو غير الاستثناء الذي يخرج القليل من الكثير، ونظم فيه قوله:

إليك وإلا ما تحث الركائب وعنك وإلا فالمحدث كاذب (٣)

فإن خلاصة هذا البيت قول الناثر للممدوح: لا تحث الركائب إلا إليك، ولا يصدق المحدث إلا عنك، وهذا الحصر لا يحسن في الاستثناء الأول، فإنه لو قال سبحانه وتعالى: فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وعماصح، لولا توخي الصدق في الخبر. وقوله تعالى: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس﴾ لا يمنع أن يقال ورهطه (٤)، لولا مراعاة الصدق في الخبر.

(١) هود، ١١ / ١٠٦ - ١٠٨.

(٢) العنقاء: طائر خرافي غير موجود يضرب به المثل لكل شيء متعذر الوجود.

(٣) الحث: الإسراع.

(٤) رهط الرجل: قومه وعشيرته وأتباعه.

وعلى منوال الاستثناء الأول، الذي هو العمدة في هذا الباب، نظم أصحاب البديعيات، وهو إخراج القليل من الكثير، بزيادة معنى بديع، يزيد على معنى الاستثناء، فبيت الشيخ صفي الدين الحلبي:

فكل ما سر قلبي واستراح به
إلا الدموع عصاني بعد بعدهم
فبيت صفي الدين هنا غير خال من العقادة، ومراده فيه أن كل شيء كان يسره، قبل الفراق، وبطبعه عصاه، إلا الدموع فإنها أطاعته. ومعنى هذه الزيادة اللطيفة لا يخفى على أهل الذوق.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم، وبيت الشيخ عز الدين:
الناس كل ولا استثناء لي عذروا
إلا العذول عصاني في ولائهم
مراد عز الدين في زيادة معناه على معنى الاستثناء أن عذوله خالف الإجماع.
وبيت بديعيتي:

عفت القدود فلم أستثن بعدهم
إلا معاطف أغصان بذي سلم
قال الله تعالى: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾^(١) هذا البيت ما أعلم أنني إذا أطنبت في وصفه، يكون الإطناب لشدة فرحي به، لكونه نظمي، أو لأن الأمر على حقيقته. فإن زيادة معناه على معنى الاستثناء، وغرابة أسلوبه، وشرف نسيبه، وحسن انسجامه، وسهولة ألفاظه، ومراعاة نظيره لا تخفى على المنصف من أهل الأدب. وأما ترشيح تورية الاستثناء، بذكر القدود والمعاطف، فإنه من النسمات التي حركت القدود والمعاطف، والتكميل بذي سلم، لكون القصيدة نبوية، في غاية الكمال. والذي أقوله: إنه ما يدخل نظر المتأمل إلى بيت أعمر منه في هذا الباب، والله أعلم بالصواب.



(١) الروم، ٣٠ / ٣٢.

ذكر التشريع

طاب اللقا لذ تشريع الشعور لنا على النقا فنعمنا في ظلالهم^(١)
هذا النوع، أعني التشريع، سماه ابن أبي الأصبغ: التوأم. وأراد بذلك مطابقة
التسمية للمسمى، فإن هذا النوع شرطه أن يبني الشاعر بيته على وزنين، من أوزان
القريض، وقافيتين، فإذا أسقط، من أجزاء البيت، جزءاً أو جزأين صار ذلك البيت من
وزن آخر غير الأول، كقول الحريري:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى وقرارة الاكدار^(٢)
دار متى ما أضحك في يومها أبكت غداً تبا لها من دار^(٣)
وهي قصيدة كاملة معروفة في مقاماته، من ثاني الكامل، وتنتقل بالإسقاط إلى
ثامنه، فتصير:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شَرَكُ الردى^(٤)
دار متى ما أضحك في يومها أبكت غداً
وزيادة القافيتين ظاهرة ووقع، قبل كلام الحريري، من كلام العرب في هذا الباب:

(١) النقا: الرمل.

(٢) قرارة: مستقر - الأكدار: جمع كدر وهو الوسخ وكل ما يكدر الصفاء.

(٣) تبا لها: تعساً لها وخسراناً.

(٤) في الأصل شركة الردى، وفضلنا استبدالها بشرك لورودها أولاً ولعدم تغير الوزن، علماً أن شركة
يمكن أن تكون من خطأ النسخ، لأن البيت مروى بلفظة شرك.

وإذا الرياح مع العشي تناوحت هوج الرمال بكثيها شمالا
أفيتها نفري الغييط لضيفنا قبل القتال ونقتل الأبطالاً^(١)

فإن هذا الشاعر لو اقتصر على الرمال والقتال، لكان الشعر من الضرب المجزؤ
المرفل من الكامل وهو:

وإذا الرياح مع العشي ي تناوحت هوج الرمال
أفيتها نفري الغييط ط لضيفنا قبل القتال

فإذا أتممت البيتين صارا من الضرب التام المقطوع منه، وصار لكل بيت من هذين
البيتين قافيتان، ولا شك أن هذا النوع لا يأتي إلا بتكلف زائد وتعسف، فإنه راجع إلى
الصناعة لا إلى البلاغة والبراعة، إذ وقوع مثل هذا النوع في الشعر من غير قصد له نادر،
ولا يحسن أن يكون في الشعر فإنه ما يقع فيه إلا ترصيعاً، ولا يظهر حسنه إلا في النظم،
لأن فيه الانتقال من وزن إلى وزن آخر، فيحصل بذلك من الاستحسان ما لا يحسن في
الشعر، لأن الشعر، على كل حال، كلام مسجوع ليس فيه انتقال من وزن إلى وزن، وأوسع
البحور في هذا النوع الرجز، فإنه قد وقع مستعملاً تاماً ومجزؤاً، ومشطوراً ومنهوكاً،
فيمكن أن يعمل للبيت منه أربع قوافٍ، فإذا أسقطت ما بعد القافية الأولى بقي البيت
منهوكاً، فإذا أسقطت ما بعد الثانية بقي البيت مشطوراً، فإذا أسقطت ما بعد الثالثة بقي
مجزؤاً، وإذا لم تسقط شيئاً كان تاماً.

ولأبي عبد الله محمد بن جابر الضرير الأندلسي، ناظم البديعية، في غير بديعته
المذكورة هنا:

يرنو بطرف فاتر مهما رنا فهو المنى لا أنتهي عن حبه
يهفو بغصن ناظر حلو الجنى يشفي الضنا لا صبر لي عن قربه^(٢)
لو كان يوماً زائري زال العنا يحلو لنا في الحب أن نسمى به^(٣)
أنزلته في ناظري لما دنا قد سرنا إذ لم يحل عن صبه^(٤)

فهذه الأبيات من الرجز التام وهو الضرب الأول منه، فإذا تركتها على حالها فهي

(١) نفري: نفتح - الغييط: الهودج والستار والخيمة.

(٢) الضنا والضنى: الأوجاع الناجمة عن الأمراض الشديدة.

(٣) العنا: العناء وهو التعب الشديد، الإعياء.

(٤) لم يحل: لم يتحول - صبه: حبيبه.

من التام، وإذا أسقطت من البيت الأول: لا أنتهي عن حبه، ومن الثاني: لا صبر لي عن
 قربه، ومن الثالث: في الحب أن نسمى به، ومن الرابع: إذا لم يحل عن صبه، صارت
 من الرجز المجزوء، وإن أسقطت من البيت الأول قوله: فهو المنى إلى آخره، ومن
 الثاني: يشفي الضنا إلى آخره، ومن الثالث: يحلو لنا إلى آخره، ومن الرابع: قد سرنا
 إلى آخره، صارت من الرجز المشطور. وإن أسقطت من الأول. قوله: مهما رنا، ومن
 الثاني: حلو الجنى، ومن الثالث: زال العنا، ومن الرابع: لما دنا، صار من الرجز
 المنهوك. ولكن القوة في ذلك، والمكنة في ملكة الأديب أن يأتي بالتشريع، في بيت
 واحد، وهذا هو المطلوب من نظام البديعيات، لأجل الاستشهاد بأبياتهم على كل نوع،
 لا سيما الملتزم بتسميته على الصيغة، فإنه لو جاء بالتسمية والنوع في بيتين بطل حكم
 التورية، وخرج عن شروط البديعيات.

وبيت الشيخ صفي الدين:

فلو رأيت مصابي عندما رحلوا رثيت لي من عذابي يوم بينهم^(١)

يخرج له من هذا البيت:

فلو رأيت مصابي رثيت لي من عذابي

وهو مجزوء المجتث، وبيته عند العروضيين:

البطن منها خميص والوجه مثل الهلال^(٢)

وقد تعين إيراد ما نظمه أبو عبد الله الضرير في البيتين، لأجل المعارضة، وهما:

واف كريم رحيم قد وفي ووقى فعم نفعاً فكم ضراً شفى فقم
 فقم بنا فلکم فقراً كفى كرمأ وجود تلك الأيادي قد صفا فقم

أقول لو اختصر العميان هذين البيتين، وأضافوهما إلى ما اختصروه من البديع،
 لكان أجمل بهم، فإنهم أسقطوا من أنواع البديع نحو السبعين، وقصد الناظم فيهما،
 أعني البيتين، أنك إذا أسقطت من البيت الكلمة الموازنة لفعلمن من آخر كل نصف، وهما
 قوله: ووقى، وقوله: فكم، صار الوزن من الضرب الأول من البسيط، وهو التام، إلى
 الضرب الثالث منه، وهو المجزؤ، لأنه قد حذف منه جزءاً من آخر كل نصف فصار:

واف كريم رحيم قد وفي وعم نفعاً فكم ضراً شفى
 فقم بنا فلکم فقراً كفى وجود تلك الأيادي قد صفا

(١) رثى: أشفق عليه وحزن لأجله - البين: الفراق.

(٢) خميص: فارغة خاوية، جائعة.

وهذا مع ركنه وثقاله نظمه، غير المشهور من البسيط، فإنه لم يشتهر منه سوى العروض الأولى المخبونة، ووزنها فعلن ولها ضربان، المشهور منها الأول وهو مخبون مثلها.

وبيت الشيخ عز الدين:

وفي الهوى ضل تشريع العذول لنا وكم هوى في مقال ذل من حكم
أخبر أن تشريع العذول في حكم الهوى ضلال، حتى يرشح بتورية التشريع في تسمية النوع، ويخرج من بيت الشيخ عز الدين بيت من قافية أخرى، من منهوك الرجز، فنصفه في الشطر الأول، وفي الهوى، وفي الشطر الثاني: وكم هوى، وهذه عبارته في شرحه بنصها، فصار باقي البيت بدون الجزأين الأولين:

ضل تشريع العذول لنا في مقال ذل من حكم
وهذا البيت من العروض الثالثة المحذوفة المخبونة من المديد، ووزنها فعلن، وشاهدها:

للفتى عقل يعيش به حيث تهدي ساقه قدمه

ولقد برز الشيخ عز الدين في ذلك على متقدميه، فإن الشيخ صفي الدين لم يتحصل له بيتان من بيت، ولا للشيخ أبي عبد الله الضرير، ولكن قال الشيخ عز الدين في شرحه: إن هذا النمط ما وقع للمتقدمين، وهو معجز ليس لأديب عليه قدرة، وبسط العبارة في الدعوى بسببه، فأردت أن لا أنسج في الشرح على غير منواله، فقلت:

طاب اللقا لذ تشريع الشعور لنا على النقا فنعمنا في ظلالهم
فيخرج من بيتي: طاب اللقا على النقا

وهو بيت بقافية أخرى من منهوك الرجز، كبيت الشيخ عز الدين، ولكن شتان بين قولي: طاب اللقا. على النقا، وبين قوله: وفي الهوى. وكم هوى، فإن بيته لا تتم به فائدة ولا يحسن السكوت عليه، وصار باقي بيتي، بدون الجزأين الأولين:

لذ تشريع الشعور لنا فنعمنا في ظلالهم

وهو بيت من العروض الثالثة المحذوفة المخبونة من المديد، وهي التي رتب عز الدين عليها ما بقي من بيته:

ضل تشريع العذول لنا في مقال ذل من حكم

ولكن الفرق في تشريع الشعور ظاهر، والتورية في قوله: فنعمنا في ظلالهم، عند ذكر الشعور، كلامها سائغ عند أهل الأدب، وهذا البيت، مع صعوبة مسلك هذا النوع، اجتمع فيه من أنواع البديع: السهولة والانسجام والتورية، في موضعين، والتمكين في القافية، والجناس المطلق بين تشريع وشعور، والتذييل البديعي، فإني أتيت بجملة، بعد تمام الكلام الأول، زادت معناه تحقيقاً وتوكيداً، وجرت مجرى المثل، وفيه نوع التشريع الذي هو المقصود هنا، والله أعلم.



ذكر التميم

بكل بدر بليل الشعر يحسده بدر السماء على التميم في الظلم^(١)
التميم، كان اسمه التمام، وإنما سماه الحاتمي التميم، وسماه ابن المعتز:
اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه.

والتميم عبارة عن الإتيان، في النظم والنثر، بكلمة إذا طرحت من الكلام نقص
حسنه ومعناه، وهو على ضربين: ضرب في المعاني، وضرب في الألفاظ. فالذي في
المعاني، هو تميم المعنى، والذي في الألفاظ هو تميم الوزن، والمراد هنا تميم
المعنى ويجيء للمبالغة والاحتياط، كقول طرفة:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الغمام وديمة تهمي^(٢)

فقوله: غير مفسدها احتراس واحتياط، ويجيء في المقاطع والحشو، وأكثر مجيئه
في الحشو، ومثاله قوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه
حياة طيبة﴾^(٣) فقوله: من ذكر أو أنثى، تميم، وقوله: وهو مؤمن، تميم ثان في غاية
البلاغة التي بذكرها تم معنى الكلام، وجرى على الصحة، ولو حذف الجملتان نقص
معناه واختل حسن البناء. ومن هذا القسم قول النبي ﷺ، مما انفرد به مسلم: ما من
عبد مسلم يصلي لله كل يوم اثني عشرة ركعة، من غير الفرائض، إلا بنى الله له بيتاً في

(١) بليل الشعر: صيغة مبالغة من البليل.

(٢) الديمة: الغيمة إذا أمطرت - تهمي: تمطر بغزارة.

(٣) النحل، ١٦ / ٩٧.

الجنة. فوقع التتميم، في هذا الحديث، في أربعة مواضع، منها قوله: مسلم، ومنها قوله: لله، ومنها: كل يوم، ومنها قوله: من غير الفرائض.

ومن أناشيد قدامة على هذا القسم:

أناس إذا لم يقبل الحق منهم يعطوه غاروا بالسيوف القواضب^(١)

فقوله: ويعطوه، تتميم، فإنه في غاية الحسن، وهو^(٢) شاهد على ما جاء منه للاحتياط.

ومثال ما جاء منه للمبالغة، قول زهير:

من يلتق يوماً على علاته هَرَمًا يلتق السماحة منه والندی خلقاً^(٣)

فقوله على علاته تتميم للمبالغة.

وغاية الغايات في التتميم للمبالغة، قوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً﴾^(٤). فقوله: على حبه، هو تتميم للمبالغة التي تعجز عنها قدرة المخلوقين. وأما التتميم الذي جاء في الألفاظ فهو الذي يؤتى به لإقامة الوزن، بحيث أنه لو طرحت الكلمة استقل معنى البيت بدونها، وهو على ضربين أيضاً: كلمة لا يفيد مجيئها إلا إقامة الوزن، وأخرى تفيد مع إقامة الوزن ضرباً من المحاسن. فالأولى من العيوب، والثانية من النعوت، والمراد هنا الثانية لا الأولى، ومثالها قول المتنبي:

وخفوف قلب لو رأيت لهيبه يا جتتي لظننت فيه جهنماً^(٥)

فإنه جاء بقوله: يا جتتي، لإقامة الوزن فأفاد تتميم المطابقة، وهو ضرب من المحاسن المشار إليها.

(١) غاروا: أي أغاروا، هجموا - القواضب: القواطع.

(٢) في الأصل: فإنه وقد استبدلناها ب: هو المثبتة منعاً للتكرار.

(٣) هرم: هو هرم بن سنان الذي كان يدفع ديات القتلى من ماله الخاص، ليصلح بين المتقاتلين - الندى: الكرم - وقوله: على علاته، لا يثبت بالضرورة هجاء لهرم، وإنما جاء به الشاعر تميماً للمبالغة في المدح.

(٤) الإنسان، ٧٦ / ٨ وهذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) إذ يروى أنه كان صائماً وجاءه سائل فقال لفاطمة (ع) زوجته: ما عندك؟ قالت: بعض الأرغفة، فدفعت بها إليه، وبتاتوا خماص البطون، حتى إذا جاء اليوم الثاني والثالث والحادة تتكرر نزلت هذا الآية.

(٥) الخفوف: الإسراع في الخفقان، وربما كان البيت: «وخفوق قلب» وإنما أصابها التصحيف.

ولقد وهم جماعة من المؤلفين، وخلطوا التكميل بالتميم، وساقوا في باب التتميم شواهد التكميل وبالعكس. وتأتي شواهد التكميل في مواضعها، والفرق بين التكميل والتتميم: أن التتميم يرد على الناقص فيتمه، والتكميل يرد على المعنى التام فيكمله، إذ الكمال أمر زائد على التتميم، وأيضاً، أن التمام يكون متمماً لمعاني النقص لا لأغراض الشعر ومقاصده، والتكميل يكملها. وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته:

وكم بذلت طريفي والتلبد لكم طوعاً وأرضيت عنكم كل مختصم^(١)

فالتتميم في قوله: طوعاً، فإنه أراد به أنه لم يبذل ذلك كرهاً، فتم بهذا المعنى.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعتهم وبيت الشيخ عز الدين:

والبدر مذ لاح في التتميم دان له والشمس مدعنة طوعاً لمحتكم^(٢)

قوله: في التتميم، هو التتميم بعينه مع زيادة التورية في التشبيه، وقوله: طوعاً، تميم ثان، لكن تقدمه الشيخ صفي الدين، بقوله: طوعاً وأرضيت عنكم كل مختصم.

وبيت بديعتي، متعلق ببيت التشريع الذي قبله، وهو:

طاب اللقا لذ تشريع الشعور لنا على النقا فنعمنا في ظلالهم

بكل بدر بليل الشعر يحسده بدر السماء على التتميم في الظلم

فقولي: بليل الشعر، هو التتميم الذي تستعار من استعارته المحاسن، فإنني لو قلت: بكل بدر يحسده بدر السماء، لصح المعنى، ولكن زدت البدر الأرضي، بقولي: بليل الشعر، تتميماً وحسناً. وقولي: على التتميم، تميم ثانٍ مع زيادة التورية التي فيها تسمية النوع الملتزم بها. وقولي: في الظلم، تميم ثالث ليس له نظير، فإن به تم المعنى وتمت رتبة اللف والنشر.



(١) الطريف والتلبد: ويقال الطارف والتالد، من المال: المكتسب والموروث.

(٢) دان: خضع - مدعنة: خاضعة.

ذكر تجاهل العارف

وافتر عُجْباً تَجَاهَلْنَا بِمَعْرِفَةٍ قلنا أبرق بدا أم ثغر مبتسم^(١)

تجاهل العارف، تسميته لابن المعتز، وسماه السكاكي: بسوق المعلوم مساق غيره، لنكتة المبالغة في التشبيه. وهو عبارة عن سؤال المتكلم، عما يعلم، سؤال مَنْ لا يعلم، ليوهم أن شدة التشبيه الواقع بين المتناسبين أحدثت عنده التباس المشبه بالمشبه به، وفائدته المبالغة في المعنى، نحو قولك: أوجهك هذا أم بدر، فإن المتكلم يعلم أن الوجه غير البدر، إلا أنه لما أراد المبالغة في وصف الوجه بالحسن استفهم: أهذا وجه أم بدر؟ ففهم من ذلك شدة الشبه بين الوجه والبدر، فإن كان السؤال عن الشيء الذي يعرفه المتكلم خالياً من الشبه، لم يكن من هذا الباب، بل يكون من باب آخر كقوله تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾^(٢) فإن السؤال هنا، ما وقع لأجل المبالغة في التشبيه المشار إليه، في تجاهل العارف، بل هو لفائدة أخرى. أما الإيناس لموسى عليه السلام، لأن المقام مقام هيبة واحترام، وإما إظهار المعجز الذي لم يكن موسى يعلمه. ومنه قوله لعيسى عليه السلام: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾^(٣) فإن السؤال هنا لم يكن للتشبيه، وإنما هو توبيخ لمن ادعى فيه ذلك.

ومن الناس من جعل تجاهل العارف مطلقاً، سواء كان على طريق التشبيه، أو على غيره، إذا تقرر هذا فاعلم أن تجاهل العارف من حيث هو، إنما يأتي لنكتة من نحو مبالغة

(١) افتتر: تبسم حتى بدت أسنانه.

(٢) طه، ١٧ / ٢٠.

(٣) المائدة، ١١٦ / ٥.

في مدح أو ذم أو تعظيم أو تحقير أو توبيخ أو تقرير أو تدلّة في الحب، وأنا أذكر أمثلة الجميع هنا، فمنه للمبالغة في الغزل قول الشاعر:

أجفون كحيله أم صُفاح وقدود مهزوزة أم رماح^(١)
ومنه للمبالغة في الشوق وطول الليل:

وشوق ما أقاسي أم حريق وليل ما أكابد أم زمان^(٢)
وللمبالغة في النحول:

وقفت وقد فقدت الصبر حتى تبين موقفي أني الفقيد
وشكك فيّ عدالي فقالوا لرسم الدار أيكما العميد
ومنه للمبالغة في الغزل:

في الخيف من ظبيانه سمراء أقوامها أم صعدة سمراء^(٣)
ومثله:

أنغرك يا هند أبدى ابتساما أم البرق سل عليه حساما
ومثله قول شرف الدين راجح الحلبي:

من أطلع البدر في ديجور طرته وأودع السحر في تكسير مقلته^(٤)
ومن أدار يواقيت الشفاه على كأس من الدر يحمي خمر ريقته^(٥)

ويعجبني من هذا القصيد قوله وإن كان من غير ما نحن فيه:

يحنو النسيم عليه من لطافته والدهر ألين منه عند قسوته
ومثله، في اللفظ والمعنى، قول ابن نباتة:

في مرشفيه سلاف الراح من عصره ومعطفيه قوام البان من هصره^(٦)
وفي ابتسام ثناياه ومنطقه من نظم الدر أسلاكاً ومن نثره

(١) الصُّفاح: السيف، وهي في الأصل وجه السيف وعرضه مفردها صُفح.

(٢) أكابد: أعاني.

(٣) الصعدة: القناة المستوية التي لا تحتاج إلى تثقيف أو تقويم.

(٤) الديجور: الظلام الشديد السواد - الطُره: أول الشعر من مقدم الرأس.

(٥) يواقيت: مفردها ياقوت وهو من الأحجار الكريمة الشفافة.

(٦) المرشف: الشفة - السلاف: الخمر المعتقة - الهصر: التمايل.

ومن تجاهل العارف، للمبالغة في تعظيم الممدوح، قول ابن هانيء المغربي:

أبني العوالي السمهرية والموا ضي المشرفية والعديد الأكبر^(١)
من منكم الملك المطاع كأنه تحت السوايغ تبع في حمير^(٢)

قيل إنه لما تجاهل، في هذا البيت، عن معرفة الممدوح، ترجل الجيش بكماله تعظيماً للممدوح إذ هو ملكهم، وهذه القصيدة سارت بها الركبان والحدادة تشدو ببلاغتها، وهي أحب من: قفا نيك في الشهرة، لفصاحتها، ومطلعها:

فتقت لكم ريح الجلاذ بعنبر وأمدمك فلق الصباح المسفر
وما أحلى ما قال بعده:

وجنيتم ثمر الوقائع يانعاً بالنصر من ورق الحديد الأخضر
أقول إن هذه الاستعارات المرشحة يرشح ندى البلاغة من بين أوراقها، وتتعثر فحول الشعراء في حلبة سباقها، ومنها:

في فتية صدأ الدروع عيبرهم وخلقهم علق النجيع الأحمر^(٣)
لا يأكل السرحان شلو طعينهم مما عليه من القنا المتكسر^(٤)
قوم بيت على الحشايا غيرهم ومبيتهم فوق الجياد الضمر
وتظل تسبح في الدماء قبابهم فكأنهن سفائن في أبحر
حي من الأعراب إلا أنهم يردون ماء الأمن غير مكدر
لي منهم سيف إذا جردته يوماً ضربت به رقاب الأعصر
صعب إذا نوب الزمان استصعبت متنمر للحادث المتنمر
وإذا عفا لم تلق غير مهلل وإذا سطا لم تلق غير معفر
فغمامه من رحمة وعراضه من جنة ويمينه من كوثر^(٥)

(١) العوالي السمهرية: الرماح المنسوبة إلى رجل يقال له سمهر كان يصنع الرماح وكذلك الردينية. فهي رماح منسوبة إلى زوجته ردينة - المواضي المشرفية: السيوف القاطعة. والمشرفية: المجلوبة من مشارف اليمن.

(٢) السوايغ: الدروع التي تغطي معظم الجسم وتُبع: ملك من ملوك قبيلة حمير.

(٣) خلقهم: ألبتسهم - النجيع: الدم الناتج عن الطعن.

(٤) السرحان: الذئب - الشلو: البقية أو القطعة من الشيء ومن الإنسان الجثة.

(٥) العراض: مفردها عرصة: وهي ساحة الدار.

ولم أستطرد إلى هذا القدر من نظم ابن هانيء إلا لعلمي أنه عزيز الوجود، وغريب في هذه البلاد.

ومن تجاهل العارف للمبالغة في المدح قول إمام هذه الصناعة، ومالك أزمة البلاغة والبراعة، القاضي الفاضل، من مديح العادل:

أهذي كفه أم غيث غوث	ولا بلغ السحاب ولا كرامه
وهذا بشره أم لمع برق	ومن للبرق فينا بالإقامه
وهذا الجيش أم صرف الليالي	ولا سبقت حوادثها زحامه
وهذا الدهر أم عبد لديه	يصرف عن عزيمته زمامه
وهذا نعل غمد أم هلال	إذا أمسى كنون أم قلامه ^(١)
وهذا الترب أم خد لثمننا	فآثار الشفاه عليه شامه

سبحان المانح! هذا الأديب الذي لم ينسج الأوائل على منواله، ولا تتعلق الأفاضل من المتأخرين بغبار أذياله.

ومنها وليس من تجاهل العارف، ولكنه من المرقص والمطرب:

وهذا الدر المنشور ولكن	أروني غير أقلامي نظامه
وهذي روضة تندی وسطري	بها غصن وقافيتي حمامه
وهذا الكاس روق من بناني	وذكرك كان من مسك ختامه ^(٢)

وقوله أيضاً من تجاهل العارف للمبالغة في المديح:

أهذه مبير في المجد أم سور	وهذه أنجم في السعد أم غرر
وأنمل أم بحاراً والسيوف لها	موج وإفرنדהا في لجها درر ^(٣)
وأنت في الأرض أم فوق السماء وفي	يمينك البحر أم في وجهك القمر

رمما جاء في تجاهل العارف، للمبالغة في التعظيم، قول سيدنا القطب الفرد الجامع، عبد القادر الكيلاني قدس الله ضريحه، وأعاد علينا من بركاته في الدنيا والآخرة بمحمد وآله:

(١) القلامة: ما قُص من الظفر، ويضرب بها المثل في الحقارة والجسّة.

(٢) الروق: أي رائق. والرووق هو القرن.

(٣) الإفرند: والإفرند لمعان السيف وتموّجه - اللج: الوسط والعمق.

وأظلم وأنت العذب في كل منهل
وإذا ضاع في البيدا عقال بغير^(١)

ومثله:

بدا فراع فؤادي حسن صورته
فقلت هل ملك ذا الشخص أم ملك
ومما جاء في تجاهل العارف للمبالغة في الذم قول زهير:

وما أدري وسوف أخال أدري
أقوم آل حصن أم نساء
ومما جاء للتحقير قول الشاعر، وتظارف إلى الغاية:

لما ادعى غصن الرياض بأنه
في لينة مع قدها موصوف
قلنا له هل أنت تشبه قدها
ما أت هذا القديا مقصوف
ومما جاء منه للتوبيخ قول ليلي بنت طريف الخارجية، في أخيها الوليد:

أيا شجر الخابور مالك مورقا
كأنك لم تجزع على ابن طريف^(٢)
وهذا البيت من قصيدة غريبة أثبتتها بكمالها ابن خلكان في تاريخه، والخابور نهر
أصله من رأس عين بديار بكر يصب إلى الفرات.
ومن أطرف ما وقع في تجاهل العارف على سبيل التوبيخ، قول سراج الدين
الوراق، فإنه صرح بذكر التوبيخ في بيته وهما:

واخجلتي وصحائفي مسودة
وصحائف الأبرار في إشراق
ومويخ في الحشر وهو يقول لي
أكذا تكون صحائف الوراق^(٣)

ومما وقع للتقرير قول مهيبار:

سلا ظبية الوادي وما الظبي مثلها
وإن كان مصقول التراثب أكحلا^(٤)
أأنت أمرت الصبح أن يصدع الدجا
وعلمت غصن البسان أن يتميلا

(١) البيدا: ترخيم بيداء وهي الصحراء - العقال: حبل يعقل به البعير ويضرب به المثل في القلة.

(٢) الخابور: نوع من الشجر من فصيلة الخمانيات له زهر زاهي المنظر أصفر جيد الرائحة.

(٣) الوراق الذي يعمل في بيع الكتب.

(٤) التراثب: مفردها تربية وهي عظم الصدر.

ومما وقع منه قول العرجي للتدله في الحب:

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا
ليلاي منكم أم ليلي من البشر
قد قررت هنا اختلاف أقسام هذا النوع، أعني تجاهل العارف من مدح وذم وتعظيم
وتحقير، وتوبيخ وتقرير وغير ذلك، إذا عرفت ذلك، فإني أوردت هنا ما استظرفته في هذا
الباب، ولم أحتج فيه إلى التنبيه.

وأظرف ما سمعته في هذا الباب قول عبد المحسن الصوري:

بالذي ألهم تعذيبي ثنايك العذابا
والذي صير حظي منك هجراً واجتنابا
والذي ألبس خديك من الورد نقابا
ما الذي قالته عينا ك لقلبي فأجابا

ومثله:

دعوه ونجداً إنها شأن نفسه
وهبكم منعم أن يراها بعينه
وقول المتنبي:

ولو أن نجداً تلعة ما تعداها^(١)
فهل تمعنون القلب أن يتمناها

تحسب الدمع خلقة في المآقي

أتراها لكثرة العشاق

وقول الفاضل:

هي هذي أقول أين زماني

فإذا قلت أين داري وقالوا

وقال ابن الفارض:

أم في ربا نجد أرى مصباحا
ليلاً فصيرت المساء صباحاً

أوميض برق بالأبيرق لاحا
أم تلك ليلي العامرية أسفرت

ويعجبني قول الشيخ علاء الدين الوداعي:

يعود بقربكم شملي^(٢)
من الهجران للوصل^(٣)
حديث الكتب والرسل^(٤)

ترى يا جيرة الرمل
وهل تقتص أيدينا
وهل ينسخ لقياكم

(١) التلعة: الأرض المرتفعة.

(٢) الشمل: المجتمع، والمتفرق من الأقرباء والأنساب.

(٣) تقتص: تثار. وتقاوص.

(٤) ينسخ: يلغي، أو يغير، ومنه قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بأحسن منها أو مثلها﴾

البقرة، ١٠٦ / ٢.

ومن لطائف هذه القصيدة، ولم أبعده في الاستطراد عما نحن فيه، قوله:

بروحي ليلة مرت	لنا معكم بذئ الأثمل
وساقينا وما يملا	وشاديننا وما يملي ^(١)
وظبي من بني الأترا	ك حلو التيه والدل
له قد كغصن البا	ن ميال إلى العدل ^(٢)
وطرف ضيق ويلا	ه من طعناته النجل ^(٣)
أقول لعاذلي فيه	رويدك يا أبا جهل
فقلبي من بني تيم	وعقلي من بني ذهل
وما ييري هوى المشتا	ق إلا ذلك المغلي

لقد زاحمه الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله هنا بقوله:

حلفت بما يملا النديم وما يملي	لقد صان ذاك الحسن سمعي عن العدل
من المغل أشكو نحوه ألم الهوى	وطب الهوى عندي كما قيل بالمغلي ^(٤)

ومن الذي أعجبني في هذا النوع، أعني تجاهل العارف، قول بعضهم:

أقول له علام تميل عجباً	على ضعفي وقدك مستقيم
فقال تقول عني في ميل	فقلت له كذا نقل النسيم

ومليح هنا قول ابن نباتة السعدي:

فوالله ما أدري أكانت مدامة	من الكرم تجنى أم من الشمس تعصر
----------------------------	--------------------------------

وأورد صاحب الصناعتين، في هذا الباب، ما كتبه إليه بعض أهل الأدب وهو: سمعت بورود كتابك فاستفزني الفرح قبل رؤيته، وهز عظمي المرح أمام مشاهدته، فما أدري أسمعت بورود كتاب أم رجوع شباب، ولم أدر أرايت خطأ مسطوراً، أم روضاً مطوراً، أو كلاماً مشوراً، أم شيئاً منشوراً.

(١) يملي: إملاء، يسمع.

(٢) العدل: الاعتدال.

(٣) نجلت الطعنة: اتسع جرحها.

(٤) المغل: الوشاية والشكاية.

وبيت الشيخ صفي الدين غاية في هذا الباب:

يا ليت شعري أسحراً كان حبكم أزال عقلي أم ضرب من اللمم^(١)
وبيت العميان في بديعتهم:

إذا بدا البدر تحت الليل قلت له أنت يا بدر أم مرأى وجوههم
هذا البيت لم يعمر بشيء من محاسن الأدب، لما فيه من الركة.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

وعارف مذ بدا بدري تجاهل لي وقال حبك أم ذا البدر في الظلم
الشيخ عز الدين، مع التزامه بالتورية في تسمية النوع الذي استوعب كلمتين من
البيت، بيته أرق من بيت العميان وأعمر بالمحاسن.

وبيت بديعتي:

وافتر عجباً تجاهلنا بمعرفة قلنا أبرق بدا أم ثغر مبتسم

هذا البيت شاهد في تجاهل العارف على المبالغة في التشبيه، وهو القسم الذي
تقرر في أول الكلام على النوع، وقلنا إنه المقدم على بقية الأقسام من تجاهل العارف،
فإن فيه سوق المعلوم في مقام غيره لنكتة المبالغة في التشبيه، كما قرره السكاكي.
وقولي: تجاهلنا بمعرفة، لا يخفى ما فيه من الحسن على أهل الذوق السليم، والله
أعلم.



(١) اللمم: الجنون يلم بصاحبه فترة بعد أخرى.

ذكر الاكتفاء

لما اكتفى خده القاني بحمرته قال العواذل بغضاً إنه لدمي^(١)
الاكتفاء، هو أن يأتي الشاعر بيت من الشعر وقافيته متعلقة بمحذوف، فلم يفتقر
إلى ذكر المحذوف لدلالة باقي لفظ البيت عليه، ويكتفي بما هو معلوم في الذهن فيما
يقتضي تمام المعنى. وهو نوع ظريف ينقسم إلى قسمين: قسم يكون بجميع الكلمة،
وقسم يكون ببعضها. والاكتفاء بالبعض أصعب مسلكاً لكنه أحلى موقعاً، ولم أره في
كتب البديع، ولا في شعر المتقدمين. فشهد الاكتفاء بجميع الكلمة كقول ابن مطروح:

لا أنتهي لا أنثني لا أرعوي ما دمت في قيد الحياة ولا إذا

فمن المعلوم أن باقي الكلام: ولا إذا مت، لما تقدم من قوله: الحياة، ومتى ذكر
تمامه في البيت الثاني، كان عيباً من عيوب الشعر، مع ما يفوته من حلاوة الاكتفاء ولطفه
وحسن موقعه في الأذهان، ومنه قول شيخ شيوخ حماة:

أهلاً بطيفكم وسهلاً لو كنت للاغفاء أهلاً
لكنه وافى وقد حلف السهاد عليّ أن لا^(٢)

ومنها قوله فيما نحن فيه:

راموا فطامي عن هوى غذيته طفلاً وكهلاً
فوضعت في طوقني يدي وقلت خلونني وإلا^(٣)

(١) إنه لدمي: أي إنه لدميم أو من الدم فهو مدمي.

(٢) أن لا أغفو.

(٣) وإلا كسرتة. أو: فانا مطوق.

وما أظرف قول الصاحب بهاء الدين زهير:

يا حسن بعض الناس مهلا
لم تبق غير حشاشة
صيرت كل الناس قتلى
في مهجتي وأخاف أن لا^(١)

وما أظرف ما قال بعده ولم يخرج عن المراد:

وكشفت فضل قناعه
ولثمته في خده
بيدي عن قمر تجلّى
تسعين أو تسعين إلا^(٢)

وجمع الشيخ سراج الدين الوراق بين تضمينين واكتفاءين في بيت واحد، وأجاد إلى

الغاية:

يا لاثمي في هواها
ما يعلم الشوق إلا
أفرطت في اللوم أهلا
ولا الصبابة إلا^(٣)

وجمع ابن نباتة بين الاكتفاء وتضمين المثل السائر:

إسقني صرفاً من الرا
ودع العذال فيها
ح تَحْتُ الهَمُّ حتا^(٤)
يضرّبون الماء حتى^(٥)

ومن لطائف شيخ شيوخ حماة في هذا النوع:

صلي ودعي نفارك عن محب
ولا تستبجي شيباً برأسي
بذكرك آيس والليل ساكن
فما إن شبت من كبر ولكن^(٦)

وقول ابن سنا الملك من قصيدة:

رأيت طرفك يوم البين حين همى
فاكفف ملامك عني حين ألثمه
والدمع ثغر وتكحيل الجفون لما^(٧)
فما شككت بأني قد لثمت فما
تألم القلب من وخز الملام لما^(٨)
لو كان يعلم مع علمي بقسوته

(١) أن لا تبق شيئا - الحشاشة: بقية الروح.

(٢) إلا قليلاً.

(٣) إلا من يكابدها.

(٤) الصرف: من الخمر التي لم تمزج بالماء - حت: أزال.

(٥) أي حتى يخرثا: أي يأسن ويفسد - ويضرّبون هنا بمعنى يشربون.

(٦) ولكن من الحب.

(٧) لما أولمى: أسود.

(٨) لما لامني.

وله من قصيدة:

فعدلتمو فيه ولكني أنا^(١)

يا عاذلين جهلتم فضل الهوى

ويعجبني قول القائل هنا من قصيدة مطلعها:

وتقلدوا عوض السيوف الأعيانا

هزوا القدود فأخجلوا سمر القنا

طلب الأمان لقلبه إلا أنا^(٢)

وتقدموا للعاشقين فكلهم

وتلطف ابن سنا الملك في مطلع قصيدة بقوله:

وقبلته في الثغر تسعين أو إحدى^(٣)

دنوت وقد أبدى الكرى منه ما أبدى

ومثله في اللطف قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

حزت الجمال جميعه إلا^(٤)

ولقد كملت فما يقال لقد

ولبعضهم وأجاد:

فسوف تصادمه أينما^(٥)

فإن المنية من يخشها

ومما يرشف الذوق حلاوته، في هذا النوع، قول الشيخ شرف الدين ابن الفارض

من قصيدة:

إن غاب عن إنسان عيني فهو في^(٦)

ما للنوى ذنب ومن أهوى معي

ومثله في اللطف مع الترشيح باكتفاء ثان، قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

كأنه همزة على ألف

أفدي التي تاجها وقامتها

ورد خد لها فأرتع في^(٧)

أذكر ثغراً لها فأسكر من

(١) ولكني أنا الذي أهوى، أو أنا المعذول.

(٢) إلا أنا لم أطلب الأمان.

(٣) أو إحدى وتسعين.

(٤) إلا لك.

(٥) أينما تلاقيه.

(٦) فهو في قلبي.

(٧) فأرتع في بستانه.

ومثله قول الشيخ شمس الدين بن العفيف:

رأى رضاباً عن تسليته أولو العشق سلوا
ما ذاقه وشاقه هذا وما كيف ولو^(١)

ومن لطائف الصاحب بهاء الدين زهير في هذا النوع قوله من أبيات:

فما كان أحسن من مجلسي فحدث بما شئت عن ليلتي
بشمس الضحى وببدر الدجى على يممتي وعلى يسرتي
وبت وعن خبري لا تسل بذاك الذي وبذلك التي^(٢)

ومن لطائفه أيضاً أنه كتب إلى بعض أصحابه، وكان اسمه يحيى، وقد بلغه أنه شرب دواء، أبياتاً أولها

سلمت من كل ألم ودمت موفور النعم
في صحة لا ينتهي شبابها إلى الهرم
يحيا بك الجود كما يموت يا يحيى العدم
وبعد ذا قل لي ما كان من الأمر وكم^(٣)

وأظرف منه، ولم يخرج عما نحن فيه من بديع الاكتفاء، وزيادة التورية، ما وقع لشهاب الدين التلعفري مع شمس الدين الشيرجي، بين يدي الملك الناصر، وما ذاك إلا أنهما حضرا بين يديه في ليلة أنس، فاتفق أن شمس الدين الشيرجي ذهب إلى ضرورة وعاد، فأشار إليه الملك الناصر أن يصفع التلعفري، وكان شمس الدين رجلاً ألقى^(٤) فلما صفع التلعفري نهض على الفور وقبض على لحية الشيرجي، وأنشد ارتجالاً ويده فيها:

قد صفعنا في ذا المحل الشريف وهو إن كنت ترتضي تشريفي
فارت للبعد من مصيف صفاع يا ربيع الندى وإلا خريفي

وما أحلى قول الشيخ جمال الدين بن نباتة في هذا النوع، مع زيادة اللف والنشر والاكتفاء في البيتين:

(١) هكذا ورد؟ والأصح على ما نرى: «هذا وما وكيف لو» أي بتقديم الواو. وتقدير الكلام: هذا وما ذاقه، وكيف لو ذاقه.

(٢) بذاك الذي على يممتي وبذلك التي على يسرتي.

(٣) وكم كان.

(٤) ألقى: ملتحياً، أي صاحب لحية.

قالت إذا غمضت جفونك فارتقب
وسمعت عن سيف ورمح قبلها
طيفي فقلت لها نعم ولكن إذا^(١)
حتى اثنت ورننت فقلت هما اللذان^(٢)

ومنه قول الشيخ صدر الدين بن عبد الحق، ولم أكثر من هذا النوع إلا لأنه قليل
في أيدي الناس:

جهنم حمامكم نارها
وفيها عصاة لهم ضجة
تقطع أكبادنا بالظما
وإن يستغيثوا يغاثوا بما^(٣)

ومنه قول المقر الفخري ابن مكناس، مع زيادة التورية:

من شرطنا إن أسكرتنا الطلا
نعاف مزج الماء من كأسها
صرفاً تداوينا برشف اللمي
لا آخذ الله السكارى بما^(٤)

ومنه قول المقر المرحومي الأميني، صاحب ديوان الانشاء الشريف بدمشق
المحروسة رحمه الله، وهو مما أنشدنيه مراراً، وكان عند عوده من أذربيجان، بصحبة
المقر المرحومي سيفي تنم، كافل المملكة الشريفة، بتاريخ كذا، وقد ضل غالب العسكر
في بعض الليالي عن الماء، وفيه الزيادة على الاكتفاء بالاعتباس والتورية وهو:

ضلوا عن الماء لما أن سروا سحراً
والله أكرمني بالماء دونهم
قومي فظلوا حيارى يلهثون ظما
فقلت يا ليت قومي يعلمون بما^(٥)

ومثله قولي، وفيه أيضاً زيادة الاعتباس والتورية على الاكتفاء:

قالوا وقد فرطت في تصبري
اصبر عسى تشفى بماء ريقه
وما شفى بقربه سقاما
قلت لهم يا حسرتي على ما^(٦)

وأنشدني من لفظه لنفسه، القاضي عماد الدين بن القضامي، أخو شيعي قاضي
القضاة علاء الدين الحنفي، سقى الله من غيث الرحمة ثراه، موشحاً امتدح به المقر
المرحومي الأوحدي، صاحب ديوان الانشاء الشريف بالممالك الإسلامية، كان تغمده الله

(١) إذا لم تغمض جفوني أو إذا لم يأت طيفك.

(٢) هما اللذان، سمعت عنهما: أو اللذان اثنتا ونظراً.

(٣) يغاثوا بما يحرق الأمعاء.

(٤) بما ارتكبوا من آثام أو بما رشفوا.

(٥) بما أكرمني ربي.

(٦) على ما أصابني أو على ما فرطت.

برحمته ورضوانه. والموشح ما نسج ابن سنا الملك في دار الطراز على منواله، منه في نوع الاكتفاء بالكل مع زيادة التضمين:

أرخت ذوائبها لنا في الأربع
وغدوت أسهر في ليالي شعرها
وتبسمت فعلاها
فلثمت فاهاً آخذاً مستغماً
ومنه، وفيه حسن التخلص مع الاكتفاء:

حكم الزمان بينهم وتشتتي
ولسيد الرؤساء رمت تخلصاً
فغدت تمد خطاها
الأوحدي الأوحدي لتغنما
وشماتة الأعداء أكبر محتتي
من محتتي فشدت رحل مطيبي
وأقول عند عياها
يا ناقتي فزمامك بيدي وما

وظريف هنا قول الشيخ زين الدين بن الوردى:

ماذا تقولون في محب
وجاءكم زائراً عفيفاً
عن غير أبوابكم تخلى
عن مالكم هل يجوز أم لا

ومنه قوله مع زيادة التضمين:

مولاي إنك محسن
فلاشكرنك ما حيد
قسماً وإنك ثم إنك^(٢)
ت وإن أمت فلتشكرنك^(٣)

ويعجبني قول الشيخ برهان الدين القيراطي، هنا، مع زيادة التورية والاقْتباس:

حسنت الخدّ منه
كلما ساء فعلاً
قد أطالت حسراتي
قلت إن الحسنات^(٤)

ومرّ سيدنا ومولانا قاضي القضاة صدر الدين بن الأدمي الحنفي، نور الله ضريحه، وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه، على حماة المحروسة، سنة سبع وثمانمائة،

(١) لبرد ما تلهفت عليه. أو لبرد ما يسيل منه من اللعاب.

(٢) إنك كريم، وإنك معطاء إلخ...

(٣) فلتشكرنك ذريتي من بعدي.

(٤) إن الحسنات يذهبن السيئات.

نهنت نفسي عفة وتدينا
حتى إذا أعيت أطلقت العنا^(١)

وأنتم الموت والحياة
فأنسوا مقلتي ولاتو^(٢)

مستوطناً منتظياً بالخفر^(٣)
قلت له أهلاً وسهلاً ومر

ظبي يغار الغصن منه إذا مشى
أخفى فيا لله من قاض وشا^(٤)

وقد بسط الربيع بساط زهر
وقم نسعى إلى ورد ونسر^(٥)

فما كان أحلاه حديثاً وأحسنا
نهار تقضى بالحديث وبالمنأ^(٦)

وأملأ في الروض كأس الطلا
فها أنا منهمك في الملا^(٧)

أهوى الغزالة والغزال وإنما
ولقد كفت عنان عيني جاهداً

ومنه قول شيخ شيوخ حماة:

إليكم هجرتي وقصدي
أمنت أن توحشوا فؤادي

وقول ابن مكناس مع زيادة التورية:

لله ظبي زارني في الدجى
فلم يقم إلا بمقدار أن

ومنه قول العلامة بدر الدين بن الدماميني:

الدمع قاض بافتضاحي في هوى
وغدا بوجدي شاهداً ووشى بما

ومثله قوله:

يقول مصاحبي والروض زاه
هلم نباكر الروض المفدى

ومثله قوله:

ورب نهار فيه نادمت أغيدا
منادمتي فيها مناي فجبذا

ومنه قول شهاب الدين ابن حجر:

أطيل الملام لمن لامني
وأهوى الملاهي وطيب الملاذ

(١) العنا: العنان لها.

(٢) أي ولا توحشوا.

(٣) الخفر: الحياء.

(٤) وشا: أي وشاهد. ومن الوشاية، فهو واش.

(٥) ونسر: أي ونسرين. أو من الطيور.

(٦) وبالمنأ: أي وبالمنادمة. أو بما يتمناه الإنسان.

(٧) في الملا: أي في الملاذ والملاهي. أو في الملا: الناس.

وأنشدني المقرّ المجدي بن مكناس لنفسه:

وسروري تجسداً
فأجل كأسى على النداء^(١)

نزل الطل بكرة
والندامى تجمعوا

ومنه قول ابن حجر:

دع يا عدول رقى الملام فقد سرى
والطرف من فقد الرقاد بكى بما
عني الحبيب فثبت هام لك البقا
يحكي الغمام فليس يهدى بالرقا^(٢)

وأنشدني، من لفظه لنفسه، قاضي القضاة صدر الدين بن الأدمي الحنفي، وأنا بين يديه بدمشق المحروسة، ورياحين الشبية غضة، بيتين فيهما الاكتفاء بالبعض والتورية في القافيتين، مع عدم الخروج عن الوزن، في البيتين إذا قصد شق التورية الثاني، وهذا الباب عزيز الوقوع جداً، وسبكه في هذا القالب من غير تمويه ينطلي على الحاذق في صناعة الكلام، هذا مع الاتفاق البديعي، وحسن المطابقة، ولم أذكر الاتفاق، إلا أن الذي كتب إليه القاضي صدر الدين البيتين مشهور بالحسن والأدب، وصحبته المشار إليه، وهو غرس الدين خليل بن بشاره وهما:

يا متهمي بالسقم كن منجدي
أنت خليلي فبحق الهوى
ولا تطل رفضي فإنني علي^(٣)
كن لشجوني راحماً يا خلي^(٤)

وتقاضاني، عند الإنشاد، أن أنظم له شيئاً على هذا الطريق، فأنشدته في المجلس قولي:

يقولون صف أنفاسه وجبينه
وغالطت إذ قالوا أباح وصاله
عسى للقاء يصبو فقلت لهم صبا
وإلا أبي قريباً فقلت لهم أبا

ونظم الشيخ جمال الدين بن نباتة هذا النوع، وكساه ديباج التورية، ولم يسلم له الوزن إذ جمع بين طرفي الاكتفاء، كما فعلنا، حيث قال:

أقول وقد جاء الغلام بصحفة
بحقك قل لي جاء صحن قطايف
عقيب طعام الفطر يا غاية المنا
وبح باسم من أهوى ودعني من الكنا

(١) على النداء: أي على الندامى. أو النداء بمعنى ما يتساقط من الرذاذ صباحاً.

(٢) بالرقا: أي بالرقاد أو بمعنى الرقية.

(٣) متهمي: أخذني نحو تهامة، أو متهمني من التهمة - ومنجدي: من نجد أو من نجدة وتطل:

الطول أو من الطل، علي أي خليل. أو من العلو.

(٤) يا خلي: أي يا خليلي أو من الخلو.

وكتب الشيخ برهان الدين القيراطي لنور الدين ابن حجر، والد قاضي القضاة شهاب الدين:

مولاي نور الدين ضيفك لم يزل
صدقت قطايفك الكبار حلاوة
بيروي مكارمك الصحيحة عن عطا (١)
بفمي وليس بمنكر صدق القطا (٢)
انتهى ما أوردته من هذا النوع الغريب.

وبيت صفي الدين:

قالوا ألم تدر أن الحب غايته سلب الخواطر والألباب قلت لم (٣)

بيت صفي الدين، هنا شاهد على الاكتفاء بجميع الكلمة، ولكن لم ترض التورية أن تكون له سكناً لشدة برده.

وعجبت للشيخ صفي الدين كيف استحسن هذا البيت، ونظمه في سلك أبيات بديعته، مع ما فيه من الركة والنظم السافل، وقرر موضع الاكتفاء بلفظة لم، هذا مع أنه غير مكلف بتسمية النوع ولا ملتفت إلى تورية.

والعميان لم ينظمو هذا النوع. وبيت الشيخ عز الدين شاهد على النوعين، مع التزامه بالتورية، في تسمية النوع البديعي، واستجلاب الرقة ولطف المعنى، وهو:

وما اكتفى الحب كسف الشمس منه إذا حتى انثنى يخجل الأغصان حين تمي (٤)

فشاهد الكل قوله: إذا، المعروف أن بعده بدا، لما تقدم من ذكر كسف الشمس، وشاهد البعض قوله: حين تمي، فدل حرف الكلمة أنها تميل أو تميمس.

وبيت بديعيتي شاهد على الاكتفاء بالبعض، بزيادة التورية التي تتوارى من حسنها بهجة الشموس، مع سلامة الوزن في طرق الاكتفاء على مذهب الجماعة، كما تقدم. وأما التورية بتسمية النوع فهي محصول الحاصل، إذ لا بد منها، وبيتي:

لما اكتفى خده القاني بحمرته قال العواذل بغضاً إنه لدمي (٥)

(١) عن عطا أي عن عطائك. أو عن عطاء منه.

(٢) القطا: أي القطايف أو الحمام.

(٣) قلت لم: أي قلت لم أدر.

(٤) حين تمي: أي حين تميل أو تميمس، أو من الإيماء.

(٥) لدمي: أي لدميم.

المعنى هنا أن الخد، لما تزايدت حمرة، قال العواذل: بغضاً في الظاهر إنه لدمي، ووروا بالاكتفاء، وقصدوا في الباطن أنه دميم، حسداً له، وهذا الاكتفاء ينظر إلى قول القائل:

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً إنه لدميم^(١)

وهو بالبدال المهملة للحقارة، ومن تأمل هذا البيت تأمل أهل الأدب المنصفين علم أن الحيلة في تركيب توريته حيلة دقيقة، مع ما فيه من المعنى وجزالة الأسلوب. وهذا النوع على هذا النمط الغريب لا يجري في مضماره، من فحول الأدب، إلا كل ضامر مهزول.



(١) هذا البيت فيه تورية دقيقة لا تظهر إلا بتأويله: والمقصود أن ضرائر الحسناء قلن لها عن فلان، لأنهن يردن أن يكون لهن، حسداً وبغضاً، إنه لدميم. هذا الظاهر، أو المورى به، أما المورى فهو أن ضرائر الحسناء قلن لها لحسدهن وبغضهن إن وجهها دميم. والمعنى كما قيل، في قلب الشاعر ولا يعلم ما في القلوب إلا مقلها.

ذكر مراعاة النظير

ذكرت نظم اللآلي والحباب له راعى النظير بثغر منه منتظم

هذا النوع، أعني مراعاة النظير، يسمى التناسب، والائتلاف، والتوفيق، والمواخاة، وهو في الاصطلاح أن يجمع الناظم أو الناثر أمراً وما يناسبه، مع إلغاء ذكر التضاد، لتخرج المطابقة، وسواء كانت المناسبة لفظاً لمعنى أو لفظاً للفظ أو معنى لمعنى، إذ القصد جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أحد الوجوه، كقول البحري في إبل أنحلها السير:

كالقسي المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار

فإنه لما شبه الإبل بالقسي، وأراد أن يكرر التشبيه كان يمكنه أن يشبهها بالعراجين^(١)، أو بنون الخط، لأن المعنى واحد في الانحناء والرقعة، ولكنه قصد المناسبة بين الأسهم والأوتار، لما تقدم ذكر القسي. ولعمري لقد أصاب الغرض في هذا المرمى. وظريف هنا قول بعضهم في وصف فرس:

من جلنار ناضر خده وأذنه من ورق الأس^(٢)

فالمناسبة هنا بين الجلنار والأس والنضارة. ومثله قول بعضهم في آل النبي ﷺ:

أنتم بنو طه ونون والضحي وبنو تبارك في الكتاب المحكم

(١) العراجين: مفردا عرجون وهو من النخل بمثابة العنقود من العنب أي الفصيان التي تحمل حبات التمر.

(٢) الجلنار: زهر الرمان.

وبنو الأباطح والمشاعر والصفاء والركن والبيت العتيق وزمزم^(١)

هذا الناظم أحسن في مراعاة النظر، وأتى في البيت الأول بحسن المناسبة، بين أسماء السور، وفي الثاني بحسن المناسبة بين الجهات الحجازية. انتهى.

ويعجبني قول السلامي في هذا الباب:

والنقع ثوب بالسيوف مطرز والأرض فرش بالجياد محمل^(٢)
وسطور خيلك إنما الفاتها سمر تنقط بالدماء وتشكل^(٣)

فإنه ناسب بين الثوب والتطريز وبين الفرش والحمل وبين السطور والالفات ونقط والشكل ومثله قول أبي العلاء المعري:

دع اليراع لقوم يفخرون بها وبالطوال الردينيات فافتخر
فهن أقلامك اللاتي إذا كتبت مجدداً أتت بمداد من دم هدر

فأبو العلاء أيضاً ناسب بين الأقلام والكتابة والمداد.

وغاية الغايات في هذا الباب، قول بديع الزمان الهمذاني، من قصيدة يصف فيها طول السرى:

لك الله من ليل اجوب جيوبه كأنني في عين الردى أبداً كحل
كأن السرى ساق كأن الكرى طلا كأنا له شرب كأن المنى نقل
كأننا جيع والمطي لنا فم كأن الفلا زاد كأن السرى أكل
كأن يبايع الثرى ثدي مرضع وفي حجرها منى ومن ناقتي طفل
كأننا على أرجوحة في مسيرنا لغور بنا تهوي ونجد بنا تعلقو^(٤)

(١) الأباطح: أباطح مكة والمشاعر: المشعر الحرام - والصفاء: مكان في مكة يقصده الحجيج ويهرولون بينه وبين المروة، وهو المكان الذي هرولت فيه سارة زوجة إبراهيم الخليل (ع) بحثاً عن الماء لولدها إسماعيل بعد أن تركها إبراهيم الخليل هناك والركن: من المقدسات الإسلامية في مسجد النبي (ص) والبيت العتيق: هو الكعبة الشريفة - وزمزم: هو البئر التي أنبعها الله تحت قدمي إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام.

(٢) النقع: الغبار.

(٣) السمر: القنا أو الرماح. تنقط: تضع النقاط - وتشكل: تضع الحركات على الحروف.

(٤) الغور: المنخفض من الأرض أو الوادي - النجد: المرتفع من الأرض.

ومنها في المديح، ولم يخرج عما نحن فيه من حسن المناسبة:

كأنني في قوس لساني له يدٌ مديحي له فرع به أمني نبل
كأن دواتي مطفل حبشية بناني لها بعل ونقشي لها نسل^(١)
كأن يدي في العرس غواص لجة له كلمي در به قيمتي تغلو

أنظر أيها المتأمل إلى ملكة هذا الشاعر المفلق، الذي ما دخل إلى بيت إلا وأسكن فيه ما يلائمه من المناسبات البديعية. نعم هذه الغايات التي تقف عندها فحول الشعراء، وهذا الإمام المتقدم الذي صلى الحريري خلفه، وأشار إليه بقوله في مقاماته:

فلو قبل مبكاها بكيت صباية بسعدى شفيت النفس قبل التندم^(٢)
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

فإن البديع هو الذي سبق الحريري إلى نظم المقامات، وسبك العلوم في تلك القوالب الغريبة، وعلى منواله نسج الحريري، واستعمل بعض أسماء مقاماته، وفقى أثر عيسى بن هشام بالحرث بن همام، وعارض طرح الاسكندري بما نسجه أبو زيد السروجي. وعلى كل تقدير فالبديع عرابة هذه الراية، وعباس هذه السقاية.

نرجع إلى ما كنا فيه من حسن المناسبة في مراعاة النظر، فمن المستحسن في هذا النوع قول بعضهم في مליح معه خادم يحرسه:

ومن عجب أن يحرسوك بخادم وخدام هذا الحسن من ذاك أكثر
عذارك ريحان وثغرك جوهر وخدك ياقوت وخالك عنبر

هذا الأديب المتمكن ناسب بين العذار والثغر والخد والخال، إذ الوجه لمصاييح هذه المحاسن جامع، وبين ريحان وجوهر وياقوت وعنبر، للملاءمة في أسماء الخدام، فلو ذكر شيئاً عن غير تناسب كان نقصاً وعبثاً، وإن كان جائزاً، فإنهم عابوا على أبي نواس قوله:

وقد حلفت يميناً مبرورة لا تكذب
برب زمزم والحو ض والصف والمحبص^(٣)

(١) المطفل: ذات الولد والحبشية: لسوادها.

(٢) وردت في الأصل: التدم، وما أثبتناه أصح.

(٣) المحبص: مكان في وادي منى. وكل ما ذكر في هذا البيت أسماء لشعائر الحج، ما عدا الحوض فإنه في الجنة.

فالحوض هنا أجنبي من المناسبة، لأنه ما يلائم المحصب والصفاء وزمزم، وإنما يناسب الصراط والميزان وما هو منوط بيوم القيامة.

ومثله، في عدم المناسبة، قول الكميت:

وقد رأينا بها حوراء منعمة بيضا تكامل فيها الدل والشنب^(١)

فإنهم قالوا الدلال لا يناسب الشنب وهو صحيح، فإن الشنب من لوازم الثغر فلو ذكر معه اللبس^(٢) وما ناسب ذلك، مشى على سنن المناسبة وخلص من النقد.

ويعجبني من ملاءمة التناسب في مراعاة النظر، قول العلامة أبي بكر بن اللبابة في موشح:

بعض يخاصمني في بعض جسمي مقيم وقلبي يمضي
وكيف أسلو ويدري الأرضي يدير في الأقحوان الغض
وردية سرقت أنفاسه بالالتماس رقت فكانت مثل دمعة في جفن كاس

أنظر إلى ما ناسب بين الأقحوان والورد، وجذب القلوب، وأنشا الأذواق، في المناسبة بين الدمعة وجفن الكاس مع الاستعارة التي تستعار منها المحاسن.

ومن أحلى ما يستحلى في الذوق، من هذا النوع، قول ابن مطروح:

لبسنا ثياب العناق مزررة بالقبل

ومن شدة إعجابي بهذا البيت ضمته تضميناً، لو سمعه ابن مطروح لأطرح نفسه خاضعاً، وسلم إليّ مفاتيح بيته طائعاً، وهو:

ولما خلعنا العذار فككنا طويق الخجل^(٣)
لبسنا ثياب العناق مزررة بالقبل

ولولا خوف الإطالة، لتكلمت على بيت ابن مطروح، وعلى التضمين، وما فيهما من حسن التناسب والاستعارات، بما يليق بمقامهما.

وغاية الغايات قول القاضي الفاضل، في هذا الباب:

في خده فح لعطفة صدغه والخال حبته وقلبي الطائر

(١) الشنب: رقة الأسنان وشدة بياضها.

(٢) اللبس: السواد المستحسن في الشفة.

(٣) طويق: الطوق.

ويعجبني في هذا الباب قول مجير الدين بن تميم:

لو كنت تشهدني وقد حمي الوغى في موقف ما الموت فيه بمعزل
تترى أنابيب القناة على يدي تجري دماً من تحت ظل القسطل^(١)

أنظر أيها المتأمل إلى حسن ما ناسب، بين الأنابيب والقناة والجريان والقسطل، مع انقياد التورية إلى طاعته وحسن تصرفه، فإني أنا محقق أن الأمير مجير الدين بن تميم من فرسان هذا الميدان، وممن أجاد في هذا الباب، وبالغ في الإحسان إلى غريب المناسبة.

وراعي جانب مراعاة النظير حسن الزغاري، بقوله:

كان السحاب الغر لما تجمعت وقد فرقت عنا الهموم بجمعها
نياق ووجه الأرض قعب وثلجها حليب وكف الريح حالب ضرعها^(٢)

فإنه أتى بالمعنى الغريب، والتشبيه البديع، وحسن المناسبة في مراعاة النظير، مع حلاوة الانسجام ولطف الاستعارة.

وأنشدني لنفسه الشيخ عز الدين، في هذا النوع، قوله:

بخد الحب ريحان نضير لأحرفه سطور ليس تقرا
فراعت النظير وقلت بدري عذارك أخضر والنفس خضرا

والذي يظهر لي، أن خضرة النفس هنا من إيهام المناسبة.

ومما نظمته، في هذا النوع، قولي:

أبرزت معصماً نهار وداعي شف بلوره فزاد حريقي
راح دمعي يرعى النظير ويدي عند لثمي سلاسلاً من عقيق^(٣)

فحسن المناسبة هنا، بين المعصم والسلاسل، والعقيق والبلور، مع إبراز تسمية النوع البديعي والنسيب المطرب الغزلي في معنى توريته.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي:

تجار لفظ إلى سوق القبول بها من لجة الفكر تهدي جوهر الكلم

(١) القسطل: الغبار أثناء المعارك. والأنبوب الذي تجري فيه المياه.

(٢) نياق: جمع مفردة ناقة وهي أنثى الجمل - القعب: وعاء يستعمل لحلب الماشية فيه - الضرع: بالنسبة للحيوان كالثدي للإنسان.

(٣) العقيق: من الحجارة الكريمة لونه أحمر مظلم قليلاً.

المناسبة في بيت الشيخ صفي الدين، بين التجار والسوق واللجة والجوهر، وهو بيت عامر بمحاسن هذا النوع.

وبيت العميان في بديعيتهم:

يروى حديث الندى والبشر عن يده ووجهه بين منهل ومبتسم

هذا البيت ما رأيت له وجهاً يظهر به مراعاة النظر، ولا بينه وبين المناسبة البديعية نسب ثابت، ولكن رأيت الشيخ أبا جعفر، شارح هذه البديعية، أعني بديعية العميان، قال إن العننة في البيت بعن تناسب الرواية في الحديث، والندا والبشر فيهما مناسبة للكرم. ولعمري إن الشيخ رحمه الله استسمن من وجه هذا البيت ذا ورم، ونفخ من نفسه في غير ضرم، وهذا لعمري جهد من لا جهد له.

وبيت عز الدين الموصللي:

وارع النظر من القوم الأولي سلفوا من الشباب ومن طفل ومن هرم

المناسبة في بيت الشيخ عز الدين بين الشباب والطفل والهرم، أظن أنه قصد بها النسبة إلى آدم عليه السلام.

وبيت بديعيتي:

ذكرت نظم اللآلي والحباب له راعي النظر بثغر منه منتظم

المناسبة هنا ما بين اللآلي ونظم الحباب ونظم الثغر بديعة عند أهل النظم، هذا مع حسن التشبيه بالمناسبة البديعية، وفي نور هذا المثال ما يمحو ظلمة الإشكال عند مراعاة النظر، هذا مع رقة الانسجام ومغازلة عيون الغزل في تسمية النوع البديعي وحلاوة توريته، وقد حبست عنان القلم، وإن كانت المهجة في هذا المعرك الضيق قد ذابت، لثلا يقال كثر فارتابت.



ذكر التمثيل

وقلت ردفك موج كي أمثله بالموج قال قد استسمنت ذا ورم التمثيل، مما فرعه قدامة، من ائتلاف اللفظ مع المعنى، وقال: هو أن يريد المتكلم معنى فلا يدل عليه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظ قريب من لفظه، وإنما يأتي بلفظ هو أبعد من لفظ الإرداف، يصلح أن يكون مثلاً للفظ المعنى المذكور، كقوله تعالى: ﴿وقضي الأمر﴾^(١) وهذا التمثيل العظيم في غاية الإيجاز، والحقيقة، أي هلك من قضي هلاكه، ونجا من قدرت نجاته، وما عدل عن اللفظ الخاص، إلى لفظ التمثيل، إلا لأمرين: أحدهما الاختصار لبلاغة الإيجاز، والثاني كون الهلاك والنجاة كانا بأمر مطاع، ولا يحصل ذلك من اللفظ الخاص.

ومن شواهد ذلك في السنة الشريفة، قول النبي ﷺ حكاية عن بعض النسوة، في حديث أم زرع: زوجي كليل تهامه، لا حر ولا برد ولا مخافة ولا سامة. فإنها أرادت وصفه بحسن العشرة مع نسائه. فعدلت عن اللفظ الموضوع له إلى لفظ التمثيل لما فيه من الزيادة، وذلك تمثيلها الممدوح بليل تهامة المجمع على وصفه بأنه معتدل، فتضمن ذلك وصف الممدوح باعتدال المزاج المستلزم حسن العشرة، وكمال العقل اللذين ينتجان لين الجانب وطيب المعاشرة، وخصت الليل بالذكر لما في الليل من راحة الحيوان، وخصوصاً الإنسان لأنه يستريح فيه من الكد والفكر، ولكون الليل جعل سكناً والسكن محل الاجتماع بالحبيب، لا سيما وقد جعلته معتدلاً بين الحر والبرد، والطول والقصر، وهذه صفة ليل تهامة لأن الليل يبرد فيه الجو مطلقاً بالنسبة إلى النهار لغية الشمس

(١) البقرة، ٢ / ٢١٠.

وخلوص الهواء من اكتساب الحر، فيكون في البلاد الباردة شديد البرد، وفي البلاد الحارة معتدل البرد مستطاباً، فلهذا قالت: زوجي كليل تهامة، وحذفت أداة التشبيه ليقرب المشبه من المشبه به، وهذا مما يبينه لفظ التمثيل لكونه لا يجيء إلا مقدرًا بمثل غالباً.

وقال ابن رشيق في العمدة: التمثيل والاستعارة ضرب من التشبيه، ولكنهما بغير أداة. والتمثيل هو المماثل عند بعضهم، وذلك أن تمثلاً شيئاً بشيء فيه إشارة منه، كقول امرئ القيس:

وما ذرفت عينك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل^(١)

فمثل عينها بالسهمين، ومثل قلبه بأعشار الجزور، معناه: ما بكيت إلا لتقذحي في قلبي كما يقذح القادح في الأعشار، فتمت له جهات التمثيل والاستعارة.

وقد تقدم أن التمثيل ضرب من الاستعارة والتشبيه، وهو قريب التذييل، ولكن بينهما فرق دقيق وهو خلو التذييل من التشبيه. وألحقوا بهذا الباب، أعني التمثيل، ما يخرج المتكلم مخرج المثل السائر، وأبلغ ما سمعته من الشواهد البليغة المستوعبة لشروط هذا الباب، قول أبي تمام:

أخرجتموه بكرة عن سجيته والنار قد تلتظي من ناضر السلم
أوطأتموه على جمر العقوق ولو لم يخرج الليث لم يخرج من الأجم^(٢)

ففي عجز كل من البيتين تمثيل حسن، فإنه مثل فيهما حالته عند إخراجها كرهاً عن سجيته، يخاطب أحبابه، وقد أثروا به تلك الحالة، والنار قد تلتظي من ناضر السلم. قد هنا للتقليل، ومراده أن وقوع هذا منكم، وأنتم أحباب، عجيب. ومثل الحال بقوله: والنار قد تلتظي من ناضر السلم، وقال في عجز البيت الثاني عندما أوطؤوه على جمر العقوق: إن الليث لو لم يخرج ما خرج من الأجم. وهذا التمثيل والذي قبله في البيت الأول، غايتان في هذا الباب. وقد أخرج كلاهما مخرج المثل السائر، على مذهب من يرى ذلك.

وبيت الشيخ صفي الدين:

يا غائبين لقد أضنى الهوى جسدي والغصن يدوي لفقد الوابل الردم^(٣)

(١) أعشار القلب: أقسام القلب المقطع إلى عشرة أقسام.

(٢) العقوق: المعصية وعدم الطاعة - الأجم: مفردة أجمة وهي المكان الملتف الشجر.

(٣) الردم: الدائم السيلان.

الشيخ صفي الدين أجاد في نظم هذا النوع وأتى بشروطه كاملة، فإنه مثل حاله، لما أضنى الهوى جسده لغية أحبابه، بالغصن لما يدوي لفقد المطر، وأخرج كلامه مخرج المثل السائر، كما تقرر، ولكن لو حط موضع الهوى، الجفا، لكان أقرب إلى المراد، ولو كانت القافية غير الردم، لكانت أخف على القلوب.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم، وبيت الشيخ عز الدين:

من التعاضم تمثيل الزمان به وقد يكون اتضاع القدر بالشمم^(١)

هذا البيت غير صالح للتجريد، وقد كلَّ الفكر، وعجزت أن أتوصل فيه إلى حد يتوصل به إلى فهم معناه، أو إلى صورة التمثيل في تركيبه، فلم أجد بدأً من مطالعة الشرح، فلما نظرت في شرحه وجدته قد قال فيه: إن العذول يتعاضم في كلامه وأفعاله، فلذلك مثل الزمان به، من استهتار السامع به والتهكم وعدم الإصغاء إليه، وفي ذلك تهجين له وربما استجيب فيه الدعاء، ثم قال في آخر الشرح: وقد أرسلت النصف الثاني من البيت مثلاً، فما ازدادت مرآة ذوقي بذلك إلا صدأ، والله أعلم.

وبيت بديعيتي:

وقلت ردفك موج كي أمثله بالموج قال قد استسمنت ذا ورم

أنظر أيها المتأمل إلى التمثيل الذي مثلت فيه شيئاً بشيء فيه إشارة منه، كما قرره ابن رشيق في العمدة، وحذفت أداة التشبيه لتقريب المشبه من المشبه به، كما تقدم وتقرر أن لفظ التمثيل لا يكون إلا مقدرًا يمثل غالباً، وأخرجت آخر كلامي مخرج المثل السائر، على مذهب من يرى ذلك، وأتيت بتسمية النوع البديعي موری به مسبوکاً في أحسن القوالب، والله أعلم بالصواب.



(١) اتضع: انحط قدره، والشمم: التعالي والتكبر.

ذكر التوجيه

وأسود الخال في نعمان وجتته لي منذر منه بالتوجيه للعدم

التوجيه، مصدر توجه إلى ناحية كذا، إذا استقبلها وسعى نحوها، وفي الاصطلاح أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالاً مطلقاً، من غير تقييد بمدح أو غيره، والتوجيه هو إبهام المتقدمين، لأن الاصطلاح فيهما واحد، غير أن الشواهد التي استشهدوا بها على التوجيه، الإبهام أحق بها لطلوع أهلها زاهرة في أفقه، ولمطابقة التسمية، فإنهم يستشهدون على التوجيه، بقول الشاعر في الحسن ابن سهل، عندما زوج ابنته بوران بالخليفة:

بارك الله للحسن ولبوران في الختن
يا إمام الهدى ظفر ت ولكن ببنت من

فلم يعلم ما أراد بقوله ببنت من، في الرفعة أو في الحقارة، وقد تقدم قولي في شرح نوع الإبهام، لما استشهدت بهذين البيتين، على ما نقل ابن أبي الأصبع: أن الحسن بن سهل قال له: أسمعت هذا المعنى أم ابتكرته، فقال: لا والله نقلته من شعر شاعر مطبوع، كان كثير الولوع بهذا النوع، واتفق أنه فصل قباء عند خياط أعور اسمه زيد، كذا نقله ابن أبي الأصبع، فقال له الخياط، على سبيل العبث سأتيك به لا تدري، أقباء هو أم دواج، فقال له الشاعر إن فعلت ذلك نظمت فيك بيتاً لا يعلم من سمعه، أدعوت لك أم دعوت عليك، ففعل الخياط، فقال الشاعر:

خاط لي زيد قباء ليت عينيه سواء

فإن قيل إنه قصد التساوي في عينيه بالعمى صح، وإن قيل إنه قصد التساوي في

الأبصار صح. فتسمية النوع هنا بالإبهام أليق من تسميته بالتوجيه، ومطابقة التسمية فيه لا تخفى على أهل الذوق الصحيح، وهذا مذهب ابن أبي الأصبغ، فإنه هو الذي تخير الإبهام، ونزل عليه هذه الشواهد واختصر التوجيه من كتابه، وقال في ديباجته: وربما أبقيت اسم الباب وغيرت مسماه إذا رأيت اسمه لا يدل على معناه. وقد أجمع الناس على أن كتابه المسمى «بتحجير التحرير» أصح كتاب ألف في هذا الفن، لأنه لم يتكل فيه على النقل دون النقد، وغالب الجماعة غيروا بعض القواعد، وبدلوا أكثر الأسماء والشواهد، ووضعوها في غير محلها، وإذا وصلت إلى بديع ابن منقذ وصلت إلى الخبط والفساد، والجمع بين أسباب الخطأ وأنواعه، من التداخل والتبديل.

والسكاكي. ومن تبعه سموا هذا النوع: التوجيه، ونسج الناس على منوالهم، إلى أن تخير ابن أبي الأصبغ نوع الإبهام، وقرّر له الشواهد التي هي أليق به من التوجيه. ولم أسمع، من شواهد الإبهام، غير البيت المنظوم في الخياط والبيتين المنظومين في الحسن ابن سهل، وهذا النوع صعب المسلك في نظمه، لأن المراد من الناظم أن يبهم المعنيين، بحيث لا يكاد أحدهما يترجع على الآخر. ومن أظرف ما وقع في هذا الباب، وقد أوردته في باب الإبهام، أن القاضي زين الدين بن القرناس الحلبي، غفر الله له، ألف تاريخاً قريباً من قباء الخياط، وهاجر إلى حماة المحروسة، بسبب الكتابة عليه، ورسوم لي بعد وقوفي عليه بالكتابة عليه، فكتبت على التاريخ المذكور هذين البيتين:

تاريخ زين الدين فيه عجائب ويسدائع وغرائب وفنون
فأذاب تاه مناظر في جمعه خبره عني إنه مجنون^(١)

ومن أغرب ما نقل من شواهد الإبهام، التي ما تليق بغيره، أن أبا مسلم الخراساني قال يوماً لسليمان بن كثير: بلغني أنك كنت في مجلس وقد جرى ذكري، فقلت: اللهم سود وجهه واقطع رأسه واسقني من دمه. فقال: نعم قلت ذلك ونحن جلوس بكرم حصرم، فاستحسن أبو مسلم إبهامه وعفا عنه لسداد جوابه.

رجع إلى ما كنا فيه من تقرير نوع التوجيه. قد تقدم أن المتقدمين نزلوه منزلة الإبهام، وسموه توجيهاً واستشهدوا عليه بالشواهد التي تقدم ذكرها. وأما التوجيه عند المتأخرين، فقد قرروا أن يوجه المتكلم بعض كلامه أو جملة إلى أسماء متلائمة اصطلاحاً، من أسماء الأعلام أو قواعد علوم أو غير ذلك مما يتشعب له من الفنون،

(١) هذا البيت هكذا ورد في الأصل ولم أستطع له تفسيراً وإن كنت أرجح أن يكون: فإذا أتاه مناظر في جمعه. ويكون معناه ظاهراً.

توجيهاً مطابقاً لمعنى اللفظ الثاني، من غير اشتراك حقيقي بخلاف التورية، وهذا هو مذهب الشيخ صفي الدين، وعلى هذا المنوال نسج بديعته، وقد تقدم أن بديعته نتيجة سبعين كتاباً في هذا الفن. وعلى منواله نسجت بديعتي، لأجل المعارضة.

وقد أدخل جماعة نوع التوجيه في التورية وليس منها. والفرق بينهما من وجهين: أحدهما أن التورية تكون باللفظة المشتركة والتوجيه باللفظ المصطلح عليه. والثاني أن التورية تكون باللفظة الواحدة، والتوجيه لا يصح إلا بعدة ألفاظ متلائمة، كقول علاء الدين الوداعي:

من أم بابك لم تبرح جوارحه تروي أحاديث ما أوليت من ممن
فالعين عن قرّة والكف عن صلة والقلب عن جابر والأذن عن حسن

أقول: لو بلغت ما عسى أن أبلغه، لما وجدت للمتقدمين شاهداً أحسن من هذين البيتين، على هذا النوع، ولذلك قدمتهما. سبحان المانع، لقد أظهر الشيخ علاء الدين الوداعي من محاسن الأدب في التوجيه وجوهاً تخجل الأقمار، ويتمسك الناس بعده بطيب هذه الآثار. أما قرّة فهو قرّة ابن خالد السدوسي وهو ثقة يروي عن الحسن وابن سيرين وليس بتابعي. وأما صلة فهو صلة بن أشيم العدوي، كان من كبار التابعين، وهو زوج معاذة العدوية، وهي تروي عن عائشة. وأما جابر فهو جابر بن عبد الله، صاحب رسول الله ﷺ، وليس بجابر الجعفي لأن جابر الجعفي ضعيف وهو تابعي، وإنما ضعفه لأنه كان يؤمن بالرجعة. وأما الحسن فهو الحسن البصري، كان تابعياً كبيراً، رأى من أصحاب رسول الله ﷺ، نحواً من ثلثمائة رجل. فله درّ الوداعي لقد أودع في بيته نفائس الذخائر، وقال فلم يترك مقالاً لشاعر، وكان من المتقدمين عصرًا وعلماً في اقتناص شوارد النكت الأدبية، والأنواع البديعية، وإبراز التورية في القوالب التي لم يسبق إليها، وعلى موائد معانيه ونكته تطفل الشيخ جمال الدين بن نباتة في مواضع كثيرة. وقد عن لي، وإن طال الشرح، أن أذكر نبذة من ذلك ليتأيد قولي، ويعرف رتبة الشيخ علاء الدين من كان بها جاهلاً.

قال الشيخ علاء الدين، من قصيدة مطولة:

أثخنت عينها الجراح ولا إثم عليها لأنها نعساء^(١)
زاد في عقشها جنوني فقالوا ما بهذا فقلت بي سوداء^(٢)

(١) أثخن: في الجراح، زاد فيها إيلاًماً - نعساء: من النعاس.

(٢) السوداء: مرض يصيب الإنسان من جراء طغيان السوداء، أحد العناصر الأربعة المكونة للطبيعة الإنسانية وهي: الأخلاط الأربعة الصفراء: والدم، والبلغم، والسوداء.

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

قام يرنو بمقلة كحلاء علمتي الجنون بالسوداء

قال الشيخ علاء الدين الوداعي:

إذا رأيت عارضاً مسلسلاً في وجنة كجنة يا عاذلي
فاعلم يقيناً أنني من أمة تقاد للجنة بالسلاسل

قال الشيخ جمال الدين، ولم يخرج عن الوزن والقافية:

أفدي الذي ساق إليها مهجتي فرع طويل تحت حسن طائل
قلبي بصدغيها إلى طلعتها يقاد للجنة بالسلاسل

قال الشيخ علاء الدين، وقد اجتمع جماعة من أصحابه لم يخرج اسم واحد منهم عن علي:

لقد سمح الزمان لنا بيوم غدا فيه السمي مع السمي
تجمعنا كأننا ضراب خيط علي في علي في علي

قال الشيخ جمال الدين:

علوت اسماً ومقداراً ومعنى فيا لله من حسن جلي
كأنكم الثلاثة ضرب خيط علي في علي في علي

قال الشيخ علاء الدين:

من آخذ من خده بدم الشهيد المغرم فالريح ريح المسك منه
ولونه لون الدم

قال الشيخ جمال الدين:

لا ينكرون الكاس من جفنه دم الشهيد الصابر المغرم
فالريح ريح المسك من خده كما يرى واللون لون الدم

قال الشيخ علاء الدين من قصيدة:

يفتن بالفاتر من طرفه ورقه البارد يا حار^(١)

(١) يا حار: أي يا حارث وتوهم بمعنى الحرارة لما سبقها من قوله: وريقه البارد.

قال الشيخ جمال الدين:

لو ذقت برد رضاب من مقبله
يا حار ما لمت أعضائي التي ثملت
مع أن الشيخ جمال الدين فتر عن الفاتر، قال الشيخ علاء الدين:

قيل إن شئت أن تكون غنياً
قلت ما يقطع الإله بحرٌ
لم يضع بين أظهر المسلمينا
فتزوج تكن من المحصنين^(١)
قال ابن نباتة:

قال لي خلي تزوج تسترح
قلت دع نصحك واعلم أنني
من أذى الفقر وتستغني يقينا
لم أضع بين ظهور المسلمينا
قال الوداعي:

يا عاذلي في النكاريش اطرح عذلي
فالمرد إن حاولوا حربي بهجرهم
واعذر فعذري فيهم واضح حسن^(٢)
إذاً لقام بنصري معشر خشن
قال ابن نباتة:

لو آذنتني عذالي بحربهم
إذاً لقام بنصري معشر خشن
إذ بالنكاريش قد أصبحت حيرانا
عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا^(٣)
قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

عذب مقبله وحلو لحظه
أو ما تراه بالنعاس معسلا^(٤)
قال الشيخ جمال الدين:

معسل بنعاس في لواحظه
قال الوداعي، من القصيدة المذكورة:

ألحاضه وهي السيوف كليله
ويكون تعذيب الكليله أطولا^(٥)

(١) المحصنين: المتزوجين والمتزوجات.

(٢) النكاريش: لم نعثر على هذه اللفظة في ما بين أيدينا ولعلها تعني: اللواطى الكبير السن. لما يتبعها من قوله: فالمرد: وهي جمع مفردة أمرد وهو الغلام لم تنبت لحيته بعد.

(٣) اللوثة: اختلاط العقل أو الجنون.

(٤) المعسل: الذي ينام نوماً خفيفاً.

(٥) الكليله: من السيوف التي لا تقطع.

قال ابن نباتة:

بليت به ساجي اللحاظ كليلها
قال الوداعي من قصيدة:

والنهر كالمبرد يجلو الصدا
قال ابن نباتة:

والنهر فيه كمبرد
فلأجل ذا يجلوا الصدا

لكن نقص نهريه وكل مبرده عن نكتة برده في بيت الوداعي، فإن الشيخ جمال الدين
حط مكانها في بيته: فلأجل ذا، وشتان.

قال الوداعي:

ما كنت أول مغرم محروم
قال ابن نباتة مبخل يشبه ريم الفلا
قال الوداعي، في مליح أعمى:

بروحي غزلاً راح في الحسن جنة
إذا ما تبدى قائداً يمينه

قال ابن نباتة:

أفديه أعمى مغمداً الخطة
تمكنت عيناى من وجهه

قال الشيخ علاء الدين:

بخلت عليّ بدرٌ مبسمها

قال ابن نباتة:

بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم

قال الوداعي:

وما ييري هوى المشتا
ق إلا ذلك المغلي

(١) ساجي اللحاظ: ساكنها.

(٢) في هذا البيت نظر إلى قوله تعالى: ﴿سيطون ما بخلوا يوم القيامة﴾ آل عمران، ٣ / ١٨٠.

قال ابن نباتة:

من المغل أشكو نحوه ألم لجلوى وطب الهوى عندي كما قيل في المغلي (١)

قال الوداعي:

يا نديمي والذي عاهدني
اسقني صرفاً ودع عدالنا
أنه عن شربها لن يقصرا
يضربون الماء حتى يخثرا (٢)

قال ابن نباتة:

اسقني صرفاً من الرا
ودع العذال فيها
ح تحتُ الهمُّ حتا
يضربون الماء حتى

قال الوداعي:

باللوى صعدة عليها لواء
كل طعنات نصلها نجلاء

وقال بعد المطلع:

لا نجد عندها سماعاً لشكوى
فلهذا قالوا لها صماء

قال ابن نباتة:

وعدت بطيف خيالها أسماء
إن كان يمكن ناظري إغفاء

وقال بعد المطلع:

يا من يطيل من الجوى لقوامها
شكواه وهي الصعدة الصماء

وقد آن أن أختصر، لثلا يطول الشرح، وأكف لسان القلم، فقد طال واستطال،
على عرض الشيخ جمال الدين. ونعود إلى ما كنا فيه من الاستشهاد بييتي الشيخ علاء
الدين الوداعي، على نوع التوجيه، فقد فهمت رتبته في هذا الفن وتوجيه بيته يصدق على
أسماء الأعلام من رواة الحديث، في هذا الفن حيث قال:

فالعين عن قرة والكف عن صلة
والقلب عن جابر والأذن عن حسن

والمعنى الآخر في حسن، مناسبتة بين القرّة والعين، والصلة والكف، والجبر
والقلب، والكسر والسمع، والحسن ظاهر. ومثله قول القاضي محيي الدين بن عبد
الظاهر الحلبي، يصف نهراً صافياً في روض نزيه:

(١) ألم لجلوى: هكذا وردت في الأصل ونعتقد أنها: ألم الجوى.

(٢) خثر الماء: أسن وفسد.

إذا فاخرته الريح ولت عليلة
به الفضل يبدو والريبع وكم غدا
بأذيال كئبان الربا تتعثر^(١)
به الروض يحيى وهو لا شك جعفر^(٢)
ومثله قول ابن الوردي:

هويت أعرابية ريقها
رأسي بنو شيبان والطرف من
عذب ولي فيها عذاب مذاب
نهبان والعدال فيها كلاب^(٣)

أما التوجيه في قواعد العلوم، كما تقرر فأحسن ما رأيت فيه، قول أمين الدين علي
السليمانى، في بعض قواعد النحو:

أضيف الدجى معنى إلى لون شعره
وحاجبه نون الوقاية ما وقت
فطال ولولا ذاك ما خص بالجر
على شرطها فعل الجفون من الكسر^(٤)
ومنه قولى:

إغراء لحظك مالي منه تحذير
يا نصب عيني غرامي كيف أجزمه
ولا لتعريف وجددي فيك تنكير
والقد موفقع والشعر مجرور^(٥)

ومن أظرف ما وقع في هذا الباب أنه كان بالعراق عاملان: أحدهما اسمه عمر،
والآخر اسمه أحمد، فعزل عمر عن عمله واستقر أحمد بسبب مال وزنه، فقال بعض
الشعراء في ذلك:

أيا عمر استعد لغير هذا
فإنك فيك معرفة وعدل
فأحمد بالولاية مطمئن
وأحمد فيه معرفة ووزن

وقول ابن عنين، فيمن عزل وكانت سيرته غير مشكورة:

فلا تغضبني إذا ما صرفت
فلا عدل فيك ولا معرفة

(١) عليلة: ناعمة أو مريضة.

(٢) الفضل والريبع ويحيى وجعفر بالإضافة إلى معانيها فهي أسماء أعلام.

(٣) شيبان ونهبان وكلات، بالإضافة إلى معانيها اللغوية، هي أسماء قبائل عربية.

(٤) الجر للطول. ونون الوقاية أي الحاجب يحيى الجفون ويقيها من الكسر، أو التكرس.

(٥) وهذين البيتين أظرف من سابقيهما لأنه توسع في استعمال القواعد النحوية وفيها طباق. التعريف

والتنكير - جناس: والجزم والجر.

وقول ابن الساعاتي، وقيل لابن أبي الأصعب:

أيا قمراً من حسن وجته لنا
جعلتك للتمييز نصباً لناظري
وظل عذاريه الضحى والأصائل^(١)
فهلا رفعت الهجر والهجر فاعلٌ

وظريف هنا قول بعضهم:

عرج بنا تحت طول الحمى
حتى تظل اليوم وفقاً على الساكن
فلم تزل آهلة الأربع^(٢)
أو عطفاً على الموضوع

وقول محمد بن العفيف:

يا ساكناً قلبي المعنى
لأي معنى كسرت قلبي
وليس فيه سواك ثاني
وما التقى فيه ساكنان^(٣)

ومن لطائف البهاء زهير:

يقولون لي أنت الذي سار ذكره
هبوني كما قد تزعمون أنا الذي
فمن صادر يشني عليه ووارد^(٤)
فأين صلاتي منكم وعوايدي^(٥)

ونظير هذا ما اتفق لشرف الدين محمد بن عنين، وذلك أنه مرض فكتب إلى الملك المعظم صاحب دمشق:

أنظر إلي بعين مولى لم يزل
أنا كالذي أحتاج ما تحتاجه
يولي الندى وتلاف قبل تلافِي
فاغنم دعائي والثناء الوافي

فعاده الملك المعظم، ومعه خمسمائة دينار، وقال له: أنت الذي وأنا العائد وهذه الصلة.

وظريف هنا قول بعض المواليا:

رأيتها وهي داخل دارها في الصحن
يا ليتها مع تغنيها وطيب اللحن
تنشد رمل صحنت قلبي المعنى صحن
ترفع أجر ودع يدخل عليّ اللحن

(١) الأصائل: مفردها أصيل وهو قبيل غروب الشمس.

(٢) الأربع: العدد المعروف وجمع مفرده ربع وهي الدار.

(٣) استعمل القاعدة النحوية التي تقول: إذا التقى ساكنان يكسر الأول منهما.

(٤) الصادر والوارد: تعبير ديواني وتعني الخارج والداخل أو الرائح والعائد.

(٥) صلاتي وعوايدي: صلة وعائده أي العطايا والعائدات أو صلة الموصول.

وقول بعضهم من التوجيه في قواعد الفقه:

أحجج إلى الزهر لتحظى به
من لم يطف بالزهر في وقفة
وارم جمار الهم مستنفرا
من قبل أن يحلق قد قصرا^(١)

وقول شمس الدين بن العفيف، من التوجيه في قواعد الجدل:

وما بال برهان العذار مسلماً
ويلزمه دور وفيه تسلسل

وقول شمس الدين بن جابر الأندلسي، ناظم البديعية من التوجيه في الحديث:

قلت إني بذاك العلم معروف
على مديح ذاك الخد موقوف^(٢)
مسلسل الدمع من عيني ومرسله
قال أعندك من أهل الهوى خبر

ومن التوجيه في علم العروض قول ابن نصر الله المصري:

وبقلبي من الهموم مديد
لم أكن عالماً بذاك إلى أن
وبسيط ووافر وطويل^(٣)
قطع القلب بالفراق الخليل^(٤)

ومثله قولي، وهو مطلع قصيدة:

في عروض الجفا بحور دموعي
ما أفادت قلبي سوى التقطيع^(٥)

ومن التوجيه في الكتابة قول ابن الساعاتي:

الله يوم في دمشق قطعه
الطير تقرأ والغدير صحيفة
حلف الزمان بمثله لا يغلط
والريح تكتب والسحاب ينقط^(٦)

-
- (١) في هذا البيت إشارة إلى بعض مناسك الحج من الطواف والوقوف بعرفة وتقصير الشعر.
(٢) قوله موقوف: من مصطلحات علم الحديث، والموقوف من الحديث الذي لم يروه إلا راوٍ واحد.
(٣) المديد والبيسط والوافر والطويل هي مصطلحات عروضية من أسماء بحور الشعر.
(٤) الخليل: هو الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب علم العروض.
(٥) العروض: مصطلح يفيد التفعيلة في الشعر - والتقطيع: مصطلح عروضي أيضاً يعني تقسيم البيت الشعري إلى عروض أو تفاعيل.
(٦) ينقط: يضع النقاط على الحروف وفيه تورية بنقط الماء التي تنزل من السحاب.

ولبعضهم، وأجاد، وهو ابن القيسراني:

بوجه معذبي آيات حسن
فنسخة حسنه قرئت وصحت
فقل ما شئت عنه ولا تحاشي^(٦)
وها خط الكمال على الحواشي^(٧)

وقال ابن الوردي:

رأيت فقيراً في المرقعة التي
بخديه ريحان الحواشي محقق
على حسنه دلت وحسن طباعه
إلى الثلث والفضاح تحت رقاعه^(٣)

ومثله قول القرشي الكاتب، وقد طلبه السلطان بسبب خط نقل عنه أنه زور، فاختم في بيته ثلث سنة، وكتب إلى ابن فضل الله يسأله النظر في جاله، في رقعة أولها: يقبل الأرض وينهى، إن له ثلث سنة محقق مختفٍ في حواشي البيت، يخشى توقيعات الرقاع من صاحب الطومار، وسؤال المملوك نسخ هذا الأمر الفضح، بحيث لا يبقى عليه غبار، فإن المملوك وحق المصحف ما يحمل عود ريحان.

ومن التوجيه، في علم الرمل، قول الصاحب بهاء الدين زهير:

تعلمت علم الرمل لما هجرتني
فقالوا طريق قلت يا رب للقا
لعلي أرى شكلاً يدل على الوصل^(٤)
وقالوا اجتماع قلت يا رب للشمل

ومن التوجيه ف علم النجوم، قول بعضهم في كان وكان:

لو سنبله خلف ظهره
ولو ذنب ما يقارن
ناظر إليها المشتري^(٥)
حتى يرى الميزان^(٦)

ومن التوجيه في علم الهندسة:

محيط بأشكال الملاحة وجهه
كأن بها إقليدساً يتحدث^(٧)

(١) تحاشي: تداري.

(٢) الحواشي: جمع مفردة الحاشية وهي من كل شيء طرفه، والحاشية في الكتابة: الهامش.

(٣) الفضح: صيغة مبالغة من فضح وهي المساوية - والرقاع: جمع مفردة رقعة وهي ما يستعمل في الكتابة.

(٤) الرمل: نوع من التنبؤ. وهو عبارة عن كشف أمر مجهول بواسطة الرمل.

(٥) سنبله والمشتري: من الكواكب.

(٦) ذنب: أي مذنب وهو من النجوم والميزان: من أبراج السماء.

(٧) إقليدس: صاحب نظريات في علم الهندسة.

فعارضه خط استواء وخاله به نقطة والشكل شكل مثلث

وقول يوسف الذهبي بن لؤلؤ في توجيه علم الموسيقى:

وبمهجتي المتحملون عشية والركب بين تلازم وعناق (١)
وحداتهم أخذت حجازاً بعدما غنت وراء الركب في عشاق

ومثله قول شمس الدين بن جابر الأندلسي ناظم البديعية:

يا أيها الحادي اسقني كأس السرى نحو الحبيب ومهجتي للساقبي
حي العراق على النوى واحمل إلى أهل الحجاز رائل العشاق

ومن التوجيه اللطيفة قول ابن نباتة، في أسماء منتزهات دمشق:

يا حبذا يوماً بوادي جلق وتنزهي مع ذا الغزال الخالي
من أول الجبهة قد قبلته مرتشفاً لآخر الخلخال

ومن التوجيه الغريب اللطيف قول ابن الوردي، ود كتب إلى بعض المخاديم بسبب
وظيفة القضاء، وأظنه لشيخ الإسلام شرف الدين بن البارزي:

جنبتي وأخي تكاليف القضا وكفيتنا مرضين مختلفين
يا حي عالم عصرنا أحييتنا فلك التصرف في دم الأخوين

وقول بعض المواليا:

لك خد يا حي عالم يا كमित الطرد عليه لو نفس صباره وحر وبرد (٢)
ناداه والعارض النمام حولو فرد ما فاتك الحسن ساعه يا شقيق الورد

وقد تقدم قولني: إن الشيخ شمس الدين بن الصايغ استشهد، في شرحه المسمى
برقم البردة، بشيء من أزجال أهل عصره على بعض أنواع البديع. وتقدمت ترجمة الشيخ
علاء الدين بن مقاتل الحموي، علاء ما أوردت له ما أوردت في أنواع الجناس، ود
ذكرت له، هنا في باب التوجيه، زجلاً موجهاً في خياط أخبرني من أدرك الحاج علاء
المذكور، من أعيان أهل حماة، أن هذا الرجل دخل إلى بلاد المغرب وعاد مخلقاً
بالزعران، ورتبة الشيخ علاء الدين بن مقاتل في هذا الفن مشهورة، شرقاً وغرباً، لم
تحتج فيها إلى الإطناب ف وضعه الزجل، ومطلعه:

(١) التلازم: من مصطلحات علم الموسيقى وهو ما يتكرر في آخر كل مقطع موسيقي (اللازمة).

(٢) صباره: شدة البرد والحر.

بالجمال جملوا
نرقى شكلو الحلو^(١)
طال بحكم القدر
في عيون الإبر
ويقص الخبر
ونسي ايش قلت لو
ولا عن مرسلو
كم قد أخلا جيوب
تخرجه في القلوب
ولا فرج كروب
والذي يسألو
الاستوا فصلو^(٢)
وأوصل الانقطاع
أما باع أو ذراع^(٣)
باطني في النزاع
والانقطاع أوصلوا
واغسلوا وفصلوا
ويرقع كلام
بس تلفيق ملام
تبري والسلام
عند باب منزلو
وايش معو يعملو
لفظ وعقلي قمر
نظمك المبتكر
ذيل الدجى في السحر
حين عليّ اسبلو
بالهلال كللو

نهوى خياط سبحان تبارك من
بالمفصل وآية الكرسي
خاط لي ثوب سقام قصر نسجو
حتى إن البدن لضعفي ضاع
راح عذولي يشكلو شكلو
وجامذ بوح القلب متمزق
ولا فرج لو كرب عن قلبو
ذا الحسيني بلايقة العشاق
ويزرو من العيون كم لو
قلت بصه ثملا لك الجيب زور
خلا سري المكتوم مشهر فيه
جيبو مقلوب وراب على غير
بعد طيب الوصال قطع وصلي
حتى خلى بيني وبين الموت
وترى ظاهري صحيح لكن
وإن هو طول شقة بعادي
جهزوا القطن والكفن والما
جا الفقيه ف جبيي يعدلني
قلت دعني فقيه في تمزيقي
قال حبك لو ظلم سلاري
وسلب إسلامي لما حذرني
وقطع عاتقي وضربني
ذا الخليع الجديد نهار قد قال لي
صف جبيي وشعري من تفصيل
قلت خيط الصباح يستفتح
قال لي قصرت بل هو ستر الله
حباك الزرقا فاتق الخضرا

(١) المفصل: من آيات القرآن الكريم، البين الواضح وضده المجمل.

(٢) راب: من أربى: زائد.

(٣) الباع: مقياس ما بين أطراف اليدين مفتوحتين مع الصدر.

فيها جمع الشتات
رقم ما أحلاه نبات
دم من تقتلو
من جفون تغزلو
ما أنا في ذا القياس
بدر من غير قياس
بالفتوة لباس
بالوصال طولوا
بالوفا ذيلوا^(١)
من بكر صابحو
حين وقف صافحو
بالخجل فاتحو
فرق حين فصلو
وعليه فضلو
ويفصل مليح
ويفتح صحيح
بالسجاف يستريح^(٢)
ويزر رولو
آخرو في أولو

جد ما فيه سخف^(٣)
النعامات أخف
واحذر احذر تخف
يشتها يعملوا
اركبوا وادخلوا

قال فصفي في خدي والعارض
وعليها دار الطراز تنبيت
قال ما هو إلا شرب والحمرة
فيه خلات خيوط زرق لاحت
قلت كف العتاب في ذي الصفة
وانظر في دابره تمنطقها
واكسني ثوب وقار ولبسني
وإن جا تخليصي غرض من يديك
وإن قصر باعي عن صفحات مدحك
جاز في بستان مشهر القمصان
مثل كف المنشور في مكنونه
وقميص الشقيق من اكمامو
وقضيب الخلاف وقف عراه
وأوثق أزراه الورد في كمو
دي الكلام يتخلع ويتفرد
ويفرج ويندرج أصلو
ويبطن من بعد تضريبو
ويعري من حبكه التخريم
أنو يطوى والنشر فيه موزون
ومنه يعرض بذكر أضداده بدمشق:

ذا الزجل قاسيون على الأعدا
وعلى أرباب المعرفة من ريش
للصغير والكبير فقل عني
كم زيادة على على وإن كان
هذا الأبلق والشقرا والميدان

(١) الباع: الهمة.

(٢) السجاف: نوع من القماش يركب على أطراف الثوب (التخريج).

(٣) قاسيون: جبل يشرف على دمشق.

(٤) الأبلق: من الخيل الذي اختلط سواد لونه بالبياض - والشقرا: من الخيول ما بين الأصفر والأحمر

كأنني بمتأملٍ نظر في رسم كتابة هذا الزجل، فأنكره لبعده عن رسم الألفاظ المعربة الخالية من اللحن، ويعذر في ذلك، لأنه ليس له إمام بمصطلح رسمه؛ ومن رسمه على غير هذا الطريق لم ينفذ له مرسوم، فإنه يؤديه إلى خطأ وزنه، وإعراب لحنه. ومصنفه، أبو بكر بن يحيى بن قرمان الوزير، قال في خطبته: وقد جردته من الإعراب، تجريد السيف من القراب. ولم يطلب من الزجل غير عدوية ألفاظه وغرابة معانيه. انتهى.

ومن التوجيه اللطيفة في الطب، ما اتفق أن بعض الملوك خرج لقتال أعدائه، فأيده الله بنصره، فطلب كاتب إنشائه ليكتب على الفور حكاية الحال، فتعذر وجوده في ذلك الوقت، فطلب طبيبه وأمره بالكتابة بسرعة، وكان الطبيب حاذقاً فكتب موجهاً في صناعته: أما بعد فإننا كنا مع العدو في حلقة كدائرة البيمارستان^(١)، حتى لو رميت مبضعاً لم يقع إلا على قيفال^(٢)، ولم يكن إلا كجس نبضة أو نبضتين، حتى لحق العدو بحران عظيم. فهلك بسعادتك يا معتدل المزاج. وكان أبو الحسين الجزار ونصير الدين الحمامي وسراج الدين الوراق لم يخرجوا عن هذا النوع في غالب نظمهم، ويأتي الكلام على ذلك في مواضعه من باب التورية، وأما توجيه أسماء أنواع البديع فهو نسيج وحده، وواسطة عقده. وما ذاك إلا أنه رسم لي بإنشاء توقيع المقر الأخوي الزيني، عبد الرحمن بن الخراط الشافعي، أحد أعيان العصر في الأدب، بكتابة السر بثر طرابلس، وأنا منشاء ديوان الإنشاء الشريف المؤيدي بالديار المصرية، فقصدت التوجيه بالأنواع المذكورة لتحصل الملاءمة ومراعاة النظر بذلك، فإن صاحب التوقيع من المتميزين على كلا الحالين بحسن الأدب، فمن ذلك قولي في فصل التعدي، وبعد فمنهل إنعامنا الشريف قد حلينا لأهل الأدب مورده، لتصير عقود إنشائنا بجواهر مشوره منضده، وتطلع كل براعة باستهلالها في أشرف المطالع، وتسكن النزاهة طباق البديع للمقابلة فيتزده الناظر والسامع، ويقوم الاستخدام بما يجب عليه من واجب الخدمة، ويزيل الاقتباس بنوره عن أهله كل ظلمة، وتجول خيول الاستطراد في رد العجز على صدره، ويحصل لأهل الأدب في زماننا تمكين فيظهر الافتتان في نظمه ونثره، ويصير لفته المذهب الكلامي في أيامنا الشريفة ترشيح ومماثلة ومناسبة، ويبرز في توشيح التسليم من غير اعتراض مناقضة ومواربة، ويجنح العصيان إلى الدخول تحت الطاعة، ويسمع القول بموجبه من غير مراجعة في كل براعة، ويزول التجاهل بالعارف، ويصير التسجيع والمواربة عند إيجازه بالمواقف.

(١) البيمارستان: المستشفى (فارسية معربة).

(٢) القيفال: الوريد الذي في جانب العضد (معربة).

وكان المجلس العالي القضائي عبد الرحمن بن الخراط الشافعي ممن حسن بيانه إيضاح، وللسر عنده حسن إيداع، وللأدب إليه التفات، لأنه بجواهر ترصيعه يشنف الأسماع، وهو الفاضل الذي إذا نظم أزال، بسهولة نظمه، الإبهام والتوهيم، وإذا نثر عقود الإنشاء فلا فرق بين عبد الرحمن وعبد الرحيم، يحسن في المطالعة والأمثلة الشريفة طيه ونشره، وهو من الشعراء فيما يبعد من القصص إذا علا في تفسيرها أمره، فلذلك رسم بالأمر الشريف لا زالت براعة المطلب منظومة في بديع زمانه بإنعامه، ولا برحت أبوابه الشريفة في تصريح وتشريع لوفود أهل الأدب في أيامه، أن يستقر لأنه ممن يحسن به التحبير، ويحصل به الاكتفاء والتميم، ويجمع من نظمه ونثره بين التحميس والترسل، فيحسن الجمع بهذا التقسيم، فليباشر ذلك ويجعل الاستعانة بالله، ليأمن من التنكيت والتعليل، ويصير لشقة الإنشاء بعد النقص تسهيم وتكميل، ويظهر لبرد الكلام بحسن تفصيله تفويف وتوشيع^(١). ولأصول التهذيب والتأديب مبالغة وتفريع، والوصايا كثيرة لا تخفى على الأديب الفاضل، الاحتراس والفرق بين المستوي والمقلوب، وبه يحصل النسق في جمع الفرائد، وتظهر براعة التخلص في عنوان كل مطلوب، لأنه الفاضل الذي إن سكن ثغراً لم يفته شنب التورية بحسن نظامه، أو جاور بحراً فهو أديب والبحور في تصريح أوامره في نقضه وإبرامه، والله تعالى يجعل نظم هذا الثغر بحسن أدبه في بلاغة وانسجام، وكما أحسن له الابتداء يعضده بديع السموات والأرض بحسن الختام.

وقد طال الشرح في نوع التوجيه، ولم يبق للإطالة وجه. وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في هذا النوع:

خلت الفضائل بين الناس ترفعني بالابتداء فكانت أحرف القسم

الشيخ صفي الدين قصد في توجيه بيته بعض قواعد النحو، وهو بيت عامر بالمحاسن. وقد تقدّم ما أوردناه من هذا القسم.

وبيت بديعيتي:

وأسود الخال في نعمان وجتته . لي منذر منه بالتوجيه للعدم

التوجيه، في هذا البيت، من القسم المقدم على التوجيه في قواعد العلوم، وقد تقدم فيه أن يوجه المتكلم كلامه، إلى أسماء متلائمة اصطلاحاً من أسماء الأعلام،

(١) التوشيع: التوشيه وهو أحد مصطلحات علم البديع.

توجيهاً مطابقاً لمعنى اللفظ الثاني من غير اشتراك حقيقه، بخلاف التورية، وقد تقدم ذلك، وتقرر الكلام عليه وعلى التوجيه في قواعد العلوم وبقية الفنون، وعلى كل تقدير، فالكل راجع إلى طريق واحد، والاشتراك هنا في النعمان والمنذر ظاهر، ولكن في النكتة اللطيفة في الأسود، فإن المتأمل ما يتخيل، في أول وهلة، غير سواد الخال وجل القصد في المعنى الآخر، هو الملك الأسود أخو النعمان بن المنذر، وهو أحد ملوك العرب، والتورية ههنا، في التوجيه الذي هو اسم النوع البديعي، لم يفتها من المحاسن وجه، وهذا هو الأفق الذي أقمر فيه الشيخ علاء الدين الوداعي، والقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، وغيرهما، ممن أوردنا على هذا النوع نظمه، وأوصلنا إلى الغرض لما أطلق فيه سهمه، وما أخرت بيت العميان وبيت الشيخ عز الدين، ونثرت نظم الترتيب هنا، إلا لأنهم نسجوا على غير هذا المنوال، وتعوضوا عن مسارح الماء الحلو بالآل^(١). وبيت العميان:

ترى الغني لديهم والفقير وقد عادا سواء فلازم باب قصدهم

هنا بحث لطيف، وهو أن العميان نظموا التوجيه بين التسمية التي تحتمل وجهين من المعنى، على مذهب المتقدمين وهو الإبهام، وقد تقرر أن المتكلم فيه يهيم المعنيين، بحيث لا يترشح أحدهما على الآخر بقريته، واستشهدوا عليه بشاهد الإبهام الذي نزلوه على التوجيه، وهو قول الشاعر في الخياط، وقد تقدم: ليت عينه سواء. فالشاعر أبهم المعنيين، بحيث يتحير السامع والمتأمل ويعجز عن ترجيح أحدهما. ولم أر في بيت العميان غير التسوية، بين الغني والفقير، فإن هؤلاء الممدوحين يعطون الفقير إلى أن يصير مساوياً للغني، وهذا هو المعنى الواحد، وهو أوضح من ضوء الشمس إذا توقدت جمرة المصيف، وأما المعنى الآخر، فما وجدت في بيتهم له قرينة صالحة تدلني عليه، وصاحب البيت أدري بالذي فيه. وقد تقدم أن نوع التوجيه قسمه البديعيون قسمين، وذهب إلى كل منهما فريق.

وبيت الشيخ عز الدين مذذب. ﴿ بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾^(٢) وهو:

نزعت طرفي وسمعي في محاسنه وعنك إن تقصد التوجيه في الكلم

(١) الآل: السراب.

(٢) النساء، ١٤٣/٤.

أصحاب الطريق الذي مشى عليها الشيخ عز الدين، في نظم هذا النوع، قالوا:
التوجيه الاصطلاحي أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى، وهذا هو الفرق بين التورية
والتوجيه، فإن التورية باللفظة الواحدة والتوجيه لا يصح إلا بعدة ألفاظ، والشيخ عز الدين
أتى بكلمة مفردة تحتمل معنيين، فما نظم غير التورية والتوجيه بخلاف ذلك، والكلمة
التي اقتضت اشتراك المعنيين قوله: نزهت، فإنه قال إنه نزه طرفه في محاسن محبوه،
وكأنه التفت إلى العذول وقال له وعنك وهو بيت العميان سافلان خاليان ليس فيهما من
المحاسن ساكن، والله أعلم.



ذكر عتاب المرء نفسه

يا نفس ذوقي عتابي قد دنا أجلي مني ولم تقطعي آمال وصلهم
هذا النوع أعني، عتاب المرء نفسه، لم أجد العتب مرتباً إلا على من أدخله في
البديع وعده من أنواعه وليس بينهما نسبة، والذوق السليم أعدل شاهد على ذلك، ولولا
أن الشروع في المعارضة ملزم ما نظمت حصاه مع جواهر هذه العقود، ونهاية أمره أنه
صفة لحال واقعة ليس تحتها كبير أمر، وهو من أفراد ابن المعتز، ولم يورد فيه غير بيتين
ذكر أن الأسدي أنشدهما عن الجاحظ، وهما:

عصاني قومي في الرشاد الذي به أمرت ومن يعص المجرب يندم
فصبراً بني بكر على الموت إنني أرى عارضاً ينهل بالموت والدم^(١)

قال زكي الدين بن أبي الأصعب، وقوله صحيح: لم أر في هذين البيتين ما يدل
على عتاب المرء نفسه، إلا أن هذا الشاعر لما أمر بالرشاد، وبذل النصيح ولم يطع،
ندم على بذل النصيحة لغير أهلها، ويلزم من ذلك عتابه لنفسه، فتكون دلالة البيتين على
عتابه لنفسه دلالة إلزامية، لا دلالة المطابقة، ولا يصلح أن يكون شاهداً على هذا النوع،
إلا قول شاعر الحماسة:

أقول لنفسي في الخلاء ألومها لك الويل ما هذا التجلد والصبر

انتهى كلام ابن أبي الأصعب، فانظر ما أحلى ما صرح هذا الشاعر بذكر النفس
واللوم لها، وخاطبها بكاف الخطاب، ليتمكن عتبه وتقريعه المؤلم لها.

(١) العارض: السحاب الممطر - ينهل: ينهمر.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي فيه:

أنا المفرط أطلعت العدو على
سري وأودعت نفسي كف مجترم^(١)

الشيخ صفي الدين حكى أنه فرط في اطلاع عدوه على سره، وإيداع نفسه كف مجترم لا غير، وأين هو من قول شاعر الحماسة، وقد قال لنفسه على سبيل العتب والتوبيخ: لك الويل ما هذا التجلد والصبر.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

عبت نفسي إذ أتعبتها بهوى
مجهول سبل بلادها دولاً علم^(٢)

الشيخ عز الدين حكى أيضاً أنه عاتب نفسه، وذكر أنه هو الذي أتبعها وكلفها حمل الهوى، فالعتاب هنا من كل وجه لم يترتب على غيره، وما مقدار هذا النوع حتى إن الشاعر لم يأت به على صيغته، لا سيما ونظام البديعيات قد التزموا أن يأتوا به شاهداً على نوعه. وبيت بديعيتي:

يا نفس ذوقي عتابي قد دنا أجلي
مني ولم تقطعي آمال وصلهم

أقول: إن هذا البيت ينظر إلى بيت شاعر الحماسة في علو طباقه، وإن كان من الفحول التي لها فضيلة السبق، فقد زاحمه في حلبة سباقه، مع أن عروس التسمية يوضع عطرها من أطواق الطروس، ويقول مزكوم الذوق وقد عاد له الشم: لا عطر بعد عروس، وأين هذا النشر الواضح، والرقعة التي ود النسيم لو انتظم معها وانسجم، من عقادة بيت الشيخ عز الدين، وقد أمسى بها مجهولاً بلا هاد ولا علم.



(١) المجترم: المجرم.

(٢) سُبُل: جمع مفردة سبيل وهو الطريق - العَلَم: الراية أو ما يهتدى به.

ذكر القسم

برئت من أدبي والعز من شيمي إن لم أبر بنأي عنهم قسمي
القسم أيضاً حكاية حال واقعة، وليس تحته كبير أمر، ولكن تقرر أن الشروع في
المعارضة ملزم، وهو أن يقصد الشاعر الحلف على شيء، فيحلف بما يكون له مدحاً وما
يكسبه فخراً وما يكون هجاءً لغيره، فمثال الأول، قول مالك بن الأشتر النخعي في معاوية
ابن هند:

بقيت وفري وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافي بوجه عبوس^(١)
إن لم أشن على ابن هند غارة لم تخل يوماً من ذهاب نفوس
فقول ابن الأشتر تضمن المدح لنفسه والفخر الزائد والوعيد للغير، ومثله قول أبي
علي البصير، يعرض بعلي بن الجهم:

أكذبت أحسن ما يظن مؤملي وهدمت ما شادته لي أسلافي
وعدمت عاداتي التي عودتها قدماً من الأسلاف والأخلاف
وغضضت من ناري ليخفي ضوءها وقريت عذراً كاذباً أضيافي^(٢)
إن لم أشن على عليّ خلة تمسي قذى في أعين الأشراف^(٣)

وقد يقسم الشاعر بما يريده الممدوح ويختاره، كقول الشاعر:

إن كان لي أمل سواك أعدّه فكفرت نعمتك التي لا تكفر

(١) الوفري: الغنى.

(٢) غضضت: خفتت - قريت: أطعمت.

(٣) الخلة: بضم الخاء الصداقه.

وأحسن ما سمع في القسم على المدح قول الشاعر:

حفت بمن سوى السماء وشادها
ومن قام في المعقول من غير رؤية
لما خلقت كفاك إلا لأربع
لتقبيل أفواه وإعطاء نائلٍ
ومن مرج البحرين يلتقيان^(١)
فأثبت في إدراك كل عيان
عقائل لم تعقل لهن ثواني^(٢)
وتقليب هندي وحبس عنان

والمقدم في هذا الباب، وهو الذي انتهت إليه نهاية البلاغة، قوله تعالى: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾^(٣) فإنه قسم يوجب الفخر، لتضمنه التمدح بأعظم قدرة وأكمل عظمة حاصلة من ربوبية السماء والأرض، وتحقيق الوعد بالرزق، وحيث أخير سبحانه وتعالى أن الرزق في السماء وأنه رب السماء، يلزم من ذلك قدرته على الرزق الموعود به دون غيره. انتهى الكلام على القسم الذي يراد به الفخر والمدح والتعظيم. وأما ما جاء من القسم في النسيب، فكقول الشاعر:

جنى وتجنى والفؤاد يطيعه
فإن لم يكن عندي كعيني ومسمعي
فلا ذاق من يجني عليه كما يجني
فلا نظرت عيني ولا سمعت أذني

ومما جاء من القسم في الغزل قول ابن المعتز:

لا والذي سل من جفنيه سيف ردى
ما صارمت مقلتي دمعاً ولا وصلت
قدت له من عذاريه حمائله^(٤)
غمضاً ولا سالمت قلبي بلابله^(٥)

الذي وقع عليه الاتفاق أن هذا أحسن ما وقع من القسم في الغزل، إذ القسم والمقسم عليه كل منهما داخل في باب الغزل، ولكن، قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبغ: إن الذي وقع لجميل بن معمر العذري في هذا الباب، ما تحسن العبارة تفصح عن لفظه ووصفه، وهو قوله على لسان محبوبته:

قالت وعيش أبي وأكبر إخوتي
فخرجت خيفة أهلها فتبسمت
لأنبهن الحي إن لم تخرج
فعلمت أن يمينها لم تلجج^(٦)

(١) البيت عبارة عن آيتين من القرآن الكريم مع بعض التغيير - مَرَج: خلط.

(٢) عقائل: مفردا عقيلة وهي الفتاة الكريمة - تعقل: تربط - ثواني: واحدة ثانية مثلها.

(٣) الذاريات، ٥١/٢٣.

(٤) حمائل السيف: مكان تعليقه في الرحل. أو في وسط الفارس.

(٥) صارمت: قاطعت - بلابل القلب: هواجسه والأفكار التي تحركه.

(٦) هذان البيتان يرويان لعمر بن أبي ربيعة وهما بشعره أشبه، والشطر الثاني من البيت الثاني منهما =

ثم قال، أعني ابن أبي الأصبع: رحم الله جميلاً لقد تظرف في هذين البيتين ما شاء، لأنه أتى بهما من باب الهزل الذي يراد به الجد، وأغرب في القسم فيهما، وأدمج في القسم حسن ائتلاف اللفظ مع المعنى، وأتى بما لا يوفيه واصف حقه. انتهى كلام ابن أبي الأصبع.

قلت: وإذا وصلنا في القسم إلى باب الهزل الذي يراد به الجد، فهذب الدين أحمد بن منير الطرابلسي قائد هذا العنان، وفارس هذا الميدان، وما ذاك إلا أنه هاجر إلى مدينة السلام بغداد، والشريف الموسوي نقيب الأشراف بها، وبابه حرم الوافدين، وينابيع الفضل التي هي مناهل الواردين. وكان يقال إن الشريف المشار إليه من كبار الشيعة ببغداد، وعلى هذا أجمع غالب الناس، فجهز إليه ابن منير عند قدومه بغداد هدية مع مملوكه تتر، بل معشوقه الذي اشتهر به في الخافقين غرامه، وأبدع في أوصافه الجميلة نظامه، فقبل الشريف هديته، واستحسن المملوك فأدخله في الهدية، وقصد أن يعرضه عن ذلك بأضعافه، فلما شعر ابن منير بذلك التهبت أحشاؤه على مملوكه بل معشوقه تتر، وكتب إلى الشريف على الفور قصيدة أولها:

عذبت قلبي يا تتر وأطرت نومي بالفكر

ومنها:

بالمشعرين وبالصفاء	والبيت أقسم والحجر ^(١)
وبمن سعى فيه وطأ	ف به ولبي واعتمر
إن الشريف الموسوي	بن الشريف أبي مضر
أبدى الجحود ولم يرد	إلي مملوكي تتر
والنيت آل أمية	الطهر الميامين الفرر
وجحدت بيعة حيدر	ورجعت عنه إلى عمر
وإذا جرى ذكر الصحا	بة بين جمع واشتهر
قلت المقدم شيخ	تيم ثم صاحبه عمر ^(٢)
ما سل قط ظبا على	آل النبي ولا شهر

= يروى كما يلي: فعلمت أن يمينها لم تخرج - والإحراج: المضايقة. لم تلجج: لم تلج في الأمر أو لم تتردد من: تلجج إذا تردد.

(١) الحجر: الحجر الأسود، وهو من المقدسات الإسلامية.

(٢) شيخ تيم: من ألقاب أبي بكر.

كلا ولا صد البتو ل عن التراث ولا زجر^(١)
 وأثابها الحسنى وما شق الكتاب ولا بقر^(٢)
 وبكيت عثمان الشهيد بكاء تسوان الحضير
 وشرحت حسن صلته جنح الظلام المعتكر
 وقرأت من أوراق مصحفه براءة والزمر
 ورثيت طلحة والزبير بكل شعر مبتكر
 وأزور قبرهما وأز جر من لحاني أو زجر^(٣)
 وأقول أم المؤمنين عقوقها إحدى الكبرى^(٤)
 ركبت على جمل لتصبح من بنيتها في زمر
 وأتت لتصلح بين جيوش المسلمين علي غرر
 فأتى أبو حسن وسل حسامه وسطاً وكر
 وأذاق إخوته الردى ويعير أمهم عقر
 ما ضره لو كان كف وعف عنهم إذ قدر
 وأقول إن إمامكم ولى بصفين وفر
 وأقول إن أخطأ معا وية فما أخطأ القدر
 هذا ولم يغدر معا وية ولا عمرو مكر^(٥)
 بطل بسواته يقا تل لا بصارمه الذكر
 وجنيت من ثمر النوا صب ما تتمر واختمر
 وأقول ذنب الخارجين على علي يغتفر
 لا نائر لقتالهم في النهروان ولا أشر
 والأشعري بما يؤ ول إليه أمرهما شعر^(٦)
 قال انصبوا لي منبراً فأنا البريء من الخطر

- (١) البتول: المنقطعة إلى عبادة الله وهو من ألقاب فاطمة الزهراء عليها السلام ابنة النبي .
 (٢) أثابها: كافأها - بقر: العلم توسع فيه ومنه لقب محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب،
 بالباقر: أي المتبحر في العلوم والمتوسع فيها.
 (٣) أزجر: أطرده - لحاني: لامني .
 (٤) الكبرى: الكبائر من الذنوب والمعاصي . وهي التي تدخل النار ولا تغفر .
 (٥) معاوية هو معاوية بن أبي سفيان . وعمرو هو عمرو بن العاص . أحد الحكمين في حرب صفين .
 (٦) الأشعري: هو أبو موسى أحد الحكمين في حرب صفين .

فعلا وقال خلعت صا
 وأقول إن يزيد ما
 ولجيشه بالكف عن
 وحلقت في عشر المحرم
 ونويت صوم نهاره
 ولبست فيه أجل ثو
 وسهرت في طبخ الحبو
 وغدوت مكتحلاً أصا
 ووقفت في وسط الطريق
 وغسلت رجلي ضلة
 وأمين أجهر في الصلا
 وأسن تسنيم القبو
 وإذا جرى ذكر الغدير
 ولبست فيه من الملا
 وسكنت جلق واقتديت بهم
 وأقول مثل مقالهم
 مصطيحتي مكسورة
 نفر يرى برئيسهم
 وخفيفهم مستثقل
 وطباعهم كجبالهم
 ما يدرك التشيب تغـ
 حبكم وأوجز واختصر
 شرب الخمر ولا فجر
 أبناء فاطمة أمر
 ما استطال من الشعر
 وصيام أيام آخر
 ب للملابس يدخر
 ب من العشاء إلى السحر
 فح من لقيت من البشر
 ق أقص شارب من عبر
 ومسحت خفي في السفر
 ة كمن بها قبلي جهراً^(١)
 ر لكل قبر محتفر
 أقول ما صح الخبر^(٢)
 بس ما اضمحل وما دثر
 وإن كانوا بقر^(٣)
 بالفاشرياً قد فشر^(٤)
 وفطيرتي فيها قصر^(٥)
 طيش الظليم إذا نفر^(٦)
 وصواب قولهم هدر
 طبعت وقذت من حجر
 يريد البلابل في السحر

- (١) أمين: هي آمين: اسم فعل أمر بمعنى استجب
- (٢) الغدير: إشارة إلى غدير خم وحديث النبي فيه حيث قال ﷺ: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه كيف دار.
- (٣) جلق: مكان في دمشق، وذلك إشارة إلى أنه سكن مع أهل الشام وصار مثلهم يؤيد معاوية.
- (٤) فشر: لم نعر على معنى لهذه اللفظة في ما بين أيدينا ونظنها عامية بمعنى: لا يمكن له أن يصل إلى هذا الأمر.
- (٥) مصطيحتي وفطيرتي: نوعان من أنواع الخبز الأولى مستطيلة والثانية مثلثة، وتؤدمان بزبدة أو نحوها.
- (٦) الظليم: ذكر النعام ويضرب به المثل في الطيش عند تنفيره.

وأقول في يوم تحا ر له البصيرة والبصر
والصحف ينشر طيها والنار ترمي بالشرر
هذا الشريف أضلني بعد الهداية والنظر
فيقال خذ بيد الشريف فمستقر كما سقر^(١)
لواحة تصطو فما تبقي عليه ولا تذر
والله يغفر للمسيء إذا تنصل واعتذر
فاخش الإله بسوء فعلك واحتذر كل الحذر
وإليكها بدوية رقت لرقتها الحضر
شامية لو شامها قس الفصاحة لافتخر
ودرى وأيقن أنني بحر وألفاظي درر
وبديعتي كبديعة غدراء ترفل في الحبر^(٢)
خبرتها فغدت كزهـر الروض باكـره المطر
وإلى الشريف بعثها لما قراها فانبهر
رد الغلام وما استمر على الجحود ولا أصر
وأثابني وجزيتـه شكراً وقال لقد صبر

أقول إنه يغتفر لي طول الشرح لغرابة أسلوب هذه القصيدة، فإني لم أخرج بها عن القصد، لأنها مبنية على القسم وجوابه من البراعة إلى الختام، وأما هزلها الذي يراد به الجدل فإنه غاية لا تدرك، وطريق ما رأينا لغيره فيها مسلك وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته على هذا النوع، أعني القسم، نسجه على المنوال الأول الذي هو مبني على المدح والفخر والتعظيم وعلو الهمة، وهو قوله:

لا لقبتي المعالي بابن بجدتها يوم الفخار ولا بر التقى قسـمي^(٣)

هذا البيت منسوج على المنوال المذكور، لكن فيه نقص لأنه غير صالح للتجريد، ولم يأت ناظمه بجواب القسم، إلا في بيت الاستعارة الذي ترتب بعده، وهو:

إن لم أحث مطايا العزم مثقلة من القوافي تؤم المجد عن أمم^(٤)

(١) سقر: من أسماء جهنم. وهذا البيت والذي بعده والبيتان اللذان قبله عبارة عن آيات قرآنية تصرف فيها الشاعر.

(٢) الجبر: واحدتها جبرة وهي من الثياب الفضفاض الناصع البياض.

(٣) ابن بجدتها: أي عالمها. والبجدة: من الأمر حقيقته وباطنه.

(٤) أمم: قرب.

وأصحاب البديعيات شرطوا أن يكون كل بيت شاهداً على نوعه بمجرد، وإذا كان البيت له تعلق بما بعده أو بما قبله لا يصلح أن يكون شاهداً على ذلك النوع.

ولقد عجبت للشيخ صفي الدين، كيف فتر عزمه وقصرت همته، عن هذا القدر الذي يتناول إلى إدراكه كل قاصر، وأين هو من قول القائل في طريقته الغرامية التي حركت السواكن، حيث قال:

حرمت الرضا إن كنت خنتك في الهوى وعوقبت بالهجران إن كنت كاذبا
انظر ما أحلى ما أتى بالقسمين وجوابيهما في بيت واحد، مع عدم التعسف والرقعة التي كادت أن تسيل.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي:
برئت من سلفي والشم من هممي إن لم أدن بتقى مبرورة القسم^(١)
بيت الشيخ عز الدين مبني على الفخر والتعاضم وعلو الهمم، وهو صالح للتجريد، بخلاف بيت الشيخ صفي الدين، هذا مع التزام الشيخ عز الدين بتسمية النوع.
وبيت بديعيتي:

برئت من أدبي والعز من شيمي إن لم أبر بنأي عنهم قسمي^(٢)
وهذا البيت مبني على الفخر والتعاضم وعلو الهممة. وفي قولي: والعز من شيمي غاية الفخر، ولكن اللطف الزائد قول الأديب، في القسم: برئت من أدبي، مع التورية التي ترفل في حلال الحشمة، وتسمية النوع والتقفية به لا تخفى على أهل الذوق من أهل الأدب، والله أعلم.



(١) الشم: العالي - أدن: أعتبر نفسي مديناً.

(٢) النأي: البعد.

ذكر حسن التخلص

ومن غدا قسمه التشبيب في غزل حسن التخلص بالمختار من قسمي

حسن التخلص، هو أن يستطرد الشاعر المتمكن، من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه، بتخلص سهل يختلسه اختلاصاً رقيقاً دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني، لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد. ولا يشترط أن يتعين المتخلص منه، بل يجري ذلك في أي معنى كان، فإن الشاعر قد يتخلص من نسيب أو غزل، أو فخر أو وصف روض أو وصف طلل بال أو ربيع خال، أو معنى من المعاني يؤدي إلى مدح أو هجو أو وصف في حرب، أو غير ذلك، ولكن الأحسن أن يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح.

والفرق بين التخلص والاستطراد، أن الاستطراد يشترط فيه الرجوع إلى الكلام الأول، أو قطع الكلام، فيكون المستطرد به آخر كلامه، والأمران معدومان في التخلص، فإنه لا يرجع إلى الأول ولا يقطع الكلام، بل يستمر على ما يتخلص إليه.

وهذا النوع، أعني حسن التخلص، اعتنى به المتأخرون دون العرب ومن جرى مجراهم من المخضرمين، ولكنه لم يفتهم، فإنهم أوردوا لزهير في هذا الباب قوله:

إن البخيل ملوم حيث كان ولــــكن الكريم على علاته هرم^(١)

أنظر إلى هذا العربي القديم، كيف أحسن التخلص من غير اعتناء، في بيت

(١) هرم: هو هرم بن سنان وقد سبقت الإشارة إلى هذا البيت.

واحد، وهذا هو الغاية القصوى عند المتأخرين الذين اعتنوا به. وعلى كل تقدير فمن كلام العرب استنبط كل فن، فإنهم ولاة هذا الشأن، لكنهم كانوا يؤثرون عدم التكلف، ولا يرتكبون من فنون البديع إلا ما خلا من التعسف. فمن ذلك قول الفرزدق، وأجاد إلى الغاية:

وركب كأن الريح تطلب عندهم
سروا يخبطون الليل وهي تلفهم
إذا آنسوا ناراً يقولون ليها
إلى شعب الأكوار من كل جانب^(٢)
وقد حضرت أيديهم نار غالب^(١)

ومثله قول أبي نواس:

تقول التي من بيتها خف محملي
أما دون مصر للغنى متطلب
فقلت لها واستعجلتها بوادر
دعيني أكثر حاسديك برحلة
يعز علينا أن نراك تسيير
بلى إن أسباب الغنى لكثير
جرت فجرى في إثرهن عبير^(٣)
إلى بلد فيه الخصيب أمير

ومثله في الحسن قوله:

وإذا جلست إلى المدام وشربها
وإذا نزعت عن الغواية فليكن
وإذا أردت مديح قوم لم تمن
فاجعل حديثك كله في الكاس^(٤)
لله ذاك النزاع لا للناس
في مدحهم فادمح بني العباس^(٥)

أقول: إن هذه الطريق التي مشى عليها أبو نواس ومن تقدمه من المتقدمين، ممن أوردت نظمه في هذا الباب، وهي حسن التخلص بيت واحد باستطراد رشيق، يتقل الشاعر به من الشطر الأول إلى الشطر الثاني، فأتت فحولاً من الشعراء كالبحتري وأبي تمام في غالب القصائد، على أنهما المقدمان في هذا الشأن.

وقد تقرر أن حسن التخلص ما كان في بيت واحد، يثب الشاعر من شطره الأول إلى الثاني وثبة تدل على رشاقته وقوته وتمكنه في هذا الفن. وإذا لم يكن التخلص

(١) الترة: الثأر.

(٢) يخبطون: يسيرون على غير هدى - الأكوار: جمع مفردة الكورة وهي الناحية والمكان.

(٣) البوادر: أوائل الدموع.

(٤) الشرب: الذين يشربون الخمر.

(٥) مان: يمين والأمر من، والمصدر المين وهو الكذب والنفاق.

كذلك سمي اقتضاباً، وهو أن ينتقل الشاعر من معنى إلى معنى آخر من غير تعلق بينهما، كأنه استهل كلاماً آخر. وعلى هذه الطريقة مشى غالب العرب، وغالب المخضرمين وكثير من شعراء المولدين، فمن ذلك قول البحترى في قصيد، وقد جرى في ميادين غزلها إلى أن قال من غير ارتباط:

وردنا إلى الفتح بن خاقان إنه أعم ندى فيكم وأيسر مطلباً

وهذه النبذة التي أبرزتها هنا، من نظم المتقدمين في حسن التخلص، عزيزة الوجود، فإنها ما تيسرت إلا بعد بذل الجهد في جمعها. وهذا النوع البديع ما اعتنى به غير حذاق المتأخرين، وما نسجوه جميعه إلا على المنوال المذكور. ولعمري إنها طريقة بديعة، ونوع من السحر يدل على رسوخ القدم في البلاغة، وتمكن الذهن من البراعة، وإن لم يكن كذلك لم يعد من أنواع البديع. والقرائح تختلف فيه وتتفاوت، وقد عن لي أن أنبه على قبح المخالض التي لا تعد، من أنواع البديع، لينفتح ذهن المبتدئ في هذا الفن، فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي، وإن كانت له المخالض الفائقة:

غدا بك كل خلو مستهماً وأصبح كل مستور خليعاً
أحبك أو يقولوا جر نمل ثبيراً وابن إبراهيم ريعاً^(١)

أنظر ما أبرد هذا المخلص وأشد تعسفه، ومعناه أنه علق انقضاء حبها على غير ممكن، وهو أن يجر النمل الجبل المسمى ثبيراً وأن يخاف ممدوحه، فجعل خوف الممدوح نظير جر النمل لثبير؛ ليقدر أن كلاً منهما من المستحيلات، ومن تخاليفه القبيحة أيضاً قوله:

عل الأمير يرى ذلي فيشفع لي إلى التي تركتني في الهوى مثلاً

وسبب قبح هذا المخلص، كونه جعل ممدوحه ساعياً بينه وبين محبوبته في الوصال، ولا خفاء في دنو هذه المرتبة، وقد سبقه أبو نواس إلى ذلك، ولكنه أقل شناعة، مع أن الكل قبيح، حيث قال:

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هواك لعل الفضل يجمع بيننا

وقد سبقهما إلى ذلك قيس بن ذريح، حين طلق لبنى وتزوجت غيره فندم على ذلك وشبب بها في كل معنى، فرحمه ابن أبي عتيق، فسعى في طلاقها من زوجها، وأعادها إلى قيس، فقال يمدحه:

(١) ريعاً: من الروع وهو الخوف.

جزى الرحمن أفضل ما يجازي
فقد جربت إخواني جميعاً
سعى في جمع شملي بعد صدع
وأطفأ لوعة كانت بقلبي
على الإحسان خيراً من صديق
فما ألفيت كاسن أبي عتيق
ورأي حدث فيه عن الطريق
أغصتني حرارتها برريقي

فلما سمعها ابن أبي عتيق قال لقيس: يا حبيبي أمسك عن هذا المدح فما يسمعه
أحد إلا ظنني قواد.

ومن المخالص التي استحسناها للبحثري قوله:

رباع تردت بالرياض مجودة
إذا راوحتها مزنة بكرت لها
كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت
بكل جديد الماء عذب الموارد
شأبيب مجتاز عليها وقاصد^(١)
عليها بتلك البارقات الرواعد

ومن المخالص المستحسنة، لأبي تمام، قوله من قصيدة:

ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت
لا والذي هو عالم أن النوى
نفسى على إلف سواك تحوم
مر وأن أبا الحسين كريم^(٢)

هذا المخلص مقدم على مخالص البحثري من وجوه: أحدها، التخلص من
النسيب إلى المدح، والثاني حسن الانسجام، والثالث، وهو جل القصد، الوثبة في بيت
التخلص من الشطر الأول إلى الشطر الثاني بأسرع اختلاس. وهذا الذي عقد المتأخرون
الخصائص عليه، وصار لهم فيه اليد الطولى، ومثله قوله من قصيدة:

فالأرض معروف السماء قرى لها
ومن مخالص أبي الطيب الفائقة، قوله من قصيدة يمدح بها أبا أيوب، أحمد بن
عمران بن ماهويه، مطلعها:

سرب محاسنه حرمت ذواتها
داني الصفات بعيد موصوفاتها

معنى هذا المطلع في غاية الحسن والغرابة، فإنه يقول هذا سرب حيل بيني وبين
كل حسناء منه، وهذه الحسناء صفاتها دائية عند ذكرها بالقول، ولكن ذاتها الموصوفة
بعيدة، ولم يزل في غرابة هذا الأسلوب إلى أن قال متحمساً:

(١) الشأبيب: جمع مفردة شؤبوب وهو الدفعة من المطر الشديد.

(٢) النوى: الغربة، والبعده.

ومطالب فيها الهلاك أتيتها ثبت الجنان كأنني لم آتها
أقبلنها غرر الجياد كأنما أيدي بني عمران في جبهاتها

أقول: سبحان المانح هذا هو السحر الحلال، والشرب الذي أمتت المشارب
لصافية عنده كالآل. ومثله في الغرابة التي هي من معجزات المتنبى، قوله من قصيدة
مدح بها علي بن عامر، ويعرض بذكر أبيه عامر ومدحه بعد وفاته، مطلعها:

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعني الصبر
وما أحلى ما قال بعده:

وأعجب من ذا كل يوم سلامتي وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر
ولم يزل ينفث بصدق عزائمه، في هذا السحر الذي سحر به العقول، وخب
القلوب، إلى أن قال:

ويوم وصلناه بليل كأنما على أفقه من برقه حلل حمر
وليل وصلناه بيوم كأنما على متنه من دجنه حلل خضر^(١)
وغيث ظننا تحته أن عامراً علا لم يمت أو في السحاب له قبر

ومثله قوله، من قصيدة دالية يمدح بها سيف الدولة بن حمدان مطلعها:

عواذل ذات الخال في حواسد وإن ضجيع الخود مني لماجد^(٢)
وما ألطف ما قال بعده:

يردّ يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

ولما انتظم له هذا الدرّ في هذه الأسلاك البديعية قال:

خليليّ إني لا أرى غير شاعر فكم منهم الدعوى ومني القصائد
فلا تعجبا أن السيوف كثيرة ولكن سيف الدولة اليوم واحد

ومن مخالص أبي العلاء أحمد بن سليمان، على طريق المديح، فإنه لم يكن من
طلاب الرشد، قوله من قصيد:

ولو أن المطي لها عقول وحقك لم نشدّ لها عقالا

(١) دجنه: ظلّمته الشديدة.

(٢) الخود: المرأة الشابة.

مواصلة بها رحلي كأنني من الدنيا أريد بها انتقالا
سألن فقلن مقصدنا سعيد فكان اسم الأمير لهن فالاً^(١)

هذا المخلص أيضاً من العجائب، فإن الشيخ أبا العلاء سبكه في قالب التورية والاتفاق البديع، وكان اسم الأمير في فالهم سعيداً، والعرب ما برحوا يتفاءلون بالاسم الحسن ويتطيرون من ضده، ومما استحسّن لابن حجاج من المخالص قوله:

ألا يا ماء دجلة لست تدري بأني حاسد لك طول عمري
ولو أني استطعت سَكْرْتُ سِكْرًا عليك فلم تكن يا ماء تجري
فقال الماء قل لي كل هذا بم استوجبتَه يا ليت شعري
فقلت له لأنك كل يوم تمر على أبي الفضل بن بشر
تراه ولا أراه. وذاك شيء يضيق عن احتمالك فيه صبري

قال صاحب المثل السائر، حين أورد هذه الأبيات: ما علمت معنى في هذا المقصد أبدع ولا أعذب ولا أرق ولا أحلى من معنى هذا اللفظ، ويكفي ابن حجاج من الفضيلة أن يكون له مثل هذه الأبيات. قلت: ولعمري إن المخلص والأبيات بكمالها، دون إطناب ابن الأثير في الوصف. ولكن قال زكي الدين بن أبي الأصعب، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» لما انتهى إلى هذا النوع، أعني حسن التخلص: إذا وصلت إلى ابن حجاج في هذا الباب فإنك تصل إلى ما لا تدركه الألباب، فمن ذلك قوله على طريقته المعهودة منه:

وقد بادلتها فمبالها لي بمشورة استها ولها قذالي^(٢)
كما لابن العميد جميع مدحي ودينا ابن العميد جميعها لي

ومن المخالص الفائقة قول الأستاذ أبي الحسن مهيار بن مرزويه الكاتب، من قصيدة بائية يمدح بها الأمير سيف الدولة ابن مزيد مطلعها:

هب من زمانك بعض الجد للعب واهجر إلى راحة شيئاً من التعب

ولم يزل ماشياً على هذا السنن إلى أن قال:

تسعى السقاة علينا بين منتظر بلوغ كأس ووثاب بمستلب
كأنما قولنا للبابلي أدِر سلافة قولنا للمزيدي هب

(١) فالاً: أي يتفاءلون به.

(٢) المبال: مكان خروج البول - الإست: مكان خروج فضلات الطعام من الجسم، والأديب الحق يربأ بنفسه ويكتبه، عن ذكر فاحش القول...

ومثله قوله من قصيدة حائية، يمدح بها الأستاذ أبا طالب بن أيوب:

يا من ثنياه التي غولطت عنها بالأقاحي
غلط المقاييس بـابن أيوب السحابة في السماح

ويعجبني من مخالفه قوله، من قصيدة رائية يمدح بها فخر الملك ولم يزل يرفل في حلق غزلها ونسيها إلى أن قال:

أرى كبدي وقد بردت قليلاً أمات الهم أم عاش السرور
أم الأيام خافتني لأنني بفخر الملك منها أستجير
ومما يعجبني، أيضاً إلى الغاية، قوله، من قصيدة عينية يمدح بها الوزير عميد الدولة مطلعها:

لو كان يرفق ظاعن بمشيح رُدوا فؤادي يوم كاظمة معي

ولم يزل يطلق العنان في هذه الحلبة إلى أن سبق إلى غاية قال فيها:

إن شاء بعدهم الحيا فلينسكب أو شاء ظل غمامه فليقلع
فمقيل جسمي في ذبول ربوعهم كاف وشربي من فواضل أدمعي
كرمت جفوني في الديار فأخصبت فغنيت أن أرد المياه وارتعي
فكأن دمعي مدّ من أيدي بني عبد الرحيم ومائها المستنبع

وما أحلى ما قال بعده، وهو مخلص آخر:

وكان ليلى من تفاوت طوله أسيافهم موصولة بالأدرع

ولم أكثر من محاسن مهيار هنا إلا لعلمي بغرابة شعره، وعزة وجود ديوانه.

ومن المخالصة التي تصلح أن تكون واسطة في هذا العقد، قول أئفقه الشعراء، وأشعر الفقهاء، كما قال: وهو القاضي أبو بكر أحمد الأرجاني، من قصيدة يمدح بها ولي الدين الكاتب مطلعها:

وعدت باستراقة للقاء وبإهداء زورة في خفاء^(١)

وما أحلى ما قال بعده:

ثم غارت من أن يماشها الظل فسارت في ليلة ظلماء

(١) الزورة: الزيارة.

ثم خافت لما رأت أنجم الليلى شبيهات أعين الرقباء
فاستنابت طيفاً يلم ومن يملك عيناً تهم بالإغفاء^(١)
هكذا نيلها إذا نولتنا وعناء تسمح البخلاء
يهدم الانتهاء باليأس منها ما بناه الرجاء بالابتداء

ولم يزل راتعاً في هذه الحدائق الغضة إلى أن قال:

تركتني معنياً لمغانٍ وأعادت أعادياً أصدقائي
رنقت مشربي وقد كان عين الشمس والماء دونه في الصفاء^(٢)
بعد عهدي بعيشتي وهي خضرا تتشنى كالبنانة الغناء
وأموري كأنها ألفات خطهن الولي في الاستواء

ومن جواهر مخالفه المنتظمة في هذا السلك قوله، من قصيدة رائية يمدح بها
سديد الدولة محمد بن عبد الكريم الأنباري، مترسل الخلافة وكتاب إنشائها، مطلعها:

سلا رسوماً أقامت بعدما ساروا أعندها من أهيل الحي أخبار^(٣)
وروحاً عاتقي من حملها منناً لل سحب فيها وللأجفان أستار^(٤)

ولم يزل مبدراً^(٥) في هذا الأفق النير إلى أن قال:

أقسمت ما كل هذا الضيم محتمل ولا فؤادي على ما شمت صبار
إلا لأنك مني اليوم نازلة في القلب حيث سديد الدولة الجار

ومن مخالفه الصافية التي مازجها بسلاف التورية قوله، من قصيدة بائية يمدح بها
شهاب الدين أحمد بن أسعد الطغرائي، مطلعها:

إذا لم يخن صب فقيم عتاب وإن لم يكن ذنب فمم متاب

وما أطف ما قال بعده:

أجل ما لنا إلا هواهم جناية. فهل عندهم غير الصدود عقاب.

(١) ألم الطيف: مرّ بسرعة.

(٢) رنقت مشربي: عكّرتة وخلطت ماءه بالتراب.

(٣) الرسوم: الأطلال والبقايا - أهيل: تصغير أهل للتحجب.

(٤) رَوْح: أراح.

(٥) مبدراً: أي مشرقاً كالبدر.

ولم يزل سائراً في سهولة هذه الجادة إلى أن قال:

فلا تكثرن شكوى الزمان فإنما لكل ملم جيئة وذهاب^(١)
وقد كان ليل الفضل في الدهر داجياً إلى أن بدا للناظرين شهاب

والأرجاني أيضاً نظمه غريب في هذه البلاد، فلذلك أوردت منه هنا هذه النبذة اللطيفة، والله أعلم.

وقد آن لي أن أقدم مقدمات النتائج، من أشعار المتأخرين في هذا النوع، فإنهم رياحين حدائقه، وأقمار مشارقه، فالمقدم هنا قاضيهم الفاضل الذي ارتفع الخلاف بقضائه، ونفذ حكمه بالموجب على ملوك هذه الصناعة، وتقدم باستيفاء شرائط التقديم، فصلى خلف إمامته الجماعة. فمن مخالصة الفاضلية، قوله من قصيدة يمدح بها خليفة الفاطميين في ذلك العصر، مطلعها:

ترى لحنيني أو حنين الحمائم
جرت فحككت دمعي دموع الغمام
وما أحلى ما قال بعده:

وهل من ضلوع أو ربوع ترحلوا
دعوا نفس المقروح تحمله الصبا
تأخرت في حمل السلام عليكم
فلا تسمعوا إلا حديثاً لناظري
فإن فؤادي بعدكم قد فطمته
فكل أراها دارسات المعالم^(٢)
وإن كان يهفو بالغصون النواعم
لديها لما قد حملت من سمائم^(٣)
يعاذ بالفاظ الدموع السواجم^(٤)
عن الشعر إلا مدحة لابن فاطم

ومثله قول العلامة الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماة، من قصيدة دالية يمدح بها النبي ﷺ، مطلعها:

ويلاه من نومي المشرد
وآه من شملي المبدد

ولم يزل يدير على خصور هذه الألفاظ الرقيقة، وشاحات معانيه البديعية، إلى أن قال:

أكسبني نشوة بطرف
سكرت من خمرة فعربد^(٥)

(١) ملم: مار.

(٢) دارسات المعالم: أي لا أثر فيها يعلم بإقامتهم.

(٣) السمائم: جمع مفردة سموم وهي الريح الحارة التي تهب عادة من جهة الجنوب.

(٤) السواجم: جمع مفردة ساجم وهو الدائم الإنصباب.

(٥) النشوة: قمة اللذة - العريضة: السكر الشديد المصحوب بالتيه.

غصن نفا حل عقد صبري بليخ خصر يكاد يعقد

فمن رأى ذلك الوشاح الصا ثم صلى على محمد

ومثله قوله من قصيدة يمدح بها الملك الناصر صلاح الدين يوسف، مطلعها:

لنا من ربة الخالين جاره تعاملني بما يحلى سلوى
تواصل تارة وتصد تاره ولكن ليس في جوفي مراره

ولم تزل أعين هذا الغزل الرقيق تغازله إلى أن قال:

وقالوا قد خسرت الروح فيها فأيسر نظرة أسرت فؤادي
فقلت الربح في تلك الخساره ويفتك طرفها فيقول قلبي
كما نشأ اللهب من الشراره أشن ترى صلاح الدين غاره

ومثله قوله من قصيدة يمدح بها الملك الأمجد:

ظبية حكم ظبا مقلتها كنت في ترك الهوى مجتهداً
عزة الطبي وذل الأسد^(١) كملت حسناً فلولا بخلها
وهي كانت زلة المجتهد خلتها بعض خلال الأمجد

ومن المخالض التي نقلتها من ناصح بن قلاص قوله، من قصيدة يمدح بها أبا المنصور نور الدين محموداً عين الأمراء بالديار المصرية:

ماذا على العيس لو عادت بربتها رد الركاب لأمر عن في خلدي
بقدر ما نتقاضاها المواعيد^(٢) وقف أبشك ما لان الحديد له
وسمه في بديع الحب ترديدا حلت عرا النوم. عن أجفان ساهرة
فإن صدقت فقل هل أبت داوودا^(٣) تفجرت وعصا الجوزاء تضربها
رد الهوى هذبها بالنجم معقودا فاذاكرتني موسى والجلاميدا

وما أحلى ما قال بعده كناية عن طول الليل:

يا ثعلب الصبح يا سرحان أوله كل الثريا فقد صادفت عنقودا^(٤)

(١) الظبا: للسيف حده وشفرته مفردا ظبة.

(٢) العيس: الجمال مفردا أعيس.

(٣) آب: عاد ورجع. داوود: هو النبي داوود عليه السلام واليه تنسب صناعة الدروع الداوودية الحديدية. كما ورد في القرآن الكريم قوله جل وعلا: ﴿... وألناه الحديد﴾ أن إعمل سابغات وقدر في السرد سبأ، ٣٤/١٠ و ١١.

(٤) السرحان: الذئب.

ولم يزل ينثر هذه العقود الثمينة، مع تفخيم هذا النظم، إلى أن قال:

ما لي وما للقوافي لا أسيرها إلا واقعد محروماً ومحسوداً
أسكرتهم بكؤوس الراح مترعة ولم أنل منهم إلا العرايبدا^(١)
سمعت بالجدود مفقوداً فهل أحد يقول إني وجدت الجود موجوداً
الحمد لله لا والله ما نظرت عيناى بعد أبي المنصور محموداً

هذا المخلص حلاه نصر الله بن قلاقس، مع زيادة حسنة، بشعار التورية. ومثله قوله من قصيدة يمدح بها الشيخ سديد الدين المعروف بالحصري مطلعها:

أروه الجلنار من الخدود وأخفوا عنه رمان النهود^(٢)
وقال بعده:

وحلوا مقلتيه بدرّ دمع تبسم في المخانق والبرود^(٣)
وما غرسوا نخيل العيس إلا وهم فيها من الطلع النضيد^(٤)
سقى مصراً وساكنها ملث طليل البرق صخاب الرعود
موارد بي لها ظمأ شديد ولكن لا سبيل إلى الورود
هل الرأي السديد البعد عنها نعم إن كان للشيخ السديد

ويعجبنى من مخالص القاضي السعيد هبة الله بن سنا الملك قوله، من قصيدة يمدح بها القاضي الفاضل، أتى فيها بحسن التخلص، ولم يخلص من إشراك عيون الغزل، لغرابة أسلوبها:

ضنت بطرف ظل بعدي سقمه أرأيتم من ضن حتى بالضنى
يا عاذلين جهلتم فضل الهوى وعدلتم فيه ولكني أنا
إني رأيت الشمس ثم رأيتها ماذا عليّ إذا هويت الأحسنا
وسألت من أي المعادن ثغرها فوجدت من عبد الرحيم المعدنا

وما أحلى ما قال بعد المخلص:

أبصرت جوهر ثغرها وكلامه فعلمت حقاً أن هذا من هنا

(١) مترعة: مليئة - العرايب: المجون والتهتك: مفردها عريضة.

(٢) الجلنار: زهر الرمان - النهود: جمع مفرده نهد وهو الثدي إذا نهد وارتفع في الصدر.

(٣) المخانق: جمع مفرده المخنقة. وهي القلادة - البرود: مفرده بُرد: وهو الثوب الفضفاض والموشى.

(٤) الطلع: من النخل شيء يطلع كأنه نعلان والحَمْلُ بينهما منضود - نضيد: منضود، مصفوف.

ومثله قوله من قصيدة يمدح بها الملك المعظم مطلعها:

تقنعت لكن بالحبيب المعمم
وفارقت لكن كل عيش مذمم^(١)
وما أحلى ما قال بعده:

وباتت يدي في طاعة الحب والهوى
وشاحاً لخصر أو وساداً لمعصم
وما أبدع ما قال منها:

سعدت بيدر خدّه برج عقرب
وأقسم ما وجه الصباح إذا بدا
ولا سيما لما مررت بمنزل
وما بان لي إلا بعود أراكة
فكذب عندي قول كل منجم^(٢)
بأوضح مني حجة عند لومي
كفضلة صبر في فؤاد متيم
تعلق في أطرافه ضوء مبسم

سبحان المانح! والله لقد أحرز القاضي السعيد قصبات السبق بركة هذه الألفاظ
وغرابة هذه المعاني، ولقد خلب القلوب وجلا ظلمة الأفهام، بقوله:

وما بان لي إلا بعود أراكة
تعلق في أطرافه ضوء مبسم
وأظنه من المخترعات، والله أعلم، وما أحلى ما قال بعده:

وقفت به أعتاض عن لثم مبسم
ولم ير طرفي قط شمالاً مبدداً
ولم يسلم قلبي أو فمي عن غزاة
شهي لقلبي لثم آثار منسم^(٣)
يقابله إلا بدمعٍ منظم
وعن غزل إلا بمدح المعظم

ومن المخالص البديعة قول صاحب بهاء الدين زهير من قصيدة يمدح بها الأمير
نصير الدين اللمطي، مطلعها:

لها خفر يوم اللقاء خفيها
وما ألطف ما قال بعده:
أء...تها أن لا يعاد مريضها
وسيرتها أن لا يفك أسيرها^(٥)
فما بالها ضنت بما لا يضيرها^(٤)

(١) المعمم: السيد الذي يقلده القوم أمرهم ويلجأون إليه - مذمم: مذموم لشظفه وقساوته.

(٢) برج العقرب: من الكواكب.

(٣) المنسم: خف البعير.

(٤) الخفر: الحياء - الخفير: الحارس - ضنت: بخلت.

(٥) عاد المريض: زاره.

ولم يزل هائماً في طريقه الغرامية، إلى أن قال:

وها أنا ذا كالطيف فيها صباية لعلي اذا نامت بليل أزورها
هذا المعنى قلبه الصاحب بهاء الدين زهير على من تقدمه فيه، وسبكه في أغرب
القبالب البديعية، وأظنه من مخترعاته. ثم قال بعده:

من الغيد لم توقد مع الليل نارها ولكنها بين الضلوع تثيرها
تقاضي غريم الشوق مني حشاشة مروعة لم يبق إلا يسيرها
وإن الذي أبقته منها يد الهوى فداء يشير يوم وافى نصيرها
هذا المخلص استعبد الصاحب بهاء الدين زهيراً رقيق ألفاظه، بحشمة توريته.
ومثله في الحسن قوله من قصيدة يمدح بها الملك الناصر صلاح الدين بن العزيز مطلعها:

عرف الحبيب مكانه فتدللا وقنعت منه بموعد فتعللا
وما أظرف ما قال بعده:

وأرى الرسول ولم أجد في وجهه بشراً كما قد كنت أعهد أولاً
ولم يزل يدير كاسات صبابات الغرامية إلى أن قال:

آهاً لقلب ما خلا من لوعة أبداً يحن إلى زمان قد خلا
ورسوم جسم كاد يحرقه الهوى لو لم تبادره الدموع لأشعلا
ولقد كتمت حديثه وحفظته فوجدت دمعي قد رواه مسلسلاً^(١)
أهوى التذلل في الغرام وإنما يأبى صلاح الدين أن أتذللا
وما أحلى ما قال بعد المخلص:

مهدت بالغزل الرقيق لمدحه وأردت قبل الفرض أن أتفلا^(٢)
ويعجبني أيضاً من مخالص القاضي كمال الدين بن نبيه قوله من قصيدة يمدح بها
الخليفة الناصر لدين الله مطلعها:

باكر صبوحك أهني العيش باكره فقد ترنم فوق الأيك طائره^(٣)

(١) رواه: حكاة. أو من الري والسقاية.

(٢) أتفل: أصلي النوافل وهي من الصلاة غير الواجبة.

(٣) الأيك: واحده أبكة وهي الشجر الكثير الملتف.

ثم قال بعده:

والليل تجري الدراري في مجرته
وكوكب الصبح نجاب على يده
كالروض تطفو على نهر أزهرة^(١)
مخلق تملأ الدنيا بشائره^(٢)

ولم يزل يتلاعب بهذه المعاني المخترعة إلى أن قال:

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما
فالعمر كالكأس تستحلي أوائله
وأجسر على فرص اللذات محتقراً
فليس يخذل في يوم الحساب فتى
وأنت ناه لهذا الدهر أمره
لكنه ريمامجت أواخره^(٣)
عظيم ذنبك إن الله غافره
والناصر ابن رسول الله ناصره

ويعجبني من مخالصة الموسويات قوله، من قصيدة مطلعها:

يا نار أشواقي لا تخمدي
لعل ضيف الطيف أن يهتدي

ولم يزل راتعاً في رياض غزلها إلى أن قال:

غازلنا من نرجس ذابل
وقام يلوي صدغه قائلاً
فقلت يا الله مات الوفا
وافتر عن نور أقاح ندي^(٤)
لا تغترر بي فكذا موعدي
فقال موسى لم يمت خذ يدي

وقوله من المخالصة الأشرفيات الموسويات، في بيت المخلص الذي يستغني
بتمكنه وقوته عن ذكر ما قبله:

يا طالب الرزق إن سدت مذاهبه
قل يا أبا الفتح يا موسى وقد فتحت

ومن مخالصة الأشرفيات أيضاً قوله من قصيدة:

بتنا وقد لف العناق جسومنا
حتى بدا فلق الصباح كجحفل
في بردتين تكرم وتعفف
راياته رنك المليك الأشرف^(٥)

(١) المجرة: مجموعة كبيرة من النجوم تبدو كالوشاح في عرض السماء.

(٢) نجاب: صيغة مبالغة من نجب: وهو الذي يلد النجباء وهم الأخيار - المخلوق: المعروف المميز.

(٣) مَجَّ: عاف.

(٤) افتر: كشف عن أسنانه عند التيسم - أقاح: جمع مفردة أحوانة، وهي أزهار مفلجة بيضاء ناصعة.

(٥) الجحفل: الجيش العظيم الكثير - الرنك: شعار الملوك والأمراء الأتراك والمماليك.

ويعجبني من مخالصة الأشرفيات، أيضاً، قوله من قصيدة:

يذود شبا القنا عن وجنتيها
إذا ما رمت أقطفه بعيني
كمنع الشوك للورد الجني
لسان السيف من أدنى وُشاتي
يقول حذار من مرعى وبي (١)
وَمَنْ رَقْبَايَ طَرْفِ السَّمْهَرِيِّ (٢)
فعال المشرفي الأشرفي (٣)
كَأَنَّ لَجْفَنَهَا فِي كُلِّ قَلْبٍ

ويعجبني من مخالص الشاب الظريف، شمس الدين محمد بن العفيف، قوله من قصيدة يمدح بها القاضي فتح الدين بن عبد الله الظاهر، تحمس في غزلها وتغزل في تحمسها إلى المخلص، مطلعها:

أرح يمينك مما أنت معتقل
وما أحلى ما قال بعده:

يا من يريني المنايا واسمها نظر
ما بال الحاظك المرضي تحاريني
من دونها كتب من دونها حرس
ومعشر لم تزل في الحرب تبصرهم
كأنما كل لحظ فارس بطل
يشني حديث الوغى أعطافهم طرباً
من دونها قضب من دونها أسل (٤)
من شأنها الخجل
من كل ذي طرة سوداء يلبسها
ضاءت بحسنهم تلك الخيام كما
ضاءت بوجه ابن عبد الظاهر الدول
ضاءت بوجه ابن عبد الظاهر الدول
كأن ذكر المنايا بينهم غزل (٥)
وشبيها من غبار النقع متصل (٦)

وطالعت تقطيف الجزائر فأعجبني منه مخلص قصيدة يمدح بها الأمير جمال الدين، موسى بن يغمور، مطلعها:

نقلت لقلبي ما بجفنيك من كسر
وعلمت جسمي بالضنى رقة الخصر

(١) وبي: أي وبيد، ومرعى وبي أي سيء العاقبة.

(٢) وُشاة: مفردا واش، وهو الذي ينقل الأخبار - رقبائي: أي رقبائي، مفردا رقيب وهو المراقب - السمهري: الرمح المنسوب إلى سمهر وهو من أصلب الرماح.

(٣) المشرفي: السيف القاطع.

(٤) الأسل: الرماح.

(٥) الوغى: الحرب.

(٦) الطرة: الثوب المكفف - النقع: غبار المعارك - المنصل: المغطى.

ولم يزل الجزار يتقطف ما تشتهييه النفس، من هذا النوع، إلى أن قال:

وهيفاء تحكي الظبي جيداً ومقلّة
جسرت على لثم الشقيق بخدّها
ولست أخاف السحر من لحظاتها
لأنني بموسى قد أمنت من السحر

وما أحلى ما قال بعد تخلصه بموسى:

فتى إن سطا فرعون فقر وجدته
له باليد البيضاء أعظم آية
يغرقه من جود كفيه في بحر
إذا اسودت الأيام من نوب الدهر

ومن مخالص الشيخ جمال الدين بن نباتة، التي هي أوقع في القلوب من خالص الوداد، وتوريتها أنفس من خلاصة العقود في الأجياد، قوله من قصيدة يمدح بها قاضي القضاة تاج الدين السبكي، مطلعها:

واحيرتى بظلام الطرة الداجي
وشقوتي بنعيم الملمس العاجي

ولم يزل يكرر حلاوة هذا النبات إلى أن قال:

قد أسرج الحسن خديه فدونك ذا
وألجم الغزل فاركض في محبته
وقسم الشعر فاجعل في محاسنه
شذر القلائد واهد الدر للتاج

ومثله قوله، من قصيدة يمدح بها القاضي جمال الدين بن الشهاب محمود، مطلعها:

بأبي نافر كثير الدلال
إن هذا النفار شأن الغزال^(٥)

ثم قال بعده:

حبذا منه مقلّة لست أدري
صنفت شجوناً بغزال جفن
أبهذب تصول أم بنبال^(٦)
فقرأنا مصنف الغزالي

(١) الهيفاء: الدقيقه الخصر- تحكي: تشبه- الظبي؛ الغزال- رنت: نظرت- البيض والسمر:

الأصل: السيف والرمح، وربما قصد الشاعر هنا: الأسنان والشفاه.

(٢) جسرت: تجرأ- الشقيق: زهر أحمر قان، يعرف بشقائق النعمان- رشف: شرب- الرضاب: الريق

(٣) أسرج: أشعل السراج، وألبس السرج للدابة.

(٤) ألجم: وضع اللجام في فم الدابة ليمنعها من الأكل أو ليحسن السيطرة عليها.

(٥) النافر: المقاطع، الهارب من النفور.

(٦) الهدب: الرمش تجمع على أهذاب: رموش. وهي الشعر الذي ينبت على الجفن..

وهوينا حلو القوام فنادت
من معيني على هوى زاد حتى
لو رأى عاذلي حقيقة أمري
في جمال الحبيب مت شجوناً
لا عجيب حلاوة العسال^(١)
أهملته نصائح العذال
لرثاني ولا أقول رثى لي
وبروحي أفدي تراب الجمال

ومثله قول الشيخ برهان الدين القيراطي، من قصيدة يمدح بها الأمير سيف الدين الكريمي، مطلعها:

غرامي فيك يا قمري غريمي
وذكرك في دجى ليلي نديمي^(٢)

وقال بعده:

وملّني الحميم وصدعني
وكم سأل العواذل عن حديثي
وعم تسألون ولي دموع
تخبرهم عن النبأ العظيم^(٣)
ومالي غير دمعي من حميم^(٣)
فقلت لهم على العهد القديم

ولم يزل القيراطي يحزّر إبريز^(٥) هذه المعاني إلى أن قال:

فموعده وناظره وجسمي
كريم مألّ بخلاً عن ودادي
سقيم من سقيم في سقيم
فملت لنحو مخدوم كريم

المخالص بالتورية، على هذا النمط، طريقها مخوف، وباب مسلكها مقفل، لا سيما على من كفه من هذا الفن صفر، ورجله حافية وليس له محمل.

ومن مخالصي التي ما برحت التورية في أبواب بيوتها خادمه، وكم سلكت هذا الطريق المخوف وعادت إلى بيوتها سالمه، قولي من قصيدة امتدح بها شرف الدين صدقة ابن الشماع الشهير في دمشق بابن مسعود، وكان من أعز الأصحاب، وممن رشف معنا في ذلك العصر سلافة الآداب، مطلعها:

سهام جفنيك في الحشا رشقة
رفقاً فما مهجة الشيعي درقه^(٦)

(١) العسال: الذي يستخرج العسل.

(٢) الغريم: العدو اللدود.

(٣) حميم: صديق.

(٤) هذا البيت هو عبارة عن آية قرآنية غير فيها الشاعر حتى تتناسب والشعر: ﴿عم يتساءلون﴾ عن

النبأ العظيم ﴿النبأ، ٧٨/٢﴾.

(٥) الإبريز: الذهب والفضة.

(٦) الدرقة: الترس من جلد خالص.

ويكر هذه القافية أنا أبو عذرتها، وأول من حصل له الفتح في تحريك نكتتها،
وقلت بعد المطلع منها:

أنفقت عمري وصحتي شغفا
غصن خلاف يמים من خفر
قوامه في اعتداله إلف
عيناى بالثغر مع ذوائبه
أمير حسن بقرطه ظهرت
عامر بيت الوصال خربه
بدر منير قسا برؤيته
قالوا لبدر التمام منه ضيا
وحمل الصبح من محاسنه
وماس في الروض كل غصن نقا
وانظر إلى الطيبي كيف يرمقه
ف قيل والطبي ما يقابله
قلت له إن جفن مقلته
خفت من القتل رحى أملكه

عليك والصبر آخر النفقه
قلوبنا في هواه متفقه
سبحان من مدّه ومن مشقه^(١)
في أول الاصطباح مغتبه^(٢)
له جنود لكنن من الحلقة
وقال ما أنت هذه الطبقة
لكن نرى عند خده شفقه^(٣)
قلت وعيش الهوى لقد محقه^(٤)
أنقال نور لكنه فلقه
غدا إلى الله رافعاً ورقه
ويأخذ الغنج منه بالسرقه
فقلت والله ما له حدقه^(٥)
يشبه سهماً بعجبه رشقه
سابقني مدمعي جرى ملقه^(٦)

ولم أزل ناشراً علم التورية إلى أن وصلت إلى المخلص بها فقلت:

طرقت باب الحبيب والرقبا
قالوا فما تبغني فقلت لهم
عليّ من خيفة اللقا حنقه^(٧)
حتى تخلصت أبتغي صدقه

قولي: حتى تخلصت، لا يخفى ما فيه من زيادة الحسن على أهل النظر من أهل
الأدب، ومثله قولي من قصيدة مصغرة مدحت بها قاضي القضاة شمس الدين النويري،
مطلعها:

(١) مشق: : أطل.

(٢) الاغتياق: شرب الخمرة مساءً.

(٣) محقه: أدخله في المحاق وهي من منازل القمر حيث لا تمكن رؤيته لعدم إضاءته.

(٤) الحدقة: سواد العين.

(٥) أملكه: أتقرب إليه - ملقه: جريان الدمع بسبب ضرب العين.

(٦) حنقه: جمع مفردة حانق وهو الغاضب.

(٧) القصيدة كلها مصغرة: طريفى تصغير: طريفى - لييلات تصغير ليالات - الهجير: تصغير الهجر -

مقبريح الجفين من السهير^(٩)

طريفي من لييلات الهجير

وقلت بعد المطلع :

دميعي في وجيناتي جويري
غويب عن عویشقه الحضير
ضوي نويره لبني بديري
ولكن الحديد غدا جميري
نسب في التنظيم إلى زهير
يذكرنا مويجات البحر
مثل شكله ما في العصير
مويض في القلب بلا وتير
مقيفل على درّ الشغير
تشوق للنزيل وللدوير
فما أحلى الزهير على النهير
نقيدليس يصرف عن صديري
فقال أنا جعيديّ الشعير
ويوم هجيره مثل الشهير
فقلت ولي دميع كالمطير
فما أحلى التنظيم مع النشير
سحير في سحير في سحير
هدينا في الظليمة بالنوير

بعيد غزيلي وجوير قلبي
يديويّ تريكيّ المحيا
عيسي اللحيظ له وجيه
حياء مقيلتيه سبا عقيلي
رويض وجيتيه له عنيدي
مسيل الشعير على كفيل
بدير في الظهير له نوير
حويجه القويس له سهيم
شفيفته قفيل من عقيق
عذيره النوزل دار حتى
لثمت خديده فجرى دميي
دنينير الوجيه له بقلبي
أناه سوئلاً يوماً دميي
شهير وصيله عندي يوم
تبسم لي سحيراً عن رويض
نشرت دميّتي بنظيم نغر
لفيظك والمقيلة مع نظيمي
شعيرك مذ أضلّ عویشقيه

ولم أستطرد إلى غالب أبيات هذه القصيدة إلا لغرابة أسلوبها، فإنني لم أزل أجذب القلوب إلى تحبيب تصغيرها، ومغازلة عيون أغزالها، إلى أن أبدر بدر مخلصها في أفق توريته. ومثله قولي من قصيدة كتبت بها من حماة المحروسة إلى المقر المرحومي الأميني، صاحب ديوان الإنشاء الشريف، بدمشق المحروسة:

يا نزلا لا حمى الفراديس بالشا م وأعلامهم على قاسيونا^(١)

= مقبريح: تصغير مجروح: أي مجروح - الجفين: الجفن - السهير: السهر، وهكذا كل ألفاظ القصيدة.

(١) الفراديس: جمع مفردة فرادس وهو الرجل الضخم العظام. أو جمع فردوس وهو البستان - قاسيون: جبل يشرف على دمشق.

بالنسيم العليل منكم إذا
وارحموا سائل الدموع وبالله
وإذا ما نهزتم الدمع نهراً
حبكم فرضنا وسيف جفاكم
والحشا لم تخن عهود وفاكم
هب على الغور والربا عللونا
عليكم لا تنهروا السائلينا
لا تخوضوع فيه مع الخائضينا
قد غدا في بعادنا مسنونا
وسلوا من غدا عليها أمينا

ومثله قولي، من قصيدة كتبت بها من طرابلس المحروسة، إلى سيدنا قاضي القضاة
تقي الدين ابن الخيثمي الحنفي بحماة المحروسة، نور الله ضريحه وجعل من الرحيق
المختوم غبوقه وصبوحة:

فيا ساكني مغنى حماة نعمتم
فودّي ودّي مثل ما تعهدونه
وقد كنت أخشى هجركم قبل بعدكم
وإن جلت في ميدان نظمي تشوقاً
وشيعي همي كلما رام بعدكم
صباحاً ولو ألغيتم في البورى ذكري
ولكن صبري عنكم عاد كالصبر
فلما بعدتم قلت آهاً على الهجر
تسابقني حمر المدامع بالنشر
يحاربنى ناديت يا لأبي بكر

قد تقدم وتقرر أن مخلص التورية صعب مسلكتها على كثير من الناس، ولم أبرز
بدورها هنا كاملة إلا ليزول عن الطالب ظلمة الالتباس.

وأشدني، من لفظه لنفسه الكريمة، أحد أعيان العصر المقر المجدي فضل الله بن
مكائس، فسح الله في أجله مخلصاً من غزل إلى مديح نبوي وهو:

كم حمد السامعون وصفي
فعدت عنه تقي وعودي
لغادة قينة وأغيد
لمدح خير الأنام أحمد

هذا المخلص حلاه المقر المجدي بشعار التورية، وخفر المديح النبوي، ومخلص
الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته:

من كل معربة الألفاظ معجمة
يزينها مدح خير العرب والعجم

الشيخ صفي الدين تخلص في بيت واحد، ووثب من شطره الأول إلى شطره الثاني
على الشرط المعروف، وهذا المنوال قد تقرر أنه عليه عقدت عناصر المتأخرين، ولكن
الشيخ صفي الدين وثب وثبة ضعيفة دلت على ضعف تخلصه، فإن بيته بمفرده غير صالح
للتجريد. وقد تقدم القول على بيت القسم من قصيدة أنه غير صالح للتجريد أيضاً، فإنه
لم يأت بجواب قسمه إلا في بيت الاستعارة، وعلى كل تقدير، إن لم يؤت بيت القسم

وبيت الاستعارة قبل بيت التخلص، لم يحصل به فائدة، ولا يصير على مخلصه تلاوة الأدب، ويصير بينه وبين الأذواق السليمة مباينة، وقد تعين أن أورد بيت القسم وبيت الاستعارة هنا ليصيرا لمخلصه الضعيف تكأتين وهما:

لا لقبتي المعالي بابن بجدها يوم الفخار ولا برّ التقى قسماً^(١)
إن لم أحت مطايا العزم مثقلة من القوافي تؤم المجد عن أمم^(٢)
من كل معربة الألفاظ معجمة يزيناها مدح خير العرب والعجم^(٣)

وأين الشيخ صفى الدين الحلبي من قول كمال الدين بن نبيه وقد تقدم:

يا طالب الرزق إن سدت مذهبه قل يا أبا الفتح يا موسى وقد فتحت

هذا المخلص لحسن تجريده يستغنى به عن قصيدة. وقد تقرر أن نظام البديعيات التزموا أن يكون كل بيت منها شاهداً على نوعه بمجرد، ليس له تعلق بما قبله ولا بما بعده. ومخلص العميان مثل مخلص الشيخ صفى الدين الحلبي أيضاً، فإنه غير صالح للتجريد، وما تتم به الفائدة إن لم يأت ناظمه بما قبله، وعلى مذهب أصحاب البديعيات ما يصلح أن يكون شاهداً، وهو:

يمم بنا البحر إن الركب في ظمياً فقلت سيروا فهذا البحر عن أمم
وقد تقدم قولي: إن العميان أتوا في براعة الاستهلال بصريح المدح، وهو قولهم فيها:

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم وانشر له المدح وانثر طيب الكلم

فإذا حصل التصريح بالمدح في المطلع الذي هو براعة الاستهلال، لم يبق لحسن التخلص موقع، فإن حسن التخلص من شرطه أن يخلص الشاعر من الغزل إلى المديح، لا من المديح إلى المديح، وأيضاً فإن النبي ﷺ لم يكن له في المخلص ذكر، ولكنه استغنى بذكر البحر فإنه جعله كناية عن كرم النبي ﷺ.

ومخلص الشيخ عز الدين في بديعته:

حسن التخلص من ذنبي العظيم غداً بمدح أكرم خلق الله كلهم

(١) ابن بجدها: سيدها والعارف بها.

(٢) مثقلة: محملة حملاً ثقيلاً - تؤم: تقصد - أمم: قُرب.

(٣) معجمة: منقطة من الإعجام وهو وضع النقاط على الحروف

الشيخ عز الدين صرح بذكر حسن التخلص في أول البيت هنا، وجل القصد أن يكون التصريح به في الشطر الثاني، مع أنه لم يأت بحسن التخلص على الشروط المقررة، فإنه انتقل من معنى إلى معنى آخر من غير تعلق بينهما، كأنه استبدأ كلاماً آخر. وقد تقدم القول في أول الباب: إن هذا النوع إذا نسج على هذا المنوال سمي اقتضاباً، ولم يكن له حظ في حسن التخلص، فإن الشيخ عز الدين قال قبل مخلصه:

وارع النظير من القوم الأولى سلفوا من الشباب ومن طفل ومن هرم

ثم قال بعده:

حسن التخلص من ذنبي العظيم غدا بمدح أكرم خلق الله كلهم
الشيخ عز الدين استبدأ هنا كلاماً آخر، وليس بين بيت التخلص وبين ما قبله علاقة ولا أدنى مناسبة.

وبيت بديعيتي:

ومن غدا قسمه التشبيب في غزل حسن التخلص بالمختار من قسمي
هذا البيت ما يشك متأدب أنه أعمر بيوت البديعيات، وهو في غنية عن الإطناب في وصفه.



ذكر الاطراد

محمد بن الذبيحين الأمين أبو السبوتول خير نبي في اطرادهم

الاطراد، في اللغة: مصدر اطراد الماء وغيره إذا جرى من غير توقف، وفي الاصطلاح: أن يذكر الشاعر اسم الممدوح واسم من أمكنه من آبائه، في بيت واحد على الترتيب، ولا يخرج عن طرق السهولة، ومتى تكلف، أو تعسف في بناء بيته، لم يعد اطراداً، فإن المقصود من هذا النوع أن يكون كلام الناظم، في سهولة جريانه واطراده، كجريان الماء في اطراده، فمتى جاء كذلك دل على قوة الشاعر وتمكنه وحسن تصرفه. وقد تقدم القول: إن الشيخ صفي الدين ما نظم بديعيته حتى جمع عنده سبعين كتاباً في هذا الفن، يجتني من أوراقها كل ثمرة شهية، ورأيته في شرح بديعيته قد أورد لهذا المعنى حداً فيه زيادة على الجماعة، فإنهم لم يزيدوا على اسم الممدوح واسم من أمكن من آبائه شيئاً، والشيخ صفي الدين نقل في شرح بديعيته: أن الاطراد عبارة عن اسم الممدوح ولقبه وكنيته وصفته اللائقة به، واسم من أمكن من أبيه وجدّه وقبيلته، ليزداد الممدوح تعريفاً وشرط أن يكون ذلك في بيت واحد من غير تعسف ولا تكلف ولا انقطاع بالفاظ أجنبية، وأورد على ذلك قول بعضهم:

مؤيد الدين أبو جعفر محمد بن العلقمي الوزير

هذا البيت جمع ناظمه فيه بين اللقب والكنية، واسم الممدوح واسم أبيه والصفة اللائقة به، وهو القدر الذي قرره الشيخ صفي الدين، في الحد الذي أورده في شرحه. وعلى هذا المنوال نسجت بيت بديعيتي، لأجل المعارضة. ومثله قول بعض المتأخرين، في زكي الدين بن أبي الأصبع:

عبد العظيم الذكيّ ابن أبي الأصبع رب القريض والخطب

هذا البيت اشتمل أيضاً على اسم الممدوح واسم أبيه والصفة اللائقة به، وهو صالح لمجرد المدح، ولكن عقبه الناظم بأبيات مشتملة على صريح الهجو، كان الأوجب عدم إيرادها هنا، حفظاً لمقام الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع، ولكن جراءة ظرفها ركبت سهوة القلم وأطلقت عنانه، فإنه قال بعده:

يزعم أني بالهجو أذكره	تعصباً منه ساعة الغضب
لكنني والطلاق يلزمني	ما ملت فيه يوماً إلى الكذب
نكت ابنه وأخته وخالته	ونكت قدماً أخاه وهو صبي
ولست فيما أتيت مبتدعاً	قد كان هذا في سالف الحقب
ناك أبي أمه وجدته	وعمته لله در أبي
ونحن في بيته على دعة	النك ما بيننا إلى الركب

وأما شواهد هذا النوع، المشتمل على اسم الممدوح واسم أبيه وجدّه، من غير كنية ولقب وصفة، فمنها قول الشاعر:

من يكن رام حاجة بعدت عنــــــــــــه وأعيت عليه كل العياء
فلها أحمد المرجى بن يحيى بــــــــــــن معاذ بن مسلم بن رجاء

قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع: لقد أربى هذا الشاعر، في هذا النوع، على من تقدمه ولو سلم بيته من الفصل بلفظة المرجى لكان غاية لا تدرك وعقيلة لا تملك. انتهى كلام الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته:

محمد المصطفى الهادي النبي أجل المرسلين ابن عبد الله ذي الكرم
الشيخ صفي الدين أتى، في هذا البيت، باسم الممدوح ﷺ والصفات اللائقة به
واسم أبيه.

وبيت العميان في بديعيتهم:

قد أورث الجد عبدالله شبيهة عن عمرو بن عبد مناف عن قصيهم^(١)

الذي أقوله: إن بيت العميان في غاية التكلف والتعسف، ولعمري إن ناظمه خالف أمر مشايخ البديع، في المشي على طريق السهولة والانسجام، وأيضاً فإن النبي ﷺ هو

(١) شبيهة: هو لقب عبد المطلب جد النبي محمد ﷺ - وقصي: هو جد قريش.

الممدوح في هذه القصيدة بكمالها، وليس له ذكر في هذا البيت، فعلى هذا التقدير هو غير صالح للتجريد مع ما فيه من العقادة.

وبيت الشيخ عز الدين في بديعته:

محمد بن عبد الله شيبه جده ابن عمرو كرام في اطرادهم

أقول: إن بيت العميان، في غاية السهولة عند هذا البيت، وهذا القدر أليق من إطلاق لسان القلم في الكلام عليه.

وبيت بديعتي:

محمد بن الذبيحين الأمين أبو البتول خير نبي في اطرادهم

هذا البيت أيضاً فيه اسم الممدوح ﷺ، وذكر أبيه وهو أحد الذبيحين، لأن أباه عبد المطلب كان قد نذر ذبح أحد أولاده إذا صاروا عشرة، فلما كملت له العشرة أقرع^(١) بينهم فوكت على عبد الله، فوداه^(٢) بمائة من الإبل، وهو أول من ودي بذلك. وكانت الدية قبل ذلك عشراً، وفي البيت إشارة إلى جده اسماعيل عليه السلام، وتفسير هذا الاسم مطيع الله الذبيح، وقال ﷺ: أنا ابن الذبيحين، وفيه الصفة المعدودة من أسمائه الشريفة، والصفة اللائقة بمقامه العالي، واسم النوع البديعي في القافية موري به من جنس المديح. والذي يظهر لي أنه أرق من بيت العميان وبيت الشيخ عز الدين، وأكثر معاني من بيت الشيخ صفى الدين، والله أعلم.



(١) أقرع: استعمل القرعة أي الاختيار.

(٢) ودي: أعطى ديته أو فداه.

ذكر العكس

عين الكمال كمال العين رؤيته يا عكس طرف من الكفار عنه عمي

العكس، في اللغة: رد آخر الشيء على أوله، ويقال له التبديل. وفي الاصطلاح: تقديم لفظ من الكلام ثم تأخيره، ويقع على وجوه كثيرة ولكن المراد هنا ما استعمل منها وكثر استعماله، فالمقدم، في هذا الباب، قوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾^(١) العكس هنا مميز بعلو طباقه، وبشرف القدرة الإلهية التي لا تصدر إلا عن عظمة الخالق جلت قدرته، وبلاغة القرآن وإيجازه وفصاحته. وعلى كل تقدير، فالعكس نوع رخيص بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع الغالية، وإن لم يصب البليغ عكسه بنكتة بديعية تنظمه في سلك أنواع البديع، فهو مستمر على عكسه، كقول القائل:

زعموا أنني خؤون في الهوى في الهوى أنني خؤون زعموا

هذا البيت ليس فيه نكتة تزيل عنه العكس وتحليه بشعار البديع، ولو أراد الشاعر أن يرتجل مثله ما شاء في مجلس واحد لكان ذلك قدراً يسيراً، وأين هذا الناظم من أبي تمام وقد قال له بعض حساده: لم لا تقول ما يفهم؟ فقال له على الفور: لم لا تفهم ما يقال؟ وأين هو من قول الحكيم الذي قيل له: لم تمنع من يسألك؟ فقال: لثلاث أسأل من يمنعني، وأين هو من كلام الحكيم الذي قال: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون. وقيل: إنه ورد في الحديث: جار الدار أحق بدار الجار. وما أبلغ قول الحسن بن سهل هنا،

(١) آل عمران، ٢٧/٣.

وقد قيل له: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير. ويروى، لأمير المؤمنين هرون الرشيد، من النظم في هذا الباب:

لساني كتوم لأسرارهم
فلولا دموعي كتمت الهوى
ودمعي بسري نموم مذيع^(١)
ولولا الهوى لم يكن لي دموع

وبدع هنا قول الصحاب ابن عباد، وقد بالغ في وصف الزجاج والشراب، وهو:

رق الزجاج وراقت الخمر
فكأنما خمر ولا قدح
فتشابها فتشاكل الأمر^(٢)
وكأنما قدح ولا خمر

ومثله:

ألست ترى أطباق ورد وحولها
فتلك حدود ما عليهن أعين
من النرجس الغض الطري قدود
وتلك عيون ما لهن حدود

ويعجبنى إلى الغاية، في هذا الباب، قول الأضبط الشاعر:

قد يجمع المال غير آكله
ويقطع الثوب غير لابسه
ويأكل المال غير من جمعه
ويلبس الثوب غير من قطعه

ومثله، في الحكمة، قول ابن نباتة السعدي:

ألا فإخش ما يرجى وجدك هابط
فلا نافع إلا مع النحس ضائر
ولا ترج ما يخشى وجدك رافع^(٣)
ولا ضائر إلا مع السعد نافع^(٤)

ومن حكم أبي الطيب المتنبى قوله في هذا الباب:

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله
ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

ومثله في الحسن والبلاغة، قوله:

إن الليالي للأنام مناهل
فقصار هن مع الهموم طويلة
تطوى وتُنشر دونها الأعمار
وطوالهن مع السرور قصار

(١) نموم: صيغة مبالغه من النيممة. وهي نقل الكلام بين شخصين أو أشخاص بقصد الفتنة.

(٢) تشاكل الأمر: إختلط والتبس..

(٣) الجد: الحظ.

(٤) ضائر: مُضر.

واستشهدوا على نوع الطباق بقول الشاعر:

رمى الحدثان نسوة آل حرب
فردّ شعورهن السود بيضاً
بمقدار سمدن له سموداً^(١)
وردّ وجوههن البيض سوداً

والعكس هنا أحق من المطابقة وأولى، فما فيه من عكس مطابقة عجزه لصدره،
وتبديل الطباق في العجز والصدر، ومن الذي يستظرف هنا إلى الغاية قول الشيخ شرف
الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماة:

أفنيّت عمري في دهر مكاسبه
تسعاً وعشرين مدّ الهم شقتها
نطيع أهواءنا فيها وتعصينا
حتى توهمتها عشراً وتسعيناً^(٢)
وتلطف الشيخ جمال الدين بن نباتة بقوله هنا:

مسألة الدور غدت
لولا مشيبي ما جفت
بيني وبين من أحب
لولا جفاها لم أشب

أنظر ما أليق ما حصر الشيخ جمال الدين مسألة الدور في هذا النوع، مع قصر
البحر.

ويعجبنى أيضاً قول الشيخ علاء الدين، علي بن مقاتل الحموي، في مطلع من
مطالع أزجاله وهو:

حبي عودني الوصال
وامتنع لما حلي
وعوايد
وحلا لما امتنع
وقطع

وأشدني، من لفظه لنفسه الكريمة، قاضي القضاة عماد الدين أخو شيخي، قاضي
القضاة علاء الدين بن القضامي، تغمدهما الله برحمته ورضوانه، مطلعاً يناظر مطلع ابن
مقاتل بحسنه في هذا الباب، وهو:

قلت يوماً لمن هويت
قال بجوري ترتضي
فيه اعدل عملك
وإلا اعمل عدلك^(٣)

(١) الحدثان: المصائب والحوادث، والليل والنهار. سمد: بُهت وتحير.

(٢) مدّ الهمّ شقتها: أي صرت مهموماً لما انقضت شقتها أي مثلها. وصار عمري ثمانية وخمسين عاماً.

(٣) عدلك: أي مثلك.

وزاد الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع هذا النوع، أعني عكس الألفاظ، صنفاً معنوياً، وهو أن يأتي الشاعر إلى معنى لنفسه، أو لغيره، فيعكسه. فمثال ما عكس الشاعر من المعاني لغيره:

قال الأول:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل^(١)

قال الثاني الذي عكس الأول:

وربما فات بعض الناس أمرهم مع التأني وكان الحزم لو عجلوا

وقد تقدم قول الناس في المثل السائر: ما في السويدا رجال، فعكست هذا المعنى على أصحابه وقلت:

في سويدا مقيلة الحب نادى جفنه وهو يقنص الأسد صيدا^(٢)
لا تقولوا ما في السويدا رجال فأنا اليوم من رجال السويدا

ومن القسم الثاني، وهو عكس الشاعر معنى نفسه، قول بعضهم:

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

ومثله قول الشاعر، وتلطف ما شاء:

ها قد غدا من ثياب الشعر في كفن وقد تعفت معاني وجهه الحسن^(٣)
وكان يعرض عني حين أبصره فصرت أعرض عنه حين يبصرني

وأظرف منه قول الشيخ جمال الدين ابن نباتة:

وصديق قوى يدي بنوال وأراه من بعد حاول وهني^(٤)
كان مثل البستان آخذ منه صار مثل الحمام يأخذ مني

انتهى ما أوردته في هذا الباب، من عكس الألفاظ والمعاني، وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي، في بديعته، شاهد في هذا الباب على عكس الألفاظ، وهو قوله عن النبي ﷺ:

(١) التأني: التمهّل - الزلل الخطأ.

(٢) يقنص: يصطاد بواسطة الكمين.

(٣) تعفت: إمّحت.

(٤) النوال: العطاء - الوهن: الضعف.

أبدى العجائب فالأعمى بنفثته غدا بصيراً وفي الحرب البصير عمي^(١)
الشيخ صفى الدين أتى في هذا الباب بالغرض، من نظم النوع المذكور، ولكن لم
يخل بيته من بعض عقادة، هذا مع عدم تكلفه بتسمية النوع على الشرط المقرر.

وبيت العميان:

فاتبع رجال السرى في البيد واسر له سرى الرجال ذوي الألباب والهمم^(٢)
بيت العميان لم يخلص من العكس هنا، إذ ليس فيه نكتة تلم له مع البديع شملاً،
وليس فيه غير رجال السرى وسرى الرجال.

وبيت الشيخ عز الدين الموصللي، في بديعته:

خير المقال مقال الخير فاصغ ودع عكس الصواب مع التبديل تستقم
الشيخ عز الدين أتى، في هذا النوع، بالمقصود من نظم النوع البديعي وتسميته
على الشرط المقرر، ولكنه أجنبي من مديح النبي ﷺ، وليس له أدنى تعلق ببيت المديح
الذي قبله، وهو:

تمت محاسنه والله كمله فقدره في الورى في غاية العظم

وأعجب من هذا أنه قال بعد هذا البيت، عن النبي ﷺ:

له الجميل من الرب الجميل على الوجه الجميل بترديد من النعم

وغالب مديحه النبوي في هذه القصيدة على هذا النمط، فإنها ما انسجمت معه إلا
في مواضع قليلة، والظاهر أن ثقل تسمية النوع على الشرط المعلوم، كلما أثقل كاهله فرأى
إلى جهة يستند إلى ركنها. وبيت العميان كاد أن يكون أجنبياً من المديح، ولكن اتكلوا
على عود الضمير على الممدوح وهو النبي ﷺ.

وبيت بديعتي، وهو قولي عن النبي ﷺ:

عين الكمال كمال العين رؤيته يا عكس طرف من الكفار عنه عمي

أقول: إنه في سهولته وانسجامه وحسن تركيبه، وبديع تسميته وتمكين قافيته، بيت
عامر بالمحاسن والله أعلم.

(١) النفث: المناجاة، وقراءة الطلاسم.

(٢) السرى: السير ليلاً - الألباب: العقول.

ذكر الترديد

أبدى البديع له الوصف البديع وفي نظم البديع حلا ترديده بفي
التريد، هو أن يعلق الشاعر لفظة في بيت واحد، ثم يرددها فيه بعينها ويعلقها
بمعنى آخر، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ
الْفَائِزُونَ﴾^(١) واستشهدوا، على هذا النوع من النظم، بقول أبي نواس:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء^(٢)

والذي أقوله: إن التريد والتكرار ليس تحتها كبير أمر، ولا بينهما وبين أنواع
البديع قرب ولا نسبة، لانحطاط قدرهما عن ذلك، ولولا المعارضة ما تعرضت لهما في
بديعتي، ولكن ذكر زكي الدين ابن أبي الأصعب بينهما فرقاً فيه بعض إشراق، وهو أن
اللفظة التي تكرر في البيت، ولا تفيد معنى زائداً، بل الثانية عين الأولى هي التكرار،
واللفظة التي يرددها الناظم في بيته تفيد معنى غير معنى الأولى هي التريد، وعلى هذا
التقدير صار للتريد بعض مزية يتميز بها إلى التكرار، ويتحلى بشعارها، وعلى هذا
الطريق نظم أصحاب البديعيات هذا النوع، أعني التريد. فبيت الشيخ صفي الدين
الحلي في بديعته:

له السلام من الله السلام وفي دار السلام تراه شافع الأمم^(٣)

(١) الحشر، ٢٠/٥٩.

(٢) الرأ: الحياة والحركة.

(٣) السلام: الأولى بمعنى التسليم عليه والثانية من أسماء الله الحسنى، والثالثة بمعنى الجنة.

لفظة السلام متعلقة في كل موضع بغير الآخر، لاشتراكها.
والعميان لم ينظموا هذا النوع. وبيت الشيخ عز الدين:
له الجميل من الرب الجميل على الـوجه الجميل بترديد من النعم
وبيت بديعيتي:

أبدى البديع له الوصف البديع وفي نظم البديع حلا ترديده بفي
أقول: إن حلاوة التردد بالفم، أحلى من قول الشيخ عز الدين: بترديد من النعم
وأحسن موقعاً لكونها في القافية، والله أعلم.



ذكر التكرار

كررت مدحي حلا في الزائد الكرم ابــــن الزائد الكرم ابن الزائد الكرم
المديح للكريم مليح هنا. وقد تقدم قولي: إن التكرار، هو أن يكرر المتكلم
اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى، والمراد بذلك تأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو
التهويل، أو الوعيد أو الإنكار أو التوبيخ أو الاستبعاد أو الغرض من الاغراض.

فأما ما جاء منه للذم فكقول مهلهل بن ربيعة أخي كليب:

يا لبكر أنشروا لي كليباً يا لبكر أين أين الفرار^(١)

وأما ما جاء منه للمدح فكقول كثير في عمر بن عبد العزيز:

فأربح بها من صفقة لمبايع وأعظم بها وأعظم بها ثم أعظم

وكقول أبي تمام:

بالصريح الصريح والأروع الأروع وع منهم باللباب اللباب

وأما ما جاء منه للتهويل فكقوله تعالى: ﴿القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما
القارعة﴾^(٢) وكقوله: ﴿الحاقة * ما الحاقة﴾^(٣).

(١) أنشروا: من النشر وهو الإحياء بعد الموت.

(٢) القارعة، ١/١٠١ - ٣.

(٣) الحاقة، ٢١/٦٩.

وأما ما جاء منه للإنكار والتوبيخ، فهو تكرار قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾^(١) فإن الرحمن جل جلاله ما عدد آلاءه هنا إلا ليبكت^(٢) بها من أنكرها، على سبيل التقرير والتوبيخ، كما يبكت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها له.

وأما ما جاء منه للاستبعاد فكقوله تعالى: ﴿هيئات هيئات لما توعدون﴾^(٣).

وأما ما جاء منه في النسيب، وهو في غاية اللطف، فقول بعضهم:

يقلن وقد قيل إني هجعت عسى أن يلم بروحي الخيال^(٤)
حقيق حقيق وجدت السلو فقلت لهن محال محال

وألطف منه قول القاضي^(٥):

ماذا تقول اللواحي ضل سعيهم وما تقول الأعادي زاد معناه^(٦)
هل غير أني أهواه وقد صدقوا نعم نعم أنا أهواه وأهواه

وما أحلى ما قال بعده:

حسب البرية أجراً فضل رؤيته فما رُئي قط إلا سُبح الله

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي، في بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

الطاهر الشيم ابن الطاهر الشيم ————— ابن الطاهر الشيم^(٧)

والعميان ما نظموها هذا النوع في بديعيتهم. وبیت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته:

تكرار مدحي هدى في الشامل النعم ————— الشامل النعم ابن الشامل النعم

وبیت بديعيتي:

كررت مدحي حلا في الزائد الكرم ————— الزائد الكرم ابن الزائد الكرم

(١) الرحمن، ٣٦/٥٥ - والآلاء: النعم، واحدها ألي وهي النعمة.

(٢) بكت: عنف، أي قرع ووبخ.

(٣) المؤمنون، ٣٦/٢٣.

(٤) هجع: رقد ونام.

(٥) هو القاضي الأرجاني.

(٦) اللواحي: جمع مفردة لاحية وهي اللائمة.

(٧) الشيم: صاحب الأخلاق العالية والخصال الحميدة.

كاد بيت الشيخ صفي الدين، وبيت الشيخ عز الدين، وبيت بديعيتي أن يكونوا بيتاً واحداً لمناسبة التركيب، وإن كان بيت الشيخ صفي الدين مميّزاً بزيادة واحدة في التكرار، فقد جاء موضعها التورية في تسمية النوع كما قيل: وأين التريا من يد المتناول. والذي يظهر أن مكرر بيتي حلاوته ظاهرة على بيت الشيخ عز الدين، فإن مكرره ناقص الحلاوة، والله تعالى أعلم.



ذكر المذهب الكلامي

ومذهبي في كلامي أن بعثته لو لم تكن ما تميزنا على الأمم
المذهب الكلامي نوع كبير نسبت تسميته إلى الجاحظ، وهو في الاصطلاح: أن
يأتي البليغ على صحة دعواه، وإبطال دعوى خصمه، بحجة قاطعة عقلية تصح نسبتها
إلى علم الكلام، إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة.
وقيل: إن ابن المعتز قال: لا أعلم ذلك في القرآن، أعني المذهب الكلامي،
وليس عدم علمه مانعاً علم غيره، ولم يستشهد على المذهب الكلامي بأعظم من شواهد
القرآن، وأوضح الأدلة في شواهد هذا النوع، وأبلغها قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا
الله لفسدتا﴾^(١). هذا دليل قاطع على وحدانيته جل جلاله، وتمام الدليل أن تقول:
لكنهما لم تفسدا فليس فيهما آلهة غير الله. ومنه قوله ﷺ: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم
قليلاً ولبكيتم كثيراً. وتمام الدليل أن يقال لكنكم ضحكتم كثيراً وبكيتم قليلاً، فلم تعلموا
ما أعلم، فهذان قياسان شرطيان من كلام الله وكلام نبيه عليه الصلاة والسلام، ومثله قول
مالك بن المرجل الأندلسي:

لو يكون الحب وصلًا كله	لم تكن غايته إلا الممل
أو يكون الحب هجرًا كله	لم تكن غايته إلا الأجل
إنما الوصل كمثل الماء لا	يستطاب الماء إلا بالعلل ^(٢)

فالبيتان الأولان قياس شرطي، والثالث قياس فقهي، فإنه قاس الوصل على الماء،

(١) الأنبياء، ٢٢/٢١.

(٢) العلل: الشربة الأولى، والنهل: الشربة الثانية.

فكما أن الماء لا يستطاب إلا بعد العطر، فالوصل مثله لا يستطاب إلا بعد حرارة الهجر. وأما الأقيسة الحملية فقد استنبطوها على صور، منها ما يروى أن أبا دلف قصده شاعر تميمي، فقال له: ممن أنت؟ فقال: من تميم. فقال أبو دلف:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل الهداية ضلت (١)
فقال له التميمي: نعم بتلك الهداية جئت إليك. فأفحمه بدليل حملي ألزمه فيه أن
المجيء إليه ضلال.

ولعمري، إن القياس الشرطي أوضح دلالة في هذا الباب من غيره، وأعذب في الذوق وأسهل في التركيب، فإنه جملة واقعة بعد لو وجوابها، وهذه الجملة، على اصطلاحهم، مقدمة شرطية متصلة يستدل بها على ما تقدم من الحكم، وعلى هذه الطريقة نظمت بيت البديعية، وكذلك العميان، ويأتي ذلك في موضعه، فبيت بديعية الشيخ صفي الدين الحلبي:

كم بين من أقسم الله العلي به وبين من جاء باسم الله في القسم
بيت الشيخ صفي الدين الحلبي ليس لنور المذهب الكلامي فيه إشراق، ولكنه
ملحق بالأقيسة الحملية.

وبيت العميان قد تقدم أنه من الأقيسة الشرطية، وهو قولهم في مديح النبي ﷺ:

لو لم تحط كفه بالبحر ما شملت كل الأنام وأروت قلب كل ظمي

جملة هذا البيت هي الجملة الواقعة بعد لو وجوابها، فإنهم استدلوا بها على ما تقدم من الحكم: وهو أن كفه ﷺ محيط بالبحر، وبيان صحة ذلك أنها بلغت أن تشمل كل الأنام وتعمهم بالري، وهذا دليل واضح على أنها محيطة بالبحر.

وقد تعين أن أقدم بيت بديعيتي هنا على بيت الشيخ عز الدين، وأفرط سبحة الترتيب لوجهين: أحدهما، أن بيتي وبيت العميان أقرأ بهجة هذا النوع في مطلع واحد، وهو القياس الشرطي، والثاني، أن الشيخ عز الدين لم يتمسك في المذهب الكلامي إلا بالقول الضعيف، وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ:

ومذهبي في كلامي أن بعثته لو لم تكن ما تميزنا على الأمم

(١) القطا: الحمام الزاجل وكان يستعمل لنقل الرسائل، ومن هنا يضرب به المثل في معرفة الطرق.

دليل هذا القياس الشرطي، في بعثة النبي ﷺ، وأن هذه الأمة تميزت بها على سائر الأمم، أوضح من النهار الذي لم يحتج عند ظهوره إلى إقامة دليل. وبيت الشيخ عن الدين، في بديعته قوله:

بمذهب من كلام الله ينسخ شرع الأولين ببشرى من كلامهم^(١)

كأن الشيخ عز الدين غفر الله له يقول عن النبي ﷺ: إنه بمذهب من كلام الله أي القرآن ينسخ شرع الأولين، وكأنه جعل حجته القاطعة في المذهب الكلامي، والله أعلم قوله: ببشرى من كلامهم، أي من كلام الأولين. ولم أر في هذا البيت للمذهب كلاماً ولا للكلام مذهباً غير ما ذكرته، وفوق كل ذي علم عليم.



(١) ينسخ: يبطل الحكم، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا نَأْتِ بَأْخَسٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ البقرة، ١٠٦/٢.

ذكر المناسبة

فعلمه وافر والزهد ناسبه وحلمه ظاهر عن كل مجترم^(١)

المناسبة، على ضربين: مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ. فالمعنوية هي أن يتبدى المتكلم بمعنى، ثم يتم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ. وهذا النوع، أعني المناسبة المعنوية، كثير في الكتاب العزيز فمنه قوله تعالى: ﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون * أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾^(٢). فانظر إلى قوله سبحانه وتعالى، في صدر الآية التي هي للموعظة: أولم يهد لهم، ولم يقل أولم يروا لأن الموعظة سمعية، وقد قال بعدها: أفلا يسمعون. وانظر كيف قال في صدر الآية التي موعظتها مرثية: أولم يروا، وقال بعد الموعظة البصرية أفلا يبصرون.

ومن أظرف ما أنقله هنا، من النقد اللطيف في هذا الباب، أن قاضي القضاة عماد الدين ابن القضاة، أخا شيخنا قاضي القضاة علاء الدين الحنفي نور الله ضريحه، وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحة، نظم قصيدة امتدح بها المقر المرحومي السيفي أرغون الأسعدي، كافل المملكة الشريفة الحموية، وعرضها قبل إنشادها للمدح على أخيه المشار إليه، فأنتهى منها في المديح إلى بيت يقول فيه:

خبير بتدبير الأمور فمن يرى سوى ما يراه فهو في هذه أعمى

(١) المجترم: الأثم.

(٢) السجدة، ٢٦/٣٢ و ٢٧.

فقال له شيخنا قاضي القضاة علاء الدين: يجب أن تقول لأجل المناسبة المعنوية، موضع خبير بصير.

وقد عدوا من محاسن الأمثلة المعنوية قول أبي الطيب المتنبى:

على سابح موج المنيا بنحره غداة كان النبل في صدره وبل^(١)
فإن بين لفظة السباحة ولفظتي الموج والوبل تناسباً معنوياً صار البيت به متلاحماً.
والذي عقد الناس عليه الخناصر، في هذا الباب، قول ابن رشيقي القيرواني:

أصح وأقوى ما رويناه في النداء من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويهما السيول عن الحيا عن البحر عن جود الأمير تميم^(٢)

قال زكي الدين بن أبي الأصبغ: هذا أحسن شعر سمعته في المناسبة المعنوية، فإنه وفي المناسبة حقها، وناسب في البيت الأول بين الصحة والقوة والرواية والخبر المأثور، وناسب في البيت الثاني بين الأحاديث والرواية والعننة، هذا مع صحة ترتيب العننة، من حيث أنها جاءت صاغراً عن كابر، وآخرأ عن أول، كما يقع في سند الأحاديث، لأن السيول فرع الحيا أصله، وكذلك الحيا فرع البحر أصله، ثم نزل البحر منزلة الفرع، وجود الممدوح منزلة الأصل للمبالغة في المدح، وهذا غاية الغايات في هذا الباب.

أقول: إنني زاحمت ابن رشيقي القيرواني هنا بالمناكب، وأبطلت موانع التعقيد لما دخلت معه إلى هذه المطالب، وما ذاك إلا أنني امتدحت شيعي المشار إليه أولاً، مولانا قاضي القضاة ابن القضاة الحنفي بموشح بيت مخلصه تحفة في هذا الباب، لأن مناسباته المعنوية رفعت عن محاسنها الحجاب، وهو:

رقم السوالف يروي لي بمسنده عن رقتي حيهم يا طيب مورده
وثغرها قد روى لي قبل ما احتجبت عن برق ذاك النقا أيام معهده^(٣)
والريق أحسى عن المبرد يروي حديث العذيب مسند
عن الصفا عن مذاق الشهد والعسل عن ذوق سيدنا قاضي القضاة علي

(١) الويل: الوايل الغزير الانصباب.

(٢) الحيا: المطر والخصب.

(٣) النقا: ترخيم نقاء.

وقد حبست عنان القلم عن الاستطراد إلى وصف محاسن هذا البيت، ومناسباته المعنوية، فإن برهانه غير محتاج إلى إقامة دليل. وهذا الموشح نظمته بحماة المحروسة، في مبادي العمر ورياحين الشيبية غضة. ولما طلبت إلى الأبواب الشريفة المؤيدية، سنة خمس عشرة وثمانمائة، ووصلت إلى الديار المصرية في التاريخ المذكور، وجدته ملحناً وأهل مصر يلهجون به ويتلحينه كثيراً، فتعين علي أن أثبت هنا منه شيئاً، ليحلوا تكريره بمصر وتعرف رتبة قوافيه، لأجل بيت المخلص الذي أوردته مثلاً على نوع المناسبة المعنوية. فمن غزل الموشح المذكور:

والشعر كالعلم المنشور للأمام
ها أنت تخطر بين البان والعلم
في خدها همت فيه وجدا
في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل
وقلت نار الجوى قد أضعفت جلدي^(١)
يا برد ذاك الذي قالت على كبدي
وقالت اسمع كيفت خلفي^(٢)
أنا الغريق فما خوفي من البلبل

ماست بقامتها يوماً بذني سلم
فقلت يا قلب أعلام الهنا نصبت
وأسود الخال مذ تبدى
قالت وطلعتها كالشمس في الحمل
سألتها برد ما عندي من الكمد
قالت بريقي أطفئها إذا التهبت
وغرقتني بدمع طرفي
ألم تخف بللاً ناديت يا أملي

منه:

وحارس اللحظ في شك من الخبر
تلك النهيلات للوراد في السحر
فإنه قوة لضعفي
وربما صحت الأجسام بالعلل

بالله يا برق إن أومضت في الثغر
قف بالثنيات واذكرني إذا عذبت
وارسل عليل النسيم خلفي
عسى تصحح جسماً بالفراق بلي

منه:

بسيفه قد أقام الحد في تلفي^(٣)
لكنني عند موتي مذ قرى شغفي^(٤)
وقلت هذا فعال إنسان
فقال لي خلق الإنسان من عجل

إنسان مقلتها لما رأى كلفي
فمت بالسيف قهراً والحشا نهبت
ناديته والدموع طوفان
إلام تعجل في قتلي بلا زلل

(١) الكمد: الحزن المكبوت - الجلد: الإصطبار.

(٢) خلفي: ما ورائي أو إخلافي بالوعد.

(٣) إنسان المقلة: هو إنسان العين وهو النقطة في وسط سواد العين أو البؤبؤ - التلف: الموت.

(٤) قرى: إقراء، أطمع الضيوف.

وقد طال الشرح وخرجنا عما كنا فيه، من المناسبة المعنوية وحسن ختامها، بما أوردناه من كلام ابن رشيقي القيرواني، والبيت الذي أوردته من هذا الموشح. وأما المناسبة اللفظية، وهي دون رتبة المعنوية، فهي الإتيان بكلمات متزنات، وهي على ضربين: تامة، وغير تامة. فالتامة أن تكون الكلمات، مع الاتزان، مقفاة والناقصة موزونة غير مقفاة. فمن شواهد التامة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾^(١) ومن شواهد التامة في السنة الشريفة، قول النبي ﷺ، مما كان يرقى به الحسين^(٢)، عليهما السلام: أعيدكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامه، ومن كل عين لامة، ولم يقل عليه السلام: ملمة، وهي القياس لمكان المناسبة اللفظية. ومن أمثلة المناسبتين، الناقصة والتامة، قول أبي تمام حبيب بن أوس:

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قنا الخط إلا أن تلك ذوابل^(٣)

فناسب بين مها وقنا مناسبة تامة، وبين الوحش والخط، وأوانس وذوابل، مناسبة غير تامة. قال زكي الدين بن أبي الأصبح: هذا البيت من أفضل بيوت المناسبة، لما انضم إليه فيها من المحاسن، فإن فيه مع المناسبتين، التشبيه بغير أداة والمساواة والاستثناء، والطباق اللفظي واتتلاف اللفظ مع المعنى والتمكين، فأما المناسبة فيه فقد عرفت، وأما التشبيه ففي قوله: مها وقنا، فإن التقدير: كمها، وكقنا، وحذف الأداة ليدل على قرب المشبه من المشبه به، وأما الاستثناء البديعي ففي قوله: إلا أن هاتا أوانس، وقوله: إلا أن تلك ذوابل، ليثبت للموصوفات التأنيس، وينفي عنهن النفار والتوحش، وكذلك فعل في الاستثناء الثاني، فإنه أثبت لهن اللين ونفى عنهن اليبس والصلابة. وأما المطابقة، ففي قوله: الوحش وأوانس، وهاتا وتلك، فإن هاتا للقريب وتلك للبعيد، وأما المساواة فلفظ البيت لا يفضل عن معناه ولا يقصر عنه. وأما الاتتلاف، فلكون ألفاظه من واد واحد، متوسطة بين الغرابة والاستعمال، وكل لفظة منها لائقة بمعناها لا يكاد يصلح موضعها غيرها. وأما التمكين فاستقرار قافية البيت في موضعها وعدم نفاها عن محلها. انتهى الكلام على المناسبة اللفظية والمعنوية، وتقرير التامة والناقصة من اللفظية. فيت

الشيخ صفى الدين الحلبي في بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

مؤيد العزم والأبطال في قلق مؤمل الصفح والهيحاء في ضم

(١) القلم، ١/٦٨ - ٣.

(٢) الحسينين: هما الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء عليهما السلام.

(٣) أوانس: جمع مفردا آسة وهي الفتاة ما لم تتزوج - قنا الخط: الرماح الخطية.

الشيخ صفي الدين لم يحتج في بيته إلى المناسبة المعنوية، بل أتى باللفظية. وعجبت منه كيف رضي لنفسه بقول القائل:

إذا كنت ما تدري سوى الوزن وحده فقل أنا وزان وما أنا شاعر

وليته أتى بالمناسبة اللفظية تامة، فإنه في عالم الإطلاق غير مقيد بتسمية، ومناسبته اللفظية الناقصة ظاهرة، فقوله: مؤيد العزم، في وزن مؤمل الصفع، وقوله: والأبطال في قلق موازن والهيحاء في ضرم.

ولم ينظم العميان هذا النوع، وبيت الشيخ عز الدين الموصللي يقول فيه، عن النبي

ﷺ:

ألم تر الجود يجري في يديه ألم تسمع مناسبة في قوله نعم

الشيخ عز الدين غفر الله له لم يثبت له مع المناسبة المعنوية واللفظية نسبة، ولكنه قال لمن يخاطبه: ألم تر الجود يجري من أيادي النبي ﷺ؟ ألم تسمع مناسبة من لفظ نعم؟ ولفظ الشيخ عز الدين الموضوع في بيته ليس فيه مناسبة لفظية أتى فيها بوزن وقافية، ولا مناسبة معنوية ابتدأ فيها بمعنى، وتمم كلامه بما يناسبه.

وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ:

فعلمه وافر والزهد ناسبه وحلمه ظاهر عن كل مجترم

هذا البيت جمعت فيه، ببركة ممدوحه ﷺ، بين المناسبة المعنوية واللفظية التامة المشتملة على الوزن والتقفية. فقولي: علمه يناسبه حلمه، وزنا وقافية، ووافر مثله ظاهر، وزناً وقافية، والمناسبة المعنوية ابتدأ بها، في أول الشطر الثاني من البيت بذكر الحلم، ثم تمت كلامي بقولي: عن كل مجترم، فحصلت المناسبة المعنوية بين الحلم، وذكر الاجترام الذي هو الذنب مع تمكين القافية، فإنه قيل عن المأمون إنه كان يقول: لو علم الناس محبتي للعفو لتقربوا إليّ بالجرائم، وهذه هي المناسبة المعنوية بعينها، ولكن النبي ﷺ أحق بهذا المدح وأولى بهذه الصفات.



ذكر التوشيع

ووشع العدل منه الأرض فاتشحت بحلة الأمجدين العهد والذمم

التوشيع: مأخوذ من الوشيعه وهي الطريقة الواحدة في البرد المطلق، فكأن الشاعر أهمل البيت إلا آخره، فإنه أتى فيه بطريقة تعد من المحاسن، وهو عند أهل هذه الصناعة عبارة عن أن يتكلم المتكلم أو الشاعر باسم مثنى في حشو العجز، يأتي بعده باسمين مفردين هما عين ذلك المثنى، يكون الآخر منهما قافية بيته أو سجة كلامه، كأنهما تفسير له. وقد جاء من ذلك في السنة الشريفة ما لا يلحق بلاغته، وهو قوله ﷺ: يشيب المرء وتشب معه خصلتان: الحرص وطول الأمل، ومن أمثلة هذا الباب في النظم قول الشاعر:

أمسي وأصبح من تذكركم وصبا	يرثي لي المشفقان الأهل والولد ^(١)
قد خدد الدمع خدي من تذكركم	واعتادني المضيان الوجد والكمد
وغاب عن مقلتي نومي لغيبكم	وخانني المسعدان الصبر والجلد
لا غرو للدمع أن تجري غواربه	وتحتة المظلمان القلب والكبد ^(٢)
كأنما مهجتي شلو بمسبعة	يتتابها الضاريان الذئب والأسد ^(٣)
لم يبق غير خفي الروح في جسدي	فدى لك الباقيان الروح والجسد

هذه الأبيات عامرة بالمحاسن، في هذا الباب، غير أن أهل النقد الصحيح ما سكتوا عن تقصيره في البيت الأول، حيث قال فيه: يرثي لي المشفقان الأهل والولد. فإن

(١) الوصب: التعب والمرض.

(٢) غوارب الدمع: أوائله.

(٣) الشلو: بقية الجسد - المسبعة: مكان وجود السباع - الضاريان: المفترسان.

شفقة الأهل والولد معروفة، والمشفق إذا رثى لشكوى أهله، أو الولد إذا رثى لشكوى والده، كان ذلك تحصيل الحاصل، والمراد هنا أن يقول رثى لي العدو، ورق لي الصخر وأشباه ذلك.

قال ابن أبي الأصبع: وما بشعر قلته هنا من بأس:

بي محتتان ملام في هوى بهما يرثي لي القاسيان الحب والحجر
لولا الشفيقان من أمانة وأسى أودى بي المرديان الشوق والفكر^(١)

رأيت في حاشية، على هذين البيتين بخط رفيع: رحم الله الشيخ، لو قال: الشوق والسهر، كان أتم وأحسن. وبيت الشيخ صفي الدين في هذا الباب غاية، فإنه يقول في وصف النبي ﷺ:

أمي خط أبان الله معجزه بطاعة الماضيين السيف والقلم
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم، وبيت الشيخ عز الدين الموصلني رحمه الله:

ومن عطاياه روض وشخصه يد تغني عن الأجودين البحر والديم^(٢)
الشيخ عز الدين أتى بالتوشيع على الوضع، ولكنه شن الغارة على ابن الرومي، وفك قواعد بيته، وهو:

أبو سليمان إن جادت لنا يده لم يحمد الأجودان البحر والمطر
أخذ الأجودين والبحر، ورادف المطر بالديم. وهذا ما يليق بأهل الأدب.
وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

ووسع العدل منه الأرض فاتشحت بحلة الأمجدين العهد والذمم
وأنا على مذهب زكي الدين بن أبي الأصبع في قوله: وما بشعر قلته هنا من بأس.
انتهى.



(١) الأسي: الحزن - المردي: المميت.

(٢) وشع: وشى وزخرف - الديم: الغيوم الممطرة.

ذكر التكميل

آدابه تمت لا نقص يدخلها والوجه تكميله في غاية العظم

التكميل: هو أن يأتي المتكلم، أو الشاعر، بمعنى تام، من مدح أو ذم أو وصف أو غيره من الأغراض الشعرية وفنونها، ثم يرى الاقتصار على الوصف بذلك المعنى فقط غير كامل، فيأتي بمعنى آخر يزيده تكميلاً، كمن أراد مدح إنسان بالشجاعة، ثم رأى الاقتصار عليها دون مدحه بالكرم غير كامل فيكمله بذكر الكرم، أو بالبأس دون الحلم وما أشبه ذلك من الأغراض. وقد جاء منه في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾^(١) فانظر إلى هذه البلاغة، فإنه سبحانه وتعالى علم وهو أعلم أنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة للمؤمنين، لكان مدحاً تاماً مشتملاً على الرياضة والانقياد لإخوانهم، ولكن زاده تكميلاً ووصفهم، بعد ذلتهم لإخوانهم المؤمنين، بالعزة على الكافرين، وهذا هو التكميل الذي يتطفل البدر على كماله. ومثاله، في الشعر، قول كعب بن سعيد الغنوي:

حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيب^(٢)

قوله: إذا ما الحلم زين أهله، احتراس لولاه لكان المعنى في المدح مدخولاً، إذ بعض التغاضي قد يكون عن عجز يوهم أنه حلم، فإن التجاوز لا يكون حليماً محققاً إلا عن قدرة، وهو الذي قصده الشاعر بقوله: إذا ما الحلم زين أهله. فإن الحلم ما يزين

(١) المائدة، ٥٤/٥.

(٢) مهيب: مهاب أو ذو هية.

أهله إلا إذا كان عن قدرة، وهذا القدر غاية في باب التكميل، ثم رأى أن مدحه بالحلم وحده غير كامل، فإنه إذا لم يعرف منه إلا الحلم طمع فيه عدوه، فقال مع الحلم في عين العدو مهيب، قلت ومما يؤيد هذا التقرير قول الشاعر:

وحلم ذي العجز أنت عارفه والحلم عن قدرة ضرب من الكرم

ومن التكميل الحسن قول كثير عزة:

لو أن عزة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها^(١)

فقوله: عند موفق تكميل حسن، فإنه لو قال عند محكم لثم المعنى، لكن في قوله: عند موفق زيادة تكميل بها حسن البيت والسامع يجد لهذه اللفظة من الموقع الحلو في النفس ما ليس للأولى، إذ ليس كل محكم موفقاً فإن موفق من الحكام من قضى بالحق لأهله.

وقد غلط غالب المؤلفين في هذا الباب، وخلطوا التكميل بالتميم، وساقوا في باب التميم شواهد التكميل، فمن ذلك قول عوف السعدي:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

هذا البيت ساقوه من شواهد التميم، وهو أبلغ شواهد التكميل، فإن معنى البيت تام بدون لفظة وبلغتها، وإذا لم يكن المعنى ناقصاً فكيف يسمى هذا تميمياً، وإنما هو تكميل حسن.

قال ابن أبي الأصعب وما غلطهم إلا أنهم لم يفرقوا بين تميم الألفاظ، وتميم المعاني، فلو سمي مثل هذا تميمياً للوزن، لكان قريباً، ولما^(٢) ساقوه على أنه من تميم المعاني، وهذا غلط، والفرق بين التميم والتكميل، أن التميم يرد على المعنى الناقص فيتممه، والتكميل يرد على المعنى التام فيكمله، إذ الكمال أمر زائد على التمام وقد تقدم هذا الكلام على التميم في موضعه، ولكن أردت هنا تفصيل التكميل عن التميم، لتنجلي عن الطالب ظلمة الأشكال بصبح هذا الفرق الدقيق، ومن أحسن التكميل قول شاعر الحماسة:

لو قيل للمجد خذ عنهم وخلهم بما احتكمت من الدنيا لما حادا

(١) الموفق: المصيب أو الموفق إلى الحق.

(٢) في الأصل: ولما وما أثبتناه هو الصحيح.

فقوله: بما احتكمت من الدنيا، تكميل في غاية الكمال. ويعجبني، من هذا الباب، قول الشيخ جمال الدين بن نباته في بعض مطالعه المقمرة:

نفس عن الحب ما حادت ولا غفلت بأي ذنب وراك الله قد قتلت

معنى بيت الشيخ جمال الدين أيضاً تام، بدون قوله وراك الله، ولكن التكميل بوقاك الله قبل قتلت لا يصدر إلا من مثل الشيخ جمال الدين، وما أحقه هنا بقول القائل:

قالوا فهل يسمح الدهر الكريم لنا بمثله قلت لا والله قد حلفا

ومثله قولي في مطلع قصيدة:

قد مال غصن النقا عن صبه هيفا يا ليته بنسيم العتب لو عطفنا

معنى البيت تام، بدون نسيم العتب، ولكن استعارة نسيم العتب هنا بعد ميل الغصن وذكر انعطافه غاية في باب التكميل، وفيه مع التكميل المناسبة المعنوية والاستعارة اللطيفة، وناهيك بلطف نسيم العتب، وفيه التمكن والانسجام، ومثله قولي في مطلع قصيدة:

جردت سيف اللحظ عند تهددي يا قاتلي فسلبتني بمجرّد

معنى البيت تام، بدون قولي يا قاتلي، وقولي يا قاتلي بعد تجريد سيف اللحظ أكمل من بدور الكمال، وقلت، بعد المطلع، ولم أخرج عن التكميل:

وأردت أن تسقى بماء حشاشتي حاشاك ما يسقى الصقيل من الصدي^(١)

معنى البيت أيضاً تام، بدون قولي حاشاك، ولكنها زادت البيت تكميلاً رفعت به قواعده، ومثله قولي من قصيدة:

وأفردتموني للغرام لأنكم أخذتم كما شاء الهوى بمجامعي^(٢)

معنى البيت تام، بدون قولي كما شاء الهوى، ولكن التكميل بها تكملت به محاسن البيت، ومثله قولي من قصيدة:

أذابت القلب في نار الهوى عبثاً ومد سلته وقالت إنه قالي^(٣)

قالت سلوت لحاك الله قلت لها الله أعلم يا أسما من السالي^(٤)

(١) الحشاشه: الروح - الصقيل: من صفات السيف وهو المسنون - الصدي: العطشان أو الذي يعلوه الصدا.

(٢) أخذ بمجامعه: سيطر عليه تماماً.

(٣) قالي: كاره هاجر.

(٤) لحاك الله: دعاء عليه بمعنى غضب الله عليك - أسما: ترخيم أسماء - السالي: الناسي.

فلفظة عبثا في البيت الأول، تكميلها ظاهر ولكن لحي الله من لا ينظر إلى محاسن لحاك الله في البيت الثاني. ومثله قولِي من قصيدة:

ورب غصن لأطيار القلوب على قوامه في رياض الوجد تغريد
والمعنى أيضاً تام في هذا البيت، بدون قولِي في رياض الوجد، ولكن مناسبة التكميل برياض الوجد بين الغصن والأطيار والتغريد، غاية في هذا الباب.
وقد طال الشرح، ولكن مثل التكميل ما ينقص من قدره، ويختصر من أمثله، وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته:

نفس مؤيدة بالحق تعضدها عناية صدرت عن باريء النسم^(١)

بيت الشيخ صفي الدين لم يظهر لبدور التكميل في أفقه إشراق، ومعنى البيت تام ولكن لم يأت فيه الناظم بنكتة تزيده تكميلاً. والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم، وبيت الشيخ عز الدين في بديعته:

تمت محاسنه والله كمله فقدره في الورى في غاية العظم^(٢)

بيت الشيخ عز الدين أمثل من بيت الشيخ صفي الدين، وتكميله ظاهر فإن معنى بيته تام، بدون قوله والله كمله، ولكن قوله هنا والله كمله في غاية الكمال، فإنها اشتملت على تورية التسمية ونكتة النوع وبيت بديعيتي:

آدابه تمت لا نقص يدخلها والوجه تكميله في غاية العظم

معنى هذا البيت أيضاً تام، بدون قولِي لا نقص يدخلها، ولكن هذا النقص هو عين التكميل، والله أعلم.



(١) آيد: قوى - عضد: ساعد.

(٢) الورى: الناس.

ذكر التفريق

قالوا هو البدر والتفريق يظهر لي في ذاك نقص وهذا كامل الشيم^(١)
التفريق في اللغة ضد الاجتماع، وفي الاصطلاح أن يأتي المتكلم أو الناظم إلى شيتين من نوع واحد، فيوقع بينهما تبايناً وتفريقاً، بفرق يفيد زيادة وترجيحاً فيما هو بصدده من مدح أو ذم أو نسيب أو غيره من الأغراض الأدبية، كقول الشاعر في المديح:

كنوال الأمير يوم سخاء
ونوال الغمام قطرة ماء^(٢)

ما نوال الغمام وقت ربيع
فنوال الأمير بدرة مال

ومثله:

أنصف في الحكم بين شكلين
وهو إذا جاد دامع العين

من قاس جدواك بالغمام فما
أنت إذا جدت ضاحك أبداً

قال بدر الدين بن النحوية في غير المدح:

وأين البدر من ذاك الجمال

حسبت جماله بدرأ منيراً

قلت: وأحسن منه قول القائل:

قياس جهل بلا انتصاف
وأنت غصن بلا خلاف^(٣)

قاسوك بالغصن في التثني
هذالك غصن الخلاف يدعى

(١) الشيم: الخصال الحميدة.

(٢) البدرة: الصرة.

(٣) الخلاف: شجر الصفصاف - وخلاف: مخالفة.

فالتفريق في الجميع فزقه ظاهر مثل الصبح، ولكن هذا النوع ما هو غاية في
البديع، فما يحتمل إطلاقه في القلم في الكلام عليه أكثر من ذلك، وبيت الشيخ صفى
الدين الحلبي، في بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

فجود كفيه لم تقلع سحائبه عن العباد وجود السحب لم يدم
بيت الشيخ صفى الدين الحلبي حسن، في هذا الباب، والتفريق فيه جمع
المحاسن في مدح النبي ﷺ. وبيت العميان في بديعيتهم:

لا يستوي الغيث مع كفيه نائل ذا ماء ونائله مال فلا تهم^(١)

العميان، غفر الله لهم، مسخوا قول الشاعر:

ما نوال الغمام وقت ربيع كنوال الأمير يوم سخاء
فنوال الأمير بدرة ماء ونوال الغمام قطر ماء

والظاهر، أن نوال الغمام وقت الربيع محجب عن العميان، ولكن أين هم من موقع
التفريق وعظم المباينة، بين بدرة المال وقطرة الماء، هذا مع ما تجشموه من مشاق
التعقيد وثقل التركيب والجميع يخف على النفس بالنسبة إلى قولهم في القافية: فلاتهم.
نعم ما يحط هذه^(٢) القافية هنا على هذه الصيغة من شم للأدب رائحة، وأين هم من
تمكين قافية الشيخ صفى الدين في قوله:

فجود كفيه لم تقلع سحائبه عن العباد وجود السحب لم يدم

وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي، في بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

قالوا هو البحر والتفريق بينهما إذ ذاك غم وهذا فارح الغم

بيت الشيخ عز الدين، في هذا الباب، عامر بالمحاسن وحشمة المديح النبوي
مشرقة على أركانه، ونوع التفريق فيه أحلى من ليالي الوصال، فإنه مشتمل على تورية
التسمية ونكتة النوع البديعي ولطف الانسجام والسهولة، وليس في بديعته بيت يناظره في
علو طباقه.

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

(١) تهم: تتوهم.

(٢) في الأصل (هذا).

قالوا هو البدر والتفريق يظهر لي في ذاك نقص وهذا كامل الشيم
قد أطلقت لسان القلم في وصف بيت الشيخ عز الدين، ولعمري إنه يستحق فوق
ذلك فإن التكلف بتسمية النوع، موري به من جنس المديح، يثقل كاهل كل فحل. وقد
حبست عنان القلم عن الاستطراد إلى وصف هذا البيت، فإن في إنصاف أهل الذوق ما
يغني عن الإطناب في وصفه. انتهى.



ذكر التشطير

وانشق من أدب له بلا كذب شطرين في قسم تشطير ملتزم
التشطير: هو أن يقسم الشاعر بيته شطرين، ثم يصرع كل شطر منهما، لكنه يأتي
بكل شطر من بيته مخالفاً لقافية الآخر، كل شطر عن أخيه، فمن ذلك قول مسلم بن
الوليد:

موف على مَهَج في يوم ذي رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل^(١)
هذا البيت تصريعه صحيح، ولكن تصريع الشطر الثاني قافيته الأولى مرفوعة والثانية
مجرورة، وهذا عيب في تصريع التشطير، وقول أبي تمام في هذا الباب خالص من
ذلك، وهو:

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتعب في الله مرتقب^(٢)
وعلى جادته الواضحة مشى الشيخ صفي الدين الحلبي، في بديعته، وبيته:
بكل منتصرٍ لفتح متظيرٍ وكل معتزمٍ بالحق ملتزم
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم: وأنا أقول: يا ليتني كنت معهم، فإنه
نوع مبني على قعاقع^(٣) ليس تحتها طائل، ولكن الشروع في معارضة البديعيات أوجب
نظمه، وبيت الشيخ عز الدين في بديعته:

(١) المَهَج: النضرة - رَهَج: سحاب رقيق.

(٢) مرتعب: خائف - مرتقب: يراقب الله في أفعاله وأقواله.

(٣) القعاقع: الجلبة وكثرة الصوت.

تشطير معتدل بالسيف مشتمل في جحفل لهم كالأسد في الأجم (١)
وبيت بديعيتي أشير فيه إلى انشقاق القمر، في مديح النبي ﷺ، وتقدم قولِي في
نوع التفريق:

قالوا هو البدر والتفريق يظهر لي في ذاك نقص وهذا كامل الشيم
وقلت بعده في التشطير:

وانشق من أدب له بلا كذب شطرين في قسم تشطير ملتزم
كان الشيخ صفى الدين الحلبي يكثر من هذا النوع في غالب قصائده، ولعمري إنه
استسمن ذا ورم، وما خطر لي يوماً أنني أدخله إلى بيت من بيوت قصائدي. انتهى.



(١) اشتمل بالسيف: تقلده - الجحفل: الجيش الكبير. الأجم: جمع مفردة أجمة: وهي مكان ملتف الأشجار.

ذكر التشبيه

والبدر في التمثيل كالعرجون صار له فقل لهم يتركوا تشبيه بدرهم^(١)
التشبيه: ضروب متشعبة، وهو والاستعارة يُخرجان الأغمض إلى الأوضح، ويقربان
البعيد، وقال الجرجاني: التشبيه والتكميل كل منهما بالصورة والصفة، وتارة بالحالة،
وهذه صفة التمثيل. والتشبيه ركن من أركان البلاغة، وأركانه أربعة، كقولك: زيد في
الحسن كالقمر، فالأول المشبه وهو زيد، والثاني المشبه به وهو القمر، والثالث المشبه
وهو المتكلم، والرابع التشبيه وهو الإلحاق المذكور في الشبه، وأدوات التشبيه خمسة:
الكاف وكان وشبه ومثل والمصدر بتقدير الأداة، كقوله تعالى: ﴿وهي تمرّ مرّاً
السحاب﴾^(٢) ومن الشعر كقول حسان:

بزجاجة رقصت بما في قعرها رقص القلوص براكب مستعجل^(٣)

ومن الشروط اللازمة في التشبيه أن يشبه البليغ الأدون بالأعلى، إذا أراد المدح
اللَّهُمَّ إلا إذا أراد الهجو، فالبلاغة أن يشبه الأعلى بالأدون، كقول ابن الرومي، سامحه
الله، في هجو الورد:

كأنه سرم بغل حين سكرجه عند البراز وباقي الروث في وسطه^(٤)

(١) العرجون: ما يحمل التمر، وهو من النخل كالعنقود من العنب ووجه الشبه اللون الذهبي.

(٢) النمل، ٨٨/٢٧.

(٣) القلوص: من الإبل: الفتية القوية.

(٤) السُّرم: طرف المعى الغليظ المستقيم أو فتحة إخراج الفضلات من الجسم - سَكْرَج: لم نعثر على
معنى لهذه اللفظة في ما بين أيدينا ونظنها من السكرجة، وهي إناء صغير مستدير: فيكون سكرج:
جعله مستديراً كالسكرجة - البراز: إخراج الفضلات - الروث: فضلات الحيوان.

الظاهر أنه كان جعلياً، وإلا مثله ما يخالف الإجماع ويبلغ في مثل هذه المغايرة، ولعمري إنه في بابه من التشابه البليغة، مع نفور الطباع عن صيغته. ومثله قول أبي العلاء السروي، في هجو النرجس وتشبيه أعلاه بدونه:

كرائة ركبت عليها صفرة بيض على رقاقه (١)

وأصحاب المعاني والبيان أطلقوا أئنة الكلام في ميادين حدود التشبيه وتقاريرها، وهو عندهم الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى.

وقال الرماني التشبيه: هو العقد غلى أن أحد الشئيين يسد مسد الآخر في حال، وهذا هو التشبيه العام الذي يدخل تحته التشبيه البليغ وغيره والتشبيه البليغ هو إخراج الأغمض إلى الأوضح، مع حسن التأليف. ومنهم من قال: التشبيه هو الدلالة على اشتراك شئيين في وصف هو من أوصاف الشيء الواحد.

وقال ابن رشيق، في العمدة: التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية كان إياه، ألا ترى إلى قولهم: خد كالورد إنما مرادهم احمرار أوراقه وطراوتها لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمامه. انتهى حد ابن رشيق.

وقيل: التشبيه إلحاق أدنى الشئيين بأعلاهما في صفة اشتركا في أصلها، واختلفا في كفيتهما قوة وضعفا. قلت: وهذا حد مفيد.

وأورد ابن أبي الأصعب في كتابه تحرير التحرير، للرماني حداً زاد في حسنه على الحد، وهو أن التشبيه تشبيهان: الأول منهما، تشبيه شئيين متفقين بأنفسهما، كتشبيه الجواهر بالجواهر، مثل قولك: ماء النيل كماء الفرات، وتشبيه العرض بالعرض، كقولك: حمرة الخد كحمرة الورد، وتشبيه الجسم بالجسم، كقولك: الزبرجد مثل الزمرد. والثاني، تشبيه شئيين مختلفين بالذات لجمعهما معنى واحداً مشتركاً، كقولك: حاتم كالغمام، وعنترة كالضرغام. وتشبيه الاتفاق، وهو الأول، تشبيه حقيقي، وتشبيه الاختلاف، وهو الثاني، تشبيه مجازي، والمراد بالمبالغة، انتهى.

ووقوع حسن البيان والمبالغة في التشبيه على وجوه: منها، إخراج ما لا تقع عليه

(١) أنكرائه: واحدة الكراث وهو نبات بري طعمه شبيه بطعم الثوم والرقاقة: واحدة الرقاق وهو الخبز المنبسط الرقيق(خبز الصباح) أو الأرض اللينة المنبسطة.

الحاسة، إلى ما تقع عليه الحاسة، وقد عنّ لي أن أوضح هنا للطالب، ما وقع من النظم البديع، من تشبيه المحسوس بالمحسوس، وتشبيه المعقول بالمعقول، وتشبيه المعقول بالمعقول، من تشبيه المحسوس بالمعقول. وهذا القسم الرابع، عند أصحاب المعاني والبيان، غير جائز، ويأتي الكلام عليه في موضعه. وقد تعين تقديم ما وعدت به أولاً من تشبيه المحسوس بالمحسوس، فإن الذي تقع عليه الحاسة في التشبيه أوضح مما لا تقع عليه الحاسة، والشاهد أوضح من الغائب. وقال قدامة: أفضل التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما، حتى يدلى بهما إلى الاتحاد. انتهى.

ولم يخطر لي أن أورد هنا من التشبيهات البديعية التي اخترتها أمثلة لهذا النوع، إلا ما خف على السمع وعذب في الذوق وارتاحت الأنفس إلى حسن صفاته، فإن التشابه التي تقادم عهدها للعرب، رغب المولدون عنها فإنها، مع عقادة التركيب، لم تسفر عن بديع معنى، إلا ما قل وندر، فمن ذلك قول امرئ القيس:

وتعطو برخص غير شثنٍ كأنه أساريع ظبي أو مساويك اسحل^(١)

فغاية امرئ القيس هنا، أنه شبه أنامل محبوبته بأساريع، وهي دواب تكون في الرمل ظهورها ملس، وبمساويك اسحل والاسحل شجر له أغصان ناعمة، أين هذا من قول الراضي بالله في هذا الباب:

قالوا الرحيل فأنشبت أظفارها في خدها وقد اعتلقتن خضابا^(٢)

فكأنها بأنامل من فضة غرست بأرض بنفسج عنابا^(٣)

ومثله قول القائل:

قبلته فبكي وأعرض نافراً يذري المدامع من كحيل أدعج^(٤)

فكأن سقط الدمع من أجفانه لما بدا في خده المتضرج^(٥)

برد تساقط فوق ورد أحمر من نرجس فسقى رياض بنفسج

(١) تعطو: تتناول الشيء - برخص: أي بكف أو بنان. رخص أي طري ناعم - الشثن: السميك

الغليظ، الأساريع: واحدها أسروع، أو يسروع وهو نوع من الدود الأبيض الأبدان الأحمر الرؤوس

تشبه به الأصابع - الظبي: الغزال - المساويك: واحدها مسوك: وهو عود ليفي تنظف به الأسنان -

الإسحل: شجر يشبه الأثل ينبت في منابت الأراك تستعمل أغصانه للاستياك.

(٢) أنشبت أظافره: غرزها - الخضاب: الحناء والصباغ ذي اللون البني الذي يميل إلى الأحمر.

(٤) العناب: نوع من الثمر يشبه بثمر الزيتون، حلو الطعام لونه كلون الخضاب عند النضج.

(٤) الأدعج: الذي في عينه دعج، والدعج هو شدة سواد العين وشدة بياض بياضها مع اتساعها.

(٥) المتضرج: المشرب حمرة.

أنظر أيها المتأمل، إلى هذه التشابيه التي يرشفها السمع مداماً، وتهيم الأذواق
السليمة في محاسنها غراماً، ومن ذلك قول ابن حاجب النعمان:

ثغر وخذّ ونهد واحمرار يد كالطلع والورد والرمان والبلح^(١)
ومثله قول ابن رشيق:

بفرع ووجه وقد وردف كليل وبدر وغصن وحقف^(٢)

المراد هنا من حسن التشبيه وبلغه غير كثرة العدد في الصفات، فإن قاضي القضاة
نجم الدين بن البارزي، نور الله ضريحه، وصل فيه من العدد إلى سبعة، وأوردت ذلك
في باب اللف والنشر، وأوصله الناس إلى أكثر من ذلك، ولكن جل القصد هنا غير كثرة
العدد فإن المراد من التشبيه، غرابة أسلوبه وسلامة اختراعه، كقول القائل:

وتحدث الماء الزلال مع الحصي فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى
فكأن فوق الماء وشياً ظاهراً وكان تحت الماء دراً مضمراً^(٣)

أقول: إن تشبيه هذا الدر المضمّر هنا، أعلى قيمة من الدر الظاهر في عقود
الأجناد، ومثله في الغرابة وسلامة الاختراع، قول ابن المعتز:

كأنه وكان الكأس في فمه هلال أول شهر غاب في الشفق
ومن ذلك قوله:

على عقار صفراء تحسبها شيبت بمسك في الدن مفتوت^(٤)
للماء فيها كتابة عجب كمثل نقش في فص ياقوت^(٥)

ومثله قول ابن حجاج، وهو بديع:

هذي المجرّة والنجوم كأنها نهر تدفق في حديقة نرجس

ومن مخترعات ابن المعتز في تشبيه الهلال، قوله:

أنظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحندسا^(٦)
كمنجل قد صيغ من عسجد يحصد من زهر الدجى نرجسا

(١) النهدي: الثدي - الطلع: غلاف يشبه الكوز يفتح عن حب منضود.

(٢) الردف: العجز - الحقف: الكثيب من الرمل.

(٣) الوشي: التطريز - المضمّر: المكنون.

(٤) الدن: وعاء الخمر - شيبت: خلطت ومزجت.

(٥) الفص: الحصص، والياقوت: نوع من الأحجار الكريمة لونه أزرق رائق.

(٦) الحندس: الظلام.

ومن مخترعاته أيضاً في الهلال:

قد انقضت دولة الصيام وقد
يتلو الثريا كفاغر شره
بشر سقم الهلال بالعيد
يفتح فاه لأكل عنقود^(١)

ومثله قوله فيه:

وجاءني في قميص الليل مستتراً
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا
يستعجل الخطر من خوف ومن حذر
مثل القلامة قد قَدَّت من الظفر^(٢)

هذا التشبيه، ذكروا أنه من مخترعات ابن المعتز، ولكن زاده القاضي الفاضل بهجة، ونقله من الأعلى إلى الأدنى، فإن رتبة الهلال وعلوها في التشبيه على قلامة الظفر ما برحت مقررة في الخواطر، إلى أن نقلها القاضي الفاضل، بطريق بديعية اقتضتها الحال، وهي قوله مبالغاً في وصف قلعة نجم بالعلو:

وأما قلعة نجم، فهي نجم في سحاب، وعقاب في عقاب، وهامة لها الغمامة
عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل، كان الهلال لها قلامة. فخضاب الأصيل لهذه
الأنملة، حسن أن يكون الهلال لها قلامة، وهذي غاية فاضلية لا تدرك، وقد وصلوا في
تشبيه الهلال إلى السبعين، ولكن ما أوردت هنا إلا أبلغ ما وقع في تشبيهه. ويعجبني من
التشابه البليغة، في هذا الباب، قول ابن طباطبا:

أما والثريا والهلال جلتهما
كأسماء إذ زارت عشاء وغادرت
لي الشمس إذ ودعت كرهاً نهارها
دلالاً لدينا قرطها وسوارها^(٣)

ومثله في الحسن والغرابة، قول أبي نواس:

ويمين الجوزاء تبسط باعاً
وكان النجوم أحداق روم
لعناق الدجى بغير بنان
ركبت في محاجر السودان

ومثله قول القائل:

كان نجوم الليل مزهرة لنا
ثغور بني حام بدت للتشاؤب

(١) الفاغر: الذي يفتح فاه وهو خال من الطعام.

(٢) القلامة: القطعة من الظفر بعد قصه.

(٣) القرط: ما يعلق في الأذن من الحلوى (الحلق) والسوار: ما يحيط بالمعصم من الحلوى.

ويعجبني، من التشابه الغربية، قول ابن نباتة السعدي، في جواد أدهم أغر
محجل:

تختال منه على أغر محجل ماء الدياتي قطرة من مائه
وكانما لطم الصباح جبينه فاقتصر منه فخاص في أحشائه

ومن التشابه اللطيفة البديعية، قول القاضي التبوخي من قصيدة:

وراح من الشمس مخلوقة بدت لك في قدح من نضار
كأن المدير لها باليمين إذا مال للشرب أو باليسار
تدرع ثوباً من الياسمين له فردٌ كمٍ من الجلنار^(١)

ومثله في اللطف والغرابة قول القائل:

كم وردة تحكي بسبق الورد طليعة تسرعت من جند
قد ضمها في الغصن قرص البرد ضم فمٍ لقبلةٍ من بُعد

ودخل مجير الدين بن تميم إلى حديقة هذه الوردة، فزاد بعدها تقريباً، بقوله:

سبقت إليك من الحداثق وردة وأتتك قبل أوانها تطفيلاً^(٢)
طمعت بلثمك إذ رأتك فجمعت فمها إليك كطالب تقبيلاً

-وظرف من قال في الوردة:

كانها وجنة الحبيب وقد نقطها عاشق بدينار

ومثله، في الظرف قول أيدمر المحيوي في النرجس:

وكان نرجسه المضاعف خائض في الماء لف ثيابه في رأسه

ويعجبني في تشبيه النرجس، قول شهاب الدين أحمد القماح، راجح رجاح الديار
المصرية، في فن الزجل في بعض أزجاله:

وفي الأزاهير قم ترى شي تذهب وشي تصيوا قد زها وتفضض
النرجس أحداقو الشهل نعسانه إلا أنها من الندى ليس تغمض
وحيث فتح عينو في وجهي شبهت اصفر ولما بدا في الأبيض

(١) تدرع: لبس المدرعة وهي الثوب الملاصق للبدن - الجلنار: زهر الرمان.

(٢) التطفيل: ما قبل النضوج. طفيل النبات: لم يطل.

وإلا فصوص كهرب في بلار يوجد
قد سمروا فيها مسامير عسجد

ما زعفران على نصافي مطبوع
وإلا تخل شمسات لجين مبرودات

وتلطف ابن المعتز في تشبيه حباب الراح بقوله:

كما جال دمع فوق خد مورد^(١)

يجول حباب الماء في جنباتها

ومثله في اللطف قول ديك الجن الحمصي:

تناولها من خده فأدارها

موردة من كف ظبي كأنما

ومن المستغرب، في وصف البنفسج، ما نسب إلى ابن المعتز وهو:

بين الرياض على زرق اليواقيت^(٢)

ولازوردية أوفت بزرقتها

أوائل النار في أطراف كبريت

كأنها فوق طاقات نهضن بها

أوردوا على هذا التشبيه نقداً، ولكن ما يحمل البنفسج هنا نقله، ومن التشبيه

الغريبة، قول بعضهم: في تشبيه النار:

وجمرها بالرماد مستور

أنظر إلى النار وهي مضمرة

وفوقه ريشهن منشور^(٣)

شبه دم من فواخت ذبحت

ومثله، في الغرابة والحسن، قول ابن الخلال في تشبيه الشمعة:

صبحاً وتشفي الناظرين بدائها

وصحيحة بيضاء تطلع في الدجى

واسود مفرقها أوان فنائها

شابت ذوائبها أوان شبابها

وسوادها وبياضها وضيائها

كالعين في طبقاتها ودموعها

أقول: إنها أنور من شمعة الأرجاني، وإن مشى غالب الناس على ضوئها. ومن

التشابه الغريبة المنسوبة إلى ابن المعتز، أو ابن الرومي، تشبيه أرباع الجوز الأخضر،

وهو:

جاءت بجوز أخضر مكسر مقشر كأنما أرباعه مضغة علك كندر^(٤)

(١) حباب الماء: الفقاقيع التي تعلق سطحه.

(٢) لازوردية: لونها لون اللازورد وهو معدن يتولد في جبال أرمينية وفارس وأجوده الصافي الشفاف

الأزرق الضارب إلى حمرة وخضرة.

(٣) فواخت: مفردتها؛ فاخته: نوع من الحمام المطوق.

(٤) الكُنْدَر: نوع من الصمغ يستخرج من شجر شائك ورقه كالأس.

ومن التشابه العقم التي لم يسبق صاحبها إليها، قول القائل في أحذب:

قصرت أخداعه وغاب قذاله فكأنه مترقب أن يصفعا
وكأنه قد ذاق أول صفة وأحس ثانية لها فتجمعا^(١)

ومما ينسب إلى إمام هذه الصناعة، القاضي الفاضل، قوله في نفسه، وهو في غاية الظرف:

ما كان يكمل حر إذا الإيوان حتى ازداد قبه^(٢)
فكأنني فيه خرو ف شوي ومن فوقه مكبه^(٣)

ويعجبني من التشابه البليغة قول القائل:

أميم لو شاهدت يوم نزالنا والخييل تحت النقع كالأشباح^(٤)
تطفو وترسب في الدماء كأنها صور الفوارس في كؤوس الراح

ومثله في الحسن قول الناشء:

في كأسها صور تظن لحسنها عرباً برزن من الحجال وغيدا
وإذا المزاج أثارها فتقسمت ذهباً ودرّاً توأمأً وفريدا
فكأنهن لبسن ذاك مجاسداً وجعلن ذا لنحورهن عقودا^(٥)

هذا المعنى ولده الناشء، من قول أبي نواس في التصوير:

بنينا على كسرى سماء مدامة مكللة حافاتاها بنجوم
فلورد في كسرى بن ساسان روجه إذا لاصطفاني دون كل نديم

(١) الأخداع: هما الأخدعان: عرقان في صفحتي العنق - القذال: ما بين الأذنين من مؤخر الرأس. ويروى البيت: ب«غار قذاله» بدل«غاب قذاله». وغار أصح لأن غار يحتمل الوجود مع انخفاء بينما غاب لا يحتمل الوجود في مكانه ويروى الثاني: وكأنما صفت قفاه مرة. وهذان البيتان لابن الرومي.

(٢) الإيوان: عرش الملك. ومنه إيوان كسرى.

(٣) المكبة: واحدة الكبة. وهي نوع من الطعام يصنع بواسطة اللحم المدقوق والبرغل. أو واحدة الكباب، وهي عبارة عن كتلة من اللحم المقروم(كفتة).

(٤) أميم: ترخيم أميمة - النزال: الحرب والمبارزة - النقع: الغبار الكثيف.

(٥) المجاسد: مفردها مجسد وهو من الثياب مالماس الجسد.

والم به ابن قلاقس، فيما بعد، وسبكه في قالب حسن بقوله:

دارت زجاجتها وفي جنباتها كسرى أنوشروان في إيوانه
فخلعت عن عظفيه حلة قهوة وشربتها فغدوت في سلطانه^(١)

والم به الشيخ صلاح الدين الصفدي وأجاد إلى الغاية، مع حسن التضمين، بقوله:

ومشمولة قد هام كسرى بكأسها فأضحى ينادي وهو فيها مصور
وقفت لشوقي من وراء زجاجة إلى الدار من فرط الصباة أنظر^(٢)

والم به بعده صاحب فخر الدين بن مكاس، رحمه الله تعالى، بقوله:

إذا ما أديرت في حشا عسجدية بها كل ذي تاجٍ وقصرٍ تصوّرا^(٣)
فحسبك نبلاً في السيادة أن ترى نديميك في الكاسات كسرى وقيصرا

لم أورد هذه الأبيات التي ولدها المتأخرون في معنى التصوير، خالية من التشبيه وأداته إلا لفائدة عن لي إيرادها هنا، وهي معرفة الموجب لنقش هذه الصورة على ظاهر الكاسات.

ذكر الفقيه أبو مروان الكاتب ابن بدرون، في شرحه لقصيدة الوزير عبد المجيد بن عبدون، أن سابور بن هرمز الملقب بذي الأكتاف، لما رجع من قتال بني تميم قصد الروم والدخول إلى القسطنطينية متكرراً، واستشار قومه قبل ذلك فحذروه فلم يقبل قولهم، وصار إليها فصادف وليمة لقيصر قد اجتمع فيها الخاص والعام فدخل في جملتهم وجلس على بعض موائدهم، وكان قيصر قد أحكم تصوير سابور على آنية شرابه فانتهدت الكأس في المجلس إلى يد بعض ندماء الملك وكان ذكياً حاذقاً، ومن الاتفاق العجيب جلوس سابور في مقابله فصار النديم ينظر إلى الصورة وإلى سابور ويتعجب من تقارب الشبهين، فلم يسعه غير القيام إلى الملك والإسرار إليه بما شاهده، فقبض في الحال على سابور، ولما مثل بين يدي قيصر سأله عن خبره فقال: أنا من أساورة سابور هربت منه لأمر خفته. قلم يقبل ذلك منه وقدم إلى السيف فأقر بنفسه وجعل في جلد بقرة. وتمام أمره إلى أن خلص وعاد إلى ملكه يطول شرحه هنا، ومن أراد ذلك ينظر من «سلوان المطاع» في السلوانة الثانية فإنها مشتملة على أنواع من الحكمة.

(١) القهوة: الخمر.

(٢) الصباة: الوجد وشدة الشوق.

(٣) إذا ما أديرت الراح في كأس ذهبية.

رجع إلى فتح باب ما كنا فيه، من تشبيه المحسوس بالمحسوس، فمن التشابه الملوكية التي لا يقع مثلها للسوقة، تشبيه سيف الدولة بن حمدان في قوس قرخ وهو:

وساق صبيح للصبوح دعوته
يطوف بكاسات العقار كأنجم
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً
يطرزها قوس السحاب بأصفر
كأذيال خود أقبلت في غلائل

فقام وفي أجفانه سنة الغمض
فمن بين منفض لدينا ومنقض
على الجودكناً والحواشي على الأرض^(١)
على أحمر في أخضر أثر مبيض
مصبغة والبعض أقصر من بعض^(٢)

ومن تشابه سيف الدولة الغربية أيضاً قوله:

أقبله على جزع كشرب الطائر الفرع

ومن التشابه اللطيفة ما نسب إلى إبليس، فإن القاضي شمس الدين بن خلكان ذكر في تاريخه، عند ترجمة ابن دريد، أنه قال: سهرت ذات ليلة، فلما كان آخر الليل، غمضت عيني فرأيت رجلاً طويلاً أصفر اللون كوسجاً^(٣) دخل عليّ وأخذ بعضادتي^(٤) الباب، فقال: أنشدني أحسن ما قلت في الخمر. فقلت: ما ترك أبو نواس لأحد دخولاً في هذا الباب. فقال: أنا أشعر منه. فقلت: ومن أنت؟ فقال: أنا أبو ناجية^(٥) من أهل الشام، وأنشدني:

وحمرء قبل المزج صفراء بعده
حكمت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا

أنت بين ثوبي نرجس وشقائق
عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

ومن بليغ التشبيهات وبيدها، قول أبي محمد عبد الله بن قاضي ميلة، في قصيدته الفائية التي امتدح بها ثقة الدولة القضاعي، صاحب صقلية الروم، وسارت له بها الركبان، وأثبتها القاضي شمس الدين بن خلكان بكمالها في تاريخه، وقد تقدّم ذكر مطلعها في حسن الابتداء، والتشبيه الموعود بإيراده هنا قوله من القصيدة المذكورة:

(١) الجنوب: الريح الجنوبية - مطارف: جمع مطرف وهو الثوب من خز - الدكن: التي يميل لونها إلى الدكنة والعتمة في أولها.

(٢) الخود: الحسناء - الغلائل: واحدها غلالة وهي الثوب.

(٣) الكوسج: الذي نبت لحيته على ذقنه فقط ولم تنبت على العارضين - أو الناقص الأسنان.

(٤) عضادتي الباب: هما الخشبتان المثبتان في الحائط على جانبيه.

(٥) أبو ناجية: من ألقاب إبليس.

وجؤجؤ مزّن الرعد يستل ودقه
 ذكرت بها ريبا وما كنت ناسياً
 كأنني إذا ما لاح والرعد معول
 سليمٌ وصوت الرعد راقٍ وودقه
 ترى برقه كالحية الصل يطرف^(١)
 فأذكر لكن لوعة تتضعف
 ويجفن السحاب الجون بالماء يذرف^(٢)
 كنفث الرقى من عظمٍ ما أتلهف
 ومن لطائف التشبيهات البليغة قول القاضي الفاضل، من قصيدة:

كأن ضلوعي والزفير وأدمعي
 طول وريح عاصف وسيول^(٣)
 ومثله في اللطف قوله:

لو لم يعطل خاطري من سلوة
 أودعته قلبي فخان وديعتي
 ما كان خدي بالمدامع حالي^(٤)
 فسواده في خده كالخال
 ومن التشابه الغريبة البديعة، قوله أيضاً، من قصيدة أخرى:

وقد تهادت سيوف الهند إذ خضبت
 كالشرب حين تهادى بالزجاجات^(٥)
 ويعجبني، من لطائف التشبيه، قول محيي الدين بن قرناص الحموي:

من لقلبي من جور ظبي هواه
 خصره تحت أحمر البند يحكي
 لي شغلٍ عن حاجر والقويق^(٦)
 خنصرأ فيه خاتم من عقيق
 ومن التشابه البديعة قول مجير الدين بن تميم:

ونهر إذا ما الشمس حان غروبها
 رأينا الذي أبقت به من شعاعها
 ولاحت عليه في غلائلها الصفر
 كأننا أرقنا فيه كأساً من الخمر
 ومثله قوله:

وناعورة قد ألبست لحيائها
 كطاووس بستان تدور وتنجلي
 من الشمس ثوباً فوق أثوابها الخضر
 وتنفض عن أرياشها بلل القطر

(١) الجؤجؤ؛ صدر السفينة، ومجتمع رؤوس عظامه. وجؤجؤ المزن: مجتمعه - المزن: جمع مزنة وهي الغيمة الممطرة - الودق: المطر - الحية الصل: أُنبت الحيات. ويطرف: يدمع أو ينزل.
 (٢) السحاب الجون: السحاب الأسود، وهو من أكثر السحاب مطراً.
 (٣) الطلول: جمع مفردة طلل وهو الأثر المتبقي من الشيء بعد زواله.
 (٤) حالي: أي مُحلى من الحلوى.
 (٥) تهادى: تمايل في مشيته - الشرب: جماعة الشاربين.
 (٦) حاجر والقويق: إسمي مكان.

ومن التشابيه البليغة الرافلة في حلل التورية، قوله أيضاً:

أبدى السنان جراحة في خده
وتطلبوا الآسي فما ظفروا به
شبهت سوسنة أبانت وردة
تحت العذار فعال قلب قاسي
معهم وعز وجوده في الناس
تحت البنفسج ما لها من آس

ومثله قوله:

لو كنت حين علوت ظهر مطية
وتوسطت بحر السراب حسبتي
لم يعتلقها للمطي عيون
من فوقها ألفاً وتحتي نون

ومثله قوله:

شبهت خدك يا حبيبي عندما
تفاحة حمراء قد كتبوا بها
أبدى الجمال به عذاراً أشقرا
خطأ رقيقاً بالنضار مشعرا^(١)

ويعجبني قوله، مع التشبيه البليغ وحسن التضمين الذي ما تضمن مثله ديوان:

غدير دار نرجسه عليه
تراه إذا حللت به لورد
ورق نسيمه وصفا وراقا
كأن عليه من حدق نطاقا^(٢)

ويعجبني، من لطائف التشبيه، تخيل محيي الدين بن قرناص الحموي بقوله:

لقد عقد الربيع نطاق زهر
ودب مع العشي عذار طل
يضم لغصنه حصراً نحيلاً
على نهر حكى خدّاً أسيلاً^(٣)

تشبيه النهر هنا بالخد الأسيل ليس له في الحسن مثيل. ومثله قوله:

لما تبدئ النهر عند عشية
عاينته مثل الحسام وظله
والروض يخضع للصبا والشمال^(٤)
يحكي الصدا والريح مثل الصيقل^(٥)

ومن التشابيه البليغة، التي جمعت بحسن التورية بين الصورة والمعنى وشبب

(١) النضار: الذهب الخالص - مشعراً: مكتوباً شعراً.

(٢) النطاق: الحزام.

(٣) الأسيل: الأملس المستطيل، وهو أجمل الخدود.

(٤) الصبا والشمال: رياح تهب على الصحراء، الأولى من الجنوب والثانية من الشمال.

(٥) الحسام: السيف - الصيقل: الذي يصقل السيوف أي يشحذها.

بمحاسنها الرواة في كل معنى، قول الشيخ جمال الدين بن نباتة، في وصف قوس البندق بعد تغزله في الرامي:

قد حمد القوم به عقبى السفر عند اقتران القوس منه بالقمر
لولا حذار القوس من يديه لغنت الورق على عطفيه^(١)
في كفه محنية الأوصال قاطعة الأعمار كالهلال^(٢)

ثم قال منها، وهي الطردية الموسومة بنظم السلوك في مصائد الملوك، ولم يخرج عن تشبيه القوس مع اشتراك التورية:

كأنها حول المياه نون أو حاجب بما نشأ مقرون

ويعجبني منها قوله، في وصف التم مع حسن التضمين:

تخاله من تحت عنق قد سجا طرة صبح تحت أذيال الدجا^(٣)
ومنها يشبه الطيور الواقعة على قسي الرماة: كأنها وهي لدينا وقع
لدى محاريب القسي ركع^(٤)

ومن التشابيه الغربية التي لم يسبق الشيخ جمال الدين بن نباتة إليها قوله:

أشكو السقام وتشكو مثله امرأتي فنحن في الفرش والأعضاء ترتج^(٥)
نفسان والعظم في نطع يجمعنا كأنما نحن في التمثيل شطرنج^(٦)

ومثله في الغرابة، قوله من قصيدته اللامية التي عارض بها كعب بن زهير، في مديح النبي ﷺ مع التضمين الفائق:

ما يمسك الهدب دمعي حين أذكركم إلا كما يمسك الماء الغراييل

ومن لطائف التشبيهات، قول بدر الدين حسن الزغاري، في وصف زهر الزنبق:

وزهرة من زنبق أنوارها وهاجه
صفراء في مبيضة كالراح في الزجاجه

(١) الورق: الحمام.

(٢) محنية الأوصال: القوس.

(٣) سجا: سكن وهدأ - الطرة: الغرة وهي أول الشيء.

(٤) محاريب: جمع محراب: وهو مكان العبادة.

(٥) ترتج: تهتز وترتجف.

(٦) النطع: الجلد.

قيل صف هذا الذي همت به قلت في وصفي مع حسن المسالك
هو كالغصن وكالظبي وكالشمس وكالبدر وما أشبه ذلك
لطف التشبيه في قوله: وما أشبه ذلك.

ومن التشابه التي لم أسبق إليها قولِي من قصيدة:

حين قابلت خده بدموع أثرت خلت ثوب خز مختم
ومثله قولِي من قصيدة:

والغصن يحكي النون في ميلانه
ومثله قولِي من المدائح المؤيدية:

يا حامي الحرمين والأقصى ومن
والله إن الله نحوك ناظر
فرج على الملحون نظم عسكرياً
فأنبت منه زحافه في وقفه
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة
لولاة لم يسمر بمكة سامر
هذا وما في العالمين مناظر^(١)
وأطاعه في النظم بحر وافر
يا من بأحوال الوقائع شاعر^(٢)
دارت عليهم من سطاك دوائر
فكأن هاتيك السروج مقابر

تالله لقد وقع هذا التشبيه من مولانا السلطان، خلد الله ملكه بموقع، وأعجبه غاية
الإعجاب، واستعاده منه مراراً^(٣).

ومن التشابه العقم قولِي في وصف حمائم البطائق^(٤)، من الرسالة التي عارضت
بها الفاضل: كم زاحمت النجوم بالمناكب حتى ظفرت بكف خضيب، وانحدرت كأنها
دمعة سقطت على خد الشفيق لأمر مريب، وكم لمع في أصيل الشمس خصاب كفها
الوضاح، فصارت بسموها وفرط البهجة كمشكاة فيها مصباح. انتهى ما أوردته، نظماً
ونثراً، من بليغ التشبيه في باب المحسوس بالمحسوس.

(١) مناظر: مشابه.

(٢) أنبت: انقطع.

(٣) قوله: واستعاده منه مراراً أي من المنشد وفي ذلك إشارة إلى أن المنشد غير الكاتب، والكاتب
في بداية الكلام لنفسه بقوله: ومثله قولِي من المدائح المؤيدية. ترى أيكون ابن حجة قد أغار على
شعر شاعر مغمور ونسب لنفسه ما ليس لها؟ أم يكون هذا الذي حصل نوعاً من التحريف؟

(٤) حمام البطائق: الحمام الزاجل الذي كان يستعمل في نقل الرسائل.

وقد تعين أن أورد هنا ما وقع، في النظم، من التشبيه الذي هو غير بليغ، لينفتح
هن الطالب وتصفو مرآة ذوقه، فقد عاب الأصمعي بين يدي الرشيد قول النابغة:
نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر المريض إلى وجوه العود
فقال: يكره تشبيه المحبوب بالمريض، ومثله قول أبي محجن الثقفي في وصف
قينة:

ترجع العود أحياناً وتخفضه كما يطير ذباب الروضة الغرد
قد تقدم القول، وتقرر أن المولدين ومن تبعهم رغبوا عن تشابه العرب، لأنها مع
عقادة التركيب لم تسفر عن كبير أمر. وقال ابن رشيق، في العمدة: إن طريق العرب
خولفت في كثير من الشعر إلى ما هو أليق بالوقت وأمس بأهله، فإن القينة الجميلة لم
ترض أن تشبه نفسها بالذباب، كما قال أبو محجن. ومثل ذلك قول ابن عون الكاتب:
يلاعبها كف المزاج محبة لها وليجري الآن بينهما الأنس
فتزبد من تيه عليه كأنها عزيزة خدرٍ قد تخبطها المس^(١)
بشاعة هذا التشبيه تمجها الأذواق الصحيحة، وتنفر منها الطباع السليمة، فإن أهل
الدوق ما يطيب لهم أن يشربوا شيئاً يشبه زبد المصروع.

ومن التشابه الغريبة، التي جمعت بين عدم البلاغة وعقادة التركيب، قول الشاعر:
فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفراً رسوماً قلما
التقدير فأصبحت بعد بهجتها قفراً كان قلما خط رسوماً.
وعدوا من التشابه التي هي غير بليغة، قول الشاعر في وصف الروض:
كأن شقائق النعمان فيه ثيابٌ قد روين من الدماء
فهذا وإن كان تشبيهاً مضيئاً فإن فيه بشاعة كثرة الدماء، التي تعاف الأنفس اللطيفة
رؤيتها، وثبوت هذا النقد اتصل بالمتأخرين، ونقدوه على الحاجري في قوله:
وما اخضر ذاك الخد نبتاً وإنما لكثرة ما شقت عليه المرائر^(٢)

(١) تزبد: تغضب حتى يخرج الزبد من فيها - التيه: التكبر والفخر - الخدر: خباء المرأة - المس:
الجنون.

(٢) المرائر: جمع مرارة وهي غدة تفرز الصفراء لتساعد على هضم المواد الدهنية وتكون لاصقة بالكبد.

وقالوا ما زاد الحاجري على أن جعل خد محبوبه مسلخاً. فالتشبيه أيضاً، وإن كان مضيئاً، فإن فيه بشاعة شق المرائر على خد المحبوب. وبعضهم ما اكتفى بشق المرائر على خد محبوبه حتى سفك عليه الدماء بقوله:

وما أحمر ذاك الخد واخضر فوقه عذارك إلا من دم ومرائر

ومثل ذلك ما عابوه على ابن قلاقس في قوله:

أما ترى الصبح يخفى في دجنته كأنما هو سقط بين أحشائي

لا شك أن بهجة الصبح في أواخر الليل أبهج من السقط بين الأحشاء، والمشبه أعلى راغلي من المشبه به، وعلى كل تقدير فالسقط بين الأحشاء، وسفك الدماء، وشق المرائر على خدود الأحباب تنفر منها الأمزجة اللطيفة، اللهم إلا أن يكون ذلك ليس له تعلق بشيء من أوصاف المحبوب، بل يكون تعلقه بحكاية حال واقعة، كقول الشاعر:

نزلنا بنعمان الأراك وللندی سقيط به ابتلت علينا المطارف^(١)

وقفت بها والدمع أكثره دم كأي من جفني بنعمان راعف^(٢)

هذه الحالة لا ينكر لها جريان الدمع دماً فإنها حالة لا ثقة بجريانه على هذه الصفة، لأن هذا الشاعر لما أن نزل بنعمان التي هي منازل أحبابه ووجدها مقفرة منهم، لاق بحاله أن يجري الدمع لشدة الأسف دماً.

ومثله قول ابن قاضي ميلة، من قصيدته التي تقدم ذكرها:

ولما التقينا محرمين وسيرنا بلييك رباً والركائب تعسف^(٣)

نظرت إليها والمطي كأنما غواربها منها معاطس رعف^(٤)

هذا التشبيه غاية في هذا الباب، وجريان الدماء من غوارب المطي لائق بحكاية حاله، فإن هذه الحالة فيها لطف الكنايات عن التعسف في شدة السرى.

قلت وإن سبكت هذه الحالة في قوالب الهجو، ورصعها الشاعر في صفات من هجاه، كانت أحسن موقعاً وأبلغ موضعاً، كقول مولانا المقر الأشرف القاضوي الناصري

(١) المطارف: جمع مطرف وهو الثوب الفضفاض الموشى.

(٢) الراعف: الذي ينزل الدم من أنفه. والرعف: نزول الدم.

(٣) تعسف: تسير على غير هدى.

(٤) معاطس: أنوف - الغوارب: جمع غارب وهو ما بين سنام البعير وعنقه. أو هو الكاهل.

البارزي، صاحب دواوين الانشاء الشريف بالممالك الإسلامية، عظم الله تعالى شأنه، في هجو من لا يمكن ذكره هنا من قصيدة:

وقد علت أسنانه صفرة
ولحمها من ورم فاسد
تكدر العيش المريء المريع^(١)
كالرئة المحبوس فيها نجيع^(٢)

هذا التشبيه لم أجد له شبيهاً في هذا الباب، إلا تشبيه ابن الرومي في هجو الورد، وقد تقدم ذكره فلو جمع المتأمل بين المشبه المهجو وبين المشبه به، وشاهد هذا التخييل الغريب عياناً صدق صحة دعواي في ذلك.

ومن التشابيه التي هي غير بليغة قول ابن وزير، في تشبيه الماء على الرخام:

لله يوم بحمام نعمت به
كأنه فوق شقات الرخام ضحى
والماء من حوضه ما بيننا جاري
ماء يسيل على أثواب قصار^(٣)

وتلطف ابن الدوري في هجاء هذا الشاعر حيث قال:

وشاعر أوقد الطبع الذكاء له
أقام يجهد أياماً قريحته
فكاد يحرقه من فرط إذكاء^(٤)
وشبه الماء بعد الجهد بالماء

ذكرت هنا، من التشابيه التي هي غير بليغة، قول الشيخ صلاح الدين الصفدي في تشبيه القمر في خلال الأغصان لما اثنت:

كأنما الأغصان لما اثنت
بنت مليك خلف شباكها
أمام بدر التم في غيبه^(٥)
تفرجت منه على موكبه

وقد أورد عليه علامة عصرنا القاضي بدر الدين الدماميني، فسح الله تعالى في أجله، في كتابه المسمى «بنزول الغيث» الذي انسجم في شرح لامية العجم، نقداً كشف به القناع عن عدم بلاغة هذا التشبيه. فإن الشيخ بدر الدين المشار إليه قال وقوله صحيح: إن ظاهر عبارة الشيخ صلاح الدين، تشبيه الأغصان في حالة انثائها أمام البدر

(١) المريء: السهل - المريع: الكثير الخيرات.

(٢) النجيع: دُم الحرف وقوله: لحمها: الضمير يعود على الأسنان أي لثتها.

(٣) القصار: الذي يدق الثياب ويبيضها.

(٤) إذكاء النار: إضرامها.

(٥) الغيب: الظلمة الشديدة.

في الدجى، بينت عليك تطل من شباكها للنظر في موكب أبيها. وذلك عن مظان التشبيه بمعزل. ومقصوده أن البدر في حالة ظهوره من خلال الأغصان المشئية على الصفة المذكورة، يشبه بنت عليك على تلك الحالة، تمثيلاً للهيئة الاجتماعية، لكن اللفظ لا يساعده على ذلك المطلوب، فإنه جعل الأغصان مبتدأ وأخبر عنه بقوله بنت عليك فلم يتم له المراد. على أن مقطوع الشيخ صلاح الدين، مع ما فيه من عدم بلاغة التشبيه، مأخوذ من قول محبي الدين بن قنار الحموي:

وحديقة غناء ينتظم الندى بفروعها كالدرد في الأسلاك
والبدر يشرق من خلال غصونها مثل المليح يطل من شباك

قلت ليس لأهل النقد مدخل في هذا الشباك. انتهى ما أورده هنا من التشبيه الذي هو غير بليغ في باب المحسوس بالمحسوس، وقد تقدم القول على موجب تقديمه في باب التشبيه، وتقرر أن مدركات السمع والبصر والذوق والشم واللمس التي هي الحواس الخمس، أوضح في الجملة مما لا تقع عليه الحواس انتهى.

القسم الثاني وهو تشبيه المعقول بالمعقول: أقول إن هذا النوع في هذا الباب ليس له مواقع المحسوسات، وقد تكرر قولي في ذلك. وأحسن ما وجدت فيه، أعني تشبيه المعقول بالمعقول، قول أبي الطيب المتنبى:

كان الهم مشغوف بقلبي فساعة هجرها يجد الوصالا

وظريف هنا قول القائل، من أبيات، مع بديع الاستطراد:

لفظ طويل تحت معنى قاصر كالعقل في عبد اللطيف الناظر

القسم الثالث تشبيه المعقول بالمحسوس: وهو إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، كقوله تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾^(١). فتشبيه أعمال الكفار بالسراب، من أبلغ التشبيه وأبدعها. ومثله قوله تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾^(٢).

ومن النظم قول أبي علي ابن سينا:

إنما النفس كالزجاجة والعلم سراج وحكمة الله زيت

(١) النور، ٣٩/٢٤.

(٢) إبراهيم، ١٨/١٤.

ويعجبني في هذا الباب أعني تشبيه المعقول بالمحسوس، قول ابن منير الطرابلسي:

زعم كمنبلج الصباح وراءه عزم كحد السيف صادف مقتلا

القسم الرابع تشبيه المحسوس بالمعقول: قد تقدم أن هذا القسم عند أهل المعاني والبيان غير جائز، وما ذلك إلا أن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتبهة إليها، ولذلك قيل من فقد حساً فقد علماً. ووجه الصواب في تشبيه المحسوس بالمعقول، أن يقدر البليغ المعقول محسوساً ويجعل أصل المحسوس على طريق المبالغة فرعاً، فيصبح التشبيه حينئذ، كقول الشاعر:

وكان النجوم بين دجاها سنن لاح بينهن ابتداع

فإنه لما شاع وصف السنة بالبياض والإشراق، لقول النبي ﷺ: أتيتكم بالحنيفية البيضاء، ليلها كنهائها. واشتهرت البدعة، وكل ما ليس بحق بالظلمة والسواد، كقولهم: ليل الشرك، أقام هذا الشاعر السنن مقام الأجناس التي لها إشراق وبياض، والبدع مقام أجناس السواد والظلمة، فصار ذلك عنده كتشبيه محسوس بمحسوس، فجاز له التشبيه على هذا التقدير، كقول أبي طالب الرقي:

ولقد ذكرتك والظلام كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

فإنه لما كانت الأوقات التي تحدث فيها المكاره توصف بالسواد، كقول من يغتاله مكروه: اسودت الدنيا في عيني، جعل هذا الشاعر يوم النوى أشهر بالسواد من الظلام، فشبهه وعرفه به ثم عطف عليه بفؤاد من لم يعشق نظرفاً، لأن ظريف العشاق يدعي قسوة قلب من لم يعشق، والقلب القاسي يوصف بشدة السواد، فصار هذا القلب عنده أصلاً في السواد على هذا التقدير، فقس على ذلك.

ومثله قول القائل:

أسفر ضوء الصباح من وجهه فقام خال الخد فيه بلال^(١)
كأنما الخال على خده ساعة هجر في ليالي الوصال

سواد ساعة الهجر وبياض زمان الوصل قد فهم على ما تقرر وتكرر.

(١) بلال: هو الحبشي مؤذن النبي.

ومن ذلك قول الشاعر:

كأن انتضاء البدر من تحت غيمه نجاة من البأساء بعد وقوع^(١)

ومن البديع الغريب، في هذا الباب، قول القاضي التنوخي:

أما ترى البرد قد وافت عساكره وعسكر الحر كيف انساب منطلقا
فانهض بنار إلى فحم كأنهما في العين ظلم وإنصاف قد اتفقا
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا برداً فصرنا كقلب الصب إذ عشقا^(٢)

ويعجبني هنا قول صاحب بن عباد، وقد أهدى إلى القاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني عطراً:

أهديت عطراً مثل طيب ثنائيه فكأنما أهدى له أخلاقه

ومن التشايبه البليغة، في هذا الباب، قول الشهاب محمود في تشبيهه بعض الحصون، والمبالغة في علوه:

كانه وكان الجوُّ يكنفه وهم تكنفه في طيها الفكر^(٣)

وغاية الغايات في هذا الباب، أعني تشبيه المحسوس بالمعقول، قول أبي نواس رحمه الله:

معتقة صاغ المزاج لرأسها أكاليل در ما لناظمها سلك
جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبر أخلصه السبك^(٤)
وأدرك منها الفائزون بقية من الروح في جسم أضرب به النهك^(٥)
وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقينٍ كاد يذهب الشك

ومثله قوله وأجاد فيه إلى الغاية:

وندمان سقيت الراح صرفاً وستر الليل منسدل السجوف^(٦)
صفت وصفت زجاجتها عليها

(١) الإنتضاء: الأنسلال، أو الخروج السريع.

(٢) الصب: الرقيق القلب السريع الاشتياق.

(٣) يكنف: يحيط به كالكنيف وهو السور العالي.

(٤) التبر: خلاصة الذهب.

(٥) النهك: الإعياء.

(٦) السجوف: جمع سجع وهو الستر.

والذي سارت له به الركبان في هذا الباب قوله:

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

انتهى ما أوردته من تشبيه المحسوس بالمعقول، وتقرير صوابه وإيراد بديعه وغريبه.

وقد تقرر وتكرر أن تشبيه المحسوس بالمحسوس، هو المقدم في باب التشبيه، وعلى أسسه شيد أصحاب البديعيات بيوتهم. ولكن بيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته، غير صالح للتجرد، فإنه متعلق بالبيت المشتمل على ائتلاف اللفظ مع المعنى، فتعين إيراد البيتين هنا لتظهر نتيجة التشبيه. فبيت ائتلاف اللفظ مع المعنى، في بديعته، قوله:

كأنما خلق السعدي متشراً على الثرى بين منقض ومنفصم

وأتبعه بقوله في التشبيه:

حروف خط على طرس مقطعة جاءت بها يد غمر غير مفتهم^(١)

قلت، الكمال لله: كل من البيتين فيه نقص، لافتقاره إلى الآخر، ولو تجرد أحدهما عن أخيه ما حسن السكوت عليه، ولا تمت به فائدة، وكيف يصح التشبيه في بيت واحد، وجل القصد به أن يكون بمجرد مثلاً للنوع المذكور، والمشبه في البيت الأول والمشبه به في البيت الثاني والذي أقوله إنني لم أر في البيت الأول، المشتمل على ائتلاف اللفظ مع المعنى، معنى، ولا على بيت التشبيه، الذي بعده، للبلغة بهجة، لافتقاره إلى الأول، والله أعلم.

ومن غرائب ما ينقل هنا أن العميان ما نظموا نوع التشبيه في بديعيتهم، ونظموا ردّ العجز على الصدر، وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته، قوله في مديح النبي ﷺ:

وقيل للبدر تشبيه إليه نعم نجم الثريا له كالنعل في القدم

بيت الشيخ عز الدين هنا صالح للتجريد، بخلاف بيت الشيخ صفي الدين، إذ المراد به أن يكون بمجرد شاهداً على نوع التشبيه، ولكن معناه مأخوذ من بيت الفاضل، في قصيدته الطائية المشهورة، والبيت المأخوذ منه هذا المعنى قوله منها:

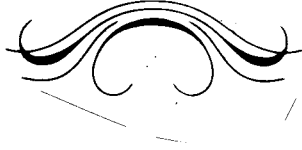
أما الثريا فنعل تحت أخمصه وكل قافية قالت لذلك طا

(١) الغمر: الذي لا يفهم.

من أين لعقادة الشيخ عز الدين، أو لغيره، أن يقول في الشطر الأوّل من بيت قافيته
طائفة
أما الثريا فنعل تحت أخمصه. ويقول في الشطر الثاني: وكل قافية قالت لذلك طا.
انتهى.

وبيت بديعيتي جمعت فيه بين شرف المديح النبوي، وشرف تشبيه القرآن إذ هو
المقدم في هذا الباب على كل تشبيه، فإنني قلت في البيت المشتمل على نوع التفريق
البديعي:

قالوا هو البدر والتفريق يظهر لي في ذاك نقص وهذا كامل الشيم
ولم أزل أظهر في أفق البلاغة كماله، ﷺ، إلى أن قلت في التشبيه:
والبدر في التم كالعرجون صار له فقل لهم يتركوا تشبيه بدرهم



التشبيه بالتمليح

ثم إنني قلت بعده في التلميح، الذي ما يلمح في صفات النبي، ﷺ، أحسن منه:

ورد شمس الضحى للقوم خاضعة وما ليوشع تلميح بركبهم^(١)

التلميح هو في الاصطلاح، أن يشير ناظم هذا النوع في بيت، أو قرينة سجع، إلى قصة معلومة، أو نكتة مشهورة، أو بيت شعر حفظ لتواتره، أو إلى مثل سائر يجريه في كلامه على جهة التمثيل. وأحسنه وأبلغه ما حصل به زيادة في المعنى المقصود. وسماه قوم: التلميح، بتقديم الميم، كأن الناظم أتى في بيته بنكتة زادت ملاحه، كقول ابن المعتز:

أترى الجيرة الذين تداعوا عند سير الحبيب وقت الزوال^(٢)
علموا أنني مقيم وقلبي راحل فيهم أمام الجمال
مثل صاع العزيز في أرحل القوم م ولا يعلمون ما في الرحال^(٣)

هذا التلميح فيه إشارة إلى قصة يوسف عليه السلام، حين جعل الصاع في رحل أخيه، وإخوته لم يشعروا بذلك.

ومن لطائف التلميح قول أبي فراس:

(١) يوشع: أحد الأنبياء الذين ارتدت الشمس لهم بعد غيابها للصلاة.

(٢) الزوال: وقت الظهر.

(٣) الرحال: جمع رحل وهو ما يحمل على الدواب.

فلا خير في ردّ الأذى بمذلة كما ردّه يوماً بسوأته عمرو^(١)
 هذا التلميح فيه إشارة إلى قصة عمرو بن العاص مع الإمام علي بن أبي طالب،
 رضي الله عنه، في يوم صفين، حين حمل عليه الإمام ورأى عمرو أن لا مخلص له منه،
 فلم يسعه غير كشف العورة.

ومن الحديث على جهة التورية، قول بعضهم في مליح اسمه بدر:

يا بدر أهلك جاروا وعلموك التجري^(٢)
 وقبحوا لك وصلي وحسنوا لك هجري
 فليفعلوا ما أرادوا فإنهم أهل بدر

هذا التلميح فيه إشارة إلى قول النبي، ﷺ، لعمر حين سأل قتل حاطب: لعل الله
 قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.
 ومن ذلك قول الشاعر:

لعمرو مع الرمضاء والنار تلتظي أرق وأحنى منك في ساعة الهجر^(٣)
 هذا الشاعر أشار بتلميحه، في هذا البيت، إلى البيت المشهور الذي ما برح الناس
 يتمثلون به عند من هو موصوف بالقسوة، وهو:

المستجير بعمرو عند كرمته كالمستجير من الرمضاء بالنار
 ومن ذلك قول بعضهم:

يقولون كافات الشتاء كثيرة وما هي إلا واحد غير مفترى^(٤)
 إذا كان كاف الكيس فالكل حاصل لديك وكل الصيد يوجد في الفرا^(٥)

(١) السوأة: العورة.

(٢) التجري: التجرؤ.

(٣) الرمضاء: شدة الحرّ - تلتظي: يزداد لظاها أي حرها.

(٤) كافات الشتاء: هي سبعة أشياء تبدأ أسماؤها بالكاف. وهي: كن - كيس - كانون - كأس - كَبَابُ - كس - كساء.

(٥) كاف الكيس: يعني الكيس وهو كيس النقود - الفرا: الفراء.

هذا الشاعر أشار في تلميح نيته إلى قول ابن سكرة

جاء الشتاء وعندي من حوائجه سبع إذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كن وكيس وكانون وكأس طلا بعد الكباب وكس ناعم وكسا^(١)

ومن أطرف ما وقع هنا أن امرأة من أهل الحذق والظرافة، قيل لها: من أنت؟ وكانت ملتفة في كساء، فقالت: أنا السادس في السابع، أشارت في تلميحها اللطيف إلى السادس والسابع، من قول ابن سكرة، فكانها قالت: أنا الكس الناعم في الكساء. ونظم بعضهم هذا المعنى في بيتين فقال:

رأيتها ملفوفة في كسا خوفاً من الكاشح والطامع
قلت لها من أنت يا هذه قالت أنا السادس في السابع

وهذا غاية لا تدرك في باب التلميح.

ومن هذا القبيل قول الحريري في المقامات: وإني والله لطالما تلقيت الشتاء بكافاته، وأعددت له أهياً قبل موافاته، ومثله قوله في المقامات أيضاً: فبت بليلة نابغية. يشير إلى قول النابغة:

فبت كآني ساورتنى ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناعم^(٢)
والضئيلة هي الحية الدقيقة.

ومن لطائف التلميح قصة الهذلي مع منصور بن العباس، فإنه حكى أن المنصور وعد الهذلي بجائزة ونسي، فحجا معاً ومراً في المدينة النبوية ببيت عاتكة، فقال الهذلي: يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة التي يقول فيها الأحوص.

يا بيت عاتكة التي أتغزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل
فأنكر عليه أمير المؤمنين، لأنه تكلم من غير أن يُسأل. فلما رجع الخليفة نظر في القصيدة إلى آخرها، ليعلم ما أراد الهذلي بإنشاد ذلك البيت من غير استدعاء فإذا فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذاق اللسان يقول ما لا يفعل^(٣)

(١) مضى شرح هذا البيت في ما سبق..

(٢) الضئيلة: الدقيقه الطويلة - الرقش: جمع رقشاء وهي أخبث الحيات - السم الناعم: الذي يقتل لساعته.

(٣) مذاق اللسان: متملق.

فعلم أنه أشار إلى هذا البيت بتلميح الغريب، فتذكر ما وعده به وأنجزه له واعتذر إليه من النسيان.

ومثله ما حكى أن أبا العلاء المعري كان يتعصب للمتنبي، فحضر يوماً مجلس الشريف المرتضى، فجرى ذكر أبي الطيب فهضم المرتضى من جانبه، فقال أبو العلاء: لو لم يكن له من الشعر إلا قوله: لك يا منازل في القلوب منازل، لكفاه. فغضب المرتضى، وأمر به فسحب وأخرج، وبعد إخراجه قال المرتضى: هل تدرّون ما عنى بذكر البيت، فقالوا: لا والله! فقال: عنى به قول أبي الطيب في القصيدة:

وإذا أتتكَ مذمّتي من ناقصٍ فهي الشهادة لي بأني كامل

ومن هذا القبيل قصة السري الرفاء مع سيف الدولة، بسبب المتنبي أيضاً، فإن السري الرفاء كان من مدّاح سيف الدولة، وجرى يوماً في مجلسه ذكر أبي الطيب، فبالغ سيف الدولة في الثناء عليه، فقال له السري: أشتهي أن الأمير ينتخب لي قصيدة من غرر قصائده، لأعارضها له، ويتحقق بذلك أنه أركب المتنبي في غير سرجه. فقال له سيف الدولة على الفور: عارض لنا قصيدته القافية التي مطلعها:

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق منه وما بقي

قال السري: فكتبت القصيدة واعتبرتها في تلك الليلة، فلم أجدها من مختارات أبي الطيب، لكن رأيته يقول في آخرها عن ممدوحه:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحرق أراه غباري ثم قال له الحق

فقلت: والله ما أشار سيف الدولة إلا إلى هذا البيت، وأحجمت عن معارضة القصيدة.

وألطف من هذا ما حكاه ابن الجوزي، في كتاب الأذكياء، فإنه من غرائب التلميح. قال: قعد رجل على جسر بغداد، فأقبلت امرأة بارعة في الجمال، من جهة الرصافة إلى الجانب الغربي، فاستقبلها شاب، فقال لها: رحم الله علي بن الجهم. فقالت له: رحم الله أبا العلاء المعري. وما وقفا بل سارا مغرباً ومشرقاً. قال الرجل: فتبعت المرأة، فقلت لها: والله إن لم تقولي لي ما أراد بابن الجهم فضحتك، قالت: أراد به:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأردت أنا بأبي العلاء قوله:

فيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

ورسالة الوزير، أبي الوليد بن زيدون المخزومي الأندلسي، غالبها مبني على نوع التلميح، ولا بد أن أذكر الموجب لإنشائها، بحيث يتلمح المتأمل تلميحها. وسبب إنشاء هذه الرسالة البديعة، أنه كان بقرطبة امرأة ظريفة متأدبة، من بنات خلفاء العرب المنسويين إلى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالداخل. في بني عبد الملك بن مروان، تسمى ولادة بنت المستكفي بالله، ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله، فصارت تجلس للشعراء والكتاب، وتحاضرهم وتطارحهم. وكانت ذات جمال بارع وأدب غض ودمائة أخلاق، وكان لها ميل إلى ابن زيدون، بخلاف غيره من أهل العصر. فمما كتبت إليه، وهي راضية عنه:

فإني رأيت الليل أكرم للسر
وبالليل لم يظلم وبالنجم لم يسر

ترقب إذا جن الظلام زيارتي
وبي منك ما لو كان بالبدر لم ينر

وكتبت إليه وهي غضبي:

يلهج بي شتماً ولا ذنب لي (١)
كأنما جئت لأحصي علي (٢)

إن ابن زيدون على فضله
يلحظني شزراً إذا جئته

تشير في تلميحها اللطيف إلى غلام كان متهماً به.

ومن غض شعرها قولها:

وأمشي مشيتي وأتبه تيهها (٣)
وأعطي قبلتي من يشتهيها

أنا والله أصلح للمعالي
وأمكن عاشقي من صحن خدي

ومما ينسب إليها:

ولحظنا يجرحكم في الخدود
فما الذي أوجب جرح الصدود

لحافظكم تجرحنا في الحشا
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا

(١) لهج بالشيء: أولع به ولزمه.

(٢) شزراً: ينظر بطرف عينيه تدليلاً على غضبه.

(٣) أتبه: أفتخر.

وكان ابن زيدون كثير الشغف بها والميل إليها وأكثر غزل شعره فيها، وقد تقدم ذكر ميلها إليه، بخلاف أهل عصره من أهل الأدب، لحسن أدبه ولطائف شمائله وتقدمه على أهل زمانه.

وكان الوزير أبو عامر بن عبدوس كثير الهيمان بها، واجتهد في التوصل إليها، والاجتماع بها، والاقطاف من ثمار آدابها الغضة، والتمتع بجمالها البارع، فعجز عن ذلك لكثرة ميلها إلى ابن زيدون، وتوصل إلى أن أرسل إليها امرأة من خواصه لتستميلها إليه، وتعرفها عظم مقامه وسمو رتبته على غيره، وتبالغ في التوصل إلى رغبتها فيه، فبلغ ذلك ابن زيدون، فأنشأ هذه الرسالة على لسان ولادة، تتضمن سب الوزير أبي عامر والتهكم به، وبنى غالبها على نوع التلميح، وجعلها جواباً عنها، فاشتهر ذكر الرسالة في الأفاق، وأمسك الوزير ابن عبدوس عن التعرض إلى ولادة.

فمن سجعات الرسالة المبنية على التلميح قوله منها، على لسان ولادة، يخاطب الوزير ابن عبدوس: حتى قالت إن باقلاً موصوف بالبلاغة إذا قرن بك. هذا التلميح فيه إشارة إلى عمرو بن ثعلبة الأيادي الذي يضرب به المثل في العي، فيقال: فلان أعى من باقل. قال أبو عبيدة: بلغ من عيه أنه اشترى ظيباً بأحد عشر درهماً، فلقبه شحص والظبي معه فقال له: بكم اشتريته؟ ففتح كفيه، وفرق أصابعه، وأخرج لسانه يشير إلى أحد عشر فهرب الظبي.

[ومنها]: وهبقة مستوجب لاسم العقل إذا أضيف إليك. هذا التلميح يشير فيه ابن زيدون إلى يزيد ابن ثروان، أحد بني قيس ابن ثعلبة الملقب بهبقة، المكنى بأبي الودعات، لأنه نظم ودعا^(١) في سلك وجعله في عنقه علامة لنفسه لثلا يضيع، وهو جاهلي يضرب به المثل في الحمق. قيل إنه كان إذا رعى غنماً أو إبلاً جعل مختار المراعي للسمان، ونحى المهازيل عنها، وقال: لا أصلح ما أفسد الله. واختصم بنو راسب وبنو طفاوة في شخص يدعون، وأطلعوا هبقة على أمرهم، فقال: ألقوه في البحر فإن راسب فهو من بني راسب وإن طفى فهو من بني طفاوة. واشترى أخوه بقرة بأربعة أعنز فركبها، فأعجبه عدوها، فالتفت إلى أخيه وقال: زدهم عنراً. فضرب بها المثل للمعطي بعد إمضاء البيع، ثم سار فرأى أرنباً تحت شجرة، ففزع منها، وهمز البقرة، وقال:

الله نجاني ونجا البقرة من جاحظ العينين تحت الشجرة

(١) الودع: جمع ودعة وهي صدفة صغيرة تخرج من البحر في جوفها دوية صغيرة.

[ومنها]: وطويساً ما نور عنه يمن الطائر إذا قيس عليك. هذا التلميح يشير به إلى عيسى بن عبد الله، مولى بني مخزوم، وكنيته أبو النعيم، كان مختناً ماجناً ظريفاً يسكن المدينة، وهو أول من غنى على الدف بالعربية، ولكن ضرب في شؤمه المثل. فإنه ولد يوم قبض رسول الله ﷺ، وفطم يوم مات أبو بكر، وختن يوم قتل عمر، وزوج يوم قتل عثمان، وكانت أمه تمشي بالنميمة بين نساء الأنصار.

ومن تلميح هذه الرسالة، التي هي غاية في هذا الباب، قوله منها يشير إلى ابن عبدوس: والله لو كسك محرق البردين، وحلكت مارية بالقرطين، وقلدك عمرو الصمصامة، وحملك الحرث على النعامة، ما شككت في إياك، ولا كنت إلا ذاك. السجعة الأولى تشير في تلميحها إلى عمرو بن المنذر بن ماء السماء، كان يسمى من شدة بأسه محرّقاً، وقصة هذه التسمية استوفى أبو الفرج، صاحب الأغاني شرحها في كتابه، وأما قصة البردين فحكى أن الوفود اجتمعت عند محرق، فأخرج من لباسه بُردين، وقال: ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما. فقام عامر بن أحيمر فأخذهما، فائتزر بواحدة وارتدى بالأخرى، فقال له محرق: أنت أعز العرب قبيلة؟ فقال: نعم، لأن العز كله في معدّ والعدد في معدّ، ثم في نزار، ثم في مضر، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، فمن أنكر ذلك فليناظرني. فسكت الناس. فقال: هذه عشيرتك كما تزعم، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة، وخال عشرة، وها أنا في نفسي وشاهد العز شاهدي، ثم وضع قدمه على الأرض، وقال: من أزالها من مكانها فله مائة من الإبل. فلم يقم إليه أحد فخرج بالبردين، وضرب المثل بعزه وببرديه.

والسجعة الثانية تشير في تلميحها إلى مارية وقصتها المشهورة بالقرطين. وهي مارية ابنة ظالم بن وهب الكندي، زوج الحرث الأكبر الغساني، ملك العرب بالشام، وهي أم الحرث الأصغر، وأمها هند الهنود، وكان في قرطها درتان عجيبتان كبيضتي الحمام، ولم ير مثلهما، توارثتهما الملوك إلى أن وصلتا إلى عبد الملك بن مروان، فوهبهما لابنته فاطمة، لما زوجها بعمر بن عبد العزيز، فلما ولي عمر الخلافة قال لها: إن أحببت المقام عندي فضعي القرطين والحلي في بيت مال المسلمين، فأجابته إلى سؤاله، فلما مات وولي يزيد بن عبد الملك أرسل إليها يقول لها: خذي القرطين والحلي، فقالت: لا والله ما أوافقك في حال حياته وأخالفه بعد وفاته.

والسجعة الثالثة، تشير في تلميحها إلى عمرو بن معديكرب الزبيدي، الفارس المشهور بكثرة الغارات والوقائع بين العرب في الجاهلية، قبل إسلامه، وكان يكنى أبا ثور، والصمصامة سيفه المشهور. قال عبد الملك بن عمر: أهدت بلقيس إلى سليمان

عليه السلام خمسة أسياف، وهم ذو الفقار، وذو النون، ومخزم، ورسوب، والصمصامة. فأما ذو الفقار فكان لرسول الله ﷺ، أخذه من منبه بن الحجاج يوم بدر. ومخزم ورسوب كانا للحرث بن جبلة الغساني. وذو النون والصمصامة لعمر بن معديكرب. وانتقلت الصمصامة إلى سعيد بن العاص، ولم تزل إلى أن صعد المهدي البصرة، فلما كان بواسط أرسل إلى بني العاص يطلب الصمصامة منهم فقالوا إنه قد صار محتسباً في السبيل، فقال: خمسون سيفاً في السبيل أغنى من سيف واحد، وأعطاهم خمسين سيفاً وأخذه، ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى بعض مماليكه الأتراك فقتله به.

والسجعة الرابعة تشير في تلميحها إلى فرس الحرث بن عباد التغلبي، سيد بني وائل، سمتها العرب لخفتها وسرعة جريها بالنعامة، وضربت بها الأمثال. وكان الحرث يكرر قوله، في كل وقت، بإنشاده: قرباً مربوط النعامة مني. انتهى. ولولا خوف الإطالة لأوردت من هذه الرسالة غالب تلميحها، فإنها نسيج وحدها على هذا المنوال، أعني التلميح.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي على هذا النوع قوله:

أن القها تتلقف كل ما صنعوا إذا أتيت بسحر من كلامهم^(١)

بيت الشيخ صفي الدين هنا أيضاً متعلق بما قبله، والضمير في القها، عائد على العصا، فإنه قال في بيت الاقتباس:

هذي عصاي التي فيها مآرب لي وقد أهش بها طوراً على غنمي^(٢)

وقال بعده في بيت التلميح: أن القها. البيت. ورأيت يسلك هذا المسلك في غالب بديعته، وهو غير لائق به، إذ المراد من كل بيت أن يكون شاهداً على ذلك النوع بمجرد، والتلميح في بيته هو الإشارة إلى قصة موسى عليه السلام مع السحرة لما ألقى العصا.

وبيت العميان في بديعته:

ويقرع السمع عن حق زواجره قرع الرماح بيدر ظهر منهزم^(٣)

(١) تتلقف: تبتلع.

(٢) أهش: أهول.

(٣) الزواجر: جمع الزاجر وهو الرادء

العميان أشاروا في تلميحهم إلى قصة يوم بدر، ولكن ليس على شمائل بيتهم من رونق التلميح لمحة. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته قوله:

وبان في كتب التاريخ من قدم تلميح قصة موسى مع معدهم

لم ألمح، من خلال بيت الشيخ عز الدين غفر الله له، لمحة تدلني على نور التلميح، لكنه حكى حكاية مضمونها، أن كتب التاريخ القديمة بان فيها تلميح قصة موسى، عليه السلام، مع معده. والله أعلم.

وبيت بديعتي تقدمني في تلميحه أبو تمام، بقوله متغزلاً، في بعض قصائده، وقد سفرت محبوبته من جانب الخدر ليلاً:

فردت علينا الشمس والليل راغم بشمس لهم من جانب الخدر تطلع
فوالله ما أدري أحلام نائم ألمت بنا أم كان في الركب يوشع

فلما انتهيت في نظم بديعتي إلى هذا النوع، أعني التلميح، رأيت النبي ﷺ أحق به، وأنا أحق به من أبي تمام، فإني نظمته في سلك المعجزات النبوية، فهامت عيون الأذواق إلى بهجة تلميحه، وقد تقدم قولني في بيت التشبيه عن النبي ﷺ:

والبدر في التم كالعرجون صار له فقل لهم يتركوا تشبيه بدرهم

ثم قلت بعده في التلميح:

ورد شمس الضحى للقوم خاضعة وما ليوشع تلميح بركبهم

أنظر أيها المتأمل إلى انسجام هذا البيت مع الذي قبله، وإلى ظهور النقص في بيت أبي تمام، بانتقال نور التلميح إلى شرف هذا البيت النبوي. والله أعلم.



ذكر تشبيه شيئين بشيئين

شيان قد أشبها شيئين فيه لنا تبسم وعطا كالبرق في الديم
هذا النوع، أعني تشبيه شيئين بشيئين، من المحاسن العريضة الوقوع، بخلاف كبيرة
العدد في التشبيه، فإن ذلك نوع اللف والنشر أحق به، وهو في الاصطلاح، أن يقابل
الشاعر بين الأربعة ويلتزم أن كل واحد من المشبه يسد مسد المشبه به.
ومما حكى عن بشار بن برد أنه قال: ما زلت، منذ سمعت قول امرئ القيس في
وصف العقاب:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي^(١)
لا يأخذني الهجوع حسداً له، إلى أن قلت في وصف الحرب:
كأن مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوت كواكبه^(٢)
ومما يعجبني، في هذا الباب إلى الغاية، قول إبراهيم بن سهل الإشبيلي:
كأن القلب والسلوان ذهن يحوم عليه معنى مستحيل
ومن الغايات التي لا تدرك في هذا الباب، وأنا أستغفر الله قولي من قصيدة:
وحمرة الخد أبدت خيط عارضه فخلت كأس مدام وهو مشعور^(٣)

(١) رطباً ويابساً: نيئاً ومشويماً: النبيء يشبه العناب - والمشوي يشبه الحشف القديم والحشف هو أردأ التمر.

(٢) النقع: الغبار. وقد روي: «تهاوى» بدل تهاوت: و «تهاوى» أبلغ في التشبيه وتؤدي معنى تهاوت وزيادة الحركة التي تحسها في حروف الكلمة: تهاوى.

(٣) مشعور: مكسور كسراً لم يؤد إلى انفصال أجزائه.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته:

تلاعبوا تحت ظل السمر من مرح كما تلاعبت الأشبال في الأجم^(١)
بيت الشيخ صفي الدين في هذا النوع عامر بالمحاسن، رافل في حلال الانسجام،
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعتهم.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي في بديعته قوله:

شيئان تشبيه شيئين انتبه لهما حلم وجهل هما كالبرء والسقم
نعوذ بالله من آفة الغفلة، ممدوح هذا البيت، هو النبي ﷺ، وقد تقدمه قوله في
مديحه:

هل من مقاربة في السير بعد نوى بأطيب التمر بين العرب والعجم^(٢)

وقال بعده هذا البيت الدائر. وقد سلمنا أنه قابل فيه حلم النبي ﷺ بالبرء، وأما
ذكر الجهل في هذا البيت فهو في غاية الجهل، وليس له ما يقابله غير التأديب على قلة
أدبه، وقد قابل به السقم ولا أعلم ما مراده به. وطالعت شرحه فوجدته قد قرر حد النوع،
وفر من الكلام على معنى البيت بخلاف أبيات القصيدة.

وبيت بديعتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

شيئان قد أشبها شيئين فيه لنا تبسم وعطا كالبرق في الديم

هذا البيت البديع في لفظه ومعناه، ما أشك أن أبا بكر^(٣) مقدم فيه على الحلبي
والموصلبي، فإنه وضعه في محله، والنبي ﷺ أحق به من كل ممدوح، وقد جمع فيه بين
حسن اللف والنشر وبلغ التشبيه. وأما مراعاة النظر في مديحه بين البرق والديم فليس
لها نظير. والله أعلم.



(١) المر: الرماح - الأجم: التلال التفت أشجارها.

(٢) النوى: السفر.

(٣) أبو بكر: يعني المؤلف نفسه.

ذكر الانسجام

له انسجام دموعي في مدائحه بالله شنف بها يا طيب النغم^(١)

المراد من الانسجام أن يأتي، لخلوه من العقادة، كانسجام الماء في انحداره، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة. ولعمري، إن طيور القلوب ما برحت على أفنان هذا النوع واقعة، وبمحاسنه الغضة بين الأوراق ساجعة، وأهل الطريق الغرامية هم بدور مطالعه، وسكان مرابعه، فإنهم ما أثقلوا كاهل سهولته بنوع من أنواع البديع، اللهم إلا أن يأتي عفواً من غير قصد، وعلى هذا أجمع علماء البديع في حد هذا النوع، فإنهم قرروا أن يكون بعيداً من التصنع، خالياً من الأنواع البديعية، إلا أن يأتي في ضمن السهولة من غير قصد.

وغالب شعر الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماه، سقى الله من غيث الرحمة ثراه، ماشٍ على هذا التقرير ويأتي التمثيل به في مكانه إن شاء الله تعالى.

الانسجام في النثر:

وإن كان الانسجام في النثر، يكون غالب فقراته موزونة، من غير قصد لقوة انسجامه، وأعظم الشواهد على هذا ما جاء في القرآن العظيم من الموزون بغير قصد، في بيوت وأشطار بيوت، فمن الطويل الذي جاء على أصل الدائرة في القرآن العظيم:

(١) شنف: زين.

وجاء في الرجز، قوله تعالى: ﴿وذلت قطونها تذيلاً﴾^(١) كقول الشاعر:

شالوا على جمالهم جمالهم وسار حادي عيسهم يغني^(٢)

وجاء في الرمل من العروض الثانية المجزوة، والضرب الثاني المجزوء، قوله تعالى: ﴿وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾^(٣)، كقول الشاعر:

مقفرات دارسات مثل آيات الزبور^(٤)

ومن مصرعه:

أي شخص كآبان عند ضرب وطعان

وجاء في السريع، من العروض الأولى المطوية المكسوفة، قوله تعالى: ﴿قال فما خطبك يا سامري﴾^(٥) ومنه ﴿أو كالذي مرَّ على قرية﴾^(٦) كقول الشاعر:

يا هند يا أخت بني عامر لست على هجرك بالصابر

وجاء من المنسرح، من العروض الأولى الوافية، قوله تعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة﴾^(٧)، كقول الشاعر: زموا المطايا بالواد ما ودعوا. وجاء من الخفيف، من العروض التامة الصحيحة، قوله تعالى: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾^(٨). كذا أورده صاحب المفتاح، ومنه: ﴿لا يكادون يفقهون حديثاً﴾^(٩). وهذا من مستخرجات المصنف فسح الله في أجله، كقول الشاعر:

ليت ما فات من شبابي يعود كيف والشيب كل يوم يزيد

وجاء من المضارع، وهو بحر قليل الاستعمال جداً، ومنهم من لم يعده بحراً، ولا

(١) الإنسان، ١٤/٧٦.

(٢) شال: حمل - حادي العيس: هو الذي يحدوها أي يستحثها للمسير، بواسطة الحداء. الذي هو نوع من الغناء.

(٣) سبأ، ١٣/٣٤.

(٤) الزبور: هو الكتاب الذي أنزل على داوود عليه السلام (الصحف)

(٥) طه، ٩٥/٢٠.

(٦) البقرة، ٢٥٩/٢.

(٧) الإنسان، ٢/٧٦.

(٨) الماعون، ١/١٠٧.

(٩) النساء، ٧٨/٤.

جاء فيه شعر معروف. وقيل إنه لم يسمع من العرب. وقال أبو العباس العتابي في كتابه المسمى «بزهة الأبصار في أوزان الأشعار»: إن الخليل جعله جنساً وأحسبه قاسه وما أدري ما روي في كتب العروض، أمصنوع هو أم مسموع من العرب. انتهى كلام العتابي. وتفاعيله في الأصل: مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن، ومثلها ولكنه ما استعمل إلا مجزواً فبقي مربعاً. فمما وقع من مخرومه في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿يوم التناد يوم تولون مدبرين﴾^(١) والخرم هنا حذف الأول من مفاعيلن. فعاد فاعيلن، فنقل إلى مفعولن فتفاعيل هذه الآية الشريفة مفعول فاعلات مفاعيل فاعلات، كقول الشاعر:

قلنا لهم وقالوا وكل له مقال

وجاء في المقتضب من العروض المجزوة المطوية، قوله تعالى: ﴿وفي قلوبهم مرض﴾^(٢) وتفعيل ذلك فاعلات مستعلن. وجاء فيه من الشعر:

أقبلت فلاح لها عارضان كالسبع^(٣)

ومن مصرعه:

غننا على الدرج بالخفيف والهجج

وهذا البحر في القلة كبحر المضارع، إلا أنه سمع منه أبيات على عهد رسول الله،

ﷺ، منها:

هل عليّ ويحكما إن عشقت من حرج

وجاء في المجتث من العروض الصحيحة المجزوة، والضرب المجزوء، قوله تعالى:

﴿نبيء عبادي اني أنا الغفور الرحيم﴾^(٤) كقول الشاعر:

البطن منها خميص والوجه مثل الهلال^(٥)

وجاء في المتقارب، من العروض الأولى الوافية، قوله تعالى: ﴿وأملئ لهم أذ

كيدي متين﴾^(٦) فعولن فعولن فعولن، كقول الشاعر:

(١) غافر، ٣٣/٤٠.

(٢) البقرة، ١٠/٢.

(٣) السبع: الخرز الأسود، ويبدو شديد الملاسة واللمعان.

(٤) الحجر، ٤٩/١٥.

(٥) خميص: خاوي. فارغ.

(٦) الأعراف، ١٨٣/٧ والقلم، ٤٥/٦٨.

فأما تميم تميم بن مر فألفاهم القوم روي نياما^(١)

ولولا الإطالة لذكرت ما دخل فيما أوردته من الزحاف، وقد أوردت هنا خمسة عشر بحراً، ولم أذكر المتدارك، إذ هو محدث اخترعه المتأخرون، ولم تعرفه العرب في الزمن المتقدم، وهو خارج عن الخمسة عشر بحراً، وقال ابن الحاجب في عروضه:

وخمسة عشر دون ما متدارك وما عده منها الخليل فعديلاً

الانسجام في الشعر:

انتهى ما أوردته من الانسجام المنشور، وأما الانسجام في النظم، فقد تقدم وتقرر أن أصحاب المذهب الغرامي هم سكان بيوتهم العامرة، وكناس^(٢) آرامه التي هي غير نافرة. ولكن العرب على كل تقدير ملوك هذا الشأن، وقلائد هذا العقيان. وقد عن لي أن أذكر، هنا، ما فرأوا به من وعر التركيب، وشرعوه في أبياتهم على سهل الانسجام، وأركض في أثر هذه الأبيات بسوابق الفحول، فإنها أبيات لها حرمة وذمام، وأعرج بعد ذلك على البيوت الغرامية، وأتسم أخبار الهوى العذري من بين تلك الخيام، فمن الانسجام الذي وقع للعرب، وكاد أن يسيل رقة لسهولته، قول امرئ القيس في معلقته:

أغرّك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل
وقوله من غير المعلقة:

أجارتنا إنا غريبان وهنا وكل غريب للغريب نسيب

ومثله، في الانسجام والرقعة، قول طرفة بن العبد في معلقته:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي^(٣)
ومثله قوله منها:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة وعلى الحرّ من وقع الحسام المهند^(٤)
ومثله قوله منها:

فإن مت فانعيني بما أنا أهله وشقي عليّ الجيب يا أم معبد^(٥)

(١) روي: جمع رائب وهو الذي يبدو كالدايخ.

(٢) الكناس: بيت الرثم.

(٣) دفع: ردّ - بادر: واجه.

(٤) مضاضة: إيلاًماً.

(٥) اذكري موتي بما أستحقه - وشقي عليّ الجيب: أي اندبيني، من الندبة، وشق الجيب علامة الحزن.

ومثله قوله منها:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود
بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد
فما اسطعت من معروفها فتزود
فكل قرين بالمقارن يقتدي

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأنباء من لم تبع له
لعمرك ما الأيام إلا مفازة
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

ومثله، في لطف الانسجام، قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

ولو رام أسباب المنايا ينلنه
على قومه يستغن عنه ويذم
ومن لا يكرّم نفسه لا يكرّم
يهذّم ومن لا يظلم الناس يظلم
يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم^(١)
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
ومن يك ذا فضل فيخل بفضله
ومن يغترر يحسب عدواً صديقه
ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه
ومن لا يصانع في أمور كثيرة
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش

وأحسن ختامها في الانسجام بقوله:

ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله

ومثله قول لبيد بن ربيعة من معلقته:

قسم الخلائق بيننا علامها
أوفى بأعظم حظنا قسامها

فاقنع بما قسم المليك فإنما
وإذا الأمانة قسمت في معشر

ومن الغايات، في باب الانسجام، قول عنترة في معلقته:

مالي وعرضي وافر لم يكلم^(٢)
وكما علمت شمالي وتكرمي^(٣)

فإذا شربت فإنني مستهلك
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى

ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

ونبطش حين نبطش قادرينا

لنا الدنيا ومن أضحي عليها

(١) صانع: دارى من المصانعة وهي المداراة والمداهنة.

(٢) وافر: لا يمسسه سوء - لم يكلم: لم يخذش.

(٣) الندى: الكرم والجدود.

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن يقر الخسف فينا (١)
 إذا بلغ الفطام الطفل منا تخر له الجبابر ساجديننا (٢)
 ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا
 ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومثله قول الحرث بن حلزة في معلقته وهي المعلقة السابعة:

لا يقيم العزيز في البلد السهل ولا ينفع الذليل النجاء (٣)
 ومن الانسجومات التي عدها صاحب المرقص والمطرب، من المطرب قول زهير:
 تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك معطيه الذي أنت سائله
 ومن الانسجومات المعدودة من المرقص، قول النابغة الذبياني:

وإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع
 ومن الانسجام المعدود من المطرب، قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض في المال
 أحتال للمال إن أودى فأكسبه ولست للعرض إن أودى بمحتال (٤)

وعدوا من الانسجام المرقص، قول كعب بن زهير:

ولا تمسك بالعهد الذي وعدت إلا كما يمسك الماء الغراييل (٥)

ومن المطرب قول الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عُراة باليمن

ويعجبني من لامية العرب قول الشنفرى بن مالك:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متحول (٦)

(١) سام: أولى - الخسف: الذل والظلم.

(٢) الجبابر: الجبابرة. ويروى هذا البيت: إذا بلغ الفطام «لنا صبي»، بدل: «الطفل منا».

(٣) السهل: المهان - النجاء: النجاة هرباً.

(٤) أودى: ذهب ونفذ.

(٥) الغراييل: جمع غرابل آلة يدوية بدائية لتنقية الحبوب وهو عبارة عن قطعة من الخشب مستديره

تلصق عليها قطعة من الجلد مخرمة.

(٦) منأى: مبعد - القلى: الهجر.

ومثله من لامية العجم، وإن تأخر عصرها:

إن العلى حدثتني وهي صادقة
لو أن في شرف المأوى بلوغ منى
فيما تحدث أن العز في النقل
لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل^(١)

وعدوا من الانسجام المطرب قول مجنون ليلي في قصيدته المشهورة:

وقد خبروني أن تيماء منزل
فهذي شهور الصيف عنا ستقضي
أعدّ الليالي ليلة بعد ليلة
وأخرج من بين البيوت لعني
ألا أيها الركب اليمانون عرجوا
يميناً إذا كانت يميناً فإن تكن
أصلي فما أدري إذا ما ذكرتها
خليلي لا والله لا أملك الذي
قضاها لغيري وابتلاني بحبها
ولو أن واش باليمامة داره
وماذا لهم لا أحسن الله حالهم
وددت على حبي الحياة لو أنه
على أنني راض بأن أحمل الهوى
إذا ما شكوت الحب قالت كذبتني
فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشا

ليلي إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فما للنوى ترمي بليلى المراميا
وقد عشت دهرأ لا أعد اللياليا
أحدث عنك النفس يا ليل خاليا
علينا فقد أمسى هوانا يمانيا^(٢)
شمالاً ينازعني الهوى من شماليا
اثنتين صليت الضحى أم ثمانيا
قضى الله في ليلي ولا ما قضى ليا
فهلا بشيء غير ليلي ابتلانيا
وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا^(٣)
من الحظ في تصريم ليلي حباليا^(٤)
يزاد لها في عمرها من حياتيا
وأخلص منه لا علي ولا ليا
فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا^(٥)
وتذهل حتى لا تجيب المناديا

ومن المرقص، في باب الانسجام، قول كثير عزة:

ولما قضينا من منى كل حاجة
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
ومسح بالأركان من هو مسح
وسالت بأعناق المطي الأباطح

(١) دارة الحمل: من أبراج الشمس الفلكية.

(٢) عرجوا: ميلوا ومروا.

(٣) الواشي: الذي يسعى للفرقة بين الأحباء.

(٤) الضمير في لهم وما لهم يعود على الوشاة، تصريم: تقطيع حبال الود.

(٥) كواسيا: جمع كاسي، وهو الممتلىء. أو المغطى لحماً.

وعدوا من المطرب، في باب الانسجام، قول جرير:

إن العيون التي في طرفها حور
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
قتلنا ثم لم يحيين قتلانا^(١)
وهن أضعف خلق الله أركاناً

وعدوا من المطرب قول بشار بن برد:

إذا جئته في حاجة سد بابيه
فلم تلقه إلا وأنت كمين^(٢)

ومن انسجامات نسيبه، التي ليس لها مناسب قوله:

هل تعلمين وراء الحب منزلة
تدني إليك فإن الحب أقصاني

ومثله قوله:

أنا والله أشتهي سحر عينيــــــــك وأخشى مصارع العشاق

ومثله قوله:

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم
سمعت بها والأذن كالعين تعشق

ويعجبني من لطيف الانسجام، قول العباس بن الأحنف:

أفدي الذين أذاقوني مودتهم
واستهضوني فلما قمت منتصباً
حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
بثقل ما حملوني منهم قعدوا

ومثله قوله:

لولا محبتكم لما عاتبْتُكُمْ
ولكنْتُمُ عندي كبعض الناس

ومثله قوله:

طاف الهوى في عباد الله كلهم
حتى إذا مر بي من بينهم وقفنا

ومثله قوله:

وسعى بنا واش فقالوا إنها
لهي التي تشقى بها وتكابد

فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم
إني ليعجبني المحب الجاحد

تقدم لهذين البيتين نكتة لطيفة تؤيد تأكيد انسجامهما وعدوبة ألفاظهما، وهي أنه رفع للرشيذ موت العباس، وإبراهيم الموصلي المعروف بالنديم، والكسائي، وهشيمة الخمارة، في يوم واحد، فأمر المأمون أن يصلى عليهم فخرج فصفوا بين يديه، فقال:

(١) الحور: شدة سواد سواد العين مع شدة بياض بياضها.

(٢) كمين: أي كامن حتى لا يراك.

من الأول. فقالوا: إبراهيم الموصلي. فقال: أخروه وقدموا العباس بن الأحنف. فقدم وصلى عليه. فلما فرغ وانصرف، دنا منه هاشم بن عبد الله الخزاعي فقال: يا سيدي كيف آثرت العباس بالتقديم على من حضر! فقال: بقوله: وسعى بنا واش. البيتين، ثم قال: أتحفظهما؟ فقلت: نعم. فقال: أليس من قال هذا الشعر، أولى بالتقديم؟ فقلت: بلى/والله يا سيدي. انتهى.

وقد تقدم قولي وتكرر: ان أصحاب الطريق الغرامية هم موالى رقيق الانسجام وتجار سوقه، ولولا نسيمات أنفاسهم ما تسمنا أخبار الحمى وتغزلنا في سفحه وعقيقه. وقد ألجأتني ضرورة الجنسية إلى ضم المتقدمين مع المتأخرين، لئلا ينفرط لعقودها نظام: وإذا أخرجت من تقدّم وأوردت له غير الطريق الغرامي، كان جلّ القصد من ذلك معرفة أنواع الانسجام. فمن الانسجام الغرامي قول الشريف الرضي، وهو الذي قال في حقه الثعالبي في كتاب اليتيمة: هو أشعر الطالبين، قديماً وحديثاً، على كثرة شعرائهم المفلقين. ولو قلت: إنه أشعر قریش، لم أبعد عن الصدق والقول الموعود بإيراده قوله:

سرق الدمع في الجيوب حياءً وبنا ما بنا من الأشواق^(١)
لا أذم السراء في طلب العـ ولكن في فرقة العشاق
يوم لا غير زفرة من فؤاد ذي قروح ورشقة من مآق
والثرى منتشٍ يعاقره السيـ رداً جارياً بأيدي النياق^(٢)
أمعيني على بلوغ الأمانى وشفائي من علتني واشتياقي
أينعت بيننا المودّة حتى جللتنا والزهر بالأوراق^(٣)
كم مقام خضنا حشاه إلى اللهـ وجميعاً والليل ملقى الرواق^(٤)
ومزجنا خمر الرضايين في الرشـ ف برغم المدام تحت العناق
قم نبادر رمي الظلام بـ بسهام الخطوب في الاتفاق
واغتنمها قبل الفراق فما نـ لم يوماً حتى يكون التلاقي
نحن غصنان ضمنا عاطف الـ د جميعاً في الحب ضم النطاق^(٥)
في جبين الزمان منك ومني غرّة كوكبية الائتلاق

(١) الجيوب: مفردا جيب وهو فتحة الثوب التي يدخل منها الرأس.

(٢) يعاقره، يساقبه. يشرباً معاً.

(٣) أينعت: نضجت - جللتنا: غطتنا.

(٤) الرواق: الستار. ورواق الليل ظلامه.

(٥) النطاق: حزام يشد به الوسط.

كلما كرت الليالي علينا شق منا الوفاء جيب الشقاق
أيها الرائح المغدّ تحمل حاجة للمتميم المشتاق^(١)
أقر مني السلام أهل المصلى فبلاغ السلام بعض التلاقي
وإذا ما مررت بالخيف فاشهد أن قلبي إليه بالأشواق
وإذا ما سئت عني فقل نضو و هو ما أظنه اليوم باقي^(٢)
وابك عني فطالما كنت من قبـل أعير الدموع للعشاق

ومثله قوله من أبيات:

سهمك مدلول على مقتلي فمن يرى سهمك يا قاتل
ليس لقتلي ثائر يتقي وليس في سفك دمي طائل
قد رضا المقتول كل الرضا وا عجباً لم سخط القاتل

ومثله قوله من أبيات:

نكست لحظ العين حين خطا والبين يرمقني ويرمقه
أذبت دمعي يوم ودّعني في صحن خدّ ذاب رونقه
واللثم يركض في سوائفه يكاد خيل الدمع يسبقه

ومثله قوله:

خذي نفسي يا ريح من جانب الحمى فإني بذاك الحيّ حباً عهدته
ولولا تداوي القلب من ألم الجوى بذكر تلاقينا قضيت من الوجد^(٣)
فلاقي به ليلاً نسيم ربي نجد

ومثله قوله من أبيات:

عارضاً بي ركب الحجاز أسائله متى عهده بسكان سلع
واستملاً حديث من سكن الجز ع ولا تكتباه إلا بدمعي^(٤)
عزني أن أرى الديار بطرفي فلعلي أرى الديار بسمعي^(٥)

(١) المغدّ: المسرع السير.

(٢) نضو: ضعيف مهزول..

(٣) الجوى: شدة الشوق - قضى: مات - الوجد: الإشتياق الشديد.

(٤) استملاً: اطلبوا إملاء، والإملاء هو أن يقرأ أحد شخصين ويكتب الثاني.

(٥) عزني: أي لم أستطع.

ومن الانسجومات، التي ينسجم الدمع لرقتها، قول تلميذه مهيار الديلمي :

ظنَّ غَدَاةَ البين أن قد سلما
فعداد يستقري حشاه فإذا
يا قاتل الله العيون خلقت
أودعني السقم وولى هازئاً
ولو أباح ما حمى من ريقه
وا بأبي ومن يبيع بأبي
كأنما الصهباء في كافورة

لما رمى سهماً وما أجرى دما
فؤاده من بينهم قد عدما^(١)
لو أخطأ فكيف صارت أسهما
يقول قم واستشف ماء زمزما
لكان أشفى لي من الماء اللما^(٢)
على الظما ذاك الزلال الشبما^(٣)
قد مزجت وجلّ عن كأنما

ومثله قوله :

أستنجدُ الصبر فيكم وهو مغلوب
وأبتغي عندكم قلباً سمحت به
ما كنت أعلم ما مقدار وصلكم

وأسأل النوم عنكم وهو مسلوب
وكيف يرجع شيء وهو موهوب
حتى هجرت وبعض الهجر تأديب

ومثله قوله وهو في غاية اللطف :

بطرفك والمسحور يقسم بالسحر
رنا اللحظة الأولى فقلت مجرب

أعمداً رمانى أم أصاب ولا يدري
وكررها أخرى فأحسست بالشرب

ومثله قوله في اللطف :

من عذيري يوم شرفي الحمى
الصبا إن كان لا بد الصبا
يا نداماي بسلع هل أرى

من هوى جدّ بقلبي مرحا^(٤)
إنها كانت لقلبي أروحا
ذلك المغبق والمصطبحا^(٥)

(١) يستفري : يتفحص .

(٢) اللما : أخذه بأجمعه . وتقدير الكلام : لو أباح ما حمى من ريقه فإن أخذ هذا الريق بأجمعه كان

أشفى لي من شرب الماء .

(٣) الشبم : من الماء : البارد .

(٤) العذير : الناصر والمساعد .

(٥) المغبق والمصطبحا : مكان الاغتباق أو مكان شرب الغبوق وهو شرب الخمر مساءً، ومكان الاصطباح

وهو شرب الصبوح أي شرب الخمر صباحاً .

رب ذكرى قربت من نزحا
شرب الدمع وعاف القدحا

اذكرونا مثل ذكرانا لكم
وارحموا صبا إذا غنى بكم

منها:

فكأنني ما عرفت الفرحا

وعرفت الهم مذ فارتكم

ومثله قوله من قصيدة:

فسقاك الريّ يادار أماما^(١)
يتأرجن بأنفاس الخزامى^(٢)
للمحبين مناخاً ومقاما^(٣)
بالحمى وافر على قلبي السلاما^(٤)
إن قلباً سار عن جسم أقاما
طيب عيش بالغضى لو كان داما
قبل أن تحمل شيحاً أو ثاماما^(٥)
إن أذنتم لجفوني أن تناما

بكر العارض يحدوه النعامي
وتمشت فيك أرواح الصبا
قد قضى حفظ الهوى أن تصبحي
وبجرعاء الحمى قلبي فعج
وترحل فتحدث عجباً
قل لجيران الغضى آهاً على
حملوا ريح الصبا من شركم
وابعثوا أشباحكم لي في الكرى

ومن الغايات، في باب الانسجام، قول الوأواء الدمشقي:

وعاتباه لعل العتب يعطفه^(٦)
ما بال عبدك بالهجران تتلفه
ما ضرّ لو بوصال منك تسعفه
فغالطاه وقولا ليس نعرفه

بالله ربكما عوجا على سكاني
وحدثاه وقولا في حديثكما
فإن تبسم قولاً في ملاطفة
وإن بدا لكما في وجهه غضب

-
- (١) العارض: المطر - يحدوه: يسوقه - النعامي: ريح الجنوب لأنها في الصحراء أندى الرياح وأرطبها
(٢) أرواح: جمع ريح. - الصبا: ريح تهب على الصحراء العربية من جهة الشرق، تقابلها الدبور وتحمل عادة الروائح الزكية - تأرج: صار ريحه ريح الأريج.
(٣) قضى: حكم - مناخاً: محط رحال - مقاماً: مكان الإقامة.
(٤) عج: أمر من عاج: عرج ومر...
(٥) النثر: الرائحة الطيبة - الشيح: نبات سهلي طيب الرائحة - الثمام: عشب من الفصيلة النجيلية فروع مزدهمه، مجتمعه.
(٦) السكن: الزوج ومنه قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾ الروم ٢١/٣٠. وقوله: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ الأعراف، ١٨٩/٧.

ومثله، في اللطف ورقة الانسجام، قول الأرجاني:

رجعت عهددي فيك أم لم ترجع
عنهم فأجعلها نصيب المربع^(١)
لما أسرَّ به إليّ مودعي
في مسمعي ألقيته من أدمعي

حيثك غادية الهوى من مربع
ما أساروا في كأس دمعي فضلة
لم يبكني إلا حديث فراقهم
هو ذلك الدرّ الذي ألقيتم

ومثله قوله:

لا عار أن يتساعد الصحب
واليوم لي ألم ولا قلب

عوجا عليها أيها الركب
قد كان لي قلب ولا ألم

ومثله قوله:

يوم النوى فبقيت صفر الأضلع^(٢)
حلفاً بغير رهائن لم يقنع
والطيف من سلمى رهينتهم معي

أما الفؤاد فإنهم ذهبوا به
فكأننا لما عقدنا للنوى
فرهيتي معهم فؤادي دائماً

ومثله في اللطف قول الطغرائي:

أضنى طرفاً شكاً أم تليداً^(٣)
فأبت وهي تشتهي أن تعودا
ألم البعد والمزار البعيدا
أن أمالت عليّ عطفاً وجيدا

خبروها أنني مرضت فقالت
وأشاروا بأن تعود وسادي
وأنتني في خفية وهي تشكو
ورأتني كذا فلم تتمالك

والطف منه، بل من النسيم، قوله:

من صدغه فأقيمي فيه واستتري
لي فرصة وتعودي منه بالظفر
مقابل الطعم بين الطيب والخصر
بنفحة المسك بين الورد والصدر^(٤)

بالله يا ريح إن مكنت ثانية
وراقبي غفلة منه لتستهزي
وياكري ورد عذب من مقبله
ولا تمسي عذاريه فتفضحي

(١) أساروا: أبقوا، من السّور وهو البقية من كل شيء.

(٢) صفر الأضلع: فارغ الأضلع، ويقال: صفر اليدين للذي لا يحمل شيئاً.

(٣) الضنى: المرض والألم - الطارف: الجديد - التليد: القديم.

(٤) الورد والصدر: الورد المجيء، والصدر: العودة والرجوع.

وإن قدرت على تشويش طرته
ثم اسلكي بين برديه على مهل
ونبهيني دون القوم وانتفضي
لعل نفحة طيب منك نائبة
فشوشها ولا تبقي ولا تذري
واستبضعي وانثني منه على قدر^(١)
عليّ والليل في شك من السحر
تقضي لبانة قلب عاقر الوطر^(٢)

وممن برع في الطريق الغرامية، وأينع زهر نظمه في حدائق الانسجام بها، الشيخ تقي الدين السروجي رحمه الله تعالى. قال الشيخ أثير الدين أبو حيان، رحمه الله: كان الشيخ تقي الدين، مع زهده وعفته، مغرمًا بحب الجمال، وكان يغني بشعره الغرامي في عصره، لرقة انسجامه وعدوبة ألفاظه. وقال الشهاب محمود: كان الشيخ تقي الدين يكره مكاناً يكون فيه امرأة، ومن دعاه من أصحابه قال: شرطي معروف، وهو أن لا يحضر في المجلس امرأة. وكنا يوماً في دعوة، فأحضر صاحب الدعوة شواء وأمر بإدخاله إلى النساء يقطعنه ويجعلنه في الصحون، فلما حضر بعد ذلك تعرف منه، وقال: كيف يؤكل وقد لمسنه بأيديهن. وذكر أبو حيان: أنه لما توفي بالقاهرة، رابع رمضان المعظم سنة ثلاث وتسعين وستمائة، قال أبو محبوبه: والله ما أدفنه إلا في قبر ولدي، فإنه كان يهواه في الحياة، وما أفرق بينهما في الممات. هذا لما كان يعهده من دينه وعفافه، فمن انسجاماته الغرامية:

أنعم بوصولك لي فهذا وقته
أنفقت عمري في هواك وليتي
يا من شغلت بوجه عن غيره
كم جال في ميدان حبك فارس
أنت الذي جمع المحاسن وجهه
قال الوشاة قد ادعى بك نسبة
بالله إن سألك عني قل لهم
أو قيل مشتاق إليك فقل لهم

وما ألطف ما قال منها:

يا حسن طيف من خيالك زارني
فمضى وفي قلبي عليه حسرة
من عظم وجددي فيه ما حققته
لو كان يمكنني الرقاد لحقته

(١) استبضعي: أي مري على البضع وهو فرج المرأة.

(٢) اللبانة: الحاجة - العاقر: التي لا تلد - الوطر: الحاجة.

(٣) وصول: جمع وصل: وهو عبارة عن ورقة تثبت الإنفاق (مستحدثه).

قلت: ما نفثات السحر، إذا صدقت عزائمها، بأوصل إلى القلوب من هذه النفثات، ولا لسلاف ظلم الجباب مع حلاوة التقبيل عذوبة هذه الرشقات.

وعذّوا من المرقص الغرامي في باب الانسجام، قول ابن الخياط الدمشقي:

أغار إذا آنتت في الحي أنه حذاراً وخوفاً أن تكون لحيه^(١)

ومثله قول ظافر الحداد، وقد عدّوه من المرقص:

ونفر صبح الشيب ليل شببتي كذا عادني في الصبح مع من أحبه

ومثله قول خالد الكاتب، وعدّوه له من المطرب:

رقدت ولم ترث للساھر ولیل المحب بلا آخر

ومثله قول راجح الحلبي، وعدّوه من المرقص:

يا ليل طلت ولم ترق لمغرم لم يظلموا إذ لقبوك بكافر^(٢)

ومثله قول ابن تقي، وهو معدود من المرقص:

باعدته عن أضلع تشتاقه كي لا ينام على فراش خافق

ويعجبني في هذا الباب قول النجيب بن الدباغ، وهو معدود من المرقص:

يا رب إن قدرته لمقبل غيري فللمسواك أو للأكؤس^(٣)

ولئن قضيت لنا بصحبة ثالث يا رب فلْيَكُ شمعة في المجلس

وإذا حكمت لنا بعين مراقب في الحب فلْتَكُ من عيون النرجس

وعذّوا من مرقصات الطريق الغرامية قول القائل:

أستغفر الله إلا من محبتكم فإنها حسناتي حين ألقاه

فإن يقولوا بأن العشق معصية فالعشق أحسن ما يعصى به الله

ومن مطرب الانسجام الغرامي، قول عليّة بنت المهدي:

وأحسن أيام الهوى يومك الذي تروع بالهجران فيه وبالعتب

إذا لم يكن في الحب سخط ولارضا فأين حلاوات الرسائل والكتب

(١) أنه: واحدة الأئين وهو صوت الموجوع.

(٢) الكافر: من أسماء الليل.

(٣) المسواك: غصن شجر تنظف به الأسنان

ومثله من المطرب، قول الحسين بن الضحاك:

له عبثات عند كل تحية بعينه تستدعي الحليم إلى الوجد^(١)
رعى الله عصراً لم نبت فيه ليلة خلياً ولكن من حبيب على وعد^(٢)

ومن الغايات في هذا الباب، أعني الانسجام الغرامي، ما كان يكثر من الترنم به
أبو القاسم القشيري وهو:

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا وشهدت حين نكرر التوديعا^(٣)
أيقنت أن من الدموع محدثاً وعلمت أن من الحديث دموعا

ومثله قول خالد الكاتب:

بكي عاذلي من رحمتي فرحمته وكم مثله من مسعد ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنها دموع دموعي لا دموع جفوني

ويعجبي، من هذا الباب، قول اسحق بن إبراهيم الموصلي:

على عصر أيام الصبابة والصبأ ووصل الغواني والتذاذي بالشرب
سلام امرئ لم تبق منه بقية سوى نظر العينين أو شهوة القلب

ومن غراميات القاضي الفاضل، في باب الانسجام قوله:

تُرى لحنيني أو حنين الحمائم جرت فحككت دمعي دموع الغمام
وهل من ضلوع أو ربوع ترحلوا فكل أراها دارسات المعالم^(٤)
لقد ضعفت ريح الصبا فوصلتها فمني لا منها هبوب السمائم^(٥)
دعوا نفس المقروح يحمله الصبا وإن كان يهفو بالغصون النواعم^(٦)
تأخرت في حمل السلام عليكم لدينا لما قد حملت من سمائم
فلا تسمعوا إلا حديثاً لناظري يعاد بالفاظ الدموع السواجم^(٧)

(١) عبثات: غمزات وهي من العبث وهو اللعب الذي لا طائل تحته.

(٢) خلياً: وحيداً، أو خالياً من شيء ما.

(٣) بيننا: الأولى، فراقنا.

(٤) دارسات المعالم: مححوات الآثار.

(٥) السمائم: جمع سموم وهي رياح حارة.

(٦) الصبا: رياح تحمل روائح طيبة تهب على الجزيرة العربية من جهة الشرق.

(٧) السواجم: المنسكبة، سجم الدمع: انصب وانسكب.

ومثله قوله:

يا قلب مالك راغب في زاهد
من وصلك الغالي بيوم واحد
والقلب صخر لا يلين لقاصد
وضربت من ذا في حديد بارد

يا طرف مالك ساهد في راقد
من يشتري عمري الرخيص جميعه
عاتبته فتورّدت وجناته
فنظرت من ذي في حرير ناعم

ويعجبني من غراميات البها زهير قوله:

وقلت بإدلال فقولوا بإصغاء
مخافة أمواه لدمعي وأنواء^(١)
وأخلصتم فيه مشيتم على الماء
وهالتكم نيران وجدٍ بأحشائي
وخوضوا لظي نارٍ لشوقي حمراء^(٢)

عتبتكم عتب المحب حبيبه
لعلكم قد صدّكم عن زيارتي
فلو صدق الحب الذي تدعونه
وإن تك أنفاسي خشيتم لهيها
فكونوا رفاعيين في الحب مرة

وألطف منه وأسجم قوله:

أنا الذي مت عشقا
تلقي الذي أنا ألقى
وبين هجرك فرقا
إلى متى فيك أشقى
يا رب لا كان صدقا
من أكرم الناس خلقا
أموت لا شك حقا
يا ألف مولاي رفقا
والله خير وأبقى

تعيش أنت وتبقى
حاشاك يا نور عيني
ولم أجد بين موتي
يا أنعم الناس بالآ
سمعت عنك حديثاً
وما عهدتك إلا
لك الحياة فإنني
يا ألف مولاي مهلاً
قد كان ما كان مني

ومثله قوله:

ولك الهوى المستقبل
هو ما عهدت وأكمل

أنت الحبيب الأول
عندي لك الودّ الذي

(١) أمواه: جمع ماء - الأنواء: الأمواج.

(٢) رفاعيين: نسبة إلى رفاع الطهطاوي. لشوقي: يتبادر إلى الذهن شوقي الشاعر وهي تورية المقصود بها الشوق.

القلب فيك مقيد
يا من يهدد بالصدو
قد صح عذرك في الهوى
نفدت معاذيري التي
حتام أكذب للورى
قل للعذول لقد أطلت
عابت من لا يرعوي
غضب العذول أخف من
والدمع منك مسلسل
د نعم تقول وتفعل
لكنني أتعلل^(١)
ألقى بها من يسأل
وإلى متى أتحمل
ت لمن تقول وتعذل
وعذلت من لا يقبل
غضب الحبيب وأسهل

ومن انسجاماته التي تكاد أن لا تكون موزونة:

إن شكا القلب هجركم
لو رأيتم محللكم
لو أمرتم بما عسى
قصرُوا مدة الجفا
شرفوني بزورة
كنت أرجو بأنكم
قد نسيتم وإنما
وصبرتم وليتني
ورأيتم تجلدي
لو وصلتكم محبكم
مهد الحب عذركم
من فؤادي لسركم
ما تعديت أمركم
طول الله عمركم
شرف الله قدركم
شهركم لي ودهركم
أنا لم أنس ذكركم
كنت أعطيت صبركم
في هواكم فسرّكم^(٢)
ما الذي كان ضرّكم

ومن انسجاماته التي هي في غاية الظرف:

يا قلب بعض الناس هل
إني ببابك قد وقفت عسى تردّ جوابيه
يا ملبسي ثوب الضنا
يهنأك ثوب العافيه
لم يبق مني في القميص سوى رسوم باليه^(٣)
وحشاشة ما أبقت الأشواق منها باقيه^(٤)

(١) التعلل: تسلية النفس وتمنيها.

(٢) التجلد: شدة الصبر.

(٣) رسوم: بقايا.

(٤) الحشاشة: بقية الروح.

يا من إليه المشتكى أنت العليم بحاليه
 وإليك عني يا غرا م فقد عرفت مكانيه
 فكأنما لك قد قعد ت على طريق القافيه
 من لي بقلب اشتريه من القلوب القاسيه
 مولاي يا قلبي العزيز ويا حياتي الغاليه
 إنني لأطلب حاجة ليست عليك بخافيه
 أنعم عليّ بقبلة هبة وإلا عاريه (١)
 وأعيدها لك لا عدمت بعينها وكما هيه
 وإذا أردت زيادة خذها ونفسي راضيه

ومثله قوله في هذا الروي:

قالوا كبرت عن الصبا وقطعت تلك الناحيه
 فدع الصبا لرجاله واخلع ثياب العاريه
 ونعم كبرت وإنما تلك الشمائل باقيه
 وتفوح من عطفي أنفاس والشباب كما هيه
 ويميل بي نحو الصبا قلب رقيق الحاشيه
 فيه من الطرب القديم بقيه في الزاويه

ومن غراميات الحاجري، في هذا الباب:

لك أن تشوقني إلى الأوطان وعليّ أن أبكي بدمع قان
 إن السذي رحلوا غداة المنحنى ملؤوا القلوب لواعج الأشجان (٢)
 فلابعثن من النسيم إليهم ما حل بالأغصان والغزلان
 نزلوا برامة قاطنين فلا تسل ما حل بالأغصان والغزلان

وقد تقدم قولي: إن الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماه، سقى الله من غيث الرحمة ثراه، هو غيث هذا الانسجام، وغريم هذا الغرام. فمن انسجاماته الغرامية الموعود بإيرادها، قوله:

حديثي في المحبة ليس يشرح فدعني من حديث اللوم واسرح

(١) العارية: استعارة.

(٢) اللواعج: جمع لاعج وهو المحرق - والأشجان: جمع شجن وهو الحزن.

عن الحب الذي أعيأ وبرح^(١)
تأمل من هويت فما تنحج
ويا لله ما أحلى وأملح
ولي قلب يقول الصلح أصلح
فقير وشاحه الله يفتح^(٢)
إذا أنشدت أغزالي ترنج^(٣)
صحيحات فأمرضني وصحح
ولا أسلو فاتركه وأربح

فما لك مطمع يبراح قلبي
فكم من لائم أنحى إلى أن
فيا لله ما أشهى وأبهى
له طرف يقول الحرب أحرى
سألت سواره المشري فنادى
وماس من القوام بغصن بان
وحياتي بألحاظ مراض
أعاتبه فلا يصني لعتبي

ومن غايات انسجامه قوله:

كم سفحت من دمه
دفعة على دفعه
ما أمرها جرعه
في المقال بالرجعه^(٤)
لا تحرّموا المتعه^(٥)
سادتي من البدعه^(٦)
والوصال في منعه^(٧)
غير هذه الصنعه

كم شرحت من وجد
كم بعثت من رسل
بنتم وأعرضتم
هل عليكم باس
قد حججت مغناكم
ترك سنتي فيكم
هذه صباباتي
كيف لو تعلمتم

(١) برّح: اشتد بصاحبه فلم يتركه يبرح مكانه.

(٢) الله يفتح: تعبير يستعمله المسؤول إذا أراد المنع.

(٣) ماس: تمايل - أغزال: غزليات - ترنج: تمايل حتى بدا كالسكران يوشك على الوقوع.

(٤) القول بالرجعة: الاعتقاد بأن الأئمة يرجعون مع ظالمهم ليقتصوا منهم آخراً أو هو الاعتقاد برجعة الإمام محمد بن الحسن العسكري بعد غيبتان: صغرى وكبرى، وأنه «سيملاً الأرض عدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً» وهذا من اعتقادات الشيعة. أو هو مذهب من يؤمن بالرجوع إلى الدنيا بعد الموت.

(٥) حججت مغناكم: زرت داركم - المتعة: التمتع بالنساء: والمتعة كانت سنة على زمن النبي محمد فجا عمر بن الخطاب فحرمها وقال: «متعتان كانتا على زمن النبي أنا أحرمهما وأعاقب عليهما». ولا يزال الشيعة يطبقون السنة في المتعة إلى يومنا هذا.

(٦) البدعة: إحداث شيء في الدين لم يكن فيه، وهذا من الافتراء والكفر.

(٧) المنعة: حماية منيعة، أي لا يمكن الوصول إليه.

يا مليك قلبي خذ
واسر بيننا أو لا
لا تحل عني قلبي
قد تركت أرداني
ما لناظري كحل
ما يليه بالشفعة^(١)
ردنا إلى القرعة
ليس فيه من نجعه^(٢)
من مدامعي نقعه^(٣)
غير هذه الطلعه

ومثله قوله:

خبروه تفصيل حالي جملة
كم تنحنحت إذ تبدى حذاراً
ليس لي عن هدى هواه ضلال
ركبت في جبلتي نشوة العشاء
سادتني عادوا رضاكم وعودا
ذبت شوقاً فعالجوني بقرب
وأشغلوني عن لائم ما أتاني
قلت بالله خلني فتمادى
فعمساه يرق لي ولعله
من رقيبي وكم تكلفت سعنه^(٤)
أكثر اللوم عاذلي أو أقله
ق وصعب تغيير ما في الجبله
عن جفاكم فما بقي في فضله
مت عشقاً فحنطوني بقبله^(٥)
برشاد أتته آفة غفله
وقليل من يترك الشر لله

ومثله قوله:

صب أخذ الهوى زمامه
في حسنكم البديع شغل
من لي بمحجب أراه
أشدو بتغزلي لديه
يزهو ويقول كان ماذا
شبهت بطلعتي هلالاً
والغصن حسبته شبيهاً
قد صار جمالكم أمامه
عن علوة لي وعن إمامه
بالفكر ولا أرى خيامه
فيه فيحد لي خصامه
لو يترك جاهل كلامه
ما كنت رضيته قلامه^(٦)
مني بتعطف وقامه

(١) الشفعة: حق الجار في تملك العقار جبراً على مشتره بشروطه التي رسمها الفقهاء.

(٢) النجعة: قصد ذي المعروف لمعروفه ، وموضع الأمل.

(٣) أردان: جمع ردن وهو كم الثوب - نقعة: كثير التبلل بالدموع.

(٤) سعلة: واحدة السعال وهو النفث الذي يصدر عن المصدر.

(٥) حنط: تحنيطاً: حفظ الجسم من التلف بمواد خاصة.

(٦) القلامه: القطعة من الظفر.

والظبي إذا رنت لحاظي
أفديه بمهجتي وإنني
كم دعوة موعده لوصول
أخبرت بها العذول لكن

ومثله قوله :

لا كيد له ولا كرامه
لا حسرة لي ولا ندامه
قامت لحضورها القيامه
ما قلت له كم الغرامه^(١)

لا تعاتبني فلا عتب عليّ
ليس للنصح قبول يرتجى
وأرى لومك يغريني به
أنا في الحب إمام فإذا
لا تسل غيري في شرع الهوى
خلقي أني شحيح بهم
فاختصر في شرح أشواقي فإن
سادتي فارتكمت فاستلبت
فاجبروا قلبي بشيء منكم
صادني منكم غرير أغيد
قلت قد أضنيت جسمي قال قد
قلت أفديك بنفسي قال مه

ومثله قوله، من أبيات يخاطب العذول :

خرج الأمر وعقلي من يدي
عند شيخ هام وجداً بصبي
لا تزدني أو فزذني يا أخي
صرت من أبنائه فأخضع لدي
وخذ التنزيل فيه عن أبي
وبروحي لهم حاتم طي^(٢)
رمت إسهاباً فوكل مقلتي
بنوا كم راحتي من راحتي^(٣)
فلقد أوتيتم من كل شيء^(٤)
فيه ما يشغل عن هندومي^(٥)
قلت كي تذهب روحي قال كي
ما إليك الأمر فيها بل إلي^(٦)

أراك بخيلاً بعوني فهبني
ذممت الهوى ورجوت السلو
فإن عفت شربي من خمرتي
وإياك عربدتني فآخشها

سكوتك عني إذا لم تعني
فأبكيك عيني وأضحكت سني
فدعني ما بين كأسي ودني^(٧)
فلإني قد أخذ السكر مني

(١) الغرامه : الجزية .

(٢) شحيح : بخيل - حاتم طي : يضرب به المثل في الكرم عند العرب .

(٣) النوى : السفر - راحتي : الأولى بمعنى الاستراحة والثانية اليد .

(٤) جَبَر : أصلح الخراب .

(٥) الغرير : المغرور الذي لا تجربة له .

(٦) مه : لغة في ما الاستفهامية .

(٧) الدن : وعاء البخمر .

ويعجبني من انسجامات ابن سنا الملك قوله:

دنوت وقد أبدى الكرى منه ما أبدى
وأبصرت في خدييه ماء وخضرة
تلهب ماء الخد أو سال جمره
أقول لناه قد أشار بتركه
فلم لا نهيت الشجر أن يعذب اللمي
وأقسم ما عندي إليه صباية
وفي القلب نيران الخليل توقدت

فقبلته في الشجر تسعين أو إحدى^(١)
فما أملح المرعى وما أعذب الورد
فيا ماء ما أذكى ويا جمر ما أئدى
لقد زدني فيما أشرت به زهدا
ولم لا أمرت الصبر أن يكتم النهدا^(٢)
وكيف وجور الشوق لم يبق لي عندا
وما ذقت منها لا سلاماً ولا برداً^(٣)

ومثله قوله، ويعجبني إلى الغاية:

نعم المشوق وأنعم المعشوق
خصر أدير عليه معصم قبلة
ونعم لقد طرق الحبيب وماله
فرشوا الخدود طريقه فكأنما
وافى وصبح جبينه متنفس
فصنعت فيه صناعة شعرية

فالعيش كالخصر الرقيق رقيق
فكأن تقبيلي له ت نيق
إلا خدود العاشقين طريق
زفراتهم لقدمه تطريق^(٤)
وأتى وجيد رقيه مخنوق^(٥)
فالصدر يرحب والعناق يضيق

ومثله قوله، وهو في غاية الظرف:

لا أجازي حبيب قلبي بجرمه
ضن عني بريقه فتحيلت
وإلى اليوم من ثلاثين يوماً
إن قلبي لصدرة ورقادي
يكسر الجفن بالفتور ومالي

أنا أحنى عليه من قلب أمه
ت إلى أن سرقة عند لثمه
لم تزل من فمي حلاوة طعمه
ملك أجفانه وزوحي لجسمه
عمل وقت كسره غير ضمه

(١) أو إحدى وتسعين قبلة.

(٢) اللمي: سمرة في الشفاء - النهدي: الثدي إذا نهد في الصدر.

(٣) نيران الخليل: تلميح إلى قصة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وإلقائه في النار بعد تحطيم الأصنام.

(٤) التطريق: وقع الخطى.

(٥) مخنوق: مزنر.

ومن غراميات الشاب الظريف، شمس الدين محمد بن العفيف، قوله في باب الانسجام: ١

عفا الله عن قوم عفا الصبر منهم
تجنوا كأن لا ودّ بيني وبينهم
وبالجزع أحباب إذا ما ذكرتهم
ومشوب ناري وجنة وجناية
ألمّ وما في الركب منا مقيم
وليس الهوى إلا التفاتة طامح
خليلي ما للقلب هاجت شجونه
أظن ديار الحي منا قريبة

فلورمت ذكرى غيرهم خانني الفم^(١)
قديماً وحتى ما كأنهم هم
شرقت بدمع في أواخره دم
تعلمه الحاظه كيف يظلم
وعاد وما في الركب إلا مقيم
يروق لعينه الجمال المنعم
وعاوده داء من الشوق مؤلم
وإلا فمنها نفحة تنسم

ومثله قوله:

لا تخف ما فعلت بك الأشواق
فمسي يعينك من شكوت له الهوى
لا تجزعنّ فلست أول مغرم
واصبر على هجر الحبيب فر بما
كم ليلة أسهرت أحداقي بها
يا رب قد بعد الذين أحبهم
واسودّ حظي عندهم لما سرى
عرب رأيت أصح ميثاق لهم

واشرح هواك فكلنا عشاق
في حمله فالعاشقون رفاق
فتكت به الوجنات والأحداق
عاد الوصول وللهمى أخلاق
وجداً ولأفكار بي إحداق^(٢)
عني وقد ألف الفراق فراق
فيه بنار صبابتي إحراق
أن لا يصح لديهم ميثاق

ومثله قوله:

بتني قوامك الممشوق
وبمعنى للحسن مبتكر فيك
جُد بوصل أو زورة أو بوعد
أو بإرسالك السلام مع الريح
وبأنوار وجهك المعشوق
وقلب كقلبي المحروق
أو بوقفه في الطريق^(٣)
وإلا فبالخيال الطروق

(١) عفا: زال.

(٢) إحداق: احاطة.

(٣) الطروق: الملم بالمكان.

ويعجبني ، في هذا المعنى على هذا الطريق، قول بعض المواليا:

زر شهر في عام يا من قد غلا في السوم^(١) أو يوم في شهر أحلى من صدودك
وإن عز هذا وهذا يا عزيز القوم في الدهر ساعة وإن لم ترتضِ في النوم
ومن أطف انسجامات ابن العفيف قوله أيضاً:

لي من هواك بعيده وقريبه
يا من أعيدت جماله بجلاله
إن لم تكن عيني فإنك نوزها
هل حرمة أو رحمة لمتيم
ألف القصائد في هواك تغزلاً
لم يبق لي سرّ أقول تذييعه
دع لي فؤاداً بالغرام تشبّه
كم ليلة قضيتها متسهداً
والنجم أقرب من لقاءك مناله

ومثله قوله:

رشيق القامة النضره
وقد سودت حظي منك يا أبهى الورى غره
سواد الخال والمقله
مع العارض والطره
قديم الهجر هل لفتى
قديم في الهوى هجره
وكم تلقاه بالايعا
د والابعاد والنفره^(٦)
وكم يشكو ولا تطر
ح في قفته كسره^(٦)
رأينا من جفا وجنى
ولكن زدت في كره
فهل تمنح أو تسمح بالوصل ولو مره

(١) السوم: الثمن.

(٢) النسيب: التغزل والتشبيب.

(٣) تشبه: تشعله - الفؤد: الشعر الذي على جانب الرأس مما يلي الأذنين (السالف).

(٤) أصمى: رمى وقتل.

(٥) الإيعاد: التوعد.

(٦) القفه: الثوب.

فقد أصبحت لا أمل لك من صبري ولا ذره
وقد صيرني هجر ك في كس أخت من أكره
ومن انسجاماته الرقيقة قوله:

حتم حظي لديك حرمان
أين ليال مضت ونحن بها
وأين وُدُّ عهدت صحته
قد رضي الدهر والعواذل والـ
فاسلم ولا تلتفت إلى مهج
ونم خلياً وقل كذا وكذا
وكم كذا لوعة وهجران
أحبة في الهوى وجيران
وأين عهد وأين أيمان
بها جوى قاتل وأشجان
من كل من أطلعت تلمسان^(١)

ومثله قوله:

أعز الله أنصار العيون
وضاعف بالفتور لها اقتداراً
وأبقى دولة الاعطاف فينا
وأسبغ ظل ذاك الشعر منه
وصان حجاب هاتيك الثنايا
حملت تسهدي والشيب هذا
وخلد ملك هاتيك الجفون
وإن تك أضعفت عقلي وديني
وإن جارت على قلبي الطعين^(٢)
على قدُّ به هيف الغصون
وإن ثنت الفؤاد إلى الشجون
على رأسي وذاك على عيون

ومن غراميات ابن النبيه، في باب الانسجام:

تعالى الله ما أحسن
خُدود لثمها يبري
فما تجني وحارسها
غزال ضيق العينين
شقيقاً حف بالسوسن^(٣)
من الأسقام لو أمكن
بقفل الصدغ قد زرفن^(٤)
ينسيني الرشا الأعين^(٥)

(١) تلمسان: إسم بلد.

(٢) الطعين: المطعون: المجروح بالرمح أو بالسيف.

(٣) الشقيق: شقائق النعمان، أزهار معروفة.

(٤) الصدغ: الشعر ما بين العين والأذن من جانب الوجه - زرفن: لم نثر على هذه اللفظة فيما بين أيدينا وربما كانت «زرجن» ومعناها صبغ بالزرجون وهو صباغ أحمر يستخرج من شجر واحدته زرجونة.

(٥) الأعين: الواسع العينين.

له قلب وأعطاف فما أقسى وما أليّن
ولم أر قبل مبسمه صغير الجواهر المثلّم
أبث هواه من خوف لنجم الليل لما جن^(١)
وما ينفع كتمانني ودمع العين قد أعلن
وقد أسكنته قلبي فسار وأحرق المسكن

ومما كتبه القاضي الفاضل بخطه، وهو غاية في باب الانسجام الغرامي، وكان كثيراً ما يترنم به، قصيدة القاضي المهذب ابن الزبير، ووجدت بخط الفاضل، غير تامة، وقد أثبت هنا منها ما وجد بخط الفاضل من غراميتها، واختصرت المديح وهو:

بالله يا ريح الشما ل إذا اشتملت الروح بردا
وحملت من نشر الخزا مي ما اغتدى للندّ ندّا^(٢)
ونسجت ما بين الغصو ن إذا اعتنقن هوى وودّا
وهزرت عند الصبح من أعطافها قدأ فقُدّا^(٣)
ونشرت فوق الماء من أجادها للزهر عقدا
فملاّت صفحة وجهه حتى اكتسى آسأ ووردا^(٤)
فكأنما ألفت فيهِه منها صدغاً وخدا
مري على برد عسا ه يزيد في مسراك بردا
نهر كنصل السيف تكسو و متنه الأزهار غمدا^(٥)
صقلته أنفاس النسيم بمرهن فليس يصدا
أحبابنا ما بالكم فينا من الأعداء أعدى
وحياة حبكم بتر به وصلكم ما خنت عهدا

وغاية الغايات، في باب الانسجام الغرامي، ما كتبه القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر إلى والده القاضي محيي الدين، وقد توجه صحبة الركاب الشريف الظاهري في مهم شريف فحصل له ضعف بدمشق المحروسة، وهو:

إن شئت تبصرني وتبصر حالي قنابل إذا هب النسيم قبولا

(١) جن: ستر وجن الليل أظلم.

(٢) الخزامي: نبت طيب الرائحة - الند: نوع من الأشجار أغصانه يتبخر بها لطيب رائحتها.

(٣) قد: شق.

(٤) الأس: نبات طيب الرائحة.

(٥) نصل السيف: شفرته - وغمد السيف: جفنه أو مكان وضعه.

تلقاه مثلي رقة ونحافة
 فهو الرسول إليك مني ليتني
 ولأجل قلبك لا أقول عليلاً
 كنت اتخذت مع الرسول سبيلاً
 خطاب مثل هذا الولد لمثل هذا الوالد، بقوله: ولأجل قلبك لا أقول عليلاً، فيه ما
 يفتت الأكباد، ويحرك الجماد. سبحان المانع! إن من البيان لسحرا.
 ومن غراميات والده القاضي محيي الدين، في باب الانسجام:

لا آخذ الله بـ	فكم وشى بي عندك
وقال عني بأني	شبهت بالغصن قدك
وأنت تعظم عندي	أن يمسى البدر عبيدك
ولست والله أرضى	أن يحكي الورد خدك
فقاتل الله طرفي	فكم به نلت قصدك
ولا رعى الله قلبي	فكم رعى لك عهدك
فمن ترى أنا حتى	جعلت صدري وكذك ^(١)
وما عشقتك وحدي	بلى عشقتك وحدك
وكم أطعتك جهدي	وكم تجنيت جهدك
وبعد هذا وهذا	وذاك لا ذقت فقدك

ويعجبني في هذا الباب رشاقة ناصر الدين بن النقيب، بقوله:

سلك الشوق بقلبي	بعدكم صعب المسالك
ورمى قلبي بنيرا	ن ولا نيران مالك
هذه بعض صفاتي	طالع العبد بذلك

وأظرف ما رأيت في باب الانسجام الغرامي المرتجل، ما أورده صاحب «روضة
 الجليس ونزهة الأنيس». ذكر أنه كان بأفريقية رجل نبيه شاعر مفلق، وكان يهوى غلاماً
 من غلمانها جميلاً، فاشتد كلفه به، وكان الغلام يتجنى عليه ويعرض عنه كثيراً، فانفرد
 بنفسه ليلة جمع فيها بين سلاف الراح وسلاف الذكر، فتزايد به الوجد وقام على الفور،
 وقد غلب عليه السكر، ومشى إلى أن انتهى إلى باب محبوه ومعه قيس نار، فوضعه عند
 باب الغلام، فلما دارت النار بالباب بادر الناس بإطفائها واعتقلوه. فلما أصبحوا نهضوا به
 إلى القاضي فأعلموه بفعله. فقال له القاضي: لأي شيء أحرقت باب هذا الغلام؟ فقال
 مرتجلاً:

(١) جعله وكده: أي جعله همه وقرر أن ينفذ شيئاً حياله.

لما تمادى على بعادي
ولم أجد من هواه بدأ
حملت نفسي على وقوفي
فطار من بعض نار قلبي
فأحرق الباب دون علمي
وأضرم النار في فؤادي
ولا معيناً على السهاد
ببأبه حملة الجواد^(١)
أقل في الوصف من زناد^(٢)
ولم يكن ذاك من مرادي

فرق القاضي لارتجاله الغرامي، وتحمل عنه جناية الباب.

وقد انتهت الغاية بنا إلى غراميات العارفين، وابن الفارض هو قائد زمامها، وقتيل غرامها. فمن قوله، في هذا الباب الذي ليس لغيره فيه مدخل، ما ألفته من تائيته، وجعلته قصيداً غرامياً ينتظم بها شمل الانسجام، وإذا هب نسيمها العذري تنسمت العشاق منه أخبار الغرام، وهو قوله:

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبي
تذكرني العهد القديم لأنها
فلي بين هاتيك الخيام ضنينة
محجبة بين الأسنة والظبا
تتيح المنايا إذ تبيح لنا المنى
متى أوعدت أولت وإن وعدت لوت
وإن عرضت أطرق حياء وهيبة
وقد سخنت عيني عليها كأنها
فإنسانها ميت ودمعي غسله
خرجت بها عني إليها فلم أعد
فوصلني قطعي واقترابي تباعدي
فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت
حديثه عهد عن أهيل مودتي^(٣)
عليّ بجمعي سمحة بتشتتي^(٤)
إليها انثنت ألبابنا إذ تثنت
وذاك رخيص منيتي بمنيتي
وإن أقسمت لا تبرى السقم برت^(٥)
وإن أعرضت أشفق فلم أتلفت
بها لم تكن يوماً من الدهر قرت^(٦)
وأكفانه ما ابيض حزناً لفرقتي^(٧)
إليّ ومثلي لا يقول بالرجعة^(٨)
وودّي صديّ وابتدائي نهايتي

(١) الجواد: الكريم.

(٢) الزناد: القبس من النار، ما تشعل به النار.

(٣) أهيل: تصغير أهل للتجيب.

(٤) ضنينة: بخيلة - ضدها سمحة: كريمة.

(٥) أولى: أقام على الوعد - لوت: أخلفت الوعد - بر القسم: وفى به.

(٦) سنحت العين: سفحت الدمع.

(٧) إنسان العين: ما ترى به (البؤبؤ).

(٨) القول بالرجعة من معتقدات الشيعة. وقد مرّ ذكره.

له وتلاف النفس عين الفتوة
سواء سبيلي ذي طوى والثنية (١)
تعادل عندي بالمعرف وقفتي (٢)
وما كان إلا أن أشرت وأومت
وأما جفوني بالبكاء فوفت
وأعرف مقداري فأنكر غيرتي
أريد أراذنتني لها وأحبت
كمجنون ليلي أو كثير عزة (٣)
وقام بها عند النهي عذر محنتي
وإن لم أمت في الحب عشت بغصتي
بها غير صب لا يرى غير صبوتي
جمال محياها بعين قريرة
كما كل أيام اللقاء يوم جمعة
أراها وفي عيني حلت غير مكة
بقرة عيني فيه أحشاي قرت
وطيبي ثرى أرض عليها تمشت
وأطوار أوطاري ومأمن خيفتي (٤)
ولا كادنا صرف الزمان بفرقة (٥)
ولا حدثنا الحادثات بنكبة (٦)
بها كل أوقاتي مواسم لذتي
زمان الصبا طيباً وعصر الشبية
ربيع اعتدال في رياض أريضة (٧)

وفيه تلاف الجسم بالسقم صحة
ولما تلاقينا عشاء وضمنا
وضنت وما منت علي بوقفة
عتبت فلم تعتب كأن لم يكن لقا
وبانت فأما حسن صبري فخاني
أغار عليها أن أهيم بحبها
وكننت بها صبا فلما تركت ما
بها قيس لبني هام بل كل عاشق
بدت فرأيت الحزم في نقض توبتي
فموتي بها وجداً حياة هنيئة
تجمعت الأهواء فيها فلا ترى
وعندي عيدي كل يوم أرى به
وكل الليالي ليلة القدر إن دنت
وأبي بلاد الله حلت بها فما
وما سكتته فهو بيت مقدس
ومسجد الأقصى مساحب بردها
مواطن أفراحي ومربي مآربي
مغان بها لم يدخل الدهر بيننا
ولا صحبتنا النائبات بنبوة
ولا اختص وقت دون وقت بطيبة
فإن رضيت عني فعمري كله
وإن قربت داري فعامي كله

(١) سبيلي: طريقي - وذي طوى والثنية: مكانين.

(٢) المعرف: هو عرفات، والوقفه على جبل عرفات من شعائر الحج في الإسلام.

(٣) قيس لبني: هو قيس بن ذريح الشاعر ولبنى حبيته - ومجنون ليلي: هو قيس بن الملوح، الشاعر
وليلي حبيته - وكثير عزة هو كثير بن عبد الرحمن الشاعر، وعزة حبيته. وقصص هؤلاء في العشق
مشهورة.

(٤) المآرب: الحاجات وكذلك أوطار.

(٥) مغان: ربوع، ديار غنيت بساكنيها.

(٦) النبوة: الطيش. نبا: طاش وخاب.

(٧) رياض أريضة: نضرة غناء.

بها مثل ما أمسيت أصبحت مغرماً
فلو بسطت جسمي رأيت كل جوهر
وقد جمعت أحشائي كل صبابة
وكنت أرى أن التعشق منحة
ألا في سبيل الحب حالي وما عسى
أخذتم فؤادي وهو بعضي عندكم
وهي جسدي مما وهي جلدي لدى
ومنذ عفار سمي وهمت وهمت في
وبالي أبلى من ثياب تجلدي
كأنني هلال الشك لولا تأوهي
وقالوا جرت حمراً دموعك قلت عن
نحرت لضيف السهد في جفني الكرى
فظوفان نوح عند نوحني كأدمعي
ولولا زفيرني أغرقتني أدمعي
وحزني ما يعقوب بث أقله
وكل أذى في الحب منك إذا بدا
نعم وتباريح الصبابة إن عدت
وعنوان ما بي ما أبشك بعضه
وأسكت عجزاً عن أمور كثيرة

وما أصبحت فيه من الحسن أمسيت
به كل قلب فيه كل محبة
بها وجوى ينيك عن كل صبوة
لقلي فما إن كان إلا لمحتني
بكم أن ألاقي لو دريتم أحبتي (١)
فما ضرركم لو كان بعضي جملتي
تحمله يسلى وتبقى بليتي (٢)
وجودي فلم تظفر بكوني فكرتي (٣)
بل الذات في الإعدام نيطت بلذتي (٤)
خفيت فلم تهذ العيون لرؤيتي
أمور جرت في كثرة الشوق قلت
قرى فجرى دمعي دماً فوق وجنتي (٥)
وإيقاد نيران الخليل كلوعتي (٦)
ولولا دموعي أحرقتني زفرتي
وكل بلا أيوب بعض بليتي (٧)
جعلت له شكري مكان شكيتي
علي من النعماء في الحب عدت
وما تحته إظهاره فوق قدرتي
بنظقي إن تحصي ولو قلت قلت

(١) درى: عرف.

(٢) وهي: وهن وضعف.

(٣) في الحقيقة أنني لم أستطع فهم معنى هذا البيت إلا أن يكون: العفار: الفطام. وسمي بمعنى عُرف. فيكون المعنى: ومنذ فطام أو انقطاع عُرف، غلظت وحاولت فكرتي أن تعرف وجودي فلم تظفر ولم تستطع ذلك.

(٤) نيط به الأمر: اقتصر عليه وصار هو مسؤولاً عنه.

(٥) القرا: إطعام الضيف.

(٦) طوفان النبي نوح عليه السلام والنار التي ألقى فيها إبراهيم الخليل عليه السلام وقصتهما مشهورة في القرآن.

(٧) حزن يعقوب على ولده النبي يوسف عليه السلام إذ قال فيه تعالى: ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ يوسف، ١٢/٨٤. - بلا: بلاء، وأيوب هو النبي أيوب عليه الصلاة والسلام ويضرب المثل بصبره.

وإن ملت يوماً عنه فارقت ملتي (١)
 من الوصل فاختر ذاك أو خَلَّ خَلتي (٢)
 فؤادك وادفع عنه غيك بالتى
 وها أنت حيّ إن تكن صادقاً مُت
 أراني إلا للتلاف تلفتي
 عدوي انتقم دهري احتكم حاسدي اشمت
 حنايا ضلوعي فهي غير قويمة
 ويا كبدي من لي بأن تتفتي
 فما لك مأوى في عظام ريممة
 بياء النداء أونست منك بوحتي
 ولو جزعت كانت بغيري تأس (٣)
 أبيت لبقيا العز ذل البقية

مذهبي في الحب ما لي مذهب
 الحب إن لم تقض لم تقض مارباً
 ودع عنك دعوى الحب واختر لغيره
 وجانب جناب الوصل هيهات لم يكن
 وقالوا تلاف ما بقي منك قلت لا
 غرامي أقم صبري انصرم دمعي انسجم
 ويا نار أحشائي أقيمي من الجوى
 ويا جسدي المضى تسل عن الشقا
 ويا كلما أبقى الضنى مني ارتحل
 وماذا عسى عني أناجي توهماً
 فنفسى لم تجزع بإتلافها أسى
 فيا سقمي لا تبق لي رمقاً فقد

ومن غرامياته التي خلبت القلوب، وعرف العارفون بها طريق التوصل إلى معرفة
 المحبوب، قوله من قصيدة:

شغل وكل لسان بالهوى لهج
 وكل جفن إلى الإغفاء لم يعج (٤)
 ولا غرام به الأشواق لم تهج (٥)
 أوفى محب بما يرضيك مبتهج
 لاخير في الحب إن أبقى على المهج (٦)
 حلو الشمائل بالأرواح ممتزج
 ما بين أهل الهوى في أرفع الدرج

أهفو إلى كل قلب بالغرام له
 وكل سمع عن اللاحي به صمم
 لا كان وجد به الأماق جامدة
 عذب بما شئت غير البعد عنك تجد
 وخذ بقية ما أبقيت من رمق
 من لي بإتلاف روحي في هوى رشيا
 من مات فيه غراماً عاش مرتقياً
 وما أحلى ما قال منها:

دعني وشأني وعدعن نصحك السمج (٧)

قل للذي لامني فيه وعنفني

(١) الملة: المذهب الديني.

(٢) المارب: الحاجة - خلى: ترك - الخلة: المصادقة.

(٣) تأس: تعزّت.

(٤) اللاحي: اللائم - عاج: مرّ أو مال.

(٥) الأماق: المآقي وهي مجاري الدموع من العيون.

(٦) الرمق: بقية الحياة.

(٧) السمج: الذي لا يطاق - وعُد: كُفّ.

فاللوم لؤم ولم يمدح به أحد

منها:

لم أدر ما غربة الأوطان وهو معي
فالدار داري وحيي حاضر ومتى

منها:

ليهن ركب سروا ايلاً وأنت بهم
فليصنع الركب ما شاؤوا لأنفسهم

وما ألفت ما قال منها:

أهلاً بما لم أكن أهلاً لموقعه
لك البشارة فاخلع ما عليك فقد

ومثله في الرقة والانسجام قوله من قصيدة:

أبتق لي مقلة لعلّي يوماً
أين مني ما رمت هيهات بل أيــــ
وبشيري لو جاء منك بعطف
قد كفى ما جرى دماً من جفون
فأجسر من قلاك فيك معني
بانكساري بذلتي بخضوعي
لا تكلني إلى قوي جلد خا
كنت تجفو وكان لي بعض صبر
كم صدود عساك ترحم شكوا
شنع المرجفون عنك بهجري
ما بأحشائهم عشقت فأسلو

فهل رأيت محباً بالغرام

وخاطري أين كنا غير منزعج
بدا فمزعج الجرعاء منعرجي (١)

فسيرهم في صباح منك منبلج (٢)
هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

قول المبشر بعد اليأس بالفرج
ذكرت ثم على ما فيك من عوج

قبل موتي أرى بها من رآكا
ن لعيني باللحظ لثم ثراكا
ووجودي في قبضتي قلت هاكا (٣)
لي قرحي فهل جرى ما كفاكا (٤)
قبل أن يعرف الهوى يهواكا (٥)
بافتقاري بفاقتي لغناكا
ن فلإني أصبحت من ضعفاكا
أحسن الله في اصطباري عزাকা
ي ولو باستماع قولي عساكا
وأشاعوا أني سلوت هواكا (٦)
عنك يوماً دع يهجروا حاشاكا

(١) المنعرج: الطريق الملتوي - الجرعاء: الأرض ذات الحزونة.

(٢) انبلج: أشرف وأطل وانكشف بعد ستر.

(٣) هاك: إسم فعل أمر بمعنى خذ.

(٤) قرحي: مقرحة مشفقة..

(٥) القلى: الكره والهجر.

(٦) شنع: سعوا بما يُكره منه، بشعوا - المرجفون: الوشاة الكاذبون.

كيف أسلو ومقلتي كلما لا
كل من في حماك يهواك لكن
ح بريق تلتفت للقاكا
أنا وحدي بكل من في حماكا
ومن كاساته الغرامية التي سكر العشاق بقديمها وحديثها، قوله:

أدِرْ ذِكْرَ مَنْ أَهْوَى وَلَوْ بِمَلَامٍ
فَلِي ذِكْرُهَا يَحْلُو عَلَى كُلِّ صِيغَةٍ
فإن أحاديث الحبيب مدامي
ولو مزجوه عدلي بخصام^(١)
وإن كنت لم أطمع برّد سلام
كأن عدولي بالوصول مبشري
وما أبدع وأرق ما قال منها:

يشف عن الأسرار جسمي من الضنا
طريح جوى حب جريح جوارح
فنجي بها معنى نحول عظامي^(٢)
قريح جفون بالدوام دوامي
ففيها كما شاء النحول مقامي
صحيح عليل فاطلبوني من الضنى
منها:

فلي كل عضو فيه كل حشا بها
ولو بسطت جسمي رأّت كل جوهر
إذا نظرت أغراض كل سهام
به كل قلب فيه كل غرام
ومن غرامياته التي يتحرك الجماد لرقتها، قوله من قصيدة:

ما لي سوى روحي وبأذل نفسه
فلئن رضيت بها لقد أسعفتني
في حب من يهواه ليس بمسرف^(٣)
يا خيبة المسعى إذا لم تسعف
وما أسجم^(٤) ما قال منها:

يا أهل ودي أنتم أملي ومن
عودوا لما كنتم عليه من الوفا
ناداكم يا أهل ودي قد كُفي^(٥)
كرماً فلإني ذلك الخلّ الوفي
عمري بغير حياتكم لم أحلف
لمبشري بوصولكم لم أنصف
لو أن روحي في يدي ووهبتها

(١) العذل: اللوم - والبيت مختل الوزن كما نرى ونرجح بدل «مزجوه» «مزجوا».

(٢) نوجي: مجهول ناجي من المناجاة وهي المُسارّة. النحول: الدقة والضعف.

(٣) المسرف: الذي يتجاوز الاعتدال إجمالاً. ومنها قوله: ﴿وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن

المسرفين﴾ يونس، ١٢/١٠.

(٤) أسجم: أدعى للبكاء والدموع.

(٥) في الأصل: يا أهلي، وما أثبتناه أقوم للوزن وأصح.

كلفي بكم خُلق بغير تكلف^(١)
حتى لعمري كدت عني أختفي
لوجدته أخفى من اللطف الخفي

فإذا عشقت فبعد ذلك عَنفٌ

ورضابه يا ما أحيلاه بفي^(٢)

إن غاب عن إنسان عيني فهو في^(٣)

بجانبهم عن صحة فيه واعتلوا
وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا^(٤)
وما ظعنوا في السير عنه وقد كلوا^(٥)
الهدى حسداً من عند أنفسهم ضلوا

لديكم إذا شتمت بها اتصل الحبل
فقد تعبت بيني وبينكم الرسل
فكونوا كما شتمت أنا ذلك الخُلُ^(٦)
بعاد فذاك الهجر عندي هو الوصل

لا تحسبوني في الهوى متصنعاً
أخفيت حبكم فأخفاني أسى
وكتمته عني فلو أبديته

وما أحلى ما خاطب العذول منها بقوله:

دع عنك تعنفي وذق طعم الهوى

وما أعذب ما قال منها:

يا ما أميلح كلما يرضي

ولقد أحسن الله خاتمته فيها بقوله:

ما للنوى ذنب ومن أهوى معي

ولقد أقام القواعد الغرامية بقوله من قصيدة:

تعرض قوم للغرام وأعرضوا
رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم
فهم في السرى لم يبرحوا من مكانهم
وعن مذهبي لما استحبا العمى على

وما أحلى ما قال بعده:

أحبة قلبي والمحبة شافعي
عسى عطفة منكم علي بنظرة
أحباي أنتم أحسن الدهر أم أسا
إذا كان حظي الهجر منكم ولم يكن

(١) الكلف: شدة العشق - والتكلف: التصنع.

(٢) بفي: بفي، وفي من الأسماء الخمسة: أب (خ حم ذو فو).

(٣) أي فهو في قلبي.

(٤) الحظوظ: جمع حظ وهو النصيب - دعوى: أي ادعاء.

(٥) كلوا: تعبوا.

(٦) أسا: ترخييم أساء. الخُلُ: الخليل وهو الصديق الملازم والمحب.

وما أظف ما قال منها:

بُنعم له شغل نعم لي بها شغل
يضرّكم لو كان عندكم الكل

وماذا عسى عني يقال سوى غدا
أخذتم فؤادي وهو بعضي وما الذي

وما أظرف ما قال منها:

وقالوا بمن هذا الفتى مسه الخبل^(١)
جفانا وبعد العز لذّ له الذلّ
فلا أسعدت سعدى ولا أجملت جمل^(٢)

تباً له قومي إذ رأوني متيماً
وقال نساء الحي عنا بذكر من
إذا أنعمت نعم عليّ بنظرة

وما أرق ما قال منها:

وكيف يرى العوّد من لا له ظل^(٣)
تدع لي رسماً في الهوى الأعين النّجل^(٤)
وروح بذكرها إذا رخصت تغلو
فإن قبلتها منك يا حبذا البذل
وإن جاد بالدنيا إليه انتهى البخل

خفيت ضني حتى لقد ضل عائدي
وما عثرت عيني على أثري ولم
ولي همة تغلو إذا ما ذكرتها
فنافس يبذل النفس فيها أخوا الهوى
فمن لم يجد في حب نعم بنفسه

ومن الغراميات التي تهيج الأشواق ولواعج الغرام، وتتنظم بها عقود الانسجام، قول
أحد المشايخ العارفين، الشيخ عفيف الدين التلمساني:

واختر فناءك في الجمال الباقي
والبس جديد مكارم الأخلاق^(٥)
من ماء دمّك فهو نعم الوافي
فأجب رسول نسيمة الخفاق
إياك تغفل عن جمال الساقبي
متلذذاً بالذل والإملاق^(٦)
عز الحبيب وذلة العشاق

لذ بالغرام ولذة الأشواق
واخلع سلوك فهو ثوب مخلق
وتوق من نار الصدود بشربة
وإذا دعاك إلى الصبا نفس الصبا
وإذا شربت الصرف^(٦) من خمر الهوى
والق الأجابة إن أردت وصالهم
أوليس من أحلى المطامع في الهوى

(١) مسّه: أصابه المس وهو الجنون - الخبل: إختلاط العقل.

(٢) نعم وسعدى وجمل: أسماء عشيقات.

(٣) العائد: زائر المريض يجمع على عوّد.

(٤) الرسم: الأثر - الأعين النجل: المتسعة الجميلة.

(٥) مخلق: معتق ممزق بالي.

(٦) الصرف: من الخمر الصافية التي لم تمزج بالماء.

(٧) الإملاق: الفقر.

ويطربني، من رقائق انسجاماته الغرامية، قوله:

تعلم في مرافقة النديم	مطاوعة الأراكة للنسيم (١)
وعاشره بأخلاق فإني	وحقك عبد رق للنديم (٢)
أعاطيه أحاديثي وكأسي	فأسكر بالحديث وبالقديم (٣)
ولي عند الأحبة قلب صب	صحيح الود في جسد سقيم
أقام وسافر السلوان عنه	فلا اجتمع المسافر بالمقيم

وقد أوردت هنا ما أمكن من جهد الطاقة، في باب الانسجام الغرامي وبديع بيوته، وقد تقدم قولي أنني أخرجت فيه المتقدم، وقدمت المتأخر عصراً، لئلا ينفرد سلكه وتذهب لذته، فإن الانسجام يدخل في الأبواب الغرامية وفي غيرها، ولكنه يوجد فيها أكثر، لعدويتها وارتياح الخواطر إليها، لا سيما غراميات العارفين، مثل الشيخ شرف الدين بن الفارض وغيره.

ومما يستظرف في باب الانسجام، من الطرائق الغرامية الغريبة، قول عبد المحسن الصوري:

وأخ مسه نزولي بقرح	مثل ما مسني من الجوع قرح
بت ضيفاً له كما حكم الدهر	وفي حكمه على الحر قبح
فابتداني يقول وهو من السكرة	بالهم طافح ليس يصحو
لم تغربت قلت قال رسول الله	والقول منه نصح ونجح
سافروا تغنموا فقال وقد قا	ل تمام الحديث صوموا تصحوا

ومن الانسجام المطرب قول مروان بن أبي حفصة:

مسحت ربيعة وجه معن سابقاً	لما جرى وجرى ذوو الأحساب
ومن الانسجام المرقص قول أبي نواس:	
فتمشت في مفاصلهم	كتمشي البرء في السقم (٤)

(١) الأراكة: شجرة خواراة العود تؤخذ منها المساويك لتنظيف الأسنان، جمع أراك.

(٢) الرق: العبودية.

(٣) أعاطيه: أتعاطى معه به أي أعطيه ويعطيني، وهناك تورية في لفظة الحديث إذ المعنى الذي يتبادر إلى الذهن هو الكلام. بينما المراد هو الجديد.

(٤) هذا البيت في وصف ديبب الخمرة في الجسم.

ومثله قوله :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها
من كف ذات حر في زي ذي ذكر
قامت بإيريقها والليل معتكر
وأرسلت من فم الإبريق صافية
رقت عن الماء حتى ما يلائمها
وداوني بالتي كانت هي الداء
لو مسها حجر مسته سراء^(١)
لها محبان لوطي وزناء^(٢)
فلاح من وجهها في البيت لألاء^(٣)
كأنما أخذها للعقل إغفاء
لطافة وخفى عن شكلها الماء^(٤)

ومن الانسجام المطرب قول محمد بن صالح الحسني :

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى
يبدو كحاشية الرداء وصوته
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه
وعدوا من الانسجام المطرب قول عبد الرحمن العطوي، في رثاء أحمد بن أبي ذؤاد:
وليس صرير النعش ما تسمعونه
وليس فتيق المسك ما تجدونه
برق تألق موهناً لمعانه^(٥)
صعب الذرا متمنع أردانه^(٦)
والماء ما سحت به أجفانه
ولكنه أصلاب قوم تقصف^(٧)
ولكنه ذاك الثناء المخلف

(١) السراء: الحياة والحركة.

(٢) الحر: فرج المرأة - اللوطي: هو الذي يأتي الرجال شهوة من دون النساء. الزناء: كثير الزنى وهو ممارسة الشهوة مع المحصنات من النساء.

(٣) اللألاء: البريق واللمعان.

(٤) هذا البيت يروى:

جفت عن الماء حتى ما يلائمها
والذي نراه:
لطافة وجفى عن شكلها الماء

رقت عن الماء حتى ما يلائمها لطافة
فلا يكون قد تغير فيه سوى لفظة «خفى» فهي على الأصح «جفى» لمناسبة المعنى، وقد أصابها التصحيف. والله أعلم.

(٥) الموهن: ما بعد منتصف الليل.

(٦) الأردان: جمع مفردة ردن وهو كم الثوب وأطرافه.

(٧) الصرير: صوت الأخشاب والجنادب و... أصلاب: جمع مفردة صلب وهو هنا الهيكل العظمي أو الظهر منه فقط.

وعدوا من الانسجام المرقص قول العكوك في أبي دلف:

إنما الدنيا أبو دلف
فإذا ولي أبو دلف
بين باديه ومحتضره
ولت الدنيا على أثره

ومن الانسجام المرقص، قول بكر بن النطاح:

من كان مرعى عزمه وهمومه
ومن الانسجام المطرب، قول أبي تمام:
ولو لم يكن في كفه غير نفسه
ومثله قوله:
لجاد بها فليتنق الله شائله

ظبي تقنصته لما نصبت له
ومن الانسجام المرقص قول ديك الجن:
في آخر الليل أشراكاً من الحلم
بها غير معذول فداوي خمارها
موردة من كف ظبي كأنما
ومن الانسجام المطرب قول دعبل:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا
ومن الانسجام المرقص قول أبي علي البصير:

لعمر أيبك ما نسب المعلى
إلى كرم وفي الدنيا كريم
وعدوا من الانسجام المطرب قول خالد المهلي:

ومن ذا الذي ترضى سجايه كلها
كفى المرء نبلاً أن تعد معايه
ومن الانسجام المرقص قول البحترى:

تخفي الزجاجة لونها فكأنها
في الكف قائمة بغير إناء
ومثله قوله:

متعتب في غير ما متعتب
إن لم يجد جرماً عليّ تجرماً

(١) الغبوق: أو الاغتياق: شرب الخمرة مساءً.

ألف الصدود فلو يمرّ خياله
ومن الانسجام المرقص قول ابن الرومي:
فالموت إن نظرت وإن هي أعرضت
ومثله قوله يخاطب بني طاهر:
علوتم علينا علو النجوم
وعدوا من المطرب قول أبي العتاهية:
أنته الخلافة منقادة
فلم تك تصلح إلا له
ومثله في المطرب قول سلم الخاسر:
لا تسأل المرء عن خلائقه
وعدوا من الانسجام المرقص قول عبد الله بن المعتز:
أهلاً بفطر قد أثار هلاله
فانظر إليه كزورق من فضة
وعدوا من مرقصات المتنبّي قوله:
وأصبح شعري منهما في مكانة
ومثله قوله:
والهجر أقتل لي مما أراقبه
ومثله قوله:
فإن تفق الأنام وأنت منهم

بالصب في سينة الكرى ما سلماً^(١)
وقع السهام ونزعهن أليم
فجودوا علينا بأنوائها^(٢)
إليه تجرّ أذيالها
ولم يك يصلح إلا لها
في وجهه شاهد من الخبر
فالأّن فاغد إلى المدام ويكر^(٣)
قد أثقلته حمولة من عنبر
وفي عنق الحساء قد يحسن العقد
أنا الغريق فما خوفي من البلبل
فإن المسك بعض دم الغزال^(٤)

(١) السّنة: النعاس - والكرى: الإغفاء.
(٢) أنواء النجوم: ميلانها للغروب. والمقصود أنه يبقى لها القليل من الإضاءة فجودوا علينا بالقليل والله أعلم.
(٣) الفطر: عيد الفطر في نهاية شهر رمضان.
(٤) تفق: مضارع مجزوم من فاق: يفوق: يتفوق عليه.

ومن الانسجام المرقص قول أبي نصر بن نباتة:

لم يبق جودك لي شيئاً أو ملة
ومن الانسجام قول الواواء الدمشقي:
وأمرت لؤلؤاً من نرجس فسقت
ورداً وعضت على العناب بالبرد^(١)
ومثله قوله:

متى أرعى رياض الحسن منه
وعيني قد تضمنها غدير
ومن الانسجام المرقص قول أبي العباس الضبي:

زعم البنفسج أنه كعذاره
حسناً فسلوا من قفاه لسانه
ومن الانسجام المرقص قول أبي الحسن اللحام:

يا سائلي عن خالد عهدي به
رطب العجان وكفه كالجلمد^(٢)
كالأقحوان غداة غب سمائيه
جفت أعاليه وأسفله ندي

وعدوا من الانسجام المطرب قول أبي نصر العتبي:

الله يعلم أنني لست ذا بخل
ولكن طاقة مثلي غير خافية
والذّر يعذر في القدر الذي حملاً^(٣)
ولست ملتماً في البخل لي عللاً

وعدوا من الانسجام المرقص المطرب قول أبي الفرج بن هند:

عابوه لما التحى فقلنا
هذا غزال ولا عجيب
ومثله قول الأمير شمس المعالي قابوس:
عبتم وغبتم عن الجمال
تولد المسك في الغزال
وفي السماء نجوم ما لها عدد
وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن الحجاج:

كأن أيري شمع في رخاوته
فكلما لمستته راحتني لان

(١) اللؤلؤ: الدمع - النرجس: العيون - الورد: الخدود - العناب: الشفاه - البرد: الأسنان.
(٢) العجان: لم تعثر على معنى هذه اللفظة في ما بين يدينا ولكن نرجح أن تكون: الأصابع.
(٣) الذّر: صغار النمل.

ومثله قوله :

فأصبح الدهر به هيضة فنحن غرقى في خرا الدهر^(١)
وعدوا من المرقص قول أبي العلاء المعري :

والخل كالماء يبدي لي ضمائره مع الصفاء ويخفيها مع الكدر
وعدوا من الانسجام المرقص قول المنازي ، الذي لا يوجد في معناه مثله :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاها مضاعف الغيث العميم^(٢)
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظملاً زلالا ألد من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن الشخاء العسقلاني :

ومهفهف علق السقام بطرفه وسرى فحيم في معاهد خصره^(٣)
مزقت أثواب الظلام بثغره ثم اثنت أحوكها من شعره

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن الخياط الدمشقي ، وهو من شعراء المائة السادسة :

ومحتجب بين الأسنان معرض وفي القلب من إعراضه مثل حجه
أغار إذا آنت في الحي أنه حذاراً وخوفاً أن تكون لجه

وهذا الانسجام غرامي وعدوا من الانسجام المرقص قول القاضي الأرجاني :

وما ينزل الغيث إلا لأن يقبّل بين يديك الثرى

ومثله قول ابن الهبارية :

ولولا نداه خفت نار ذكائه عليه ولكن الندى مانع الوقد^(٤)

(١) الهیضة : مرض یصاب صاحبه بالإسهال والاستفراغ (الكوليرا).

(٢) الرمضاء : شدة الحر - الغيث العميم : المطر الذي يعم البلاد.

(٣) المهفهف : الممشوق القد ، الضامر البطن . الدقيق الخصر - الفحيم : الفخم عظیم القدر.

(٤) الندى : الجود والكرم - الوقد : الإشتعال.

وعدوا من المرقص قول أبي عبد الله النقاش البغدادي :

إذا وجد الشيخ من نفسه نشاطاً فذلك موت خفي
ألست ترى أن ضوء السراج له لهب عندما ينطفي

ومن الانسجام المرقص قول ابن المفضل البغدادي :

خطرت فكاد الورق يسجع فوقها إن الحمام لمغرم بالبان^(١)
من معشر نشروا على هام الربا لطارقين ذوائب النيران

ومثله قول سبط التعاويذي :

بين السيوف وعينه مشاركة من أجلها قيل للأغمد أجفان

ومن الانسجام المرقص قول القاضي الفاضل، في وكيله الشريف الكحال :

رجل توكل لي وكحلني فأصبت في عيني وفي عيني^(٢)

ومثله قوله فيه :

عادى بني العباس حتى أنه خلع السواد من العيون بكحله

ومثله قول ابن الساعاتي :

والطير يقرأ والغدير صحيفة والريح تكتب والغمام ينقط

ومثله قوله في النهر :

صدأ الظلام يزيد رونق حسنه أرايت سيفاً قط يصقل بالصدأ

وعدوا من الانسجام المرقص قول عبد الملك بن مازة البخاري، وقد دخل عليه مملوك

وفي يده قوس :

نهاني لما بدا عقرب على خده أن أروم السفر^(٣)

فقلت وفي يده قوسه أسير ففي القوس حل القمر

(١) الورق: جمع مفردة ورقاء وهي الحمامة.

(٢) عيني الأولى عضو الإبصار. والثانية بمعنى صديقي الخدم.

(٣) العقرب: ما تجعد من الشعر - أروم: أطلب.

ومثله قول ابن أردخل التكريتي :

ه فقلبي مكسور تلك الإمالة

ألفي القوام عني أمالو

وعدّوا من الانسجام المرقص قول ابن عنين:

وإن لج واش أو ألح عدول
عبير وأنفاس الشمال شمول
وصح نسيم الروض وهو عليل

دمشق في شوق إليها مبرح
بلاد بها الحصباء درّ وتربها
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق

ومن الانسجام المرقص قول الحاجري :

دي كذلك تفعل العشاق
فغدت وفي أعناقها الأطواق^(١)

إني لأعذر في الأراك حمامه الشا
حكم الغرام الحاجري بأسرها

وعدّوا من الانسجام المرقص قول صاحب بهاء الدين زهير:

ويا غصن هلاً كان منك تعطف
وألبابنا من حوله تتخطف^(٢)
علي فلإني أعرف الواو تعطف

فيا ظبي هلاً كان منك التفاتة
ويا حرم الحسن الذي هو آمن
عسى عطفة بالوصل يا واو صدغه

وعدّوا من المرقص قول محيي الدين بن زيباق:

وخدام هذا الحسن من ذاك أكثر
وخدك كافور وخالك عنبر

ومن عجبي أن يحرسوك بخادم
عذارك ريحان وثرغرك جوهر

ومثله قول ابن عربي الموصللي في المرقص:

وأسير من الضنى في قيود
ولكنني قذفت شهودي^(٣)

أنا صب وماء عيني صب
وشهودي على الهوى أدمع العيون

ومثله قول ابن الحلاوي الموصللي :

وذاك حرام قست لفظك بالسحر

كتبت فلولا أن هذا محلل

(١) الأسر: الاحتجاز.

(٢) الألباب: جمع لب وهو العقل.

(٣) القذف: الإدعاء الزور، الاتهام.

بطرسك أم در يلوح على نحر^(١)
وإن كان دراً فهو من لجة البحر

فوالله ما أدري أزهر خميلة
فإن كان زهراً فهو صنع سحابة
ومثله قول ابن ظهير الأربكي:

دون الوري أنت العليم بقرحه
تعديل كل منهما في جرحه^(٢)
فيه سواك من الأنام فنحه

طرفي وقلبي ذا يسيل دماً وذا
وهما بحبك شاهدان وإنما
والقلب منزلك القديم فإن تجد
أنظر هذه القافية ما أحلاها وأمكنها.

ومثله قوله:

يا بعد شقة غوره من نجده^(٣)

غارت مناطقه وأنجد ردفه

ومن الانسجام المرقص قول تاج الدين بن الحواري:

لأمر سوى أني عجزت عن الشكر
فماساغ أن أهدي إلى مثلكم شعري
وإن كان دراً كيف يهدي إلى البحر

فوالله ما أخرت عنك مدائحي
وقد رضيت فكري مرّة بعد مرة
فإن لم يكن دراً فتلك نقيصة

ويعجبني من الانسجام المرقص قول النجم القمرائي:

بعطفيه فمال مع النسيم

وحاكنت النسيم على مرور

ومثله قول عبد الكردي:

وحال البعد بينكم وبينني
لأبصركم بشيء مثل عيني

إذا ما اشتقت يوماً أن أراكم
بعثت لكم سواداً في بياض

وعدّوا من الانسجام المطرب قول المهذب بن الخيمي الحلبي، وقد كتب إلى والده:

شياطين شوق لا يفارقن مضجعي
بعثت إليها في الدجا شهب أدمعي

جننت فعوذني بكتبك أن لي
إذا استرقت أسرار وجدتي تمرّداً

(١) الطرس: ما يكتب عليه.

(٢) التعديل والجرح: مصطلحان في علم الرجال من علوم الحديث.

(٣) غارت: من الغور أي دقت حتى كادت لا ترى - المناطق: أمكنة وضع النطاق، وهي الخَصْر - أنجد:

من النجد، إرتفع - الردف: الكفل والعجيزة والمؤخرة.

ومن الانسجام المرقص قول ابن عبد ربه:

يا ذا الذي خط العذار بخده
ما كنت أقطع أن لحظك صارم
خطين هاجا لوعة وبلابلا^(١)
حتى رأيت من العذار حمائلا

ومن أغرب ما رأيت من الانسجام المرقص قول جعفر بن عثمان المصحفي:

خفيت على شرابها فكأنما
يجدون ريباً في إناء فارغ

ومن الانسجام المرقص قول إدريس بن السمان:

ثقلت زجاجات أتنا فُرغاً
خفت فكادت أن تطير بما حوت
حتى إذا ملئت بصرف الراح
وكذا الجسم تخف بالأرواح

ومثله قول المعتمد بن عباد:

سميدع يهب الآلاف مبتدئاً
له يدٌ كل جبار يقبلها
وبعد ذلك يُلقى وهو معتذر^(٢)
لولا نداها لقلنا إنها الحجر

ويعجبني قول الفضل بن شرف في المرقص:

لم يبق للجور في أيامكم أثر
إلا الذي في عيون الغيد من حور^(٣)

ومثله قوله:

تقلدتني الليالي وهي مدبرة
كأنني صارم في كف منهزم

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن رشيق صاحب العمدة، في المعز بن باديس سلطان أفريقية، وقد غاب يوم العيد وكان يوماً مطراً:

تجهّم العيد وانهلّت بواده
كأنه جاء يطوي الأرض من بعد
وكان يعهد منك البشر والضحكا
شوقاً إليك فلما لم يجدك بكى

وعدوا من الانسجام المرقص قول عبد الله بن محمد العطار:

وكأس ترينا آية الصبح والدجا
فأولها شمس وآخرها بدر

(١) بلابل الشوق: وساوسه.

(٢) السميدع: السيد الكريم الجواد.

(٣) الغيد: جمع مفردة غيداء وهي الحسنة الناعمة التي تتمايل في مشيتها.

(٤) تجهم: عبس.

مقطبة ما لم يزرها مزاجها
فواعجباً للدهر لم يخل مهجة
فإن زارها جاء التبسم والبشر
من العشق حتى الماء يعشقه الخمر

ومثله قول القاضي الجليس بن الجناب المصري :

ومن عجب أن الصوارم في الوغى
وأعجب من ذا أنها في أكفهم
تحيض بأيدي القوم وهي ذكور^(١)
تأجج ناراً والأكف بحور

وظريف من الانسجام المرقص قول ابن مكنسة :

والسكر في وجنته وطرفه
يفتح ورداً ويغض نرجسا

وعدوا من الانسجام المرقص قول ظافر الحداد :

ونفر صبح الشيب ليل شيبتي
كذا عادتي في الصبح مع من أحبه

ومثله قول أبي اسحق بن خفاجة :

ونمت بأسرار الرياض خميلة
بها الزهر ثغر والنسيم لسان^(٢)

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن اللبانة :

بروحي وأهلي جيرة ما استعنتهم
أراشوا جناحي ثم بلوه بالندی
على الدهر إلا وانثيت معانا
فلم أستطع من أرضهم طيرانا^(٣)

وعدوا أيضاً من الانسجام المرقص قول ابن الرقاق :

وأغيد طاف بالكؤوس ضحى
والرروض أهدى لنا شقائقه
وآسه العنبري قد نفحنا
أودعته ثغر من سقى القدحا
قال فلما تبسم افتضحنا^(٤)
فظل ساقى المدام يجحد ما

(١) الصوارم: جمع مفردة الصارم وهو من السيوف القاطع - تحيض: تصبح حائضاً والحيض هو العادة الشهرية عند المرأة. شبه بها تقطر الدم من السيوف لشدة فتكها.

(٢) نمت: من النيمة، وشت ودلت عليه.

(٣) أراشوا: كسوه ريشاً وهنا بمعنى أغنوا لكثرة عطائهم وإعانتهم.

(٤) يجحد: ينكر.

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن سنا الملك:

لا تخش مني فإني كالنسيم ضنى وما النسيم بمخشي على الغصن

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن الدباغ، وقد تقدم:

يا رب إن قدرته لمقبّل غيري فللمسواك أو للأكؤس
ولئن قضيت لنا بصحبة ثالث يا رب فلتك شمعة في المجلس
وإذا قضيت لنا بعين مراقب يا رب فلتك من عيون النرجس

ومثله قوله:

وأشكو إلى ليل الغدائر غدرها وأملني عليه وهو في الأرض يكتب

هذه الأبيات تقدمت في باب الانسجام الغرامي، ولكن لم يظهر من مكررها غير الحلاوة.

وعدوا من الانسجام المرقص قول كمال الدين بن النبيه:

وكوكب الصبح نجاب على يده مخلق تملأ الدنيا بشائره^(١)

وعدوا من الانسجام المرقص قول الصاحب جمال الدين بن مطروح:

إذا ما اشتهى الخلخال أخبار قرطها فيا طيب ما تملي عليه الضفائر^(٢)

وعدوا من الانسجام المرقص قول البرهان بن الفقيه نصر الله:

أقتطف السوداء من لمتي أخذاً مع البيضاء إذ تسرف^(٣)
فتخلف البيضاء أمثالها وتغضب السوداء فما تخلف
حماقة السودان من ههنا يعرفها من لم يكن يعرف

وعدوا من الانسجام المرقص قول أمين الدين التلمساني:

ساروا فيا وحشة الوادي لبعدهم منهم ولا سيما الأغصان والكثب

(١) نجاب: غطاء - المخلوق: المطيب بالخلوق.

(٢) الخلخال: من الزينة ما يوضع فوق القدم - القرط: ما تتزين به المرأة في أذنيها(الحلق) - الضفائر: جدائل الشعر.

(٣) اللمة: أول الشعر من مقدم الرأس.

ومن الانسجومات المرجزة التي لو أدركها الشريف تطفل على نسيم أبياتها، واعترف أن ما للصادح والباغم تغريد صادحاتها، أرجوزة الشيخ جمال الدين بن نباتة، الموسومة بنظم السلوك في مصايد الملوك، التي امتدح بها الملك الأفضل بن الملك المؤيد صاحب حماة، وكان قد لقب قبل الأفضل بالمنصور، وهي:

أثنى شذاالروض على فضل السحب	واشتملت بالوشي أرداف الكتب ^(١)
ما بين نور مسفر اللثام	وزهر يضحك في الأكمام ^(٢)
إن كانت الأرض لها ذخائر	فهي لعمرى هذه الأزاهر ^(٣)
قد بسطتها راحة الغمام.	بسط الدنانير على الدراهم
أحسن بوجه الزمن الوسيم	تعرف فيه نضرة النعيم
وحبذا وادي حماة الرحب	حيث زها العيش به والعشب
أرض الهناء والسناء والمرح	والأمن واليمن ورايات الفرح
ذات النواعير سقات الترب	وأمهات عصفه والأب ^(٤)
تعلمت نوح الحمام الهتف	أيام كانت ذات فرع أهيف
فكلها من الحنين قلب	فكيف لا والما عليها صب
لله ذاك السفح والوادي الغرد	والماء معسول الرضاب مضطرد
يصبو بها الرائي فكيف السامع	ويحمد العاصي فكيف الطائع
إذا نظرت للربا والنهر	فارو عن الربيع أو عن جعفر
محاسناً تلهى العيون والفكر	ربيع روضات وشحرور صفر
أمام كل منزل بستان	وبين كل قرية ميدان
أما رأيت الورق في الأوراق	جاذبة القلوب بالأطواق ^(٥)
فبادر اللذة يا فلان	واغنم متى أمكنك الزمان
ولا تقل مشتى ولا مصيف	فكل أوقات الهنا خريف
كل زمان يتقضى بالجدل	زمان عيش كلما دار اعتدل

(١) أرداف: أطراف وتوابع.

(٢) مسفر: منبج، منكشف - أكمام الزهر: أزوارها وهي أوعيتها قبل تفتحها.

(٣) الذخائر: المدخرات الثمينة.

(٤) النواعير: جمع مفردة ناعورة وهي دولا ب ذي دلاء فوق بئر يخرج الماء بواسطتها - العصف: الزرع، أو ثمره. والأب: من الثمار

(٥) الورق: الحمام.

وخير ما أنعت من لذاته
 وحوزنا من مره أحلى الفرص
 وفعلنا في الطير فوق الواجب
 سرنا على وجه السرور المشرق^(١)
 وغلمة مثل بدور التم^(٢)
 تظله غمامة الغبار
 عند اقتران القوس منه بالقمر
 لغنت الورق على عطفه
 قاطعة الأعمار كالهلال
 مما ثوت بين الرياض المعشبه^(٣)
 طالبة لهن بالأوتار
 أو حاجب بما تشا مقرون
 من طينة واحدة مخلوقه^(٤)
 مع أنها مثل الحجار صم
 خلف الشياطين شهاب ثاقب
 شاهدة بالعزم وهي تقذف
 إخوان صدق أهدقوا بالملق^(٥)
 مراد جد ومراد هزل
 كأنها من حولها فواقع^(٦)
 نروي حديث الرمي عن قديم
 والتهم المغرب قرص الشمس^(٧)
 من ساهر ليل التمام ساهد
 والبدر يرمي في الدجا بأسهم^(٨)

أحسن ما أذكر من أوقاته
 بروزنا للصيد فيه والقنص
 وأخذنا الوحش من المسارب
 لما دنا زمان رمي البندق
 في عصابة عادلة في الحكم
 من كل مبعوث إلى الأطيبار
 قد حمد القوم به عقب السفر
 لولا حذار القوس من يديه
 في كفه محنية الأوصال
 زهراء خضراء الإهاب معجبه
 فاغرة الأفواه للأطيبار
 كأنها بين المياه نون
 لها بنات بالمنى معدوقه
 سامعة لما تشير الأم
 كأنها والطيير منها هارب
 واهأ لها شبه كرات تخطف
 حتى نزلنا بمكان مونتق
 فيا له في الحسن من محل
 للطيير في مياهه مواقع
 فلم نزل في منزل كريم
 حتى طوى الأفق رداء الورس
 وابتدر القوم إلى المراصد
 كالليث يسطو كفه بأرقم

-
- (١) البندق: واحده بندقه وهي ما يرمى به بواسطة البندقية.
 (٢) غلمة: غلمان جمع غلام وهو الخادم.
 (٣) الإهاب: الغلاف الذي يحيط بالنباتات أو بعض الحيوان، الجلد - وثوت: أقامت وسكنت.
 (٤) معدوقة: معلمة بعلامات.
 (٥) مونتق: يانع الثمار، مفتح الأزهار - الملق: جمع مفرده: ملق وهو الكاذب.
 (٦) الفواقع: الفقاقيع التي تعلقو سطح الماء.
 (٧) الورس: نبات يستعمل ثمره للصبغ باللون الأحمر المائل إلى الصفرة الشبيه بالحمرة المغربية.
 (٨) الأرقم: الغزال إذا طوقت قوائمه باللون الأبيض.

إذا هم من عينه بالساهره (١)
على طروس الجو كالسطور
منظومة الأحرف بالبنادق (٢)
ضياءه المشرق بدر التم
طرة صبح تحت أذيال الدجا
تخاله في أفقه غمامه
من دونها لقلقة غراء (٣)
تابعة من كل وصف أحسنه
وأحسن المأكول ما تلونا
كأنه على نضار يدرج (٤)
له بأبراج النجوم وكر
يبني على الكسر حروف الصيد
خافضة لحظ الطيور ناصبه (٥)
تواصلت خيوطها المنقرضة
كأنه طيف خيال الطير (٦)
مقدماً على الغرائق العلا (٧)
كم بات مثل نورة مبتسما (٨)
معجزة في الطير موسوي
كأنه في يده عصاه
ينعت في الواجب بالعناز (٩)

بيننا الطيور في مداها ساهره
وأقبلت مواكب الطيور
فجذا السطور في المهارق
من كل تم حق أن نسمي
تخاله من تحت عنق قد سجا
وكل ذي حسن من الوسامه
تتبعه اوزة دكنا
تقدمها أنيسة ملونه
يجنى بها الأكل خير ما جنى
وربما مرّ لديها حبرج
وانقض من بعض الجبال نسر
مغير الخلق شديد الأيدي
تحت مسراه عقاب كاسبه
إذا مضت جملتها المعترضه
بكل كركي عجيب السير
يحث غرنوقاً شهياً المجتلى
وأبيض كالغيم يسمى مرزما
يحثه سبيطر قوي
كم حاش ثعباناً وكم حواه
هذا وكم ذي نظر ممتاز

-
- (١) ساهره: سارحة - الساهره: الأرض الواسعة والفلاة، وأرض الحشر.
(٢) المهارق: جمع مفردة مهرق وهي الصحيفة البيضاء يكتب فيها.
(٣) اللقلقة: واحدة اللقالق وهي طيور كبيرة طويلة المنقار والقوائم.
(٤) الحبرج: الحُبَارَى، طائر طويل العنق رمادي اللون يشبه الإوزة.
(٥) الكاسية: من العقاب: الجارحة.
(٦) الكركي: طائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين أبتز الذنب.
(٧) الغرائق: جمع غرنوق وهو طائر مائي أبيض طويل الساقين جميل المنظر، له قنزعة ذهبية اللون وهو شبيه بالكركي.
(٨) المرزم: مجموعة من النجوم.
(٩) العناز: الجاهل.

كأنها نور الهدى في الكفر
 تصيبها بأعين الأوتار
 ساقطة منها على الخير
 لدى محارِبِ القسي ركع
 ولم تسل بأي ذنب قتلت
 وكل وجه منهما وجه أغر
 مرضي الصحاب وهو ذو الوجهين
 حتى شفعناه بصيد ثاني
 والخيل في وجه الصباح السافر^(١)
 فهي إلى طلابه طوامح
 تغدو خماصاً وتجي بطانا^(٢)
 نعوم في الأقطار بالسوايح^(٣)
 كأنها أضحت له ظللاً
 وكيف لا وهي الرياح الأربع
 كأنهم لدوحنا أغصان
 كواكباً طالعة في الأطلس^(٤)
 من كل سهم زجل الجناح^(٥)
 يحرف الهام عن المواضع^(٦)
 من كل باز قرم فؤاده^(٧)
 تقرا بما تقرى به الضيوف
 كبارق طار و صوب قد همي^(٨)
 معتصماً بأيذه وكيده^(٩)

أسود إلا لمعة في الصدر
 فلم تنزل قسينا الضواري
 حتى غدت دامية النحور
 كأنها وهي لدينا وُقِع
 وأصبحت أطيَارنا قد حصلت
 مستتباً وجه العشا وجه السحر
 يا لك من صيد مقر العين
 لم نرض ما وفي من الأماني
 صيد الملوك الصيدُ بالكواسر
 ذاك الذي تصبو له الجوارح
 واثقة بالرزق حيث كانا
 سرنا على اسم الله والمناجح
 خيل تحاذي الصيد حيث مالا
 تسعى بها قوائم لا تتبع
 تحفنا من فوقها غلمان
 ترك تريك في سماء الملبس
 منظومة الأوساط بالسلاح
 وكل غضب ذرب المقاطع
 على يد السائر منهم زاده
 قد كتبت في صدره حروف
 وكل شاهين شهبي المرتمي
 بينا تراه ذاهباً لصيده

(١) السافر: الواضح المضيء.

(٢) تغدو خماصاً: تروح جوعى - وتجي بطانا: تعود ممثلة البطون.

(٣) المناجح: الذين ينجحون وهم الأنبياء - السوايح: الخيول.

(٤) الأطلس: نوع من القماش الأملس وهو من أسماء السماء الصافية.

(٥) زجل الجناح: مصوت الجناح.

(٦) الغضب: السيف القاطع: والذرب: البليغ - الهام: الرؤوس والجباه.

(٧) القرم: القوي.

(٨) الشاهين: الصقر، من الطيور الجارحة - الصوب: المطر - همي: هطل.

(٩) الأيد: القوة.

ملتزماً طائره في عنقه
 حتى غدت حاسدة يمناه
 لأجل هذا سميت يسارا
 مواصل الغدو والرواح
 يكاد يشوي ما يصيد الصائد
 لحصد أعمار الطيور مرسل
 تهوي إلى الأرض وللأفق تشب
 معظم الأخبار والعيان (١)
 كأنه من السما يستعجله
 كأنها للطير جن يصرع
 وكم وكم قد أهلكت من قرن (٢)
 عديمة الأنظار والأشباه (٣)
 حذباء ظهر الذنب الرقيم
 يعدل ملك القلعة الحذباء
 يجمعها الكلاب والفهاد
 إذا رأى شخص مهاة عبه (٤)
 مستقبل الحال بناب ماض
 قد أحرق الأنجم في إهابه
 خط كخط الألفات الجون (٥)
 وكيف لا والخط لابن مقله
 أهرت وثاب الخطا مشنوق (٦)
 يا عجباً منه لطاؤ ناشر

حتى تراه عائدا من أفقه
 أفلح من كان على يسراه
 تلك يد لا تعرف الإعسارا
 وكل صقر مسبل الجناح
 ذي مقلة لها ضرام واقد
 كأنما المخلب منه منجل
 يا حبذا طيور جد ولعب
 من سنقر عالي المدى والشان
 يصعد خلف الرزق ليس يمهل
 ومن عقاب بأسها مروع
 كم جلبت لطائر من وهن
 وحبذا كواسر الكواهي
 مخصوصة بالطرد القويم
 ذاك لعمري حذب للرائي
 هذا وقد تجهزت أعداد
 من كل فهد عتري الحمله
 مبارك الإقبال والإعراض
 كأنه من حسدة اكتسابه
 له على مسایل الجفون
 ما أبصر المبصر خطا مثله
 وكل منسوب إلى سلوق
 طاوي الفؤاد ناشر الأظافر

- (١) سنقر: اسم الملك الأفضل، ابن الملك المؤيد صاحب حماة - العيان: الآثار.
- (٢) القرن: الجيل من الناس أو الأمة ومنه قوله تعالى: ﴿ولقد أهلكتنا القرون من قبلكم لما ظلموا﴾ يونس، ١٠/١٣ وقوله: ﴿وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح﴾ الإسراء ١٧/١٧.
- (٣) الكواهي: الحديدية النظر.
- (٤) العبلاء: المتلثة الساعدين والفضذين.
- (٥) الجون: السوداء.
- (٦) المنسوب إلى سلوق: الكلب السلوقي، للصيد - أهرت: بناح.

يعض بالبيض ويخطو بالقننا
كالقوس إلا أنه كالسهم
إذا تراءى بقر الوحش اندفع
قاصرة عن يده عيناه
يشفعه كل عزيز عاري
واهاً لها من أكلب طوارد
قد بالغت من طمع في كسبها
حتى إذا تمت بها الأمور
ما بين روضات مددنا نحوها
واستقبلت أطيّارها البزاة
فلم تزل تسطو سطا الحجاج
حتى غدت تلك البزاة صرعى
على الربا من دمها خلوق
ثم عطفنا للوحوش السانحة
كلاب صيد بينها سناقر
تخشى بها العقر على نفوسها
وللكلاب حولها مغار
من نمر لسانه يلوب
يعانق الظبي عناق الوامق
والفهد يشتد على الأجال
لا يهمل القصد ولا يخون
وللزغاريات خلف الأرنب
كم برحت بالهارب المكدود
وربما مرت ظباء ومها
قد نسجت ملاءة من عنبر

ويسبق الوهم لإدراك المنى
والغيم يجلو عن شهاب الرجم
كأنه المريخ في الثور طلع^(١)
مشروطة برجله أذناه
مغالب الصيد على الأوكار
معربة عن مضمرة المصايد
ففتشت عن أنفوس لم تخبها
حفت بنا لصيدها الطيور
وحول آفاق ملكنا جوها
معلمة كأنها الغزاة^(٢)
على الكراكي إلى الدراج^(٣)
مجموعة على التراب جمعا
كأن كل نبتها شقيق
واستبقت تلك الضواري الطامحة
تفعل في الوحش بها الفواقر
فالطير لا شك على رؤوسها
يكاد أن تقدح منه النار
تقول هذا كوسج مخضوب^(٤)
ما كان أغنى الظبي عن معانق
شد وصي السوء في الأموال
كأن كئل جسمه عيون
حقائق تبطل كيد الثعلب^(٥)
وطوحت بصاحب الأخدود
للنبل في أكل حشاها مشتهى
تخاط من قرونها بالإبر

(١) المريخ والثور: من البروج الكوكبية.

(٢) البزاة: جمع بازي وهو طائر معلم يصطاد بواسطته.

(٣) الدراج: نوع من الطيور شبيه بالسماوي.

(٤) يلوب: يتحرك خارج فمه ولا يستقر - الكوسج: نوع من الأسماك المفترسة التي تكثر في المناطق الحارة.

(٥) الزغاريات: نوع من الكلاب البلدية التي تقصر أذنانها وأذنها لتصبح أقوى وأشرس.

فابتدرت أجنحة السهام
تجرح كل سانح نفور
كأن أقطار الفلاة مجزره
كان صرعى وحشها كفار
للمرء فيها منظر أحبه
لله ذاك المنظر المهنا
قد ملئت من ظفر أيدينا
نسير حول الملك المنصور
محمد ناصر دين أحمد
يا حبذا من والد ومن ولد
فرع زها بأصله أيوب
قال الأنام حظه جلي
ذاك الذي سام العلاصيا
محكم الأسطوة سحاح القديم
لو لمس الصخر لفاض نهرا
لا ظلم يلفى في حماه العالي
أما ترى الدينار منه خائفا
كالبدر في سنائه وتمه
مرأى يشف عن فخار أصل
ما ضر من خيم في جنبه
جناب عز جاره لا ينكب
غنيت في ظلاله عن الورى
ورحت من نعماه بالتواتر
يزداد لفظي بهجة ورونقا
إن لم أرم ذاك الحمى العالي فمن
يا ناصر الدين دعاء ماح
حسبك مثلي في الأنام شاعرا

صائبة الأغراض والمرامي
كأنه بعض شهود الزور
أو روضة من الدماء مزهره
الموت عقبي أمرها والنار
يملا من لحم وشحم قلبه
أي معاد عن ذراه عدنا
وقد شكرنا فضل ما حيننا
كالشهب حول القمر المنير
الملك ابن الملك المؤيد
وحبذا من شبل ملك وأسد^(١)
فأثمرت بحبه القلوب
قلت نعم وجده علي
وجاءها من مهده مهديا
ياخذ بالسيف ويعطي بالقلم
أو صحب النجم لعاد بدرا
إلا على العدة والأموال
أصفر من كف الهيات ناشفا
والطود في وقاره وحلمه
ونسخة قد قوبلت بالأصل
أن لا تكون الشهب من أطنابه
وياب نجح للغنى مجرب^(٢)
غنى نزيل المدن عن قصد القرى
أروي أحاديث عطا عن جابر
كأنه الخمر إذا تعتقا
ينصرني على تصاريف الزمن
ما بين روضات السطور صاح
وحسب شعري قوة وناصر

(١) الشبل: ابن الأسد.

(٢) لاينكب: لا يصاب بنكبة وهي الكارثة والمصيبة - النجح: النجاح، والغنى.

ومن الأراجيز المرتجلة، التي سارت الركبان ببلاغة ارتجالها ولطف انسجامها، أرجوزة الشيخ زين الدين عمر بن المظفر الوردی، سقى الله ثراه، التي ارتجلها بدمشق المحروسة عند الامتحان المفحم. [فقد] ذكر الشيخ الإمام العلامة إمام المحدثين، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، أن الشيخ زين الدين المشار إليه قدم دمشق المحروسة، في أيام القاضي نجم الدين بن صصري تغمده الله برحمته ورضوانه، فأجلسه في الصفة المعروفة بالشباك في جملة الشهود، وكان يومئذ زري^(١) الحال، فاستخف به الشهود. فحضر يوماً كتابة مشترى ملك، فقال بعضهم: أعطوا المعري يكتبه على سبيل الاستهزاء. فقال الشيخ: ارسموا لي أكتبه، نظماً أو نثراً. فزاد استهزاؤهم به فقالوا: بل نظماً. فأخذ الطرس وكتب ارتجالاً ما صورته:

محمد بن يونس بن سنقرا
كلاهما قد عرفا من جلق
بكورة الغوطة وهي جامع^(٢)
والأرض في البيع مع الغراس
عشرون في الطول بلا نزاع
وهو ذراع باليد المعتبره
وحائز الرومي حدّ المشرق^(٣)
والغرب ملك عامر بن جهبل
بأنها قطعة بنت الرومي
ثم شراء قاطعاً مرعياً
وازنة جيدة مبيضه
ألفان منها النصف ألف كاملة
فعدت الذمة منها خاليه
فقبض القطعة منه وجرى
طوعاً فما لأحد تعلق

باسم إله الخلق هذا ما اشترى
من مالك بن أحمد بن الأزرق
فباعه قطعة أرض واقعة
لشجر مختلف الأجناس
وذرع هذي الأرض بالذراع
وذرعها في العرض أيضاً عشره
وحدها من قبله ملك التقي
ومن شمال ملك أولاد علي
وهذه تعرف من قديم
بيعت صحيحاً لازماً شرعياً
بثمان مبلغه من فضه
جارية للناس في المعامله
قبضها البائع منه وافيه
وسلم الأرض إلى من اشترى
بينهما بالبدن التفرق

(١) زري الحال: سيء الحال، أزرى به الفقر وضايقه.

(٢) الكورة: الناحية.

(٣) قُبلة: الجهة الجنوبية. وسميت القبلة لأنها الجهة التي فيها القبلة التي نولي إليها وجوهنا في الصلاة.

ثم ضمان الدرك المشهور
وأشهدا عليهما بذاك في
من عام سبعمائة وعشره
والحمد لله وصلى ربي
يشهد بالمضمون من هذا عمر
فيه على بائعه المذكور
رابع عشر رمضان الأشرف
من بعد خمسة تليها الهجره
على النبي وآله والصحب
ابن المظفر المعري إذ حضر

فلما فرغ الشيخ من نظمه، وتأمل الجماعة ارتجاله وسرعة بديهته، اتفق أنه لم يكن
فيهم من يحسن النظم: فقالوا، وقد اعترفوا بفضل الشيخ وعجزوا عن رسم الشهادة: لعل
الشيخ يسد عن أحدٍ منا برسم شهادته. فكتب عن شخص منهم إلى جانبه يدعى ابن
رسول:

وقد حضر العقد الصحيح أحمد
ابن رسول وبذاك يشهد
ومما استعذب، من انسجامات الشيخ برهان الدين القيراطي قوله، من قصيدة تائية:

أخذت بابل عنه
فهو غصن في انعطاف
حسنات الخد منه
كلما ساء فعلا
ولسوء الحظ صارت
أعشق الشامات منه
بعض تلك النفثات
وغزال في التفات
قد أطالت حسراتي
قلت إن الحسنات
حسناتي سيئاتي
وهي أسباب مماتي

ويعجبنى قوله منها:

بأبي لحظ غزال
إن للموت بأقدا
قلت قَدْ مِتُّ غراماً
قائل في الخلوات
ح جفوني سكرات
قال لي مت بحياتي

ومنها:

قلت إذ حرك عودا
أنت مفتاح سروري
عازفاً بالنغمات
يا سعيد الحركات

ومن انسجاماتي الغرامية المرجزة، التي تقدمني فيها الشيخ جمال الدين بن نباتة، والشيخ
زين الدين بن الوردى، قصيدتي الدالية التي كتبت بها قديماً من حماة المحروسة، إلى

(١) النفثات: واحدها نفثه وهي المناجاة. أو السُّحر.

القاضي فخر الدين بن مكانس وولده القاضي مجد الدين، تغمدهما الله برحمته، وهي:

ما لمعت بارقة من نجد
ولا سرت سحابة مغدقة
فيا رعى الله زماناً بالحمى
ويازبى مصر مراضع الحيا
كم ليلة قضيتها وأنجم
والأرض قد حاكت برود وشيها
وكوثر النيل يروق منظراً
وهند ما تخطر في برودها
مضرية لكن يمانى لحظها
آه له من سيف لحظ باثر
عبد مناف جدها وإنما
يا أمير النحل قرص وجهها
وثغرها يقول في نظامه
وشعرها الطائل قد قلنا له
وريقها قال النباتي أنا
والغصن حاكي قدّها قالت له
يا قدّها وردفها لولاكما
سألتها لم صرفت عن ناظري
قالت تركت الفخر من بين الورى

إلا وهزّرتني وعود وجدي
إلا وكان مثلها في خدي^(١)
فإن لي فيه بقايا عهد
يرضعك الغيث بذاك المهدي
جوزاء فوق صدرها كالعقد
يحار في صفاتها ابن برد
حتى كأني في جنان الخلد
إلا أمالت عذبات الرند^(٢)
متسبب في فتكه للهند
زاد على عشاقه في الحد
قلبي لها قد صار عبدو
يشهد أن ريقها من شهد
يا يتم أبكار اللآلي بعدي
أنت لنا نابغة يا جعدي
وخدها قال أنا ابن الوردى
ما أنت يا غصن الرياد قدّي^(٣)
ما اشتقت بانات الكئيب الفرد
وكلفت قلبي بطول النقد
وقد قعدت عن طلاب المجد

لعمرى إن الشرح قد طال في نوع الانسجام، ولكن ما استطردت بخيوله إلا
إلى كل مهيع^(٤) بديع وغريب. فبيت الشيخ صفي الدين الحلبي، في بديعيته على نوع
الانسجام، يقول فيه عن النبي ﷺ:

فذكره قد أتى في هل أتى وسبا

وفضله ظاهر في نون والقلم^(٥)

(١) مغدقة: ممطرة.

(٢) الرند: نبات من شجر البادية طيب الرائحة يشبه الأس.

(٣) حاكي: شابه - الرياد: التمايل.

(٤) المهيع: من كل شيء: البين الواضح.

(٥) هل أتى، وسبا، ونون والقلم: بدايات سور من القرآن الكريم، وهي على التوالي: الإنسان، سبأ والقلم.

انسجام الشيخ صفى الدين فى بيته ظاهر. والعميان ما نظموا هذا النوع فى بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلى فى بديعته:

بان انسجام كلام منزل عجب يهذى ويخبرنا عن سالف الأمم

بيت الشيخ عز الدين لم يكن له تعلق بما قبله من المديح النبوى، والذى يظهر لى منه أنه أشار به إلى القرآن بأنه كلام منزل، وانسجامه عجب يهذى ويخبرنا عن سالف الأمم. وبيت بديعيتى أقول فيه، عن النبى ﷺ:

له انسجام دموعى فى مدائحه بالله شنف بها يا طيب الكلم

ولقد عجبت من الشيخ عز الدين، كيف عقد بيت انسجامه مع سهولة هذا النوع وقرب مأخذه ولطف تسميته وقبولها للاشتراك. انتهى.



ذكر التفصيل

وإن ذكرت زماناً ضاع من عمري في غير تفصيل مدح صحت يا ندمي
التفصيل: بصاد مهملة، نوع رخيص بالنسبة إلى فن البديع، والمغالاة في نظمه.
وقد نبهت قبله على عدة أنواع سافلة، ولكن المعارضة أوجبت الشروع في نظمه،
كالتصدير، وعتاب المرء نفسه، وتشابه الأطراف وما أشبه ذلك.
والتفصيل هو أن يأتي الشاعر بشطر بيت له متقدم، صدرأً كان أو عجزاً، ليفصل به
كلامه بعد حسن التصريف في التوطئة الملايمة.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم، وغالب علماء البديع لم يذكروه في
مصنفاتهم، غير أن الشيخ صفي الدين الحلبي أورده في بديعته، فدعت المعارضة إلى
نظمه. وبيته في بديعته:

صلى عليه إله العرش ما طلعت شمس النهار ولاحت أنجم الظلم
فصدر هذا البيت ذكر أنه تقدم له في قصيدة قافية، امتدح بها النبي ﷺ، مطلعها:
فيروزج الصبح أم ياقوتة الشفق بدت فهيجت الورقاء في الورق
والبيت الذي أتى بصدوره منها وأثبتته في بديعته على حاله لأجل نوع التفصيل [هو]:
صلى عليه إله العرش ما طلعت شمس النهار ولاحت أنجم الغسق^(١)
وبيت الشيخ عز الدين الموصللي في بديعته:

تفصيل مدحك تجميل لذي أدب أوصاله كفت البلوى من الرقيم
فصدر بيت الشيخ عز الدين كان عجزاً في قصيدة تقدمت له بائية، مطلعها:
لو أن وجه رضائي غير منتقب ما سر قلبي بلوغي غاية الأرب^(٢)

(١) الغسق: الليل.

(٢) منتقب: مغطى بالنقاب وهو الحجاب أو كل ما يستر الوجه - الأرب: الحاجة.

الذي جعل صدره عجزاً وأبقاه على حاله في بديعته، لأجل نوع التفصيل:

كسوتني حلاً بين الأتام بها تفصيل مدحك تجميل لذي أدب
هذا البيت كان تفصيل حلله كاملاً في موضعه. ولما نقل الشيخ عز الدين عجزه،
وجعله صدرًا في بديعته، ظهر في تفصيله نقص بقوله مع العقادة في العجز، كفت
البلوى من الرقم. فإن الرقم بفتح الراء وكسر القاف الداھية. قلت: والداھية إذا دخلت
بيتاً تركته خراباً. وبيت بديعيتي أقول فيه، عن النبي ﷺ:

وإن ذكرت زماناً ضاع من عمري في غير تفصيل مدح صحت يا ندمي
فصدر هذا البيت تقدم لي، في قصيدة فائبة مطلعها:

قد مال غصن النقا عن صبه هيفا يا ليته بنسيم العتب لو عطفاً
والبيت الذي نقلت صدره منها وأثبتته في بديعيتي، وأبقيته على حاله، لأجل نوع
التفصيل [هو]:

وإن ذكرت زماناً ضاع من عمري ولم أهاجر إليه صحت يا أسفا
وهذه القصيدة من غرر قصائدي، بل من غرر القصائد، منها:

مزاج خمرة فيه جاء معتدلاً	فراح منه مزاج الراح منحرفاً
ومذ غدا جسمه ماء برقته	علمت والله أن القلب منه صفا
منه الغزالة غارت عينها حسداً	والبدر قد لازم التسهيد والكلفاً ^(١)
والظبي قال أنا أحكي لواحظه	فصح عندي أن الظبي قد خرفاً ^(٢)
ومنها: مذ صار لي قبلة محراب حاجبه	صيرت عابد طرفي فيه معتكفاً ^(٣)
ولام فيه عدول قلت من كلفي	قلبي رأى منه قدأ في الهوى ألفاً
ما ضره لو عفا عني وأظهر لي	عطفاً وعاین ربع الصبر كيف عفا
أراد مني وكَفَّ الدمع قلت له	حسيك الله يا بدر الدجي وكفى ^(٤)

لم أستطرد إلى ذكر هذه الأبيات هنا إلا لأن نوع التفصيل لم يحتمل إطلاق عنان
القلم في الكلام عليه إلى أكثر من ذلك.

الغزالة: : الشمس - الكلف: الحمرة الكدرة التي تعلق وجه القمر أحياناً.

(٢) الخرف: مرض يصيب العقل فيفسده.

(٣) المحراب: مقام الإمام من المسجد - والاعتكاف: الإقتصار على البيت أو المكان وعدم الخروج

منه.

(٤) وكَفَّ الدمع: انصبابه وانهماره.

فهرس الموضوعات

٨٥	الجناس المصحف والمحرف	٥	تمهيد وتقديم
٨٩	الجناس اللفظي والمقلوب	٦	تطور علم البديع حتى عصر ابن حجة
٩٥	ذكر الجناس المعنوي	٩	التعريف بخزانة الأدب وعملنا فيه
١٠٢	ذكر الاستطراد	١٠	ملاحظات حول الكتاب
١٠٩	ذكر الاستعارة	١٥	التعريف بالكاتب - حياته وعمله
١١٩	ذكر الاستخدام	١٦	مؤلفاته
١٢٦	ذكر الهزل الذي يراد به الجد	١٧	مقدمة الكاتب
١٢٩	ذكر المقابلة	١٩	في حسن الابتداء وبراعة الاستهلال
١٣٤	ذكر الالتفات	١٩	حسن الابتداء عند المتقدمين
١٣٨	ذكر الافتنان	٢٣	حسن الابتداء عند المحدثين
١٤٦	ذكر الاستدراك	٣٠	براعة الاستهلال في النظم
١٤٩	ذكر الطي والنشر	٤٠	براعة الاستهلال في الشر
١٥٦	ذكر الطباق	٥٤	الجناس
١٧٢	ذكر النزاهة	٥٤	ذكر الجناس المركب والمطلق
١٧٥	ذكر التخيير	٦٧	ذكر الجناس الملقق
١٧٨	ذكر الإبهام	٧٠	الجناس المذيل واللاحق
١٨٦	ذكر إرسال المثل	٧٤	الجناس التام والمطرف

٣٠٢ ذكر التوجيه	٢١٥ ذكر التهكم
٣٢٠ ذكر عتاب المرء نفسه	٢١٨ ذكر المراجعة
٣٢٢ ذكر القسم	٢٢٢ ذكر التوشيح
٣٢٩ ذكر حسن التخلص	٢٢٥ ذكر تشابه الأطراف
٣٥١ ذكر الإطراد	٢٢٧ ذكر التغاير
٣٥٤ ذكر العكس	٢٤٢ ذكر التذليل
٣٥٩ ذكر التريد	٢٤٦ ذكر التفوف
٣٦١ ذكر التكرار	٢٤٩ ذكر المواربة
٣٦٤ ذكر المذهب الكلامي	٢٥١ ذكر الكلام الجامع
٣٦٧ ذكر المناسبة	٢٥٣ ذكر المناقضة
٣٧٢ ذكر التوشيح	٢٥٥ ذكر التصدير أو رد العجز على الصدر
٣٧٤ ذكر التكميل	٢٥٨ ذكر القول بالموجب أو أسلوب الحكيم
٣٧٨ ذكر التفريق	٢٦١ ذكر الهجو في معرض المدح
٣٨١ ذكر التشطير	٢٦٣ ذكر الاستثناء
٣٨٣ ذكر التشبيه	٢٦٦ ذكر التشريع
٤٠٦ التشبيه بالتلميح	٢٧١ ذكر التميم
٤١٥ ذكر تشبيه شيئين بشيئين	٢٧٤ ذكر تجاهل العارف
٤١٧ ذكر الانسجام	٢٨٢ ذكر الاكتفاء
٤٢١ الانسجام في الشعر	٢٩٣ ذكر مراعاة النظر
٤٧٧ ذكر التفصيل	٢٩٩ ذكر التمثيل

حزب الأندلس في إحياء الأديب

تأليف العالم الأديب
الشيخ تقي الدين أبي بكر علي
المعروف بابن حجة الجموي
رحمه الله

شرح
عصا شعيتو

الجزء الثاني

منشورات
دار وكتبة الهدى
بيروت - لبنان

حقوق هذه الطبعة محفوظة

للمنشر
الطبعة الاولى

١٩٨٧

بيروت - بئر العبد - شارع مركز بنابية برج الصناعية

ملك دار الهلال تلفون ٨٣٦٩٨١ - ٤٦٣٥٥٧

ص.ب ١٥/٥٠٠٣ بريقياً مكنتهلال



ذكر النوادر

نوادير المدح في أوصافه نشقت منها الصبا فأتتنا وهي في شمم

هذا النوع، أعني النوادر، سماه قوم الإغراب والطرفة، وهو أن يأتي الشاعر بمعنى يستغرب، لقلّة استعماله، لا لأنه لم يسمع بمثله. وهذا مما اختاره قدامة دون غيره، ولكن غالب علماء البديع اختاروا غير رأي قدامة في هذا النوع، فإنهم قالوا: لا يكون المعنى غريباً إلا إذا لم يسمع بمثله.

وأورد زكي الدين ابن أبي الأصبح، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» لنوع النوادر حداً أقرب إليه من اختيار قدامة، وأبلغ وأوقع في النفوس، وهو أن يعمد الشاعر إلى معنى مشهور، ليس بغريب في بابه، فيغرب فيه بزيادة لم تقع لغيره، ليصير بها ذلك المعنى المشهور غريباً، وينفرد به دون كل من نطق به. وبيان ذلك أن تشبيه الحسان بالشمس والبدر مبذول معروف، قد ذهبت طلاوته لكثرة ابتذاله، وكان سابق المتقدمين وقبلة المتأخرين، القاضي الفاضل، أنفت نفسه من المثابرة على هذا الابتذال، وكثرة تشبيه الحسان بالبدر، فقال:

ترأى ومرآة السماء صقيلة فآثر فيها وجهه صورة البدر

سبحان المانع حاصل كلامه تشبيه محسوبه بالبدر. لكن زيادة هذه النادرة اللطيفة لا تخفى إلا على أكمه^(١) لا يعرف القمر، وعلى هذا المنوال نسجت بيت بديعتي.

(١) الأكمه: الأعمى.

ويعجبني، في باب النوادر، قول القائل:

عرض المشيب بعارضيه فأعرضوا وتقوضت خيم الشباب فقوضوا⁽¹⁾
ولقد سمعت وما سمعت بمثله بين غراب البين فيه أبيض

وبيت الشيخ صفى الدين الحلبي في بديعته يقول فيه، عن النبي ﷺ:

كأنما قلب معن مرء فيه فلم يقل لسائله يوماً سوى نعم

هذا البيت، ذكره الشيخ صفى الدين في شرحه أن النادرة فيه، قلب معن بنعم. قلت: قلب معن بنعم لم يعد من نوع النوادر، بل من أنواع الجنس المسمى بالقلب والعكس، وجناس القلب وغيره من أنواع الجنس ليس فيه غير خدمة الألفاظ، فإنه نوع لفظي والذي قرره قدامة وغيره، في هذا النوع، أن الغرابة تكون في المعنى، بحيث يعد ذلك المعنى من النوادر.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعتهم وبیت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته [هو]:

نوادير من جناني كالجنان زهت أم هل بدت واضحات الحسن من إرم

قلت: إن بيت الشيخ صفى الدين الحلبي، مع ما فيه من النقد والمؤاخذة، معدود من النوادر بالنسبة إلى هذا البيت. وما أشبهه بالبيت الذي أخبر عنه الحريري في مقاماته، وقال إنه أخرج من التابوت، وأوهن من بيت العنكبوت. وما ذاك إلا أنني كررت النظر في أركان هذا البيت، فلم أجد فيه مَقْرَأً لنادرة من النوادر التي تقدم تقريرها، فلم يسعني غير النظر في شرحه، فوجدته قال: إن جناني ظهر منه محاسن مدهشة، أم بدت محاسن إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، ويحكى أنها جنة بناها عاد. قلت وما أحق اختراع الخراع بهذه العبارة، وهي، بشهادة الله، عبارته بنصها. والذي أعده من النوادر، إبراز الشيخ عز الدين مثل هذا البيت في بديعته، ورضاه به، وتنزيل مثل هذه العبارة عليه. انتهى.

وبيت بديعيتي أقول فيه، عن النبي ﷺ:

نوادير المدح في أوصافه نشقت منها الصبا فأتتنا وهي في شمم

النادرة في معنى هذا البيت عرفها ضائع لمن شمه من أهل الأدب، وما ذاك إلا أن

(1) قوض: خرب.

النسيم أكثر الشعراء من استعماله في تحمل الرسائل. وغاية ما أغربوا فيه أنه ينشق منه عَرَفَ الأحبة، إذا هب من نحوهم. والنادرة التي أغربت بها هذا المعنى: أن نسيم الصبا لما نشقت عرف مديح النبي، ﷺ، وتعرفت به تزايد شممها. والشمم للنسيم نادرة، بل نكتة لم أسبق إليها. فإن النسيم أحق باشتراك هذه التورية من غيره، لأن الشمم لائق به. وهذا الذي أشار إليه ابن أبي الأصبغ، في أن الشاعر يعمد إلى معنى مبدول معروف ليس بغريب في بابه، فيغربه، بزيادة لم تقع لغيره، ويصير بها ذلك المعنى المعروف غريباً. ومثل ذلك، حتى يزداد نوع النوادر إيضاحاً، قول أبي نواس:

هبّت لنا ريح شمالية تمت إلى القلب بأسباب
أدت رسالات الهوى بيننا عرفتھا من بين أصحابي

قوله: عرفتھا من بين أصحابي، نادرة لم يسبق إليها. وقد جراه مجير الدين الخياط، في بديع هذا النوع. ونادرة هذا المعنى لولا الحياء لقلت إنه أحرز قصبات سبق عليه، بقوله:

يا نسيم الصبا الولوع بوجدي حبذا أنت لو مررت بهند
ولقد رابني شذاك فبالله متى عهدہ بأطلال نجد^(١)

بين ولقد رابني شذاك، في بيت مجير الدين، وبين عرفتھا من بين أصحابي معرك ذوقي، ما يدركه إلا من صفت مرآت ذوقه في علم الأدب. ولعمري إن النادرتين يتجمل بهما هذا النوع ومثله قول القائل، ويعجبني إلى الغاية:

ويد الشمال عشية مذ أرعشت دلت على ضعف النسيم بخطها
كبت سقيماً في صحيفة جدول فيد الغمامة صححته بنقطها^(٢)

النوادر في هذين البيتين، لم يحتج برهانها إلى إقامة دليل، وقد فهمت الزيادات في غرابة المعاني المبتدلة.

ومثلاً. ولم يخرج عما نحن فيه من لطف النسيم ونوادر النوع، قول القائل:

هبّت صبا من قاسيون فسكنت بهبوبها وصب الفؤاد البالي^(٣)
خاضت مياه النيرين عشية وأتتک وهي بليلة الأذيال^(٤)

(١) رابني: حيرني، وجعلني أرتاب أي أشك.

(٢) النقط: وضع النقاط على الحروف.

(٣) قاسيون: جبل يشرف على دمشق - الوصب: المرض والوجع.

(٤) النيرين: دجلة والفرات، وهما من أسماء الشمس والقمر. والله أعلم.

ويعجبني في هذا الباب قول ناصر الدين بن المشد:

مسكية الأنفاس تملئ الصبا عنها حديثاً قط لم يملل
جنت لما أن سرى عرفها وما نرى من جن بالمندل (١)

وألف منه وأكثر نوادر، قول بدر الدين حسن الغزي، الشهير بالزغاري:

سرت من بعيد الدار لي نسمة الصبا وقد أصبحت حسرى من السير ضائعه
ومن عرق مبلولة الجيب بالندی ومن تعب أنفاسها متابعه

ومن العجائب في هذا النوع:

حبذا ليلة رأيت دجاها زاهياً عطفه بحلة فجر
بشرت باللقاء وهي غراب ونفى الفجر حسنها وهي قمري (٢)

ومن النوادر اللطيفة، في هذا الباب، قول علاء الدين الجويني، صاحب الديوان ببغداد، من دو بيت:

مذ صار ميبتنا بضوء القمر والحب نديمنا وصوت الوتر
نادى بفراقنا نسيم سحراً ما أبرد ما جاءت نسيم السحر

ومن نادر ما اتفق لي قولي من قصيدة رائية:

ومذ سرت نسמת الشجر باردة بدا بأعضاء ذاك الجفن تكسير

قد تقدم تقرير حد ابن أبي الأصعب، في نوع النوادر وتكرره، وهو أن يعمد الشاعر إلى معنى مشهور كثير الاستعمال، فيغرب فيه بزيادة نكتة لم تقع لغيره، ليصير المعنى المستعمل بها غريباً. وقد فهم ما أوردته هنا من تلاعب الشعراء بالنسيم، وما أظهروا فيه من النوادر التي تركت رخيصه غالباً. وتكسير الجفن أيضاً ونسبة التكسير إليه أكثر أهل الأدب استعماله في تغزلهم ونسيبهم، ولكن استعارة النسמת الباردة للشجر، وهبوبها على أعضاء ذاك الجفن السقيم، حتى ظهر فيه التكسير، نادرة النوادر في هذا النوع والله أعلم.

(١) العرف: الرائحة الطيبة - المندل: العود الطيب الرائحة.

(٢) القمري: نوع من الحمام.

ذكر المبالغة

بالغ وقل كم جلا بالنور ليل وغي والشهب قد رمدت من عثير الدهم^(١)
المبالغة نوع محدود من محاسن هذا الفن عند الجمهور، واستدلوا على ذلك بقول
من قال: أحسن الشعر أكذبه، ويقول النابغة الذبياني: أشعر الناس من استجيد كذبه،
وضحك من رديئه. واستدلوا أيضاً برد النابغة المذكور على مثل حسان بن ثابت، في
قوله:

لنا الجففات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما^(٢)
والرد الذي رده النابغة على هذا البيت في ثلاثة مواضع: الأول منها أنه قال له:
قلت لنا الجففات والجففات تدل على قليل، فلا فخر لك ولا مبالغة إذا كان في ساحتك
ثلاث جفان أو أربع. والثاني: أنك قلت: يلمعن، واللمعة بياض قليل ليس فيه كبير
شان. والثالث: أنك قلت في السيف: يقطرن، والقطرة تكون للقليل فلا تدل على فرط
نجدة، ولا مبالغة.

وترشيح جانب المبالغة مذهب ابن رشيق، في العمدة، ومنهم من لم يعدّ المبالغة من
حسنات الكلام، ومشى في ذلك على مذهب حسان بن ثابت رضي الله عنه، فإنه قال:
وإنما الشعر عقل المرء يعرضه على الأنام فإن كَيْسا وإن حمقا^(٣)

(١) الوغى: الحرب - رمدت: صار لونها شبيهاً بلون الرماد - العثير: الغبار - الدهم: جمع أدهم وهو من الخيل الأسود.

(٢) الجففات: واحدها الجفنة وهي القصعة وعاء كبير يطبخ فيه.

(٣) الكيس: اللباقة والحداقة.

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا
وعند أهل هذا المذهب، أن المبالغة لم تسفر عن غير التهويل على السامع، ولم
يفر الناظم إلى التخييم عليها إلا لعجزه، وقصور همته عن اختراع المعاني المبتكرة، لأنها
في صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر، إذا أعياه إيراد المعاني الغريبة، فيشغل الأسماع
بما هو محال وتهويل. وقالوا: ربما أنها أحالت المعاني فأخرجتها عن حد الكلام
الممكن إلى حد الامتناع. والمبالغة تعاب في بابها إذا خرجت عن حد الإمكان إلى
الاستحالة، ويأتي الكلام على حدها في موضعه. والذي أقوله: إن المبالغة من محاسن
أنواع البديع، ولم يستطرد في حلقات سبقها إلا فحول هذه الصناعة، ولولا سمو رتبها ما
وردت في القرآن العظيم والسنة النبوية، ولو سلمنا إلى من يهضم جانبها ولم يعدها من
حسنات الكلام، بطلت بلاغة الاستعارة، وانحطت رتبة التشبيه.

وتسمية المبالغة منسوبة إلى قدامة، ومنهم من سمي هذا النوع التبليغ، وسماه ابن
المعترز الإفراط في الصفة، وهذه التسمية طابقت المسمى ولكن أكثر الناس رغبوا في
تسمية قدامة لخفتها.
وهذا النوع، أعني المبالغة، شركه قوم مع الإغراق والغلو لعدم معرفة الفرق، وهو
مثل الصبح ظاهر.

والمبالغة في الاصطلاح هي إفراط وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة.

والإغراق وصف الشيء الممكن البعيد وقوعه عادة.

والغلو، وصفه بما يستحيل وقوعه.

ويأتي الكلام على كل واحد من الثلاثة في موضعه. وقد تقرر أولاً أن المبالغة،
نوعها مبني على وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه.

وحد قدامة المبالغة فقال: هي أن يذكر المتكلم حالاً من الأحوال لو وقف عندها
لأجزأت، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره ما يكون أبلغ من معنى قصده، كقول
عمير بن كريمة التغلبي:

ونكرم جارنا ما دام فينا وتبعه الكرامة حيث مالا

وقال: إن هذا البيت من أحسن المبالغة عند الحذاق، فإن الشاعر بلغ فيه إلى
أقصى ما يمكن من وصف الشيء، وتوصل إلى أكثر ما يقدر عليه، فتعاطاه.

ولخص بعضهم عبارة الحد الذي حده قدامة، وقال: المعنى إذا زاد على التمام
سمي مبالغة.

وقال ابن رشيق، في العمدة: المبالغة: بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن في وصف الشيء.

قلت: وعلى هذا التقرير، فجل القصد في المبالغة الإمكان والخروج عن المستحيل. والمذهب الصحيح فيها أنها ضرب من المحاسن، إذا بعدت عن الإغراق والغلو، وإن كان الإغراق والغلو ضربين من المحاسن ونوعين من أنواع البديع، فقد شرط علماءه أن النوع لا يتجاوز حده بحيث يزول الالتباس. ويعجبني من أمثلة المبالغة في المديح قول القائل:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه^(١)

فالمعنى تم للنظام لما انتهى في بيته إلى قوله: دجى الليل. ولكن زاد بما هو أبلغ وأبدع وأغرب في قوله: حتى نظم الجزع ثاقبه.

ومثله قول أبي الطيب المتنبي في وصف جواد

وأصرع أي الوحش قفيته به وأنزل عنه مثله حين أركب

قال زكي الدين بن أبي الأصبغ، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير»: أبلغ شعر سمعته في باب المبالغة، قول شاعر الحماسة، إذ بالغ في مدح ومدوحه بقوله:

رهنت يدي بالعجز عن شكر بره وما فوق شكري للشكور مزيد
ولو كان مما استطاع استطعته ولكن ما لا استطاع شديد

فانظر ما أحلى احتراسه عن ذلك بقوله: وما فوق شكري للشكور مزيد، وانظر كيف أظهر عذره في عجزه مع قدرته، بأن قال في البيت الثاني: ولو كان مما استطاع استطعته. ثم أخرج بقية البيت للمبالغة، مخرج المثل السائر، حيث قال: ولكن ما لا استطاع شديد. ومن هنا قال أبو نواس:

لا تسدين إلي عارفة حتى أقوم بشكر ما سلفا^(٢)

ومن معجز المبالغة، في القرآن العظيم، قوله تعالى: «سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار»^(٣)، فجعل كل واحد منهم أشد

(١) الجزع: نوع من العقيق ذي الخطوط المتوازية المستديرة.

(٢) العارفة: المعروف.

(٣) الرعد، ١٣/١٠.

مبالغة في معناه وأتم صفة، وجاء من المبالغة، في السنة النبوية، قوله ﷺ مخبراً عن ربه، كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به. وقوله في بقية هذا الحديث: والذي نفس محمد بيده لخلوف^(١) فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. ففي الحديث الشريف مبالغتان: إحداهما، كون الحق، سبحانه وتعالى، أضاف الصيام إلى نفسه دون سائر الأعمال، لقصد المبالغة في تعظيمه وشرفه، وأخبر أنه عز وجل يتولى مجازاة الصائم بنفسه، مبالغة في تعظيم الجزاء وشرفه، ونحن نعلم أن الأعمال كلها لله سبحانه وتعالى ولعبداه باعتبارين: أما كونها للعبد، فلأنه يثاب عليها، وأما كونها لله، فلأنها عملت لوجهه الكريم، ومن أجله، فتخصيص الصائم، بالإضافة للرب سبحانه، وتخصيص ثوابه بما خصص به إنما كان للمبالغة في تعظيمه. والمبالغة الثانية، إخبار النبي ﷺ، بعد تقديم القسم، لتأكيد الخير، بأن خلوف فم الصائم عنده الله أطيب من ريح المسك، ففضل تغير فم الصائم، بالإمساك عن الطعام والشراب، على ريح المسك الذي هو أعطر الطيب، على مقتضى ما يفهم من ريح المسك، وأتى بصيغة أفعل للمبالغة، فجمع هذا الكلام بين قسми المبالغة: المجازي والحقيقي ولذلك ورد أن دم الشهيد كريح المسك، للمبالغة.

وهذا النوع، أعني المبالغة، ممكن الناظم منه في المدائح النبوية والصفات المحمدية، فإن المادح إذا بالغ في وصفه ﷺ، كانت تلك المبالغة ممكنة قريبة من معجزاته وعظمه عند ربه، فمن ذلك، قولي من قصيدة نبوية أقول فيها عن النبي ﷺ:

إذا ما سرى فرداً لفرط جلاله يقول الورى قد سار جيش عرمرم

فالمبالغة تمت لما انتهت إلى قولي: سار جيش، وزدت بعد ذلك بما هو أبلغ منه وأعظم، لقولي: عرمرم.

وبيت الشيخ صفى الدين الحلبي في بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

كم قد جلت جنح ليل النقع طلعت والشهب أحلك ألواناً من الدهم^(٢)

المبالغة تمت للشيخ صفى الدين، في الشطر الأول، بقوله: كم قد جلت جنح ليل النقع طلعت. ولكن زاد بما هو أبلغ منها، حيث قال: والشهب أحلك ألواناً من الدهم.

(١) الخلوف: رائحة الفم إذا تغيرت وفسدت.

(٢) النقع: الغبار أثناء المعارك - الدهم: الخيول السوداء.

وبيت العميان في بديعيتهم:

يمم نبياً تباري الريح أنمله والمزن من كل هامى الودق مرتكم^(١)
المجمع عليه أن المبالغة في الأوصاف المحمدية ممكنة عقلاً وعادة، ولكن الأبلغ
في مبالغة العميان أن الريح والمزن كان يحب كل منهما أن يتطفل على أنامل النبي ﷺ،
في المباراة، لعلو رتبته وعظم مقامه.

وبيت الشيخ عز الدين الموصللي في بديعته:

امدح وجز كل حد في مبالغة حقاً ولا تظر تقبل غير متهم^(٢)
هذا البيت لم ينتظم في سلك ما قبله من أبيات المديح النبوي، ولا بينه وبين
المبالغة أدنى وصلة، ولم يظهر لي في بيته، غفر الله له، إلا وصيته للمادح أنه إذا مدح
يتجاوز كل حد، وأنه لا يطري فيقبل، وما أحقه هنا بقول القائل:

تمنيتهم بالرقمتين ودارهم بوادي الغضى يا بعد ما أتمناه
وبيت بديعيتي أقول فيه، عن النبي ﷺ:

بالغ وقل كم جلا بالنور ليل وغى والشهب قد رمدت من عثير الدهم
فالمبالغة تمت في شطر البيت الأول، بقولي: بالغ وقل كم جلا بالنور ليل وغى.
والزيادة، بما هو أبلغ منها قولي: والشهب قد رمدت من عثير الدهم. وتسمية النوع هنا
هي ديباجة المبالغتين على هذه الصيغة، والله أعلم.



(١) يمم: توجه نحو- تباري: تسابق - الأنمل: جمع أنمله وهي طرف الاصبع - المزن: جمع مزنة وهي
الغيمة الممطرة - هامى: سائل - الودق: المطر - مرتكم: بعضه فوق بعضه الآخر.
(٢) جُز: تجاوز- تظر: من الإطراء وهو المبالغة في المدح على غير الحقيقة.

ذكر الإغراق

لو شاء إغراق من ناواه مد له في البر ببحراً بموج فيه ملتطم
قد تقرر في نوع المبالغة أنها إفراط وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة.
وهذا النوع، أعني الإغراق، فوق المبالغة، ولكنه دون الغلو، وهو في الاصطلاح إفراط
وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه عادة. وقل من فرق بينهما. وغالب الناس عندهم
المبالغة والإغراق والغلو نوع واحد. وهنا لم يعمل بقول الحريري: سامح أخاك إذا
خلط.

وكل من الإغراق والغلو لا يعد من المحاسن إلا إذا اقترن بما يقربه إلى القبول،
كقد، للاحتمال، ولولا، للامتناع، وكاد، للمقاربة، وما أشبه ذلك من أنواع التقريب.

وما وقع شيء من الإغراق والغلو، في الكتاب العزيز، ولا في الكلام الفصيح، إلا
مقروناً بما يخرج من باب الاستحالة، ويدخله في باب الإمكان، مثل: كاد ولو وما
يجري مجراهما، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾^(١) إذ لا يستحيل في
العقل أن البرق يخطف الأبصار، لكنه يمتنع عادة وما زاد وجه الإغراق هنا جمالاً إلا
تقريبه بكاد، واقتران هذه الجملة بها هو الذي صرفها إلى الحقيقة، فقلبت من الامتناع
إلى الإمكان.

ومن شواهد تقريب نوع الإغراق، بلو، قول زهير:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

(١) النور، ٤٣/٢٤.

فاقتران هذه الجملة أيضاً بامتناع قعود القوم فوق الشمس، المستفاد بلو، هو الذي أظهر بهجة شمسها في باب الإغراق.

ومما استشهدوا به على هذا النوع، بغير أداة التقريب، قول امرئ القيس:

تنورتها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عالي^(١)

وبين المكانين بعد تام، فإن أذرعات من الشام، والنار التي تنورها من أذرعات كانت يثرب مدينة النبي ﷺ. وقد أثبتوا هذا الشاهد في باب الإغراق، لأنهم قالوا: لا يمتنع عقلاً أن ترى النار من بعد هذه المسافة، وأن لا يكون ثم حائل من جبل أو غيره، من عظم جرم النار، ولكن ذلك ممتنع عادة، هذا إن جعلنا تنورتها نظرت إلى نارها حقيقة، وأما إن جعلناه بمعنى توهمت نارها وتخيّلتها في فكري، فلا يكون في البيت إغراق.

ومثله قول أبي الطيب المتنبّي في صباه:

روح تردد في مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم بين^(٢)
كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وقالوا: هنا لا يمتنع عقلاً أن ينحل الشخص، حتى يصير مثل الخلال، ولا يستدل عليه إلا بالكلام، إذ الشيء الدقيق إذا كان بعيداً لا يرى، بخلاف الصوت. ولكن صيرورة الشخص، في النحول، إلى مثل هذه الحال، ممتنع عادة. ولعمري، إن الشيخ شرف الدين بن الفارض ضم خصص هذا المعنى الرقيق، ورشحه بنفائس العقود، حيث قال:

كأنني هلال الشك لولا تأوهي خفيت فلم تُهدّ العيون لرؤيتي

قلت: إذا قابلنا نحول المتنبّي بهلال الشك الذي أبرزه ابن الفارض، لم تبعد المقارنة، لكن من قابل قول المتنبّي: أنني رجل لولا مخاطبتي، بقول الشيخ شرف الدين ابن الفارض، في بيته: كأنني هلال الشك لولا تأوهي، لا بد أن يقابله الله على ذلك، وأين لطف: لولا تأوهي، من ثقل: لولا مخاطبتي. فالفرق بين خطاب الرجل وتأوه هلال الشك لا يخفى على حذاق أهل الأدب.

(١) تنورتها: بصرت بها أو توهمتها - أذرعات: إسم مكان في الشام يبعد مسيرة ثلاثة أشهر عن يثرب،

مدينة الرسول ﷺ.

(٢) الخلال: الشبح.

ومنه قول بعضهم:

قد سمعتم أنينه من بعيد فاطلبوا الشخص حيث كان الأنين

قلت: ما برح طائر فكري يحوم على ورد هذا المعنى الذي حصلت فيه الموارد، على أن الشخص لا يرى لشدة نحوه إلا بأنين أو تأوه، وأريد أن أرشحه بنكته، إلى أن قلت من قصيدتي التي عارضت بها كعب بن زهير، وامتدحت بها النبي ﷺ:

وفوق طرس مشيبي أرخوا تلفي وذلك الطرس فوق الرأس محمول
وقد تجاوز جسمي حد كل ضني وها أنا اليوم في الأوهام تخييل

وقد تقدم وتقرر، أن أداة المقاربة ما استعملت في الإغراق إلا لتنقله من الامتناع إلى الإمكان، وهذا الذي أوردته بغير أداة المقاربة هنا، إن كان يبعد عادة، لا يبعد عقلاً.

ومما استشهدوا به على نوع الإغراق، بلو، التي يمكن الإغراق بها عقلاً ويمتنع عادة، قول القائل:

ولو أن ما بي من جوى وصبابة على جمل لم يبق في النار كافر

يريد أنه لو كان ما به من الحب بجمل لنحل حتى يدخل في سمّ الخياط، وذلك لا يستحيل عقلاً، إذ القدرة قابلة لذلك لكنه ممتنع عادة. وهذا غاية في الإغراق.

وأورد الشيخ شهاب الدين ابن جعفر المغربي الأندلسي، في شرحه الذي كتبه على بديعية صاحبه شمس الدين محمد بن جابر الأندلسي، على هذا البيت حكاية لطيفة، وهي أن إبليس تعرض لبعض الأولياء فلم ينل منه غرضاً. فقال له الولي: من أشدّ عليك: العابد الجاهل، أو العالم المسرف على نفسه؟ فقال: العالم المسرف، وأما العابد الجاهل فهو في قبضتي أدخل عليه في دينه من حيث شئت. وأنا أريك ذلك. فانطلق به إلى أعبد الجهال في ذلك الزمان، فطرق عليه الباب، فخرج إليهما. فقال له إبليس: جئت أستفتيك: هل الله قادر على أن يدخل الجمل في سم الخياط أو لا. فتوقف وتحير وغلقت الباب. فقال إبليس للولي: ها هو قد كفر بالشك في قدرة الله تعالى، ثم انطلق به إلى عالم مسرف على نفسه، وطرق عليه الباب، وكان في القائلة^(١)، فقال الرجل العالم: من هذا الشيطان الذي يضرب بابي في القائلة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

(١) القائلة: الاستراحة وقت الظهر.

قلوا فإن الشياطين لا تقيل؟ فقال إبليس: ها هو قد عرفني قبل رؤيتي، فلما خرج قال له إبليس: هل في قدرة الله تعالى أن يدخل الجمل في سم الخياط؟ فقال له: أتشك في قدرة الله تعالى على أن يوسع سم الخياط حتى يدخل فيه الجمل، أو يرقق الجمل حتى يصير كالخيوط فيدخل في سم الخياط! فانصرفا، وقال إبليس لرفيقه: معرفة هذا بالله تمحو ذنوبه، وحاله خير من حال العابد الجاهل بالله. انتهى.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته، على نوع الإغراق:

في معرك لا تثير الخيل عثيره مما تروي المواضي تربه بدم^(١)

بيت الشيخ صفي الدين الحلبي على هذا النوع أبرزه بغير أداة التقريب، وهو بيت عامر قريب من العقل بعيد من الوقوع عادة، على شرط الإغراق، لكنه غير صالح للتجريد وقد تقرر وتكرر: أن بيوت البديعيات شواهد على الأنواع، فلا ينبغي أن يكون البيت متعلقاً بما قبله، ولا بما بعده

وبيت بديعية العميان يقولون فيه، عن النبي ﷺ، وقد أتوا فيه بأداة التقريب حيث قالوا:

لو قابل الشهب ليلاً في مطالعها خرت حياء وأبدت برّ محترم
لو شاء إغراق وجه الأرض أجمعه ندى يديه لأحيائها ولم يضم^(٢)
وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

لو شا إغراق من ناواه مدّ له في البر بحراً بموج فيه ملتطم^(٣)
على كل تقدير، مقام النبي ﷺ صالح للمغلاة بالإغراق في مديحه، والله أعلم.



(١) المعرك: مكان العراك - العثير: الغبار - المواضي: جمع ماضي: السيف.
(٢) الندى: الجود والكرم والعطاء - يضم: يصاب بالضميم وهو الضعف والنقص والسوء.
(٣) ناواه: ناواه مخففه ومعناها خاصمه وعانده

ذكر الغلو

بلا غلو إلى السبع الطباق سرى وعاد والليل لم يجفل بصبحهم^(١)
قد تقدم القول على المبالغة، وتقرر أنها في الاصطلاح إفراط وصف الشيء
بالممكن القريب وقوعه عادة. وتقرر أن الإغراق فوقها في الرتبة، وهو في الاصطلاح
إفراط وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه عادة.

والغلو، فوقهما فإنه الإفراط في وصف الشيء بالمستحيل وقوعه عقلاً وعادة وهو
ينقسم إلى قسمين: مقبول، وغير مقبول. فالمقبول لا بد أن يقربه الناظم إلى القبول بأداة
التقريب، اللهم إلا أن يكون الغلو في مديح النبي ﷺ، فلا غلو.

ويجب على ناظم الغلو أن يسبكه في قوالب التخيلات الحسنة، التي يدعو العقل
إلى قبولها في أول وهلة، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهَا نَارٌ﴾^(٢) فإن
إضاءة الزيت من غير مس نار، مستحيلة عقلاً، ولكن لفظة يكاد، قربته فصار مقبولاً.
ومنه قول أبي العلاء المعري:

تكاد قسيه من غير رام تمكن في قلوبهم النبالات
تكاد سيوفه من غير سل تجد إلى رقابهم انسلالات

ويعجبني هنا قول ابن حمديس الصقلي، في وصف فرس:

ويكاد يخرج سرعة من ظله لو كان يرغب في فراق رفيق

(١) السبع الطباق: السماوات السبع.

(٢) النور، ٣٥/٢٤.

ومنه قول الفرزدق، في علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين:

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم^(١)

ومن الغلو المقبول، بغير أداة التقريب، قول أبي الطيب المتنبي في ممدوحه:

عقدت سناكبها عليه عثراً فلو ابتغى عنقا عليه أمكناً

معنى هذا البيت: أن سناكب الخيل، وهي أطراف الحوافر، عقدت على هذا الممدوح عثراً، وهو الغبار، حتى لو أراد أنه يمشي عليه عنقاً لأمكن، والعنق هو المشي السريع، وانعقاد الغبار في الهواء حتى يمكن المشي عليه، مستحيل عقلاً وعادة إلا أنه تخيل حسن مقبول.

وقد وقع^(٢) للقاضي الأرجاني، جمع فيه بين الشيتين الموجبين للقبول والتقريب، وهما ما جرى بهما مجرى كاد، والتخيل الحسن، وذلك قوله:

يخيل لي أن سُمّ الشهب في الدجا وشدت بأهدابي إليهن أجفاني

فقوله: يخيل لي، هو الجاري مجرى كاد، فإنه جعل الأمر توهماً لا حقيقة، وأما التخيل الحسن، فهو ما ذكر من تسمير الشهب، وشد أجفانه إليها بأهدابه، وجعل الأهداب بمنزلة الجبال، ولا يخفى ما في هذا من التخيل الحسن.

وأما الغلو الذي هو غير مقبول فكقول أبي نواس:

فلما شربناها ودب دبيبها إلى موضع الأسرار قلت لها قفي
مخافة أن يسطو عليّ شعاعها فيطلع ندماني على سري الخفي

قالوا: إن سطوة شعاع الخمر عليه، بحيث يصير جسمه شفافاً يظهر لنديمه ما في باطنه لا يمكن عقلاً ولا عادة.

ومنه قول بعضهم:

أسكر بالأمس إن عزمت على الشرب غداً إن ذا من العجب

(١) الحطيم: بناء خارج الكعبة قبالة ميزاب الرحمة - الاستلام: أي استلام الحجر الأسود وهو من شعائر الحج.

(٢) وقع تخيل حسن.

فسكره بالأمس، بسبب عزمه على الشرب غداً، مما لا يمكن عقلاً ولا عادة أيضاً.
ومنه قول أبي نواس:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

وهذا الذي قاله أبو نواس أيضاً، أمر مستحيل، فإن قيام العرض الموجود، وهو الخوف بالمعدوم، وهي النطف التي لم تخلق، لا يمكن عقلاً ولا عادة. ومن الطف ما يحكى هنا أن العتابي الشاعر لقي أبا نواس، فقال له: أما تستحي من الله بقولك: وأخفت أهل الشرك البيت؟ فقال له أبو نواس: وأنت أيضاً ما استحييت من الله بقولك:

ما زلت في غمرات الموت مطرحاً يضيق عني وسيع الرأي من حيل
فلم تزل دائماً تسعى بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلي^(١)

فقال العتابي: قد علم الله، وعلمت أن هذا ليس مثل قولك، ولكنك أعددت لكل سؤال جواباً.

ومنه قول بعضهم:

قد كان لي فيما مضى خاتم واليوم لو شئت تمنطقت به^(٢)
وذبت حتى صرت لزوج بي في مقلة النائم لم يتبسه^(٣)
ومثل هذا أيضاً لا يقبله العقل، ولا عليه رونق القبول.

قلت: ومراتب الغلو تتفاوت إلى أن تؤول بقائلها إلى الكفر. فمن ذلك قول ابن دريد:

مارست من لو هوت الأفلاك من جوانب الجو عليه ما شكاً
قيل إنه لأجل هذا البيت، والادعاء العظيم الذي ادعى فيه ابتلي بمرض كان فيه يخاف من الذباب أن يقع عليه.

(١) معنى قول أبي نواس ظاهره الشرك وباطنه المبالغة فهو يكاد يصل بممدوحه درجة الخالق جلّ وعلا إذ النطف التي لم تخلق لا تخاف إلا خالقها، عقلاً وقول العتابي: يعني: ما زلت أعاني من المصاعب المميتة ولا أستطيع لنفسي حيلة للنجاة. وأنت واضبت، تلتطفاً منك وكرماً، تفتش لي عن مخرج مما أنا فيه حتى كان ذلك على يدك فكأنك قد خلصتني من الموت بإذن الله. ولا يخفى الفرق بين المقصودين.

(٢) تمنطق: لبس المنطقه وهي قطعه من جلد أو من قماش تشد على الوسط.

(٣) زج: حشر ووضع في مكان يضيق عليه.

ومنه قوله :

ولو حمى المقدار عنه مهجة
تغدو المنايا طائعات أمره
لرامها أو تستيبح ما حمى
ترضى الذي يرضى وتأبى ما أبى

ومثله قول أبي الطيب :

كأنى دحوت الأرض من خبرتي بها
وكأن بنى الإسكندر السدم من عزمي (١)
هذا أيضاً من الغلو الذي يؤدي إلى سخافة العقل، مع ما فيه من قبح التركيب،
وبعده عن البلاغة.

وأقبح من هذا كله قول عضد الدولة :

ليس شرب الراح إلا في المطر
غانيات سالبات للنهى
مبرزات الكأس من مطلعها
عضد الدولة بان ركنها
وغناء من جوارٍ في السحر
ناغمات من تضاعيف الوتر (٢)
ساقيات الراح من فاق البشر (٣)
ملك الأملاك غلاب القدر

روي أنه لم يفلح بعد هذا القول، وكان لا ينطق إلا بقوله تعالى : ﴿ما أغنى عني
ماليه * هلك عني سلطانيه﴾ (٤).

ولولا الإطالة، وهو نظم غير مقبول، لأوردت كثيراً من نظم الذين كانوا يتساهلون
في هذا النوع، كأبي نواس، وابن هانئ الأندلسي، والمنتبي، وأبي العلاء المعري،
وغيرهم من المتأخرين، كابن نبيه ومن جرى مجراه. وكنت من المبادئ أستقيح قول
الشيخ صفي الدين الحلي، وأستقل أدبه بقوله، في موشحه الذي أوله: دارت على الدوح
سلاف القطر. وذلك قوله في ممدوحه :

لو قابل الأعمى غدا بصيرا
ولو يشا كان الظلام نورا
ولو رأى ميتاً غدا منشورا (٥)
ولو أتاه الليل مستجيرا
آمنه من سطوات الفجر

(١) دحوت الأرض : سطحها فجعلتها مدحية مسطحة، أو بسطتها ووسعتها.

(٢) النهى : العقول والألباب.

(٣) فاق البشر: أعلى منزلة منهم.

(٤) الحاقه، ٢٩/٦٩ و٢٨.

(٥) النشور: الحياة بعد الموت.

وبيته في بديعته على هذا النوع، أعني الغلو، قوله:

عزيز جار لو الليل استجار به من الصباح لعاش الناس في الظلم
قلت هذا الغلو هنا مقبول، في مديح النبي ﷺ، غير لائق بممدوحه الذي أشار إليه
في موشحه بقوله:

ولو أتاه الليل مستجيراً آمنه من سطوات الفجر

فقد تقرر أن الناظم إذا قصد الغلو في مديح النبي ﷺ، فلا غلو.

وبيت العميان في بديعيتهم يقولون فيه، عن النبي ﷺ:

تكاد تشهد أن الله أرسله إلى الورى نطف الأبناء في الرحم

فنسبة الشهادة إلى النطف، وهي في الأرحام، لا تمكن عقلاً، وما استحال عقلاً
استحال عادة، وهذا الغلو هنا مقبول في مديح النبي ﷺ، وقد زاد الناظم تقريبه بكاد،
ولكن ذكر الأرحام والنطف في المدائح النبوية ما يخلو من قلة أدب.

وبيت الشيخ عز الدين في بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

في مدحه نفحات لا غلو بها يكاد يحيي شذاها بالي الرمم^(١)

نفحات هذا البيت عطرت الوجود بالمديح النبوي، وغلوها فيه ملحوظ بعين
القبول، وتقريبها بكاد أحرز قصبات السبق، ولا أقول كاد، وهذا البيت عندي مقدم على
بيت الشيخ صفي الدين. وبيت العميان، لالتزامه بتسمية النوع البديعي موري به من
جنس المديح، مع انسجامه ورقته.

وبيت بديعيتي أقول فيه، عن النبي ﷺ:

بلا غلو إلى السبع الطباق سرى وعاد والليل لم يجفل بصبحهم

هذا الغلو يرخص عنده بانتظامه في سلك المدائح النبوية كل غلو، فإنه لو كان في
غير النبي ﷺ، استحال عقلاً وعادة، ونعوذ بالله من نسبه إلى غيره، فإنها تؤدي إلى
الكفر المحض، وحصره في النبي ﷺ متفق عليه عقلاً ونقلاً. وقولي عند نظم هذا النوع
بلا غلو، ويعلم طالب هذا العلم طريق سلوك الأدب، وهذا البيت من خلاصات المدائح
النبوية، فنرجو الله أن تشملنا بركة ممدوحه ﷺ والله أعلم.

(١) الرمم: جمع رمة وهي جثة الإنسان بعد موته.

ذكر ائتلاف المعنى مع المعنى

سهل شديد له بالمعنيين بدا تألف في العطا والدين للعظم
هذا النوع، وهو ائتلاف المعنى مع المعنى، ضربان: فالأول في الاصطلاح، هو أن
يشتمل الكلام على معنى معه أمران: أحدهما ملائم، والآخر بخلافه، فيقرنه بالملائم.
واستشهدوا عليه بقول أبي الطيب المتنبّي:

فالعرب منه مع الكدري طائرة والروم طائرة منه مع الحجل^(١)

وقالوا: إن تقوية المعنى الأول، مناسبة القطا الكدري مع العرب، لأنه يلائمهم
بنزوله في السهل من الأرض، وينفر من العمران ويستأنس بالمهمه، ولا يقرب العمران إلا
إذا زاد به العطش وقل الماء في البر. ومناسبة الحجل مع الروم، أنها تسكن الجبال،
وتنزل في المواضع المعروفة بالشجر.

والضرب الثاني هو أن يشتمل الكلام على معنى وملائمين له، فيقرن بهما ما
لاقرانه مزية. واستشهدوا على هذا الضرب الثاني، بقول أبي الطيب المتنبّي أيضاً:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم^(٢)
تمر بك الأبطال كلمي هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم^(٣)

وقالوا: إن عجز كل من البيتين يلائم كلاً من الصدرين، وما اختار ذلك الترتيب إلا

(١) الكوربي: نوع من القطا أغبر اللون، مرقش الظهر، أصفر الحلق.

(٢) الردى: الموت.

(٣) كلمي: مجرحة.

لأمرين: أحدهما أن قوله: كأنك في جفن الردى وهو نائم، تمثيل السلامة في مقام العطب، ولهذا قرر له الوقوف والبقاء في موضع يقطع على صاحبه فيه بالهلاك، أنسب من جعله مقرراً لثباته في حال هزيمة الأبطال. والثاني، أن في تأخير التتميم بقوله: ووجهك وضاح وثرغك باسم، عن وصف الممدوح بوقوفه ذلك الموقف، وبمرور أبطاله كلمى بين يديه، ما يفوت بالتقديم. ولعمري إن الضرب الثاني من ائتلاف المعنى مع المعنى أبدع من الضرب الأول، وأوقع في القلوب، وأقرب إلى مواقع الذوق، وعليه نظمت بيت بديعيتي ويأتي الكلام عليه في موضعه، ولكن هنا نكتة تزيد بديع الضرب الثاني إيضاحاً، وترشح قصد المتنبي في ترتيبه الذي تقدم عليه الكلام.

حكى أن سيف الدولة بن حمدان ممدوح المتنبي قال، عم إنشاده إياه هذين البيتين: يا أبا الطيب قد انتقدنا عليك، كما انتقد على امرىء القيس في قوله:

كأنني لم أركب جواداً لغارة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال^(١)
ولم أسبأ الزرق الروي ولم أقل لخلي كرى كربة بعد إجحال^(٢)

فقال المتنبي: أيها الأمير إن صح أن البزاز أعلم بالثوب من حائكة، فقد صح ما انتقد على امرىء القيس وعلي، فإن امرأ القيس أحب أن يقرن الشجاعة باللذة في بيت واحد، وهو الأول، وقد وقع مثل هذا في الكتاب العزيز، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنْتَ لَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾^(٣) فإنه تعالى لم يراع فيه مناسبة الري بالشبع والاستظلال باللبس، في تحصيل نوع المنفعة، بل راعى مناسبة اللبس للشبع في حاجة الإنسان إليه وعدم استغنائه عنه، ومناسبة الاستظلال للري في كونهما تابعين لللبس والشبع.

قلت وأما جواب المتنبي عن قول امرىء القيس:

كأنني لم أركب جواداً لغارة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

فهو الافتتان بعينه، وهو نوع من أنواع البديع العالية، وقد تقدم.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي، في بديعته على هذا النوع، قوله:

من مفرد بغيرار السيف منتشر ومروج بسنان الرمح منتظم^(٤)

(١) تبطن: خبر وعرف الباطن - الكاعب: الفتاة إذا نهد ثديها.

(٢) سبأ الزرق الروي: اشترى وعاء الخمر المليء ليشربه.

(٣) طه، ١١٨/٢٠ و ١١٩.

(٤) المروج: السريع - غرار السيف: حده.

قد كثر تكرار القول، بأن المراد من بيت البديعية أن يكون شاهداً على نوعه، وإن لم يكن صالحاً للتجريد لم يصح الاستشهاد به على ذلك النوع. وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي، هنا، غير صالح للتجريد، وعدم صلاحه للتجريد هو الذي عقده وحجب إيضاح معناه عن مواقع الذوق.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

ذو معنيين بصحب والعدا ائتلفا للخلف ما أشهب البازي كالرخم^(١)

قلت: إن هذين المعنيين، لشدة العقادة، أتعبت الفكر فيهما على أن يتضح لي منهما معنى فعجزت عن ذلك، والله أعلم. وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ:

سهل شديد له بالمعنيين بدا تألف في العطا والدين للعظم

وقد تقدم قولي: إن بيت بديعيتي منظوم في سلك الضرب الثاني، لكونه أبدع وأوقع في الذوق من الضرب الأول، وهو أن يشتمل الكلام على معنى وملائمين فيقرن بهما ما يلائم ويظهر باقترانه مزية فسهولة النبي ﷺ، قرنتها بالعطاء وناهيك بهذه الملاءمة وشدته ﷺ قرنتها بالدين لعظمه، فأكرم بها ملاءمة وشرف قران. وقد ورد نص الكتاب بذلك في قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشدء على الكفار رحماء بينهم﴾^(٢) وقولي في القافية: للعظم، بعد ثبوت الشدة للدين، في غاية التمكن. والله أعلم.



١ أشهب: أصاب - البازي: طائر من الجوارح يستعمل ليصطاد به - الرخمة: طائر غزير الريش.
(٢) الفتح، ٢٩/٤٨.

ذكر نفي الشيء بإيجابه

لا يتنفي الخير من إيجابه أبداً ولا يشين العطا بالمن والسأم^(١)

نفي الشيء بإيجابه، هو أن يثبت المتكلم شيئاً في ظاهر كلامه، وينفي ما هو من سببه مجازاً، والمنفي في باطن الكلام حقيقة هو الذي أثبتته، كقوله تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾^(٢) فإن ظاهر الكلام نفي الذي يطاع من الشفعاء، والمراد نفي الشفيع مطلقاً، وكقوله تعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾^(٣) فإن ظاهر الكلام نفي الإلحاف في المسألة، والباطن نفي المسألة بته، وعليه إجماع المفسرين.

وذكر ابن أبي الأصبع، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» أنه منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا هو الحد الذي قرره ابن رشيقي، في العمدة، فإنه قال: نفي الشيء بإيجابه إذا تأملته وجدت باطنه نفيًا وظاهره إيجاباً واستشهد عليه بقول زهير:

بأرض خلاء لا يُسدُّ وصيدها عليّ ومعروفي بها غير منكر^(٤)

فأثبت لها في الظاهر وصيداً، ومراده في الباطن أن ليس لها وصيد فيسد.

وألطف ما رأيت، من شواهد هذا النوع، أعني نفي الشيء بإيجابه، قول مسلم بن

الوليد:

(١) يشين: يعيب.

(٢) غافر، ١٨/٤٠.

(٣) البقرة، ٢٧٣/٢.

(٤) الأرض الخلاء: الخالية من الناس - والوصيد: هو الباب ومنه قوله تعالى عن أهل الكهف: ﴿وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ الكهف، ١٨/١٨.

لا يعقب الطيب خديه ومفرقه ولا يمسح عينيه من الكحل^(١)
فإن ظاهر الكلام نفي عقب الطيب ومسح الكحل، والمراد نفي الطيب والكحل
مطلقاً.

ومثله قول أبي الطيب المتنبّي:

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضع الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراكنهن صقيلات العراقيب^(٢)

فظاهر الكلام عدم بروزهن من الحمام على تلك الهيئات، والمراد، في باطن
الكلام، عدم الحمام مطلقاً، فإنهن عربيات كظباء الفلاة، ولهذا قال ذو الرمة:

بالله يا ظبيات قلن لنا ليلاي منكن أم ليلي من البشر

والقصد أن حسنهن لم يفتقر إلى تصنع ولا إلى تطرية بدخول الحمام.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على هذا النوع، أعني نفي الشيء
بإيجابه، يقول فيه عن النبي ﷺ:

لا يهدم المن منه عمر مكرمة ولا يسوء أذاه نفس متهم

فظاهر الكلام، في بيت الشيخ صفي الدين الحلبي، أن النبي ﷺ لا يتبع المكرمة
بمن وحاشاه من ذلك، ولا يصدر منه لنفس متهم إساءة. والمراد، في الباطن، نفي المن
والإساءة مطلقاً، فإن مقام النبي ﷺ، في الكرم والحلم، فوق ذلك.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين، غفر الله له،
يقول فيه عن النبي ﷺ:

لم ينف ذماً بإيجاب المديح فتى إلا وعاقدت فيه الدهر بالسلم

هذا البيت ليس له تعلق بهذا النوع، فإن مشايخ البديع تواردوا في حده على عبارة
واحدة لم تختلف بحرف، بل الجميع قالوا: نفي الشيء بإيجابه، هو أن يثبت المتكلم
شيئاً في ظاهر كلامه، وينفي ما هو من سببه مجازاً، والمنفي في باطن الكلام حقيقة هو

(١) عبق: لاسم ولاصق.

(٢) الأوراك: ملتقى الفخذ مع الجذع، مفردها: ورك - العراقيب: أوتار غليظه فوق الأماق، مفردها
عرقوب.

الذي أثبتته . وأوردوا على ذلك ما تقدم من شواهد القرآن العظيم، والشواهد الشعرية التي زادت النوع إيضاحاً. ولم يتضح لي في بيت الشيخ عز الدين غفر الله له، لمعة استضيء بها في ظلمة هذه العقادة إلى تقرير هذا النوع في البيت المذكور، فلم يسعني غير النظر في شرحه، فوجدته قد قال: ما نفي الذم بإيجاب المديح كريم، إلا وكان النبي ﷺ قد عاقد الدهر بالسلم على ذلك المعنى قبل الذي فعل هذا الفعل المحمود، فإنه هو الأصل في الأسباب الخيرية جميعها، فما علمت ما مراده في النظم، ولا في الشرح، ولا أين استقر نفي الشيء بإيجابه، والله أعلم.

وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ:

لا ينتفي الخير من إيجابه أبداً ولا يشين العطا بالمن والسأم

الذي أقوله: إن محاسن هذا البيت، ببركة ممدوحه ﷺ، تغني عن التطويل في شرحه، وسهولة مأخذ النوع منه لم تفتقر إلى زيادة إيضاح، وما أحقه هنا بقول القائل:

وقد ظهرت فلا تخفى على أحد إلا على أكمه لا يعرف القمر



ذكر الإيغال

للجود في السير إيغال إليه وكم حبا الأنام بوّد غير منصرم
هذا النوع، مأخوذ من إيغال السير. فإنه يقال: أوغل في المسير، إذا بلغ غاية
قصده بسرعة. ولهذا قلت: للجود في السير إيغال إليه، ومعنى ذلك: أن المتكلم، أو
الشاعر، إذا انتهى إلى آخر القرينة، أو البيت، استخرج سجعة أو قافية يريد معنى زائداً
أو كلاً منهما، فكأن المتكلم، أو الشاعر، قد تجاوز حد المعنى الذي هو آخذ فيه، وبلغ
مراده فيه إلى زيادة عن الحد.

وهذا النوع مما فرعه قدامة، وفسره بأن قال: هو أن يستكمل الشاعر معنى بيته
بتمامه، قبل أن يأتي بقافيته، فإذا أراد الإتيان بها ليكون الكلام شعراً، أفاد بها معنى زائداً
على معنى البيت، كقول ذي الرمة:

قف العيس في آثار مية واسأل رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل^(١)

فتم كلامه قبل القافية، فلما احتاج إليها أفاد بها معنى زائداً، وكذلك صنع في
البيت الذي بعده، حيث قال:

أظن التي يجدي عليك سؤالها دموعاً كتبديد الجمان المفصل^(٢)

فإنه تم كلامه بقوله: كتبديد الجمان، واحتاج إلى القافية فأتى بما يفيد معنى
زائداً، ولو لم يأت بها لم يحصل. انتهى.

(١) العيس: الإبل مفردها أعيس - ومية: هي حبيبة ذي الرمة - الرسوم: الآثار - أخلاق الرداء المسلسل:
الرداء المقطع البالي.

(٢) تبديد: تفريق - الجمان: اللؤلؤ - المفصل: المنضود والمرتب.

والفرق بين الإيغال والتميم، أن التميم يأتي إلى المحتاج فيتممه، كقول الشاعر وقد تقدم:

أناس إذا لم يقبل الحق منهم ويعطوه غاروا بالسيوف القواضب

فإن المعنى بدون قوله: ويعطوه ناقص، والإيغال لا يرد إلا على المعنى التام، فيزيده كمالاً ويفيد فيه معنى زائداً، غير أن بين الإيغال والتكميل تجازباً يكاد أن ينتظم كل منهما في سلك الآخر. ولكن رأيت الناس قد سلموا إلى قدامة ما اختاره وفرعه هنا، فمشيت مع الناس. واستشهدوا على الإيغال بقوله تعالى: ﴿أفحکم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾^(١) فإن الكلام تم بقوله تعالى: ﴿ومن أحسن من الله حكماً﴾ ثم احتاج الكلام إلى فاصلة تناسب القرينة الأولى، فلما أتى بها أفاد معنى زائداً. قلت: ولعمري لو طلب التكميل حقه من هذا الشاهد، لم يمنعه الذوق السليم. ومثله قوله تعالى: ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾^(٢) فإن المعنى تم بقوله تعالى: ﴿ولا تسمع الصم الدعاء﴾ ثم أراد، وهو أعلم، إتمام الكلام بالفاصلة، فقال: ﴿إذا ولوا مدبرين﴾.

وقد حُكي عن الأصمعي أنه سئل من أشعر الناس؟ فقال: الذي يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كثيراً، وينقضي كلامه قبل القافية، فإن احتاج إليها أفاد ما ي زائداً. فقيل له: نحو من؟ فقال: نحو الفاتح لأبواب المعاني، وهو امرؤ القيس، حيث قال:

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب^(٣)
ومثله قول زهير:

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم^(٤)

فكلام امرئ القيس انتهى إلى زلة الجزع، وزيادة المعنى في قوله: الذي لم يثقب، ولا يخفى على حذاق الأدب ما فيها من المحاسن. ومعنى قول زهير انتهى في

(١) المائة، ٥٠/٥.

(٢) النمل، ٨٠/٢٧، والروم، ٥٢/٣٠.

(٣) الجزع: العقيق.

(٤) العهن: الصوف المصبوغ ألواناً، ومنه قوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ القارعة،

٥/١٠١ - الفنا: شجر ثمره حب أحمر فيه نقط سود (عنب الثعلب).

كلامه إلى قوله: حب الفنا، وزيادة المعنى في قوله: لم يحطم، فيها نكتة بديعية غريبة، وأنا أذكرها هنا تنبيهاً على ما قرره الأصمعي، وما ذاك إلا أن زهيراً شبه ما تفتت من العهن بحب الفنا، والفنا شجر ثمره حب أحمر وفيه نقط سود، وقال الفراء: هو عنب الثعلب. فلما قال زهير، بعد تمام معنى بيته: لم يحطم، أراد أن يكون حب الفنا صحيحاً، لأنه إذا كسر ظهر له لون غير الحمرة.

وقال ابن أبي الأصبغ: في كتابه المسمى «بتحريف التحبير»: ولقد أحسن ابن المعتز في إيغاله، بقوله لابن طباطبا العلوي:

فأنتم بنو بنته دوننا ونحن بنو عمه المسلم
فإنه تحيل على المساواة، بأن قال: ونحن بنو عمه المسلم، والكلام تم قبل الإتيان بالقافية، فلما أتى بها أفادت معنى، إذ لا طريق له إلى التفضيل بزيادة في حسن الجدل.
والذي وقع اتفاق البديعيين عليه: أن أعظم ما وقع في هذا الباب وأبلغ، قول الخنساء أخت صخر:

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه ناراً^(١)

فإن معنى جملة البيت كامل دون القافية، فوجودها زيادة لم تكن له قبلها. وهذه المرأة لم ترض لأخيها أن يأتى به جهال الناس، حتى جعلته يأتى به أئمة الناس، وهذا تميم. ولم ترض تشبيهه بالعلم، وهو الجبل المرتفع المعروف بالهداية، حتى جعلت في رأسه ناراً.

ويعجبني، من أمثلة هذا النوع في شعر المتأخرين، قول الباخري من قصيدة:

أنا في فؤادك فارم طرفك نحوه ترني فقلت لها وأين فؤادي

ومثله قول الآخر:

تعجبت من ضنى جسمي فقلت لها على هواك فقلت عندي الخبر

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

كأن مرآه بدر غير مستر وطيب رياه مسك غير مكتم

(١) تأتم: تجعله إماماً وتقتدي به - الهداة: الأئمة - العلم: الجبل.

الإيغال مع الشيخ صفي الدين في غير مستتر وغير مكتتم. والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم،

وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي، في بديعته يقول فيه عن النبي ﷺ:

أضحت أعاديه في الأقطار طائرة وأوغلت في الهوى خوفاً مع العصم^(١)

قال الشيخ عز الدين غفر الله له في شرحه: إن الإيغال الذي أفاد في بيته معنى زائداً بعد تمامه، قوله: خوفاً مع العصم. وذكر أن العصم هي الجوارح من الطيور التي تفرخ في العوالي، والله أعلم.

وبيت بديعتي أشير فيه إلى النبي ﷺ بقولي:

للجود في السير إيغال إليه وكم حبا الأنام بود غير منصرم

فمعنى بيتي انتهى إلى قولي عنه ﷺ: حبا الأنام بود. ولما قلت بعد ذلك: غير منصرم إشارة إلى ود النبي ﷺ، ظهر لي من زيادة المعنى ما أقام قواعد بيتي، وملأ الدنيا بهجة بمحاسن الصفات النبوية، والله أعلم.



(١) العصم: من الوحوش: التي في قوائمها بياض وسائر لونها أسود أو أحمر.

ذكر التهذيب والتأديب

تهذيب تأديبه قد زاده عظما في مهده وهو طفل غير منظم

نوع التهذيب والتأديب ما قرروا له شاهداً يخصه، لأنه وصف يعم كل كلام منقح محرر، وهو عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله، والشروع في تهذيبه وتنقيحه، نظماً كان أو نثراً، وتغيير ما يجب تغييره، وحذف ما ينبغي حذفه وإصلاح ما يتعين إصلاحه، وكشف ما يشكل من غريبه وإعراجه وتحرير ما يدق من معانيه، واطراح ما يتجافى عن مضاجع الرقة من غليظ ألفاظه، لتشرق شمس التهذيب في سماء بلاغته، وترشف الأسماع على الطرب رقيق سلافته، فإن الكلام إذا كان موصوفاً بالمهذب، منعوتاً بالمنقح، علت رتبته وإن كانت معانيه غير مبتكرة. وكل كلام قيل فيه: لو كان موضع هذه الكلمة غيرها، أو لو تقدم هذا المتأخر وتأخر هذا المتقدم، أو لو تمم هذا النقص بكذا، أو لو تكمل هذا الوصف بكذا، أو لو حذفت هذه اللفظة، أو لو اتضح هذا المقصد، وسهل هذا المطلب لكان الكلام أحسن، والمعنى أبين، كان ذلك الكلام غير منتظم في سلك نوع التهذيب والتأديب.

وكان زهير بن أبي سلمى معروفاً بالتنقيح والتهذيب، وله قصائد تعرف بالحوليات، قيل إنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر، ويهذبها وينقحها في أربعة أشهر، ويعرضها على علماء قبيلته في أربعة أشهر. ويروى، أنه كان يعمل القصيدة في شهر وينقحها ويهذبها في أحد عشر شهراً. ولا جرم أنه قلما يسقط منه شيء، ولهذا كان الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مع جلالته في العلم، وتقدمه في النقد، يقدمه على سائر الفحول من طبقتة، وما أحسن ما أشار أبو تمام إلى التهذيب بقوله:

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى والليل أسود رقعة الجلباب^(١)

فإنه خص تهذيب الفكر بالدجى، لكون الليل تهدأ فيه الأصوات وتسكن الحركات، فيكون الفكر فيه مجتمعاً ومرآة التهذيب فيه صقيلة، لخلو الخاطر وصفاء القريحة، لا سيما وسط الليل والنفس قد أخذت حظها من الراحة، بعد نيل قسطها من النوم، وخف عليها ثقل الغذاء، وصح ذهنها وصار صدرها منشرحاً، وقلبها بالتأليف منسبطاً، وما قدموا وسط الليل في التأليف على السحر، مع ما فيه من رقة الهواء وخفة الغذاء وأخذ النفس سهمها من الراحة، إلا لما يكون فيه من انتباه أكثر الحيوان الناطق وارتفاع معظم الأصوات، وجرس الحركات، وتقشع الظلماء بطلائع الأضواء، وبدون ذلك ينقسم الفكر، ويشغل القلب، ووسط الليل خال مما ذكرناه. ولهذا خص أبو تمام تهذيب الفكر بالدجى عادلاً عن الطرفين، لما فيهما من الشواغل المذكورة.

وحكت الثقات عن أبي عبادة البحرى الشاعر قال: كنت في حدائتي أروم الشعر، وكنت أرجع فيه إلى طبع سليم، ولم أكن وقفت له على تسهيل مأخذ ووجوه اقتضاب، حتى قصدت أبا تمام وانقطعت إليه واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة تخير الأوقات، وأنت قليل الهموم صفر من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات، إذا قصد الإنسان تأليف شيء أو حفظه أن يختار وقت السحر، وذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم، وخف عنها ثقل الغذاء، وصفا من أكثر الأبخرة والأدخنة جسم الهواء، وسكنت الغماغم^(٢)، وركت النسائم، وتغنت الحمائم.

وإذا شرعت في التأليف تغن بالشعر، فإن الغناء مضماره الذي يجري فيه، واجتهد في إيضاح معانيه، فإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رشيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، والتعلل باستنشاق النسائم، وغناء الحمائم، والبروق اللامعة، والنجوم الطالعة، والتبرم من العذال، والوقوف على الأطلال.

وإذا أخذت في مدح سيد فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأرهب من عزائمه ورغب في مكارمه. واحذر المجهول من المعاني، وإياك أن تشين شعرك بالعبارات الردية والألفاظ الوحشية، وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام، وكن كأنك خياط تقدر الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل إلا وأنت فارغ

(١) الجلباب: الثوب الواسع الفضفاض.

(٢) الغماغم: الأصوات.

القلب، ولا تنظم إلا بشهوة فإن الشهوة نعم المعين على حسن النظم، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من أشعار الماضين، فما استحسن العلماء فاقصده، وما استقبحوه فاجتنبه. انتهت وصية أبي تمام.

وأورد العلامة زكي الدين بن أبي الأصبع، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» وصية لنفسه أوردها أيضاً على نوع التهذيب والتأديب، فاخترت منها ما هو اللائق بالحال، وأولها: ينبغي لك أيها الراغب في العمل، السائل عن أوضح السبل، أن تحصل المعنى قبل الشروع في النظم، والقوافي قبل الأبيات. قلت: وهذا مذهبنا. ثم قال ابن أبي الأصبع: ولا تكره خاطر على وزن مخصوص وروي مقصود، وتوخ الكلام الجزل دون الرذل، والسهل دون الصعب، والعذب دون المستكره، والمستحسن دون المستهجن. ولا تعمل نظماً ولا نثراً عند الملل، فإن الكثير معه قليل، والنفيس معه خسيس، والخواطر ينبع، إذا رُفق بها جمت^(١)، وإذا كثر استعمالها نزحت^(٢). واكتب كل معنى يسبح، وقيد كل فائدة تعرض، فإن نتائج الأفكار كلمعة البرق ولمحة الطرف، إن لم تقيدها شردت وندت^(٣)، وإن لم تستعطف بالتكرار عليها صدت. والترنم بالشعر مما يعين عليه، فقد قال الشاعر:

تغن بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لقول الشعر مضمار^(٤)

وقد يكل خاطر الشاعر ويعصى عليه الشعر زماناً، كما روي عن الفرزدق أنه قال: لقد يمر عليّ زمان وقلع ضررس من أضراسي أهون عليّ من أن أقول بيتاً واحداً. وإذا كان كذلك، فاتركه حتى يأتيك عفواً، وينقاد إليك طوعاً، وإياك وتعقيد المعاني وتقصير الألفاظ، وتوخ حسن النسق عند التهذيب، ليكون كلامك بعضه آخذ بأعناق بعض، وكرر التنقيح، وعاود التهذيب، ولا يخرج عنك ما نظمته إلا بعد تدقيق النقد وإمعان النظر. انتهى.

قلت وهذا لعمرى هو المراد من النوع الذي نحن في شرحه، أعني نوع التهذيب والتأديب، لا كقول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

(١) جمّت. الينايع: كثر ماؤها.

(٢) نزحت الينايع: قل ماؤها أو جفت.

(٣) نذت: الفكرة، نفرت وغابت.

(٤) المضمار: في الأصل مكان تضمّر فيه الخيل. وللشعر: مجال.

فإن الممدوح إبراهيم بن هشام المخزومي، خال هشام بن عبد الملك وأما التقديم والتأخير ففي قوله وما مثله، البيت، فإن تقديره: وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه. وسلوك طريق التعقيد في قوله أبو أمه أبوه، وكان يجزيه قوله جده. وهذا لعمري هو التعقيد الذي بينه وبين التهذيب والتأديب الذي قررناه، بعد المشرقين. وقد تقدم قولي: إن البديعيين أجمعوا على أن هذا النوع ليس له شاهد يخصه، لأنه وصف يعم كل كلام منقح فاختصرت الشواهد، ليظهر للمتأمل من أحرز قصبات السبق من نظام البديعيات في هذا النوع، أعني التهذيب والتأديب.

ولكن رأيت العلامة زكي الدين بن أبي الأصعب قد استحسّن من الشواهد الثلاثة بهذا النوع قول القاضي السعيد بن سنا الملك:

تغنى عليها حلها طرباً بها وفاحت فقلنا هذه الروضة الغنا

قال: وقوله صحيح، لو لم تقدم في صدر البيت لفظة مشتقة من الغناء، حصل بها في البيت من الروتق ما لا يحسن بدونها، وكان البيت خالياً من التهذيب، فإن بوجودها حصل في بيته تصدير وتجنيس وائتلاف وتهذيب، وانتفى عنه من العيوب عدم الائتلاف وقلق القافية، وبذلك تقدم التهذيب فإنه لو قال:

زهت بأزاهير الجمال وحسناها وفاحت فقلنا هذه الروضة الغنا

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على هذا النوع، يقول فيه عن النبي ﷺ:

هو النبي الذي آياته ظهرت من قبل مظهره للناس في القدم

قد تكرر قولي أنني لم أكثر من شواهد هذا النوع، إلا ليظهر فيه من أحرز قصبات السبق من نظام البديعيات.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته يقول فيه عن النبي ﷺ:

والله هذبه طفلاً وأدبه فلم يحل هديه الزاكي ولم يرم^(١)

وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ:

تهذيب تأديبه قد زاده عظما في مهده وهو طفل غير منظم

(١) لم يحل: لم يتغير.

هذا البيت يشتمل، ببركة من أدبه ربه فأحسن تأديبه، وهو الممدوح ﷺ، على عشرة أنواع من البديع: أولها النوع الذي هو شاهد عليه وهو التهذيب والتأديب، والانسجام والسهولة، والتورية بتسمية النوع، والتميم، والتكميل، والتمكين، والإيغال، والائتلاف، والمبالغة. ولولا الخوف من الإطالة لذكرت كل نوع في موضعه، ولكن في نظر أصحاب الذوق السليم من علماء هذا الفن ما يغني عن ذلك. والله أعلم.



ذكر ما لا يستحيل بالانعكاس

بحر وذو أدب بدا وذو رجب لم يستحل بانعكاس ثابت القدم
هذا النوع سماه قوم المقلوب والمستوي، وسماه السكاكي مقلوب الكل، وعرفه
الحريري في مقاماته بما لا يستحيل بالانعكاس، وهو أن يكون عكس البيت، أو عكس
شطره، كطرده.

وهذا النوع، أعني ما لا يستحيل بالانعكاس، غايته أن يكون رقيق الألفاظ سهل
التركيب منسجماً، في حالتي الثر والنظم. وجاء منه في الكتاب العزيز: ﴿كل في
فلك﴾^(١) و﴿وربك فكبير﴾^(٢) ومن الكلام الذي رق لفظه: «أرض خضراء». وأورد
الحريري في مقاماته: «سأكب كاس» وزاد في العدة: «كبر رجاء أجر ربك» وزاد في
العدة أيضاً فقال: «لذ بكل مؤمل إذا لم وملك بذل». قلت هذا الكلام الذي زاد
الحريري في عدة كلماته صحيح التركيب، في طرده وعكسه، ولكن لم يخف على
الحذاق وأصحاب السجيا الرقيقة أن التكلف طوق جيده بطوق العقادة.

وذكروا أن العلامة القاضي فتح الدين بن الشهيد، صاحب ديوان الإنشاء الشريف
بالشام المحروس، تغمده الله برحمته ورضوانه، وصل في تركيب هذا النوع إلى أكثر من
هذه العدة، ولكن ما وقفت له على شيء من ذلك، وإنما مولانا، المقر الأشرف القاضي
الناصر محمد بن البارزي الجهني الشافعي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك
المحروسة الإسلامية. عظم الله تعالى شأنه، أخبر المملوك أنه وقف على ما نثره القاضي

(١) الأنبياء، ٣٣/٢١.

(٢) المدثر، ٣/٧٤.

فتح الدين المشار إليه في هذا النوع، قبل تيمورلنك، وذكر أنه في غاية العقادة، وقد تقدم القول وتقرر: أن المراد من تركيب هذا النوع نثراً كان أو نظماً غير كثرة العدد، والمبرز فيه هو الذي يأتي به رقيق الألفاظ سهل التركيب، رافلاً في حلال الانسجام. ومن استوعب هذه الشروط في كلام منشور، مولانا قاضي القضاة شرف الدين شيخ الإسلام ابن البارزي الجهني الشافعي نور الله ضريحه بقوله: «سور حماه برهبها محروس» ومن الغايات أيضاً، في هذا النوع، قول العماد الكاتب، وقد مرّ عليه القاضي الفاضل ركباً: «سر فلا كبابك الفرس». فأجابه الفاضل على الفور، وقد علم القصد: «دام علا العماد». وقال الحريري في المقامات:

إن أحببت أن تنظم فقل للذي تعظم
أس أرملًا إذا عرا وارع إذا المرء أساً^(١)

قلت: وهذا النظم أيضاً، لا يخفى أنه يتجافى عن الرقة بغليظ لفظه. ومن الشواهد المقبولة على هذا النوع في النظم، قول الشاعر:

عج تنم قربك دعد آمناً إنما دعد كبرق متجعج^(٢)

ومنها:

أراهن نأدمنه ليل لهو وهل ليلهن مدان نهارا

والذي وقع عليه الإجماع، أن أبلغ الشواهد على هذا النوع، الذي استوعب ناظمه فيه الشروط التي تقدم ذكرها، قول القاضي الأرجاني:

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

ومثال شطر البيت الذي نسجت أبيات البديعيات على منواله: «أرانا الإله هلالاً أنارا».

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على هذا النوع:

هل من ينم بحب من ينم له بما رموه كمن لم يدر كيف رمى

قلت الشيخ صفي الدين الحلبي، غفر الله له، غير مشكور في نظم هذا البيت فإن الطرد والعكس لم يأت به إلا في الشطر الأول، وهو غير ملتزم تسمية النوع، فإن تسمية

(١) أس: من المواساة وهي التعزية: الأرملة: الذي ماتت زوجته - عرا: ألم. أسا: أساء. والله أعلم.

(٢) عج: عاج بالمكان مرّ به ومال إليه - المتجعج: المقصود لفائدته.

هذا النوع بما لا يستحيل بالانعكاس، تستوعب جزءاً كبيراً من البيت، ومع عدم التزامه بشيء من ذلك، جاء بيته في غاية العقادة، ولظلمة عقادته لم يلح لي فيه لمعة اهتدى بها إلى فهم معناه. وأعجب من ذلك أن البيت مبني على مديح النبي ﷺ، والبيت الذي قبله:

من مثله وذراع الشاة كلمه عن سمه بلسان صادق الرنم
والبيت الذي بعده:

هو النبي الذي آياته ظهرت من قبل مظهره للناس في القدم
فبيت ما لا يستحيل بالانعكاس بينهما أجنبي، ونسبه بعيد من شرف هذين البيتين
المتسبين إلى النبي ﷺ.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في
بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ.

لم يستحل بانعكاس في سجيته مدنٍ أخا طعم معط أخا ندم^(١)
قلت الشيخ عز الدين رحمه الله تعالى، يعذر هنا إذا احتجبت عنه مسالك الرقة،
لالتزامه بتسمية النوع الذي استوعب جزءاً كبيراً من بيته.

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

بحر وذو أدب بدا وذو رجب لم يستحل بانعكاس ثابت إقدام
وقد حبست عنان القلم هنا، عن الإطناب في انسجام هذا البيت ورقة ألفاظه
وتمكين قافيته، علماً أن في إنصاف أصحاب الذوق السليم من أهل الأدب ما يغني عن
ذلك، والله أعلم.



(١) مدنٍ: من أدنى، مقرب.

ذكر التورية

أوصافه الغر قد حلت بتورية جيدي وعقد لساني بعد ذا وفمي

التورية، يقال لها: الإيهام والتوجيه والتخيير. والتورية أولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى، لأنها مصدر وريت الخبر تورية إذا سترته وأظهرت غيره، كأن المتكلم يجعله وراءه بحيث لا يظهر. وهي في الاصطلاح، أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان، أو حقيقة ومجازاً، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد ويوري عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامع أول وهلة؛ أنه يريد القريب وليس كذلك، ولأجل هذا سمي هذا النوع إيهاماً، ومثل ذلك قول أبي العلاء المعري:

وحرف كنون تحت راء ولم يكن بدالٍ يؤم الرسم غيرَه النقط

فمن سمع هذا البيت توهم أنه يريد براء ودال حرفي الهجاء، لأنه صدر بيته بذكر الحروف وأتبع ذلك بالرسم والنقط، وهذا هنا هو المعنى القريب المتبادر أولاً إلى ذهن السامع، والمراد غيره وهو المعنى البعيد المورى عنه بالقريب، لأن مراده بالحرف الناقه، وبحرف النون تشبيه الناقه به في تقويسها وضمورها، وبراء اسم الفاعل من رأى إذا ضرب الرثة، وبدال اسم الفاعل من دلا يدلوا إذا رفق في السير، وبالرسم أثر الدار، وبالنقط المطر. ومعنى هذا البيت أن هذه الناقه لضعفها وانحنائها مثل نون تحت رجل يضرب رثتها ولم يرفق بها في السير فهو غير دالٍ، وقد تقدم أن الدالي هو الرفيق ويؤم بها داراً غير المطر رسمها. واجتماع هذه الأوصاف دليل على ضعف الناقه لأنها لو كانت قوية لما احتاجت إلى ضرب رثتها، وإلى الرفق بها مع شدة شوقه إلى ديار أحبابه، وذلك باعث على شدة السير.

قال حذاق الأدب تراكيب التورية، في هذا البيت بالنسبة إلى ديباجة المتأخرين وطلاوة ألفاظهم، وزخارف بيوتهم تستحق قول القائل:

وما مثله إلا كفسارغ حمص خلي من المعنى ولكن يفرقع

لأن هذا النوع، أعني التورية، ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب، ولعمري إنهم بذلوا الطاقة في حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب، فإن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة، وسحرها ينفث في القلوب، ويفتح بها أبواب عطف ومحبة، وما أبرز شمسها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول، ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول، ومما يؤيد قولي هذا، قول الشيخ صلاح الدين الصفدي، رحمه الله تعالى في ديباجة كتابه المسمى «بفض الختام عن التورية والاستخدام». ومن البديع ما هو نادر الوقوع، ملحق بالمستحيل الممنوع، وهو نوع التورية والاستخدام، فإنه نوع تفق الأفهام حسرى دون غايته عن مرامي المرام.

نوع يشق على الغبي وجوده من أي باب جاء يغدو مقفلا

لا يفرع هضبته فارغ^(١)، ولا يقرع بابه قارع، إلا من تنحو البلاغة نحوه في الخطاب، وتجري ريحها بأمره رخاء حيث أصاب.

وقال الزمخشري، وهو حجة في هذا العلم: ولا نرى باباً في البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب، ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله، وكلام نبيه ﷺ، وكلام صحابته رضي الله عنهم أجمعين، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾^(٢) لأن الاستواء على معنيين، أحدهما، الاستقرار في المكان، وهو المعنى القريب المورى به، الذي هو غير مقصود، لأن الحق تعالى وتقدس منزّه عن ذلك، والثاني الاستيلاء والملك وهو المعنى البعيد المقصود الذي وُرى عنه بالقرب المذكور. انتهى. ومنه قول النبي ﷺ، حين سئل في مجيئه عند خروجه إلى بدر فقيل لهم: ممن أنتم؟ فلم يرد أن يعلم السائل فقال: من ماء. أراد أنا مخلوقون من ماء، فوري عنه بقبيلة يقال لها ماء. ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: لا يزال المنام طائراً حتى يقص فإذا قص وقع. ففي الكلام توريتان: لفظه طائر، ولفظة يقص، ويحتمل أيضاً أن يكون في لفظه وقع تورية ثالثة. ومنه قول أبي بكر رضي الله عنه، في الهجرة، وقد

(١) فرع: الهضبة علاها.

(٢) طه، ٥/٢٠.

سئل عن النبي ﷺ، من هذا؟ فقال: هادٍ يهديني. أراد أبو بكر رضي الله عنه هادياً يهديني إلى الإسلام، فوری عنه بهادي الطريق، وهو الدليل في السفر.

وكانت خواطر المتقدمين عن نظم التورية بمعزل، وأفكارهم مع صحتها ما خيمت عليها بمنزل، لكنها ربما وقعت لهم عفواً من غير قصد، لأنهم على كل حال ولادة هذا الشأن، وأدلة هذا الركب. وقيل إن أول من كشف غطاءها، وجلا ظلمة إشكالها، أبو الطيب المتنبي بقوله:

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على العلات مصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسي وأنت يماني

يريد أن كف شبيب وسيفه متنافران فلا يجتمعان، لأن شبيباً كان قيسياً والسيف يقال له يماني، فوری به عن الرجل المنسوب إلى يمن، ومعلوم ما بين قيس ويمن من التنافر. قلت: وكان من قال: إن أبا الطيب أول من كشف غطاء التورية، ما لمح قول عمرو بن كلثوم في معلقته عن الخمرة:

مشعشة كان الحصص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا^(١)

الشاهد هنا في سخينا، فإن العرب كانوا يسخنون الماء في الشتاء لشدة برده، ثم يمزجونها به فسخينا على هذا التقدير نعت لموصوف محذوف والمعنى: فأضحى شراباً سخينا، وهذا هو المعنى القريب المورى به. ويحتمل السخاء الذي هو عبارة عن الكرم، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه. ومراد الناظم ومما يؤيد قولي أنه المراد، قول الجوهري في الصحاح: قول من قال سخينا من السخونة، نصب على الحال ليس بشيء فإن المراد لما خالطها الماء ومزجت به طبنا وسخينا بأموالنا: كقول عنترة:

وإذا سكرت فلإنني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم^(٢)

والحصص هو الزعفران على أحد الأقوال، وهو الذي شبه صفرتها به، فإن قيل: سخا

(١) الحصص: الزعفران وهو ذو لون أصفر شبيه بلون بعض أنواع الخمرة، وسخينا: صيغة مبالغة من السخونة، وهي منصوبة على الحال وليس كما أورد الكاتب عن الجوهري إذ ليس ما يوجب التأويل الذي لجأ إليه الكاتب بقوله: فسخينا على هذا التقدير نعت لموصوف محذوف، والمعنى: فأضحى شراباً سخيناً. والذي نراه أن البيت يحتمل تأويلين: الأول وهو: تراها مشعشة لونها بلون الزعفران إذا مزجت بالماء سخيناً، أي مسخناً. والثاني: إذا شربناها مشعشة لونها بلون الزعفران ممزوجة بالماء صرنا كراماً.

(٢) لم يكلم: لم يتعرض لأذى والكلم هو الجرح.

مضارعه يسخو، ويسخو من ذوات الواو فلا يجوز أن يكون سخيناً فعلاً على هذا التقدير، فالإجماع عند أهل اللغة أنه يقال سخا يسخا وسخا يسخو، وهذا مذهب الجوهري في الصحاح، وعلى هذا التقدير، فاشترك التورية في سخينا صحيح ممكن من الوجهين. انتهى.

وكشف أيضاً عن قناع التورية في شعره النابغة الذبياني بقوله:

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تعلقك اللجما^(١)

أراد بالصيام ههنا القيام، وورى بقوله: تعلقك اللجما، عن الصيام.

وأورد السكاكي، في المفتاح، للعرب من هذا الباب:

حملناهم طراً على الدهم بعدما خلعنا عليهم بالطعان ملابسا^(٢)

أراد بالحمل على الدهم، تقييدهم، وأوهم بالركوب على دهم الخيل.

قلت: وقبل المتنبي أيضاً بزم طويل قال أبو نواس:

فتنت قلبي محببة وجهها بالحسن منتقب^(٣)

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه المسمى «بفض الختام عن التورية والاستخدام» امتحنت، بيت أبي نواس، جماعة ممن حاضرتهم وذاكرتهم وعاطبتهم كؤوس الأدب وعاشرتهم، فبعضهم استخرج منه النكتة، وبعضهم لم أجد له إليها لفظة.

وقال البحرني:

ووراء تسدية الشواح ملية بالحسن تملح في القلوب وتعذب^(٤)

الشاهد في قوله: تملح، فإنه يحتمل أن يكون من الملوحة التي هي ضد العذوبة، وهو المعنى القريب المورى به، ويحتمل أن يكون من الملاححة وهو المعنى البعيد المورى عنه، وقد تقدم من لوازمه على جهة التبيين قوله: ملية بالحسن.

(١) العجاج: الغبار - اللجم: جمع لجام وهي حديدة توضع في فم الحصان أو الفرس حتى تسهل السيطرة عليه.

(٢) الدهم: جمع أدهم: القيود، والمصائب، والخيول السوداء اللون - الطعان: القتال.

(٣) منتقب: لابسة نقاباً وهو الحجاب.

(٤) ملية بالحسن: كثيرة الحسن.

وأما أبو العلاء، فإنه أتى في التورية بلمعة خفية للإيماء شديدة العقادة والتكلف، وذلك في قوله:

حروف السرى جاءت لمعنى أردته برتني أسماء لهن وأفعال
إذا صدق الجدّ افترى العم للفتى مكارم لا تخفى وإن كذب الخال

الجد هنا مشترك بين أبي الأب والسعد، ومراده السعد. والعم مشترك بين أخي الأب والجماعة من الناس، ومراده الجماعة. والخال مشترك بين أخي الأم والظن، ومراده الظن. قلت زحوف^(١) هذا البيت أيضاً لا تخفى إنه مكسوف بدخان العقادة، أين هذا من قول الشيخ تقي الدين السروجي:

في الجانب الأيمن من خدها نقطة مسك اشتهي شمها
حسبته لما بدا خالها وجدته من حسنه عمها^(٢)

ومثله في اللطف والظرافة قول الشيخ عز الدين الموصلي:

لحظت من وجتها شامة فابتسمت تعجب من حالي
قالت قفوا واستمعوا ما جرى قد هام عمي الشيخ من خالي^(٣)

قلت: ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق التورية وأطلعوا شمسها، ومازجوا بها أهل الذوق السليم لما أداروا كؤوسها، وقيل إن الفاضل هو الذي عصر سلافة التورية لأهل عصره، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها في نظمه ونثره، فإنه رحمه الله تعالى كشف بعد طول التحجب ستر حجابها، وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها. وممن شرب من سلافة عصره، وأخذ عنه وانتظم في سلكه بفرائد دره، القاضي السعيد ابن سنا الملك، ولم يزل هو ومن عاصره مجتمعين على دور كأسها، و متمسكين بطيب أنفاسها، إلى أن جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها، والواسطة في عقد جمانها، كالسراج الوراق وأبي الحسين الجزار، والنصير الحمامي وناصر الدين حسن بن النقيب، والحكيم شمس الدين بن دانيال، والقاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر.

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه المسمى «بفض الختام عن التورية

(١) زحوف: زحافات مصطلح عروضي يفيد تغييراً يلحق ثاني السبب في التفعيلة العروضية.

(٢) الخال: نقطة سوداء تكون في الجلد(الشامة) - عمها: أي ملاً جسمها كله.

(٣) عمي: يقال لكل رجل كبير في السن. وخالي: شامتي.

والاستخدام». وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم، وتآزر نصرهم، ولأن في هذا النوع هصرهم^(١) وبعد حصرهم، كل ناظم تود الشعرى^(٢)، لو كانت له شعراً، ويتمنى الصبح لو كان له طرساً والغسق مداً والنثرة^(٣) نثراً، ما حلا من بنات فكره خودا^(٤) إلا شاب لحسنها الوليد، وسيزها في الأفاق وبين يديها من النجوم جوار^(٥) ومن الشعراء عبيد، كالشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة، والأمير مجير الدين ابن تميم، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي، ومحيي الدين بن قرناص الحموي، وشمس الدين محمد بن العفيف، وسيف الدين بن المشد. وقال الشيخ صلاح الدين في أواخر ديباجة كتابه المذكور. ومع هؤلاء جماعة يحضرنى ذكرهم عند شعرهم، ويعز علي إذ لم أهرم على تكاثرهم لفوات عصرهم. وتلطف بقوله بعد ذلك: ولا تقل أيها الواقف على هذا التأليف، لقد أفرطت في التعصب لأهل مصر والشام، على من دونهم من الأنام، وهذا باطل ودعوى عدوان، وحمية لأوطانك ومن جاورها من البلدان. فالجواب أن الكلام في التورية لا غير، ومن هنا تنقطع المادة في السير، ومن ادعى أنه يأتي بدليل وبرهان. فالمقياس بيننا والشقراء^(٦) والميدان. انتهى كلام الشيخ صلاح الدين الصفدي.

قلت: قد تقدم وتقرر أن التورية عند علماء هذا الفن بمنزلة الإنسان^(٧) من العين، وسموها في البلاغة سمو الذهب على العين^(٨)، وقد ثبت أن خواطر المتقدمين كانت بها شحيحة، وأفكارهم لا تقصد مظانها^(٩) وإن كانت سليمة صحيحة، لكنها ربما وقعت لهم عفواً من غير مرام^(١٠)، فنقول إنها رمية من غير رام. وقد علم أن المتأخرين من الفاضل إلى من فضل بعدهم نور مشكاتها^(١١)، والمتفككين في أدواح الأدب بشمراتها، فإذا جليت عرائس أفكارهم على اختلاف أنواع التورية لا يمل المتأمل، اللهم إلا أن يكون سيف

(١) هصرهم: غمزهم.

(٢) الشعرى: كوكب نير يطلع في الجوزاء في شدة الحر.

(٣) النثرة: مجموعة من النجوم في صورة السرطان تشكل المنزلة الثامنة من منازل القمر.

(٤) الخود: الفتاة الحسنة.

(٥) جوار: جمع جارية: وهي الخادمة.

(٦) الشقراء: الفرس.

(٧) الإنسان: إنسان العين، يؤبؤها.

(٨) العين: ما ضرب نقداً من الدنانير.

(٩) مظانها: أماكنها التي يصعب الوصول إليها.

(١٠) مرام: مطلب.

(١١) المشكاة: مكان وضع المصباح أو القنديل.

ذهنه كليلاً^(١) فيقول إنه من هذا الفن متصل^(٢)، فإن هذه العرائس لم تبرز لمتأمل إلا من خدور هذا الكتاب، وإذا طلبها من غيره توارت عنه بالحجاب، فإذا سرح المتأمل طرفه وأمسى في كل واد من محاسنها يهيم، وتنوعت حلاوات أنواعها لذوقه السليم، جردت سيف العزم وأقمت لكل نوع حداً، ونظمت له من أنواع التورية وأقسامها في سلك هذا النوع عقداً، فإن الشيخ صفي الدين الحلبي لم يذكر في شرح بديعته نوعاً من أنواع التورية، ولا قسماً من أقسامها، بل ذكر حد التورية الذي أجمع الناس عليه وقال: هي أن يأتي المتكلم بلفظة مشتركة بين معنيين قريب وبعيد، فيذكر لفظاً يوهم القريب إلى أن يجيء بقرينة يظهر منها أن مراده البعيد.

قلت: ومن أين يعرف الطالب من هذا الحد التورية المجردة، والتورية المرشحة وقسميها، والمبنية وقسميها، والمهياة وأقسامها.

وكذلك العلامة زكي الدين ابن أبي الأصعب، لم يذكر في كتابه المسمى «بتحرير التحبير»، نوعاً من أنواعها ولا قسماً من أقسامها، مع أن كتابه ما وضع في هذا الفن له نظير، بل قال: التورية، وتسمى التوجيه، وهي أن يكون الكلام يحتمل معنيين، فيستعمل المتكلم أحد احتماليه ويهمل الآخر، ومراده ما أهمله لا ما استعمله.

وأما صاحب التلخيص فإنه قال، مشيراً إلى البديع: ومنه التورية، وتسمى الإيهام أيضاً، وهي أن يطلق لفظ له معنيان، قريب وبعيد، وهي ضربان: مجردة ومرشحة. ولم يزد على هذا القدر شيئاً.

وإذا أردت ما وعدت بإيراده من طلاوة المتأخرين في التورية، شرعت في الكلام على أنواعها وأقسامها، ليسير ركب الأدب في طرقها المتشعبة بدليل، ويصير لديباجة هذا النوع تفصيل، وقد قدمت ذكر الفاضل ومن فضل بعده، في باب الاستخدام، ولكن لم يمكن اختصارهم في باب التورية، فإنهم فرسان حلباتها، وأجل من سكن غريب نظمه بأبياتها، وكل ما أوردته لهم ولغيرهم من التورية في غير باب، تعين نظم شمله هنا، ليجمع كل غريب بأقاربه وأنسابه. فمن مخترعات القاضي الفاضل في التورية قوله من مديح قصيدة طائية، وهي نكتة لم تختل في صدر غيره، وهو:

أما الثريا فنعل تحت أخمصه وكل قافية قالت لذلك طا^(٣)

(١) كليلاً: غير قاطع.

(٢) متصل: تخلص، نفى إسهامه.

(٣) طا: أي طا. أمر من وطأ.

ومثله قوله:

والخال حبه وقلبي الطائر

في خده فح لعطفة صدغه

ومثله قوله:

فصرت وصرنا وهو غير مساعد
ونفسي تأبى شركها في الموارد

وكنت وكنا والزمان مساعد
وزاحمني في ورد ريقك شارب

ومن هنا أخذ الشيخ عز الدين الموصلي، وقال:

وكنا وكانت للزمان مواهب
وزاحمني في ورد ثغرك شارب

لقد كنت لي وحدي ووجهك حضرتي
فعارضني في ورد خدك عارض

ومن نظم الفاضل أيضاً، في بواب يلقب بالبحري:

فها أنا قد وليته دونكم ظهري^(١)
فكل خرافي الشطفي لحيّة البحر (ي)^(٢)

وهب أن هذا الباب للرزق قبلة
وهب أنه البحر الذي يخرج الغنى

ومثله قوله:

والقلب صخر لا يلين لقاصد^(٣)
وضربت من ذا في حديد بارد

عاتبته فتضرجت وجناته
فنظرت من ذا في حرير ناعم

ومن اختراعاته التي لم تجل في فكر غيره، قوله من مديح قصيدة عادلية:

فآثار الشفاه عليه شامه
أروني غير أقلامي نظامه
بها غصن وقافيتي حمامه

وهذا الترب أم خد لثمننا
وهذا الدر منشور ولكن
وهذي روضة تندى وسطري

ومنه قوله أيضاً:

لم أشف من ماء الفرات غليلا
إن كان طرفي بالبكاء بخيلا

بالله قل للليل عني إنني
وسل الفؤاد فإنه لي شاهد

(١) قبلة: مقصداً، وجهة والقبلة: الجهة التي يتوجه إليها المسلمون أثناء صلاتهم وتكون فيها الكعبة الشريفة.

(٢) الخرا: روث الإنسان - وإضافة الياء إلى البحر تجعله إسماً للبواب المقصود.

(٣) تضرج: أشرب حمرة. أو تلون بلون الدم.

يا قلب كم خلفت ثم بشينة
ومنه قوله وأجاد إلى الغاية:

وقائل وثب الأعداء قلت له
فإن ثوب الذي عاداكم كفن
بلغتموهم مناهم في ترفعهم
هل السيوف عيون في الجفون لكم
كما الفراش على نيرانه يثب
كما بيوت الذي عاصاكم ترب^(١)
والقوم ما ارتفعوا إلا وقد صلبوا
فإنها لقراب البغي ترتقب^(٢)

ومن نثره، في هذا الباب، قوله في يوم شديد المطر والبرد: والخادم في رأس جبل يتلقى الرحمة غضة قبل أن يتذللها الناس، ويصافح الرياح عاصفة قبل أن تقتسمها الأنفاس، ويتلقى الرعد بالرعدة^(٤)، وإذا السماء انشقت استصحها المملوك بالسجدة^(٥).

وقد تقدم القول إن ممن أخذ عنه ونهل من موارده العذبة، القاضي السعيد ابن سناء الملك فمن نظمه في هذا الباب قوله:

أما والله لولا خوف سخطك
ملك الخافقين فتهت عجباً
لهان عليّ ما ألقى برهطك^(٦)
وليس هما سوى قلبي وقرطك^(٧)
ومنه قوله أيضاً:

وفي الحي من صيرتها نصب خاطري
تته بفرع منه أصل بليتي
فما أذنت في نازل الشوق بالرفع
ولم أر أصلاً قط يسعى إلى فرع
ومنه قوله:

ليس إلا دمعي الذي من رأى جفــــــــــــــني رآه كأن دمعي هدبي
أنجم الدمع لا تغيب شروقاً مع أني رأيتها في الغرب

(١) بشينة: حبيبة جميل بن معمر الشاعر العذري، ويقصد بها مجرد الحبيبة - جميلاً: جميل بن معمر - والصبر الجميل.

(٢) تُرب: خربة، فاسدة.

(٣) عيون: حراس - الجفون: جمع جفن وهو غمد السيف - قراب: غمد - البغي: الظلم.

(٤) الرعدة: الإرتجاف.

(٥) استصحها: طلب صحوها - بالسجدة: أي بسورة السجدة من القرآن الكريم.

(٦) رهط الرجل: قومه وعشيرته.

(٧) تاه: افتخر - القرط: ما تتحلى به المرأة في أذنيها.

ومنه قوله :

فلحظك نصبي وهو إن صحفوا يصبي^(١)
فكسرة ذاك الجفن من ذلك الضرب

صفاتك في كل الوجوه صحيحة
حرس الحشا من ناظريك بصارم

ومما سبق إليه الناس، في هذا الباب، قوله :

وفي الخد دينار وفي الجفن كسره

وفي القلب تصديع وفي الوصل جبره

وأخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة فقال :

للحسن دينار وكسر

في خده وجفونه

وتلاعب الناس، بعد ابن سنا الملك، بهذا المعنى كثيراً حتى وصل إلى المعمار فقال :

قلت ألفاً وكسورا

كم حوى جفني معنى

ولم يزل ابن سنا الملك يتلاعب في التورية باختراعاته، ويسكنها في عامر أبياته، إلى أن ظهر بعده السراج فجلا غياها بنور مشكاته، وتعاصر هو وأبو الحسين الجزار والنصير الحمامي، وتطارحوا كثيراً وساعدتهم صنائعهم وألقابهم في نظم التورية، حتى إنه قيل للسراج الوراق لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك، فمن ذلك قوله :

طرفي عنكم فصرت محبوساً^(٢)
كنت سراجاً فصرت فانوساً

شعريتي مذ رمدت قد حبست
الحمد لله زادني شرفاً

وقال من أبيات، فيمن تلقب بالضياء، وأجاد :

وعش فبقاء مولانا بقائي
وما يغني السراج بلا ضياء^(٣)

أمولانا ضياء الدين دُم لي
فلولا أنت ما أغنيت شيئاً

ومثله قوله فيه :

تساوى الصبح فيه والمساء^(٤)
ولا هو مثل ما يدعى ضياء

وما أنا سائر في ليل خطب
فلا أنا مثل ما ادعى سراج

(١) نصبي : متعبي، من النصب - أو غايتي إذا كان بمعنى نصب عيني - التصحيف : هو تغيير الكلمة عن طريق زيادة نقط حروفها أو نقصها - يصبي : يعيد الصبا.
(٢) رمدت : هاجت وورمت، أو ذاعت واشتهرت.
(٣) المثل السائر أو السراج : لقب الشاعر - الضياء : لقب الممدوح.
(٤) الخطب : المصيبة إذا ألت.

ومنه قوله :

وكنت حبيباً إلى الغانيات
وكنت سراجاً بليل الشباب

وكتب إلى بعض الرؤساء :

وكتبتك راج لي أملي وقصدي
ولولا أنت لم ترفع مناري
وفي يدك النجاح لكل راج
ولا عرف الوري قدر السراج^(١)

ومنه قوله، يتقاضى من بعض الرؤساء شمعاً :

ما علينا ضوء وقد أبطأ السمـع فقوض به خيام الدياتي
وتدارك بيتاً عليه ظلام لم يكذ ينجلي بنور السراج

وقال، وقد اجتمع شمس الدين بيلبك وبدر الدين آق سنقر:

لما رأيت الشمس والبدر معاً
حقرت نفسي ومضيت هارباً
قد انجلت دونهما الدياتي
وقلت ما ذا موضع السراج

وظريف قوله في هذا الباب :

بُنِي اقتدى بالكتاب العزيز
فما قال لي أف مذ كان لي
وراح لبري سعيماً ولاجا^(٢)
لكوني أباً ولكوني سراجا

ومنه قوله :

أقول في يوم شتاء له
خرجت من بيتي سراجاً وقد
من سحبه ما خلف النيلا
عدت بحمد الله قنديلا

وكتب إلى أبي حسين الجزار في عيد الأضحى :

أجبت بعيد النحر من كان سائلي
إذا بطل الجزار والعيد عيده
عن الحال في عيدي وقد مرَّ ذكره^(٤)
فلا تسأل الوراق فالعذر عذره

(١) الشيب: الشبية: الشبان والشابات.

(٢) الوري: الناس - السراج: أداة الضوء، ولقب الشاعر.

(٣) الكتاب العزيز: القرآن الكريم - ولاج: داخل، من ولَج: دخل.

(٤) عيد النحر: من أسماء عيد الأضحى، سمي به لأن الحجاج ينحرون الأضاحي فيه قربة إلى الله تعالى.

ومنه قوله :

فشكراً لنعمائك التي ليس تكفر
ونوراً لذا قالوا السراج المعمر^(١)
وما ساءني أن السراج منور

إلهي لقد جاوزت سبعين حجة
وعمرت في الإسلام فازددت بهجة
وعمم نور الشيب رأسي فسرنني
ومن أظرف ما وقع له في هذا الباب قوله :

قلد في نظمه النحورا
فاقطع لساني إزدك نورا

كم قطع الجود من لسان
فها أنا شاعر سراج

ومثله قوله :

لم أهج خلقاً ولا هجاني
إن لم يكن دافئ اللسان^(٢)

أثنى عليّ الأنام أني
فقلت لا خير في سراج

ومثله قوله :

بلا راحة في مدحهم أتعبوا ذهني
سراجاً غدا رطب اللسان بلا دهن

إذا بحث بالشكوى عنيت معاشرأ
يريدونني رطب اللسان ومن رأى

وكتب إليه الأمير نصير الدين الحمامي ، وهو مقيم بالروضة :

أبل شوقي وأحيي ميت أشعاري
وأنت في روضة والقلب في نار

كم قد ترددت للباب الكريم لكي
وأثني خائباً مما أومله

فكتب إليه السراج :

أنفاسها بين أزهار وأثمار
وكل بيت أراه بيت خمار
أولى بأن قال إن القلب في نار

الآن نزهتني في روضة عبقت
أسكرتني بشذاها فأنشيت بها
فلا تغالط فمن فينا السراج ومن

وقال النصير يوماً للسراج الوراق : قد عملت قصيدة في الصاحب تاج الدين ،
وأشتهي أن تثنى عليها بحضرته ، وسيرها إلى الصاحب . فلما أنشدت بحضرة السراج ،
قال السراج بعدما فرغ منها :

(١) السراج المعمر : المضاء . - والسراج : لقب الشاعر - المعمر : الذي عاش كثيراً وكبر في السن .

(٢) دافئ اللسان : لا يتكلم بالفاحش من القول .

شاقني للنصير شعر بديع ولمثلي في الشعر نقد بصير
ثم لما سمعت باسمك فيه قلت نعم المولى ونعم النصير
ومنه قوله:

طوت الزيارة إذ رأت عصر الشباب طوى الزياره
ثم انثنت لما انثنى بعد الصلابة كالحجاره
وبقيت أهرب وهي تسأل جارة من بعد جاره
وتقول يا ستي استرحنا لا سراج ولا مناره^(١)
ومما ورى به عن صناعة الوراقه قوله:

نصب الحشا غرضاً فقرطس إذ رمى وهي القلوب سهامها الأحداق^(٢)
وسألته وصلأ فقال يحجني يا ليت شعري من هو الوراق
ومثله قوله:

يا خجلتي وصحائفي سود غدت وصحائف الأبرار في إشراق
وموبخ لي في القيامة قال لي أكذا تكون صحائف الوراق^(٣)
ومن لطائفه، في غير لقبه وصناعته، قوله:

قالوا وقد ضاعت جميع مصالحي لهموم نفس ليت لا حملتها
قد كان عندك يا فلان صريمة فأجبتهم بعث الحمار وبعثها^(٤)
ومنه قوله:

رفضوا الشعر جهدهم ورموه بينهم بالهوان والازدراء
فلو أن الكتاب كان بأيديهم محوا منه آية الشعراء^(٥)
وله في المعنى وأجاد:

يا بني الآمال قد خاب الرجاء وقد اشتدت وقد عز العزاء
سفن الآمال في بحر المنى وحلت منا فأين الرؤساء

(١) الست: السيدة.

(٢) قرطس: أصاب القرطاس، وأهْلَكَ - الأحداق: سواد العيون.

(٣) القيامة: يوم المعاد والحساب.

(٤) الصريمة: العزيمة.

(٥) الكتاب: القرآن - آية الشعراء: سورة الشعراء.

وقال في المعنى:

لقاء الموت عندهم الأديب
ولو وافى به لهم حبيب^(١)

أصون أديم وجهي عن أناس
ورب الشعر عندهم بغيض

ومن لطائفه قوله:

من انتظاري لأمال تعيننا^(٢)
محمودة قلت أخشى أن تخرينا

وقائل لي لما أن رأى قلقي
عواقب الصبر فيما قال أكثرهم

ومن لطائفه بعد تخرينا قوله:

فلم تبعث نفسه الجامده
تعاف المفتلة الباردة^(٣)

أتيت أرجيه في حاجة
وفتل في ذقنه والنفوس

ومنه قوله:

واكدح فنفس المرء كداحه
فالصفع موجود مع الراحه

دع الهوينا وانتصب واكتسب
وكن عن الراحة في عزلة

وأشده الجزار وهو يسرح ذقنه مماجنأ:

فكل أمري لبس^(٤)
وإنما ثمَّ نفس

لا تعجبت من لباسي
والله ما ثمَّ مآل

فأجابه على الفور:

وإنما ثمَّ نحس
فيها وعندك حدس

صدقت ما ثمَّ مال
وثمَّ أخرى وأخرى

ومنه قوله:

بطيب شذا ولا طيب العروس
يحق لك القيام على الرؤوس

ومغمومات روس باكرتنا
فقتت بما يلين لها فقالت

(١) حبيب: هو أبو تمام حبيب بن أوس الشاعر.

(٢) عناه: الأمر، أتعبه.

(٣) المفتلة الباردة: كناية عن البراز وهو روث الإنسان.

(٤) لبس: اشتباه واختلاط.

ومنه قوله :

لنسبة بينهما ووصله
قد مد في وجه الضيوف رجله

وأحمق أضافنا ببقله
فمن أقل أدياً من سفله

ومنه قوله :

انشدت شعراً دونه الشعري
قد عبدوا البيضاء والصفرا
قلت بلى بطيخة خضرا

وسائل يسأل مني وقد
يقول لي إذ كنت في معشر
هل حصلت دائرة بينهم

ومنه قوله :

قولي ونادى الناس كم تتعب
فاتك أين اللبن الطيب

مدحته جهدي فما اهتز من
فقلت أرجو زبدة قيل لي

ومن لطائفه أيضاً قوله :

يلطم الأكساس سخره
ومعي شيب ودره

كان أيراً صار سيراً
كيف لا ينفرن عني

ومنه قوله :

فصل في قوله وأجمل
فكان ذاك الطلوع دمل

فسر لي عابر مناما
وقال لا بد من طلوع

ومنه قوله وقد طلب شراباً فما وصل إليه :

سادوا بغير مآثر السادات
سرقوا العلا فخلت من الراحات

لا تطمعن براحة من معشر
قطعت عن المعروف أيديهم وقد

ومن نكته البديعة في مدائحه قوله :

فنحن على المدى نجني ونجني
وسيفك إن حلمت قرير جفن^(١)

رأيت قطوف عفوك دانيات
وكم بات المسيء قرير عين

(١) إذا عفوت فإن سيفك يبعي لا يتحرك، قريراً في غمده (جفن).

وكتب إلى فتح الدين بن عبد الظاهر:

يرجوه من ظفر ومن نجح
مع أين مبني على الفتح

أنا تحت وعدك واعد أملي بما
إذ قال أين الجود قلت أجيبه

ومنه قوله:

يندى وظني فيه ظن مخلف^(١)
فأجابني لكنه لا يصرف

ومبخل بالمال قلت لعله
جمع الدراهم ليس جمع سلامة

وكتبت في هذا المعنى، إلى الخوaja شهاب الدين بن لؤلؤ الذهبي، بدمشق
المحروسة، وقد مطلني في صرف دنانير أخلت بها عليه:

ولكم في السورى هبات كثيره
صرفها واجب لأجل الضروره

قد منعتم صرف الدنانير عني
وأنا شاعر وفي شرع بنظمي

وكتب السراج إلى بعض أصحابه يطلب كتاباً:

معروفة الأنساب والأسباب
تقواك تشفع سنة بكتاب^(٢)

لك في المكارم سنة مألوفة
فابعث لعبدك بالكتاب فلم تزل

ومن لطائفه في شخص اسمه عرفات:

يتعاطون له حسن الصفات
قلت عندي وقفة في عرفات^(٣)

أطنبوا في عرفات وغدوا
ثم قالوا لي هل وافقتنا

ومن أغزاله قوله:

مجرداً عن جفنه ومغمدا
فبات في عذاره مزردا^(٤)

وفاتك يجرح سيف لحظه
خاف على خديه من لحاظه

ومنه قوله، وهو في غاية الحسن:

يوماً إليّ فقلت من ألم الجوى
فأجاب كيف وأنت من جهة الهوى

ومهفهف عني يميل ولم يمل
لم لا تميل إليّ يا غصن النقا

(١) يندي: يكرم، يجود - مخلف: لا يصدق.

(٢) شفع الأمر بالأمر: أتبعه به - السنة: ما ترك النبي ﷺ من قول وفعل وأثر - الكتاب: القرآن.

(٣) وقفة: وقوف، واعتراض - عرفات: الجبل المعروف وإسم الشخص.

(٤) العذار: الشعر ما بين العين والأذن - مزرد: مقيد بالزرد الذي شبه به العذار.

ومثله قوله :

قلت للأهيف الذي فضح الغصن — كلام الوشاة ما ينبغي لك (١)
قال قول الوشاة عندي ريح قلت أخشى يا غصن أن يستميلك

ومنه قوله :

عذبت طرفي بالسهاد فليله
وألح سائل أدمعي فحرمتني
وقال في مليح قلندري :

عشقت من ريقته قرقفأً
قلندريا حلقوا حاجباً
سلطان حسن زاد في عدله
وما لها إذ ذاك من شارب (٢)
منه كنون الخط من كاتب
فاختار أن يبقى بلا حاجب

ومنه قوله :

ولنا ساقٍ جواد كفه
قال قوم فاق كعباً في الندى
وكفّت بالراح سحباً بعد سحب (٣)
قمت لا غرو لساق فوق كعب (٤)

ومنه قوله :

يا ساكناً قلبي على أنه
قلبي من خوف النوى واجب
بوجوده في قلق دائم
وأنت لم تخرج عن الواجب (٥)

نكتة الواجب أخذها الشيخ جمال الدين بن نباتة، ولكن سبكها في غير هذا
القالب، في قوله في رامي بندق :

إسعد بها يا قمري برزة
صرعت طيراً وسكنت الحشا
سعيدة الطالع والغارب (٦)
فما تعديت عن الواجب

(١) الوشاة: جمع واشي وهو المفسد بين المتحابين.

(٢) القرقف: الخمر.

(٣) وكف: صب. انهل.

(٤) الندى الكرم والعطاء - لاغرو: ليس غريباً.

(٥) وُجب: خفق، واضطرب.

(٦) البرزة: المرأة التي تجالس الرجال.

ويعجبني من تغزلات السراج الوراق قوله:

فقالوا رأينا قدها منه أرشقا
فقالوا إذن شبهت شيئاً محققاً

أقول لهم شبهت بالغصن قدها
فقلت وبالرمان شبهت نهدها

ومنه قوله:

ودمعي يسقى ثم عهداً ومعهداً
وحظي منها حين أسألها الصدا^(١)

وقفت بأطلال الأحبة سائلاً
ومن عجب أني أروي ديارهم

ومنه قوله:

في قومها كمهاة بين آساد
بيتاً من الشعر لم يمدذ بأوتاد
لكن لأفئدة منا وأكباد^(٢)
على الرؤوس وقلن الفضل للبادي

وبي من البدو كحلاء الجفون بدت
بنت عليها المعالي من ذوائبها
وأوقدت وجتها النار لا لقرى
فلو بدت لحسان الخصر. قُمن لها

قلت ديوان الشيخ سراج الدين الوراق سبعة مجلدات من القطع الكامل، ولكن الذي جنيته وفكته المتأمل به هنا هو ثمرات تلك الأوراق، وجمع الشيخ صلاح الدين الصفدي من ديوانه كتاباً لطيفاً سماه «لمع السراج» ولكن رأيت نور السراج فيه قليلاً.

ومن مقاطيف الجزار في سمين التورية، قوله مورياً في صناعته:

ل عن قومي وعن أهلي
كرام الفرع والأصل
وتخشاهم بنو عجل^(٣)

ألا قل لسذي يساً
لقد تسأل عن قوم
ترجيهم بنو كلب

ومثله قوله:

دأب وسل عنهم إن رمت تصديقي
فكل أيامهم أيام تشريق^(٤)

إني لمن معشر سفك الدماء لهم
تضيء بالدم إشراقاً عراصهم

(١) الصدا: العطش.

(٢) القرى: إطعام الضيوف.

(٣) الكلب، يرجو الجزار لما يرميه له، والعجل يخشاه لما يفعله به.

(٤) العراص: ساحات الدور- أيام التشريق: أيام ثلاثة تلي أيام الحج مباشرة وعيد الأضحى على الخصوص، تشرق فيها لحوم الأضاحي أي تقدد.

ومثله قوله:

أصبحت لحاماً وفي البيت لا
واعترضت من فقري ومن فاقتي
أعرف ما رائحة اللحم
أضله الله على علم
جهلته فقراً فكنت الذي

ومثله قوله:

أعمل في اللحم للعشاء ولا
خلا فؤادي وفي فمي وسخ
أنال منه العشا فما ذنبي
كأنني في جزراتي كلبني^(١)

وظريف قوله:

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت
وبها صارت الكلاب ترجيني وبالشعر كنت أرجو الكلاب

وقلبه أيضاً وقال:

لا تعبني بصنعة القصاب
كان فضلي على الكلاب فمذ صر
فهي أذكي من عنبر الآداب^(٢)
ت أديباً رجوت فضل الكلاب

ومثله قوله:

معشر ما جاءهم مسترفد
أنا جزار وهم من بقر
راح إلا وهو منهم معسر
ما رأوني قط إلا نفرأوا^(٣)

وقال متهكماً على المتنبي:

تعاظم قدري على ابن الحسين
وكم مرة قد تحكمت فيه
فذهني كالعارض الصيب^(٤)
لأن الخروف أبو الطيب^(٥)

(١) الجزارة: دكان الجزار، وهو هنا بيته.

(٢) القصاب: الجزار.

(٣) نفر: خاف وهرب، نفرز.

(٤) ابن الحسين: هو المتنبي واسمه: أحمد بن الحسين الجعفي - العارض: المطر في غير أوانه -

الصيب: الغزير.

(٥) أبو الطيب: كنية المتنبي.

وكتب إليه الشيخ نصير الدين الحمامي، مورياً عن صناعته:

ومذ لزمت الحمام صرت بها خلا يداري من لا يداريه
أعرف حر الأشياء وباردها وأخذ الماء من مجاريه

فأجابه أبو الحسين الجزار بقوله:

حسن التأني مما يعين على رزق الفتى والحظوظ تختلف
والعبد مذ صار في جزارته يعرف من أين تؤكل الكتف

ومن لطائفه البديعة، ما كتب به إلى بعض الرؤساء، وقد منع من الدخول إلى بيته في يوم فرح:

أمولاي ما من طباعي الخروج ولكن تعلمته من خمول
أتيت لبابك أرجو الغنى فأخرجني الضرب عند الدخول

وكتب إلى بعض الرؤساء يستهدي منه قطراً:

أيا علم الدين الذي جود كفه براحته قد أخجل الغيث والبحرا
لئن أمحلت أرض الكنافة إنني لأرجو لها من سحب راحته القطرا^(١)

هذا القطر تحلى به الشيخ جمال الدين بن نباتة بقوله:

لجود قاضي القضاة أشكو عجزي عن الحلو في صيامي
والقطر أرجو ولا عجيب للقطر يرجى من الغمام
تلاعب الناس به بعده كثيراً.

ويعجبني من تغزلات أبي الحسين الجزار قوله:

تكلف بدر السما إذ حكى محياك لو لم يشنه الكلف^(٢)
وقام بعذري فيك العذار فأجرى دموعي لما وقف

(١) الكنافة: نوع من الحلوى. القطر: هو السكر مذاباً بالماء ومغلياً مع إضافة قليل من الحامض إليه - والعطاء.

(٢) الكلف: حبوب سمراء تعتري وجه الحامل (النمش).

ومنها قوله :

له أمل في مورد ومورد^(١)
فأعرب عن تفصيل نحو المبرد^(٢)

حمت خدها والثغر عن حاتم شج
وكم هام قلبي لارتشاف رصابها

ومن لطائف مجونه في التورية قوله :

ليس لها عقل ولا ذهن
ما جسرت تبصرها الجن
وشعرها من حولها قطن^(٣)
فقلت ما في فمها سن

تزوج الشيخ أبي شيخة
لو برزت صورتها في الدجا
كأنها في فرشها رمة
وقائل قال ما سنها

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان: رأيت أبا الحسين بالقاهرة عند الشيخ قطب الدين ابن القسطلاني، فقال لي الشيخ قطب الدين: هذا هو الأديب أبو الحسين الجزار، فأنشدني لنفسه، وكتبت عنه:

كثروا عليّ وأكثروا
ج من الصداقة يعسر
س ومحوه يتعذر
لكن ذاك يؤثر^(٤)

من منصفي من معبر
صادقتهم وأرى الخرو
كالخط سهل في الطرو
وإذا أردت كشطه

ومما شرح الصدور والقلب من قول الحمامي:

تكدر فيها العيش من كل مشرب
ولا كان قلب الماء فيها بطيب

وكدرت حمامي بغيتك التي
فما كان صدر الحوض منشرحاً بها

ومنه قوله :

ينهل غيثاً كالسحب
وأكرم الجار الجنب^(٥)

لي منزل معروفه
أقبل ذا العذر به

(١) الحائم: الذي يحوم حول الشيء ولا يستطيع الوصول وهو بأمس الحاجة إليه - المورد: مكان الوُزُود

أي الشرب. ويقصد هنا الفم لما فيه من الرضاب - المورد: الخد.

(٢) الرضاب: الريق - أعرب: انكشف. عن أسنان كأنها البرد المنضود.

(٣) الرّمة: بقية الجثة بعد الموت.

(٤) كشط: أزال.

(٥) الجنب: القريب الذي بيته إلى جانب بيتك.

ومن لطائفه، ما كتب به إلى السراج الوراق، على يد مليح ولسانه:

عبدك يا مولاي وافى بها
وهو على الباب ومقصوده
وفى بها معنى لمن يعقل
وفيك فهم أنه يدخل

ومن نكته اللطيفة قوله:

أصبحت من أغنى الورى
الخمير عندي ذهب
وطائراً بالفرح
أكتاله بالقح

وقوله:

أقول للكاس إذ تبدى
أخربت بيتي وبيت غيري
بكف أحوى أغن أحور^(١)
وأصل ذا كعبك المدور

ومن لطائفه في تغزلاته قوله:

ما زال يسقيني زلال رضابه
ويظنني حياً رويت بريقه
لما خفيت ضنى وذبت توقدا
فإذا دعا قلبي يجلو به الصدى

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وتقوى عليه بالسيف، فقال:

أدعو السيوف صقيلة من لحظه
وإذا دعوت لمام جاوبني الصدى^(٢)

ومن لطائفه في مداعباته قوله:

رأيت شخصاً آكلاً كرشة
وقال ما زلت محباً لها
وهو أخو ذوق وفيه فطن
قلت من الإيمان حب الوطن

وممن انتظم في سلك الجماعة وانتصر للتورية وحسن مواقعها، ناصر الدين حسن بن النقيب:

وجردت مع فقري وشيخوختي التي
فلا يدعي غيري مقامي فإنني
بها اليوم نومي عن جفوني مشرد
أنا ذلك الشيخ الفقير المجرد

(١) الأحرى: الأسود لشدة نضارته - الأغن: في صوته غنّه - الأحرور: الشديد بياض، بياض العين وسواد سوادها.

(٢) اللما: الرفقة - الصدى: رجوع الصوت.

ومن نكته الغربية في التورية قوله:

دعوني فإني آكل الخبز بالجبن

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة

ومثل ذلك قوله:

ولا يكُ منك لي ما عشت أوبه^(١)

أقول لنوبة الحمى أتركييني

وهل يبقى الأمير بغير نوبه^(٢)

فقلت كيف يمكن ترك هذا

ومن لطائفه قوله:

والعلق لا شيء لديه ولا معه^(٣)

قالوا رأينا العلق ينفق مسرفا

قالوا صدقت لذلك ينفق من سعه

فأجبتهم إنفاقه من جحره

ومن لطائف ما وقع في تورية السعة، قول أبي الحسين الجزار وقد وقف على باب

ابن الزبير ومنع من الدخول دون غيره، فكتب رقعة وأرسلها إلى ابن الزبير، فإذا فيها:

والعبد مثل الخصي ملقى على الباب

الناس قد دخلوا كالأير أجمعهم

فلما وقف ابن الزبير على هذا البيت، أمر بعض الخدم أن يقف على الباب

وينادي: أدخل يا خصي فدخل وهو يقول: هذا دليل على السعة، ومنه قوله:

لعساه لا يشكى إليه ويشكر

ومكرش أضحى يحلق سفله

لباك وهو محلق ومقصر

ويقص لحيته فإن ناديته

ويعجبني من لطائفه قوله في داره:

ولكن نزلت إلى السابعة^(٤)

ودار خراب بها قد نزلت

محجتها للورى شاسعه

طريق من الطرق مسلوكة

بها أو أكون على القارعه

فلا فرق ما بين أني أكون

فتصغي بلا أذن سامعه

تساررها هفوات النسيم

(١) الأوبة: واحدة الإياب وهو الرجوع.

(٢) النوبة: الأولى بمعنى: دورة الوجع والثانية بمعنى الحاشية والحرس.

(٣) العلق: النفيس من كل شيء.

(٤) السابعة: أي الأرض السابعة.

وأخشى بها أن أقيم الصلاة
إذا ما قرأت إذا زلزلت
فتسجد حيطانها الراكعه
خشيت بأن تقرأ الواقعة^(١)

ومنه قوله:

جودوا لتسجع بالمديح على علاكم سرمدا
فالطير أحسن ما يغرد عنـد ما يقع الندى

ومن بدائع أغزاله قوله:

وما بي سوى عين نظرت لحسنها
وقالوا به في الحب عين ونظرة
وذاك لجهلي بالعيون وغرتي^(٢)
لقد صدقوا عين الحبيب ونظرتي

ومن لطائف مجونه قوله:

نفقت لي رأس من الخيل كانت
وابتلى الله في المشاعر أخرى
وإذا قيل كم بقي لك رأس
تسبق البرق والرياح الزعازع^(٣)
بشفاق لها عن المشي مانع
قلت رأس لكن بغير كوارع^(٤)

ومن لطائفه أيضاً في تورية المطوق قوله:

أنت طوقتني صنيعاً وأسمعك شكراً كلاهما ما يضيع^(٥)
فإذا ما شجاك سجي فيني أنا ذاك المطوق المسموع^(٦)

ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين بز نائة سجع المطوق، ووصل به عدة مقاطيع،

للكسي

ومن غاية تغزلاته قوله:

رميت بمهجتي جمرات شوق
فهرول دمع عيني فوق خدي
ولم تأخذك بالمشفاق رأفه
وما حصلت له مع ذاك وقفه

(١) «إذا زلزلت» «والواقعة» من سور القرآن الكريم.

(٢) الغرة: الإغترار وعدم التجريب.

(٣) نفق: الحيوان، مات - الزعازع: الهوجاء.

(٤) الكوارع: القوائم.

(٥) الصنيع: عمل المعروف.

(٦) المطوق، والمطوقة: الحمامة.

ومن لطائف مجونه قوله:

مثل ما أعرف وصفك
قلت باب الخرق خلفك

قال لي الواسع صف لي
أين باب الخرق قل لي

ومن غرائب النكت قوله:

ر ولا قصور بها يعيق
حر ومعناها رقيق^(١)

أبيات شعرك كالقصو
ومن العجائب لفظها

ومن بديع اختراعاته قوله:

وهي الغمام ومنها الوابل الغدق^(٢)
بأنها النيل قلت النيل يحترق

قالوا قد احترقت بالنار راحته
وقال قوم وما ضلوا وما وهموا

ومن غريب نكته قوله:

يعرف هذا العاشق الوامق^(٣)
من دمع عيني إنه الصادق

بخالد الأشواق يحيى الدجا
فخذ حديث الوجد عن جعفر

ومن بديع تغزله قوله:

ما لي سألت فما أجبت سؤالي
وشكايتي من جفئك الغزال^(٤)

يا مالكي ولديك ذلي شافعي
فوخذك النعمان إن بليتي

ومن بديع غزله قوله:

ولكنه ليس يخشى نبوه^(٥)
وأخرج فيه من الضعف قوه

أقول لمن جفنه سيفه
تكلف جفئك حمل الفتور

ومن نكته الغربية قوله:

أفرط بي فرط ضنى واكتئاب
تلبس والله عليه الثياب

قلت لسقم الجسم مني وقد
فعلت بي يا سقم ما لم يكن

(١) الرقيق: العبد - أو من الرقة.

(٢) الوابل الغدق: المطر الغزير.

(٣) الوامق: المحب.

(٤) النعمان: شقائق النعمان والنعمان بن المنذر الملك - الغزال: والغزالي الفيلسوف.

(٥) نبوه: من نبا السيف إذا أخطأ والسهم، طاش ولم يصب.

وممن حصل الجلاء لعيون التورية بملاطفته، الحكيم شمس الدين بن دانيال، من لطائفه قوله:

يا سائلي عن حرفتي في الورى
ما حال من درهم إنفاقه
ومنه قوله:

لا بدُّ لشمس من طلوع
يرقى إلى السطح من طلوعي
كم قيل لي إذ دعيت شمسا
فكأن ذاك الطلوع داء

ومن لطائفه أيضاً قوله:

أقل من حظي ومن بختي^(١)
وصرت لا فوقي ولا تحتي^(٢)
ما عاينت عيناى في عطلتي
قد بعت عبدي وحماري معاً

ومن لطائفه أيضاً في جارية تضرب بالدف، وأجاد، قوله:

لو مرَّ يوماً عليه طائر صدحا
لنقره ببنان يشبه البلحا
فما ينقط إلا كل من رشحا^(٣)
ذات القوام الذي يهتز غضن نقا
تبدي على الدف كالجمار معصمها
غناؤها برقيق الغنج تمزجه

ومن اختراعاته البديعة قوله:

أيا سائلي عن قد محبوبي الذي
أبي قصر الأغصان ثم رأى القنا
فتنت به وجداً وهمت غراما
طوالاً فأضحى بين ذاك قواما

وممن أحيا رسوم التورية وأظهر خفيها، القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، ومن نظمه فيها:

لقد قال كعب في النبي قصيدة
فإن شملتنا بالجوائز رحمة
وقلنا عسى في فضلها نتشارك
كرحمة كعب فهو كعب مبارك

(١) البخت: الحظ والنصيب.

(٢) وصرت لا فوقي ولا تحتي: مثل يقال للذي يكون عنده شيء فيبيعه فيصير معدماً ويحتاج إلى المعونه.

(٣) رشح: سال ببطء، نَز.

ومن لطائفه قوله:

لا ينقل الروض أحاديثه
فإنه ينقل أخباره

عن عين نمام غدت حافية^(١)
إلى أعين عنده صافية

ومثله قوله:

يا قاتلي بلحاظ
إن صبروا عنك قلبي

قتيلها ليس يقبر
فهو القتل المصبر

وقال:

إن لوزي جلق
لم يكلفك كسره

واهن الجبل والقوى
فالق الحب والنوى

ومن نظمي في هذا المعنى، في المشمس السلطاني بحماه:

قال سلطاني حماة عندما
مشمس الشام يقوي قلبه

أجلسوه مذ اتاهم في الصدور
يوم نقع فهو قد أضحى وزير^(٢)

ومن لطائف القاضي محيي الدين قوله:

شكراً لنسمة أرضكم
لا غرو أن حفظت أحا

كم بلغت عني تحيه
ديث الهوى فهي الذكيه

وهذه النكتة أخذها الشيخ صلاح الدين الصفدي، وقال:

يا طيب نشر هب لي من نحوكم
أهدي تحيتكم وأشبه لطفكم

فأثار كامن لوعتي وتهتك^(٣)
وروى شذاكم إن ذا نشر ذكي

وأشار إلى هذه السرقة الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة، بقوله، ولم يخرج عما نحن فيه من التورية:

إن ابن أيبك لم تزل سرقاته
نسب المعاني في النسيم لنفسه

تأتي بكل قبيحة وقبيح
جهلاً فراح كلامه في الريح

(١) النمام: الذي يسعى بين الناس بهدف الإيقاع بينهم - حافية: ضعيفة لكثرة استعمالها.

(٢) النقع: بل الشيء بالماء.

(٣) التهتك: إهمال النفس.

ومن نكته البديعة الغريبة قوله:

لا تسلني عن أول العشق إني أنا فيه قديم هجر وهجره
من دموعي ومن جبينك أرخست غراماً بمستهل وغره^(١)

وتطفل الشيخ عز الدين الموصلي على هذا المعنى، ولكن سبكه في قالب حسن، بقوله
من قصيدة:

فيا هاجري عاماً لقد ضل عاذلي وليس له وجه وتاريخه سلخ

ومن لطائفه قوله بمنزلة القطيفة بالقرب من دمشق:

هذي القطيفة التي لا تشتهي عقلاً ونقلاً
حشيت ببرد يابس فلأجل ذاك الحشو ثقلي^(٢)

ومن لطائفه قوله:

ضفر الشعر وألقى خلفه كالقطن وفره
قلت ماذا قال شيب قلت والله ودره

ومن لطائفه قوله في معشوقه المعنى المسمى بالنسيم:

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذي أتلو لهم يا ليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

ومثله قوله فيه:

يا من غدا لي من عوا صف هجره الريح العقيم^(٣)
أترى يطيب لي الهوى ويقال لي رق النسيم

ومن لطائفه قوله:

سلّ سيفاً من جفنه ثم أرخى وفرة وفرت عليه الحميلة^(٤)
إن شكا الخصر طولها غير بدع لنحيل يشكو الليالي الطويلة

(١) المستهل: الدمع - الغرة: أول الشعر من مقدم الرأس.

(٢) ثقلي: تكره وتهجر.

(٣) الريح العقيم: التي لا تفيد، والعقيم في الأصل من لا ينجب.

(٤) الحميلة: حميلة السيف، مكان في الرجل يوضع فيه السيف.

والم به ابن العفيف، فقال:

حلّ ثلاثاً يوم حمامه ذوائباً تعبق منها الغوال^(١)
فقلت والقصد ذواباته يا سهري في ذي الليالي الطوال

وهذا المعنى تلاعب به جماعة من المتأخرين، ولولا الخيفة من طول الشرح
لذكرت ذلك، ولكن لا بد أن يرد على المتأمل في مواضعه، ويعجبني قوله:

وبروحي هويته عجميا لي لذت ألفاظه الغتمية^(٢)
كم حلا عجمه فقلت لخلي خلني والحلاوة العجمية
ومن لطائف مجونه قوله:

وأعور العين ظل يكشفها بلا حياء منه ولا خيفه
وكيف يُلفى الحياء عند فتى عورته لا تزال مكشوفه^(٣)
ومنه قوله:

قال لي العلق وقد جثته أريه أيراً فاق في حسنه
أيرك هذا مات قلت انحنى كرامة الميت في دفنه
ويعجبني من خمرياته قوله:

خمرة للشقيق أمست شقيقه بنت كرم بالمكرمات خليقه^(٤)
قال قوم من لطفها هي في الكا س مجاز والكاس فيها حقيقه
أنتجت فرحة وجاءت بكأس صبغت حمرة فنعم الشقيقه
ومن بديع اقتباسه بالتورية قوله:

بأبي فتاة من كمال صفاتها وجمال بهجتها تحار الأعين
كم قد دفعت عواذلي عن وجهها لما تبدت بالتالي هي أحسن

(١) الغوال: جمع غالية وهي أخلاط من الطيب، كالمسك والعنبر وغيرهما.
(٢) الغتيمة: غير الفصيحة لعجمة قائلها. من غتم: إذا لم يفصح لعجمة في منطقته.
(٣) يُلفى: يوجد. العورة: ما حرم الله كشفه من جسم الإنسان. وهو القبل والدبر. ومن المرأة معظم
جسمها لقوله ﷺ: «المرأة عورة كلها».
(٤) خليقه: حقيقه وجديرة.

هذا الاقتباس بالتورية أخذه الشيخ جمال الدين بقافيته، ولكن زاده إيضاحاً بقوله:

يا عاذلي شمس النهار جميلة وجمال فانتني ألد وأزين
فانظر إلى حسنيهما متأملاً وادفع ملامك بالتي هي أحسن

والم به الشيخ عز الدين الموصللي وما خرج عن إيضاحه أيضاً بقوله:

قد سلونا عن المليح بخود ذات وجه به الجمال تفنن^(١)
ورجعنا عن التهتك فيه ودفعناه بالتي هي أحسن

ومن لطائفه قوله:

ذات طوق وذات زيق تغنى فتنبي بالوجد من ليس يدري^(٢)
زيفت ثم كاشفتنا فقلنا لك زيق الغنى ولي زيق فقري
ما تراها قد حدثت خاطر النهـر بما قد جرى وما منه يجري

ومن لطيف كلامه قوله:

وبطحاء في واد يروك روضها ولا سيما إن جاد غيث مبكر
تلاحظها عين تفيض بأدمع يرققها منه هنالك محجر
إذا فاخرتها الريح وهي عليلة بأذيال كئبان الربا تتعثر
بها الفضل يبدو والربيع وقد غدا بها الروض يحيى وهو لا شك جعفر^(٣)

وقال في مليحة اسمها وردة:

بأبي وردة مولدة الحسن دعوها بوردة البستان
في التصاوير مثلها ليس يُلفى فيقولون وردة كالدهان^(٤)

ومن تواريه الغربية في المواليا في مليح مشطوب:

لك طرف أحور حمى من حسنك السرحه كم قد أغار على العشاق في صبحه
لما علمت بانو سابق اللمحة عليه خفت فشطبتو على صبحه

(١) الخود: الفتاة الحسناء.

(٢) الزيق: ما يخاط بالقميص لتقويته به. وزَيقت: جعلت لقميصها زيقاً.

(٣) الفضل والربيع ويحيى وجعفر: بالإضافة إلى أنها أسماء أشخاص فإنها مستعملة هنا بمعانها الأخر، وهي: الفضل: الشيء الفاضل والخير، والربيع: الفصل المعروف - يحيى من الحياة - جعفر: نهر.

(٤) يُلفى: يوجد - الدهان: الصباغ الأحمر يدهن به.

ومن نكته الغريبة في أغزاله قوله:

ذباب السيف من لحظ إليه
ولا عجب إذا ما قيل هذا
لأخضر صدغه حسن انتسابي^(١)
له صدغ زمردة ذبابي^(٢)

ومن اختراعاته الغريبة قوله:

كثبت لكم من أعين القصب التي
فإن أطرب التشبيب فيها بذكركم
لها من معانيكم ومن نفسها طرب
فكم أطرب التشبيب من أعين القصب

ومن هنا أخذ المعمار، فقال:

هويته مشببا
تيم قلبي بالحجا
جماله برح بي
ز من عيون القصب

ومن مخترعات القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قوله:

ملأت الليالي من علا وختمتها
ختمت عليها بالثريا فقل لنا
فقد أصبحت محشوة بمكارمك
أهذا الذي في كفها من خواتمك

ومنه قوله:

يا سيدي إن جرى من مدمعي ودمي
لا تخش من قود يقتصص منك به
للعين والقلب مسفوح ومسفوك
فالعين جارية والقلب مملوك^(٣)

ومنه قوله:

ذو قوام يجور منه اعتدال
سلب القضب لينها فهي غيظي
كم طعين به من العشاق
واقفات تشكوه بالأوراق

ومنه قوله:

يا رب كأس صرت من شربها
ملتهب الأحشاء ناراً لأن
من بعد رشفي ريق معشوقي
شربتها منه على الريق

(١) ذباب السيف: حده - الصدغ: الشعر ما بين العين والأذن.

(٢) دُبابي: أي حاد كذباب السيف. أو لونه شبيه بلون الذبابة وهي الحشره المعروفه.

(٣) القود: الدية: اقتصص: أخذ منه قصاصاً - جارية: بالدمع وعبدة. ومملوك: عبد.

ويعجبني منه قوله:

أنت من وجه ولحظ لك دينار وكسر^(١)

هذا الدينار والكسر، اغتصبه الشيخ جمال الدين بن نباتة ولم يسبكه في غير قلبه، فقال:

أفدي حبيباً لي إلى مرآه طول الدهر فقر
في خده وجفونه للحسن دينار وكسر

وهذه زاوية اخترتها من ديوان الشيخ الإمام العلامة شيخ الشيوخ عبد العزيز الأنصاري الحموي، سقى الله ثراه، أما بعد حمداً لله الذي أطلعنا من زوايا الأدب على خبايا، وأرشدنا بمشايع شيوخه إلى سلوك ما فيه من المزايا، والصلاة والسلام على نبيه الذي اختاره فكان نعم المخترار، وعلى آله وصحبه المنتظمين في سلك هذا الاختيار. فقد انتهى ما أوردته منوعاً في التورية من الحلوات القاهرية، وقد تعين أن أفكّه المتأمل بعد ذلك بالفواكه الشامية، وأقتطف له من فروع شيخ الشيوخ ما يظهر به مزية الثمرات الحموية، وقدرة السلطنة في الأدب وناهيك بالسلطنة الشيخية. فاخترت من أبيات قصائده ومواويل مقاطيعه ما يحلو بها التشبيب، وسميته زاوية شيخ الشيوخ علماً بأنها زاوية يتأهل بها الغريب، والله تعالى يجعلنا ممن تخير العمل الصالح فأحسن، وسمع القول فاتبع منه الأحسن. فمن ذلك قوله من قصيدة:

ويلاه من نومي المشرد وآه من شملي المبدد
يا كامل الحسن ليس يظفي ناري سوى ريقك المبرد

منها ووصل إلى المخلص، وهو في غاية الحسن قوله:

غصن نقا حل عقد صبري بلين خصر يكاد يعقد^(٢)
فمن رأى ذلك الوشا ح الصائم صلى على محمد

ومنه قوله من قصيدة:

لنا من ربة الخالين جاره تواصل تارة وتصد تاره
تعاملني بما يحلي سلوي ولكن ليس في حلو مراره

(١) الكسر: من الدينار ما يقل عنه من العملة.

(٢) غصن النقا: الغصن الطري الذي جرى فيه الماء.

ومنه قوله وهو مطلع قصيدة:

حروف غرامي كلها حرف إغراء
على أن سقمي بعض أفعال أسماء
ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين وقال:
أودت فعالك يا أسما بأحشائي
واحيرتي بين أفعال وأسماء
ومن بديع نكته قوله:

وبدر دجى لم ينتقل كسميه
ولكنه ما زال في القلب والطرف
يلوح لعيني ماشقاً نون صدغه
فأعبد خلّاتي على ذلك الحرف
هذه النكّة أخذها ابن الوردي بقافيتها وغالب ألفاظها ومعناها، فقال:

يا بدر تم نوره باهر
منزله في القلب والطرف
صدغك حرف النون في مشقه
من يعبد الله على حرف^(١)
ولعمري إنها سرقة فاحشة، ومنه قوله:

أقام لخدّه الناري عذاراً
ومذ أقصى عذارى وهو ثلجي
حمى مرج العذار بمقلتيه
فأمشى الناس في هرج ومرج^(٢)
ومنه قوله في التورية، مع بديع الاقتباس:

يا نظرة ما جلّت لي حسن طلّعه
حتى انقضت وأدامتني على وجل
عابت إنسان عيني في تسرعه
فقال لي خلق الإنسان من عجل
أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة، وجعله مطلعاً لقصيدة، فقال:

إنسان عيني بتعجيل السهاد ملّى
عمري لقد خلق الإنسان من عجل
ومنه قول الشيخ عز الدين شيخ الشيوخ، وتلطف ما شاء مع قصر الوزن:

وغمام معربد ببروق وزمجره
غادر الروض ناضراً . بعيون مخضره

(١) الذي يعبد الله على حرف: السريع الانقلاب إلى الكفر عندما تواجهه أبسط المصاعب في سبيل الله سبحانه وتعالى .

(٢) الهرج والمرج: ثورة الفوضى .

ومنه قوله :

قلت وقد عقرب صدغاً له
قد سدت يا رب الجمال الذي
عن مشقة الحاجب لم يحجب
ألف بين النون والعقرب^(١)

وقال، وتلطف ما شاء، وأظنه أول من ورى بهذه النكتة:

أفدي حبيباً رزقت منه
بوجنة ما أتم ربحي
عطف محب على حبيب
وقد غدا وردها نصيبي

ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة وغيره، وقول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

فديتك غصناً ليس يبرح مثمراً
تفتح في وجناته الورد أحمرأ
من الحسن في الدنيا بكل غريب
فيا ليت ذاك الورد كان نصيبي

ومنه قوله :

لا تنس وجددي بك يا شادناً
ما لي على هجرك من طاقة
بحبه أنسيت أحبابي^(٢)
فهل إلى وصلك من باب^(٣)

ومنه قوله :

مرضت ولي جيرة كلهم
فأصبحت في النقص مثل الذي
عن الرشد في صحبتي حائد
ولا صلة لي ولا عائد^(٤)

ومن هنا أخذ الشيخ عز الدين الموصللي، وقال:

أهل دمشق قد مرضت عندهم
مع علمهم بأنني أنا الذي
وما قصدت نحوهم بمسأله
ولا أتاني عائد ولا صلة

ومنه قوله :

قالوا أما في جلق نزهة
يا عاذلي دونك من لحظه
تنسيك من أنت به مغرى
سهماً ومن عارضه سطرأ

(١) النون: الحاجب في وسطه العين والعقرب: الشعر ما بين الأذن والعين مجعداً على التشبيه.

(٢) الشادن: الغزال.

(٣) الطاقة: القدرة والشباك.

(٤) الصلة والعائد: في الأصل الأقرباء والزوار أو العطاء والهبة - وفي المصطلح النحوي الصلة ما يصل

بين جملتين - والعائد: ضمير يعود على متأخر في الكلام.

السهم وسطرى من منتزهات دمشق المشهورة، ومن هنا أخذ الشيخ جلال الدين بن
خطيب داريا وقال:

سألتكما إن جئتما الشام بكرة
قفا واقراً مني كتاباً كتبته
وعايتما الشقراء والغوطة الخضراء
بدمعي لكم مقراً ولا تنسيا سطرا

ومقرا أيضاً من منتزهات دمشق، وحسن بعدها ذكر سطراً، ومنه قوله، وأجاد:

سبحان مورثه من حسن يوسف ما
أقام للشعراء العذر عارضه
لم يبق في الحجرلي والصبر من حصص
فكم لهم من ديبب النمل من قصص^(١)

ومنه قوله:

ولقد عجبت لعاذلي في حبه
أو ما درى من سنتي وطريقتي
لما دجا ليل العذار المظلم
أني أميل مع السواد الأعظم^(٢)
ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة وغيره، فأما ابن نباتة فإنه أخذه وزناً، وقافية،
وقال:

أهواه معسول الرضاب منعماً
يا قلب هذا شعره وجفونه
ولقد يعذبني الهوى بمنعم^(٣)
صبراً على هذا السواد الأعظم

ومن لطائفه قوله:

أكملت ستاً وأربعين بها
وجزت في السبع خائفاً وجلأً
أخلت همومي من راحتي ربعي^(٤)
لأنني جائز على سبع^(٥)

ومن نكته اللطيفة قوله:

هزم الهم عن نداماي راح
لم تكد في الكؤوس تظهر لطفاً
حظيت من سماعهم بلحون
فبدت من خدودهم في الصحون

(١) الديبب: مشي كل ذات أربع.

(٢) السواد الأعظم: المجموع الأكبر من الناس - أو معظمهم.

(٣) معسول الرضاب: كأن ريقه العسل، حلو الريق.

(٤) الربع: الدار.

(٥) جاز: : : قطع ودخل وتجاوز ما قبله - السبع: العدد والحيوان.

ومن لطائف مجونه قوله:

سألته من ريقه شربة
فقال أخشى يا شديد الظما
أطفي بها من كبدي حره
أن تتبع الشربة بالجره^(١)

ومن هنا أخذ المتأخرون. ومن نكته اللطيفة ما كتبه على جرن حمام السلطان بحماة:

كملت لطفاً ووقاراً على
من أجل هذا صرت أهلاً لأن
ما حزت من أوصافي الحلوه
أجالس السلطان في الخلوه

وممن أجاز رقيق التورية من غلظ العقادة، الأمير مجير الدين بن تميم. فمن ذلك قوله:

لما لبست لبعده ثوب الضنى
أجريت واقف أدمعي من بعده
وغدوت من ثوب اصطباري عارياً^(٢)
وجعلته وفقاً عليه جارياً^(٣)

ومن لطائف نكته قوله في كتاب:

يا حسنها نسخة يلهو مطالعها
صحت وقد لطفت أجزاءها فحكمت
بها لما قد حوت من رائق الكلم
لطف النسيم وحاشاها من السقم

ومنه قوله:

بتنا جميعاً ويات لثمي
فمات مني الظلام غيظاً
له حمى ثغره مباح
وانشق من غيظه الصباح

ومنه قوله:

وساقية تدور على الندامى
سنشكر يوم لهو قد تقضى
وتنهرهم لسرعة شرب خمر
بساقية تقابلنا بنهر

وهذه النكته تلاعب الناس بها كثيراً. ومن نكته الغريبة قوله في سجادة:

أيا حسنها سجادة سندسية
يرى للتقى والزهد فيها توسم^(٤)

(١) الجرّه: وعاء من الفخار أسطوانى الشكل يستعمل للماء.

(٢) وردت في الأصل «لبت» بدل «لبست» وما أثبتناه أصح ونظنه من خلط الذين يلفظون الثاء سيناً والذال

والظاء والضاد زايأ في هذه الأيام لكثرة ما صقلتهم «المدنية» و«الحزارة الحديدية».

(٣) وقفته عليه: قصرته عليه.

(٤) سندسية: نسبة إلى السندس وهو من رقيق الديباج - التوسم: الأمل.

إذا ما رآها الناسكون ذوو الحجا
ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال:

إن سجادتي الحقيمة قدرا
وتطفل عليها الشيخ زين الدين بن الوردى أيضاً، فقال:

سجادة أذكرتني
منك الذي كنت تعلم
أهديتها لمحـب
صلى عليها وسلم

ومن قوله وهو من أطف أغزاه:

يا حسن أهيف حظه من حبنا
طيب النعيم وحظنا منه الشقا^(٢)
قدم العذار إلى نقا وجناته
يا مرحباً بقدوم جيران النقا^(٣)
ومن نكته الغريبة، قوله في مليح جرح جبينه:

بكوا لجراحة شقت جبين الـحبيب فقال ما ضر الجراح
أليس جبينه صباحاً منيراً
ولا عجب إذا انشق الصباح

ومن لطائفه قوله:

وعيرني بالشيب قوم أحبهم
فقلت وشأن العاشقين التحمل
بعثم إلى رأسي المشيب بهجركم
ومهما أتى منكم على الرأس يحمل

وهذه النكته أيضاً، تلاعب بها المتأخرون بعد ابن تميم كثيراً. ومن لطائف نكته أيضاً قوله:

ونهر حالف الأهواء حتى
غدا طوعاً لها في كل أمر
إذا سرقت حلى الأزهار ألقت
إليه بها فيأخذها ويجري

(١) الناسكون: جمع ناسك وهو الذي يقتصر على عبادة الله سبحانه وتعالى - ذوو الحجا: الثقات. ذوو الاستمساك بالعقيدة.

(٢) الأهيف: الدقيق الخصر الضامر البطن - الشقا: الشقاء.

(٣) نقا: نقاء. النقا: الكثيب من الرمل.

ومثله قوله:

لما أتاها وهي في اطرابها
في صدره من خوفه وجرى بها

سرق النسيم حلى الغصون بسحره
ورمى بها نحو الغدير فضمها

ومن بدائع نكته:

راحاً تسل شبابي من يد الهرم
غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم^(١)

وليلة بت أسقى في غياهبها
ما زلت أشربها حتى نظرت إلى

ومن لطائف نكته في أغزاله قوله:

غزال به عذر المحيين واضح
ألم تعلمنا أن العيون جوارح

خليلي قد صاد الفؤاد بحسنه
ولا غرو أن صاد الفؤاد بلحظه

ومن لطائف نكته في أغزاله أيضاً قوله:

فأضحى سعيد الخد وهو معذر
فإن صح ذلك الخط فهو مزور

وقالوا بدا خط العذار بخده
فقلت خيال الشعر ما قد رأيتم

من هنا أخذ الشيخ صلاح الدين، ولكن زاده نكتة أخرى، بقوله:

وأنت بخط عذاره تذكارا
فالحظ زور والشهود سكارى^(٢)

عيناه قد شهدت بأني مخطيء
يا حاكم الحب أتتد في قتلي

ومن نكته الغريبة قوله:

عن الجود خوف الفقر ماذاك سائغ
نصيبك والنعماء عليك سوابغ^(٣)

أيا ذا الذي قد كف كفيه عامداً
أتخشى سهام الفقر ما دمت منفقاً

ومن نكته الغريبة قوله:

يروح ويغدو هائماً بوصالها
جفاها وأمسى قانعاً بخيالها

ونهر بحب الروض أصبح مغرماً
إذا بعدت عنه شكاً بخيريه

(١) غزالة الصبح: الشمس.

(٢) أتتد: تؤدّة تمهل.

(٣) سوابغ: جمع سابعة: النعمة: فائضة وزائدة عن الحاجة.

ومن لطائف مجونه :

وقواد يعيد الهجر وصلأ
يكاد لحكمة فيه ولطف
ومن نكته البديعة الغريبة في باب التورية قوله :

لما جسستك بالمديح ولم أكن
ناديت لما أن جسستك بالهجا
أدري بأنك خامل في الناس
أكليب خذاها من يدي جساس (٢)

ومنه قوله :

مذ لاحظ المثور طرف النرجس الممزور قال وقوله لا يدفع
فتح عيونك في سواي فإنني
عندي قبالة كل عين أصبع
ومن لطائفه في هذا الباب قوله :

أيا حسنها من روضة ضاع نشرها
ودولابها كادت تعد ضلوعه
النكتة في يدور وفي ضاع دارت بين ابن تميم وبين الجماعة، وتسلسل دورها
منهم بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي بقوله :

وروضة دولابها
من حين ضاع نشرها
ومنهم الشيخ جمال الدين بن نباتة بقوله :

وناعورة قسمت حسنها
وقد ضاع نشر الربا فاغتدت

ومنهم الشيخ صلاح الدين الصفدي ونقل المعنى إلى الغزل بقوله :

أضحى يقول عذاره هل فيكم لي عاذر
الورد ضاع بخده وأنا عليه دائر

(١) القواد: القائد إلى الفجور.

(٢) جس: جرب - الخامل: المغمور غير المعروف - وجساس: المجرب وقاتل كليب أخي المهلهل الشاعر.

(٣) ضاع: يضيع، انتشر - والنشر: الرائحة الطيبة.

(٤) الدولاب: ما يوضع في الروضة ليستقى به، وتديره الدابة (الناعورة).

وبعضهم نقصه وقنع بالدور بقوله :

أبدى لنا الدولاب قولاً معجباً
لما رأنا قادمين إليه
لاني من العجب العجيب كما ترى
قلبي معي وأنا أدور عليه

وزاد الشيخ جمال الدين بن نباتة الدور نكتة أخرى فقال :

وناعورة قالت وقد ضاع قلبها
وأضلعها كادت تعد من السقم
أدور على قلبي لأنني فقدته
وأما دموعي فهي تجري على جسمي

وهذا المعنى سبق إليه ابن تميم أيضاً، بقوله :

قامت لنا بالعدر ناعورة
تقول لما ضاع قلبي وقد
صيرت جسمي كله أعيناً
أدمعها في غاية السكب
ضعفت بالنوح وبالندب
يدور في الماء على قلبي

ومثله قوله :

ناعورة مذ ضاع منها قلبها
ناحت عليه بأنة وبكاء
وتعللت بلقائه فلأجل ذا
جعلت تدير عيونها في الماء

وقنع الشيخ زين الدين بن الوردي بالدور، فقال :

ناعورة مذعورة ولهانة وحائرة(١)
الماء فوق كتفها وهي عليه دائرة

وعلى ذكر تورية الدور يعجبي قول المقر المرحومي الفخري ابن مكناس، وقد كتب بدر الدين البشتكي يداعبه، وقد دار الشيخ بدر الدين المذكور في ساقية الهمائل(٢).

دورة البدر في سواقي الهمائل
تركت أدمع العيون هوامل(٣)
آه من للرياض نور أديب
مظهر من كلامه سحر بابل
فاق سعياً على بني عجل في الجو
د وأغنى عن الولي الهاطل
زاد علماً على أبي ثور لكن
قال بالدور تارة والسلاسل

(١) ولهانة : شديدة الحزن .

(٢) الهمائل : إسم للساقية :

(٣) الهوامل : التي تفيض بالدمع .

ومنها ولم يخرج عن تورية الدور:

يا سعيداً أثرى من النظم والنثر فأنسى الورى زمان الفاضل
قد سقيت الرياض يا شيخ بالدو ر فها غصنها من السكر مائل

ومن نظمي في تورية الدور أيضاً قولي من قصيدة:

ومذ مد ذاك النهر ساقاً مدملجاً وراح بنفش البيت يمشي على بسط
لوينا خلاخيل النواعير فالتوت وأبدت لنا دوراً على ساقه السبط^(١)

وعلى ذكر تورية الدور وتسلسلها هنا نكتة لطيفة، وهي أنه اتفق أن الشيخ نجم الدين الفجفيري سأل جماعة من الطلبة المستعلمين عليه من قول الشاعر:

يا أيها الحبر الذي علم العروض به امتزج^(٢)
أين لنا دائرة فيها بسيط وهزج

ففكر بعض الطلبة فيه ساعة طويلة ثم قال: هذا في الدولار، لأنه أراد بالبسيط الماء وبالهزج صوته حال دورانه. فقال له الشيخ: صدقت، إلا أنك درت في الدولار زماناً حتى ظهرت لك التورية. وهذا الكلام في غاية الظرافة من الشيخ رحمه الله تعالى.

رجع إلى ما كنا فيه من لطائف ابن تميم، فمن ذلك قوله:

لم لا أميل إلى الرياض وحسناها وأعيش منها تحت ظل ضافي
والزهر يلقاني بثغر باسم والماء يلقاني بقلب صافي

وهذان البيتان عزاهما الصلاح الكتبي، في كتابه فوات الوفيات، للبدر يوسف بن لؤلؤ الذهبي، ونسبا أيضاً لمحبي الدين بن قناص، في مواضع كثيرة، والله أعلم. ومن نكته اللطيفة في التورية قوله:

روحي الفداء لمن أدار بلحظه صهباء في عقلي لها تأثير^(٣)
فاعجب له أنى يصون بلحظه مشمولة وإناؤها مكسور^(٤)

(١) السبط: الطويل.

(٢) الحبر: رجل العلم الذي يعد مرجعاً في علمه.

(٣) الصهباء: الخمرة.

(٤) المشمولة: التي هبت عليها ريح الشمال وهي أبرد وأطيب.

ومنه قوله:

من أجلها أصبحت من عشاقه
إلا وأجلسه على أحداقه

إني لأشهد للحمى بفضيلة
ما زاره أيام نرجسه فتى
وتلاعب المتأخرون بهذه النكتة كثيراً.

ومنه قوله:

أقمت بها فيما جرى متفكراً
على رأسه من شاهق فتكسراً^(١)

ألا رب يوم قد تقضى ببركة
بعيني رأيت الماء فيها وقد هوى

ومثله قوله:

يلهي برونق حسنه من أبصراً
خوفاً عليه أن يصاب فيعشراً
حتى هوى من شاهق فتكسراً

يا حسنه من جدول متدفق
ما زلت أنظره عيوناً حوله
فأبى وزاد تمادياً في جريه

وتورية تكسر تلاعب بها الناس بعد ابن تميم كثيراً. ومن نكته البديعة الغريبة قوله:

في موقف ما الموت عنه بمعزل
تجري دماً من تحت ظل القسطل^(٢)

لو كنت تشهدني وقد حمي الوغى
لترى أنابيب القناة على يدي

ومن لطائف نكته قوله:

تهيم بالشرب والغناء
أعيش بالماء والهواء

قالوا رأيناك كل وقت
إني فتى قنوع

ومنه قوله:

يدعو بقلب في الدجى مكسور
إلا الدعا بأصابع المثور^(٣)

حاذر أصابع من ظلمت فإنه
فالورد ما ألقاه في جمر الغضى

ومن لطائف نكته وقد تقدم معناها، ولكن حلا مكررها هنا بقوله:

ودمعهما بين الرياض غزير
فأصبح ذا يجري وذاك يدور

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى
كأن نسيم الروض قد ضاع منهما

(١) «بعيني» في الأصل «بعني» ونظنه من خطأ النساخ.

(٢) الأنابيب: جمع أنبوب وهو جسم الرمح - والقناة: الرماح - القسطل: الغبار الكثيف.

(٣) جمر الغضى: يضرب به المثل في شدة الحرارة وهو جمر شجر يدوم طويلاً.

وقال الشيخ أثير الدين أبو حيان أنشدني أبو الخير الأزدي، لمجير الدين بن صميم:

نزلنا إلى الغور في جحفل نقاتل قوماً من المسلمينا
قطعنا الشريعة في حربهم وخضنا إليهم مع الخائضينا^(١)

ومن نكته البديعة الغربية قوله:

إني لأعجب في الوغى من فارس حارت دقائق فكرتي في كنهه
أدى الشهادة لي بأني فارس الـ هيجاء حين جرحته في وجهه

ومن لطائف مجونه قوله:

هويت نطاعاً إذا جئته بادرني باللحظ والصفح^(٢)
أروم أن أحظى بوصل وقد قابلني بالسيف والنطع

ويعجبني من نكته في الخمریات قوله:

ومدامة كاساتها تعطي الأمان من الزمان
قد أحكمت علم النجو م وأتقنت سحر البيان
فإذا حساها الشاربو ن وأوقعتهم في الأماني
بدأت بإخراج الضمير وبعده عقد اللسان

ومن لطائف مجونه قوله:

غطت محاسن وجهها عن ناظري هيفاء لم أر في البرية شبهها
وغدت تمانعني فقت مبادراً وكشفت من بعد التمتع وجهها

ومن نكته الغربية قوله:

سأهجو أناساً يبتغون نقيصتي وقد رسخوا في بحر جهلهم رسخا
وأسلخهم لا في أوان مغيبهم ولكن أريهم في وجوههم السلخا

ومن لطائفه قوله:

بعث النسيم رسالة بقدومه للروض فهو بقربه فرحان

(١) الشريعة: مورد الماء الذي يستقى منه - والقانون السماوي - الخائضين: الذين يتحدثون في ما لا

يعلمون. أو السابحين.

(٢) النطاع: الأنيق المتأثق.

ولطيب ما قرأ الهزار بشدوه مضمونها مالت له الأغصان^(١)
ومن لطائفه التي سبقه السراج إليها واستعملها ابن تميم أحسن منه:

أراق دمي بسيف اللحظ ظلما وها أثر الدماء بوجنتيه
فلما خاف من طلبي لثأري أدار عذاره زرداً عليه

وقال في غلام وقاد:

لاموا على الوقاد في حبه وحبه باللوم يزداد
لو لم يكن في حسنه كوكباً ما كان أمسى وهو وقاد

وزاد شيخنا الشيخ شهاب الدين بن حجر، فسح الله في أجله، هذا المعنى نكتة
حصل بها الاتفاق البديع بلقبه الكريم، فقال في وقاد أيضاً:

أحب بوقاد كنجم طالع أنزلته برضا الغرام فؤادي
وأنا الشهاب فلا يعاند عاذلي إن ملت نحو الكوكب الوقاد

ومن نكته البديعة الغريبة قوله:

بنده الأزرق لما شدّه من قد سباني
جدول فوق كثيب دار يسقي غصن بان

ومن نكته الغريبة قوله في وكيل بدار القاضي بدمشق المحروسة:

لا تقرب الشرع إذا لم تكن تخبره فهو دقيق جليل
ووكل العز الذي وجهه على نجاح الأمر أقوى دليل^(٢)
ولا تمل عنه إلى غيره وحسبنا الله ونعم الوكيل

وعلى ذكر الوكيل رأيت:

لاقي فلان اليوم ما ساءه وأفرغ الصك عليه وكيل^(٣)
وذاق من كف الوكيل العمى وحسبنا الله ونعم الوكيل

(١) الهزار: البلب.

(٢) العز: العزيز الكريم القوي.

(٣) الصك: الوثيقة التي تثبت ملكية منقولة أو غير منقولة.

ومن لطائفه قوله يصف روضة:

أرض كساها القطر حلة سندس
وفد النسيم أضاع نشر رياضها

وكتب إلى كمال الدين بن النجار، وكيل بيت المال بدمشق المحروسة، وهي من نكته المخترعة:

كمال الدين يا مولاي يا من
أتيت لحاجة فاغنم ثنائي
ولا تجعل سواك لها فإني
أجمل أن يقول الناس أني
وأصبح بينهم مثلاً لأنني

ومن لطائف نكته قوله:

لم أنس قول الورق وهي حبيسة
قد كنت ألبس من غصوني أخضرا

وقال فيمن تاب عن شرب الخمر:

تركت شرب الحميا غير مفتكر
فارجع فقد أسبل الراووق أدمعه

فأنشده بعد ذلك وقد وافقه:

إن كان قد أسبل الراووق أدمعه
فاليوم أعينه من فرط فرحته

ومن نكته الغريبة قوله فيمن غضب عند عزله من منصب ولايته:

كم قلت لما فاض غيظاً وقد
لا تعجبوا إن فار من غيظه

(١) رقم الثوب: إذا وشي.

(٢) الورق: الحمام.

(٣) مقفصاً: الأولى بمعنى موضوعاً في القفص (سجينا)، والثانية بمعنى: المجمع..

(٤) الراووق: من أوعية الخمر (الباطية).

(٥) فار: استشاط غضباً.

وهذا المعنى ألم به شرف الدين النصيبي واستعمله أرق وأسجم، بقوله:

ولوك إذ علموا بجهلك منصباً
علموا بأنك عن قليل تبرخ^(١)
طبخوا بنار العزل قلبك بعد ذا
وكذا القلوب على المناصب تطبخ

وقال يعتذر عن مخدومه في كثرة تجريده له:

لقد لام قوم صاحبي حيث لم يزل
رآني حساماً ماضياً فأقامني
يجردني دون الرفاق تعمدا
مدى الدهر في وجه الأعادي مجردا

ومنه قوله:

مذ قلت للمنثور إن الورد قد
بسمت ثغور الأقحوان مسرة
وإني على الأزهار وهو أمير
بقدومه وتلون المنثور

وأحسن منه قوله:

ومذ قلت للمنثور إني مفضل
تلون من قلبي وزاد اصفراره
على حسنك الورد المنزه في الشبه
وفتح كفيه وأوما إلى وجهي

ومثله قوله:

كيف السبيل للشم من أحبته
ما بين مشور وناصر نرجس
في روضة للزهر فيها معرك
مع أقحوان وصفه لا يدرك
هذا يشير بأصبع وعيون ذا
ترنو إليّ وثغر هذا يضحك

ومثله قوله:

كيف السبيل لأن أقبل خدّ من
وأصابع المنثور تومي نحونا
أهوى وقد نامت عيون الحرس
حسداً وتغمزها عيون النرجس

ومنه قوله:

روض الحمى يهوى لقاك وإنه
لم يهد نرجسه إليك وإنما
من فرط شوق لا يزال قرينه
لغرامه أهدي إليك عيونه

(١) تبرخ: تبرج.

ومن لطائفه في أغزاله قوله :

قالوا بدا نبت خديه فخذ بدلا
إن لاح في خده نبت فلا عجب
وتورية النبت والرعي تلاعب بها جماعة من المتأخرين بعد ابن تميم، ومن
مخترعاته في هذا الباب قوله :

لو كنت حين علوت كور مطيتي
وتوسطت بحر السراب حسبتي
لم تعلقها للمطي عيون^(١)
من فوقها ألفاً وتحتي نون
ومن نكته المخترعة قوله :

دعيت فكان أكلي فخذ طير
وما يومي كأمس وذاك أني
ولم أشرب من الصهباء نقطه
أكلت أوزة وشربت بطه^(٢)
أخذ الشيخ صلاح الدين الكل مع القافية فقال :

شوى الأوز فأضححت
فقلت تشوي أوزاً
في حمرة الخد بسطه
أم كنت تشرب بطه
ومن اختراعاته التي لعب الناس بها بعده :

قد هجرت الراح حتى
وعلى الراووق مني
ليس لي فيها نصيب
طول ما عشت صليب^(٣)

ومن نكته المخترعة الغربية قوله يرثي الأمير قطب الدين رحمه الله تعالى :

نأيتم فلا قلبي عن الحزن مقصر
وأفلاك لذاتي تعطل سيرها
عليكم ولا جفني يجف له غرب^(٤)
وهل فلك يسري إذا عدم القطب^(٥)

(١) أنبته : صيره رجلاً .

(٢) الكور : للمطية هو الرجل .

(٣) البطة : الباطية - والطائر المعروف .

(٤) الراووق : الباطية - وعاء للخمرة .

(٥) النأي : البعد والسفر - غرب الجفن : دمه .

(٦) الأفلاك : السفن - عدم القطب : لم يعرف الجهة .

ومن غريب نكته في أغزاله قوله:

شبهت خدك يا حبيبي عندما
تفاحة حمراء قد كتبوا بها
أبدى الجمال به عذاراً أشقرا
خطاً دقيقاً بالنضار مشعرا

ومثله في الغرابة قوله:

ولما احتمت عنا الغزالة بالسما
نصبنا شباك الماء في الأرض حيلة
وعز على قناصها أن ينالها^(١)
عليها فلم نقدر فصدنا خيالها

ومن لطائف غرامياته:

لا تبعثوا غير الصبا بتحية
خاضت دموع العاشقين وعرجت
من أرضكم فلها عليّ جميل^(٢)
عنهم إليّ وثوبها مبلول

وهذا المعنى وقفت عليه لغيره، والله أعلم من السابق. ولعمري إن الآخر أجاد بقوله:

وصبا صبت من قاسيون فسكنت
خاضت مياه النيرين عشية
بهيوبها وصب الفؤاد البالي^(٣)
وأنتك وهي بليلة الأذيال^(٤)

ومن لطائفه قوله:

لو لم أعانق من أحب بروضة
ما شق جيب شقيقها حسداً ولا
أحداق نرجسها إلينا تنظر
بات النسيم بذيله يتعشر

وتلاعب الناس بعد ابن تميم بهذا المعنى كثيراً. وقال في إهداء مهرة حمراء، وهي من مخترعته:

أهديت لي يا مالكي مهرة
مؤخرها والعنق قد أوقع
جميلة الخلق بوجه جميل
تخبرنا أن أباهأ أصيل
قد لبست من شفق حلة

(١) غزاة السماء: الشمس.

(٢) الصبا: الريح المشرقية تهب عند استواء الليل.

(٣) قاسيون: جبل يطل على دمشق - الوصب: المرض والتعب الشديد.

(٤) النيرين: دجلة والفرات وكوكبين قطيين والله أعلم.

ومنه قوله، وهو من الاختراعات اللطيفة:

حبيبي وعدت الكاس منك بقبلة
وما كان هذا لونها غير أنها
وأعقب ذلك الوعد منك نفاً^(١)
علاها لطول الانتظار صفار

ومن هنا أخذ الشيخ بدر الدين بن الصاحب فقال:

يا حابس الكأس لا تزدها
واغنم مزاجاً لها لطيفاً
من بعد حبس الدنان حسره^(٢)
أورثه الانتظار صفره

ومن نكته الغريبة البديعة قوله:

مما رأت عيني مناطك التي
لا تستقر وقد علتها صفرة
أيقنت أن الخصر ضاع نحافة
أضحت بشعرك دائماً تتعلق
ونحول جسم بالصباية ينطق
فلذا تدور جوى عليه وتقلق

ومن هنا أخذ الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

وشاح من أحبته قال لي
قد ضاع مني الخصر لما انثنى
وهو الذي في قوله قد صدق
أما تراني دائراً في قلق

وقال في شخص اسمه عثمان يهدده بالهجو:

توعدت يا عثمان بالهجو شاعراً
فخذها قصيداً قد أتت من محمد
سيوليك هجواً عاره ليس ينجلي
كجلمود صخر حطه السيل من عل

وممن أبدر في أفق التورية ونظم عقود لآلئها بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي، فمن
لآلئ عقوده قوله:

صدوا وقد دب العذار بخده
هل ذاك غير نبات خد قد حلا
ما ضرهم لو أنهم خبروه
لكنهم لما حلا هجره

ومنه قوله:

عرج على الزهر يا نديمي
فالروض يلقاك بابتسام
ومل إلى ظله الظليل
والريح تلقاك بالقبول

(١) نفاً: هجر.

(٢) الدنان: جمع دن وهو وعاء الخمر.

ومنه قوله وأجاد:

ورياض وقفت أشجارها وتمشت نسمة الصبح إليها
طالعت أوراقها شمس الضحى بعد أن وقعت الورق عليها^(١)

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه المسمى «بفض الختام عن التورية والاستخدام»^(١)، لما وقف على هذين البيتين نكتة التوقيع، هنا، أليق بابن عبد الظاهر، لكن طلع واطلع عليه البدر، وحفظ سره لما أضاعه ذلك الصدر، ومنه قوله:

وحديقة مطلولة باكرتها والشمس ترشف ريق أزهار الربا^(٢)
يتكسر الماء الزلال على الحصى فإذا جرى بين الرياض تشعبا

ومن هنا أخذ الشيخ برهان الدين القيراطي فقال من قصيدة:

وكان ذاك النهر فيه معصم بيد النسيم منقش ومكتب^(٣)
فإذا تكسر ماؤه أبصرته في الحال بين رياضه يتشعب

ويعجبني قوله من قصيدة كلها غرر، ولولا خشية الإطالة لأوردتها بكمالها:

وتنبهت ذات الجناح بسحرة بالواديين فنبهت أشواقني
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن يعقوب والألحان عن إسحق
قامت تطارحني الغرام جهالة من دون صحبي بالحمى ورفاقي
أنى تباريني جوىً وصبابةً وكأبةً وأسىً وفيض مآقي^(٤)
وأنا الذي أملى الجوى من خاطري وهي التي تملى من الأوراق

ومنه قوله:

هلم يا صاح إلى روضة يجلو بها العاني صدا همه
نسيمها يعثر في ذيله وزهرها يضحك في كمه

ومنه قوله:

أدر كؤوس الراح في روضة قد نمقت أزهارها السحب

(١) الورق: جمع ورقاء وهي الحمامة.

(٢) مطلولة: أصابها الطل وهو الندى.

(٣) مكَّتب: مجمع أو مخطط.

(٤) مآقي: جمع موق وهو مكان خروج الدمع من العين.

الطير فيها شيق مغرم وجدول الماء بها صب^(١)
ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة، وقال في نواعير حماة من طرديته:

ذات النواعير سقات الترب وأمهات عصفه والأب
تعلمت نوح الحمام الهتف أيام كانت ذات فرع أهيف
فكلها من الحنين قلب وكيف لا والماء فيها صبّ

وقال ابن نباتة في مطلع قصيدة:

دمعي عليك مجانس قلبي فارث على الحالين للصب

ونكتة الصب تطفل عليها أيضاً الشيخ صلاح الدين الصفدي، ولكن ركبها تركيباً قلقاً
فقال:

وحقكم ما حلت عن سنن الوفا ولم ينقلب مني إلى سلوة قلب
وما أنا غر بالصباية والهوى فأنكر دمعي إن جرى وأنا صب^(٢)

ويعجبني قول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ من قصيدة:

باكر إلى الروضة تستجلها فثغرها في الصبح بسام
والنرجس الغض اعتراه الحيا فغض طرفاً فيه أسقام
وبلبل الدوح فصيح على الأيكة والشحرور تمتام^(٣)
ونسمة الريح على ضعفها لها بنا مر والإمام^(٤)
فعاطني الصهباء مشمولة عذراء فالواشون نؤام^(٥)
واكتم أحاديث الهوى بيننا ففي خلال الروض نامام

ومن هنا أخذ الجميع، حتى الشيخ صفي الدين الحلبي، مع أن التورية غير مذهبه فقال:

(١) الشيق: صيغة مبالغة من الشوق، المشتاق - صب: كثير الانصباب - ومغرم:

(٢) الغر: الجديد الذي لا تجربة له.

(٣) الأيكة: واحدة الأيك وهو الشجر الكثير الملتف - تمتام: مغرد.

(٤) الإمام: المعرفة.

(٥) عاطني: أعطني - الصهباء: الخمرة - مشمولة: باردة لأنها أصابتها ريح الشمال - عذراء: مختومة في

دنها لم تفضض - الواشون: النمامون السعاة بالشر.

أقول وطرف النرجس الغض شاخص
أيا رب حتى في الحدائق أعين
إليّ وللنمام حولي إمام (١)
عليّ وحتى في الرياحين نمام (٢)

ولكن ما أدخل بها الشيخ جمال الدين بن نباتة لثلا يخرج عن مذهبه فقال:

وأهيف ينهب أرواحنا
تنم خداه بقتل الوري
ووجهه كالروض بسام
فخده ورد وثمان (٣)

وأخذها ابن الوردى أيضاً، ولكن زادها نكتة أخرى بقوله:

إن قال صف لي عذارى وصف مبتكر
هذا عذارك نمام ومسكنه
ووجنتي قلت خذ يا صنعة الباري
نار بخديك والنمام في النار

ومنه قوله:

الروض أحسن ما رأيت إذا تكاثرت الهموم
تحنو عليّ غصونه ويرق لي فيه النسيم

ومنه قوله:

البرد قد ولّى فما لك راقدا
أو ما ترى وجه الربيع وحسنه
يا أيها المدثر المزمّل (٤)
والروض يضحك والحيا يتهلّل (٥)

ومن لطائف تغزلاته قوله:

حلا نبات الشعر يا عاذلي
فشاقتي ذاك العذار الذي
لما بدا في خده الأحمر
نباته أحلى من السكر

ومثله في اللطف قوله:

شوقي إليك على البعاد تقاصرت
واعتلت النسמת فيما بيننا
عنه خطاي وقصرت أقلامي
مما أحملها إليك سلامي

(١) شاخص: ناظر.

(٢) الأعين: الرقباء.

(٣) الثمام: عشب من الفصيلة النجيلية..

(٤) المدثر: لابس الدثار وهو الغطاء. المزمّل: الملفف.

(٥) الحيا: المطر سمي به لأنه يبعث الحياة في الأرض ومن بعدها الإنسان والحيوان - تهلل المطر: سقط.

ومنه قوله :

تعشقتَه لَدن القَوامِ مَهفَهفًا
وقالوا بَدَا حَب الشَّبابِ بوجهِه
شَهي اللَمي أَحوي المَراشِفِ أَشنِبا^(١)
فيا حَسنَه وجَهًا إِلَيَّ مُحِبِبا^(٢)
وقد تَقدَم القَولُ أَن أبا تَمامٍ أوَّلُ من اِختَرعَ هَذه النِكتَةَ . ومن نِكتَه الغَربِية اللطِيفَة
البَديعَة قولُه :

وذِي قَوامٍ أَهيف
قام يَقطُ شَمعَة
بَين النِدامي قَد نَشط
فهل رَأيتَ الظَّبِي قَط^(٣)

وتَظفَلُ النَّاسَ بَعَدَه عَلى هَذه النِكتَةَ . ومِنه قولُه :

وبمَهجَتِي المَتحَمِلونَ عَشيَة
وحدَاتِهِم أَخذتَ حِجازًا بَعَدَما
والرِكبُ بَين تَلازِمٍ وَعِناق^(٤)
غَنتَ وِراءَ الرِكبِ في عِشاق

ومن هَنا أَخذَ النَّاسُ بَعَدَ الشَّيخِ بَدَرَ الدِّينِ ، كقولِ بَعْضِهِم :

قَلتُ مَذا غَني حِجازًا
لِيتَنَّا في أَصبَهان

ومِنه قولُ الشَّيخِ بَدَرَ الدِّينِ بنِ لؤلؤ :

لَكَ مَبسَمٌ عَذبَ اللَمي يَفتَرُ عَن
وَفم يَحاكِي المِيمَ إِلا أَنه
بَرَدٌ وَسِلسالُ الرِضابِ مَرادِي^(٥)
كَم حَولَه عَينَ تَحومِ كِصاد^(٦)

وهَذا المَعنى أَيضًا تَظفَلُ عَليه المَتاخِرونَ بَعَدَ الشَّيخِ بَدَرَ الدِّينِ ، مِنهم الشَّيخُ جَمالُ
الدِّينِ بنِ نِباتَة ، حَيتُ قال :

يا عَينَ آمالي إِذا اسْتَجَمعتُ
إِنِّي إِلى مَورِدِ لَقياكِ صاد

(١) لَدن القَوامِ : رَشيقُ القَد - مَهفَهفًا : نَحيفُ الخِصرِ ضامِرُ البَطنِ - اللَمي : سَمرةٌ في الشِّفاهِ - أَحوي المَراشِفِ : المَراشِفِ : أَلَمي الشِّفاهِ - الأَشنِبُ : رَقيقُ الأَسنانِ أَيضًا .

(٢) حَب الشَّبابِ : بثورٌ تَخرُجُ في وَجهِ الشَّابِ في سَنِ مَعينَه وتَكونُ دَليلاً عَلى بَلوغِهِ مَبلِغِ الرِجالِ .
(٣) يَقطُ : يَسوي .

(٤) المَتحَمِلونَ : المَساَفرونَ - تَلازِمٌ : تَلاصِقٌ .

(٥) السِلسالُ : العَذبُ - الرِضابُ : الرِيقُ .

(٦) كِصادٌ : الحَرفُ الهِجائي المَعروفُ والعَظشانُ .

ويعجبني قوله من قصيدة ورى في بيتها الأول باسمه فقال:

قد أنحلنتي الغوادي غير راحمة
فكم أوارى غراماً من جوى وأسى
ومحقتني الليالي بعد إبدار^(١)
زناده تحت أثناء الحشا واري
بعدتم صار دمعي بعدكم جاري
جيراننا كتمم بالرقمتين فمذ

ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال:

بروحي جيرة أبقوا دموعي
كأنا للمجاورة اقتسمنا
وقد رحلوا بقلبي واصطباري
فقلبي جارهم والدمع جاري

وما أحلى قول بدر الدين من القصيدة المذكورة، في الخمرة، ولم يخرج عما نحن فيه من التورية، فقال:

سارت لتقتص من قوم فما ربحت
فالقوم من بعد قتلها وما ظلمت
في حث كأس على الأوتار دوار^(٢)
وإنما أخذت منهم بأوتار

ومن هنا أخذ القاضي أمين الدين الحمصي وكان كاتب السرّ الشريف بالشام المحروس، فقال:

وقوس حاجبه يصمي^(٣) كأنّ له
مطالبات على قلبي بأوتار

ويطربني قوله من قصيدة:

فلما تفرقنا كأني ومالكاً
فأتبعته قلباً مطيعاً على الغضى
لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
وخليت لي جفنأ على السفح أطوعاً^(٤)

ومن لطائفه الغريبة:

رفقاً بصب مغرم
وافاك سائل دمعه
أبليته صداً وهجرأ
فرددته في الحال نهراً^(٥)

هذا النهر ورد منه المتأخرون قاطبة، ولولا طول الشرح لذكرت ذلك، ومن لطائفه قوله:

(١) الغوادي: جمع غادة وهي الحسنة - محقتني: جعلتني في المحاق، بلا ضوء.

(٢) اقتص: قاصص ثاراً وثأراً - الأوتار: في الإنسان العروق والشرايين.

(٣) يصمي: يصيب ويردي.

(٤) الغضى: الرغم وشجر.

(٥) وافى المكان: وصل إليه.

يا عاذلي فيه قل لي إذا بدا كيف أسلو
يمرّ بي كل وقت وكلما مر يحلو

ومن لطائف اتفاقه ونكته الغريبة قوله في نجم الدين بن إسرائيل، وقد هويّ مليحاً يلقب
بالجارج:

قلبك اليوم طائر عنك أم في الجوانح
كيف ترجّي خلاصه وهو في كف جارج

وكتب إليه وقد بلغه أنه سلا عن معشوقه المذكور:

خلصت طائر قلبك العاني ترى من جارج يغدو به ويروح^(١)
ولقد يسر خلاصه إن كنت قد خلصته منه وفيه روح

ومن مخترعاته الغريبة قوله في الخمرة:

أبدى الحباب لها خطأ فأحسن ما قد كان حرر من ميم ومن هاء^(٢)
قديمة ذاتها في روض جنتها كانت وكان لها عرش على الماء

ومن هنا أخذ الصاحب فخر الدين بن مكانس فقال من قصيدة السرحة:

فاستمهدت دوحها المخضبل وافترشت نجم الربا ورقت عرشاً على الماء^(٣)

ولكن لم يساعده في لفظة العرش اشتراك تورية بالنسبة إلى الشيخ بدر الدين فإن
نسبة العروش إلى الكرم معروفة. ومنه قوله في مليح نجار:

بروحي نجار حكى الغصن قدّه رشيق الثني أحور الطرف وسان^(٤)
يميل على الأعواد قطعاً بما جنت وما سرقت من قدّه وهي أغصان

ومن هنا أخذ جميع الناس وقال من قال:

قد لمت ذا الأهيف النجار وهو على الأشجار يقطع في أغصان خلاف^(٥)
فقال لي عندها ثار تُحدُّ به لأنها سرقت من لين أعطافي^(٦)

(١) العاني: الخاضع الذليل الأسير.

(٢) الحباب: الفقايع التي تعلق وجه السائل عند صبه.

(٣) استمهدت: اتخذت منه مهدياً.

(٤) حكى: شابه - رشيق الثني: خفيف الحركات - وسان: ذابل الطرف كأنه نعلان.

(٥) الخلاف: شجر الصفصاف.

(٦) تُحدُّ: تعاقب. والحدود قصاصات معلومة فرضها الله تعالى مثل: حد السرقة وحد الزنى..

وممن أحيأ ما درس من رسوم التورية القاضي محيي الدين بن قرناص الحموي،
تغمده الله برحمته. فمن نكته اللطيفة قوله:

سقيا له روضاً قدود غصونه
جنت به ورق الحمام صبابة

ومن لطائف قوله:

مال القضيبي بروضة من سكره
حتى إذا سرق النسيم دراهما

ومثله قوله:

مذ أتينا نبغي زيارة دوح
ناولتنا أيدي الغصون ثماراً

ومثله قوله، وتلطف ما شاء في جمعه بين الاستعارة البديعة والتورية:

قد أتينا الرياض حين تجلت
ورأينا خواتم الزهر لما

ومنه قوله:

ورب نهر له عيون
لما غدا الريق منه عذباً

ومنه قوله:

أيا حسنها روضة قد غدا
أتى الماء فيها على رأسه

ومنه قوله:

تثنى الغصن إعراضاً وعجباً
فرق له النسيم وجاء يسعى

(١) الأبراد: جمع برد وهو الثوب الموشى.

(٢) العقار: الخمرة سميت به من المعاقرة.

(٣) الأفنان: جمع فتن وهو الغصن.

ومنه قوله وتلطف ما شاء:

يضاحك زهره شمس النهار
صبيح الوجه مخضر العذاب

ويوم قد قطعناه بروض
فكأن نهارنا طلق المحيا

ومنه قوله:

حمل من أجلك ما لا يطيق
وأعين الأزهار نحو الطريق^(١)

أنعم فإن الدوح يا مالكي
يرقبك الطير على وكره

وهذا المعنى أخذه صاحب فخر الدين بن مكاسم وزناً وقافية فقال:

فلا يخلي عينه للطريق

والترجس الغض غدا شاخصاً

ومنه قوله، وتلطف ما شاء:

في روضة أطيّارها تترنم
عنا وثغر أقاحها يتبسم

لو كنت إذ نادمت من أحببته
لرأيت نرجسها يفض جفونه

ومنه قوله في معذر:

وأشبه الآس ذاك العارض النضر
ناراً وجرّ عليها ذيله الخضر^(٢)

ووجنة قد غدت كالورد حمرتها
كأن موسى كليم الله أقبسها

وهذا المعنى استعمله بعضهم في شجرة نارنج^(٣) فقال ولكن لم أعلم المخترع من هو:

زبرجد ونضار صاغه المطر^(٤)
ناراً وجرّ عليها ذيلة الخضر

نارنجة برزت في منظر عجب
كأن موسى كليم الله أقبسها

ومنه قوله:

يطيب به الندامي والمدام
حمائمه ويسقيه الغمام

ورروض قد أتت فيه معان
يسامره النسيم إذا تغنت

(١) الوكر: للظير كالبيت للإنسان.

(٢) أقبس النار: أضرمها بقبس.

(٣) النارنج: شجر مثمر يصنع من زهره ماء الزهر. ومن قشرة الثمرة دواء أو مربيات.

(٤) الزبرجد: أحجار كريمه متنوعة، أشهرها الأخضر.

ومنه قوله :

وغناء الورق فيها بارتفاع^(١)
فهي ما بين شراب وسماع

روضه من قرقف أنهارها
لا تلم أغصانها إن رقصت

ومن لطائفه في أغزاله قوله :

قلبي بهجرانه جريح
وإنما شكله مليح

هويت في مكتب غلاماً
أهيف أضحي قبيح خط

ومنه قوله في مليح مؤذن :

لكنه بالوصل أي شحيح
من بعد ذاك أعيش بالتسيح

ومؤذن أضحي كريماً وجهه
أبدأ أموت بهجره لكنني

ومنه قوله :

وهصرت لين قوامه المياس^(٢)
يشفي قواي فجاءني بالأس (ي)

قبلت خط عذاره لما بدا
وطلبت لي من خده المحمر ما

وهذه النكتة توارد هو وشمس الدين محمد بن العفيف عليها فقال :

كم أذكره وهو لعهدي ناسي
يشكو دنف سقامه للآسي (س)^(٣)

من يعطف نحوي قلب هذا القاسي
أشكو سقمي لعارضيه وكذا

وتطفل عليها بعدهما الشيخ صلاح الدين الصفدي فقال :

كالسيف في صحة القياس
فصح أن الطيب آسي

كم جرح القلب منه جفن
وطب آس العذار جرحي

وابتذل المتأخرون بعدهم حجابها، ونظمتها أنا ولكن زدتها نكتة أخرى من جنسها
فترشحت وازدادت حسناً، وهي قولتي :

ألق للضعف وللكسر انجبارا
درت داري مرض القلب فداري

مذ جفاني ممرض القلب ولم
قلت للعارض يا آسي إذا

(١) القرقف: الخمرة - الورق: الحمام.

(٢) هصر: حذب وعطف به نحوه - المياس: المتمائل.

(٣) دنف السقام: شدتها حتى يبدو السقيم وكأنه سكران.

ومن لطائفه في أغزاله قوله:

إن الذين ترحلوا نزلوا بعين ناظره
أنزلتهم في مقلتي فإذا هم بالساهره

وهذه النكتة أيضاً ابنذل المتأخرون حجابها كثيراً. ومن ظرافات شمس الدين محمد ابن العفيف المشهور بالشاب الظريف قوله:

إذا حاولت حل البند قالت معاطفه حمانا لا يحل
وإن جليت بوجنته مدام يرى لعذاره دور ونزل^(١)

وسبك أيضاً، تورية الدور في قالب آخر، وجاء في غاية اللطف والغرابة بقوله:

لحاظك أسياف ذكور فما لها كما زعموا مثل الأرامل تغزل
وما بال برهان العذار مسلماً ويلزمه دور وفيه تسلسل

ومنه قوله فيما يكتب على كاس وأجاد:

أدور لتقبيل الثنايا ولم أزل أجود بنفسي للندامي وأنفاسي
وأكسو أكف الشرب ثوباً مذهباً فمن أجل هذا لقبوني بالكاس (ي)

ومن هنا أخذ الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة وقال مضمناً:

يا صاح قد حضر الشراب ومنيتي وحظيت بعد الهجر بالإيناس
وكسا العذار الخد حسناً فاسقني واجعل حديثك كله في الكاس (ي)

ويعجبني قوله وقد أهدى مجموعاً:

يا أيها الصدر الذي وجه العلا منه يزان بمنظر مطبوع
لا تعتقد قلبي يحبك وحده ها قد بعثت لسيدي مجموعي

ونكتة المجموع استعملها الشيخ جمال الدين وغيره. ومن نكته البديعة التي لم يسبق إليها قوله:

كان ما كان وزالا فاطرح قيلاً وقالوا
أيها المعرض عنا حسبك الله تعالى

(١) نزل: مساكن، ونزول نحو الأسفل - ودور - دوائر، ومنازل.

وهذه أخذها صاحبنا المرحوم مجد الدين بن مكناس بنصها، فقال من قصيدة:

يا غصناً في الرياض مالا
يا رائحاً بعد ما سباني
حملتني في هواك مالا
حسبك رب السما تعالى
ومن لطائفه في مליح رسام قوله:

قلت لرسامكم
قال متى أذيبه
بك الفؤاد مغرم
فقلت حين ترسم
ومن لطائفه واختراعاته قوله:

قامت حروب الزهر ما
وأنت بأجمعها لتغزو
بين الرياض السندسية
روضة الورد الجنية^(١)
لكنها انكسرت لأن الور
د شوكته قويه
ومن لطائفه أيضاً قوله:

يا ساكناً قلبي المعنى
لأي معنى كسرت قلبي
وليس فيه سواك ثاني
وما التقى فيه ساكنان^(٢)
ومن لطائفه أيضاً قوله:

إني لأشكو في الهوى
ما كان يدري ما الجفا
ما راح يفعل خده
لكن تفتح ورده
ومن هنا أخذ الشيخ صلاح الدين الصفدي، فقال، ولكن زاده نكتة:

أقول له ما كان خدك هكذا
فمن أين هذا الحسن والظرف قال
ولا الصدغ حتى سال في الشفق الدجا
لي تفتح وردتي والعدار تخرجا^(٣)
ومن نكته البديعة قوله:

قد تعشقت خلافي
كلما جادلني العا
ولي فيه معاني
ذل فيه ولحاني
بدليل الدوران
جئته من عارضيه

(١) الجنية: الناضجة.

(٢) ساكنان: المقيمان - وفي اللغة حرفان مسكتان بسكون.

(٣) تخرجا: صار كالخرج وهو نوع من الوشي يوضع في طرف الثوب. ويقصد أنه تخلله الشيب.

ومن اختراعاته اللطيفة قوله في مליح خيالي :

ولست أراه يرغب في وصالي
فما لي صرت أفزع من خيالي

خياليّ أخاف الهجر منه
وكنت عهدتني قدماً شجاعاً

وقال في زهر اللوز:

وأقبل في حسن يجمل عن الوصف
فإن غصون الزهر تصلح للقصف^(١)

تبسم ثغر اللوز عن طيب نشره
هلموا إليه بين قصف ولذة

ومثله قوله :

على قده أغصان بان النقا تشني
ألا فانظروا هذي الحلاوة في الصحن^(٢)

تمشي بصحن الجامع الشادن الذي
فقلت وقد لاحت عليه حلاوة

وقال :

ونبه الوجد والجوى لي
شوقاً إلى وجهك الهلالي

يا ذا الذي نام عن غرامي
جفني جرى طيه دموع

ومن اختراعاته الغريبة قوله :

وأظنكم بدليله لم تشعروا
بدماء أرباب القلوب مضفر^(٣)

عبتم على المحبوب حمرة شعره
لا تنكروا ما احمر منه فإنه

وقال في مليح زجاج :

له محيا بالسننا يسفر
وكان معروفك لا ينكر
في صحة من حسنها تكسر

قولوا لزجاجكم ذا الذي
إن كنت في الصنعة ذا خبرة
فما لأحداقك أقداحها

وقال أيضاً :

ما كنت يوماً آمناً من هجرها
من أدمعي ودقيقها من خصرها

كلف الفؤاد بظبية عجانة
عجنت فؤادي بالغرام فماؤها

(١) القصف: اللهو واللعب والافتتان في الطعام والشراب.

(٢) صحن الدار: ساحتها.

(٣) مضفر: صبغت صفائر شعره.

وهذا المعنى تلاعب به الجماعة بعد ابن العفيف، ولكن ما برح دقيقة خاصاً. وقال في ذم الحشيش وأجاد:

ما للحشيشة فضل عند آكلها
صفراء في وجهه خضراء في فمه
لكنه غير مصروف إلى رشده
حمراء في عينه سوداء في جسده
وقال في مליح أصيبت عينه:

كان بعينين فلما طغى
وذاك من لطف بعشاقه
بسحره ردّاً إلى عين
ما يضرب الله بسيفين
وتورية السيف تناولها الجماعة بعد ابن العفيف، ولولا خشية الإطالة لذكرت غالبها، وقال في مليح بدوي:

بدوي كم جدلت مقلته
ذو محيا يصيح يا لهلال
عاشقاً في مقاتل الفرسان^(١)
ولحاظ تقول يا لسان^(٢)
وقال في مليح جرح بسكين:

لم تجرح السكين كف معذبي
هي مثل ما قد قيل جارحة له
إلا لمعنى في الغرام يحقق
ولكل جارحة إليه تشوق^(٣)
وقال في مليح مؤذن بالجامع الأموي:

فديت مؤذناً تصبو إليه
يطير النسر من شوق إليه
بجامع جلق منا النفوس
وتهوى أن تعانقه العروس
هذان البيتان توارد على نكتهما شمس الدين بن العفيف والشيخ جمال الدين بن نباتة، ورأيتهما في ديوانه، والبيت الأول بنصه والبيت الثاني فيه بعض تغيير وهو:

لقد زف الزمان لنا مليحاً
تكدأ بأن تعانقه العروس
وقال في مليح منير:

منير وجدي به
وكيف تخفى لوعتي
أكتمه ويظهر
وقد غدا ينير

(١) جعّوجندل: الفارس رماه أرضاً وقتله.

(٢) هلال وسان: بالإضافة إلى معنيهما المتداولين فهما إسما قبيلتين.

(٣) الجارحة: العضو العامل من أعضاء الجسد.

وقال أيضاً يصف ساطاً:

بساط يملأ الأحداق حسناً
ويشرح حين ييسط كل صدر
ويهدي للقلوب به سرورا
وخير البسط ما يرضي الصدورا

وقال [من] دو بيت:

الصب بحبكم عراه الوله
إيضاح غرامه غدا تكلمة
في طوع هواكم عصى عدله^(١)
إذ كان مفصل الهوى مجمله^(٢)

وقال أيضاً:

أفدي عرباً بوادي الجزع
لما بحثوا عندي في فرقتنا
يا وحشة ناظري لهم في الربع
أنشأت لهم مسائلأ من دمعي

ومنه قوله:

يقول وقد رنا عن لحظ ظبي
أأقتلكم بطرفي أم بعطفي
وهز الغصن في ورق الغلائل
فقلت بما تشا فالكل ذابل^(٣)

وهذه النكتة أخذها الشيخ جمال الدين بقافيتها وقال:

له معطف لدن القوام ومرشف
رقيق على التقبيل فالكل ذابل

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه الذي جمعه من إملاء الشيخ أثير الدين أبي حيان، وسماه «مجانبي الهصر من أدب أهل العصر»: أنشدني الشيخ أثير الدين، قال: أنشدني شمس الدين محمد بن العفيف في مליح طباخ:

رب طباخ مليح
مالكي أصبح لكن
فاتر الطرف غرير^(٤)
شغلوه بالقدور^(٥)

قال أنشيخ صلاح الدين: وأنشدني الشيخ أثير الدين، قال: أنشدني شمس الدين محمد ابن العفيف لنفسه:

(١) الولة: ذهاب العقل لشدة الحزن.

(٢) المفصل والمجمل: من آيات القرآن الكريم واضحة وغامضة.

(٣) العطف: الجانب.

(٤) الغرير: المغرور والذي لا تجربة له.

(٥) مالكي نسبة إلى الإمام مالك - القدور: الجبر، نظرية بعض الفرق الإسلامية التي لا تؤمن بالاختيار.

ليس خليلاً لي ولكنه
يا ردفه جرت على خصره
يضمرم في الأحشاء نار الخليل^(١)
رفقاً به ما أنتم إلا ثقيل^(٢)

وهذه النكتة تلاعب بها غالب المتأخرين بعد ابن العفيف. ومن لطائفه قوله وقد احتجب بعض أصحابه عنه:

ولقد أتيت إلى جنابك قاضياً
وأتيت أقصد زورة أحياء بها
باللثم للعتبات بعض الواجب
فرددت يا عيني هناك بحاجب^(٣).

هذه النكتة أخذها الشيخ جمال الدين بن نباتة غفر الله له بقافيتها فقال:

حجبتني فازددت عندي عسلاً
وقلت لا أعدم من سيدي
برغم من أقبل كالعائب
من كان عيني فغدا حاجبي

وألم الشيخ زين الدين بن الوردي بهذه النكتة، ولكن سبكها في غير هذا القالب بقوله:

زرتكم صحبة وودا
سعيي إلى بابكم جنون
ألفيتكم مغلقين بابا
عليه أستأهل الحجابا

ومن لطائفه في أغزاله قوله:

وكم يدعي صوناً وهذي جفونه
وكم يتجافى خصره وهو ناحل
بفترتها للعاشقين يواعد
وكم يتحالي ريقه وهو بارد

ومن هنا أخذ الشيخ صفي الدين الحلبي وليته ما قال:

وما فيه شيء ناقص غير خصره
وما فيه شيء بارد غير ريقه

ومنه قوله:

أيسعدني يا طلعة البدر طالع
ولو أن قسا واصف منك وجنة
ومن شقوتي خط بخدك نازل
لأعجزه نبت بها وهو باقل^(٤)

(١) الخليل: الصديق الملازم وإبراهيم خليل الرحمن ﷺ.

(٢) الردف: العجز والمؤخرة.

(٣) الزورة: الزيارة - الحاجب: ما يعلو العين من الشعر والخادم الذي يحجب الحاكم عن الناس.

(٤) باقل: مثمر قرونا تشبه الباقلاء، وباقل الذي يضرب المثل به في العي وقس: هو ابن ساعدة الإيادي، خطيب مفوه.

الذي يظهر لي أن النكتة في باقل من اختراعات ابن العفيف، فإني لم أجد أحداً ممن تقدّمه ألمّ بها، ولكن ما صبر الشيخ جمال الدين عنها لحسنها فقال من قصيدة ضمناً:

تطاوت الأغصان تحكي قوامه وعند التناهي يقصر المتطاول
وأعيا فصيح الوقت نبت عذاره وعير قسا بالفهاة باقل^(١)

وكذلك الشيخ زين الدين بن الوردى، ما صبر عنها حتى قال:

وبي أغيد من حسنه البدر خائف على نفسه والنجم في الغرب مائل
فلو رام قس وصف باقل خده لعير قساً بالفهاة باقل

ومن لطائف قوله:

يا خاله خضرة بعارضه حرستها عن متيم مغرى
كف عن العاشقين مقتصراً هل أنت إلا حويرس الخضرا^(٢)

ومن نكته اللطيفة قوله:

زار وجيب الظلام منسدل فانشق ثوب الدجى عن الفجر
وبت من صدغه ومبسمه أجمع بين الحشيش والخمر

هذه النكتة أخذها الشيخ زين الدين بمعناها وقال:

ومليح قال جهراً يا نفوس الناس عيشي
من رضابي وعذارى بين خمر وحشيش

ومن لطائف نكت ابن العفيف قوله:

وأتى بوجه كالهلال مركب من قامة غصنية هيفاء
وبمقلة خفق الفؤاد وقد رنت وكذا الجنون يكون عن سوداء^(٣)

(١) الفهاة: العي.

(٢) حويرس: تصغير حارس، للتحقير.

(٣) رنا: نظر بعطف - السوداء: مرض عصبي يصيب الإنسان نتيجة خلل في إفراز أحد الأخطاط الأربعة التي بها قيام الجسم وهي: الصفراء، الدم، البلغم والسوداء.

ومن لطائف اختراعاته قوله:

بدا وجهه من فوق أسمر قده وقد لاح من سود الذوائب في جنح
فقلت عجيب كيف لم يذهب الدجى وقد طلعت شمس النهار على رمح

ومنه قوله والنكتة غريبة وبديعة:

أسكرني باللفظ والمقلة الكحلء والوجنة والكاس
ساقٍ يريني قلبه قسوة وكل ساق قلبه قاس (ي)

ومن لطائفه أيضاً قوله:

يا باعثاً شعره انتشاراً بقامة ما لها نظير
الموت من ناظريك لكن من شعرك البعث والنشور^(١)

ومن لطائفه قوله في مليح اسمه مالك:

مالك قد أحل قتلي برمح الـ قد منه وراح قلبي طعينه
ليس يفتي سواه في قتل صب كيف يفتي ومالك بالمدينة^(٢)

ومنه قوله مع حسن التضمين:

جلا ثغراً وأطلع لي ثنايا يسوق بها المحب إلى المنايا
وأنشد ثغره يبغي افتخاراً أنا ابن جلا وطلاع الثنايا^(٣)

ومن لطائفه قوله:

بأبي شادن غدا الوجه منه يخجل النيرين في الإشراق^(٤)
سلب القضب لينها فهي غيظي واقفات تشكوه بالأوراق

(١) البعث: إعادة الإحياء - النشور: القيام من الموت.

(٢) كيف . يفتي ومالك في المدينة: أي لا يفتي ومالك في المدينة ومالك هو الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي.

(٣) أنا ابن جلا: واضح النسب، وطلاع؛ صيغة مبالغة من طلع والثنايا: الطرق الجبلية، وطلاع الثنايا: الذي يتحمل الصعاب. وهذا القول هو للحجاج بن يوسف الثقفي من خطبة في أهل العراق يوم تولى أمره.

(٤) النيرين: الشمس والقمر.

البيت الثاني بلفظه، ومعناه تقدم لابن عبد الظاهر، والله أعلم أيهما السابق. وابتدل حجاب هذه النكتة بعد ذلك المتأخرون، منهم الشيخ زين الدين بن الوردي بقوله:

قدّه جار اعتدالا فله فتك ونسك
سلب الأغصان ليناً فهي بالأوراق تشكو

ومن نكته البديعة الغريبة قوله:

ومستتر من سنا وجهه بشمس لها ذلك الصدغ في
كوى القلب مني بلام العذار فعرفني أنها لام كي^(٥)

ومن لطائفه قوله:

كأنني واللواحي في محبته في يوم صفين قد قمنا بصفين
وكيف يطلب صلحاً أو موافقة ولحظه بيننا يسعى بسفين

ومن نكته التي تطفل الناس بعده عليها قوله:

بأبي أفدي حبيباً تيم القلب غراما
عذر العاذل فيه مذ رأى العارض لاما

وقال:

لو لم تكن ابنة العنقود في فمه ما كان في خدّه القاني أبو لهب^(٦)
تبت يدا عاذلي فيه فوجنته حمالة الورد لا حمالة الحطب^(٧)

أخذه ابن نباتة وقال:

حمالة الحلّى والديباج قامته تبت غصون النقا حمالة الحطب

قلت ورد ابن العفيف أغلى من ديباج ابن نباتة، من حيث المناسبة الأدبية، والله أعلم. وهذه النكتة أيضاً أغار عليها المعمار بقوله:

تعرض البدر يحكي حسن صورته فراح منكسفاً وانشق بالغضب
وبانة الجزع ماست مثل قامته تبت وقد أصبحت حمالة الحطب

(١) لام العذار: أطال سالفه وجعله بشكل حرف اللام، ولام كي في النحو هي التي تنصب الفعل المضارع.

(٢) ابنة العنقود: الخمرة - أبو لهب هو عم النبي محمد الذي خالف دعوته وحاربه.

(٣) تبت: انقطع وخسر - وحمالة الحطب: زوجة أبي لهب.

وممن أحسن المباشرة في نظم التورية سيف الدين بن المشد. فمن نكته البديعة
الغريبة قوله:

مسكية الأنفاس تملي الصبا
عنها حديثاً قط لم يملل
جننت لما أن سرى عرفها
وما نرى من جن بالمنديل^(١)

ومن لطائفه قوله:

ومجلس راق مر واش يكدره
وما فيه ساع سوى الساقى وليس به
ومن رقيب له باللوم إيلام
على الندامى سوى الريحان نمام

هذه النكته تقدمت للبدر بن لؤلؤ الذهبي، وذكرت من أغار عليها من الجماعة،
ولكن الأمير سيف الدين زادها نكته أخرى بديعة، واستعملها أحسن من الجماعة، ومن
لطائفه قوله:

وشادن أورد في هجره
أصبحت حران إلى ريقه
لهيب حر الشوق والفرقه
فليت لي من قلبه رقه^(٢)

هذه النكته نظمتها في مبادي العمر، ولم أفق على قول ابن المشد، إلا بالديار
المصرية في الأيام المؤيدية فقلت:

أرشفني ريقه وعانقني
فبت من خصره وريقته
وخصره يلتوي من الدقة
أهيم بين الفرات والرقه

ومن لطائفه قوله:

في يوم غيم من لذاذة جوّه
والروض بين تكبر وتواضع
غنى الحمام وطابت الأنداء
شمخ القضيب به وخر الماء

ومن لطائفه أيضاً قوله:

أذن القمري فيها
فانثنى الغصن يصلي
عند تهويم النجوم^(٣)
بتحيات النسيم

(١) العرف: الرائحة الطيبة، الشذا.

(٢) حران: ظمان.

(٣) القمري: حمام مطوق حسن الصوت - التهويم: النوم الخفيف، وتهويم النجوم إختفاؤها.

ومن لطائفه قوله :

لئن صرفت وحاشا لك فالدنانير تصرف
وما اعتقلت كريماً إلا وأنت مثقف

ومن لطائفه قوله :

الحمد لله في حلي ومرتحلي على الذي نلت من علمي ومن عملي
بالأمس كنت إلى الديوان منتسباً واليوم أصبحت والديوان ينسب لي

ومن لطائفه قوله :

لعبت بالشطرنج مع شادن رشاقة الأغصان من قدّه (١)
أحل عقد البند من خصره وألثم الشامات من خدّه
تورية الشامات رخصها المتأخرون بعد سيف الدين بن المشد . وممن أخذها الشيخ
جمال الدين بن نباتة فقال :

أفديه لآعب شطرنج قد اجتمعت في شكله من معاني الحسن أشتات (٢)
عيناه منصوبة للقلب غالبية والخذ فيه لقتل النفس شامات

انتهى ما تخيرته ووعدت بإيراده في باب التورية . من كلام هذه العصابة، التي
مشت تحت العصابات الفاضلية، وصار لها من بعده في نظم التورية أعظم روية، وقدمت
إمامهم الذي صلت الجماعة خلفه، وهو القاضي الفاضل وبعده القاضي السعيد ابن سنا
الملك، والشيخ سراج الدين الوراق، وأبو الحسين الجزار، ونصير الدين الحمامي،
وناصر الدين حسن بن النقيب، والحكيم شمس الدين بن دانيال، والقاضي محيي الدين
ابن عبد الظاهر، وهذه [هي] الفرقة التي تقدمت بعد الفاضل بالديار المصرية . وأما الفرقة
الشامية فإمام جماعتها الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماة،
وبعده مجير الدين بن تميم، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي، ومحيي الدين بن
قرناص الحموي، وشمس الدين بن العفيف، وسيف الدين بن المشد .

ولكن عجبت من الشيخ صلاح الدين الصفدي كيف أدخل في كتابه المسمى «بفض
الختم عن التورية والاستخدام» بذكر الشيخ علاء الدين علي بن المظفر الكندي الشهير
بالوداعي، وهو أشهر من قفا نيك، في نظم التورية، بل هو امرؤ قيسها وكنديها، وإذا

(١) الشادن : الغزال .

(٢) أشتات : متفرقات .

ذكر شرف نسبها فإنه علويها، وانتقل من حلب إلى دمشق المحروسة، وعاصر الجماعة المذكورين، ومولده سنة أربعين وستمائة، ووفاته سنة ست عشرة وسبعمائة، فكانت مدة حياته ستاً وسبعين سنة. ومولد السراج الوراق سنة خمس عشرة وستمائة، ووفاته سنة خمس وتسعين وستمائة، فكانت مدة حياته ثمانين سنة. ومولد أبي الحسين الجزار سنة إحدى وستمائة، ووفاته سنة اثنتين وسبعين وستمائة، فمدة حياته إحدى وسبعون سنة. ووفاة نصير الدين الحمامي لسنة اثني عشرة وسبعمائة. ووفاة ناصر الدين بن النقيب سنة سبع وثمانين وستمائة. ووفاة الحكيم بن دانيال سنة عشرة وسبعمائة. ومولد محيي الدين ابن عبد الظاهر سنة عشرين وستمائة، ووفاته سنة اثنتين وتسعين وستمائة، فمدة حياته اثنتان وسبعون سنة. ومولد شيخ الشيوخ الأنصاري سنة ست وثمانين وخمسائة، ووفاته سنة إحدى وستين وستمائة، فمدة حياته خمس وسبعون سنة. ووفاة مجير الدين بن تميم سنة إحدى وثمانين وستمائة. ووفاة بدر الدين يوسف الذهبي سنة ثمانين وستمائة. ومولد شمس الدين بن العفيف سنة اثنتين وستين وستمائة، ووفاته سنة سبع وثمانين وستمائة، فمدة حياته خمس وعشرون سنة. ومولد سيف الدين بن المشد سنة اثنتين وستمائة، ووفاته سنة خمس وخمسين وستمائة. فمدة حياته ثلاث وخمسون سنة. وجل القصد من ذلك، تحقيق الواقف على هذا الشرح، إن علاء الدين الوداعي عاصر الجماعة أو غالبهم، وقد تقدم قولي في باب التوجيه، إن الشيخ علاء الدين الوداعي سبك التورية في قوالب لم يسبقه أحد من هذه الجماعة إليها، ولا سقط فكره عليها.

ومع علو قدر الشيخ جمال الدين بن نباتة، وهو الذي مشت ملوك الأدب قاطبة، بعد الفاضل، تحت أعلامه، تطفل على موائد نكت الوداعي ومعانيه، وعلى الأنواع الغريبة من تواريه. وأوردت هناك من هذا القدر نبذة، ولكن تعين إيرادها هنا كاملة لأنها حق من حقوق التورية، وصل في تقدمه إلى غير مستحقه بحيث أن الطالب، إذا أراد أن يفرد هذا النوع، أعني التورية، كان بإفراده فريداً، وعقداً نضيداً. وكلما أوردته من أنواع التورية في غير باب، عزمت على نظم شمله هنا ليجتمع كل غريب بأقاربه وأنسابه، وقد عن لي أنني إذا فرغت من هذا الشرح أن أفرد باباً للتورية والاستخدام، وأجعلهما مصنفاً مفرداً، وأسميه: كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام، فإن الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه، لم يشف القلوب بترتيبه، ولا تفقه في بديعه وغريبه.

فمن موائد الوداعي التي تطفل الشيخ جمال الدين بن نباتة عليها قوله من قصيدة:

أثخنت عينها الجراح ولا إثم عليها لأنها نعساء
 زاد في عشقها جنوني فقالوا ما بهذا فقلت بي سوداء

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة، فقال من مطلع قصيدة:

قام يرنو بمقلة كحلاء علمتني الجنون بالسوداء

والشيخ جمال الدين بن نباتة أدرك الوداعي وهو في عنفوان شبابه، ولمعان سيوف آدابه، وقد تقدم مولد الوداعي ووفاته، ومولد الشيخ جمال الدين سنة ست وثمانين وستمائة، وتوفي سنة ثمان وستين وسبعمائة، فمدّة حياته اثنتان وثمانون سنة. وعلى هذا كان سن الشيخ جمال الدين ابن نباتة عند وفاة الوداعي ثلاثين سنة والله أعلم. ومما نعطف به على ما تقدم قول الوداعي:

إذا رأيت عارضاً مسلسلاً في وجنة كجنة يا عاذلي^(١)
فاعلم يقيناً أنني من أمة تقاد للجنة بالسلاسل

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة، وزناً وقافية، وقال:

أفدي الذي ساق إليها مهجتي فرع طويل تحت حسن طائل
قلبي بصدغيها إلى طلعتها يقاد للجنة بالسلاسل

ومن ذلك قول الشيخ علاء الدين الوداعي:

لقد سمح الزمان لنا بيوم غدا فيه السمي مع السمي^(٢)
تجمعنا كأننا ضرب خيط عليّ في عليّ في عليّ

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة، أيضاً وزناً وقافية، وقال:

علوت اسماً ومقداراً ومعنى فيا لله من حسن جليّ
كأنكم الثلاثة ضرب خيط عليّ في عليّ في عليّ

قال الشيخ علاء الدين الوداعي:

من آخذ من خده بدم الشهيد المغرم فالريح ريح المسك منه
ولونه لون الدم

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال:

لا ينكر الكاسر من جفنه دم الشهيد الصابر المغرم
فالريح ريح المسك من خده كما ترى واللون لون الدم

(١) العارض: المطر في غير أوانه - المسلسل: الدائم الهطول.

(٢) السمي: الذي يسمى بالإسم نفسه.

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

يفتن بالفاتر من طرفه وريقه البارد يا حار

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال من قصيدة:

لو ذقت برد رضاب من مقبله يا حار ما لمت أعضائي التي ثملت^(١)

مع أن الشيخ جمال الدين فتر عن الفاتر.

وقال الشيخ علاء الدين الوداعي:

قيل إن شئت أن تكون غنياً فتزوّج وكن من المحصنين^(٢)

قلت ما يقطع الإله بحُرٍ لم يضع بين أظهر المسلمينا

أخذه الشيخ جمال الدين بالقافية، وقال:

قال لي خلي تزوّج تسترح من أذى الفقر وتستغني يقينا

قلت دع نصحك واعلم أنني لم أضع بين ظهور المسلمينا

قلت إن قافية محصنين أصدق من يقين ابن نباتة في مقطوعه.

قال الشيخ علاء الدين الوداعي مضمناً:

يا عاذلي في النكاريش أطرح عدلي واعذر فعذري فيهم واضح حسن^(٣)

فالمرد إن حاولوا حربي بهجرهم إذا لقام بنصري معشر خشن^(٤)

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة فقال:

لو آذنتني عدالي بحربهم إذ في النكاريش قد أصبحت هيما

إذا لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا^(٥)

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

عذب مقبله وحلو لحظه أو ما تراه بالنعاس معسلا^(٦)

(١) المقبل: مكان التقبيل (الشفاه) - ثمل: سكر.

(٢) المحصنين: المتزوجين.

(٣) النكاريش: جمع نكريش وهو اللواطي، وقد سبق وأشرنا إلى هذه اللفظة (ص ١٣٧).

(٤) المراد: جمع أمرد وهو الذي لا لحية له من الشبان.

(٥) الحفيظة: الغضب أو الحمية - اللوثة: الجنون.

(٦) المعسل: من التعسيل وهو النوم الخفيف، أن ينام وتبقى عيناه مفتوحتين قليلاً.

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال من قصيدة:

معسل بنعاس في لوحظه أما تراها إلى كلّ القلوب حلت

قال الشيخ علاء الدين الوداعي، من القصيدة المذكورة:

ألحاظه وهي السيوف كليله ويكون تعذيب الكليله أطولاً^(١)

أخذه الشيخ جمال الدين مع القافية وقال من قصيدة:

بليت به ساجي اللحاظ كليلها وما زال تعذيب الكليله أطولاً^(٢)

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

والنهر كالمبرد يجلو الصدا ببرده عن قلب ظمآنه

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال من قصيدة:

والنهر فيه كمبرد فلأجل ذا يجلو الصدا

لكن، نقص نهره وكلّ مبرده، عن نكتة ببرده في بيت الوداعي، فإن الشيخ جمال الدين حط مكانها في بيته: فلأجل ذا. وشتان.

قال الشيخ علاء الدين الوداعي في مطلع قصيدة:

ما كنت أول مغرم محروم من باخل بادي النفار كريم^(٣)

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال من قصيدة:

مبخل يشبه ريم الفلا يا طول شجوي من بخيل كريم

قال الشيخ علاء الدين الوداعي في مליح أعمى:

بروحي غزال راح في الحسن جنة تعشقتة أعمى فهمت من الوجد

إذا ما تردى قائداً بيمينه تيقنت حقاً أنه جنة الخلد

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة بالقافية، وقال:

أفديه أعمى مغمداً لحظه ليرتعي في خده الوردي

تمكنت عيناي من وجهه فقلت هذي جنة الخلد

(١) الكليله: من السيوف غير القاطعة.

(٢) ساجي اللحاظ: ساكنه ولينه.

(٣) النفار: الهجر وعدم الوصال - كريم الحسب والأصل.

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

بخلت عليّ بدّر مبسمها فغدت مطوقة بما بخلت^(١)

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال من قصيدة:

بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لائم فغدت مطوقة بما بخلت به

هذا المعنى استحقته على الشيخ علاء الدين الوداعي، والشيخ جمال الدين بن

نباتة، فإني زدت الاقتباس من الحديث تورية بقولي:

ناحت مطوقة الرياض وقد جرى دمعي الملوّن بعد فرقة حبه

لكن بتلوين الدموع تباخت فغدت مطوقة بما بخلت به

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة يصف مليحاً من المغل:

وما يبيري هوى المشتى ق إلا ذلك المغلي^(٢)

قال الشيخ جمال الدين من قصيدة:

من المغل أشكو نحوه ألم الجوى وطب الهوى عندي كما قيل بالمغلي

قال الشيخ علاء الدين الوداعي:

يا نديمي والذي عاهدني أنه عن شربها لن يقصرا

اسقني صرفاً ودع عذالنا يضربون الماء حتى يخصرا^(٣)

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال:

اسقني صرفاً من الرا ح تحت الهم حتا^(٤)

ودع العذال فيها يضربون الماء حتى

قال الشيخ علاء الدين الوداعي، من مطلع قصيدة:

باللوى صعدة عليها لواء كل طعنات نصلها نجلاء^(٥)

(١) المطوقة الحمامة، وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سيطوقون ما بخلو يوم القيامة﴾.

(٢) المغلي: نسبة إلى المغل وهم جيل من الناس (المغول). ونوع من الحلوى.

(٣) يخصرا: أي يختصر ويقل.

(٤) حتّ: أزال.

(٥) اللوى: مكان - الصعدة: الطويلة المستقيمة كالرمح - نجلاء: الطعنة الواسعة.

وقال بعد المطلع :

لا تخل عندها سماعاً لشكوى فلماذا قالوا لها صماء^(١)

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة في مطلع قصيدة :

وعدت بطيف خيالها أسماء إن كان يمكن مقلتي إغفاء

وقال بعد المطلع :

يا من يطيل من الجوى لقوامها شكواه وهي الصعدة الصماء

قال الشيخ علاء الدين الوداعي :

يا ربوة أطربتني وحسنت لي هتكي

إذ لست أبرح فيها ما بين دف وجنك^(٢)

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال :

بالجنك من مغنى دمشق حمائم في دف أشجار تشوق بلطفها
فإذا أشار لها الشجي بكأسه غنت عليه بجنكها وبدفها

وتطفل أيضاً الشيخ صلاح الدين الصفدي على الوداعي، في جنكه ودفه، فقال :

انهض إلى الربوة مستمتعاً تجد من اللذات ما يكفي
فالطير قد غنى على عوده في الروض بين الجنك والدف^(٣)

وتطفل على الوداعي أيضاً، الشيخ زين الدين بن الوردي، وتزاحم هو والصفدي على العود :

دمشق قل ما شئت في وصفها واحك عن الربوة ما تحكي
فالطير قد غنى على عوده في الروض بين الدف والجنك

قال الشيخ علاء الدين الوداعي، من قصيدة يصف نار شوقه لمحجوبه مع كتمان سره :

في حشاه للشوق نار تلظى وبفيه حفظاً لسرك ماء^(٤)

(١) تخل: نهي من خال: ظن - الصماء: التي لا تسمع، والقوية.

(٢) الجنك: من آلات الطرب، الطنبور.

(٣) العود: الغصن، وآلة موسيقية.

(٤) بفيه ماء: أي بضمه الماء، فلا يستطيع الكلام.

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة، بالقافية، وقال من قصيدة ولكن زاده حسناً:
فيا عجباً مني لإنسان مقلتي يحدث أخباري وفي فمه ماء
ومن لطائف الوداعي ونكته، في العود الذي أخذه منه الشيخ صلاح الدين
الصفدي، والشيخ زين الدين بن الوردي واستعملاه بلا أوتار، قوله:

والروض يهدي مع نسيم الصبا نشر خزاماه وريحانه
وراسل القمري ورقاءه شدواً على أوتار عيدانه^(١)

ويعجبني من هذه القصيدة قوله، مشيراً إلى رأس العين بعلبك:

يا حادي الأظعان إن شارفت من بعلبك سفح لبنانه^(٢)
فاقرأ تحياتي على نازل في محجر العين كإنسانه

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

يا جيرة بالغوير قد نزلوا الله من جيرة ونزال
ما عطل الطرف بعد فرقتم من دمه واكشفوا عن الحال

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال:

حلوا بعقد الحسن أجسادهم وحاولوا صبري حتى استحال
فآه من عاطل صبر مضى والحمد لله على كل حال

قال الشيخ علاء الدين الوداعي، وأجاد إلى الغاية:

قالت الورق إذ شدا فشجاها وشوقا
ما رأينا مقرطقاً قبل هذا مطوقاً^(٣)

ومثله في تورية المطوق:

يا جنة كوثرها رضا به المروق
وفوق غصن قده عذاره مطوق

(١) القمري: نوع من الحمام، وكذلك الورقاء. وكما يبدو هو ذكر الورقاء.
(٢) الحادي: الذي يسوق الإبل بواسطة الحداء وهو نوع من الغناء الشجي تحت بواسطته الإبل على السير - الأظعان: المسافرون جمع ظعن ويعني به الإبل.
(٣) المقرطق: لابس القرطق وهو نوع من الثياب الإيرانية المزركشة.

ومثله قوله:

فديت من مبسمه زهراً لغصن قده
وصدغه مطوّق في روضة من خده

النكتة في المطوق من اختراعات الوداعي، وتطفل عليها الشيخ جمال الدين بن
نباتة، حتى في تسمية كتابه، ومن نظمه فيها قوله:

طوّق جود الوزير جيدي فلست عن مدحه أعوّق
أسجع بالمدح في علاه لا غرو أن يسجع المطوّق

قال الشيخ علاء الدين الوداعي:

لي من الطرف كاتب يكتب الشو ق إليه إذا الفؤاد أمله
سلسل الدمع في صحيفة خدي هل رأيتم مسلسلات ابن مقله
هذا المعنى قلبه ابن نباتة، بعد الوداعي، كثيراً وسبكه في قوالب كثيرة، وأظنه
أخذه وزناً وقافية بقوله:

قلت للكاتب الذي ما أراه قط إلا ونقط الدمع شكله
إن تخط الدموع في الخدّ خطأً ما يسمى فقال خط ابن مقله

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

قلبي مطبع في هواك وأنت لي من بين دوح الحسن غصن خلاف^(١)

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة، وقال في مطلع قصيدة:

قاسي الجوانح لين الأعطاف أهواه في الحالين غصن خلاف

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

كيف أقوى لحمل سخط وبعد بعدما كان من رضا وتداني
فتكرم بعطفة والتفات مثل ما في الأغصان والغزلان

أخذه الشيخ جمال الدين، فقال من قصيدة:

غزال رمل ولكن غير ملتفت وغصن بان ولكن غير منعطف

(١) الخلاف: شجر الصفصاف.

ومن لطائف الشيخ علاء الدين الوداعي ونكته الغريبة قوله :

قال لي العاذل المفند فيها يوم وافت فسلمت مختاله^(١)
قم بنا ندعي النبوة في العشق فقد سلمت علينا الغزاله

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة فقال :

يا غزلاً أهدى السلام إلى المغمـرم لا تنكرن حالاً لديه
كيف لا يدعي النبوة في العشق وقد سلم الغزال عليه

وأخذه الشيخ صفي الدين الحلبي ، فقال في ثلاثة أبيات تركيبها ضعيف :

تنبأ فيك قلبي واسترابت قلوب صدهم عنه ضلال^(٢)
وردهم الهوى أن يؤمنوا بي وقالوا إن معجزه محال
فمذ سلمت سلمت البرايا إليّ وقيل كلمه الغزال

ومن لطائف الشيخ علاء الدين الوداعي أيضاً ونكته الغريبة، قوله على لسان صديق اسمه عمرو قد هام بمليح في إحدى أذنيه لؤلؤة :

كم قلت لما مرّ بي مقرطق يحكي القمر
هذا أبو لؤلؤة منه خذوا ثأر عمر^(٣)

ومن لطائفه أيضاً في مليح اسمه سعد :

إذا ما كان قتلي يا حياتي مرادك من يردك أو يصد
ففوق سهم طرفك نحو قلبي فذاك أبي وأمي وارم سعد

ومن لطائفه أيضاً في مليح بدوي :

أقبل من حيه وحيها فأشرقت سائر النواحي
فقلت يا وجه من بني من فقال لي من بني صباح

(١) العاذل : اللاتم - المفند : الضعيف الرأي - مختاله : متبختره في مشيها، متكبرة .

(٢) استراب : شك .

(٣) أبو لؤلؤة : غلام فارسي طعن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، فكانت الطعنه سبباً لوفاته

ومن نكته البديعة الغريبة قوله :

تعجبوا لما غدت أدمعي
لا تعجبوا طرفي ربُّ الهوى

بيضا وراحت كالدم القاني
فكل يوم هو في شأن^(١)

ومن نكته البديعة الغريبة أيضاً قوله :

وليلة خلت مجلسنا سماء
فبات الطرف يرعى البدر منهم

وصحبي كالثريا في اجتماع
إلى أن حل منزلة الذراع^(٢)

ومن نكته البديعة الغريبة أيضاً قوله من دو بيت :

يا غصن نقا أينع بالأزهار
ريحان عذارك الذي تيمني

يا ألطف من نُسَيْمة الأسحار
من ولده من قلم الأشعار

ومن لطائفه قوله من دو بيت أيضاً :

لما حجب الكرى عن الأماق
ناديت وقد تزايدت أشواقي

وانقاد مع العدى على العشاق^(٣)
يا غصن رضيت منك بالأوراق

ومن لطائفه الغريبة قوله فيمن يبيع السكر بالدين :

أرى من الواجب أن يصرف العطار بالصد وبالزجر^(٤)
فأي تصريف وذوق لمن يدين السكر بالصبر^(٥)

ومن نكته الغريبة أيضاً من قصيدة :

يا طالباً للكيمياء ولم
زر لائماً عتبات ساحته

يحصل على عين ولا أثر^(٦)
تظفر إذا بمكرم الحجر

وهذا ألمعنى تطفل عليه الشيخ جمال الدين بن نباتة، وكثير من الناس، بعد الوداعي .

(١) هذا تضمن لقوله تعالى: ﴿يسئله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن﴾ الرحمن،

٢٩/٥٥ .

(٢) منزلة الذراع: من منازل القمر، وهو نجم على شكل الذراع.

(٣) الأماق: جمع مؤق وهو مكان خروج الدمع من العين.

(٤) العطار: في الأصل بائع العطر وتطلق على البائع إطلاقاً.

(٥) الصبر: يقصد أنه مرّ المذاق.

(٦) العين: معظم الجسم - الأثر: ما يدل على وجود جسم.

ومن لطائفه قوله:

يا عز والله العزيز الذي
له خطرت من نحوكم نسمة
ولا سرت منا إلى أرضكم
إلا تعرضت لتسألها^(١)
إلا تمسكت بأذيالها

ومن لطائف مجونه قوله:

لنا شاعر قد هذب الطبع شعره
إذا خمس الناس القصيد لحسنه
وأصبح عاصيه على فيه طيعا
يحق لشعر قاله أن يسبعا^(٢)

ومن نكته البديعة الغريبة، قوله مع حسن التضمين:

وشادن مثل الضحى وجهه
حتى بدا ليل عذار له
كتمت عشقي فيه خوف الرقيب
فبحت والليل نهار الأديب

ومن لطائفه التي تقدم بها قوله:

كلما رمت فيك إنكار حبي
عرفته لام العذار غرامي
من عذول يزيد في تعنيفي^(٣)
بك واللام آلة التعريف،

ومن نكته التي هي نوع من السحر قوله في مطلع قصيدة:

أعيذ ريم الترك بالروم
والصدغ مع فيه بحم^(٤)

وما أحلى ما قال بعده، ولم يخرج من مطابقة التورية:

وخده المشرق قد صح في
عذاره المعوج تقويمي

ومن نكته البديعة الغريبة المطربة قوله:

وأغنّ ساجي الطرف ذي هيف
والواو في وأغنّ للقسم^(٥)

(١) التسأل: السؤال. ونعتقد أن البيت. يبدأ بـ «لا» بدلاً من «له» لمناسبة المعنى.
(٢) خمس القصيد أو سبعة: من الخمس والمسيح: جعل مقاطع لكل مقطع خمسة أبيات تأتي القافية في آخر البيت الأخير. أو سبعة أبيات والقافية في آخر البيت السابع.
(٣) رام: أراد- العذول: اللائم. والتعنيف: التبكيت واللوم.
(٤) الروم وحم: سورتان من سور القرآن الكريم. وأعيذ: أحمي.
(٥) الأغنّ: الذي في صوته غنّه - ساجي الطرف: ساكنه.

- قالت خلاخله أيمكنني
ومن نكته البديعة الغريبة قوله من قصيدة:
وكأن ريق النحل ريققتها
ومن لطائفه قوله:
- ويوم لنا بالنيرين رقيقة
وقفنا وسلمنا على الدوح بكرة
ومن لطائفه أيضاً قوله:
- وذي دلال أهيف أحور
طاف على القوم بكاساته
ومن نكته البديعة الغريبة قوله:
- روّ بمصر وبسكانها
وارو لنا يا سعد عن نيلها
ومن اختراعاته البديعة الغريبة قوله:
- سقياً لكرم مدامة
خلعت علينا سكرة
ومن نكته البديعة الغريبة قوله:
- رمتني سود عينيه
وما في ذلك من بدع
- نطق وماء الساقِ ملء فمي^(١)
فيها الشفاء لمهجة نحل^(٢)
حواشيه خال من رقيب يشينه^(٣)
فردت علينا بالرؤوس غصونه
أصبح في عقد الهوى شرطي
وقال ساقى قلت في وسطي
شوقي وجدد عهدي الخالي^(٤)
حديث صفوان بن عسال
أنشت لنا النشوات ليلا^(٥)
بدوية كما وذيلا
فأصمتني ولم تبطي^(٦)
سهام الليل لا تخطي

(١) الخلاخل: الخلاخيل، جمع خلخال وهو من الحلبي ما تلبسه الفتاة أو المرأة في ساقها - الساق:
الساقى، خففها لإقامة الوزن وإيهام التورية. بين الساقى والساق.
(٢) ريق النحل: العسل - نحل: ضعفت.
(٣) النيرين: الشمس والقمر - ودجلة والفرات - يشينه: يعيبه أو يعكره.
(٤) الخالي: الماضي، البائد.
(٥) النشوة: قمة الفرح والسرور، والسكر.
(٦) أصمى: أصاب وأمات.

أخذه الشيخ جمال الدين بالقافية وقال :

كأنما هو مخلوق على شرطي^(١)
سهامها وسهام الليل لا تخطي

وأغيد كل شيء فيه يعجبني
أجفانه الود ما تخطي إذا رشقت

ويعجبني من نكته الغريبة قوله من قصيدة :

صاده بالغوير ظبي ملول^(٢)
وبها روض خدّه مطلول^(٣)
قد رواه عن طرفه مكحول^(٤)

أهل نجد هل تنجدون محباً
كم دمء مطلولة في هواه
وحدث عن السقام صحيح

وقال وقد عينه الوزير، لرحبة مالك بن طوق :

لست إليها الدهر بالسالك
ترونها تعزى إلى مالك

حاشاك أن تختار لي رحبة
لأنها نار تلظى أما

ومن نكته التي ما حام فكر غيره عليها قوله :

للهد يروي صبره عن علقمه
روي حديث دمه عن عكرمه

وفي أسانيد الأراك حافظ
وكلما ناحت به حمامة

التورية في علقمة وفي عكرمة أيضاً فإنه اسم للحمامة .

ومثله في الغرابة أيضاً قوله وقد توجه من دمشق إلى البلقاء، لزيارة صاحب له يلقب بالشمس، فلما وصل إلى البلقاء وجده قد توجه إلى حسابان، فكتب إليه :

فلم أركم فازداد شوقي وأشجاني
لرؤياه قلت الشمس قالوا بحسبان^(٥)

أتيت إلى البلقاء أبغي لقاءكم
فقلت لي الأقوام من أنت قاصد

انتهى ما أورده من ترجمة الشيخ علاء الدين الوداعي . ومن غرائب نكته البديعة في باب التورية، وأبدت سمو رتبته بتطفل مثل الشيخ جمال الدين بن نباتة على موائد

(١) الأغيد: الناعم الممتشي .

(٢) الملول: الذي لا يثبت على حب شيء .

(٣) المطلول: المهدور الدم دون الأخذ بثأره، والذي أصابه الطل وهو الندى .

(٤) مكحول: أحد رواة الحديث النبوي الشريف، والذي وضع الكحل في عينيه .

(٥) حسابان إسم بلد، وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ .

بدائعه وغرائبه. ولكن أقول إن الجزء من جنس العمل. فكما أغار الشيخ جمال الدين على الوداعي ودخل إلى بيوته وابتذل حجاب بنات فكره، قيص الله له الشيخ صلاح الدين الصفدي. فإن الشيخ جمال الدين رحمه الله كان يخترع المعنى الذي لم يسبق إليه، ويسكنه بيتاً من أبياته العامرة بالمحاسن، فيأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي، بلفظه ولم يغير فيه غير البحر، وربما عام به في بحر طويل يفتقر فيه إلى كثرة الحشو واستعمال ما لا يلائم، فلم يصبر الشيخ جمال الدين على ذلك، وصنف كتاباً ألفه من نظمه ونظم الشيخ صلاح الدين الصفدي، وسماه «خبز الشعير» يعني أنه مأكول مدموم، واستهل خطبته بقوله تعالى: ﴿رب اغفر لي ولوالدي وللمن دخل بيتي مؤمناً﴾^(١)، ورتب كتابه المذكور على قوله: «قلت أنا فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال». وكنت أوردت من خبز الشعير نبذة في أوائل هذا الكتاب، ولكن لم يرض باب التورية إلا بإيراده هنا كاملاً، لأنه حق من حقوقها، فمن ذلك قول الشيخ جمال الدين بن نباتة، قلت:

ومولع بفخاخ يمدّها وشباك
قالت لي العين ماذا يصيد قلت كراك (ي)^(٢)

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

أغار على سرح الكرى عندما رمى الكراكي غزال للبدور يحاكي
فقلت ارجعي يا عين عن ورد حسنه ألم تنظريه كيف صاد كراك (ي)

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة: قلت:

أسعد بها يا قمري برزة سعيدة الطالع والغارب^(٣)
صرعت طيراً وسكنت الحشا فما تعديت عن الواجب

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

قلت له والطير من فوقه يصرعه بالبندق الصائب^(٤)
سكنت قلبي فحركته فقال لم أخرج عن الواجب

(١) نوح، ٢٨/٧١.

(٢) كراك (ي): الأولى: بمعنى النعاس. والثانية بمعنى طيور.

(٣) البرزة: المرأة الحسنة التي تجالس الرجال - الطالع: الحظ والطلعة - الغارب: الكاهل والذهاب، أي سعيدة الإقبال والصدود.

(٤) البندق: حبيبات تضرب بواسطة البندقية وهي نوع من السلاح.

وقال الشيخ جمال الدين: قلت:

فكأنه نشوان من شفتيه^(١)
نعست لواحظه فذب عليه^(٢)

وبمهجتي رشاً يميمس قوامه
شغف العذار بخدّه ورآه قد

أخذه الشيخ الصلاح الصفدي وقال:

تميل حمامات الأراك إليه
أتى خده سرّاً فذب عليه

وأهيف كالغصن الرطيب إذا اثني
له عارض لما رأى الطرف ناعساً

قال الشيخ جمال الدين: قلت:

وكان مني مكان السمع والبصر
فجاء ما خلته نقشاً على حجر^(٣)

يا غادراً بي ولم أغدر بصحبته
قد كنت من قلبك القاسي أخال جفا

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

قسمي وأسلمني إلى البلوى وفر^(٤)
لي قلبه فرأيت نقشاً في حجر

ما زلت أشكو حين وفر في الضنى
حتى تأثر من شكايّة لوعتي

وأحسن ما وقع في هذا الباب، للشيخ جمال الدين بن نباتة أنه قال:

مليء الحسن حالي الوجنتين^(٥)
تباع له القلوب بحبتين^(٦)

بروحي عاطر الأنفاس ألمي
له خالان في دينار خدّ

فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

عليه شامة شرط المحبه
فنقطه بدينار وحبه^(٧)

بروحي خدّه المحمر أضحت
كأن الحسن يعشقه قديماً

(١) يميمس: يتمايل في مشيته، والرشاً: الغزال - النشوان: السكران.

(٢) العذار: خط من النخل والشجر والرمل، والمقصود ورد ذلك المكان أو طيبوره، والله أعلم.

(٣) أخال: أظن - والجفاء: القسوة والهجر.

(٤) الضنى: الحزن والمرض.

(٥) الألمي: الأسمر الشفاه - حالي الوجنتين: من الحلا أي أنهما حلوتين أو أنهما حُلَيْتًا فليس عليهما شعر.

(٦) الخال: الشامة - الحبتين: هما حبنا القلب أو مكان الفرح والحزن والحب والنغض منه، أو هما الصمامان والله أعلم.

(٧) نَقْطَه: جعل عليه نقطاً، أو قدم له هدية في يوم عرسه وهذه تسمى «نقطة».

فلما وقف الشيخ جمال الدين على هذين البيتين، قال: لا إله إلا الله سرق الشيخ صلاح الدين، كما يقال، من الحبتين حبه.

قال الشيخ جمال الدين قلت:

يا عاذلي شمس النهار جميلة
فانظر إلى حسنيهما متأملاً
وجمال فاتتني ألد وأزين^(١)
وادفع ملامك بالتي هي أحسن

فأخذه الشيخ صلاح الدين، مع البحر، بل أخذ الكل مع القافية، وقال:

بأبي فتاة من كمال صفاتها
كم قد دفعت عواذلي من وجهها
وجمال بهجتها تحار الأعين
لما تبدى بالتي هي أحسن^(٢)

وهذان البيتان تقدم القول أنهما بنصهما للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، ولكن رأيت العز الموصلي نسبهما، في تذكرته، للصلاح الصفدي من جملة «خبز الشعير» والله أعلم.

قال الشيخ جمال الدين قلت:

فديتك أيها الرامي بقوس
لقوسك نحو حاجبك انجذاب
وطرف يا ضنى جسدي عليه
وشبه الشيء منجذب إليه

فأخذه الشيخ صلاح الدين، وقال:

تشرط من أحب فذبت وجداً
عقيق دمي جرى فأصاب خدي
فقال وقد رأى جزعي عليه^(٣)
وشبه الشيء منجذب إليه^(٤)

قلت: أظن أن الشيخ صلاح الدين لما سمع قول الشيخ جمال الدين، ونظم هذين البيتين، ما كان في حيز الاعتدال، وأين انجذاب القوس إلى الحاجب من انجذاب الدم إلى الخد؟ وليته ما تلفظ بالانجذاب، بل قال: عقيق دمي جرى فأصاب خدي.

قال الشيخ جمال الدين: قلت أنا:

يا مشتكي الهم دعه وانتظر فرجاً
ولا تعاند إذا أصبحت في كدر
ودار وقتك من حين إلى حين
فإنما أنت من ماء ومن طين

(١) العاذل: اللائم.

(٢) تبدى: ظهر وبان واضحاً.

(٣) الوجد: شدة الشوق - الجزع: شدة الفزع، الهلع.

(٤) العقيق: حجر كريم لونه لون الدم تقريباً.

وَدَمَلْ مَعَ دَوَامِ لَيْلٍ مَا لَهْمَا مَا حَيَّتْ فَجْرَ
وَنَظَمَ الشَّيْخُ جَمَالَ الدِّينِ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضاً، فِي آيَاتٍ مَعْنَاهَا الْوَعْظُ يَعْجِبُنِي إِلَى الْغَايَةِ،
وَهِيَ:

لَا تَخْشَ مِنْ هَمِّ كَفِيمٍ عَارِضٍ
إِنْ تَمَسَّ عَنْ عَبَّاسٍ حَالِكٍ رَاوِيَا
وَلَقَدْ تَمَرَ الْحَادِثَاتُ عَلَى الْفَتَى
وَلَرَبَّ لَيْلٍ فِي الْهَمُومِ كَدَمَلٍ
فَلَسَوْفَ يَسْفِرُ عَنْ إِضَاءَةِ بَدْرِهِ (١)
فَكَأَنِّي بِكَ رَاوِيّاً عَنْ بَشْرِهِ (٢)
وَتَزُولُ حَتَّى مَا تَمَرَ بِفِكْرِهِ
صَابِرَتَهُ حَتَّى ظَفَرَتْ بِفَجْرِهِ (٣)

وَقَالَ الشَّيْخُ جَمَالَ الدِّينِ بْنِ نَبَاتَةَ: قُلْتُ أَنَا:

بِرُوحِي فَاتَرَ الْأَجْفَانَ سَاجِ
تَفَرَّدَ وَهُوَ فَتَانُ التَّثْنِيِّ
كَأَنَّ الْحَسْنَ لَفْظٌ وَهُوَ مَعْنَى
فِي اللَّهِ مِنْ فَرْدٍ تَثْنِي (٤)

فَأَخَذَهُ الشَّيْخُ صِلَاحَ الدِّينِ، وَقَالَ:

وَأَهْيَفَ حَازَ قَدّاً
تَرَاهُ فِي الْحَسَنِ فَرْداً
قَدْ حَارَ فِيهِ الْمَعْنَى
لَكِنَّهُ يَتَثْنَى

قَالَ الشَّيْخُ جَمَالَ الدِّينِ بْنِ نَبَاتَةَ: قُلْتُ أَنَا:

بِرُوحِي جِيْرَةَ أَبْقَوْا دَمُوعِي
كَأَنَا لِلْمَجَاوِرَةِ اقْتَسَمْنَا
وَقَدْ رَحَلُوا بِقَلْبِي وَاصْطَبَارِي
فَقَلْبِي جَارَهُمُ وَالْدَمْعُ جَارِي (٥)

أَخَذَهُ الشَّيْخُ صِلَاحَ الدِّينِ الصَّفْدِيِّ، وَقَالَ:

أَسَكَنْتُ شَخْصَكَ طَرْفِي
فَحِينَ جَاوَرْتَ دَمْعِي
حَتَّى أُوَارِي أُوَارِي (٦)
جَعَلْتَ جَارَكَ جَارِي

(١) الغيم العارض: الذي يعترض في الأفق فيسده - أسفر: إنكشف.

(٢) عباس: ابن عباس وبشرهما من رواية الحديث النبوي الشريف ومن الصحابة.

(٣) فَجْرِهِ: انفجاره وخروج ما فيه من الصديد وهو القيح.

(٤) تثني: تمايل وأصبح مثني أي اثني.

(٥) جاري: سائل والقريب من منزلي.

(٦) أواري: الأولى من المواراة وهي الإخفاء. وأواري: الثانية من أوار النار وهو لهيها.

وقد تقدم أن ابن بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي أول من سبق إلى هذه النكتة.

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة: قلت:

روادف أو أعطاف من زاد صدها^(١)
وقال قضيب البان ما أنا قدها^(٢)

سألت النقا والغصن يحكي لناظري
فقال كثيب الرمل ما أنا حملها

أخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

وعطفه المتثني
ولا كثيبك وزني

يقول ردف حبيبي
ما أنت يا غصن قدي

قال الشيخ جمال الدين قلت: أنا:

قمري أضحي على الخلق ينهي
ليس تحت الزرقاء أحسن منها^(٣)

لك يا أزرق اللواظ مرأى
يا لها من سوائف وخذود

أخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

قد روى اللازورد في الحسن عنها^(٤)
ليس تحت الزرقاء أحسن منها^(٥)

ألبسوه عمامة للنصارى
وجلا طلعة كبدر تمام

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة: قلت أنا:

من جسمي المضنى على الأطلال^(٦)
والمسك قال أخي الشقيق وخالي^(٧)

يا مجرباً دمعي وموقف لوعتي
يا من إذا سألوه عن بدر الدجى

(١) النقا: الرمل - الروادف: مفردها الردف وهو الكفل. أو المؤخرة - الأعطاف: جمع عطف وهو الجنب. الصد: الإعراض.

(٢) كثيب الرمل: المرتفع الصغير من الرمل - قدها: أساويها، وقوامها.

(٣) السوائف: جمع سالف وهو ما تدلى من الشعر على جانب الرأس بين العين والأذن وللرجل: الصدغ.

(٤) اللازورد: من الأحجار الكريمة لونها بلون السماء.

(٥) الزرقاء: السماء.

(٦) اللوعة: الحزن - المضنى: المريض - الأطلال: البقايا والآثار.

(٧) الشقيق: نوع من الأزهار الحمراء (شقائق النعمان).

أخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

فديت حبیباً ضرج الحسن خده
فصب على خديه ذوب عقيق^(١)
إذا عاين الروض المدبج خده
يقول لنا هذا أخي وشقيقي^(٢)

قلت: الشيخ صلاح الدين ما شم لمسك الخال رائحة، والله أعلم.

وقال الشيخ جمال الدين: قلت أنا:

هيهات بين ذوي الأسى لا يستوي
دمعي ودمعك أيها المتواجد^(٣)
فحديث دمعي عن تلهب أضلعي
ذاكي اللظى وحديث دمعك بارد^(٤)

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

شكوت حتى لان بعد قسوة
ورحت أبكي وهو لي يساعد
وقال ها نحن سواء في البكا
لا يا حبيبي ما بكانا واحد
لا يستوي دمع حكى جمر الغضى
إذا جرى ودمع عين بارد^(٥)

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة، قلت أنا:

هنتم آل الشهيد بنجمكم
من قبل ما عملت لديه عقيقة
وبوجه مولود لكم ما أزهره
عملت له المدح الجوارى جوهره^(٦)

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

أيا أندى الورى كفا ووجهاً
لقد جاءتك جوهرة المعاني
وأقومهم إلى العليا طريقه^(٧)
فلا تبخل عليها بالعقيقه

(١) ضرج: لَوْن، خضب - ذوب عقيق: عقيقٌ مذاب. والعقيق نوع من الأحجار الكريمة لونها يشبه لون الدم.

(٢) عاين: نظر بعينه.

(٣) المتواجد: الذي يدعي الوجد. وهو شدة الشوق.

(٤) ذاكي اللظى: مستعر اللهب.

(٥) جمر الغضى: من أشد الجمر حرارة والغضى شجر جمره يدوم طويلاً.

(٦) العقيقة: الطعام الذي يعمل عند حلق شعر المولود لأول مره ويكون ذبيحة على الأكثر.

(٧) أندى الورى: أجود الناس.

قال الشيخ جمال الدين: قلت أنا:

عذول لست أسمع منه عدلاً علي هيفاء مثل البدر تما
له طرف ضرير عن سناها ولي أذن عن الفحشاء صما^(١)

أخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي، وغير صيغة المثل بالحشو، فقال:

تعشقتَه مثل القضيب إذا انثنى بوجه حكى البدر المنير إذا تما
وإن كان عدالي عموا عن جماله فلي أذن عن كل ما نقلوا صما

قال الشيخ جمال الدين: قلت أنا:

حربي من مهفهف القد رام أسهم اللحظ ما أسدّ وأرشق^(٢)
كلما قلت يفتح الله بالوصـل رمانى من سحر عينيه يغلق

فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

سهام طرفك أصمت قلبي ولم تترفق^(٣)
ما يفتح الجفن إلا ورهن قلبي يغلق

قال الشيخ جمال الدين: قلت أنا:

تأملت في الحمام تحت مآزر روادف بيض ما سناها بغائب^(٤)
كأنني من هذي وهاتيك ناظر بياض العطايا في سواد المطالب^(٥)

فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي، وقال:

تبدى حبيبي في السواد فراقني وما راعني لما أتى بالمعجائب
وشبهت ذاك الجيد في طوق برده بياض العطايا في سواد المطالب

قال الشيخ جمال الدين: قلت أنا:

لقد كنت في لذات ثغرك هائماً ليالي لم يمنع علي عاشق ثغر
فأما وستر دونها من شوارب فلا خير في اللذات من دونها ستر

(١) السناء: النور والبهاء - صما: ترخيم صماء. وهي التي لا تسمع.

(٢) ما أسد: ما أحسن تسديده، والتسديد هو التصريب نحو الشيء.

(٣) أصمى: أصاب مقتلاً.

(٤) المآزر: جمع مئزر، وهو ما تلتف به المرأة - الروادف: جمع ردف وهو العجز.

(٥) العطايا: جمع عطية وهي الهبة.

أخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

ألا فاسقني من خمرة لذ طعمها
وحط لثاماً حجب اللثم عن فمي
بفيك ولا تبخل وقل لي هي الخمر^(٣)
فلا خير في اللذات من دونها ستر

قلت: قد أوردت هنا ما جناه الشيخ صلاح الدين الصفدي، من حدائق الروض النباتي، ومقابلة الشيخ جمال الدين له على ما جناه. فإن نسبي أحد إلى تحامل، راجعته إلى النقل، وإن وافق وتعقل الرتبين فقد اكتفى بشاهد العقل، وإلا فالأقساماء الصفدية بالنسبة إلى القطر النباتي تمجها الأذواق، وها أنا قد أبرزت ثمرات الدوحتين بين هذه الأوراق، والشيخ صلاح الدين رحمه الله تصاغر لذلك وما كابر، ووقف على باب الشيخ وقوف فقير يسأل بر الإجازة، وطال وقوفه على ذلك الباب العالي إلى أن حصل له الفتح وأجازه^(٤). وها أنا أذكر سؤال هذا السائل الذي ودَّ قبل العطاء أن يدفع بالتي هي أحسن، وأشرح كرم المسؤول الذي نثر على سائله الدر جزافاً علماً بأن عطاء الكريم لا يوزن. فسؤال الإجازة من الشيخ صلاح الدين، قوله يخاطب الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمهما الله تعالى: الحمد لله على نعمائه. المسؤول من إحسان سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة، رحلة أهل الأدب. قبلة ذوي التحصين في التحصيل والدأب، الذي تبيت شوارد المعاني صرعى تخوله للطافة تخيله، وتمسي الألفاظ العذبة طوع تحوله في التركيب وتحيله، فأمسى وله النسب الذي يضحك من العباس^(٥) في رفته. ويقيم صريع الغواني^(٦) إلى مقته بعد مقته، والغزل الذي يشيب له فؤد الوليد، ويسترق الحر من كلام عبيد، والتشبيه الذي لو علمه ابن المعتز لما نصب الهلال فخاً لصيد النجوم، ولو تعاطاه حفيد جريح لقليل له ألم تسمع ﴿ألم غلبت الروم﴾، والمديح الذي لو بلغ زهيراً لقال ما أنا من هذه الحدائق، أو اتصل نبؤه بالمتنبي لاشتغل عن ذكر العذيب وبارق^(٧)، والرثاء الذي نقص عنده أبو تمام بعد أن رفع له لواء الشرف والفخر. وقال هذه عذوبة الزلال لا ما تفجر من الخنساء على صخر، والترسل الذي سقى الفاضل كأس الحتوف، لما شبه الغمود بالكمائم والسيوف بالأزهار، وأذهله حتى صحت له القسمة في الخيل والخيال، بين المراقب والمرافد، فأخطأت معه في المراع والمساجد بين الأنواء والأنوار، والكتابة

(١) ومعنى هذين البيتين صاغه أبو نؤاس في بيت واحد، هو قوله:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

(٢) أجازه: سمح له بالشيء.

(٣) العباس: هو ابن الأحنف الشاعر.

(٤) صريع الغواني: هو مسلم بن الوليد الشاعر.

(٥) العذيب وبارق: مكانان صحراويان.

التي تغدو الطروس بها وكأنها رياض محبرة، أو سماء بالنجوم زاهره، إن لم ترض أن تكون في الأرض رياضاً مزهره:

أدب على الحصري يعلو تاجه وله ابن بسام بكى ألوانا
وترسل سبحان من قد زاده منه وأعطى الفاضل النقصانا
وكتابة لعلوها في وضعها ليس ابن مقلة عندها إنسانا
فلكم أخي فضل رأت عيناه في الأوراق لابن نباتة بستانا

جمال الدين أبي عبد الله، محمد ابن الشيخ الحافظ شمس الدين محمد بن نباتة، جمع الله به شتات أهل الأدب في درجة هذه الدولة، ولمَّ به شعث أبنائه الذين لا صون لهم ولا صولة، وأقام به عماد أبيات الشعر التي لولاها لما عرفت دارمية من أطلال خولة^(١)، إجازة كاتب هذه الأحرف فسح الله له في مدته برواية المصنفات في الأحاديث النبوية، والتأليفات الأدبية، على اختلاف أوضاعهما وتباين أجناسهما وأنواعهما، بحسب ما يؤدي ذلك إليه واتصل به من سماع أو إجازة، أو وصية أو وجازة، من مشايخ العلم الذين أخذ عنهم وإجازة ماله أحسن الله إليه من مقول، نظماً أو نثراً أو تأليفاً أو وضعاً، إجازة خاصة، وإثبات ما له من التصانيف إلى هذا التاريخ بخطه الكريم، وإجازة ما لعله يقع بعد ذلك إجازة عامة على أحد القولين في المسألة، فإن الرياض لا ينقطع زهرها، والبحار لا ينفد درها، وإثبات ما يحسن إيراده في هذه الإجازة من المقاطيع الرائقة، والأبيات اللائقة، وذكر نسبه ومولده ومكانه متفضلاً، في ذلك، وكتب كتبه خليل بن أيبك عبد الله الأيبكي بالقاهرة المحروسة، في مستهل شعبان المبارك سنة تسع وعشرين وسبعمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكتب الشيخ جمال الدين بن نباتة الجواب مجيباً لسؤال الشيخ صلاح الدين الصفدي، رحمهما الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، حمداً لله الذي إذا توجه إليه ذو السؤال فاز، وإذا استدعى كرمه ذو الطلب أجاب وأجاز، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، كعبة القصد التي ليس بينها وبين النجح حجاز، وعلى آله وصحبه حقائق الفضل والفضل من بعدهم مجاز.

فلو لزم في كل الأحوال تناسب المخاطبة، وكان جواب السؤال بحسب ما بينهما من شرف المناسبة، لما رضي سجع الحمائم لمطارحته نوعاً من الأطيبار، ولا قبل فصحاء الأول مراجعة الصدى من الديار، ولا قنع غمز حواجب الأجنة برد القلوب الهائمة في

(١) خولة: حبيبة لبيد ابن أبي ربيعة التي ذكرها في معلقته بقوله:

لخولة أطلال ببرقة نهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

أودية الأفكار، ولكن نقول: الأكابر والأولياء تبذل من الأجوبة جهدها وتنفق ما عندها، وتجرد الأماثل سيوف المنطق ولا تتعدى الاتباع من الطاعة حدّها، ولما كنت أيها الراقم^(١) برود هذا الاستدعاء بينانه، والمنشئ روض هذا السؤال بأثار السحب من بيانه، والسائل الذي بهرت الأفكار فضائله، وسحرت أرباب العقول عقائله^(٢)، وأقام المسؤول مقاماً ليس من أهله فليقت الله سائله، فريد فن الأدب الذي لا يبارى، وبحره الذي لا يهدي غائص قلمه الدرّ إلا كباراً، وذا اليد البيضاء فيه الذي طال ما آنس من جانب الذهن نارا، وخليله الذي اطلع على أسراره الدقيقة، ورئيسه الذي لو طارح ابن المعتر وتمت ولايته لكان أمير المؤمنين على الحقيقة، وناظمه الذي يسري الطائيان^(٣) تحت علمه المنشور، وكتبه الذي تبجح^(٤) العيدان بالدخول تحت رقه المأثور، طالما شافه^(٥) منه القلم وجهاً جميلاً وقدراً جليلاً، ولا في من لا يندم على صحبتته فيقول ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، فهو الغرس الذي يقصر عن أمالي وصفه الشجري، ويفخر الدين والعلم بشخصه ولفظه، فهذا يقول غرسي وهذا يقول ثمري، كم أغنى بمفرد شخصه عن فضلاء جيل، وكم بدا للسمع والبصر من بنات فكره بثينة ومن وجهه جميل، وكم تنزهت الأفكار من لفظه بين آس وورد لا بين إذخر^(٦) وجيليل، وكم دام عهده ووّدّه حتى كاد يبطل قول الأول دليلاً على أن لا يدوم خليل. توّدّ الشهب لو كانت حصباء غدير طرسه، وتغار الأفق إذا طرز يراع درجه^(٧) بالظلماء أودية شمسه، ويتحاسد النظم والنثر على ما تنتج مقدمات منطقته من النتائج، وينشد كل منهما إذا حاول القول: «خليل الصفا هل أنت بالدار عائج». إن كتب أغضى ابن مقلة من الحسد على قذاه^(٨)، وحمل ابن البواب لحجبه عصا القلم قائلاً ما ظلم من أشبه أباه، وإن نحا النحو لباه عشراً، ولانت أعطاف الحروف قسراً. وتشاجرت على لفظه الأمثلة فلا غرو أن ضرب زيد عمراً، يترجل كلام الفارسي بين يديه. ويطير لفظ ابن عصفور حذراً من البازي المطل عليه. وإن شعر هامت الشعراء بذكره في كل واد، ونصبت بيوت نظمه على بقاع الشرف كما نصبت بيوت الأجواد،

(١) الراقم: الموشي المزخرف.

(٢) العقائل: الكرائم جمع عقيلة وهي المصونة.

(٣) الطائيان: حاتم وحبيب (أبو تمام).

(٤) تبجح: افتخر بما فعل وإن كان قليلاً.

(٥) شافه: حكى مشافهة، وطالع.

(٦) الإذخر: الثمين المدّخر.

(٧) الدّرج: جارور المكتب، أو ما توضع فيه أدوات الكتابة.

(٨) القذى: الضرر والأذى.

طالما بلد ليبدأ، وولي منه شعر ابن مقبل شريداً، وقالت الآداب لبحثري لفظه ألم نربك فينا وليداً، وإن نثر فما الدر اليتيم إلا تحت حجره، ولا الزهر النضير إلا ما ارتضع من أخلاف قطره، ولا المترسلون إلا من تصرف في ولاية البلاغة تحت نهيه وأمره. وإن تكلم على فنون الأدب روى الظما، وجلا معاني الألفاظ كالدمى، وقالت الأعاريض لابن أحمد وله: «خليلي هبا بارك الله فيكما».

هذا وكم أننى قديم علم الأوائل على فكره الحكيم، وشهدت رواية الحديث النبوي بفضلته، وما أعلى من شهد بفضلته الحديث والقديم.

بدأتني أعزك الله، من الوصف بما قل عن مكاني، وكاد من الخجل يضيق صدري ولا ينطلق لساني. وحملت كاهلي من المنن ما لم يستطع، وضربت لذكري في الأفاق نوبة خليلية لا تنقطع، وسألتني، مع ما عندك من المحاسن التي لها طرب من نفسها، وثمر من غرسها، أن أجيبك وأجيزك وأوازن بمثقال كلمي الحديد إبريزك^(٣)، وأقابل لسانك المطلق بلساني المحصور، وأثبت استدعاءك على بيت مال نطقي المكسور، فتحيرت بين أمرين أمرين، ووقع ذهني السقيم بين داءين مضرين: إن فعلت ما أمرت به فما أنا من أرباب هذا القدر العالي، والصدر الحالي، ومن أنا من أبناء مصر حتى أتقدم لهذا الملك العزيز، وكيف أطلب مع إقتار علمي بأن أمدح وأجيز. وإنني لمقيد خطوي هذه الوثبات، وأننى يماثل قوة هذا الغرس ضعف هذا النبات.

وإن منعت فقد أسأت الأدب والمطلوب حسن الأدب مني، وأهملت الطاعة التي أقرع بعدها برمح القلم سني، وفاتني شرف الذكر الذي امتلأ به حوض الأفق وقال قطني^(٤). ثم ترجح عندي أن أجيب السؤال، وأقابل بالامثال، صابراً على تهكم سائلي، معظماً قدرتي كما قيل بتعاقلي^(٥)، منقاداً إلى جنة استدعاءك من السطور بسلاسلي، وأجزت لك أن تروي عني ما تجوز لي روايته من مسموع ومأثور، ومنظوم ومشور، وإجازة ومناولة ونقل وتصنيف، وتنضيد وتفويف^(٦)، وماض ومتردد، وآت على رأي بعض الرواة ومتجدد، وجميع ما تضمنه استدعاؤك فاجمع ما يكون من لفظه المتبدد، كاتباً لك بذلك خطي، مشترطاً عليك الشرط المعبر فليكن قبولك يا عربي البيان جواب شرطي، ذاكرةً من لمع خبري ما أبطأت بذكره وأرجو أن أبطىء ولا أخطي.

(١) الإبريز: الذهب.

(٢) قطني: حسي.

(٣) التعاقل: اصطناع التعقل.

(٤) تنضيد: ترتيب - تفويف: تزيين، وهو من المحسنات البديعية.

فأما مولدي فبمصر المحروسة، في ربيع الأول سنة ست وثمانين وستمائة، بمنزلنا بزقاق القناديل، وأما شيوخ الحديث الذين رويت عنهم سماعاً وحضوراً، فمن أقدمهم الشيخ شهاب الدين أبو الهيجاء غازي بن أبي الفضل بن عبد الوهاب المعروف بالرادف، والشيخ عز الدين أبو نصر عبد العزيز بن أبي الفرج الحصري البغدادي، والشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي محمد إسحق الأبرقوهي. وأما ذوو الإجازة في مصر وغيرها من الأمصار فكثير، وأما الفضلاء والأدباء الذين رويت عنهم ورأيت منهم، فمنهم القاضي الفاضل، محيي الدين أبو محمد عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان الكاتب المصري، والشيخ الإمام بهاء الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن النحاس الحلبي النحوي، والأمير الفاضل، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الصاحب شرف الدين بن إسماعيل بن المتنبى اقترح عليّ أن أنظم له في زيادة النيل، فقلت:

زادت أصابع نيلنا وطمت فأكدت الأعادي (١)
وأنت بكل جميلة ما ذي أصابع ذي أيادي

والشيخ العالم علم الدين قيس بن سلطان المصري من أهل منية ابن خصيب، قرأت عليه كثيراً من الكتب الأدبية، وكان كثيراً ما يستشديني إلى أن أشدته قولي:

يا غائبين تعللنا لغيبتهم بطيب عيش ولا والله لم يطب
ذكرت والكأس في كفي ليا ليكم فالكأس في راحة والقلب في تعب (٢)
فقال: أتعب والله جزعك القدح.

والشيخ العالم شهاب الدين أحمد بن محمد المعروف بابن المفسر أشدني لنفسه:

لا أرى لي في حياتي راحة ذهبت لذة عيشي بالكبر
بقي الموت لمثلي سترة يا إلهي أنت أولى من ستر
فأنشدته لي:

بقلت وجنة المليح وقد ولي زمان الصبا الذي كنت أملك (٣)
يا عذار الحبيب دعني فإني لست في ذا الزمان من خل بقلك

(١) طمى: النهر فاض وزاد ماؤه حتى حمل الطمي وهو عبارة عن الأتربة والأحجار وأغصان الشجر- أكدد: أحزن.

(٢) الراحة: باطن الكف، والإرتياح.

(٣) بقلت وجنته: نبت شعرها، والبقل نبات عشبي يغتذي به الإنسان.

والشيخ الأديب الفاضل سراج الدين عمر الوراق المصري، سمعته ينشد لنفسه:

واخجلتي وصحائفي مسودة وصحائف الأبرار في إشراق
وتوقفي لموبخ لي قائل أكذا تكون صحائف الوراق

والأديب الفاضل نصير الدين المناوي الحمّامي أنشدني لنفسه:

أحب من الدنيا إليّ وما حوت غزال تبدى لي بكأس رحيق^(١)
وقد شهدت لي سنة اللهو أني أحب من الصهباء كل عتيق^(٢)

فأنشدته لي:

إني إذا آنت همأ طارقاً عجلت باللذات قطع طريقه
ودعوت ألفاظ المليح وكأسه فنعمت بين حديثه وعتيقه^(٣)

وجماعة يطول ذكرهم، ويعز عليّ أن لا يحضرني الآن شعرهم.

وأما مصنفاتي التي هي كالياسمين لا تساوي جمعها، ولولا الخزائن الشريفة السلطانية الملكية المؤيدية تجبرها، ما استخرت نصبها ورفعها، فهي: كتاب مجمع الفرائد، القطر النباتي، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، منتخب الهدية من المدائح المؤيدية، الفاضل من إنشاء الفاضل، زهر المشور، أبرار الأخيار، شعائر البيت، التقوى لم تكمل إلى الآن، الأرجوزة المسماة فرائد السلوك في مصائد الملوك.

أجزت لك أعزك الله روايتها عني، ورواية ما أدونه وأجمعه بعد ذلك حسبما اقترحه استدعاؤك ونمقه، ونسخه وحققه، وتضمنه سؤالك الذي تصدقت به، فمك السؤال ومنك الصدقة، والله تعالى يشكر عهدك الجميل، وكلماتك الجزلة وكرمك الجزيل، ويمتع بك فنون الفضائل الملتجئة إلى ظل قلمك الظليل، ولا يعدم الأحباب والآداب من اسمك وسميك خير صاحب وخليل.

قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن أبي الحسن بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب بن يحيى بن عبد الرحيم بن نبانة الفارقي الحذاقي ثم المصري، عفا الله عنه.

انتهى ما أوردته من استدعاء الشيخ صلاح الدين وسؤاله، وجواب الشيخ جمال

(١) الرحيق: ما تفرزه الأزهار لجذب الحشرات، ومنه يكون العسل.

(٢) الصهباء: الخمرة - وعتيق: معتق وهو أجود الخمرة.

(٣) حديثه: تحديته، كلامه، وجدیده.

الدين وإجازته، بعد أن علمت دقائق الدرجتين في النظم والشر، واتضح الفرق بينهما وثبت أن الشيخ جمال الدين بن نباتة سقى الله نباته ورعاه، وتمتع أهل الذوق السليم بحلاوة ذلك النبات وجناه، فإنه وإن تأخر في السبق عن فحول المتقدمين عصرًا، فقد تقدم عليهم ببديعه وغريبه بيانًا وسحرًا، وتفقه في الطريق الفاضلية لمذاهب ما سلكها المتقدمون وها نحن نستجدي من حواصلها نظامًا ونثرًا، وكم سألنا عالم في سلوك هذه الطريقة فقال له إنك لن تستطيع معي صبرًا، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبيرًا.

وإن قيل إن الفاضل أجل من تمذهب بهذا المذهب فمذهبي، وأنا أستغفر الله، أنه وصل فيه إلى درجة الاجتهاد، وهذا القول يقول به من رفع الخلاف وتأدب، فإن هذه الطريقة ما أمها^(١) ناظم ولا ناثر في الأيام الأموية، ولا ابتسمت لهم ثغورها في الخلافة العباسية، ولما انتهت الغاية إلى الفاضل أتى بهذه الفضيلة الغريبة وأظهر منها الزيادة المستفادة، واعتادت بلغاء المتأخرين بها بعد ما شهدوا بسبقه فأكرم بها عادة وشهادة، ولما اتصلت بالشيخ جمال الدين بن نباتة أهل غربتها، وشرف بأصل شجرته النباتية نسبتها، وأسكن في أبياته من بديع النظم كل قرينة سالحة، وأمست سواجع إنشائها على فروعه النباتية صادحة. وقد عن لي أن أورد نبذة من مفرداته التي حصل الإجماع في الغرابة عليها، وأشار المصنف بقوله إليها:

أصغ لما قال أخو وقته وخلّ عنك اليوم ما قिला
واسمع مقاطيعاً له أطربت ولا تقل إلا مواصيلا

فمن ذلك قوله:

حملت خاتم فيه فصاً أزرقاً من كثرة اللثم الذي لم أحصه^(٢)
لولاه ما علم الرقيب فيا له من خاتم نقل الحديث بفصه

ومنه قوله:

لله خال على خد الحبيب له في العاشقين كما شاء الهوى عبث^(٣)
ورثته حبة القلب القليل به وكان عهدي أن الخال لا يرث

(١) أمها: قصدها.

(٢) هذا البيت هكذا ورد: برفع أوجر خاتم ونصب فصاً أزرقاً، وهذا مما لم نعرف أو نتبين له وجهاً اعرابياً. وكان حقه النصب في خاتم والرفع في فص أزرق فيكون: حملت خاتماً فيه فص أزرق - والفص: قطعه صغيرة من حجر كريم توضع في وسط الخاتم.

(٣) الخال: شامه سوداء تعلو الجلد - حبة القلب: مركز العواطف منه.

ومنه قوله:

وأغيد جارت في القلوب لحاظه
أجل نظراً في حاجبيه وطرفه

وقوله:

بروحي مشروط على الخد أسمر
وقال على اللثم اشترطنا فلا تزد

وقوله:

وا حرباً من هوى رشيق
عذاره لا يجيب دمعي

ومن نكته البديعة في هذا الباب قوله:

وضعت سلاح الصبر عنه فما له
وسال عذار فوق خديه جائر

ومن السرقات الفاحشة قول ابن الوردي، غفر الله له:

تعجبت من نهديه لو أن لامسا
وسال عذار لو نحا نفس صبه

ومنه قوله:

لا تخف عيلة ولا تخش فقراً
لك عين وقامة في البرايا

ومنه قوله:

قبلته عند النوى فتمررت
ولثمته عند القدوم فحبذا

- (١) الأغيد: الناعم المتمايل في مشيه - جارت: ظلمت - الوسنى: الذابذة الناعسة.
- (٢) سائل: الأولى بمعنى: الريق - والثانية بمعنى: الذي يسأل أو يطلب.
- (٣) النهدي: الثدي - الانقباض: التجمع عكس الانبساط - الأنامل: أطراف الأصابع.
- (٤) نحا: ينحو اتجاه ناحية - الصب: المغرم به.
- (٥) الرطب: ثمر البلح إذا حلي وصار رطباً - النوى: البذرة.

وقوله :

يسل من مقلتيه سيفين^(١)
نومك أيضاً فقلت من عيني

أفديه لذن القوام منعطفاً
وهبت قلبي له فقال عسى

ومنه قوله :

وهو من الحسن مليء غني^(٢)
فيسرق الكحل من الأعين

يا رُبَّ لص ناهب سالب
يرنو إلى سرب الظبي لحظة

ومنه قوله :

فقال لي في جها عاتبي^(٣)
قلت ولا عن أخضر الشارب^(٤)

مبقل الخد أدار الطلا
عن أحمر المشروب ما تنتهي

ومنه قوله :

إيه برغم العاذل الحاسد^(٥)
في الحب يفتاظ على البارد

كم قلت باللمم ويرد اللمى
رؤ صدى قلبي ودع عاذلي

ومنه قوله :

إذا لم يزر لم يهن عيش ولا إذا
أتانا رقيب يتبع المن بالأذى

بروحي معسول اللمى متحجب
وإن ذقت منا من حلاوة ريقه

ومنه قوله :

بيني وبينك للجفاء حجاز^(٦)
يثني لقاهها كاشح هماز^(٧)

يا كعبة الحسن الممنع لا تطل
حاشى لها من قامة ألفية

(١) اللدن: الطري.

(٢) اللص والناهب والسالب: السارق.

(٣) مبقل الخد: الذي نبت شعر خده - الطلا: الخمره - عاتبي: لاثمي.

(٤) أحمر المشروب: النبيذ - أخضر الشارب: الشاب الأمرد الذي لم ينبت شارباه.

(٥) اللمى: سمرة أو سواد في باطن الشفة السفلى يعد من عناصر الجمال في المرأة - إيه: اسم فعل أمر بمعنى الزجر.

(٦) الجفاء: الهجر والابتعاد - حجاز: حجاز.

(٧) الكاشح: المبغض - الهمّاز: المغتاب، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تطع كل حلافٍ مهين﴾ * همّاز مشاء بنميم.

ومنه قوله :

يا واصف الخيل بالكميت وبالنهد
لا نهد إلا من صدر غانية
أرحني من طول وسواسي^(١)
ولا كميت إلا من الكاس

ومن هنا أخذ الصاحب فخر الدين بن مكاس، وقال :

وإن ذكرت الخيل في الميدان
فاشرب كميتاً واعل فوق نهد

ومنه قوله :

قلت ولي في هوى حبيبي
بالجفن والصدغ يا عنائي
قلب رقيق عليه يدهش
هذا سقيم وذا مشوَّش^(٢)

ومنه قوله :

نقطة خال في وجنة جعلاً
فيا لها وجنة معشقة
في اللهولي بعد نوبتي غبطه^(٣)
صرت عليها أقول بالنقطة

ومنه قوله :

إذا سألوني عن هوى قد كتمته
وجاب عني سائل من مدامعي
سكت أراعي وأشياً ورقياً^(٤)
فلله دمعي سائلاً ومجيباً

ومن اختراعاته الغريبة مع بديع التضمين قوله :

لما رأيت نهودها قد أقبلت
قالت وقد رأيت اصفراري من به
ورأت لقلبي عشقه يتجدد
وتنهدت فأجبتها المتنهد

ومنه قوله :

وتاجر قلت له إذ رنا
ومقلة تنهب طيب الكرى
رفقاً بقلب صبره خاسر
منها على عينك يا تاجر^(٥)

(١) الكميت : ذات اللون الأحمر المائل إلى السواد - النهد : المستعدة دائماً .

(٢) مشوَّش : غير مرتب .

(٣) النوبة : دورة من الجنون تصيب الإنسان وتسمى ب النقطة أيضاً - الغبطة : الفرح والانبساط .

(٤) الواشي : النمام الذي ينقل الكلام بين المحبين بقصد إفساد ما بينهما .

(٥) على عينك يا تاجر : هذا مثل يضرب في الإنسان الفاجر الوقح .

وهذه النكتة زاحمه فيها الشيخ زين الدين بن الوردى، وزناً وقافية ومعنى، وقال:

وتاجر شاهدت عشاقه والحرب فيما بينهم دائر
قال علام اقتتلوا هكذا قلت على عينك يا تاجر

واتصلتُ بالشيخ شمس الدين الرئيس الدمشقي العصري الشهير بالمزين،
فاستعملها أحسن من الشيخ زين الدين بن الوردى، وزاد المثل قوّة وإيضاحاً بقوله:

وتاجر أسكرني طرفه والكاس فيما بيننا دائر
وقال لي سرك قلت اسقني جهراً على عينك يا تاجر

ومنه قوله:

أفنى جفاكم كثير دمعى لكن بقي في القليل نشطه^(١)
وكنت أروي عن ابن بحر فصرت أروي عن ابن نقطه

ومنه قوله وتلطف كثيراً:

خف خصر الحبيب ثم ابتلاني بعذول يزيدني تعنيفا
ليت لو كان في الملامة مثلي في هوى الخصر يؤثر التخفيفا

ومنه قوله:

وكنت أظن العشق يترك مهجتي إذا زاحم الشيب الشباب بمفرقي
فلما بدا مع أسود الشعر أبيض أتى العشق يغزوني على ألف أبلق^(٢)

ومنه قوله:

يا حبذا خد الحبيب وقد أضاء شريكه^(٣)
إن لم يكن في الحسن نفوس الروض فهو شقيقه

أخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي، وقال:

فديت حبيباً ضرج الحسن وجهه وصب على خديه ذوب عقيق
إذا أبصر الروض المديح خده يقول لنا هذا أخي وشقيقي

(١) النشطة: واحدة النشاط، وفي الأصل: العضة أو اللدغة.

(٢) الأبلق: الحصان، وهو ذو اللونين الأبيض والأسود.

(٣) الشريق: الإشراق.

ومنه قوله:

وفرحتي مع الغزال الحالي
مرتشفاً لآخر الخلخال^(٤)

يا حبذا يومي بوادي جلق
من أول الجبهة قد قبلته

ومنه قوله:

يقول في الحب من لي^(٢)
ما أنت من خل بقلي^(٣)

أهاً لحاذق ذهن
قال العذار لحذقي

ومنه قوله مع التضمين للمثل:

يزال في هجر وشوق يبطنه^(٤)
ذا يشتهي التين وذا يقطنه^(٥)

في الناس من يشتاق للمرد ولا
وأخر شاخوا وما يتركهم

ومنه قوله:

كمعدني لا كيد للقميرين
قسماً لقد أخطأت من وجهين

يا من يقول البدر أو شمس الضحى
أبوجه ذاك ووجه تلك تقيسه

ومنه قوله:

للظبي تنسب لا رميت بينه^(٦)
وإذا رنا فهو الغزال بعينه

نسبوه حسناً للهِلال وعينه
فإذا بدا فيإلى هلالٍ أصله

ومثله ومن خطه نقلت:

في ناظري ولهانه^(٧)
ل بعينه وعيانه^(٨)

يرنوا ويشرق حسنه
فهو الغزاة والغزا

(١) ارتشف: شرب بملء فمه، وعلى مهل - الخلخال: ما تضعه المرأة من زينة في ساقها.

(٢) الذهن: الذكي.

(٣) الخل: عصير العنب المخلل - البقل: نبات معروف.

(٤) المرء: جمع أمرد وهو من الشباب الذي لم ينبت شارباه بعد ولا شعر لحيته - أبطن: ستر.

(٥) يقطن التين: يجعله كالقطن مكبوساً وملفوفاً.

(٦) البين: الفراق والهجر.

(٧) اللهان واللهنة: ما يهدى للمسافر عند عودته أو ما يهديه هو عند عودته.

(٨) العيان: الأثر المادي للجسم.

وضاقت عين الشيخ صلاح الدين الصفدي عن هذه النكتة، فأخذها بعينها وقال:

بسهم أجفانه رماني
إن مت ما لي سواه خصم
وذبت من صده وبينه (١)
لأنه قاتلي بعينه

ومنه قوله:

دعوني في حلي من العيش مائساً
أمد إلى ذات الأساور مقلتي
ومرتقباً بعده عفو راحم (٢)
واسأل للأعمال حسن الخواتم

ومنه قوله:

لما تبدي في الحنيـ
فاعجب لها من وقعة
من تحاربت كبدي وعيني
جاءت ببدر في حنين (٣)

ومن هنا أخذ الشيخ برهان الدين القيراطي، فقال:

بدت روادف حبي
فقلت يا بدر هذي
تحت الحنين بعين
حقاً جبال حنين

ومن لطائف الشيخ جمال الدين قوله:

دعوا شبيه الغزال يرمي
تالله لا فاتني لقاءه
في مهجتي بالنفار جمراً (٤)
وعين كييسي عليه حمرا

ومنه قوله:

بأبي نائم على الطرق راحت
فاتح في الكرى فما سكريا
في هواه وليس يعلم روعي
يا له من مسكر مفتوح

ومنه قوله:

ملأت إنسان عيني عسجداً
من خدود قد ملاها الحسن صبغاً

(١) الصد: الإعراض.

(٢) المائس: المتبختر أو الماجن.

(٣) بدر وحنين: من حروب المسلمين الشهيرة.

(٤) النفار: أيام معينه من وقت الحج وبالتحديد اليومين الثاني والثالث من أيام التشريق، ورمي الجمار:

من مناسك الحج.

ثم قالت هكذا الإنسان يطغى (١)

قلت والردف أريني فانشنت

ومنه قوله:

لا ينتهي هذا وذاك إلى طرف
يوماً ولا دينار وجنته انصرف

ومن الشقا أن الجفا وتشوقي
ما مال غصن قوامه عن فكرتي

ومنه قوله:

فلا آخذ الله الأسى بصدوعها (٢)
عفا الله عما قد جرى من دموعها

سلت مهجة قد كان صدعها الأسى
وعين على حالي بعاد وجفوة

ومن لطائفه قوله:

صواب وأفتي فيه وهو من الخطأ
ولا بت في رمان صدر مفرطاً (٣)

من الترك أنني سلوتي مع أنها
أما والهوى لا حلت عن عطف أغيد

ومن نكته البديعة في المدائح قوله:

فنثر العطا منه ونظم الشنا منا (٤)
فننشي له لفظاً وينشي لنا معنى (٥)

لنا ملك قد قاسمتنا هباته
يذكرنا أخبار معن بجوده

وقال في صدر مطالعه:

في الحمد واعذر مقتضى أقوالها
بعثت دروج الحمد من أوصالها (٦)

خذ من عبيدك مقتضى نياتها
قسماً لو استطاعت إليك جسومهم

وقوله:

جارياً للعفاة بالأرزاق (٧)
كلما ماس في المهارق كالغصن رأيت الندى على الأوراق (٨)

لا عد منا لابن الأثير يراعاً
كلما ماس في المهارق كالغصن رأيت الندى على الأوراق (٨)

(١) يطغى: يجاوز الحدود التي وضعها الله في كل الأمور.

(٢) صدع: شقق، وأضعف - الأسى: الحزن.

(٣) مفرط: مكثراً، متجاوز الحد.

(٤) العطا: العطاء - الشنا: الثناء وهو المدح.

(٥) معن: هو معن بن زائدة، من الأجواد.

(٦) دروج: صنديق - الأوصال: المفاصل.

(٧) اليراع: القلم - العفاة: طالبو المعروف.

(٨) ماس: مال وتحرك - المهارق: الصحائف التي يكتب عليها.

وقوله في كمال الدين بن الزمكاني :

يفديه قوم تشبهوا حسداً به وليسوا له بأشباه
إن نطقوا بالجميل أو فعلوا فللريا والكمال لله (١)

ومنه قوله :

لعمري لقد أفحمت بالفضل منطقي وحركت ميزاني فأثنى لسانه
وقد كنت ذا نطق وفضل بيان (٢) فلا زلت مشكوراً بكل لسان

وقال، وقد كتب إليه الملك المؤيد صاحب حماة :

فديتك من ملك يكاتب عبده بأحرفه اللاتي حكمتها الكواكب (٣)
ملكك بها رقي وانحلني الأسى فها أنا ذا عبد رقيق مكاتب (٤)

وقال يهنئ القاضي جمال الدين، وقد عاد من غزوة سيس :

بقيت مدى الدنيا جمالاً لدولة لها منك شهم في اللقا ورئيس
يسوق لها عند الفتوح جنائباً وأول هاتيك الجنائب سيس (٥)

ومنه قوله في جواد :

وأدهم اللون حندسي في جريه للورى عجائب (٦)
يقصر سعي الرياح عنه فكلها خلفه جنائب

ومنه قوله وقد كتب بها إلى صاحب شرف الدين يعقوب :

قالت العليا لمن حاولها سبق الصاحب واحتل ذراها
فدعوا كسب المعالي إنها حاجة في نفس يعقوب قضاها

(١) الريا: الرياء وهو الكذب والنفاق والخداع.

(٢) أفحمت: أسكت بالحجة، ومنعه النشاط...

(٣) المكاتب: هي أن يكتب عهد بين العبد والسيد أنه يصير العبد حراً مقابل مبلغ معين من المال.

الرق: العبودية - أنحل: أضعف - الأسى: الحزن.

(٤) الخلع: جمع خلعة وهي الهدية من الثياب.

(٥) الجنائب: النواحي والجهات.

(٦) الأدهم: من الخيل الأسود اللون - الحندسي: لونه لون الحندس وهو الظلام.

ومنه قوله:

وأزجي من العسر داء دفيناً^(١)
سوى أن مددت إليك اليميناً^(٢)

قصدت معاليك أرجو الندى
فما كان بيني وبين اليسار

وقوله يهنىء محتسباً:

بأيام فضلك ما ترتقب
وترزق من حيث لا تحتسب^(٣)

تهناً بها حسبة أدركت
فإنك من أسرة تصطفي

ومنه قوله يهنىء بعيد النحر:

بأمثاله سامي العلا نافذ الأمر^(٤)
وأحسن ما تبدو القلائد في النحر

تهناً بعيد النحر وابق ممتعاً
تقلدنا فيه قلائد أنعم

وقوله:

غواذي الندى من راحتك غزار
فمني أوراق ومنك ثمار

كذا أبداً يا أرفع الناس همة
أقدم أطراساً وتمنح أنعماً

ومنه قوله، وكتب بها إلى القاضي بهاء الدين بن أبي البقاء على يد طالب شفاعته:

أورثتها عن سادة أنجاب
فأبو البقاء أحق بالإعراب

أرسلته لك واثقاً بمكارم
لا غرو أن أعربت عن أحسابهم

ومنه قوله، وكتب بها إلى القاضي شمس الدين البهنسي:

في يومه يهب الجزيل وفي غده
والسحب جارية تصب على يده

يا رب أمدد بالغنى يد سيد
فالبحر يسعى خادماً في بابه

ومنه قوله، وكتب بها إليه:

فيا عجباً في ازديادي من الفضل
وها أنا منها حيثما كنت في ظل

عليّ ديون من ثنا لم أقم بها
وأعجب من ذا أنك الشمس أشرقت

(١) الندى: العطاء - العسر: الفقر والضيق.

(٢) اليسار: الغنى والثراء.

(٣) تصطفي: تختار.

(٤) عيد النحر: هو عيد الأضحى سمي بذلك لأن الحجيج ينحرون فيه الأضاحي تقرباً إلى الله تعالى

سامي: عالي - نافذ الأمر: مطاع.

ومنه قوله، وقد أرسل إليه شرف الدين خالد القيسراني هدية جلييلة في وقتها:

لك الله ما أزكى وأشرف همة
فأنت الذي قرت برؤيته العلا
وأحمد صنعاً حيث تبلى المحامد^(١)
وهنت الدنيا بأنك خالد

قال وقد وصلت إليه هدية على يد الكمال:

قبضت من الكمال نداه عفواً
فيما لله من عادات بر
بريئاً من سؤال أو مطال^(٢)
أتتني بالتمام وبالكمال

وكتب إلى صاحب تقي الدين بن هلال:

هنت ما أوتيته من رتبته
في مقلة الإنسان نمت فقل لنا
حملتك في العينين من إجلالها
أنت ابن مقلتها أم ابن هلالها

وقوله:

فدينك يا ابن المحسنين مجوداً
فحاتم عند الجود في بطن كفه
بأقلامه أو جائداً بمكارمه^(٣)
وياقوت عند الخط في فص خاتمه

وقوله يهنئ بالعيد:

تهن بعوده عيداً سعيداً
نحرت به جميع عداك فانحر
وعش ما شئت يا كهف البرايا
قروناً آخرين من الضحايا^(٤)

ومنه قوله:

قف بيباب العلا وقل يا كتابي
أنا عبد مكاتب غير أني
عن لساني قول الخويدم حقا
لست أبغي من مالك الرق عتقا^(٥)

(١) تبلى: تجرّب وتختبر - المحامد: الأعمال التي يحمد عليها فاعلما.

(٢) النداء: العطاء والهدية - المطال: إخلاف الوعد والتسويق.

(٣) مجوداً: بالقلم: متأنقاً - جائداً: متكرماً، معطياً.

(٤) قرون: أجيال.

(٥) المكاتب: العبد يتفق مع سيده على أن يكون حراً مقابل مبلغ معين من المال - العتق: التحرر.

وقال وقد أنعم عليه بنصيفة:

سور الذكر سهلت لي نصيفة علت^(١)
فبياسين عوذت وبحاميم فصلت^(٢)

وتلطف بكتابه إلى من أنعم عليه بالنصيفة، بقوله:

يا سيدي نصيفتي قد فصلت وعجزت لما غبت عن تبطينها
ما حلت فيها عن ندى نعماً يديك ولا اتخذت بطانة من دونها^(٣)

وكتب إلى القاضي شمس الدين البهنسي:

شكر الله أياديك التي أنعشت حالي بشمس الهبات
أنت بالمعروف قد أحيتته وكذا الشمس حياة للنبات

وقال يهنىء قادماً من الحجاز:

قالوا سررت زائداً بقادم تقصد منه ماله أو جاهه
حج شهاباً ثم عاد بدرا قلت نعم كلاهما وتمرا

وكتب إلى من أهدى إليه تمراً رديئاً غالبه نوى:

أرسلت تمراً بل نوى فقبلته وإذا تباعدت الجسم فوذنا
بيد الوداد فما عليك عتاب باق ونحن على النوى أحباب^(٤)

ومنه قوله:

قال فتح الدين إذ حدثنا كيف أثمار حديثي عندكم
يتلافى قصة تفضي لمنحى^(٥) قلت فصي أولاً فهو فتحي

وقال يهنىء ولد الأمير ناصر الدين بن فضل الله العمري بإمرة عشرة:

-
- (١) الذكر: القرآن الكريم - النصيفة: العمامة. أو أي عطاء للرأس.
(٢) ياسين: سورة يس - عوذت: حميت - حاميم: سورة حم السجدة من القرآن الكريم.
(٣) البطانة: قطعه من القماش الناعم تخطط على داخل الثوب، والحاشية من الأتباع والأعوان.
(٤) النوى: السفر والبعء، والبذور من الشمار.
(٥) تلافى: تحاشى وابتعد - أفضى: إلى الأمر أو إلى المكان: أوصل إليه.

يا ابن السراة الأكابر البررة^(١)
وجدتم من أكابر العشرة

هشتها إمرة مجددة
أقسم من ذا وذا بأنكم

ومن لطائفه في هذا الباب قوله:

قدر على باغي مداه بعيد^(٢)
في هذه الدنيا وأنت وحيد

والله ما عجبي لقدرك إنه
إلا لكونك لست تشكو وحشة

وكتب على شرح مختصر ابن الحاجب لشمس الدين الأصفهاني:

فسر بسناها حيثما أنت سائر
هو القطب قد دارت عليه الدوائر

أخا العلم إن الشمس باد ضياؤها
وخل فتى شيراز عنك فإنما

ومن لطائفه قوله:

وفارقت ذلي إذ وصلت إلى العز
ولا بدُّ للجندي من طلب الخبز

وصلت إلى باب المعز وظله
وأصبحت من جند المحامد والثنا

وقوله في الجامع الأموي بدمشق:

وفي صدره معنى الملاحاة مشروح
فقل لهم باب الزيادة مفتوح^(٣)

أرى الحسن مجموعاً بجامع جلق
فإن يتغالي بالجوامع معشر

ومن مداعباته ومجونته وإعراضه ونكته اللطيفة، في باب التورية، قوله:

تثق به واتركه مع نفسه
إنك محتاج إلى فلسه

يا أير لا تركزن لعلتي ولا
ولا ترج الود ممن يرى

ومن مداعباته اللطيفة مع الشيخ بدر الدين حسن الزغاري، مضمناً قوله:

ندماه واشتعلت عليه الأكؤس
واستب بعدك يا كليب المجلس^(٤)

يا غائباً عن مجلس قد شامت
نبئت أن النار بعدك أوقدت

(١) السراة: الأشراف والسادة.

(٢) الباغي: المريد والطالب.

(٣) يتغالي: يتباهى.

(٤) استب: تشاتم - كليب: هو كليب وائل الذي قتله جساس بن مرة لأجل ناقة البسوس، وتصغير كلب، للتحقير.

ومنه قوله في مليح اسمه إلياس:

أفدي مليحاً في البرايا لم أزل
قالوا أتقطعه كثيراً قلت من
طول الزمان عليه في وسواس
راحات قلب المرء قطع إلياس

وقوله:

لهفي على فرسي الذي
يكبو وأملك رقه
أضحى قريح المقلتين^(١)
فمعثر في الحاليتين^(٢)

ومنه قوله:

سافرت للساحل مستبعضاً
فياله من متجر رابح
قصداً وحمداً حسن الجملة^(٣)
ما نفقت فيه سوى بغلتي^(٤)

وقوله:

ميزاني العاطل المحلى
لا تذكر المال عند هذا
قال له الفقر قف مكانك
ولا تحرك به لسانك

ومنه قوله يداعب صديقاً له يروم ولاية القضاء:

رب إن ابن عامر هائم الفكـر معنى في صبحه والمساء^(٥)
يتمنى القضا فلا تعطينه
واجعل الموت سابقاً للقضاء

ومثله قوله:

لقد أصبحت في حال
مشيب وافتقار يد
يرق لمثلها الحجر
فلا عين ولا أثر^(٦)

(١) قريح: مجروح - المقلّة: معظم العين.

(٢) كبا الجواد: تعثر - والمعثر: الذي يتعثر ويكبو أو الذي لاحظ له.

(٣) هكذا في الأصل: مستبعضاً، ونعتمد أنها: مستبعضاً: أي طالباً للبضاعة لمناسبة المعنى.

(٤) نفقت الدابة: ماتت، أو بيعت.

(٥) المعنى: الكثير الإهتمام والاعتناء لدرجة الوسواس.

(٦) يرق: يصبح رقيقاً ويشفق ويعطف - لا عين ولا أثر: لا ملك مادي ولا ملك معنوي، وهذا مثل يقال للفقير المعدم.

ومنه قوله يداعب بعض أصحابه :

وكأنه من جملة الغياب
سبحان رازقه بغير حساب (١)

بفلان في الديوان صورة حاضر
لم يدر ما محزومه وجريده

ومن لطائفه قوله يهنئ شارب دواء :

وطب بالرواح به والغدو (٢)
ولكن على رغم أنف العدو

أمط بالدواء ثياب الأذى
وكرر أحاديث بيت الخلا

وكتب إلى صفي الدين الحلبي مداعباً له :

بيخل بالذُّرج وبالوصل (٣)
ولا جعلت الوذ في حل (٤)

أوقعني وذي مع هاجر
والله لا غررت من بعدها

ومنه قوله :

ووجدك لا ينفك يذكر حسنه
أعظم مشواه وأكرم ذقنه

وقالوا أحاطت ذقنه بخدوده
فقلت نعم ضيفي بقلبي نازل

وقوله :

قالوا وقد أصبح ذا ذقن
قلت من الأذن إلى الأذن

رب مليح حسن صوته
لحيته قد قطعت حلقه

وكتب، وقد أهدى إليه بعض أصحابه ديوكاً :

بوجوه جميلة مستجاده (٥)
أرتجي أن تكون عرفاً وعاده (٦)

وصلتنا ديوك برك تزهر
كل عرف يروق حسنا وإني

(١) الجريدة: دفتر أرزاق الجيش في الديوان.

(٢) أماط: أزاح وخلع.

(٣) الذُّرج: الطاعة.

(٤) في حل: أي بغير عهد.

(٥) برُّك: جودك.

(٦) العرف: القطعة القرمزية التي تعلق رأس الديك، وما تعارف عليه الناس - راق: أعجب.

وكتب إليه في المعنى :

هباته ذات تأسيس وإيناس^(١)
لن يذهب العرف بين الله والناس

قل للرئيس جمال الدين لا برحت
واصل رجاي بعرف الديك مقبلاً

ومن لطائفه في هذا الباب قوله :

فلا والله ما وافيتمونا^(٢)
فإن عدنا فإننا ظالمونا

لقد عُدناكم لما ضعفتم
أقيموا في ضناكم أو أفيقوا

ومنه قوله . وقد صرف عن مباشرته :

وزلت وزالت قوى همتك
فلا أوحش الله من خدمتك

أيا ابن نباتة جار الزمان
وقد كنت ذا خدم وانقضت

ومن نكته اللطيفة قوله في هذا الباب :

أحمد الله كم أجود في الخلق مقالاً وما يفيد المقال
أنا والسحر باطل بطل

كلمي في الأنام سحر ولكن

وقوله :

أقضي فيه بالإنكاد وقتي
فوا حرباه من خمس وست^(٣)

لقد أصبحت ذا عمر عجيب
من الأولاد خمس حول أم

ومن لطائفه قوله :

تخرج ألقابهم عن العادة
فصح أن العجوز قواده^(٤)

قد لقبوا الراح بالعجوز وما
ألانت الغادة التي امتنعت

وقال يداعب كبير الأنف :

من أي أرضيك نلت إشارا
خيراً ولكن رأيت منقارا

أقبل عند القوم يسألني
قلت من النيك ما رأى بصري

(١) التأسيس والإيناس : من المصطلحات العروضية .

(٢) عاد الضعيف : زار المريض - وافى : زار أو جاء .

(٣) ست : العدد والسيدة .

(٤) الغادة : الحسنة الناعمة - القوادة : التي تقود إلى الفجور والفحش .-

ومن لطائف مجونه :

أرى أيري تكبر في جلوسي وفي عمر وأعطى اللؤم قومه
فأمسى لا يقوم لزازيره وإن زار العزيز فنصف قومه^(١)
وقال في صديق باع مملوكاً وتزوج امرأة جميلة :

لي صاحب ترك المليح وعاد في حب المليحة من ذوي الأقدار
قد كان عبد الأشهب المنسوب في حسن فأضحى وهو عبد الدار
ومن لطائفه قوله في هذا الباب :

لقد أضحت سعاد تعاف أيري وتمعكه بلا قلب لديها
فتمعكه بلا قلب لديها وتأخذه بأطراف الأنامل^(٢)
ومنه قوله مع التضمين المخترع، وهو :

دنوت إليها وهو كالفرخ راقد فيا خجلتي لما دنوت وإدلاي
وقلت امعكيه بالأنامل فالتقى لدى وكرها العناب والحشف البالي
ومنه قوله :

محبوتي دنيا جفت بعدما جادت وكانت نزهة الهائم
كانت مع الأير زمان الصبا وهكذا الدنيا مع القائم
ومن لطائفه قوله :

باع صديقي لجام بغلته ليشتري الخبز منه والأدما^(٣)
واها عليه راحت جرايته فهو على ذلك يعلك اللجما^(٤)
ومن لطائف مجونه قوله :

يا ملاذي الغوث من عائلة ليس من تكليفهم لي مهرب
طلبوا في أرجلي شيئاً وقد نقبوا رأسي بما قد طلبوا

(١) العزيز: عزيز مصر والمحبيب.

(٢) تمعكه: تدلكه وتفركه.

(٣) الأدم: ما يؤكل مع الخبز من الطعام.

(٤) الجراية: الصبا. علك: مضغ - اللجم: جمع لجام وهو حديدة رضع في فم الحصان للسيطرة على سرعته.

ومنه قوله:

قد طيبت لذاتها وقتي
فالتين من فوقِي ومن تحتي

جنينة التين وجيرانها
وكثرت عندي ما أشتهي

وقال يداعب صديقاً له طلق زوجة تسمى دنيا:

كرته بين الوري خاسره
ورحت لا دنيا ولا آخره

قل لابن بغلان الذي أصبحت
ظلمت دنياك وفارقتها

وقوله:

يوجب سح الدمع من جفنه
أن يضحك الشيب على ذقنه

تبسم الشيب بذقن الفتى
حسب الفتى بعد الصبا ذلة

ومن أغراضه اللطيفة في إهداء كتاب قوله:

أرسلته نعم الجليــــــــس إذا تغيرت البشر
يبقى على سنن الوفاً أبداً ويقنع بالنظر

أرسلته نعم الجليــــــــس إذا تغيرت البشر
يبقى على سنن الوفاً أبداً ويقنع بالنظر

وقوله:

كروثق الحبات في عقدها
تموت للهيبة في جلدها

لله تصنيف له رونق
كادت تصانيف الوري عنده

وقال وقد عتب عليه القاضي بدر الدين، لأمر:

لذ لسعي وهو صعب شديد
وسرني أني ببدر شهيد

أهلنتي للعتب حتى لقد
هذا ولو قطعني لذلي

وقال يداعب جندياً من أصحابه عرض ولم يقبل:

ليوم العرض أو يرضي
وراح الطول في العرض

ظننا طوله يجدي
فلا والله ما أجدي

ومن لطائف مجونه قوله:

فيا عجباً للشيب من كدر صافي
فأهاً له شيئاً يقطع أكتافي

صفا لون شبي ثم كدر عيشتي
وصار على الأكتاف يضحك من يرى

ومن أغراضه اللطيفة قوله:

كانت للفظي رقة
فصرفتها عن قدرتي

ومن لطائف مجونه قوله:

قالت أريد من طبيخ قدرة
فقلت هذي قدرة يا ستنا

ومن لطائف مجونه قوله:

دعاني صديق لحاجاته
كلام يزيد وماء يقل

ومنه قوله:

ما زلت ألقع شيبة نسخت بها
حتى غدت صفحات وجهي آية

ومن مراثيه البديعة قوله يرثي الملك المؤيد صاحب حماة:

ألا في سبيل الله ملك مؤيد
على الرغم منا إن أتى منه لامع
قوله وقد توفي له ولد ولم يبلغ حولاً:

يا راحلاً من بعد ما أقبلت
لم تكتمل حولاً وأورثتني

ومثله قوله في ولده عبد الرحيم:

يا لهف قلبي على عبد الرحيم ويا
في شهر كانون وافاه الحمام لقد
شوقي إليه ويا شجوي ويا دائي
أحرقت بالنار يا كانون أحشائي^(٤)

(١) قدرة: قدر صغير يطبخ فيه - أوغل في الشيء: زاد فيه.

(٢) الست: السيدة.

(٣) الناسخ والمنسوخ: من آيات القرآن: الناسخ التي تبطل حكم المنسوخ وهو الآيات التي بطل حكمها.

(٤) الحمام: الموت.

ومنه قوله فيه :

وكان ذا در بعبد الرحيم
وعاش ذاك الدر درا يتيم

آهأ لشمل قد وهي سلكه
فليتني لاقيت عنه الردى

وقال يرثي جارية له :

نعم إن جفني بالبكاء حقيق^(١)
فإني عدمت الدمع وهو شقيق

يقولون قد أخلقت جفك بالبكي
دعوا الدمع للجفن القريح مؤاخياً

وقال يهنئ بالعشر بعد تعزية بميت :

لأميرين في يوم من الدهر وافد
أهني بعشر إذ أعزي بواحد

أيتك يا أركى البرية جامعاً
هنا وعزا لا عيب فيه لأنني

وقال يرثي الملك الأفضل صاحب حماة :

وصحت على رغم العداة وفاته
وماتت بأحزان البلاد حماته

مضى الأفضل المرجو للباس والندى
وما مات إذ ماتت بحزن نساؤه

وقال في رثاء طفل :

فيالها طلعة شريقه
دموع عيني لها عقيقه^(٢)

بدا رفي حاله توارى
جوهرة ما عملت إلا

وقال في رثاء ولده أيضاً :

نظم القريض فلا يكاد يجيبه
سكن التراب وليده وحبيبه

قالوا فلان قد جفت أفكاره
هيهات نظم الشعر منه بعدما

انتهى ما وقع عليه الاختيار ووعدت بإيراده من غرائب الشيخ جمال الدين بن نباتة، وبدائعه في باب التورية على اختلاف أنواعها، وقد تقدم قولي إن الراية الفاضلية هو عرابة مجدها، وواسطة عقدها، وقائد زمامها، ومسكة ختامها. وقدمت أيضاً من مشى تحت الراية الفاضلية، من ابن سنا الملك إلى الوداعي، ولما رفع العلم النباتي كانت هذه الفرقة التي مشت تحت هذا العلم أكثر عدداً وأشهر ذكراً، وأعلى رتبة نظماً وثنراً.

(١) أخلق: أبلى - حقيق: جدير.

(٢) العقيقة: ما يعمل من الطعام عند ولادة المولود.

وقد عنَّ لي أن أذكر هنا لكل من عاصره ومشي تحت علمه النباتي، وتحلى بنكته الأدبية، نبذة من مختار مقاطيعه التي حلاوتها في الأصل نباتية، ليظهر صدق قولي في تفضيل الصحابة المحمدية، وأشرع بعد ذلك في إيراد نبذة من نظم التابعين لهم بإحسان، وأدير هذا الكاس بحيث يتسلسل دوره إلى أهل هذا العصر والأوان، والعصابة التي مشت تحت العلم النباتي، وتحلت بقطر نباته هم: الشيخ صلاح الدين الصفدي، والشيخ زين الدين بن لوردي، والشيخ برهان الدين القيراطي. ومذهبي أنه أقرب الناس إلى الشيخ جمال الدين، نظماً ونثراً، والشيخ شمس الدين بن الصائغ، والشيخ بدر الدين ابن الصاحب، والشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة، والشيخ إبراهيم المعمار، والشيخ بدر الدين حسن الزغاري، والشيخ يحيى الخباز الحموي، والشيخ شهاب الدين الحاجبي.

وممن أدرتهم وعاصروهم المصنف، وكتبوا إليه وكتب إليهم، وأنشدوه وأنشدهم من أهل مصر والشام: الشيخ زين الدين بن العجمي عين كتاب الإنشاء الشريف بالديار المصرية، والقاضي فتح الدين بن الشهيد صاحب دواوين الإنشاء الشريف بدمشق المحروسة، وناظم السيرة النبوية نور الله ضريحه، والشيخ عز الدين الموصلي والشيخ علاء الدين بن أيبك الدمشقي والشيخ جلال الدين ابن خطيب دارياً، والشيخ شمس الدين الرئيس الشهير بابن المزين، والصاحب فخر الدين بن مكائس وولده الجناب المخدومي المجدي، وسيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء قدس الله روحه، ولكن ما رأيته، والشيخ شرف الدين عيسى الشهير بعويس، والشيخ شهاب الدين بن العطار، ولكن ما حضرته، والشيخ جمال الدين، ولكن ما رأيته، وصاحبنا الشيخ شمس الدين المتنبى المصري، والفرقة التي أطال الله بقاءها وأمست قواعد الأدب بها قائمة، وختمت بهم هذه الطريقة البديعة وأخلصوا في العمل ففازوا في الحالتين بحسن الخاتمة، وهم: القاضي بدر الدين ابن الدماميني المالكي المخزومي، فسح الله في أجله، والشيخ الإمام الحافظ العلامة شهاب الدين بن حجر العسقلاني الشافعي، رحمه الله تعالى، والشيخ بدر الدين البشتكي رحمه الله تعالى.

ونبدأ بمن تقدم ذكره أولاً فأولاً. فمن محاسن الشيخ صلاح الدين الصفدي في باب التورية، رحمه الله قوله:

أفديه ساجي العيون حين رنا	أصاب مني الحشا بسهمين ^(١)
أعدمني الرشد في هواه ولا	أفلح شيء يصاب بالعين

(١) ساجي العيون: ساكنها - رنا: نظر.

ومثله قوله:

كما أن رأسي شاب من موقف البين^(١)
تلقيت ما ترصاه بالرأس والعين

لقد شب جمر القلب من فيض عبرتي
فإن كنت ترضى لي مشيبي والبكى

ومثله في تورية العين قوله:

وقد براه جفا وبين
ولم يقع لي عليه عين

سألتكم عن منام عيني
واليوم قد غاب حين غبتم

ومثله قوله:

يأمر السعد في كراها وينهى
لا تسل ما جرى على الخد منها^(٢)

إن عيني مذ غاب شخصك عنها
بدموع كأنهن الغوادي

ومنه قوله:

فالبكى قرح عيني
هو دون القلتين^(٣)

وفقيه قلت صلني
قال لا تفخر بشيء

ومن لطائفه قوله:

يصغ إلى الشكوى ولم يقبل
ويا دموع العين لا تسألني

قلت وقد أعرض عني ولم
لا تطمعي يا نفس في وصله

ومن لطائفه قوله:

ليزورني فيه الخيال الزائل
أجري وقل للدمع قف يا سائل

إن لم تصدقني تصدق بالكري
وانظر إلى فقري لوصلك واغتنم

وقوله أيضاً:

الحبيب ويدعي صوناً وعفه
يمر مع النواسم ألف عطفه

يقول الناس كيف يميل عنه
أليس لقدمه في كل يوم

(١) العبرة: الدمعة - البين: الفراق.

(٢) الغوادي: من السحاب التي تنشأ غدوة وهي أكثره مطراً.

(٣) القلتين: من القليل.

وقوله أيضاً:

وأحور أحوى فاطر الطرف قد غدا
كستني ضنى جسمي سهام جفونه
به قلب صب بالجوى يتضرم^(١)
فبرد سقامي في هواه مسهم^(٢)

وقوله مع حسن التضمين:

مقلته السوداء أجفانها
ويقطع الطرق على سلوتي
ترشق في وسط فؤادي نبال
حتى حسبنا في السويدا رجال^(٣)

والم الشيخ زين الدين بهذه النكتة، ولكن سبكها في غير هذا القالب بقوله:

من قال بالمرء فإني امرؤ
ما في سويدا القلب غير النسا
ميلي إلى النسوة ذات الجمال^(٤)
ما حيلتي ما في السويدا رجال^(٥)

ومنه قوله:

بجفنه سيف فرى حده
ومن عجيب نصر الحاظه
قلوب قوم في الهوى أسرى^(٦)
وجفنها المكسور قد فرأ

ومنه قوله:

وظبي معانيه بيان بديعها
قرأت مقامات الحريري كلها
له حار فكري إذ رأى كل معجز
بعارضه مشروحة للمطرزي

وتزاحم الشيخ صلاح الدين والشيخ زين الدين بن الوردى، في هذا المعنى والنكتة، بقوله:

شبهت خد حبيبي
مقامة للحريري
تشبيهه فكر مبرز
وشرحها للمطرزي

-
- (١) الأحور: شديد بياض العينين وسواد سوادهما - الأحوى: الأسمر أو الأحمر الذي يميل إلى السواد - الصب: المغرم - يتضرم: يشتعل ويحترق.
(٢) الضنى: الضعف - المسهم: الذي فيه صور السهام.
(٣) حسبك في السويدا رجال: مثل يضرب في الفرارين الجبناء.
(٤) المرء: جمع أمرء وهو الغلام لم تنبت لحيته وشارباه بعد.
(٥) سويداء القلب: مركز العواطف منه.
(٦) فرى: كلّ وعاد لا يقطع.

والذي يشهد به الذوق أن تركيب الصفدي أحسن وأقعد، ومنه قوله:

كن كيف شئت فإن قد رك قد علا عندي وعزا
مات السلو تعيش أننت أما رأيت الصبر عزا^(١)

ومن لطائفه في هذا الباب قوله:

قالوا حكى بدر الدجا وجه الذي تهوى فقلت لهم قفوا وتربصوا
أنا ما أصدق ما عليه كلفة فإذا حكى شيئاً يزيد وينقص

ومنه قوله:

من شافعي يوماً إلى مالك في أمر روعي القبض والبسط
صوب رأي الناس في حبه وشعره في الأرض قد خطا

ومنه قوله:

يقول إذ أنكرته قبلة غصبتها في زورة الطيف
هذا عذاري وجفوني فقم واحلف على المصحف والسيف^(٢)

ومنه قوله:

يقولون حاكاه الهلال فلا تزغ عن الحق واعرف ذاك إن كنت تنصف^(٣)
فقلت إذا ما صار بدرأً مكملأ وحكاه ومع هذا عليه تكلف^(٤)

وقوله:

إذا قلت قد أسرفت في التيه قال لي تقل في جمالي في الورى غير ماجرى^(٥)
وابيض طرفي واقف عند حده واسود شعري قد تواضع للثرى.

وقوله:

محياه له حسن بديع غدا روض الخدود به مزهر
وعارضه رأى تلك الحواشي مذهبة فزمكها وشعر^(٦)

(١) عز الصبر: ندر وقل.

(٢) العذار: الشعر في مؤخر الرأس ما بين الأذنين.

(٣) زاغ: مال وحاد.

(٤) حكاه: شابهه - التكلف: الكلف وهو ما يعتري وجه الحامل من النمش.

(٥) التيه: التكبير.

(٦) زمكها: ملأها.

وقوله:

أقول وحر الرمل قد زاد وقده وما لي إلى شمّ النسيم سبيل
أظن نسيم الجو قد مات وانقضى فعهدي به في الشام وهو عليل
النسيم العليل تلاعبوا به كثيراً، ولكن قول الصفدي: فعهدي به في الشام وهو
عليل، في غاية اللطف.
ومنه قوله:

كؤوس المدام تحب الصفا فكن لتصاويرها مبطلا
ودعها سواذج من نقشها فاحسن ما ذهب بالطلا
وقوله:

قلت لما شوى أوزاً حبيبي واكتسى باللهيب ثوب ثناء
لو يعيش الجزار مات غراماً في معاني محاسن الشواء
وقوله:

كلفني ببدر صائغ كالبدر في جو السماء
سكر المحب بريقه وغدا يمؤه بالطلاء
ومنه قوله:

شوى الأوز فأضححت في حمرة الخد بسطه
فقلت تشوى إوزاً أم كنت تشرب بطه^(٢)
ومنه قوله:

قل للعدول يسترح من عدلي ما أصبح المعشوق عندي مشتهي
وارتدّ قلبي عن سيوف لحظه وكل شيء بلغ الحد انتهى
ومن نكته البديعة قوله:

أقول له ما كان خدك هكذا ولا الصدغ حتى سال في الشفق الدجا^(٣)

(١) الطلا: الخمر والدهان.

(٢) البطة: الباطية وهي وعاء من أوعية الخمر.

(٣) الصدغ: الشعر بين العين وشحمة الأذن - الدجا: الظلام.

فمن أين هذا الحسن والظرف قال لي تفتح وردي والعدار تخرجا^(١)
وقوله:

أصبحت نابغة الغرام لصبوة في غادة بجمالها متفرده
كم قد جلت من خدها وسيوف مقلتها إلى النعمان والمتجرده
وقوله أيضاً:

أنفقت كنز مدائحي في ثغره وجمعت فيه كل معنى شارد
وطلبت منه جزاء ذلك قبلة فأبى وراح تغزلي في البارد
وقوله:

قالت وقد ماتت كغصن النقا أسرفت في العشق بلا فائده^(٢)
فقلت منهوم الهوى لم يكن يشبع إن مدت له المائده^(٣)
وقوله:

سكن البدو من أحب فقالوا زاد أهل الغرام في البعد بعدا
قلت بالله هل سمعتم بيذر غاب عن عاشقيه لما تبدى
ومن نكته الغريبة قوله:

سال العذار فسل سيف جفونه حتى غدت مهج الورى أفلاذا^(٤)
يا صدغه والله كنا في غنى عن أن نراك السائل الشحاذا^(٥)
وقوله:

أقول لقاض سهم مقلته غدا يصيب الحشا لا تبغ قتلي ولا توذي
وإن كان قلبي عنده غير تائب فدعه ولا تحكم عليه بتنفيذ

(١) تخرجا: صار له خرجاً وهو من التخريج وهذا نوع من التطريز في طرف الثوب.

(٢) ماد: مال.

(٣) منهوم: من النهم وهو شدة الجوع والعطش.

(٤) العذار: الشعر بين الأذنين من مؤخر الرأس - أفلاذ: جمع فلذة وهي القطعة.

(٥) الصدغ: الشعر بين العين والأذن - الشحاذا: المستعطي.

- وقوله: أملت أن تتعطفوا بوصالكم
وعلمت أن بعادكم لا بدّ أن
- وقوله: لئن سمح الدهر البخيل بقربكم
جعلت ابتذال الروح شكران وصلكم
- وقوله: بدا في الخد عارضه فأضحى
وحاول أن يرى مني سلواً
- وقوله: تقول له الأغصان إذ ماس قدّه
فقم نحتكم في الروض عند نسيمه
- وقوله: تنائي الذي أهوى فمت صباية
صبرت لطرفي إذ رمتك سهامه
- وقوله: أتاني وقد أودى السهاد بناظري
فناديته يا طيب الأصل هكذا
- وقوله: بأسياف الجفون قتلت نفساً
فما أقوى جفونك وهي مرضى
- وقوله: جاء بقدّ قد ثنته الصبا
ومذ غدا في لينة واحداً
- وقوله: وفي القلب من هاجري لوعة
فيا شعره بعض هذا الجفا
- وقوله: يا قلب صبراً على الفراق ولو
وأنت يا دمع إن أبحت بما
- فرايت من هجرانكم ما لا يرى
يجري له دمعي دماً وكذا جرى
- وسكن مني أنفساً وخواطرا
وقلت لدمع العين يعمل ما جرى
- عليه معنفي باللوم يغري
وقال لقد تعذر قلت صبري
- أترعم أن اللين عندك قد ثوى^(١)
ليقضي على من مال منا مع الهوى
- فقال عجيب كل أمرك في الهوى
ولم تتصبر إذ رمتك يد النوى^(٢)
- يمزق جنح الليل بارق فيه
أخذت الكرى مني وعيني فيه
- مبرة عن الشكوى زكيه
وأقدرها على قتل البريه
- ورنحت أعطافه الساميه^(٣)
كانت له ريح الصبا ثانيه
- بغير تلافيه ما تندمل^(٤)
ويا ردفه أنت ما تتحمل
- روعت ممن تحب بالبين
تخفيه وجداً سقطت من عيني

(١) ماس: مال واهتز - ثوى: أقام وسكن.

(٢) النوى: السفر والهجران.

(٣) الصبا: ريح ناعمه صحراويّه - رنح: أسكر وأنشا - السامي: العالي. الأعطاف: الأطراف والجناب.

(٤) تلافى: احتراز واجتناب - اندمل الجح: طاب وشفي.

وقوله: لولا شفاعته شعره في صبه
لكن تطاول في الشفاعه عنده
وهذه النكتة تزاحم هو والشيخ زين الدين بن الوردی علیها، والله أعلم من
المخترع، فإنهما كانا متعاصرين فقال:
كيف أنسى لشعر حبي يوماً
شعر الشعر أنه رام قتلي
وقوله: إن قلت زرنبي قال لا
فما يرى جوابه
وهو كان الشفيح فيّ لديه
فرمى روحه على قدميه
بحاجب ما أظلمه
إلا بنون العظمه^(١)

والشيخ صلاح الدين تزاحم هو والشيخ برهان الدين القيراطي على هذه النكتة،
وزناً وقافية والله أعلم من المخترع منهما، بقوله:

وتائه حدثته
أجابني بحاجب
فلم يفه بكلمه
لكن بنون العظمه

ويعجبني قوله:

أضحى نسيم دمشق حياها الحيا
فكأنه من مائها وهضابها
يمشي الهوينا في ظلال رباها
ما داس إلا أعيناً وجباها

ومثله قوله:

تقول دمشق إذ تفاخر غيرها
جرى ليباهي حسنه كل معبد
بمعبدها الزاهي الرفيع المشيد
وما قصبات السبق إلا لمعبد^(٢) (ي)

وقوله:

لما زها زهر الربيع بروضه
قام الحمام له خطيباً بالهنا
وغدا له فضل ينير لديه
وجرى الغدير فخر بين يديه

(١) نون العظمة: النون التي تصاحب كل كلمة من كلمات المتكلم المفرد- وتدل على تعظيمه نفسه.
(٢) معبد الأولى: مكان العبادة، ومعبد الثانية؛ إسم المغني المشهور، ومع إضافة الياء إليها وهي ياء
المتكلم، تصير بمعنى مكان العبادة، وإذا كانت الياء النسبة تصير بمعنى: ذلك الذي ينتسب إلى
معبد المغني أو الذي يسير على خطه أو غنائه.

وقوله: قالوا علا نيل مصر في زيادته
فقلت هذا عجيب في بلادكم
حتى لقد بلغ الأهرام حين طمى^(١)
أن ابن ستة عشر يبلغ الهرما

ومن أغراضه قوله: رب طباخ به نضجت
سلوتي عنه مزورة
مهجات غير مرحومه
أبدأ والنفس مغمومه

وقوله: أحببت باباً حسنه بارع
أغلق في وجهي باب الرضى
سبى من النساك ألبابا
فهل تراني أفتح البابا

وقوله: إن اللطافة لم تزل
أرأيت عمرك في الورى
بين الأكابر فاشيه
طرفاً رقيق الحاشيه

وكتب على لسان صاحب له طلب من صاحب سرجاً فلم يجهزه له، قوله:

عجباً كيف لم تجد لي بسرج وحده واللجام دأب النفوس
وإذا لم تبعثه في أول الأُمـــــر اختياراً فابعثه بالدبوس^(٢)

وكتب إلى من أهدى له صحن قطائف قوله:

أتاني صحن من قطائفك التي غدت وهي روض قد تبت بالقطر
فلا غرو إن صدقت حلو حديثها وسكرها يرويه لي عن أبي ذر

الجماعة تجاروا في هذه الحلبة وأجادوا، منهم الشيخ زين الدين بن الوردى، بقوله:
بعثت قطائفاً حلت جناها قطرها الغامر
فسكرها أبو ذر ومرسل صحنها جابر

وأجاد الشيخ جمال الدين بن نباتة هنا، وجمع بين التورية وحسن التضمين وبديع
الاكتفاء، والحلاوة، بقوله:

أقول وقد جاء الغلام بصحنه عقيب طعام الفطر يا غاية المنى
بعيشك قل لي جاء صحن قطائف وبع باسم من تهوى ودعني من الكنا^(٣)

(١) طمى النهر: إذا فاض.

(٢) الدبوس: المقمعة وهي عصا من حديد أو من خشب في رأسها كرة من حديد. والمعنى: ابعثه بالقوة بعد أن لم تبعثه اختياراً.

(٣) الكنافة: نوع من الحلوى.

وقوله مع بديع التضمين:

رعى الله نعماك التي من أقلها
قطائف من قطر النبات لها قطر
أمدّ لها كفي فأهتز فرحة
كما انتفض العصفور بلله القطر

ويعجبني هنا قول الشيخ برهان الدين القيراطي، مع بديع التضمين:

لقد قطفت زهر النبات قطائف
تقول اسمعوا مني مدائح مرسلي
تخيرتها فاخترت للنفس ما يحلو
فكّلي إن حدثتكم ألسن تتلو

وأما تورية القطر فالقطر النباتي معروف، فمن ذلك قوله:

شكراً لبرّك يا غيث العفاة ولا
قد جدت بالقطر حتى زدت في طمع
زالت مدائحك العلياء تنتخب^(١)
وأول الغيث قطر ثم ينسكب

وقوله:

لجود قاضي القضاة أشكو
والقطر أرجو ولا عجيب
عجزي عن الحلو في صيامي
القطر يرجى من الغمام

ويعجبني هنا قول أبي الحسين الجزار:

أيا علم الدين الذي جود كفه
لئن أمحلت أرض الكنافة إنني
براحته قد أخجل الغيث والبحرا
لأرجو لها من سحب راحتك القطرا^(٢)

قلت الشيء بالشيء يذكر ذكرت هنا لغزاً في لوزينج كتب به مولانا قاضي القضاة صدر الدين بن الأدمي، رحمه الله، إلى علامة العصر القاضي بدر الدين بن الدماميني رحمهما الله:

يا من له في عروض الشعر أي يد
ما اسم دوائره في لفظه اثتلفت
أجزاؤه من زحاف الحشو قد سلمت
تصحيف معكوسه لفظ يرادفه
والعبد منتظر من حله فرجاً
فاق الخليل بها فضلاً وتمكيناً
والثلث في صدرها مستعمل حيناً
وقد تقطع مطوياً ومخبوناً^(٣)
يا فرد يا رحلة قوم مقيمونا
لا زال سعدك بالإقبال مقروننا

(١) العفاة: طالبوا المعروف.

(٢) الكنافة: نوع من الحلوى. السحب: واحدها سحابة وهي الغيمة.

(٣) الزحاف والحشو والمطوي والمخبون: مصطلحات عروضية.

فأجابه المشار إليه بقوله:

يا مرسلًا من شهبي النظم لي كلما
لله درك صدرًا من حلاوته
حليت لغزك إذ أبهمته فلذا
هذا وكم قد رأينا في دوائره
وليس إضماره مستحسنًا فأدم
وكن لنا هاديًا صوب الصواب ودم

منه ابن سكرة قد راح مغبونا
وجوهر النظم لم ييرح يحلينا
يا فاتني رحت بالإعجاب مفتونا
للكف قبضاً يزيد العقل تمكيننا
بالكشف عنه لمن وافاك تحسينا
فينا أمينا رشيد الرأي مأمونا

وقد آن الرجوع إلى ما كنا فيه، مما اختاره من نظم الشيخ صلاح الدين الصفدي
في باب التورية، فمن لطائف مجونه قوله فيمن سرق شيئاً من بعض شعره:

إن كان يا مولاي لا بد أن
قافية البيت اطرح لفظها
أدير بلحيتي البيضاء كاسي
ألم ترني وعفو الله راج
وقوله:
وجرة قدّموها
شممت طينة فيها
وقوله:
قلت له إذ هز لي ذقنه
تذكر إذ غنت فنادى نعم
وقوله:
وعاذل بارد المقالة لا
وقال ذقن الحبيب باردة
وقوله:
ملكك كتاباً أخلق الدهر جلده^(٤)
يقولون لا تهلك أسي وتجلد^(٥)

تأخذ شعري جملة كافيه
وقم خذ الكل بلا قافيه
بكيس زائد مني وفطنه^(١)
ومن شرهي أصفها بقطنه^(٢)
والراح فيها كمينه^(٣)
فرحت سكران طينه
ولام فيمن همت في عشقها
فقلت واشوقاً إلى حلقها
يعي صواباً وزاد في نكدي
فقلت يا بردها على كبدي

(١) الكيس: اللباقة وحسن التصرف.

(٢) الشره: النهم وهو شدة العطش والجوع.

(٣) الكمين: المختبىء.

(٤) أخلق: أبلى.

(٥) الأسي: الحزن - تجلد: تصبر، والشطر لطفة بن العبد من معلقته:

وقوفاً بها صحي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلد

ومن نكت المجون التي توارد هو والشيخ جمال الدين عليها، وزناً وقافية، قوله:

إذا ما قام أيرك في الدياتي وعندك من تحب فلا تحابي (١)
ومل نحو الطواشي واعتنقه فمثلك لا يدل على صواب (٢)

وقول الشيخ جمال الدين:

أرى الصواب يا أيري صفات تحث على التعشق والتصابي
فبادره فأنت به خبير ومثلك لا يدل على صواب

ويحسن أن نختم هذه المجونات بقول الشيخ صلاح الدين، وهو:

يا ساحباً ذيل الصبا في الهوى أبليت في الغي وهو القشيب (٣)
فاغسل بدمع العين ثوب التقى ونقه من قبل وقع المشيب

الشيخ صلاح الدين سامحه الله كان من المكثرين، وكان هو والشيخ شهاب الدين ابن أبي حجلة يرضيان، لرغبتهما في الكثرة بالأشياء الرخيصة، ولم أورد للشيخ صلاح الدين هنا غير الغالي من نظمه واختياره واختياري، ومن محاسن الشيخ زين الدين بن الوردي في باب التورية، ومقاطيعه التي هي أحسن من مقطعات النيل، وأحلى في الأسماع من نغمات المواويل:

إن قلت قدك غصن قالت لي الغصن ساجد
أو قلت ريقك ثلج قالت تشبه بارد

ومن ذلك قوله:

يا سائلي تصبراً عن لثم فيه لا تسل
ما تستحي تبدلني بالصبر عن ذاك العسل

ومن ذلك قوله:

ومليح إذا النحاة رأوه فضلوه على بديع الزمان
برضاب عن المبرد يروي ونهود تروى عن الرماني

(١) حابي: فاضل بين شيئين أو فضل أحدهما على الآخر.

(٢) الطواشي: الخصي، الذي لا يمكنه الجماع.

(٣) القشيب: الجديد.

وقوله:

ولكن في اعتدال كالقضيب
وقال ختمت قلت على القلوب

امام في الركوع حكى هلالاً
وقال تلوت قلت الشمس حسناً

ومن لطائفه في هذا الباب قوله:

إذ مال عن قبوله
ممدد بطوله

يشفع في شعره
فهو على أقدامه

ومنه قوله:

بديعة الحسن إلا أنها ابتدعت
كيف السحور. وهذي الشمس قد طلعت

عجبت في رمضان من مسخرة
قامت تسحرنا ليلاً فقلت لها

ومن لطائفه قوله:

فخله يتعذر
والجيد لا يتغير

إذا تعذر حبي
فجيده حصل ما بي

ومنه قوله:

لأجتليه قال ما أمطلك^(١)
فقال هات المال والجيد لك

وتاجر ماطلته دينه
قلت له جيدك لي أو لمن

وقوله:

أنسي وتخشي نفوري
أجور ناديت جوري

قالت إذا كنت تهوى
صف ورد خدي وإلا

ومنه قوله:

وقال هذا من هوى
أصاب عيني بنوى

أنكر حبي مدمعي
فقلت لا بل من فتى

ومن نكته اللطيفة في تضمين المثل السائر قوله:

في القلب منزلة ترقى
وقطعتها من حيث رقت

وسمينه كانت لها
رقت فعفت وصالها

(١) ماطل: سؤف ولم يف بالوعود.

وقوله: سألتها أي ناه
 قالت نهاني زوجي
 ومن أغزاه قوله: أقول إذ قال لي حبيبي
 خدك كان الصفا ولكن
 وقوله: رامت وصالي فقلت لي شغل
 قالت كأن الخدود كاسدة
 وقوله: أبصروا دمعي فخافوا
 ما عليكم من دموعي
 ومنه قوله: سل الله ربك من فضله
 ولا تسأل الترك في حاجة
 وقوله: لما شئت عيني ولم
 أدنيتها من خده
 وقوله: ضممتها عند اللقا ضمة
 قالت تمسكت وإلا فما
 وقوله: شكى من الخط ضعفاً
 قلت استعن بمثال
 ومنه قوله: وأغيد يسألني
 مثلهما لي مسرعاً
 ومن نكته مع حسن التضمين قوله:
 كبنيان القصور على الثلوج
 فقد عزم الغريب على الخروج
 ملبح ردفه والساق منه
 خذوا من خده القاني نصيباً

(١) نوجك: مرءاتك، النوج: المرءاة.

(٢) رام: أراد وطلب - الخود: الحساء.

(٣) كاسدة: ليس عليها طلب - القاني: المحترف والمترين.

(٤) الكلف: الشديد العشق المتلهف على اللقاء.

(٥) الأغيد: الممشوق القد المتمايل في مشيته.

ومن نكته اللطيفة قوله:

مهفهف القدّ إذا ما انثنى
ما أنت حملي يا كئيب النقا
لو نلت من خديه تقبيلة
وقوله:
رومية الأصل لها مقلة
قد فضحتني وجنتاها فقل
وقوله من دو بيت:

يا روضة حسن ليها لي وحدي
ما ضرك أن تسقي بماء فرد
ومنه قوله: هويت أعرابية ريقها
رأسي بنو شيبان والطرف من
قلت وقد عانقته
قال وهل يحسدنا
عندي من الصبح فلق^(٢)
قلت نعم حتى انفلق

در يقصّر دونه التقويم^(٣)
والثغر يضحك منه وهو يتيم
ومنه قوله: تقويم قدّك مال يا من ثغره
إني لأبكي من جفاك ولي أب

ومن اختراعاته قوله:

رام ظبي الترك ورداً
عندك الورد المربي
وقوله:
رب فلاح مليح
كفلي أضعف خصري
قلت أقصر خاب ضدّك
قال قاني قلت خدك
قال يا أهل الفتوّه
فأعينوني بقوّه^(٤)

(١) بنو شيبان ونهان وكلاب: قبائل عربية.

(٢) الفلق: الضوء ينشق من ظلمة الليل.

(٣) تقويم: الأولى بمعنى الاستقامة والثانية بمعنى التثمين.

(٤) الكفل: فلكتنا المؤخرة أو الردف.

وقوله: قلت لفرّا فرى أديمي
قد فر صبري وفر نومي
وقوله: رغيف خباز كم قد حكى
إذا رأى ميزانه المشتري

وزاد صدّاً وطال هجرا^(١)
قال نعم مذ عشقت فرا
من وجهه التدوير والحمرة
قال هنا الميزان والزهره^(٢)

ومنه قوله في مליح عبري:

أغيد عبري له عمّة
لقد سبى بالنور شمس الضحى

حكّت من العشاق ألوانا
فهل أتى من آل عمراننا

ومنه قوله: ووعدت أمس بأن تزور ولم تزر
لي مهجة في النازعات وعبرة

فغدوت مسلوب الفؤاد مشتتاً
في المرسلات وفكرة في هل أتى^(٣)

وقوله: أعور كالبدر له مقلة
قد سرق الرقدة من ناظري

واحدة قامت مقام اثنتين
وقال ما جئتك إلا بعين

وقوله: بأبي أعور عين فاتن
طرفه الواحد غضب ذكر

مثل بدر التم والتم بعين
فله في الحسن حظ الأنثيين^(٤)

ومنه قوله: رأيت رشيقي القد أعور فاتنا
إذا قال غصن البان أنت ابن قامتي

له مقلة أغنته عن حسن ثنتين^(٥)
يناديه بدر التم أنت أخو عيني

وقوله: جنكية شاهدت عشاقها
قالت أما تعشق جنكية

وهم بها في الجهد والضنك
قلت كذا يا ليتني جنكي

وقوله: تغسل عيني وجنتي
فوجنتي قائلة

بدمعة هاملة
عدوتي غاسلتي

(١) فرى: يفري، شق - والأديم: الجلد.

(٢) الميزان والمشتري والزهرة: من الكواكب والأبراج بالإضافة إلى معناها الحقيقي.

(٣) هل أتى، والنازعات: سورتان من سور القرآن الكريم.

(٤) العضب: الحاد القاطع - الأنثيين: الخصيتين.

(٥) الجنكية: التي تضرب بالجنك وهو من آلات الطرب - الضنك: التعب.

وقوله: ناديت صالحه إلى
قالت نزحت لأنكم

كم أنتِ عنا نازحه
لا تصلحون لصالحه (١)

هويت حصاداً حكمت قامتي
أقول والسنبيل من حوله

من طول ما يهجرني منجله (٢)
مولاي أنت الشمس في السنبله (٣)

وقوله: أنا في حالي نقيض
هزم الصبر عليكم

يا شموساً في البزوغ
والمنى دون البلوغ

ومن لطائفه قوله:

قال لي بند خصره
قلت لا تنفرد به

كم كذا ترجع البصر
لك شد ولي نظر

ومن أغراضه اللطيفة قوله في صديق له بالمعرة يقال له شمس:

لي بالمعرة شمس
فلا تدموه إنني

رضاه غير مرادي
أدرى بشمس بلادي

وكتب إليه في زفة له:

يا شمس أشعلت شمعاً
رغمأ لمن قال قبلي

عليك عشر الأصابع
الشمع في الشمس ضائع (٤)

ومنه قوله في آل النصيبي بحلب:

فؤادي إلى آل النصيبي مائل
فبيني وبين القوم نوع تجانس

وودي لهم في محضري ومغيبني
إذا طاب أصل الورد كان نصيبي (٥)

وقوله: للمقدسي بقلبي
فمن يكن ذا خليل

حب خليّ الدليل
فالمقدسي خليلي

(١) نزح: هاجر- صالحه: إسم علم وعمل الخير.

(٢) المنجل: آلة الحصاد البدائية.

(٣) السنبلة: أحد أبراج الشمس.

(٤) ضائع: لا يظهر ضوءه.

(٥) نصيبي: نسبة إلى آل النصيبي ومن الحظ.

ومن لطائف أغراضه قوله:

فألزهد بالشيخ أليق^(١)
فإن فردك أبلق^(٢)

يا شيخ خلّ التصابي
ولا تحت كميّتا

يقول أتدري كيف أصنع بالخلق
أزرّق لهم رجلي ولو خضروا عنقي^(٣)

ولي صاحب بالمدح والهجو كسبه
إذا حمّروا وجهي وما بيّضوا يدي

ما قرّ لي عنده قرار
إن لسان السراج نار

ومثله قوله: لي صاحب واسمه سراج
لسانه محرق لقلبي

ومن أغراضه اللطيفة قوله:

أم الخلاف أم ورد القطاف^(٤)
وقد حصل الوفاق على الخلاف

تجادلنا أماء الزهر أزكى
وعقبى ذلك الجدل اصطلحنا

ومن لطائف مجونه:

هذا قضاء أم قدر
إن القضا يعمي البصر

يا من تولى قاضياً
غدروك في بستاننا

ومن أغراضه البديعة قوله:

بحر به أو سلمه
فقد قضى بعلمه

قد مات شيخي فآظهوروا
عيشوا بجهل بعده

ومن أغراضه البديعة قوله:

فالجاه يحكي خيال طيف
عين عدوي وجفن سيفي

لا تحملوني على انتقام
عفوت عن مذنب فقرت

(١) خلّ: أترك - التصابي: عمل الصبيان.

(٢) حتّ: أسقط - الكميّت: من صفات الخمرة - الفود: الشعر النابت فوق جانب الرأس مما يلي الأذن - الأبلق: الذي خالط سواده بياض.

(٣) حمّروا وجهي: أخجلوني - بيّضوا يدي: بالعتاء أزرّق لهم رجلي: أهيتها للرحيل إليهم - خضروا عنقي: دقوها.

(٤) الخلاف: الصفصاف.

ومن أغراضه قوله :

هم الأنام فقابلهم بتقبييل
مصر مقدمة والشرح للنيل

ديار مصر هي الدنيا وساكنها
يا من يباهي ببغداد ودجلتها

ومن لطائف مجونه قوله :

هربت منه وأنا صارخ^(١)
يا قوم هذا أسود سالخ^(٢)

حمامكم قيمه أسود
قد سلخت جسمي أظفاره

ومن لطائف أغراضه قوله :

لم يثنه عنه لا مال ولا ولد
أيرتضي رتبة التقليد مجتهد^(٣)

يا من غدا في طلاب المجد مجتهداً
لا تبسطن لتقليد القضاء يداً

وكتب إلى قاضي القضاة شرف الدين بن البارزي :

وكفيتنا مرضين مختلفين
فلك التصرف في دم الأخوين

جنبتي وأخي تكاليف القضا
يا حيّ عالم دهرنا أحييتنا

وقوله مع تضمين المثل السائر :

قد كان يعرف قدري
يا صاح أحرف وأدري^(٤)

إني عدمت صديقاً
دعني لقلبي ودمعي

ومن لطائف أغراضه وقد ولي قضاء شيراز قوله :

وبها القضاي مخلد
أنا من حزب محمد

إنما شيراز نار
قلت لا أمكث فيها

ومن أغراضه قوله :

وأقام تذكاري وصبري نازح
يا أيها الإنسان إنك كادح^(٥)

مرض الفؤاد وصح وديّ فيهم
إنسان عيني كم سهادكم بكى

(١) القيم : المسؤول عن الشيء والمعنى به .

(٢) الأسود السالخ : من الحيات أشرسها وأشدّها سماً .

(٣) المجتهد : الذي يستطيع استنباط الحكم الإلهي في أي قضية .

(٤) أحرف وأدري : أي أعرف وأنكر .

(٥) كادح : عامل عملاً شاقاً ، وهذا الشطر من آية قرآنية هي قوله تعالى : ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح

إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ .

ومن نكته البديعة مع تضمين المثل قوله في آل البيت عليهم السلام:

يا آل بيت النبي من بذلت
من جاء عن بيته يحدثكم
في حبكم روحه فما عُبنَا^(١)
قولوا له البيت والحديث لنا
ومن نكته الغريبة قوله في محتسب:

من ولي الحسبة يصبر على
فليس يحظى بالمنى والغنى
تعرض الواقف والسائر
فيهم سوى المحتسب الصابر^(٢)
وقوله: قد عجبنا لأمير
فهو كالجزار فيهم
ظلم الناس وسبح
يذكر الله ويذبح
وقوله في مدينة حلب:

عليك بصهوة الشهباء تلقى
فللعرفان في الفردوس ربح
بجوشنها محاربة الزمان^(٣)
يفوح شذاه من باب الجنان
ومن مجونه فيمن رتبوا له أربعة دراهم قوله:
كل يوم رتبوا أربعة
فلو استفتيت في سيدنا
لك فازددت علينا صعصعه^(٤)
قلت يستأهل قطع الأربعة^(٥)
ومن لطائفه قوله:

ناعورة مذعورة
الماء فوق كتفها
ولهانة وحائره^(٦)
وهي عليه دائره
ومن نكته الغريبة قوله:

زوجة مجد الدين والداها
إن أباهما وأبا أباهما
قد أخذ عرض المجد أشبهانها
قد بلغا في المجد غايتها

(١) عُبن: يُخس حقه.

(٢) المحتسب: الذي يعمل العمل في سبيل الله.

(٣) الجوشن: الصدر - الصهوة: أعلا الشيء.

(٤) الصعصعة: الجلبة والصباح.

(٥) استفتى: طلب الفتوى، وهي الحكم الشرعي - الأربعة: اليدين والرجلين..

(٦) الناعورة: دولاب يستقى بواسطته الماء - المذعورة: الهاربة التي تبدو وكأنها ملاحقة.

وقوله: مליحة مصطولة
تقول كل ظبية إن لمتها فيما أرى^(١)
ترعى الحشيش الأخضر

ومن أغراضه البديعة مع حسن التضمين قوله:

كرهت وضوءاً من قناة تساق من
سشرق في يوم الحساب ندامة
دماء الرعايا أو بسخرة مسلم^(٢)
كما شرقت صدر القناة من الدم

ومما تخيرته هنا من تأليفي الذي وسمته بتحرير القيراطي رحمه الله تعالى قوله:

البدر طلعة وجهه
وخفوق قلبي في هوا
وعذاره هالاته^(٣)
ه سعيده حركاته

وقوله: أجريت دمعي فمذ أفنيت أبحره
إن ملت عني برمح القدّ يا أملي
أجريت مني بأسياف الجفون دمي
لتقرعن عليّ السنّ من ندم

وقوله: أسدي ثم اللحم تحت طاق
وكم يوم عبرت له زقاقاً
له والدمع يجري كل وقفه^(٤)
أحاول غفلة وأروم عطفه

وقوله: لما تبدى قوام قامته
رأيت موتي بسيف ناظره
وحاجباه لناظر العين
من قيد رمح وقاب قوسين

وقوله: تنفس الصبح فجاءت لنا
واطربت في العود قمرية
من نحوه الأنفاس مسكيه
وكيف لا تطرب عوديه^(٥)

وقوله: ارتاح للأقمار وهي طوالع
ويهزني زجل الطيور بلحنها
وشموس راحي للمغارب تنجح
والروض بالزهر النظيم موشح

(١) مصطولة: بلهاء.

(٢) السخرة: التسخير وهو التشغيل دون مقابل.

(٣) العذار: الشعر ما بين الأذنين من مؤخر الرأس - الهالات: جمع هالة، وهي دائرة من النور تحيط بالقمر في أيام القيظ عادة.

(٤) أسدي ثم اللحم: من السدي واللحمة وهما الخياطة والتبطين.

(٥) القمرية: نوع من الحمام المطوق.

فالمراسيم تستمع لك قلبي غدا تبع	يا أمير الجمال قل أنا مملوكك الذي	وقوله:
يا صاح اسبق لي من العذل قد سار بين السهل والجبل	في جفنه سيف مضاربه وبخذه والردف لي خبر	وقوله:
من لقتلي بين الأنام استحلا حدنا دون ذاك حاشي وكلا ^(١)	شبه السيف والسنان بعيني فأبى فالسيف والسنان وقالا	وقوله:
نيرانها للقلب جنات ^(٢) لها على الأرواح نصبات	هويت طباحاً له نصبة يكسر أجفاناً إذا ما رنا	وقوله:
وإن هي زادني جفا وتباعدا عليها إذا شاهدتهن موئدا	أهيم بأعطاف القدود صبابة ويعجبني بين الأنام تطفلي	وقوله:
في مجلس ما فيه ما نكره أيضاً فقال الكل في الحضرة ^(٣)	أباح لي نرجس الحاظه فقلت ورد الخدّ جد لي به	وقوله:
لم أجد من ظبا الجفون ملاذا ^(٤) قلت جاءت على الحمى فولاذاً	قال لي بالحمى غزالي لما كيف جاءت إليك أسياف جفني	وقوله:
تزري بحسن نوادر ابن عتيق ^(٥) هز القوام لنا فما ابن رشيق	في وصف خمر الثغر منك نوادر وإذا وصفت رشيق قدك عندما	وقوله:
وصفين من نيلك يا مصر وجفنه الساجي له الكسر ^(٦)	جفني وجفن الحب قد أحرزا جفني له يوم الوداع الجفا	وقوله:
لما تبدى حسنه الباهر جراية أطلقها الناظر ^(٧)	خدمت بالأغزال أبوابه ولي من الدمع على خدمتي	وقوله:

(١) هكذا في الأصل ونرجح أنه: السيف، بدل: فالسيف.

(٢) النصبة: الموقد المنصوبة.

(٣) في الحضرة: في خدمة صاحب المكانة الرفيعة.

(٤) ظبا: جمع ظبة وهي شفرة السيف وحده.

(٥) ابن عتيق: الناقد الشهير ابن أبي عتيق الأموي.

(٦) الساجي: الساكن الهاديء.

(٧) الجراية: الجريان والمسيل.

- وقوله: الدمع والجفن فيه
فالجفن يسقط دمعي
- وقوله: عبدك يا من جفا وصدّ وما
جرى على الخد من مدامعه
- وقوله: في خد من همت به شامة
والعنبر الرطب غدا قائلاً
- وقوله: ومخايل نبت العذار بخدّه
لما رأني قانعاً بخياله
- وقوله: مال إلى الهيئة ذو هيئة
فخاله في خدّه نقطة
- وقوله: أنظر إلى سطر عذار بدت
صحت به نسخة حسن لمن
- وقوله: جزت النقا فحويت لين غصونه
وأخذت حسن البدر منه وقد بدا
- وقوله: ويوم توالى القطر فيه فجاءني
فعانقت لما مال عسال قده
- وقوله: يا من تبرمك^(٦) صبه في عشقه
بالفضل جد لي إن دمعي جعفر
- وقوله: يا هاجراً أوقعني هجره
أخذت قلبي بالتجني وما
- لي شاهدان بحزني
والدمع يجرح جفني
درى بصب يموت بالكمد^(١)
في الحب ما لا جرى على أحد
ما الند في نفحه ندها^(٢)
لا تدعني إلا بيا عبدها
وله مخايل بالملاحة تشهد^(٣)
نزل العذار بوجنتيه يسود
فاتنة ألبابنا باهره
عذاره أضحي لها دائره
من فوقه الشامات مثل النقط
قد راحت الأرواح فيه غلط
وكثيب واديه وجيد غزاله
في أفقه بتمامه وكماله
بشمس الطلا بدر يفوق على البدر^(٤)
وقبلت معسول اللمي عدد القطر^(٥)
بالروح لا تبخل فعشقي زائد
والوجد يحيى والتشوق خالد
وصده في حالة صعبه
تركت لي منه ولا حبه

(١) الصب: الشديد العشق - الكمد: كبت المشاعر.

(٢) الند: عود يتبخر برائحته الطيبة - ندها: شبيهها.

(٣) المخايل: المختال الفخور - المخايل: العلامات.

(٤) الطلا: الخمرة.

(٥) العسال: المضطرب المهتز - المعسول: الممزوج بالعسل - اللمي: سمرة الشفاه.

(٦) تبرمك: انتسب إلى بني برمك أو تشبه بهم، وهم أسرة علت مكائتها في الحكم حتى كانت نكبتهم على يد أحد الخلفاء العباسيين. ومنهم يحيى البرمكي وخالد وجعفر، الفضل.

على بدور التم ما أحسنك
في خده الناعم ما أخشك

مسرى النجوم الزهر في الأفق
تسندها الركبان من طرق

وبالفلك المحيط غدت محيطه^(١)
وفي أوضاعه ملك البسيطة^(٢)

عليك يلقي فيك أقصى مناه
ظهرك للوطء وصب المياه^(٣)

عليه حلوق السبق قلت كذا جرى^(٤)
تجرى عليها معجباً فتقنطرى

في الفقر طول مكثه
زيد له في حرثه^(٥)

لا يرى عن أبي الصفا تحويلا
لا يُراعون في الأنام خليلا^(٦)

وقوله: قلت له لما زها حسنه
وقلت للائم يا لائمي

ومن لطائف مدائحه قوله:

أوصافكم تسرى أحاديثها
كما أحاديث الندى عندكم

وقوله في البجانقي الموقت:

شهاب الدين ذو فكر بسمت
غدا في العصر شيخ الوقت حقاً

ومن أغراضه قوله:

قناطر الجيزة كم قادم
أتاك قوم لاطة فانحنى

وقلت في هذا المعنى:

وقالوا كميث النيل يجري وقد غدا
ولكنه نحو القناطر إذ أتى

ويعجبني من أغراضه اللطيفة قوله:

كم عالم قد اشتكى
وكلّ نور سارح

وكتب إلى الشيخ صلاح الدين:

يا صلاح العلا صفاء ودادي
فدع العتب إنني لست ممن

(١) السميت: الهيئة الخيرة.

(٢) البسيطة: الأرض وما عليها.

(٣) لاطة: يمارسون اللواط وهو إتيان الرجال شهوة من دون النساء.

(٤) الكميث: الحمراء الضاربة إلى السواد - الحلوق: الطرق.

(٥) الحرث: المتاع.

(٦) الخليل: الصديق الملازم.

ومن لطائفه قوله فيما يكتب على طاسة:

وفاق على نقش الغواني التي تسبي^(١)
كأني في الكاسات داخلة الضرب

تأمل فإني طاسة صح نقشها
وواصف حسني أطرب السمع قوله

وقلت في المعنى:

نهر المجرة للنجوم موارد
فقمرته وعليه نقشي قاعد^(٢)

أنا طاسة قدري سما وبروضتي
وتسارح القمر المنير لحسنه

وقلت أيضاً:

وصفاً لكم قلبي بماء رائق
فتنزهوا بين العذيب وبارق^(٣)

أنا طاسة بيضت وجهي عندكم
عذبت موارد ببارق بهجتي

ومن أغراضه اللطيفة في باذهنج قوله مضمناً:

باطفاء ما يلقاه من حرق الجوى^(٤)
على أني راض بأن أحمل الهوى

بروحي أفدي باذهنجاً موكلأ
إذا مدحت أوصافه قال منشداً

ومن أغراضه قوله:

مقامنا يرقص مع صحبه
وكأسنا دار على كعبه

أطربنا العود إلى أن غدا
فشمعنا قام على ساقه

وقوله مضمناً:

قدر المنازل من سواها نازل
لك يا منازل في القلوب منازل

درب الحجاز لقد شرفت منازلأ
كم سرت فيها نحو مكة منشداً

ومما اخترته من الأبيات العامرة، للمعمار رحمه الله قوله:

إن قام يتلو سورة الشمس————س المنيرة في ضحاها

(١) تسبي: تفتن وتأسر، والطاسة وعاء صغير مجوف ومستدير.

(٢) قَمَرٌ: غَلَبَ.

(٣) العذيب وبارق: مكانان في الصحراء.

(٤) باذهنج: لم نعر على هذه اللفظة في ما بين أيدينا ونظنه من الأسماء التي تدل على نوع من النبات.

يا حسنه فكأنه القمر المنير إذا تلاها^(١) (ي)
ونقلت من تذكرة الشيخ عز الدين الموصلي، بخطه، بيتين للمعمار وذكر أنهما
خارجان عن الديوان، وهما من اللطائف في هذا الباب:

رفقاً ومهلاً عليه أيها الجاني
بان يخط عليه عرق ريحان^(٢)

لما تبدي عذار الحب قلت له
ولا تخشن فما في الخد محتمل

ومن لطائفه في هذا الباب قوله:

في خده لكن رأيت العجب
ما أنت يا مشروط إلا رطب^(٣)

وخادم قبلت مشروطه
من ناعم حلو فناديته

من الهند معسول اللمي أهيف القد
خذوا حذرکم قد سل صارمه الهندي

وقوله: تملك قلبي خادم قد هويته
أقول لصحبي حين يرنو بلحظه

فقال تركت لثم الخسد عجا
ورحت تضيع الورد المرابي^(٤)

وقوله: لثمت عذار محبوبي الشرابي
حفظت الأنيسون كما سمعنا

له من الحسن اتصال ونسب
يا عرباً أهل ذمام وحسب
في حبكم ضلت وراحت يا عرب^(٥)

وقوله: صاد فؤادي من بني العرب فتى
فصحت في الحي وقلبي طائر
عساكم أن تشدوا حشاشة

وفراقهم ما كان أصعب
والموت لي من ذاك أقرب
م فلم يلح في الحي مضرب^(٦)

وقوله: رحلوا عريب المنحني
أملتهم أن يرجعوا
جئت الحمى لأرى الخيا

ومنه قوله وأجاد:

ومزاجه للعاشقين يوافق
منه قلوب في الصدور خوافق

كلفني بطباخ تنوع حسنه
لكن مخافي من جفاه وكم غدت

(١) تلاها(هي): الأولى بمعنى: قرأها والثانية، بمعنى اللهو.

(٢) البان: شجر طيب الرائحة - الريحان: كل نبات طيب الرائحة.

(٣) المشروط: المتألق في عمله.

(٤) الأنيسون: اليانسون، نبات عشبي ذو رائحة فواحة يُستعمل في الاستطباب.

(٥) الحشاشة: بقية الروح. ضلت أضاعت الطريق.

(٦) المضرب: الخيمة أو مكانها.

صار لي لحمًا ودما
وامتلا قلبي شحماً^(١)

ولي دم طل على خده
تحقق الفتنة من عنده
قد حبيبي مال مع قده

بلحظه لشقائي
أشكو إلى الحكماء
فقلت من علم دائي
فتلك عين الخطائي

ومنه قوله: رب جزار هواه
فزت بالألية منه

وقوله: حاکمت في شرع الهوى قاتلي
فاتهم الحاكم لحظاً له
مال إلى الحق فلما رأى

وقوله: أصاب قلبي خطائي
فرحت من فرط دائي
قالوا أصبت بعين
إن كان هذا صواباً

ومن لطائفه قوله:

حسرة إذ قضى الزمان ببيني^(٢)
أوقف الدمع قلت من بعد عيني

رحت يوم الفراق أجري دموعي
قل كم ذا تجري دموعك تعمي

ومن لطائفه قوله:

وما ألقىه من ضنى جسدي^(٣)
فقلت يا بردها على كبدي

شكوت للحب منتهى حربي
قال تداوى بريقتي سحراً

ومن لطائفه قوله:

مختفياً من حاسد معتدي
أسبل عليّ الستر يا سيدي^(٤)

قلت له لما وفي موعدي
رب كما فرحتني بالوفا

دموع ساكبات مستمره
وفي عيني بعد الهجر قطره

وقوله: وبى غضبان لا يرضيه إلا
فما عطفت معاطفه بوصل

(١) الألية: ذنب الغنم أو العجيزة وما ركبها من شحم ولحم.

(٢) البين: الفراق.

(٣) حربي: غضبي الشديد - الضنى: الضعف والمرض.

(٤) أسبَل الستر: أرخاه وستر به.

ومن لطائفه قوله:

متميم ما قضى من وصلها وطره^(١)
حتى ولا واحد يصفو من العشره
عاذلي في التبسم
قيل في دور درهم
ورد بدا لم أجنيه
حلاوة في صحنه^(٢)

لو أنصفت لأشارت بالسلام على
بأصبع إنما عضت أناملها
ومثله قوله: لو رأى دور ثغره
ذهبت روحه كما
وقوله: في خد من أحببته
وشامة ذقت لها
ومن لطائف قوله مع التضمين:

بأنوار آيات الضحى حين أقبلا^(٣)
بدأت بيسم الله في النظم أولاً

عزمت على رقيا محاسن وجهه
فلما بدا يفتر عن نظم ثغره
ومن بديع مديحه قوله:

غمر الفضل ووفى
علم السر وأخفى
وفضلاً شاع بين العالمينا
فصرت من الكرام الكاتبينا
وجميله ما عشت طول زماني
بالجود إلا كنت أول ثان^(٤)

لابن فضل الله فضل
كيف لا وهو عليّ
وقوله: أيا بدر المحاسن حزت جوداً
وكنت من الكرام فحزت حظاً
وقوله: قسماً بما أوليت من إحسانه
ورأيت من يثني على عليائه
ومن أغراضه قوله:

فاستوطنوه مشرقاً أو مغرباً
فتيمموا منه صعيداً طيباً^(٥)

ما مصر إلا منزل مستحسن
هذا وإن كتم على سفر به

(١) الوطر: الحاجة والأرب.

(٢) الشامة: الخال بقعة سوداء تظهر على الجلد وتكون عادة على الخد- صحنه: أي صحن خده
وصحن الخد صفحته.

(٣) الرقيا: التداوي بالرقى وهي التعاويذ والطلاسم.

(٤) ثان: الذي يثني، المادح.

(٥) هذا البيت عبارة عن آيتين قرآنيتين تصرف بهما الشاعر وتيمموا: اقصدوا- الصعيد: الأرض
والتراب.

وقوله: جاء الرخاء وفاض النيل وانفجرت
وراح خزانة للنيل ينظره
عنا الهموم وهان القمح ثم رمى
فاستكثر الماء في عينيه ثم عمى

وقوله: حزن الخزان لما أن رأى
ورأى الأرض لنا قد أخرجت
وبكى إذ رمدت أعينه
نيلنا قد عم سهلاً وجبل
سنبلات ذات حب فاخبيل^(١)
زادها الله عروفاً وسبل^(٢)

وقوله: سمعت يوماً سد مصر يقو
وكان هذا خبراً صادقاً
ل النيل وافى زائداً عندي
فرحت أرويه عن السدي^(٣)

وقوله: لاثمي في الشباب دع عنك لومي
أيها الشيخ هات بالله قل لي
لست ممن تروعه بالعتاب
أي عيش يحلو بغير الشباب

وقوله: وشادن ليس له شارب
كفايتي من ريقه شربة
ولا عذار بل له طره^(٤)
واحسرتي منه على جره

ومن لطائف مجونه قوله:

شهر الصيام تولى
فقبل شيع بست
فراقه يوم عيد
فقلت أيضاً وسيدي^(٥)

وقوله: قلت هلال الصيام ليس يرى
فغالطوني وحققوا ورجوا
فلا تصوموا وارضوا بقول ثقه
وكل هذا من قوة الحدقه^(٦)

وقوله: أيري مع المرد خاب متجره
فضيعوا رأس مال حاصله
مذ عاملوه معشر النصبه
إذ كسروه وقام بالثقبه

(١) اخبيل: جن واختلط عقله.

(٢) عروق العين: مرض يصيبها فلا تقوى على النظر (الظفر). والسبل: العمى والغشاوة.

(٣) السدي: أحد رواة الحديث.

(٤) الشادن: الغزال تشبه به الفتاة - العذار: جانب اللحية أو معظمها - الطرة: الطغراء وهي الشعر الذي يجمع ويرفعه صاحبه فوق جبهته.

(٥) الست: العدد المعروف والسيدة من النساء.

(٦) الحدقه: دائرة العين التي يرى بواسطتها.

- وقوله: أيري إذا ندبته قام لها بنفسه
- وقوله: تأخرت لعذرها أيري هذا عصبي
- وقوله: لي أير فيه كبر وجفاء كلما أغضبني أرضيته
- وقوله: أيري مغرى باللواط الذي أوقف حالي لا تسل ما جرى
- وقوله: وبخت أيري إذ جاء ملتثماً بل قال لي حين لمته قسماً كيف وفيها طهرتي وبها
- وقوله: يا ليلة قضيتها عمود أيري قائم
- وقوله: وصغيرة كلفتها ما خلت يحمل ذا العمود
- ومثله: صغير نام على وجهه قم أدخل العمود يا سيدي
- وقوله: عميرة قام يبتغي نكدي ها أنت في قبضتي تطاوعني
- وقوله: وقحبة ذات حر يابس تقول قم طرّقه لي لا تنم
- وقوله: أطعمت أيري كي بنا بل قام يسعى قائلاً
- وقوله: قد ذبت من كربى لفقد النسا وقد طغى الماء فمن لي بأن
- لحاجة تختص بي ما هو إلا عصبي
- قلت لها تقدمي يدخل معك في الدم وهو مني يا لقومي وإليّ وإذا أرضيته قام عليّ
- يقبح لا سيما على مثله وصرت خلف الناس من أجله
- بذاك من غفلة فما اكثرنا ما جزت حمام قعره عبثاً أقلب ماء وأرفع الحدثا
- فهل تراها عائده وهي عليه قاعده
- أيري فقالت ويك باعد د من النسا إلا القواعد
- وقال حكك قلت لا فائده فقال لا تنخرم القاعده
- جلدته ثم قلت يا ولندي وإن عصاني خصاه تحت يدي
- يحمل كالسندان رصي الشديد فقلت ما لي زبرة من حديد
- م وقلت قرّ فما استقر أنا من إذا طعم انتشر
- أفور كالتنور من ناربه أحمل بالجود على جاريه

وقوله:	لو رأى فقحة حبي عاذلي لغدا العاذل فيها عاذراً	وهي تجلى في ثياب سندسيه ^(١) وتفاصلنا على بيضا نقيه
وقوله:	سألت وصال حبي قال دعني فقلت له حبيب القلب أدمى	فإنك في افتقار لا تجاب بذي فقر وفي وسطي نصاب
وقوله:	وصاحب أنزل بي صفة فقال في ظهرك جاءت يدي	غضبت إذ ضيع لي حرمتي ^(٢) فقلت لا والعهد في رقبتي
وقوله:	سألته في صفة قال لي صاع من التمر أحلى به	جناية الصفة ما منه بد قلت له أعطيك صاعاً ومد
وقوله:	لج العذول ولامني فهمت ألطم رأسه	فيمن أحب وعنفا لما بليت تأسفا
وقوله:	لكنني زلقت يدي جئت لخل يلاطف الجرحى	وقعت على أصل القفا ^(٣) قلت له يا أخا الرضا صف لي
وقوله:	في عنقي دمل به ورم قالوا عشقت الشباب جهلاً	قال تداو بمرهم الخل فعلك هذا هو القبيح
وقوله:	فقلت قد قيل كل شيء بدا بخد الحبيب شعر	يأتي على وجهه مليح وسفله يا أخي سالم
وقوله:	فكان كالخوخ إذ ينادي ومماجن يهوى الصفا	عليه ذا مشعر وناعم ع ولم يكن إذ ذاك فني ^(٤)
وقوله:	سلمته عنقي الدقيق ما إن أذنت له رضا	لكنه من خلف أذني لولا يد سبقت له
		لأمرته بالكف عني

(١) الففحة: الزهرة أياً كان لونها - السندس: نسيج الديباج أو الحرير.

(٢) الصفة: ضرب القفا.

(٣) زلق: غلط وأخطأ المقصد.

(٤) المماجن: الذي يمارس المجون - الصفاع: ضرب القفا.

(٥) نخل: هزّ ليتبين جودته أو رداءته - الغين: الخفية.

تباسطني لطفاً بطيب مجونها
وقلبي مفتون بسحر عيونها
على صبا المضي بنور جبينها
مددت قفاي فسحة ليمينها

ومثله قوله: ومازحة تهوى المجون ولم تزل
تقول وقد تاهت بلين قوامها
بعيشك هب لي صفة ثم أقسمت
فلما جرى منها اليمين وأكدت
ومن عجائبه وغرائبه قوله:

فقلت ماذا سوى لحيني (١)
كأنه ترعة اللبيني
لجاء مسحاً لراهبين (٢)
أجبتها باسط اليدين
غرقت فيه بجرتين

جاءت بخدين كاللجين
ذات حر واسع عميق
عليه شعر لو نسجته
تقول لم لا تجر ألفا
إن كان قصدي عليه جراً

مكارمه فالبعد عنه غنائم
فليس لهم بين الرجال محاشم (٣)

ومنه قوله: وإن من الخدام من ليس ترتجي
ولا تك ممن يتهمهم بحشمة

وإن أبدى التنسك والزهاده
إلهي لا تمته على الشهادة

وقوله: فلان والجماعة عارفوه
يموت على الشهادة وهو حي

قالوا ليهنك هذا العرس والزينه (٤)
رمانه كتبت يا ليتها تينه

وقوله: لما جلوا لي عروساً لست أطلبها
فقلت لما رأيت النهدة منتفشاً

لقد زهدوني العشق قهراً وسلوني (٥)
أحب من الألوان قمحية اللون

وقوله: أبيت من الإفلاس والفقر طاوياً
وقالوا تحب البيض والسمر قلت لا

(١) اللجين: الفضة - الحين: الموت.

(٢) المسح: يجمع على مسح وهي ثياب خاصة برجال الدين.

(٣) الحشمة: الغضب والأذى.

(٤) جلا العروس: زفها إلى عريستها، والجلوه من أعمال العرس وكانت تتم بأن تقوم إحدى النساء بالغناء للعروس بأغانٍ معروفة بينما تقوم العروس بالدوران مادة يديها وفي كل دورة يدفع لها العريس بعض المال حتى تتم عدداً معيناً من الدوران.

(٥) طاوي: جائع، خاوي البطن.

وقوله في المواليا:

أوسق بصدي وسمى الهجر بالتصريح^(١)
دمعي انحدر والعواذل تقذفوا في الريح^(٢)
وقلت آهي على قبلة بصحن الخد
قلت انتهى الأمر يا حبي إلى ذا الحد
وأصبحت: مضى قلقه أخشى حلول الحين^(٣)
سالم من العشق حتى صابني بالعين

ولا ففي كل من في الأرض وأنا الكوم
انفس وأرقد ومثلي لا يرى في النوم
وصلك بكم وارحمي ذا العاشق الناحل
مالي جمال ولكن نخل في الساحل

وأصدقني أعطيك ما خلفي وقدامي
وقد نما قلت أيري لم يزل نامي

يصدحك تعمي وذا شي يعرفوا العميان
قلت يجي إنني لو منحني عريان

ومن لطائف العلامة الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفي رحمه الله تعالى في باب
التورية قوله:

يقوى لحمل الشوق والهجران
فلقد بدا من قدها مران^(٤)
لما رآته مقبلاً ساجده
فقال ذي مسألة بارده

طرفي لمح حسن رابس قرحوا تقريح
قذف لعرضي وخلاني من التبريح
وقوله: مزحت يوماً مع الحب الرشيق القد
فسل سيفه من الحاظو لقتلي حد
وقوله: رمى أصاب صميم القلب زين الزين
وكنت لم أشك قبل الخل وشك البين

وقوله: يقل لها زوجها لا تختشي من لوم
واتبني واطعميني ابق من ذا اليوم
وقوله: قلت لمن تركتني بالجفا ناحل
قالت بميتين جمل قلت لها أنا راحل

وقوله: قالت لي أخبر وروي قلبي الظامي
عهدي بأيرك رقيق خرط لاقلامي

وقوله: قالوا توك الشتا كم قد صرع أعيان
انهض تحلل ودع لعبك مع الصبيان

من هجر سلمى ما سلمت ومن ترى
لا تغترر يوماً بحلو رضاها
وقوله: وشادن ظلت غصون الربا
سألته من ريقه شربة

(١) رابس: حامض كناية عن صعوبة الوصول إليه - أوسق: عارض.

(٢) القذف: اتهام الإنسان في عرضه - التبريح: الشوق.

(٣) الحين: الموت.

(٤) الرضاب: الريق - المران: الرماح الصلبة اللدنة، ويزيادة الباء منسوب إليها.

- وقوله: ثنى غصناً ومدّ عليه فرعاً
وأسبله على الأرداف منه
- وقوله: ركبت في بحر هواكم مركبا
فانحدرت مدامعي وأقبلت
- وقوله: هجرت فأحشائي توقد جمرها
وتظل تحرقني بنيران الجفا
- وقوله: قد أودعوا القلب لما ودعوا حرقا
راودته يستعير الصبر بعدهم
- وقوله: يقول عدولي للدموع وقد جرت
تأني فقد لاح العذار بخده
- وقوله: قد زاد في التفتيد لي عاذلي
حتى بدا من لحظها صارم
- وقوله: لا تنكروا اني تركت معذرا
لما بدا شعر بصفحة خده
- وقوله: عارضني العذال في عارض
ما آن للعارض أن ينتهي
- وقوله: قاس الورى وجه حبيبي بالقمر
قلت القياس باطل بفرقه
- كحظي حين أطلب منه وصلا
فلم أر مثل ذاك الفرع أصلا
- قذفت فيه بيد التبريح
عواذلي وأقلعت في الريح
- هذا وليست في المحبة فاتره
ومن الذي يقوى لئار الهاجره^(١)
- فظل في الليل مثل النجم حيرانا
فقال إني استعرت اليوم نيرانا^(٢)
- على اثر محبوب برى مهجتي برياً
فقلت له والله قد زدني جرياً^(٣)
- على هوى من لم أطق بينها^(٤)
ففر لما أن رأى عينها^(٥)
- أضنى الفؤاد بلوعة التبريح^(٦)
قابلت ذاك الشعر بالتسريح
- قالوا له بلطف بعدما أطنبوا
قلت ولا للشيب لا تتعبوا
- لجامع بينهما وهو الخفر^(٧)
وبعد ذا عندي في الوجه نظر

(١) الهاجرة: وقت اشتداد الحر من النهار وهو وسطه.

(٢) راود: حاول الخداع.

(٣) الجري: الركض.

(٤) التفتيد: التكذيب - البين: الفراق.

(٥) الصارم: السيف.

(٦) أضنى: أتعب - التبريح: شدة الشوق.

(٧) الخفر: الحياء.

- وقوله: لما ثنى العطف ثنى مهجتي ناديت إذ صرنا بلا ثالث
- وقوله: قال العذول عندما بمن فتنت في الورى
- وقوله: يا باخلين بالسلاام جهدهم لا تمنعوا عني السلاام سادتي
- وقوله: يا مليحاً رروا لنا عنه حسناً طبت لفظاً مع الرواة ولكن
- وقوله: أميل إليه كي يميل فيثني ويطرخني عن باله لا يعدني
- وقوله: وليلة مرت لنا حلوة بت مع المعشوق في روضة
- وقوله: لست أنسى رقة العيش الذي فرعى الله زماناً بالحمى
- وقوله: بدا ليل العذار بخد بدر فلا تطمع عذولي في سلوي
- وقوله: بروحي أفدي خاله فوق خده تبارك من أخلى من الشعر خده
- وقوله: راحت مني روعي فهذي مهجتي فاترك ملامك يا عذول فإنما
- وقوله في القاضي علاء الدين بن فضل الله:

توف بشكره المداح طرا لقد أعطى علاء الدين ما لم

(١) الشح: البخل.

(٢) هذا البيت هكذا ورد في الأصل برفع قبيح. والتقدير: وقبيح هو إن لم يكن تم حسناً، والله أعلم.

(٣)

(٤) طاحت: هلكت.

نحنا نحو الكرام إليّ حتى دخلت مبرداً وخرجت فرّاً

وقوله في القاضي تقي الدين بن صالح مع بديع التضمين:

بجود تقي الدين أصبح دهرنا رقيق الحواشي معلماً بالمدائح^(١)
فيا دهرنا حزت المفاجر فافتخر إذا نحن أثينا عليك بصالح

ومن أغراضه قوله:

أعدى احتراق النيل أكباد الوري وتزايدت نيرانها من نقصه
فغدت تذوب تلهباً وتلهفا فإذا به طاف البلاد وقد طفا^(٢)

ومن نكته اللطيفة، وقد أهدى له بعض الوزراء في عيد الأضحى كبشاً:

وزير الملك عيد ألف عيد لقد منيت في الأضحى بكبش
فأنت الصاحب الخلق الجميل مليّ بالغنى كاف كفيل

ومن لطائف مجونه قوله:

وناحل أضحي يصفى وقد سألته كأساً أظفي بها
حننت له راووق جريال^(٣) نيران أحشائي فصفى لي

وقوله:

قلت لبزاز على خلوة وخلني أصفق ولو صفقة
واصل فتى ينسب للخرقة^(٤) فأنت ما تخسر في صفقتي

وقوله في العنب العاصمي:

وعاصميّ قد غدا طعمه أورت خلي أكله هيضة
أروى من الماء لدى الحائم^(٥) فاعجب له من سهل عاصم^(٦)

(١) معلماً: مشهوراً ومميزاً.

(٢) طفا: تهادى في ارتفاعه.

(٣) الراووق: وعاء الخمر - الجريال: نوع من الشراب أحمر اللون ونظنه النبيذ الأحمر.

(٤) البزاز: بائع الثياب - الخرقة: الحمق.

(٥) الحائم: الشديد العطش.

(٦) هيضة: الإسهال والاستفراغ (الكوليرا).

وقوله: جاء نحوي معذر
قلت ذا الأير ميت
وقوله: تطلبت حجراً في الظلام فلم أجد
فناداني البدر الأديب إلى هنا
وبعدما عز مطلبه
ظل يبكي ويندبه
ومن يك مثلي حية دأبه الجحر
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر^(١)
ومن لطائف مجونه مع الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة قوله:

يكذب من ينسب البغاء إلى
ما هو بغا كما يقال لنا
شاعرنا الممتي إلى حجله^(٢)
بل هو نور يدور بالعجلة^(٣)
وقوله في الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد:

لعلاء الدين ذقن
فاعمل المنخل منها
تملاً الكف وتفضل
لدقيق العيد وانخل

ومن لطائف الشيخ بدر الدين بن الصاحب في باب التورية قوله وتلطف ما شاء:

حبيب لي طيب لم يزرنى
رآني ناحلاً من فرط شوقي
وقوله: وعدتني بخيال
فشاب رأسي انتظاراً
سوى بالطيف في ظلم الليالي
فأهدى لي مزوره الخيالي^(٤)
يزور طرفي مناما
وما بلغت احتلاماً^(٥)
وله الصدغ عمامه
منك مقدار قلامه^(٦)
ومن لطائفه في هذا الباب قوله:

يقبل الأرض لا زالت مقبلة
ويسأل الله جمع الشمل منتظماً
من بعد ثغري بثغر الروض والزهر
ودمعه قائل يا منزل المطر

(١) الشطر الثاني من هذا البيت، لأبي فراس الحمداني من قوله:

سيعرفني قومي إذا جد
البيغاء: ممارسة الفجور.

(٢) العجلة: السرعة.

(٣) ناحل: ضعيف - مزوره: طيفه.

(٤) الاحتلام: العقل والبلوغ.

(٥) القلامة: قصاصة الظفر.

وقوله: جفني عليك ساهر
ودمعتي جارية
بحرقه قد ذقتها
إن زرتني عتقتها^(١)

وقوله في قيم حمّام:

وقيم قيم في حسن صنعه
لو يخدم البدر أنقى البدر من كلف
وقوله: فنتت بنبت من عوارض خده
ولا كان لي بالعشق قط تعلق
وقوله: إذا جلوا لي كأسي
علمت أن زمانني
وقوله: يا أيها العاصر بادر إلى
إياك أن تتركه ساعة
وقوله: يا حابس الكاس لا تزدها
واغنم مزاجاً لها لطيفاً
وقوله: أطربنا مشبب
يا حسن موصول له
ويعجبني قوله:

غنت فأغنت عن كؤوس الطلا
فقلت إذ هيمني صوتها
بالسكر من لذات تلك اللحون
في مثل ذا الحلق تروح الذقون^(٨)

(١) عتقتها: حستها.

(٢) الكلف: شدة العشق والكلف، النمش الذي يعلو وجه الحامل.

(٣) الحجاب: الفقّاقيع التي تعلق وجه السائل عند صبه.

(٤) القطوب: العبوس.

(٥) تزيب: صار زيبياً - النحس: المجدب الذي لا خير فيه: وهذا من الأمثال: يزيب النحس على أمه.

(٦) الدنان: جمع دن وهو وعاء الخمر.

(٧) الجعل: الضريبة.

(٨) الحلق: الحلاقة.

صفرأً حكي طول القنا طولها (١)
فأحسن الأقصاب موصولها
لم أدر ما عناؤها من شوقها
كأنها مخنوقة من طوقها
قوام حسنك في ضمي لمعتنقك
سواد قلبي يا ورقاء في عنقك (٢)

وخفت إسراع دهم خيلك (٣)
دخلت بالليل تحت ذيلك

نهاراً وليلاً ثم بؤساً وأنعماً
وبعد الفنا تحي وتبعث أعظماً

وأسلوه من ناقل الباطل
وتأبى الطباع على الناقل

تقصر الأوصاف عن حدها
تموت منه الشاة في جلدها (٤)

وازددت فيه تعشقاً وتكلفاً
فالراية البيضاء عليه في الوفا

يا مهدي الأقصاب من سكر
إياك أن تقطعها ساعة

وقوله: ناحت حمام البان أم تاهت أسي
عجماء لا تظهر حرفاً من شجي
وقوله: وذات طوق على الأغصان تذكرني
قد سودت وجهها نوحاً فقلت لها

ويعجبني قوله:

يا ليل إن الحبيب وافى
فطل وغش الصباح إنني

ومن نكته البديعة الغريبة في الشطرين قوله:

تأمل ترى الشطرنج كالدهر دولة
محركها باق وتفنى جميعها

وقوله مضمناً:

أميل لشطرنج أهل النهى
وكم رمت تهذيب لعبه

ومن أغراضه:

لعبت في الشطرنج في غاية
إن صاح في الأقران لي بيدق

ومن لطائف مجونه قوله:

شاب الحبيب فقلت أهلاً بالوفا
والأير قام ولم يبيل لمشييه

(١) الأقصاب: جمع قصبه وهي نبات ذو ساق كالأنبوب ومنه ما هو سكري الطعم ويصنع منه السكر-
القنا: الرماح.

(٢) النوح: البكاء - الورقاء: الحمامة المطوقة.

(٣) دهم الخيل: سودها والدّم: المداهمه والمفاجأة.

(٤) البيدق: من أدوات لعبة الشطرنج (الجندي).

وضرني من حيث بي يعتني
قلت له والله عزيتني

وقوله: كم جار صرف الدهر في حكمه
ألبسني من شيبتي حلة
ومن أغراضه البديعة مع حسن التضمين قوله:

كالروض تطفوا على نهر أزاهره
مخلق تملأ الدنيا بشائره^(١)

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا
وللوفاء عمود من أصابعه

حمراء في تخليقه
قد ختمت بعقيقه

وقوله: النيل ألبس حلة
وله أصابع زينب

إذ علقوا سترة علامه
فبت في الستر والسلامه^(٢)

وقوله: نادى منادي الوفاء مصراً
من الغلا قد سلمت حقاً

بالنيل مذ ولى خلت
فبعده ترملت^(٣)

وقوله: كانت لمصر سترة
كأنه زوج لها

ومن أغراضه البديعة قوله:

والسعد في الأقسام مكتوب
كلاكما للخط منسوب^(٤)

فاخرت الأقلام سمر القنا
فقلت للخطي لا تستطل

في أسود أشتهيه
فقلت عينك فيه

وقوله: ولائم زاد لوماً
وقال أسود تهوى

ومن لطائف أغراضه في مליح فوال قوله:

كثير رماد القدر للعبء يحمل
ويصبح بالخير الكثير يفول^(٥)

أنا ابن الذي في الليل تسطع ناره
يطوف بأقداح العوافي على الورى

ومما اخترته من نظم الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة، وقد تقدم قولي إنه كان
يرضى بالرخيص لأجل الكثرة، قوله:

(١) المخلوق: ذو الأخلاق الفاضلة.

(٢) الغلا: الغلاء وهو ارتفاع الثمن.

(٣) ترملت: المرأة، فقدت زوجها فصارت أرملة.

(٤) استطل: تكبر وتعجرف.

(٥) يفول: يملأ أو من الفأل.

ولحظه لحظ ظباء رامة
لي خطه يا كاتب السلامه
يدب الحسن من وجهي إليه
وقام بنفسه يسعى إليه
وقال لما هاج بلبالي^(١)
قلت ولا بالشيب والوالي^(٢)
أمسى بعيد الدار فاقدًا إلفه
قدمت من جور الزمان وصرفه^(٣)
كالواله المصاب
ما كان في حسابي^(٤)
وقد رأى حرقتي وناري
عليك قد جار قلت جاري

هو الحب فاسلم بالحشام الهوى سهل
مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو

حكيت طلعة من أهواه بالبلج^(٥)
ذكرت ثم على ما فيك من عوج

ما زال عنه كل حين يسأل
ويقال لي هذا حبيك مقبل^(٦)

بي من غدا ظهري عليه المنحنى
كم قلت من عذاره وقد بدا
يقول لي الحبيب أرى عذارى
تكلم في وظيفة حسن خدي

وقوله: وعاذل قد زاد في لومه
بعارض المحبوب ما تنتهي

وقوله: يا سائلي عن حالي ما حال من
بي صيرفي لا يرق لحالي

وقوله: أصبحت ما بين السورى
من هجر ذي القبطي الذي

وقوله: يقول جاري من بعد جور
دمعك ما شأنه ومن ذا

وقوله مضمناً:

أقول لصب قلبه يشتكي الأسي
عدلتك في ابن السكري والذي أرى

وقوله مضمناً:

قل للهلل وغيم الأفق يستره
لك البشارة فاخلع ما عليك فقد

وقوله في غلام يدعى مقبلاً:

يا من تحجب عن محب صادق
من لي بيوم فيه تقبل باللقا

(١) البلبال: شدة الهم أو الحزن الشديد.

(٢) العارض: جانب اللحية - ولا بالشيب: أي ولا أنتهي بالشيب وما بعده.

(٣) صرف الزمان: تقلبه. والصرف من الصيرفة عملية تبديل العملات.

(٤) القبطي: نسبة إلى الأقباط وهم طائفة من النصارى أكثرهم في مصر.

(٥) البلج: الإضاءة والإشراق.

(٦) مقبل: آتٍ واسم الحبيب.

وقوله في جارية تدعى حكم الهوى:

حكم الهوى صدق فبت لأجل ذا
يا عاذلي لا تلحني في حبها
ولهان من فرط الصباية والجوى
نفذ القضا وكذا جرى حكم الهوى^(١)

ورأيت غالب مقطعات الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة، في الباذهنج والفانوس، ولكن نختار منها ما يحسن نظمه في هذا السلك، فمن ذلك قوله في فانوس مع حسن التضمين:

وكانما الفانوس نجم نير
أو عاشق أجرى الدموع بحرقه
منع الظلام من الهجوم طلوعه
من حر نار تحتويه ضلوعه
وتقدمه فيه مجير الدين بن تميم، فقال وأحسن التضمين:

أنظر إلى الفانوس تلق متيماً
يدو تلهب قلبه بدموعه
ذرفت على فقد الحبيب دموعه
وتعد من تحت القميص ضلوعه
وقال فيه ابن أبي حجلة وأجاد مع حسن التضمين:

يحكي سنا الفانوس من بعد لنا
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه
برقاً تآلق موهناً لمعانه^(٢)
والماء ما سحت به أجفانه
ويعجبني قوله مع حسن التضمين:

أنا في الدجا ألقى الهوى وبمهجتي
فكأنني في الليل صب مدنف
حرق يذوب لها الفؤاد جميعه
كتم الهوى فوشت عليه دموعه^(٣)
ويعجبني أيضاً هنا قول مجير الدين بن تميم:

أبدى اعتذاراً لنا الفانوس حين بدا
رأى الهوى مضرماً ما بين أضلعه
في حالة من هواه ليس ينكرها
نار الجوى فغدا بالثوب يسترها^(٤)

ومن نظم الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة في الباذهنج قوله مع حسن التضمين:

(١) لحا: لام.
(٢) الموهن: قريب من منتصف الليل أو بعده بقليل.
(٣) الصب: العاشق - المدنف: المريض بالعشق - وشى: دَلَّ ونمَّ.
(٤) مضرماً: ملتهباً - الجوى: الشوق والصباية.

من فوق مخبره يبدو على سنن
واستنشق الريح من تلقاه يا سكاني

وباذهنج غدا في الجوّ منظره
فانظر فديتك يا محبوب رفعته

وقوله:

تعلو على بان الحمى
ورفعت رأسك للسمما

يا باذهنجي كم كذا
أبديت حمقاً زائداً

وألف منه قوله مع حسن التضمين:

مثلي على حب الديار مولها
خلعت هواك كما خلعت هوى لها

يا باذهنجي لا برحت من الهوى
داري بحبك لم تزل مشغوفة

وقوله مضمناً:

لأن نسيمه أبداً عليل
إذا صح الهوى دعهم يقولوا

هجا الشعراء جهلاً باذهنجي
فقال الباذهنج وقد هجوه

ومن نكته الغربية في باب التورية قوله، وكتب به إلى ابن الزين المعروف بليكم:

وتطيعه درر النجوم إذا نظم
وتقول يا ابن الزين لبكم نعم^(١)

يا شاعراً قد حاز حسن بديهة
وتجيئه قبل السؤال لقصده

وقوله وقد قدم الشيخ جمال الدين إلى الشام:

ومديحك فيما يروق ويعذب^(٢)
أقواله بسكينة وتأدبوا

يا معشر الأدبا غدا تشيبيكم
وافاكم ابن نباتة فتفقهوا

وقوله من أبيات:

أمسيت تمشي في المسرة راكبا^(٣)
لم تلق إلا راغباً أو راهبا

ومتى امتطيت من الكؤوس كميتها
ومتى طرقت عشي أنس ديراها

وممن قصص شوارد التورية بحبائل فكره الشيخ بدر الدين حسن الزغاري، فمن ذلك قوله:

(١) لبكم: لقب المذكور ومعناها سرعة الإستجابة للطلب.

(٢) التشيب: التغزل.

(٣) الكميت: الحمراء التي يميل لونها إلى السواد - المسرة: السرور.

لم أرد ذا السقم يوم بينك (١)
فقلت لا عين بعد عينك

سياجاً ما له قط انفراج
تجرى الدمع وانخرق السياج

عن بدور السماء للطرف تلهي
فسقامي قد صح من كل وجه

لحظاً حديداً تحت جفن كليل (٢)
شعره عنقود وليل طويل

وسواد قلب الصب من أغراضه (٣)
سهم وما عاينت كشف بياضه

على خديه من شعر العذار
أرى خلل الرماد وميض نار (٤)

لسلوانه الصب لم يستطع (٥)
ودمعي يرق وما ينقطع

قوس كنانتها سهام جفونه (٦)
فنفوسهم مطوية بيمينه

قالت وقد أنكرت سقامي
لكن أصابتك عين غيري

وقوله: حبست الدمع ثم جعلت جفني
فما زلت بجوركم إلى أن

وقوله: قيل لي إذ رأيت أعمار تمّ
أي وجه أضناك قلت دعوني

وقوله: سل لحتفي كالحسام الصقيل
ثقل ردف قادني في دجا

وقوله أيضاً: أفديه في الألكن يرمي دائماً
أطلقت لحظي نحوه فأجابني

وقوله مضمناً، وأجاد:

يقول العاذلون نرى رماداً
فقلت لهم صدقتم غير أني

وقوله: فتنت بأسمر حلو اللمي
يقطع قلبي وما رق لي

ومنه قوله في مليح بيده قوس حلقه:

وبدا العشية أغيد في كفه
فسألته البقيا على عشاقه

(١) السقام: المرض والضعف - البين: الفراق.

(٢) الحسام: السيف - الصقيل: المستون القاطع - حديد: شديد الإبصار. الكليل: الذي لا حد له فلا يقطع.

(٣) الألكن: الذي يصعب عليه الإفصاح بالعريه للكفة في لسانه أي عجمة.

(٤) الوميض: اللمعان.

(٥) اللمي: سمرة في الشفاه من عناصر الجمال.

(٦) الكنانة: الجعبة التي تحوي السهام.

حكمت عليّ ببعذك الأيام
برداً عليّ وفيه منك سلام

وقوله: وافى كتابك يا خليلي بعدما
لكن أرى نار اشتياقي لم تكن
ومن نكته الغريبة قوله:

ينسل بين الغصون والورق
يشق نحوي مفارق الطرق

أما ترى النهر كالحسام غدا
وليس في الجري مثل صارمه
ومن غياته البديعة في هذا الباب قوله:

وقد أصبحت حسرى من السير ظالعه^(١)
ومن تعب أنفاسها متابعه^(٢)

سرت من بعيد الدار لي نفحة الصبا
ومن عرق مبلولة الجيب بالندى
ومن لطائفه قوله:

من أدمع الرواق لما انسكبت^(٣)
ما بيننا تضحك حتى انقلبت^(٤)

أعجب ما في مجلس اللهو جرى
لم تزل البطة في قهقهة
ومثله قوله وزاد لطفاً بزيادة نكتة أخرى:

فأذني عن الملام قد نبت^(٥)
أضحكت البطة حتى انقلبت

يا من يلوم في التصابي خلني
تصفية الكاسات في شواربي
وتلاعب بهذا المعنى وقال:

أملكه في كلف المشارب
تصفية الكاسات في شواربي

أنا القليل العقل في صرف الذي
ولم أنل مما أضعته سوى
ومن مجونه قوله:

لثياب راجيه المؤمل رافي^(٦)
ظهر القطوع بها على أكتافي^(٧)

يا صاحباً ما زال من أنعامه
قد قطعت فرجيتي حتى لقد

(١) حسرى: كاشفة - ظالعة: متهمة.

(٢) الجيب: موضع وضع القلادة من العنق.

(٣) الرواق: هكذا وردت في الأصل ونظنها الراووق وهو وعاء الخمر.

(٤) البطة: الباطية وهي وعاء للخمر.

(٥) نبا: أخطأ ولم يصب.

(٦) رفى: يرفى ويرفو: رقع.

(٧) الفرجية: ثوب واسع طويل الأكمام يلبسه رجال الدين عادة (محدثة).

وممن أتى في دقيق التورية بخاص الخاص الشيخ يحيى الخباز الحموي، فمن ذلك قوله:

قال عدولي والقوم قد رحلوا
أطلق دموعاً ما زلت تحبسها
وقصده في مقاله حينني
وطلق النوم قلت من عيني (١)

وقوله:

لم أنس طيفاً زارني وانثنى
وما كفى حتى دموعي غدت
عني وقلبي بعده يخفق
من خلفه تجري وما تلحق

وقوله مضمناً:

لئن وعدت بالوصل سلمى وأخلفت
ولا تبدها باللوم قبل سؤالها
فسلها عسى العذر المبين يقوم (٢)
لعل لها عذراً وأنت تلوم

وقوله:

لقد تعشقت فتى سائباً
مدحته جهدي فلم يرتبط
يبدل الحاضر بالغياب
وراح كل المدح في السائب

وقوله:

تعذر من أهواه واسودّ وجهه
وقال حكى صدغي نباتاً أجبته
ورام وصالي بعدما لم يكن خلقي (٣)
صدقت لهذا عاد يصلح للحلق (٤)
ومن لطائف نكته في هذا الباب قوله:

قلت لمن ينتف أصداعه
وأعتق شعور الذقن من نتفها
لا تكره الريحان حول الشقيق
فإنني شيخ أحب العتيق

ومن لطائف نكته في هذا الباب قوله:

أصبحت في العالم أعجوبة
جدي حموي فاسمعوا واعجبوا
عند ذوي الألباب والفهم
وما كفى حتى أبي أمني

(١) من عيني: كناية عن الاستجابة للطلب.

(٢) أخلف الوعد: نكته ولم يف به.

(٣) رام: طلب وأراد - خلقي: جدير بي.

(٤) الحلق: الحلاقة - الصدغ: الشعر بين العين والأذن حكى: شابه.

ومن لطائفه قوله :

تتقد في الكؤوس كالنيران^(١)
أذكرتنا شقائق النعمان

عاطنيها من عهد كسرى سلاًفاً
وابن ماء السماء زوجه راحاً

ومن رقيق أغزاه قوله :

بافتك فينا عتوّه^(٢)
تزداد بالضعف قوّه

لضعف أجفان حبي
فيا لها من جفون

ومن مجونه قوله :

يسير باللطف على سيري
الأير يكن خيراً على خير

كسبت مملوكاً ومن لطفه
سميته خيراً وإن يدخل

ومن مماجناته مع الشيخ حسن الزغاري المذكور قوله :

يا بش من يوافقه
للكلب إلا خانقه

حسن الزغاري أحق
خنفته هجواً وما

ومثله قوله فيه :

وكمال نظمي بالسفاهة نقصا
فأصبت مصرعه ولم تضع العصا

نبح الزغاري عند نظم موشح
فضربته بعصا الهجا لما عوى

وقوله فيه :

أمسى بأقوال الأكابر هازي
من ذا يجيرك من يد الخباز

قل للزغاري الذي من جهله
هذا ابن قرصة قد سمعت هجاءه

ومن لطائف الشيخ شهاب الدين الحاجبي، تغمده الله برحمته، في باب التورية، ولم أظفر له إلا بما قل من مقاطيعه، مع أنني كثير الفحص عنها، فإنه ما يجارى في انسجامه وسهولته ورقته ولطيف تركيبه في هذا الباب، قوله :

مكحلة ولي عين تباكت
فيا لك مقلّة غزلت وحاكت

لها عين لها غزل وغزو
وحاكت في فعائلها المواضي

(١) عاطاه : الخمرة : شربها معه .

(٢) العتوّ : القوة والشده والهباج .

وقوله:

وصفت خصره الذي
قالوا وصف جبينه
أخفاه ردف راجح^(١)
فقلت ذاك واضح^(٢)

وقوله:

عودوا لصب بكى عليكم
فدمع عينيه عاد بحراً
يا جيرة ودّعوا وساروا
وقلبه ما له قرار

وقوله:

لا تبعثوا غير الصبا بتحية
حفظت أحاديث الهوى وتضوّعت
ما طاب في سمعي حديث سواها
نشراً فيا لله ما أذكاه^(٣)
ووقفت له على قصيدة لامية امتدح بها الملك الأفضل صاحب حماة، كلها غرر في
باب التورية، مطلعها:

عما جرى من أدمعي لا تسألوا
وما أحلى ما قال بعد المطلع:

وخذوا حديثاً قد ألم بمهجتي
وازداد حتى أهملته العذل
فمدامعي أخبارها تتسلسل

منها:

ثاني المعاطف كنت أول عاشق
يرنو فيحلو للمتيم لحظه
في حبه ولكل ثان أول^(٤)
إذ ذاك لحظ بالنعاس معسل^(٥)
وتميل منه شمائل لم أدر من
مشمولة أو حركتها الشمال^(٦)
متلون الأوصاف سيف لحاظه
ماض ولكن هجره مستقبل

منها قوله، وأظنه سبق ابن نباتة إلى معناه، وهو:

(١) الردف: الكفل والعجيزة - الراجح: الثقيل.

(٢) واضح: يبين ظاهر وواضح الجبين عريضه.

(٣) تضوع: فاح - النشر: الرائحة الطيبة.

(٤) ثاني: طاوي من ثنى يثني.

(٥) يرنو: ينظر بعطف - المتيم: العاشق - المعسل: ذو النوم الخفيف.

(٦) المشمولة: الخمرة الباردة - الشمال: الريح الشمالية.

وأظنه برجوع ذلك يبخل
بالفتح من أرق الصباة مقفل^(١)

أيحود لي دهر بطيف خياله
أم كيف يأتي الطيف جفناً بابه

وقول الشيخ جمال الدين:

لصادف باب الجفن بالفتح مقفلاً

وأقسم لو جاد الخيال بزورة

ومن قصيدة الحاجبي قوله:

عن ناظري البدر الذي لا يأفل^(٢)
ما شتم يا أهل بدر فافعلوا
فعلى حجاز الصد ماء لي محمل

يا ساكنين السفح كيف حجبتهم
وفعلتم بي ما يسر عواذلي
لا تحجبوا بيني وبين غزالكم

ومنها وهو المرقص والمطرب قوله:

عن ذكره إن المحب يعلل^(٣)
فهى الشفاء وفي شذاها المندل^(٤)

يا صاح عللني بكأس مدامة
صهبا إن جن الفتى بخمارها

ومن لطائفه في هذا الباب قوله:

لله أيام النجا والنجاح
ظفرت فيه بحبيب وراح^(٥)

لم أنس أيام الصبا والهوى
ذاك زمان مر حلو الجنى

تالله لقد عز علي أن تتحجب عني عرائس الحاجبي في خدور الأوراق، فإني لم
أظفر من منهله العذب بغير هذه النهلة، ومن عروبة الشيخ زين الدين بن العجمي في
باب التورية، قوله:

يوماً جنى وجناته لم يستطع
لا تظمن فكل سهل ممتنع

سهل الخدود عزيز وصل من يرم
كم رمت لثم الخد منه فقال لي

(١) الأرق: عدم استطاعة النوم - الصباة: الشوق.

(٢) أفل: النجم، غاب.

(٣) علل: منى النفس - المدامة: الخمرة اديمت في الدنان.

(٤) الصهبا: الخمرة - الخمار: غطاء الوجه للفتاة أو السكر - الشذا: الرائحة - المندل: العود الطيب

الرائحة وضرب من الكهانة.

(٥) الراح: الخمرة.

وقوله:

فلا تشق منه بزور المقال
قد سلب العشاق روحاً ومال

حيي يمين في يمين الهوى
كم قال ما ملت وولى وكم

وقوله:

حيا به مذ شب تحت لثامه
وجنيت ورد الخد من أكامه

وافى وفي كميته ورد أحمر
فرشفت حلو الراح من خرطومه

وقوله:

أمواجهها فزهت وراقت منظرا
قلم النسيم بلطفه لما انبرى

أنظر إلى الغدران كيف تجعدت
وحكت سطوراً في طروس خطها

ومن نكت مدائحه البديعة قوله في القاضي شهاب الدين بن فضل الله، رحمه الله تعالى:

ونافعي بجوده دون البشر
لنافع لمالك لابن عمر^(١)

يا عمري الأصل أنت مالكي
لذا رفعت سندي في حكمكم

وقال وقد أهدى له حلاوة سكب:

على السحبالا تخفى على من له لب^(٢)
وغيث نذاك الجم أوله سكب^(٣)

لفضلك يا قاضي القضاة مزية
فأول جود الغيث قطر مبدد

ويعجبني من زهدياته قوله:

خيمة من عقاب عقبي التجري^(٤)
فيه أمشي أبغي ثوابي وأجري

عن طريق الذنوب قيدت خطوي
وإذا لاح نهج بر تراني

وقد عن لي أن أورد هنا نبذة له من المواليا، فإنه كان فارس ميدانها وقائد عنانها، فمن ذلك قوله:

جدلو بقبله فعقلو فيك خيلتو
ومات للشرق ما درتو وقبلتو

للحب قالوا معنك الذي إذ بلتو
فقال أقسم لو أن البوس سبلتو

(١) نافع ومالك بن أنس وعبد الله بن عمر: من رواية الحديث.

(٢) اللب: العقل.

(٣) الغيث: المطر والمساعدة - الندى: العطاء.

(٤) التجري: اتخاذ الجواري.

ومن مخترعات معانيه قوله فيها:

في روض وجنتك يحدو للصبابه حدو
إلا لأن حشيشو قد طلع في بدو

حشيش عارضك الأخضر بدا في هدو
والوهم ما ضر خدك يا رخيم الشدو

وقوله:

ملهوف لا حمل يعينني ولا تحميل
لا تكتحل بالكرى إن غبت عنها ميل

شدوا المحامل فصرت ساعة التحميل
والعين قد حلفت يا بدر في التكميل

وقوله:

وقد سلب نوم أجفاني وعننى فر
مالو قرار ودمعي البحر وأنت البر

يا من على الخلق أذيال المكارم جر
يحل لك أن قلبي يا غزير الدر

وممن فتح له هذا الوصيد، القاضي فتح الدين بن الشهيد، رحمه الله تعالى، فمنه قوله:

واهاً لغصن قوامك المياس^(١)
حليّ يوسوس في صدور الناس

بستان حسنك أينعت ثمراته
في صدره رمان نهد زانه

وقوله:

بحسن ساقها لمشتاقها
فقامت الحرب على ساقها

أفدي التي ساق حروب الهوى
جادلت عدالي على حسنها

وقوله:

حبني في زورتي أوفى نصيب
فبودي وعمى عيني رقيب

قال لا تخش رقيبى فلمن
قلت إن زرت وحانت غفلة

وقوله في عين بعلبك:

عين بها روض النعيم منعم
ولأجل عين ألف عين تكرم

ولقد أتيت لبعلبك فشاقتني
فلأهلها من أجلها أنا مكرم

وقوله:

هذا قياس باطل وحياتكم
شتان بين عروسنا وحماتكم

قاسوا حماة بجلق فأجبتهم
فعروس جامع جلق ما مثلها

(١) أينع الثمر: نضج - واهأ: إسم فعل بمعنى التلهف والتفجع والتعجب.

فأجبتة في ذلك التاريخ عن ذلك بقولي :

والله إن حماة شامة شامكم
ودمشقكم بعدارها الثلجي قد
وعروسها بمحاسن متزايدة
ولت شببتها وأمست بارده

ومن لطائف القاضي فتح الدين بن الشهيد، قوله وقد أحضر له عواد يسمى طائر
بغا، بسفارة الحاجب توكل :

نهاري أنس كله بمنادم
وكنت أراه طائراً عز مطلباً
على عوده يغزو الحشا بتبليل^(١)
ولكنني حصلته بتوكل

وقال وقد حضر عنده من يلعب بالقانون وأطربه :

غني على القانون حتى غدا
داوى قلباً من عليل الأسي
من طرب يهتز عطف الجليس^(٢)
وكان فيها من هواها رسيس^(٣)
يا صاحب القانون أنت الرئيس
فصاحت الجلاس عجباً به

ومن نكته اللطيفة التي هو أحق بها من غيره، لكونه صاحب ديوان الإنشاء الشريف
بالشام، قوله :

كانت فتاتي لنظم بيتي
بكيتهما والحمام قامت
من علم الورق أن سجعي
قرينة برة أمينه
بالسجع في نديها معينه
ليس يؤاتي بلا قرينه

ومن لطائفه، وقد جهز لبعض أصحابه رسالة القلب، وهي ما لا يستحيل بالانعكاس
وجهز بعده قوالب سكر :

رسالة القلب بها خدمتي
وها أنا أرسل من بعدها
ليعلم المخدم أني امرؤ
تقدمت في الزمن الذاهب
قوالب السكر في الواجب
أخدمه بالقلب والقلب

وكتب على عمارة بيته قوله :

بنيت على وفق المكارم والاعلا
سنا الملك يبدو من موشح زيتي
فللفتح أبواي وصدري للضم
ومن أجل ذا دار الطراز على كمي

(١) التبليل : الاضطراب .

(٢) القانون : من آلات الطرب الموسيقية - العطف : الجنب .

(٣) الرسيس : الأثر .

وكتب علي الرفرف:

أزين سمائي بل أزين سماحي (١)
ويمشون في ظلي وتحت جناحي

رفعتك ما شاء الترفه رفرفا
فلا بدع أن الناس يهون بهجتي

وكتب علي مجلس بيته:

اسمع صفات بها قد فقت أمثالي (٢)
ودون قدر مقامي المجلس العالي

يا من ينزه في حسني نواظره
أني مقام مقر عز جانبه

ومن لطائف الشيخ عز الدين الموصلبي، في باب التورية، قوله رحمه الله تعالى:

حياه حسنه هيفاً بليين
فهذا الطيب من عرق الجبين

يقول وقد بدا قمراً وغصناً
تنشق مسك أصداغي حلالاً

وقوله:

وخده كالورد لما ورد
في الخد تقبيلاً يفك الزرد

كالزرد المنظوم أصداغه
بالغت في اللثم وقبلته

ويعجبي من نكته الغريبة قوله:

من ساق ساقينا بإشفاق (٣)
وحكم الكأس على الساق

وحاجم في الكأس أجرى دماً
لكنه خالف في شرطه

ولعمري إنه تلطف إلى الغاية بقوله:

جفني فأعدمني الكرى (٤)
مثل النسيم إذا سرى

أعدى سقام جفونه
حتى اعتلت بسرعة

ويعجبي قوله في باب التدبيح:

خضرة الصدغ والسواد من العيون بياض المشيب قد أورثاني
واحمرار الدموع صفر خدي كل ذا من تلونات الزمان

(١) الرفرف: الرف تجعل عليه طرائف البيت.

(٢) فاق: تفوق وزاد عليه.

(٣) الحاجم: الذي يشتغل بالحجامة وهي المداواة بكبايات الهواء أو امتصاص الدم بالمحجم.

(٤) أعدمني: حرمني - الكرى: النوم.

- وقوله: حديث عذار الحب باد وساقه
درى أننا نسعى إلى الحسن كلنا
- وقوله: يا مقلّة الحب مهلاً
وأنت يا وجنتيه
- وقوله: حديث عذار الحب في خدّه جرى
فقبلته حتى محوت رسومه
- وقوله: عيني أفاضت دموعي
ووجنة الحب قالت
- وقوله: عاتبت حبي على تأخره
فقال هذا الثقيل أخرنى
- وقوله: لحديث نبت في العذار حلاوة
فإذا تجافى المرد قلت تمهلوا
- وقوله: هجروك البيض لما
كشف الدهر المغطى
- وقوله: ذو حور أصابني
فليس قتل صبه
- ومن لطائف مجونه قوله:

وبي ناتف للعارضين يقول صف
فناديت يا حلو الشمائل ما الذي

نبات عذار زان في الحسن منظري
يقول لساني في النبات المكرر

(١) درى: عرف - وساقه: الحديث حدث به في سياق الكلام. والساق المتصل بالقدم.

(٢) الرسوم: الآثار - جرى: حدث.

(٣) الرجّة: الإهتزاز - تعنى: تعب - الردف: المؤخرة.

(٤) الحديث: الجديد - الطلاوة: الرونق.

(٥) المرد: جمع أمرد وهو الشاب الذي لم تنبت لحيته بعد.

(٦) نصل الصبغ: بهت وبار لونه. والصبغ الخضاب.

وقوله: لما جفا المحبوب ناديته قابلت حبي منك بالبغض
فعندها نام على وجهه وقال وجهي منك في الأرض^(١)

وكنت أظن أن هذه النكتة اختراع الشيخ عز الدين الموصلبي، إلى أن وقفت على
الديوان الكبير من نظم الشيخ جمال الدين بن نباتة، فوجدته قد أخذها منه بنصها، اللهم
إلا أن يكون وقع حافر على حافر، وقول الشيخ جمال الدين في هذه النكتة:

عابت محبوبي وقد نكته بطحا فأضحى خجلاً مغضي
فقلت دربسنني وخل الحيا فقال وجهي منك في الأرض^(٢)
ومن لطائف مجون الشيخ عز الدين قوله:

قد لقبوا بالزاع إذا حنكة كواه ذا التلقيب في القلب داغ^(٣)
وهو غراب البين في شؤمه لكن إذا جئنا إلى الحق زاغ^(٤)
وقوله في تمتع الدمشقي:

وذي أدب لطيف الذات جداً طلبت الوصل منه فما تمنع
ودب لأخذ أيري قلت من ذا فناداني بإشفاق تمتع
وقوله: مذ نام أيري قال لي
فقلت فيه قصر أفمه يحظى بالوصول
فقال ذا شيء يطول

وممن عاصر الشيخ عز الدين الموصلبي، ومشى تحت علم التورية، علاء الدين بن
أيك الدمشقي، وكان المتعصبون على الشيخ عز الدين يناظرونه به. ولعمري إن هذه
المناظرة ما صدرت ممن له نظر. فمن نكته البديعة قوله، وقد اجتمع بمليح في منتزه من
منتزهات دمشق يعرف بالسلطاني:

سلطان حسن أفنديه بناظري وأعيذه من نظرة الشيطان
يوماً بزهر اللوز لما زارني قضيت ذاك اليوم بالسلطان

(١) وجهي منك في الأرض: كناية عن الخجل وشدته.

(٢) دربسن: قَدَم.

(٣) الزاع: من أنواع الغربان قريب من الحمامة أسود اللون لا يأكل الجيف - الحنكة: الدهاء والحيلة -
داغ: هذه اللفظة لم نعثر على معنى لها في ما بين أيدينا ونرجح أن تكون بمعنى ترخيماً لداغل
وهذه تقال للجرح الخفي، أو أنها تكون بمعنى الأحمق من دُغينة وهي علم على الأحمق.

(٤) زاغ: مال عن الحق وحاد. ويمكن أن تكون ترخيماً «زاغل» وهي بمعنى عاش.

مشرقة حمراء شبه الذهب
فقلت والردف تليل الذهب^(١)

له عرق على ورد الخدود
ولكن لا سبيل إلى الورود^(٢)

وإن أوجعن منك الظهر دقا
فإن الجيد في الدنيا ملقى

مني وإن وداده تكليف^(٣)
خبر رواه الجفن وهو ضعيف^(٤)

مخبرة عن الظبي الجموح
فقلت لها خذي مالي وروحي^(٥)

رأي يزيل الحمق فاستظرفوه^(٦)
ومن تثاقل بينكم خففوه

لديه من السحر الحلال مرامي
ولا تقربي الحلي فهو حرامي^(٧)

وقوله: أحببت من خياله وجنة
قالوا الشهيدية أعطافه

وقوله: أقول وقد ظمئت ووجه حبي
أرى ماء وبي ظمأ شديد

ومن لطائف مجونه قوله:

تلطف واحتمل مزح الغواني
وجيدك إن يُلَقَّ الصفع فاصبر

ومن نظم الشيخ جلال الدين ابن خطيب داريا في باب التورية قوله:

شهدت جفون معذبي بملالة
لكنني لم أفأ عنه لأنه

وقوله: تقول وقد أتني ذات يوم
يسرك أن أروح إليه أجري

ومن لطائف مجونه قوله:

يا معشر الأصحاب قد عنَّ لي
لا تحضروا إلا بأخفافكم

وقوله: تصفحت ديوان الصفي فلم أجد
فقلت لقلبي دونك ابن نباتة

(١) الشهيدية: ونظنها الشهيدية نسبة إلى الشهد وهو العسل ويمكن أن تكون منسوبة إلى الشهيد لطيب أعطافه - تليل الذهب: عنقه وأحسن شيء فيه.

(٢) الورود: شرب الماء وجمع وردة.

(٣) تكليف: واجب.

(٤) فاء عن الشيء: تاه عنه وأضاعه. وفاء إليه: لجأ.

(٥) روعي: من الروح والرواح.

(٦) عنَّ: بان وظهر.

(٧) تقربي: هكذا ورد والأصح: تقرب أو تكون تقربي كما وردت ولكن يكون البيت كما يلي: فقلت

لنفسى: بدل قلبي. - الحرامي: السارق.

الشيخ جمال الدين، رحمه الله تعالى، أراد بالسحر الحلال الذي ما وجدته في ديوان صفي الدين التورية لا غير، وما ذاك إلا أن الشيخ صفي الدين كان أجنبياً منها، ولهذا لم أنظمه في سلك القوم الذين مشوا في نظم التورية تحت العلم الفاضلي والعلم النباتي، وغايته أنه رضي بالشعر الساذج المنسجم، وتعرض للتورية في بعض المواضع، ولكن سبكها في غير قلبها، لأنه لم يكن في طباعه ويأتي الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى. ومن نظم الشيخ جلال الدين غفر الله له والمعنى في مراده ومفهوم قوله:

ذكر المصطفى ثلاثين دجاً فيهم أعور وقد صح بالبر ويعجبني قوله، في آثار النبي ﷺ:	لأ يجيئون في قيام الساعه ^(١) هان أن جا كواحدٍ من جماعه
يا عين إن بُعد الحبيب وداره فلقد حظيت من الزمان بطائل ومن لطائف شمس الدين بن المزين، في باب التورية، ما أنشدني من لفظه لنفسه:	ونأت مرابعه وشط مزاره ^(٢) إن لم تريه فهذه آثاره ^(٣)
مدير الكاس حدثنا ودعنا حديثك عن قديم الراح يغني وأنشدني من لفظه لنفسه أيضاً:	بعيشك من كؤوسك والخبيث فلا تسقي الأنام سوى الحديث ^(٤)
ومليح لالاه يحكيه حسناً قلت قصدي من الأنام مليح ومن نكته اللطيفة قوله:	فهو كالبدر في الدجى يتلالا ^(٥) هكذا هكذا وإلا فلا لا
قلت للأحذب لما أنا أبقى وبوجدي	أن رأى الوجد علاني ^(٦) فيك يا أحذب فاني

(١) الدجال: المنافق الكذاب.

(٢) نأى: ابتعد - المراع: جمع مربع وهو الدار - شط: بُعد - المزار: المسكن والمقام.

(٣) الطائل: الخير الكثير.

(٤) الحديث: الجديد والكلام.

(٥) لالاه: للأؤه: فرحه وضحكه أو طلعت.

(٦) الأحذب: منحني الظهر.

وقد تقدم القول أن النكتة في التاجر استحقتها الشيخ جمال الدين بن نباتة على الصلاح الصفدي، وعلى زين الدين الوردى، وهي:

وتاجر أسكرني طرفه والكاس فيما بيننا دائر
وقال لي سرّك قلت اسقني جهراً على عينك يا تاجر

ومن نكته المخترعة قوله:

شاب ورد الرياض من ورد خديك وانفرك^(١)
فله الناس أثبتوا وانتفى الورد للكرك^(٢)

ورسم الجوباني، وهو إذ ذاك كافل المملكة الشامية لفضلاء دمشق، أن ينظمو له ما يكتب على أسنة الرماح، فنظم القاضي فتح الدين بن الشهيد:

إذا الغبار علا في الجو عثيره فأظلم الجو ما للشمس أنوار^(٣)
هذا سناني نجم يستضاء به كأنه علم في رأسه نار^(٤)
إن الرماح لأغصان وليس لها سوى النجوم على العيدان أزهار

ونظم مولانا قاضي القضاة صدر الدين بن الأدمي، نور الله ضريحه، وكان إذ ذاك في عنفوان شبابه ومبادي نظمه:

النصر مقرون بضرب أسنة لمعانها كوميض برق يشرق
سبكت ما لتسبك كل خصم مارق وتطرقت لمعانده يتطرق
زرق تفوق البيض في الهيجاء إذ يحمر من دمها العدو الأزرق^(٥)
ينسجن يوم الحرب كل كتيبة تحت الغبار فنصرهن محقق

(١) انفرك: صار قريباً من النضوج.

(٢) الكرك: مدينة.

(٣) العثير: الناعم من الغبار.

(٤) الشطر الثاني من هذا البيت مضمن وهو للخنساء ترثي أخاها صخرأ في قولها:

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
والعلم: الجبل العالي سمي بذلك لأنهم كانوا يوقدون في رأسه ناراً علامة للضالين من المسافرين في الصحراء ليهتدوا إلى مكان معمور.

(٥) الزرق والبيض: الخيول - الهيجاء: الحرب - العدو الأزرق: الأجنبي من أبناء الروم.

ولعمري إن الشيخ شمس الدين بن المزين تناول برمحه على أقرانه في ذلك العصر،
بقوله:

أنا أسمر والراية البيضاء لي
لم أحل في عيش العداة لأنني
وإذا تعانقت الكمأة بجحفل
فتخالهم غنما تساق إلى الردي
لا للسيوف وسل من الشجعان
نوديت يوم الجمع بالمرآن^(١)
كلمتهم فيه بكل لسان^(٢)
قهر المعظم سطوة الجوباني

وكتبت من حماة المحروسة حسب ما رسم لي به قولي:

أنا في الخط إن تحمر نقطي
وقوامي إذا تثنى ففرد
وسناني كالبرق بل صار منه
رمحه للردين ينسب لكن
فكتابي مقاتل الفرسان
ما له في تفرق الجمع ثاني
قلب سيف البروق في خفقان
صاح لما علاه بالسنان^(٣)

ومن أغراض الشيخ شمس الدين المزين اللطيفة قوله:

حمل الدواة فرمتها
قالت إذاً ما أنت يا
منه مرامه عاشق^(٤)
قلم الديار بلائق

ومن لطائف مجونه قوله:

سلماني أضافنا
بيض الله وجهه
لبناً ما له ثمن
كلما جاء بالبن

ومن مقاطيعه التي سارت لديها الركبان قوله:

أنا دواة يضحك الجود من
دلزا على جودي من مسه
بُكا يراعي جلّ من قد براه^(٥)
داء من الفقر فإني دواه^(٦)

(١) المرآن: الرماح الصلبة اللدنة. مفردها مرآنة.

(٢) الكمأة: الفرسان الأبطال - كلمتهم: جرجتهم ومن الكلام.

(٣) الردين: امرأة كانت تقوم الرماح فنسبت إليها فيقال: رماح ردينية وهي أصلب الرماح وأقومها.

(٤) رام: طلب - مرامه: مطلب.

(٥) بكا: بكاء - يراع: قلم.

(٦) الداء: المرض.

ومن أغراضه اللطيفة قوله:

نزلنا بالقصير فرام قلبي مليحاً بالعداري الغيد أزرى^(١)
فلما أن تعذر مال عنه فؤادي والجوانح نحو عذرا^(٢)

ومن مدائحه المخترعة ما أنشده لشيخنا ومولانا، قاضي القضاة علاء الدين بن القضاة الحنفي، نور الله ضريحه، وقد مرَّ على دمشق متوجهاً إلى الحجاز الشريف في محفة، قوله:

محفة المجلس العلائي تنشر جدواه في المشاهد
تقول هذا قنئ وأعطى وحج بالناس وهو قاعد^(٣)
وأمر ابن المزين أن يكتب على قبره من نظمه، ما قرأته على القبر وحفظته، وهو قوله رحمه الله:

بقارعة الطريق جعلت قبري لأحظى بالترحم من صديقي
فيا مولى الموالي أنت أولى برحمة من يموت على الطريق

ومما قررته للشيخ شرف الدين عيسى العالية في باب التورية، قوله رحمه الله تعالى:

لما رأوه مضاجعي تحت الدجا حجبوه عن عيني حتى أسهرا
قبلت خالاً فوق كعبة خده قبل الوداع وما أتيت المشعرا^(٤)

وقوله:

ومليحة راودتها فتعلت بالحیض وهي تقول كالمذعور
هل موضع خال فقلت لها اسكتي فمواضعي ليست تعد ودوري
ومن لطائف مجونه قوله وهو حكاية لحاله:

قالت لي الفروة قم دفني حتى أدفيك بقلبين
قلت لها بالله ما تشتهي قالت غشا قلت على عيني^(٥)

(١) أزرى به: أظهر بشاعته.

(٢) عذرا: عذراء وهي الفتاة لم يمسها بشر.

(٣) قنئ: جعله يقتني ويملك أي وهب ما يقتني.

(٤) المشعر: المشعر الحرام وهو من مناسك الحج.

(٥) غشا: جُماع - على عيني: كناية عن الإستجابة.

ومن مجونه مع الشيخ بدر الدين البشتكي :

ذو أبنة ليس تخفى (١)
وللخلائق كفا
مقالي وكس أم من ينتكي (٢)
وبولوا على شارب البشتكي
كلحية الراهب مشعوره (٣)
قلنا له فاستعمل النوره (٤)

البشتكي المكدي
قد مد لليك رجلاً
وقوله: أيا معشر الصحب مني اسمعوا
ألا فالعنوا آكلين الحشيش
وقوله: البشتكي البدر له لحية
قال أنا أشعر هذا الورى
ويعجبني من مدائح قوله:

وجد لي بفضل لا يضيع ثوابه
قرباب وأرجو أن يحلى قرابه (٥)

تهناً بنصف كم به من حلاوة
فإن لساني صارم وفمي له
ومن شعر عيسى في مؤلفه من قصيدة:

ويخطيء في القول لا يشعر
فلم أدر أيهما أحمر (٦)

صبيغ دعاويه ما تنقضي
تفكرت فيه وفي ذقنه

وكثر في العطاء ولا تقلل
نهار العيد كبر أو فهلل (٧)

وقوله: أيا رب الجناب الرحب جد لي
وما تعطيه لي من خشكنان

برأسي البرد في نومي وأمسي
أروم الفوز من برد بشمس (٨)

وقوله: لفضلك يا ابن فضل الله أشكو
وأرجو أن يكون الشاش شمساً

(١) المكدي: الشحاذ - الأبنة: العيب.

(٢) ينتكي: يشاكس ويعمل بالصد (نكاية).

(٣) مشعوره: المغطاة بالشعر الكثيف.

(٤) النوره: أخلاط من الأملاح تستعمل لإزالة الشعر - أشعر: أكثر شعراً وأحسنهم شعراً.

(٥) القرباب: للسيف غمده أو موضعه.

(٦) أحمر: أفعل تفضيل من جمار - واللون المعروف.

(٧) الخشكنان: نوع من الحلوى يصنع من دقيق الحنطة والسكر واللوز أو الفستق (فارسية) - كبر: قال

الله أكبر - هلل: قال لا إله إلا الله.

(٨) الشاش: نسيج رقيق من القطن تضمد به الجراح ويستعمل لفافة للعمامة.

الشيخ شرف الدين عيسى، وعصريه الشيخ شهاب الدين بن العطار الآتي ذكره، رحمهما الله تعالى، والشيخ بدر الدين البشتكي، لم أجد في أغزاليهم من المقاطيع ما يغازل بغزله عيون التورية، ولكن وقفت لهم على أغراض هي فوق الغرض، فمن ذلك قول الشيخ شهاب الدين بن العطار:

أصبحت بطلال والأولاد أربعة
فإن تحيل في رزق بمدحك
ومن إيهامه في هذا الباب قوله:

طلبت رزقاً قيل رح ناظرا
لو أن ذي الحكام في سلطة
جيوش سيس قلت رأي تعيس^(١)
ما طلبوا أني أبقى بسيس

وقال في الشيخ شرف الدين عيسى المذكور:

عيسى ومن مدحوه
وما رأيت أناساً
ما شمت فيهم رئيساً^(٢)
لكن حميراً وعيساً^(٣)

وقوله في طاهر بن حبيب:

تجادل شافعي مع مالكي
فقال الشافعي الكلب نجس
وهذا البحث بين الناس ظاهر
وقال المالكي الكلب طاهر

ومن لطائف مجونه قوله:

هيا البلان موسى
قلت ما أصنع فيها
خلوة تحيي النفوسا^(٤)
قال تستعمل موسا

ومن محاسن الشيخ جمال الدين عبد الله السوسي، في باب التورية، قوله:

أهوى غزلاً عليه صبري
قد أسرت مقلته قلبي
قد بان في الحب وهو عذري
فرحت مملوكه بأسري^(٥)

(١) بطلال: بدون عمل.

(٢) سيس: إسم بلد.

(٣) شام: رأى أو وجد وأنس.

(٤) العيس: الإبل مفردها أعيس.

(٥) البلان: الحمام.

(٦) بأسري: بكل جوارحي.

وقوله: تهاون شمس الدين بي وهو صاحب
نزلت به أبغي الندى وهو طالع

وقوله: زجرت النفس عن نذل لئيم
وقد ذكّرته عنه مراراً

وقوله: تجنب أقطعاً لصاً جريئاً
وما قطعوه بعد الوصل إلا

ومن محاسن الصاحب فخر الدين بن مكاس، في باب التورية، قوله:

بأبي عقيقة مرشفتها
فلثمتها ورشفتها

ومنه قوله:

يقول مفندي إذ همت وجداً
أيعرف خده للعشق أهلاً

وقوله: زارت معطرة الشذا ملفوفة
يا معشر الأدباء هذا وقتكم

وقوله: علقتهام معشوقة خالها إذ عمها
يا وصلها الغالي ويا جسمها

وقال وأجاد:

إن الهوائين يا معشوق قد عبثا
فالروح تفديك بالمدود قد تلفت

(١) الندى: الثانية بمعنى الرذاذ الذي يكون صباحاً على الأزهار والأولى بمعنى العطاء.

(٢) الأقطع: الذي حُدَّ حَدَّ القَطْع فقطعت يده لأنه سرق - اللص السارق - الجنابة: العمل المشين.

(٣) العقيقة: واحدة العقيق، حجر كريم يميل لونه إلى الدم تشبه به الشفاه - المرشفت: مكان الرشفت أي الشفاه - برت: أطاعت - عقت: عصت.

(٤) المفند: المتهم والمكذب ومضعف الرأي.

(٥) اللف والنشر: من المصطلحات البلاغية.

(٦) علقتهام: عشقتها.

(٧) المقصور: من الأسماء الذي ينتهي بألف أصلها ياء، ومكان العبادة حوشيت: حاشاك.

وقوله مضمناً:

ومقلّة ظمي يرشق القلب سهمها
على نفسه فليك من ضاع عمره
وقوله: عارض المحبوب من فو
شبه ورد زاد لطفاً
ولكنه رشق يزال به الهم
وليس له منها نصيب ولا سهم
ق صفاء الخد فاتن
حول ماء غير آسن^(١)
وقوله في مجونه مضمناً:

قلت يا لاثمي على بذل مالي
فعلى فلس ذا يناح ويبكي
وقوله: شكى إليّ اليتيم إذ نكته
بت أسليه على يتمه
في هوى الحب دع كلام الفشار^(٢)
لا على درهم ولا دينار
مراهق فيه حلا هتكى^(٣)
وكلما سلّيته يبكي^(٤)

وقوله: سكر الشيخ وطابا
حسب الخمرة صابا
واشتهى الشيخ شبابا
وجد الراح شرابا^(٥)
وقوله يمازح السراج السكندري، وقد انقطع عنه:

قل للسراج إذا تكبّر حيث بالقوم احتمي
أنت السراج بعينه لو شلت انفك للسما^(٦)

ومثله قوله فيه:

يا ذا السراج اشترى أيري فأنت به
سكندري وتدعى بالسراج وذا
أولى وذلك للحق الذي وجبا
مثل المنار إذا ما قام وانتصبا

وقال في الصاحب بن النشو الوزير، وقد أنشأ سبيلاً بالجامع العمري:

(١) آسن: فاسد ومتغير اللون والطعم والرائحة.

(٢) الفشار: الأحمق.

(٣) المراهق: الذي لم يبلغ الحلم من الصبيان - الهتك: المجون والفحش.

(٤) سلّيته: من التسلية، والسّل.

(٥) الصاب: عصارة شجر مرّ المذاق - الراح: الخمرة.

(٦) شال بأنفه: تكبر وتعجرف.

أنشأ القطيم النشو لما ارتقى
بالجامع العمري سبيلاً وقد
هذا سبيل حاله فاسد

وزارة زادته في وزره (١)
قال لنا عنه بنو مصره
وزيره يرشح من قعره (٢)

ومن أغراضه البديعة قوله :

لولا الزمان للمحال قابل
وأصبح الدولاب في رياضه

ما سلسلوا مطلق كل جدول
يقول بالدور وبالتسلسل (٣)

ومن أغراضه الغريبة قوله في ولده مجد الله بن فضل الله، رحمهما الله تعالى :

أرى ولدي قد زاده الله بهجة
سأشكر ربي حيث أوتيت مثله

وكمله في الخلق والخلق مذ نشأ
وذلك فضل الله يؤتيه من يشأ

ومن بدائع أمداحه قوله في الشهيد فخر الدين نقيب الأشراف، رحمه الله تعالى :

جناب فخر الدين كهف الورى
فهو الشريف الحسن المرتضى

دامت له النعماء لا تنقضي
وخلقه ذاك الشريف الرضي (٤)

وقال يمدح الإمام المرتضى، علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

يا ابن عم النبي ان أناساً
أنت للعلم في الحقيقة باب

قد توالوك بالسعادة فازوا
يا إماماً وما سواك مجاز

ويعجبني من حسن خواتمه قوله :

وا سواتاه إذا وقفت بموقف
وسواد وجهي عند أخذ صحيفتي

ما مخلصي فيه سوى الإقرار (٥)
وتطلعي فيها شبيه القار (٦)

(١) القطيم: الصقر- الوزر: الحمل الثقيل والمسؤولية.

(٢) يرشح: يتسرب منه الماء- قعره: إسته.

(٣) الدولاب: ما يستقى به ويوضع فوق البئر(الناعورة).

(٤) الشريف الرضي: الشاعر المعروف وأخو الشريف المرتضى صاحب الأمالي.

(٥) الإقرار: الاعتراف.

(٦) القار: الزيت.

ومن محاسن ولده مجد الدين بن فضل الله، تغمده الله برحمته، قوله:

وأغيد بت منه رمى من اللحظ سهماً
بنار عشقيه ألقى^(١) به نموت ونبلى
وقوله: قالوا وقد عشت بنا إن رمت تلفانا فلج
قاماتهم والأعينا بين السيوف والقنا^(٢)
وقوله: يقولون هل من الحبيب بزورة فقالوا لنا غوصوا على قده وما
ومنا كم المطلوب قلنا لهم منا^(٣) يحاكي إذا ما اهتز قلنا لهم غصنا
وقوله: حق الله دع ظلم المعنى وكف الصد يا مولاي عمن
بك قد أضحي معنى مغرماً قال هل يولم إن واصلته
قلت إن فاز بشفر أولما^(٤)
وقوله: يا لاثمي إن فقدت الصبر في قمر كلت سيوف اضطباري عنه حين بدا
أصداغه سلبت أهل الهوى وسبت آس العذار على وجناته ونبت^(٥)
وقوله: من مجيري من سادة ألفوا الهجر سأل الدمع أن يجيروه قالوا
لعشاقهم وزادوا النفارا مثل هذا في حيناً لن يجارا^(٦)

ومن اختراعاته اللطيفة:

تساومنا شذى أزهار روض فقلت نبيعك الأرواح حقاً
تحير ناظري فيه وفكري بعرف طيب منه ونشر^(٧)

(١) أولم: أقام وليمة - لما: سمره في الشفاه.
(٢) كَلَّ السيف: لم يعد قاطعاً - الآس: نبات ذو ثمار كروية بيضاء ورائحة زكية - نبت: أخطأت الهدف ومن النبات.

(٣) ألقى: احترق بالزيت الساخن أو أكره وأهجر.
(٤) لج: أمر من ولج: أدخل - القنا: الرماح.
(٥) من: جاد وتفضل - منى: علل.
(٦) أجار: حمى - لن يجارى: لن يسبقه أحد ولن يعينه أحد.
(٧) العرف: الشذا - النشر: الرائحة الطيبة.

: ومن أغراضه اللطيفة قوله:

ويشير في هجو الكرام عجاجاً^(١)
ومنعته أيري فدم وهاجاً^(٢)

سحقاً لذي نظم يهيج من البغا
أقصيته عني فظل يسبني

ومن مدائح يهنئ والده بعوده من السفر:

وبقيت ما طرد الظلام نهار
حتى لقد عظمت بك الأسفار

هنت يا أبتى بعودك سالماً
ملت بطون الكتب فيك مدائحاً

وقال فيه أيضاً، وقد أهدى له هدية حسنة:

ولولاك كنت الدهر في الغي سادياً^(٣)
فلا زلت في الحالين للعبد هادياً

تناهيت في بري إلى أن هديتني
وأهديت لي ما حير العقل حسنه

ويعجبني من زهدياته قوله:

دعاني لما يرضى الإله وحرصاً
وأمسكت لما لاح لي الخيط أبيضاً

جزى الله شيبى كل خير فإنه
فأقلعت عن ذنبي وأخلصت تائباً

ومن كلام الشيخ أبي الفضل بن أبي الوفاء العارف، الذي دخل بحسن سلوكه إلى زوايا الأدب فأخرج منها الخبايا وأظهر البرهان، تغمده الله برحمته قوله:

عرف الفقير وذاقه
جأ شكاً فقراً وفاقه

عبدك الصب المعنى
فلكم فاخر محتاً

ومن مخترعاته، في باب التورية مع بديع التضمين، قوله:

إلا أغن غضيض الطرف مكحول^(٤)
كأنه منهل بالراح معلول^(٥) (مع لولو)

ما خادم واسمه في در مبسمه
وريقه مع ثناياه التي انتظمت

(١) البغا: البغاء وهو الفحش - العجاج: الغبار المتصاعد فوق أرض المعركة.

(٢) هاج: اضطرب وصاح. وهاجى من الهجاء بادله إياه.

(٣) سادياً في الغي: متمادياً في الضلال.

(٤) أغن: في صوته غنّه، غضيض الطرف: ذابله.

(٥) الثنايا: الأسنان - معلول: ممزوج.

ومن اختراعاته قوله:

على وجنتيه جنة ذات بهجة
حمى ورد خديه حماة عذاره
ترى لعيون الناس فيها تزاخما
فياحسن ريحان العذار حماحما^(١) (حمى حمى)
ومثله قوله: أرسلت عينيّ بدمعيهما
أسأله في فمه قبلة
بين يدي من قد تمادى جفاه
فلم يملاه ولم يعطفاه (يعطٍ فاه)
ومثله قوله: سألتها رشف ريق
قالت فصفني ارتجالاً
مستعذب الطعم حلو
فقلت بعد التروي^(٢)

ومن لطائف نكته في هذا الباب، قوله:

ازداد خدك شعراً
إذ كان وردك جمري
فازداد قلبي حبا
فيه فصار مربى^(٣)

ومن لطائفه قوله:

ألا لا تلوموني فليست بمقلع
سأوي إلى بحر من الخمر مترع
إذا انحدرت من كأسها الراح في حلقي
أحط المراسي عنده فأمل لي واسقي (وسقي)^(٤)
وقوله: ذكرك لي في اللوم مستحسن
كم قلت للمعرب في لومه
واللوم عندي غير مستحسن
إن جئت نحوي قط لا تلحن (ني)^(٥)

ومن لطائف مجونه مع حسن التضمين:

وخلّ سمته صفعاً بمال
إذا الحمل الثقيل توازعته
فقال توازعهو يا صحابي^(٦)
أكف القوم هان على الرقاب

(١) الحماحم: الحبق، نبات طيب الرائحة.

(٢) التروي: الشبع والتأني.

(٣) مربى: من الحلويات وذو تربية.

(٤) الوسق: مكيال مقداره ستون صاعاً والصاع خمسة أرتال وثلث والرطل كيلوين ونصف وعلى هذا يكون الوسق سبعمائة وخمسون كيلو أو ليترأ. وتجمع على أوسق

(٥) تلحن: تخطيء في النحو وتلومني.

(٦) سام: طلب الشراء.

ومن أغراضه قوله:

تعت دهر لـح فينا بـخطبه
قسا وانثنى يـختال في جـبروته
وأنشدني، من لفظه لنفسه، الشيخ شمس الدين المتنبى، قوله في مـليح اسمه حمزة:
ترى يبدو لحمزة بعض ما بي
وأشفي بالمبرد من لماء
وذررنا من بعد عز وأنكانا^(١)
وجرر أذيالاً علينا وأردانا^(٢)
ويرثي لي وينظر في بلائي
واجمع بين حمزة والكساء (ي)^(٣)

ومن لطائف علامة الوجود فريد الدهر بدر الدين بن الدماميني البمخزومي المالكي، قوله:

قلت له والدجا مول
قد عطس الصبح يا حبيبي
وقوله: يقول بديوان المحبة وردوا
فوردت في الديوان عامل قدّه
ونحن في مجلس التلاقي
فلا تـشمته بالفراق^(٤)
محاسن حبي فهو في الحسن مفرد
فقال وذاك الخد قلت مورد
وقوله: وبـي وجنة حمراء زاد صفاؤها
فدع لائمي ينهى عن الحب جهده
وأبدت صفات أبداع الحسن كونها
فما أنا بالسالي صفاها ولونها (نهي)
وقوله: يا عدولي في مغن مطرب
كم تهز العطف منه طرباً
حرك الأوتار لما سفرا^(٥)
عندما تسمع منه وترى (أ)^(٦)
قلت له والقلب رهن لديه
فهل ترى يقعد نقشي عليه
إنني على فيك أرى خاتماً

(١) الخطب: الأمر الجلل والمصيبة - أنكانا: عاندنا.

(٢) يـختال: يتبخر في مشيته - أردانا: أكمم أو قتلنا أو أوردنا الردى وهو الموت.

(٣) حمزة والكسائي: من رواة الحديث.

(٤) عطس الصبح: طلع وبان ضوءه - شمت العطس: قال له: يرحمكم الله.

(٥) سفر: انكشف.

(٦) وترى (أ): الوتر الخيط في الآلة الموسيقية. والرؤية.

وقد زاد النكتة حسناً بقوله:

وخاف من مراقبه
بعينه وحاجبه^(١)

بدا وقد كان اختفى
فقلت هذا قاتلي

ما مثله في الزمان ثاني
وأنت في غاية الأمان (ني)

أمنيته أنت يا مليح : وقوله:

وهواه عليّ أصبح فرضاً
صرت يا صاح منه بالذل أرضاً (ضى)

وعزيز الجمال أوجب ذلي
فهو في الحسن والجمال سماء : وقوله:

ينفي عن القلب جميع الكرب^(٢)
يطيب للصب ارتشاف الضرب

تناسبت أوصاف من وصله
في الخد تسهيل ومن ثغره

قلب المحب الصب في الحين^(٣)
ففيك قد هام بلامين^(٤)

لا ما عذاريك هما أوقعا
فجدله بالوصل واسمح به : وقوله:

محمودة والصبر لا يستطاب
ذبت ومن فيك براني الشراب

قلت لعطار به صبوتي
أسقيتني كأس غرام به : وقوله:

قد طاب فيه العشق للمغرم^(٥)
طيب الهوى ما زال في المثلث

لله منه ملثم أشنب
قلت لعذالي لا تعجبوا : وقوله:

حبي فقرت مقلتي
فقلت هذه ليلتي

في ليلة البدر أتى
وقال لي يا بدر قم

اللهو سيقاً للمدام^(٦)
لكميت ولجام^(٧)

قم بنا نركب طرف
واثن يا صاحي عناني : وقوله:

(١) بعينه: نفسه وذاته والعين أداة النظر.

(٢) الكرب: الضيق.

(٣) الحين: الحيرة والقلق المميت.

(٤) المين: المراهنة والرياء.

(٥) المثلث: الفم - الأشنب: الأبيض الأسنان رقيقها.

(٦) سيقاً: هكذا في الأصل وهي من السياقة. ونظنها سقياً: وهي بمعنى شرباً. وهي أنسب في المعنى - والمدام: الخمره.

(٧) العنان: المقود - الكميت: من الخمره التي يميل لونها الأحمر إلى السواد - الجام: وعاء للشراب. واللجام: المقود.

ومن أغراضه اللطيفة قوله:

أقول لخل جن من فرط ماله
صفاتك يا هذا لعمرى تناقضت
ورابى فأسق الناس كأس عذاب
فإنك ذو مال وأنت ترابي

ومن مدائحه، ما كتب به إلى قاضي القضاة ناصر الدين التنيسي، قوله:

قد نلت يا قاضي القضاة مطالبي
وأخافني الدهر الظلوم فمذراً
بكنوز ود منك أورثت الغنى
ني داعياً لجناب جودك أمناً

ومن مدائحه فيه قوله، وقد ولاه وظيفة العقود في مبادي العمر:

يا حاكماً ليس يلفى
قد زدت في الفضل حتى
نظيره في الوجود (١)
قلدتني بالعقود (٢)

وكتب إلى برهان الدين المحلي:

يا سر يا معروفه ليس يحصى
مذعلاً في الورى محلك عزا
ورئيساً ذكاً بفرع وأصل
قلت هذا هو العزيز المحل (ي) (٣)

وكتب إلى شهاب الدين الفارقي:

قل للذي أضحي يعظم حاتماً
إن قسته بسماح أهل زماننا
ويقول ليس لجوده من لاحق
أخطأ قياسك مع وجود الفارق (ي)

ويعجبني من أغراضه البديعة قوله:

لئن عقدت بنت الكروم عقودها
فنحن شهود في المقام لعقدتها
على حمل نفى الهم والهم زائد
على أولياء اللهو واللوز عاقد (٤)

ومن لطائف مجونه قوله:

أمنت صدوده فدنوت منه
وعاجلني الرقيب فخاف أيري
على مهل بشيء زاد حسنا
وأنزل إذ رأى خوفاً وأمناً (ي)

(١) يلفى: يوجد - النظير: المثل والشبيه.

(٢) قلد: ألبس قلادة وهي عقد ثمين يلبس في العنق.

(٣) العزيز: عزيز مصر، واشتهر عهده بالرخاء.

(٤) عقد اللوز: إذا صار زهره ثمرأ. والعقد: عقد الزواج.

ومما اختاره سيدنا الشيخ العالم العلامة، أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني، روى الله من سحاب الرحمة ثراه، من نظمه لنفسه رحمه الله تعالى، في باب التورية، ورسم لي أن يكون واسطة لهذا العقد، وكتب ذلك بخطه الكريم في كراسة، وأتحف بها العبد لأنظمتها في عقود هذه الأسلاك، وكتب في ديباجة الكراسة قوله:

يا سيداً طالعه	إن راق معناه فعد
وافتح له باب الرضا	وإن تجد عيباً فسد
وقوله: سألت من لحظه وحاجبه	كالقوس والسهم موعداً حسنا
ففوق السهم من لواحظه	وانقوس الحاجبان واقرنا ^(١) (وقت رنا)
وقوله: سألوا عن عاشق في	قمر باد سنه
أسقمته مقلته	قلت لا بل شفته
وقوله: أتى من أحبائي رسول فقال لي	ترفق وهن واخضع تفرز برضانا
فكم عاشق قاسى الهوان بحبنا	فصار عزيزاً حين ذاق هواناً ^(٢)
وقوله: ضنيت جوى فواصلني حبيبي	وعاد إلى الجفاء فعاد ما بي
فقلت أعد وصلاً قال كلا	فها أنا ذبت من رد الجواب (بي)

وقوله، مع بديع الاقتباس:

خاض العواذل في حديث مدامعي	لما رأوا كالبحر سرعة سيره
فحبسته لأصون سر هواكم	حتى يخوضوا في حديث غيره ^(٣)
وقوله: يا عاذلي وسهام اللحظ ترشقني	عن قوس حاجب بدر خذّه قسي
إن تستطع لنجاتي في الهوى سبياً	فاستنبط السلم لي من أسهم وقس (ي)
وقوله: ولم أنس إذ زار الحبيب بروضة	فغارت من المعشوق أعينها المرضى
ولاحت بخد الورد حمرة خجلة	حياء رأينا طرف نرجسها غضا

(١) فوق السهم: صوبه - انقوس: صار منحنيًا كالقوس.

(٢) هوانا: حبنا، والذل.

(٣) حتى يخوضوا في حديث غيره، تضمين للآية الكريمة: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾

فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴿الأنعام، ٦٨/٦﴾.

(٤) قس: أمر من قاس: قَدَّر المسافة. وقسي: جمع قوس.

- وقوله: يا مبدعاً في حسنه واصل أخا
فقال هل صيف في مشتاته
- وقوله: محبوبتي واصلتني
وذاب قلب حسودي
- وقوله: أحب بوقاد كنجم طالع
وأنا الشهاب فلا تعاند عاذلي
- وقوله: نحن أهل الهوى بلوناه قدما
وشربنا خمر الهوى كل حين
- وقوله: ورشا مذ نشا وعينا التصابي
وجهلنا الغرام حتى أرانا
- وقوله: سرت وخلفتني غريباً
أغث حشا أحرقت غراماً
- وقوله: وبدر تمّ جميل
إذا هممت بأني
- وقوله: نهاني حبيبي أن أطيع عواذلي
فقلت فدتك النفس سمعاً وطاعة
- وقوله: وأهيف حياني بطيب وصاله
أدار لي الكأسين خمراً وريقة
- وقوله: تجرد من أحب فقال لي من
أجاد لك الحبيب بلمس جسم
- همّ له عام وما واصلنا
قلت نعم وفي هموم شتى
- والهم عني تشتت
لما وقت وتفتت
- أنزلته برضا الغرام فؤادي
إن ملت نحو الكوكب الوقاد
- بين خوف من أهله وأمان
بكؤوس قد أترعت وأوان (١)
- بعدما كان ذا اشتباه علينا (٢)
منه تحت اللثام خدأً وعينا
- في الربيع أصلى جوى بنارك (٣)
في ربعمك المعتلي ودارك
- محجب بالدلال
أسلو هواه بدا لي
- لكي أتهدني بالوصال الذي سرا
فلم أر نهياً منه أهني ولا أمراً (٤)
- ومن ريقه الخمر الحرام حلال
ونزهني عن جفوة وملال (لني)
- يلوم وأظهر الحسد المكتم
له كالحزق قلت نعم وأنعم

(١) أترع الكأس: امتلأ - أوان: وقت وأنية وهي الأوعية.

(٢) الرشأ: الغزال - اشتباه: التباس.

(٣) أصلى: أحترق.

(٤) أمراً: من الأمر وأمراً: أي أسهل وأهون.

أقوى دليل أنه جاهل^(١)
قعاقع ما تحتها طائل^(٢)

وقوله: تيه فلان الدين مع فقره
لثوبه بالصقل من فوقه

ومن أغراضه اللطيفة قوله:

وما حوته ضلوعي
بنزلة وطلوع

أشكو إلى الله ما بي
قد طابق السقم جسمي

وقوله، وهو مما كتبه على مجموع الكرمانى:

لها الفضل إذ وافت محاسنها يعزى
فلم يكف طرفي منه شيء ولا أجزاء^(٣)

نظرت لما سطرته من فوائد
فلله ما سطرت منها لخاطري

علم الفروع بخالص الإبريز^(٤)
أزي بالإحسان والتبريز (ي)

وقوله: قد جئت في علم الأصول لنا وفي
وبرزت في هذا وفي هذا على الر

ويعجبنى من وعظياته قوله:

هذي الدعاية قد أتى داعي الردى^(٥)
ثوب التصابي فهي ما خلقت سدى^(٦)

يا أيها الشيخ المطيع هواه دع
وخيوط هذا الشيب لا تنسج بها

ونسوي فعال الصالحين ولكننا
وأعمارنا منا تهد وما تبني (تبنا)

وقوله: خليلي ولي العمر منا ولم نتب
فحتى متى نبنى بيوتاً مشيدة

ومن نظم الشيخ بدر الدين البشتكي، رحمه الله، في هذا النوع قوله:

قد شرف الحسن قدره
يود يبذل بدره

بدا بوجه جميل
في شمسه كل صب

(١) التيه: التكبر والخيلاء.

(٢) قعاقع: أصوات وجلبة.

(٣) أجزاء: أجزاء أي كفى أو قام مقام.

(٤) الإبريز: الذهب.

(٥) الردى: الموت.

(٦) سدى: عبثاً بدون طائل.

هذا الذي ظفرت به من أغزاله في هذا الباب . ومن مجونه قوله :

وافى بذقن بعد أن قاسيته حلواً ومرأً
فقبضت لحيته وأبـري في استه وهلم جرا^(١)

وقال من كتابه المسمى «برفع شان العمشان» :

أقول لناطف خديه مهلاً أترضى اللائطين مدى الدهور^(٢)
فدع نتف العوارض عنك كيما تناك بلحية مثل الحرير (ي)

ومثله قوله في الشيخ بدر الدين بن الدماميني المخزومي :

تباً لقاضٍ جارٍ في أحكامه حتى على المثور والمنظوم
خان الشريعة مذ أطاع بني وفا وانقاد للفساق كالمخزوم^(٣) (ي)

ومن مدائحه قوله :

وقاس الوري بالنيل نائلك الذي حلا وصفا والنيل يبدو مرتقا^(٤)
فقلت وهل ينقاس من خلقه الوفا بمن بالوفا في العام يوماً تخلقا

وكتب إليه سيدنا ومولانا قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر العسقلاني ، في رمضان :

أليس عجيباً بأنا نصوم ولا نشتكى من أذى الصوم غما
ونسغب والله في نسكنا إذا نحن لم نرو نثرا ونظما^(٥)

فأجابه بقوله :

ألا يا شهاباً رقي في العلا فأمطرنا نوؤه العذب قطرا^(٦)
إلى فقرة منك يا فقرنا ونستغن إن قلت نظماً ونثرا^(٧)

(١) الإست: مكان خروج الفضلات من جسم الإنسان .

(٢) اللائطين: الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء .

(٣) المخزوم: الذي جعل في جانب منخره الخزام أو الخزامة وهي حلقة يشد فيها الزمام وهو الرسن .

(٤) المرتق: المكدر .

(٥) نسغب: سغباً وهو الجوع .

(٦) النوء: المطر .

(٧) نثرا(ي): النثر الكلام العادي غير الموزون ونثرى: نستغني .

ومما فضل لي من صبايات هؤلاء الفضلاء في مناهل التورية قولِي :

لامية عوذتها أحرف القسم
وطال شرحي في لامية العجم

من تحت عارضه كسرٍ غامض
فغدا مقامي تحت ذيل العارض

فجاءتني عوارضه تعارض
ولكن ما سلمت من العوارض

برشقة من جفنه مشتقة
قتلت بين دورة ورشقة

وجانب ذاك الصدغ وهو مطرف
فقلت لهم هذا الجناس المحرف

سبيلاً إلى برد الحشايا أخوا الصفا
ألم تره من برده قد تفرقفا^(١)

بر الجميل فلم أطق أن أصبرا
في العشق قلت أما تراه تعذرا

هويته أعجماً فوق وجته
في وصفها ألسن الأقلام قد نطقت

وقولي: خال الحبيب يقول لي لما بدا
أنا فارضي في الغرام بخده

وقولي: عزمت على السلو لطول هجري
وكان العذر يقبل في سلوي

وقولي: دويرة العارض عني حميت
فاترك ملامي يا عدولي إنني

وقولي: ولما رأني الشعر وهو مذيّل
بدا بخمار من خمار بزيقه

وقولي: أقول لثغر الحب مت ولم أجد
فقال ارتشف من خمر ريقني نهلة

وقولي: لما تعذر من أحب تعذر الصبر
قال العذول الصبر أعظم مسعد

وقولي، مع بديع الاقتباس:

تلوين دمعي بعد فرقة جبه
فغدت مطوقة بما بخلت به^(٢)

ناحت مطوقة الرياض وقد رأته
لكن به لما سمحت تباخلت

وقولي في مدح حماة:

فقوت أدمعي نيران وهجي
وكل الناس في هرج ومرج^(٣)

ذكرت أحبتي بالمرج يوماً
وبت أكابد الأحزان وحدي

(١) تفرقفا: برد كثيراً.

(٢) في مطوقة بما بخلت به تضمن لقله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ آل عمران،

١٨٠/٣.

(٣) كابد: عانى - الهرج والمرج: كناية عن الفرح وعدم المبالاة.

وقولي فيه أيضاً:

مرج حماة بنواعيره زاد على المقياس في روضته
واغتاظ نمروذ دمشق لذا فقلت لا أفكر في غيظته^(١)

وجلست يوماً في قطاف السفرجل على عين الغيضة الموصوفة بست الشام، مع
جماعة من أهل العلم والأدب، فنظم كل منهم ما يليق بذلك المقام على قدر مقامه،
فنظمت قولي:

تقول ست الشام لما غازلت بعينها فأنعشت حياتي
وانتقشت بمرجها وأبرزت نهداً حلاً لأنه نباتي
خذني بغير ضرةٍ فلأنني بديدة في الحسن والصفات
واستجلني عروسة يتيمة شامية وعش بلا حماة

وقولي في وادي رشعين وعينه، بظاهر مدينة طرابلس:

أرض وادي رشعين مفتوحة العيون لها نقطة على النيرين^(٢)
ما حللنا هناك إلا وقالت أجلسوهم على محاجر عيني

وقولي بوادي المنافس، بظاهرها أيضاً:

وادي المنافس من مغنى طرابلس بطيب أنفاسه أبدى نفائسه
وكاد يلحق بالشقرا وأبلقها فلا تلوموا إذ أقوى منافسه^(٣)

وقولي برأس العين ببعلك:

ولما نزلنا ببعلك تفككت عيوني وأذواقي وصلت على البين
وطالبتها يوماً برؤية مرجها وخضرتها قالت على الرأس والعين^(٤)

ومن أغزالي البديعة قولي:

ماس في الروض وانثنى بخدود موره
فراينا غصونه وهي خشب مسنده

(١) النمروذ: نوع من الأزهار.

(٢) النيرين: الشمس والقمر.

(٣) أقوى: ضعف وبلي.

(٤) على الرأس والعين: تعبير عن الإستجابة للطلب.

وقلت مورياً ومقتبساً ومكتفياً:

وما برى بوصله سقاما
قلت لهم يا حسرتا على ما^(١)
عشراً وفرق الفجر فيهم يسري
لما بدا بين ليال عشر^(٢)

قالوا وقد فرطت في تصبري
اصبر عسى تسقى بماء ريقه
وقولي: أرخت لنا ذوائباً من شعرها
فصرت بالفجر لها معوذاً

وقولي مورياً مع بديع التضمين:

وقد غدا بنومنا مضمفراً^(٣)
عند الصباح يحمد القوم السرى^(٤)

سرننا وليل شعره منسدل
فقال صبح ثغره مبتسماً

باتت معانقتي ولكن في الكرى
أترى درى هذا الرقيب بما جرى

وقولي: قف واستمع طرباً فليلي في الدجا
وجرى لدمعي رقصة بخيالها

ويلاه من نومي المشرد
أواه من شملي المبدد

وقولي: كم صحت في ظلمة الليالي
والدمع في وجنتي ينادي

سواي فقلت قد عز اصطباري
عليك لشقوتي وقع اختياري

وقولي: يقول معذبي حسن تخير
وكم في الناس من حسن ولكن

وخصره يلتوي من الدقه
أهيم بين الفرات والرقه^(٥)

وقولي: ارشفني ريقه وعانقني
فصرت من خصره وريقته

عقدتها وهو مفرط
برح الشوق وأفرط^(٦)

وقولي: أبصروا عند وداعي
لمتها في ذاك قالت

(١) يا حسرتا على ما: على ماء ريقها أو على ما أؤمل.

(٢) الفجر: سورة الفجر - معوذاً: حامياً من التعويد وهو الاحتماء بآيات القرآن الكريم وبالطلاسم.

(٣) مضمفراً: بشكل صفائر واحدتها ضفيرة وهي الجديدة من الشعر أو غيره.

(٤) السرى: السير ليلاً.

(٥) الرقه: مدينة سورية.

(٦) أفرط: زاد.

وقولي: سجدت جفوني هية لما بدا
الله أكبر وهو يغزو مهجتي

محراب حاجبه بغير حجاب
حرباً ولم أخرج عن المحراب (١)

وقولي: طلبت منه قبلة فقال لي
نسيت فعل سيف لحظي قلت لا

وقد بدا يشرع في الإعراض
يا قاتلي وكيف أنسى الماضي

وقولي: قيل لي لما عرنتي شدة
يا أخوا الأشواق ماذا تبتغي

وتناءى فرج عني مده
قلت أبغي فرجاً من بعد شدة

وقولي: مذ جفاني ممرض القلب ولم
قلت للعارض يا آسي إذا

ألق في الضعف وفي الكسر انجارا
درت داري ممرض القلب فدارا

وقولي: طلبت تقبيل من أحب وقد
فرق لي قلبه وقال إذا

أنكرت في الخد نقطة حسنه
قبلت خدي لا تنكر الحسنه

وقولي مورياً ومضمناً:

حثت عزمي شوقاً إليكم
وحيث لم أحظ بالتلاقي

فلم أطق مكثه بأرض
فغاييتي أن ألوم حظي

وقولي: جاء بصبح ثغره مبتسماً
قلت له دمت لقلبي هكذا

يمشي بليل الشعر في دلال
ما دامت الأيام والليالي

وقولي مرتجلاً في جبهة دمشق، من دو بيت:

لما ملأ الجبهة بالأنوار
قال انصرفوا سئمت من بلدتكم

لمناه على ذلك خوف العار
والجبهة من منازل الأعمار

وقولي: مذ أظهر ورده لنا ريحانه
قد دب عذاره على وجنته

ناديت لتلك المقلة الكسلانه
قومي انتبهي قالت أنا نعسانه

وقولي: أحببته متأدباً ونظمت في
وأشار في حسن الختام أجبته

حسن ابتدائي فيه نظم المرقص
حسن الختام يكون بعد تخلصي

(١) المحراب: مكان العبادة.

يعيرني إذا طال اجتماعي
يطارحني بأبيات الوداع (عي)

في نقا جیده السعيد
أنا عبد لكل جيد

بغصن قدي إذا جفاكا
والله ما أشتهي أراكا

ليرى من بعده حالي وضعفه
يا معنى ما لعيد الفطر وقفه^(١)

قاعداً في الصدر بالتصدير يجهر
أنت بالتحقيق والله مصدر

لما تعدت حدها
قلت استحي فردّها^(٢)
لا بد أن أحدها^(٣)

لأن دمعي من طول البكى نشفا
حسيك الله يا بدر الدجا وكفا

تصبو إلى غيري وتخلص من يدي
يا هند خوضي في دمي وتقلدي^(٤)

وخضرة الشارب يا عاتي
وقلت بالمشروب والشارب

وقولي: يحاضرني بأبيات ولكن
فإن أنشدت أشعار السلام

وقولي: قلت للخال إذ بدا
فزت يا عبد قال لي

وقولي: قال أراك الحمى تعوض
فقلت من بعد قد حبي

وقولي: رمت يوم العيد منه وقفة
فطر القلب وولى قائلاً

وقولي: قال نهد الحب صفني مذ غدا
قلت إذ برز في تحقيقه

وقولي: أسياف لحظ قاتلي
وعربدت من سكرها
وقال لي مورياً

وقولي: عاتبته ودموعي غير جارية
فقال لم أر وكف الدمع قلت له

وقولي: قالت وقد قبلتها في جيدها
فأجبت حين تقلدت بمدامعي

وقولي: بنقطة الخال وطعم اللمي
قد ملت للنقطة بعد التقى

(١) الوقفة: اليوم الذي يسبق عيد الأضحى وفيه يقف الحجيج بعرفة.

(٢) عربد: تكلم بكلام ماجن فاحش.

(٣) أحدها: أعاقبها والحد العقاب المعروف كحد السرقة: القطع وحد الزنى الجلد إلخ...

(٤) وكف الدمع: انصبابه.

(٥) خاض في دمه: قتله - تقلدي: البسي فلادة وهي العقد.

لما تجافى الشعر يوم البين
وساقه والله ذو وجهين

تخشى الأسود مرامه
بين العذيب ورامه

قوامه في رياض الوجد تغريد
بيض الضبا قلت أنتم أعين سودوا^(١) (د)

يشبه سهماً بجعبة رشقه^(٢)
سابقني مدمعي جري ملقه^(٣)

لحظه وهو يقنص الأسد صيدا^(٤)
فأنا اليوم من رجال السويدا

يحق له بروحي أن يفدى
بوصل منه ثم جفا وصدا

وقولي: أرداد من أهواه قد ثاقلت
وبعد ذا وجنته تلونت

وقولي: برامة لي ظبي
كم هام قلبي فيه

وقولي: هويت غصناً لأطيار القلوب على
قالت لواحظه أنا نسود على

وقولي: قلت له إن جفن مقلته
خفت من الفتك رحى أملكه

وقولي: في سويداء مقلة الحب نادى
لا تقولوا ما في السويدا رجال

وقولي: بروحي أفتدي ظيباً نفورا
جلا لصدا قلبي فرد يوم

وقولي مورياً مضمناً:

شكوت إليها قصتي وهي تسم^(٥)
ولم تر قبلي ميتاً يتكلم

بندی يديه وقال لي
وكما علمت شمائلي^(٦)

ولم أدر ما بين الغدير وبينه
إلى وجهه قصداً وخضر عينه

ومذ كلمت جسمي سيوف لحاظها
فلم أر بديراً ضاحكاً قبل وجهها

وقولي: جاد النسيم على الربا
أنا ما أقصر عن ندى

وقولي: رأيت مع المنثور بعض وقاحة
تلون منه ثم مدّ أصابعاً

(١) سودوا: كونوا سادة، تزعموا.

(٢) الجعبة: مكان وضع السهام.

(٣) ملق: كذب واحتال - ملقة: أملس.

(٤) قنص: صاد بغته.

(٥) كلم: جرح.

(٦) هذا البيت مأخوذ من بيت لعنترة بن شداد يفخر فيه بشربه الخمر فيقول:

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي

والندى: العطاء والكرم - والشمائل: الصفات الحسنة.

- وقولي: حيا بها عاصرها في كأسها
وقال هذي تحفة في عصرنا
- وقولي: لما غدا حباب كأسى شاعراً
أوقفت ساقينا على نظامه
- وقولي: لما غدا راحي نحيلاً بالياً
وجاز بالماء إلى بحرانه
فجثته مستقصياً أعراضه
- وقولي: في حب كأسى لامني
فقلت دعني إنني
- وقولي مماجنأ: أعنابكم إن حرموا ماءها
لا تحرموني التين إنني امرؤ
- وقولي: أدخلت أيري فيه
فقلت كيف تراه
- وقولي: العلم ابن الكوير قال معي
وقامتي بانه مهفهفة
- وقولي: قالوا صفي الدين أشعاره
وهكذا إنشاؤه مسكر
- وقولي: ديوان نظمي جاء وهو محرر
فإذا بدى لا تستقلوا حجمه
- مشرقة باسمه كالشفر
قلت اسقنيها يا إمام العصر
لنظم خمرياته يحرر^(١)
فقال لي والله هذا جوهر
- وكاد أن لم يك في الزجاج
ورق قالوا صنه بالعلاج
وجدته معتدل المزاج^(٢)
- من ليس يدري حالتي
وجدت فيها راحتني
وحرفوا فيها على الشارب
أعشقه بالقلب والقلب
- أصبت منه المقاتل
فقال والله داخل
- لطف وظرف حواهما الكرم
فقلت لا بانه ولا علم
- ما للورى في طرفها ممشى
قلت لهم والله ما أنشا
- برقيق نظم لفظه يستعذب
وحياتكم فيه الكثير الطيب

انتهى ما أوردته في باب التورية من كتاب الله وحديث نبيه ﷺ، وكلام أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، ومن نظم فحول العرب والمولدين، إلى أن ارتفع العلم الفاضلي وأوردت محاسنه، ومحاسن من مشى تحت علمه المحمدي، إلى أن اتصل هذا السند بأعيان أهل العصر.

قلت: ولولا الحياء من العصابة النباتية، وأنا منها، لعزت العلمين من الوداعي

(١) حرر: كتب.

(٢) مستقصياً: متبعاً ومتبيناً. وأعراض المرض: مظاهره وعلاماته.

بثالث، فأوردت هنا من مطرب عطر مفرداته ما يغني عن المثاني والمثالث، فإنه أحد أئمة هذا المذهب، وإذا ذكرت التورية فهو عذيقها المرجب، وعلى كل تقدير ففرسان العلمين المشهورين الفاضلي والنباتي هم الذين أبرزوا عروس التورية من خدرها، وحققوا للناس من تساذج عن نقوش القاعدة وسفل عن علو قدرها، ولم أخل بذكر الشهاب محمود، وكان محمود الحشمة في ألفاظه على كل ناظم وناثر، إلا أن التورية كانت غير مذهبه، ووقوعها في نظمه ونثره من النوادر، وتمذهب بها القاضي شهاب الدين بن فضل الله، ولكن ما تفقه في هذا المذهب ولا حرره، ولا أبدر فيها بدر الدين بن حبيب، وكانت ليالي سطورها بنظمه غير مقمرة، ولهذا خدمها حذاق الأدب وحافظوا على الخدمة وثابروا، وأنشدوا من رضي بالشعر الموزون:

إذا كنت لا تدري سوى الوزن وحده فقل أنا وازن وما أنا شاعر^(١)

قلت: ومما تخيرته من نظم القاضي شهاب الدين بن فضل الله، رحمه الله، من النكت التي وقعت له عفواً من غير كد ولا تكلف، قوله:

جاؤوا بأنواع من الطيب لنا تحملها معشوقة مشوقه^(٢)
قلت خذوا الطيب لكم جميعه بشرط أن لا تأخذوا المعشوقه

ومما اخترته من نظم بدر الدين بن حبيب، رحمه الله تعالى، قوله:

وجنته الحمراء لما اكتست خضرة أذئاب الطواويس
عابوا لفرط الحسن دينارها فقلت خلوه على كيسي

قلت: وقد عنّ لي أن أورد هنا نبذة من نظم من كانت التورية غير مذهبه، لأجعلها في مهالك الأشكال وموانع العقادة جل مطلبه، وما عليّ ممن تأخر عصراً أو تقدم، فإن الغرض أن يصير عقد التورية وهو بنظم من شعر بها منظم، وما خفي أن من حذاق الأدب من وقعت له التورية عفواً، وصار العفو محلاً عند القدرة، ومنهم من نقب عنها وعسعس عليه ظلام التكليف، فلم يبرزها نيرة، كالشيخ صفي الدين، فإنها كانت غير مذهبه، وحاولها مراراً فأتى بها مغمصوبة، ولم يبلغ من اقتناص شواردها بحبائل فكره مطلوبه، كقوله:

(١) وازن: هكذا في الأصل ونظنه من التحريف فالبيت غير قائم الوزن والأصح: وزان: وهو الذي ينظم الشعر الموزون حسب التفعيلات.

(٢) ممشوقة: طويلة القوام.

وساق من بني الأتراك طفل
أتيه به على جمع الرقاق^(١)
أملكه قيادي وهو رقي
وأفديه بعيني وهو ساق^(٢)

قلت: لا شك أن مراده بالمعنى الواحد من التورية ساقى الراح، وهو ظاهر صحيح، وبالمعنى الآخر أن يكون هذا الساقى ساقاً للشيخ صفي الدين، وهو غير ممكن. ولعمري إن هذا مسلك من ليس له في باب التورية مدخل، وهذه النكتة أبرزتها معلمة الطرفين، وأنا إذ ذاك مبتدئ لم أبلغ من البلاغة أشدي، ولا ثبت عند قضاة الأدب رشدي، بقولي مورياً ومضمناً:

يا حسن ساق يقول إن ذهبت
مدامكم تكيفوا بأحداقي
شمر عن ساقه لنا وسقى
قامت حروب الهوى على ساق

قلت: ومما عقده الشيخ صفي الدين، في هذا الباب، بيت بديعته الذي نظمه شاهداً على هذا النوع، وهو قوله في مدح النبي ﷺ:

خير النبيين والبرهان متضح
في الحجر عقلاً ونقلًا واضح اللقم^(٣)

قلت: ومن تواريه التي يستشهد بها على رفضه، ولا بد أن الله تعالى يقابله فيها على قبج سريرته وقلة أدبه، قوله:

إذا شاهدت عينك وجه معذبي
وقد زارني بعد القطيعة والهجر
رأيت بقلبي من تلقيه مرحباً
وسيف عليّ في لحاظ أبي بكر

وكذلك الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي، ناظم البديعية، كان عن نظم التورية بمعزل، ولم ترض أن تنزل من أبياته بمنزل، وبيت نظمه في بديعته، شاهداً على هذا النوع، في غاية العقادة والسفالة، وهو قوله:

لا يرفع العين للراجين يمنحهم
بل يخفض الرأس قولاً هاك فاحتكم

وهذه البديعية غالبها سافل على هذا النمط، والتورية تجل عن أن تكون من مخدرات هذا البيت. ولكن أورد له الشيخ أبو جعفر، في شرحه الذي كتبه على بديعته، ما هو منقول في هذا الباب، وهو قوله:

(١) أتيه: أفتخر.

(٢) ساقى: الساق المعروفه وساقى الخمر.

(٣) اللقم: الطريق والنهج الواضح.

وقفت للوداع زينب لما رحل الركب والمدامع تسكب
مسحت بالبنان دمعي وحلو سكب دمعي على أصابع زينب

قلت: ورتبة الشيخ صفي الدين بالنسبة إلى ابن جابر معلوم أنها عالية، ولكن التورية ما دخلت إلى بيت من بيوته إلا خرجت غير راضية.

ومن التواري التي وقعت لناظمها عفواً، بل سحراً من غير كد، قول القائل:

قاسوك بالغصن في الشني قياس جهل بلا انتصاف
فذاك غصن الخلاف يدعى وأنت غصن بلا خلاف^(١)

ومن ذلك قول جلال الدين شاعر ماردين قديماً:

ويوم برد يد أنفاسه تخمس الأوجه من قرصها^(٢)
يوم توذّ الشمس من برده لجرت النار إلى قرصها

ومثله قول شرف الدين بن منقذ:

ولرب ليل تاه فيه نجمه وقطعته سهراً فطال وعسعسا^(٣)
وسألته عن صبحه فأجابني لو كان في قيد الحياة تنفّسنا

ومثله قول ابن نبيه؛ وكانت التورية غير مذهبه:

تعلمت علم الكيمياء بحبه غزال بجسمي ما بعينيه من سقم
فصعدت أنفاسي وقطرت أدمعي فصح بذأ التدبير تصفية الجسم

ومثله قول ظهير الدين بن البارزي:

يا لحيّة الحب التي طال لها تلفتي
هل أنت مسك الترك أو هل أنت مسك تبت

ومثله قول أمين الدين السلیماني:

أضيف الدجا معنى إلى لون شعره فطال ولولا ذاك ما خص بالجر
وحاجبه نون الوقاية ما وقت على شرطها فعل الجفون من الكسر

(١) الخلاف: الصفصاف. وبلا خلاف: بلا شك.

(٢) تخمش: تلطم وتخدش - القرص: شدة البرد.

(٣) تاه النجم: غاب - عسعس الليل: انتشر.

ومثله قول محاسن الشواء :

ولما أتاني العاذلون عدمتهم
وقد بهتوا لما رأوني ساهياً

ومثله قول سعد الدين الفارقي :

قف بي على نجد فإن قبض الهوى
وإذا دجا ليل الفراق ففاده

ومثله قول شهاب الدين بن أبي الحوف :

أقول لعقد أذهل الطرف حسنه
أخذت نظاماً راق معنى فقال لي

ومثله قول إبراهيم بن عبد الله الغرناطي :

يا رب كأس لم تشج شمولها
لما رأينا السحر من أشكالها

ومثله قول مجير الدين بن حبان الشاطبي :

تؤمنون الحجاز وما علمتم
وألفاظي العذيب وأضلعي المنحني

ومثله قول الشريف محمد بن قاضي الجماعة بغرناطه، وهو :

حدائق أنبتت فيها الغوادي
فما يبدو بها النعمان إلا .

ضروب النور رائقة البهاء
نسبناه إلى ماء السماء^(٧)

(١) قارض: جائر قاطع من قرض إذا جاز وقطع.

(٢) العين: صيبة العين - والعارض: المس.

(٣) الجيد: العنق - الخود: الفتاة الحسناء.

(٤) تشج الكأس: يمزج ما فيها من الخمره بالماء لكسر سورتها.

(٥) الزجاج: أحد النحويين العرب.

(٦) العذيب والمنحني والعقيق: أودية بظاهر المدينة المنورة.

(٧) النعمان: الزهر المعروف بشقائق النعمان والنعمان بن المنذر بن ماء السماء الملك.

ومنه قول لسان الدين بن الخطيب:

ولفضل البرد في الجو احتكام
قلت هذا اليوم برد وسلام

جلس المولى لتسليم الورى
فاذا ما سألوا عن يومنا

ومنه قول الشيخ شمس الدين الأدفوي:

وفضيلة بين الورى لن تجحدا^(١)
إلا وهز لها الشمائل بالندا^(٢)

كم للنسيم على الربا من نعمة
ما زارها وشكت إليه فاقاة

ومثله، في الحسن والल्पف، قول الشيخ موفق الدين الحكيم:

نظماً به خاطر التفريق ما شعرا
قطعت مجموعته المختار مختصرا

لله أيامنا والشمل مجتمع
وا لهف قلبي على عيش ظفرت به

ومنه قول عبد العزيز الأمدى:

حفت بمكروه من العذل
أرملة تأكل بالفضل

إن الذي في وجهه جنة
مقلته في وسط قلبي غدت

ومنه قول القائل وأجاد:

دلت عى ضعف النسيم بخطها
فيد الغمامة صححته بنقطها

ويد الشمال عشية مذ أرعشت
كتبت سقيماً في صحيفة جدول

ومثله، في الحسن، قول علاء الدين بن البطريق ناظر الجيش ببغداد:

فيها تصاوير بمكنه
فمتى أراها وهي دمنه^(٣)

دار السراج بديعة
تحكي كتاب كليله

ويعجبني في هذا الباب قول القائل في حمام:

أي ماء لها وأية نار
وروينا عنه صحيح البخار (ي)

إن حمامك التي نحن فيها
قد نزلنا فيها على ابن معين

(١) جحد: أنكر.

(٢) الفاقاة: الحاجة - الشمائل: المكرمات - النداء: العطاء والكرم.

(٣) دمنة: أخو كليله الثعلب الذي ورد اسمه في عنوان كتاب لابن المقفع «كليله ودمنة» والدمنة آثار

الدار أو الخربة.

ومن المخترعات في هذا الباب، قول الشيخ شمس الدين الواسطي يهجو عواداً وزامراً:

شبهت ذا العواد والزامر إذ ضاقت علينا بهم المناهج
بعقرب يضرب وهو ساكت وأرقم ينفخ وهو خارج^(١)

ويعجبي قوله، من دو بيت:

إن ضرمني بجذوة التذكار حبي وبرى عظمي شكرت الباري
فالعاذل في هواه لا عقل له ما أبلد عاذلي وأذكي ناري
ومنه قول القاضي علاء الدين بن الجويني صاحب الديوان ببغداد:

يا طيب ميبتنا بواد السمر في بهجة ليلة بضوء القمر
وافى بفراقنا نسيم سحرأ ما أبرد ما جاء نسيم السحر

ومن الغيات في هذا الباب، قول الشيخ صدر الدين بن الوكيل:

كم قال معاطفي حكتهما الأسل والبيض سرقن ما حوته المقل^(٢)
والآن أوامري عليهم حكمت البيض تُحدُّ والقنا تعقل^(٣)

ومثله قوله:

يا غاية منيتي ويا معشوقي من بعدك لم أمل إلى مخلوق
يا خير نديم كان لو يؤنسي من بعدك صليت على الراووق^(٤)

ويعجبي، من نظم المواليا في هذا الباب، قول القائل:

حبي ومحبوتي مذ بان يوم البين زاروا عشا ليلة الاثنين قبل الحين
فصرت أنظر إلى زينه وألمح زين وأقول يا قلب ما أحلى ليلة الاثنين

ومثله، في اللطف، قول الآخر:

سمعتها وهي داخل دارها في الصحن تنشدرمل صحن قلبي المعنى صحن^(٥)
يا ليتهامع تغنيها وطيب اللحن ترفع أجر ودع يدخل على اللحن^(٦)

(١) الأرقم: ذكر الحية.

(٢) الأسل: الرماح - والبيض: الخوذ.

(٣) تحدُّ: تقاصص بالحد وهو قصاص محدد.

(٤) الراووق: إناء الخمرة.

(٥) صحن: ضربت.

(٦) اللحن: الموسيقى والخطأ النحوي.

ومثله قول الآخر:

قالت لها أختها قصدي يسمعنا
للرفع والنصب أنا وأنتى ومن معنا
ما النحو قالت لها نحن بأجمعنا
للجر والزوج حرف جاء للمعنى

ومنه قوله:

ستي الكبيرة لها الخدام والحرمة
جاها الطواشي أفشخت لوناك من كلمه
تحلف على النيك بالمصحف وبالختمه
راحت يمين القواقية على قرمه

ومثله في اللطف قول القائل:

يا منيتي زدت لهواتي تشفها
تحب بيضا وأجفانك تحشفها
واحرمتني الشفة الحمراء أرشفها
بالله أنظر ظلاماتي وكشفها

ويعجبني قول الشيخ حامد الحكاك:

ثار الغرام الذي في مهجتي خامد
وأنا ببغداد والمحبوب في آمد
وسال دمعي الذي كنت أعهده جامد
مصيبتي عظمت وأنا لها حامد

وقد طال الشرح، وأوردت في باب التورية من المحاسن ما يكفي، قديماً وحديثاً، وأوردت بعد ذلك ما وقع فيها من النظم، عفواً وتكليفاً. وقد تعيّن عليّ إيراد ما وعدت به في ديباجة هذا الباب، من فقه التورية والكلام على أنواعها وأقسامها، فإن القول على اختلاف عبارات الحدود قد تقدم، والكل راجع إلى مقصود واحد، إذ القصد من لفظ التورية أن يكون مشتركاً بين معنيين، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد، ويوري عنه بالقریب، فيوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك، ولهذا سمي هذا النوع إيهاماً.

أنواع التورية:

والتورية أربعة أنواع: مجردة، ومرشحة، ومبينة، ومهيأة.

النوع الأول التورية المجردة: وهي التي لم يذكر فيها لازم من لوازم المورى به، وهو المعنى القريب، ولا من لوازم المورى عنه، وهو المعنى البعيد. وأعظم أمثلة هذا النوع قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾^(١) لأن الاستواء على معنيين: أحدهما الاستقرار في المكان، وهو المعنى القريب، والثاني الاستيلاء والملك، وهو المعنى

(١) طه، ٥/٢٠.

البعيد المورى عنه، وهو المراد، لأن الحق سبحانه منزه عن المعنى الأول، ولم يذكر من لوازم هذا شيئاً، ولا من لوازم ذلك، فالتورية مجردة بهذا الاعتبار. ومنه قول النبي ﷺ، في خروجه إلى بدر، وقد قيل له: ممن أنتم؟ فلم يرد أن يعلم السائل، فقال: من ماء. وأراد أنا مخلوقون من ماء، فورى عنه بقبيلة من العرب يقال لها ماء. ومن ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، في الهجرة، وقد سئل عن النبي ﷺ فقيل: من هذا؟ فقال: هاد يهديني. أراد أبو بكر هادياً يهديني إلى الإسلام، فورى عنه بهادي الطريق الذي هو الدليل في السفر. ومنه قول القاضي عياض، في سنة كان فيها شهر كانون معتدلاً فأزهت فيه الأرض:

كأن نيسان أهدى من ملابسه لشهر كانون أنواعاً من الحلل
أو الغزاة من طول المدى خرفت فما تفرق بين الجدي والحمل^(١)

فالتورية هنا مجردة، والشاهد في الغزاة والجدي والحمل، فإن الناظم لم يذكر قبل الغزاة ولا بعدها شيئاً من لوازم المورى به، كالأوصاف المختصة بالغزاة الوحشية، من طول العنق وسرعة الالتفات وسرعة النفرة وسواد العين، ولا من أوصاف المورى عنه، كالأوصاف المختصة بالغزاة الشمسية، من الإشراق والسمو والطلوع والغروب. فإن قيل إن الغزاة قد رشحت بذكر الجدي والحمل، وهما مرشحان بالغزاة، فالجواب إن لازم التورية من شرطه أن يكون لفظه غير مشترك، والغزاة هنا مشتركة وكذلك الجدي والحمل.

ومنه قول القاضي محيي الدين بن زيلاق، وقد أهدى لصاحب الموصل حملاً:

يا أيها المولى الذي ببابه كل أمل
لو لم تكن بدرأً لما أهدى لك الثور حمل

فالتورية وقعت بين البدر والثور والحمل، ولم يذكر لواحد منهما لازماً، فالبدر مشترك بين اسم الممدوح وبدر السماء، والثور مشترك بين الحيوان والبرج في السماء، وكذلك الحمل. ومنه قول بعضهم، من كان وكان:

لو سنبله خلف ظهرو ناظر إليها المشتري^(٢)
ولو ذنب ما يقارن حتى يرى الميزان^(٣)

-
- (١) الغزاة: الشمس والحيوان المعروف - خرفت: فقدت قدرتها على التفكير والتمييز بين الأشياء - الجدي والحمل: منزلتين من منازل الشمس والمدارين المعروفين وحيوانين معروفين.
(٢) سنبلة: الشمس في منزلة تدعى السنبلة - المشتري: الكوكب المعروف.
(٣) ذنب: مذنب وهو مجموعة من الكواكب - الميزان: مجموعة من الكواكب.

ومنه قول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر يصف وادياً:

وبطحاء من واد يروقك حسنه ولا سيما إن جاد غيث مبكر^(١)
به الفضل يبدو والربيع وكم غدا به العيش يحيى وهو لاشك جعفر^(٢)

فالتورية وقعت هنا في الفضل والربيع ويحيى وجعفر، والاشتراك في كل من الأربعة ظاهر.

النوع الثاني: التورية المرشحة: وهي التي يذكر فيها لازم المورى به، سميت بذلك لتقويتها بذكر لازم المورى به، ثم تارة يذكر اللازم قبل لفظ التورية، وتارة بعده، فهي بهذا الاعتبار قسمان: فالقسم الأول منها، هو ما ذكر لازمه قبل لفظ التورية، وأعظم أمثله قوله تعالى: ﴿والسماء بئيناها بأيدي﴾^(٣) فإن قوله بأيدي يحتمل الجارحة، وهذا هو المعنى القريب المورى به، وقد ذكر من لوازمه على جهة الترشيح، البنيان، ويحتمل القوة وعظمة الخالق، وهذا المعنى البعيد المورى عنه وهو المراد، فإن الله سبحانه منزّه عن المعنى الأول.

ومنه قول يحيى بن منصور من شعراء الحماسة:

فلما نأت عنا العشيرة كلها أنخنا فحالفنا السيوف على الدهر
فما أسلمتنا عند يوم كربيهة ولا نحن أغضينا الجفون على وقر^(٤)

الشاهد في الجفون فإنها تحتمل جفون العين، وهذا هو المعنى القريب المورى به، وقد تقدم لازماً من لوازمه على جهة الترشيح، وهو الإغضاء لأنه من لوازم العين، وتحتمل أن تكون جفون السيوف أي أغمادها، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وهو مراد الناظم.

ومن أطف ما وقع في هذا القسم قول شمس الدين الحكيم بن دانيال الكحال:

يا سائلي عن حرفتي في الورى وصنعتي فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس

الشاهد هنا، في أعين الناس، فإنها تحتمل الحسد وضيق العين، وهو المعنى

(١) البطحاء: الأرض المنبسطة - جاد الغيث: المطر إذا تساقط.

(٢) الفضل والربيع ويحيى وجعفر: من البرامكة والزيادة وفصل من فصول السنة، ويعيش والنهر.

(٣) الذاريات، ٤٧/٥١.

(٤) الوقر: الذل.

القريب المورى به، وقد تقدم لازمه على جهة الترشيح، وهو درهم الإنفاق لأنه من لوازم الحسد، ويحتمل العيون التي يلاطفها بالكحل، وهذا هو المعنى المورى عنه، وهو مراد الناظم الكاحل.

انتهى القسم الأول من التورية المرشحة، والقسم الثاني منها، هو ما ذكر لازمه بعد لفظ التورية، ومن أمثله اللطيفة قول الشاعر:

مذ همت من وجدي في خالها ولم أصل منه إلى اللثم
قالت قفوا واستمعوا ما جرى خالي قد هام به عمي

الشاهد في الخال، فإنه يحتمل خال النسب، وهذا هو المعنى القريب المورى به، وقد ذكر لازمه بعد لفظ التورية على جهة الترشيح وهو العم.

ومنه قول الشاعر:

أقلعت عن رشف الطلا واللثم في ثغر الحبيب^(١)
وقلت هذي راحة تسوق للقلب التعب

الشاهد هنا في الراحة التي هي ضد التعب، وقد ذكر التعب بعدها على جهة الترشيح لها، وهذا هو المعنى القريب المورى به، ويحتمل الراحة التي هي من أسماء الخمر، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وهو مراد الناظم.

النوع الثالث: التورية المبيته: وهي ما ذكر فيها لازم المورى عنه، قبل لفظ التورية أو بعده، فهي بهذا الاعتبار أيضاً قسمان: فالقسم الأول: هو ما ذكر لازمه من قبل، واستشهدوا عليه بقول البحري:

ووراء تسدية الوشاح مليه بالحسن تملح في القلوب وتعذب

الشاهد هنا في تملح، فإنه يحتمل أن يكون من الملوحة التي هي ضد العذوبة، وهذا هو المعنى القريب المورى به، ويحتمل أن يكون من الملاحه التي هي عبارة عن الحسن، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وهو مراد الناظم، وقد تقدم من لوازمه على جهة التبيين مليه بالحسن.

قلت: هذا الشاهد الذي استشهدوا به من نظم البحري فيه نظر، ولكن يأتي

(١) أقلع عن العادة: تركها - الرشف: الشرب على مهل - الطلا: الخمرة.

الكلام عليه في موضعه. ومن أحسن الشواهد على هذا القسم قول الشيخ شرف الدين ابن عبد العزيز شيخ شيوخ حماة رحمه الله تعالى:

قالوا أما في جلق نزهة تنسيك من أنت به مغرى
يا عاذلي دونك من لحظه سهماً ومن عارضه سطرأ

الشاهد هنا في موضعين، وهما السهم وسطرأ، فإن المعنى البعيد هما الموضعان المشهوران بمنتزهات دمشق، وذكر النزهة بجلق قبلهما هو المبين لهما، وأما المعنى القريب فسهم اللحظ وسطر العارض.

القسم الثاني من التورية المبينة: هو الذي يذكر فيه لازم المورى عنه بعد لفظ التورية، ومن أمثله البديعة قول الشاعر:

أرى ذنب السرحان في الأفق ساطعاً فهل ممكن أن الغزالة تطلع^(١)

الشاهد هنا في موضعين^(٢): أحدهما ذنب السرحان، فإنه يحتمل أول ضوء الفجر، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه وهو مراد الناظم، وقد بينه بذكر لازمه بعده بقوله ساطعاً، ويحتمل ذنب الحيوان المعروف، وهذا هو المعنى القريب المورى به. واستشهدوا على هذا القسم بقول ابن سناء الملك، وهو:

أما والله لولا خوف سخطك لهان عليّ ما ألقى برهطك
ملكك الخافقين فتحت عجباً وليس هما سوى قلبي وقرطك

الشاهد هنا في الخافقين، فإنه يحتمل أن يريد قلبه وقرط محبوبه، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه وهو مراد الناظم، وقد بينه بالنص عليه فإنه صرح بعد الخافقين بذكر القلب والقرط، ويحتمل أن يريد ملك المشرق والمغرب وهذا هو المعنى القريب المورى به.

النوع الرابع: التورية المهيأة: وهي التي لا تقع فيها التورية ولا تنهياً إلا باللفظ الذي قبلها، أو باللفظ الذي بعدها، أو تكون التورية في لفظين لولا كل منهما لما تهيات في الآخر. فالمهيأة، بهذا الاعتبار، ثلاثة أقسام: القسم الأول من التورية المهيأة: وهو

(١) السرحان: الذئب والفجر.

(٢) يبدو أن ابن حجة نسي أن يذكر الموضع الثاني من الشاهد وهو قول الشاعر: الغزالة: التي يحتمل أن تكون ذلك الحيوان المعروف الذي تشبه به الفتاة الحسنة كما يحتمل أن تكون الشمس.

الذي تنهياً فيه التورية من قبل، وقد استشهدوا على ذلك، بقول ابن سناء الملك يمدح الملك المظفر صاحب حماة:

وسيرك فينا سيرة عمرية فروحت عن قلب وأفرجت عن كرب^(١)
وأظهرت فينا من سميك سنة فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب

الشاهد هنا في الفرض والندب، وهما يحتملان أن يكونا من الأحكام الشرعية، وهذا هو المعنى القريب المورى به، ويحتمل أن يكون الفرض بمعنى العطاء، والندب صفة الرجل السريع في قضاء الحوائج الماضي في الأمور، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، ولولا ذكر السنة لما تهيأت التورية فيهما، ولا فهم من الفرض والندب الحكمان الشرعيان اللذان صحت بهما التورية.

القسم الثاني من التورية المهيأة: وهو الذي تنهياً فيه التورية بلفظة من بعد، ومن أمثله نثراً قول الإمام علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، في الأشعث بن قيس: إنه كان يحوك الشمال باليمين. فالشمال يحتمل أن يكون جمع شملة، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، ويحتمل أن يراد بها الشمال التي هي إحدى اليدين، وهذا هو المعنى القريب المورى به، ولولا ذكر اليمين بعد الشمال لما تنبه السامع لمعنى اليد.

ومنه نظماً قول الشاعر:

لولا التطير بالخلاف وأنهم قالوا مريض لا يعود مريضاً
لقضيت نجباً في جنابك خدمة لأكون مندوباً قضى مفروضاً^(٢)

فالمندوب هنا يحتمل الميت الذي يبكى عليه، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وهو المراد، ويحتمل أن يكون أحد الأكام الشرعية، وهو المعنى القريب المورى به، ولولا ذكر المفروض بعده لم يتنبه السامع لمعنى المندوب، ولكنه لما ذكر تهيأت التورية بذكره. ومثله قول أبي الحسين الجزار:

يا عدولي دعني من العذل إن النصح في مذهب الهوى تحريض
مت لما نأى فيها أنا مندو ب فراق وحبه مفروض

الكلام على هذا الشاهد كالكلام على الذي قبله.

(١) روح عن القلب: فرحه من بعد حزن - الكرب: الشدة والهم.

(٢) النجب: النحيب وهو أشد البكاء والعمر أو المدة منه.

القسم الثالث من التورية المهيأة: وهو الذي تقع التورية فيه في لفظين، لولا كل منهما لما تهيأت التورية في الآخر، واستشهدوا على ذلك بقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وهو:

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى

الشاهد، في البيت الأول، في الثريا وسهيل، فإن الثريا يحتمل أن يكون أراد بها بنت علي بن عبد الله بن الحرث بن أمية الأصغر، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وهو المراد، والقريب ثريا السماء، وهذا هو المعنى القريب المورى به، وسهيل يحتمل أيضاً سهيل بن عبد الرحمن بن عوف، وقيل كان رجلاً مشهوراً من اليمن، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، ويحتمل النجم المعروف بسهيل، وهذا هو المعنى القريب المورى به، ولولا ذكر الثريا التي هي النجم لم يتنبه السامع لسهيل، وكل واحد منهما صالح للتورية.

والتورية هنا، لا تصلح أن تكون مرشحة ولا مبينة، لأن الترشيح والتبيين لا يكون كل منهما إلا بلازم خاص، والفرق بين اللفظ الذي تهيأ به التورية واللفظ الذي تترشح به واللفظ الذي تبين به، أن اللفظ الذي تقع به التورية مهيأة، لو لم يذكر لما تهيأت التورية أصلاً، واللفظ المرشح والمبين إنما هما مقويان للتورية، فلو لم يذكر لكانت التورية موجودة.

وسبب نظم هذين البيتين أن سهيلاً المذكور تزوج الثريا المذكورة، وكان بينهما بون بعيد في الخلق، فإن الثريا كانت مشهورة في زمانها بالجمال، وسهيل بالعكس، وهذا مراد الناظم بقوله: عمرك الله كيف يلتقيان. وأيضاً هي شامية الدار، وسهيل يمانى. انتهى الكلام على التورية المهيأة وهي آخر أنواع التورية.

وهنا تنبيه فيه فائدة: وهو أن مشايخ هذا العلم قالوا: ليس كل لفظ مشترك بين معنيين تتصور فيه التورية، كاللغات التي تدور على الألسنة، وإنما تتصور حيث يكون المعنيان ظاهرين، إلا أن أحدهما أسبق إلى الفهم من الآخر.

وقد عن لي أن أختم باب التورية بفائدة تكون مسكاً لختامها وبدراً لتمامها، وهي أن بعض علماء هذا الفن قالوا: إن التورية، إذا جاءت بلازمين فتكافأ ولم يترجح أحدهما على الآخر، فكأنهما لم يذكرنا وصار المعنى القريب والمعنى البعيد بذلك في درجة

واحدة، وتلحق هذه التورية بالمجردة وتعد فيها قسماً ثانياً، وتصير مجردة بهذا الاعتبار، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر:

غدوت مفكراً في سرّ أفق أرانا العلم من بعد الجهاله
فما طويت له شبك الدراري إلى أن أظفرته بالغزاله

وقالوا: إن الشبك من لوازم الغزاة الوحشية، والدراري من لوازم الغزاة الشمسية. قلت: أما قوله في تقريره: إن اللازمين إذا تكافأ ولم يترجح أحدهما على الآخر تصير التورية كالمجردة، فقريب. وأما الشاهد ففيه نظر، فإنه صدر بقوله: غدوت مفكراً في سرّ أفق فالتفكر في سر هذا الأفق الذي أراه العلم من بعد الجهالة؛ لازم خاص يرجح جانب الغزاة الشمسية، وأما الشبك فاستعارة مرشحة بالحسن لنجوم الدراري، وهي أيضاً مما يرشح جانب الشمس عند طيها، الذي أراد به الناظم غيابها، ولو كانت الشمس مجردة من الدراري، ربما كان للغزاة الوحشية بعض مقاربة، وعين الشمس هنا ما تغطي على الترجيح، والله أعلم.

واستشهدوا أيضاً على هذا بقول مجير الدين بن تميم:

وليلة بت أسقى في غياهبها راحاً تسل شبابي من يد الهرم^(١)
ما زلت أشربها حتى نظرت إلى غزاة الصبح ترعى نرجس الظلم

وقالوا أيضاً: إن الصبح من لوازم الغزاة الشمسية، والرعي من لوازم الغزاة الوحشية. قلت: أما الصبح فمن لوازم الغزاة الشمسية، كما قالوا، وأما رعي نرجس الظلم فليس من لوازم الغزاة الوحشية، وإنما هو استعارة مرشحة بالحسن للنجوم، وهي مثل استعارة الشباك والدراري، والغزاة الوحشية ليس لها هنا مرعى، فإنها أجنبية من رعي نرجس الظلم الذي هو عبارة عن النجوم، والله أعلم.

وقد تقدم قولي على الشاهد الذي أوردوه للبحثري، في التورية المبينة، بذكر لازم المورى عنه من قبل وقلت: فيه نظر، وهو قوله:

ووراء تسدية الشواح ملية بالحسن تملح في القلب وتعذب

هذا الشاهد تعارض فيه اللازمان وتكافأ، وهو أقرب إلى المجردة، وما ذاك إلا أن الشاهد في قوله: تملح، يحتمل أن يكون من الملوحة، ولازمه تعذب، وهو المعنى

(١) الغياهب: الظلمات - الراح: الخمرة - سل: سحب بسرعة.

القريب، ويحتمل أن يكون من الملاحظة، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، ولازمه
ملية بالحسن، وقد تعارض اللزمان، وهذا هو الشاهد على هذا القسم الذي اختاروه أن
يكون قسماً ثانياً للتورية المجردة، وأقرب منه قول الشيخ زين الدين بن الوردي:

قالت إذا كنت تهوى أنسي وتخشى نفوري
صد ورد خدي وإلا أجور ناديت جوري

ومثله قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

حملت خاتم فيه فصاً أزرقاً من كثرة اللثم الذي لم أحصه
لولاه ما علم الرقيب فيا له من خاتم نقل الحديث بفصه

والأشباه والنظائر من هذا القسم كثير، والغرض أن اللزمين، إذا تعارضا وتكافأ في
التورية، يلحق هذا القسم بالتورية المجردة.

انتهى الكلام على التورية، وقد قدمت من نظم الجماعة الذين مشوا تحت العلمين
المشهورين ما هو أشهر من الأعلام، فالمتأمل إذا جمع بين طرفي هذا الباب، وعرف
الأنواع والأقسام، وضع كل شيء في محله فإني كشفت له اللثام عن وجه التورية، وأما
آيات البديعيات فقد تقدم ذكرها، والله أعلم بالصواب.



ذكر المشاكلة

من اعتدى فبعدوان يشاكلة لحكمة هو فيها خير منتقم

المشاكلة: في اللغة هي المماثلة، والذي تحرّر في المصطلح؛ عند علماء هذا الفن، أن المشاكلة هي ذكر الشيء بغير لفظه، لوقوعه في صحبته، كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾^(١)، فالجزاء عن السيئة في الحقيقة، غير سيئة، والأصل: وجزاء سيئة عقوبة مثلها، ومثله قوله تعالى: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾^(٢) والأصل: تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما عندك، فإن الحق، تعالى وتقدس، لا يستعمل في حقه لفظ النفس، إلا أنها استعملت هنا مشاكلة لما تقدم من لفظ النفس، ومنه قوله تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله﴾^(٣) والأصل: أخذهم بمكرهم، ومنه قوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾^(٤) أي: فعاقبوه، فعدل عن هذا لأجل المشاكلة اللفظية.

وفي الحديث، قوله ﷺ: فإن الله لا يمل حتى تملوا. الأصل: فإن الله لا يقطع عنكم فضله حتى تملوا عن مسألته، فوضع لا يمل موضع لا يقطع الثواب، على جهة المشاكلة، وهو مما وقع فيه لفظ المشاكلة أولاً.

ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(١) الشورى، ٤٢/٤٠.

(٢) المائدة، ١١٦/٥.

(٣) آل عمران، ٥٤/٣.

(٤) البقرة، ١٩٤/٢.

أي فنجازيه على جهله، فجعل لفظة نجهل موضع فنجازيه، لأجل المشاكلة. ومثله قول الشاعر، وتلطف ما شاء:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

أراد خيطوا، فذكره بلفظ اطبخوا، لوقوعه في صحبة طبخه.

قلت: قد تقرر أن هذا النوع، أعني المشاكلة، اللفظية، أن يأتي المتكلم في كلامه باسم من الأسماء المشتركة في موضعين، فتشاكل إحدى المشاكلتين اللفظيتين الأخرى في الخط واللفظ ومفهومهما مختلف. ومن إنشادات التبريزي في هذا الباب، قول أبي سعيد المخزومي:

حذق الآجال آجال والهوا للمرء قتال

فلفظة الآجال الأولى: أسراب البقر الوحشية، والثانية: منتهى الأعمار، وبينهما مشاكلة في اللفظ والخط. قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبح، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير»، هذا الشاهد وأمثاله داخل في باب التجنيس. قلت: قول الشيخ زكي الدين ظاهر ليس في صحته سقم، وهذا البيت الذي أنشده التبريزي من أحسن الشواهد على الجنس التام، ولو اعتمد البديعيون على المشاكلة المعنوية لخلصوا من هذا الاعتراض. وعلى كل تقدير، فالمعارضة تعدت حكم الالتزام في نظم هذا النوع، أعني المشاكلة اللفظية. وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته، على هذا النوع، قوله عن النبي ﷺ:

يجزي إساءة باغيهم بسيئة ولم يكن عادياً منهم على إرم^(١)

وبيت العميان:

سقاها الغيث ماء إذ سقى ذهباً فغير كفيه إن أمحلت لا تشم^(٢)

وبيت الشيخ عز الدين:

يجزي بسيئة للضد سيئة معنى مشاكلة من خير منتقم

وبيت بديعتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

من اعتدى فبعدوان يشاكله لحكمة هو فيها خير منتقم

(١) إرم: مدينة قوم عاد الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم

ذات العماد﴾ الفجر- ٧/٨٩.

(٢) شام: طلب.

ذكر الجمع مع التقسيم

جمع الأعادي بتقسيم يفرّقه فالحى للأسر والأموات للضرم^(١)
هذا النوع، أعني الجمع مع التقسيم، هو أن يجمع الناظم بين شيئين فأكثر، ثم
يقسم. كقول أبي الطيب المتنبّي:

الدهر معتذر والسيف منتصر وأرضهم لك مصطاف ومرتبّع
للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرّعا

وقد يتقدم التقسيم ويتأخر، كقول حسان بن ثابت:

قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوهم أو حالوا النفع في أشياهم نفعوا^(٢)
سجّية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع^(٣)

فالأول أحسن وأوقع في القلوب، وعليه مشى أصحاب البديعيات.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته قوله:

أبادهم فلبيت المال ما جمعوا والروح للسيف والأجساد للرخم^(٤)

(١) الضرم: الاحتراق.

(٢) أو حالوا: هكذا وردت في الأصل، ونظن أنه سقط منها حرف الواو وهي: حاولوا. أشياهم: أتباعهم.

(٣) السجّية: العادة - المحدث: الجديد الذي كان بعد أن لم يكن - البدع: الافتراءات وهي ما يستحدث في الدين زوراً وبهتاناً.

(٤) الرخم: طير من الجوارح كبير الجثة وحشي الطباع.

وبيت العميان في بديعيتهم:

هذا لراج وذا للجيش حين ظمي

والمال والماء في كفيه قد جريا

وبيت الشيخ عز الدين في بديعته قوله:

هذا لغمر وهذا نفع مغترم^(١)

علم ومال على جمع تقسمه

وبيت بديعتي:

فالحى للأسر والأموات للضرم

جمع الأعداي بتقسيم يفرقه



(١) الغمر: الجاهل غير المجرب للأمور - المغترم: الأثم.

ذكر الجمع مع التفريق

سناه كالبرق إن أبدوا ظلام وغي والعزم كالبرق في تفريق جمعهم
هذا النوع، أعني الجمع مع التفريق: هو أن يجمع الشاعر بين شيئين في حكم
واحد، ثم يفرق بينهما في ذلك الحكم، كقوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين
فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾^(١) فكأنه يقول: الشمس والقمر كوكبان، فهذا
نهارى، وهذا ليلي، فجمع بينهما إذ هما كوكبان، ثم فرق بأن هذا يضيء نهاراً وهذا
يضيء ليلاً، فوقع الفرق في الشيء الذي وقع به الجمع.

واستشهدوا على هذا النوع بقول الفخر عيسى:

تشابه دمعانا غداة فراقنا مشابهة في قصة دون قصة
فوجنتها تكسو المدامع حمرة ودمعي يكسو حمرة اللون وجنتي
هذا الناظم جمع بين الدمعين في الشبه، ثم فرق بينهما بأن دمعها أبيض، فإذا
جرى على خدها صار أحمر بسبب احمرار خدها، وأن دمعها أحمر، لأنه يبكي دماً وجسده
من النحول أصفر، فإذا جرى عليه الدمع حمرة.

ومنه قول البحري:

ولما التقينا والنقا موعده لنا تعجب رائني الدر منا ولاقطه^(٢)
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

(١) الإسراء، ١٧/١٢.

(٢) لاقط الدر: جامعه.

وبيت الصفي الحلبي :

سناء كالبرق يجلو كل مظلمة والعزم كالنار يفني كل مجترم^(١)
وبيت العميان في تركيبه قلق، حيث قالوا:
فلذ بمن كفه والبحر ما افترقا إلا بكف وبحر في كلامهم^(٢)
وبيت الشيخ عز الدين، شن فيه الغارة على بيت الشيخ صفي الدين الحلبي، بقوله:
وعزمه النار في جمع يفرقه ووجهه النور يجلو ظلمة الغشم^(٣)
وبيت بديعيتي أقول فيه، عن النبي ﷺ:
سناء كالبرق إن أبدوا ظلام وغي والعزم كالبرق في تفريق جمعهم



(١) المجترم: مرتكب الجريمة.

(٢) لاذ: احتفى.

(٣) الغشم: الظالمون. والليالي المظلمة.

ذكر الإشارة

ومن إشارته في الحرب كم فهم آل أنصار معنى به فازوا بنصرهم هذا النوع، أعني الإشارة، مما فرعه قدامة من ائتلاف اللفظ مع المعنى، وشرحه بأن قال: هو أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على المعنى الكثير، بإيماء ولمحة تدل عليه، كما قيل في صفة البلاغة، هي لمحة دالة. وتلخيص هذا الشرح: إنه إشارة المتكلم إلى المعاني الكثيرة بلفظ يشبه، لقلته واختصاره، بإشارة اليد. فإن المشير بيده يشير دفعة واحدة إلى أشياء، لو عبر عنها بلفظ لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة. ولا بد في الإشارة من اعتبار صحة الدلالة، وحسن البيان مع الاختصار، لأن المشير بيده، إن لم يفهم المشار إليه معناه، فأشارته معدودة من العبث.

وكان النبي ﷺ سهل الإشارة، كما كان سهل العبارة وهذا ضرب من البلاغة يمتدح

به.

والإشارة قسمان: قسم للسان، وقسم لليد. ومن شواهد الإشارة في الكتاب العزيز قوله: ﴿وغيض الماء﴾^(١) فإنه سبحانه أشار بهاتين اللفظتين إلى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ومطر السماء، وذهاب الماء الذي كان حاصلًا على وجه الأرض قبل الإخبار، ولو لم يكن كذلك لما غاض الماء. ومنه قوله تعالى: ﴿وفيها ما تشبهه الأنفس وتلذ الأعين﴾^(٢) فالمرح أيها المتأمل كل ما تميل النفوس إليه من اختلاف الشهوات، وملاذ الأعين في اختلاف المرثيات، لتعلم أن بلاغة هذا اللفظ القليل جداً، عبرت عن المعاني

(١) هود، ٤٤/١١.

(٢) الزخرف، ٧١/٤٣.

التي لا تنحصر عدا. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^(١). ومن المنظوم قول زهير في هذا النوع:

فإني لو لقيتك فاتجهنا
لكان لكل منكرا لقاء
يعني قابلت كل منكرا بمثلها.

ومن أمثلة هذا النوع قول امرئ القيس:

بعزهم عززت فإن يذلوا
فذلهم أنالك ما أنالا

فانظر كم تحت قوله: أنالك ما أنالا، من أنواع الذل ومثله قوله:

فلاشكرن غريب نعمته
حتى أموت وفضله الفضل
أنت الشجاع إذا هم نزلوا
عند المضيق وفعلك الفعل

فالحظ كم تحت قوله: وفضله الفضل، بعد إخباره بأنه يشكر غريب نعمته حتى يموت، من أصناف المدح وترجيح فضله على الشكر، وفي قوله: غريب نعمته، غاية المدح، إذ جعل نعمته غريبة لم يقع مثلها في الوجود، وكم تحت قوله: وفعلك الفعل، بعد إخباره بنزول القوم عند المضيق الدال على صبرهم وشجاعتهم، وما في ذلك من ترجيح شجاعته عليهم. ومنه قوله في صفة الفرس:

على هيكل يعطيك قبل سؤاله
أفانين جري غير كز ولا واني^(٢)

فإنه أشار بقوله: أفانين، إلى جمع صنوف عدو الخيل المحمودة، والذي يدل على ذلك قوله: قبل سؤاله، فإن الأفانين المحمودة كانت منه عفواً من غير طلب ولا حث، وهذا كمال الوصف. ولو عدت هذه المعاني بألفاظها الموضوععة لها، لاحتاجت في العبارة إلى ألفاظ كثيرة.

وبيت الشيخ صفى الدين في بديعته:

يولي الموالين من جدوى شفاعته
ملكاً كبيراً عدا ما في نفوسهم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته:

ما تشتهي النفس يهدى في إشارته
يعطي فنوناً بلا من ولا سام

وبيت بديعيتي:

ومن إشارته في الحرب كم فهم
الأنصار معنى به فازوا بنصرهم

(١) النجم، ١٠/٥٣.

(٢) الهيكل: الحصان الضخم الجثة الغليظ العظام - الكز: السريع - الواني: البطيء.

ذكر التوليد

توليد نصرتهم يبدو بطلعته ما السبعة الشهب ما توليد رملهم

قلت: هذا النوع أعني، التوليد: ليس تحته كبير أمر، وهو على ضربين من الألفاظ والمعاني، فالذي من الألفاظ تركه أولى من استعماله، لأنه سرقة ظاهرة، وما ذاك إلا أن الناظم يستعذب لفظه من شعر غيره، فيقتضبها ويضمنها غير معناها الأول في شعره، كقول امرئ القيس في وصف الفرس:

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل^(١)

فاستعذب أبو تمام قيد الأوابد فنقلها إلى الغزل فقال:

لها منظر قيد الأوابد لم يزل يروح ويغدو في خفارته الحب^(٢)

والتوليد من المعاني، هو الأجل والأستر^(٣)، وهو الغرض ههنا، وذلك أن الشاعر ينظر إلى معنى من معاني من تقدمه، ويكون محتاجاً إلى استعماله، في بيت من قصيدة له، فيورده ويولد منه معنى آخر، كقول القطامي:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل^(٤)

وقال من بعده، ونقص الألفاظ، وزاد تمثيلاً وتوكيداً وتذييلاً:

(١) الوكنات: جمع وكنة وهي العش والمخبأ - المنجرد: الذي يسهل قياده قيد الأوابد: يعني أنه لسرعته لا تفلت منه الوحوش - الهيكل: الضخم.

(٢) الخفارة: الحراسة.

(٣) «الأستر»: هكذا وردت ونعتقد أنها «الأسير» أي الأكثر وجوداً في النظم.

(٤) المتأني: المتمهل - الزلل: الخطأ.

فمعنى صدر هذا البيت معنى بيت القطامي بكماله، ومعنى عجزه نوع التذييل، وما تقدم ذكره، وهو مولد.

قال ابن أبي الأصبغ في «تحرير التحبير»: أغرب ما سمعت في التوليد قول بعض العجم:

كأن عذاره في الخد لام ومبسمه الشهي العذب صاد
وظرة شعره ليل بهيم فلا عجب إذا سرق الرقاد^(١)

فإن هذا الشاعر ولد من تشبيه العذار باللام، وتشبيه الفم بالصاد لصاً، وولد من معناه ومعنى تشبيه الطرة بالليل ذكر سرقة النوم، فحصل في البيت توليد وإغراب وإدماج.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على هذا النوع:

من سبق لا يرى سوط لها سملاً ولا جديد من الأرسان واللجم^(٢)

بيت صفي الدين هنا غير صالح للتجريد، وقد تكرر عليه هذا النقد في كثير من الأبيات، فإن بيته لم يظهر له معنى إن لم ينشد البيت الذي قبله، وهذا العيب سماه علماء هذا الفن التضمنين، ويأتي الكلام عليه في موضعه، ولكن هو أقيح ما يكون في البديعيات، لأن المراد من بيت البديعيات أن يكون بمجرد شاهد على النوع المذكور، ليس له تعلق بما قبله ولا بما بعده.

وبيت صفي الدين مولد من قول أبي عبد الله بن الحجاج:

خرقت صفوفهم بأقب نهد مراح السوط متعوب العنان^(٣)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين:

ما لي بتوليد مدحي في سواه هدى لمعشر شهبوا الهندي بالجلم^(٤)

وبيت عز الدين هنا صالح للتجريد، فإن ضميره عائد إلى النبي ﷺ، وأما قوله:

(١) بهم: شديد السواد.

(٢) السبق: الخيل السابقة - السوط: الكرياح - سمل: البالي من كثرة استعماله أي هي خيول تسبق دون أن تضرب - اللجم جمع لجام وهو حديدة توضع في فم الخيل ليسهل قيادها والسيطرة عليها.

(٣) الأقب: من الخيل الضامر - النهد: السريع القفز - مراح السوط: مدهونه وذلك ليصير أشد لسعاً - متعوب العنان: عنانه تعب لسرعته.

(٤) الهندي: السيف - الجلم: المقص.

لمعشر شبهوا الهندي بالجلم، فإنه ذكر في شرحه أنه ولده من قول أبي الطيب المتنبي:
فالعيس أعقل من قوم رأيتهم عما أراه من الإحسان عمياناً^(١)
ثم قال في الشرح ما شبه السيف بالمقص إلا أعمى. قلت: ومن أين لنا أن تشبيه
السيف بالجلم مولد من بيت المتنبي، وألفاظها ومعانيها ظاهرة للمتأمل.

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

توليد نصرتهم يبدو بطلعته ما السبعة الشهب ما توليد رملهم
معنى هذا البيت ولدته من قول أبي تمام:
والنصر من شهب الأرماع لامعة بين الخميس علا في السبعة الشهب^(٢)

ولكن ذكر التوليد هنا، وهو اسم النوع البديعي، مع النصرة لا تخفى محاسنه على
حذاق الأدب، فإنه التوليد في التوليد، وذكر الرمل هنا توليد آخر، وقد جمعت في صدر
هذا البيت وعجزه بين التوليد الذي هو المراد من التورية في تسمية النوع، وبين التذييل
بقولي، بعد تنمة الفائدة: ما توليد رملهم، وبين مراعاة النظر، بذكر التوليد والرمل
والسبعة الشهب والنصرة، وجمعت بين قسمي التوليد في اللفظ والمعنى، والذي بينهما
من توليد المحاسن الظاهرة الزائدة على بيت أبي تمام غير خاف على المتأمل انصاف،
والله أعلم.



(١) العيس: الإبل جمع عيس.

(٢) الخميس: الجيش.

ذكر الكناية

قالوا طويل نجاد السيف قلت وكم لنساره ألسن تكني عن الكرم^(١)

الكناية: هي الإرداف بعينه، عند علماء البيان، وإنما علماء البديع أفردوا الإرداف عنها. والكناية هي أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو ردفه في الوجود فيوميء إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: طويل النجاد، كثير الرماد، يعنون بذلك أنه طويل القامة، كثير القرى^(٢). فلم يذكروا المراد بذكره الخاص به، ولكن توصلوا إليه بمعنى آخر هو ردفه في الوجود، ألا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد، وإذا كثرت القرى كثرت الرماد؟ ومن أحسن الأمثلة على هذا النوع قول الشاعر:

بعيدة مهوى القرط أما لنوفل أبوها وأما عبد شمس وهاشم^(٣)

أراد أن يذكر طول جيدها فأتى بتابعه وهو بعد مهوى القرط. ومثله قول ليلى الأخيلية:

ومخرق عنه القميص تخاله وسط البيوت من الحياء سقيما

كنت عن الإفراط في الجود بخرق القميص، لجذب العفاة له عند ازدحامهم عليه لأخذ العطاء.

وألبلغ في هذا الباب والأبداع، أن يكني المتكلم عن اللفظ القبيح باللفظ الحسن.

(١) نجاد السيف: حمائله وطويل نجاد السيف كناية عن طول قامته.

(٢) القرى: إطعام الضيوف.

(٣) بعيدة مهوى القرط: كناية عن طول عنقها - والمهوى الموضع والقرط: ما تتزين به المرأة في أذنيها.

والمعجز في ذلك قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾^(١) كناية عن الحدث، وقوله جل جلاله: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾^(٢) يريد بذلك ما يكون بين الزوجين. وعلى الجملة لا تجد معنى من هذه المعاني في الكتاب العزيز إلا بلفظ الكناية، لأن المعنى الفاحش متى عبر المتكلم عنه بلفظه الموضوع له كان الكلام معيباً، من جهة فحش المعنى، ولهذا عاب قدامة على امرئ القيس قوله:

فألهيتها عن ذي ترائم محول^(٣) فمثلك جبلى قد طرقت ومرضع
إذا ما بكى من تحتها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحول

قال، أعني قدامة: عيب هذا الشعر من جهة فحش المعنى، والقرآن منزّه عن ذلك. ولو استعار امرؤ القيس لمعناه الفاحش لفظ الكناية لسلم من العيب، وهذا القدر ينتقد على مثله. وفي السنة النبوية من الكنايات ما لا يحصى، كقوله ﷺ: لا يضع العصا عن عاتقه كناية عن الضرب، أو كثرة السفر. وحكى ابن المعتز أن العرب كانت تقول لمن به أبنة^(٤) أنت تحت العصا وأنشد:

زوجك زوج صالح لكنه تحت العصا

ومن نخوة العرب وغيرتهم كانت كنايتهم عن حرائر النساء بالبيض، وقد جاء القرآن العزيز بذلك، فقال سبحانه: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾^(٥). وقال امرؤ القيس في معلقته:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهواتها غير معجل^(٦)

أي بيضة خدر يعني امرأة كالبيضة في صيانتها لا يرام خباؤها لعزتها. ومن لطائف الكنايات قول بعض العرب:

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

(١) المائدة، ٧٥/٥.

(٢) النساء، ٢١/٤.

(٣) طرق: زار ليلاً - ذو الترائم: الولد - المحول: الذي له حول من العمر.

(٤) الأبنة: العيب.

(٥) الصافات، ٤٩/٣٧.

(٦) بيضة الخدر: المرأة المصونة في خدرها وهو الخباء - لا يرام: لا يمكن الوصول إليه - لهواتها: واحدها لهوة وهي قطعة من اللحم مدلاة في سقف الفم. وهذا البيت يروى كما يلي: وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل. وغير معجل: غير مستعجل، دليل على عدم الخوف.

سألت الناس عنك فخبروني هناة ذاك تكرهه الكرام^(١)
وليس بما أحلَّ الله بأس إذا هو لم يخالطه الحرام
فإن هذا الشاعر كنى بالنخلة عن المرأة، وبالهناة عن الرفث، فإن العرب كانت
تكني بها عن مثل ذلك. وأما الكناية بالنخلة عن المرأة فمن أَلطف الكنايات.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته عن الكناية قوله:

كل طويل نجاد السيف يطربه وقع الصوارم كالأوتار والنغم^(٢)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

داع كثير رماد القدر إن وصفت كناية بطنها والظهر بالدمسم

قول الشيخ عز الدين: كثير رماد القدر، معلوم أنه أراد بذلك الكرم، وأما تنمة
البيت، فالدمسم الظاهر من القدر في ظاهرها تعافه النفس، ولفظة الدمسم سافلة بعيدة عن
حشمة الألفاظ.

وبيت بديعيتي:

قالوا طويل نجاد السيف قلت وكم لناره ألسن تكني عن الكرم

تقدم القول إن الناس كنوا بطول النجاد عن طول القامة؛ وبكثرة الرماد عن كثرة
القرى، ولكن الكناية بألسن النار عن كثرة الكرم والقرى لا تخفى استعارتها التي كادت
تقوم مقام الحقيقة من المحاسن الظاهرة، والله أعلم بالصواب.



(١) الهناة: واحدتها هنة وهي الضعف والعيب.

(٢) الصوارم: السيوف.

ذكر الجمع

آدابه وعطاياه ورأفته سجية ضمن جمع فيه ملتئم
هذا النوع، أعني الجمع: هو أن يجمع المتكلم بين شيئين فأكثر في حكم واحد،
كقوله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾^(١) جمع سبحانه وتعالى المال والبنون
في الزينة. ومنه قوله تعالى: ﴿الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان﴾^(٢)
فجمع بين الشمس والقمر في الحسبان، وجمع بين النجم والشجر في السجود. ومنه قوله
ﷺ: من أصبح آمناً في سربه معافاً في بدنه - ويروى في جسده - عنده قوت يومه، فكأنما
حيزت له الدنيا بحذافيرها، فجمع الأمن ومعافاة البدن وقوت اليوم في حوز الدنيا
بحذافيرها، وهي النواحي والواحد حذفار، ومنه قول الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة
فجمع بين الشباب والفراغ والجدة في المفسدة.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في الجمع قوله:

آراؤه وعطاياه ونقمته وعفوه رحمة للناس كلهم
وبيت العميان في بديعيتهم:

قد أحرز سبق والإحسان في نسق والعلم والحلم قبل الدرك للحلم

(١) الكهف، ٤٦/١٨.

(٢) الرحمن، ٥/٥٥ و٦.

وبيت الشيخ عز الدين:

للفصل والفضل والألطف منه يرى والعلم والحلم جمع غير منخرم^(١)
قلت: حشوا لفظة يرى، في بيت الموصلي، أذهب طلاوة الانسجام.

وبيت بديعيتي:

آدابه وعطاياه ورأفته سجية ضمن جمع فيه ملتئم



(١) المنخرم: المنقطع، والمثقوب والمثلثم.

ذكر السلب والإيجاب

إيجابه بالعطايا ليس يسلبه ويسلب المنّ منه سلب محتشم
هذا النوع، أعني السلب والإيجاب، ذكر ابن أبي الأصعب في «تحرير التحبير»: أنه
من مستخرجاته. ولكن رأيت لأبي هلال العسكري تقريراً حسناً على هذا النوع، وهو أن
يبني المتكلم كلامه على نفي شيء من جهة، وإثباته من جهة أخرى، والذي قرره ابن
أبي الأصعب، هو أن يقصد المادح أفراد ممدوحه بصفة لا يشركه فيها غيره، فينفيها في
أول كلامه عن جميع الناس، ويثبتها لممدوحه بعد ذلك، كقول الخنساء في أخيها:

وما بلغت كف امرئ متطاولاً من المجد إلا والذي نلت أطول
ولا بلغ المهدون للناس مدحة وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفضل

قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصعب: ويروى متناولاً، ونصبها على أنها مفعول
به، وما هنا أبلغ، وعلى هذه الرواية رسمنا هذا الشاهد. وأخذ أبو نواس معنى البيت
الثاني، ولكن لم يتمكن منه إلا في بيتين، ومع ذلك قصر عنه تقصيراً زائداً، فقال:

إذا نحن أثينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرت الألفاظ منا بمدحة لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني

هذا كله عين كلام الخنساء، ولكن فاته وإن أطنبوا في بيت الخنساء، وقولها: وما
بلغ المهدون، وكل هذه المبالغات قصر عنها أبو نواس، والفرق بين فأنت الذي نعني،
وبين الذي فيك أفضل ظاهر وأعظم الشواهد على هذا النوع قوله تعالى: ﴿فلا تقل لهما
أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً﴾^(٢) ومنه قول امرئ القيس:

(٢) الإسراء، ٢٣/١٧.

هضم الحشا لا يملأ الكف خصرها ويملاً منها كل حجل ودملج^(١)
وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته على هذا النوع:
أغرّ لا يمنع الراجلين ما طلبوا ويمنع الجار من ضيم ومن حرم
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم . وبيت الشيخ عز الدين قوله:
لم ينف ذماً بإيجاب المديح فتى إلا وعاقدت فيه الدهر بالسلم
وبيت بديعيتي:
إيجابه بالعطايا ليس يسلبه ويسلب المن منه سلب محتشم



(١) هضم الحشا: دقيقة الخصر - الحجل والدملج: الأساور والمجوهرات.

ذكر التقسيم

هذه تقسيمه حالي به صلحت حياً وميتاً ومبعوثاً مع الأمم

التقسيم: أول أبواب قدامة، وهو في اللغة مصدر قسمت الشيء إذا جزأته، وفي الاصطلاح اختلفت فيه العبارات والكل راجع إلى مقصود واحد، وهو ذكر متعدد ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين، ليخرج اللف والنشر، هذه عبارة صاحب التلخيص وذكر بعضها في الإيضاح.

وقال السكاكي: هو أن يذكر المتكلم شيئاً ذا جزأين أو أكثر ثم يضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عنده.

ومنهم من قال: هو أن يريد المتكلم متعدداً، أو ما هو في حكم المتعدد، ثم يذكر لكل واحد من المتعددات حكمه على التعيين.

وتعجبني بلاغة زكي الدين بن أبي الأصعب؛ فإنه قال: التقسيم عبارة عن استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾^(١) ليس في رؤية البرق غير الخوف من الصواعق، والطمع في الأمطار، ولا ثالث لهذين القسمين. ومن لطيف ما وقع في هذه الجملة من البلاغة، تقديم الخوف على الطمع، إذ كانت الصواعق لا يحصل فيها المطر في أول برقة، ولا يحصل إلا بعد تواتر البرقات، فإن تواترها لا يكاد يكذب، ولهذا كانت العرب تعد سبعين برقة ثم تتجمع، فلا تخطيء الغيث والكلأ، وإلى هذا المعنى أشار المتنبي بقوله:

وقد أرد المياه بغير هاد سوى عدي لها برق الغمام

(١) الرعد، ١٢/١٣.

فلما كان الأمر المخوف، من البرق، يقع في أول برقة، أتى ذكر الخوف في الآية الكريمة أولاً، ولما كان الأمر المطمع إنما يقع من البرق بعد الأمر المخوف، أتى ذكر الطمع في الآية الكريمة ثانياً، ليكون الطمع ناسخاً للخوف، لمجيء الفرج بعد الشدة. ومنه قوله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾^(١) فاستوفت الآية الكريمة جميع الهيئات الممكنات. ومنه قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾^(٢) فاستوفت الآية الكريمة جميع الأقسام التي يمكن وجودها، فإن العالم جميعه لا يخلو من هذه الأقسام الثلاثة. ومنه قوله تعالى: ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾^(٣) فالآية الشريفة جامعة لأقسام الزمان الثلاثة، ولا رابع لها، والمراد الحال والماضي والمستقبل فله ما بين أيدينا المراد به المستقبل، وما خلفنا المراد به الماضي، وما بين ذلك الحال.

وفي الحديث النبوي قوله ﷺ: ما لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت. ومنه قوله ﷺ: من أقام الصلاة كان مسلماً ومن آتى الزكاة كان محسناً ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً. فإنه صلوات الله عليه استوعب الوصف الذي من الدرجات العليا والوسطى والسفلى. ومنه قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أنعم على من شئت تكن أميره، واستغن عن من شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره. فإنه استوعب أقسام الدرجات، وأقسام أحوال الإنسان بين الفضل والكفاف والنقص.

ويحكى أن بعض وفود العرب قدم على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكان فيهم شاب فقام وتقدم في المجلس وقال: يا أمير المؤمنين أصابتنا سنون. سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أنقت العظم، وفي أيديكم فضول أموال، فإن كانت لنا لا تمنعونا، وإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لكم فتصدقوا إن الله يجزي المتصدقين. قال عمر بن عبد العزيز: ما ترك لنا الأعرابي في واحدة عذراً.

ووقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال: رحم الله من تصدق من فضله، أو واسى من كفاف، أو آثر من قوت. قال الحسن: ما ترك الأعرابي في واحدة عذراً.

(١) آل عمران، ١٩١/٣.

(٢) فاطر، ٣٢/٣٥.

(٣) مريم، ٦٤/١٩.

ومن النظم قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله
ولكنني عن علم ما في غد عم^(١)
ونقل أبو نواس جد زهير إلى الهزل، فقال:

أمر غدٍ أنت منه في لبس
فإنما الشأن شأن يومك ذا
وقال ابن حيوس، وأجاد في تقسيمه:

ثمانية لم يفترقن جميعها
ضميرك والتقوى وكفك والندی
فلا افترت ما ذب عن ناظر شقر^(٣)
ولفظك والمعنى وسيفك والنصر

ومنه قول الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض، قدس الله روحه:

يقولون لي صفها فأنت بوصفها
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى
خير أجل عندي بأوصافها علم
ونور ولا نار وروح ولا جسم

وأشدد سيويه بيتاً بديعاً على هذا الباب، وهو قوله:

فقال فريق القوم لا وفريقهم
ويعجبني قول الحماسي في هذا الباب:

وهبها كشيء لم يكن أو كنازح
ويعجبني قول، أبي تمام في مجوسي أحرق بالنار:

صلى لها حياً وكان وقودها
ومنه قول عمرو بن الأهتم:

اشربا ما شربتما فهذيل
وبيت صفي الدين مأخوذ من قول عمرو بن الأهتم:

أفنى جيوش العدا غزواً فلست ترى
سوى قتيل ومأسور ومنهزم

(١) عم: جاهل.

(٢) ابنة الشمس: من أسماء الخمرة.

(٣) ذب: دافع وحامي - الشقر: الأمر المهم.

وبيت العميان في بديعيتهم:

غيثان أما الذي من فيض أنمله فدائم والذي للمزن لم يدم

وبيت الشيخ عز الدين:

تقسيمه الدهر يوماً أمسه كغد في الحلم والجود والإيفاء للذمم

قلت: قد تقدم شرح هذا النوع، وتقرر أن الاثنين في التقسيم لا يمكن أن يكون لهما ثالث، والثلاثة لا يجوز أن يكون لها رابع. وقد تقدم في الاثنين قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾^(١) وليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في المطر. وتقدم في تقسيم الثلاثة قول النبي ﷺ: ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأنتيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت. ولا رابع لهذه الثلاثة.

ورأيت باب الزيادة في بيت الشيخ عز الدين مفتوحاً، فإنه يحتمل الحلم والجود وإيفاء الذمم والشجاعة والصبر والقناعة والدين وهلم جراً. وتقدم أن بيت صفي الدين الحلبي مأخوذ من بيت عمرو بن الأهم:

إشربا ما شربتما فهذيل من قليل أو هارب أو أسير

فهذه الثلاثة لا تحتمل رابعاً. وكذلك بيت صفي الدين، فإنه مأخوذ من هنا. وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

هداه تقسيمه حالي به صلحت حياً وميتاً ومبعوثاً مع الأمم

وهذه الثلاثة أيضاً لا يمكن أن يكون لها رابع، وهذا النوع ليس في تحصيله على واضعه مشقة زائدة على حذاق الأدب، لا سيما مثل الشيخ عز الدين. والذي أقوله إنه لم تضق عليه المسالك إلا بالتزام التورية في تسمية النوع، والله أعلم.



(١) الرعد، ١٢/١٣.

ذكر الإيجاز

أوجز وسل أول الأبيات عن مدح فيه وسل مكة يا قاصد الحرم
هذا النوع، أعني الإيجاز، اعتنت به فصحاء العرب وبلغاؤها كثيراً، فإنهم كانوا إذا
قصدوا الإيجاز أتوا بالفاظ استغنوا بواحدتها عن ألفاظ كثيرة، كأدوات الاستفهام والشروط
وغير ذلك. فقولك: أين زيد؟ مغن عن قولك أزيد في الدار أم في المسجد، إلى أن
تستقري جميع الأماكن. وقولك: من يقيم أقم معه، مغن عن: إن يقيم زيد أو عمرو أقم
معه. وما بالدار من أحد، مغن عن قولك: ليس فيها زيد ولا عمرو. فغالب كلام العرب
مبني على الإيجاز والاختصار، وأداء المقصود من الكلام بأقل عبارة.

وهذا النوع على ضربين: إيجاز قصر، وإيجاز حذف. فإيجاز القصر: اختصار
الألفاظ، وهو كقوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾^(١) فهذا اللفظ الوجيز المعجز
المختصر، غاية في الإيجاز والإيضاح والإشارة والكناية والطباق وحسن البيان والإبداع
ومنه قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء
والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾^(٢) وعظ في ذلك بالطف موعظة، وذكر بالطف
تذكرة، واستوعب جميع أقسام المعروف والمنكر، وأتى بالطباق اللفظي والمعنوي،
وحسن النسق والتسليم، وحسن البيان والإيجاز، واثتلاف اللفظ ومعناه، والمساواة وصحة
المقابلة وتمكين الفاصلة. ومن ذلك قول الشاعر:

يا أيها المتحلي دون شيمته إن التخلق يأتي دونه الخلق

(١) البقرة، ١٧٩/٢.

(٢) النمل، ٩٠/١٦.

وإيجاز الحذف: عبارة عن حذف بعض لفظه، لدلالة الباقي عليه، كقوله تعالى: ﴿وسئل القرية التي كنا فيها﴾^(١) وكقول الشاعر:

ورأيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحاً
أي ومعتقلاً رمحاً. ومثله قول الشاعر: علفتها تبناً وماء بارداً.
أي وسقيتها ماء بارداً.

وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته على الإيجاز:

واستخدم الموت ينهاه ويأمره بعزم مغتتم في زي مغتتم
تقديره بعزم رجل مغتتم، ومثله في زي مغتتم، ولكنه ما تحته في بلاغة الإيجاز
كبير أمر.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وقول الشيخ عز الدين:

وسل زمانك تلف الكتب راوية إيجاز معنى طويل الذكر مرتسم^(٢)

الشيخ عز الدين إيجازه: وسل زمانك، أي أهل زمانك، وأما بقية البيت فلا أفهم له معنى، فإن البيت الذي قبله متعلق بمدح النبي ﷺ، ماشٍ في أثر الأبيات التي قبله، وأما رواية الكتب لإيجاز هذا المعنى الطويل المرتسم، فإنه نوع من المعميات، والله أعلم.

وأما بيت بديعيتي فهو قولِي عن النبي ﷺ:

أوجز وسل أول الأبيات عن مدح فيه وسل مكة يا قاصد الحرم

الضمير في لفظة فيه عائد إلى النبي ﷺ، والإيجاز البديع البليغ الغريب في قولِي: وسل أول الأبيات، فإنه إشارة إلى أول بيت وضع للناس، والإيجاز الثاني في قولِي: وسل مكة أي وسل أهل مكة، فهذا البيت المبارك فيه إيجازان بليغان، وفيه التورية بتسمية النوع، وفيه المناسبة البديعة بين مكة والبيت والحرم، ومراعاة النظير أيضاً بين الإيجاز والمدح والإثبات، وفي الأبيات تورية أخرى، ونوع التمكين في القافية ظاهر.

(١) يوسف، ٨٢/١٢.

(٢) تَلَفٌ: تجدد.

ذكر المشاركة

بالحجر ساد فلا ند يشاركه حجر الكتاب المبين الواضح اللقم^(١)

هذا النوع، أعني الاشتراك، جعله ابن رشيقي وابن أبي الأصبع ثلاثة أقسام: قسمان منها من العيوب والسرقات، وقسم من المحاسن: وهو أن يأتي الناظم في بيته بلفظة مشتركة بين معنيين اشتراكاً أصلياً، أو فرعياً، فيسبق ذهن سامعها إلى المعنى الذي لم يرد الناظم، فيأتي في آخر البيت بما يؤكد أن المقصود غير ما توهمه السامع، كقول كثير عزة:

وأنت الذي حببت كل قصيرة إليّ ولم تعلم بذاك القصائر^(٢)

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطا شر النساء الحباتر^(٣)

فإنه أثبت في البيت الثاني ما أزال به وهم السامع من أنه أراد القصار مطلقاً، وقد يلتبس الاشتراك بالتوهم على من لا يحققه، والفرق بينهما أن الاشتراك لا يكون إلا باللفظة المشتركة، والتوهم يكون بها وبغيرها من تحريف أو تصحيف أو تذييل، والفرق بينه وبين الإيضاح أن الإيضاح في المعاني خاصة، لا تعلق له بالألفاظ، وهذا نوع اشتراك اللفظة. وبيت الشيخ صفي الدين على هذا النوع قوله:

شيب المفارق يروى الضرب من دمهم ذوائب البيض بيض الهند لا للمم

(١) اللقم: الطريق والنهج.

(٢) القصائر: النساء المقصورات في خدورهن.

(٣) الحَبَاتِر: القصار. مفردتها حُبَاتِر وحَبْتِر.

هذا البيت الاشتراك فيه بين البيض، فلولا بيض الهند التي ترشح بها جانب السيوف، بذكر الهند، لسبق ذهن السامع إلى أنه أراد الذوائب البيض، ولكن بيت الشيخ صفي الدين لم يخل من بعض عقادة.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

وللغزاة تسليم به اشتركت مع التي هي ترعى نرجس الظلم

هذا البيت يصلح أن يعد من باب الإشارة في الجناس المعنوي، فإن الشيخ عز الدين أضمر أحد الركنين وأظهر الآخر، وهذا حد جناس الإشارة من المعنوي، فإنه ذكر الغزاة في أول البيت وأضمر الغزاة الشمسية في الشطر الثاني، وهذا النوع تقدم تقريره، ولو صرح الشيخ عز الدين في الشطر الثاني بلفظة الغزاة، وذكر معها الإشراق والنور بحيث يزيل وهم السامع أن المراد الغزاة الوحشية، ويتحقق أن المراد الغزاة الشمسية، أو بالعكس، كان نوع الاشتراك في بيته خالصاً، مع ما فيه من النظر، وهو أن كلاً من الغزالتين سلم على النبي ﷺ، ولكنه أظهر لفظ الغزاة الثانية، فتحتم أنه صار جناساً معنوياً، ولعمري إنه أحسن من بيته الذي استشهد فيه على الجناس المعنوي في أول بديعته:

وكافر نعم الإحسان في عدل كظلمة الليل عن ذا المعنوي عمي

فإنه أظهر في أول البيت لفظة كافر، والليل يسمى كافراً، فأضمر لفظة كافر الذي هو الليل، وتالله إن بيته الذي نظمه شاهداً على نوع الاشتراك يستحق الجناس المعنوي، استحقاقاً ذوقياً وهو أسجَم من هذا البيت وأرق للمعنى وأوقع في الأسماع. وبيت بديعتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

بالحجر ساد فلا ند يشاركه حجر الكتاب المبين الواضح اللقم

هذا البيت يجب أن يعتمد عليه في هذا النوع، ولا يخفى على أهل الذوق السليم ما في تركيبه. والعميان ما نظموا في بديعيتهم. وبيت عز الدين تقرر أن الجناس المعنوي أحق به، واشتراك بيتي في لفظة الحجر، فأني قلت في أول بيتي بالحجر ساد وهذه اللفظة مشتركة بين العقل وسورة الحجر، فلما قلت في الشطر الثاني: حجر الكتاب المبين، زال الالتباس عن السامع وعلم المراد، وترشح عنده جانب السورة المنزلة على الممدوح فيه ﷺ.

ذكر التصريح

تصريح أبواب عدن يوم بعثهم يلقاه بالفتح قبل الناس كلهم
هذا النوع، أعني التصريح: هو عبارة عن استواء آخر جزء في صدر البيت، وآخر
جزء في عجزه في الوزن والروي والإعراب، وهو أليق ما يكون بمطالع القصائد، وفي
وسطها ربما تمجه الأذواق والأسماع. وهذا وقع في معلقة امرئ القيس فإنه صرع
المطلع بقوله:

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(١)
وقال في أثناء هذه القصيدة:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل
قلت: وعلى كل تقدير، ليس في نوع التصريح كبير أمر حتى يعد من أنواع البديع،
ولكن القوم كلما تغالوا في الرخص رغبوا في الكثرة. وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي:

لاقاهم بكماة عند كرههم على الجسم دروع من قلوبهم^(٢)
والعميان ما نظمهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

لا زال بالعزمات العز والهمم يصرع الضد بالتشطير في القمم

(١) سقط اللوى والدخول وحومل: أسماء أماكن في الصحراء.

(٢) الكماة: الأبطال الشجعان.

وبيت بديعيتي أشير فيه إلى النبي ﷺ:

تصريع أبواب عدن يوم بعثهم يلقاه بالفتح قبل الناس كلهم

أنظر أيها المتأمل المنصف إلى بديع التورية وترشيحها، عند ذكر الأبواب بالفتح، هو فتوح في هذا الباب، مع سهولة التركيب، وحسن الانسجام، وتمكين القافية.



ذكر الاعتراض

فلا اعتراض علينا في محبته وهو الشفيق ومن يرجوه يعتصم
هذا النوع، أعني الاعتراض، هو عبارة عن جملة تعترض بين الكلامين، تفيد زيادة
في معنى غرض المتكلم. ومنهم من سماه الحشو، وقالوا في المقبول منه: حشو
اللوزينج، وليس بصحيح، والفرق بينهما ظاهر، وهو أن الاعتراض يفيد زيادة في غرض
المتكلم والناظم، والحشو إنما يأتي لإقامة الوزن لا غير. وفي الاعتراض من السحاسن
المكملة للمعاني المقصودة ما يتميز به على أنواع كثيرة، ومن معجزه في القرآن: ﴿فإن
لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾^(١). ومنه قوله تعالى:
﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾^(٢) ومن الشواهد الشعرية قول
بعضهم:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
فقوله: وبلغتها، من الاعتراضات التي زادت المعنى فائدة في غرض الشاعر، وهو
الدعاء للمخاطب، وأمثله كثيرة، وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي يقول فيه عن النبي
ﷺ:

فإن من أنفذ الرحمن دعوته وأنت ذاك لديه الجار لم يضم^(٣)

(١) البقرة، ٢٤/٢.

(٢) الواقعة، ٧٦/٥٦.

(٣) أنفذ: جح - يضم: يصاب بالضميم وهو الضيق والهوان.

فقوله: وأنت ذاك ، هو الاعتراض بعينه ، فإنه زاد المعنى . وسماه قدامة التفاتاً ، وهو قريب .

والعميان ما نظموه . وبيت الشيخ عز الدين :

فلا اعتراض علينا في السؤال به أعني الرسول لكي ننجو من الضرم^(١)

فقول الشيخ عز الدين : أعني الرسول ، هو الاعتراض الذي أراده . وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ :

فلا اعتراض علينا في محبته وهو الشفيح ومن يرجوه يعتصم

فقولي ، بين الكلامين : هو الشفيح ، هو الاعتراض البديع المتمكن ، فإن في قول عز الدين : أعني الرسول ، ركة تدل على ضعف التركيب ، وكذلك قول الشاعر في مخلص مديحه : أعني فلاناً ، يدل على ضعف رويته وقلة تصرفه ، فإنهم عدوا ذلك من المخالص الواهية ، ولم يجنح إليه إلا عوام أهل الأدب ، ومثل الشيخ عز الدين ينتقد عليه ذلك والله أعلم .



(١) الضرم: النار والاحتراق بها.

ذكر الرجوع

وما لنا من رجوع عن حماه بلى لنا رجوع عن الأوطان والحشم^(١)
هذا النوع، أعني الرجوع، ذكره ابن المعتز وأبو هلال العسكري، وسماه بعضهم
استدراكاً واعتراضاً، وليس بصحيح. قال القاضي جلال الدين القزويني في «التلخيص
والإيضاح»: هو العود على الكلام السابق بالنقض لنكته، كقول زهير:

قف بالديار التي لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم^(٢)
والنكته فيه، كأنه لما وقف بالديار عرته روعة ذهل بها عن رؤية ما حصل لها من
التغير، فقال لم يعفها القدم، ثم رجع إلى عقله وتحقق ما هي عليه من الدروس، فقال
بلى عفت، وعليه بيت الحماسة:

أليس قليلاً نظرة إن نظرتها إليك وكل ليس منك قليل
ويعجبني هنا قول أبي البيداء:

وما لي انتصار إن غدا الدهر جائراً عليّ بلى إن كان من عندك النصر
وأما من سمى هذا النوع استدراكاً واعتراضاً، فتسميته غير صحيحة، والذي أقول:
إن هذا الرجوع لا فرق فيه بين السلب والإيجاب، وقد تقدم قول أبي هلال العسكري:
إن السلب والإيجاب هو أن يبني المتكلم كلامه على نفي شيء من جهة، وإثباته من جهة

(١) الحشم: العيال والأهل والتابعون.

(٢) يعفها: يبلها - القدم: العتق - الأرواح: الرياح - الديم: الأمطار.

أخرى. وقال القاضي جلال الدين: الرجوع هو العود على الكلام السابق بالنقض، وكل من التقريرين لائق النوعين، وللمأمل أن ينظر في ذلك ليحسن ذوقه.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي:

أطلتها ضمن تقصيري فقام بها عذري وهيهات إن العذر لم يتم
وبيت العميان:

قلوا ببدر ففلوا غرب شائهم به وما قل جمع بالرسول حمي^(١)
وبيت الشيخ عز الدين:

رمت الرجوع عن الأمداح أنظمها سوى مديح سديد القول محترم^(٢)
قلت: ليس في بيت الشيخ عز الدين رجوع، إلا عن حشمة الألفاظ وفخامتها في مديح النبي ﷺ، فإن قوله: سديد القول، دون من أنزل الله القرآن في أوصافه.
ويعجبني قول ابن نباتة في لاميته:

ماذا عسى الشعراء اليوم مادحة من بعد ما مدحت حم تنزيل^(٣)
وأيضاً، فإنه كان يجب على الشيخ عز الدين أن يقول في النوع البديعي، الذي هو الرجوع: رجعت عن الأمداح، حتى يصح النقض في الشطر الثاني، وإنما قال: رمت، كأنه يرى أن يرجع. وعلى الجملة، فالبيت قاصر من كل وجه.

وبيت بديعيتي أشير فيه إلى النبي ﷺ بقولي:

وما لنا من رجوع عن حماه بلى لنا رجوع عن الأوطان والحشم
هذا البيت لم يحتج إلى إطلاق عنان القلم في ميادين الطروس، بوصف ما فيه من المحاسن، إذ في مدح أهل الذوق، من علماء هذا الفن، ما يغني عن ذلك والله أعلم.

(١) فلوا: قطعوا والغرب: العزيمة والقوة - الشانئ: العدو المبغض - حمي: إحتمى.

(٢) رام: طلب وأراد - سديد القول: صائبه.

(٣) حم تنزيل: من سور القرآن الكريم وفيها مدح للنبي محمد ﷺ.

ذكر الترتيب

ترتب الحيوانات السلام له والنبت حتى جماد الصخر في الأكم^(١)

هذا النوع، أعني الترتيب، من استخراجات التيفاشي، ذكره في كتابه وسماه بهذا الاسم، وقال: هو أن يجنح الشاعر إلى أوصاف شتى في موضوع واحد، أو في بيت وما بعده على الترتيب، ويكون ترتيبها في الخلقة الطبيعية، ولا يدخل الناظم فيها وصفاً زائداً عما يوجد علمه في الذهن أو في العيان، كقول مسلم بن الوليد:

هيفاء في فرعها ليل على قمر على قضيب على حقف النقا الدهس^(٢)

فإن الأوصاف الأربعة على ترتيب خلقة الإنسان، من الأعلى إلى الأسفل.

وبيت صفي الدين الحلبي:

كالنار منه رياح الموت إن عصفت روى صرى مائه أرض الوغى بدم^(٣)

ترتيب بيت صفي الدين على العناصر الأربعة، وهي الماء والنار والهواء والتراب.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين:

له الملائك والإنسان أجمعهم والجن والوحش في الترتيب كالخدم

(١) الأكم: التلال والأمكنة المتكاثفة الأشجار.

(٢) حقف النقا: كتيب الرمل - الدهس: غير الصافي. أي الممزوج بالتراب وغيره.

(٣) الصرى: المحبوس والمجتمع في مكان ما - الوغى: الحرب.

هذا البيت، ذكر الشيخ عز الدين في شرحه أنه على ترتيب المخلوقات: الملائك والإنس والجن والوحش، ولكن وضع هذا الترتيب غير منتظم على ما قرره التيفاشي.

وبيت بديعتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

ترتب الحيوانات السلام له والنبت حتى جماد الصخر في الأكم

معلوم أن الموجودات ثلاثة، وهي حيوان ونبات وجماد، والثلاثة على ترتيب خلقة الإنسان من الأعلى إلى الأسفل، فإذا قلنا: جسم نام، خرج الجماد لأنه لا ينمو، وإذا قلنا: جسم نام متحرك بإرادته، خرج النبات، وإذا قلنا: جسم نام متحرك بإرادته ناطق، خرج باقي الحيوان وبقي الإنسان، وهذا حده. والله أعلم بالصواب.



ذكر الاشتقاق

محمد أحمد المحمود مبعثه كل من الحمد تبين اشتقاقهم

هذا النوع، أعني الاشتقاق، استخرجه الإمام أبو هلال العسكري، وذكره في آخر أنواع البديع من كتابه المعروف «بالصناعتين»، وعرفه بأن قال: هو أن يشتق المتكلم من الاسم العلم معنى، في غرض يقصده، من مدح أو هجاء أو غيره، كقول ابن دريد في نبطويه:

لو أوحى النحو إلى نبطويه ما كان هذا العلم يعزى إليه
أحرقه الله بنصف اسمه وصير الباقي صياحاً عليه (١)

وهذا النوع، ما ذكره القاضي جلال الدين القزويني في «التلخيص» ولا في «الإيضاح»، ولا ذكره الشهاب محمود في «حسن التوسل»، ولا نظمته العميان ولا غيرهم من أصحاب البديعيات، غير الشيخ صفى الدين الحلبي، وبيت بديعته، التي ذكر أنه جمعها من سبعين كتاباً، قوله:

لم يلق مرحب منه مرحباً ورأى ضد اسمه عند هذ الحصن والأطم (٢)

الشيخ صفى الدين اشتق من اسم مرحب، الترحاب، حتى يقابله بضده، وهذا هو الغرض الذي أراد الناظم، وبيت الشيخ عز الدين في المعارضة قوله:

(١) ذلك أن النصف الأول لاسمه هو: نبط ومعناه البترول تلك المادة المشتعلة. والنصف الآخر: وبه وهي للندبة.

(٢) الأطم: الحصون - ومرحب هو الفارس اليهودي الذي قتله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يوم فتح حصن خيبر

ميم وحا في اشتقاق الاسم محو عدا والميم والبدال مد الخير للأمم

هذا البيت يشق عليّ أن أشرح اشتقاقه، وأذكر ما فيه من التعسف والزيادة، وعدم القبول للتجريد، فإنه أراد أن يمشي على طريق ابن دريد في الاشتقاق، فلم يأت بغير الشقاق، وما ذاك إلا أن اسم نفظويه سداسي، قسمه الناظم في الاشتقاق نصفين: جعل النصف الأول نفظاً، والثاني صياحاً، وهذا الاشتقاق صحيح على هذا التفصيل، وقالوا هو في محمد رباعي من أين للشيخ عز الدين، غفر الله له، هذا حتى تصح معه لفظة محو، مع أنني راجعت شرحه فوجدته قال: الميم والحاء، من اسم محمد ﷺ، فيهما محو لأعدائه، وأيضاً فلم نجد أحداً استشهد، في بيت من بيوت بديعته وصدّر بيته، بقوله: ميم وحا في اشتقاق الاسم محو عدا، إلا الشيخ عز الدين، فإن المراد من بيت البديعية أن يكون صالحاً للتجريد خالياً من العقادة، ليصح الاستشهاد به على ذلك النوع.

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ :

محمد أحمد المحمود مبعثه كل من الحمد تبين اشتقاقهم

قد تقدم تقرير أبي هلال العسكري، في هذا النوع، وهو أن يشق المتكلم معنى لغرض يقصده. والغرض هنا، إن كلاً من محمد وأحمد وصفتهما المحمودة مشتق من الحمد، وشرف هذا المدح ظاهر. والله أعلم.



ذكر الاتفاق

ووصفه لابنه قد جاء تسمية فإنه حسن حسب اتفاهم
الاتفاق: عزيز الوقوع جداً، وهو أن تتفق للشاعر واقعة وأسماء مطابقة لتلك الواقعة
تعلمه العمل في نفسها، إما بالمشاهدة؛ أو بالسمع، فإن سبق إلى معاني الوقائع،
يشارك الناس في مشاهدتها وفي سماعها فضل لا يجحد، وإن حصل للشاعر في ذلك
قران سعادة، سارت الركبان بقوله، وترنم الحادي والملاح به، كما اتفق للرضي بن أبي
حصينة المصري، في حسام الدين لؤلؤ صاحب الملك الناصر، يوسف، حين غزا
الفرنج الذين قصدوا الحجاز من بحر القلزم، فظفر الحاجب بهم فقال ابن أبي حصينة
يخاطب الفرنج:

عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه والدر في البحر لا يخشى من الغير

وأحسن من ذلك وأبدع، ما اتفق للشيخ شمس الدين الكوفي، الواعظ، في الوزير
مؤيد الدين العلقمي حيث قال:

يا عصابة الإسلام نوحى والطمي حزناً على ما حل بالمستعصم
دستُ الوزارة كان قبل زمانه لابن الفرات فصار لابن العلقمي^(١)

فاتفق أن المذكورين كانا وزيرين، وأن المورى بهما [الفرات والعلقمي] نهران
معروفان، وقد طابق الناظم بينهما بالفرات الحلو والعلقم المر.

(١) دست الوزارة: منصبها.

ومنه قول ابن الساعاتي، وقد حضر الملك الناصر بيت يعقوب من حصون الشام، يخاطب الفرنج: دعوا بيت يعقوب فقد جاء يوسف.

ومنه قول ابن أبي الأصبغ، وقد اجتمع الملك الأشرف موسى بالملك الظاهر، وهو الخضر بن يوسف بن أيوب:

غدا مجمع البحرين شاطي فراتنا ألم تر موسى فيه قد لقي الخضر
واتفق لي مع الملك ما يناسب هذه الاتفاقات البديعية، فإني أنشدته، وقد كسر
النيل في شهر مسرى، وبلغه في يوم الكسران نوروز قد وصل من الشام إلى غزة، وقصد
الديار المصرية، فقلت:

أيا ملكاً بالله أضحي مؤيداً ومنتصباً في ملكه نصب تمييز
كسرت بمسرى نيل مصر وتنقضي وحقك بعد الكسر أيام نيروز^(١)

الاتفاق البديع الغريب، في هذا البيت، أن كسر نوروز بعد كسر مسرى، ويسميه
المصريون: الكسر النيروزي، ولم يبق بعده كسر. واتفق لي نظير ذلك بالحضرة المؤيدية
وهو أن المقر التاجي، نائب السلطنة الشريفة، نقل عنه إلى المسامع الشريفة كلام، فثبت
فيه براءته فأنشدته الحضرة الشريفة المؤيدية ما حصل به للخواطر الشريفة الرضا الزائد،
وهو قولي:

سبع وجوه لتاج مصر تقول ما في الوجوه شبيهي
عندنا ذو الوجوه يُهجي وأنت تاج بفرد وجه

وبيت الشيخ صفى الدين في بديعته على هذا النوع:

ومن غدا اسم أمه نعتاً لأمته فتلك آمنة من سائر النقم
اتفاق هذا البيت في اشتراك لفظي آمنة وآمنة. والعميان ما نظموا هذا النوع في
بديعيتهم.

وبيت الشيخ عز الدين الموصللي في بديعته قوله:

محمد واسمه بالاتفاق له وصف يشاكلة في اسمه العلم

وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ، وأذكر فيه وصفه الشريف لابنه الحسن^(٢)

(١) المسرى: المجرى - النيروز: عيد الربيع عند الإيرانيين ويصادف رأس السنة الفارسية.

(٢) الحسن والحسين عليهما السلام هما ابنا علي بن أبي طالب عليه السلام ولكن النبي محمداً ﷺ

رضي الله عنه:

ووصفه لابنه قد جاء تسمية فإنه حسن حسب اتفاقهم
اتفاق هذا البيت في اشتراك لفظي: حسن وحسن الوصف، هو أن النبي ﷺ أشار
إلى الحسن رضي الله عنه، وقال: إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين
من المسلمين. اهـ.



= كان يقول إنها إبناه إشعاراً للمسلمين بقربهما له وبأنهما من ورثته فهما ابنا بنته فاطمة الزهراء
عليها السلام والتي كان يقول فيها: فاطمة بضعة مني، ... وفاطمة أم أبيها.. من أغضبها فقد
أغضبني ومن أغضبني فقد أغضب الله.

ذكر الإبداع

إبداع أخلاقه إبداع خالقه في زخرف الشعر فاسجع بها وهم^(١)

الإبداع: هو أن يأتي الشاعر في البيت الواحد بعدة أنواع، أو في القرينة الواحدة من النثر وربما كان في الكلمة الواحدة ضربان من البديع، ومتى لم يكن كذلك فليس بإبداع، كقوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾^(٢). هذه الآية الشريفة استخرج منها زكي الدين بن أبي الأصعب أنواعاً كثيرة من البديع منها: المناسبة التامة بين ابلعي وأقلعي، والمطابقة اللطيفة بين الأرض والسماء، والمجاز في قوله: ويا سماء، ومراده مطر السماء، والاستعارة في قوله: أقلعي، والإشارة في قوله تعالى: وغيض الماء، فإنه بهاتين اللفظتين عبر عن معان كثيرة، والتمثيل في قوله تعالى: وقضي الأمر، فإنه عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بغير لفظ الموضوع له، والإرداف في قوله تعالى: واستوت على الجودي، فإنه عبر عن استقرارها في المكان بلفظ قريب من لفظ المعنى، والتعليل، لأن قوله تعالى: غيض الماء، علة الاستواء، وصحة التقسيم، إذ قد استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه، والاحتراس، في قوله تعالى: وقيل بعداً للقوم الظالمين، إذ الدعاء عليهم مشعر بأنهم مستحقون الهلاك، احتراساً من ضعيف يتوهم أن الهلاك شمل من يستحق ومن لا يستحق، فأكد بالدعاء على المستحقين، والمساواة، لأن لفظ الآية الشريفة لا يزيد على معناها، وحسن النسق، لأنه سبحانه وتعالى قص القصة،

(١) هم: أمر من هام بهيم أي أحب حباً شديداً.

(٢) هود، ٤٤/١١.

وعطف بعضها على بعض، بحسن ترتيب، وائتلاف المعنى، لأن كل لفظة لا يصلح معها غيرها، والإيجاز، لأنه سبحانه وتعالى قص القصة بأقصر عبارة، والتسهيم، لأنه من أول الآية إلى قوله: أقلعي، يقتضي آخرها، والتهذيب، لأن مرادات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، وعليها رونق الفصاحة لسلامتها من التعقيد والتقديم والتأخير، والتمكين، لأن الفاصلة مستقرة في قرارها مطمئنة في مكانها، والانسجام، وهو تحدر الكلام بسهولة، كما ينسجم الماء، وباقي مجموع الآية الشريفة هو الإبداع الذي هو المراد هنا، مع تكرار الأنواع البديعية.

وسهوت عن تقديم حسن البيان، وهو أن السامع لا يتوقف في معرفة معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء من هذه النظائر، وهذا الكلام تعجز عنه قدرة البشر.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعته على الإبداع قوله:

ذل النضار كما عز النظر لهم بالفضل والبذل في علم وفي كرم^(١)

الشيخ صفي الدين في بيته من أنواع البديع: التجنيس، والتسجيع، واللف والنشر، والكناية عن الكرم، في قوله: ذل النضار، وائتلاف المعنى مع المعنى.

والعميان ما نظموا هذا في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي ذكر فيه ستة عشر نوعاً، ما أمكن العبد استيعابها، وتركته لحذاق الأدب، وهو قوله:

كم أبدعوا روض عدل بعد طولهم وأترعوا حوض فضل قبل قولهم
وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ:

إبداع أخلاقه إبداع خالقه في زخرف الشعر فاسجع بها وهم

الشرط الأول من هذا البيت مشتمل على: التورية، وعلى جناس التصحيف، وعلى الجناس المطلق، وعلى الترصيع، والمماثلة، والتسجيع، وائتلاف المعنى مع المعنى، والسهولة. والشرط الثاني فيه: التورية، ومراعاة النظر، والاعتراض، والانسجام ظاهر في البيت بكماله، والإبداع الذي هو المراد هنا، والله أعلم.

(١) النضار: الجود والكرم.

ذكر المماثلة

فالخير مائله والعفو جاوره والعدل جانسه في الحكم والحكم
هذا النوع، أعني المماثلة: هو أن تتماثل ألفاظ الكلام، أو بعضها، في الزنة دون
التقفية، كقوله تعالى: ﴿والسما والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب إن كل نفس
لما عليها حافظ﴾^(١) وقد تأتي بعض ألفاظ المماثلة مقفاة من غير قصد، لأن التقفية في
هذا الباب غير لازمة، كقول امرئ القيس:

كان المدام وصبوب الغمام وريح الخزامى ونشر العطر
وأما الشاهد الذي هو على أصل هذا الباب في الزنة دون التقفية، فكقول الشاعر:

صفوح صبور كريم رزين إذا ما العقول بدا طيشها^(٢)

والفرق بين المماثلة والمناسبة توالي الكلمات المتزنة وتفرقها في المناسبة، قلت:
هذا النوع، أعني المماثلة، ما تستحق عقود أنواع البديع، بسموها، أن يتنظم النوع
السافل في أسلاكها، وما أعلم وجه الإبداع فيه ما هو، ولا نرى من استخراجها وعده بديعا
غير الكثرة، وقد حسن أن أنشد ههنا:

* وكثر فارتابت ولو شاء قللا *

وبالله ما اختلج في فكري من حين تأدبت أن أرصعه في قصيدة من قصائدي،
ولكن حكم المعارضة أوجب ذلك.

(١) الطارق، ٣١/٨٦.

(٢) الصفوح: المتسامح المتساهل - الرزين: الوقور العاقل.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي :

سهل خلأئقه صعب عرائكه جم غرائبه في الحكم والحكم^(١)

والعميان ما نظموا. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي :

ييدي مماثلة يعطي مناسبة يجزي مجانسة في الكلم والكلم

وبيت بديعيتي :

فالخير مائله والعمفو جاوره والعدل جانسه في الحكم والحكم



(١) العرائك: جمع عريكة وهي العشرة والمعاملة - جم: كثير.

ذكر حصر الجزئي وإحاطه بالكلي

الحق بحصر جميع الأنبياء به فالجزء يلحق بالكلي للعظم

هذا النوع الغريب اخترعه الشيخ زكي الدين بن أبي الأصعب، وهو أن يأتي المتكلم إلى نوع فيجعله، بالتعظيم له، جنساً، بعد حصر أقسام الأنواع فيه والأجناس، كقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر﴾^(١) فإنه سبحانه وتعالى يعلم ما في البر والبحر، من أصناف الحيوانات والجماد حاصر الجزئيات المولدات، فرأى الاقتصار على ذلك لا يكمل به التمدح، لاحتمال أن يظن ضعيف أنه جلّ جلاله بعلم الكلّيات دون الجزئيات، فإن المولدات وإن كانت جزئيات بالنسبة إلى جملة العالم، فكل واحد منها كلي بالنسبة إلى ما تحته من الأجناس والأنواع والأصناف، فقال، لكمال التمدح: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾^(٢). وعلم سبحانه وتعالى أن علم ذلك يشاركه فيه كل ذي إدراك، فتمدّح بما لا يشاركه فيه أحد فقال عز من قائل: ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾^(٣) ثم ألحق هذه الجزئيات بالكلّيات فقال: ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾^(٤) وأمثاله من النظم قول الشاعر:

قصارى المطايا أن يلوح لها القصر
ثلاثة أشباه كما اجتمع الشسر
ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

إليك طوى عرض البسيطة جاعل
فكنت وعزمي في الظلام وصارمي
فبشرت آمالي بملك هو الوري

(١) الأنعام، ٥٩/٦.

(٢) الأنعام، ٥٩/٦.

(٣) الأنعام، ٥٩/٦.

(٤) الأنعام، ٥٩/٦.

المراد من النوع، البيت الثالث، فإن الشاعر قصد تعظيم الممدوح وتفخيم أمر داره التي قصد فيها، ومدح يومه الذي لقيه فيه، فجعل الممدوح جميع الوري، وجعل داره الدنيا، ويومه الدهر، فجعل الجزء كلياً بعد حصر أقسام الجزئي، أما جعله الجزئي كلياً فلأن الممدوح جزء من الوري، والدار جزء من الدنيا، واليوم جزء من الدهر. وأما حصر أقسام الجزئي، فلأن العالم عبارة عن أجسام وظروف زمان وظروف مكان، وقد حصر ذلك، وهذا النوع صعب المسالك في نظمه، عزيز الوقوع والتحصيل، وقد فر العميان من نظمه.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي فيه:

شخص هو العالم الكلي في شرف ونفسه الجوهر القدسي في عظم

الشيخ صفي الدين جعل الجزئي كلياً فقط، وهو القسم الأول، لكون الواحد لا يسع جميع القيود. وبيت الشيخ عز الدين:

فألحق الجزء بالكلي منحصرأ إذ دينه الجنس للأديان كلهم

هذا البيت ما وجدت فيه للكلام فسحة لأمر، وبيت بديعيتي:

ألحق بحصر جميع الأنبياء به فالجزء يلحق بالكلي للعظم

النبي ﷺ صالح أن يكون هنا كلياً، العلو مقداراً وعظمة، فقولي عن الأنبياء: فالجزء يلحق بالكلي للعظم، لا يخفى ما فيه من المبالغة والمغالاة في وصف الممدوح ﷺ، هذا مع تحرير هذا النوع الذي يدق عن أفهام كثيرة، وإيضاحه مع التورية باسمه، وسهولة تركيبه وانسجامه، وما أعلم له في هذا الباب نظيراً، وما أوضحه وزاده طلاوة وحسناً إلا تشريفه بالمديح النبوي.



ذكر الفرائد

وشم وميض بروق من فرائده وانظم حنانيك عقداً غير منفصم

الفرائد: نوع لطيف مختص بالفصاحة دون البلاغة، لأن المراد منه أن يأتي الناظم، أو الناثر، بلفظة فصيحة من كلام العرب العرباء تنزل من الكلام منزلة الفرائد من العقد، وتدل على فصاحة المتكلم بها، بحيث أن تلك اللفظة لو سقطت من الكلام لم يسد غيرها مسدها، كقوله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائك﴾^(١) قوله تعالى: الرفث، فريدة لا يقوم غيرها مقامها، وكقوله تعالى: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾^(٢) فقوله سبحانه وتعالى: أهش بها على غنمي، فريدة يعز على الفصحاء أن يأتوا بمثلها في مكانها، ومنه قول عنترة في معلقته:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

فعمي صباحاً، فريدة في مكانها. وروي أن أبا ذر أتى النبي ﷺ فقال: عم صباحاً، فقال النبي ﷺ: إن الله قد أبدلني ما هو خير منها. فقال: ما هي؟ قال: السلام.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي:

ومن له جاور الجزع البيس ومن بكفه أورقت عجزاء ذي سلم^(٣)

(١) البقرة، ١٨٧/٢.

(٢) طه، ١٨/١٠.

(٣) الجزع: الخرز الأسود والأبيض من العقيق - العجزاء: العصا أو بقية الشجرة - وذو سلم: في نسخة: من سلم.

الفريدة في بيت الحلبي هي العجاء، والعجاء هي العصا المعقدة.

والعميان ما نظموا هذا النوع. وبيت الشيخ عز الدين:

كم حصحص الحق إذ وافت فرائده وفي الوطيس بدا ثبناً بلا برم^(١)

الفريدة في بيت الشيخ عز الدين هي لفظة الوطيس، وأما برم فما أبرم فيها أمراً.

وبيت بديعيتي أقول فيه، وأنا مستمر على خطابي لمن رام مديح النبي ﷺ، فإني قلت في البيت الذي قبله:

الحق بحصر جميع الأنبياء به فالجزء يلحق بالكلي للعظم

وقلت بعده في الفرائد:

وشم وميض بروق من فرائده وانظم حنانيك عقداً غير منقصم^(٢)

الفرائد في هذا البيت ثلاثة وهي شم وحنانيك ومنقصم والوميض صالح لذا، والله أعلم بالصواب.



(١) حصحص الحق: ظهر وبان - الوطيس: احتدام المعارك - الثبت: الشجاع الذي يثبت في المعركة - البرم: التذمر.

(٢) شم: أمر من شام: طلب - الوميض: اللمعان - حنانيك: رحمك الله - منقصم: منتقطع

ذكر الترشيح

يس زادت على لقمان حكمته وبان ترشيحه في نون والقلم

هذا النوع، أعني الترشيح: هو أن يأتي المتكلم بكلمة لا تصلح لضرب من المحاسن، حتى يؤتى بلفظة ترشحها وتؤهلها لذلك، كقول التهامي في مرثيته المشهورة:

وإذا رجوت المستحيل فإنما تبني الرجاء على شفير هار (١)

فلولا ذكر الشفير، لما كان في الرجاء تورية برجا البشر، ولكان من رجوت الأمر، لقوله أولاً: وإذا رجوت المستحيل. قلت: وهذا النوع تقدم ذكره، في باب التورية المرشحة، وقد تقدم أيضاً أن التورية أربعة أنواع: مجردة ومرشحة ومهيأة ومبينة، فالمرشحة هي التي يذكر فيها لازم من لوازم المورى به قبل لفظ التورية أو بعده، وسميت مرشحة لترشيحها وتقويتها بذكر لازم المورى به، وتقدم هذا في باب التورية المرشحة، ولكن ذكروا في تكرير الترشيح هنا فائدة لم يكن لمكررها حلاوة، وهي إذا قيل: ما الفرق بين التورية والترشيح، وقد جعلت مثاليهما واحداً؟ قلت: الفرق بينهما من وجهين: أحدهما من أنواع البديع ما لا يحتاج إلى ترشيح، وهي التورية المجردة المحضة، والثاني أن الترشيح لا يختص بالتورية دون بقية الأبواب، بل يعم المطابقة والاستعارة وغيرهما، في كثير من الأبواب، ألا ترى إلى قول أبي الطيب المتنبي:

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتي لرأيت فيه جهنما

(١) الرجاء: للبشر، الناحية. والأمل - الشفير: الحرف، والجنب، والناحية - الهار: الموشك على السقوط والخراب.

فإن قوله: يا جنتي، رشحت لفظة جهنم للمطابقة، ولو قال مكانها: يا منيتي، لم يكن في البيت مطابقة البتة، وأما ترشيح الاستعارة، فكقول بعض العرب:

إذا ما رأيت النسر عزي ابن داية وعشش في وكره طارت له نفسي

فإنه شبه الشيب بالنسر لاشتراكهما في البياض، وشبه الشعر الأسود بابن داية، وهو الغراب، لاشتراكهما في السواد، واستعار التعشش من الطائر للشيب، لما سماه نسرأ، ورشح به إلى ذكر الطيران الذي استعاره لنفسه من الطائر، فقد ترشح باستعارة إلى استعارة، ولولا خشية الإطالة لذكرت ترشيح التشبيه، وترشيح غيره من الأنواع.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي يقول فيه عن النبي ﷺ:

إن حل أرض أناس شد أزهم بما أباح لهم من حط وزهم^(١)

لفظة شد، في البيت، للشيخ صفي الدين، رشحت لفظة حل، للمطابقة، ولو أبقاها على حالها في معنى الحلول، لم يكن في البيت مطابقة البتة.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين في بديعته قوله:

في الفتح ضم من الأنصار شملهم جبراً لكسر بترشيح من الرحم

الترشيح في بيت الشيخ عز الدين ظاهر، فإنه رشح الفتح للتورية بصريح الضم، ورشح الضم للتورية بذكر الكسر.

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

يس زادت على لقمان حكمته وبان ترشيحه في نون والقلم

فذكر لقمان رشح يس للتورية، وذكر نون والقلم رشح لقمان للتورية، والفرق بين قولي: وبان ترشيحه في نون والقلم، وبين قول الشيخ عز الدين: بترشيح من الرحم، ظاهر، وأما سهولة التركيب وعذوبة الانسجام وتمكين القافية، فلم أحتج معهما إلى إقامة دليل، والله تعالى أعلم.

(١) الأزرق: القوة والظهر - الوزر: الحمل الثقيل.

ذكر العنوان

به العصا أثمرت عزاً لصاحبها موسى وكم قد محت عنوان سحرهم
هذا النوع، أعني العنوان: هو أن يأخذ المتكلم في غرض له، من وصف أو فخر
أو مدح أو ذم أو عتاب أو غير ذلك، ثم يأتي لقصد تكميله بالفاظ تكون عنواناً لأخبار
متقدمة وقصص مبالغه، كقول أبي تمام لأحمد بن أبي داود:

تثبت أن قولاً كان زوراً أتى النعمان قبلك عن زياد
فأثر بين حي بني جلاح لدى حرب وبين بني مصاد
وغادر في صدور الدهر قتلي بني بدر على ذات الأصاد
فأتى بعنوان يشير إلى قصة النابغة، حين وشى به الواشون إلى النعمان، فجر ذلك
حروباً انطوت عليها قطعة من الدهر، وذكر في البيت الثالث عنواناً آخر أشار فيه إلى ما
جرى بين بني عبس وبين بني بدر، على غدير ذات الأصاد.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته: :

والعاقب الحبر في نجران لاح له يوم التباهل عقبى زلة القدم^(١)
الشيخ صفي الدين أشار بعنوانه إلى عبد المسيح، عالم النصارى، حين قال لهم

(١) العاقب: الذي يأتي بعد الحبر في الرتبة الدينية، والحبر هو الرئيس الديني للنصارى الذي يعتبرونه
نائباً للسيد المسيح عليه السلام - نجران: دير في المدينة المنورة - التباهل: الحلف بالأبناء
والتباهل هو الذي دعا إليه النبي محمد ﷺ المسيحيين إثباتاً لصحة دعوته وإظهاراً لضعف
دعواهم.

النبي ﷺ يوم التباهل. ﴿تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾^(١) وكان قد خرج النبي ﷺ، محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن عليهما السلام، وفاطمة تمشي خلفهما سلام الله عليهم أجمعين، فحين رآهم العاقب قال للنصارى: لا تباهلوا محمداً فإني أرى معه وجوهاً لو أقسم على الله أن يزيل بها الجبال لأزالها، فانصرفوا وقبلوا الجزية.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته قوله:

بشرى المسيح أتت عنوان دعوته وقبله كل هاد صادق القدم

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

هبه العصا أثمرت عزاً لصاحبها موسى وكم قد محت عنوان سحرهم

هذا البيت عنوانه ظاهر لم يحتج فيه إلى شرح، ولكن التورية في العنوان وترشيحها، بلفظة محت، لا يخفي ما فيها من المحاسن، لأنها اسم النوع الذي هو القصد هنا، وأما قولي: به العصا أثمرت، فهي مناسبة ليس لها في الحسن مناسب.



(١) آل عمران، ٣/٦١.

ذكر التسهيم

كذا الخليل بتسهيم الدعاء به أصابهم ونجا من حر نارهم
هذا النوع مأخوذ من الثوب المسهم، وهو الذي يدل أحد سهامه على الآخر الذي
قبله، لكون لونه يقتضي أن يليه لون مخصوص به، لمجاورة اللون الذي قبله. ومن
المؤلفين من جعل التسهيم والترشيح شيئاً واحداً، والفرق بينهما: أن الترشيح لا يدل
على غير القافية، والتسهيم تارة يدل على عجز البيت، وتارة يدل على ما دون العجز،
وتعريفه أن يتقدم من الكلام ما يدل على ما يتأخر، تارة بالمعنى وتارة باللفظ، كأبيات
أخت عمرو ذي الكلب، فإن الحذاق بمعاني الشعر وتأليفه يعلمون معنى قولها:

فأقسم يا عمرو لو نبهاك. يقتضي أن يكون تمامه: إذا نبها منك داء عضالا، دون
غيره من القوافي، لأنه لو قال، مكان داء عضالاً: ليثاً غضوباً، أو أفعى قتولاً، أو ما
ناسب ذلك، لكان الداء العضال أبلغ، إذ كل منهما ممكن مغالته والتوقي منه، والداء
العضال لا دواء له، هذا مما يعرف بالمعنى، وأما ما يدل على الثاني دلالة لفظية فهو
قولها بعده:

إذا نبها ليث عريسة مقيتاً مفيداً نفوساً ومالا^(١)

وكذلك قولها:

وخرق تجاوزت مجهولة بوجناء حرف تشكي الكلالا^(٢)

فكنت النهار به شمسه

(١) العريسة: الأكمة، أو الشجر الملتف يكون مأوى للأسد.

(٢) الخرق: الأحرق - الوجناء: من النوق، الشديدة القوة - الحرف: من النوق: المهزولة.

يقتضي أن يتلوه: وكن دجا الليل فيه الهلالا. ومنه قول البحري:

أحلت دمي من غير جرم وحرمت بلا سبب يوم اللقاء كلامي
فليس الذي قد حللت بمحلل

ومن هنا يعرف المتأدب أن تمامه: وليس الذي قد حرمت بحرام.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته قوله:

كذاك يونس ناجى ربه فنجى من بطن حوت له في اليم ملتقم^(١)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي، في

بديعته يقول فيه عن النبي ﷺ:

تسهيمة في الوغى حسم لمتصل تسليمه في الرضا وصل لمحتشم

قلت: الشيخ عز الدين رماه التسهيم في العكس، فتشوش إذ صار كل من النوعين

يتجادبه، وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

كذا الخليل بتسهيـم الدعاء به أصابهم ونجا من حر نارهم

لفظة التسهيم، في هذا البيت، انحصر فيها ثلاثة أنواع أحدها تسمية النوع، والثاني

الاستعارة البديعية، والثالث التورية المرشحة، فإن لفظة التسهيم رشحت التورية، بذكر

الإصابة، وتحريف النوع ظاهر في دلالة الأول على الثاني.



(١) اليم: البحر - ملتقم: مبتلع.

ذكر التطريز

شملي بتطريز مدحي فيه منتظم يا طيب منتظم يا طيب منتظم
هذا النوع، أعني التطريز: هو أن يتدّى المتكلم، أو الشاعر، بذكر جمل من
الذوات غير منفصلة، ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب العدد الذي
قرره وقدره، في تلك الجملة الأولى، وعدد الجمل التي وصفت بالذوات عدد تكرر
واتحاد لا عدد تغير، كقول ابن الرومي:

قرون في رؤوس في وجوه صلاب في صلاب في صلاب
ومثله قوله:

كأن الكأس في يدها وفيها عقيق في عقيق في عقيق^(١)
ومثله قول ابن المعتز:

فثوبي والمدام ولون خدي شقيق في شقيق في شقيق
وأبدع من الجميع والطف، قولي من قصيدتي المصغرة:

لفيظك والمقيلة مع نظمي سحير في سحير في سحير
وبيت الشيخ صفى الدين الحلبي في بديعته على التطريز:

فالجيش والنقع تحت الظل مرتكم في ظل مرتكم في ظل مرتكم

(١) فيها: فمها.

قلت: هذا البيت لا يخلو أن يكون للعقادة فيه بعض تراكم.
والعميان ليس في بديعيتهم تطريز. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي، رحمه الله
تعالى، في بديعته قوله:

الدين والنقع تطريز لمحترم في نصر محترم في نصر محترم
هذا البيت لم أفهم منه غير لفظة التطريز، الذي هو اسم النوع.
وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

شملي بتطريز مدحي فيه منتظم يا طيب منتظم يا طيب منتظم
هذا البيت بهجة التطريز ظاهرة على أركانه، وقد جمعت فيه بين التطريز الذي هو
المراد، والتورية، واللف، والنشر، والترشيح، والاستعارة، ومراعاة النظير، والسهولة،
والانسجام، والجناس التام، والله أعلم.



ذكر التنكيت

وآله البحر آل إن يقس بندى كفوفهم فافهموا تنكيت مدحهم^(١)

هذا النوع، أعني التنكيت، يستحق لغرابته أن ينتظم في أسلاك البديع، ويغار عليه أن يعد مع المماثلة والموازنة ومع التطريز والترصيع، وقد تقدم الكلام على سفالة هذه الأنواع.

والتنكيت: عبارة عن أن يقصد المتكلم شيئاً بالذكر دون أشياء كلها تسد مسده، لولا نكته في ذلك الشيء المقصود، ترجح اختصاصه بالذكر. وعلماء هذا الفن أجمعوا على أنه لولا تلك النكته التي انفرد بها، لكان القصد إليه دون غيره خطأ ظاهراً عند أهل النقد، وجاء من ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿وأنه هو رب الشعري﴾^(٢) فإنه سبحانه خص الشعري بالذكر، دون غيرها من النجوم، وهو رب كل شيء لأن من العرب من عبد الشعري، وكان يعرف بابن أبي كبشة، ودعا خلقاً إلى عبادتها، فأنزل الله تعالى: ﴿وأنه هو رب الشعري﴾ التي ادعيت فيها الربوبية دون سائر النجوم، وفي النجوم ما هو أعظم منها. ومنه قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾^(٣) فإنه سبحانه وتعالى خص تفقهون دون تعلمون، لما في الفقه من الزيادة على العلم، والمراد الذي يقتضيه معنى هذا الكلام: الفقه في معرفة كنه التسبيح من

(١) آله: أهله وأقاربه - آل: سراب - إن: لا.

(٢) النجم، ٤٩/٥٣.

(٣) الإسراء، ٤٤/١٧.

الحيوان البهيمي والنبات والجماد، الذي تسبيحه بمجرد وجوده الدال على قدرة موجهه ومخترعه. ومن الأمثلة الشعرية قول الخنساء:

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره بكل غروب شمس
فخصت هذين الوقتين بالذكر، وإن كانت تذكره كل وقت، لما في هذين الوقتين
من النكتة المتضمنة للمبالغة، في وصفه بالشجاعة والكرم، لأن طلوع الشمس وقت
الغارات على العدا، وغروبها وقت وقود النيران للقرى.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته، على التنكيت:

وآله أمناء الله من شهدت لقدرهم سورة الأحزاب بالعظم

الشيخ صفي الدين خصص سورة الأحزاب هنا بالذكر، لأن فيها تصريحاً بمدح آل
البيت عليهم السلام، بقوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
ويطهركم تطهيراً﴾^(١) ولولا هذا الاختصاص كانت كغيرها من السور.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي،
رحمه الله:

ففي براءة تنكيت بمدحته معناه في الشرح يشفي داء ذي البكم^(٢)

ذكر الشيخ عز الدين، في شرحه، أن النكتة المقصودة في بيته، في سورة براءة،
هي قوله تعالى: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾^(٣)
وبيت بديعيتي أشير فيه إلى النبي ﷺ:

وآله البحر آل إن يقس بندي كفوفهم فافهموا تنكيت مدحهم

التنكيت، في هذا البيت بديع وغريب في بابه، فإنني خصصت الندي بالذكر عند
مقايسته بالبحر، في قلبي: إن البحر عند ندي كفوفهم كالآل، والآل هو الذي يحسبه
الظمان ماء، ولو قلت: انهار كفوفهم أو جداول كفوفهم لسد كل واحد منهما مسده بزيادة
زائدة، ولكن في الندي نكتة ليست فيهما، وهي الغلو في أن البحر يصير عند هذا الندي
سراباً، وهذا الذي أوجب تخصيص الندي بالذكر دون غيره، وقد اجتمع في هذا البيت
التنكيت الذي هو القصد هنا، والتورية، والغلو، ومراعاة النظر، والجناس، والله أعلم.

(١) الأحزاب، ٣٣/٣٣.

(٢) البكم: العجز عن التكلم خلقة.

(٣) التوبة: ٤٠/٩.

ذكر الإرداف

وفي الوغى رادفوا لسن القنا سkena من العدا في محل النطق بالكلم

نوع الإرداف: قالوا إنه هو والكناية شيء واحد. قلت: وإذا كان الأمر كذلك كان الواجب اختصارهما. وإنما أئمة البديع، كقدامة والحاتمي والرماني، قالوا: إن الفرق بينهما ظاهر، والإرداف: هو أن يريد المتكلم معنى، فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، بل يعبر عنه بلفظ هو رديفه وتابعه، كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾^(١) فإن حقيقة ذلك جلست على المكان، فعدل عن اللفظ الخاص بالمعنى إلى لفظ هو رديفه، وإنما عدل عن لفظ الحقيقة، لما في الاستواء الذي هو لفظ الإرداف، من الإشعار بجلوس متمكن لا زيغ فيه ولا ميل، وهذا لا يحصل من لفظ جلست وقعدت، ومن الأمثلة الشعرية على الإرداف قول أبي عبادة البحرني يصف طعنة:

فأوجرتة أخرى فأحللت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحق

ومراده القلب، فذكره بلفظ الإرداف، والفرق بين الإرداف وبين الكناية أن الإرداف قد تقرر أنه عبارة عن تبديل الكلمة بردفها، والكناية هي العدول عن التصريح بذكر الشيء إلى ما يلزم، لأن الإرداف ليس فيه انتقال من لازم إلى ملزوم، والمراد بذلك انتقال المذكور إلى المتروك كما يقال: فلان كثير الرماد، ومراده نقله إلى ملزومه، وهي كثرة الطبخ للأضياف.

(١) هود، ٤٤/١١.

وبيت الشيخ صفي الدين رحمه الله تعالى على الإرداف قوله:

بقتبه أسكنوا أطراف سمرهم من الكماة محل الضغن والأضم^(١)

الشيخ صفي الدين زاحم البحري في بيته، إلى أن نزع قلبه من صدره، بل جل قصده في إردافه هنا القلب، وكان الواجب العدول عنه لشهرته في هذا الباب عند أهل البديع.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

للطعن والضرب إرداف يحل به في موضع العقل يحكيه ذوو الحكم

وبيت بديعيتي، قلت قبله عن آل النبي ﷺ، مشيراً إلى الغلو في كرمهم:

وآله البحر آل أن يقس بندي كفوفهم فافهموا تنكيت مدحهم

وأردفته بقولي في الشجاعة:

وفي الوغى رادفوا لسن القنا سكتاً من العدا في محل النطق بالكلم

أنظر أيها المتأمل في بديع هذا الإرداف الغريب الذي ميزته على أقرانه من البحري إلى الشيخ عز الدين، بحسن مراعاة النظير الذي أسكنت به الألسنة بالأفواه، بقولي: في محل النطق بالكلم، مع التورية بتسمية النوع، والله سبحانه أعلم.



(١) القتبة: جمع قَيْب وهو الضيق الخلق السريع الغضب من الرجال - الكماة: جمع كمي وهو الفارس المغوار - السمر: الرماح - الضغن: البغض والكره - الأضم: الحقد.

ذكر الإيداع

وأودعوا للثرى أجسامهم فشكت
شكوى الجريح إلى العقبان والرخم^(١)
هذا النوع، أعني الإيداع، يغلب عليه التضمين، والتضمين غيره، فإنه معدود من
العيوب، والعيب المسمى بالتضمين هو أن يكون البيت متوقفاً في معناه على البيت الذي
بعده، كقول النابغة:

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إني
شهدت لهم مواطن صادقات أنبثهم بود الصدر مني

والإيداع الذي نحن بصددده: هو أن يودع الناظم شعره بيتاً من شعر غيره، أو نصف
بيت أو ربع بيت، بعد أن يوطيء له توطئة تناسبه بروابط متلائمة، بحيث يظن السامع أن
البيت بأجمعه له. وأحسن الإيداع ما صرف عن معنى غرض الناظم الأول، ويجوز عكس
البيت المضمن، بأن يجعل عجزه صدرأً أو صدره عجزاً، وقد تحذف صدور قصيدة
بكمالها وينظم لها المودع صدوراً، لغرض اختاره وبالعكس. وقد تقدم وتقرر أن
الأحسن، في هذا الباب، أن يصرف الشاعر ما أودعه في شعره عن معناه الذي قصد
صاحبه الأول، ويجوز تضمين البيتين بشرط أن ينقلهما من معنهما الأول إلى صيغة
أخرى، كما حكى أن الحيص بيص قتل جرو كلب وهو سكران، فأخذ بعض الشعراء
كلبة وعلق في رقبتها قصة وأطلقها عند باب الوزير، فإذا فيها مكتوب:

يا أهل بغداد إن الحيص بيص أتى بخزبة ألبسته العار في البلد

(١) العقبان والرخم: من الطيور الجوارح.

أبدى شجاعته بالليل مجترئاً
فأنشدت أمه من بعد ما احتسبت
أقول للنفس تأساء وتعزية
كلاهما خلف من بعد صاحبه
على جريّ ضعيف البطش والجلد^(١)
دم الأبلق عند الواحد الأحد^(٢)
إحدى يدي أصابتي ولم ترد
هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

البيتان الأخيران لامرأة من العرب قتل أخوها ابنها، فقالت ذلك تسلية. ومنهم من أودع شعره بيتين، وكل بيت منهما لشاعر، كقول القاضي شهاب الدين محمود:

وبتنا على حكم الصباية مطعمي
وخلي يعاطيني كؤوس ملامة
أتطمع من ليلي بوصول وإنما
فبت كأي ساورتني ضئيلة
زفيري وأشجاني وشربي المدامع
وينشدني والهيم للقلب صادع
تقطع أعناق الرجال المطامع
من الرقش في أنيابها السم نافع

البيت الأخير للنابغة، قلت غاية الأوائل أن ينقلوا المعنى الأول في الإيداع إلى معنى آخر، إن كان في بيتين أو بيت واحد أو نصف بيت، ولكن الفرقة التي مشت تحت العلم الفاضلي، وتحلت بالقطر النباتي وهلم جراً، لم يرضوا بنقله مجرداً من التورية أو ما يناسبها من أنواع البديع، ومما يؤيد قولي هذا قول القاضي جلال الدين القزويني، في التلخيص، وأحسنه ما زاد على الأصل بنكته، كالتورية والتشبيه، وممن أبدع في نقله إلى التورية علامة هذا الفن، الشيخ جمال الدين بن نباتة، رحمه الله تعالى بقوله:

أتاني عليّ البانياسي منشداً
مكر مفر مقبل مدبر معاً
فيا لك من شعر ثقيل مطوّل
كجلمود صخر حطه السيل من عل

ومثله قوله في مליح اسمه حبيب وهو:

حبيب حبيب القلب أخلى منيزلاً
فيا صاحبي الذكر قد لذ بالبكا
به كان في عرس المسرة ينجلي
قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل

وما يشك من عنده ذوق أن المقطوعين في الإيداع تميز المحاسن التورية، وغريب النقل إلى غرض كل من الناظرين وكذلك تقطيع أعناق الرجال، في إيداع الشهاب محمود، فإنهم نقلوه إلى الصفع، وجاءت توريته في غاية الحسن، وهذا هو المذهب

(١) جُريّ: تصغير جرو وهو ولد الكلب.

(٢) الأبلق: هكذا في الأصل ونظنها من الأخطاء الطباعية والأصح: الأبلق: وهو تصغير الأبلق الذي في لونه الأسود بقع بيضاء، وكان قد صغّر جرو في البيت الذي قبله. فيصير جُريّ أبلق، والله أعلم.

الذي انتهت غايات المتأخرين إليه، ومن ذلك قول الشيخ جمال الدين بن نباتة أيضاً وهو:

أقول لمعشر جلدوا ولا طوا
أستم خير من ركب المطايا
وقولي زمذ كلمت قلبي سيوف لحاظها
فلم أر بداراً ضاحكاً قبل وجهها
وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

دنوت إليها وهو كالفرخ راقد
فقلت امعكيه بالأنامل فالتقى
وقولي طاول الليل بالنؤابة قبس
فحلا لي السهاد مذ طال ليلي
وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

تصدى إلى أيري فقلت له اتند
رأيت الذي لا كله أنت قادر
وحقك لو عاينته وهو ثائر^(٣)
عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وأشدني، من لفظه لنفسه الكريمة، مولانا المقر الأشرف المرحومي القاضي الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة، كان، تغمده الله برحمته، ما اختلف هو والشيخ جمال الدين بن نباتة في إيداعه واتفقا في معناه، والمعنى في البيتين المذكورين قبل. وأما الترشيح فعندي أن التورية في بيتي المقر الناصري أرجح، وهما قوله:

أقول وقد أبي عن أخذ أيري
إذا لم تستطع شيئاً فدعه
وسالت من محاجره دموع
وجاوزه إلى ما تستطيع

(١) امعكيه: ادلكيه - وكرها: فرجها، شبهه بوكر الطير - العناب: البظر: شبهه بالعناب: الثمر

المعروف - الحشف: التمر أو التمرة من قضيب الرجل على التشبيه.

(٢) الكيس: اللباقة.

(٣) اتند: تمهل - ثائر: منتصب.

الذي ترجح عندي أن قوله: وجاوزه أعقد من قول الشيخ جمال الدين: لا كله،
والذي أقوله: إن كلا منهما في بابه بديع وغريب، وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

لم أنس موقفنا بكازمة والعيش مثل الدار مسود
والدمع ينشد في مسائله هل بالطلول لسائل ردّ

ومثله قولي:

قف واستمع طرباً فليلي في الدجا باتت معانقتي ولكن في الكرى
وجرى لدمعي رقصة بخيالها أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

ومن إيداعاتي الغريبة قولي من إعجاز الملحّة:

تنكر الحال علينا عندما سال عليه العارض المسلسل
فعنه سلني إن ترد تعريفه فإنه منكر يا رجل

ومما انفرد به الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى تضمين أعجاز الملحّة،
والذي يؤيد انفراده حسن تخلصه من الغزل، وهو ماش على التضمين، إلى مدح قاضي
القضاة، ولم يزل مستمراً على غرر المدائح اللائقة بالقاضي إلى حسن الختام.

وضمن الشيخ زين الدين بن الوردي نبذة من اعجاز الملحّة، ولم يفرغها في غير
قوالب الغزل، فإن التخلص من الغزل إلى المدح من المستحيلات في هذا الباب، ولكن
الشيخ جمال الدين بن نباتة كان في ذلك العصر نسيج وحده، ومن المعلوم أن الجماعة
مثل الشيخ زين الدين بن الوردي، والشيخ صلاح الدين الصفدي، والشيخ برهان الدين
القيراطي، وغيرهم ممن عاصره، ما منهم إلا من تطفل على موائد حلاواته النباتية. وقد
عنّ لي أن أورد هنا نبذة من التضمين للشيخين، وأجعل كلاً من أبيات الشيخين وقفاً
محبساً على أصحاب الذوق السليم. قال الشيخ جمال الدين في المطلع:

صرفت فعلي في الأسي وقولي بحمد ذي الطول الشديد الحول^(١)

وقال الشيخ زين الدين رحمه الله تعالى في المطلع:

يا سائلي عن الكلام المنتظم هو الذي في لفظ من أهوى قسم

هذا المطلع من إبداع الذي قصر فيه باع الشيخ زين الدين بن الوردي، فإنه صدر

(١) الحَوْل: القوة.

مطلعه بالصدر وهو جائز، ولكنه غير المراد، فإن الشيخ جمال الدين تقدمه بتضمين الإعجاز ونسج إيداعه على هذا المنوال، ومن أغزال الشيخ جمال الدين البديعة في هذا الباب قوله:

في مثل قد أقبلت الغزاله
كقولهم ربّ غلام لي أبق^(١)
فهي ثلاث ما لهن رابع
وقال قوم إنها اللام فقط
مثاله الدار وزيد وأنا
والأمر مبني على السكون
وقيمة الفضة دون الذهب^(٢)
فما على صارفها ملام
وقف على المنسوب منه بالألف
وإن تكن باللام قد عرّفته
كمثل ما تكتبه لا يختلف
وتارة يأتي بمعنى اللام
مفعوله نحو سقى ويشرب
ولا سكيران الذي لا ينصرف
هن حروف الاعتلال المكتنف^(٣)
أما لا هوان وإما لصغر
قولك يا غلام يا غلامي
ولا تغير ما بقي من رسمه
فاعطف على سائلك الضعيف
في كل ما تأنيشه حقيقي
وجاء في الوزن مثال سكرى
تم الكلام عنده فلتنصب
وعاص أسباب الهوى لتسلما

أفدي غزلاً مثلوا جماله
ما قال مذ ملك قلبي واسترق
للقمرين وجهه مطالع
لأحرف الحسن على خديه خط
منفرد بالوصل في دار الهنا
لا يختشي تلاعب الظنون
في خده التبري هان نشبي
فاصرف عليه ثروة تسام
وإن رأيت قدّه العالي فصف
والعارض النوني ما أنصفته
وأهاله من حرف نون قد عرف
يأتي بنقط الخال في الإعجام
للحظه المسكر فعل يطرب
ولا تلم فيه عويشاً تلف
جسمي وذاك الخصر والجفن الدنف
فيا مليحاً عنه أخرجت القمر
كرر فما أحلى بسمعي السامي
وارفق بمضناك فما سوى اسمه
وقد حكى العذار في الوقوف
وافخر بمعنى لحظك المعشوق
يا لك لحظاً بسعاد أزرى
يا ناصباً أوصاف ذياك الصبي
هيهات بل دع عنك ما أضنى وما

(١) استرق: استعبد - أبق: هرب.

(٢) التبر: الذهب - نشبي: مالي، الثابت والمنقول.

(٣) الدنف: المريض - المكتنف: الذي أصاب. المصيب.

قاضي القضاة الطاهر النقي
 في كلم شتى رواها من روى
 إذا اندرجت قائلاً ولا تقف
 نحو لقيت القاضي المهذبا
 وهكذا أصبح ثم أمسي
 وافزع إلى حام حماه مانع^(١)
 ومثله ادخل وانبسط واشرب وكل
 تقول كم مال أفادته يدي
 وما أحد سيفه إذا سطا
 وقام قس في عكاظ خاطبا
 والكيل والوزن ومذروع اليد
 فما له مغير بحال
 ونوعه الذي عليه يبني
 وارفع ولا رد ولا تقرع^(٢)
 فانصب وقل كم كوكب تحوي السما
 عند جميع العرب العرباء^(٣)
 أو استشرت للرجا يمينه

وكرر الأمداح في علي
 بكل معنى قد تناهى واستوى
 بادر بنا ذاك الحمى العالي وصف
 دونك والمدح زكياً معجبا
 فالجود والعلم عليه أرسى
 واهرع إلى قارٍ قرأه نافع
 يقول للضيف نداه جب وجل
 وإن ظفرت عنده بموعده
 لله ما ألينه عند العطا
 إن قال قولاً بين الغرائب
 وإن سخا أتى على ذي العدد
 معطل السمع عن العذال
 الفضل جنس بيته المهنا
 سام به أهل العلا جميعاً
 وإن ذكرت أفق بيت قد نما
 بيت عظيم المجد والعلاء
 إذا اجتليت في العطا جبينه

منها والبيت مضمن بكماله :

وقد وجدت المستشار ناصحا
 وواقف بالباب أضحي سائل
 واقض قضاء لا يرد قائله
 واسع إلى الخيرات لقيت الرشيد^(٤)
 كان وما انفك الفتى ولم يزل
 وصغر الباب وقل بويب
 فليس يحتاج لها إلى خبر

تقول قد خلت الهلال لائحاً
 كم بالغنى عنه تولى راجل
 قال له الشرع امض ما تحاوله
 وأنت يا قاصده سر في جدد
 ولا تقل كان غماماً ورحل
 باب سواه اهجر عداك عيب
 أود به أنسى أحاديث المطر

(١) قارٍ: الذي يقري الضيوف أي يطعمهم - والقري: إطعام الضيف.

(٢) التقرع: اللوم والتوبيخ.

(٣) العرب العرباء: العرب الخالص، الأقحاح.

(٤) الجدد: نوع من السير السريع ويكون في الأرض المستوية.

وغصت في البحر ابتغاء الدر
وطبت نفساً إذ قضيت الدينا
ممزوجة بملحة الإعراب^(١)
وبات زيد ساهراً لم ينم
وإن تجد عيباً فسد الخلا
جائلة دائرة في الألسن
فليس إلا الكسر والسلام

خذ بحر شعر جبهته للذكر
حتى ملا عيني نداه عينا
دونكها معسولة الآداب
مضى بها الليل مضيّ الأنجم
فافتح لها باب القبول تجتلي
لا زلت مسموع الثنا ذا منن
ما لعداك راية تقام

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي:

وقال قوم إنها اللام فقط في صدغه للحسن آيات تخط

قلت: الشيخ جمال الدين تقدمه في هذا البيت بالإيداع، وهنا بحث لطيف أبحثه مع حذاق الأدب، قال الشيخ جمال الدين بن نباتة: «لأحرف الحسن على خديه خط» ومراده بذكر الأحرف هنا مخالفة القوم له، على أنها ليست بأحرف وإنما هي حرف اللام فقط. وقال الشيخ زين الدين: «في خده للحسن آيات تخط» فلم يبق لقول من خالفه بقوله. وقال قوم إنها اللام فقط موضع ولا محل، وأين الآيات التي تخط من اللام، ولعمري إن هذا الإيداع، على هذا التقدير، يصير بينه وبين العجز من بيت الملحّة بعض مباينة، وكان الأليق للشيخ زين الدين الإعراض عن إيداع هذا البيت بعد الشيخ جمال الدين، فإنه لم يترك لغيره مجالاً فيه، والله أعلم. وقال الشيخ زين الدين بن الوردي رحمه الله تعالى:

إذ أَلِفُ الوصل متى يدرج سقط
فإنه ماض بغير لبس^(٢)
فأسقط الحرف الأخير أبدا
واسع إلى الخيرات لقيت الرشد

زمانه غض فلا يخشى فرط
بسيف جفنه قتلت نفسي
فيا غزال إن أبنت ما اعتدى
قلت لمذكر لحي خلّ الفند

وهذا الإيداع أيضاً نسخه الشيخ زين الدين من قول الشيخ جمال الدين، وسبكه في غير قلبه، وأين هذا من قول الشيخ جمال الدين في إشاراته إلى قاصد ممدوحه:

وأنت يا قاصده سر في جدد واسع إلى الخيرات لقيت الرشد

(١) معسولة الآداب: حلوة الآداب. وكان آدابها مزجت بالعسل لحلاوتها.

(٢) ماض: قاطع - اللبس: الشك والريبة.

قال الشيخ زين الدين:

وإن يكن عدلك في المؤنث فقل لها خافي رجال العبت
منها وأجاد إلى الغاية:
قوامه أشبه شيء بالألف كمثل ما تكتبه لا يختلف
ومثله في الحسن قوله:

يا خصره من ردفه فز بالمنح ولا تسل أخف وزناً أم رجح
تركيب هذا البيت غاية في هذا الباب، لأنه قدم ذكر الألف في الأول، وقال في
عجز بيت الملحمة كمثل ما تكتبه لا يختلف، بخلاف قوله في ذلك البيت آيات، وقوله في
عجز بيت الملحمة. وقال قوم إنها اللام فقط وقال:

عذاره الرقيم فز بلثمه ولا تغير ما بقي من رسمه (١)
ولكن مرسوم الشيخ جمال الدين أمثل، وأين قول الشيخ جمال الدين: «وارفق
بمضناك فما سوى اسمه»، حتى يقول بعد التوطئة: «ولا تغير ما بقي من رسمه». من قول
الشيخ زين الدين: «عذاره الرقيم فز بلثمه». وقال الشيخ زين الدين بعد بيته الأول:

تقول فيه خضرة يسيره كما تقول ناره منيره
دينار وجهه به شححت وكم دنينير به سمحت (٢)
يا ليته يعطف بالوصال والعطف قد يدخل في الأفعال
لا ما حلا لي في هواه العذل لشبهه الفعل الذي يستقبل
منها وأجاد:

عيناه أفنت أكثر العشاق وهكذا تفعل في البواقي
في ثغره جواهر غوالي جلوتها منظومة اللالي
صورته كالبدر فوق الغصن فانظر إليها نظر المستحسن
وخل عنك يا عدول العذلا وإن تجد عيباً فسد الخللا
وهذا البيت أيضاً منسوخ من إيداع الشيخ جمال الدين، والبون بينهما بعيد، فإن

(١) الرقيم: المنقش. والرقيم، الكتاب أو اللوح نقش فيه.

(٢) شح: بخل.

الشيخ جمال الدين اعتذر للممدوح في آخر القصيدة، عن التقصير، كما جرت عادة الشعراء بقوله:

فافتح لها باب القبول تجتلى وإن تجد عيباً فسد الخللا

هذا، مع مطابقة الفتح بالسد في هذا الباب، وهذا غاية، وأما اعتذار الشيخ زين الدين للعاذل، وقوله له عن محبوبه: «وإن تجد عيباً فسد الخللا» فالمحجوب عند محبه أجل من هذا القدر، والله أعلم، وختام الشيخ زين الدين بن الوردى رحمه الله قوله:

حتى رشى لي وألان القولا والحمد لله على ما أولى

ولعمري إنى اختصرت من إيداع الشيخ زين الدين بن الوردى جانباً لم أرضه له.

ومن الإيداعات التي برز فيها الشيخ زين الدين بن الوردى، قصيدته التي امتدح بها النبي ﷺ وضمن فيها أعجاز قصيدة أبي العلاء المعري وبعض صدورها، وهي القصيدة الرائية التي امتدح بها أبو العلاء المعري ابن القصيصي، ونقلها الشيخ زين الدين بن الوردى إلى مستحقها ﷺ، وقد عن لي أن أجمع هنا بين الأصل والفرع، لتظهر مزية الشيخ زين الدين، فإنه أظهر في إيداعه العجائب وأتى بالغرائب، ومطلع الشيخ زين الدين خال من الإيداع، وهو:

أدر أحاديث سلع والحمى أدر والهج بذكر اللوى أو بانه العطر^(١)

ومطلع الشيخ أبي العلاء المعري:

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعواناً على السهر

قال الشيخ زين الدين بعد المطلع:

وقف على الجزع واذكرني لساكنه لعل بالجزع أعواناً على السهر

وقال في إيداع صدر مطلع أبي العلاء:

إذا تبسم ليلاً قل لمبسمه يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر

قال أبو العلاء يخاطب البرق:

وإن بخلت على الأحياء كلهم فاسق المواطر حياً من بني مطر

(١) سلع والحمى واللوى وبانه العطر: أسماء أماكن في الجزيرة العربية.

وقال أبو العلاء، في قصر الليل على العاشق ليلة الوصل:

يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر
نقله الشيخ زين الدين إلى المديح، وأجاد إلى الغاية، بقوله عن النبي ﷺ:
تشرف الركن إذ قبلت أسوده وزيد فيه سواد القلب والبصر
قال أبو العلاء:

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط في الخصر
فنقله الشيخ زين الدين إلى المديح النبوي، فقال يخاطب النبي ﷺ:
عذبت ورداً فلم تهجر على خصر والعذب يهجر للإفراط في الخصر (١)
قال أبو العلاء يخاطب محبوبته:

قلدت كل مهاة عقد غانية وفزت بالشكر في الأرام والعفر (٢)
نقله الشيخ زين الدين إلى المديح النبوي، وما أحق المادح والممدوح به، فقال:
إن الغزالة لما أن شفعت نجت وفزت بالشكر في الأرام والعفر
قال الشيخ أبو العلاء:

أقول والوحش ترميني بأعينها والطير تعجب مني كيف لم أطر
نقله الشيخ زين الدين وقال:
ضمنت مدح رسول الله مبتهجاً والطير تعجب مني كيف لم أطر
قال أبو العلاء:

في بلدة مثل ظهر الضب بت بها كأنني فوق روق الظبي من حذر (٣)
نقله الشيخ زين الدين وقال:

ولي ذنوب متى أذكر سوافها كأنني فوق روق الظبي من حذر

(١) الإفراط: الزيادة - الخصر: الاختصار.

(٢) المهاة: البقرة الوحشية - الغانية: الفتاة الحسناء - الأرام: جمع رثم وهو الظبي الأبيض - العفر: جمع أعافر وهو نوع من الطباء الضعيفة العدو.

(٣) الضب: من الزواحف شبيه بالحرذون - الروق: القرن - الظبي: الغزال.

قال أبو العلاء يخاطب صاحبيه :

لا تطوبا السير عني يوم نائبة
قال الشيخ زين الدين بعد قوله: ولي ذنوب:
ومطمعي أنها لا شرك [إلا] بشركها
قال أبو العلاء:

يا روع الله سوطي كم أروع به
نقله الشيخ زين الدين وقال:

ولي فؤاد متى تفخر سوى مضر
قال أبو العلاء في المخلص، بعد روع الوجناء:
لولا القصيصي كان المجد في مضر
باهت بمهرة عدناناً فقلت لها
قال الشيخ زين الدين لله دره:

والله لو أن أهل الأرض قاطبة
قال أبو العلاء مشيراً إلى ممدوحه، وأساء الأدب:

وقد تبين قدرتي أن معرفتي
نقله الشيخ زين الدين بن الوردي إلى المديح النبوي ﷺ، وقال بحق:

يا نفس لا تيأسي يوم المعاد فلي
قال أبو العلاء، وكذب عن القصيصي في قوله:

ولو تقدم في عصر مضى نزلت
نقله الشيخ زين الدين إلى المديح النبوي، وقال رحمه الله حيث قال:

وأين شعري من الهادي الذي نزلت
في وصفه معجزات الآي والسور

(١) السوط: الكبرياج، قطعة من الجلد تستعمل للضرب - راع: أخاف - الوجناء: من النوق: الشديدة القوة.

قال الشيخ أبو العلاء يخاطب ممدوحه:

وافقتهم في اختلاف من زمانكم والبدر في الوهن مثل البدر في السحر^(١)
نقله الشيخ زين الدين إلى المديح النبوي، وقال يخاطب النبي ﷺ وسبى العقول
بقوله:

وأنت في القبر حي ما اعتراك بلى والبدر في الوهن مثل البدر في السحر
قال أبو العلاء يخاطب ممدوحه:

أعاذ مجدك عبد الله خالقه من أعين الشهب لا من أعين البشر
والبیت نقله الشيخ زين الدين إلى المديح النبوي بكماله، ولكن كان فارس ميدانه
وقائد عنانه، وكأنه كان معداً لقصيدته حتى يبرزه في محله من مديح النبي ﷺ، وهو:
لله قولي لعبد الله والده قولاً إلى فص عليها على قدر^(٢)
أعاذ مجدك عبد الله خالقه من أعين الشهب لا من أعين البشر
قال أبو العلاء يخاطب ممدوحه:

سافرت عنا فظل الناس كلهم يراقبون إياب العيد من سفر^(٣)
نقله الشيخ زين الدين إلى المديح، فقال يخاطب النبي ﷺ:

كم راقبت أمم منك القدوم كما يراقبون إياب العيد من سفر
قال أبو العلاء يخاطب الممدوح:

لو غبت شهرك موصولاً بتابعه وأبت لانتقل الأضحى إلى صفر^(٤)
قال الشيخ زين الدين يخاطب النبي ﷺ:
سل تعط واشفع تشفع ما ترده يكن لو شئت لانتقل الأضحى إلى صفر

(١) الوهن: من الليل بُعِدَ منتصف الليل - السحر: قبيل الفجر.

(٢) إلى فص عليها: إلى أصلها.

(٣) الإياب: الرجوع.

(٤) الأضحى: عيد الأضحى عند المسلمين. وهو العيد الذي يقدم فيه الحجيج الأضحية قربة إلى الله تعالى.

قال أبو العلاء في ختام قصيدته:

ولا تزال بك الأيام ممتعة
بالآل والحال والعلياء والعمر^(١)

قال الشيخ زين الدين في ختامه:

وارتجي بك من ذي العرش عافية
في الآل والحال والعلياء والعمر
رحم الله الشيخ زين الدين، هذه القصيدة معدودة من محاسنه، ولولا خشية الإطالة
لاستوعبتها بكمالها، فإنها بديعة في باب الإيداع. انتهى.

وأما اعجاز قصيدة امرئ القيس اللامية المعلقة، فإن جماعة من أهل الأدب ثابروا
على تضمينها وتضمن البعض منها، وسبكوها في قوالب مختلفة الأنواع.

كتب إليّ مولانا قاضي القضاة، صدر الدين بن الأدمي الحنفي سقى الله ثراه، من
دمشق المحروسة إلى حماة المحروسة، في صدر رسالته:

أحن إلى تلك السجايا وإن نأت
وأهدي إليها من سلامي معطراً
وأذكر ليلات بكم قد تصرّمت
شكوت إلى صبري اشتياقي فقال لي
وقلت له إنني عليك معول
حين أخى ذكرى حبيب ومنزل
بمسكٍ سحيق لا برياً القرنفل^(٢)
بدار حبيب لا بدارة جلجل^(٣)
ترفق ولا تهلك أسى وتجمل
وهل عند رسم دارس من معول^(٤)

فأجبتّه وصدرت الرسالة بقولي:

سرت نسمة منكم إليّ كأنها
فقلت لليلي مذ بدا صبح طرسها
جنت ما حلا ذوقاً فقلت تقربي
ورقت فأشعار امرئ القيس عندها
فقلت قفا نضحك لرقتها على
نسيم الصبا جاءت برياً القرنفل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل
ولا تبعدينا عن جنائك المعلل
كجلمود صخر حطه السيل من عل
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

(١) الآل: الأهل والعشيرة.

(٢) ربا القرنفل: رائحة القرنفل وهو نبات طيب الرائحة.

(٣) تصرّمت: انقضت.

(٤) الرسم: الأثر - الدارس: الممحو، غير الواضح - معول: فائدة.

وتطرح الشيخ جمال الدين، والشيخ صلاح الدين قبلنا، في جانب كثير منها، ولكن الشيخ جمال الدين تنازل فيها إلى الغاية فقال:

رأى فرسي إصطبل عيسى فقال لي قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وأما الشيخ صلاح الدين فإنه كتب إلى الشيخ جمال الدين، في معنى العتب المفرط:

أفي كل يوم منك عتب يسوءني
وترمي على طول المدى متجنباً
فأمسى بليل طال جنح ظلامه
وأغدو كأن القلب من وقدة الجوى
تطير شظاياها بصدري كأنها
وسالت دموعي من همومي ولوعتي
إذا عاين الأخوان ما بي من الأسى
ترفق ولا تجزع على فائت الوفا
ولي فيك ودّ طال ما قد شددته
ولي خطرات فيك منها جوانحي
كأن أمانيتها كؤوس مدامة
سلوت غوايات الشبية والصبأ
وأجلو محيا الودّ فيك لأهله
فكر على جيش الجناية عائداً
تجد خفرات الأنس منها كواعباً

كجلمود صخر حطه السيل من عل
بسهميك في أعشار قلب مقتل (١)
عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
إذا جاش فيه حميه غلي مرجل (٢)
بأرجائه القصوى أنابيش عنصل (٣)
على النحر حتى بل دمعي محملي
يقولون لا تهلك أسى وتجمل
فما عند رسم دارس من معول
بأمراس كتان إلى صم جندل (٤)
صبحن سلافاً من رحيق مفلفل
غذاها نمير الماء غير محلل (٥)
وليس فؤادي عن هواها بمنسلي
متى ما ترق العين فيه يسهل
بمنجرد قيد الأوابد هيكل (٦)
تراثها مصقولة كالسجنجل (٧)

(١) لمتجني: الذي يبدأ الجناية - السهمان: هما النظرتان - الأعشار: الأجزاء.

(٢) جاش: تحرك صعوداً وهبوطاً، نار - المرجل: القدر يطبخ فيها.

(٣) الشظايا: القطع - الأنابيش: جذور الأشجار وبقاياها - العنصل: نبات معمر من الفصيلة الزنبقية له ورق كورق الكراث.

(٤) الصم: الصلاب - الجندل: الصخور.

(٥) نمير الماء: الصافي منه والعذب.

(٦) المنجرد: الحصان القصير الشعر - قيد الأوابد: كناية عن السرعة، الأوابد: الوحوش - الهيكل: الضخم.

(٧) خفرات: شديداً الحياء - الكواعب: جمع كاعب وهي الفتاة نهذ ثديها - التراثب: عظام الصدر - السجنجل: المرأة. رومية معربة.

وخل الجفا وارجع إلى معهد الوفا
 حلا ودك الماضي وإن لم تعد أعد
 فأجابه الشيخ جمال الدين متهكماً في المطلع، والتهكم فيه غاية لا تكاد تخفى
 على حذاق الأدب، بقوله:

فطمت ولائي ثم أقبلت عاتباً
 بروحي ألفاظ تعرض عتبها
 فأحييت ودأ كان كالرسم عافياً
 تعفي رياح العذر منك رقومه
 نعم قوُضت منك المودة وانقضت
 أموالي لا تسلك من الظلم والجفا
 ولا تنس مني صحبة تصدع الدجا
 صحبتك لا ألوي على صاحب عطا
 وحاولت من إثناء ودك ما نأى
 يقلب لي وجدي به سوط سائق
 وكم خدمة عجلتها ومحبة
 وكم أسطر مني ومنك كأنها
 وقلب خليل ينشد الودّ همه

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل
 تعرض أثناء الوشاح المفصل
 بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(٣)
 لما نسجتها من جنوب وشمال^(٤)
 فيا عجباً من رحلها المتحمل
 بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل^(٥)
 بصبح وما الإصباح مني بأمثل
 بجيد معم في العشيّة مخول^(٦)
 فأنزلت فيه العصم في كل منزل
 وإرخاء سرحان وتقريب تتفل^(٧)
 تمتعت من لهو بها غير معجل
 عذاري دراري في ملاء مذيل^(٨)
 ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

- (١) الصرم: القطيعة - أزعج: نوى وعزم على الأمر.
 (٢) سمّرات: جمع سمرة وهي شجرة الطلح - الحنظل: نبات شديد الحرارة. - الناقف: الذي يكسر الحنظل، وناقف الحنظل يبقى سائل الأنف، كثير الدمع لشدة حرارة الحنظل.
 (٣) العافي: الممحو غير الواضح - الرسم: الأثر - سقط اللوى والدخول وحومل: أسماء أماكن في الصحراء العربية.
 (٤) الرقوم: النقوش - الجنوب والشمال: الريح.
 (٥) الخبت: الوادي العميق المحدود - القفاف: التلال والوهدات ويروى: حفاف وهي الرمال المرتفعة - العقنقل: الوادي العظيم المتسع والكثيب من الرمل.
 (٦) المعم: ذي الأعمام - المخول: ذي الأخوال.
 (٧) الإرخاء: السير السريع/السرحان: الذئب - التقريب: السير البطيء - التتفل: ولد الثعلب أو الثعلب عينه.
 (٨) الملاء: الثوب الفضفاض تلتف به المرأة من قمة رأسها إلى أخصص قدميها - المذيل: المطرزة أذياله.

وكم ناصح كذبت دعواه إذ غدت
 ولحية لاح غاؤها ضحكي على
 ترى بعمر الآرام في عرصاتها
 نزعت لسكري ساحباً من صبابتي
 إلى أن تبدي عذره متمطياً
 فلاطفته في حالتيه ولم أقل
 وذن بأسطار كأن يراعيها
 ويقرع سمعي من معاريف لفظه
 وعدنا لود يملأ القلب عوده
 أعدت صلاح الدين عهد مودة
 فدونك عتبي اللفظ ليس بفاحش
 وعادات حب هن أشهر فيك من
 عليّ وآلت حلفة لم تحلل (١)
 أثيث كقنو النخلة المعثكل (٢)
 وقيعانها كأنه حب فلفل
 على إثرها أذيال مرط مرحل (٣)
 وأردف اعجازاً وناء بكلكل (٤)
 فسلي ثيابي من ثيابك تنسل
 أساريع ظبي أو مساويك إسحل (٥)
 مداك عروس أو صلاية حنظل (٦)
 بشحم كهذاب الدمقس المفتل
 بكل مغار الفتل شدت يذبل (٧)
 إذا هي نصته ولا بمعطل (٨)
 فقا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

والذي أقوله: المهيح الذي اخترعه الإصاحب فخر الدين بن مكانس، ومشي عليه في تضمين هذه المعلقة، يعد من المعلقات في بابيه، فإنه ضمنها في مداعبة رجل من أصحابه، كان كبير الأنف وأتى بما لا اختلج في صدر متأدب، ولا سمع بعده المرقص والمطرب، وهو قوله:

تأنف عن وصف الغزال تغزلي بلحية أنف ذي عقاص ومرسل

أنظر أيها المتأدب ما ألطف تأنف هنا، وألطف منه قوله بلحية أنف، فإن العقاص

-
- (١) آلي: حلف.
 (٢) اللاحي: اللائم - الأثيث: الملتف - قنو النخلة: العنقود - المتعثكل: المتشابك.
 (٣) المرط: الإزار - المرحل: الموشى.
 (٤) أردف أعجازاً: أتبع المؤخره - ناء: بعد - الكلكل: الصدر.
 (٥) أساريع الظبي: أصابعه واحدها أسروع - المساويك: جمع مساوك: وهو عود تنظف به الأسنان - الإسحل: الشجر الذي تتخذ منه المساويك.
 (٦) المداك: المسك المدقوق دقاً وتستعمله العرائس عادة أو هو الحجر الذي يسحق به - صلاية الحنظل: الحجر الأملس الذي يكسر عليه، وهو نبات شديد الحرارة.
 (٧) مغار الفتل: محكم الجدل وهو الجبل المتين - يذبل: إسم جبل في الصحراء.
 (٨) نصته: أبرزته وأظهرته - المعطل: الذي لا حلي فيه.

جمع عقيصة وهو ما جمع من الشعر، والمرسل الشعر المسرح، ومراده أن لحية هذا الأنف غزيرة الشعر مسرحية وقال مشيراً إليها:

من البقّ فيها جملة قد تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل^(١)
فيا قبج شعر فوق أنف معرقص أبيض كقنو النخلة المتشكل^(٢)

الأبيض الكثير والمتشكل الذي دخل بعضه في بعض لكثرتة وتدلّى وهكذا قنو النخلة الذي شبه به الصاحب فخر الدين هذا الأنف، ولعمري إن هذا الإيداع من السحر في نقله إلى هذه الصفة الغريبة وقال بعده:

وقالوا اختبا في شعره فكأنه كبير أناس في بجاد مزمل
هذا التشبيه بالنسبة إلى كبر الأنف نوع من الغلو، وهو من المخترعات في بابه، فإن امرأ القيس شبه به جبل ثبير فقال:

كان ثبيراً في عرانيين وبله كبير أناس في بجاد مزمل
والعرانيين جمع عرنين وهو الأنف، والويل ما عظم من المطر، والبجاد كساء مخطط من الشعر الأبيض والأسود، فنقله الصاحب فخر الدين في إيداعه إلى الأنف، لما فيه من الشعر الأبيض والأسود الذي انتسج في أنفه كالبجاد، ولما اختفى في ذلك الشعر، بكبير أناس في بجاد مزمل أي ملتف، وقد تقدم قولي إنه من المخترعات.

مقلص كلتا الجانبين كأنه لدى سمرة الحي ناقف حنظل
وهذا التشبيه أيضاً من العجائب، فإن هذا الأنف لم يبرح سائلاً، فشبهه الصاحب برجل ناقف حنظل، فإن ناقف الحنظل كثير الدمع لشدة حرارته. وقال:

ترى القمل والصبيان في عرصاته وقيعانه كأنه حب فلفل^(٣)
وفي جوفه شعر طويل كأنه بأرجائه القصى أنابيش عنصل
فيا لك شعراً فوق أنف معظم يلوح كهذاب الدمقس المفتل
وكم قلت إذ أرخى ذوائب أنفه علي بأنواع الهموم ليبتلي
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

(١) البق: نوع من الحشرات التي تشبه القمل ولكنها أكبر منه.

(٢) المعرقص: المجدد كثيراً.

(٣) العرصات: واحدها عرصة وهي ساحة الدار - والقيعان: مفردها قاع: وقاعة الدار ساحتها أيضاً.

الصاحب فخر الدين رحمه الله ضمن هنا عجزاً وبيتاً كاملاً بنصف بيت واحد، وفي هذا من الروية والقوة ما يزيد على الوصف، وأما قوله بعدما أرخى هذا الرجل ذوائب أنفه: ألا أيها الليل الطويل ألا انجل، فإن هذا نوع من السحر بل السحر بعينه، ومن المبالغة المفرطة في هذا الباب قوله:

كأن الفسا إن قيس مع ريح أنفه
تري شعرات الأنف سدت خدوده
وقد درست بالأنف آثار وجهه
كأنني بمولانا على وصف أنفه
وجرد شعر الأنف منه وجاءنا
مكر مفر مقبل مدبر معاً
نسيم الصبا جاءت برياً القرنفل (١)
لما نسجتها من جنوب وشمال
فهل عند رسم دارس من معول (٢)
تولى بأعجاز وناء بكل كل
بمنجرد قيد الأوابد هيكل
كجلمود صخر حطه السيل من عل

هذا الذي وقع عليه الاختيار من اختراع الصاحب فخر الدين، تغمده الله برحمته ورضوانه، ولعمري إنه من الاختراع الذي لم يسبق إليه، ولا حام فكر من قبله عليه. انتهى.

وكان الأمير مجير الدين بن تميم يجنح إلى نوع الإيداع كثيراً، وأتى فيه بالعجائب والغرائب، وقال من شغفه بالتضمين:

أطالع كل ديوان أراه
أضمن كل بيت فيه معنى
ولم أزجر عن التضمين طيري
فشعري نصفه من شعر غيري

ومن تضامينه:

أفدي الذي أهوى بفيه شارباً
أبدت لعيني وجهه وخياله
من بركة راقت وطابت مشرعا
فأرتني القمرين في وقت معا

وله أيضاً:

وشبابة قد كنت أهوى سماعها
وها أنا قد فارقتها غير نادم
وقد صرت منها بعدما تبت أنفر (٣)
وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

(١) الفسا: الريح الذي يخرج من دبر الإنسان.

(٢) درس: أمحى - المعول: الفائدة أو ما يعوّل عليه.

(٣) الشبابة: آلة موسيقية قديمة يستعملها الرعاة عادة وهي عبارة عن قصبه فيها خمسة ثقوب أو ستة توضع =

وأورد العميان في شرح بديعيتهم بيتين ذكروا أن تضمينهما لبعض المتقدمين من المغاربة، وهما على طريقتهم، ولكن أعجبايي، وهما:

وفرع كان يوعدني بأسر وكان القلب ليس له قرار
فنادى وجهه لا خوف فاسكن كلام الليل يمحوه النهار

ومن التضامين البديعة قول زكي الدين بن أبي الأصبع، وقد جعل مطلع أبي الطيب عجزين لبيتين، فلم يلحق فيهما، فإنه نقلهما من فخامة التحمس إلى زخارف الغزل، بقوله:

إذا الوهم أبدى لي لماها وثرها تذكرت ما بين العذيب وبارق
ويذكرني من قدها ومدامعي مجرّ عوالينا ومجرى السوابق

ومن تضامين ابن تميم:

عائنت في الحمام أسود واثياً من فوق أبيض كالهلال المسفر^(١)
فكأنما هو زورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وقال في الفانوس:

يقول لي الفانوس حين أتوا به وفي قلبه نار من الوجد تسعر
خذوا بيدي ثم اكشفوا الثوب نظروا ضنى جسدي لكنني أستر
وله: أزهر اللوز أنت لكل زهر من الأزهار يأتينا إمام
لقد حسنت بك الأيام حتى كأنك في فم الدهر ابتسام
وقال: لو كنت إذ أبصرتها سارة للشمس في أمواها لألاء^(٢)
لرأيت أعجب ما ترى من بركة سال النضار بها وقام الماء
وقال غيره، وسبكه في غير هذا القالب:

لو كنت في الحمام والحنا على أعطافه ولجسمه لألاء
لرأيت ما يسبيك منه بقامة سال النضار بها وقام الماء

عليها الأصابع وينفخ فيهامع تحريك الأصابع فيسيل منها نغم مطرب، وقد تكون مصنوعة من الحديد أو النحاس أو ما إلى ذلك وتعرف أيضاً بالقصبة.

(١) واثياً: مصاباً بالوثء وهو وسم يصيب لحم اليد ولا يبلغ العظم. المسفر: المكشوف.

(٢) أمواه: جمع: ماء.

وقال: يا من يقول بأن رشف لمي الحبايب لم يرق
وغدا يعنفني به دع عنك تعنيفي وذق

وقال: لما رأيت البدر في ساعدي ونرجس الأنجم قد صوّحا^(١)
أفريت رشفاً فيه ريق الدجا من قبل أن ترشف شمس الضحا
وقوله: صهباء ريقته رشفت سلافها وتغلبت فعجزت أن أتكلما
وإذا سئلت أقل لمن هو سائل إني لأعلم ما تقول وإنما^(٢)

ومن محاسن الشيخ سراج الدين الوراق قوله:

توارت من الواشي بليل ذوائب له من جبين واضح تحته فجر
فدل عليها شعرها بظلامه وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

نقله الشيخ شمس الدين بن الصائغ إلى المداعبة، وزاده تورية، بقوله:

تطلبت حجراً في الظلام فلم أجد ومن يك مثلي حية دأبه الحجر^(٣)
فناداني البدر الأديب إلى هنا وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

ويعجبني من تضمين ابن أبي الاصبح قوله، وهو منقول من الحماسة إلى الغزل:

له من ودادي مثل كفيه صافياً ولي منه ما ضمت عليه الأنامل
ومن قده الزاهي ونبت عذاره صدور رماح أشرعت وسلاسل
وقوله: هذا الذي أنا قد سمحت بحبه كرمأ بلؤلؤ دمي المتنظم
لا تحرموني ضم أسمر قده ليس الكريم على القنا بمحرم

ومن تضامين الشيخ محمود البديعة قوله:

من حاتم عدّ عنه واطرح فبه في الجود لا بسواه يضرب المثل
لو مثل الجود سرحاً قال حاتمهم لا ناقة لي في هذا ولا جمل^(٤)

(١) صوّح: جفّ ويس.

(٢) وإنما لا أستطيع التكلما.

(٣) الحجر: بيت الحية - دأبه الحجر: دأبه طلب الحجر.

(٤) لا ناقة لي في هذا ولا جمل: مثل يضرب فيمن لا يعنيه شيء من الأمر.

ومن محاسن تضامين شمس الدين محمد بن العفيف البديعة قوله:

قالوا غداً تندم عن لثمه في خده إذ يغلب السكر
فقال لي مبسمه دعهم اليوم خمر وغداً أمر^(١)
وقال: جلا ثغراً وأطلع لي ثنايا يسوق بها المحب إلى المنايا
وأنشد ثغره يبغي افتخاراً أنا ابن جلا وطلاع الثنايا

ومن تضامين مجير الدين بن تميم التي تطفل الناس عليها بعده قوله:

إن تاه ثغر الأقاحي إذ تشبهه لله حبك واستولى به الطرب
فقل له عندما يحكيه مبتسماً لقد حكيت ولكن فاتك الشنب^(٢)

ومن تضامين القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر البديعة قوله:

وناطقة بالروح عن أمر ربها تعبر عما عندها وتترجم
سكتنا وقالت للقلوب فأطربت فنحن سكوت والهوى يتكلم

ومن تضامين الشيخ صلاح الدين الصفدي قوله:

ملكت كتاباً أخلق الدهر رسمه وما أحد في دهره بمخلد
إذا عاينت كتبي الجديدة جلده يقولون لا تهلك أسي وتجلد
وقال: قل للرقيب يسترح من عذلي ما أصبح المعشوق عندي مشتهي
وارتد قلبي عن سيوف لحظه وكل شيء بلغ الحد انتهى

وقال مضمناً ومكتفياً:

رشفت ريقك حلواً فلم يكن لي صبر
وسوف أحظى بوصل وأول الغيث قطر

ومن تضامين الشيخ عز الدين الموصلبي:

وعلق يرى للترك فيه تحمس يقود عليه أحذب ويعاشره^(٣)
إذا جاءه اللوطي يطلب وصله ثنى طرفه نحو الحسام يشاوره

(١) اليوم خمر وغداً أمر: قالها أمرؤ القيس عندما بلغه مقتل والده وقد كان خلياً لا هم له يشرب الخمرة ويلهو، فصار مهتماً بالتأثر لأبيه.

(٢) حكيت: شابهت - الشنب: بياض الأسنان ورقتها.

(٣) العلق: الصعلوك من الناس، أو المخنث المتشبه بالنساء - يقود عليه: يجلب له الزبائن وهي من القوادة أي القيادة إلى الفحش - يعاشره: يجامعه، يلوطه.

وله أيضاً:

جَاد لنا كالشادن الربيب
فقال في السكرة عند نومه
وقال: نادمت قوماً لا خلاق لهم ولا
يستيقظون إلى نهيق حميرهم
وقال: لحديث نبت في العذار حلاوة
فإذا نهاني المرء قلت تمهلوا

لحظته بالنظر المريب
يا رب سلمها من الدبيب^(١)
ميل إلى طرب ولا سمار
وتنام أعينهم عن الأوتار
وطلاوة هامت بها العشاق
فإليكم هذا الحديث يساق^(٢)

ومن تضامين الشيخ برهان الدين المعمار التي أجاد فيها قوله:

عزمت على رقى محاسن وجهه
فلما بدا يفتر عن نظم ثغره
وكتب الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، إلى الشيخ سيف الدين الأمدي:
لئن تقدم قوم عصر سيدنا
وإن يكن علمه فرعاً لعلمهم
وإن أتت قبله كتب مؤلفة

بأنوار آيات الضحى حين أقبلنا
بدأت بيسم الله في النظم أولاً^(٣)
فكم تقدم خير المرسلين نبي
فإن في الخمر معنى ليس في العنب
فالسيف أصدق إنباء من الكتب

ومن الغايات في هذا الباب، قول الشيخ بدر الدين بن صاحب:

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا
وللوفاء عمود من أصابعه
ومما جاد به الشيخ برهان الدين القيراطي، في تضمينه:
قل في اخضرار عذاره وقوامه
وانشر من الأغزال في أردافه

كالروض تطفوا على نهر أزاهره
ومخلق تملأ الدنيا بشائره
خلع الربيع على غصون البان
حللا فواصلها على الكئيبان^(٤)

ومن غايات الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة في هذا الباب قوله:

قل للهلال وغيم الأفق يستره
لك البشارة فاخلع ما عليك فقد
حكيت طلعة من أهواه بالبلج
ذُكرت ثم على ما فيك من عوج

(١) الدبيب: سريان الخمرة في المفاصل بعد شربها.

(٢) المرء: جمع أمرء وهو الشاب لم تنبت لحيته بعد.

(٣) يفتر: يتسم حتى تبدو أسنانه.

(٤) الأرداف: جمع ردف وهي المؤخره - الكئيبان: جمع كئيب: تلة الرمل.

ومن تضامين علاء الدين بن أيبك الدمشقي البديعة قوله :

أقول وقد ظمئت ووجه حيي له عرق على ورد الخدود
أرى ماء وبني ظمأ شديد ولكن لا سبيل إلى الورود

ومن تضامين القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قوله :

لقد قال لي إذ رححت من خمر ريقه أحت كؤوساً من ألد مقبل^(١)
بلثم شفاهي بعد تقبيل مبسمي تنقل فلذات الهوى في التنقل

وظريف في هذا الباب قول الشيخ بدر الدين بن المنيجي :

ولما خلونا والمسرة بيننا وقد عز شرب الراح فينا عن الشرب^(٢)
تعوض كل بالحشيش عن الطلا ومن لم يجد ماء تيمم بالترب^(٣)

ومن تضامين شهاب الدين بن أبي حجلة البديعة قوله :

يحكي سنا الفانوس من بعد لنا برقاً تألق موهناً لمعانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به أجفانه

وقال فيه :

أنا في الدجا ألقى الهوى وبمهجتي حرق يدوب لها الفؤاد جميعه
وكأنني في الليل صب مغرم كتم الهوى فوشت عليه دموعه

وقال وأجاد :

يا صاح قد حضر الشراب ومنيتي وحظيت بعد الهجر بالإيناس
وكسا العذار الخد حسناً فاسقني واجعل حديثك كله في الكاس

ومن تضامين الشيخ برهان الدين القيراطي :

تجمعت من نطف ذاته حتى بدا في قالب فاسد
وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

(١) المقبل : مكان التقبيل وهو الفم .

(٢) المسرة : الفرحة - الشرب : الذين يشربون الراح وهي الخمرة .

(٣) الحشيش : نوع من المسكرات يدخن تدخيناً والطلا : الخمرة .

وقال مضمناً في قطائف:

تخيرتها فاختر لنفسك ما يحلو
وكلي إن حدثكم السن تتلو

لقد نطقت زهر الثنا بقطائف
تقول اسمعوا مني مدائح مرسلي

وله في باذهنج وأجاد:

بإطفاء ما ألقاه من حرق الجوى^(١)
أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى

بروحي أفدي باذهنجاً موكلاً
إذا فتحت في الحر منه طوابق

وقال فيه:

صفاتك ما وفي بهن خطاب
على أن عشقي في هواك صواب

أيا باذهنجا صح فيه لنا الهوا
وما شئت إلا أن أدل عواذلي

وقال فيه الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة وأجاد:

لأن نسيمه أبداً عليل
إذا صح الهوى دعهم يقولوا

هجا الشعراء جهلاً باذهنجي
فقال الباذهنج وقد هجوه

ويعجبني من قصائد الشيخ برهان الدين القيراطي قوله:

أبدأ على الماء الكثير مواظبا
ويظن دجلة ليس تكفي شاربا

وموسوس عند الطهارة لم يزل
يستصغر البحر الكبير لذقه

ومن غاياته في هذا الباب قوله:

قد انتشرت في الخافقين غياهبه^(٢)
دجا الليل حتى نظم الجزع ثاقبه^(٣)

ولما بدا والليل أسود فاحم
أضياء بدر الثغر عند ابتسامه

وقال بدر الدين حسن الزغاري وأجاد:

قد اكتسبت من وجنتيه احمرارها
تناولها من خده فأدارها

وبي سامري مربى في عمامة
موردة دارت بوجه كأنما

(١) الباذهنج: شجر طيب الرائحة.

(٢) الخافقين: الأفقين - الغياهب: الظلمات.

(٣) الجزع: نوع من الخرز الأسود.

ومثله قول الشيخ عز الدين الموصلي:

وسامري أعار البدر منه سنا
تهتز قامته من تحت عمته

ومن تضامين محيي الدين بن قرناص الحموي:

وأفديه أغيد زارني تحت الدجا
والفرق بين الشعر فوق جبينه

وقال أيضاً:

سقى الله روضاً قد تبدى لناظري
وقد نضحت خداه من ماء ورده

وقوله في كاحل:

دعوا الشمس من كحل الجفون فكفه
فكم أذهبت من ناظر بسواده

وقال الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة:

ومتى امتطيت من الكؤوس كميتها
ومتى طرقت عشى أنس دبرها

وقال ابن الوردي: تعجبت من اشتها بيتين ما أحكهما بانيهما، ولا اعتنى بمعانيهما
وهما:

مقامات الغريب بكل أرض
كبنيان القصور على الثلوج
يذوب الثلج تنهدم البنايا
وقد عزم الغريب على الخروج

فخلصتهما من مقامات الغريب بكل أرض، وأوقدت فكرتي فذاب الثلج، وانهدمت
البنايا المستحقة للنقض، وجعلتهما أسمى من السماء، ونقلتهما من كثافة الأرض،
فقلت:

مليح ردفه والساق منه
خذوا من خده القاني نصيباً
كبنيان القصور على الثلوج
فقد عزم الغريب على الخروج

(٤) الدواهي: المصائب.

قلت، وقد سألني بعض حذاق الأدب عن بيت ابن مطروح، الذي لم تصل أفواه
البلغاء إلى لثم أعتابه، ولا الحضور إلى جنبه، ولا وجدوا طاقة للدخول من بابه، فضمنته
تضميناً لو سمعه ابن مطروح ل طرح نفسه خاضعاً، وسلم إليّ مفاتيح بيته طائعاً، وهو
قوله:

لبسنا ثياب العناق مزررة بالقبل

فقلت:

ولما خلعنا العذار فككنا طويق الخجل
لبسنا ثياب العناق مزررة بالقبل

ومن تضامين الشيخ زين الدين بن الوردى ما ذكره في ديوانه، أنه كان له صاحب
يدعي بالمجد، حصل له أذية مفرطة من زوجته، وأبيها وجدها، فكتب إليه الشيخ:

زوجة مجد الدين والداها في ثلب عرض المجد أشبهها(١)
إن أباه وأبا أباه قد بلغا في المجد غايتها

ومن تضميني الذي ما حام فكر من ضمن اعجاز الملحّة عليه، ولا سبقني جواد من
فحول العربية إليه قولي مداعباً:

نصبت أيري إذ نحوت نيكة وهو يريد رفعها لي ابتدا
وبعد ذا للجر قد أضفته وفي المضاف ما يجر أبدا

وأنشدني من لفظه الكريم، قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر، من هذا الباب
بيتين كان مولانا قاضي القضاة علاء الدين يترنم بهما:

تبه فلان الدين مع فقره أقوى دليل أنه جاهل
لثوبه بالصقل من فوقه قعاقع ما تحتها طائل(٢)

وقال أيضاً في المجون:

وشاعر فاسق أتى امرأة من خلف إذ سامه المليح قلى
وقال إذا عاتبوه معتذراً تلجى الضرورات في الأمور إلى(٣)

(١) ثلب: تجريح. وعيب.

(٢) القعاقع: الكثير التصويت على غير طائل، والطائل: النتيجة والفائدة والمعنى.

(٣) إلى: إلى الممنوعات.

ومن تضاميني الغربية:

حشت عزمي شوقاً إليكم
وحيث لم أحظ بالتلاقي
فلم أطق مكثه بأرض
فغاييتي أن ألوم حظي

وقولي:

يقول معذبي حسن تخير
وكم في الناس من حسن ولكن
سواي فقلت قد عز اصطباري
عليك لشقوتي وقع اختياري

وأُشد المقر المرحومي محمد بن منهال ناصر الدين، عين الموقعين بدمشق المحروسة، بيتين لابن الوردي، والأصل للحريري صاحب المقامات:

لوجنة صيادكم نسخة
يقول لنبت العذار اجتهد
حريية ملححة في الملح
ومدّ الشباك وصد من سنح^(١)

فنظمت في ذلك المجلس بيتين اعترفت لهما القصور العوالي بالقصر، وما شك أحد أن أبا بكر مقدم على عمر:

غدا طير أفراحنا سانحا
فقلنا لدر الحباب اجتهد
يحوم على ورد عذب القدح
ومد الشباك وصد من سنح

ومن تضاميني الغربية ما ضمنته قول عنترة في معلقته:

وإذا سكرت فإنني مستهلك
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى
مالي وعرضي وافر لم يكلم
وكما علمت شمائلي وتكرمي

فقلت:

جاد النسيم على الربا
أنا ما أقصر عن ندى
بندى يديه وقال لي
وكما علمت شمائلني

وبيت الشيخ صفي الدين في هذا النوع:

إذا رآه الأعادي قال قائلهم
حتام نحن نساري النجم في الظلم

الشيخ صفي الدين ضمن في بيته الشطر الأول من مطلع المتنبي، وشطره الثاني: «وما سراه على خف ولا قدم».

(١) سنح: ظهر وتعرض أو مرّ من اليمين إلى الشمال.

وبيت العميان:

واسمح بنفسك وابذل في زيارته كرائم المال من خيل ومن نعم
والعميان ضمنوا الشطر الثاني من بيت الشريف الرضي، وشطره الأول: «ماض من العيش
لو يفدى بذلت له».

وبيت الشيخ عز الدين:

إيداعه الفضل في الأصحاب شرفهم بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم
والشيخ عز الدين ضمن الشطر الثاني من بيت المتنبي، من قصيدته لتي ضمن فيها
الشيخ صفي الدين الشطر الأول وهو قوله:

ولم تنزل قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم

وبيت بديعيتي أنا مستمر فيه على المديح النبوي تابع لقولي، وهو:

وآله البحر آل أن يقس بنسدي كفوفهم فافهموا تنكيت مدحهم
وفي الوغى رادفوا لسن القنا سكناً من العدا في محل النطق بالكلم
وأودعوا للثرى أجسامهم فشكت شكوى الجريح إلى العقبان والرحم

وأنا أيضاً ضمننت في بيتي شطراً ثانياً من ميمية المتنبي، والشطر الأول: «ولا تشك
إلى خلق فتشمته، ووجه الاستحقاق هنا سافر لمستجلي محاسن هذا النوع، والله أعلم».



ذكر التوهيم

والبعض ماتوا من التوهيم واطرحوا والسمر قد قبلتهم عند موتهم^(١)
قلت: هذا النوع، أعني التوهيم، وتقدمه باب الترشيح، كان الأليق بهما أن ينتظما
في سلك باب التورية ويذكر التوهيم مع إيهامها والترشيح مع المرشحة، وقد تقرر كل من
النوعين وتقدم في بابه، والذي مشى عليه الشيخ صفي الدين هنا هو إيهام التورية وهو قوله:
حتى إذا صدروا والخيل صائمة من بعد ما صلت الأسياف في القمم
فذكر صيام الخيل، هنا، يوهم السامع أن السيوف صلت من الصلاة، ومراده
الصليل وهو صوت الحديد، وأعظم الشواهد على هذا النوع قوله تعالى: ﴿والنجم
والشجر يسجدان﴾^(٢) بعد قوله: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾^(٣) فإن ذكر الشمس والقمر،
هنا، يوهم السامع أن المراد بالنجم أحد النجوم، والمراد به النبات الذي لا ساق له.
قال ابن أبي الأصبع: وقد يأتي التوهيم للمطابقة، كقول أبي تمام رحمه الله تعالى:
تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر
فإنه أوهم بالمطابقة بين الأحمر والأخضر، وليس يطابق، إذ الأحمر لا يطابق

(١) السمر: الرماح - التقييل: الطعن في الثغر - ويحتمل أن يكون السمر النساء، والتقييل: الاتجاه نحو
القبلة.

(٢) الرحمن، ٦/٥٥.

(٣) الرحمن، ٥/٥٥.

الأخضر، وفرع منه ضرباً آخر فقال: هو أن يأتي المتكلم بكلمة توهم، بما بعدها من الكلام، أن المتكلم أراد تصحيحها ومراده خلاف ذلك، كقول أبي الطيب:

وإن الفئام التي حوله لتحسد أرجلها الأروس

فإن الأرجل أوهمت السامع أن لفظة الفئام بالقاف، ومراد الشاعر الفئام بالفاء، وهي الجماعات الكثيرة، هكذا روي هذا البيت، والمبالغة تقتضيه فإن القيام بالقاف يصدق عليه أقل الجمع. انتهى.

وبيت عز الدين الموصلي:

يا سائراً مفرداً أعربت لحنك في توهيم منع رضاع الشاء من حلم

قلت: هذا البيت المبارك عجزت عن حلّ معناه، إذ ليس له تعلق بما قبله، ولا بما بعده، ولا بمدح النبي ﷺ، ولم أزل في حيرة إلى أن وقفت على شرح المصنف، فوجدته قد قال: الحلم مشتق من الحلمة، وهي رأس الثدي، ويحصل في جلد الشاة دود، فتقول العرب: حلمت وحلم أديمها، أي وجد الدود في جلدها، ثم قال: ومعنى البيت، أنني أخاطب سائراً في الطريق مفرداً بنفسه عن الناس، لا يرغب في مرافقة أحد، فقلت: له وأنت تتوهم بترك اجتماعك بالناس معنى لا تظهره، كما يوهم الراعي بمنع رضاع الشاء، أن جلودها حلمت، وحلم بين حلم الشاة وحلم الأديب. قلت والله ما ازددت إلا حيرة في تفسير هذا الشرح، والذي أقوله: إن الشرح والنظم في العقادة، وعدم الفائدة، كفرسي رهان.

وبيت بديعيتي تقدم قبله وهو:

وأودعوا للثرى أجسامهم فشكت شكوى الجريح إلى العقبان والرحم

وقلت بعده في التوهيم:

والبعض ماتوا من التوهيم واطرحوا والسمر قد قبلتهم عند موتهم

فذكر الموت في البيت يوهم السامع أن نساءهم السمر قد أدارتهم إلى جهة القبلة، كما هو المعهود. والتوهيم هنا في التقبيل وفي السمر، والمراد بالسمر الريح، وبالتقبيل الطعن في الأفواه التي تنزل هنا منزلة التقبيل، واستعارة التقبيل للريح في غاية الحسن، فإنهم شبهوا سنان الريح باللسان، وشبهوا مواقع الطعن بالثغور. ويعجبني هنا قول ابن المزين في الريح:

لا بالسيوف وسل من الشجعان
نوديت يوم الجمع بالمران^(١)
كلمتهم فيه بكل لسان^(٢)

أنا أسمر والراية البيضاء لي
لم يحل بي عيش الغداة لأنني
وإذا تفاخمت الكماة بجحفل



(١) المران: الرماح اللدنة الصلبة واحدها مرانة.
(٢) تفاخمت: علت قدراً - الكماة: الأبطال الشجعان - الجحفل: الجيش الجرار - كلم: جرح - اللسان:
من الرمح سهمه.

ذكر الألفاظ

وكل ما ألغزوه حله لسن مذ طال تعقيده أزرى بفهمهم
هذا النوع، أعني الألفاظ: يسمى المحاجاة والتعمية، وهي أعم أسمائه، وهو أن يأتي المتكلم بعدة ألفاظ مشتركة، من غير ذكر الموصوف، ويأتي بعبارات يدل ظاهرها على غيره، وباطنها عليه، وأبدع ما فيه أنه لم يسفر في أفق الحلى غير وجه التورية، وأما تعسف الفرقة التي ليس لها إمام بالتورية في الألفاظ، فأمرهم مسلم إليهم، وأما علماء هذا الفن فإنهم ما قرروا غير ما قررناه، فمن ذلك قول أبي العلاء في ابرة:

سعت ذات سم نبي قميصي فغادرت به أثراً والله شاف من السم^(١)
كست قيصراً ثوب الجمال وتبعاً وكسرى وعادت وهي عارية الجسم

وقول ابن حراز في خيمة:

ومضروبة من غير ذنب أتت به إذا ما هدى الله الأنام أظلت^(٢)
قلت: لغز أبي العلاء ولغز محيي الدين، لم تسفر فيهما الوجوه الحسان إلا من وراء ستور التورية، ومنه قول ابن حراز فيمن اسمه عثمان:

حروفه معدودة خمسة إذا مضى حرف تبقى ثمان

ومن أطف الألفاظ في القلم:

وذي خضوع راعع ساجد ودمعه من جفنه جاري
مواظب الخمس لأوقاتها منقطع في خدمة الباري

(١) السَّم: الثقب، وذات السَّم: الإبرة. والسَّم: مادة تسبب الموت.
(٢) المضروبة: التي ضربت من الحيوانات فشارفت على الموت، والخيمة.

وقول ابن عبد الظاهر في شربه في كوز الوزير:

وذي أذن بلا سمع له قلب بلا قلب
إذا استولى على حب فقل ما شئت في الصب

ومن لطائف ما وقع في باب الأغاز أن شيخ الشيوخ بحماة كتب إلى والده ملغزاً
في باب، بقوله:

ما واقف بالمخرج يذهب طوراً ويجي
لست أخاف شره ما لم يكن بمرتج^(١)

فكتب إليه والده في الكتاب:

ذهاب ومجيء وخوف وشر، هذا باب خصومة والسلام.

وقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ملغزاً في باب:

أي شيء تراه في الدور والكتيب مجازاً هذا وذاك محقق
هو زوج وتارة هو فرد وهو في أكثر الأحيان يطرق
وطليق في نشأته ولكن بحديد من بعد ذلك يوثق^(٢)
وهو في القلب يستوي وتراه بان تصحيفه لمن يترمق^(٣)
فأجبنى عنه بقيت مطاعاً لست في حلبة الفضائل تسبق

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي في باذهنج، وأجاد:

أهواؤنا المختلفة قد أصبحت مؤتلفه
في شامخ بأنفه على العوالي أنفه
وذي جناح لم يطر وكل طير ألفه
جناحه طول المدا يبدي علينا رفرفه
في الريح ضاع قول من على هواه عنفه
عليه الصحيح كم شفى قلوباً دنفه
وروحه لطيفة وذاته منحرفه

(١) أرتج: الباب، أقفله.

(٢) يوثق: يربط، ويقيد.

(٣) التصحيف: تغيير نقط الحروف - المترمق: المحدد النظر.

عن قبلة الدين أرى
ولم تكن مع الهوا
هواه تحت طوعه
ما زال غير شاكر
وكلما أسرف في
أنفاسه كم أودعت
كم رنحت من غصن
معتله هو الصحيح عند من قد عرفه

وقال محيي الدين ملغزاً في قمري:

ما معمى ورأسه
كم له من مترجم
كم خواف له بدت
كله معجم وإن
في عداد المطير
كم له من مسح
لالتماع المبصر^(٢)
زال بعض اسمه قري

وقال المقر المرحومي الأميني، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بدمشق المحروسة، ملغزاً في فاخنة^(٣):

وما طائراً يهوى الرياض تنزهاً
هجاء اسمه خمس حروف تعدها
وبعدهما تصحيف باقيه إن ترد
وفيه أخ إن تهت عنه فأخته
ويسرح في أفنانها ويغرد
وخمسه حرف إن تأملت مفرد
بياناً له أفعى تبين وتشهد
تدل على ما قد عنيت وترشد

هذا اللغز ورد إلى الديار المصرية، وحله بقية السلف الشيخ زين الدين بن العجمي، وأجاب عنه بقوله:

أيا من له مجد أثيل وسودد
تفيد يسار المقتيرين يمينه
غدا دون مرقاه سماك وفرقد^(٤)
ويسراه من يمني الغمامة أجود

(١) رنج: أسكر، وأمال.

(٢) الخوافي: أربع ريشات في جناح الطائر تختفي إذا ضم الطائر جناحه، واحداً خافية.

(٣) الفاخنة: نوع من الحمام المطوق، يباعد بين جناحيه وإبطيه ويتمايل في مشيه.

(٤) الأثيل: الأصيل المتجذر - السودد: الرفعه - مرقاه: ارتقاؤه - السماك والفرقد: نجمان، وهنالك سماكان وفرقدان.

ونقل الشيخ جمال الدين الدميري في كتابه «حياة الحيوان» لغزاً في بجمع :

ما طائر في قلبه يلوح للناس عجب
منقاره في وسطه والعين منه في الذنب

وكتب علامة العصر الشيخ بدر الدين الدماميني، إلى المجدي فضل الله بن مكانس، ملغزاً في قدح، فقال: ما اسم حبيب إلى النفوس، شبيه بالبدر حليف للشموس، إن قلب كان لقلبه من العين مكان المناسب، أو سقط قلبه مع الفعل كان ضدّاً للأقوال الكاذبه، وإن صحف بعد العكس أنبأ عن الذكاء وهذا غاية الشرح، وإن غير ثانياً علم رب الكلام المحرر أنه دال على الطرح، حاشيته مع التصحيف آلة للصيد، معينة على المكر والكيد، وإن قطع طرفه كان صراح باقيه قواماً، وإن عكس على الطرف صار بتصحيفه مداماً، وإن زال أوله كان العكس عقاباً بالمتعاطي إثمه، أو صحف اشتاقت الشفاه إلى تقبيله ولثمه، وربما كان الحد عند تصحيفه الآخر منافياً لاسمه، مبيناً في الحقيقة لحدّه ورسمه.

فكتب الجنب المجدي الجواب وألغز في ورد بقوله: يقبل الأرض التي أطالت بالجفاء حرمانه، وتداركته بعد إجراء دموعه فعظمت في الحالين شأنه، وانتهى المملوك إلى اللغز الذي تمتع بملحه، وشرب بقدحه، فابتهل شكراً، ومالت أعطافه بالقدح الفارغ سكرًا، فوجده كما قال مولانا حبيباً إلى النفوس، مجتهداً في التوصل بما حازه إلى الرؤوس، وكتب في الجواب لغزاً، وخالف نفسه إذ قالت لا ينبغي مجارة هذا الجواد لراً^(١). [وهو] ما عاطل يتحلى به المجالس، ويتفكه به في المجالس، تحمر وجناته من الشرب، وتحمد آثاره في البعد والقرب، إن قلبته وجدته تاجاً، وإن تركته على حاله زادك ابتهاجا، يعذب بالنار وغيره الجاني، ويريك إن بدلت أوله برد الأمانى، يستخرج وهو داخل، ويرى دمعه من نار قلبه هاطل، لا تبرح به في غبطه، ولا تجد فيه مع انهماله نقطه، فإن حذفت أوله وحرفت باقيه وجدته أمراً بالشراب، وإن فعلت كذا في ثانيه رأيت ما بقي مولداً للمحبة بين الأحباب، وور إن حذفت آخره كمن وري، وغص في بحر الفكر على عكس ثلثيه لتستخرج دراً، والمملوك يسأل الصفح فإنه لولا المحبة ما أجاب، ولا طرق بعد فقد أبيه هذا الباب.

فكتب إليه الشيخ بدر الدين الجواب: يقبل الأرض وينهي ورود الجواب، الذي شفى القلوب بوروده، واللغز الذي نسي بوروده، بان الحمى وطيب وروده، فوجده روض

(١) اللز: الإلتصاق، والسرعة.

سؤالك عن أنثى طروب ولم تزل
وتجذبني بالطوق عند نشيدها
ومذ بان منها الطرف أمست لعكسها
وإن حذفت ثاني الأخير فإنه
فأولها مع ما يليه وحرفها
وحرفان منها فرد حرف لناطق
بقيت بقاء الدهر عذك باذخ

وقال ملغزاً في درة:

أي شيء من الجمادات يلفي
وترى ذلك الجماد عزيزاً
وترى الروح منه في حيوان
وإذا ما شدا على العود يوماً
أو بدا في مقفص فابن برد
كله طائر وفي ثلثيه
كله عاطل به تتحلي
وتراه عند الملوك عظيماً
عكسه في تصحيفه زد بنقص
وإذا لم تدر التصاحيف ذره
وبتحريفه تؤدب من شئت
ثلثاه در نفيس وفي فيسه
لكن الثلث عنده نصف وحش
وهو في البر نافر وإذا ما
فافترسه بالحل إن كنت ليثاً

على عودها في الروض تشدو وتنشد
لنحو التصابي لا أطيق أفند
تخاف الردى ممن لها يترصد
على العكس خاف بل يلوح ويشهد
لنا فاه بالمعنى الذي فيه يقصد
واف لمن بالعكس في ذاك يجحد
وفي مفرق الجوزا لواؤك يعقد^(١)

وتراه من بعد ذا حيوانا
غالياً منه رصعوا تيجانا^(٢)
ذي جناح ويألف الطيرانا
فوق دف يحرك الأغصانا
عند أسجاعه يصير مهانا
لك ذو أربع مع العكس بانا
كل خود وتستقل الجمانا^(٣)
ويتصحيفه حقيراً مهانا
فالمعمى هنا فكن يقظانا
للذي فيه فهو يدري البيانا
وإذا كان يجهل العرفانا
إذا جاء يصحب المرجانا
ذب عنا تصحيفه ما اعترانا
حضره قد يألف الإنسانا
فهو لغز عن فضله قد أبانا

وعلى ذكر القمري والفاخنة، أوردت هنا ما ألفزته في القفص، وهو قولي:

مرقص مطرب وبالقلم صفق
فزت من بعضه بسجع المطوق

أي مغنى أعواده بيت شدو
ولمجموعه النباتي حسن

(١) الباذخ: عظيم الشأن - اللواء: الراية.

(٢) عزيزاً: عزيز الوجود: نادره. رصع: زخرف وزين.

(٣) العاطل: الذي لا حلي له - الخود: الحسناء - استقل: رأى الشيء قليلاً - الحجان: اللؤلؤ.

بلاغة عدم العاتب والعاتب، وترعرع زهره حيث أمطرته من الأنامل المجدية خمس سحائب، فلو شاهده ابن الوردى لاحمرّ خجلاً، أو صاحب زهر الأدب لتلون وجلاً، ثم تأمل حل اللغز فوجده قد كشف المشكل وجلّى، واعترف أنه لم يمر بذوقه أطيّب من ذلك الحل ولا أحلى، وتحقق أن مولانا أوسع المملوك في مقام الأدب بفضله إيناساً، وتناول منه قدحاً أعاده بالفاظه المسكرة كاساً، وانتهى المملوك إلى اللغز المخدومي، فقال:

مولاي مجد الله يا من فضله
ألغزت في اسم عاطل حليته
يروى وجود كفوفه يروي الصدى
فينا بدرّ اللفظ أو قطر الندى^(١)
قد كان للشاني هلاكاً أو ردى^(٢)

وقال مجيباً له أيضاً عن الورد:

لله لغزك يا مولى فضائله
أتى بورد فحياني على قدحي
قد عطر الكون منها طيب أنفاس
به وأبهجني ما بين جلاسي
روحي الفداء لذكر الورد والأس
وقد أسا جرح كسرى حين أقبل لي

فاستحلى المملوك بالتحريف ورده، وود لو اقتطف من أغصان حروفه ورده، ورده إلى ذل القصور عارياً عن ملابس عزه، وأنشد قول ابن قلاقس وقد تقلى بنار عجزه:
إذا منعتك أشجار المعالي جناها الغض فاقنع بالشميم^(٣)

فراح على بهرج هذا الرأي الكاسد، واقتنع بالشميم على رغم أنف الحاسد، وعلم أن تلك الورد لا تخرج إلا من تلك الخضرة، وأن هذه الفاكهة لا تخرجها إلا أغصان أقلام لها باليد المخدومية بهجة ونضرة، وتمشى المملوك من هذا اللغز في بساتين الوزير على الحقيقة، ورأى كل ورقة فاحمرت الوجنات الحمر فتحير أهى وردة أم شقيقه^(٤)، وتفكه به معجباً بشمار غرسه، منشداً لمن كرر النظر في صحيفتي طرسه:

إن كنت تزعم ما في خده عجباً فانظر إلى الورد في خديه منشورا

فلقد ظفرت من نفسه الوردى بالعنبر الورد، وعودته عند تبديل الثلاثة بالواحد

(١) العاطل: الذي لا حلي له.

(٢) الشاني: الشانيء - المبغض - الهلاك: الموت - الردى: الموت.

(٣) الشميم: ما يشتم من الرائحة.

(٤) الشقيقة: واحدة الشقائق، وهي أزهار حمراء قانية فيها بقع سوداء تعرف بشقائق النعمان.

الفرد، وتأمّلت بقصور راحتي نكتة برد الأمانى، فانعقد لسحر البيان لساني، وتيقنت أنه لا يقوى على فهم هذا البرد إلا كل حديد النظر، ووجدت تصحيف هذه الكلمة، يا شمس الفضائل للعقول قمر، وعلمت أن الفكر لا يجاري من بديهته من بحر الفضائل رويه، وأن الخاطر لا يقوى على سلطان هذا اللغز لأن شوكته قوية، وقلت للذهن رد^(١) بعضه لتنتهل شراباً سائغاً، وزد تصحيفه ليكون في التعريف بمعناه مبالغاً، وتمتعت من ورده بالمشموم، ثم تذكرت البعد عن جناب المخدوم، فاستقطر البين ماء الورد من حدقي ولمولانا الصفح عن مقابلة هذا الدر بالسقط^(٢)، وتمر هجر بهذا الحشف الملتقط^(٣).

قلت وعلى ذكر القدح والورد، حسن أن نورد هنا لغزاً في المدام وقفت عليه، للشيخ صلاح الدين الصفدي بخطه:

وما شيء حشاه فيه داء وأوله وآخره سواء
إذا ما زال آخره فجمع يكون الحد فيه والمضاء^(٤)
وإن أهملت أوله ففعل له بالرفع والنصب اعتناء
قلت: لا بد للمدام من ماء من حيث الممازجة.

ووقفت بالديار المصرية على لغز للشيخ زين الدين بن العجمي، ألغزه في الماء فأعجبني؛ وهو قوله: سألتك أعزك الله عن سائل لا حظ له في الصدقة، ولم يكن متصل النسب بالأشراف، وتراه كثير الرجفان. من غير أن يخاف، كم رد سائله نهراً، وعفر وجه قائده في التراب قسراً، مذكر كثير الحيض، لطيف الانبساط سريع الفيض، مطلق التصرف وعليه الحجر^(٥)، وطال ما قبل العشاء أبدى لنا الفجر، يتشعب ويتكسر، ويتعوج ويتدور، وتبدو له خمسون عيناً وأكثر، يحمل القناطير المقنطرة، ويعجز عن حمل إبره، سريع الاستحالة، قل أن يثبت على حاله، بعيد الغوص ليس له قرار، ويعاجل صفاء وراده بالاكدار، ويسكن في تخوم الغبرا^(٦)، وينم على أحوال السماء نثراً، بعيد الغوص رقيق القلب على كل عديم، وكيف لا وهو المولى الحميم، وجود بأفخر الحلّى، ولا يردّ

(١) ردّ: أمر من ورّد.

(٢) السقط: من كل شيء الرديء.

(٣) الحشف: التمر الرديء. وتمر هجر أحسن أنواع التمر وهجر مدينة اشتهرت بتمرها.

(٤) الحدّ: قصاص مفروض من الله سبحانه وتعالى مقابل جنایات معينة. والمضاء: التنفيذ

(٥) الحجر: المنع من التصرف والحركة.

(٦) الغبرا: الأرض.

من نداء مؤملاً، كم عمر سيلا، وقطع طريقاً وأخاف سيلا، وكم طغى واحترق، وأظهر الجفاء وهو كثير الملق^(١)، صقيل يجلو الصدا، ويظهر على شدة البرد تجلداً، قد جمع فيه الخوف والرجاء، والكدر والصفاء، فسبحان من جمع فيه هذه الأضداد، وأرسله رحمة للعباد.

ويعجبني فيه قول أبي الفضل بن الخازن:

فألفت شخصي في حشاه مصورا ^(٢)	وخل صفاء زرتة بعد هجعة
فيا حسن ما أفشى الغداة وأظها ^(٣)	وأودعته سري فأفشاه للورى
به حامل في بطن منخفض الثرى	أبوه حليف للثريا وأمه
يباري الرياح الذريات إذا جرى	سطيح له جسم بغير جوارح
وتكسوه شهب الليل ثوباً مدثرا ^(٤)	تزر عليه الريح ثوباً موردا

قلت: وعلى ذكر الماء يحسن أن نورد هنا لغزاً في القربة. كتب الشيخ بدر الدين الدماميني إلى المقر الأميني، أمين الدين الحمصي، كاتم السر بدمشق صاحب، ديوان الإنشاء بالشام لغزاً في قربة تراحم سرب الأدب على الشرب منها، ولو عاش صريع الدلاء ود أن يكون راوية عنها، وهو قوله:

ثناه على الأفكار فرض مرتب	أكاتب سر الملك والفاضل الذي
إذا ما أتاه اللغز يرويه مصعب	يحدث عن سهل رواة كلامه
ويبحث في الأسفار عنها وتطلب	فديتك ما ذات أطالعكم بها
وصدق إذا ما قيل تملى وتكتب ^(٥)	تشدوكم في الأرض قارٍ أمالها
لها خبر في الذوق يحلو ويعذب	وما هي في التحقيق راوية وكم
زماناً وفي وقت لها يتجنب	مليحة شكل يألف الحب صيها
ولكن رأينا قلبها وهو طيب	وتبلغ منها للحياض حقيقة
ويشكرها أهل الزوايا ويطنبوا ^(٦)	يزيد مریدوها إذا ما تصوفت

(١) الملق: الكذب والمراءاة.

(٢) الهجعة: سكون الليل وهدوؤه - الحشا: الجوف والداخل.

(٣) أفشى السر: كشفه وأذاع به - الورى: الناس.

(٤) تزر عليه: تلبسه - المدنر: الذي رسمت على أطرافه الدنانير.

(٥) القاري: مطعم الضيوف - تملى: تملأ - تكتب: يقال كتبت القربة إذا ربطت بابها وشدتها بالوكاء.

(٦) الزوايا: أماكن العبادة التي اشتهرت في تونس في فترة من الفترات وكان أشهرها الزوايا السنوسية - أطنب: زاد وتوسّع.

على السعي في الأحياء بالنفع تدأب^(١)
رأيناه من تلك العتيقة يشرب
وما نطقت حرفاً عن القصد يعرب
وكم من فتى في حملها راح يرغب
فيا حبذا منها البسيط المركب^(٢)
غدا مرسلأ عنه الرواية تعجب^(٣)
يمد إليها الراح لهواً ويطرب
ولم أر بالتحريف من يتقرب
حواها من الأقطار شرق ومغرب
ويألفها بعض الجواري ويصحب
فما لي إلا نحو علياه مذهب
وكل غدا من ظرفه يتعجب

لها أربع لكن بساق رأيتها
وما نال إثماً في تعاطيه بعدما
وشم فيها المفتوح كم راح سائلاً
وترضع أحياناً وما حان رضعها
وتحمل ما فيه الحياة لربها
وترسله فاعجب له من مسلسل
وكم من خليع شمتته إذ تعتقت
وكم قد تعبدنا بتحريف لفظها
وتصحيفها يا جبهة الدهر بلدة
وتوجد في الأفلاك عالية لها
ويا من لرق الفضل أصبح مالكاً
تلفت للغز نحو بابك قد أتى

وقال بعضهم ملغزاً في قرية السباحة:

ولم تكتسب أجراً بتسيحها قط
كان بقايا قوم لوط لها رهط

وذات فم طوراً تسبح ربها
معانقة الصبيان مضمرة الهوى

قلت: أما لغز الشيخ بدر الدين في القرية فنسيج وحده، وما ذاك إلا أنه لم يحتج فيه إلى عقادة من تذهب بغير مذهبنا، ولم يسبكه في غير قوالب التورية، وقد أذكرني لغزاً الغزته في قصب السكر بطرابلس المحروسة، وقد أنشدني بعض المخاديم وهو المقر المرحومي الشهابي الدنيسري لغزاً في قصب السكر أيضاً، وهو:

ونشراً يروى شربه ويقوت
فمهجتها في اثر ذاك تفوت
من الخلق تسقي درها وتموت

وحاملة درأ حكي الخمر لذة
تعيش إذا لم يبد منها فإن بدا
فلم تر عيني مرضعاً في مثالها

وقال بعد الإنشاد: ولا أعلم في هذا الباب مثل هذا اللغز، لأنه سالم من التعقيد

(١) أربع: أي أربع سوق.

(٢) ربها: صاحبها.

(٣) المرسل من الحديث: ما سقط من اسناده الصحابي ويرويه التابعي بقوله: قال رسول الله صلعم. دون ذكر الصحابي الذي أخذه عنه.

والتصحيح والتحريف والعكس والحذف والابدال، فنظمت هذا اللغز في يوم الإنشاد وهو:

وعسالة تبدو بغير أسنة
ممشقة هيفاء حلو مذاقها
منعمة لفاء مهضومة الحشا
وتحلو على البيض الرشاق شمائلًا
يلذ قبيل العصر في الظهر رشفا
وإن سقيت ماء سقتك سلافة
وينبت حلو الثغر حلو نباتها
وإن لمعت في ثغرها وتبلجت
على عودها كم للرباب مواقع
وإن قطعوا موصولها شببت به
وترفع بعد النصب والكسر جرها
وهمزاتها همزات وصل وقطعها
وفي أول الأعراف تروي من الظما
ومن حلها إن أفرغت في قوالب
ومن أجل ذا عنها ابن سكرة روى
كذا ابن الجلاوي قلبه معها يرى
فيا من حلا ذوقاً وحل بدائعي
تأملت بعد الحل كيف تنوعت
بنية فكر من حماة تغربت

ولا طعن فيها وهي داخلة الصدر^(١)
به يطرح المران في المهمة القفر^(٢)
تكاد بأن تنقد من رقة الخصر
إذا ما تثنت في نملائها الخضر^(٣)
وبرد لماها من أليم الجوى يبري
بطيب مزاج وهي طيبة النشر^(٤)
فيرشف أرياقاً ألد من الخمر
دع ابن جلا يقرع ثناياه في الثغر^(٥)
وموصولها يغني عن الناي والزمر
أولو الذوق تشبباً شفى غلة الصدر
فتجزم ما للفارسي من الذكر
إذا ما أميلت جائز لك يا مقري^(٦)
وتضرم نيران الجوى وهي في العصر
يقول الورى هذا هو السكر المصري
وأما النباتي قال من ههنا قطري
كسيراً وكم قد أوردته لظى الجمر
وفي عقد الألغاز يا نافث السحر
حلاوتها حتى رقت منبر الشكر
وغربتها والله قد أشغلت فكري

(١) العسالة: الخلية. والجعبة التي توضع فيها السهام.

(٢) المران: الرماح اللدنة الصلبة واحدها مرانة - المهمة: الأرض الواسعة.

(٣) الغلائل: واحدها غلالة وهي الرقيق من الثياب.

(٤) السلافة: الخمره - النشر: الرائحة التي تنتشر منها.

(٥) تبلج: بان ووضح - ابن جلا: الحجاج بن يوسف لقب به لقوله:

أنا ابن جلا وطلّاع الشنايا متى أضع العمامة تعرفوني

(٦) المقري: المقريء وهو علم تقريباً على قارئ القرآن. والإمالة: تقريب الفتحة والألف في اللفظ من

الكسره والياء.

ومن شط ذاك النهر يا بحر قد أتت
سعت من أبي بكر لأحمد خدمة
فلا زلت في حل وظعن مؤملاً
فلا تنهروها فهي في جيرة البحر
وأحمد من أولى الورى بأبي بكر
لكل غريب جاء حتى من الشعر

قلت: وبعد قصب السكر يحلو أن نورد هنا شيئاً مما ألغزه في العسل، فمن ذلك ما كتب به الشيخ شرف الدين عيسى العالية، إلى سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة بدر الدين بن الدماميني، وهو:

يا أيها المولى الرئيس ومن له
اسمع سمعت الخير أمراً محكماً
قالوا من الأطيار حقاً أصله
لكنه ما حاز منقاراً ولا
من أين يعرف ما اسم شيء ربما

فأجابه الشيخ بدر الدين بقوله:

يا فاضلاً نثر المحاسن نظمه
وتطرزت حلل البديع بمنطق
شرف لأعراض البدائع سابق
ألغزت في اسم عاطل حليته
فإذا أضفت القلب منه لأصله
وإذا عكست الأصل منه فهو إن
قد كانت الأذهان منه خلية
ورأى ابن سكرة حلاوة طعمه
ورأى بعين لغزك الحلو الجنى
وأعاده بعلى أمير النحل إذ
فاصفح بفضلك عن جواب سافل

قلت: وعلى ذكر العسل يحلو أيضاً أن نورد هنا ما ألغزه مولانا المقر المرحومي القاضي الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي في سكر نبات، وكتب به إليّ، وهو:

(١) العاطل: الذي لا حلي له - النفيس: الثمين - اليتيم: من الدر، الذي لا ثاني له.

حلا مذاقاً ووقع لي بتحسين
تصحيف معكوسه ثانٍ يزكيني

يا قاضي الأدب أحكم لي فذا أدبي
واقبل شهادة ما أهديته تر من

ورسم لي بحل اللغز والجواب فالغزت مع الحل لغزاً زائد الحلاوة في قطر، وهو:

فانحل مذ حل في قلبي بتمكين
وجاء منه بثانٍ قلت يكفيني
وحكمه ثابت عندي بتبيين
مزية تزدي نبت الرياحين
يحل أحشاء أرضينا فيرضيني
هذا وتصحيفه في العيد يأتيني
لأن قطر النباتي عنه ينسيني
وكلما مرّ لي عيش تحليني

أهديت لغزاً حلا ذوقاً مكرره
وفزت منه بشكر في مصحفه
تصحيف معكوسه من غير تزكية
حماة منبته لكن بمصر له
فحل منه لنا لغزاً مجانسه
يرادف اسم رباب فهو يطربني
حلو رقيق بلا حشو لذائقه
فلا برحت برغم الكسر تجبرني

قلت: وعلى ذكر القطر، يحلو أن نورد هنا شيئاً من بديع ما ألغزوه، في الكنافة
والقطائف، فمن ذلك ما ألغزه الشيخ برهان الدين إبراهيم القيرواني في النوعين وهو قوله:

قاضي البرية ما هذان خصمان
حروفه فهما لا شك حرفان
وصورة وهما في الأصل مثلان
أن أحضرا في مكان بين أخوان
من كنية ما انتحى في ذلك اثنان
في لجة البحر ملقى خمسه الثاني
فاعجب له ورقاً ينمو بنيران
وجاده بسحاب منه هتان^(١)
كشافة منه فاستره بكتمان
في آخر الشهر لم تمحق بنقصان^(٢)
بالبرق يسطو عليها سطوة الجاني

هذان لغزان قد حلا بيباك يا
اسمان كل خماسي إذا كتبت
تباينا في الورى شكلاً إذا نظرا
هما إلى الصين منسوب مقرهما
لذا كنى وهو بين الناس ليس له
في البر يلقي وإن فتشت عنه تجد
نبت أرى النار قد أبدت له ورقاً
يحيا إذا ما سقاه القطر وابله
ذو رقة فإذا صحفته ظهرت
هذا وكم من بدور فيه قد طلعت
فقدما خيط فجر أبيض عجل

(١) الهتان: الشديد المطر متابعه.

(٢) محق: البدر صار في المحاق وهي المنزلة التي ينزلها القمر قبل أن يبدأ بالإثارة، أو الهلال قبل رؤيته.

واللغز الآخر في اسم ذات السنة
يا حسنها ألسنا أضحت حلاوتها
بالطي والنشر في حال قد اتصفت
كم سُكرت ففتحنا بالدخول بها
حسناً أجمع أهل العقد كلهم
وصالها حل بالإجماع في زمن
ثلثا ثلاثة أحماس لها وجدا
وما ذكرت من الأحماس قد نطقت
وخمسها جبل لكن بقيتها
ما ملّ راوٍ من القالي أماليه
في الجوف منها قلوب جمعة جمعت
كم ظل يطرحها من ليس ذا شرف
بالحل أنعم سقى القطر المواطىء من

لم يبد منها لنا بالنطق حرفان
يحلو المديح لها من كل لسان^(١)
والطي والنشر فيما قيل ضدان
أبوابها فتلقنا بإحسان
والحل منها عليها بعد عرفان
فيه الوصال حرام عند أعيان
شيئاً يجيء بإيضاح وتبيان
صدقاً بذكر اسمها من غير بهتان^(٢)
في مكة يرتجى فوزاً بغفران
عنها وما خاطر القالي لها شاني^(٣)
ولا يكون بجوف الشخص قلبان
جهرأ ويوصف مع هذا بإتقان
إقدام سعيك من إرواء ظمآن

وكتب مولانا قاضي القضاة، صدر الدين بن الأدمي الحنفي رحمه الله، إلى علامة
العصر سيدنا ومولانا الشيخ بدر الدين بن الدماميني، رحمه الله، ملغزاً في لوزينج وأجاد
إلى الغاية، وهو:

يا من له في علوم النظم أي يد
ما اسم دوائره في نظمها ائتلفت
أجزاؤه من زحاف الحشو قد سلمت
تصحيف معكوسه لفظ يرادفه
والعيد منتظر من حله فرجاً

فاق الخليل بها فضلاً وتمكيناً
والثلم في صدرها مستعمل حيناً
هذا ويقطع مطوباً ومخبوناً
يا فرد يا رحلة قوم مقيمونا
لا زال سعدك بالإقبال مقروننا^(٤)

فحله المشار إليه رحمه الله، وأجاد إلى الغاية، والجواب:

يا مرسلأ من شهى النظم لي كلما
الله درك صدرأ من حلاوته

منها ابن سكرة قد راح مغبوننا
وجوهر النظم لم يبرح يحليننا

(١) اللسان: الفصيح.

(٢) البهتان: الافتراء والكذب.

(٣) شاني: شانيء مبغض - والقالي: صاحب الأمالي والمبغض أيضا.

(٤) السعد: الحظ - مقروننا: مقترنا ملازماً.

يا فاتني رحت بالإعجاب. مفتونا
للكف قبضاً يزيد العقل تمكيننا
بالكشف عنه لمن وافاك تحسینا
فینا أميناً رشيد العقل مأمونا

حليت لغزك إذ أبهمته فلذا
هذا وكم قد رأينا في دوائره
وليس إضماره مستحسناً فأين
وكن لنا هادياً صوب الصواب ودم

والله تعالى يمن على أفواه شاكريه بما هو أشهى من اللوزينج وأحلى، ويحلي
أعناق المتأدبين من كلمه بما هو أنفس من الدر وأغلى.

وكتب الشيخ بدر الدين، المشار إليه، أيضاً لغزاً في دواة وجهزه إلى المقر
المرحومي الأميني المقدم ذكره، وهو هذا:

ونظمي بها يا كاتب السر يجهر
وحكت حبير اللفظ وهو محرر^(١)
لهم فعليك الآن يعقد خنصر
ولكن رأينا منك علماً يجسر^(٢)
وفيها دواء إن عراها تغير
وذلك من عاداتها ليس يترك
وصحف ترى المقصود بالنفس يظهر
على الرأس عباسية حين تخطر
ويحسن مرآها إذا ما تجبر
عهود الصبا والشيء بالشيء يذكر
يلذ به في الذوق ورد ومصدر
فعادت لها الجهال بالعي تحصر^(٣)
وإن غضبت فالموت لا شك أحمر
فتنهل منها مورداً لا يكدر
بذلك قد جاء الكتاب المسطر
وكم ذي غنى عن قصدها ليس يفتر^(٤)

كتبت وأعداري إليك تقرر
أتتك بأبيات المعاني فرضتها
وحليت أهل العصر إذ كنت خاتماً
وما أنت إلا البحر جاش عبابه
فما كلمة أفديك دام اعتلالها
ويحفظها ذو السروهي التي وشت
وما مسها إلا وجادت بنفسها
وتحمل سمر الخط رايات ملكها
كحيله طرف تعشق العين شكلها
مؤنثة كم ذكرتنا بلونها
وكم قد أرانا ريقها من مسلسل
وكم لاقت الأبحار منها محاسناً
مسودة إن ترض فالعيش أخضر
ويعذب للسمر الرقاق رضابها
لقد أحكمت والنسخ ما زال دأبها
وما هي إلا ذات متربة غدت

(١) حبير اللفظ: المحبر، المكتوب.

(٢) جاش: هاج واضطرب - عبابه: وسطه ولجته.

(٣) الأبحار: مفردها حبر وهو الرئيس الديني للنصارى - العي: عدم قدره على التكلم - تحصر: تمنع
من الكلام.

(٤) المتربة: الحاجة والفقر - يفتر: يضعف.

تفه بسؤال فاعتراننا التحير^(١)
فأنت به والله أجدى وأجدر
على رأسها طول المدى لا تقصر

ولسنا نراها غير سائلة ولم
فانعم بحل اللغز يا خير منعم
فلا زالت الأقلام تسعى لشكركم

فكتب المقر المرحومي الأميني الجواب بعد أيام، وهو قوله:

وروضة آداب بها القلب يجبر
فيا حبذا الاسكندري المحرر
فكم من بليغ عن مداها يقصر^(٢)
حماها من العلياء لا يتسور^(٣)
فأحشاؤها فيها الأجنة تقبر
فإن هب فرد ظل يسعى ويحضر
تهادى بها نشوان يمشي ويعثر
خطيب له فوق الأنامل منبر
وعما رآه في المنام يعبر
سمواً ومع هذا على الطول تقصر
تقام بها بين الأنام وتعمر
وربت ويكفيها بذلك مفخر
تجاهي وجاهي عندها ليس يحقر^(٤)
وأنى استقلت فهي في ذلك تعذر
لدى النقص مثلي فهو حظ موفر
بحق وأفواه الدواة تقطر

مواقع أقلام لها الفضل ينشر
تحرر معنى حسنه نسيج وحده
تشق على الأفهام شقة شأوها
أتت سهلة الألفاظ ممنوعة الذرا
تشير إلى الجبلى التي عز وضعها
ينامون لا تغشاهم سنة الكرى
وإن أرشفته من زلال رضابها
وأما إذا اعتموا السواد فكلهم
وينطق عن علم وطول نباهة
تطاول سمر الخط أنى تشامخت
وكل بني الآداب تلقى بيوتهم
فأكرم بما قد ولدته وأنشأت
نجية وجهي إن جلست ووجهها
وقد فتحت فاما فقالت وقصرت
فلا زلت أهل الجمال وخيركم
بمدحك الأقلام يضحك سنها

ويعجبني من الألغاز، في التورية، قول شهاب الدين الغزاوي، في قوس، وهو:

طويلاً وتثقيها الرجال
وبنوها كبار قدر نبال

ما عجوز كبيرة بلغت سنأ
ولها في البنين سهم وقسم

ومن غريب ما أعجبني في هذا الباب قول القائل في كمون وهو:

(١) سائلة: من الأجسام التي تشبه الماء، والتي تطلب العطاء - فاه: تكلم، نطق.

(٢) شق: صعب وصار شاقاً - الشأو: المدى والغاية.

(٣) تسور: تسلق - الدار: القمم والأعالي.

(٤) النجية: التي تحدث وجهاً لوجه ولكن عن بعد.

يا أيها العطار اعرب لنا
تنظره بالعين في يقظة
عن اسم شيء قل في سومك^(١)
كما ترى بالقلب في نومك

ومثله قول شمس الدين الهيتي في ورق، وهو:

وشيء بلا جرم يصلب تارة
ومن قدم قد بيض الله وجهه
ويقطع حيناً في حضور وأسفار^(٢)
على أنه ما انفك يوماً عن القار^(٣)

ومن لطائف الشيخ شمس الدين بن الصاحب في هذا الباب قوله في سهم:

الله مملوك إذا
لكنه في لحظة
ما قام في الشغل اعترض
محصل لك الغرض

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله ملغزاً في قلم:

مولاي ما اسم لنا حل دنف
لسان قوم فإن حذفت وإن
وما به علة ولا سقم
صحفت بعض الحروف فهو فم

وقال ملغزاً في علي:

أمولاي ما اسم جلي إذا
لك الوصف من شخصه سالماً
تعوض عن حرفه الأول
وإن قلعت عينه فهو لي

ويعجبني في هذا الباب قول ابن المرجاني ملغزاً في مشط وهو:

يا إماماً سألته حل لغز
أهمل الثلث باعتناء وقلب
شط منه مزار أهل الذكاء^(٤)
تره جاء قائد الشعراء

ويعجبني قول الشيخ صلاح الدين ملغزاً في قريشة:

أي شيء يروق للناس أكلاً
خمسه أثقل الجمادات وزناً
ذو بياض وأصله من حشيشه
فتعجب له وباقيه ريشه

(١) السوم: الثمين والتسعير.

(٢) الجرم: الجسم والجسد.

(٣) القار: الزفت وبزيادة الياء: مطعم الضيوف.

(٤) شط المزار: بعد المسكن والمقام.

ويعجبني لغز ابن منقذ في الضرس، وهو:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يسعى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فمذ وقعت
عيني عليه تفارقنا إلى الأبد

ومن الغايات التي لم تدرك، في هذا الباب، قول القاضي صدر الدين بن الآدمي رحمه الله ملغزاً في كشتوان:

ما رفيق وصاحب لك تلقا
هو للعين واضح وجلي
واستظرف قول بعض مواليا ملغزاً في بدرة:

محبوتي وجهها يغني عن المقباس
إن تعكسوا تجدوا ضدين في الأجناس
واسمها ينقذ العاشق من الإفلاس^(٢)
هذا نفور وهذا يقبل الإيناس

وسألني جماعة من فضلاء أهل الأدب بالديار المصرية أن أنظم لهم لغزاً في كرمه، وأطلق لهم عنان القلم في ذلك فقلت:

أخبروني عن فاضل بأصول
أسبغ الله ظله فهو ظل
وأبو محجن يقول ادفنوني
كم إلينا قد مد كفاً ندياً
نقط الطل فوقه وضحته
ما تبدي لنا بعين ولكن
فرأينا للترك فيه اسم عين
إن تذكره أحرف الكل تبدي
أو تؤنثه يقبل الهاء في الحا
ويقل شطره لمن عابه مه
هو حلو وفيه مرّك يبدو

وفروع يسمو على كل فاضل
سابغ وافر مديد وكامل
تحتة إن أتاني الموت عاجل
فصير العيش أخضراً في المنازل
عند توقيعها به وهو عاطل^(٣)
حرفته وصحفته الأفاضل
بفتور الأجنان جاءت تغازل
كرماً والندی من الكف هاطل
ل ومن بعد ذا يرى وهو حامل
لك هم بالعكس عندي حاصل^(٤)
عند تحريف عكسه المتمائل

(١) الإبهام: الغموض، والأصبع الكبرى لليد.

(٢) المقباس: الذي ينار به الضوء ويؤخذ منه القبس من النور.

(٣) الوضحة: الجبهة من الوضوح - عاطل: غير محلى.

(٤) مه: اسم فعل أمر بمعنى اكفف، للزجر.

ويلا أول يرى فعل أمر وهو خشب مسندات ولكن ومن العز جسمه الغض يدمى وإذا ما فرطت فيه تراه ذو بياض وحمرة ولدا لي فتراه يوماً عقود بلخش وتراه يبدو عقود جمان وتراه طوراً سلافة راح وعلى عوده يغني علينا لك منه فواكه وشراب وحلاواته بها كل قلب وترى وصله بمصر قليلاً وتراه بذات عرق مقيماً وإذا قلت في المخيم بالغو ولقد جاءنا بعتب لطيف كيف لا والكتاب عن جنتيه فتفكه من حله بقطوف وأقم تحت ظله فهو لغز ثم دم للألغاز في الحل والعقد

واقلب الفعل منه فالأمر حاصل حاز نجلاً يبدو رقيق الغلائل^(١) وتراه من بعد ذا وهو ذابل لم يحل عنك وهو نعم الخصائل فرحاً راح سارياً في المفاصل نظمت سلكها بغير أنامل^(٢) ما لها غير ثغر حبي مماثل ولدر الحباب فيها حواصل^(٣) أعجمي به تهيج البلابل كل غض إليك تلقاه واصل كسروه والكسر للقلب حامل وهو بالشام لا يزال يواصل في نعيم وظله غير زائل ر رأيناك فيه أصدق قائل عند تصحيفه لمن هو هازل قد أتى مخبراً بكل الفصائل دانيات لكل آت وراحل^(٤) ظلّه ظاهر على كل قائل غني إذا أتى اللغز سائل

قلت: ومما ألحقوه بالألغاز، ما حكى عن بعض ولاة الطوف ببغداد: جاؤوا إليه بعلامين غلب عليهما السكر، فقال لأحدهما من أبوك؟ فقال:

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قدره ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره
 وإن نزلت يوماً فسوف تعود^(٥) فمنهم قيام حولها وقعود

-
- (١) النجل: الابن - الغلائل: الثياب الرقيقة الناعمة.
 (٢) اللخش: لم نعثر لها على معنى وربما كانت إسماً للخرز أو الجواهر.
 (٣) الحباب: فقاقيع الماء - الحواصل: جمع حوصلة وهي بالنسبة للطائر كالمعدة بالنسبة للإنسان.
 (٤) الحل: الحلال - القطوف الدانية: القرية المتدلية.
 (٥) القدر: وعاء يستعمل للطبخ.

فأطلقه وعظم في عينه، وقال: هذا أبوه من بيت كبير، وقال للآخر: من أبوك؟ فقال:

أنا ابن من دانت الرقاب له ما بين مخزومها وهاشمها^(١)
تأتيه بالرغم وهي صاغرة يأخذ من مالها ومن دمها

فقال الوالي: ما أشك أن هذا أبوه كان ملكاً شجاعاً، فأمر بإطلاقهما فلما انصرفا كان في المجلس رجل نبيه فقال للوالي: الشاب الأول كان أبوه فوّالاً، والثاني كان أبوه حجاماً. فأعجب الوالي منه ذلك، فقال:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك مضمونه عن النسب^(٢)
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

وبيت الشيخ صفي الدين على الألغاز في بديعته:

حرّان ينقع حر الكر غلته حتى إذا ضمه برد المقيّل ظمي^(٣)

الشيخ صفي الدين ألغز هنا في السيف فإنه يروى في حر الكر بالدماء، وإذا أدخل القراب الذي كنى به عن برد المقيّل، كان ظامئاً.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعتهم. وبيت الشيخ عز الدين السرخلي في بديعته:

إن المناقق لغز قلبه زغل وهو المعمى كمثل الأرزة الرزم^(٤)

قلت: الشيخ عز الدين، غفر الله له، لم يأت في بيته بغير الجناس المقلوب، في لغز وزغل، وأما التعمية بالأرزة الرزم، فما علمت ما المراد منهما حتى نظرت في شرحه، فوجدته قد قال: الرزم القائم والأرزة شجرة الصنوبر، فما ازددت في التعمية غير تعمية.

وبيت بديعتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

وكلما ألغزوه حله لَسِينُ مذ طال تعقيده أزرى بفهمهم

(١) دان: خضع.

(٢) مضمونه: معناه ويروى: محموده.

(٣) الحرّان: الشديد العطش - نقع: روى - الكر: المعركة - الغلة: شدة العطش. - ظمي: ظمىء: عطش.

(٤) الزغل: الخبث والانطواء عليه - الأرزة: شجرة من فصيلة الصنوبريات وهي شعار اللبنانيين وتتوسط علمهم. ومن الناس الأرزة: المنقبض - الرزم: الثابت القائم على الأرض..

قد تقدم، وتقرر أن أحسن التعمية في اللغز ما أسفر بعد الحل عن تورية بديعة في بابها، وهذا البيت أيضاً بديع في هذا الباب، فإن اللغز في الرمح والتورية في لسن، لأن لسان الرمح لسان القائل في التورية للتكليم، وفي التعقيد المشترك بين تعقيد اللغز وتعقيد الرمح، وأما المناسبة بين الحل والتعقيد، والإزاء بالفهم بعد ذكر الألغاز، فمحاسنها لا تخفى على حذاق الأدب. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.



ذكر سلامة الاختراع

وقده باختراع سالم الف يبدو بترويسه من رأس كل كمي^(١)
هذا النوع، أعني سلامة الاختراع: هو أن يخترع الشاعر معنى لم يسبق إليه،
كقول عنترة في وصف الذباب:

وخلا الذباب بها فليس بنازح غرداً كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجزم

هذا المعنى إذا تأمله المتأدب، وتخيله في فكره يجده غريباً في بابه، فإنه قال: إن
هذا الذباب لما خلا بهذه الروضة التي أعاد الضمير إليها في قوله: بها، صار هزجاً مترنماً
يحك ذراعه بذراعه من الطرب الذي اعتراه، فشبّهه عنترة برجل أجزم قاعد يقده زناداً
بذراعيه، والأجزم المقطوع اليد، والتقدير في البيت قدح المكب على الزناد.
انتهى.

ومنه قول ابن الرقاع، في تشبيه قرن الخشف:

يزجي أغن كأن إبسة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها^(٢)

وعدّوا قول ابن الرومي من المخترعات التي لم يسبق إليها، فإنه قال في تشبيه
الرقاقة حين يسطها الخباز:

(١) الترويس: الرأس المحدد. والألف: الرمح، وترويسه، سهمه - الكمي: البطل الشجاع.

(٢) يزجي: يرسل ويحث - الأغن: الذي في صوته غنة - الروق: القرن.

لم أنس بالأمس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة وشك اللحم بالبصر^(١)
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر^(٢)
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر^(٣)

وأجمعوا على أن قول أبي الطيب من الاختراعات التي لم يسبق إليها، وهو قوله:
حلفت وفيأ إن رُدَدْتُ إلى الصبا لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

قلت: أما أبو الطيب فإنه شن الغارات على معاني المتقدمين كثيراً، وما خفي ما أورده عليه الحاتمي في الحاتمية، وكان قد عنّ لي أن أورد، في هذا الشرح المبارك، له ولمن تقدمه ولمن تأخر عنه جملة مستكثرة مما وقع لهم من معانيهم، من سلامة الاختراع بالنسبة إلى اطلاعي، وخفت أن يقع اختياري على معنى أعده لصاحبه من سلامة الاختراع، فيأتي من تبحر في اطلاعه على معنى له لغيره ممن تقدمه، فأضربت عن ذلك وجنحت إلى ذكر ما وقع لي في نظمي، من سلامة الاختراع التي لم أسبق إليها، ولا حام طائر فكر غيري عليها؛ فمن ذلك قولي من قصيدة رائية:

وحمرة الخد أبدت خيط عارضه فخلت كأس مدام وهو مشعور^(٤)
ومذ بدت نسמת الثغر باردة بدا بإغضاء ذاك الجفن تكسير
وقلت منها في وصف القلم:

له يراع سعيد في قلبه إن خط خطأ أطاعته المقادير
ومنها:

وأشقر يده البيضاء غرته له إلى الرزق فوق الطرس تيسير^(٥)
بل أسمر عينه السوداء يلحظها وهذب أجفانها تلك المشاعير^(٦)

(١) يدحو: يدور- الرقاقة: الرغيف ويروي: ما أنسى لا أنسى خبازاً مررت به.

(٢) قوراء: لم تستكمل دورتها بعد.

(٣) انداح: استدار.

(٤) مشعور: مكسور دون انفصال أجزائه وتبعثرها.

(٥) الطرس: ما يكتب عليه.

(٦) المشاعير: الخطوط الدقيقة.

ومثله قولِي من القصيدة:

كذا محابره سود العيون فإن
ومنه قولِي من قصيدة ميمية:

أثرت خلت ثوب خز منمنم^(١)
حين قابلت خده بدموعي
ومنه قولِي في وصف حماة من قصيدة طائية:

ينظم بالشطين در ثمارها
وقد مد ذاك النهر ساقاً مدملجاً
لويثنا خلاخيل النواعير فالتوت
وقلت من قصيدة أخرى:

ودولابه كالقلب يخفق في الصدر
وعاص رحيب الصدر قد خر طائعاً
وقلت من قصيدة أخرى:

أضحى بهاتيك الثغور مطيباً
وهزرت فيه كل عود أراكية
والمعنى المخترع قولِي بعده:

ودخلت كل خباء زهر قد غدا
ومن اختراعاتي التي لم أسبق إليها، وسارت الركبان بها قولِي في المدائح المؤيدية:
فرج على المملجون نظم عسكرياً
فانبت منه زحافه في وقعة
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم
والمعنى المخترع فيها قولِي:

فكأن هاتيك السروج مقابر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة

(١) الخز: الحرير - المنمنم: المزركش.

(٢) العاصي: نهر العاصي وهو نهر ينبع من لبنان ويصب في سوريا - السمط: العقد.

(٣) المدملج: الذي يليس الدمليج وهو من الأساور والحلي.

(٤) مطنباً: مرفوعاً. أو مشدوداً بالطنب وهي جبال وأعمده الخيمة.

(٥) المملجون: الورق اللزج.

(٦) انبت: انقطع - الزحاف: في المصطلح العروضي تغيير يلحق ثاني السبب من التفعيلة.

ومنها في سلامة الاختراع قولِي :

إذا مددت يراع رمحك ماله
ونعال خيلك كالعيون ومالها
ومنه قولِي متغزلاً في ملبح مشطوب :

بالصدع أبدى شطبة
سألته عن أمرها
قلتم بدا لي عارض
جئت شطبت فوقه
من شكله محوِّط^(٢)
فقال زاد اللغظ^(٣)
مشكل منقط
وقلت هذا غلط

ولي من قصيدة بديعة مشتملة على وصف متزهات حماة المحروسة :

والنبت يضبطها بشكل معرب
والمعنى المخترع قولِي بعده :

والغصن يحكي النون في ميلانه
وقلت في مطلع قصيدة :

ألف القد مدها لي بعزه
وقلت من قصيدة فائية :

وعارضه في الوضع لأمّ وصدغه
إذا مدها من فوقه تتكوف^(٥)

ولعمري، إن الشرح قد طال، ولولا خشية الإطالة لذكرت من هذا الباب قدرأً وافياً، بالنسبة إلى ما أدى إليه اجتهادي، وقلت: إنني مخترعه، وبشهادة الله إنني ما تطفلت بالنسبة إلى علمي على معنى لغيري، اللهم إلا أن تكون أحكام الموارد قد حكمت عليّ فالحكم لله العلي الكبير.

(١) الدارعين: لابسى الدروع - المحابر: جمع محبرة وهي الدواة.

(٢) الشطبة: أثر الجرح - محوِّط: مرقى بالرقى لإبعاد الضرر عنه.

(٣) اللغظ: القيل والقال.

(٤) التلحين: من الألحان بمعنى الزقزقة والتغريد ومن اللحن وهو الخطأ اللغوي وكذلك: معرب: مبين

واضح وحسب قواعد الإعراب.

(٥) تتكوف: تتجمع وتستدير.

وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته على سلامة الاختراع قوله:

كادت حوافرها تدمي جحافلها حتى تشابهت الأحجال بالرثم^(١)

جحفلة الفرس شفته العليا، والرثم بياض شفته، وكأنه يقول: إن هذه الفرس لسرعة جريانها اتصلت أحجالها إلى شفتها فتشابهها في البياض.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي رحمه الله في بديعته قوله:

سلامة لاختراعي في علا هممي اسمي وفعلي كحرف عند رسمهم

وقال في الشرح: إسمي علا، وفعلي علا، والحرف المشبه بهما على هذا المعنى على الذي هو معدود من حروف الجر، قلت: لو ألحق الشيخ عز الدين ما قاله هنا بالألغاز لكان أقرب وأليق، فإن سلامة الاختراع وغرابة المعنى عنه بمعزل.

وبيت بديعتي تقدمه قولي في الألغاز بالرمح بقولي:

وكلما ألغزوه حله لسن مذ طال تعقيده أزرى بفهمهم

ولم أخرج عن الرمح بل قلت مخترعاً فيه اختراعاً بعد من المرقص والمطرب، بعد بيت الألغاز، وهو:

وقده باختراع سالم ألف يبدو بترويسه من رأس كل كمي^(٢)

تقدم قولي: أنه كان عن لي أن أورد هنا، من سلامة الاختراع للمتقدمين والمتأخرين، جمل مستكثرة ولم يصدني عن ذلك إلا الخيفة ممن تبحر علي في المطالعة، فيورد ما أثبت من المعنى المخترع لزيد، أنه مسبوق إليه من عمرو، فأردت أن أخلص من هذا الاعتراض، وأورد هنا نبذة من مخترعات ابن حجاج، فإنه منوال ما فصح عليه غيره، وقد تقدم قول الشيخ جمال الدين بن نباتة في ديباجة كتابه المسمى «بتلطف المزاج من شعر ابن الحجاج»، وأما أشعار أبي عبد الله الحسيني بن حجاج، فإنه أمة غريبة تبعث وحدها، وذرية تبلغ باتقان اللهورشدها، فمن ذلك قوله:

يا ديمة الصفع صبي على قفا المتنبي

(١) الجحفلة: شفة الحيوان ذي الحافر - الأحجال: مفردها حَجَل وهو بياض يكون في قوائم الخيل - الرثم: بياض الشفة عند الخيل.

(٢) الألف: الرمح - الترويس: السهم - الكمي: البطل الشجاع.

وأنت يا ربح بطني
يا قفاه تقدم
وإن صفعتك ألفا
وقد تعشقت معني
يا لحيه هي عن أهـ
قومي ادخلي جوف بطني
وأنت عندي مكان
كأنما باب سور مبعرها
كأنما الأير فوق عصعصها
ومنه قوله:

جارية قد سمطت فيشتي
أخذت في الليل مجس استها الـ
أوجب إخراج دم فاسد
لبظرها الأسود ذنية
خطبت بالأمس عليها استها
وبات أيري رافضي الخصى
وقال أيضاً:

قوموا افتحوا باب سرمها ولجوا
قوموا فعين استها لرؤيتكم
إن لم يسعكم ممر عصعصها
وفي استها خاتم للولبه
إذا الخصى صافح استها خريت
وقال أيضاً:

بأبي من تمكنت من فؤادي
قدها في القياس من قوم ياجو

على عذارينه هبي
واقعد قليلاً بجنبي
فلا تقولن حسبي
طرطورك المتعبي^(١)
يا لحيه هي عن أهـ
فقد وقعت بقلبي
السواد من عين صلبي
عنقود كرم مزيب العنب^(٢)
راكب حمارة على قتب
بوهج حمى سرمها الصالب^(٣)
وقد نامت إلى جانبي
من عين قيفال استها الضارب^(٤)
تصلح للقاضي أبي السائب
فأنعمت للخاطب الراغب
يعطي قفا مبعرها الناصب
فكل عضو من استها شرح
بالليل فوق الفراش تختلج
فشم بالطول تحته أزج
طوق محلى وفصه سبج^(٥)
تحتي وبالببيض تعمل العجاج
فأنا الدهر كله في اجتهاد
ج ولكن بظرها قوم عاد

(١) الطرطور: من حلى النساء: قلنسوة دقيقة طويلة ويقال: طنطور بالنون.

(٢) المبعر: مكان خروج البعر والبعر هو فضلات الحيوانات أو روثها.

(٣) الفيشة: الحشفة من الأير- السرم: طرف المعى الغليظ أو مكان خروج البراز- الصالب: الحمى الشديدة الحرارة.

(٤) القيفال: وريد في الجانب الوحشي من العضد.

(٥) السبج: خرز أسود.

وقفت لي فبستها من قعود بوسة بردت غليل فؤادي^(١)
ولها شعرة ولا زيد البحر بياضاً وعصص كالمداد
وحر أشمط العذارين الحي فيه سمت النساك والعباد
بظرها فوقه كدنية الحما كم يوم انحداره في السواد
ما توهمته وحقك إلا بعض أصحابنا بني حماد
يوم حاملتها فلما أحست في خراها بمثل شرط الفصاد^(٢)
جذبت لحيتي وقالت أيا شيخ ترى أنت كافر بالمعاد
أنت ممن يبغي خلافاً على الله ويسعى في أرضه بالفساد
قلت كفي إنا وجدنا على هذا أيور الأبناء والأجداد
عرفيني وخبريني متى كا نت سيوف الخصي بلا أغماد

ومن غياته في هذا الباب قوله:

مولاي يدعوك شيخ لا وقار له حتى القيامة سكران ومخمور
ما فيه للشيب إكرام فيزجره عن الخمر ولا للسُن توقير
يقول بالأمرد المصقول عارضه مقسماً فيه تأنيث وتذكير
وبالفتاة التي تنور مدخلها بعد العشا لشوى الخصيان مسجور^(٣)
وبالعجوز التي في أصل عنبلها غداة بعث المخاصي ينفخ الصور
زبال زرع استها يسقى بدالية وبظرها واقف في الزرع ناطور^(٤)
لها حر أشمط قد شاب مفرقه عليه بظر طويل فيه تدوير
كأنه شاعر قد جاء من حلب شيخ على رأسه المحلوق طرطور^(٥)

هذا الاستطراد في البيت الأخير استطرده فيه إلى أبي الطيب، وهو في غاية اللطف والظرف، وقد تقدمت إشارته إلى طرطوره في الأبيات المتقدمة البائية، ومن اختراعاته في هذا الباب قوله:

أحب من الكس تقبيله إذا كان في شفتيه لعس^(٦)

(١) البوسة: القبلة.

(٢) الشرط: البضع والجرح - الفصاد: عملية إخراج الدم الفاسد من العروق.

(٣) مسجور: محمى.

(٤) الزبال: ما تحمله النملة - الدالية: الناعورة - البظر: نتوء في فرج المرأة.

(٥) الطرطور: القلنوسة.

(٦) الكس: فرج المرأة - اللعس: سواد مستحسن في باطن الشفة.

نقرت أنفه بقمدي عطس^(١)
إذا مسها النيك ضيق النفس
يعلق من خصيته جرس

ويعجبني منه أنسى إذا
وواسعة السرم تشكو استها
فتاة لدرب استها حارس

ويعجبني قوله من قصيدة:

جمعوا لي من تحتها كف نبق^(٢)
ن إذا لكته تحمض شدقي^(٣)

في إستها سدره إذا نفضوها
وهو نبق بلا نوى أسود اللو



(١) القمد: الطويل الضخم العنق.

(٢) النبق: ثمرة شجر الدر أو دقيق يخرج من لب جذع النخلة.

(٣) لآك: مضغ.

ذكر التفسير

وصحبه بالوجوه البيض يوم وغى كم فسروا من بدور في دجى الظلم
هذا النوع، أعني التفسير، من مستخرجات قدامة، وسماه قوم التبيين، وهو أن يأتي
المتكلم أو الشاعر في بيت بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه دون تفسيره، إما في
البيت الآخر، أو في بقية البيت، إن كان الكلام يحتاج إلى التفسير في أوله. والتفسير يأتي
بعد الشرط وما هو في معناه، وبعد الجار والمجرور، وبعد المبتدأ الذي يكون تفسيره
خبره، بشرط أن يكون المفسر مجملاً والمفسر مفصلاً. فمن بديع التفسير الذي وقع في
بيت واحد قول بعض المغاربة:

صالوا وجادوا وضأوا واحتبوا فهم أسد ومزن وأقمار وأجبال

فإنه أحسن الترتيب في عجز البيت كله، وجعل المفسر في الصدر، بحيث أتى كل
قسم مستقلاً بنفسه.

ومثال ما وقع من التفسير بعد الحروف المتضمنة معنى الشرط، قول الفرزدق:

لقد جئت قوماً لو لجأت إليهم طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم
لألفيت منهم معطياً ومطاعناً وراءك شزراً بالوشيج المقوم^(١)

والفرزدق ما راعى حسن الترتيب في بيته، فإن عندهم عدم الترتيب مع حسن
الجوار، وقرب الملائم، لا ينقص حسن الكلام البليغ. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿يوم

(١) ألفيت وجدت - الشزور: النظر بطرف العين - الوشيج المقوم: الرمح المستقيم.

تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم^(١): ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾^(٢).

ومن الأمثلة الواقعة بعد الجار والمجرور في باب التفسير، قول شرف الدين القيرواني:

لمختلفي الحاجات جمع يبابه فهذا له فن وهذا له فن
فللخامل العليا وللمعدم الغنى وللمذنب العقبي وللخائف الأمن

ومما جاء من التفسير بعد المبتدأ، قول ابن الرومي:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصباح تجلو الدجى والأخريات رجوم^(٣)

قالوا إن هذا أبلغ ما وقع في التفسير من الأمثلة الشعرية، فإنه راعى فيه الترتيب أحسن مراعاة.

ومن بديع هذا النوع قول محمد بن وهيب في المعتصم:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

ومثله في الحسن قول محمد بن شمس الخلافة:

شيئان حدّث بالقساوة عنهما قلب الذي يهواه قلبي والحجر
وثلاثة بالجود حدّث عنهم البحر والملك المعظم والمطر

ومن معجز التفسير، ما جاء في الكتاب العزيز، وهو قوله تعالى: ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع﴾^(٤) فذكر سبحانه الجنس الأعلى أولاً، حيث قال: كل دابة فاستغرق أجناس كل ما دب ودرج، ثم فسر سبحانه هذا الجنس، بعد ذلك، بالأجناس المتوسطة والأنواع، حيث قال: فمنهم ومنهم ومنهم، مراعيًا للترتيب، وذلك أنه قدم ما يمشي على غير آلة لكون الآية سبقت لبيان القدرة وتعجب السامع، وما يمشي بغير آلة أعجب مما يمشي

(١) آل عمران، ١٠٦/٣.

(٢) آل عمران ١٠٦/٣.

(٣) رجوم: ظنون لا دليل على صحتها.

(٤) النور، ٤٥/٢٤..

بآلة، فلذلك كان تقديمه ملائماً لمقصود الآية الشريفة، ثم ثنى بالأفضل فأتى بما يمشي على رجلين وهو الأدمي والطيور لتمام خلق الإنسان وكمال صورته ولما في الطير من عجب الطيران الدال على الخفة مع ما فيه من الكثافة الأرضية، وثلث بما يمشي على أربع لأنه أحسن الحيوان البهيمي وأقواه، فتضمنت هذه الكلمات، التي هي بعض آية، عدة من المحاسن، وهي صحة التفسير وصحة التقسيم مع مراعاة الترتيب والإشارة وائتلاف اللفظ مع المعنى وحسن النسق. والفرق بين التفسير والإيضاح: أن التفسير تفصيل الإجمال، والإيضاح رفع الإشكال، لأن المفسر من الكلام لا يكون فيه إشكال.

وبيت صفي الدين على التفسير قوله:

هم النجوم بهم يهدى الأنام وينجاب الظلام ويهمي صيب الديم^(١)
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي قوله:
ذكر الإمام وابنيه يفسره عليّ والحسن أكرم بذكرهم
الشيخ عز الدين ما أفادنا في التفسير هنا شيئاً.

وبيت بديعيتي أقول فيه، عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين:

وصحبه بالوجه البيض يوم وغى كم فسروا من بدور في دجى الظلم
هذا هو التفسير الذي لا يستقل الفهم بمعرفة فحواء، في الشطر الأول من البيت،
إلا بتفسيره من الشطر الثاني على الترتيب. وأما ذكر الإمام عليّ كرم الله وجهه، وذكر
ولديه عليهما السلام في بيت الشيخ عز الدين رحمه الله، فإنه غير محتاج إلى تفسير والله
أعلم.



(١) انجاب: انكشف - يهمي: يمطر بغزارة - الديم: الغيوم.

ذكر حسن الاتباع

ذكره يطربهم والسيف ينهل من أجسامهم لم يشن حسن اتباعهم^(١)
هذا النوع، أعني حسن الإلتباع، هو أن يأتي المتكلم إلى معنى اخترعه الغير فيحسن اتباعه فيه، بحيث يستحق بوجه من الوجوه الزائدة التي توجب للمتأخرين استحقاق معنى التقدم، إما باختصار لفظه، أو قصر وزن، أو عذوبة لفظ، أو تمكين قافية، أو تميم نقص، أو تحلية من البديع توجب الاستحقاق، كاتباع أبي نواس جريراً في قوله:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

فنقل أبو نواس المعنى من الفخر إلى المدح بقوله:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

فزاد على جرير زيادات، منها: قصر الوزن، وحسن السبك، وإخراج كلامه من الظن إلى اليقين، وأيضاً فإن ذكر العالم، أعم من ذكر الناس في بيت جرير.

وعدوا من الشواهد الحسنة في حسن الاتباع، قول منصور النميري، في زينب أخت الحجاج وأترابها، وهو:

وهن اللواتي إن برزن قتلنتي وإن غبن قطعن الحشا حسرات

(١) شان: عاب.

فأحسن اتباعه ابن الرومي بقوله:

ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزعهن أليم
قلت: وقع السهام ونزعهن، بعد ويلاه، في بيت ابن الرومي، تركت بيت النميري
أطلاً بالية.

وقال أبو عبادة البحرني:

أخجلتني بذات يديك فسودت ما بيننا تلك اليد البيضاء
صلة غدت في الناس وهي قطعة عجباً وبراً راح وهو جفاء
وأحسن أبو العلاء وقال:

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط في الخصر
لأنه استوعب معنى البيتين في صدر بيته، وأخرج العجز مخرج المثل السائر، مع
الإيجاز والإيضاح وحسن البيان.
وقال عنتره:

إني امرؤ من خير عبس منصباً شطري وأحمي سائري بالمنصل^(١)
فأحسن اتباعه منصور الفقير في شريف نسبه، وكان شرفه من جهة أبيه لا من جهة
أمه، بقوله:

إن فاتني بأبيه فلم يفتني بأمه^(٢) ورام شتمي ظلماً سكت عن نصف شتمه

فإن هذا الفقيه أحسن غاية الإحسان، من وجوه: أحدها الإيجاز، فإنه عمل معنى
عنتره الذي جاء به في بيت تام من الكامل، في بيت من المجتث، وأتى بالمطابقة
المعنوية فأما قوله سكت عن نصف شتمه، ففيه من التأدب الديني مع رسول الله ﷺ،
والاحتراس، ما يزيد على الوصف.

وقال ابن الرومي:

تخذتكم درعاً حصيناً لتدفعوا نبال العدا عني فكتتم نصالها

(١) المنصل: السيف.

(٢) لم يفتني: بالقرابة.

على حين خذلان اليمين شمالها
ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها
وخلوا نبالي للعدا ونبالها

عوناً فكتم عون كل ملمة
نظر العدو ومقاتلي من جنتي^(١)
نفض الأنامل من تراب الميت

فكانوها ولكن للأعادي
فكانوها ولكن في فنؤادي
لقد صدقوا ولكن من وداي

لكن فم الحال عني غير مسدود

أهجي لكل مقصر عن منطقي

خليق الثنايا بالعدوية والبرد^(٢)
كما شيم برق في السحابة من بعد^(٣)

بماء الندى في آخر الليل عابق^(٤)
كما شيم في أعلى السحابة بارق

وكنت أرجي منكم خير ناصر
فإن كنتم لا تحفظون مودتي
قفوا وقفة المعذور عني بمعزل

فأحسن ابن سنان الخفاجي اتباعه بقوله:

أعددتكم للدفاع كل ملمة
وتخذتكم لي جنة فكأنما
فلأنفضن يدي يأساً منكم

ويعجبني هنا قول القائل:

وأخوان حسبتهم دروعاً
وخلتهم سهاماً صائبات
وقالوا قد صفت منا قلوباً

وقال ابن الرومي:

سد السداد فمي عما يريكم

وأحسن زكي الدين بن أبي الأصبع اتباعه فقال:

هبني سكت فما لسان ضرورتي

وقال سليك بن سلعة:

وتبسم عن ألمى اللثاة مفلج
وما ذفته إلا بعيني تفرساً

وقال نصيب:

كأن على أنيابها الخمر شجها
وما ذفته إلا بعيني تفرساً

(١) أي منكم عرف العدو كيف يقتلني - والمقاتل: الأمكنة التي إذا أصيب فيها الإنسان قتل.
(٢) ألمى: أسمر - اللثاة: مفردا لثة وهي مكان انغراز الأسنان في الفم - مفلج: بين أسنانه فسحات متساوية.

(٣) التفرس: التثبت بالنظر - شيم: انتظر.

(٤) شجها: الخمرة مزجها بالماء - العابق: اللبق الظريف.

وأحسن بشار بن برد اتباعهما بإيجازه، وقال:

يا أطيب الناس ريقاً غير مختبر
إلا شهادة أطراف المساويك^(١)
وقال السموأل:

يقرب حب الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطول
فأحسن بشار اتباعه، بزيادة محاسن، فقال: أفناهم الصبر إذ أبقاهم الجزع.
وقال الأسود ابن يعفر:

يسعى بها ذو توأمين كأنما
قنأت أتأمله من الفرصاد^(٢)
وأحسن أبو نواس إتباعه، بزيادة من المحاسن، وقال:

تبكي فتذري الدمع من نرجس
وتلطم الورد بعناب
استوفى أبو نواس المعنى في نصف بيت، وأخذه الوأواء الدمشقي من أبي نواس،
وزاد عليه زيادة عجيبة، بقوله:

وأمرت لؤلؤاً من نرجس فسقت
ورداً وعضت على العناب بالبرد
وقال مسلم بن الويد:

تجري محبتها في قلب عاشقها
مجرى المعافاة في أعضاء منتكس^(٣)
فأحسن أبو نواس اتباعه فقال:

فتمشت في مفاصلهم
كتمشي البرء في السقم
وجميع ذلك مأخوذ من قول بعض الملوك باليمن:

منع البقاء تقلب الشمس
تجري على كبد السماء كما
وتلوعها من حيث لا تسمي
يجري حمام الموت في النفس

نقل أبو هلال العسكري في «الصناعتين» عن الصولي أنه قال: حدثني أبو بكر بن
هارون بن عبد الله المهلبى، قال: كنا في حلقة دعبل الشاعر، فجرى ذكر أبي تمام،

(١) المساويك: مفردا مساوك وهو غصن شجر يستاك به أي تنظف به الأسنان.

(٢) قنأ: احمر كثيراً - الفرصاد: التوت أو صبغ أحمر، أو نوى العنب.

(٣) المعافاة: البرء - المنتكس: الذي يعود إليه المرض بعد تماثله للشفاء.

فقال دعبل: كان يتبع معانيً فأخذها، فقال له رجل في مجلسه: مثل ماذا أعزك الله؟
فقال: قلت:

وإن امرأ أسدى إليّ بشافعٍ إليه ويرجو الشكر مني لأحمق
فأخذه أبو تمام، وقال:

وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعه من جاهه فكأنها من ماله
فقال الرجل: أحسن والله! فقال دعبل: كذبت والله، قبحك الله. فقال الرجل: إن
كان سبقك بهذا المعنى وتبعته فما أحسنت، وإن كان أخذه منك فقد أجاد فصار أولى به
منك على الحالين، فغضب دعبل وقام.
وقال بشار:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج^(١)
فأحسن اتباعه سلم الخاسر، وقال:

من راقب الناس مات غمًا وفاز باللذة الجسور
فلما سمع بشار هذا البيت قال: قد ذهب ابن الفاعلة بيتي.

وممن زاد على المتقدمين بحسن سبكه وعذوبة لفظه، ابن المعتز رحمه الله بقوله:

ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضحه مثل القلامة قد قدت من الظفر^(٢)
وهو مأخوذ من قول الأول:

كأن ابن ليلته جانح إلى مسقط الأفق من خنصر^(٣)
وقال أبو لعتاهية:

كم نعمة لا تستقل بشكرها لله في طي المكاره كامنه
فأحسن أبو تمام اتباعه فقال:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت وبيتلي الله أدنى القوم بالنعمة

(١) الفاتك: الشجاع - اللهج: المثابر.

(٢) القلامة: قصاصة الظفر - قُدّ: قُطِع.

(٣) ابن ليلته: الهلال مضت عليه ليلة واحدة بعد المحاق - الخنصر: الأصبع الصغير.

فزاد عليه، إلا أنه أتى بعكس المعنى، وما يعرف للمتقدمين معنى شريف، إلا نازعهم إياه المتأخرون وطلبوا الشركة معهم فيه، إلا قول عترة: وخلا الذباب بها فليس بنازح^(١). فإنه ما نوزع في هذا المعنى، على جودته، وقد رامه بعض المجتهدين فافتضح، وتقرر ذلك في بيت سلامة الاختراع.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي، على حسن الاتباع قوله:

ينازع السمع فيها الطرف حين جرت فيرجعان إلى الآثار في الأكم^(٢)

بيت الشيخ صفي الدين مأخوذ من قول القائل ::

وطرف يفوت الطرف في جريانه ولكن للأسماع فيه نصيب

والعميان ما نظوا هذا النوع في بديعيتهم وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته قوله:

والجزع حن إليه بعد فرقة حسن اتباع لتلك الأربع الحرم

ذكر الشيخ عز الدين، في شرحه، أنه اتبع الفرزدق في قوله، في مديح الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي عليهما السلام، وهو هذا:

هذا ابن من تعرف البطحاء وطأته والركن يعرفه والبيت والحرم

وبيت بديعيتي تقدمه قولي، في حق الصحابة رضي الله عنهم أجمعين:

وصحبه بالوجوه البيض يوم وغى كم فسروا من بدور في دجى الظلم

ثم إنني قلت بعده، في حسن الاتباع عن الصحابة:

ذكراه يطربهم والسيف ينهل من أجسامهم لم يشن حسن اتباعهم

هذا المعنى سبقني إليه الشيخ شرف الدين بن الفارض، وكنت في صغري أترنم به وهو قوله:

فلي ذكرها يحلو على كل صيغة ولو مزجوه عدلي بخصام

الشيخ شرف الدين قرر: إن ذكر محبوبه يحلو، ولو كان في محل خصام من

(١) نازح: مغادر.

(٢) الأكم: المكان الملتف الأشجار المرتفع.

العذال، وقولي أبلغ في حق الصحابة رضي الله عنهم، لأن ذكر النبي ﷺ، يطربهم
والسيوف تنهل من أجسامهم، وأين الطرب في هذا المقام؟ من يحلو في ذلك المقام؟ وأين
المخاصمة بالألسن من التكليم باللسنة السيوف؟ والزيادة التي ما على حسنها من مزيد،
قولي: لم يشن حسن اتباعهم، فإن شدة الحرب وتكليم النفوس، ما شان حسن السيوف
وذهاب الأنفس، ما شان حسن اتباعهم للنبي ﷺ يوماً من الأيام. والتورية، في حسن
الاتباع الذي هو المراد من تسمية النوع، محاسنها لا تخفى على المنصفين من أهل
الأدب، والله أعلم.



ذكر المواردة

كأنما الهام أحداق مسهدة ونومها واردته في سيوفهم^(١)
هذا النوع، أعني المواردة: هو أن يتوارد الشاعران على بيت، أو بعض بيت،
بلفظه ومعناه: فإن كان أحدهما أقدم من الآخر وأعلى رتبة في النظم حكم له بالسبق،
وإلا فلكل منهما ما نظمه كما جرى لامرئ القيس وطرفة بن العبد في معلقتهما، وهو
قول امرئ القيس:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجمل
قال طرفة: أسي وتجلد. فلما تنافسا في ذلك وأحضر طرفة بن العبد خطوط أهل
بلده في أي يوم نظم هذا البيت، كان اليوم الذي نظما فيه واحداً. وقد يقع مثل ذلك أو
دونه في بيت يخالف وزن البيت الأصلي.
وبيت الشيخ صفي الدين على المواردة قوله:

تهوى الرقاب مواضيهم فتحسبها حديدها كان أغلالاً من القدم
وبيت الشيخ صفي الدين ذكر في شرحه أنه نظم بيتاً من جملة أبيات، وهو:
تهوى مواضيك الرقاب كأنما من قبل كان حديدها أغلالاً
ثم ذكر أنه سمع بعد ذلك بيتاً لا يعلم قائله وهو:

تهوى الرقاب مواضيه فتحسبها تود لو أصبحت أغلال من أسرا
فأسقط البيت الذي له، فلما تعددت عليه الأنواع في نظم البديعية، ووصل إلى

(١) الأحداق: جمع حدقه وهي استدارة العين - والهام: الجباه.

الموارد، ألقائه الضرورة إلى نظمها، ليكون البيت المنظوم منتظماً في سلك شواهد
بديعته، بحيث لا تخلو من هذا النوع.

وبيت الشيخ عز الدين في بديعته قوله:

بيت المدائح تستوفي علاه ولو تواردت في مديح غير منصرم
الشرط الأول من هذا البيت، ذكر الشيخ عز الدين، في شرحه، أنه توارد هو وأبو
الطيب المتنبى عليه.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. ومعنى الموارد في بيت بديعيتي أنني
كنت مدحت تمر بغناء الأفضلي الشهير بمنطاش، ورياحين الشبية غضة، ونشوة الابتداء
تحت على دور كاسات الأدب، وكان المشار إليه إذ ذاك كافل المملكة الحموية، بقصيدة
رائية سارت ببديع محاسنها الركبان، واحتوت على معان لم أسبق إليها، وتمثلت في
غصون نظمها بين يدي شيخي، وهو مولانا قاضي القضاة علاء الدين أبو الحسن على
القضامي الحنفي رحمه الله، وقد علق بخاطري منها أبيات، فأنشدته في ذلك الوقت ما
علق بخاطري، وهو قولي منها:

له مطالعة في الحرب حين يرى	دم العدا فوق طرس الأرض قد سطرا
إن راسل القوم انشا في رسائله	سجعات ضرب بها الهامات قد نثرا
كتابه السيف والخطي له قلم	والرسل أسهم حتف توضح الخبرا ^(١)
إن كان قد نظم الأعدا مكيدتهم	فقل لهم إنه من قبلهم شعرا
لأنه ببديع الحسن لف لنا	شمالاً ولكن لأرقاب العدا نشرا
وخط من فوق ألواح الصدور لهم	باباً من الخوف في أحشائهم وقرا
وصار يكتب بالهندي ويعجم بالـ	خطي فعل شجاع قد قرا ودرى ^(٢)
تراه بالرمح بدرأ حاملاً غصناً	وبالتريسة غصناً حاملاً قمرا ^(٣)
إن جس عوداً لضرب مال سامعه	والخيل يرقصها إن حرك الوترا

وصار^(٤) كلما أنشدته بيتاً من هذه الأبيات يترنم كثيراً، ويرسم لي بإعادته حتى
انتهيت إلى قولي:

(١) الخطي: الرمح.

(٢) الهندي: السيف، ويكتب بالهندي: يفرض بالسيف - يعجم: يزيل الإبهام، ويختبر - قرا: قرأ.

(٣) التريسة: الترس وهو ما يتقى به السيف.

(٤) في الأصل: صرت.

كأنما الهام أحداق أضرب بها سهد وأسيافه في الحرب طيب كرى

فلما سمع هذا البيت لم يترنم كما ترنم للأبيات التي قبله، وقال: أبو الطيب هو أبو عذرة هذا المعنى ولكن أحسنت الاتباع، بقولك: أضربها سهد، وبقولك في الشطر الثاني: طيب كرى، فإن فيهما زيادتين حسنتين، فالتزمت له بيمين أنني ما ملكت ديوان المتنبي يوماً من الأيام، ولا طالعت عند الغير، وما كنت في ذلك الوقت أطلع غير ديوان الشيخ جمال الدين بن نباتة، وديوان الشيخ صفي الدين الحلبي، فتعجب مولانا قاضي القضاة من ذلك وبالغ في الجبر والثناء، ولكنني أسقطت البيت من القصيدة، خوفاً من قدح حاسد، فلما وصلت بديعيتي إلى نوع المواردة ألجأت الضرورة إلى نظمه في سلك أنواعها.

وبيت المتنبي الذي حصلت المواردة به قوله:

كأن الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد^(١)

وبيت بديعيتي:

كأنما الهام أحداق مسهدة ونومها وارتته في سيوفهم

والترشيح أيضاً هنا ظاهر في قولي: مسهدة، والترشيح، في تورية المواردة، بتسمية النوع وزيادة المعنى، غير خاف على أهل الأدب.



(١) الهام: جمع هامة وهي الجبهة من الإنسان.

ذكر الإيضاح

هذا وتزداد إيضاحاً مخافتهم في كل معترك من بطش ربهم
هذا النوع، أعني الإيضاح: هو أن يذكر المتكلم كلاماً في ظاهره لبس، فلا يفهم
من أول وهلة، حتى يوضحه في بقية كلامه، كقول الشاعر:

يذكرك الخير والشر كله وقيل الخنى والحلم والعلم والجهل^(١)
فألقاك عن مكروها متنزهاً وألقاك في محبوبها ولك الفضل
معنى البيت الأول ملتبس، وما ذاك إلا أنه يقتضي المدح والذم ولكنه أوضحه بقوله:
فألقاك عن مكروها متنزهاً وألقاك في محبوبها ولك الفضل

وقد يكون الإيضاح في الوصف الذي لا يتعلق به مدح ولا هجاء، وذلك أن يخبر
المتكلم بخبر واحد عن شيء واحد يحصل فيه الإشكال، فيوضح ذلك الإشكال بما يفهم
منه كشف اللبس عن الحد الأول، كقول ابن حيوس:

ومقرطق يغني النديم بوجهه عن كأسه المملأ وعن إبريقه^(٢)
فعل المدام ولونها ومذاقها في مقلتيه ووجنتيه وريقه

فإنه لو اقتصر على البيت الأول أشكل الأمر من جهة الوجه، فإنه وإن كان حسناً لا
يغني النديم عن الخمر، فأزال اللبس في البيت الثاني وأوضحه، وقد تقدم وتقرر الفرق
بين الإيضاح والتفسير.

(١) الخنى: القول الفاحش.

(٢) المقرطق: لابس القرطق وهو ثوب فارسي مزرکش.

وبيت الشيخ صفي الدين قوله:

قادوا الشواذب كالأجبال حاملة أمثالها ثبتة في كل مصطدم^(١)
العميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته
قوله:

للخير والشر إيضاحاً به فبذا أمر وعن ذلك نهى حب نصحهم

والذي أقوله: إن الشيخ عز الدين غفر الله له لم يتضح في بيته غير الإشكال.

وبيت بديعيتي تقدم قولتي قبله في وصف الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، بحسن
الاتباع والصبر والإقدام، إلى أن قلت في الموارد:

كأنما الهام أحداق مسهدة ونومها واردته في سيوفهم

ثم إنني قلت بعده في الإيضاح:

هذا وتزداد إيضاحاً مخافتهم في كل معترك من بطش ربهم

الإطناب والمبالغة، في وصف الصحابة رضي الله عنهم، قد تقدم بالشجاعة التي
هي فوق الوصف، فلما قلت في هذا البيت: إن مخافتهم تزداد إيضاحاً في كل معترك،
ظهر اللبس فأوضحته بقولتي: من بطش ربهم. والتورية بتسمية النوع، الذي هو المطلوب
هنا، محاسنها لم تفتقر إلى الإيضاح، والله الموفق.



(١) الشواذب: جمع مفردة الشاذب وهو المتنحي عن وطنه - ثبتة: شجاعة - المصطدم: مكان الاصطدام أو ساحة المعركة.

ذكر التفريع

ما العود إن فاح نشراً أو شداً طرباً يوماً بأطرب من تفريع وصفهم

هذا النوع، أعني التفريع، وهو ضد التأصيل، هو أن يصدر الشاعر أو المتكلم كلامه باسم منفي، بما خاصة، ثم يصف ذلك الاسم المنفي بأحسن أوصافه المناسبة للمقام، إما في الحسن وإما في القبح، ثم يجعله أصلاً يفرع منه جملة، من جار ومجرور، متعلقة به تعلق مدح أو هجاء أو فخر أو نسيب أو غير ذلك، ثم يخبر عن ذلك الاسم بأفعل التفضيل، ثم يدخل من على المقصود بالمدح أو الذم أو غيرهما، ويعلق المجرور بأفعل التفضيل، فتحصل المساواة بين الاسم المجرور بمن وبين الاسم الداخِل عليه ما النافية، لأن حرف النفي قد نفى الأفضلية. فتبقى المساواة بين ذلك أن تقول: ما الزهر إذا بكى الغمام فضحك، بأحسن من أخلاق زيد. فالمساواة بين الزهر والأخلاق ههنا ثابتة، بالشروط المذكورة، ومن الأمثلة الشعرية قول الأعشى:

ما روضة من رياض الحسن معشبة غناء جاد عليها مسبل هطل^(١)
يضاحك الزهر منها كوكب شرق^(٢) مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها طيب رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل^(٣)

(١) غناء: ملتفة الشجر - جاد: هطل - المسبل: من المطر: النازل من السحاب بغزارة - هطل: صيغة

مبالغة من هطل.

(٢) شرق: واضح الإشراق - مؤزر: يلبس الإزار - مكتهل: كبير السن.

(٣) الأصل: التأصيل أو وقت الغروب.

وقد يجيء الفرع والأصل في بيت واحد، كقول أبي تمام:

ما ربع مية معموراً يطيف به غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب^(١)
ولا الخدود وإن أدمين من خجل أشهى إلى ناظري من خدها الترب

فذكر في البيت الأول الأصل والفرع، وكذلك في البيت الثاني، فالأصل هو الاسم المنفي مع ما ذكر من أوصافه، والفرع هو أفعل التفضيل مع ما يتعلق به.

ويعجبني في هذا الباب قول إبراهيم بن سهل الأشبيلي، من قصيدة، وهو:

وما وجد أعرابية بان دارها وحتت إلى بان الحجاز ورنده^(٢)
إذا آنست ركباً تكفل شوقها بنار قرأه والدموع بورده
وإن أوقدوا المصباح ظنوه بارقاً يحيي فهشت للسلام ورده
بأعظم من وجدي بموسى وإنما يرى أنني أذنت ذنباً لوده

ومن إنشاء القاضي شهاب الدين محمود، في هذا الباب، قوله: وما أم طفل قذفها الزمن العنيد، في بعض البيد، في أرض موحشة المسالك، قليلة السالك، قد لمع سربابها، وتوقدت هضابها، وصرخ بومها، ونفر ظليهما^(٣)، وحضر سمومها^(٤)، وغاب نسيمها، فلما خافت على ولدها من الظمأ الهلاك، أجلسته إلى جنب كثيب هناك، ثم ذهبت في طلب الماء للغلام، لثلا يقضي عليه الأوام^(٥)، فأنتهى بها المسير إلى روضة وغدير، وآثار مطي بوارك، تدل على أن الطريق هنالك، فعادت إلى ولدها مسرعه، وكل أعضائها إليه عيون متطلعه، فلما شارفت جنب الكثيب، رأت ولدها في فم الذيب:

بأكثر مني حسرة وتلهفاً وأعظم مني حرقة وتأسفاً
وأغزر دمعاً عندما قيل لي الذي كلفت به أضحى على البعد مزمعاً

وذكر صاحب الإيضاح، للتفريع، قسماً ثانياً لم يذكره غيره، ولا نسج على منواله أصحاب البديعيات فألغيته أيضاً، والشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع اخترع قسماً ثالثاً،

(١) غيلان: إسم ذي الرمة الشاعر.

(٢) بان: بُعد - البان: شجر طيب الرائحة طويل الأغصان طريها - الرند: شجر طيب الرائحة يشبه الأس وينبت في البادية.

(٣) الظليم: ذكر النعام.

(٤) السموم: الريح الحارة.

(٥) الأوام: شدة العطش والنشجان.

ولكن وجدت هذا النوع الذي نحن بصدده أحلى في الأذواق، وأوقع في القلوب، وعلى سننه مشى أصحاب البديعيات، فألغيت أيضاً ما اخترعه ابن أبي الأصبع رحمه الله .

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي على هذا النوع في وصف الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين:

ما روضة وشع الوسمي بردتها يوماً بأحسن من آثار سعيهم^(١)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم . وبيت الشيخ عز الدين في بديعته قوله:

ما الدوح تفريعه بالزهر متسق نظماً بأطيب من تعريف ذكرهم

وبيت بديعيتي أقول فيه عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين:

ما العود إن فاح نشراً أو شداً طرباً يوماً بأطيب من تفريع وصفهم

هذا البيت فيه نوع التفريع، الذي هو القصد هنا، والتورية بتسميته، والاستخدام، ومرعاة النظر، وفيه الانسجام، والتمكين، والله أعلم.



(١) وشح: زين وزخرف - الوسمي: مطر الربيع.

ذكر حسن النسق

من ذا يناسقهم من ذا يطابقهم من ذا يسابقهم في حلبة الكرم

هذا النوع، أعني حسن النسق، ويسمى التنسيق، من محاسن الكلام، وهو أن يأتي المتكلم بالكلمات من النثر، والأبيات من الشعر، متتاليات متلاحمات تلاحماً مستحسنًا مستهجاً، وتكون جملها ومفرداتها منسقة متوالية، إذا أفرد منها البيت قام بنفسه واستقل معناه بلفظه، كقول شرف الدين القيرواني:

جاورُ علياً ولا تحفل بحادثة إذا أدّرت فلا تسأل عن الأسل^(١)
سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ملء المسامع والأفواه والمقل

فالحظ حسن النسق، وصحة هذا التركيب فيه، واستيعاب هذا التقسيم، ووضوح هذا التفسير.

ومنه قول أبي نواس:

وإذا جلست إلى المدام وشربها فاجعل حديثك كله في الكاس
وإذا نزعت عن الغواية فليكن لله ذاك النزاع لا للناس

حسن النسق، هنا، لأمرين بين فنيين متضادين، في هذين البيتين، وهما المعجون والزهد، حتى صارا كأنهما فن واحد.

(١) أدّرت: لبس الدرع - الأسل: الرماح.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي قوله:

والذئب سلم والجني أسلم والثعبان كلم والأموات في الرحم^(١)
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته
قوله:

فالضيق أذهب والتوفيق سبب والتنسيق رتب في تصديق حكمهم
وبيت بديعيتي أنا مستمر فيه على وصف الصحابة رضوان الله عليهم بقولي:
من ذا يناسقهم من ذا يطابقهم من ذا يسابقهم في حلبة الكرم



(١) سلم: رضي - الجني: واجد الجن - أسلم: انقاد وتدين بالإسلام. - الثعبان: الحية ذكراً كانت أو أنثى - كلم: تكلم وردّ الجواب. - الأموات في الرحم: الأجنة. والبيت في مدح النبي صلعم.

ذكر التعديد

تعديد فضلهم يبدي لسامعه علماً وذوقاً وشوقاً عند ذكرهم

هذا النوع، أعني التعديد، ذكره الإمام فخر الدين الرازي وغيره، وسماه قوم الإعداد، وهو عبارة عن إيقاع أسماء منفردة على سياق واحد، فإن روعي في ذلك ازدواج، أو مطابقة، أو تجنيس، أو مقابلة، فذلك الغاية في حسن النسق. مثاله قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾^(١) ومن الأمثلة الشعرية قول أبي الطيب المتنبّي:

الخيال والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وبيت الشيخ صفى الدين في بديعته على هذا النوع قوله:

يا خاتم الرسل يا من علمه والعدل والفضل والإيفاء للذمم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت عز الدين في بديعته قوله:

تعديد أوصافهم في المدح يعجزنا أهل التقى والنقا والمجد والهمم

وبيت بديعيتي أنا مستمر فيه على مدح الصحابة رضي الله عنهم أجمعين بقولي:

تعديد أوصافهم يبدي لسامعه علماً وذوقاً وشوقاً عند ذكرهم

(١) البقرة، ١٥٥/٢.

ذكر التعليل

نعم وقد طاب تعليل النسيم لنا لأنه مر في آثار تربهم هذا النوع، أعني التعليل: هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع، أو متوقع، فيقدم قبل ذكره علة وقوعه، لكون رتبة العلة تتقدم على المعلول، كقوله تعالى: ﴿ولولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾^(١) فسبق الكتاب من الله تعالى علة النجاة من العذاب، وكقوله ﷺ: لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة، فخوف المشقة على الأمة، هو علة في التخفيف عنهم من الأمر بالسواك عند كل صلاة. ومن أمثله الشعرية قول البحري:

ولو لم تكن مناخطاً لم أكن أدم الزمان وأشكو الخطوباً
فوجود سخط الممدوح، هو علة في شكوى الشاعر.

ومنه قول ابن هانيء الأندلسي:

ولو لم تصافح رجلها صفحة الثرى لما صح عندي علة للتييم
وفي رواية: لما كنت أدري، وعلى كلتي الروائتين، ففي الغلو قبح وإساءة أدب، كيف أنه لم يدر علة للتييم إلا بما ذكر، وقد علمت صحة التيمم من نص الكتاب والسنة.

ولقد أحسن ابن رشيقي القيرواني، في تعليل قوله ﷺ: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، حيث قال:

(١) الأنفال، ٦٨/٨.

سألت الأرض لم جعلت مصلى
ولم كانت لنا طهراً وطيباً
فقلت غير ناطقة لأنني
حوت لكل إنسان حبياً

فتخلص مما وقع فيه ابن هانيء، لكونه سأل الأرض عن العلة، وتلطف في استخراج علة مناسبة لا حرج عليه في إيرادها. وقد يتقدم المعلول على العلة في هذا الباب، وعلى هذا المنوال نسج ابن رشيق.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على التعليل قوله:

لهم أسام سوام غير خافية
من أجلها صار يدعى الاسم بالعلم^(١)

وبيت العميان:

لم تبرق السحب إلا أنها فرحت
إذ ظلننه فأبدت حسن مبتسم

وبيت الشيخ عز الدين قوله:

تعليل طيب نسيم الروض حين سرى
بأنه نال بعضاً من ثنائهم

وبيت بديعيتي أقول فيه عن الصحابة:

نعم وقد طاب تعليل النسيم لنا
لأنه مر في آثار تربهم



(١) أسام: جمع مفردة إسم - سوام: جمع مفردة سامي: عالي المكانة.

ذكر التعطف

تعطف الخير كم أبدوا لمذنبهم والخير ما زال في أبواب صفحهم^(١)
التعطف شبيه بالترديد في إعادة اللفظة بعينها في البيت، والفرق بينهما أن التعطف شرطه أن تكون إحدى كلمتيه في مصراع، والأخرى في مصراع آخر.
قلت: وهذا النوع أيضاً من الأنواع التي تقدمت، وقررت أن ليس تحتها كبير أمر، وأن رتبة البديع أعلى من هذه الأنواع السافلة، ولكن تقدم قولي: إن القوم كلما طلبوا الكثرة تغالوا في الرخيص، والشروع في المعارضة ملزم، وقد استشهدوا على هذا النوع أعني التعطف، بقول أبي الطيب المتنبي:
فساق إليّ العرف غير مكدر وسقت إليه المدح غير مذموم
وبيت الشيخ صفي الدين على هذا النوع الرخيص قوله:
وصحبه من لهم فخر إذا افتخروا ما أن يقصر عن غايات فضلهم
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته قوله:

تعطفوا برضا أحبابهم وعلى أعدائهم عطفوا بالصارم الخدم^(٢)
وبيت بديعيتي أنا مستمر فيه على وصف الصحابة رضي الله عنهم بقولي:
تعطف الخير كم أبدوا لمذنبهم والخير ما زال في أبواب صفحهم
وقلت بعده مشيراً إليهم.

(١) الصفح: العفو والغفران.

(٢) الصارم: السيف القاطع - الخدم: القاطع.

ذكر الاستبعا

يحمون مستبعين العفو إن ظفروا ويحفظون وفاهم حفظ دينهم
الاستبعا: هو استفعال من تتبع الرجل، إذا اقتفى أثره. وفي الاصطلاح: هو أن
يذكر الناظم أو الناثر معنى مدح أو ذم أو غرض من أغراض الشعر، فيستبع معنى آخر
من جنسه يقتضي زيادة في وصف ذلك الفن، كقول أبي الطيب المتنبّي:

نهبت من الأعمار ما لو حوته لهنت الدنيا بأنك خالد
فإنه مدحه بالشجاعة، على وجه استبع مدحه بكونه سبياً لإصلاح الدنيا، حيث
جعلها مهنة بخلوده ومثله قوله:

إلى كم ترد الرسل فيما أتوا به كأنهم فيما وهبت ملام
فمدحه بالشجاعة إيماء، وألغز في رد الرسل عما أتوا به وصددهم عن مطلوبهم
والتهاون بمرسلهم، واستبع في آخر البيت مدحه بالكرم، لعصيان الملام في الهبات.

ويعجني هنا قول أبي بكر الخوارزمي:

سمح البديهة ليس يمسك لفظه فكأنما أفاضه من ماله
فإنه مدحه بذلاقة اللسان على وجه استبع الكرم.

وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته على هذا النوع قوله:

الباذلو النفس بذل الزاد يوم قرى والصائنو العرض صون الجار والحرم^(١)

(١) القرى: إطعام الضيوف، ويوم القرى: يوم المسغبة أو يوم الحاجة.

وبيت العميان:

تجري دماء الأعداء من سيوفهم مثل المواهب تجري من كفوفهم

وبيت الشيخ عز الدين:

يستبعون بئذ العلم بئذ ندى ويحفظون المعالي حفظ عرضهم

وبيت بديعيتي:

يحمون مستبعين العفو إن ظفروا ويحفظون وفاهم حفظ دينهم



ذكر الطاعة والعصيان

طاعاتهم تقهر العصيان قدرهم له العلو فجانسه بمدحهم
هذا النوع، أعني الطاعة والعصيان، استنبطه أبو العلاء المعري في شرحه الذي
سماه «معجز أحمد» عند نظره في شعر أبي الطيب، وهو قوله:
يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

وسماه الطاعة والعصيان، وقال: إنما أراد أبو الطيب أن يقول: يرد يداً عن ثوبها
وهو مستيقظ، بحيث تطيعه المطابقة في قافية البيت، بقوله: راقد، فلم يطعه الوزن في
ذلك، ولما عصاه الوزن عدل إلى لفظه: قادر، وجعلها مكان مستيقظ، لما فيها من معنى
اليقظة وزيادة، فأطاعه التجنيس المقلوب، بين قادر وراقد، وعصته المطابقة، بين راقد
ومستيقظ، فلم يخل بيته عن معنى بديعي، وقيل إن هذا النوع لم يسمع له مثال قبل أبي
العلاء، ولا بعده في سائر كتب البديع، لقلة وقوعه وتعدر اتفاقه، وإنما وقع للمتنبّي
نادراً.

قلت: أنا تابع، في هذا النوع، مذهب علامة هذا العلم، وهو الشيخ زكي الدين
ابن أبي الأصعب تغمده الله برحمته ورضوانه، فإنه كشف عن وجه الإشكال، وأرشد من
كان متعلقاً بحبال المحال، فإن القوم أضربوا عن هذا النوع وهو ظاهر، لأن الشيخ زكي
الدين قال: إضرابهم عن النظر فيه، إما لحسن ظنهم بالمعري وموضعه من الأدب،
واعتقادهم فيه العصمة من الخطأ والسهو، وإما أن يكون مر عليهم ما مر عليه في هذا
البيت، إذ ليس في البيت شيء أطاع الشاعر ولا شيء عصاه، ودليل ذلك قول المعري:
إن المتنبّي أراد مستيقظاً، ليحصل بينها وبين لفظه راقد طباقاً، فعصته لفظه مستيقظ

لامتناعها من الدخول في هذا الوزن، وهذا محال، لأن المتنبى لو أراد أن يقول: يرُدُّ يداً عن ثوبها وهو ساهر، لحصل له غرضه من الطباق، ولم يعصه الوزن، وإنما المتنبى قصد أن يكون في بيته طباق وجناس، فعدل عن لفظة ساهر إلى قادر، لأن القادر ساهر وزيادة، وحصل بين راقد وقادر الطباق المعنوي، وجناس العكس، لأن الطباق أنواع: منها المعنوي. كما أن الجناس أنواع: منها العكس، ومذهب المتنبى ترجيح المعاني على الألفاظ، ولا سيما وبالعدل عن الطباق اللفظي، حصل في البيت الطباق والجناس معاً، وما كان فيه الطباق والجناس معاً أفضل مما ليس فيه سوى الطباق. ولو عدل المتنبى إلى ما ذكره المعري، لفاته هذا الفضل، والله أعلم.

وقد ثبت من هذا البحث، أن بيت المتنبى لا يصلح أن يكون شاهداً على هذا الباب، لأنه لم يعصه فيه شيء ولم يطعه غيره، وكذلك بيت الشيخ صفي الدين في بديعته وهو قوله:

لهم تهلل وجه بالحياء كما مقصوره مستهل من أكفهم^(١)

فإنه ذكر، في شرحه، أنه أراد الجناس، بين الحياء والحياء، ولما عصاه الوزن وتعذر التجنيس عدل إلى لفظة مقصوره، وهي ردف لفظة الحياء، فأطاعه الجناس المعنوي بإشارة ردفه إليه. اهـ.

قلت: والذي قرره الشيخ صفي الدين أيضاً محال، ولو قال:

لهم تهلل وجه بالحياء كما لنا الحياء مستهل من أكفهم

لحصل له ما أراد من الجناس، وخلص من ثقل مقصوره، وحصل لبيته طلاوة في الأذواق، وخلا من العقادة، وتحقق المتأمل أن عصيان الوزن هنا محال، وكذلك بيت الشيخ عز الدين وهو:

أطاعه وعصاه المؤمنون ومن ناواه ذا الفرق بين الانس والنعم^(٢)

فإنه ذكر، في شرحه، أنه أراد الطباق بين المؤمنين والكافرين، فعصاه الوزن وتعذرت المطابقة، فأتى بلفظة ناواه، فأطاعته المطابقة وعصاه الوزن.

قلت: والذي قرره الشيخ عز الدين أيضاً ههنا محال، ولو قال:

أطاعه وعصاه المؤمنون وجمع الكافرين ولم يحفل بجمعهم

(١) المقصور: الذي يقتصر عليهم منه - مستهل: نازل أو باديء.

(٢) ناواه: ناواه: عصاه وعمل ضده - النعم: الأنعام وهي الحيوانات.

لحصل له ما أراد من المطابقة بين المؤمنين والكافرين، وخلص من ثقل ناواه
وتجشم الانس والنعم التي زلزلت أركان بيته، وأما قوله: أطاعه وعصاه، فهذه المطابقة
تحصيل الحاصل، لأنها تسمية النوع الذي هو المراد هنا، وجل القصد: أن عصيان
الوزن في بيت أبي الطيب، وبيت الشيخ صفي الدين وبيت الشيخ عز الدين محال.

وبيت بديعيتي أقول فيه، عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين:

طاعاتهم تقهر العصيان قدرهم له العلو فجانسه بمدحهم

هذا البيت أردت أن أجانس فيه بين العلو والغلو، فلم يطع فيهما الوزن، فلما
عصى ذلك عدلت إلى لفظة مجانسة، فحصل الجناس المعنوي بإشارة ردفه إليه، فهذا
البيت مشتمل على الطاعة والعصيان حقيقة، فإن الناظم أراد فيه جناس التصحيف،
فعصاه الوزن وأطاعه الجناس المعنوي. والعميان ما نظموا في بديعيتهم، والله أعلم.



ذكر المدح في معرض الذم

في معرض الذم إن رمت المديح فقل لا عيب فيهم سوى إكرام وفدهم
هذا النوع، أعني المدح في معرض الذم، من أنواع ابن المعتز، وهو أن ينفى صفة
ذم ثم يستثنى صفة مدح، كقولك: لا عيب في زيد سوى أنه يكرم الضيف. وأعظم
الشواهد على هذا النوع قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلاً سَلَامًا
سَلَامًا﴾^(١).

ومن الشواهد الشعرية قول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب^(٢)
ومنه قول الشاعر:

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم تعاب بنسيان الأحبة والوطن
ومنه أيضاً قول الشاعر:

ولا عيب في هذا الرشا غير أنه له معطف لذن وخذ منعم^(٣)
وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي:

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

(١) الواقعة، ٢٦/٥٦.

(٢) فلول: كسور - قراع: قتال - الكتائب: مجموعات من الجيوش.

(٣) الرشا: الغزال - اللدن: الطريء.

وبيت العميان في بديعيتهم:

لا عيب فيهم سوى أن لا ترى لهم ضيفاً يجوع ولا جاراً بمهتضم^(١)

قلت: بين قول الشيخ صفي الدين، عن الضيف أنه يسلو عن الأهل والأوطان والحشم، وبين قول العميان عن الضيف، أنه لا يجوع، بون بعيد.

وبيت الشيخ عز الدين:

في معرض الذم إن رمت المديح فهم لا عيب فيهم سوى الإعدام للنعم

وبيت بديعيتي:

في معرض الذم إن رمت المديح فقل لا عيب فيهم سوى إكرام وفدهم



(١) مهتضم: مغموط الحق أو لحق به الجور.

ذكر البسط

هم معشر بسطوا جوداً سقاه حيا فأخضر العيش في أكناف أرضهم^(١)
هذا النوع، أعني البسط، من مستخرجات ابن أبي الأصبغ، والبسط بخلاف الإيجاز لكونه عبارة عن بسط الكلام، لكن شروطه زيادة الفائدة، كقول النبي ﷺ: الدين النصيحة، فقول: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولنبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم. فبسط هذه اللفظة الجامعة، ليفرد الأئمة بالذكر من جملة المسلمين، ولم يكن الاقتصار على الأئمة لأجل نقص المعنى، إذ تمامه لا يكون إلا بذكر عامة المسلمين، فأتى بذلك البسط ليفيد تميم المعنى، بعد تخصيص من يجب تخصيصه بالذكر.

ومن الأمثلة الشعرية المستحسنة على البسط، قول البحتري في الخيري وهو المنشور الأصفر:

قد نفص العاشقون ما صنع الـهـجر بالوانهم على ورقه

فإن حاصل هذا الكلام الإخبار بصفرة الخيري، فبسط اللفظ الذي لو اقتصر عليه لما حصل به المراد، لما في البسط من حسن إدماج الغزل في الوصف، بغير لفظ التشبيه ولا قرينة، إذ مفهوم اللفظ أن صفرة المنشور تشبه ألوان المهجورين.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته:

سهل الخلائق سمح الكف باسطها منزه قوله عن لا ولن ولم

(١) الحيا: المطر - الأكناف: النواحي. مفردهما كنف.

والعميان ما نظموه في بديعتهم . وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته :
ذو بسط كف وخلق زانه خلق أثنى عليه إله العرش بالعظم
وبيت بديعتي ، أنا مستمر فيه على مدح الصحابة رضي الله عنهم أجمعين :
هم معشر بسطوا جوداً سقاه حيا فأخضر العيش في أكناف أرضهم



ذكر الاتساع

نور القبائل ذو النورين ثالثهم وللمعالي اتساع في عليهم
هذا النوع، أعني الاتساع، يتسع فيه التأويل على قدر قوى الناظم فيه، وبحسب ما
تحتمل ألفاظه من المعاني، كقول امرئ القيس:

إذا قامتا تَضَوَّع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

فإن هذا البيت اتسع التقدير في تأويله، فمن قائل: تَضَوَّع المسك منهما بنسيم
الصبا، ومن قائل: تَضَوَّع المسك منهما تَضَوَّع نسيم الصبا، ومن قائل تَضَوَّع المسك
منهما، بفتح الميم، يعني الجلد بنسيم الصبا، وهو أضعف الوجوه، والوجه الثاني مذهب
ابن أبي الأصبغ، وهو أنور الوجوه. ومن ذلك فواتح السور التي أقسم الله بها، فإنهم
اتسعوا في تأويلها، ولم يترجح من ذلك إلا أنها أسماء للسور.

وبيت الحلبي في بديعته قوله:

بيض المفارق لا عار يدنسهم شم الأنوف طوال الباع والأمم^(١)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته
قوله:

(١) شم الأنوف: أي رافعو الرؤوس كناية عن العزة - طوال الباع: طوال ما بين اليدين إذا مدتا.
وهذا كناية عن القوة والقدرة - بيض المفارق كناية: عن نقاء العرض والنسب أو الشرف -
الأمم: قريب التناول

بان اتساع المعالي في الصحابة كالـفاروق ثم شهيد الدار ذي الحرم^(١)
وبيت بديعيتي، أنا مستمر فيه على مدح الصحابة رضي الله عنهم أجمعين:
نور القبائل ذو النورين ثالثهم وللمعالي اتساع في عليهم



(١) الفاروق: لقب عمر بن الخطاب الخليفة الثاني للمسلمين بعد أبي بكر- شهيد الدار: هو عثمان ابن عفان الخليفة الثالث.

ذكر جمع المؤلف والمختلف

جمعت مؤتلفاً فيهم ومختلفاً مدحاً وقصرت عن أوصاف شيخهم

هذا النوع أعني جمع المؤلف والمختلف، ذكر المؤلفون فيه أقوالاً كثيرة غير سديدة، ومثلوه بأمثلة غير مطابقة، ولم يحرره ويطابقه بالأمثلة الصحيحة اللائقة غير الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع، والذي تحرر عنده: أن هذا النوع عبارة عن أن يريد الشاعر التسوية بين ممدوحين، فيأتي بمعان مؤتلفة في مدحهما، ويروم بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر، بزيادة فضل لا ينقص بها مدح الآخر، فيأتي لأجل الترجيح بمعان تخالف معنى التسوية، كقوله تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً﴾^(١) فحصلت المساواة في الحكم والعلم، فساوى بينهما في أهلية الحكم، ثم رجع سليمان فقال: ففهمناها سليمان، ثم راعى حق الوالد فقال: وكلا آتينا حكماً وعلماً، فحصلت المساواة في الحكم والعلم. وكقول الخنساء في أخيها، وقد أرادت مساواته بأبيها مع مراعاة حق الوالد بزيادة مدح لا ينقص به حق الولد:

جارى أباه فأقبلا وهما
صقران قد حطا على وكر
لزت هناك العذر بالعذر^(٢)
هما وقد برزا كأنهما
حتى إذا نزت القلوب وقد

(١) الأنبياء، ٧٨/٢١ و٧٩.

(٢) تعاور: تداور أي كل واحد يلبسها مرة - الملاءة: الثوب الفضفاض.

(٣) نزا: طاش، والقلب: طمخ - لزت: ألصقت.

وعلا طباق الأرض أيهما
برقت صفيحة وجه والده
أولى فأولى أن يساويه
قال المجيب هناك لا أدري
ومضى على غلوائه يجري
لولا جلال السن والكبر

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي رحمه الله في بديعته قوله:

هم هم في جميع الفضل ما عدموا
سوى الإخاء ونص الذكر والرحم

قلت: الحلبي أساء الأدب في نظم هذا البيت، وكان يجب أن يؤدي على نظمه، فإنه بخس فيه حق صحابة رسول الله ﷺ، وكذب في الثلاثة التي استثناها، وقال: إن الصحابة رضي الله عنهم عدموها وقوله: هم هم في جميع الفضل، لا يفهم منه مدح، لأنه سلبهم الفضل في الشرط الثاني من البيت، ولهذا قال الشيخ عز الدين في بديعته مشيراً إلى هذا البيت:

هم هم في جميع الفضل ما عدموا
ما قاله الرافضي النذل في الكلم^(١)

وعلى هذا الترتيب الفاسد. فما اجتمع في بيت الصفي غير المختلف، لأن المؤلف عنه بمعزل.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعتهم، وبیت الشيخ عز الدين في بديعته قوله:

جمع لمؤتلف فيهم ومختلف
في العلم والحلم مع تقديم ذي قدم

وبيت بديعتي يجب أن لا يستشهد على هذا النوع بغيره، فإني قلت فيه، عن الصحابة رضي الله عنهم:

جمعت مؤتلفاً فيهم ومختلفاً
مدحاً وقصرت عن أوصاف شيخهم



(١) الرافضي: لقب للذي يرفض خلافة أبي بكر وعمر، يجمع على الروافض وهو منسوب إليهم - النذل: الخسيس من الناس الدنيء.

ذكر التعريض

تعريض مدح أبي بكر يقدمني في سبق حُلِيَّهم مع موصلِيهم

هذا النوع، أعني التعريض: نوع لطيف في بابه، وهو عبارة عن أن يكتفي المتكلم بشيء عن آخر، لا يصرح به، ليأخذه السامع لنفسه ويعلم المقصود منه، كقول القائل: ما أقبح البخل، فيعلم أنك أردت أن تقول له: أنت بخيل. وكقول بعضهم للآخر: لم تكن أمي زانية، يعرض بأن أمه زانية، والتعريض نوع من الكناية، ومن أمثله الشعرية قول الحجاج، يعرض بمن تقدمه من الأمراء:

لست براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم^(١)

والشواهد على هذا النوع كثيرة، ولكن أردت أن أجعل العمدة فيه على بيتي المنتظم في سلك بديعيتي، فإنه من الأمثلة البديعة، وليس في هذا النوع له مثال، ولكن نبدأ ببيت الشيخ صفي الدين رحمه الله، لأجل الترتيب، وهو:

ومن أتى ساجداً لله ساعته ولم يكن ساجداً في العمر للصنم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلِي، رحمه الله، قوله:

تطويل تعريض شائهم يعظمهم والرفض أقبح شيء موجب الأضم^(٢)

(١) الوضم: الخشبة التي يقطع عليها الجزار اللحم.

(٢) الشائء: المبغض والكاره. الأضم: الحقد والعداوة.

وبيتي، الذي أطنبت في وصفه، هو قولي بعد:

جمعت مؤتلفاً فيه ومختلفاً
مدحاً وقصرت عن أوصاف شيخهم
تعريض مدح أبي بكر يقدمني
في سبق حليهم مع موصلتهم



ذكر الترصيع

نعم ترصع شعري واعتلت هممي وكم ترفع قدري وانجلت غممي

هذا النوع، أعني الترصيع: هو عبارة عن مقابلة كل لفظة من صدر البيت، أو فقرة الشعر، بلفظة على وزنها ورويها، وهو مأخوذ من مقابلة ترصيع العقد، ومن أمثلته الشريفة في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾^(١) ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾^(٢) ومنه قول الحريري في المقامات: يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه.

وإن كان مع الترصيع زيادة بديع، كطباق أو مقابلة أو جناس، كان ذلك زيادة حسنة. ومن أمثلته الشعرية قول أبي فراس:

وأفعالنا للراغبين كرامة وأموالنا للطالبين نهاب

ومنه قول الشاعر:

فيا يومها كم من مناف منافق ويا ليلها كم من مواف موافق

والمبرز في هذا النوع هو الذي يخلي نظم بيته من الحشو، والحشو فيه عبارة عن تكرار الألفاظ التي ليست من الترصيع، بحيث لا يأتي في صدر بيته بلفظة إلا ولها أخت تقابلها في العجز حتى في العروض والضرب، كقول ابن النبية:

فحريق جمرة سيفه للمعتدى ورحيق خمرة سبيه للمعتفي^(٣)

فهذا البيت وقع الترصيع في جميع ألفاظه فإن المقابلة فيه حاصلة بين حريق

(١) الانفطار، ١٤/٨٢.

(٢) الغاشية، ٢٥/٨٨.

(٣) السيب: الكرم والعطاء - المعتفي: طالب المعروف.

ورحيق، وبين جمرة وخمرة، وبين سيفه وسبيه، وبين المعتدي والمعتفي، وأبو فراس بيته خال من ترصيع العروض والضرب. والشاهد الثاني كرر فيه ناظمه حرف النداء، فدخل عليه الحشو.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في الترصيع قوله:

من حاسر بفرار العضب ملتحف وسافر بغبار الحرب ملتشم^(١)

صفي الدين فاته في هذا البيت ترصيع العروض والضرب وقد تسامحوا فيهما ولكن الغاية ما قررته في نظم هذا النوع، وأيضاً فإن الشيخ صفي الدين غير عاجز عن ذلك، فإن أتى في بيته بالحشومع عدم ترصيع العروض والضرب، وناهيك أن العميان تبصروا له ونظموه في بديعيتهم، وهو:

فهجر ربعي لذاك الربع مغنمي ونثر جمعي لذاك الجمع معتصمي

هذا البيت استشهد به العميان على الترصيع الواقع في جميع ألفاظ البيت، ولكن ذاك في مقابلة ذاك اعتذر عنهما الشيخ شهاب الدين أبو جعفر الشارح، وقال: إن معناهما مختلف، فإن الإشارة الأولى للربع، والثانية للجمع، وعلى كل تقدير فللنظر فيهما مجال.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي في بديعته قوله:

كم رصعوا كلاً من در لفظهم كم أبدعوا حكماً في سر علمهم

الشيخ عز الدين رصع، حتى في العروض والضرب، ولكن كرر في بيته لفظه كم، ودخل عليه الحشو وهو من وفي، والكمال لله.

وبيت بديعيتي أقول فيه بعد قولي في بيت التعريض:

نعم ترصع شعري واعتلت هممي وكم ترفع قدري وانجلت غممي

التنبيه على محاسن هذا البيت، كالتنبيه على محاسن بيت ابن النبية، وفي حقوق هذا النوع في نظمه، وأما الجماعة المذكورون معه، فما منهم إلا من بخسه بعض حقه، لما أدخله في بيته. وقد تميز بيتي على بيت ابن النبية أيضاً في ترصيع نظمه بزيادة جوهرتين، فإني قابلت فيه خمسة بخمسة، ولبن النبية وبقية القوم قابلوا أربعة بأربعة، والزيادة على ابن النبية أيضاً في تسمية النوع الذي هو الترصيع، ولعمري إنها تورية ما رصع في العقود نظيرها، وهذا البيت مشتمل على الترصيع، والتورية، والجناس اللاحق، واللزوم، والتمكين، والموازنة، ومراعاة النظير، والسهولة والانسجام، والله أعلم.

(١) الحاسر: كاشف الرأس - غرار العضب: حد السيف القاطع - السافر: كاشف الوجه.

ذكر السجع

سجعي ومنتظمي قد أظهرها حكيمي وصرت كالعلم في العرب والعجم

السجع: مأخوذ من سجع الحمام، واختلف فيه، هل يقال في فواصل القرآن أسجاع أو لا؟ فمنهم من منعه ومنهم من أجازته، والذي منع تمسك بقوله تعالى: ﴿كتاب فصلت آياته﴾^(١) فقال: قد سماه فواصل، وليس لنا أن نتجاوز ذلك.

والسجع ينقسم أربعة أقسام: المطرف، والموازي، والمشطر، والمرصع. القسم الأول: المطرف، وعلى منواله نسج نظام البديعيات، وهو أن يأتي المتكلم في أجزاء كلامه، أو في بعضها بأسجاع غير متزنة بزنة عروضية، ولا محصورة في عدد معين، بشرط أن يكون روي الأسجاع روي القافية، كقوله تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً﴾^(٢) وكقولهم: جنباه محط الرحال، ومخيم الآمال. ومن الأمثلة الشعرية قول أبي تمام:

تجلّى به رشدي وأثرت به يدي وفاض به ثمدي وأورى به زندي^(٣)

الثاني: الموازي، وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع نظيرتها في الوزن والروي، كقوله تعالى: ﴿سرر مرفوعة وأكواب موضوعة﴾^(٤). ومنه قول النبي ﷺ: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً. ومنه قول الحريري في المقامات: ألباني

(١) فصلت، ٣/٤١.

(٢) نوح، ١٤/٧١.

(٣) الشمذ: الماء - وأورى: اشتعل - والزند: عود تفتدح به النار.

(٤) الغاشية، ١٣/٨٨.

حكم دهر قاسط، إلى أن أنتجع أرض واسط. وقوله: وأودى بي الناطق والصامت، ورثني لي الحاسد والشامت. ومن أمثله الشعرية قول أبي الطيب المتنبى:

فنحن في جذل والروم في وجل والبر في شغل والبحر في خجل

القسم الثالث: المشطر، وهو أن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقافيتي النصف الأخير، وهذا القسم مختص بالنظم، كقول أبي تمام:

تديبر معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتعب

الرابع: المرصع، وقد تقدم الكلام عليه.

قلت: وإذ كنت منشىء ديوان الإنشاء الشريف، أنشأت جميع ما يحتاجون إليه من الفوائد التي أخذتها عن علماء هذا الفن، فإن قصر الفقرات يدل على قوة المنشئ، وأقل ما يكون من كلمتين، كقوله تعالى: ﴿يا أيها المدثر * قم فأندر * وربك فكبر * وثيابك فطهر﴾^(١) وأمثال ذلك كثيرة في القرآن العزيز، لكن الزائد على ذلك هو الأكثر. وكان بديع الزمان يكثر من ذلك، كقوله: كميت نهدي^(٢)، كأن راكمه في مهد، يلطم الأرض بزير^(٣)، وينزل من السماء بخبر. لكن قالوا: التذاذ السامع بما زاد على ذلك أكثر، لتشوقه إلى ما ورد منه متزايداً على سمعه. وأما الفقر المختلفة، فالأحسن أن تكون الثانية أزيد من الأولى بقدر غير كثير، لئلا يبعد على السامع وجود القافية فتذهب اللذة، وإن زادت القرائن على اثنتين، فلا يضر تساوي القريبتين الأوليين، وإن زادت الثانية على الأولى يسيراً، والثالثة على الثانية، فلا بأس، ولا يكون أكثر من المثل. ولا بد من الزيادة في آخر القرائن.

مثاله في القريبتين: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً﴾^(٤) فالثانية أطول من الأولى، ومثاله في الثالثة قوله تعالى: ﴿وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً * وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾^(٥) ومن قواعد الإنشاء، أن تكون كل فاصلة مخالفة لنظيرتها في المعنى، لأن اللفظ إذا كان

(١) المدثر، ١/٧٤-٤.

(٢) الكميت: الأحمر الذي يميل إلى السواد - والنهد: السريع.

(٣) الزير: الحديد وهي قطع توضع في أسفل حافر الحصان (النضوة).

(٤) مريم، ٨٨/١٩ - ٩٠.

(٥) الفرقان، ١١/٢٥ - ١٣.

من القرينة بمعنى نظيره من الأخرى كان معيباً، كقول صاحب بن عباد يصف منهزمين: طاروا واقين بظهورهم صدورهم، وبأصلايهم نحورهم. فالظهور بمعنى الأصلاب والصدور بمعنى النحور. ومنه قول الصابي: يسافر رأيه وهو لا يبرح، ويسير وهو ثاو لا ينزح. ويبرح وينزح بمعنى واحد، ويسافر ويسير كذلك.

ومن فوائد الإنشاء التي يطول بها باع المنشئ، أن السجع مبني على الوقف، وكلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفاً عليها، لأن الغرض أن يجانس المنشئ بين القرائن ويزاوج، ولا يتم له ذلك إلا بالوقف، إذ لو ظهر الإعراب، لفات ذلك الغرض، وضاق ذلك المجال على قاصده، ألا ترى أنهم لو بينوا الإعراب، مثل قولك: ما أبعد ما فات، وما أقرب ما هو آتٍ، للزم أن تكون التاء الأولى مفتوحة، والثانية مكسورة منونة فيفوت غرض الاتفاق؟ ومن ذلك أن السجع مبني على التغيير، فيجوز أن تغير لفظة الفاصلة لتوافق أختها، فيجوز فيها حالة الازدواج ما لا يجوز فيها حالة الانفراد. فمن ذلك: الإمالة، فقد يكون في الفواصل ما هو من ذوات الياء وما هو من ذوات الواو، فتمال التي هي من ذوات الواو وتكتب بالياء حملاً على ما هو من ذوات الياء، لأجل الموافقة، نحو قوله تعالى: ﴿والضحى * والليل إذا سجى﴾^(١). أميلت والشمس وضحاها﴾^(٢) أميلت فيها ذوات الواو وتكتب بالياء حملاً على ما هي من ذوات الياء. ومن ذلك، حذف المفعول، نحو قوله تعالى: ﴿ما ودَّعك ربك وما قلى﴾^(٣)، الأصل وما قلاك، حذف الكاف لتوافق الفواصل. ومن ذلك، صرف ما لا ينصرف، كقوله تعالى: ﴿قواريرا * قواريرا﴾^(٤) صرفه بعض القراء السبعة، ليوافق فواصل السورة الكريمة. ولو تتبع المتأمل ذلك في الكتاب العزيز، لوجده كثيراً.

ومما جاء من الحديث^(٥)، قوله ﷺ: أعيذه من الهامة والسامة، ومن كل عين لامة. والأصل: عين ملمة، لأنه من ألم، ولكنه لأجل الموافقة قيل: لامة، ومنه قوله ﷺ: أرجعن مأزورات غير مأجورات. الأصل: موزورات بالواو، لأنه من الوزر، ولكن ليوافق مأجورات. ومنه قوله ﷺ: دعوا الحبشة ما ودعوكم، واركوا الترك ما تركوكم. الأصل: ما وادعوكم، ولكن حذف الألف ليحصل الاتفاق مع تركوكم.

(١) الضحى، ٢٠١/٩٣.

(٢) الشمس، ١/٩١.

(٣) الضحى، ٣/٩٣.

(٤) الإنسان ١٥/٧٦ و١٦.

(٥) أي من السجع.

وسمعت أن بعض علماء الإنشاء صنع مؤلفاً في أحكام الفواصل. ومن ذلك أن المراد من علم الإنشاء: البلاغة في المقاصد. والبلاغة هي أن يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده، مع إيجاز بلا إخلال، وإطالة من غير إملال. والفصاحة خلوص الكلام من التعقيد. وقيل البلاغة في المعاني والفصاحة في الألفاظ، فيقال لفظ فصيح ومعنى بليغ. والفصاحة خاصة تقع في المفرد، يقال كلمة فصيحة ولا يقال كلمة بليغة، وأنت تريد المفرد، فإنه يقال للقسيمة كلمة، كما قالوا: كلمة لبيد. ففصاحة المفرد خلوصه من تنافر الحروف، والفصاحة أعم من البلاغة، لأن الفصاحة تكون صفة للكلمة والكلام، يقال: كلمة فصيحة وكلام فصيح. والبلاغة لا يوصف بها إلا الكلام، فيقال: كلام بليغ، ولا يقال: كلمة بليغة. واشتركا في وصف المتكلم بهما فيقال: متكلم فصيح بليغ.

فمن الإنشاء الفصيح البليغ، قول ابن عباد، وقد قيل له: ما أحسن السجع! فقال: ما خف على السمع. فقيل: مثل ماذا؟ قال: مثل هذا. ومنه، ما كتب به عبد الحميد، عند ظهور الخراسانية بشعار السواد: فاثبتوا ريثما تنجلي به هذه الغمرة، وتصحو هذه السكر، فينصب السيل، وتمحى آية الليل. ومنه قول أبي نصر العتبي: دب الفشل في تضاعيف أحشائهم، وسرى الوشل^(١) في تفاريق أعضائهم، فجيوب الأقطار عنهم مزروره^(٢)، وذبول الخذلان عليهم مجروره. ومنه قول الصابي: نزع به شيطانه، وامتدت في الغي أشطانه^(٣). ومنه قول بديع الزمان: كتابي إلى البحر وإن لم أره، فقد سمعت خبره، والليث وإن لم ألقه، فقد تصوّرت خلقه، ومن رأى من السيف أثره، فقد رأى أكثره. ومنه قول القاضي الفاضل رحمه الله: ووافينا قلعة نجم وهي نجم في سحاب، وعقاب في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامه، وأنملة إذا خضبتها أيدي الأصيل كان الهلال لها قلامه.

ويعجني في هذا الباب، من إنشاء الشهاب محمود قوله في وصف مقدم سرية: لا زال في مقاصده أخف من وطأة ضيف، وفي مطالبه أخفى من زورة طيف، وفي تنقله أسرع من سحابة صيف، وأروع للعدا من سلة سيف. ومثله في الحسن قوله في صدر مثال شريف سلطاني: أصدرناها والسيوف قد أنفت من الغمود ونفرت من قربها، والأسنة قد ظمئت إلى موارد القلوب وتشوقت إلى الارتواء من قلبها، والسيوف قد أضرمت الحمية

(١) الوشل: الوهن والضعف.

(٢) مزرورة: مقفلة.

(٣) الأشطان: جمع شطن وهو الجبل.

للدين نار غضبها، وعداها حر الإشفاق على ثغور المسلمين فأعرضت عن برد الثغور وطيب شنبها، والحماة ما منهم إلا من استظهر بإمكان قوته وقوة إمكانه، والأبطال ما فيهم من يسأل عن عدد العدو بل عن مكانه.

قلت: ما أوردت كثيراً من الإنشاء ههنا إلا لأن يطيب للتأمل تنقله من شطوط البحور، إلى التنزه في رياض المثور. فمن ذلك ما أنشأته في تقليد مولانا المقر الأشرف المرحومي القاضي الناصري، محمد بن البارزي الشافعي، بصحابة دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة، وهو قولي: وقد أوصلناه إلى رتبة استحقيقه من رتب المعالي، ورقيناه إلى درجات الكمال، علماً أن الكمال ما خرج عن بيته العالي، فإنه المنشىء الذي ما للصاحب دخول إلى ديوانه، ولا لابن عبد الظاهر بلاغته وقوة سلطانه، ولا للشهاب محمود أن يباهي كماله في طارفه وتليده، ولا للقاضي الفاضل شرف البارزي وتمييزه ولو بالغ في كثرة شهوده، ما نثر في كمام طرسه^(١) زهره إلا وأرانا ذبول زهر المثور، ولا قرع أبواب المصطلح إلا فتحت ودخل بيتها بغير دستور، ولا تسنم منبراً إلا أجاد بالفاظ كان مزاجها من تسنيم، وقالت البلغاء للفصاحة المحمدية ما ثم إلا الرضا والتسليم.

ومنه ما أنشأته في تقليد ولده، وهو مولانا المقر الأشرف الكمالي عظم الله شأنه، بصحابة دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة، وهو قولي: فإنه من البيت الذي وهبه الله شرف العلم ورحم منه كل ميت، فقل لكل من مشايخ الإسلام ناشدتك الله هل تنكر هبة الله لهذا البيت، وما خفي أن إمامكم الأعظم أول من راعى حقوقه وبادر إلى رفع مثاله، وشرع في رفع قواعده وتشبيد كماله، ولهم هذا الفرع الذي زكت أصوله وسقيناه ماء القرب فأثمر، وقد أنبته الله نباتاً حسناً والنبات الحموي حسنه لا ينكر. غاب نيره الأكبر فأبدر بعده وهذا البدر في كماله ما أبهاه، ولجأ إلى الله ثم إلينا فزاده الله كمالاً وعلمنا أن الكمال لله، وسلكناه في حياة والده فكان لمشيختنا الشريفة نعم المريد، وأخذ عنا الأدب فجاد نظمه وها هو في البيوت البارزية بيت القصيد، والكتابة دون كماله ومحاسنه تجل أن تقابل بمثال، وإن كان الكمال زها بحاشيته فحاشيتنا زهت بهذا الكمال، وكان والده عقداً فرط فيه الزمان ولكن استدرك فارطه، وقد نظمناه في عقد سلكننا الشريف إلى أن صار به نعم الواسطه. وامتدت ألسن الأقلام إلى ثغور المحابر فقبلتها، وانشرحت صدور الأوراق وعلق فيها عنابر سطور فحملتها، وقالت لحرر أقلامه: أهلاً بالعربيات التي ليس لها إلا الأيدي الجهينية غرر، ومرحباً بعد النوبة بقهوة الإنشاء

(١) الطرس: ما يكتب عليه.

فإن شباب الزمان قد عاد وزهر المنثور قد زهر، وجاء الإمام الذي إن كتب تقليداً قالت البلغاء هذا الإمام الذي يجب تقليده، وهذا هو الخليفة على السر الشريف وأمينه ومأمونه ورشيده. إن تحمس في إنشائه قال الجبان لا أقعد الجبن عن الهيجا، أو استطرد إلى وصف روض ممرج زاد هرجاً ومرجاً، أو ترسل غرامياً فما حديقة زهير عند زهر منثوره، أو كتب عنا تهديداً سال جامد الصخر، ولو سمعت الجوزاء حديثه لسقطت مع الحصى عند خريره، فإنه المنشىء الذي ما اعتقل رمح فمه بيمينه وهزه هزه، إلا قال كل منشىء دخلت أصبع قلبي من دواتي تحت رزه^(١)، ولا حرك من دوح أعلامه فرعاً إلا تساقط بين الأوراق ثمرات شهيه، فلو أدركها الصاحب لقدمها وأخر الفواكه البدرية، ولو ناسبه الفتح لقابله المؤمنون بالقتال، وكان والده قد اعترف بكماله وهذا التقليد لثبوت ذلك الاعتراف أسجال^(٢)، فإنه الأمين الذي إن تصرف في مزررتنا^(٣)، الشريفة، فقد ثبت أن توثيق العرا^(٤) لبيته العالي، أو أملى في ديواننا الشريف كانت أماليه أمالي المحب لا أمالي القالي^(٥) ولولا خشية الإطالة، لأوردت هذا التقليد الشريف بكماله. لأنه في صناعة الإنشاء لنسيج وحده.

ومنه ما أنشأته عن مولانا السلطان الملك المؤيد، سقى الله ثراه من غيث الرحمة جواباً عن مكاتبة الملك الناصر صاحب اليمن، وهو: لا زال جناس مجده سعيد الحركة بين اليمن واليمن، وسيفه اليماني لم يرض بمجانسة سيف بن ذي يزن، والأمة بأحمدها تهنأ بجنات عدن^(٦) في عدن، ولا برحت صنائعه بصنعاء محبرة حتى في سطور الطروس، وأقلام الثناء سود اللمم بمدحه ولو تركت لاعتراها شيب الرؤوس، وتحياته المكرومة مخصصة منا بشرف التسليم، وبدور مودته سافرة في ليالي سطورها بين بديعي التكميل والتتميم، أصدرناها وشاهد المودة قد وضع رسم شهادته وكتب، وأثبت مقدمات الإخلاص فحكم له قاضي المحبة بالموجب، وأودعناها من السلام ما تعمه رحمة الله وبركاته، ومن طيب الثناء ما يتأرجح بين ادراك ذلك المندل^(٧) الرطب نفحاته، ومن خالص المودة ما يضم به بعد حسن المخلص من طيب أعرافه حسن الختام، ومن سجعات

(١) رزه: ورقه الصقيل.

(٢) أسجال: إثباتات.

(٣) المزررة: مكان الأزرار.

(٤) العرا: جمع عروة وهو فتحة الزر.

(٥) القالي: أبو علي صاحب الأمالي المشهورة، والقالي: الهاجر الكاره.

(٦) عدن: خلدٍ ونعيم. وعدن بالمكان أقام فيه.

(٧) المندل: بفتح الميم: عود طيب الرائحة.

الأشواق كل مصونة ليس لها غير سواد النفس لثام. وتبدي لعلمه ورود المثال العالي بطيب تلك المعادن التي ودّ النسيم أن يقيدها ويحتبس، ولقد رافقها الاكتساب اللطيف ولكن سرق من طيب عرفها وتكلم بنفس، فأكرم به مثلاً أرانا خضر الملك على كل قرينة لها من حجب البلاغة ستور، وخدامها من سود سطورها وبيض طروسها عنبر وكافور^(١)، ورد صحف الصفاء صقيلة فتمثل فيها، وأظهر من أوراقه ثمرات المودة ونحن بيد القبول نجنيها، وقدم من ذلك الحرم الأحمدى فكان أكرم وافد قويل منا بالإكرام، وفتح أبواب الدخول إلى السلام فسلمنا وقلنا لخواصنا ادخلوها بسلام. ولقد ثملنا بكأس إنشائه وهو بحضرتنا الشريفة دائر، وعلمنا أن هذا الإنشاء لا يصدر إلا من فاضل والفاضل لا ينسب إلا إلى الناصر، وتغزلنا في محاسنه بحيرة اليمن بعد تغزلنا بحيرة العلم، وراعنا تحمس بلاغته فقلنا هذا لا يصدر إلا من رب سيف وقلم، وود كل دوح أن يملأ طروس أوراقه بريحان سطوره، وتطفل كل روض أريض^(٢) عند وروده على زهر منوره، وقالت فصاحته وتلك البلاغة التي جاءت بسحر البيان، هل يفتى لنا بصدق المحبة فقال لهما القلب: قضي الأمر الذي فيه تستفتيان، فهذا نفس طيب عرفنا معدن طيبه فلم نقل من أين، وهذه سلافة إنشاء دارت سلطانياتها فأنشأت أهل الخافقين^(٣)، وهذا سحر صدقت عزائمه في العطف والقبول بين الملكين، وأبطل هذا السحر الحلال ما حرم بيابل من سحر الملكين^(٤)، واشتمل على نظم ونثر رأينا شعار السلطنة عليهما عيانا^(٥)، كأن البلاغة قالت لهما قديماً سنجعل لكما سلطانا^(٦)؛ فيا له من مثال تدرع زرد ميماته فقلنا لا طعن فيك لطاعن، وتشرع طباق بديعه فكانت على أكتاف النيل من أثره مساكن، وأطرب بأنفاس علمنا أنها من يراع ما برح بالسعادة موصولاً، وطاف في حضرتنا الشريفة بكاس يمانية كان مزاجها زنجبيل^(٧). ولقد أكثر هذا المقال في كتابه المبين من إيناس الخطاب، وقضت به الوحشة أجلها فقلنا لكل أجل كتاب.

وهذا الجواب أيضاً، لولا خشية الإطالة لاستوعبته بكماله، فإن اليمن ما دخل إليها من الديار المصرية نظيره، والله أعلم.

(١) الأريض: والأروض: الروض الذي كسى الأرض بالنبات.

(٢) الخافقين: المشرق والمغرب.

(٣) الملكين: هما هاروت وماروت اللذان ورد ذكرهما في قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين... يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين بيابل هنوت ومنوت﴾ البقرة،

١٠٢/٢.

(٤) العيان: الظاهر للعين، الواضح.

(٥) السلطان: السلطة والقوة.

(٦) الزنجبيل: نوع من الشراب كالخمرة أو هو الخمرة ذاتها.

ومنه ما أنشأته عن مولانا السلطان الملك المؤيد، سقى الله ثراه، جواباً عن مكاتبة وردت من صاحب تونس، وهو المتوكل على الله أبو فارس عبد العزيز رحمه الله، وهو: لا زالت سيوف عزائمه في الجهاد ماضية الضرب، ولا برح جوده وإقدامه متطابقين في السلم والحرب، نخصه بسلام هو لنا والشوق برد وسلام، وسقاية وداد ماء رمرم تسنيم قبولها إلا تعالى ذلك المقام، وتحيات تنطق بها عند مواظبة الخمس^(١) السنة الأقالم، وثناء يقلد بخالص عقوده جيد الزمان، وينسى قلائد العقيان، ومحبة يقمر صدقها في ذلك الأفق الغربي ويشمس، وتزِيل وحشة من سلا عن غيرها في المغرب وتونس... واستطردت مفاوضتكم إلى الوصية بحاج المغرب فبادرنا إلى قبول ذلك، فإن هذا قد يتبرك من النجب السائرة به بالمبارك، وقد أعدناه مصحوباً بالسلامة وحُداته^(٢) تطرب بنغمتها الحجازية، وتهيم اشتياقاً عند تشبيها بذكر الطلعة المتوكلية، وأعدنا جواب ذلك على يد رسولكم الذي لم يقابل منا بغير القبول، ليكون خالص ودنا متمسكاً بالكتاب والرسول.

ومنه ما كتبه جواباً عن مكاتبة وردت من الجنب العالي، الناصري محمد بن أبي يزيد بن عثمان، وهو: لا زالت تحياته مخصوصة منا بشرف التسليم، وسيره العثماني محفوظاً في بيعة المودة بالتقديم، وشعراء الإخلاص في كل بيت من معاني محبته تهيم، وفروض الجهاد بسيوفه المسنونة في كل وقت تقام، وبلاد الإسلام محروسة بالجناب المحمدي عليه السلام، وهمزات عوامله بصدور الكفار موصولة، وألسن سيوفه بثغور بلادهم من رشف أرياق دمائهم مبلولة، ولا برح يجاهد في سبيل الله براً ويتخذ في البحر سبيله، فإنه من الذي علا بمحمد مقامه، وانسجم بالخلف العثماني نظامه، واقتدى بمشيختنا المؤيدية والنجح في هذا الاقتداء له شريك، وساعدته تورية السعادة لما تمسك بقول من قال: ولا بد من شيخ يريك، ولم يبق بعد الاقتداء بهذه المشيخة إلا الفتوحات المقبولة، والمشاركة في القبول على ما يرضي الله ورسوله، صدرت هذه المفاوضة إلى الجنب المحمدي تأرجح بطيب السلام عليه، وتنسم نسيمات القبول من أخبارها الطيبة ما تنقله إليه، وحملناها ثناء أطلقنا عنان كميته القلم وهو غرة في جبهته، وتوجهت رؤوس الأقالم قبل ركوعها إلى قبلته، [ومن الإنشاء الملوكي ما أطلق به فصيح التلم لسانه وخضر الشباب على عوارض نفسه ومحاسن سجعاته، وقال الفاضل الناصر هذا الإنشاء الذي ما خرس لسان قلمه ولا شابت لمة دواته] وتبدي لعلمه الكريم ورود ما أهدها من

(١) الخمس: يعني الصلوة الخمس: الصبح والظهرين والمساءين.

(٢) الحداة: جمع حادي، وهو الذي يسوق الإبل بالحداء وهو نوع من الغناء.

ثمرات المودة يانعا في أوراقه، مختالاً في شعار الإخلاص فعلمنا أنه عنوان لعهد وميثاقه، وقد أتحف من نبات الإيناس ما غرس بأكناف النيل فحلا نباته، ودنت قطوف أنسه وظهر في فروع المحبة ثمراته، فاقتطفنا زهر المنثور من رياضه عند الورود^(١)، وتغزلنا في رقم سطوره على بياض طروسه بين العوارض^(٢) والخدود. وطالعنا مجموع محاسنه الذي لم ينس فعلمنا أنه للملوك تذكرة، وتبصرنا فيما أدهش من حكمه فرأينا المدهش في التبصرة، وقلنا هذه لمعة لو أدركها السراج لقصر لسانه وقال: سراج الملوك حرمة قوية، أو القاضي السعيد لقال: ما لسان الملك بهجة عند هذه الأنوار المحمدية... وقد تيقظت عيون عزمنا الشريف للجهاد وعن قريب تهجر مقل السيوف أجفانها، وتتجرد لقتال المشركين وقد تكنى لها النصر بأبيه فأيد سلطانها، وإذا قدحت سيوف الدولتين في عباب البحر على الكفار ناراً، تلا لسان النصر: ﴿لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾^(٣). [ومن إنشاء الفاضل عن الناصر هنا ما يحسن أن يشنف به سمعه الكريم، فإنه عن أبي الفتوحات الذي مشى على هذا الصراط المستقيم] وهو: إذا كان الله قد أعطانا البلاد وهي آلة المقيم الراتب^(٤). وأعطاهم المراكب وهي آلة الظاعن^(٥) الهارب، فقد علمنا لمن عقبى الدار، ومن ينقله الله تعالى انتقال قوم نوح من الماء إلى النار. فالجناب يوطن نفسه على حسن المال في الحالين، ويعلم أنه من المكرمين في الدارين^(٦)، وقد تلمظت^(٧) ألسن سيوفنا شوقاً لحلاوة نصره، وتحركت عيدان رماحنا طرباً عند سماع ذكره، ونفضت جوارح سهامنا ريش أجنحتها لاقتناص تلك الغربان، وهامت فرساننا المؤيدية إلى منازل الأحباب لترية من أعدائه مقاتل الفرسان، فإنه المجاهد الذي حظ بني الأصفر في البحر الأزرق من بياض سيوفه أسود، وكم أذاقهم الموت الأحمر، وكمال التدبير يقول أهلاً بعيش أخضر يتجدد، وتتولد نصرتنا عنده برفع راية الفرع في كل وقت عليه مبارك، ويتأيد بعز نصرنا المؤيدي حتى يقول له لسان الحال: أعز الله أنصارك، فتقديمه العثماني من جهة الاستحقاق قد ثبت عندنا وتقرر، وهو اليوم إمام المجاهدين الذي ما صلت سيوفه في محراب القتال إلا قال مرقى النصر الله أكبر. والله

(١) الورود: المجيء.

(٢) العوارض: جمع عارض وهو صفحة الخد.

(٣) نوح: ٢٦/٧١.

(٤) الراتب: الدائم الثابت، وعند المحدثين: ما يأخذه الموظف من أجر شهري لقاء عمله.

(٥) الظاعن: الراحل.

(٦) الدارين: الدنيا والآخرة.

(٧) تلمظ: السيف: خرج واهتز.

يجريه على أجمل العوائد من هذا النصر، ليصير الكافرون في زلزلة من قارعة سيوفه بهذا العصر.

ومنه ما كتبه جواباً عن مولانا السلطان الملك المؤيد، سقى الله عهده، عن مثال كريم ورد من قرى يوسف صاحب العراقين، وهو: أعز الله أنصار المقر الكريم العالي الجمالي اليوسفي، لا زالت زوراء العراق في أيامه القويمة مستقيمة الجانبين، وحلتها الفيحاء عالية المنار وشمل الدين بها مجتمعاً في الجامعين، وعراق العرب والعجم بارزين من محاسنه اليوسفية في حلتين، فلامية العرب تقول:

ولولا اجتناب الدم لم يلف مشرب يعاش به إلا لديّ ومأكل
ولامية العجم تقول:

حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بشدة البأس منه رقة الغزل

فأكرم بهما لامين دارا على وجنات الطروس لكمال المحاسن اليوسفية، وفتحت لها الميمات أفواه الشكر لأنها من الأحرف المؤيدية، أصدرناها إلى المقر وسواجعها تغرد بالثناء بين أوراقها، وألسن الأقلام قد أودعت صدور طروسها سر أشواقنا عند انطلاقها، فإنها الصدور التي تعرب من نفثاتها عن ضمائر الأشواق، وإذا أطلقت من فض الختم خففت أجنحتها بذلك الثناء على الإطلاق، ونبدي لكريم علمه ورود البشير بالقرب اليوسفي، وقد حل بالأسماع قبل رؤيته تشنف، وهبت نسيمات قبوله فأطفأت ما في القلوب من التلهف، وضاع نشرها^(١) اليوسفي، فقال شوقنا اليعقوبي: إني لأجد ريح يوسف، وتأملنا كريم مثاله فوجدناه قد مد أطناب المحبة وخيم على معاني المودة، وحام عليه صادي الأشواق فوجده منها قد أعذب الله في مناهل الصفاء ورده، وأومض البرق في الظلمات من رقم سظوره فما شككنا أنه نظم برده، فهو مثال يوسفي ولكن ظهر السر الداودي من فصل خطابه، وصدقنا رسوله لما جاءنا بكريم كتابه، والتفتت من كناس سظوره آرام الإيناس فاقتنصنا منها ما هو عن العين شارد، وألفت القلوب على الولاء فضربت الأعداء من جماد الجسد في حديد بارد، وأمست الدجلة والنيل لامتراجهما بسلاف المحبة كالماء الراكد، وهذه ألفة خولتنا في نعم الله وزمام الأخوة منقاد إلينا، وقد تعين على المقر أن يقول: أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا، وسرتنا الإشارة الكريمة بالتمكين من أرض الأعداء ومطابقة الطول بالعرض، وعلمنا أن هذا الاسم الكريم قد

(١) ضاع نشرها: انتشر ريحها الطيب.

شمّلته العناية قديماً بقوله تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾^(١) وأما قرا عثمان فمقل سيوفنا ما غمضت عنه في أجفانها، وأنامل أستتنا ما ذكرت نوبته إلا شرعت في جس عيدانها، وجوارح سهامنا ما برحت تنفض ريش أجنحتها للطيران إليه، وإن كان معنى سافلاً فلا بد لأجل الغرض اليوسفي أن نخيم عليه، وننزل سلطان قهرنا بأرضه ونغرس فيها عوامل المران^(٢)، وإن كانت من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يهمل إلا لاشتغال الدولتين بالدخول في تطهير الأرض من الخوارج، وإيقاع الضرب الداخل بعد جس العيدان في كل خارج، وقد آن سله لثلا يكون بين المحب والمحبوب رقيقاً، ولا بد أن يجانسه العكس ويرى ذلك قريباً، ويدهمه من أبي النصر أبناء حرب شرف في أنساب الوقائع جدهم، ورد الجموع الصحيحة إلى التكسير فردهم، وإذا كثرت الخدود وتوردت بالدماء غردت بورق الحديد الأخضر مردهم^(٣)، وإذا امتدوا إلى أمد تلالهم حصنهم سورة الفتح قبل القتال، فإنهم يريدون ولهم شيخ منحه الله بكثرة الفتوح والإقبال، وإذا صرفوا الهمم المؤيدية لم تكن لهم حصونهم عند ذلك الصرف مانعة، ولم يسمع لساكنها مجادلة إذا صدموا بالحديد وتلت تلك الحصون الواقعة^(٤)، وإن كانت المنايا غابت عنه مدة، كلمته ألسنة سيوفهم وقالت حصرت، وإذا طرق بوجه منهم طارق رأى سماء تلك البروج قد انفطرت، وما خفي عن كريم علمه ما جمعه الناصر من الجموع التي مزقها الله أيدي سبأ، وكم سائل سأل وقد رآهم في النازعات عن ذلك النبأ.

وقد أشار بعض شعراء دولتنا الشريفة إلى ذلك بقصيدة كامل بحرهما مديد، ولكن القصد هنا من أبيات تلك القصيدة:

يا حامي الحرمين والأقصى ومن	لولاه لم يسمر بمكة سامر
والله إن الله نحوك ناظر	هذا وما في العالمين مناظر
فرج على اللجون نظم عسكريا	وأطاعه في النظم بحر وافر ^(٥)
فانبت منه زحافه في وقعة	يا من بأحوال الوقائع شاعر ^(٦)
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم	دارت عليهم من سطاك دوائر
وعى ظهور الخيل ماتوا خيفة	فكأن هاتيك السروج مقابر

(١) يوسف ١٢/٢١.

(٢) المران: جمع مرانة وهي الرمح اللدن في صلابه.

(٣) المراد: جمع أمرد وهو الشاب لم تنبت لحيته بعد.

(٤) الواقعة: القتال، المجادلة، الحديد، الطارق، النازعات، النبأ: أسماء لسور من القرآن الكريم.

(٥) اللجون: البطيء الثقيل المشي، أو الورق اللزج: الملجون. وقد وردت في ما سبق «الملجون».

(٦) انبت: انقطع - الزحاف: من علل الشعر، وهو تغيير يلحق ثاني السبب من التفعيلة...

وما خفي عن علمه الكريم أمر الذين نقضوا بيعتنا بعد الناصر فاشتروا الضلالة بالهدى، ودعوا سيوفهم الصقيلة لما حاق^(١) بهم المكر السيء فأجابهم الصدا، ولم يكن لحرارة عزمنا الشريف عند عصيانهم البارد فتره^(٢)، حتى أظهرنا تلون الشام من دمائهم على تدبيح الدروع ألوان النصر، وأخذوا سريعاً شبان حرب ما شابت عوارضهم إلا بغبار الوقائع، وحكم برشدهم ولم يخرجوا من تحت حجر المقامع^(٣)، وقد أسبغ الله ظلال الملك وخيم به على الدولتين، ولم يظهر لمحراب بهجة إلا بهاتين القبيلتين، ولوصلت السيوف لغيرهما ما قبلت، أو صرفت العوامل^(٤) للإعراب عن سواهما ما عملت، وقد فهمنا كريم الالتفات إلى أن تدار كؤوس الإنشاء بيننا ممزوجة بصافي المودة، وعلمنا أنها أحكام صحيحة في شرع الأخوة. وهذه الأحكام عندنا عمدة، وتالله لقد سبق القصد اليوسفي بسهام مراده إلى الغرض، وقضى حاجة في نفس يعقوب لي عنها عوض، ولم يبق إلا اتصال شمل الأوصال بكل رسالة سطور الأخوة في رقاها محققة، وتصديق ما يقصه في الجواب فإن القصة اليوسفية ما برحت مصدقه، والله تعالى يمتع الأسماع والأبصار بمشاهدة مثلته وطيب أخباره، ويفكهننا من بين أوراقها بشهي ثماره.

ومما أنشأته بالديار المصرية، وحصل إجماع الأمة على أنه من الأفراد، تقليد مولانا قاضي القضاة جلال الدين شيخ الإسلام البلقيني، نور الله ضريحه، بعد عزل الهروي، ويوم قراءته بالجامع المؤيدي أرخه المؤرخون، وذكروا أنه لم يتفق بملك مصر يوم نظيره، وهو: الحمد لله الذي أبان فضل العرب على العجم في الكتاب والسنة، وأظهر جلال سراجهم المنير فأوضح بحسن تدريبه طريق الجنة، وأزال ظلم الجهل بنور هذا الجلال فله الحمد على هذه المنة، ونكرر حمده على نصره أصحاب الشافعي وعود جيرته إلى منازلها العالية، ونشكره على نبيل الغرض بسهام ابن إدريس فدن جهل أحكام القضاء أمست عليه قاضية، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نستعين بحسن أدائها عى القضاء والقدر، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي من قابل شريعته المطهرة بدنس الجهل فقد كفر، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أزالوا بفصاحتهم

(١) حاق: أحاط وطوّق.

(٢) فترة: وهن وضعف.

(٣) المقامع: جمع مقمعة وهي خشبة أو حديدة في طرفها سلك معدني أو خيط يضرب بها الحيوان والإنسان ليُقمَع ويذل.

(٤) العوامل: مصطلح نحوي يعني الكلام الذي يسبب رفعاً أو نصباً أو جرأً في غيره من الكلام. كالفعل مثلاً يعمل الرفع في الفاعل والنصب في المفعول به، والمبتدأ يعمل الرفع في الخبر بينما الإبتداء يعمل الرفع في المبتدأ إلخ..

العربية كل عجمه، وتميزوا على العجم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(١) وهذا التمييز نصبه مرفوع على كل أمة، صلاة نسن بها سيوف السنّة على من تسربل بدروع ضلاله، ونقيم حدودها على من بدل حديث النبي ﷺ وجعل أسماء رجاله، وسلم تسليمًا كثيرًا. أما بعد، فالهناء بنصرة هذا الدين القيم بين هذه الأمة مشترك، وكيف لا وقد ظهر جلاله مقمرًا وأنشدوا:

يا ليل طل أو لا تطل فليس نرعى قمرك

وقد حلا مكرر الحمد بنشر الأعلام المؤيدية على أئمتنا الأعلام^(٢)، وحلت أيضاً مواقع التورية بنصرة شيخ الإسلام، فهو الليث الذي كان لظما العلماء إلى إمامهم نعم الغوث والغيث، حتى تأيدوا بمؤيدهم وأعز الله أنصارهم بالشافعي والليث، حجبناه عن غيوم العزل، وقلنا وقد ساعدنا رأينا الشريف في إظهاره:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل^(٣)

وولى غيره فأنشد كل عالم أظلم ضوء نهاره:

ما كنت أوثر أن يمتد بي زمني حتى أرى دولة الأندال والسفل

واعتلت كتب العلم فقالت وعيون سطورها باكية:

لعل إمامة بالجذع ثانية يدب منها نسيم البرء في علي

وأنشد لسان حال شيخ الإسلام وقطوف قربه دانية:

تقدمتني رجال كان شوطهم وراء خطوي لو أمشي على مهل

وأشار إلينا وقال وخواطرنا الشريفة بأشارته راضية:

لعله إن بدا فضلي ونقصهم لعينه نام عنهم أو تنبه لي

فتنبهنا له وقلنا لضده وقد أهبطناه من تلك الرتبة العالية:

فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً في الأرض أو سلماً في الجوّ فاعتزل

وكيف يطلب من نار خامدة هدى، أو يجعل السراب ماء، وإذا دعونا الري جاوبنا

الصدى، ويأبى الله أن يطابق سحبان بياقل، أو يجاري فارس العلم براجل:

ومن يقل للمسك أين الشذى كذبه في الحال من شما

(١) الزخرف، ٣/٤٣.

(٢) الأعلام: الفطاحل الهداة.

(٣) العطل: عدم التزين - والخطل: خطأ الرأي.

وتالله لقد زادنا بحجبه في غيوم العزل علماً بعلو مقداره، وكان عزلاً أظلمت بسببه الدنيا إلى أن من الله على المسلمين بإيداره، وقالت الأمة ذلك ما كنا نبغي، واستوفى كل عالم شروط المحبة واستوعب، وعلمنا أن الحكم العدل حكم بتقديم هذا الإمام بالموجب، أنلنا وظيفته غيره فزلزلت الأرض زلزالها، وقلنا يخف على قلبنا فأخرجت الأرض أثقالها، وأظهرنا جلال العرب فأطلقوا أعنة بلاغتهم في ميادين الفصاحة، وما أحقهم هنا بقول الفاضل: وتناجدت أهل نجد فكل صاح يا صباحه، وعلمنا أن هذا فضل رفل به أبناء العرب في حلل التقديم، وأن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وامتلاً صحن جامع القلعة بحلاوة هذه البشرية، وهلل مؤذونه وذكروا طلعتة الجلالية فكبروا وأنشدوا:

لو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر

وأزهرت هذه البشرية في ربيع ولكنه ربيع الأبرار الذي نزه الله روحه وريحانه عن كل نمام، وصان فيه المسلمين ممن يأكل أموال الناس بالباطل ويدلي بها إلى الحكام. ونشر الله أعلام كتب العلم وزاد الله بالسيف المؤيدي إسعافها. وكانت ستور الجهل قد أسبلت على التفاسير فأظهر السر للآي كشافها، أما القراءات فهي في قرى^(١) شيخ الإسلام وفضله فيها عاصم من الجهل ونافع^(٢)، وأما الحديث فهو مجلي مبهمات بنور جلاله الساطع. وأما العربية فقد ظهر بعد وعر العجم تسهيلها، وشرعت بيوت العرب لشواهدا وأكرم نزيلها. وأما المعاني فقد أظهر الله بيانها وجلت بها عروس الأفراح، واهتدينا بنور جلالها ففتحت لنا أبوابها بغير مفتاح. وأما المنطق فمقدمات منطق العذب أرتنا نتائجه يقيناً، وأما العقلية فما رأينا لمن ناظره فيها في هذه المدة عقلاً ولولا الحياء لقلنا ولا ديناً، وها هو قد نبه الفقه من سنة الغفلة بعدما مرض الجهل عيونه وأرمد، والحاوي أظهر ما حواه من العلم بعدما كان هلك أسى وتجلد، والروضة أزهرت في حدائق هذه المسرة بين أوراقها فأينعت، ومدت الشافعية أصول دوحتها فتفرعت؛ وظهرت رفعة الرافعي في أفق كماله، ونور الله ضريح الشافعي بنور سراجيه وبهجة جلاله.

[ولما كان] الجناب الكريم الجلالى هو الذي ناظرناه بالغير فقال نور الشريعة وهو

أشهر من نار على علم:

(١) قرى: طعام الضيف أو قراءة.

(٢) عاصم ونافع: من المقرئين الأفاضل.

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فعلمنا أنه حجة للشافعي الذي منه الاستقصاء وإليه منتهى السؤال، وما أبدر في أفق درس إلا أزال ظلم الشك بأنواره وأسفر أبداره عن التتمة والإكمال، وهو أبو العلماء الذي ولد من الأم أفراحهم، وأبو المهمات الذي شهر من العدة الكاملة في ميدان الفرسان سلاحهم، وإليه انتهت الغاية فإنه ما برح يأتينا في وجيز تقريره بالعجاب، ويغنيننا عن موضح القشيري فإنه يغذينا في إبانته باللباب.

اقتضت آراؤنا الشريفة أن نعيده إلى منال شرفه بعد التحجب وها هو قد ظهر، ويتسلسل في أيامنا الشريفة عند الرواة حديث ابن عمر، فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي المؤيدي السيفي، لا زالت الشافعية في أيامه الشريفة بجلالهم في ترشيح بهجة وابتهاج، وثبت الله القواعد وأقامها في ملكه عى التحرير ومشى الرعية فيها على أوضح منهاج، أن تفوض إلى الجناب المشار إليه وظيفة كذا وكذا. وقد وقع التمويه في الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية وهو نهاية المطلب، وعيون المسائل وتاج رؤوسها والمذهب، الذي تهذيبه في أدب القاضي كفاية، وهو البحر الذي ما دخلنا بسبطه المبسوط، إلا قالت التورية إنه في البسيط كامل، ولا نظرنا إلى حليته الجلالية إلا غنينا عن المصباح بنوره الشامل، وقد ميزناه على مناظره لما أقروا له بالتعجيز، وقرت عيون ابن البارزي نور الله ضريحه بهذا التمييز، وألغينا ذكر علوم يجمل قدره عن نسبتها إليه، ولكن ثغور سيناتها تبسم عند ذكره وأفواه ميماتها تكثر الشاء عليه، فليتلق ذلك فإنه العزيز عندنا والمنتقى لهذا التشريف الذي هو ديباجة رقه، وإذا ذكرنا الأصول فأصوله محفوظة، وهو المعتمد عليه في التمهيد والمستصفي ببديع علمه، ولو عاش ابن الحاجب ما تغزل في رفع حاجبه وخفض له جانبه، وعلم أن جلالنا عين الإسلام فلم نرفع على العين حاجبه، والوصايا كثيرة ولكن جواهر ذخائرنا تلتقط من إملائه وأماله، وهو جامع مختصراتها ومظهر زوائدها ببيانه ومعانيه، لا زال حديث فضله يتسلسل مع الرواة ويسند، ولا برح أجل من أوضح الرسالة في مسند محمد وأحمد.

[ورسم] لي في الأيام الشريفة المؤيدية، سنة تسع عشرة وثمانمائة، أن أنشئ رسالة بوفاء النيل المبارك لم أسبق إليها، ولا حام طائر فكر عليها، وأحضر مولانا المقر الأشرف القاضي الناصر محمد بن البارزي الجهني الشافعي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، تغمده الله بالرحمة والرضوان، قطعة من إنشاء القاضي الفاضل بوفاء النيل وقرئت على المسامع الشريفة المؤيدية، وحذرت من التعرض إلى شيء من ألفاظها ومعانيها فأنشأت رسالة حكم لأبي بكر بها على كل فاضل بالتقديم، وإن

كان لسان القلم قد طال فأنا أقطه^(١) ههنا تأدباً مع عبد الرحيم، وقد وصلنا ههنا شمل القطعتين، ليتفكه المتأمل في جنى الجنتين، ويتنزه نظره في حدائق الروستين، ويغرب لسجع حمام الدوحتين.

[قال القاضي الفاضل]: نعم الله سبحانه وتعالى من أصوبها بزوغاً، وأضفاها سبوغاً، وأصفاها ينبوعاً، وأسناها منفعوفاً، وأمدها بحر مواهب، وأضمنها حسن عواقب، النعمة بالنيل المصري الذي ييسط الآمال ويقبضها مده وجزره، ويربي النبات حجره، ويجري على سواد الأرض بفضته البيضاء، ويهنا بيده الخضبية نقب الجرب من الحربى، ويحيى مطلقه أنواع الحيوان، ويجنى ثمرات الأرض صنوان وغير صنوان، وينشر مطوي حريها وينشر مواتها، ويوضح معنى قوله تعالى: وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وكان وفاء النيل المبارك في تاريخ كذا وكذا، فأسفر وجه الأرض وإن كان قد تنقب، وأمن يوم بشراه من كان خائفاً يترقب، فرأينا الإبانة عن لطائف الله سبحانه وتعالى وقد حققت الظنون، ووفت بالرزق المضمون، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون، وقد أعلمناك لتوفي حقه من الإذاعة، وتبعده من الإضاعة، وتتصرف فيه على ما يصرفك من الطاعة، وتشهر ما أورده البشير من البشرى بإبانته، وتمده بإيصال رسمه إليه على عادته.

[فقلت بعد الفاضل]: ونبدي لعلمه ظهور آية النيل المبارك الذي عاملنا الله فيه بالحسنى وزياده، وأجراه لنا في طرق الوفاء على أجمل عاده، وحلق أصابعه ليزيل الإبهام فأعلن المسلمون بالشهاده، كسر بمسرى فأصبح كل قلب بهذا الكسر مجبوراً، وأتبعناه بنوروز^(٢) ما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدي مكسوفاً، دق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع^(٣) عليه، وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت بأعطاف غصونها إليه، وشبب خريره في الصعيد بالقصب، ومد سبائكته الذهبية إلى جزيرة الذهب، فضرب الناصرية واتصل بأمر دينار، وقلنا إنه صيغ بقوة لما جاء وعليه الاحمرار، وأطال الله عمر زيادته فتردد الناس على الآثار، وعمته البركة فأجرى سواقي مكة إلى أن غدت جنة تجري من تحتها الأنهار، وحسن مشتهى الروضة في صدره وحنى عليه حنو المرضعات على الفطيم:

وأرشفه على ظمًا زلالاً ألد من المدامة للنديم^(٤)

(١) قَطَّ: قَصَّ وقَصَّرَ.

(٢) النوروز: عيد الربيع عند الفرس وهو رأس السنة الفارسية.

(٣) القَلْع: الصدرية والرجل الذي لا يثبت على ظهر الخيل. ويفتح القاف وكسر العين: الذي لا يثبت

في البطش ولا على السرج، والرجل البليد.

(٤) الزلال: الماء الصافي - وأرشف: سقى.

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالتق النوى والحب، فأرضع جنين النبات وأحى لها أمهات العصف والأب^(١)، وصافحته كفوف السوز فختمها بخواتيمه العيقية، ولبس الورد تشريفه وقال أرجو أن تكون شوكتي في أيامه قوية، ونسي الزهري بحلاوة لقاءه مرارة النوى، وهامت به الشقراء فأرخت صفائر فروعها عليه من شدة الهوا، واستوفت الأشجار ما كان لها في ذمة الري من الديون، ومازج الحوامض بحلاوته فهام الناس بالسكر والليمون، وانجذب إليه الكباد^(٢) وامتد. ولكن قوي قوسه لما حظي منه بنصيب سهم لا يرد، ولبس شربوش الأترج^(٣) وترفع إلى أن لبس بعده التاج، وفتح منشور الأرض لعلامته بسعة الرزق وقد نفذ أمره وراج. فتناول معالم الشنبر^(٤) وعلم بأفلامها ورسم لمحبوس كل سد بالإفراج، وسرح بطائق السفن فخفقت بمخلق بشائره، وأشار بأصابعه إلى قتل المحل فبادر الخصب إلى امتثال أوامره، وحظي بالمعشوق وبلغ من كل أمنية مناه، فلا سكن على البحر إلا تحرك ساكنه للمطالعة بعدما تفقه وأتقن باب المياه، ومد شفاه أمواجه إلى تقبيل فم الحور، وزاد بسرعته فاستحلى المصريون زائده على الفور. ونزل بركة الحبش فدخل التكرور^(٥) تحت طاعته، وحمل على الجهات البحرية فكسر المنصورة وعلا على الطويلة بشهامته، وأظهر في مسجد الخضر عين الحياة فأقر الله عينه، وصار أهل دمياط في برزخ بين المالح وبينه، وطلب المالح رده بالصدر وطعن في حلاوة شمائله، فما شعر إلا وقد ركب عليه ونزل في ساحله، وأمست واوات دوائره على وجنات الأرض عاطفه، وثقلت أردافه على خصور الجواري فاضطربت كالخائفة، ومال إليه باسق النخل فلثم طلعه وقبل سوافه، وأمست سود السفن كالحسنات في حمرة وجناته، وكلما زاد زاد الله في حسناته، فلا فقير سد إلا وحصل له من فيض نعمائه الفتوح، ولا ميت خليج إلا عاش به ودبت فيه الروح.

ولكنه احمرت عيونه على الناس بزيادة وترفع، فقال له المقياس عندي قبالة كل عين أصبع، فنشر النيل أعلام قلوعه وحمل وله من ذلك الخريز زمجره، ورام أن يهجم

(١) الأب: ورد ذكره في قوله تعالى، في سورة عبس: ﴿فأنبئنا فيها حبا* وفكها وأبا﴾ (٣١ - ٢٧/٨٠). وهو «المرعى لأنه يؤب أي يؤم أو الفاكهة اليابسة تؤب أي تعد للشتاء» (تفسير

شبر، ص ٥٤٩).

(٢) الكباد: عامية معناها الأترج ويقال له أيضاً الترنج وهو ثمر شبيه بالليمون.

(٣) الشربوش: لغة في الطربوش، والأترج: الكباد.

(٤) الشنبر: لم نعثر على هذه اللفظة في ما بين أيدينا وربما كانت بمعنى «القصب».

(٥) التكرور: لقب حاكم الحبشة في ذلك الوقت.

على غير بلاده فبادر إليه عزمنا المؤيدي وكسره، وقد اثرتنا المقر بهذه البشرية التي عم فضلها براً وبحراً، وحدثناه عن البحر ولا حرج وشرحنا له حالاً وصدراً، ليأخذ حظه من هذه البشرية البحرية بالزيادة الوافره وينشق من طيها نشراً، فقد حملت له من طيبات ذلك النسيم أنفاساً عاطره، والله تعالى يوصل بشائرتنا الشريفة لسمعه الكريم ليصير بها في كل وقت مشنفأً، ولا برح من نيلنا المبارك وانعامنا الشريف على كلا الحالين في وفا.

ومما انفردت بإنشائه: رسالة السكين، فإن الشيخ جمال الدين بن نباتة سبق إلى رسالة السيف والقلم، وتقدمه أبو طاهر إسماعيل بن عبد الرزاق الأصفهاني إلى رسالة القوس. وكتاب الإنشاء لا بد لهم من سكين فقلت: وينهى وصول السكين التي قطع المملوك بها أوصال الجفاء، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفاء، وتالله ما غابت إلا وصلت الألام من تعثرها إلى الجفاء زرقاء^(١)، كم ظهر للبيض منها ألوان، خرساء ومن العجائب أنها لسان كل عنوان، ما شاهدها موسى إلا سجد في محراب النصاب، وذل بعد أن خضعت له الرؤوس والرقاب. كم أيقظت طرف القلم بعدما خط، وعلى الحقيقة ما رؤي مثلها قط، وكم وجد بها الصاحب في المضائق نفعاً، وحكم بحسن صحبتها قطعاً، ماضية العزم قاطعة السن فيها حدة الشباب من وجهين، لأنها بالناب والنصاب معلمة الطرفين، وأنملة صبح تقمعت بسواد الدجى، فعودتها بالضحي والليل إذا سجي، ولسان برق امتد في ظلمات الليل، فتنكرت أشعة الأنجم وما عرف منها سهيل^(٢)، هذا وتقطيعها موزون إذ لم يتجاوز في عروض ضربها الحد، ومعلوم أن السيف والرمح لم يعرفا غير الجزر والمد.

من أجل ذا تدخل في مضائق ليس للسيف فيها قط مدخل، وكلما تفعله ترجمه والرمح في تعقيده مطول. إن هجعت بجفنها كانت أمضى من الطيف، وكم لها من خاصة جازت بها الحد على السيف. تنسى حلاوة العسال^(٣) فلا يظهر لطوله طائل، ونغني عن آلة الحرب بإيقاع ضربها الداخل. إن مرت بكلها المحلى تركت المعادن عاطله، ولم يسمع للحديد في هذه الواقعة مجادله. شهد الرمح بعدالته أنها أقرب منه إلى الصواب، وحكم لها بصحة ذلك قبل أن تستكمل النصاب. ما طال في رأس القلم شعرة إلا سرحتها بإحسان، ولا طالعت كتاباً إلا أزال غلظه بالكشط من رأس اللسان.

(١) رزقاء: نافعة.

(٢) سهيل: نجم يظهر في أواخر شهر تموز يقولون إن خروجه دليل على نضوج الفواكه وانقضاء القيظ، وفي المثل: إذا طلع سهيل رفع كيل ووضع كيل يضرب في تبدل الأحكام.

(٣) العسال: الرمح. وهو في الأصل الذي يستخرج العسل.

تعقد عليها الخناصر لأنها عدّة وعدّة، وتالله ما وقعت في قبضة إلا أطالت لسانها وتكلمت بحدّه. إن أدخلت إلى القراب كانت قد سبكت^(١) على الدخول، أو أبرزت من غيمه كان على طلعتها قبول. تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس، وبقامتها الحد حافظت الأقالم على مواظبة الخمس^(٢). وكم لها من عجائب صار بها جدول السيف في بحر غمده كالغريق، ولو سمع بها قبل ضربه ما حمل التطريق. فلو عارضها أبو طاهر لعرك من قوسه الأذنين، وقال له جحدت رسالتك يا ذا القرنين. فإن جذبت إلى مقاومتها وكان لك يد تمتد، وصلت السكين إلى العظم وصار عليك قطع وانتهى أمرك إلى هذا الحد. وهل تعاند السكين صورة ليس لها من تركيب النظم، إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم. ولو لمعها الفاضل لحقق قوله إن خاطر سكينه كل، أو أدركها ابن نباتة ما أقر برسالة السيف وفل، وقال لقلم رسالته أطلق لسانك بشكر مواليك، وأخلص الطاعة لباريك، وما قصد المملوك الإيجاز في رسالة السكين ونظمها، إلا لتكون مختصرة كحجمها، لا زالت صدقات مهديها تنحف بما يذبح نحر فقري، وتأتي بما يشفي وإيها التورية يقول ويبري.

قلت: الذي أوردته ههنا من إنشائي وإنشاء الغير، كان من الواجب، لأن الباب الذي تحتم عليّ شرحه وبيانه وإيضاحه، باب التسجيع، وهو عبارة عن علم الإنشاء، وقد تقدم تقرير السجع وأقسامه، وعلم أنها أربعة أقسام، وهي المطرف والموازي والمشطر والمرصع، وذكرت فيه الفوائد التي منها أحكام الفواصل، وأوردت المباحث في الإنشاء الذي فيه نظر بالنسبة إلى الحالة التي هي المطلوب، وأوردت من بديع الإنشاء وغيره، هذه النبذة التي هي من إنشائي وإنشاء الغير، ولولا خشية الإطالة لأوردت من ذلك ما يذبل عنده زهر المنثور، ويقرط^(٣) في قلائد النحور، ومن أراد البحث عن صحة ذلك فعليه بمصنفي المسمى «بقهوة الإنشاء»، فإنه خمسة مجلدات، منها مجلد أنشأته بالبلاد الشامية، قبل أن أستقر منشئ دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية والممالك الإسلامية، وثلاثة مجلدات أنشأتها عن مولانا السلطان الملك المؤيد سقى الله ثراه، ومجلد أنشأته عن الملك المظفر والملك الظاهر والملك الصالح، وعن مولانا السلطان الملك الأشرف، وعن مولانا أمير المؤمنين المعتضد بالله زاده الله شرفاً وتعظيماً. انتهى.

(١) سبكت: جبلت عليه وفطرت فهو خلق منها.

(٢) الخمس: يعني الصلوات اليومية - والمواظبة عليها: المداومة.

(٣) يُقرط: يجعل أقرطاً - القلائد: جمع قلادة وهي الحلية تلبسها المرأة في عنقها - والنحر: موضع القلادة (العنق وما يليه من الصدر).

والفرق بين التسجيع والتجزئة، اختلاف زنة أجزائه ومجيئه على قافية واحدة، من غير عدد معين محصور. وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على التسجيع قوله:

فعال منتظم الأحوال مقتحم الأهوال ملتزم بالله معتصم
وبت العميان:

من لي بمستلم ليلد معتصم بالعيش لا مسثم يوماً ولا سثم^(١)
وبيت الشيخ عز الدين الموصلي قوله:

كم قاتل بصحيح الجمع مقتحم وقائل لنظيم السجع ملتزم

قلت: الذي يظهر لي أن الشيخ عز الدين لم يمش في نظم بديعته مشي محقق، لأنه تقرر عنده وعند الجماعة في شروحهم: أن التسجيع هو أن يأتي المتكلم في أجزاء بيته أو كلامه أو في بعضها، بأسجاع غير متزنة، والشيخ أتى في شطر بيته الأول بأسجاع قابل كلاً منها في الشطر الثاني بوزنه، مثل: قاتل وقائل، وصميم ونظيم، وجمع وسجع، ومقتحم وملتزم، وهذا هو الترصيع بعينه. فإن الترصيع من شرطه أن تقابل كل لفظة من البيت بوزنها وروبيها وليته نقل هذا البت إلى الترصيع فإن بيته في الترصيع ناقص بالذي أظهره، مع قصر باعه فيه من الحشو، وهو:

كم رضعوا كِلماً من درّ لفظهم كم أبدعوا حكماً في سر علمهم
مع أنه نظر في بيت الشيخ صفي الدين الحلبي، وهو:

فعال منتظم الأحوال مقتحم الأهوال ملتزم بالله معتصم
ورأى اختلاف الوزن بين ملتزم ومعتصم.

وبيت بديعتي أقول فيه:

سجعي ومنتظمي قد أظهرها حكمي وصرت كالعلم في العرب والعجم



(١) المسثم: الممل المتعب - والسثم: الملول التعب.

ذكر التسميط

تسميط جوهره يلقي بأبحره ورشف كوثره يروي لكل ظمي^(١)
هذا النوع، أعني التسميط: هو أن يجعل الشاعر كل بيت، بسمطه، أربعة أقسام
ثلاثة منها على سجع واحد، بخلاف قافية البيت، كقول مروان بن أبي حفصة:
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

والفرق بين التسميط والتسجيع، كون أجزاء التسميط غير ملتزم أن تكون على
روي البيت، وكون أجزائه متزنة فيكون عددها محصوراً، والفرق بين التفويف وبينه
تسجيع بيت التسميط. قال ابن أبي الأصبع: ما خالفوا بين قافية البيت وأسجاع التسميط
إلا لتكون القافية كالسمط، والأجزاء المسجعة بمنزلة حب العقد، لأن السمط يجمع حب
العقد، والمراد بأجزاء التسميط بعض أجزاء التقطيع ويسمى تسميط التبعض، ومن
التسميط نوع آخر يسمى تسميط التقطيع، وهو أن تسجع جميع أجزاء التفعيل على روي
يخالف القافية، كقول ابن أبي الأصبع:

وأسمر مثمر من مزهر نضر من مقمر مسفر عن منظر حسن

فجاءت جميع أجزاء التفعيل من هذا البيت، من سباعيها وخماسيها، مسجعة على
خلاف سجعة الجزء الذي هو قافية البيت.

(١) التسميط: في اللغة أن تجعل الجواهر سماًطاً أو عقداً - والرشف: الشرب على مهل - والكوثر: النهر
العذب الماء الصافي - والظمي: الظامىء: العطشان.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على التسميط:
فالحق في أفق والشرك في نفق والكفر في فرق والدين في حرم
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته
قوله:

تسميط ذي أدب تنظيم ذي أرب تحقيق ذي غلب بالنصر ملتزم^(١)
وبيت بديعتي أشرت فيه إلى نظمي ونثري، ترفعاً بمدح النبي ﷺ وصحابته رضي
الله عنهم، بقولي:

سجعي ومنتظمي قد أظهرها حكمي وصرت كالعلم في العرب والعجم
وقلت بعده مشيراً إلى النظم:

تسميط جوهره يلفى بأبحره ورشف كوثره يروي لكل ظمي
التورية في التسميط هنا منتظمة في سلك الجواهر، وقد تقرر أن السمط هو الذي
يجمع حب العقد، ولهذا قلت: تسميط جوهره، والمناسبة البديعية حاصلة بقولي: يلفى
بأبحره، فمحاسنه غير خافية بعد ذكر الجواهر، ومثل ذلك الرشف للكوثر والري للظامى،
وتمكين القافية ظاهر. والله أعلم.



(١) الأرب: الحاجة، والبغية والأمنية، والمهارة.

ذكر الالتزام

لأن مدح رسول الله ملتزمي فيه ومدح سواه ليس من لزمي^(١)
هذا النوع الذي سماه قوم: الالتزام، ولزوم ما لا يلزم، ومنهم من سماه:
الاعتات، والتضييق، وهو في الاصطلاح أن يلتزم الناثر في نشره، أو الناظم في نظمه،
بحرف قبل حرف الروي أو بأكثر من حرف، بالنسبة إلى قدرته مع عدم التكلف، وقد جاء
في الكتاب العزيز في مواضع تجل عن الوصف، كقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس
الجوار الكنس﴾^(٢) وكقوله تعالى: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرأ غير
ممنون﴾^(٣) ومثله قوله تعالى: ﴿والليل وما وسق والقمر إذا اتسق﴾^(٤)، وأما الشعراء فأبو
العلاء كان أكثرهم في هذا النوع التزاماً، حتى إنه صنع كتاباً سماه «اللزوميات» جاء
فيه بأشياء بديعة، إلا أن فيه من عشرات لسانه كثيراً، كقوله:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يكونوا
يحطمننا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يُعادُ لنا سبك
ومنه قوله:

لا تطلبن بآلة لك رفعة قلم البليغ بغير حظ مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما هذا له رمح وهذا أعزل

(١) ملتزمي: ألتزم به، واجبي - واللتزم: الواجب.

(٢) التكوير، ١٦/٨١.

(٣) القلم، ٣٠/٦٨ و٣١.

(٤) الإنشاق، ١٧/٨٤ و١٨.

ومنه قوله:

يقولون في البستان للعين لذة
إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها
وفي الراح والماء الذي غير آسن^(١)
ففي وجه من تهوى جميع المحاسن
وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي على لزوم ما لا يلزم قوله:

من كل مبتدر للموت مقتحم
وبيت العميان:
في مارق بغبار الحرب ملتحم^(٢)

وميل سمعي لنيل القرب من شيمي
وبيت الشيخ عز الدين قوله:
وسيل دمعي بذيل الترب كالديم^(٣)

لي التزام بمدحي خير معتصم
وبيت بديعيتي أقول فيه:
بربه وارتباط غير منفصم
لأن مدح رسول الله ملتزمي
فيه ومدح سواه ليس من لزمي



(١) آسن: الماء: فسد وتغير لونه وطعمه وريحه. أو ركذ.
(٢) المبتدر: الذي يبادر إلى الأمر ويندفع إليه - المارق: من الدين الخارج عنه، ومن الغبار الخارج منه.
(٣) الشيم: جمع شيمة: وهي الخلق الحسن، والخصلة النبيلة.

ذكر المزاجية

إذا تزوج ذنبي وانفردت له بالمدح منّ ونجاني من النقم
هذا النوع، سمّوه المزاجية والازدواج، وهو في اللغة مصدر زواج بين الشيثين، إذا
قارب بينهما، وفي الاصطلاح قال السكاكي ومن تبعه: هو أن يزواج المتكلم بين معنيين
في الشرط والجزاء، كقول البحري:

إذا ما نهى الناهي فلج لي الهوى أصاغت إلى الواشي فلج بها الهجر^(١)
ومنه قوله:

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها^(٢)
وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته قوله:
ومن إذا خفت في حشري فكان له مدحي نجوت وكان المدح معتصمي
وبيت العميان:

إذا تبسم في حرب وصاح بهم ييكي الأسود ويرمي اللسن بالبكم^(٣)

(١) لَجّ: ألح - وأصاخ: أنصت وسمع كلامه وأطاعه - والواشي: النمام الذي يتقل الكلام بين اثنين وأكثر بهدف إفساد ذات البين.

(٢) احتربت: تحاربت - والقربى: الأقرباء.

(٣) اللسن: الفصحاء - البكم: العمي والخرس.

وبت الشيخ عز الدين:

ذكرت أن نجاتي في مديحهم

إذا تزوج خوف الذنب في خلدي

وبيت بديعيتي أقول فيه:

بالمدح منّ ونجاني من النّقم (١)

إذا تزوج ذنبي وانفردت له



(١) منّ: تفضّل - النّقم: الانتقام.

ذكر التجزئة

وريت في كلمي جزيت من قسمي أبديت من حكمي جليت كل عمي

التجزئة: هي أن يأتي المتكلم بيت ويجزئه جميعه أجزاء عروضية، ويسجعها كلها على وزنين مختلفين جزءاً بجزء، أحدهما على روي يخالف روي البيت، والثاني على روي البيت، كقول الشاعر:

هندية لحظاتها خطية خطراتها دارية نفحاتها^(١)

وبيت الشيخ صفي الدين:

ببارق خذم في مارق أمم أو سابق عرم في شاهق علم^(٢)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين قوله:

ذي فضل أندية ذي عدل تجزئة فالذئب في ظلم يمشي مع الغنم

الشيخ عز الدين سها في هذا البيت عن رتبة التجزئة في الشطر الثاني، بالنسبة إلى التقرير، في شرط الرتبة.

وبيت بديعيتي أشير فيه إلى ما أبديته من المحاسن في المديح النبوي، بقولي:

وريت في كلمي جزيت من قسمي أبديت من حكمي جليت كل عمي

(١) هندية: نسبة إلى الهنديه - خطية: نسبة إلى الرماح الخطيه أي تفعل فعلها - ودارية: نسبة إلى داريا.

(٢) البارق: السيف - الخذم: الفاطح - المارق: الخارج من الشيء - الأمم: المأموم وهو المضروب

على أم رأسه - السابق: الفارس - العرم: السريع الطعن الشرس.

الشاهق: الشديد الإرتفاع - والعلم: الجبل.

ذكر التجريد

لي المعاني جنود في البديع وقد جردت منها لمدحي فيه كل كمي (١)
التجريد، عرفه صاحب التلخيص بأن قال: هو أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر
مثله، وفائدته المبالغة في تلك الصفة، كقولك: مررت بالرجل الكريم، والنسمة
المباركة. فجردت من الرجل نسمة متصفة بالبركة، وعطفها عليه كأنها غيره، وهي هو.

ومن أمثله الشعرية قول الشاعر:

أعائق غصن البان من لين قدها وأجني جنني النورد من وجناتها
فإنه جرد من قدها غصناً ومن وجنتيها ورداً.
وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته قوله:
شوس ترى منهم في كل معترك أسد العرين إذا حر الوطيس حمي (٢)

والشيخ صفي الدين جرد في بيته أسد العرين من الشوس.

وبيت العميان في بديعيتهم:

من وجه أحمد لي بدر ومن يده بحر ومن لفظه در لمتنظم

(١) الكمي: الفارس المغوار.

(٢) الشوس: والأشاوس: الشجعان - العرين: بيت الأسد - الوطيس: المعركة.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي قوله:
من لفظه واعظ بالنصح جرد لي
وبيت بديعيتي في المديح النبوي قولي:
لي في المعاني جنود في البديع وقد
يا نفس توبي وللتجريد فالتزمي
جردت منها لمدحي فيه كل كمي



ذكر المجاز

وهو المجاز إلى الجنات إن عمرت أبياته بقبول سابغ النعم

المجاز: هو عبارة عن تجوز الحقيقة، فإن المراد منه أن يأتي المتكلم بكلمة يستعملها في غير ما ضعت له في الحقيقة في أصل اللغة، هذا رأي السكاكي وأصحاب المعاني والبيان، وقال البديعيون: المجاز عبارة عن تجوز الحقيقة، بحيث يأتي المتكلم إلى اسم موضوع لمعنى فيخصه، إما أن يجعله مفرداً بعد أن كان مركباً، أو غير ذلك من وجوه الاختصاص.

والمجاز جنس يشتمل على أنواع كثيرة، كالاستعارة والمبالغة والإرداف والتمثيل والتشبيه، وغير ذلك مما عدل فيه عن الحقيقة الموضوعية للمعنى المراد. وهذه الأنواع، وإن كانت من المجاز، فكونها متعددة لخلوها عن معنى زائد عن تجوز الحقيقة، كالاستعارة والتشبيه وبقي ما ذكره من الأنواع، فلما لم يكن له غير تجوز الحقيقة اختصاراً، أفرد باسم المجاز إذ لا يليق به غيره.

وعمل الشريف الرضي كتاباً سماه «مجاز القرآن» ومات قبل استيفائه، ومن أمثله الشعرية قول العتابي:

يا ليلة لي بحوارين ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير
قوله: ساهرة، مجاز.

وبيت الشيخ صفي الدين قوله:

صالوا فنالوا الأماني من مرادهم ببارق في سوى الهيجاء لم يشم

المجاز في بيت الشيخ صفي الدين في لفظة بارق.
والعمبان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين قوله:
أحیی فؤادی مجازی نحو حجرته وقد دهشت لجمع فيه مزدحم
وبيت بديعيتي تقدمه قولي: إني تجردت لمدح النبي ﷺ، وقلت بعده في المجاز:
وهو المجاز إلى الجنات إن عمرت آياته بقبول سابغ النعم



ذكر الائتلاف

وهو أربعة أنواع هي :

١ - ائتلاف اللفظ مع المعنى :

تألف اللفظ والمعنى بمدحته والجسم عندي بغير الروح لم يقيم هذا النوع ذكره قدامة، أعني ائتلاف اللفظ مع المعنى، وترجمه منفرداً ولم يبين معناه وشرحه الأمدي وأطال، ولم توف عبارته ببيضاحه. وأوضحه ابن أبي الأصبع وقال: مختصر عبارة هذه التسمية أن تكون ألفاظ المعاني المطلوبة ليس فيها لفظة غير لائقة بذلك المعنى، إن كان اللفظ جزلاً كان المعنى فخماً، أو رقيقاً رقيقاً كان المعنى غريباً، كقول زهير بن أبي سلمى:

أثافي سفعاً في معرس مرجل ونؤيا كجذم الحوض لم يتسلم^(١)
فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم

فإن زهيراً قصد تركيب البيت الأول من ألفاظ تدل على معنى غريب، لكن المعنى غير غريب، فركبه من ألفاظ متوسطة بين الغرابة والاستعمال، ولما جنح في البيت الثاني إلى معنى أبين من الأول وأغرب، ركبه من ألفاظ مستعملة معروفة. وبيت الحلبي في بديعته قوله:

كأنما حلق السعدي منتشراً على الثرى بين منقض ومنقضم

(١) الأثافي: حجارة الموقد - السفع: تغير اللون - المعرس: المنزل، أو مكان التعريس وهو التجمع والمعرس: هو الدار أو مكان الخيمة، وهنا مكان القدر أو الموقد - والمرجل: القدر يطبخ به - النؤي: نهر صغير يحفر حول الخيمة ليمنع دخول ماء المطر إليها - الجذم: البقية والأثر - تسلّم: تشقق وتكسر وخرب.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم . وبيت الشيخ عز الدين الموصلي قوله :
تؤلف اللفظ والمعنى فصاحته تبارك الله مشي الدرّ في الكلم

بيت الشيخ عز الدين في هذا النوع عامر، وبيت الشيخ صفي الدين خراب لأنه غير
صالح للتجريد، ولم يظهر له معنى حتى يأتي بالمشبه به في البيت، وعلى هذا التقدير لم
يحصل في بيته ائتلاف بين اللفظ والمعنى .

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ :

تآلف اللفظ والمعنى بمدحته والجسم عندي بغير الروح لم يقم

٢ - ائتلاف اللفظ مع الوزن :

واللفظ والوزن في أوصافه ائتلفا فما يكون مديحي غير منسجم

هذا النوع، أعني ائتلاف اللفظ مع الوزن، قال قدامة: هو أن تكون الأسماء
والأفعال تامة لم يضطر الشاعر في الوزن إلى نقصها في البنية، ولا إلى الزيادة، ولا إلى
التقديم والتأخير. ومنهم من قال: هذا النوع لا مثال له بصورة معينة، لأنه عبارة عن أنه
لا يضطر إلى ما لا يلزمه منه فساد صورة المعنى وذهاب رونق اللفظ، كقول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكاً أبو أمه حي أبوه يقاربه

وفي رواية: أخو أمه: فإن اضطرار الوزن حمله على رداءة السبك، فحصل في
الكلام تعقيد يمنع من فهم معناه بسرعة، ولو قال: وما مثله إلا مملك أبوه يقارب
خاله، لسهل مأخذه وقرب تناوله.

وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته قوله:

في ظل أبلج منصور اللواء له عدل يؤلف بين الذئب والغنم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم . وبيت الشيخ عز الدين الموصلي قوله:

أؤلف اللفظ مع وزن بمدحة مو لانا وذم عدو بين الثلم

قلت: ثقل الهمة في لفظة أؤلف، والوقوف لتحرير الوزن عند قوله: بمدحة
مولانا، كان سبباً في عدم ائتلاف اللفظ مع الوزن في بيت الشيخ عز الدين.

وبيت بديعيتي قلت فيه، عن النبي ﷺ بعد قولي فيه في ائتلاف اللفظ مع المعنى :
تألف اللفظ والمعنى بمدحته والجسم عندي بغير الروح لم يقم
وقلت بعده :

واللفظ والوزن في أوصافه ائتلفا فما يكون مديحي غير منسجم

٣- ائتلاف المعنى مع الوزن :

والوزن صح مع المعنى تألفه في مدحه فأتى بالدرّ في الكلم

هذا النوع، أعني ائتلاف المعنى مع الوزن: هو أن تأتي المعاني في الشعر
صحيحة، لا يضطر الشاعر في الوزن إلى قلبها عن وجهها، ولا إلى خروجها عن
صحتها، كقول عروة بن الورد:

فإني لو شهدت أبا سعاد فديت بنفسه نفسي ومالي
غداة غد بمهجته يفوق^(١) وما آله إلا ما يطيق^(٢)

فإنه أراد أن يقول: فديت نفسه بنفسه نفسي ومالي، فألجأته ضرورة الوزن إلى قلب
المعنى. ومهما كان الشعر سليماً من مثل هذا، كان الشعر الذي ائتلف معناه مع وزنه.
وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعيته قوله:

من مثله وذراع الشاة حذره عن سمه بلسان صادق الرتم^(٣)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعيته
قوله:

تؤلف اللفظ والمعنى مدائحهم فللمعاني ترى الألفاظ كالخدم

قلت: بيت الشيخ صفي الدين، في هذا النوع، قاصر عن بيت الشيخ عز الدين،
فإن الشيخ عز الدين أتى أولاً بالانسجام والسهولة مع التورية بتسمية النوع وتمكين
القافية، فإن لفظة رتم، في بيت الشيخ صفي الدين غير ممكنة، وأيضاً فإن الوزن
والمعنى في بيت الموصلي في غاية الائتلاف.
وبيت بديعيتي قلت فيه:

واللفظ والوزن في أوصافه ائتلفا فما يكون مديحي غير منسجم

(١) يفوق: يوجد.

(٢) آلى: أقسم وحلف اليمين.

(٣) الرتم: الكلام الخفي.

وقلت بعده في ائتلاف المعنى مع الوزن:

والوزن صح مع المعنى تألفه في مدحه فأتى بالدر في الكلم

٤ - ائتلاف اللفظ مع اللفظ:

واللفظ باللفظ في التأسيس مؤتلف في كل بيت بسكان البديع حمي

هذا النوع، أعني ائتلاف اللفظ مع اللفظ: هو أن يكون في الكلام معنى يصح معه هذا النوع، ويأخذ عدة معان فيختار منها لفظة بينها وبين الكلام ائتلاف، كقول البحري في الإبل النحيلة:

كالقسي المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار^(١)

فإن تشبيه الإبل بالقسي كناية عن هزها، فلو شبهها بغير ذلك كالعرجون والبال جاز، ولكن المناسبة والائتلاف بين الأسهم والأوتار والقسي حسنت التشبيه.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته:

خاضوا عباب الوغى والخيل سابحة في بحر حرب بموج الموت ملتطم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعته. وبيت الموصلي في بديعته:

ساروا وجدوا النوى واللفظ مؤتلف من لسنٍ دمعي بلفظٍ جدٌ منسجم^(٢)

الذي فهمته من هذا النوع معنى الشطر الأول، وأما الشطر الثاني فما حصل بينه وبين هذا النوع ائتلاف.

وبيت بديعتي قلت قبله:

والوزن صح مع المعنى تألفه في مدحه فأتى بالدر في الكلم

وقلت بعده، في ائتلاف اللفظ مع اللفظ:

واللفظ باللفظ في التأسيس مؤتلف في كل بيت بسكان البديع حمي

(١) القسي: جمع قوس - المعطفات: المحنات - الأسهم المبرية: المحددة الرؤوس.

(٢) جدوا النوى: أسرعوا بالبعاد والسفر. وقد ورد الشطر الثاني من هذا البيت بلفظ «خد» بدل «جد» التي أثبتناها وهي كما هو واضح، أصح وأقوم.

ذكر التمكين

تمكين سقمي بدا من خيفة حصلت لكن مدائحه قد أبرأت سقمي

هذا النوع أعنى، التمكين: وهو ائتلاف القافية، منهم من سماه بالتمكين، ومنهم من سماه بائتلاف القافية: وهو أن يمهد الناثر لسجعه فقرة، أو الناظم لقافية بيته تمهيداً تأتي به القافية ممكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، غير نافرة ولا قلقة، ولا مستدعاة بما ليس له تعلق بلفظ البيت ومعناه، بحيث أن منشد البيت، إذا سكت دون القافية، كملها السامع بطباعه بدلالة من اللفظ عليها. وأكثر فواصل القرآن على هذه الصورة، والذي عقد البديعون عليه الخناصر في هذا الباب، قول أبي الطيب:

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا. كل شيء بعدكم عدم

وقال ابن أبي الأصبح: لم نسمع لمتقدم شعراً متمكناً في قافية أشد من تمكين النابغة الذبياني، حيث قال:

كالأقحوان غداة غب سوائه جفت أعاليه وأسفله ندي

زعم الغمام ولم أذقه بأنه يروي بريقتة من العطش الصدي

قلت: ويعجبني هنا قول صدر الدين بن عبدالحق، ولعمري إنه أمكن وألطف

وأظرف، وهو:

ورب ظبي أنس حشاشتي ملكته

أسقيته أسكرته حركته نبهته

نادمته أعجبته حدثته أطربته

مددته كشفته بلا طويل نكته

وبيت الحلبي على تمكين القافية قوله :

به استغاث خليل الله حين دعا رب العباد فنال البرد في الضرم^(١)
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم . وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي في بديعته
قوله :

تمكين حبك في قلبي نسخت به محبة الكل من عرب ومن عجم^(٢)
وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ :
تمكين سقمي بدا من خيفة حصلت لكن مدائحہ قد أبرأت سقمي



(١) الضرم : النار الملتهبة ، والبيت عبارة عن قوله تعالى : ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم﴾ .
(٢) النسخ : الإبطال ، ومنه الناسخ والمنسوخ في القرآن ، الآيات التي جاءت لتبطل أحكام آيات جاءت قبلها .

ذكر الحذف

وقد أمنت وزال الخوف منحذفاً نحو العدو ولم أحقر ولم أضم^(١) هذا النوع، أعني الحذف، عبارة عن أن يحذف المتكلم من كلامه حرفاً من حروف الهجاء، أو جميع الحروف المهملة، بشرط عدم التكلف والتعسف، وهذا هو الغاية، كما فعل الحريري في المقامة السمرقندية، بالخطبة المهملة التي أجمع الناس على أنها نسيج وحدها، وواسطة عقدها. [وقد عن لي] أن أوردتها ههنا بكمالها، وأورد معها ما نسج المتأخرون على منوالها، وهي قوله:

الحمد لله الممدوح الأسماء، المحمود الآلاء، الواسع العطاء، المدعو لحسم
اللاؤاء، مالك الأمم، ومصور الرمم^(٢)، وأهل السماح والكرم، ومهلك عاد وإرم، أدرك
كل سرّ علمه، ووسع كل مصر حلمه، وعمّ كل عالم طوله، وهذّ كل مارد حوله، أحمده
حمد موحد مسلم، وأدعوه دعاء مؤمل مسلم، وهو الله لا إله إلا هو الواحد الصمد، لا
والد له ولا ولد، أرسل محمداً للإسلام ممهّداً، وللملة موطداً، ولأدلة الرسل مؤكداً،
وللأسود والأحمر مسدداً، وصل الأرحام، وعلم الأحكام، ووسم الحلال والحرام، ورسم
الإحلال والإحرام، كرّم الله محله، وكمل الصلاة والسلام له، ورحم آله الكرماء، وأهله
الرحماء، ما همم ركام^(٣) وهدر حمام، وسرح سوام^(٤)، وسطا حسام.

-
- (١) أضم: مجزوم أضام. أي لم أصب بأذى أو أتضايق.
(٢) الرمم: واحدها رمه وهي عبارة عن الهيكل العظمي البالي.
(٣) الركّام: الغيوم المركوم بعضها فوق بعض.
(٤) السوام: إلماشية.

اعملوا رحمكم الله عمل الصلحاء، واكدهوا لمعادكم كدح الأصحاء، وادعوا أهواءكم ردع الأعداء، وأعدوا للرحلة إعداد السعداء، وادّرعوا حبل الورع، وداووا علل الطمع، وسووا أود العمل، وعاصوا وساوس الأمل، وصوّروا لأوهامكم حؤول الأحوال، وحلول الأحوال، ومساورة الأعمال، ومصارمة المال والآل، وادّكروا الحمام وسرعة مصرعه^(١)، والرّمس وهول مطلقه^(٢)، واللحد ووحدة مودعه، والملك وروعة سؤاله ومطلعه، والمحو الدهر ولؤم كره، وسوء محاله ومكره، كم طمس معلماً، وأمر مطعماً، وطحطح عمرماً، ودمر ملكاً مكرماً، همه سكّ المسامع، وسحّ المدامع، وإكداء المطامع، وإرداء المسمع والسامع، عم حكّمه الملوك والرعاغ، والمسود والمطاع، والمحسود والحساد، والأساود والأساد، ما موّال الآمال، وعكس الآمال، ولا وصل الأوصال، وكلم الأوصال، ولا سرّ إلا وسا^(٣)، ولؤم وأسا^(٤)، ولا أصحّ إلا ولّد الداء، وروع الأوداء.

الله الله، رعاكم الله، إلام مداومة اللهو، ومواصلة السهو، وطول الإصرار، وحمل الإصار، وأطّراح كلام الحكماء، ومعاصاة إله السماء، أما الهرم حصادكم، والمدر^(٥) مهادكم، أما الجّمام مدرّككم، والصراط مسلككم، أما الساعة موعدكم، والساهرة موردكم، أما أهوال الطامة^(٦) لكم مرصده، أما دار العصاة الحطمة المؤصدة^(٧)، حارسهم مالك، ورواؤهم حالك، وطعامهم السّموم، وهواؤهم السّموم^(٨)، لا مال أسعدهم ولا ولد، ولا عدد حماهم ولا عدد، ألا رحمه الله امرأ ملك هواه، وأكّم مسالك هداه، وأحكم طاعة مولاها، وكدح لروح مأواها، وعمل ما دام العمل مطاوعاً، والعمر موادعاً والصحة كاملة، والسلامة حاصله، ولا دهمه عدم المرام، وحصر الكلام، وإلمام الآلام، وحموم الحمام، وهذوء الحواس، ومراس الأرماس، آها لها حسرة ألمها مؤكّد، وأمدها سرمد، وممارسها مكمد^(٩)، ما لولها حاسم، ولا لسدمه^(١٠) راحم، ولا له

(١) الجّمام: بكسر المهملة: الموت.

(٢) الرّمس: القبر.

(٣) سا: ترخيم ساء: أحزن.

(٤) أسا: ترخيم أساء: أضرب.

(٥) المدر: الطين الذي لا يخالظه رمل.

(٦) الطامة: المصيبة الكبيرة، والقيامة.

(٧) الحطمة: نار جهنم - المؤصدة: المقفلة. التي لا يمكن الخروج منها.

(٨) السّموم: الريح الحارة (ريح جهنم). والرياح الخمسينية.

(٩) مكمد: مكبوت الحزن. مهموم.

(١٠) السدم: الهم مع الندم، أو الغيظ مع الحزن.

مما عراه عاصم، ألهمكم الله أحمد الإلهام، وردأكم رداء الإكرام، وأحلکم دار السلام،
وأسأله الرحمة لكم ولأهل ملة الإسلام، وهو أسمح الكرام والمسلم والسلام.

قلت: رحم الله أبا القاسم الحريري، أتى في عاطل هذه الخطبة بالسهل الممتنع،
ولكن ألجأته ضرورة العاطل، في مواضع، إلى الإتيان بألفاظ تفتقر إلى الحل. وقد تعين
هنا تفسيرها، لثلا يتعذر على الطالب مرام، ولا يحصل هذا الإشكال في مرآة الأفهام.

فالأواء: الشدة. والأحمر والأسود: العرب والعجم، ووسم بمعنى علم. وهمر
بمعنى صب والركام: السحاب المترام. والكدح: عمل الإنسان، من الخير والشر.
والأود: الموعج، والمسورة: الموائبة. وطحطح بمعنى هدّ وأهلك. والسكك ضيق
الصماخ. والرعاغ: السفلة. والأساود: الحيات. والأصار: جمع إصر، وهو الثقل.
والساهرة: قيل إنها عرصات القيامة، وقيل إنها وجه الأرض. انتهى.

[وأوقفني] رجل من طلبة العلم بحلب المحروسة، يقال له الشيخ بدر الدين بن
محمد بن الضعيف، سنة أربع عشرة وثمانمائة، على رسالة مشتملة على حكّم ومواعظ،
على طريق الفقهاء لا على طريق الأدباء، وسألني الكتابة عليها فامتنتع من ذلك، فتوصل
إلى أن رسم لي مولانا المقر الأشرف القاضي الناصري محمد بن البارزي الجهني
الشافعي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، رُوِّحَ اللهُ روحه، وجعل
من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحة، أن أكتب له على رسالته العاطلة تقریظاً عاطلاً،
فقلت: هذا النوع من المستحيلات، فإن الخطب والوعظيات ثمرات، ألفاظها دانية
القطوف. وأما التقریظ فالتوصل إلى تحصيل ألفاظه العاطلة غير ممكن، لأن كف المتناول
من ذلك صفر، والطريق مخوف، فلم يحصل عن المرسوم رجوع، وعلمت، أن الصرف
إلى غير الامتثال، ممنوع. [فكتبت] هذا التقریظ الذي ما سبقني نادر إليه، ولا حام طائر
فكره عليه، وهو:

طالع المملوك رسالة محمد وسلم، وأحكم السمع والطاعة لكلامها المحكم. والله
ما سمعها عالم إلا وهام، ولا ردع سحرها الحلال مسلماً إلا كره الحرام، وعاد عاملاً
وأعد للصالح حواصله، وصار له مع الله معاملته. ما أحلى ما كرر عاطلها المحلي، وأهلاً
لسهولة مسلكها وسهلاً، ما لولد ساعة سعد أحكامها، ولا أهل العصر سكر إلا ما أدار
كأس مدامها، ولا لعمارة عامر صرحها ورهطه، ولا للصرّ در كلؤلؤها وسمطه^(١)، ولا لولد
مطروح مع طرحها المحرر مطارحه، ولا صار لولادة رسالة مسموعة ولا لسرحها آرام

(١) السمط: عقد اللؤلؤ.

سارحه، ولا مسارح الماء الحلو لملحها إلا كالآل^(١)، وما عامر ما أسه المعمار إلا أطلال، وما المطاعم الحلوة معها إلا مالحة، وما صوادح الكلام الصادح إلا حول دوحها صادحه، وما لطعم الراح مع حلاوة وردها راحه، ولا لسلسل الورد معها طلاوة ولو كلل الطل^(٢) أدواحه، ولا لسلك الدر در سلوكها، ولا للمسوك العاطرة عطر مسوكها.

ولم لا ومحكمها حرسه الله صار ملكاً ولحكمه أحكام، وكلام الملوك ملوك الكلام، لا إله إلا الله ما أسرار ولد آدم إلا حكمه، وما كلام الحكماء وما أحكامه إلا حرمه، وما أمة رسول الملك العالم إلا سادة الأمم، وما سماه صدورهم إلا مطالع أهل الحكم، أطال الله عمره وما ملها سامع، وأطلع هلال دالها^(١) وسعد السعود لها طالع، وحصل للعالم لما هل هلالها سرور، وأكرموا محلها وأحلوها الصدور. أحكامها عمدة لأمة محمد، وما أعادها السامع إلا صار العود أحمد:

سلسلوا دورها لسمع كساه درها وهو عاطل كل حلّه
لا سماع إلا لها لا كلام لسواها كره كره الله

وع ما حكاها، ولد همام أو رواه، واسمع مسامرة همام صعد طور الحكم وساعده الله، وحسم كل كلامه مادة العواطل، وسلسل لطورسه وسطوره سلاسل الدور ودور السلاسل، ولو سمعها ملك العواطل أمال رؤوس رماحه، وكل حذ سلاحه، وسع معالم العلم ومعاهده صدره، وأدر لأهل الموارد الحلوة والله دره، ما للكمال أصول سطوره الكاملة، ولا ورد مع رسول كرسالة محمد مراسله، رحم الله امرأ أطاع أوامر حكمها، وسمع مرسوم رسمها، ودارس ما أحكامه ممهدا وأملاه، أمد الله عمره والحمد لله.

والحلي بنى بيت بديعته، في باب الحذف، على العاطل، وهو:

آل الرسول محل العلم ما حكموا الله إلا وعدوا أعدل الأمم

والعميان ما نظمو نوع الحذف في بديعيتهم، وأنا والشيخ عز الدين تعذر علينا نظم الحذف عاطلاً، لأجل تسمية النوع في البيت، إذ فيه الذال والفاء ولا بد من التورية بتسمية النوع، كما شرط أولاً، فكل منا جنح في باب الحذف إلى جهة. أما الشيخ عز الدين فإنه ذكر أنه نظم بيته من الحروف النورانية المقطعة، وسمى الحذف في بيته إسقاطاً، فقال:

(١) الآل: السراب الذي يحسبه الظمان ماءً.

(٢) الدال: جمع الدالة وهي الشهرة والسلطان.

أروم إسقاط ذنبي بالصلاة على محمد وعلى صديقه العلم^(١)
وبيت بديعيتي حذفت منه الأحرف التي تنقط من تحت، وهو الذي نظمته بعد قولي:
تمكين سقمي بدا من خيفة حصلت لكن مدائحه قد أبرأت سقمي
فقلت:

وقد أمنت وزال الخوف منحذفاً نحو العدو ولم أحقر ولم أضم



(١) أروم: أتوخى وأقصد - الصديق: الخليفة الثاني أبو بكر وكان ملقباً بالصديق.

ذكر التدبيج

واخضر أسود عيشي حين دبجه بياض خطي ومن زرق العداة حمي

نوع التدبيج من مستخرجات ابن أبي الأصبغ، وهو عبارة عن أن يذكر الناظم أو الناثر ألواناً يقصد بها التورية والكناية بذكرها عن أشياء، من تشبيب أو مدح أو وصف أو غير ذلك من الأغراض. فمن التدبيج على طريق التورية قول الحريري، في المقامة الزورائية: فمذ اغبر العيش الأخضر، وازور المحبوب الأصفر، اسود يومي الأبيض، وابيض فودي الأسود، حتى رثا لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر.

ومنه، ما كتبت به جواباً عن مولانا السلطان الملك المؤيد رحمه الله إلى الجناب العالي الناصري محمد بن أبي يزيد بن عثمان. فإنه المجاهد الذي جعل حظ بني الأصفر، في البحر الأزرق من بيض سيوفه أسود، فأذاقهم الله به الموت الأحمر، وكمال التدبيج يقول أهلاً بعيش أخضر يتجدد.

ومن الأمثلة الشعرية في باب التدبيج قول ابن حيوس:

إن ترد خبر حالهم عن يقين فالفهم في منازل أو نزال^(١)
تلق بيض الوجوه سود مثار النقع خضر الأكناف حمر النصال
ومثله قوله:

بياض عزم واحمرار صوارم وسواد نقع واخضرار رحاب^(٢)

(١) النزال: الحرب.

(٢) الصوارم: السيوف - النقع: غبار الحروب.

وظريف هنا قول الشيخ زين الدين بن الوردي، من أبيات:

ولي صاحب بالمدح والهجو كسبه يقول أتدري كيف أصنع بالخلق
إذا حمروا وجهي وما بيضوا يدي أزرق لهم رجلي ولو خضروا عنقي^(١)

ويعجبني قول الشيخ عز الدين في هذا الباب:

خضرة الصدغ والسواد من العيون بياض المشيب قد أورثاني
واحمرار الدموع صفّر خدي كل ذا من تلونات الزمان

قلت: تلونات الزمان، في باب التدبيح، غاية في الحسن.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في التدبيح قوله:

خضر المراع حمر السمر يوم وغى سود الوقائع بيض الفعل والشيم^(٢)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في

بديعته:

خضر المراع حمر البيض سود ردى بيض الثنا فاستمع تدبيح وصفهم

قلت: ما يليق بالشيخ عز الدين ما اعتمده في بيت الشيخ صفي الدين، من أخذ

لفظه ومعناه، والحق أنه تلون في باب التدبيح على الصفي، وتحرم على الحلبي: وبيت

بديعيتي قولتي:

واخضر أسود عيشي حين دبجه بياض حظي ومن زرق العداة حمي

(١) حمّر الوجه: أحجل صاحبه - بيضوا يدي: بالعتاء والهدايا - أزرق لهم رجلي: أسرع لهم الخطو.

(٢) السمر: الرماح - المراع: الدور وأماكن النزول.

ذكر الاقتباس

وقلت يا ليت قومي يعلمون بما قد نلت كي يلحظوني باقتباسهم

الاقتباس: هو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية، أو آية من آيات كتاب الله خاصة، هذا هو الإجماع. والاقتباس من القرآن على ثلاثة أقسام: مقبول، ومباح، ومردود. فالأول، ما كان في الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبي ﷺ ونحو ذلك. والثاني، ما كان في الغزل والرسائل والقصص. والثالث على ضربين: أحدهما، ما نسبه الله تعالى إلى نفسه، ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه، كما قيل عن أحد بني مروان أنه وقع على مطالعة فيها شكاية من عماله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾^(١) والآخر تضمين آية كريمة في معنى هزل، ونعوذ بالله من ذلك، كقول القائل:

أوحى إلى عشاقه طرفه ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾^(٢)
وردفه ينطق من خلفه ﴿لمثل ذا فليعمل العاملون﴾^(٣)

ومن الاقتباسات التي هي غير مقبولة، قول ابن النبية في مدح الفاضل:

قمت ليل الصدود إلا قليلاً ثم رتلت ذكركم ترتيلاً
ووصلت السهاد أقبح وصل وهجرت الرقاد هجراً جميلاً
مسمعي كلَّ عن سماع عذول حين ألقى عليه قولاً ثقيلاً
وفؤادي قد كان بين ضلوعي أخذته الأحباب أخذاً وبيلاً^(٤)

(١) الغاشية، ٢٦/٨٨.

(٢) المؤمنون، ٣٦/٢٣.

(٣) الصافات، ٦١/٣٧، مع إبدال «ذا» ب «هذا».

(٤) وبيلاً: شديداً قاسياً.

قل لراقي الجفون إن لعيني في بحار الدموع سباً طويلاً
 ماس عجباً كأنه ما رأى غصناً طليحاً ولا كثيباً مهيباً
 وحمى عن محبه كاس ثغر كان منه مزاجها زنجيبلاً^(١)
 بان عني فصحت في أثر العيد س ارحموني ومهلوهم قليلاً
 أنا عبد للفاضل بن علي قد تبثلت بالثنا تبتيلاً^(٢)
 لا تسميه وعد بغير نوال ﴿إنه كان وعده مفعولاً﴾^(٣)
 ونعوذ بالله من قوله بعد ذلك:

جل عن سائر الخلائق فضلاً فاخترعنا في مدحه التنزيلاً

واعلم أن الاقتباس على نوعين: نوع لا يخرج به المقتبس عن معناه، كقول
 الحريري: فلم يكن إلا كلمح البصر أو أقرب، حتى أنشد فأغرب. فإن الحريري كنى به
 عن شدة القرب، وكذلك هو في الآية الشريفة. ونوع يخرج به المقتبس عن معناه، كقول
 ابن الرومي:

لئن أخطأت في مدحيك ما أخطأت في منعي
 لقد أنزلت حاجاتي ﴿بوادٍ غير ذي زرع﴾^(٤)

فإن الشاعر كنى به عن الرجل الذي لا يرجى نفعه، والمراد به في الآية الكريمة
 أرض مكة، شرفها الله وعظمها.

ثم اعلم أنه يجوز أن يغير لفظ المقتبس منه، بزيادة أو نقصان أو تأخير أو
 إبدال الظاهر من المضمرة أو غير ذلك، فالزيادة وإبدال الظاهر من المضمرة، كقول
 الشاعر:

كان الذي خفت أن يكونا إنا إلى الله راجعون

فزاد الألف في راجعون على جهة الإشباع وأتى بالظاهر مكان المضمرة في قوله: إنا
 إلى الله، ومراده آية التعزية في المصيبة، وهي قوله تعالى: ﴿إنا لله وإنا إليه

(١) الزنجيبيل: من المشروبات الروحية. وهو قريب من الخمرة.

(٢) تبثلت: انقطع لعبادته ومنه البتول مريم التي انقطعت لعبادة ربها.

(٣) مفعولاً: نافذاً - وسام: طلب. و«وعد» وردت بالرفع وكان حقها النصب «وعداً».

(٤) ابراهيم، ٣٧/١٤.

راجعون»^(١). والنقصان ما تقدم من قول الحريري: فلم يكن إلا كلمح البصر أو أقرب، فإنه أسقط لفظة هو، إذ الآية الكريمة لفظها: «كلمح البصر أو هو أقرب»^(٢). والتقديم والتأخير، كقول الشاعر:

قال لي إن رقيبني سيء الخلق فبداره
قلت دعني وجهك الجنة حفت بالمكاه

هذا الاقتباس من الحديث، فإنه تقدم أن الإجماع على جواز الاقتباس من القرآن ومنهم من عد المضمن في الكلام من الحديث النبوي اقتباساً، وزاد هنا الطيبي في الاقتباس من مسائل الفقه، والشاعر قدم في لفظ الحديث وأخر، لأن لفظ الحديث: حفت الجنة بالمكاه، ومن هنا يتبين لك قطع نظرهم في الاقتباس عن كونه نفس المقتبس منه، ولولا ذلك للزمهم الكفر في لفظ القرآن، والنقص منه، ولكنهم يأتون به على أنه لفظ القرآن، ومن أمثله الشعرية قول الحماسي:

إذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحب ميعاد السلو المقابر
سبقي لها في مضمرة الحب والحشا سرائر تبقى يوم تبلى السرائر^(٣)

ومنه:

أهدى إليكم على بعد تحيته حيوا بأحسن منها أو فردوها

ويعجبني هنا قول ابن سنا الملك في بعض مطالعه:

رحلوا فليست مسائلأ عن دارهم أنا باخع نفسي على آثارهم^(٤)

ومن لطائف هذا الباب قول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في معشوقه المسمى بالنسيم:

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذي أتلو لهم «يا ليتني كنت اتخذت مع الرسولا سبيلا»^(٥)

ومثله في الحسن، قول شيخ شيوخ حماة المحروسة رحمه الله تعالى:

(١) البقرة، ١٥٦/٢.

(٢) النحل، ٧٧/١٦.

(٣) السرائر: الأولى: الأسرار، والثانية: النوايا أو مكان الأسرار وتبلى: تختبر وتجرب.

(٤) باخع نفسه: قاهرها وقتلها غيظاً وغماً.

(٥) الفرقان، ٢٦/٢٥. بزيادة «كنت» عليها.

حتى انقضت وأدامتني على وجل
فقال لي ﴿خلق الإنسان من عجل﴾^(١)

بكى على حالي من لا بكى
يا أيها الإنسان ما غركا

ونهار مبسمه إذا جلاها
وبليل صدغيه إذا يغشاها
صدقت وأفلح من بذا زكاهها
قدألهمت بفجورها تقواها
والعدل منبعث له أشقاها

نزلوا بعين باصره
فإذا هم بالساهره^(٢)

وأسهرت الأجفان أجفانه الوسنى^(٣)
ترى السحر منه قاب قوسين أو أدنى

قال يا أهل الفتوة
فأعينوني بقوة^(٤)

برح بي موته وأذى
﴿يا ليتني مت قبل هذا﴾^(٥)

يا نظرة ما جلّت لي حسن طلعته
عاتبت إنسان عيني في تسرعه

ومثله: إن دمعت عيني فمن أجلها
أوقعتني إنسانها في الهوى

ومثله: قسماً بشمس جبينه وضحاها
وبنار خديه المشعشع نورها
لقد ادعيت دعاوياً في حبه
فنفوس عدّالي عليه وعدّري
فالعذر أسعدها مقيم دليله

ومنه قول القاضي محيي الدين بن قرناص:

إن الذين ترحلوا
أنزلتهم في مقلتي

ومنه قول الشيخ جمال الدين بن نباته رحمه الله تعالى:

وأغيد جارت في القلوب لحاظه
أجل نظراً في حاجبيه وطرفه

ومنه قول الشيخ زين الدين بن الوردي رحمه الله تعالى:

رب فلاح مليح
كفلي أضعف خصري

ومنه قول المعمار:

ابن الجمالي مات حقاً
ورحت أقرأ عليه جهراً

(١) الأنبياء، ٣٧/٢١. وإنسان العين: يؤبؤها.

(٢) الساهرة: من الأرض المنبسطة المطمئنة، وجهها.

(٣) الأغيد: الفتاة التي تتمايل في مشيها(العادة) - الوسنى: الناعسة.

(٤) الكفل: الردف أو العجيزة.

(٥) مريم، ٢٣/١٩.

ويعجبني في هذا الباب قول سيدنا الإمام القدوة، الحافظ الشيخ شهاب الدين بن حجر العسقلاني الشافعي، تغمده الله برحمته، وهو:

خاض العواذل في حديث مدامعي لما جرى كالبحر سرعة سيره
فحبسته لأصون سر هواكم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾^(١)

وقلت:

ناحت مطوِّقة الرياض وقد رأت تلوين دمعي بعد فرقة حبه
لكن به لما سمحت تباخلت فغدت مطوِّقة بما بخلت به

وهنا فائدة يتعين ذكرها في هذا الباب، وهي أن العلماء في هذا الباب قالوا: إن الشاعر لا يقتبس بل يعقد ويضمن، أما الناثر فهو الذي يقتبس كالمنشئ والخطيب، فمن ذلك قول الحريري: فطوبى لمن سمع ووعى، وحقق ما ادعى، ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾^(٢)، وعلم أن الفائز من ارعوى، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى﴾^(٣)، وقوله: ﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾^(٤)، وأميز صحيح القول من عليه. وكقول ابن نباتة الخطيب في الخطب التي في ديوانه: أما أنتم بهذا الحديث تصدقون، ما لكم لا تشفقون، ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾^(٥).

قلت: وأما عبد المؤمن الأصفهاني، صاحب أطباق الذهب، فإنه عنوان هذا الكتاب، وإمام هذا المحراب، فمن قوله في الأطباق: فمن عاين تلوين الليل والنهار لا يغتر بدهره، ومن علم أن بطن الثرى مضجعه لا يمرح على ظهره، فيا قوم لا تركضوا خيل الخيلاء في ميدان العرض، ﴿أمتتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾^(٦). وقوله: ولو علم الجذل صولة النجار، وعضة المنشار، لما تناول شبرا، ولا تخايل كبرا، وسيقول البلبل المعتقل ليتني كنت غراباً، ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾^(٧)، وقوله:

الله تحت قباب العز طائفة أخفاهم في رداء الفقر إجلالاً

(١) النساء، ٤/١٤٠.

(٢) النازعات، ٧٩/٤٠.

(٣) النجم، ٣٩/٥٣ و ٤٠.

(٤) يوسف، ١٢/٤٥.

(٥) الذاريات، ٥١/٢٣.

(٦) الملك، ٦٧/١٦.

(٧) النبأ، ٧٨/٤٠.

هم السلاطين في أطمار مسكنة
هذي المكارم لا ثوبان من عدن
هذي المناقب لا قعبان من لبن
استعبدوا من ملوك الأرض أقبالا (١)
خيطا قميصاً فعادا بعد أسمالا
شييا بماء فعادا بعد أبوالا (٢)

هم الذين جبلوا براء من التكلف، ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ (٣) وقوله أهل التسييح والتقديس، لا يؤمنون بالتربيع والتسدیس، والإنسان بعد علو النفس، يجل عن ملاحظة السعد والنحس، وإن في الدين القويم، لشغلاً عن الزيغ (٤) والتقويم. الإيمان بالكهانة، باب من أبواب المهانة، فأعرض عن الفلاسفة، وغض بصرك عن تلك الوجوه الكاسفة، فأكثرهم عبدة الطبع، وحرسة الكواكب السبع، فما للمنجم الغبي، وما للكاهن الأجنبي، وسرٍ حُجِبَ عن غير النبي، وهل ينخدع بالقال إلا قلوب الأطفال، وإن أمراً جهل حال قومه، وما الذي يجري عليه في يومه، كيف يعرف حال الغد وبعده، ونحس الفلك وسعده، وإن قوماً يأكلون من قرصة الشمس (٥) لمهزولون، وإنهم عن السمع لمعزولون، ما الموات إلا مجاهل والكواكب ضواها، وما النجوم إلا هياكل سبعة ومن الله قواها، كلٌ يسري لأمر معمي، ﴿وكلٌ يجري لأجل مسمى﴾ (٦).

وقوله: الحرص يسبل على وجوه الظلمة براقعا، والظلم يدع الديار بلاقعا (٧)، يرضون طيب الحياة وينسون يوم النشور، ويفتكون فتك البراة ويؤملون عمر النسور. فلا تغرنك من الظلمة كثرة الجيوش والأنصار، ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ (٨). وقوله: اغتنم فودك (٩) الفاحم قبل أن يبيض، فإنما الدنيا جدار يريد أن ينقض، فلا يغرنك قطفها النضيج هو ﴿غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج﴾ (١٠) وقوله في آخر مقالة من الأطباق: تلك أمة قد خلت ذكروا الله في الخلوات، ﴿فخلف من بعدهم خلف

(١) الأطمار: الثياب البالية - الأقبال: جمع مفرده قيل وهو الملك العظيم.

(٢) المناقب: الأعمال الجليلة - قعبان: مثني قعب وهو القدح الضخم أو وعاء الحلب.

(٣) البقرة: ٢٧٣/٢.

(٤) الزيغ: خيط البناء الذي يمد على الحائط لتضبيب المداميك.

(٥) فرصة الشمس: عينها.

(٦) الرعد، ٢/١٣ وفاطر، ١٣/٣٣٥، والزمر، ٥/٣٩.

(٧) بلاقع: مقفرة.

(٨) إبراهيم، ٤١/١٤.

(٩) الفود: جانب الرأس مما يلي الأذنين إلى الأمام. الشعر الذي عليه.

(١٠) الحد، ٢٠/٥٧.

أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات»^(١). وقوله: أصدق الأرواح روحان ممتزجان، وأخلص القلوب قلبان يزدوجان، يتصاحبون «قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم»^(٢)، وآخرون «يقولون بألستهم ما ليس في قلوبهم»^(٣). وقوله لله دره: فيا هذا لا تحسد المتنعم على ترفه، ولا تغبط المتكبر على شرفه، وقل له إذا برزت الجحيم وقدم له الحميم، «ذق إنك أنت العزيز الكريم»^(٤). وقوله: أليس من الخسران جزار يأكل الميت، ومكّي لا يزور البيت، فلا تكن كالجمال الطليح^(٥) يحمل لغيره أسفاراً، ولأنك «كالحمار يحمل أسفاراً»^(٦).

قلت: هذا القدر الذي أوردته هنا كافٍ في الاقتباسات التي تليق بمواعظ الخطب، فيتعلم بليغ الخطباء منها سلوك الأدب، ولم يبق إلا إظهار نور الاقتباس من مشكاة نور المترسلين، فإنهم ملوك هذا الشأن، ومن استضاء بسحر اقتباسهم قال إن هذا إلا سحر مبین. [ومن ذلك] قول مالك أزمة هذا الفن القاضي الفاضل من تقرّظ ورأيت كل معترض غيره لصناعة البديع لاهجاً بالبدعه خارجاً عن الشرعه، دارجاً في غير عشه، مخرجاً ميت القول من طرسه على نعشه، فهي المدام وما دون فهم عنها قدام، ووفود بلاغة لو وجهت إلى الجنة لقال رضوانها «ادخلوها بسلام»^(٧) وكل ابنة فكر ما طالعت فكره إلا صاح لسان طربه «يا بشرى هذا غلام»^(٨) وكل غصن ألف وكل همزة حمام، وفيها وفيها، وأخاف أن أقول ولا أوفيها، وليت هذه المحاسن وليت الأسماع، وألقت القناع، وفي العمر مستمتع، وفي قوس الشبيبة منزع، ولكن ضاق فتر عن مسير، وجاء فضلها الأوّل في الزمن الأخير، وقد حان أن تخيب في البلاغة القدحان^(٩)، وأنى وإنه «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان»^(١٠).

وقوله: لا زالت الملوك تنزل لركوبه، والسيوف تضحك لقطوبه، وأسبغ عليه نعمه باطنة وظاهره، وكتب له في الدنيا حسنة وفي الآخرة، وغض عيون أعدائه فإذا هم

(١) مريم، ٥٩/١٩.

(٢) آل عمران، ١٩١/٣.

(٣) آل عمران، ١٦٧/٣.

(٤) الدخان، ٥٩/٤٤.

(٥) الطليح: المهزول المجهود.

(٦) الجمعة، ٥/٦٢.

(٧) الحجر، ٤٦/١٥.

(٨) يوسف، ١٩/١٢.

(٩) القدحان: جمع مفردة قدح وهو ما كان يستقسم به أو قدح: وهو الإناء.

(١٠) يوسف، ٤١/١٢.

بالساهرة (١). وقوله: وقف الخادم على الكتاب فارتقى إلى سماء المكرمات وكانت سطره درجا، وأضاءت في خاطره فما استمدت مداداً ولكن أذكت سرجاً، ونهجت له طريق السعادة فلله من كتاب لولا الغلو لقلنا من كتاب ﴿لم يجعل له عوجاً﴾ (٢). وقوله: ورد على الخادم الكتاب الكريم فشكره وقربه نجياً ورفع مكاناً علياً، وأعاد عليه عصر الشباب وقد بلغ من الكبر عتياً. وقوله: كتبها الخادم وقد أخرجت السماء أثقالها، وفتحت من العز إليّ أقبالها، وركضت الرعود لابسة من الغيم جلالها، وثوب الليل بالغمام غسيل، وسبح (٣) الظلام بسيف البروق قتيل. وقد زادت السيول إلى أن صارت الخيام عليها فواقع، وهمهم الرعد قارئاً فاستقبلت قبابها بين ساجد وراكع، وكان الصباح قد ذاب في الليل قطراً، وكان البرق لما ساوى الغمام بين صدفي الليل والنهار قال: أتوني أفرغ عليه قطراً. وقوله: ونفذت بلاغته بسلطانها، ونفتت بسحر بيانها، وصلي القلم من يده في محراب، ومن طرسه على سجادة وجاء منه كتاب، لو كان البحر مداداً لما زاده، وكم كتاب لا يساوي مداده ﴿وأخذت الأرض زخرفها﴾ (٤) وحملت من الأسلحة أحرفها، وشنت الغارة على السمع والبصر، فسلم لها من سلم وبهت الذي كفر. وقوله: النوبة البغدادية الحديث فيها زائد وناقص، والخبر عنها مشوب وخالص، وابن أبي عصرون قوم يقولون قد وزر، وقوم يقولون كلا لا وزر. وقوله: وقفت على تلك الألفاظ المجنسة التي هي ذرية بعضها من بعض، وثمرات الجنة فكلما رزقت منها رزقاً قلت كقول أهلها: الحمد لله الذي أورثنا الأرض.

وقوله: ومما يجب أن يعانیه تربية الحمام التي سكنت في البروج فهي أنجم، وأعدت كنانتها للحاجات فهي أسهم، وقد كادت أن تكون من الملائكة فإذا نيطت بها الرقاع، صارت أولي أجنحة مثني وثلاث ورباع. وقوله: وعملوا الأبرجة الخشبية، وزحفوا بها إلى الأبراج الحجرية، وخصوصاً إلى برج يعرف بالذباب، ولكن حماه ذباب السيف الإسلامي من الذباب، فلم يقدرُوا أن يستنقذوه، وضعفوا عنه فسلبهم أرواحهم ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه﴾ (٥). وقوله: والإسلام مد إلى تراهه باعاً طويلاً، وألقى عليه الشرك من أسنة السيوف قولاً ثقيلاً، وحصون العدو قامت قيامتها فحالها اليوم كيوم

(١) الساهرة: من الأرض المنبسطة المطمئنة. وجهها.

(٢) الكهف، ١/١٨.

(٣) السبح: نوع من الخرز أسود اللون، وسبح الليل سواده.

(٤) يونس، ٢٤/١٠.

(٥) الحج، ٧٣/٢٢.

تكون الجبال كثيباً مهيباً. وقوله، مما كتب به عن السلطان الملك الناصر إلى أمير المؤمنين المستضيء بالله، وهو: سلام قولاً من رب رحيم ﴿وروح وريحان وجنة نعيم﴾^(١)، مملوك العتبات الشريفة وعبدها، ومن اشتمل على خاطره ولاؤها وودها، ينهى أن الله سبحانه شرف ملة الإسلام على الملل، ودولة أمير المؤمنين على الدول، وقد أقام سيفه حساب الكفرة فأظهر تحريف حسابها، ونقلها من ظهور أسرتها إلى بطون ترابها، فهل ترى لهم من باقيه، أو تسمع لهم من لاغيه، وظلت أقحاف بني حام تحت غربان الفلاة غربانا، وشوهدت ظلمات بعضها فوق بعض أفعالاً وألواناً. وعزت سيوف الإسلام فظلت أعناقهم لها خاضعين، وعوتبت منهم الأنفس والرؤوس فقالتا أتينا طائعين.

ومن اقتباسات القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر البديعة، قوله، من رسالته التي كتبها عن السلطان الملك الظاهر إلى شمس الدين آق سنقر الفارقاني، جواباً عن كتابه الذي أرسله بفتوح النوبة، لما توجه إليها من الديار المصرية، [وهو]: أدام الله نعمة المجلس ولا زالت عزائمه مرهوبه، وغنائمه مجلوبة ومحبوبة، وسطاه وخطاه هذي تكفي النوب^(٢) وهذه تفتح أرض النوبة، ولا برحت وطأته على الكفار مشتده، وآمالها لهلاك الأعداء كرماحه ممتده، ولا عدمت الدولة بيض سيوفه التي يرى بها الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة. صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس تثنى على عزائمه التي دلت على كل أمر رشيد، وأتت على كل جبار عنيد، وحكمت بعدل السيف في كل عبد سوء ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾^(٣) والله يشكر تفاصيل همم المجلس وجملها، وآخر غزواته وأولها، وإذا انسلخ نهار سيفه من ليل هذا العدو يعود سالماً إلى مستقره، ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾^(٤).

وقوله: في وصية العهد الشريف الذي أنشأه للسلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل، عن والده الملك المنصور قلاوون الصالحي رحمه الله، وهو: والشرع الشريف هو قانون الحق المتبع، ومأمون الأمر المستمع، به يتمسك من يمتاز^(٥) ويمتاز، وهو جنة والباطل نار، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز.

[ومن ذلك] اقتباس العلامة أبي طاهر إسماعيل بن عبد الرزاق الأصفهاني، في

(١) الواقعة، ٨٩/٥٦.

(٢) النوب: الكوارث والمصائب.

(٣) فصلت، ٤٦/٤١.

(٤) يس، ٣٨/٣٦.

(٥) إمتاز: وامترى: شك وجادل.

رسالة القوس وهو صورة مركبة، ليس لها من تركيب النظم، إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم.

[ومن ذلك] ما أورده الشيخ جمال الدين بن نباتة من الاقتباسات البديعية، في رسالة السيف والقلم، فرقى الأنامل على أعواده وقام خطيباً بمحاسنه في خلعة سواده، والتفت إلى السيف فقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾^(١) الحمد لله الذي علم بالقلم، وشرفه بالقسم، وخط به ما قدر وقسم، وصلى الله على سيدنا محمد القائل: جف القلم بما هو كائن، وعلى آله وصحبه ذوي المجد البين وكل مجد بائن، صلاة واضحة السطور، فاتحة أدراج الصدور، ما نقلت عن صحائف البحار غواديها، وكتبت أقلام النور على مهارق الرياض حكمة باريها.

أما بعد: فإن القلم منار الدين والدنيا، وقصة سباق ذوي الدرجة العليا، ومفتاح باب اليمن المجرب إذا أعبى، وسفير الملك المحجب، وعذيق الملك المرجب^(٢)، وزمام أموره السائره، وقادمة أجنحته الطائرة، وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة، به رقم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل، وسنة نبيه ﷺ التي تهذب الخواطر الخواطل^(٣). فبينه وبين من يفاخره الكتاب والسنة، وحسبه ما جرى على يده الشريفة من منة، إن نظمت فرائد العلوم فالقلم سلكتها، وإن علت أسرة الكتب فإنما هو ملكها. هذا، وهو الجاري بما أمر الله به من العدل والإحسان، والمسود الناظر فكأنما هو لعين الرأي إنسان، طالما قاتل على البعد والصوارم في القرب، وأوتي من المعجزات نوعاً من النصر والرعب، لا يعاديه إلا من سفه نفسه، ولبس لبسه، وطبع على قلبه، وفل الجدل من غربه، وكيف يعادى من إذا كرع من نفسه^(٤). فقل: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾^(٥) وإذا ذكر شأنه فقل: ﴿إن شأنك هو الأبر﴾^(٦). فعند ذلك نهض السيف عجباً، وتلمظ لسانه للقول مرتجلاً، وقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم... وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾^(٧).

(١) القلم، ١/٦٨ و ٢.

(٢) العذيق: الذكي اللبق - والمرجّب: المبيّج، المعظم والمهيب.

(٣) الخواطل: جمع خاطل وهو خطأ الرأي، والخواطر بمعنى الآراء.

(٤) النفس: المداد.

(٥) الكوثر، ٣/١٠٨.

(٦) الكوثر، ١/١٠٨.

(٧) الحديد، ٢٥/٥٧.

الحمد لله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف، وشرع حدها في ذوي العصيان فأغصتهم بماء الحتوف، وشيد بها مراتب الذين يقاتلون في سبيله صفاً، كأنهم بنيان مرصوص وعقد مرصوف، وصلى الله على سيدنا محمد هازم الألوف، وعلى آله وأصحابه الذين طالما محوا بريق الصوارم من سطور الصفوف، وسلم.

أما بعد فإن السيف زند الحق القوي وزنده الوري، به أظهر الله الإسلام وقد جنح خفاء، وجلا شخص الدين الحنفي وقد جمح جفاء، وأجرى سيوله بالأباطح فأما الحق فمكث وأما الباطل فذهب جفاء، وحملته اليد الشريفة النبوية، وخصته على الأقلام بهذه المزية، وأطلعت في ليالي النقع^(١) والشك سراجا وهاجا، وفتح باب الدين إلى أن دخلت فيه الناس أفواجا، فهو ذو العزم الثاقب، وسماء المجد الذي زين آثاره بزينة الكواكب، والحد الذي كأنه ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، تحسم به أدواء الفتن المضلة، وتحذف هممه الجازمة حروف العلة، ويحيى من سماء القتام بالضرب فقل: يسألونك عن الأهله، يجلس على رؤوس الأعداء قهرا، ويصرع أبناء الشجاعة قائلاً للقلم: ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا. وهل يفاخر من وقف الموت على بابه، وعضت الحرب الضروس بنابه، وقذف شياطين القراع بشهبه، ومنح آيات شريفة منها طلوع الشمس من غربه، ومنها أن الله أنشأ برقه، وكان للمارد مصرعا، وللرائد مرتعا، ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾^(٢) فقام القلم في دواته وقعد، واضطرب على وجه القرطاس وارتعد، وانحرف إلى السيف وقال أيها المضر بطبعه، المغر بلمعه، الناقض حبل الأنس بقطعه، الناسخ بهجره من ظلال العيش فياً، السراب الذي يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، الحبيس الذي طالما عادت عليه عوائد شره الكمين، الإبلis الذي لو أمر لي بالسجود لقال ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾^(٣)، فاقطع عنك أسباب المفخرة واستر من نابك في هذه المكاشرة، فما يحسن بالصامت محاورة المفصح، والله يعلم المفسد من المصلح، أولست الذي قيل فيه:

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم؟!

فدع عنك هذا الفخر المديد، وتأمل قدرى إذا كشف عنك الغطاء ﴿فبصرك اليوم حديد﴾^(٤).

(١) النقع: الغبار الذي يحجب الرؤية.

(٢) الروم، ٢٤/٣٠.

(٣) الأعراف، ١٢/٧.

(٤) حديد: قوي جداً. ق، ٢٢/٥٠.

قلت: ولولا خشية الإطالة لأوردت هنا رسالة السيف والقلم بكمالها، ولكن في هذا القدر من نور اقتباسه ما يهتدي به الأعشى، ويستغني بإنشائه عن سلافة الإنشا.

ومن غريب اقتباسات الشيخ جمال الدين أيضاً، ما كتب به مع منقذ نحاس، [وهو قوله فيه]: طالما حمدت معاشرته ولذت في الليالي مسامرتة، وأطلع من أفقه نجوماً سعيدة القرآن، وتلا على الريح والثلج ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾^(١). [ومن ذلك] بديع الاقتباس للشيخ زين الدين بن الوردي في خطبته في الكلام على المائة غلام. [وهو]: لعمرى ما أنصفتني من أساء بي الظن، وقال إني رضيت مع درجة العلم بهذا الفن، والصحابة كانوا ينظمون وينثرون، ونعوذ بالله من قوم لا يشعرون. [ومن ذلك] قوله في توقيع عدالة بعض الشهود بحلب المحروسة، [وهو]: الحمد لله الذي شاد رتبة العدالة وحماها، وجعلها همة من شرفت نفسه فركت ﴿وقد أفلح من زكاها﴾^(٢) وعصمة من فرقة في قلوب الحكام من نار تدليسهم وقود، ﴿وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾^(٣). [ومن ذلك] ما كتب به عنه وعن أخيه يوسف: وإذا عني الصاحب بالأخ رفقاً وإحساناً، تلونا ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا﴾^(٤)، والله يعلينا بعلوك، وبلغنا مرجونا ببلوغ مرجوك، حتى يقول أولاد الصاحب عنا ﴿ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾^(٥). [ومن ذلك] ما كتب به بقية السلف، الشيخ زين الدين أبو بكر العجمي، على قصيدتي الكافية البرهانية، تقریظاً أشرفت أقطار الأدب بنور اقتباسه، والاقتباس في التقریظ: فیا له من قصيد رد عیون أعیان هذه الصناعة من الحياء مطرقة، تالية على من قاسها بامرئ القيس ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾^(٦). [ومن ذلك] ما كتب به الشيخ برهان الدين القيراطي إلى الشيخ جمال الدين بن نباتة: يقبل الأرض التي سقت السماء نباتها، وعمر الله بمعاني الحسن أبياتها.

[منها]: فلا غرو أن فصح بديع الزمان بلفظه البديع، وأزهرت الأوراق بمتشور رسائله التي كل فصل منها ربيع، وخجلت صفحة الخد المنمنمة بطراز العذار المرقوم، وقالت الكؤوس حين شبهت في إمالة الأعطاف بألفاظه وما منا إلا له مقام معلوم. [ومنها]:

(١) الرحمن، ٣٥/٥٥.

(٢) الشمس، ٩/٩١.

(٣) البروج، ٧/٨٥.

(٤) يوسف، ٦٥/١٢.

(٥) يوسف، ٨/١٢.

(٦) النساء، ١٢٩/٤.

فسبحان من أسرى بها في ليل نفسها إلى المحل الأقصى، وجباها بالفضل الذي لا يحصى، وأبنت دوحتها في رياض الفصاحة، ونمق حداثتها التي لو فتح النرجس عينه في عينها لنسب إلى الوقاحة. فتبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس بلاغته بروجاً، وأعلى هممه التي لا ترضى الشهب جياداً والأهلة سروجاً، حتى أقام يراع قلمه لسوق الأدب قصبه، وشاد من قصائده كل بيت إذا مر الحاسد ببابه قبل العتبه، وسارت كالسبعة السيارة مصنفاته، وعلت من قصره المشيد بسيئات سطوره شرفاته، وفديت بالمباسم والقُدود ميماته وألفاته، وزهت أمداحه المؤيدية فأصبت بيوته المرفوعة ذت العماد، وراقت محاسنها التي لم يخلق مثلها في البلاد، وفضحت لسهلها الممتنع أدباء العصر الذين جابوا الصخر بالواد. [ومنها]: طالما سرح الناظر في بستانها منظره، ورام ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباتي فوجدها مسكروه، وعلم المتنبّي أن هذا خاتم الأدباء لا محاله، والمترسل الذي نهض دونه بأعباء كل رساله، وأقام بتقديمها على غيرها براهين الاحتجاج، وقال الملحي عندما قابل بحرهما الحلو ببحره ﴿هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾^(١).

ومن ذلك ما نقلته من خط صاحب فخر الدين بن مكاس، تغمده الله برحمته [وهو]: ورد علينا شخص من أهل القيروان ضرير، يسمى عبد الله الزغبى يتعاطى نظم الشعر المقفى الموزون الخالي عن المعاني، فتردد إليّ في مجالس متفرقة، ثم بلغني أنه وشى إلى صاحبنا الشيخ زين الدين بن أبي بكر العجمي، عين كتاب الإنشاء الشريف، أنني اهتضمت جانبه، وانتقصته وغضيت منه بالنسبة إلى الأدب، وأنه يستعين بكلام الغير كثيراً فتأذى من ذلك. وتأذيت من كذب الناقل، فكتبت: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾^(٢) بلغني، بلغ الله سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب الشاعر الناظم الناثر المحقق الأمة الكاتب الحجة زين الدنيا والدين قرة عين الكرام الكاتبين، أقصى ما ينتهي إليه تنافس المتنافس، وتبتهج به صدور الأولياء والرؤساء والمجالس، ولا زال زينة يحلّي به العاطل، ويظل تحت جناح أدبه القائل، من غيبة ذلك الضرير، ما لا خشي الله فيه بظهر الغيب، ونقل إلى المسامع الكريمة ما لا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الريب، ولكن لا غناء لسيف ذهن المملوك الكليل من التنصل، ولا بد من نهلة اعتذار على سبيل التعلل. وكان المملوك يترب سبباً للمطارحة، فهذا المغتاب الآن صار عنده محموداً، إذ كان السبب لحسن التوسل إلى صناعة الترسل. [ومنها] فلو اختلف الأدباء على إمام لأهل هذه

(١) فاطر، ١٢/٣٥.

(٢) النور، ٦١/٢٤.

الصناعة مطهر من الأرجاس، لقال لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصل بالناس، فكيف يسوغ للمملوك أن يدعي غير هذا، وكيف ولمَ ولماذا؟ أحسداً على الأدب فما أهجرتي له من عصر الصبا بحمد الله وما أغناني، أو تفاخراً بالنظم فما أشغلني عنه بتدبير الممالك بما عناني. نعم، وإن كان جوهر الألفاظ مما يحسد عليه فما أزهديني والله في هذا العرض الفاني. [ومنها] والمسؤول من احسانه أمران: الجواب فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة، والآخر رد كل فاسق عن الباب العالي فإن أبا بكر أول من تصلب في الرِّدَّة^(١). وبلغ المملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمية كهذه فأصمى، وتردد إليه مرة أخرى ﴿فعبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾^(٢).

[ومن ذلك] ما كتبت به إلى المقر الصحابي الفخر المشار إليه بعد توجيهي من خدمته إلى دمشق المحروسة، ومشاهدتي ما قدر الله عليها من الحريق والحصار من قبل الملك الظاهر، سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وهذه الرسالة التي سارت بها الركبان، وجاء لبديع الاقتباس في معانيها بيان، [وهي]: يقبل الأرض التي من يممها أو تيمم ترابها حصل له الفخر والمجد، فلا برح هيام الوفود إلى أبوابها أكثر من هيمان العرب إلى ربا نجد، ولا زالت فحول الشعراء تطلق أئنة ألفاظها، وتركض في ذلك المضمار، وتهيم بواديها الذي يجب أن ترفع فيه على أعمدة المدائح بيوت الأشعار، وينهى بعد أشواق أمست العين بها في مجاري العين معتره، ولو لم يقر إنسانها بمرسلات الدمع لقلت في حقه ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾^(٣) وصول المملوك إلى دمشق المحروسة فيا ليته قبض قبل أن يكتب عليه ذلك الوصول، ودخوله إليها والله لقد تمنى خروج الروح عند ذلك الدخول. [ومنها]: وتطرقت بعد ذلك إلى الحدادين ولقد نادتهم النار بلسانها من مكان بعيد ﴿أتوني زبر الحديد﴾^(٤). ولقد كان يوم حريقها يوماً عبوساً قمطيرياً، ضج المسلمون فيه من الخيفة وقد رأوا سلاسل وأغلالاً وسعيراً. يا مولاي لقد لبست دمشق في هذه المآتم السوداء، وطبخت قلوب أهلها وسلقوا من الأسنة بالأسنة حداد، ولقد نشفت عيونهم من الحريق واستنشقوا فلم ينشقوا رائحة الغاديه، وكم رؤي في ذلك اليوم وجوه يومئذ خاشعة، عاملة ناصبة تصلى ناراً حاميه، وكم رجل تلا عند لهيب بيته ﴿تبت يدا أبي لهب﴾^(٥) وخرج هارباً، وامراته حمالة الحطب.

(١) الرِّدَّة: الارتداد عن الدين.

(٢) عبس، ٢/٨٠.

(٣) عبس، ١٧/٨٠.

(٤) الكهف، ٩٦/١٨.

(٥) المسد، ١/١١١.

[ومنها]: ونظرت بعد ذلك إلى القلعة المحروسة، وقد قامت قيامة حربها حتى قلنا ﴿أزفت الأزفة﴾^(١) وستروا بروجها من الطارق بتلك الستائر وهم يقولون ﴿ليس لها من دون الله كاشفه﴾^(٢). [ومنها]: وتناول إلى السور المشرف، وقد فضل في علم الحرب وحفظ أبوابه المقفلات، فما وقفنا على باب إلا وجدناه لم يترك خلفه لصاحب المفتاح تلخيصاً لما أبداه من المشكلات، فلا وايك لو نظرت يوم الحرب وقد تصاعدت فيه أنفاس الرجال، لقلت ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد، وإلى المحاصرين وقد جاؤوا فارساً وراجلاً ليشهدوا القتال لقلت ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾^(٣)، وإلى كواكب الأسنة وقد انتشرت وإلى قبور الشهداء وهي من تحت أرجل الخيل قد بعثت، وإلى كرف الفوارس وفرها لقلت ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾^(٤). [ومنها]: وتصفحنا بعد ذلك فاتحة باب النصر فعوذته بالإخلاص^(٥) وزدت لله شكراً وحمداً، وتأملت أهل الباب وهم يتلون لأهل البلد سورة الفتح وللمحاصرين ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً﴾^(٦) وكم طلبوا فتحه ولم يجدوا لهم طاقة وضرب بينهم بسور له باب ﴿باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾^(٧). [ومنها]: هذا وكم من مؤمن قوم خرج من دياره حذر الموت وهو يقول النجاة وطلب الفرار، وكلما دعاه قوم لمساعدتهم على الحريق ناداهم وقد عدم الاضطراب: ﴿يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾^(٨). [ومنها]: فأعيد ما بقي من السبعة بالسبع المثاني والقرآن العظيم، فكم رأينا بها يعقوب حزن رأى سواد بيته فاصفر لونه ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾^(٩). [ومنها]: وتوصلت إلى ظاهر كيسان، فأنفقت كيس الصبر لما افتقرت من دنائير تلك الأزهار والدراهم رباها، وكابرت إلى أطراف الباب الصغير فوجدت فاضل النار لم يغادر منها ﴿صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾^(١٠). [ومنها]: هذا وكم خائف قبل اليوم آويناها بها إلى ربوة ذات قرار، وكم كان بها مطرب طير خرج بعدما كان يطرب على عود وطار.

(١) النجم، ٥٣/٥٧ و ٥٨.

(٢) ق، ٥٠/٢١.

(٣) الانفطار، ٨٢/٥.

(٤) الإخلاص: من سور القرآن الكريم، وتسمى: التوحيد. والصمد.

(٥) تيس، ٣٦/٩.

(٦) الحديد، ٥٧/١٣.

(٧) غافر، ٤٠/٤١.

(٨) يوسف، ١٢/٨٤.

(٩) الكهف، ١٨/٤٩.

وأضحت أوقات الربوة بعد ذلك العيش الخضل واليسر عسيرة، ولقد كان أهلها ﴿في ظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة﴾^(١).

ومن ذلك، ما أنشأته قديماً في توقيع لمولانا قاضي القضاة، علاء الدين عالم المسلمين، أبي الحسن علي الحنبلي جمل الله الوجود بوجوده، بنظر البيمارستان^(٢) النوري بحماة المحروسة. والذي أوردته في التوقيع، من الاقتباسات البديعة، قولي: وصفت مشارب الصفاء بعد الكدر ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾^(٣) وتلا من سعى لهم في ذلك وجزي بالخيرات، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً، ودار شراب العافية على أهل تلك الحضرة بالطاس والكاس، وحصل لهم البرء من تلك البراني^(٤) التي يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، وتمشت الصحة في مفاصل ضعفائه وقيل لهم: جوزيتم بما صبرتم، وامتدت مقاصيرهم ﴿وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم﴾^(٥).

[ومن ذلك]، ما اقتبسته في ديباجة عهد مولانا أمير المؤمنين المعتضد بالله، زاده الله شرفاً وتعظيماً، وهو: الحمد لله الذي شد عضد هذه الأمة بمن أمسى به معتضداً، وأسعفنا من البيت النبوي بخليفة ما برح شيخ الملوك في تقديم بيته الشريف مجتهداً، وأقام العلم العباسي بعد أبي مسلم بأبي النصر فأكرم بحسن الختام وحسن الابتداء، وتكرر حمده على سلطان مؤيد أتخف به العلماء الأعلام، وظهر لجلالهم في أيامه الزاهرة بهجة فقال: هذا زمان مشايخ الإسلام، نحمده على حكمته التي اقتضت أن تكون الخلافة عمدة الأحكام يزول بها الالتباس، وهو القائل تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس﴾^(٦).

[ومن ذلك] ما اقتبسته في عهد مولانا السلطان الملك الظاهر ططر، بقولي منه: فإن البغاة لاحتجاب السلطنة عنه سدا أسسته على الطغيان، فقيل لأهل البيعة قد فتح الله لأبي الفتح ﴿فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾^(٧).

(١) ال ٣٢/٥٦.

(٢) البيمارستان: فارسية معربة بمعنى العيادة والمستشفى.

(٣) الإنسان، ٢١/٧٦.

(٤) البراني: جمع مفردة برينة وهي إناء من فخار.

(٥) الزمر، ٧٣/٣٩.

(٦) ص، ٢٦/٣٨.

(٧) الرحمن، ٣٣/٥٥.

[ومن ذلك]، ما اقتبسته في مثال شريف مؤيدي، كان جواباً لقرا يوسف: وتبدى لعلمه الشريف ورود البشير بالقرب اليوسفي، وقل حل بالأسماع قبل رؤيته تشنف، وهبت نسيمات قبوله فأطفأت ما في القلوب من التلهف، وضاع نشرها اليوسفي فقال شوقنا اليعقوبي ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾^(١) وهذه ألفة خولتنا في نعم الله وزمام الأخوة منقاد إلينا، وقد تعين على المقر أن يقول ﴿أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا﴾^(٢).

[واتفق لي] في تقليد قاضي القضاة، ولي الدين العراقي اقتباسات بديعية [منها]: وكم قال هذا المنصب رب قد أضعفني اليتيم وصار الباطل قوياً فهب لي من لدنك ولياً. [ومنها]: وأعادنا الله من ولاية قوم يسمعون بينة الحق وإذا اجتمعوا على الرشوات، تفرقوا واختلّفوا من بعد ما جاءهم البيّنات.

[ومن ذلك]، ما كتبه على ديوان المقر البارعي الكاملي الأديبي العمادي، إسماعيل ابن الصائغ الحلبي، أحد أعيان كتاب الإنشاء الشريف الذي عارض به ديوان الصبابة، للشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة رحمه الله، وهو: وقفت على هذا الكتاب الذي رفع عماد الأدب في هذا الجيل، وشرعت في ذكر محاسنه فقال لسان القلم واذكر في الكتاب إسماعيل. [ومنه]: وأما ابن حجة فقد ندب إلى الوقفة على عرفات هذا الفضل المعروف، والامتثال هنا واجب ولكن الكف صفر والطريق مخوف. هذا وقد ذوت من حدائق فكري زهرة الشباب، واختفى لساني كما قال ابن نباتة وأغلق عليه من شفّيته مصراعي باب، وخمد جمر القريحة وجمد ذلك الذهن السيال، ونأى عن خدمتي كافور الطروس وعبر المداد وصواب المقال، ولكن هبت عليّ نسيمات الشبية من دوحة هذا المصنف الجليل، فقلت وقد شبت نار القريحة وأمّلت عليّ هذا الوصف الجميل: الحمد لله الذي وهب لي على الكبير إسماعيل.

وهذا القدر الذي أوردته كاف هنا في الاقتباس من القرآن، فإنني أخشى. باب الملاة، ولكن عنّي لي أن أفرد كتاباً وأسميه «رفع الالتباس عن بديع الاقتباس»، وقد تقدم وتقرر أيضاً أنه إن جاء في المنظوم فهو عقد وتضمنين، وإن كان في المنشور فهو اقتباس. وقد أوسع بعض علماء هذا الفن المجال في ذلك، فذكر أن الاقتباس يكون في مسائل الفقه، وقال بعضهم: إذا قلنا بذلك فلا معنى للاقتصار على مسائل الفقه، بل يكون في غيره من العلوم. وعلى هذا التقدير تعين أن نورد هنا ما وقع من الاقتباس في الحديث

(١) يوسف، ٩٤/١٢.

(٢) يوسف، ٩٠/١٢.

النبوي وبقية العلوم، بحيث لا يخلو هذا الشرح الغريب من الغرائب، فإن الظاهر من كلامهم أن الاقتباس مقصور على القرآن والحديث. فمما وقع من الحديث النبوي قول الصحاب بن عباد:

أقول وقد رأيت له سحابا من الهجران مقبلة إلينا
وقد سحت غواديها بهطل حوالينا الصدود ولا علينا

الصحاب اقتبس من قوله عليه الصلاة والسلام، حين استسقى وحصل نزول مطر عظيم: اللهم حوالينا ولا علينا.

[ومنه] قول أبي الحسن علي بن المفرج المنجم، لما احترقت دار الوجيه بن صورة بمصر:

أقول وقد عاينت دار ابن صورة وللنار فيها مارج يتضرم^(١)
كذا كل مال أصله من نهاوش فعما قليل في نهاير يعدم^(٢)
وما هو إلا كافر طال عمره فجاءته لما استبطأته جهنم

اقتبس من قوله ﷺ: من أصاب مالا من نهاوش أهلكه الله في نهاير. النهاوش: بالنون المظالم. والنهاير: المهالك، الواحد نهبور.

[ومنه] قول شمس الدين محمد بن عبد الكريم الموصللي:

ومنكر قتل شهيد الهوى ووجهه ينبىء عن حاله
اللون لون الدم من خده والريح ريح المسك من خاله

اقتبس من قوله ﷺ، في وصف دم الشهيد: اللون لون الدم، والريح ريح المسك.

ومن اقتباسات الحديث في النثر، قول الحريري في المقامات: إنما الأعمال بالنيات، وبها انعقاد العقود الدينيات. ومنه قوله: شامت^(٣) الوجوه. وقبح اللكع^(٤) ومن يرجوه. اقتبس من قوله ﷺ يوم حنين، وقد رمى الكفار بكف من الحصى: شامت الوجوه.

(١) المارج: الشعلة - يتضرم: يلهب.

(٢) النهاوش: المظالم - النهاير: جمع مفردة نُهْبْرَة وهي الحفرة بين الآكام.

(٣) شامت الوجوه: قبحت.

(٤) اللكع: اللثيم الخسيس.

ويعجبني من المنظوم، هنا، قول الشيخ شهاب الدين أبي جعفر بن مالك الأندلسي
الغرناطي:

لا تعاد الناس في أوطانهم كلما يرعى غريب في الوطن
وإذا ما شئت عيشاً بينهم خالق الناس بخلق ذي حسن
اقتبس من قوله عليه السلام، لأبي ذر: اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها،
وخالق الناس بخلق حسن. وهذا الحديث صحيح.

ومن الاقتباس في مسائل الفقه، في المنظوم، قول بعضهم:

أقول لشادن في الحسن أضحى يصيد بلحظه قلب الكمي^(١)
ملكك الحسن أجمع في نصاب فأدر زكاة منظر كالبهي
فقال أبو حنيفة لي إمام يرى أن لا زكاة على الصبي
وإن تك مالكي الرأي. أو من يرى رأي الإمام الشافعي
فلأنك طالباً مني زكاة فأخرج الزكاة على الولي

ومثله قول أبي العلاء، أحمد بن سليمان المعري:

أيا جارة البيت الممنع جاره غدوت ومن لي عندكم بمقيل
لغيري زكاة من جمال فإن تكن زكاة جمال فاذكري ابن سبيل
ومما ينسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله:
خذوا بدمي هذا الغزال فإنه رمانى بسهمي مقلتيه على عمد
ولا تقتلوه إنني أنا عبده وفي مذهبي لا يقتل الحر بالعبد
ومنه قول القاضي عبد الوهاب المالكي:

يزرع ورداً ناضراً ناظري في وجنة كالقمر الطالع
فلم حرمت شفتي قطفها والحكم أن الزرع للزارع
وله أيضاً:

ونائمة قبلتها فتنبهت وقالت تعالوا فاطلبوا اللص بالحد^(٢)
فقلت لها إنني فديتك غاصب وما حكموا في غاصب بسوى الرد^(٣)

(١) الشادن: الغزال تشبه به الحسناء - اللحظ: النظر - الكمي: الشجاع.

(٢) الحد: قصاص معلوم وهو القصاص الشرعي، منه حد الزنى وحد السرقة.

(٣) الرد: إرجاع المغصوب وهو المأخوذ عنوة وبالقوة.

ومنه قول أبي الطيب المتنبي :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمه
قفي تغرمي الأولى من اللحظ مهجتي بشانية والمتلف الشيء غارمه^(١)
المعنى أن النظرة الأولى أتلفت مهجتي، فلزم غرمها بنظرة ثانية، لأنه من أتلف
شيئاً حكم عليه بغرمه، ولكن في التركيب قلق وعقادة.

[ومنه]: قول شمس الدين محمد بن جابر الأندلسي رحمه الله تعالى :

طلبت زكاة الحسن منها فجاوبت إليك فهذا ليس تدركه مني
عليّ ديون للعيون فلا ترم زكاة فإن الدين يسقطها عني
ومنه قول الشيخ صدر الدين بن الوكيل :

يا سيدي إن جرى من مدمعي ودمي للعين والقلب مسفوح ومسفوك
لا تخش من قود يقتص منك به فالعين جارية والقلب مملوك^(٢)
ومن الاقتباسات، في علم المنطق، قول شمس الدين محمد بن العفيف التلمساني :

للمنطقيين أشتكى أبداً عين رقيب فليته هجعا
صا درها من أحبه فأبى أن نختلي ساعة ونجتمعا
كيف غدت دائماً وما انفصلت مانعة الجمع والخلو معا

وهذه الأبيات في غاية الحسن، ولكن أورد بعضهم إيراداً وقال: ظاهر كلامه
التعجب من هذه القضية، والمراد في مثل هذا أن يتعجب مما خرج عن القواعد. وهذه
القضية موجودة مستعملة، وذلك قولهم: العدد إما زوج وإما فرد، فهذه القضية مانعة
الجمع فإن الزوجية والفردية لا يجتمعان، ومانعة الخلو فإن العدد لا يخلو من أحدهما،
فلا معنى للتعجب.

ومنه قول بعضهم :

مقدمات الرقيب كيف غدت عند لقاء الحبيب متصله
تمنعنا الجمع والخلو معا وإنما ذاك حكم منفصله

(١) غارم: كافل ضامن - والمتلف: المفسد.

(٢) القود: الثار، والقصاص.

هذا تعجب مما يسوغ التعجب منه، لأن منع الجمع لا يكون في المتصلة؛ وإنما هو في حكم المنفصلة.

وأما الاقتباس، في علم الجدل، فمنه قول شمس الدين بن العفيف:

وما بال برهان العذار مسلماً ويلزمه دور وفيه تسلسل
وعندي أن الشمس بالضحو آذنت وسكري أراه من محياك يقبل

وأما الاقتباس، من علم النحو، فقد اتسع مجالهم فيه، حتى غلب على غالبهم التوجيه، فمنه قول أبي الطيب:

حولي بكل مكان منهم حلق تخطي إذا جئت في استفهامها بمن

أبو الطيب يقول إذا استفهمت عن مثل هؤلاء الأقسام لا تستفهم بمن لأن من لمن بعقل وهؤلاء عندي بمنزلة ما لا يعقل، فحقهم أن يستفهم عنهم بما. ومنه قوله:

إذا كان ما ينويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

يقول إذا هم بفعل أوقعه، قبل أن يمنع وينهى عنه. ويقال له: لا تفعل، أو ينفي فيقال: لم يفعل. ومنه قول ابن عنين في معزول:

فلا تغضبني إذا ما صرفت فلا عدل فيك ولا معرفه

ومنه قول ابن أبي الأصبع في ذلك:

أيا قمرأ من حسن وجنته لنا وظلّ عذاريه الضحى والأصائل
جعلتك للتمييز نصباً لناظري فهلا رفعت الهجر فالهجر فاعل

قلت: ومن أغرب ما وقع في هذا الباب، أن شرف الدين محمد بن عنين مرض فكتب إلى الملك المعظم هذين البيتين:

أنظر إليّ بعين مولى لم يزل يولي الندى وتلاف قبل تلافِي^(١)
أنا كالذي أحْتَاج ما يحتاجه فاغنم ثنائي والدعاء الوافي^(٢)

فجاءه الملك المعظم يعوده ومعه ألف دينار، وقال له: أنت الذي، وأنا العائد، وهذه الصلة.

(١) يولي: يعطى - الندى: العطاء - تلاف: أمر من تلافى أي اجتنب وتحاش - وتلافِي: هلا؟

(٢) الثناء: المدح - الوافي: الكثير.

ومنه قول البهاء زهير:

بالله كوني ألف الوصل

يا ألفاً من قده أقبلت

ومنه قول الأمير أمين الدين علي السليماني:

فطال ولولا ذاك ما خص بالجر
على شرطها فعل الجفون من الكسر

أضيف الدجا معنى إلى لون شعره
وحاجبه نون الوقاية ما وقت

ومنه قول شمس الدين بن العفيف:

وليس فيه سواه ثاني
وما التقى فيه ساكنان

يا ساكناً قلبي المعنى
لأي معنى كسرت قلبي

أما البيتان، فإنهما في غاية اللطف، ولكن أوردوا عليهما أيضاً إيراداً حسناً، وهو أن الساكنين إذا اجتمعا كسر أحدهما، وهو الأول وكلامه في البيتين أن المكسور غير الاثني.

ومنه قول ابن الوردي:

عند خباز فلما أن عرف^(١)
يصرف الشاعر ما لا ينصرف

شاعر أخرج نصفاً زغلاً
قال لم تصرف هذا قال مه

قلت: قد أتيت في معنى هذه النكتة، بما هو أبداع من بيت زين الدين بن الوردي، وما ذاك إلا أن مولانا المقر الأشرف القاضي الناصري، محمد بن البارزي الجهني الشافعي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف، رحمه الله، أحالني على شهاب الدين الذهبي بخمسين ديناراً، ومطل بها مدة، فكتبت إليه:

ولكم في الورى هبات كثيرة
صرفها جوائز لأجل الضروره

قد منعمت صرف الدنانير عني
وأنا شاعر وفي شرع نظمي

ويعجبني في هذا الباب إلى الغاية، قول الشيخ زين الدين بن الوردي رحمه الله تعالى:

ما المبتدا والخبر
فقلت أنت القمر

وأغيد يسألني
مثلهما لي مسرعاً

وحكي أنه كان بالعراق غلامان، أحدهما اسمه عمر، والآخر أحمد، فعزل عمر عن عمله وولي أحمد مكانه بسبب ما وزنه، فقال بعض الشعراء في ذلك:

(١) الزغل: الغش.

أيا عمر استعد لغير هذا
وكل منكما كفوء كريم
فيصدق فيك معرفة وعدل
ومنه قول الفاضل:

لي عندكم دين ولكن هل له
فكأنني ألف ولام في الهوى
ويعجبني، في الاقتباس من علم العروض، قول القائل:

ويقلبي من الجفاء مديد
لم أكن عالماً بذاك إلى أن
ويسيط ووافر وطويل
قَطَع القلب بالفراق الخليل

وهذا القدر كاف، في الاقتباس من القرآن والحديث النبوي ومسائل الفقه والمنطق وعلم العربية والعروض وغيره، وقد تقدم أن الاقتباس مقصور على القرآن والحديث في النشر، وأما في النظم فهو عبارة عن عقد وتضمنين.

ونظام البديعيات لم يقتبسوا من غير القرآن، وبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعته قوله:

هذي عصاي التي فيها مآرب لي
وبيت العميان:

وقد أهش بها طوراً على غنمي^(١)
ذو مرة فاستوى حتى دنا فرأى
وقيل سل تعط قد خيرت فاحتكم^(٢)
وبيت الشيخ عز الدين:

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم
ولا اقتباس يرى من هذه الأطم^(٣)
وبيت بديعتي قولي:

وقلت يا ليت قومي يعلمون بما
قد نلت كي يلحظوني باقتباسهم^(٤)

(١) أهش: أهول، وأنهر. والبيت عبارة عن قوله تعالى على لسان النبي موسى ﷺ بعد سؤاله: ﴿وما

تلك يمينك يا موسى، قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾.

(٢) مرة: قوة - استوى: استقام والبيت إقتباس لقوله تعالى: ﴿علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى﴾.

(٣) البيت إقتباس لقوله تعالى في معرض حديثه عن قوم عاد: ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ الأحقاف، ٢٥/٤٦. والأطم: الحصون أو البيوت العالية، جمع أطم وأطوم.

(٤) البيت اقتباس لقوله تعالى: ﴿يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ يس،

٢٧/٣٦.

ذكر السهولة

يا رب سهل طريقي في زيارته من قبل أن تعتريني شدة الهرم
السهولة: ذكرها التيفاشي مضافة إلى باب الظرافة، وشركها قوم بالانسجام، وذكرها
ابن سنان الخفاجي في كتاب «سر الفصاحة»، فقال في مجمل كلامه: هو خلوص اللفظ
من التكلف، والتعقيد والتعسف في السبك.

وقال التيفاشي: السهولة أن يأتي الشاعر بألفاظ سهلة تتميز على ما سواها عند من
له أدنى ذوق من أهل الأدب، وهي تدل على رقة الحاشية، وحسن الطبع وسلامة الروية.
ومن ألطف الأمثلة، [عليها] قول الشاعر:

إذ ما تبت عن ليلي تتوب ليس وعدتني يا قلب أني
فما لك كلما ذكرت تذوب فها أنا تائب عن حب ليلي

ومنه قول أبي العتاهية:

إليه تجرر أذيالها أتته الخلالة منقادة
ولم يك يصلح إلا لها فلم تكن تصلح إلا له

ومذهبي: أن البهاء زهير، قائد عنان هذا النوع وفارس ميدانه، فمن ذلك قوله:

ومدام من رضاب بحباب من ثنايا
كان ما كان ومنه بعد في النفس بقايا

ومثله قوله: إن أمري لعجيب ما يرى أعجب منه
كل أرض لي فيها غائب أسأل عنه

كما علمت وأزید
به ضميرك يشهد
قطعت يومي كله لم أرك
فليتني أعرف من غيرك
سيدي أوحشت عبدك
مثل ما أذكر عهدك
مثل ما أحفظ ودك
مسرعاً أو شئت عندك
فتفضل أنت وحدك
قد زاد فيك غرامه
فرق حتى كلامه
مثل النسيم سلامه

ومثله قوله: شوقي إليك شديد
وكيف تنكر شيئاً
ومثله قوله: أوحشتني والله يا مالكي
هذا جفاء منك ما اعتدته
ومثله قوله: سيدي قلبي عندك
أترى تذكر عهدي
أترى تحفظ ودي
قم بنا إن شئت عندي
أنا في داري وحدي
ومنه قوله: هذا كتاب محب
أضناه فرط اشتياق
أما ترى كيف أضحي

ومنه قوله:

قد نفحت من حباب ميسمه^(١)
سكران يشتط في تحكمه^(٢)
عن نار وجدي وعن تضرّمه^(٣)
رسالة من فمي إلى فمه
يذكره الناس من تكرمته
رب خذ الحق من معلمه

كلمني والمدام في فمه
وماس كالغصن في تمايله
بالله يا برق هل تحدثه
وهل نسيم سرى يبلغه
عجبت من بخله عليّ وما
هم علموه فصار يهجرني

وقال، ويكاد يسيل رقة وسهولة:

أموراً من فراقك أشتكيها
رخيصاً لم أجد من يشتريها
يكن فيها يكن فيما يليها
لمولانا علو الرأي فيها

كبت إليك أشكو في كتابي
وفي سوق الهوان عرضت نفسي
فهل وعد إلى سنة فإن لم
وقد أنهيت من شوقي فصولاً

ومثله في الرقة والسهولة قوله:

فانحط قدري لديكم

ملكتموني رخيصاً

(١) الحباب: المحبوب.

(٢) ماس: تمايل - يشتط: يجور.

(٣) الوجد: شدة الشوق - التضرّم: شدة الاشتعال.

دخلت منه إليكم
ولا السلام عليكم

فاغلق الله باباً
حتى ولا كيف أنتم

والطف منه قوله :

قل قسمني لديكم
والتفاتي إليكم
وسلام عليكم

أنا أدري بأنني
فإلى كم تطلعي
كان ما كان بيننا

والطف منه قوله :

فلم تأخرت عنا
حللت ما قد عقدنا
ولو يكون علمنا
قلنا وقلنا وقلنا

أما تقرّر أنا
وما الذي كان حتى
ولم يكن لك عذر
فلا تلمنا فإننا

ومنه قوله :

قال ما تطلب مني قلت شي
وثناه التيه عني لا إلي^(١)
آه لو أفعل ما كان عليّ

قال ما ترجع عني قلت لا
فانثنى يحمر مني خجلاً
كدت بين الناس أن أئثمه

وقطعت تلك الناحيه
واخلع ثياب العاربه
تلك الشمائل باقيه
قلب رقيق الحاشيه
فيه من الطرب القديم بقية في الزاويه

ومنه قوله : قالوا كبرت عن الصبا
فدع الصبا لرجاله
ونعم كبرت وإنما
ويميلني نحو الصبا
فيه من الطرب القديم بقية في الزاويه

وقال، وزناً وقافية وسال برقته :

من لي بقلب أشتريه من القلوب القاسيه
ح وقفت أشكو حاله
ليست عليك بخافيه
هبة وإلا عاربه^(٢)

وإليك يا ملك الملا
إنني لأطلب حاجة
أنعم علي بقبله

(١) ثنى : ردّ - التيه : الخيلاء والتكبر.

(٢) عاربه : إغارة.

وأعيدها لك لا عدمت بعينها وكما هيه
 وإذا أردت زيادة خذها ونفسي راضيه
 ومنه قوله: إن شكا القلب هجركم مهد الحب عذركم
 لو أمرتم بما عسى ما تعديت أمركم
 قصروا عمر ذا الجفا طول الله عمركم
 شرفوني بزورة شرف الله قدركم
 كنت أرجو بأنكم شهركم لي ودهركم
 قد نسيتم وإنما أنا لم أنس ذكركم
 لو رأيتم محلكم من فؤادي لسركم
 لو وصلتكم محبكم ما الذي كان ضرركم

ومن المرقص في هذا الباب قوله:

تعيش أنت وتبقى أنا الذي مت عشقا
 حاشاك يا نور عيني تلقى الذي أنا ألقى
 ولم أجد بين موتي وبين هجرك فرقا
 يا أنعم الناس بالآ إلى متى فيك أشقى
 سمعت عنك حديثاً يا رب لا كان صدقا
 وما عهدتك إلا من أكرم الناس خلقا
 لك الحياة فإنني أموت لا شك حقا
 يا ألف مولاي مهلا يا ألف مولاي رفقا^(١)
 قد كان ما كان مني والله خير وأبقى
 وبيت الشيخ صفي الدين في السهولة قوله:

وقلت هذا قبول جاءني سلفاً ما ناله أحد قبلي من الأمم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. ولا وجدته في بديعية الشيخ عز الدين
 الموصللي، إلا أن يكون في نسخة غير التي نقلت منها، وعلى كل تقدير فالشيخ عز
 الدين قدم العقادة في بيته على السهولة.

وبيت بديعيتي:

يا رب سهل طريقي في زيارته من قبل أن تعتريني شدة الهرم

(١) الرّفق: اللطف والتمهل.

ذكر حسن البيان

حتى يث بديعي في محاسنه حسن البيان وأشدو في حجازهم

حسن البيان: قالوا هو عبارة عن الإبانة عما في النفس، بعبارة بليغة بعيدة عن اللبس، إذ المراد منه إخراج المعنى إلى الصورة الواضحة، وإيصاله إلى فهم المخاطب بأسهل الطرق، وقد تكون العبارة عنه تارة من طريق الإيجاز، وطوراً من طريق الإطناب، بحسب ما يقتضيه الحال، وهذا بعينه هو البلاغة وحقيقتها. وفي البيان: الأقبح، والأوسط، والأحسن. فالأقبح، كبيان باقل وقد سئل عن ثمن ظبي في يده، فأراد أن يقول أحد عشر، فأدركه العي، حتى فرق أصابعه وأدلع لسانه فأفلت الظبي. ومن هنا يعلم أنه ليس كل إيجاز بلاغة، ولا كل إطالة عيباً، فإنه لا إيجاز في الأفهام أوجز من بيان باقل، لأن المخاطب فهم عنه بمجرد نظرة واحدة. وقد ضرب به المثل بالعي في بيانه. وكان الأحسن أن يقول: أحد عشر. والأوسط: أن يقول: ستة وخمسة، أو عشرة وواحد.

والنور المبين في هذا الباب، بيان القرآن الكريم، كقوله تعالى، وقد أراد أن يحذر من الاغترار بالنعم: ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾^(١). وكقوله سبحانه وتعالى: وقد أراد أن يبين عن الوعد: ﴿إن المتقين في مقام أمين﴾^(٢)، وكقوله سبحانه، وقد أراد أن يبين عن الوعيد: ﴿إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين﴾^(٣)، وكقوله تعالى، في الاحتجاج القاطع للخصم: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي

(١) الدخان، ٢٥/٤٤.

(٢) الدخان، ٥١/٤٤.

(٣) الدخان، ٤٠/٤٤.

خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق
عليم^(١). وكقوله تعالى، وقد أراد أن يبين عن العدل: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا
عنه^(٢)﴾، وأمثال هذا الباب كثيرة لمن يتبعها في القرآن.

ومما جاء من ذلك في الشعر قول أبي العتاهية:

يضطرب الخوف والرجاء إذا حرك موسى القضيبي أو فكرا

وكقول الآخر:

له لحظات في خفايا سريرة إذا كرّها فيها عتاب ونائل^(٣)

فإن هذين الشاعرين أرادوا مدح هذين الممدوحين بالخلافة، ووصفهما بالقدرة
المطلقة وعظم المهابة، بعد الله سبحانه وتعالى، فإذا نظر أحدهما نظرة أو حرك القضيبي
مرة أو أطرق مفكراً، اضطرب الخوف والرجاء في قلوب الناس، فأبانا عن هذه المعاني
بأحسن إبانة.

وبيت الشيخ صفي الدين رحمه الله تعالى:

وعدتني في منامي ما وثقت به مع التقاضي بمدح فيك منتظم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين قوله:

حسن البيان بحمد الله بين لي هدي النبي الرضي الواضح اللقم^(٤)

وبيت بديعيتي قلت قبله، في السهولة:

يا رب سهل طريقي في زيارته من قبل أن تعتريني شدة الهرم

وقلت بعده، في حسن البيان:

حتى يث بديعي في محاسنه حسن البيان وأشدو في حجازهم

(١) يس، ٧٨/٣٦ و٧٩.

(٢) الأنعام، ٢٨/٦.

(٣) كرّها: كرّرها تكراراً.

(٤) اللقم: النهج والطريق.

ذكر الإدماج

قد عز إدماج شوقي والدموع لها على بهار خدودي صبغة العنم^(١)
هذا النوع، أعني الإدماج: هو أن يدمج المتكلم غرضاً له في ضمن معنى قد نحاه
من جملة المعاني، ليوهم السامع أنه لم يقصده، وإنما عرض في كلامه لتتمة معناه الذي
قصده، كقول عبد الله بن عبيد الله لعبد الله بن سليمان بن وهب، حين وُزِرَ للمعتمد، وكان
ابن عبيد الله قد اختلّت حاله فكتب لابن سليمان:

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا وأسعفنا في من نحب ونكرم
فقلت له نعماك فيهم أتمها ودع أمرنا إن المهم المقدم

فأدمج شكوى الزمان، وشرح ما هو عليه من الاختلال في ضمن التهئة، وتلطف
في التلويع، ورفق التخيل لبلوغ الغرض، مع صيانة نفسه عن التصريح بالسؤال. لا جرم
أن ابن سليمان فطن لذلك ووصله واستعمله.

ومن لطيف الإدماج قول ابن نباتة السعدي:

ولا بد لي من جهلة في وصاله فهل من حليم أودع الحلم عنده

ابن نباتة أدمج الفخر في الغزل فإنه جعل حلمه لا يفارقه البتة، ولا يرغب عنه
بنفسه جملة، وإنما عزم على أن يودعه، إذ كان لا بد له من وصل هذا المحبوب لأز
الودائع تستعاد، ثم استفهم عن الخل الصالح الذي يصلح لهذه الوداعة استفهاماً إنكارياً،

(١) العنم: شجر ذو ثمار حمراء، واحده عنمة - والبهار: الجمال أو تكون فارسية معربة بمعنى «الربيع».

فيكون مفهوم الخطاب: بقيا حلمه لعدم من يصلح للوداعة، ثم ادمج في ضمن الفخر الذي أدمجه في الغزل شكوى الزمان لقلّة الأخوان، بحيث أنه لم يبق منهم من يصلح لهذا الشأن، ومنه قول ابن المعتز في وصف الخيري:

قد نقض العاشقون ما صنع السـدهر بألوانهم على ورقه
قصد وصف الخيري بالصفرة، وأدمج فيه وصف ألوان العشاق.
وبيت الحلبي في الإدماج قوله:

لصدق قولك لو حب امرؤ حجراً لكان في الحشر عن مثواه لم يرم
هذا البيت فيه إدماج سؤاله حسن المحشر في زمرة النبي ﷺ، في طي تصديقه الحديث المأثور عنه.

وبيت العميان:

لهم أحاديث مجد كالرياض إذا أهدت نواسم أحييت دارس السلم
قال الشيخ أبو جعفر الشارح: إن الناظم جعل لهم أولاً أحاديث مجد طيبة. وأدمج في ذلك وصف الرياض.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي:

أدمجت شكواي من ذنبي بمدحته عساك تشفع لي يا شافع الأمم
الشيخ عز الدين ذكر أنه أدمج الشكوى من ذنبه، لكن نوع الإدماج البديعي لا أعلم أين أدمجه. والله أعلم.

وبيت بديعيتي:

قد عز إدماج شوقي والدموع لها على بهار خدودي صبغة العنم
هذا البيت أبدع من بيت ابن المعتز، وفيه زيادة وإدماج آخر. فإن ابن المعتز غاية قصده وصف الخيري^(١) بالصفرة، وأدمج فيه ألوان العشاق. وأنا قصدت شرح الحال في غرة إدماج الشوق بواسطة جريان الدمع، وأدمجت في ذلك صفرة اللون وحمرة الدموع. هذا ومحاسن التورية بتسمية النوع غير خافية على أهل الإنصاف من حذاق الأدب. والله أعلم.

(١) الخيري: نوع من الحمام.

ذكر الاحتراس

فإن أقف غير مطرود بحجرته لم أحترس بعدها من كيد مختصم
الاحتراس: هو أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه فيه دخل فيفطن له، فيأتي بما
يخلصه من ذلك ومثاله في كتاب الله عز وجل: ﴿أسلك يدك في جيبيك تخرج بيضاء
من غير سوء﴾^(١) فاحترس بقوله سبحانه وتعالى: من غير سوء، عن إمكان أن تدخل في
البرص والبهق^(٢) وغير ذلك، ومثال ذلك في الشعر، قول طرفة:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الغمام وديمة تهمي

فقوله: غير مفسدها احتراس من مقابله وهو محو معالمها، والفرق بين الاحتراس
والتتميم والتكميل أن المعنى قبل التكميل صحيح تام، ثم يأتي التكميل بزيادة تكمل
حسنه، إما بفن زائد أو معنى، والتتميم يأتي لتتميم نقص المعنى ونقص الوزن معاً،
والاحتراس إنما هو لدخل يتطرق إلى المعنى وإن كان تاماً كاملاً ووزن الشعر صحيحاً.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته قوله:

فوفني غير مأمور وعودك لي فليس رؤياك أضغاثاً من الحلم^(٣)

احتراس الشيخ صفي الدين، في قوله: غير مأمور، فإن لفظة وفني في البيت فعل
أمر، ومرتبة الأمر فوق مرتبة المأمور، فاحترس بقوله: غير مأمور.

(١) القصص، ٣٢/٢٨.

(٢) البهق: بياض في الجسد غير البرص.

(٣) أضغاث: جمع مفردة ضغث وهو الكلام لا خير فيه، وأضغاث أحلام: أحلام لا يمكن تأويلها
لالتباسها واختلاطها.

والعميان ما نظموا هذا النوع. وبيت الشيخ عز الدين:

حيي له يتمشى في المفاصل قل بالاحتراس تمشي البرء في السقم^(١)

قلت: الشيخ صفي الدين احترس في بيته، بقوله: غير مأمور. واحتراس الشيخ عز الدين عجزت عن تحقيقه بل عن تحقيق معناه، فإن هذا البيت مأخوذ من قول أبي نواس، في وصف الخمرة:

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

وبيت بديعيتي:

فإن أقف غير مطرود بحجرته لم أحترس بعدها من كيد مختصم

فقولي: غير مطرود، هو الاحتراس الذي يليق بمقام المادح، بالنسبة إلى مقام النبي ﷺ، والتورية باسم النوع في قولي: لم أحترس بعدها، محاسنها توري. والتكميل، بقولي: من كيد مختصم، هو الذي زاد محاسنها بهجة وكمالاً.



(١) احتراس الشيخ عز الدين في قوله «بالاحتراس». إذ يكون معنى البيت قل إن حيي له يتمشى في المفاصل تمشي البرء في السقم، واحترس بقوله «بالاحتراس» لئلا يخيل للسامع أن هذا التمشي على كل حال. والله أعلم.

ذكر براعة الطلب

وفي براعة ما أرجوه من طلب إن لم أصرح فلم أحتج إلى الكلم
هذا النوع من مستخرجات الشيخ عز الدين الزنجاني، في كتاب «المعيار». وهو أن
يلوح الطالب بالطلب، بالفاظ عذبة مهذبة منقحة مقترنة بتعظيم الممدوح خالية من
الإلحاف^(١) والتصريح، بل يشعر بما في النفس دون كشفه، كقول أبي الطيب المتنبّي:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب^(٢)
والفرق بين براعة الطلب وبين الإدماج، أن الإدماج أن يقدر معنى من المعاني، ثم
يدمج غرضه ضمنه ويوهم أنه لم يقصده، وهذا مقصور على الطلب فقط، وهو أيضاً فرق
بينه وبين الكناية. وبيت الشيخ صفي الدين قوله:

وقد علمت بما في النفس من أرب وأنت أكرم من ذكري له بفمي^(٣)
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم وبيت الشيخ عز الدين الموصلي رحمه الله
قوله:

براعة بان فيها منتهى طلبي وأنت أكرم من نطق بلا ولم
وبيت بديعيتي:

وفي براعة ما أرجوه من طلب إن لم أصرح فلم أحتج إلى الكلم

(١) الإلحاف: الرمز أو ما خفي معناه من الكلام، التلميح.

(٢) الفطانة: سرعة البديهة. والذكاء، وقوة الذاكرة مجتمعة.

(٣) الأرب: الحاجة الماسة.

ذكر العقد

قد صح عقد بياني في مناقبه وإنّ منه لسحراً غير سحرهم

العقد ضد الحل، لأن العقد نظم المنشور والحل نثر المنظوم. ومن شرائط العقد أن يؤخذ المنشور بجملة لفظه أو بمعظمه، فيزيد الناظم فيه وينقص ليدخل في وزن الشعر، ومتى أخذ بعض معنى المنشور دون لفظه كان ذلك نوعاً من أنواع السرقات، ولا يسمى عقداً إلا إذا أخذ الناظم المنشور برمته، وإن غير منه طريقاً من الطرق التي قدمناها كان المتبقي منه أكثر من المغير، بحيث يعرف من البقية صورة الجميع، كما فعل أبو تمام، في كلام عزى به الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الأشعث بن قيس، في ولده، وهو: إن صبرت صبر الأحرار، وإلا سلوت سلوّ البهائم. فعقده أبو تمام شعراً فقال:

وقال علي في التعازي لأشعثٍ وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاءً وحسبة فتؤجر أم تسلو سلوّ البهائم^(١)

وبيت الشيخ صفي الدين قوله:

ما شب من خصلتي حرصي ومن أمني سوى مديحك في شبيبي وفي هرمي

المقصود، في هذا البيت، من العقد، قول النبي ﷺ: يشيب ابن آدم ويشب فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين في بديعته

قوله:

(١) حسبة: أي تحتسب أجر الصبر عند الله سبحانه وتعالى.

عقد اليقين صلاتي والسلام على محمد دائماً مني بلا سأم

قلت: أما الشيخ صفي الدين فإني لم أصادف في بيته من عقد الحديث النبوي محلاً، ولكن ذكر فيه حكاية حاله. وأما الشيخ عز الدين غفر الله له فإنه ذكر، في شرحه، أن الصحابة رضي الله عنهم قالوا: يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ فقال ﷺ: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. وفي حديث آخر: قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم. وفي الحديث: أكثروا من الصلاة عليّ.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١). وذكر أنه عقد الآية والحديث، ولم يظهر لي حل هذا العقد في أي موضع هو من البيت.

وبيت بديعيتي:

قد صح عقد بياني في مناقبه وإن منه لسحراً غير سحرهم
العقد هنا قوله ﷺ: إن من البيان لسحراً. والله أعلم.



(١) الأحزاب، ٥٦/٣٣.

ذكر المساواة

تمت مساواة أنواع البديع به لكن يزيد على ما في بديعهم

هذا النوع، أعني المساواة، مما فرعه قدامة من ائتلاف اللفظ مع المعنى، وشرحه بأن قال: هو أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى، بحيث لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وهذا من البلاغة التي وصف بها بعض الوصاف بعض البلغاء فقال: كأن ألفاظه قوالب لمعانيه. ومعظم آيات الكتاب العزيز كذلك.

واعلم أن البلاغة قسمان: إيجاز وإطناب، والمساواة معتبرة في القسمين معاً. فأما الإيجاز فكقوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾^(١). والإطناب في هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل﴾^(٢). وقال سبحانه وتعالى، في قسم الإيجاز من غير هذا المعنى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾^(٣). وقال عز من قائل، في الإطناب: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾^(٤) الآية.

ولا بد من الإتيان بهذا الفصل، لثلا يتوهم المتأمل أن الإطناب لا يوصف بالمساواة. ومن الشواهد على المساواة قول امرئ القيس:

فإن تكتموا الداء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نقعد
وإن تقتلوننا نقتلكم وإن تقصدوا الذم لا نقصد

(١) البقرة، ١٧٩/٢.

(٢) الإسراء، ٣٣/١٧.

(٣) الأعراف، ١٩٩/٧.

(٤) النحل، ٩٠/١٦.

وقول زهير:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم^(١)

وقوا، طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً وبأتيك بالأخبار من لم تزود

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته قوله:

وقد مدحت بما تم البديع به مع حسن مفتوح منه ومختتم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته قوله:

خطت مساواة معناه وصورته في الحسن شاهده في نون والقلم^(٢)

وبيت بديعيتي في المساواة قولي:

تمت مساواة أنواع البديع به لكن يزيد على ما في بديعهم



(١) الخليقة: العادة والخصلة، والخلق - خال: ظن.

(٢) ن والقلم: سورة القلم من القرآن الكريم.

ذكر حسن الختام

حسن ابتدائي به أرجو التخلص من نار الجحيم وهذا حسن مختمي هذا النوع ذكر ابن أبي الأصبع أنه من مستخرجاته، وهو موجود في كتب غيره بغير هذا الاسم، فإن التيفاشي سماه «حسن المقطع»، وسماه ابن أبي الأصبع «حسن الخاتمة». وهذا النوع الذي يجب على الناظم والناثر أن يجعله خاتمة لكلامهما، مع أنهما لا بد أن يحسنا فيه غاية الإحسان، فإنه آخر ما يبقى في الأسماع، وربما حفظ من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فلا يحسن السكوت على غيره.

وغاية الغايات، في ذلك، مقاطع الكتاب العزيز في خواتم السور الكريمة. فمن المعجز في ذلك، قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بَأَن رَّبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا يَوْمئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١). أنظر أيها المتدبر هذه البلاغة المعجزة. فإن السورة الكريمة بدئت بأحوال يوم القيامة، وختمت بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [ومثله] قوله تعالى، في سورة عبس: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِيءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ، وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْوَدَّةٌ * عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْمَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ﴾^(٢). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وترى

(١) الزلزلة، ٧/٩٩ و٨.

(٢) عبس، ٣٤/٨٠-٤٢.

الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴿١﴾.

ومن كلام أمير المؤمنين، عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو المقدم في فنون البلاغة على بلغاء البدو والحضر، في ختام جواب كتاب كتب به إلى معاوية: ثم ذكرت أن ليس لي ولأصحابي عندك إلا السيف، فلقد أضحكت بعد استعبار، وإني مرقل (٢) إليك بجحفل من المهاجرين والأنصار، وقد صحبتهم ذرية بدرية، وسيوف هاشمية، عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك، وما هي من الظالمين ببيعد.

وأجمعوا، بعد ذلك، على أن فواصل المقامات يقوم غالبها مقام المثل السائر، وحسن خواتمها تعقد عليه الخناصر. [وقد عنّ لي] أن أورد هنا مقامة كاملة، فإذا نظر المتأمل إلى براعة استهلالها، وفهم القصد الذي جنح إليه الحريري، عرّف مقدار حسن الختام الذي تمت به الفائدة؛ وحسن السكوت عليه. [وقد اخترت المقامة الثالثة عشرة]، وهي الزورائية، لأنه ثبت عن القاضي الفاضل أنه شرع في معارضة المقامات، وعارض منها كل فصل بفصل أحسن منه، إلى أن وصل إلى فصل هذه المقامة الذي سيأتي وأنبه عليه في موضعه.

والمقامة الموعود بإيرادها هو قوله: [حكى الحرث بن همام] قال: ندوت (٣) بضواحي الزوراء، مع مشيخة من الشعراء، لا يعلق لهم مبار بغبار، ولا يجري معهم ممار (٤) في مضمار، فأفضنا في حديث يفضح الأزهار، إلى أن نصفنا النهار، فلما غاض در الأفكار، وصبت النفوس إلى الأوكار، لمحنا عجزاً تقبل من البعد، وتحضر إحضار الجرد (٥)، وقد استتلت صبية أنحف من المغازل، وأضعف من الجوازل، فما كذبت إذ رأتنا أن عرتنا، حتى إذا ما حضرتنا، قالت حيا الله المعارف. وإن لم يكن معارف. اعلموا يا مآل الأمل، وثمان الأرامل، أني من سروات القبائل، وسريات العقائل.

[والفصل الذي عجز الفاضل عنه، هو]: لم يزل أهلي وبعلي يحلون الصدر، ويسرون القلب ويمطون الظهر، ويولون اليد. فلما أردى الدهر الأعضاء، وفجع

(١) الزمر، ٧٥/٣٩.

(٢) أرقل: اسرع- والجحفل: الجيش الكثير العدد.

(٣) لم نشرح من هذه المقامة إلا الألفاظ التي لم يشرحها الكاتب إذ أنه يعود إلى شرح ما استعجم من مفرداتها بعد إتمامها.

(٤) المماري: المجادل المناقش.

(٥) الجرد: من الخيول: السريعة واحداً أجرد.

بالجوارح الأكباد، وانقلب ظهر البطن، نبا الناظر، وجفا الحاجب، وذهبت العين، ونفدت الراحة، وصلد الزند، ووهت اليمين، وبانت المرافق، ولم يبق لنا ثنية ولا ناب.

قلت: وهذا الفصل الذي أحجم القاضي عن معارضته، قلت في معناه، وكتبت إلى سيدنا قاضي القضاة صدر الدين بن الأدمي نور الله ضريحه، رسالة مجسده، مشتملة على ذلك جيده، راعيت فيها النظر، لأجل الصدر من الرأس إلى القدم، ولم أخرج فيها عن حسن الختام الذي ما ختمت رسالة بنظيره، والتزمت فيها السجع الذي فر الحريري منه في فصله. [وقد عنّ لي] أن أثبت الرسالة هنا بكما لها، وأرجع إلى ما كنا فيه من حسن الختام في المقامة الحريرية. [والرسالة هي]:

يقبل أرضاً بالعلا قد تجسدت بأرواح أهل العلم روضة مشتهى
وهبت بأنفاس العلوم قبولها ولا زال صدر الدين منشرحاً بها

وينهى أن الصدر رأس العلوم، وكم له من فرق دق على الأفهام، وهو كالغرة في جباه الأيام، لا زال المجد له حاجياً^(١) مقروناً بسعده الشامل، ولا برح بعلمه عيناً لوجوه المسائل. فلله أهداب معانيه التي هي أسحر من عيون الغزلان، وأمضى من السيوف إذا برزت من الأجفان، وأصدغ فضائله التي هي عاطفة على وجنات الوجود، لأنها كالعوارض الماطرة، وكم أنست عند ذكره من سالفه، وكم لها في قلوب الأعداء من حدود. وندى جوده الذي إذا جاءه الشارب وجد عنده شفاه، وحلاوة نظمه الذي أنسانا ذكر العذيب وثناياه، وعنق مكارمه التي ألفت من البديع الالتفات؛ وأوصافه التي غدت على خد الدهر شامات، حتى تبدلت سيئاته حسنات. كف عنا تعب الفقر بكرم راحته المتزايد، من غير أن يقال له ساعد. وشهدنا بأن أياديه بحر يفيض بصنائه. فأشار النيل إلى قبول هذه الشهادة بأصابه. فلله ندى يمينه الذي لم يزل المملوك به في بلاد الشام مكفى، وكم فاض منه قلب النيل وجهد أن يوفيه بالباع والذراع فما وفى. جبلت على محبته القلوب فصار حبه ظاهراً في كل باطن، وحنّت إليه الجوارح لما سارت مناقبه إلى كل جانب فحركت كل ساكن، ورفع المملوك أدعيته التي هي إن شاء الله تعالى نعيم للبدن الكريم، واعتدال اللطيف ذلك المزاج، وأثنيته التي هي كالمناطق على خصور الحسان وبها لكل قلب ابتهاج. لكن تناقلت^(٢) عليه أرداف النوى، وأسكنت في وسط لبه الجوى، وقده الانقطاع بسيفه الذي زاد في حده، ولكن جار في قده. ولو حصر المملوك

(١) حاجياً: ملازماً وسابقاً.

(٢) تناقلت: أصبحت ثقيلة، وفي النسخة المطبوعة «تناقلت» بالنون وما أثبتناه هو الصحيح، كما هو ظاهر.

ما ساق إليه البعد من الاشتياق إلى تقبيل الأقدام لم تسعه قائمه، وهو يعد القلب بالصبر، ولكن كما ذكر كعب عن مواعيد عرقوب، فنسأل الله حسن الخاتمة.

[رجع] إلى ما كنا فيه من تكملة المقامة الحريرية، والتنبيه على حسن ختامها. قال بعد الفصل المسجد الذي آخره: ولم يبق لنا ثنية ولا ناب. فمذ اغبر العيش الأخضر وازور المحبوب الأصفر، اسود يومي الأبيض، وابيض فودي الأسود، حتى رثى لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر. وتلوى من ترون عينه فراره، وترجمانه اصفراره، قصوى بغية أحدهم ثرده^(١)، وقصارى أمنيته برده. وكنت آليت أن لا أبذل الحر إلا للحر، ولو أني مت من الضر، وقد ناجتني القرونه، بأن توجد عندكم المعونه، وأذنتني فراسة الحوباء، بأنكم ينابيع الحباء، فنضر الله امرأ أبر قسمي، وصدق توسمي ونظر إليّ بعين يقذيها الجمود، ويقذيها الجود. [قال الحرث بن همام]: فهمنا لبراعة عبارتها وملح استعارتها، وقلنا لها: قد فتن كلامك، فكيف إلحامك. فقالت: يفجر الصخر ولا فخر، فقلنا لها: إن جعلتنا من رواتك، لم نبخل بمواساتك. فقالت: لأرينكم أولاً شعاري، ثم لأروينكم أشعاري. فأبرزت ردن درع دريس^(٢) وبرزت برزة عجوز درديس، وأنشأت تقول:

أشكو إلى الله اشتكاء المريض	جور الزمان المعتدي البغيض
يا قوم إني من أناس غنوا	دهراً وجفن الدهر عنهم غضيض
فخارهم ليس له دافع	وصيتهم بين الورى مستفيض
كانوا إذا ما نجعة أعوزت	في السنة الشهباء روضاً أريض
تشب للسايرين نيرانهم	ويطعمون الضيف لحماً غريض
ما بات جار لهم ساغباً	ولا لروع قال حال الجريض
فغيضت منهم صروف الردى	بحار جود لم أحلها تغيض ^(٣)
وأودعت منهم بطون الثرى	أسد التحامي وأساءة المريض
فمحلمي بعد المطايا المطا	وموطني بعد اليفاع الحضيض
وافرخي ما تأتلي تشتكي	بؤساً له في كل يوم وميض ^(٤)
إذا دعا القانت في ليله	مولاه نادوه بدمع يفيض
يا رازق النعاب في عشه	وجابر العظم الكسير المهيض

(١) الثردة: الخبز المشرود بمرق اللحم (الثريد) وقد كنى به عن تهاة الغاية.

(٢) دريس: بال.

(٣) غييض: الماء، غار في العمق ومنه قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغييض الماء﴾. لم أحلها: لم أظنها.

(٤) إئتلى: مل، ما تأتلي ما تنفك - الوميض: الإشارة الخفية أو اللمعان الخفيف.

أتح لنا اللهم من عرضه
 يطفىء نار الجوع عنا ولو
 فهل فتى يكشف ما نابهم
 فوالذي تعنو النواصي له
 لولاهم لم تبد لي صفحة
 من دنس اللؤم نقي رحيض
 بمذقة من جازر أو مخيض^(١)
 ويغنم الشكر الطويل العريض
 يوم وجوه الجمع سود وبيض^(٢)
 ولا تصدبت لنظم القريض

[قال الراوي]: فوالله لقد صدعت بأبياتها أعشار القلوب، واستخرجت خبايا الجيوب، حتى ماحها من دينه الامتياح، وارتاح لرفدها من لم تخله يرتاح، فلما افوعم جيها تبرا، وأولاها كل منا برا تولت يتلوها الأصاغر، وفوها بالشكر فاغر، فاشرأبت الجماعة بعد ممرها إلى سبرها، لتبلو مواقع برها، فكفلت لهم باستنباط السر المرموز، ونهضت أقفو أثر العجوز، حتى انتهت إلى سوق مغتصة بالأنام، مختصة بالزحام، فانغمست في الغمار، وأملست من الصبية الأغمار، ثم عاجت بخلو بال، إلى مسجد خال، فأماطت الجلباب، ونضت النقاب، وأنا ألمحها من خصائص الباب وأرقب ما ستبدي من العجاب، فلما انسرت أهبة الخفر، رأيت محيا أبي زيد قد سفر، فههمت بأن أهجم عليه، لأعنفه على ما أجرى إليه، فاستلقى استلقاء المتمردين، ثم رفع عقيرة المغردين، واندفع ينشد:

يا ليت شعري أدهري أحاط علماً بقدري
 وهل درى كنه غوري في الخدع أم ليس يدري
 كم قد قمرت بنيه بحيلتي وبمكري
 وكم برزت بعرف عليهم وبنكر
 أصطاد قوماً بوعظ وآخرين بشعر
 واستفزز بخل عقلاً وعقلاً بخمر
 وتارة أنا صخر وتارة أخت صخر^(٣)
 ولو سلكت سبيلاً مألوفة طول عمري
 لخاب قدحي وقدحي ودام عسري وخسري
 فقل لمن لام هذا عذري فدونك عذري

[قال الحرث بن همام]: فلما ظهرت على جلية أمره، وبديعة أمره، وما زخرف في

(١) المذقة: الشربة - الجازر: اللبن - المخيض: اللبن الذي سُحب منه الدسم بواسطة المخض.
 (٢) تعنوا: تخضع - النواصي: جمع مفردة ناصيه وهي مقدم الشعر من الرأس وكنى بها عن الرأس.
 (٣) صخر: : هو ابن عمرو الشريد أخو الخنساء الشاعرة واسمها تماضر بنت عمرو الشريد.

شعره من عذره، علمت أن شيطانه المرید لا یسمع التفتید^(١)، ولا یفعل إلا ما یرید، فثنیت إلى أصحابی عنانی، وأبشثهم ما أثبتہ عیانی، فوجموا لضیعة الجوائز، وتعاهدوا علی محرمة العجائز.

[قلت]: قد علمت أيها المتأمل أن هذه المقامة البديعة بنيت على ترهات هذه العجوز، وما زخرفته من الباطل، في نظمها ونثرها، الذي خلب كل منهما القلوب وسلب عقول السامعين إلى أن بالغوا في إكرامها. فلما كشف لهم الغطاء عن جميع ما نمقته، وتحققوا أنه بني على الباطل، كانت الخاتمة. فوجموا لضیعة الجوائز، وتعاهدوا علی محرمة العجائز.

والألفاظ المحتاجة إلى الحل، في هذه المقامة، هي قوله: ندوت أي حضرت النادي، والجوازل: فراخ الحمام، واحداها جوزل. وعرتنا قصدتنا: يقال عراه واعتراه. والمعارف: الوجوه. والمعارف الثانية: من المعرفة. وثمان القوم: من يقول بأمرهم. وسروات القبائل: السرو: وهو السخاء والمروأة. واحد السروات سراة، لا يجوز أن يكون سراة بالضم. وسريات: جمع سرية، وهي العقيلة السخية. والقلب: هنا قلب العسكر. ويمطون الظهر: أي يحملون المنقطع. ويولون اليد: أي النعمة، وأردى: أهلك. والأعضاء: جمع عضد، وهو ما يمسك الشيء ويقويه. والجوارح: هنا الأعضاء التي تجرح. وقوله: وانقلب ظهراً لبطن: المراد به عكس الحال. ونبا: ارتفع. والحاجب: صاحب الأمير. وصلد الزند: أي لم يور. ووهت: أي ضعفت. واليمين: القوة. والثنية: الناقة التي لها ستة أعوام. والنباب: المسنة. واغبر العيش: أي تكدر. وازور: مال. والمحجوب الأصفر: هو الدينار. وفودي: مدغي. والموت الأحمر: كناية عن الفقر. والعدو الأزرق: الشديد العداوة، والأصل فيه: العطش، وبه فسر قوله تعالى: ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً﴾^(٢) أي عطاشاً. وتلوى تابعي وعينه قراره: أي عيانه يغنيك عن اختباره، وفي المثل: إن الجواد عينه فرارة. أي عيانه. وقصارى أمره: أي آخر أمره. وآليت: أي حلفت. وأبذل الحر: أي الوجه. والقرونة: النفس. والحوباء: النفس أيضاً. ونضر: بمعنى حسن. ويقذيها: يلقي فيها القذى. والجمود: الإمساك. ويقذيها الجود: يخرج عنها القذى. والحامك: بمعنى نظمك الشعر. والشعار: الثوب الذي يلي الجسد. والدثار: ما فوقه. والردن: الكم. ودرديس: من أسماء الداهية. والسنة الشهباء:

(١) التفتيد: الاحتجاج والمناقشة.

(٢) طه، ١٠٢/٢٠.

المجدبة. وتشب: توقد، وغريض: طري. وساغب: جائع. والجريض: الغصص. والأساة: الأطباء. والمطايا: الإبل. والمطا: الظهر. واليفاع: التل المشرف. والحضيض: القرار من الأرض. تأتلي: تترك. والنعاب: فرخ الغراب. والمهيض: الذي كسر بعد جبر. وأتح: وفق. ورحيض: مغسول. وبمذقة: أي بجرعة. وأعشار القلوب: أي قطع القلوب. وحتى ماحها من دينه الامتياح: أي أعطاها من عادته يعطي. وافعوم: امتلاً، وفاغر: مفتوح. فاشرأبت: تطلعت. وسبرها: اختبارها. واستنباط: استخراج. والمرموز: المبهم. والغمار: الزحام. والأغمار: البله. وعاجت: عطفت. وأماطت الجلباب: باعدته، وهو الرداء. ونضت: جردت. وخصاص: جمع خصاصة، وهو الثقب في الباب، وكذلك الصير. وفي الحديث: من نظر إلى قوم من صير باب فقتت عينه. وانسرت: انكشفت. والخفر: الحياء. وسفر: انكشف. وأسفر: أضاء. وأجرى: قصد. واستلقى: رقد على ظهره ورفع رجلاً على رجل. والمغردين: المطربين. والعقيرة: الصوت. وكنه غوري: حقيقة أمري. والخل والخمر: هنا كناية عن الخير والشر. وقدحي: سهمي. وقدحي: استخراجي أمره العجيب. والمريد: العاتي. والمرادة: العتو. وجموا: أي سكتوا. اهـ. تفسير الألفاظ المحتاجة إلى البيان من هذه المقامة.

[ومن صناعات القاضي الفاضل، في حسن الخواتم، قوله]: في حسن خاتمة رسالة كتب بها إلى الديوان العزيز الخلفي، وهو: لا برحت راياته السود سويدات^(١) قلوب العساكر، وأجنحة الدعاء المحلق إلى السماء من أفق المنابر.

ومثله قوله: لا برحت الأقدار له جنوداً، والجديدان^(٢) يسوقان إليه في أيامهما ولياليهما إماء^(٣) وعبيداً.

ومثله قوله: والله تعالى يرده رد السحب الهاظلة إلى الأمكنة الجدوب^(٤)، والمغفرة الشاملة إلى مواقع الذنوب، والمسرة إلى مستقرها من مطالع القلوب.

[ومن ذلك] قوله، في ختام جواب كتاب نصري: ولا زال كالتأ^(٥) للإسلام بسيفه الذي جفنه كجفنه ساهر، ولا أخلى الله منه الدين بقوة منه ولا ناصر.

(١) سويدات: جمع مفردة سويداء وهي مركز العواطف من القلب.

(٢) الجديدان: الليل والنهار سمياً بذلك لتجددهما الدائم.

(٣) الإماء: الخدم من النساء، جمع أمة.

(٤) الجدوب: المقفرة.

(٥) كالتأ: حافظ، حامي.

[ومنه قوله]: والله تعالى يغني عن المكاتبات بلقائه، كما أغنى عن بقية الخلق ببقائه.

[ومن ذلك قول العلامة الشهاب محمود في ختام رسالة]: والله تعالى يجعل الآمال منوطة به وقد فعل، ويجعله كهفاً للأولياء وقد جعل.

[وصرع] ابن الصاحب أمين الدين مرزماً، وهو من أصناف الطير الجليل، ومن طيور الواجب، وسأل الشيخ جمال الدين في إنشاء مطالعة إلى الحضرة الشريفة المقدسة الخليفة، يسأل فيها القبول فيما صرعه من الواجب، فأنشأ الشيخ جمال الدين ابن نباتة رسالة بديعة، في هذا المعنى، وحسن ختامها أبدع [وهو]: والله المسؤول سبحانه أن يمتع المملوك في ولاء المواقف المقدسة باتباع طريقه، وأن ينفعه بالانتماء إذا ألزمته الدنيا طائره في يديه، وألزمته الآخرة طائره في عنقه.

[ومن ذلك]، حسن ختام العهد الذي أنشأه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، عن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، لولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل، [وهو]: والله تعالى يجعل استخلافه هذا للمتقين إماماً، وللمعتدين انفصاماً^(١)، ويطفىء بماء سيوفه نار كل حطب حتى تصبح كما أصبحت نار سميء برداً وسلاماً.

[ومن ذلك]، حسن ختام رسالتي، التي تقدم ذكرها في باب الاقتباس، المشتملة على الكائنة التي قدرها الله تعالى على دمشق المحروسة، من الحريق وغيره، [وهو]: فوصل المملوك إلى البلاد وقد ودّ يومه لو تبدل بالأمس، ولم يسلم له في وقعة الحرب غير الفرس والنفس،! فأعاذ الله مولانا وبلادنا من هذه القيامة القائمة، وبدأه في الدنيا ببراعة الأمن وفي الآخرة بحسن الخاتمة.

[ومن أبدع الأمثلة، التي ليس لها مثال في حسن الختام، قولي في تقليد بالإشارة الشريفة]: والوصايا كثيرة ولكن لا يهدي تمر إلى هجر، فإننا إلى مشورته أحوج من المبتدا إلى الخبر. والله تعالى يديمه ركناً لهذا البيت الشريف، الذي تطوف الناس حوله ويسعى إليه، ولا برح كلامه في المشورة، لفظاً ومعنى، تتم الفائدة به ويحسن السكوت عليه.

[وقلت في خاتمة تقليد بنظر الكسوة]: فليباشر ذلك علماؤنا أنه من تقرب إلى الله بخدمة بيوته فقد فاز، ولا بد أن يصير لديباجة هذا البيت بحسن توشيحته دار الطراز، فقد

(١) الانفصام: التفريق.

أسعده الله وظهر له في توشيح هذا البيت نظم مفيد، ولا ينكر حسن هذا التوشيح للقاضي السعيد، والله تعالى يكرم مثواه في الآخرة بتشديد هذا البيت وقيام شعاره، ولا زالت أنامل بره تتختم بخواتيم الخير وتنقل أحاديث المحاسن بفصها في أخباره.

[ومثله قولي]: في تقيظ كتبه لأقضى القضاة، ولي الدين القرشي، على كتابه المسمى «بعمدة المناسك» [وهو]: والله تعالى يزيد صناعة هذا النسك بهجة على كل ناظم، ويجعله لأعماله الصالحة المقبولة من أحسن الخواتم.

[وتقدم لي بالديار المصرية] بشارة بوضع المقر الأشرف، سيدي موسى ولد المقام الشريف المؤيدي، سقى الله من غيث الرحمة ثراه، من رأس القلم بالحضرة الشريفة جاءت نسيج وحدها، وواسطة عقدها. [منها]: حملت به أمه وأبرزته كشمس الحمل^(١) بهجة ونوراً، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ولكن ملأ الدنيا سروراً.

[وتوجهت]، بعد ذلك التاريخ، إلى ثغر الاسكندرية المحروسة في مهم شريف، فورد على نائب الثغر المحروس بشارة شريفة، بمولد سيدي المقر الأشرف الناصري، محمد ولد المقام الشريف المؤيدي، نور الله ضريحه، فركب نائب السلطنة الشريفة بالثغر المحروس إلى أن جاء عندي، وسألني الجواب، فكتبت تهنئة بديعة وحسن ختامها أبداع منها، [وهو]: أكرم بها صحيفة محمدية أمسى بها كل قلب مأنوساً، وتلت مسرتها من تقدم قبلها من الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى. فالحمد لله على تواتر هذه التهاني التي أتهم بها كل حادٍ وأنجد، وعمت بركتها بإبراهيم وموسى ومحمد، والله تعالى يوصل أحاديث التهاني المؤيدية ليتسلسل كل حديث بمسنده، ولا برحت الخواطر الشريفة مسرورة بمحمد وحديثه ومولده.

[ومن ذلك]، قولي في ختام تقليد قاضي القضاة ولي الدين العوافي بقضاء قضاة الشافعية، بالديار المصرية والممالك الإسلامية، [وهو]: والله تعالى يطلق له أعنة الاقبال، وينيله من نعمه ما لا يخطر قبل وقوعه ببال، ويحلي به جيد الدهر وقد تحلى بعدما ذهب رونقه وزال، وكما أحسن له في البداية، أن يحسن إليه في النهاية، حتى يقول الحمد لله على كل حال.

[ومثله] في الحسن، ختام تقليد قاضي القضاة أبي البقاء علم الدين صالح البلقيني، [وهو]: والله يرفع علم علمه على كل غاد ورائح، ويجعل كلا من عمله وحكمه واسمه الكريم صالحاً في صالح في صالح.

(١) الحمل: منزلة من منازل الشمس أحسن ما تكون فيها نوراً.

[وقد عن لي] أن أختم ما تقدم لي من الأمثلة في حسن الخواتم، بختام كتاب المسك من أقل عبيده، ويود منشور الدر أن يتنظم في سلك عقوده، وذلك أني كتبت للمقر مرحومي الفتحي، فتح الله صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، كان على لسان قاضي القضاة شرف الدين مسعود الشافعي وأعيان طرابلس المحروسة، وقد وصلوا إلى الديار المصرية في البحر قسراً، مما عاينوه من أهوال تلك المحنة المشهورة، التي قدرها الله تعالى على طرابلس المحروسة. وحسن الختام في القصة المذكورة قولي: والقوم يا نظام الملك قد دهمهم من لم يفرق بين التحليل والتحریم، إلى أن صرحوا بالطلاق، ووقعوا في التغابن، وشمتم المنافقون، ومنعوا في الجمعة الصف، ومست فرقتهم الممتحنة في الحشر، ولم يسمع لهم مجادلة، لما فزعوا بالحديد في هذه الواقعة، ولكن من الرحمن، وطلع قمر الأمن، ولاحظهم نجم السعد وصعدوا طور النجاة، وكفكفوا ذاريات الدموع، وطردت عنهم العداة إلى قاف، لما دخلوا حجرات مصر، وحظوا من مولانا السلطان بعد سد المذاهب بالفتح^(١).

[قلت]: هذا الختام جعلته خاتمة للأمثلة المنشورة في هذا الباب. وأما الأمثلة الشعرية، فمن المجيدين فيها أبو نواس، حيث قال في خاتمة قصيدة مدح بها الخصيب:

وإني جدير إذ بلغتك بالمني وأنت بما أملت منك جدير
فإن تولني منك الجميل فأهله وإلا فلإني عاذر وشكور

ومنه قول أبي تمام معتذراً في آخر قصيدة:

فإن يك ذنب عن أو تك هفوة على خطإ مني فعذري على عمد^(١)

ومنه قول أبي الطيب، في ختام قصيدة:

فلا حطت لك الهيجاء سرجاً ولا ذاقت لك الدنيا فراقاً^(٢)

وقال أبو العلاء، من ختام قصيدة:

ولا تزال بك الدنيا ممتعة بالآل والحال والعلياء والعمر^(٣)

(١) عن: ظهر وبان.

(٢) السرج: البردعة توضع على ظهر الحصان ليركب.

(٣) الآل: الأهل.

وقول الأرجاني في ختام قصيدة:

فإنك في هذا الزمان فريد^(١)
وجودك طوق والبرية جيد^(٢)

بقيت ولا أبقى لك الدهر كاشحاً
عُلاك سوار والممالك معصم

وقول ابن نبيه، في ختام قصيدة أشرفية:

تجوز في التخليد حد الزمان
شرقاً وغرباً وعلى الضمان

دمتم بني أيوب في نعمة
والله لا زلتم ملوك الورى

وقال شيخ شيوخ حماة، في ختام مديح مظفري:

تدين لك الدنيا وتصفو لك الأخرى
وما الطول إلا أن يطيل لك العمرا

فلا زلت ذا ملك جديد مؤيد
ولا زال للأيام طول على الورى

وقال ابن سنا الملك، في ختام مديح عادلي:

هذا أبو إلياس أو هذا أبو الخضر^(٣)

بقيت حتى يقول الناس قاطبة

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة، رحمه الله، في ختام مديح مؤيدي:

قاهر الباس ظاهر الأنبياء
أتمنى له امتداد البقاء

فابق عالي المقام داني العطايا
يتمنى عدوك العيش حتى

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي، رحمه الله تعالى، في ختام مديح نبوي:

وسلام في الصبح ثم العشاء
ذكر الملتقى على الصفراء

يا إمام الهدى عليك صلاة
ما صبا في أصائل قلب صب

ومثله قول الشيخ زين الدين عمر بن الوردي، في ختام قصيد نبوي:

ما نار نور من ضريحك في الدجى

صلى عليك الله يا خير الورى

ومثلهما قولي، في ختام مديح نبوي، ولكن مسك هذا الختام أضوع من ختامهما

في المديح النبوي، وهو:

(١) الكاشح: المبغض.

(٢) السوار: ما تتحلى به المرأة في معصمها - والجود: الكرم - والطوق: القلادة تطوق العنق - والجيد: العنق وما يليه من النحر.

(٣) إلياس والخضر: من أنبياء الله سلامه عليهم.

على بابكم يسعى بها وهو مُحْرِمٌ
وقدرك في يوم الشفاعة أعظم
هموم وسيف الهم للظهر يقصم
عسى بك من ذا العارض الصعب يسلم
عليك إذا ما نابها الضيم حُومٌ

عسى وقفة أو قعدة لابن حجة
فقد جاء يشكو من ذنوب تعاظمت
وقد ناله في عنفوان شبابه
وعارضه قد شاب في زمن الصبا
فيا وردنا الصافي طيور قلوبنا

وقلت بعده في حسن الختام:

به يتغالى الطيب والمسك يختم

عليك سلام نشره كلما بدا

وبيت الشيخ صفي الدين في حسن الختام [هو]:

وإن شقيت فذنبى موجب النقم

فإن سعدت فمدحي فيك موجب

وبيت العميان فيه [هو]:

فاجعل العذر والإقرار مختمي

لكن وإن طال مدحي لا أفي أبداً

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي قوله:

في حسن مفتوح منه ومختتم

فاجعل له مخلصاً من قبح زلته

وبيت العميان في حسن الختام أبدع من بيت الشيخ صفي الدين الحلبي في حسن ختامه، وموجب ذلك التورية بتسمية النوع، وتمكين القافية في آخر البيت. وبيت الشيخ عز الدين أبدع من بيت العميان، إذ فيه الترشيح بذكر التخلص والافتتاح والمختتم، وللكن فاته الترتيب، فإنه قدم ذكر التخلص على الافتتاح.

وبيت بديعيتي:

نار الجحيم وهذا حسن مختمي

حسن ابتدائي به أرجو التخلص من

هذا البيت العامر بمدح النبي ﷺ ختامه مسك، لكونه جاء خاتمة لما وصلت إليه القدرة من الأوصاف النبوية، واجتمع فيه: حسن الابتداء موري به، مع حسن التخلص، وحسن الختام على الترتيب. ولو قال الشيخ عز الدين في بيته: بحسن مبتدأ، ساعدته التورية بتسمية النوع الذي هو حسن الابتداء.

(1) العارض: الأولى: بمعنى الشعر الذي على قفى الرأس بين الأذنين. والثانية: بمعنى ما يعرض له من مرض وأحداث.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: هذا المصنف المبارك، أعني البديعية وشرحها، إذا ملكه متأدب شرفت نفسه عن النظر في غيره من تذاكر الآداب، فإني ما تركت نوعاً من أنواع البديع إلا أطلقت عنان القلم في ميادين الطروس، مستطرداً إلى استيعاب ما وقع من جيده ورديته، ونصبت فيه البحث بين المقصرين والمجيدين. بيد أنني أقول وبالله المستعان: إن العميان اختصروا جانباً كبيراً من البديع، وما أجادوا النظم فيما وقع اختيارهم عليه. والشيخ صفي الدين الحلبي أجاد في الغالب، لخلاصه من التورية في تسمية النوع، ولكنه قصر في مواضع نبهت عليها في مظانها. والشيخ عز الدين رحمه الله قصر في غالب بديعته، لالتزامه بتسمية النوع البديعي ومراعاة التورية. والبحث مقرر مع كل منهم في إجادته وتقصيره، عند إيراد بيته على ذلك النوع الوارد.

وقد تقدم الإطناب في تقرير حسن الابتداء وبراعة الاستهلال، وفي الفرق بينهما، وأوردت في حسن التخلص ما وقع من غريبه وبديعه، وما تقرر من البحث مع المقصر في نظمه، وما يتفرق به شمل مجاميع الأدب وينسى تذاكره، وقد انتهت الغاية بحمد الله إلى حسن الختام. وأوردت فيه ما لا خفيت محاسنه على المتأمل، ولا ضمه صدر كتاب، وأنا أسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة، ببركة الممدوح عليه أفضل الصلاة وأتم السلام. وقد فرغت من تأليف هذا الكتاب في شهر ذي الحجة الحرام سنة ست وعشرين وثمانمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.



فهرس الموضوعات

٣	ذكر النواذر
٧	ذكر المبالغة
١١	ذكر الإغراق
١٦	ذكر الغلو
٢١	ذكر ائتلاف المعنى مع المعنى
٢٤	ذكر نفي الشيء بإيجابه
٢٧	ذكر الإيغال
٣١	ذكر التهذيب والتأديب
٣٦	ذكر ما لا يستحيل بالانعكاس
٣٩	ذكر التورية
٢٥٢	ذكر المشاكلة
٢٥٤	ذكر الجمع مع التقسيم
٢٥٦	ذكر الجمع مع التفريق
٢٥٨	ذكر الإشارة
٢٦٠	ذكر التوليد
٢٦٣	ذكر الكناية
٢٦٦	ذكر الجمع
٢٦٨	ذكر السلب والإيجاب
٢٧٠	ذكر التقسيم
٢٧٤	ذكر الإيجاز

٢٧٦	ذكر المشاركة
٢٧٨	ذكر التصريح
٢٨٠	ذكر الاعتراض
٢٨٢	ذكر الرجوع
٢٨٤	ذكر الترتيب
٢٨٦	ذكر الاشتقاق
٢٨٨	ذكر الاتفاق
٢٩١	ذكر الإبداع
٢٩٣	ذكر المماثلة
٢٩٥	ذكر حصر الجزئي وإحاطه بالكلي
٢٩٧	ذكر الفرائد
٢٩٩	ذكر الترشيح
٣٠١	ذكر العنوان
٣٠٣	ذكر التسهيم
٣٠٥	ذكر التطريز
٣٠٧	ذكر التنكيت
٣٠٩	ذكر الإرداف
٣١١	ذكر الإيداع
٣٣٩	ذكر التوهيم
٣٤٢	ذكر الألغاز
٣٦٢	ذكر سلامة الاختراع
٣٧٠	ذكر التفسير
٣٧٣	ذكر حسن الاتباع
٣٨٠	ذكر المواردة
٣٨٣	ذكر الإيضاح
٣٨٥	ذكر التفریع
٣٨٨	ذكر حسن النسق
٣٩٠	ذكر التعديد
٣٩١	ذكر التعليل
٣٩٣	ذكر التعطف

٣٩٤	ذكر الاستتباع
٣٩٦	ذكر الطاعة والعصيان
٣٩٩	ذكر المدح في معرض الذم
٤٠١	ذكر البسط
٤٠٣	ذكر الاتساع
٤٠٥	ذكر جمع المؤنث والمختلف
٤٠٧	ذكر التعريض
٤٠٩	ذكر الترصيع
٤١١	ذكر السجع
٤٣١	ذكر التسميط
٤٣٣	ذكر الالتزام
٤٣٥	ذكر المزوجة
٤٣٧	ذكر التجزئة
٤٣٨	ذكر التجريد
٤٤٠	ذكر المجاز
٤٤٢	ذكر الائتلاف
٤٤٦	ذكر التمكين
٤٤٨	ذكر الحذف
٤٥٣	ذكر التدبيح
٤٥٥	ذكر الاقتباس
٤٧٨	ذكر السهولة
٤٨٢	ذكر حسن البيان
٤٨٤	ذكر الإدماج
٤٨٦	ذكر الاحتراس
٤٨٨	ذكر براءة الطلب
٤٨٩	ذكر العقد
٤٩١	ذكر المساواة
٤٩٣	ذكر حسن الختام